ملحمة

الإمام علي عليه السلام

أو

القصيدة العلوية المباركة

ملحمة

الإمام علي عليه السلام

أو

القصيدة العلوية المباركة

عبد المسيح الأنطاكي

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات :
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلمي - ص.ب : ٧١٢٠ ،
الهاتف : ٨٣٣٤٥٣ - تلفاكس : ٨٣٣٤٤٧ .

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمنِ الرّحِيمِ

تعريف بالملحمة وصاحبها

الناظم :

هو عبد المسيح بك المسيحي الأنطاكي الحلبي ولد في أنطاكية من أبوين مسيحيين ، ونشأ في حلب الشهباء في شارع «قسطل المشط» الذي يكون أكثر سكانه عرب مسلمون ، وتوفق إلى أصدقاء علماء وشعراء وسياسيين من المسلمين فترعرع بينهم ، ورأى منهم حسن المعاملة له ولعائلته بخلاف ما كان يسمع من أفواه عشيرته المسيحيين ضد العرب والمسلمين ، فتربى على أيديهم وعلى رأسهم أستاذه العلامة الكبير المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتابي «أم القرى» و «طبائع الاستبداد» .

هو أول من نادى بالقومية العربية وإنشاء دولة عربية واحدة مستقلة ذات سيادة منفصلة عن الأتراك وعن الشرق والغرب ، واتصل لهذا الغرض بزعماء العالم العربي وكثيرين من شيوخ وأُمراء وسلاطين العرب ، ونال الحظوى منهم بالمراسلة ، وأنشأ لذلك مجلته المعروفة باسم «الشذور» في حلب سنة ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨ فحاربته الحكومة التركية تحت قيادة السلطان عبد الحميد واضطهد من قبل مأجوري السلطان

أشد الاضطهاد بحجة أنه يفرق بين العرب والأتراك وحمل عليه في جرائد المؤيد والعلم والشعب الصادرة سنة ١٩٠١ ـ ١٩١١ م ، وهجر وطنه الأم وانتقل إلى مصر فبقي فيه ، وأنشأ جريدته باسم «الشهباء» ثم حولته باسم جريدة «العمران» .

جال على البلاد العربية لهذا الغرض أي استقلال الدول العربية من السلطنة العثمانية وتأليف «ولايات متحدة» على غرار الولايات المتحدة الأمريكية فزار كل من الجزائر وتونس وليبيا والمغرب وبعض البلاد العربية في الخليج وفي أثناء هذه الجولة نشبت الحرب العالمية الثانية واستعار لهبها في ١٤ أغسطس سنة ١٩١٤ م بقيادة الألمان الهتلرية وخمدت نارها يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ بسقوط النازية الألمانية ونجاح الحلفاء ، فمن نصيب العرب من هذه الحرب العظمى استقلالهم وانفصالهم عن الدولة العثمانية وإلى الأبد .

ومن بعد الحرب العالمية الثانية التي لم تعهد التاريخ مثل ويلاتها وضحاياها التي تسببت إلى فقر شديد وغلاء في الأسعار بالنسبة إلى عامة الناس اضطر الشاعر إلى السفر إلى جهة يؤمن فيها المعيشة له ولعائلته فنزل في الخليج على أمير المحمرة آنذاك الشيخ خزعل خان الذي امتاز بحب آل بيت الرسول الطاهرين فأكرمه وأحسن إليه فصار من محبيه ومن ندمائه وشاعره الخاص ، فصار يمدحه في شتى المناسبات بقصائده الرنانة ، وسهر على تعليم وتأديب أولاد الأمير الستة الشيخ جاسب وعبد الحميد وعبد الله وعبد العزيز وعبد الكريم وعبد المجيد .

ثم بدأ بنظم قصيدته العلوية المباركة هذه التي هي أول ملحمة عربية هائية على الإطلاق وتاريخ شعري لصدر الإسلام فبلغ عدد أبياتها

٥٥٩٥ بيتاً تضمنت الحوادث التاريخية التي حدثت في عهد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) منذ ولادته إلى يوم استشهاده وقد مدح الشيخ خزعل في هذه الملحمة في مناسبات عديدة حذفناها لتكون الملحمة خاصة بالإمام علي (عليه السلام) من غير مدح لسواه . وكان أول بدء نظم هذه القصيدة في أول شهر فبراير سنة ١٩١٧ م وآخره في يوم ٣٠ سبتمبر من سنة ١٩١٨ ، وقضى في نظم هذه القصيدة المباركة وشرحها وتهذيبها والتعليق عليها حوالي سنتين ثم باشر بطبع هذه العلوية في مطبعة رعمسيس بالفجالة بمصر وكان الفراغ من طبعها يوم الاثنين ١٦ رجب من سنة ١٣٣٨ هـ الموافق ٣/ نيسان/ ١٩٢٠ م .

وقد أخذت هذه المؤسسة على عاتقها بنشر هذه الملحمة للمرة الثانية بصورة ممتازة تليق بساحة صاحب هذه الملحمة إنه من وراء القصد .

بيروت في ١/٤/١٩٩١ الموافق ١٦/ رمضان/ ١٤١١ هـ

حسين الأعلمي

بِسْمِ اللّٰهِ الرّحْمنِ الرّحِيمِ

المقــدمة

أَزِيْـنُ مَلْحَـمَتِـيْ ٱلْغَــرَّا وَأُحْـلِيْهَــا بِحَمْـدِ رَبِّيَ فَلْيَحْمَـدْهُ قَــارِيْهَـا[1]

وَبِــآلـصَّــلاٰةِ عَلَىٰ طَــهَ وَحَـيْــدَرَةٍ قَــدْ كُنْتُ بَــادِءَهَــا بِــرّاً وَمُنْهِيْهَــا

وَبَعْــدُ قَــدْ وَفَّقَ ٱللّٰهُ ٱلْعُبَيْــدَ إِلَـىٰ هٰذِيْ ٱلْقَصِيْـدَةِ مَعَ ضَافِي حَوَاشِيْهَا

---

(١) عنيت على نـوع خاص أن أجعـل القصيدة المبـاركة العلويـة تاريخـاً شعريـاً لصدر الإسلام لا يتخلله نثر أبداً ويعرف الشعراء مـا في ذلك من الـوصب ولكنه وصب محبـوب لقلبٍ شغف بثاني الكـاملين وأخي الرسـول الأمين أحد سيـدي الثقلين سيدنـا علي بن أبي طالب أبي الحسنين عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام .

ولقد دعوت هذه القصيدة المباركة باسم « ملحمة » اتباعاً للمغـاربة الـذين أطلقوا هـذه الكلمة على مـا وضعوه نثـراً أو نظمـاً من وقائعهم الحـربيـة وقصصهم التـاريخيـة ونوادرهم الأدبية ويجمل بنا في هذا المقام أن نشيـر إلى هذه المـلاحم العربيـة كتوطئـة لبيان مزية هذه القصيدة المباركة في عالم الشعر فأقول :

لقد خلق الله العرب ذوي سليقة شعرية بطبيعتهم وهي التي جعلت لغتهم على ما هـو معروف من سعـة ألفاظهـا وكثرة كنـاياتهـا تلك الصفة الشـريفـة التي جعلت الشعـر العربي تاريخاً حيّاً للعرب حتى عرفنا من قليل مـا اتصل إلينـا منه شيئـاً كثيراً عن تـاريخ جاهليتهم بينما يرجع النـاس في قدائم تـواريخ الأمم إلى مـا تركـوه من حجارة منقـوشة وأنصاب مدفونة .

=

نَـظَمْتُ سِيْرَةَ مَـوْلاٰنـا أَبِي حَسَنٍ   فِيْهـا عَلَىٰ قَـدْرِ إِدْراكِي خَـوافِيْهـا
فَمـا عَـرَفْتُ لَـهُ فِي آلـدِّيْنِ مَـأْثَـرَةً   إِلَّا وَكُنْتُ مَـعَ آلْإِخْـلاَص ِ رَاوِيْهـا
وَبَـعْضُ آثَـارِهِ مَـا جِئْتُ أَذْكُـرُهُ   وَلَمْ أَزَلْ عـاجِـزاً عَنْ ذِكْـرِ بـاقِيْهـا

= ولقد جال الشعراء العرب بشعرهم في جميع مـا عرض لهم من المعـاني كالنـزل والنسيب والخمريات والـزهريـات والحكم والحماس والفخـر والمدح والهجـاء والرثـاء فأبدعوا ما شاء الإبداع وأبقوا لنا عقـوداً يتحلى بها جيـد الأدب العربي وكـان ذلك منهم في الجاهلية والإسلام إلى يوم الناس هذا .

ولم يفت العـرب الشعر القصصي فـاشتغل بـه شعراؤهم وأُدبـاؤهم إلاّ أنني لم أرَ واحداً منهم تفرّغ إلى قصة معينة أو فصل من تاريخ أو واقعة من الوقائع فنظمهـا قصيدةً واحدةً أو مجموعة قصائد على نحو ما فعل هوميروس اليوناني في إلياذته التي نقلها إلى العـربية شعـراً سليمان أفنـدي البستاني الشهيـر ودانتي التلياني في جحيمـه والفردوسي الفارسي في شاهنامته وكنت سمعت أن كتـاب كليلة ودمنة الشهيـر قد نـظمه شعـراً أحد شعـراء العرب ولكنني لم أتـوفق إلى الاطلاع على نسختـه الشعريـة وكل مـا أمـامي من الشعـر الذي يصـحّ أن يطلق عليـه اسم « الشعر القصصي » هـو قصة عنتـرة وسيرة بني هلال وما كان من هذا النوع من موضـوعات العـرب لما فيـه من الروايـة إلاّ أن واضعي هـذه القصص جعلوها خليـطاً بين النثر والنـظم فنظمـوا فيها قـطعاً من الشعـر القصصي ومزجوها بما نثروا من قصصهم وهكذا بقي الشعر العربي خلواً من قصيدة جامعـة يصحّ أن يطلق عليها بكل المعنى اسم « الشعر القصصي » .

والذين حدثونا عن كتاب كليلة ودمنة الشعـريّ قالـوا : انه كـان مجموعـة قصائـد على بحور وقوافٍ مختلفة فإذا صحت روايتهم فيكون كترجمة الإلياذة إلى الشعر العربي بقلم سليمان أفندي البستاني وقد نظمها أيضاً على أوزان مختلفة وقوافٍ متنوعة .

ولقـد تعرّض بعض الشعـراء إلى نظم بعض العلوم أراجيـز شعريـة كقصيـدة ابن سيناء في الطب وأشباهها كثيـر مما نـظم في الدين والفقـه والنحو ولكن ليس لـلأراجيز المرتبة العليا التي لغيرها من بحور الشعر لما تعلم من كثرة الإباحـة والتوسـع في الوزن وعدم تقيد الشاعر بالقوافي وهي أقرب إلى النثر المسجع من الشعر المنظوم .

ويجوز لنا أن نـطلق على سبيل التـوسع اسم « الشعـر القصصي » على القصائـد=

تُحْصَىٰ ٱلنُّجُـومُ وَلَا تُحْصَىٰ مَنَاقِبُـهُ فَكَيْفَ لَا يُـدْرِكُ ٱلْإِعْيَـاءُ مُحْصِيْهَـا
مَنْ يَـرْجُ أَنْ يَتَـوَلَّىٰ مَـدْحَ حَيْدَرَةٍ بِـغُـرِّ آثَـارِهِ وَصْفـاً وَتَشْبِيْهَـا
رَجَـا ٱلْمُحَـالَ وَأَعْيَـا عَنْ بُلُوغِ أَمَـا نِيْـهِ مِنَ ٱلْمُـرْتَضَىٰ أَوْ مَـا يُـدَانِيْهَـا

= التي نظمت في مدائح المصطفى والمرتضى صلّى الله عليهما وعلى آلهما وسلّم لما تضمنته من بعض مواقعهما أو من طُرَف تاريخيهما إلاّ أننا لم نجد في إحدى هذه القصائد الكثيرة التي تترنم بتلاوتها قصيدةً واحدةً توخى صاحبها نظم السيرة المباركة من أولها إلى آخرها فجمع شواردها وقيد أوابدها وترك قارءَها أن يقف منها على تلك السيرة المباركة بحذافيرها .

وإني وإن كنت أعرف عجزي وأعترف به فقد أقدمت على وضع هذه القصيدة العلوية المباركة على طرازٍ يصحّ لي أن أقول أنّ شعراء العرب لم ينسجوا على منواله ولا أتوا بمثاله فهي نسيجُ وحده جمعت فأوعت سيرة أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب عليه صلوات الله منذ تشرّف هذا الوجود بوجوده إلى يوم امتدت إليه يد الشقي ابن ملجم ـ لعنه الله ـ وما اكتفيت بهذا بل شفعته بمناقبه العالية وحكمه السامية ونوادره الباهرة وآثاره الزاهرة وجاءَت القصيدة على طولها بوزن واحد وقافية واحدة فكانت ملحمةً عربيةً فذّةً في بابها مطربة قلوب قرائها وطلابها .

أمّا لفظة « ملحمة » التي أطلقتها على هذه القصيدة المباركة اتباعاً للمغاربة فمعناها اللغوي « الوقعة العظيمة » ولعلّها مأخوذة من قولهم التحم القوم للقتال أي اشتبك بعضهم ببعضٍ . أو ربما قصد المغاربة باسم « الملحمة » الذي أطلقوه على القصائد التي لا ذكر فيها للقتال أيضاً « الأحكام » من قولهم لحم الأمر أي أحكمه . ومن هذين المعنيين أطلق القوم على المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لقب « نبيّ الملحمة » وقالوا في تفسيره « نبيّ القتال » أو « نبيّ الصلاح وتأليف الناس » . ويصح أن نقول أنّ لفظة « الملحمة » مشتقة من قولهم ألحم فلان الشعر وحاكه أي نظمه وذلك لتشبيههم بيت الشعر ببيت الشعر أو بالثوب المحوك ومن هذا اشتقت لفظة « الملحمات » التي أطلقوها على القصائد المعروفة المشهورة للفرزدق وجرير والأخطل وعبيد الراعي وذو الرمة والكميت والطرماح وأرادوا بها الإشارة إلى أنّ هذه القصائد كانت محكمة النظم متألفة الأجزاء حسنة السبك .

وبعد هذه التوطئة الوجيزة أتقدم من العالم العربي عموماً ومحبي سيدنا أمير =

فَهٰــذِهِ يَـا ذَوِي ٱلْأَلْبَــابِ مَلْحَمَتِيْ أُمْلِيْ عَلَيْكُمُ بِــٱلتَّقْــوَىٰ أَمَــالِيْهٰــا

وَإِنَّهٰــا خَيْــرُ تَــارِيْــخٍ لِنَشْــأَةِ دِيْــــنِ ٱللّٰهِ مَعَ مٰا جَرَىٰ بَيْنَ ٱلْوَرَىٰ فِيْهٰا

وَقَدْ جَهَدْتُ عَلَىٰ عَجْـزِيْ وَنِيَّةُ إِخْــــلَاصٍ لِبَيْتِ رَسُـوْلِ ٱللّٰهِ أَنْـوِيْهٰــا

أَنْ أُدْرِكَــنَّ بِهٰــا رِضْــوٰانَ حَيْــدَرَةٍ وَمَنْ بِــهِ شَغَفُــوا حُبّــاً وَتَــدلِيْهٰــا

وَتِلْكَ بُغْيَــةُ مَمْلُوكِ ٱلْمُـعِـزِّ حَبِيْــــبِ ٱلْمُرْتَضَىٰ مَا سِوٰاهٰا رُحْتُ أَبْغِيْهٰا

= المؤمنين علي بن أبي طالب عليه صلوات الله خصوصاً بقصيدتي العلوية المباركة ذاكراً لها ما لا بدَّ من ذكره فأقول :

إنّ القصيـدة العلوية المبـاركة هي أولى القصـائد التي ظهـرت في الشعر العـربي فكانت نسيجاً وحده لأنّي ما عرفت قصيدة عـربية مثلهـا تناولت تـاريخاً أو قصـة فجاءت عليهـا من أولها إلى آخـرها بقـافية واحـدة ووزن واحد كمـا أنها أطـول قصيدة في لغـة العرب على الإطلاق . وقد قسمتها إلى فصول جعلت لكل فصل عنوانـاً يعين المطالـع على إدراك مراميها واستقراء معانيها وهي تقسم إلى قسمين أولهما تـاريخ أميـر المؤمنين عليه صلوات الله منذ ولادته إلى أن امتدت إليه يد الشقي ابن ملجم لعنه الله فكان سيد الشهداء والقسم الثاني خصصته بمناقب وفضائل وحكم أمير المؤمنين وفيه تـظهر صـورة هذا الإمام النفسية مكرةً بأنوارها الساطعـة وأشعتها الـلامعة على قـدر ما يـدركه عـاجز مثلي . وقـد عنيت عنايـةً خاصـةً بنظم كثيـر من خطب وأقـوال ورسائـل ومـواعظ أميـر المؤمنين عليـه صلوات الله . وفي ذلك جـرأةٌ أدبيةٌ على الكـلام العلوي الذي قيـل فيه بحق أنّـه دون كلام الخـالق وفوق كـلام المخلوق وأرجو أن يغتفـر الأمير جـرأتي « عليه صلوات الله » بما وضح لحضرته الحيدرية القـدسية من حسن نيتي وفـرط محبتي . هذا ولم أكـرر قافيـة في فصل مهمـا كـان طـويـلاً . وتحـاشيت حـوشيّ القـوافي على قـدر جهدي . وبعدت عن الجوازات الشعرية فما استجذت منها غير القلـيل النادر . واتبـاعاً لأهل الغرب دعوتها « ملحمةً » وهو أقـرب الأسماء إليهـا وذيلت هذه القصيـدة المباركـة بحواشٍ كانت تاريخاً صحيحاً لصدر الإسلام ونشرت في هذه الحواشي ما نظمته من كلام أمير المؤمنين تشريفاً له . وبذلت كـل ما في طـوقي لتكون هذه القصيدة المبـاركة حرية بمن نظمت فيه عليه صلوات الله . وانّي لمعترف بأن المدد العلوي الروحاني هـو الذي وفّقني إلى هذا العمل العظيم . وإني لأسأل الله سبحانه أن يقيني العثار والذلل .

عطف أمير المؤمنين
على ناظم هذا العقد الثمين

رؤيا روحية وتجليات سنية

بُشْـرَى فَنَفْسِي قَـدْ نَـالَتْ أَمَـانِيْهَـا ... فَمَـا أَنَـا فَـوْقَ مَـا نَـالَتْ أُمَنّيْهَـا[1]

بُشْـرَى لَهَـا بَلَغَتْ أَسْمَى مَـطَالِبِهَـا ... وَٱلـدَّهْـرُ أَضْحَى بِمَـا تَبْغِي يُؤَاتِيْهَـا

وَأَيُّ مَفْخَـرَةٍ تَـرْجُـوْ وَقَـدْ كَسَبَتْ ... مِنَ ٱلْمَفَـاخِـرِ وَٱلْأَلْـطَافِ عَـالِيْهَـا

---

(١) انصرفت إلى نظم هـذه القصيدة المباركة كلفاً بسيدنـا أمير المؤمنين عليـه صلوات الله خـاليـاً من كـلّ تكلّف ولكي ألمَّ بـالسيـرة وأنف على مـا فيهـا من الشؤون الخطيرة عكفت على التواريخ المختلفة التي وضعت لصدر الإسلام أدرسها درساً لأوفق بين رواياتها المتضاربة وأنقد صحيحها من فاسدها وراجحها من مرجوحهـا فكنت أحيي في هـذا العمل الشـاقّ الليـالي الـطوال وكنت كلمـا تعمّقت في الـدرس وتـوسعت في المطالعة أزداد ولهاً بذلك الرجل الكامل صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام وأفضى بي هذا الوله إلى تمثل شخصه المقدس عليـه صلوات الله في يقظتي ومنـامي على حدّ قول ابن الفارض :

جمـالكـم نـصـب عـيـنـي ... إلـيـه وجـهـت كـلـي

وسـرّكـم فـي ضـمـيـري ... والـقـلـب طـور الـتـجـلّي

وقـد أبى المـرتضى عليـه صلوات الله إلاّ أن يشفق على هـذا العـاشق المفتـون وينعطف نحوه فتفضل على جلال قـدره ونظر إلى أحقـر عبيده بلطفـه المتناهي وأمـدني بـروحـانيتـه القـدسيـة في ليلة الأحـد ١١ جمـادى الثـانيـة سنـة ١٣٣٦ « ١٤ مـارس =

وَأَصْبَحَتْ تَزْدَرِي أَسْنَى ٱلرَّغَائِبِ إِذْ ... بِـٱلنُّجْحِ قَـدْ كَلَّلَ ٱلْبَارِي مَسَاعِيْهَا

وَإِنَّهَـا حُـرَّةٌ فَـٱسْتُعْبِـدَتْ بِسَجَـا ... يَـا ٱلْمُـرْتَضَى فَـرَأَى فَضْـلاً تَـأَمِّيْهَـا

وَقَدْ أَوَتْ ظِلَّهُ رَغْدَاً وَهَا هِيَ فِيْ آلـ ... ـنَّعْمَـاءِ تُثْنِيْ عَلَى إِحْسَانِ مُؤْوِيْهَـا

= سنة ١٩١٨ » فكانت لي تلك الليلة المباركة ليلة القدر وهي خير من ألف شهر توازي كل ما قضيته وأقضيه من ليالي العمر في الصفو والبشر ، نعم في تلك الليلة المباركة عند منتصف الليل بينما كنت كعادتي معتكفاً على مكتبي أشتغل في نظم هذه القصيدة الفريدة غفت عيناي فانكببت على وجهي وإذا بي قد انتقلت من عالم الحسّ إلى عالم المسجدية بين محو وإثبات وتغيير وتبديل وأرى أنّ كل ما تجود به القريحة هو. وفي الحال دخل عليّ رجل لا أعرفه طويل القامة مفتول الساعدين معكوف الشاربين ذو لحية كثة سوداء غير مستطيلة وعلى رأسه عمامة سوداء وعلى كتفيه عباءَة سوداء مثلها وهو شاك سيفه فسلّم وقال : هل أنتِ مملوك عبد المسيح ؟ قلت نعم ؟ قال هيًّ بنا . قلت إلى أين يا سيدي ومن يطلبني ؟ قال سوف تعرف . قلت كيف يا سيدي تأخذني لمكان مجهول ؟ قال أو ما أنت محبّ آل البيت الطاهر ؟ قلت عليهم صلوات الله أجمعين والله المسؤول أن يوفقني إلى حبّهم . قال إذن ممَّ تخاف ؟؟؟ فخجلت من نفسي على ما ظهر من ترددي وجزعي وسرت بين يدي ذلك الرجل الغريب العجيب حتى إذا ما خرجنا من باب الدار وجدت جواداً مسرجاً من أكرم الجياد فتناول صاحبي زمامه وركب وأردفني وراءَه وأخذ الجواد ينهب بنا الأرض نهباً في أسرع من خطرات البرق الخاطف وما زال يعدو بنا فيجتاز البراري والقفار والنجاد والوهاد حتى وصلنا إلى روضة غناء فيها من كل فاكهة زوجان تجري من تحتها الأنهار وأشجاني تغريد البلابل على أفنانها فوددت لو أُتيح لي الإقامة في تلك الروضة الأريضة برهة من الزمن أُسبّح فيها الخلاق العظيم . على أنّ الجواد ما زال في عدوه حتى وصل بنا إلى بناء رحب كثير الزخرف أُقيمت فيه القبب الموشاة بالذهب الوهّاج ومن حولها المآذن كالعرائس فقلت إنّه مسجد عظيم وجامع فخيم وهناك وقف الجواد فنزل صاحبي وأنزلني وقال : هل أنت تعب ؟ قلت كلا . ولكن هلّا أخبرتني على من نحن قادمون ؟؟ قال سوف تعرف فتأدّب فلزمت الصمت واتّبعت خطوات صاحبي الذي دخل بي فناءً واسعاً مفروشاً بالمرمر الناصع البياض في وسطه حوض واسع تتدفق منه المياه تدفقاً وحوله الزهور والرياحين تنعش القلوب والأطيار تتغنى على الأشجار وتنتقل بين الأزهار والأثمار =

وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيْ ٱلْقَدْرِ زَاهِرَةٍ بِنَظْمِ مَدْحِ عَلِيٍّ كُنْتُ أُحْيِيْهَا
كَرَيْتُ فِيْهَا وَعَيْنِي قَبْلُ مَا عَرِفَتْ مَا دُمْتُ أُشْغِلُهَا فِيْهِ تَكَرِّيْهَا
وَبَيْنَمَا كُنْتُ فِيْ سَهْوٍ وَفِيْ سَكَنٍ أَخْلُوْ بِنَفْسِي سَاجِيْ ٱلْعَيْنِ غَافِيْهَا
إِذَا بِقَرْمٍ مَهِيْبٍ جَاءَ يَطْلُبُنِيْ لِصُحْبَةٍ لَمْ أَكُنْ تَاللَّهِ رَاجِيْهَا
فَقَالَ: هَيَّ بِنَا أَسْرِعْ فَقُلْتُ: إِلَى أَيِّ ٱلْمَسَالِكِ تَدْعُونِيْ لِأَطْوِيْهَا
وَمَنْ مِنَ ٱلنَّاسِ يَبْغِيْنِيْ وَكَيْفَ أَنَا أَسِيْرُ فِيْ وِجْهَةٍ تَخْفَى مَمَاشِيْهَا
نَادَى: أَلَسْتَ بِآلِ ٱلْبَيْتِ أَجْمَعِهَا لَقَدْ تَوَلَّهْتَ يَاابْنَ ٱلْوِدِّ تَوْلِيْهَا
أَجَبْتُهُ: بِنَعَمْ وَٱللَّهُ أَسْأَلُهُ ٱلتَّوْفِيْقَ وَٱلْعَوْنَ لِيْ حَتَّى أُرَاضِيْهَا
فَقَالَ مِمَّ إِذَنْ أُلْفِيْكَ مُضْطَرِبًا وَأَيُّ نَازِلَةٍ تَخْشَى دَوَاهِيْهَا
خَجِلْتُ وَٱللَّهِ مِمَّا قَدْ سَمِعْتُ وَمِنْ مَخَاوِفٍ سَاوَرَتْ نَفْسِيْ فَوَاجِيْهَا
وَسِرْتُ أَتْبَعُهُ لِلْبَابِ حَيْثُ عَلَا مَتْنَ ٱلْمُطَهَّمِ هَانِيْ ٱلنَّفْسِ رَاضِيْهَا
وَقَالَ: إِنَّكَ رِدْفِيْ ثُمَّ أَرْدَفَنِيْ وَجَدَّ فِيْ سُبْلِهِ يَطْوِيْ مَوَامِيْهَا
فَمِنْ قِفَارٍ إِلَى رَحْبِ ٱلْعُهُوْدِ إِلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَقَدْ فَاحَتْ شَوَاذِيْهَا
إِلَى قُصُورٍ لَقَدْ دَلَّتْ فَخَامَتُهَا عَلَى فَخَامَةِ بَانِيْهَا وَثَاوِيْهَا
أَسْوَارُهَا تَنْطَحُ ٱلْأَفْلَاكَ شَاهِقَةٌ فِيْهَا ٱلْمَآذِنُ تَسْتَجْلِيْ دَرَارِيْهَا

= فخلتني في جنّات النعيم وبينما أنا مغتبط بما أرى سمعت صوتاً رخيماً له رنّات كرنّات المثالث والمثاني يقول : « بشراك بشراك فإنّ مدحتك السنية لقد قبلت وقد نلت عالي الرضاء فافخر .

فلما سمعت هذه الكلمات الطيبة اغتبطت نفسي وبينما أنا متهلل بهذا الدعاء المستجاب إن شاء الله تعالى فتحت عينيَّ فوجدت نفسي على متكئي وبين يدي تلك القصيدة المباركة فتفاءلت واستبشرت وصلّيت على النبي وآله .

وَفَوْقَهَا قِبَبٌ تَزْهُوْ زَخَارِفُهَا آلْـــحَسْنَاءُ وَٱلذَّهَبُ ٱلْإِبْرِيْزُ غَاشِيْهَا

فَقَالَ لِيْ صَاحِبِيْ: فَٱنْزِلْ بِنَا فَهُنَا «رَبُّ ٱلْأَيَادِيْ ٱلَّتِيْ مَا خَابَ رَاجِيْهَا»

وَقَالَ: هَلْ أَنْتَ مُعْيِي قُلْتُ: لَا أَبَدَاً لَكِنْ عَلَى مَنْ قَدِمْنَا قَالَ لِيْ: إِيْهَا

فَسَوْفَ تَعْرِفُهُ فَٱلْزَمْ بِحَضْرَتِهِ آلآ دَابَ يَا صَاحِبِيْ مَا دُمْتَ لَاقِيْهَا

ثُمَّ دَخَلْنَا فِنَاءً أَرْضُهُ فُرِشَتْ بِمَرْمَرٍ وَهْيَ فِيْ أَسْنَى مَجَالِيْهَا

وَٱلْحَوْضُ فِيْ وَسْطِهَا مِنْهُ ٱلْمِيَاهُ جَرَتْ إِلَى جَنَائِنِهَا ٱلْغَنَّاءِ تَسْقِيْهَا

وَٱلطَّيْرُ تَصْدَحُ مَا فَوْقَ ٱلْغُصُونِ فَيُشْـــجِيْ ٱلسَّمْعَ شُحْرُوْرُهَا ٱلشَّادِيْ وَقُمْرِيْهَا

فَخِلْتُنِيْ فِيْ جِنَانِ ٱلْخُلْدِ مُغْتَبِطاً فِيْهَا فَطُوْبَى لِتَاقٍ فَائِزٍ فِيْهَا

هُنَاكَ قَدْ صَاحَ بِيْ صَوْتٌ وَرَنَّتُهُ كَرَنَّةِ آلآيِ إِذْ تُتْلَى مَثَانِيْهَا

وَقَالَ: بُشْرَاكَ فَٱفْخَرْ إِنَّ مِدْحَتَكَ آلْــغَرَّاءَ مَقْبُوْلَةٌ بِتْنَا مُثِيْبِيْهَا

وَقُلْتُ فِيْ مَوْقِفِيْ وَٱلْبُشْرُ يَمْلَأُ نَفْـــسِيْ وَهْيَ شَاكِرَةٌ شُكْرَاً مُنَاجِيْهَا

مَوْلَايَ مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ ٱلثَّنَاءَ عَلَى جَدْوَاكَ أُذْكِرُهَا ذَا ٱلْيَوْمَ نَاسِيْهَا

بِحُلْيَةٍ مِنْ بَدِيْعِ ٱلنَّظْمِ رَائِعَةٍ جِيْدُ ٱلزَّمَانِ تُحَلِّيْهِ لَآلِيْهَا

وَٱللَّهِ مَلْحَمَةُ ٱلْيُوْنَانِ ضَائِعَةٌ بِهَا وَإِنْ كَانَ هُوْمِيْرُوسُ مُنْشِيْهَا

وَفَضْلُهَا أَنَّهَا فِيْ ٱلْمُرْتَضَى نُظِمَتْ وَمِنْ مَحَامِدِهِ آسْتَوْفَتْ مَبَانِيْهَا

وَمِنْ مَدَائِحِهِ نَالَتْ مَحَامِدَهَا وَمِنْ بَلَاغَتِهِ آسْتَوْحَتْ مَعَانِيْهَا

ذَاعَتْ فَوَاتِحُهَا مِنْ قَبْلُ أَنْ كَمُلَتْ فِيْ ٱلْخَافِقَيْنِ وَغَنَّاهَا مُغَنِّيْهَا

وَسَوْفَ تُصْبِحُ بِٱلْأَفْوَاهِ مُنْشَدَةً بَيْنَ ٱلْأَعَارِبِ فِيْ أَنْأَى بَوَادِيْهَا

وَيَحْمَدُ ٱلْمُنْشِدُوْنَ ٱلْمُطْرَبُونَ بِهَا مَنْ بِٱسْمِهِ جُلِيَتْ جَلْيَاً قَوَافِيْهَا

وَبَيْنَمَا كُنْتُ فِيْ هَذَا ٱنْتَبَهْتُ إِلَى نَفْسِيْ وَبِٱلْمُرْتَضَى ٱلرَّاضِيْ أُهَنِّيْهَا

ثُمَّ آنبَرَيْتُ إِلَى آلْقِرْطَاسِ أَنْظِمُ رُؤْ يَـايَ آلَّتِي كُنْتُ بِـآلتَّـوْفِيْقِ رَائِيْهَـا
رُؤْيَا حَسَدْتُ عَلَيْهَا آلنَّفْسَ وَهْيَ بِهَا فِيْ حُبِّ حَيْـدَرَةٍ تُبْدِيْ تَفَـانِيْهَـا

إلى العتبات الحيدرية

هَيُّـوْا بِنَا لِنَـزُوْرَ آلْمُـرْتَضَى بِتُقَى زِيَـارَةً يَحْمَـدُ آلْمَسْعَى مُـؤَدِّيْهَـا
وَنَنْبَـرِيْ فِيْ مَقَـامَـاتٍ مُشَـرَّفَـةٍ بِـهِ نُحَيِّيْ مَعَ آلْإِجْـلَالِ ثَـاوِيْهَـا
هـذِيْ مَـوَاطِنُـهُ آلْعَلْيَا لَقَـدْ رَحِبَتْ بِقَـاصِـدِيْهَـا آلْأُلَى وَافُـوْا مَغَـانِيْهَا
تَسَـابَقُـوْا فَـطَوَوْا نَـائِيَ آلـدِّيَـارِ إِلَيْـــهَا وَآسْتَحَثُّوْا آلْمَذَاكِيْ فِيْ تَخَطِّيْهَا
لِيَلْثِمُـوْا عَتَبَـاتٍ نَـالَ لَاثِمُـهَـا آمَـالَـهُ وَعَـلِيُّ آلْبَـرُّ مُـوْلِيْـهَـا
وَهْـوَ آلْمُذِلُّ عَلَى آلـرَّحْمٰنِ خَـالِقِـهِ بِـآلصَّـالِحَـاتِ آلَّتِي قَـدْ كَـانَ آتِيْهَا
هَيُّـوْا إِلَيْـهِ لِنَجْلُوْ عِنْـدَ سَـاحَتِـهِ عَنِ آلصُّـدُوْرِ إِذَا ضَـاقَتْ دَوَاعِيْهَـا
وَنَـطْلُبَ آلْمَـدَدَ آلْعَـالِيْ لِأُمَّتِـنَـا بِـهِ تَنَـالُ مِنَ آلـدُّنْيَـا أَمَـانِيْهَـا

على أبواب العلوية المباركة

هنَـا عَيِيتُ فَـلَا عِـلْمِيْ وَلَا أَدَبِـيْ وَلَا آلْقَوَافِيْ آلَّتِي أَخْضَعْتُ عَاصِيْهَا
وَلَا سَمَـاعِيْ كَلَامَ آلْعُـرْبِ أَجْمَعِهَا مَـأْنُـوْسَهَـا بَيْنَ أَقْـوَامِيْ وَحَـوْشِيْهَـا
وَلَا مَغَـارِيْ عَلَىٰ مَـا حَبَّـرَ آلْأُدَبَا مِنَ آلنَّفَـائِسِ فِيْ زَاهِيْ مَعَـانِيْهَـا
بِمُبْلِغِيْ رَغْبَـةً مَـا نَـالَهَـا بَشَـرٌ قَـبْلِيْ وَبِـتُّ بِهَـا نَـفْسِـيْ أُمَنِّيْهَـا
مِنْ أَيْنَ لِيْ لَـوْ بَذَلْتُ آلْعُمْـرَ أَجْمَعَهُ فَضَـائِلُ آلْمُـرْتَضَى آلـزُّهْـرَا أُجَلِّيْهَـا
وَهَـلْ تُصَوِّرُهَـا هذِيْ آلْحُـرُوْفُ وَمَا يُنْبِيْ عَلَيْـهِ مِنَ آلْمَعْنَى تَجَـمِّيْهَـا
يَـا لَيْتَ لِيْ شُهُبُ آلْأَفْلَاكِ أَنْـظِمُهَـا شِعْـراً وَإِنْ عَجِزَتْ عَنْ أَنْ تُحَـاكِيْهَا

لَكُنْتُ آتِي أَمِيـرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ بِـهَـا   مَنْظُوْمَـةً تُـطْرِبُ ٱلـدُّنْيَـا رَهَـاوِيْهَـا

تَـطَاوَلَتْ هِمَّتِي لِلشَّمْسِ أَحْسِبُنِي   أَدْنُــو إِلَـيْهَـا وَأَبْـعِـدُ أَنْ أُدَانِيْـهَـا

أَوْ إِنَّ نَفْسِيْ بِنَيْـلِ ٱلْمُسْتَحِيْلِ تَعَلَّـقَتْ فَمَا ٱلْمُمْكِنُ ٱلْمَعْقُوْلُ يُرْضِيْهَا

فَبِتُّ أَخْشَى بِـأَنْ تَمْنَى بِخَيْبَتِهَـا   مِنْ بَعْـدِ مَا بَـذَلَتْ أَقْصَى مَسَاعِيْهَا

وَلِـلْمَـطَامِـعِ حَـدٌّ مَنْ تَـجَـاوَزَهُ   يَـعُضَّ أَنْمُـلَهُ يَـأْسَـاً فَيُـدْمِـيْـهَـا

وَإِنَّ حَـيْـدَرَةً وَٱلـلَّهِ أَطْـعَـمَـنِـيْ   بِحِلْمِهِ وَهْوَ سَمْحُ ٱلنَّفْسِ سَاخِيْهَا

وَإِنَّنِيْ مِنْ جَـدا سَـامِيْ مَكَـارِمِـهِ   وَمِـنْ مَعُـوْنَتِـهِ إِذْ أُضْتُ لَاقِـيْهَـا

قَـدْ جِئْتُ قَوْمِيَ أَرْوِيْ عَنْ فَضَـائِلِهِ   مَـا لَـوْ تَقَسَّمَ بَيْنَ ٱلنَّـاسِ يُسْمِيْهَا

فَـامْدُدْ أَمِيْـرِيْ عُبَيْداً يَـرْتَجِيْ مَـدَدَاً   لِقَـوْلَةٍ فِيْـكَ بَـاتَ ٱلـدَّهْـرُ مُصْغِيْهَـا

عَـذْرَاءُ مَـا جُلِيَتْ قَبْـلاً عَلَى أَحَـدٍ   مِنْ عَـاشِقِيْهَـا وَظَلَّتْ فِيْ مَخَـابِيْهَـا

وَإِنَّ حُلْيَتَهَـا ٱلْحَسْنَاءَ مِـدْحَتُـكَ ٱلْـغَـرَّاءُ تُبْدِيْ بِهَـا ٱلْإِعْجَابَ وَٱلتِّيْهَـا

وَهَـا هِيَ ٱلْيَوْمَ تَسْعَى سَعْيَهَـا بِـدِيَـا   وَ ٱلْعُرْبِ مُبْـدِيَـةً أَجْلَى تَهَـادِيْهَـا

فَــرَاحَ حَـاسِـدُهَـا وَٱلنَّـارُ تَـأْكُلُهُ   وَعَـادَ عَـاشِقُهَـا بِـٱلْمَدْحِ يُـطْرِيْهَـا

الاستعانة بأمير المؤمنين

أَوْحِ ٱلْبَـلَاغَـةَ فِيْ أَزْهَى مَجَـالِيْهَـا   فَأَنْتَ سَيِّدُهَـا ٱلْأَسْمَى وَمُوْحِيْهَـا[(١)]

أَوْحِ ٱلْبَـلَاغَـةَ لِيْ حَتَّى أَجُـوْلَ بِهَـا   فِيْ وَصْفِ ذَاتِكَ مَعْ سَامِيْ مَعَانِيْهَـا

---

(١) ما اعتاد العرب في جاهليتهم أن يفتتحوا قصائدهم باستمداد معونة جنياتهم اللائي « على زعمهم » كنَّ يوحين إليهم الشعر كما أننا لم نرَ واحداً منهم افتتح قصيدته بالاستعانة بمعبود ممن يعبد سواءٌ الإلّه الواحد الواجب الوجود أو الأصنام التي عبدوها إشراكاً أو لله زلفى بل كان شاعرهم يبدأ بموضوعه على هواه مستعيناً بنفسه على نظامه أو بمن تخيل من صاحب له أو صاحبين كما فعل امرءُ القيس في معلقته المشهورة=

نَعَمْ وَأَطْلِقْ لِسَانِي فِيْ مَحَامِدِكَ ٱلْـــغَـرَّا لِأَنْشُرَ بَـادِيْهَـا وَخَـافِيْهَـا

وَٱصْفَحْ أَبَا حَسَنٍ عَمَّنْ تَجَرَّأَ عَنْ حُبٍّ عَلَى مِدْحَةٍ تَسْمُو مَبَانِيْهَـا

لَوْلَمْ أَكُنْ طَامِعاً فِيْ رَحْبِ صَدْرِكَ مَا حَـاوَلْتُ وَٱللَّهِ أَنْ أُرْوِيْ قَـوَافِيْهَـا

وَدِدْتُ فِيْ نَظْمِهَا لَـوْ أَسْتَعِيْرُ مِنَ ٱلأَ فْـلَاكِ كَيْمَـا أُوَشِّيْهَـا دَرَارِيْـهَـا

أَوْ أَنْ تَهَبْنِي شُعَـاعَاً مِنْ ذَكَـائِكَ فِيْ تَـرْصِيْفِ أَبْيَـاتِهَـا فِيْـهِ أُحَلِّيْـهَـا

وَقَـدْ طَلَبْتُ بِهَا حُسْنَ ٱلـرِّضَاءِ فَـإِن تَرْضَى فَقُـلْ بَلَغَتْ نَفْسِيْ أَمَـانِيْهَا

= فافتتحها بقوله :

قِفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فمن هما صاحباه اللذان دعاهما إلى تلك الوقفة المحزنة ؟ لا ندري إلاّ أن يكونا لسانه وقلبه غير أنّ العرب بعد أن جاءَ الإسلام ودانوا به طفقوا يفتتحون ما يصنفون ويؤلفون بالبسملة اتّباعاً للحديث الشريف القائل : « كل أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر . وفي رواية أقطع وفي رواية أخرى أجزم » ولم يقف مؤلفو المسلمين العرب عند حدّ البسملة بل شفعوها بالحمد لله والصلاة والسلام على النبي وتقف بهذا متفننوهم فجعلوا في حمد الله والصلاة على نبيّه إشارة إلى موضوع الكتاب أو الرسالة . إلاّ أنّ العرب لم يتبعوا هذا في قصائدهم إلاّ ما كان منها من نوع الأراجيز فقط لسهولة النظم فيها .

على أنّ الشعراء الأجانب في جاهليتهم افتتحوا ملاحمهم باستمداد المعونة في نظمها من آلهة الشعر التي تخيلوها وجعلوها هي المنشدة تورعاً وتديناً كذلك رأينا إليادة هوميروس التي نقلها إلى العربية شعراً سليمان أفندي البستاني وكان افتتاحها هكذا :

ربّة الشعر عن أخيل بن فيلا أنشدينا واروي احتداماً وبيلا

وقد حسن لنا هذا الأسلوب في نظم ملحمتنا فبعد أن افتتحنا مقدمة هذه القصيدة بالبسملة والحمدلة والصلاة والسلام على المصطفى والمرتضى وآلهما الخيرين عدنا إلى الاستعانة تورعاً بالحضرة السنية العلوية مستمدين إمدادها وبالفعل لم نخب من المدد والعطف على ما سبق الوصف .

وَهَـلْ يَخِيْبُ فَتىً وَافَـاكَ مُلْتَمِسَـاً عَـوْناً وَأَنْتَ مُغِيْثُ ٱلنَّـاسِ مُلْجِيْهَـا
حَـاشَـا يَخِيْبُ فَتَىً وَافى أَبَـا حَسَنٍ يَـرْجُـو مَعُـوْنَتَـهُ مِثْلِي وَيَبْغِـيْهَـا
فِيْ نَـظْمِ مَلْحَمَـةٍ كُبْـرَى أَرُوْمُ بِهَـا أَنْ تَطْرَبَ ٱلنَّاسُ مِنْ مُشْجِيْ أَغَانِيْهَا
وَٱلْفَخْـرُ لِيْ أَنَّنِيْ قَدْ رُحْتُ أَنْـظُمُهَا فِيْ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ أَرْجُوْ ٱلرِّضَا فِيْهَا
وَحَسْبُهَـا أَنَّهَـا تَحْكِيْ فَضَـائِلَهُ ٱلْـــغَـرَّا وَآثَـارَهُ ٱلـزُّهْـرَا وَتَـرْوِيْهَـا
أَبَـا ٱلْحُسَيْنِ ٱنْعِطَافَـاً لِلْمُحِبِّ وَقَـدْ وَافَى لِسَـاحَتِـكَ ٱلـزَّهْـرَاءِ يُـزْجِيْهَـا

الأمة التي نبغ منها أمير المؤمنين

سِرْ فِيْ ٱلْأَعَارِبِ وَٱنْزِلْ فِيْ مَغَانِيْهَـا وَٱشْهَـدْ مَكَـارِمَ بَـادِيْهَـا وَقَـارِيْهَـا
وَٱشْهَد بِمَا قَـدْ رَأَتْ عَيْنَاكَ إِنَّ شَهَـا دَةَ ٱلْعَيَـانِ تُـلاَقِيْ مَنْ يُـذَكِّـيْهَـا
وَصِفْ فَإِنَّ مَجَالَ ٱلْـوَصْفِ ذَا سِعَةٍ خِـلاَلَهَا ٱلـزُّهْرَ مَـعْ سَامِيْ مَبَـادِيْهَـا
نَعَمْ لَقَدْ جُلْتُ فِيْ أَرْضِ ٱلْجَزِيْرَةِ جَوْ لاَتٍ بِهَا جُسْتُ شَرْقِيْهَا وَغَرْبِيْهَـا
مِنَ ٱلشَّـآمِ إِلَى أَرْضِ ٱلْعِـرَاقِ إِلَى نَجْـدٍ إِلَى يَمَنٍ مَـعْ مَـا يُحَـاذِيْهَـا
وَزُرْتُ تُوْنِسَ مَعْ أَرْضِ ٱلْجَزَائِرِ مَعْ مَـرَاكِشٍ جَـائِسَـاً أَنْئَى بَـوَادِيْهَـا
جُـزْتُ ٱلْجِبَالَ مَـعَ ٱلْوِدْيَـانِ مُنْتَقِـلاً فِيْهَـا إِلَى كُـلِّ مَثْـوَى مِنْ مَثَـاوِيْهَـا
فَمَا وَجَدْتُ سِوَى جُوْدٍ وَحُسْنِ ضِيَـا فَـةٍ وَدَارِ أَمَـانٍ عَـزَّ ثَـاوِيْـهَـا
وَأُمَّـةٍ خَيْـرُ مَـا تُسْمَى بِـهِ عَـرَبٌ إِنْ رَامَ تَمْجِيْـدَهَا يَـوْمَـاً مُسَمِّيْهَـا[1]

---

(١) إنّ العرب اليوم هم سكان الجزيرة وما جاورها من العراق والشام ومصر والسودان وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش « الخ » فوجدت حيث العرب على فطرتهم الأخلاق العربية الفاضلة متمثلة فيهم بأتمّ معانيها على نحو ما نقرأ عن السلف الصالح في الجاهلية وصدر الإسلام وإذا كان قد فقد بعض العرب الذين دانوا للترك =

وَأَنْفُسٍ حُرَّةٍ مَا ٱسْتُعْبِدَتْ وَأَبَتْ أَنْ تَسْتَذِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بَارِيْهَا
وَهِمَّةٍ تُنْشِدُ ٱلْعَلْيَا وَتَطْلُبُهَا مَا ٱلدَّهْرُ يُقْعِدُهَا عَنْهَا وَيُثْنِيْهَا
وَعِيْشَةٍ قَدْ تَوَخَّتْهَا ٱشْتِرَاكِيَةٍ أَجْلَى مَظَاهِرِ أَهْلِيْهَا تَآخِيْهَا
حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بِٱلْيُمْنِ بَاخِرَتِيْ مَرْسَى مُحَمَّرَةٍ أَلْقَتْ مَرَاسِيْهَا[1]
وَصَاحَ بِيْ ٱلسَّعْدُ فَٱنْزِلْ هٰهُنَا لِتَرَى مَوَاطِنَاً سُؤْدَدُ ٱلْأَعْرَابِ يَأْوِيْهَا

= شيئاً من تلك السجايا العالية فبفضل صحبة هؤلاء الذين تغلبوا عليهم فأذلوهم بعد عزّهم وأضاعوا مفاخرهم ودكوا معالم حضارتهم وعلومهم . ومما استلفت نظري أنّ المستعربين منهم لا يعرفون لأنفسهم من فخار إلّا أن يسموا عرباً كذلك ترى أهل الشام وأصل الكثيرين منهم ينتهي إلى الروم والسريان وهم يأبون إلّا أن يكونوا عرباً وكذلك قل عن أهل العراق ومصر وبربر افريقيا وكلهم يفتخرون بعربيتهم ويرفضون أن يرجعهم باحث إلى الفرس أو الكلدان أو الفراعنة أو البرابرة أو القرطجنيين الخ وهذه بركة من بركات الإسلام والقرآن يجب أن نحتفظ بها قبل كل شيء إذا أردنا الاحتفاظ بقوميتنا والعمل على إنمائها وتكثيرها وإعادة مجدها إليها والاطمئنان على سلامة ذاتيتها .

(١) لا يزال النهران العظيمان دجلة والفرات يسعيان متقاربين متباعدين بينهما أرض تسمى الجزيرة وعلى ضفافهما المدن والقرى أشهرها بغداد على دجلة وكربلاء والنجف الأشرف « الكوفة » على الفرات إلى أن يجتمعا في مكان يسمى القرنة على مسافة مئة ميل من خليج العجم فيتألف منها بحر خضم يسمّى « شطّ العرب » فيمرّ بالبصرة وهي أعظم مواني هذا الشط تليها المحمرة وهي عند مصب نهري قارون وبهمنشير في الشط ثم يأخذ الشط بمسيله نحو خليج فارس إلى أن يبلغ الفاو وبعدها يصبّ في مياه الخليج فيختلط الماء العذب بالماء المالح .

والمحمرة هذه هي حاضرة ولاية عربستان الإيرانية وتسكنها عشائر عربية تدين كلها لبيت ساكن الجنان نصرة الملك الحاج جابر خان الذي استقل بحكمها تحت السيادة الإيرانية بفرمان شاهاني من ساكن الجنان ناصر الدين خان شهنشاه دولة علية إيران وهو الوالد الكثير المحامد لعظمة مولانا فخر العرب والعجم معزّ السلطنة سردار أرفع صاحب العظمة الشيخ خزعل خان أمير نوبان وسردار عربستان .

أَجَلْ هُنَاكَ تَجَلَّتْ لِيْ وَجَاهَةُ هَا رُوْنِ ٱلرَّشِيْدِ كَمَا ٱلتَّارِيْخُ يَرْوِيْهَا[1]
فَمِنْ ذَكَاءٍ إِلَى حَزْمٍ إِلَى رَشَدٍ مَوَاهِبُ فَازَ بِٱلْإِجْلَالِ قَانِيْهَا

= وهذه المدينة هي الثانية في مواني شط العرب كما تقدم وهي مركز تجاري عظيم ترسو في مياهها البواخر الكبرى التي تأتيها من أوروبا بطريق السويس فالبحر الأحمر فخليج فارس ومن الهند بطريق هذا الخليج وكذلك ترسو في مياهها وهي عائدة .

(١) إنّ عصر هارون الرشيد هو عصر العرب الذهبي فإنّهم لم يعهدوا زماناً اتسع فيه سلطانهم وعظمت فيه شوكتهم وكثر فيه يسارهم وزهت فيه حضارتهم كزمان الرشيد وقد كان شخص هذا الخليفة ممتازاً بصفات راقية عالية أزادت المجد العربي ظهوراً ولذلك أصبح العربي عندما يذكر مجد أُمته يتجه نظره بادىءَ بدءٍ إلى هارون الرشيد قبل سواه من الخلفاءِ والملوك وهو خامس الخلفاءِ العباسيين أبوه محمد المهدي ثالث الخلفاءِ العباسيين ابن المنصور ثاني خلفائهم وأخي أبي العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله عليه الصلاة والسلام أول الخلفاءِ العباسيين بويع بالخلافة في الكوفة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ « ٣٠ أكتوبر ٧٤٩ م » وكان مروان الملقب بالحمار آخر الخلفاءِ الأمويين حيّاً على أنّ هذا قتل لثلاث بقين من ذي الحجة من السنة المذكورة « ٥ أغسطس سنة ٧٥٠ م » وتمَّ بقتله فناءُ الخلافة الأموية وابتداء تاريخ الخلافة العباسية . أمّا أم الرشيد فهي أم أخيه الهادي رابع الخلفاءِ العباسيين وهما أخوان شقيقان واسمها الخيزران كانت ملكاً للمهدي تسراها أولاً فولدت له الهادي والرشيد فأعتقها وتزوجها بعد مولدهما . وكان مولد الرشيد سنة ١٤٥ هـ وبويع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أخوه الهادي ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ « ١٤ ستمبر سنة٧٨٦ » وعمره ٢٥ سنة وتوفي في ثالث جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ « ٢٤ مارس سنة ٨٠٨ » وكانت مدة خلافته ٢٣ سنة وشهرين و١٨ يوماً وعمره ٤٨ سنة فقط . وقد بلغ من سعة سلطانه بالرغم عن الثورات الداخلية التي ظهرت في بلاده مبلغاً أصبح يقول معه مخاطباً السحاب « امطري حيث شئت يأتيني خراجك » كما كان يقول مفاخراً بالعراق وهي جنّة الدنيا على ما تعلم « لو عرف فرعون العراق لما فاخر ربّه قائلاً أليس لي ملك مصر » ومما يدلّك على أنّ عهد هذا الخليفة هو أزهر أيّام الخلائف الإسلامية أنّ الرواة اتّخذوه دون سواه مقرّاً لمواضيعهم الروائية والفضل الأكبر بتخليد ذكراه الطيبة لقصة ألف ليلة وليلة وهي أعظم الروايات التي =

وَمِنْ سَمَـاحٍ إِلَى حِلْمٍ إِلَى كَـرَمٍ مَنَـاقِبٌ بَلَغَ ٱلْجَـوْزَاءَ حَـاوِيْـهَـا
وَمِنْ فَخَـارٍ إِلَى نُبْـلٍ إِلَـى غُـرَرٍ مِنَ ٱلْفِعَـالِ ٱلتُّقَى وَٱلْبِرُّ يُحْلِيْهَـا
وَٱلْعُرْبُ مِنْ قِدَمٍ أَسْمَى ٱلْوَرَى حَسَبَاً إِذَا رَجَعْنَـا إِلَى تَارِيْـخٍ مَـاضِيْهَـا[1]

= وضعها العرب لم يكتب في لغتنا الشريفة أفضل منها حتى الآن وقد نقلهـا الأفرنـج إلى لغاتهم وأعجبوا بها أيّما إعجاب واتّخذوها عنواناً للحضارة الإسلامية العربية . أقـول وما زال العرب يتحسرون على عهد هارون الرشيد ويتألمون لضياعه ويذكرون مـدينة بغـداد بقسميهـا الـرصـافـة والكـرخ ونهـري العـراق العـظيمين دجلة والفـرات ومـا لازم هـذه المسميـات من أنباء العـزّ والترف والمجـد والفخار والثـروة والعلم والكرم والبذل .

(١) ولع الناس بمعرفة أصولهم وتمادى مؤرخـوهم بالـوهم فأوصلوا أنسـابهم إلى نـوح صاحب الـطوفان ومنـه إلى آدم أبي البشر عليه السلام إلاّ أنّ هـذه الدعـوى التي يدعيهـا جميع الناس لم يقم عليها دليل قاطع يمتنع معه الجـدل ولذلـك لا نكلّف أنفسنا تجشم ما تجشموا ونقل ما وهموا فنملأ القـرطاس بمـا لا يخرج عن حـدّ الحدس في تلخيص تاريخ العرب مقتدين بهذا بالمصطفى عليه الصلاة والسلام القائل : « كذب النسابـون » وهو يعني بهم الذين يرجعون بأصولهم إلى نوح فآدم عليه السلام .

يقـول مؤرخو العـرب : إنّ ٱلأمّة العـربية الكـريمة تقسم إلى أقسـام ثلاثـة هي : عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة وقالوا عن البائـدة هي التي ضاع نبـأها وسمـوا قبائلها فقالوا عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الأولى . وقـالوا عن العـرب العاربـة هم ولـد قحـطان الـذين سكنـوا اليمن وانتقـل بعضهم إلى الحجـاز . وقـالـوا عن العـرب المستعربة هم ولد اسماعيل بن إبراهيم عليه السلام من زوجته هاجر ونحن لا نقرّهم على هذا التقسيم لأنّ العرب البائدة إمّا اضمحلوا تماماً فلا موجب لحسبانهم من أقسام العـرب او تحولوا إلى سواهم ممن يسمونهم بالعرب العاربة فهم موجودون غيـر بائـدين وقالـوا في العرب العاربة قحطان اليمن أنّهم من نسـل قحطان ولكن لم يقـولوا لنـا ابن من قحطان هذا ؟ أفلا يجوز أن يكون عرب قحطان من سلالة العـرب القدمـاء ؟ وقالـوا في العرب المستعربة أنّهم من نسل اسماعيل الذي هبط الحجاز وهو آرامي ابن إبراهيم الخليل وما جاؤونا ببرهان مقنع على أنّ سلالـة اسماعيـل أصبحت وحدهـا في الحجاز وأنّ القبـائل الحجازية التي حلّ بينها وتزوج إحدى بنـاتها قـد انقرضت تمـاماً . وعلى هـذا فإنّنـا لا =

وَيَعْرِبُ ٱلْجِدُّ مِنْ عَلْيَاهُ قَدْ بَدَأَتْ   تَنْمُوْ وَمَا زَالَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ مُنْمِيْهَا

= نخوض في هذا البحث الذي تحوم حوله الشكوك بل نكتفي بما يعيننا على موضوع علويتنا المباركة في ذكر خلاصة تاريخ العرب الذين ظهر فيهم النبي العربي الأمّي وصنوه المرتضى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام .

عندما ظهر المصطفى عليه الصلاة والسلام بدعوته المقدسة في مكة المكرمة كان العرب متفرقين في الأقطار الحجازية منقسمين إلى قبائل تعرف لها أنساباً معينة تقف عندها والمشهور أنّ أغلب القبائل الحجازية تنتمي إلى عدنان فهو أبوها وأنّ أغلب القبائل العربية التي كانت في اليمن والشام والعراق تنتمي إلى قحطان وكل هؤلاء يطلق عليهم اسم « عرب » أخذوه من يعرب بن قحطان وبموجب هذه التسمية يحق لنا أن نجعل يعرب هذا جد العرب الأكبر فيجتمعون حوله وينتمون إليه .

أمّا وقد اكتفينا بهذا الإجمال من تاريخ العرب القدماء فعلينا أن نتتبع العدنانيين سكان الحجاز الذين شرفهم الله بل شرّف هذا الوجود بظهور النبي العربي صلى الله عليه وآله وسلم منهم ونبوغ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فيهم فنقول إنّ « عدنان » وهو الجدّ الأكبر كان له ولد واحد هو « معد » وهذا ولد « نزار » وهذا كان له أربعة أولاد هم « مضر » وأياد وربيعة وأنمار وولد مضر « الياس » وقيس غيلان وولد لالياس « خزيمة » وهزيل وولد لخزيمة « النضر » وملكان وعبد مناة وعمرو وعامر ومالك وولد للنضر « مالك » وهذا ولد « فهر » الذي سمي قريشاً وجميع ذراريه يدعون قريشيون وهذا ولد « غالب » ومحارب والحارث ومن الحارث بنو الحلج ومن مشهور بهم أبو عبيدة بن الجراح وغالب ولد « لؤي » وتميم الأدرم وولد لؤي « كعب » وسعد وخزيمة والحارث وعامر وأسامة وولد لكعب « مرّة » وهصيص وعدي وولد لمرّة « كلاب » وتميم ويقظة ومن تميم بنو تميم ومنهم أبو بكر وطلحة ومن يقظة بنو مخزوم ومنهم خالد بن الوليد . وولد لكلاب « قصي » وزهرة ومن زهرة سعد بن أبي وقاص وآمنة أُم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعبد الرحمن بن عوف وكان قصي أعظم رجالات قريش وهو الذي ارتجع عنوة مفاتيح الكعبة من بني خزاعة مغتصبيها . وولد لقصي « عبد مناف » وعبد الدار وعبد العزى . ومن بني عبد الدار بنو شيبة حجاب الكعبة إلى يوم الناس هذا . ومن عبد العزى سيدتنا خديجة بنت خويلد زوج المصطفى وأمّ سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام . وولد لعبد مناف « هاشم » وعبد شمس والمطّلب ونوفل . فمن عبد شمس أميّة ومنه بنو أمية ومنهم عثمان بن عفان وأبو سفيان ومعاوية . وولد لهاشم « عبد المطلب » وولد لعبد المطلب الزبير و« أبو =

وَفِيْ الْجَـزِيْرَةِ قَـدْ كَانَتْ مَنَـازِلُهَـا آلْكَـــثْرَى وَطَـابَ لَهَـا قَـاسِيْ تَثَـوِّيْهَـا[1]

=طالب » و« عبد الله » وهؤلاء الثلاثة من أم واحدة هي فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية . وحمزة وعباس وأبو لهب وغيرهم فكانوا ثلاثة عشر ولداً وولد عبد الله « سيدنا وسيد الثقلين محمد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم » . وولد أبو طالب « صنو المصطفى سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام » وكانت بزوغ الأنوار المحمدية في العالم الإنساني في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ولأربعين سنة من ملك كسرى أنو شروان . وقال المرحوم محمود باشا الفلكي بعد تحقيق طويل إنّ ذلك اليوم السعيد يوافق العشرين من أفريل سنة ٥٧١ مسيحية .

(١) يطلق العرب على الأرض التي سكنوها اسم « جزيرة » على سبيل التسامح لأنّ الجزيرة في عرف الجغرافيين هي الأرض التي يحيط بها البحر من جميع جهاتها كجزيرة البحرين في خليج فارس وكجزيرتي كريت وقبرص في البحر المتوسط وكذلك يطلق على البلاد العربية اسم « شبه جزيرة » لأنّ الجغرافيين عرفوا « شبه الجزيرة » بالأرض التي يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها وليست بلاد العرب كذلك ولكن على ما يظهر أنّ العرب توسعوا في حدود بلادهم واعتبروا ما يحيط بها من بحار وأنهر كافياً لتسميتها جزيرة على ما حددها ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي في كتابه معجم البلدان المتوفى سنة ٦٢٦ هـ بظاهر مدينة حلب نقلاً عن هشام بن محمد السائب النسابة العربي صاحب كتاب الجمهرة في النسب المتوفى سنة ٣٠٤ هـ قال : « إنّما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في شبه الجزيرة من جزائر البحر وذلك أنّ الفرات أقبل من الروم (والصحيح أنّ منبعه في أرمينيا) فظهر بناحية قنسرين (ولعله يريد مسكنه بجوار مدينة حلب) ثم انحط على أطراف الجزيرة (ويريد بها الأرض الواقعة بين دجلة والفرات وتسمى ما بين النهرين) وسواد العراق حتى وقع بناحية البصرة والابلّة (بلدة على شاطىء النهرين في زاوية الخليج الذي يدخل مدينة البصرة) وامتدّ إلى عبادان (مدينة في الجزيرة المتكونة عند مصب شطّ العرب بالقرب من خليج فارس وهي تنسب إلى عباد بن الحصين وقد نسبوها بالألف والنون على اصطلاح الفرس المجاورين لها نقول والصحيح أنّ الفرات عندما يصل إلى موضع يسمى القرنة قبل البصرة بقليل يجتمع بدجلة ويؤلف النهران نهراً واحداً يدعى شط العرب ويجري إلى البصرة فالمحمرة وهناك تضاف إليه مياه نهري بهمشير وقارون فيتسع بهما الشط كثيراً ويسير إلى عبادان فالفاو وثم يصب في =

مَهَـامِـهُ أَمْحَلَتْ مَحْـلاً وَمَـا خَصَبَتْ إلاَّ بِمَنْ قَـدْ أَقَـامُـوْا فِيْ مَـوَامِيْهَـا

=مياه خليج فارس) وأخذ البحر (خليج فارس) في ذلك الموضع مغرّباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها فأتى منها على سنوان (ماء على قدر مرحلة من باب المربد بالبصرة وهو أول منزلة بجادة البصرة إلى البحرين) وكاظمة (جَوّ على سيف البحر وهي المنزلة الثانية من جادة البصرة إلى البحرين) إلى القطيف وهجر (وكلتاهما من سواحل نجد على خليج فارس) وأسياف البحرين (جزيرة معروفة باسم البحرين على خليج فارس متجهة إلى الساحل العربي منه وبعيدة عن الساحل الفارسي الذي يقابله) وقطر « من مدن البحرين » وعمان « ومنها دبي وهي أمارة مستقلة ويليها مسقط وهي مدينة على رأس خليج فارس عند اتصاله ببحر الهند وتخضع لها اليوم أكثر قبائل عمان) والشحر (وهي مدينة على بحر الهند في ساحل حضرموت) ومال منه عنق إلى حضرموت « ناحية واسعة في شرقي عدن وحولها رمال الأحقاف ومدينتها الكبرى شبام وهي جبال قاحلة » وناحية أبين « مخلاف اليمن بجوار عدن» وانعطف مغرباً منصباً إلى دهلك « جزيرة في البحر الأحمر المعروف بالقلزم » واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن بلاد فرسان « إحدى جزائر اليمن بالقرب من ساحله الجنوبي » وحكم « منازل قبيلة قحطانية تنسب إلى حكم بن سعد بن قضاعة » والأشعريين « منازل قبيلة قحطانية تنسب إلى الأشعر بن أدد بن كهلان بن سبأ ينسب إليها أبو موسى الأشعري » وعكّ « منازل قبيلة قحطانية تنسب إلى عكّ بن عدنان من الأزد » ومضى إلى جدة ساحل مكة « فرضة على ساحل بحر القلزم » والجار ساحل المدينة « فرضة على ساحل بحر القلزم جنوبي ينبع » ثم ساحل الطور « شبه جزيرة في شمال خليج القلزم المعروف بخليج السويس » وخليج أيلة « مدينة على ساحل بحر القلزم وهي آخر حدود الحجاز » وساحل راية « كورة من كور سيناء » حتى بلغ قلزم مصر « خليج السويس » وخالط بلادها وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً البحر حتى دفع في بحر مصر والشام (لعلّه أراد البحيرات التي تمر فيها قناة السويس اليوم) ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمرّ بعسقلان وسواحلها وأتى صور وسواحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق » اهـ .

ولزيادة فهم القارىء اللبيب مجمل هذا التحديد لجزيرة العرب حسب تعريف =

مَـا أَنْبَتَتْ شَجَـراً مَــا أَثْمَـرَتْ ثَمَــراً   لَكِنْ عُقُــوْلاً تَنَـاهَتْ فِيَ تَسَــامِيْهَــا
هِيَ ٱلْجَــزِيْـرَةُ لاَ أَرْضٌ تُحَــاكِيْهَـا   إِنْ كَـانَ مَجْدُ ٱلْأَرَاضِيْ فِيْ أَهَـالِيْهَا

=الأقدمين نقول أنّهم أرادوا بها الأرض التي يمرُّ بهـا الفرات من مسكنـه بجوار حلب إلى مـا بين النهرين فسـواد العراق.فـالقرنـة حيث يجتمع الفـرات بدجلة فيتـألف منهما شط العـرب فالمحمـرة عاصمـة العراق الفـارسي فالفـاو حيث يصب شط العرب في خليـج فـارس ويحيط الخليج بسـاحل نجـد ومنه إلى القـطيف وقـطر والبحـرين فـدبي فعمـان فمسقط وهناك يتصل الخليج الفارسي ببحر الهند الذي يحيط بسواحل حضرموت فعدن حيث يتصل بحر الهند بالبحر الأحمر الـذي يسمونـه بحر القلزم ويحيط بسـواحل اليمن فسـواحل الحجـاز ثم يتصل البحـر الأحمر بخليـج السويس وهنـاك سواحـل سيناء ومن خليج السويس تمتـد قناة السـويس على ضفاف سينـاء إلى البحر المتـوسط عند بـورت سعيد ومنها يحيط البحر المتوسط بساحل برية سيناء فساحل فلسطين فساحل سوريا إلى خليج اسكندرونـة فالجبـل الأقرع حيث السـويديـة مصب نهر العـاصي الذي منبعـه من حمص فيمـرّ هذا النهـر بأنـطاكية فغـور يسمى العمق ومن هنا تنقـطع المياه التي تحيط بالأرض التي يسمونها جزيرة العرب مسافة بضعة أميال في طريقها من حلب إلى مسكنه حيث يبتدىء الفرات بإحاطة البلاد العربية وقـد تممت قناة السـويس جزءاً من الجـزيرة العربية المتصلة بأرض مصر وستتمم القناة الكبرى المزمع افتتاحها في عهـد قريب على ما جاءتنا الأنباء بعد أن انتهت الحرب العـامة الجـزء الباقي من اليـابسة وهـو من العمق إلى مسكنه وحينئذٍ تصبح بلاد العرب جزيرة حقيقية .

نعم فقـد وردت الأنباء بـأنّ في عزم المصلحين الإنكليـز المهتمين بتجديـد مجد العـرب فتح قنـاة كبرى هي أعـظم قناة فكـر البشر بفتحها نبتدىء عنـد السويـدية على ساحل الجبل الأقرع حيث يصب نهر العاصي في البحر المتوسط فيتوسع ذلك النهر إلى ما وراء انطاكية حتى العمق ويفتح لها مجرى عظيم يمرّ بحلب إلى مسكنـه حيث تتصل بنهر الفرات ثم يوسعون الفرات بحيث يصلح لمرور السفن إلى ما بين النهرين فالجزيرة فسواد العراق فالقرنـة حيث يتصل بشط العـرب وسيكون طـول هذه القنـاة ستة وتسعين ميلاً فإذا تمّ هـذا المشروع تصبـح بلاد العـرب جزيـرة حقيقية تستـطيع بـاخرة متـوسطة الحجم أن تدور حولها فتدخل القناة من جـوار الجبل الأقـرع عند السـويديـة وتسير إلى انطاكية فحلب فما بين النهرين فالعراق فالبصرة فالفاو فخليج فارس فبحـر الهند فـالبحر =

هِيَ ٱلْحِجَـازُ وَنَجْـدُ وَٱلتِّهَـامَـةُ وَٱلْـــعَرُوْضُ وَٱلْيَمَنُ ٱلْمَيْمُوْنَ حَامِيْهَا(١)
مَـا أَنْصَفَتْهَا نَـوَامِيْسُ ٱلـطَبِيْعَـةِ ضَنَّـــتْ بِـٱلْمِيَاهِ فَـلاَ تَجْرِيْ لِتَـرْوِيْهَا(٢)

=الأحمر فقناة السويس فالبحر المتوسط حيث تمرّ على سواحل فلسطين وسوريا وتبلغ الجبل الأقرع حيث دخلت . على أن هذا التحديد لبلاد العرب لا يرضي الجغرافيين الذين قالوا يحدها من الشمال الجزيرة أي ما بين النهرين وبلاد الشام وفلسطين وهكذا قد أخرجوا منها سوريا وفلسطين وما بين النهرين بالرغم عن كون العرب قد سكنوا جزءاً من بلاد الجزيرة مهبط السريان وسوريا التي كان أهلها فينيقيون ثمَّ اختلط بهم السريان والعرب والروم من عهد بعيد فضلاً عن أنّ هذه البلاد هي اليوم عربية بكل المعنى .

(١) تقسم بلاد العرب بحسب طبيعتها إلى خمسة أقسام وهي تهامة والحجاز ونجد واليمن والعروض . فتهامة ويقال لها الغور هي البلاد التي على شاطىء بحر القلزم ممتدة عرضاً إلى سلسلة جبل السراة وسموها تهامة لشدة حرّها وركود ريحها من التهم وهو شدّة الحر وركود الريح وسموها غوراً لانخفاض أرضها . والحجاز هو سلسلة جبال السراة الممتدة من أقصى اليمن إلى الشام وسميت حجازاً لأنّها حجزت بين الغور ونجد . ونجد ما دون جبل السراة إلى شرقيه يبتدىء جنوباً من أدنى حدود اليمن وينتهي إلى السماوة من الشرق إلى العروض وأطراف العراق وسمي نجداً لارتفاع أرضه . واليمن ما كان جنوبي نجد إلى ساحل بحر الهند ويمتد إلى حضرموت والشحر وعمان وفيه التهائم والنُجُد . والعروض ينتظم من بلاد اليمامة والبحرين وما والاها وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسايل أودية فيه وسمي عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق .

(٢) إنّ أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء يتخللها كثير من الوديان والصحارى الرملية المترامية الأطراف فما كان من أرضها قريباً من الوديان أخصب وأنبت الكلأ والمرعى فتمكن أهله من الإقامة فيه وما بعد عنها أنفر ولم يصلح للسكنى ولما كانت مياه هذه الأودية لا تسد حاج الجزيرة كان الجدب أغلب عليها خصوصاً أنّ كثيراً من مياهها يفيض في باطن الأرض ولا سيما المرملة فلا ينتفع به على أنّ بلاد اليمن كانت أخصبها كلها خلافاً للحجاز وعلى الخصوص شماليه فإنّ هذه الوديان قليلة فيه وجل اعتماد أهله على العيون الضئيلة التي لا تروي إلاّ الشارب مع الجهد وربما جاد السماء بالمطر فنبت الكلأ ببعض سهوله وكذلك قلّ عن نجد والعروض وتهامة=

وَرِزْقُ سُكَّانِهَا ٱلْأَجْوَادِ مُنْحَصِرٌ بِٱلنُّوْقِ مَا هَمُّهَا إِلَّا مَرَاعِيْهَا
فَتَكْتَسِي مِنْ جَنَى أَصْوَافِهَا وَكَذَا مِنْ لَحْمِهَا تَغْتَذِيْ مَعْ دَرِّ أَثْدِيْهَا
وَقَدْ تَسِيْرُ بِهَا تَطْوِيْ ٱلْقِفَارَ إِلَى ٱلْـ ـعِرَاقِ وَٱلشَّامِ يَبْغِيْ ٱلتَّجْرَ حَادِيْهَا
وَمَعْ خُشُوْنَتِهَا فِيْ عَيْشِهَا لَطُفَتْ أَخْلَاقُهَا وَسَمَتْ سَمْواً مَبَادِيْهَا
تُنْبِيْكَ آدَابُهَا عَنْهَا وَقَدْ بَقِيَتْ مَرْوِيَّةً عُبْرَةً كُبْرَى لِقَارِيْهَا
وَتِلْكَ أَشْعَارُهَا فِيْ جَاهِلِيَّتِهَا تَطْوِيْ حَضَارَتَهَا ٱلْغَرَّا مَطَاوِيْهَا[1]

=وعلى هذا فقلّ ما كان العرب في بواديهم يبقون في مكان واحد وكان دأبهم التنقل من محل لآخر تبعاً لمراعي إبلهم ولما كانت على ما ذكرنا كان جلّ اعتمادهم في معايشهم على أنعامهم يأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويكتسون بوبرها ويحملونها أثقالهم في رحلاتهم الدائمة في تلك الصحارى المقفرة وشذّ عنهم أهل اليمن فاعتمدوا على الزراعة وكان للعرب رحلات تجارية يتبادلون بها أشياءهم مع فارس والروم وغيرهما .

(١) كان العرب في جاهليتهم أُميين لا يقرأون ولا يكتبون وكانوا يعتمدون على ذاكرتهم في حفظ أشعارهم وأنسابهم وتواريخهم ولذلك ما بقي لنا من قديم شعرهم ما نستدلّ منه على مبدأ فرض الشعر عندهم كما أنّ ما لدينا من أشعار جاهليتهم ينتهي إلى القرن الرابع المسيحي أي إلى مئتي سنة قبل البعثة إلاّ أنّ هذا ليس بدليل على أنّ الشعر العربي ابتدأ من ذلك التاريخ بل لا بدّ أن يكون أقدم من ذلك بكثير ومن تمعن في هذه اللغة وصلاحيتها للشعر واقتنع كاقتناعنا بأنّ الغناء من طبائع النفوس بفطرتها ينشطها ويشجعها ويسري عنها همومها وأنّ الشعر في حقيقته ألفاظ مربوطة موزونة تطرب الأسماع بل هو ضرب من ضروب الغناء جزم معنا بأنّ العرب قرضوا الشعر بطبيعتهم منذ نشأت لغاتهم أقول لغاتهم وما من يجهل أنّ هذه اللغة الشريفة كانت مختلفة اللهجات حتى نزل القرآن بأفصحها وهي لهجة قريش ولغتهم فقضت على غيرها من لهجات العرب ولغاتهم بواسطته .

ثمّ ان الشعر العربي مرّ بأدوار تبعت بيئات العرب في بداوتهم وحضارتهم وتأثر بالمؤثرات التي اجتازتها هذه الأمة الكريمة فسما بسموها وانحطّ بانحطاطها إلى يوم =

فِيْهَـا تَرَى ٱلْبَـدَوِيَّ ٱلْجَـاهِلِيَّ يُصَـوِّ ... رُ ٱلْحَضَـارَةَ فِيْ أَسْمَى مَعَـانِـيْهَـا
سَيَّـانِ فِيْ حَـرْبِـهِ أَمْ فِيْ مَفَـاخِـرِهِ ... أَمْ فِيْ ٱلْحِسَـانِ ٱلَّتِي يَبْغِي تَصَبِّيْهَـا

= الناس هذا . ولا يصعب على الباحث معرفة حالة كل دور من أدوار هـذه الأمة من رقي وانحطاط إذا تمعن في دواوين شعراء هاتيك الأدوار وما انطوت عليـه من الأفكار العـالية أو المنحطة .

وكان للشعراء منزلة عند العرب تحاكي منزلة الملوك والأمراء سيـان في الجاهليـة وفي الإسلام لما كان لشعرهم من التأثير على الناس فكانـوا إذا مدحـوا رفعوا من أقـدار الناس وان هجوا حـطوا من أقدارهـا وإن تحمسوا أذكـوا نار الحـرب وإن تغزّلـوا أدخلوا الحب على كل قلب لذلك كانت القبيلة إذا نبـغ فيها شـاعر استبشـرت وأقامت الـولائم وحسبت ذلك سبباً لعزتها وعدةً لدرء العدى عنها إذ كان بيت مديح واحد يرفع من شـأن قبيلة وبيت هجـاء واحد يحط من قـدرها ومـا اكتسب شعراء العـرب هذه السـطوة وذاك النفوذ العظيم إلاّ بفضل ذكاء العـرب وسرعـة حفـظهم فكـانوا يتلقفـون أشعار الشعـراء ويتداولونها فيما بينهم ويحدون بها إبلهم ويتناشدونها في سمرهم فتذيع بسرعة البرق .

ونستطيع أنْ نقول إنّ هذا النفوذ العظيم الذي كان لشعراء العرب قد يحاكي نفـوذ الصحافيين في زماننا الحاضر من حيث التأثير على نفوس الناس وأميالهم وعقولهم وهذا أقرب تشبيه للشعراء الأقدمين بنفوذ الصحافيين العصريين .

وكـان الملوك والأمراء العـرب من أقدم أزمنـة التاريـخ يستـدنـون الشعـراء إليهم بهباتهم ويقدمونهم في مجالسهم لا لاتّقاء شرّهم فقط بل في رغبة نشر نفوذهم بواسطتهم وحباً بتخليد ذكـرهم للعصور الآتيـة . وعندمـا ظهر الإسـلام أقرَّ المصـطفى ﷺ عادة استـدناء الشعـراء واجازتهم وارتضى مـدائحهم وأشهر الـذين اتصلوا بحضرتـه القدسيـة حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بـن مالك وغيرهم فكانـوا بشعرهم يمـدحونـه وينشرون دعوته ويناضلون عنه ويهجون كفّار قريش أعداءَه . واقتدى بسنته النبوية خلفاء المسلمين وملوكهم وأمراؤهم إلى هذا اليوم .

ولعمـري إنّ أكبر الملوك حـظاً وأوفـرهم مجـداً من تـوفق إلى فـطاحـل الشعـراء =

وَإِنَّمَـا ٱلشِّعْرُ تَـارِيْخُ ٱلْأَعَـارِبِ قَـدْ   أَبْقَى لَهَـا أَبَـدَاً ذِكْـرَى مَعَـالِيْهَـا[1]

= فمدحوهم وقد زالوا واندثرت ممالكهم ولكن ذكرهم ظلّ خالداً بما قيل فيهم من شعر خالد وهو فضل للشعراء لا يوازيه ما نالوه من كثير العطاء وهذا سيف الدولة علي الحمداني أمير حلب وقد بقي له في دواوين العرب من الذكر العاطر المخلد بفضل قصائد أبي الطيّب المتنبي وأبي فراس الحمداني وغيرهما فوق ما كان له من ملك وسلطان ؛ وان من يقرأ مدائحه في دواوين هؤلاء الشعراء يتصوره أعظم ملوك الأرض في طولها والعرض مع أنّ مملكته لم تكن أكثر من مدينة حلب وما جاورها من القرى وان دولته لم تدم أكثر من أعوام معدودات كان هو ربّها وقد دالت بعد أن توفاه الله كما دالت دول أمثاله من أصحاب الجاه ولكن ذكره قد بقي إلى الآن وسيبقى إلى آخر الزمان بفضل ما قيل فيه من القوافي الحسان .

ولم يزل للشعراء عند العرب المنزلة الرفيعة ولا يزالون يعيشون من شعرهم كما يعيش كل ذي صناعة من صناعته وهي مزية لهم على كل شعراء الأمم كما أنّ من أشهر مميزات العرب دون غيرهم الجود والكرم .

(١) أقول ولم تقف فائدة الشعر العربي على ما تقدم من تخليد أسماء أفراد من الملوك بل تعدتهم إلى تخليد تاريخ الأمة العربية الكريمة في جاهليتها فإنّ العرب دون سواهم عرف الناس من تاريخ جاهليتهم ما عرفوا بفضل ما بقي من أشعار الجاهلية خلافاً للأمم الأخرى التي ما استطاعت تخليد بعض أخبارها إلاّ بما أقامته من الآثار الحجرية أمّا الأمم التي ما توفقت إلى إقامة هاتيك الأحجار فقد ضاعت أخبارها عن الناس تماماً وهذا الفضل وحده يكفي للدلالة على الذكاء العربي . والباحث المدقق لا يقف فقط من أشعار الجاهلية على مجمل تاريخها بل وعلى أخلاقها وحضارتها وعوائدها بحيث يستطيع أن يستخرج منها صورة قريبة من الكمال يعرف الناس منها أنّ العرب كانوا منذ بداوتهم وجاهليتهم على أفضل الأخلاق وأشهرها الكرم ، والوفاء ، وخفر الذمام ، وصيانة حقوق الجوار والتضامن في المعيشة ، والعطف على المستضعفين ، والإقدام على المصائب ، والحلم ، والشمم ، والعفاف الخ .

ومما يستلفت الأنظار من أخلاق العرب احترامهم للمرأة من أقدم زمانهم وأنت

مِنْـــهُ عَـرَفْنــا مَغَــازِيْهَــا وَهِمَّتَهَــا وَكُــلَّ سَـامٍ عَـظِيْمٍ مِنْ مَـآتِيْهَــا

=تعلم أنّ الأوروبيين في عصرنا الحاضر يفتخرون بأنّ من آثار تمدنهم تقديم الاحترام للمرأة ومساواتها بالرجل فما قولك إذا قلنا أنّ العرب كانوا على هذا الخلق من جاهليتهم فهم سباقون فيه سبقهم في الشورى والاشتراكية ؟ ألا ترى الشاعر العربي يصدر قصيدته بالغزل فيفرغ قوى قريحته في وصف المرأة ومغازلتها بينما هو يمتدح ملكاً عظيماً أو مثرياً كريماً ولا يجد من ممدوحه إلاّ الاستحسان والتصفيق برهاناً على اشتراك الناس جميعاً باحترام هذا المخلوق العجيب الذي يتوقف عليه بقاء النسل وإليه يوكل في تربيته الأولى والذي وصفه أديب اسحاق فأحسن الوصف بقوله :

هي شيطان إذا أفسدتها وإذا أصلحتها فهي ملك

وما انتصر الشاعر العربي على وصف محاسن النساء والتذلل بإظهار حبّه لهن وإبداء ما يكنّه صدره من تمني قربهنّ ومن التألم لبعدهن بل تعدى هذا كله إلى ما هو أبعد غاية في الاحترام فكان إذا أراد الافتخار بشجاعته وكرمه وهما أشرف خصال العرب اتجه ببصره إلى المرأة فطفق يخاطبها بهما في مثل قول عنترة العبسي :

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ مني وبعض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنّها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

أو مثل قول الآخر وهو يعتذر لصاحبته وقد لامته على الكرم :

ألم تعلمي يا عمرك الله أنني كريم على أنّ الكرام قليل

وازداد العربي تلطفاً بزوجته حتى أنّه إذا أراد استنهاضها إلى عمل ولو فيه الخير بالغ بالتلطف بها والتأدب بمخاطبتها بما لم يبلغ أعظم منه الإفرنجي في هذا العهد في مثل قول الشاعر :

يا ربة البيت قومي غير صاغرةٍ ضمي إليك رحال القوم والقربا

وأمثال هذا كثير مما طويت عليه أشعارهم ويعرفها كل متأدب لبيب .

كَـانَتْ لَهُ دَوْلَـةٌ فِيْ ٱلْعُرْبِ طَـائِعُهَا قَـدْ ٱسْتَعَـزَّ بِهَـا إِذْ ذَلَّ عَـاصِيْهَـا
وَرُبَّ بَيْتٍ بِـهِ تُهْجَى ٱلْقَبِـيْلَةَ يُـوْ لِيْهَا ٱلْمَـذَلَّـةَ وَٱلْاهْـوَانَ هَـاجِيْهَـا
وَرُبَّ بَـيْتِ مَـدِيْـحٍ لِلْقَبِـيْلَةِ يُـوْ لِيْهَـا مَدَى ٱلـدَّهْرِ تَعْـزِيْزاً وَتَـوْجِيْهَا
وَكَـانَ أَعْـظَمُ نُـعْمَـى لِلْقَبِـيْـلَةِ أَنْ تَلْقَى لَهَـا نَابِغَـاً فِيْ ٱلشِّعْرِ يَحْمِيْهَـا
أَمَّـا شَمَـائِلُهَـا ٱلْغَـرَّا ٱلَّتِيْ بَلَغَتْ بِهَـا ٱلْفَخَـارَ فَلَيْسَ ٱلْعَـدُّ يُحْصِيْهَـا
فَمِنْ مَكَـارِمِ أَخْـلَاقٍ إِلَى كَـرَمٍ إِلَى نُفُـوْسٍ تَنَـاهَتْ فِيْ تَعَـالِيْهَـا
إِنْ عَاهَدَتْ حَفِظَتْ رَغْمَ ٱلزَّمَانِ عُهُوْ دَ ٱلْأَصْـدِقَـاءِ وَبِـٱلْأَرْوَاحِ تَفْـدِيْهَـا
أَوْ إِنْ أَتَتْهَـا ٱلْعَوَافِيْ فِيْ حَـوَائِجِهَـا نَـالَتْ كَمَـا تَشْتَهِيْ شَتَّى أَمَـانِيْهَـا
وَضَيْفُهَـا لَمْ يَهَبْ غَدْرَ ٱلـزَّمَـانِ بِـهِ حَتَّى وَلَـوْ كَانَ مِنْ أَعْـدَى أَعَـادِيْهَـا
وَجَـارُهَـا بَـاتَ مَغْبُـوْطَـاً بِجِيْـرَتِهَـا فَـلَا يَهَـابُ مِنَ ٱلـدُّنْيَـا عَـوَادِيْهَـا
وَعَنْ شَجَـاعَتِهَـاحَـدِّثْ وَلَا حَـرَجُ إِنَّ ٱلْأُسُـوْدَ لَتَخْشَـاهَـا وَتَتَقِيْـهَـا
وَحَسْبُهَـا إِنَّهَـا لِلْغَيْـرِ مَـا خَضَعَتْ وَطَـالَمَا أَخْضَعَتْ قَهْـرَاً مُنَـاوِيْهَـا[1]
وَكَمْ لَهَـا حَنَتِ ٱلنَّاسُ ٱلـرِّقَابَ وَمَـا رِقَـابُهَـا قَطُّ لِـلْأَغْيَـارِ تَـحْنِيْهَـا

(١) من مفاخر العرب أنّهم في كل تاريخهم لم يخضعوا لحكم أجنبي عنهم خضوعاً صحيحاً فقد دان بعضهم في عهد الجاهلية لأكاسرة الفرس في العراق والبعض لقياصرة الروم في الشام ولكنهم كانوا وهم تحت السيادة الفرسية أو الرومية مستقلين في داخليتهم ملوكاً على قبائلهم . أمّا بعد الإسلام فإنّ دولتهم ظلت عربية وإن اشترك فيها الفرس والأتراك والمغول اشتراكاً فعلياً حتى كانوا في بعض الأزمنة متغلبين على الخلفاء العرب الذين كانوا يحكمونهم فعلاً على أنّ العرب ما ارتضوا بتسلط هؤلاء الغرباء إلّا لاعتقادهم بأنّ حاكمهم الشرعي هو الخليفة العربي . أمّا أهل البادية ورجال القبائل فإنّهم ما كانوا يعرفون الطاعة إلّا لرؤسائهم وأمرائهم وشيوخهم . وعندما تغلب الأتراك =

سَادَتْ وَصَالَتْ وَأَبْقَتْ مِنْ مَفَاخِرِهَا   أَوَابِداً لَيْسَ كَرُّ ٱلدَّهْرِ مَاحِيْهَا
كَانَتْ لَعَمْرُكَ تَأْبَى أَنْ تَعِيْشَ عَلَى   هَوْنٍ وَأَنْ تَتَصَافَى مَعْ مُهِيْنِيْهَا
يَثُوْرُ ثَائِرُهَا إِنْ نَالَ وَاحِدَهَا   سُوْءٌ وَكَانَ ٱلَّذِي يُؤْذِيْهِ يُؤْذِيْهَا(١)

= العثمانيون على الخلافة العربية وقضوا نهائياً عليها فمع أنّهم ادّعوا الخلافة لأنفسهم ظلَّ العرب في باديتهم على استقلالهم الداخلي وطالما حاربوا العثمانيين وأتعبوهم . ويصح لي أن أقول أنّ أهل المدن أنفسهم من العرب ما كانوا خاضعين للسلطنة التركية خضوعاً صحيحاً وطالما انتقضوا عليهم وحاربوهم . وهكذا بقي العرب على أنفتهم وإبائهم الخضوع للأتراك بالرغم عن كل ما بذل هؤلاء لإخضاعهم إلى أن دالت دولتهم في هذا العهد .

(١) إنّ التضامن عند العرب مألوف ومعروف ومشهور بحيث لا ينكب فرد من قبيلة بمظلمة إلّا وتهب القبيلة بجملتها للانتصار له من ظالمه ورد مظلمته . ولم يقتصر هذا التضامن على أفراد القبيلة الواحدة بل تعداه إلى الإنتصار للجوار أيضاً الذي هو من عاداتهم المحمودة يدلك على ذلك حلف الفضول الذي عقد على أثر حرب الفجار حيث اجتمع بنو هاشم وبنو المطلب وبنو الأسد بن عبد العزّى وبنو زهرة وبنو كلاب وبنو تميم بن مرّة في دار عبد الله بن جدعان وحضر هذا الحلف رسول الله ﷺ وهو في الرابعة عشرة من ربيع عمره وتحالفوا على أن يردّوا الفضول على أهلها ولا يُقرّ ظالمٌ على مظلوم ما بلَّ بحرٌ صوفة (أي إلى الأبد) وكان يقول رسول الله ﷺ « ما أحب أنّ لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم وإنّي أغدر به ولو دعي به في الإسلام لأجبته » أي أنّ رسول الله ﷺ لو نودي بعد البعثة عن مظلوم بيا آل حلف الفضول للبّاه ونصره لأنّ الإسلام إنّما جاء بإقامة الحق ونصرة المظلوم .

وأمّا كلمة فضول التي سمّي بها هذا الحلف فقد اختلف في تفسيرها العلماء فقال بعضهم أنّهم أرادوا بها أن قريشاً دخلوا في فضول من الأمر لا يعنيهم . وقال غيرهم بل إنّ الفضول مال الظلم يردونه على أهله . وقال آخرون بل أنّ قريشاً على أثر هذا الحلف أخرجوا فضول أموالهم للأضياف . وعندي أنّ الأول هو الأرجح وهو المقصود .
=

فَـإِنْ يَصِحْ وَانَصِيْـرَاهُ رَأَى أُسُـدَاً | سَلَّتْ لِقَهْـرِ أَعَـادِيْـهِ مَـوَاضِيْهَـا
تَضَـامُنٌ بَـيْنَ أَفْـرَادِ آلْـقَبِيْـلَةِ لَا | يُبْقِي عَلَى آلضَّيْمِ فَرْدَاً مِنْ مَوَالِيْهَـا
وَمُنْـذُ نَشْـأَتِهَـا آمْتَـازَتْ مَعِيْشَتُهَـا | عَنِ آلْبَـرِيَّـةِ وَحْشِيْهَـا وَحْضَـرِيْهَـا
بِـآلْإِشْتِـرَاكِيَّـةِ آلْكُبْـرَى فَـلَا رُتَبٌ | تُثْنِي ذَوِيْ آلْجَاهِ مِنْهَا عَنْ أَدَانِيْهَا[1]

= أمّا السبب الذي دعا قريشاً لهذا الحلف فهو أنّ رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل وكان من زعماء قريش وحبس عنه ثمنها فاستغاث الزبيدي ببعض زعماء قريش فسفهوه وانتهروه فسار الزبيدي إلى جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة وصاح بأعلى صوته :

يـا آل فهـرٍ لمـظلومٌ بـضـاعتـه | ببـطن مكة نـائي الـدار والقفـر
ومحـرمٌ أشعثٌ لم يقض عمرتـه | يـا للرجـال وبين الحجـر والحجر
إنَّ الحـرام لمـن تمّت مكـارمـه | ولا حـرامٌ لثوب التـاجر الغـدر

فاهتزت قريش لهذه الأبيات وأسرع الزبير عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو الناس إلى عقد حلف ينصرون به المظلوم على ظالمه فتمَّ لهم ذلك الحلف الذي هو أشرف حلف عقدته العرب لما ترتب عليه من الانتصار للمظلوم والضرب على يد الظالم .

أقول وأنَّ قوماً يعقدون مثل هذا الحلف لأنّ واحداً من وجهائهم حبس حقَّ تاجر « غريب » وهم في جاهلية لا يعرفون فيها الحرام من الحلال ولا شريعة لهم تأمرهم بالمعروف وتنهيهم عن المنكر لخليقٌ أن تحترم ضمائرهم الطاهرة ونفوسهم العالية وأخلاقهم الراقية .

(١) إنّ الاشتراكية أصل من أصول الديانات الإلٓهية الموسوية والعيسوية والمحمدية إذا أريد بها مشاركة الغني الفقير بيساره وثروته على ما فيها من الأوامر بالزكاة والصدقة كما أنّها أصل من أصول العمران والاجتماع فإنّ الأغنياء إذا قبضوا أكفهم عن الفقراء ثار هؤلاء عليهم وقوضوا معالم الحضارة على رؤوسهم ونادوا بالشقاءِ العام وهذا بديهي وقد وجد مع الإنسان منذ عهده بالحضارة على اختلاف فيه حسب اختلاف البيئات وتفاوت الناس في الغنى والترف والمدارك .

على أنّ الاشتراكية التي أردتها في المتن غير هذه بل أعظم منها عرفت عن العرب=

وَلَا ضَخَامَةُ أَلْقَابٍ تُمَيِّزُ مَا   بَيْنَ ٱلْأَعَارِبِ عُلْوِيْهَا وَسُفْلِيْهَا

= في الجاهلية والإسلام ولم تعرف عن سواهم من الأمم .

ومن المعلوم أنّ الأمم تنشأ على الاشتراكية في بداوتها أو في بدءِ حضارتها يوم يكون الناس فيها متشاكلين بأقدارهم وثرواتهم ثمّ بأخذ التفاوت يظهر ويتسع فيما بينهم بتفاوت أقدار بعضهم عن بعض إمّا بالشجاعة وكانت هي أساس المجد عند الأقدمين الذين ما كانوا يعرفون حقّاً لغير القوة أو بالثروة واليسار أو بالعقل والعلم وكل ما لدينا من تواريخ الأمم القديمة كالهنود والفرس والصينيين والبابليين والمصريين يشير إلى أنّ الناس كانوا طبقات بعضهم فوق البعض فهناك الخاصة وهم الملوك فرؤساء الدين « وكان العلم منحصراً فيهم » فأمراء الجيوش فالحكّام فأصحاب الأملاك والأراضي فالعامة وهم عبارة عن أهل التجارة والصناعة والزراعة ورعاية الماشية فالعبيد ولم يكن للعامة حقّ الاختلاط بالخاصة كما لم تكن لهم حقوق شخصية تعرفها الخاصة فضلاً عن أنّ تقدسها ومع أنّ أخلاق الناس تلطفت بعد النصرانية بفضل اشتراكية الإنجيل مع ذلك ظلّت الناس طبقات بعضها فوق البعض وباطل الخاصة حق وحق العامة باطل ولا يختلط هؤلاء بهؤلاء لا في مجالسهم ولا في اجتماعاتهم إلى عهد قريب .

وأول من كسر قيود هذا التقليد على ما نعلم هم الفرنسويون بثورتهم المشهورة سنة ١٧٨٩ فإنّهم ما اكتفوا أن ثاروا على ملوكهم وأسقطوهم من عالي عروشهم بل ثاروا على خاصتهم فأوقعوا بهم ومثلوا بهم أبشع تمثيل ومن هذا العهد نودي بالاشتراكية المعتدلة أو كما يسمونها بالإفرنجية « الديموقراطية » وقالوا بمساواة الناس بالشرف والحقوق وإبطال المراتب الموهوبة بينهم وهكذا دكدكوا الحواجز التي كانت تفصل العامة عن الخاصة ودهوروها دهورة . وانتقلت هذه الروح الديموقراطية بالتدريج إلى بقية الممالك الأوربية والأمريكية فتوسعت بعض الشعوب فيها توسعاً محموداً ولا سيما في الولايات المتحدة التي قامت جمهوريتها على عدم التمييز بين الناس على الاطلاق ولم يبق في عهد الناس هذا أمّة متمسكة بتقاليد القدماء هذه إلاّ الأمّة الروسية التي كان الناس فيها طبقات بعضها خاصة والبعض عامة إلى يوم سقوط آل رومانوف قياصرتهم في أثناءِ هذه الحرب العامة « سنة ١٩١٧ » حيث جنت العامة الروسية جنونها المطبق ونادت بالفوضى بأبعد معانيها وهي التي أطلق عليها إسم « بلشفية » وما هذا الجنون إلاّ نتيجة لازمة لجنون القياصرة وأعوانهم من الخاصة باستبدادهم بالعامة إذ =

وَلَيْسَ تَأْنَفُ أَرْبَابُ آلْوَجَاهَةِ مِنْـــهَا أَنْ يَضُمَّ سَوَادَ آلْقَوْمِ نَادِيْهَا
وَإِنَّ أَحْكَامَهَا شُوْرَى يُصِيْخُ لَهَا شُيُوْخُهَا إِذْ تُنَادِيْ مُسْتَشَارِيْهَا
شُوْرَى إِلَيْهَا آنْتَهَتْ مِنْ جَاهِلِيَّتِهَا تَآللَّهِ قَدْ تَخِذَتْهَا عَنْ قُرَيْشِيْهَا[1]

= كانوا يسومونهم من الظلم والذلّ الشيء الكثير والإفراط كالتفريط في كلّ شيء .

أمّا العرب فمن أقدم تاريخهم في جاهليتهم لم يعرفوا هذا التفاوت ولم يكن عندهم حاجز بين الخاصة والعامة على ما نقرأ من أشعارهم وتواريخ قدمائهم في اليمن والحجاز والعراق والشام ولو أردنا الاستشهاد على هذا لضاق بنا المجال وما أفدنا القارىء اللبيب شيئاً جديداً لأنّه معروف عند الجميع ومألوف . وعندما ظهر الإسلام أيّد القرآن الشريف هذه الاشتراكية الصحيحة التي ألفها العرب فآخى بين المؤمنين وجعل المصطفى الأفضلية بين المسلمين لمن فضل إخوانه بالتقوى وهي في استطاعة كل مؤمن يريد أن يكون صالحاً. ومن يطالع تاريخ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يجد هذا النبي الذي قام بنشر الدعوة كان القدوة الصالحة لمن خلفه من الخلفاء والملوك باشتراكيته ودعته وتواضعه إذ كان يجالس عامة الناس ويواكلهم ويباسطهم ويبش لهم كلما دعوه باسمه الشريف « يا محمد » .

وبعد أن انبسط ملك العرب وامتدّ سلطانهم على الشام ومصر والبربر والعراق وفارس والأندلس وأصبحت كلمتهم في العالم هي العليا لم يغرّهم سعة الملك كما غرَّ غيرهم فظلّوا على ديموقراطيتهم لا يأنف خلفاؤهم وملوكهم وأمراؤهم وقضاتهم وعلماؤهم أن يجالسوا العامة ويواكلوهم ويتزوجوا منهم ويزوجوهم ولسان حال الجميع الآية الشريفة ﴿ **إنّما المؤمنون إخوة** ﴾ وما زال حال العرب في مواطنهم على هذا المنوال إلى يومنا هذا على ما شهدنا عياناً إلّا حيث امتدّ نفوذ الأتراك فقلدوهم وهم كغيرهم من الشعوب ما عرفوا للاشتراكية معنى وإننا لنفتخر بإثبات هذه المزية لأمتنا العربية الشريفة ونحن واثقون أنهم سيجرون عليها في مستقبلهم العظيم كما احتفظوا بها في ماضيهم وهكذا يظلون المثال الحي للاشتراكية أو الديموقراطية المحمودة إلى الأبد .

(١) كان القرشيون سادات العرب الحجازيين وأشرافهم بالإجماع ولعلمهم نالوا هذا الشرف العظيم لسكنى رؤسائهم وهم هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، =

= وأسد ، وتميم ، ومخزوم ، وعدي وجمح ، وسهم ، في مكة المكرمة نفسها التي هي مقرّ الكعبة محاج العرب جميعاً كرّمها الله ، وكان هؤلاء الرؤساء يقتسمون الحكم بينهم على ما يقرب من الحكم الجمهوري المعروف في زمان الناس هذا وهاك أقسام ذلك الحكم الذي سمّيناه جمهورياً .

كان بنو هاشم مختصّون بالسقاية وهي أهم الوظائف لذلك العهد لما تعلمه من قلّة المياه في مكة كرمها الله فرئي أن يناط أمر سقاية الحجاج بأكبر أولئك العرب نفوذاً حتى لا يقتتلوا على المياه في الأشهر الحُرُم المحرَّم فيها القتال .

واختصّ بنو هاشم أيضاً بالعمارة وهي حفظ النظام في الكعبة المكرمة في زمن الحج فكانوا يراقبون الحجاج ويمنعونهم عن بذيء القول أو رفع الصوت أو التزاحم بالمناكب الخ .

وكان العقاب وهو راية قريش الكبرى عندهم من نصيب بني أمية يحفظونها عندهم حتى إذا ما وقعت الحرب أخرجوها وأعطوها لمن ينفقون عليه من أولئك الرؤساء وقدموه عليهم في الحرب وبقوة هذه الراية جمع أبو سفيان والد معاوية العرب على حرب النبوّة .

وكانت الرفادة في بني نوفل ومعناها رفد المنقطعين من الحجاج لإعادتهم إلى مواطنهم .

وكانت السدانة والحجابة في بني عبد الدار ومعناهما خدمة الكعبة وحفظ مفاتيحها وكذلك كانت فيهم الندوة أي موضع اجتماع أولئك الرؤساء للتشاور بأمورهم المهمة .

وكانت المشورة في بني أسد ولعلّهم أرادوا بها رئاسة ندوتهم عندما يجتمعون للشورى بدليل أنّهم كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب المشورة فإن أعجبه وافقهم عليه وإلّا تخير وكانوا له أعواناً فيما يختار .

وكان الأشناق في بني تميم ويريدون بهذه الوظيفة جمع المال والجمال لمساعدة من يحمل غرماً أو دية من قريش توسلاً لحقن الدماء وحفظ كرامة قريش .

وكانت القبة في بني مخزوم وذلك أنّ قريشاً عندما كانوا يهبون إلى حرب كان =

أَمَّـا عَـقَـائِـدُهَـا فَـالْأَكْـثَـرِيَّـةُ   أَلَّهَتْ إِلٰـهَ السَّمَا الْخَـلَّاقَ تَأْلِيْهَـا(١)

= يضرب لهم زعيم بني مخزوم قبة يجمعون إليها عددهم الحربية وتجهيزاتهم العسكرية .

وكانت الأعنة أيضاً في بني مخزوم ويريدون بها رئاسة الخيالة فكان زعيم بني مخزوم هو الذي يعتني بالخيالة في الجيش ويقودهم إلى القتال .

وكانت السفارة في بني عدي ويراد بها مخابرة الأعداء لإشهار حرب أو تلافيها أو عقد صلح الخ .

وكان الأيسار في بني جمح وهي الأزلام والقداح كانوا يضربون بها إذا أرادوا أمراً خطيراً وهي من خرافات العرب وجاهليتهم وقد حرمها الإسلام .

وكانت الأموال المحجرة في بني سهم وهي الأموال المرصد ريعها على آلهتهم أو فقرائهم وهي أشبه بالأوقاف الخيرية المعروفة في الإسلام .

وعلى هذا التقسيم كانت قريش تدير شؤون العرب وتحكمهم حكماً جمهورياً شورياً قد أقرّه الإسلام بقوله تعالى : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ وقوله سبحانه مخاطباً المصطفى ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ ومن هذا الحكم يكون للعرب أولاً وللإسلام ثانياً فخر إيجاد الحكم الشوري الذي تتمشى عليه الأمم الراقية في عصرنا الحاضر وتحسبه شعار تمدنها .

(١) وجد الدين مع الإنسان منذ وجد وتفرعت أصوله بتفرع إدراكه وكان باعثه إليه ضعفه ووجوده محتاجاً أبداً إلى قوة علوية تدفع عنه الشرّ وتسهل إليه ما يحتاج من خير وقد تخيل ان ما وصل إليه من خير وما توفق إليه من دفع ضرّهما بمدد قوة علوية فعبدها واحترمها وألهها وما كفاه هذا حتى أشرك معها ما تخيله مظهراً من مظاهر هاتيك القوة العلوية كالشمس التي أدرك أنّ الكائنات تعيش بحرارتها وتستجلي الظلمات بضوئها ثم عبد الكواكب والنجوم لاستدلاله بها على الأنواء ثم تدرَّج إلى عبادة الأشخاص الذين امتازوا بأعمال غير مألوفة فحسبوهم من مظاهر الإلٓه سبحانه حتى إذا ما توفوا تحولت عبادتهم لقبورهم أو أقاموا لهم الصور والتماثيل ثمَّ لجهل الإنسان نسي أنّ عبادة الأشخاص أو صورهم وتماثيلهم أو الشمس والنجوم والكواكب حتى الحيوانات أيضاً التي كانت تفيده لحياته أو يخشى ضرَّها نعم نسي أنّ عبادته هذه كانت زلفى لله خالق =

= الكائنات على اعتبار أنّها من مظاهره سبحانه وتعالى بل نسي أيضاً نفس الخالق وعبدها لنفسها فكانت العبادة الوثنية مملوءة بالجهالات والخرافات ومفضية إلى الإشراك فالكفر بالله والعياذ بالله .

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يعيد الناس إلى الهدى بعد الضلال فأرسل إليهم رسله وأنبياءه فكان أولهم بعد الطوفان سيدنا إبراهيم الخليل صلّى الله عليه وسلّم فكان أبا الأنبياء جميعاً وكلّهم من صلبه وأشهرهم موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام لكثرة من انتمى إليهم من الموحّدين .

وكان العرب قبل عهد سيدنا إبراهيم على الوثنية حتى إذا ما هاجر إليهم هذا النبي الكريم بولده سيدنا اسماعيل وامرأته هاجر عليهم السلام دخل العرب في دينه أفواجاً ووحّدوا الله على يديه وابتنى لهم الكعبة المشرّفة على أنّ كثيرين منهم ظلّوا على وثنيتهم يرون الهدى ولا يهتدون .

ثم انتقلت الديانة الموسوية إلى العرب بهجرة طائفة من بني إسرائيل إلى الحجاز وأول من دان بها هم أهل طيبة « وكان اسمها يثرب » وهي المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام قالوا إنّ سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عندما خرج بقومه من مصر بعد قصته مع فرعون على ما في القرآن الشريف أقام أربعين سنة في صحراء سيناء وهي التي دعتها التوراة باسم « التيه » وفي هذه المدة تخلّف عنه بعض اليهود وساروا إلى الحجاز فنزلوا في موضع فيه ماء يسمى « بئر أدهم » فأقاموا فيه وبنوا في موضعه مدينة دعوها يثرب فكانت مدينة يهودية ثمّ طفق اليهود ينتقلون إلى الحجاز فاليمن طلباً للرزق أو فراراً من الاضطرابات والحروب التي انتابت بلادهم « فلسطين في عهد تملكهم لوقوعها بين دولتين قويتين متشاكستين هما دولة مصر ودولة آشور » وباختلاط الإسرائيليين بالعرب دان منهم كثيرون باليهودية وكانوا مع مشركي قريش أعداءً للنبوّة على ما هو مذكور في القرآن وتاريخ صدر الإسلام .

ثمّ انتشرت النصرانية في العرب فكان أول ظهورها في نجران شمالي صنعاء اليمن وفي جهات من البحرين وفي الحيرة لما تنصر نعمان بن المنذر وفي قبائل من طي وفي عرب الغساسنة في الشام لمجاورتهم الروم وهم على النصرانية . =

وَكَانَ فِيْهَا ٱلنَّصَارَى وَٱلْيَهُوْدُ وَأَقْـــوَامٌ مُعَطِّلَةٌ وَٱلْكُفْرُ مُطْغِيْهَا

= نقول وإنّ آثار التعاليم الموسوية والمسيحية كثيرة في كثير من الشعر الجاهلي، وفي هذا دلالة ناصعة على أنّ اليهود والنصارى العرب نشروا كتبهم بين القوم فتداولتها الألسن .

وعلى هذا فقد كان العرب عند ظهور البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام على أربعة أديان أولها الموحدون على دين إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل والثاني النصارى والثالث اليهود والرابع الوثنيون .

على أنَّ الذين كانوا على دين سيدنا إبراهيم وسيدنا اسماعيل ما كانوا يخلون من الإشراك وذلك ان إبراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام بنيا الكعبة في مكة المكرمة على ما علمت وجعلاها مطافاً يحجّها أولادهما فلما كثروا انتشروا في أطراف الجزيرة وكانوا في هجرتهم من مكة يأخذون معهم للتبرك شيئاً من حجارة الكعبة فجعلوا يعظمونها تقرّباً لله عزَّ وجلَّ وما زالوا يتوسعون بتعظيمها حتى جعلوها أصناماً وأوثاناً وعبدوها مع الله سبحانه فباتوا مشركين .

وحدث أن عمرو بن لُحَيّ الخزاعي سافر إلى بلاد الشام وفي طريقه رأى هؤلاء المشركين وما عندهم من التماثيل التي يعبدونها فحسنت له عبادتها فأخذ بعضاً منها وأقامها على الكعبة وكان هو سادنها وهكذا دخلت عبادة التماثيل إلى الكعبة المشرّفة التي بنيت في الأصل لعبادة الله الواحد الأحد .

وعندما رأت قريش ما فعل عمرو بن لُحَيّ اتّبعوه وما اكتفوا بما جاء به من التماثيل بل أضافوا إليها تماثيل أخرى الظاهر أنّهم اقتبسوها عن التماثيل اليونانية التي كانت تمثل القوات المختلفة ويسمونها آلهة كإلّه الحرب وإلّه البحر إلخ ووضعوها في فناء الكعبة .

ومما لا ريب فيه أنّ العرب ما كانت تعظم هذه الأوثان التي ملأت بها الكعبة المشرّفة إلّا تقرّباً لله لما جاء في الكتاب العزيز ﴿ **ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى** ﴾ على أنَّ هذه العبادة حسبها محمد بن عبد الله ﷺ إشراكاً ودعا لأجلها قريشاً مشركين وأبى عليهم إلّا أن يتجرّدوا لعبادة الواحد الأحد موحدين وأيّده الله فكان له النصر العظيم .

وَأُمَّـةٌ عَبَدَتْ زُلْفَى لِخَالِقِهَا ٱلْأَ   صْنَامَ جَهْلاً وَتَأْبَى هَدْيَ هَادِيْهَا

وَغَايَةُ ٱلْقَوْلِ إِنَّ ٱللَّهَ وَاصِفُهَا   بِخَيْرِ مَا فِي ٱلْبَرَايَا مِنْ أُنَاسِيْهَا(١)

فَتَأْمُرُ ٱلنَّاسَ بِٱلْمَعْرُوْفِ تُوْجِبُهُ   كَمَا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ٱلْمَتْلُوْفِ تُنْهِيْهَا

وَآمَنَتْ بِإِلٰهِ ٱلْعَرْشِ قَدْ عَرَفَتْـ   ـهُ ٱلْوَاحِدَ ٱلْأَحَدَ ٱلْقَهَّارَ ذَارِيْهَا

هٰذِيْ هِيَ ٱلْأُمَّةُ ٱلْعَلْيَا ٱلَّتِيْ بَزَغَتْ   أَنْوَارُ أَحْمَدَ مِنْ أَقْصَى فَيَافِيْهَا

وَٱخْتَصَّهَا ٱللَّهُ بِٱلْإِسْلَامِ تَنْشُرُ فِي ٱلْآ   فَاقِ دَعْوَتَهُ ٱلْحَسْنَا وَتُزْكِيْهَا

وَكَانَ أَشْرَفَهَا جَاهاً وَأَعْظَمَهَا   قَدْراً قُرَيْشٌ فَلَا نِدٌّ يُدَانِيْهَا

وَإِنَّهَا لَبُطُوْنٌ وَٱلْوَجَاهَةُ فِيْ ٱلـ   ـتَّخْصِيْصِ مَا ٱبْتَعَدَتْ عَنْ هَاشِمِيِّيْهَا

وَخَيْرُ هَاشِمَ بَلْ خَيْرُ ٱلْخَلِيْقَةِ أَحْـ   ـمَدُ ٱلَّذِي شَرَّفَ ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِيْهَا

وَبَعْدَهُ ٱلْمُرْتَضَى صِنْوُ ٱلنَّبِيِّ رَسُوْ   لِ ٱللَّهِ أَفْضَلُ خَلْقِ ٱللَّهِ تَفْقِيْهَا

وَحَسْبُ أُمَّتِنَا بِٱلْمُصْطَفَى وَعَلِـ   ـيِّ ٱلْمُرْتَضَى أَنْ تُكَاسِيْ مَنْ يُكَاسِيْهَا

حسب أمير المؤمنين ونسبه

وَنِسْبَةُ ٱلْمُرْتَضَى كَٱلْمُصْطَفَى وَهُمَا   فِيْ ذِرْوَةِ ٱلْمَجْدِ فِيْ أَعْلَى أَعَالِيْهَا(٢)

هُمَا خِيَارُ بَنِيْ ٱسْمَاعِيْلَ نَازِلِ أَرْ   جَاءِ ٱلْحِجَازِ ٱلْأُوْلَى بَاتُوْا مَوَالِيْهَا

---

(١) قال الله عزَّ وجل في كتابه العزيز يصف الأمّة العربية الكريمة ﴿ كنتم خير أمّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ ولعمري أنّ شهادة الوحي هذه لهم لتكسبهم غاية الفخر إلى يوم القيامة .

(٢) إنّ التنويه بحسب المرتضى ونسبه عليه صلوات الله كالتنويه بفضل الشمس وكما أنَّ كل إنسان يعلم أنّ الله سبحانه خلق الشمس لتضيء دياجي الكون ولترسل حرارتها فيحيا بها النبات والحيوان والإنسان بإذنه تعالى كذلك كلُّ إنسان يعلم حسب المرتضى وأنّه في شرف نسبه مقترن مع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كلاهما فرعي دوحة بلغت من =

وَإِنَّهَا عِتْرَةٌ مَا فِيْ ٱلْخَلَائِقِ مَنْ ... يَدْنُو لِسُؤْدُدِهَا أَوْ مَنْ يُدَانِيْهَا

نَمَتْ أُصُوْلاً وَأَفْخَاذاً مُنَوَّعَةً ... وَكَانَ أَسْمَقُهَا مَجْداً قُرَيْشِيْهَا

وَفِيْ قُرَيْشَ فُرُوْعٌ كَانَ أَفْضَلَهَا ... جَاهَاً هَوَاشِمُهَا مَا مَنْ يُسَامِيْهَا

وَفِيْ ٱلْهَوَاشِمِ سَادَ ٱلنَّاسَ مُطَّلَبٌ ... فَكَانَ نَاظُوْرَهَا ٱلْأَعْلَى وَرَافِيْهَا

وَزَادَهُ ٱللَّهُ جَاهَاً بِٱلنُّبُوَّةِ فِيْ ... حَفِيْدِهِ ٱلْمُصْطَفَى إِذْ آضَ رَاعِيْهَا

وَإِنَّهَا عِزَّةٌ تُحْنَى ٱلرِّقَابُ لَهَا ... وَلَيْسَ مِنْ عِزَّةٍ قَعْسَا تُنَاحِيْهَا

قَدِ ٱبْتَدَتْ بِٱلْأَمِيْنِ ٱلْمُصْطَفَى وَعَلِـ ... ـيٌّ مِنْهُ آخِذُهَا إِرْثاً وَجَانِيْهَا

كِلَاهُمَا نَهَلَا مِنْ مَوْرِدٍ عَذِبٍ ... جَرَى بِهِ مِنْ مِيَاهِ ٱلْمَجْدِ صَافِيْهَا

نَعَمْ أَبُوْ طَالَبٍ رَبَّى ٱلرَّسُوْلَ وَحَا ... جَاتُ ٱلرَّسُوْلِ ٱلْمُفَدَّى كَانَ قَاضِيْهَا

وَٱلْمُصْطَفَى كَرَمَاً رَبَّى ٱلْوَصِيَّ عَلَى ... يَدَيْهِ تَرْبِيَةً مَا ٱنْفَكَّ فَائِيْهَا

كَمَا تَرَبَّى بِإِدْلَالِ ٱلْخَدِيْجَةِ أُ ... مِّ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى رَاضِيْ تَبَنِّيْهَا

= الشرف غايته ومن السؤدد نهايته هي دوحة آل عبد المطلب رأس بني هاشم وما بنو هاشم إلّا سادات قريش وما قريش إلّا أشرف أشراف العرب بانتمائها إلى سيدنا اسماعيل ابن سيدنا إبراهيم الخليل عليهما وعلى المصطفى والمرتضى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام .

وإذا كان المجد العربي الأسمى قد انتهى في الجاهلية إلى بني هاشم فقد ابتدأ من هذا البيت الكبير مجدٌ أسمى لا يدانيه مجد الدنيا والآخرة بالنبوّة إذ اختصَّ بها سبحانه وتعالى سيدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فكان خاتمة النبيّين وسيد المرسلين . ولقد ورث هذا المجد العظيم وصيّه ووليّه وصنوه وأخوه وربيبه وصهره وابن عمّه سيدنا سيف الله الغالب عليّ بن أبي طالب فكان ثاني اثنين في العالمين لا يدانيه بذلك مدان من بني عدنان ومن عالم الإنسان . وسوف نرى فضائل هذا السيد العظيم التي لا يحيط بها بيان وقد قامت عليها البيّنات وأثبتها القرآن .

وَقَـدْ تَـزَوَّجَ مِنْ أَسْمَى كَـرَائِمِهَـا وَمَـا بَنُـوْ ٱلْمُـرْتَضَى إِلَّا ذَرَارِيْهَـا
وَبَـيْتُـهُ بَـيْتُ طَـهَ وَهْـوَ مُـتَّحِـدٌ مَعْـهُ بِـوِحْـدَةٍ حَالٍ لَا تُجَـزِّيْهَا
وَفِي ذُرَى ٱلْكَعْبَـةِ ٱلزَّهْـرَاءِ مَـوْلِـدُهُ فَكَـانَ فِيْ ٱلْعَرَبِ ٱلْعَـرْبَـاءِ كَعْبِيْهَـا
وَكَانَ لِلْمُصْطَفَى ٱلْهَادِيْ ٱلْبَشِيْرِ أَخَاً مُـذْ أَحْكَمَتْ أُمَّـةُ ٱلْهَـادِيْ تَـآخِيْهَـا
كَـانَـا كَمُـوْسَى وَهَـارُوْنٍ لِأُمَّتِـنَـا وَإِنَّمَـا بِهِمَـا ٱلْخَـلَّاقُ مُسْمِـيْهَـا
وَلِـلرَّسُـوْلِ أَحَـادِيْثٌ مُـثَـبَّـتَـةٌ عَنْ فَضْـلِ حَيْدَرَةٍ مَـا مَـانَ رَاوِيْهَـا
وَفِيْ ٱلْكِتَـابِ مَثَـانٍ فِيْـهِ قَـدْ نَـزَلَتْ فَشَـرَّفَتْـهُ فَقُـلْ : سُبْحَـانَ مُـوْحِيْهَـا

والد أمير المؤمنين

لَدَى أَبِيْ طَالِبٍ قِفْ صَاحِ مُحْتَرِمَـاً غُرَّ ٱلْأَيَادِي ٱلَّتِيْ قَدْ كَانَ يُسْدِيْهَا(١)
وَلَا تَخَـلْ أَنَّنِـي أَوْفِيْ مَـدَائِـحَـهُ فَـإِنَّ مِـدْحَتَـهُ مَـا مَنْ يُـوَفِّيْهَـا

---

(١) كان لعبد المطّلب كبير بني هاشم ثلاثة عشر ولداً وهم الحارث وهو أكبرهم وكان به يكنّى وشقيقه قثم . وعبد مناف وقيل عمران المكنّى بأبي طالب والزبير وعبد الكعبة وعبد الله والد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهؤلاء الأربعة هم أشقاء . وحمزة والمقدم والمغيرة الملقب بجحل وهؤلاء الثلاثة أشقاء . والياس وضرار وهما شقيقان . وعبد العزّى المكنّى بأبي لهب وهو أعدى أعداء النبي الذي نزلت فيه آية ﴿**تبت يدا أبي لهب**﴾ ومصعب الملقّب بالغيداق وهما شقيقان . وكان أبو طالب أوجه وجهاء قريش وزعيمهم بعد أبيه عبد المطلب وأنفذهم كلمةً وأحكمهم رأياً واشتهر عنه أنّه لم يذق الخمر طوال حياته وكان من الذكاء والدهاء وقوة الإرادة ما يدلك عليه نفوذه على قريش حتى استطاع أن يحمي ابن أخيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من أعدائه فلم ينله أذاهم طوال حياته مع أنّه كان يحارب دينهم .

ومن المعلوم أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عاش يتيماً فقد مات أبوه عبد الله وأمّه حامل به فكفله منذ ولادته جدّه عبد المطلب ومات وللنبي من العمر ثمان سنوات فكفله عمّه أبو طالب الذي انتقلت إليه زعامة بني هاشم بعد موت أبيه ولقد قيل كثيراً عن رعاية أبي =

قَدْ كَانَ أَفْضَلَ شَيْخٍ فِيْ قُرَيْشَ جَمِيْــــعَــاً بِـالْمَحَـامِدِ لاَ فِيْ هَـاشِمِيِّيْهَـا

= طـالب لرسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مدة كفـالتـه لـه التي طـالت إلى أن شبّ عن الـطوق وفي الأحاديث الثابتـة عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أنّـه عليه الصـلاة والسلام كـان كثير الامتنـان من كفالة عمّـه الطيبـة له . والثـابت أنّه كـان يضجعه بجـانبه ويسهـر على راحته ويقـدم له أحسن الـطعـام . وكـأني بـالشيـخ أبي طـالب كـان يحسن الفـراسـة بـالغـلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويقدّر له مستقبلاً عظيماً في الدنيا ووجاهةً كبرى عند الله يـدلّك على ذلك استسقاء السما، بوجهه . قال جلهمة بن عرفطة قـدمت مكة وقـريش في قحط فاختلفـوا في كيف يستسقون السماء فقال بعضهم باللّات وآخرون بالعزى وفي الأخيـر قال عـاقل منهم أنّى تؤفكـون وفيكم باقيـة إبراهيم وسـلالـة اسمـاعيـل عليه السلام ألا وهـو أبـو طـالب فلننصرف إليه فأطاعوه وقصدوا أبا طالب في بيته فخرج معهم ومعه المصطفى وهو غلام وقصدوا الكعبة كرّمها الله وهناك جاء بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وألصق ظهره بالكعبة وصلّى ودعا فـأقبل السحـاب واغدودق وانفجـر له الـوادي وأخصب النادي والبـادي . وقد أشـار أبو طالب إلى هذا الحـادث العظيم الـذي كان بـاكورة معجـزاته عليـه الصلاة والسـلام في قصيدته الكبرى التي أنشدها في مديح المصطفى بعد بعثته بقوله :

وأبيض يستسقي الغمـــام بـــوجهـــه ثمـــال اليتـامى عصمـــةٌ لـلأرامــل

وكان أبو طالب كثير التعلق بالمصطفى كما كان المصطفى كثير التعلق به ولذلـك عندما عزم أبو طالب على المسير إلى الشام للتجارة على عادة قريش وذلـك بعد كفـالته له بأربع سنوات عزّ عليه فراقه فصحبه معه وكانت هذه أولى رحلات المصطفى وأوفـرها بركةً وفيها من الحوادث العظمى المشيرة إلى نبوّته مع راهب بحيراء وغيره ما هو صريح في السيرة النبوية .

ونال أبا طالب جهدٌ عظيم عندما ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببعثته وهمَّ مشـركو قـريش وكفّارها بمعارضته ونادوا بكراهة ما كان يجهر بـه من تحقير آلهتهم وتعـظيم إلٓهه الأحـد على أنّه استطاع أن يحميه منهم فما نـالوه بـأذى في كل حيـاته وهـذا فضل عـظيم لهذا العميد الفخيم .

وعندما أدركت أبا طالب الوفاة وهو كما علمت كبير زعماء قريش استدعى زعمـاء قـومه إليـه وودعهم بهذه الـوصية فقـال : « يا معشـر قريش أنتم صفـوة الله من خلقه ، =

وَكَانَ بَعْدَ أَبِيْهِ ٱلْقَرْمِ سَيِّدَهَا   بِلَا جِدَالٍ وَحَامِيْهَا وَآسِيْهَا

= وقلب العرب ، فيكم المطاع وفيكم المقدَّم الشجاع ، والواسع الباع ، لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلّا أحرزتموه ، ولا شرفاً إلّا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، أوصيكم بتعظيم هذه البنيَّة (يريد الكعبة كرّمها الله) فإنّ فيها مرضاةً للربّ ، وقواماً للمعاش ، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فإنّ في صلة الرحم منسأة (يريد فسحة) في الأجل ، وزيادة في العدد ، واتركوا البغيَ والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعي ، وأعطوا السائل ، فإنّ فيهما شرف الحياة والممات وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، فإنّ فيهما محبة في الخاص ، ومكرمة في العام ، وإنّي أوصيكم بمحمد خيراً فإنّه الأمين في قريش ، والصديق في العرب ، وهو الجامع لكلّ ما أوصيكم به ، وأيم الله كأنّي أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل البرّ في الأطراف ، والمستضعفين من الناس ، قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظّموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً ، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ، وإذا أعظمهم عليه ، أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه ، أحظاهم عنده ، قد محضته العرب ودادها ، وأعطته قيادها دونكم ، يا معشر قريش لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد ، وما اتّبعتم أمره ، فأطيعوه ترشدوا » اهـ .

وتوفي أبو طالب في العام الذي توفيت فيه سيدتنا خديجة أم المؤمنين وكانت وفاتهما في زمن متقارب في العام العاشر من بعثة المصطفى ﷺ وقبل هجرته للمدينة المنورة بثلاث سنوات وعلى أثر وفاة ذلك الشيخ الجليل أخذت تمتدُّ يد قريش للمصطفى بالأذى فطفقوا يهينونه ويسبونه عنوةً ويحثون عليه التراب وكان هذا الأذى سبب هجرته مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .

وقد اختلف المؤرخون في إسلام أبي طالب أو بقائه على الشرك ولكل فريق أدلة يرتكنون إليها وأحاديث نبوية يستشهدون بها وليس لمثلي أن يبتّ في مثل هذا الأمر الخطير وإنّما الاستدلال من واقع الحال يرجّح قول الّذين يقولون بإيمانه لأنّ الإنسان مهما تغالى في صلة رحمه وفي حبّه لابنه أو ابن أخيه أو نسيبه لا يسعه أن يغضّ الطرف عن ذاك المنتسب إليه أو المحبوب منه إذا رآه يعتدي على دينه ويحاول أن يدكّ أركانه ويقيم في موضعه ديناً آخر إن لم يكن هو أيضاً متفقاً معه في الاعتقاد لما تعلم من =

وَكَـانَ أَحْكَمَهَـا رَأْيـاً وَأَفْضَـلَهَـا حَـزْمـاً وَأَكْثَـرَهَـا مَجْـداً وَتَـوْجِيْهَـا

مِـنْ بَعْـدِ مُـطَّلَبٍ دَانَـتْ لِسُـؤْدُدِهِ طَـوْعَاً فَكَـانَ إِلَى ٱلْإِسْعَادِ مُمْشِيْهَا

وَٱلْجَـاهِلِيَّةُ فِيْ عَلْيَـاهُ قَـدْ خَتَمَتْ فَخَـارَهَا مُـذْ غَدَا ٱلْإِسْـلَامُ طَاوِيْهَـا

وَحَسْبُـهُ كَفِـلَ ٱلْهَـادِيْ ٱلْأَمِيْنَ كَفَـا لَـةً جَمِيْـعُ عِبَـادِ ٱللَّهِ تُـطْرِيْـهَـا

فَكَـانَ كَـافِلَهُ وَهْـوَ ٱلْيَتِيْمُ بِعَـطْـفَـةٍ وَحَقِّكَ مَـا ٱلآبَـاءِ تَـأْتِيْهَـا

وَكَـانَ يَـعْـنَـى بِـهِ بِـرّاً يُـفَـضِّـلُهُ عَلى بَنِيْـهِ لِكَـيْ يَـزْدَادَ تَـرْفِيْـهَـا

وَكَـانَ يُضْجِعُـهُ فِيْ قُـرْبِـهِ وَلَيَـا لِيْـهِ ٱلـطِّوَالُ عَلَيْـهِ كَـانَ يُحْيِيْهَـا

= تمسك الناس بأديانهم ومبالغتهم بتقديسها وتفضيلهم لها على كل اعتبارٍ آخر حتى ان المؤمن ليقتل ابنه أو أباه إذا رآه يحقّر دينه ويستهين بمعبوده . وإذا صدق هذا على عامة الناس فبالأولى أن يصدق على خاصتهم مثل أبي طالب الذي كانت له المكانة العليا في قريش فهو ملزم من جهة نفسه ومن جهة مركزه أن يدافع عن الدين الذي يدين به وهو وقومه كي لا تسقط مكانته من عيونهم وكي لا يعرض نفسه لغضب معبوداته فيخسر آخرته . وعلى هذا فأبو طالب لا بدَّ وأن يكون قد آمن برسالة ابن أخيه عليه الصلاة والسلام في قلبه ولكنه لم يجهر بها لاعتبارات تقتضيها الحكمة وتدعو إليها السياسة . فإنّه لو جهر بإيمانه في بدء البعثة وفجر الدعوة لانقلبت عليه قريش بجملتها وأسقطته من حالق مجده وعبثت بحرمته وحينئذٍ يعجز عن ردّ الأذى عن ابن أخيه وهو لا يزال ضعيفاً وهذا الذي جعله يكتم ما في نفسه من الإيمان وظاهر أعماله وقصائده وخطبه تظهره بأحلى بيان . إذ رأيناه يدافع عن المصطفى بنفوذه وجاهه ويمدحه بقصائده وخطبه حتى آخر لحظة من حياته على ما رأيت من وصيته وعلى هذا فيكون أبو طالب من خيار الصحابة والأنصار بغير جدال ، وحبذا لو وفق الله الإسلام في عصر الناس هذا إلى من يحمون ذماره ويعلون كلمته كما فعل أبو طالب في فجر البعثة إذن يظلّ الإسلام في خير .

هذا هو أبو طالب كفيل المصطفى وعمّه وحبيبه ونصيره ووالد سيدنا أمير المؤمنين يعسوب الدين أسد الله الغالب علي بن أبى طالب بل هذا هو الرجل العظيم الذي ربّى هذين النيرين فأضاءا في سماء الدنيا والدين .

وَكَانَ فِيْ بَيْتِهِ ٱلرَّبَّ ٱلْمُحكَّمَ فِيْ   شُؤُوْنِهِ مِثْلَمَا يَهْوَى يُجَرِّيْهَا
وَفِيْ ٱلْمَآكِلِ لاَ يُطْهَى هُنَالِكَ مِنْ   أَلْوَانِهَا غَيْرُ مَا قَدْ كَانَ شَاهِيْهَا
وَسَارَ مَعْهُ إِلَى أَرْضِ ٱلشَّآمِ بِرَحْـــلَةٍ بَدَا جَاهُ طَهَ لِلْمَلاَ فِيْهَا
وَرَدَّ عَنْهُ ٱلأَعَادِيْ عِنْدَ بَعْثَتِهِ ٱلــزَّهْرَا وَقَدْ كَثُرَتْ جَهْلاً أَعَادِيْهَا
وَكَانَ يُنْشِدُ فِيْ طَهَ قَصَائِدَهُ   وَفِيْ نُبُوَّتِهِ ٱلْعَصْمَا وَيُمْلِيْهَا
وَكَانَ يَدْعُوْ إِلَى مَحْمُوْدِ دَعْوَتِهِ   جَهْرَاً قُرَيْشَ وَبِٱلأُخْرَى يُمَنِّيْهَا
وَعِنْدَ مَا قَدْ دَنَتْ مِنْهُ ٱلْوَفَاةُ دَعَا   رُؤُوْسَ أُمَّتِهِ كَيْمَا يُفَاهِيْهَا
وَقَالَ وَٱلْمَوْتُ يَغْشَاهُ بِصُفْرَتِهِ   وَرَهْبَةُ ٱلْمَوْتِ يُشْجِي ٱلنَّفْسَ فَاجِيْهَا
أُوْصِيْكُمُ يَا بَنِي أُمِّيْ بِكَعْبَتِنَا   فَإِنَّ فِيْهَا رِضَاءُ ٱللَّهِ ثَاوِيْهَ
وَإِنَّ رِزْقَكُمْ فِيْهَا يَنَالُكُمُ   مِنَ ٱلْحَجِيْجِ إِذَا وَافَتْ مَغَانِيْهَا
وَبِٱلْوِدَادِ صِلُوْا أَرْحَامَكُمْ وَبِذَا   تَنَالُ أُمَّتُكُمْ أَقْصَى أَمَانِيْهَ
وَحَاذِرُوْا ٱلْبَغْيَ مَعْ شَرِّ ٱلْعُقُوْقِ وَمَا   يَلِيْهِمَا مِنْ شُرُوْرٍ ضَلَّ جَانِيْهَا
فَإِنَّهَا أَهْلَكَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ أُمَمَاً   كَانَتْ فَبَادَتْ وَإِنَّ ٱلإِثْمَ مُفْنِيْهَا
وَإِنْ دُعِيْتُمْ فَلَبُّوْا أَوْ سُئِلْتُمْ إِحْـــسَاناً فَجُوْدُوْا وَخَيْرُ ٱلنَّاسِ سَاخِيْهَ
وَٱلصِّدْقُ أَوْلَى بِكُمْ وَٱلْكِذْبُ مَنْقَصَةٌ   ذُوْ ٱلْعَقْلِ وَٱلدِّيْنِ يَأْبَى أَنْ يُدَانِيْهَا
أَدُّوْا ٱلأَمَانَاتِ أَدُّوْهَا بِلاَ مَهَلٍ   إِلَى ذَوِيْهَا تَنَالُوْا شُكْرَ أَهْلِيْهَا
وَإِنَّنِي ٱلْيَوْمَ أُوْصِيْكُمْ بِأَحْمَدَ خَيْـــرَاً وَٱسْمَعُوْا دَعْوَةً مَا ٱنْفَكَّ دَاعِيْهَا
مَا مِنْ أَمِيْنٍ سِوَاهُ فِيْ قُرَيْشَ وَلاَ   صَدِيْقَ لِلْعُرْبِ إِلاَّهُ يُوَالِيْهَا
إِنِّيْ لأَنْظُرُ فِيْ ٱلأَيَّامِ مُقْبِلَةً   عَلَيْهِ مِنْ بَعْدِ أَنْ يُجْلِيْ دَيَاجِيْهَا
فِيْهَا تَهُبُّ صَعَالِيْكُ ٱلأَعَارِبِ مَعْـــهُ بَيْنَ حَاضِرِهَا ٱلْمُهْدَى وَبَادِيْهَا

وَقَدْ أَجَابَتْ مَعَ ٱلْإِيمَانِ دَعْوَتَهُ وَعَظَّمَتْ أَمْرَهُ تَدْعُوهُ هَادِيهَا
أَلْفِيهِ يَخْرُجُ فِيهَا لِلْحُرُوبِ جمَا عَاتٍ تَخُوضُ ٱلْمَنَايَا لاَ تُحَاشِيهَا
تَبْغِي قُرَيْشاً وَأَسْرِعْ أَنْ نُذَلَّ لَهَا وَأَنْ تَسُوْدَ عَلَيْهَا أَوْ تُلاَشِيْهَا
إِذْ ذَاكَ أَسْيَادُهَا تُمْسِيْ وَحَاجَتُهَا إِلَى مُحَمَّدَ بِٱلْإِذْلاَلِ تُزْجِيْهَا
وَأَبْعَدُ ٱلنَّاسِ مِنْهُ بَاتَ أَقْرَبَهَا إِلَى مَوَدَّتِهِ بِٱلصَّفْوِ يُبْدِيْهَا
وَٱلْعُرْبُ دُوْنَ قُرَيْشٍ تَحْتَ رَايَتِهِ صَالَتْ وَجَالَتْ وَعَزَّتْ فِيْ تَسَطِّيْهَا
وَٱللَّهِ يَا أُمَّتِيْ لاَ يُسْعَدَنَّ فَتىً إِلَّا بِطَاعَتِهِ طُوْبَى لِحَافِظِيْهَا
وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهِي مِنْ ذِيْ ٱلْوَصِيَّةِ حَتَّـــى مَاتَ وَهْوَ عَلَى ٱلسُّمَّاعِ يُلْقِيهَا
وَعَمْرِكَ ٱللَّهَ هَلْ هٰذِيْ وَصِيَّةُ مُشْـــرِكٍ لِأُمَّتِهِ قَدْ رَاحَ يُوصِيْهَا
مُمَدَّدٍ فِيْ فِرَاشِ ٱلْمَوْتِ فِيْ دَنَفٍ وَنَفْسُهُ بَلَغَتْ مِنْهُ تَرَاقِيْهَا
وَهَلْ يُوَصِّي بِطَهَ ذِيْ ٱلْوَصِيَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ شِرْعَةُ ٱلْإِسْلاَمِ رَاضِيْهَا
كَذَا أَبُوْ طَالِبٍ قَدْ كَانَ أَوَّلَ أَنْـــصَارِ ٱلشَّرِيْعَةِ بَلْ أَوْفَى مُحِبِّيْهَا
فَإِنْ يَمُتْ مُشْرِكاً مَا ٱلشِّرْكُ مُهْلِكُهُ لِلْمَحْمَدَاتِ ٱلَّتِيْ قَدْ رَاحَ آتِيْهَا
وَإِنْ يَمُتْ مُؤْمِناً فَٱللَّهُ مُؤْجِرُهُ أَجْرَ ٱلصَّحَابَةِ مُثْوِيْهِ مَثَاوِيْهَا
وَإِنَّ نَفْساً أَتَتْ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلِ مَا ٱلْإِ سْلاَمُ تَٱللَّهِ نَاءٍ عَنْ مَطَاوِيْهَا
فَقَدْ تَكُوْنُ أَقَرَّتْهُ بِخَافِيْهَا وَلِلْمَحَاذِيْرِ مَا أَبْدَتْهُ مِنْ فِيْهَا
كَمْ مِنْ نُفُوسٍ أَقَرَّتْ بِٱلشَّهَادَةِ وَٱلْإِ سْلاَمِ سِرّاً وَكَانَ ٱللَّهُ دَارِيْهَا
وَكَمْ نُفُوسٍ لَقَدْ أَبْدَتْ شَهَادَتَهَا زُوْراً وَكِذْباً وَكَانَ ٱلْكُفْرُ غَاوِيْهَا
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُخْفِيْ ٱلصُّدُوْرُ وَبِٱلْـــعَدْلِ ٱلْإِلٰهِيِّ يَوْمَ ٱلدِّيْنِ يُجْزِيْهَا
فَٱلْمُؤْمِنُوْنَ لَهُمْ رَحْبُ ٱلْجِنَانِ إِذَا أَعْمَالُهُمْ صَلَحَتْ يَثْوُوْنَ هَانِيْهَا

وَٱلْمُشْرِكُوْنَ لَهُمْ نَارُ ٱلْجَحِيْمِ وَفِيْـــهَا ٱلْخَالِدُوْنَ وَمَا ٱلْأَحْقَابُ تُطْفِيْهَا

والدة أمير المؤمنين

أُمُّ ٱلْعَلِيِّ وَأُمُّ ٱلْـمُصْـطَفَى أَدْرَتْ أَيُّ ٱلْمَفَـاخِـرِ أَبْقَتهَـا لِأَهْلِيْهَـا(١)

فَـإِنَّهَا كَفَلَتْ خَيْـرَ ٱلْخَـلاَئِقِ أَسْـــمَاهَا وَأَعْـظَمَهَـا جَـاهَـاً وَهَـادِيْهَـا

وَإِنَّهَـا أَنْجَبَتْ صِنْوَ آلـرَّسُـوْلِ أَمِيْـــنَـاً لِلشَّـرِيْعَـةِ يُفْشِيْهَـا وَيَحْمِيْهَـا

كَـذَا ٱلْمَلاَئِـكُ فِيْ جَنَّـاتِهَا حَفَلَتْ بِنَيِّـرَيْـهَـا وَوَدَّتْ لَـوْ تُـهَـنِّـيْـهَـا

فَتِلْكَ فَـاطِمَـةُ أُوْلَى كَـرَائِمِ هَـا شِمٍ لَقَـدْ وُلِـدَتْ فِيْ هَـاشِمِيِّيْهَـا

وَخَيْـرُهُنَّ بِمَنْ رَبَّـتْ وَمَنْ وَلَـدَتْ وَحَقُّهَـا بِهِمَـا تُبْـدِيْ تَبَـاهِـيْهَـا

---

(١) إنّ والدة أمير المؤمنين عليه السلام هي فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولـدت لهاشمي وكـان سيدنـا أميـر المؤمنين أصغـر بنيهـا وكـانت من فضليـات النسـاء وعاثلاتهن المدركات بالإجماع يـدلك على فضلها عنايتهـا بسيدنـا محمد صلى الله عليه وآله وسلم عنـدما كفله زوجها أبو طالب حتى كانت تفضله بمـأكله وملبسه على بنيهـا ويدلـك على تعقلها أنّهـا أدركت معنى الإسلام فـأسلمت قبـل غيرهـا فكـانت في عـداد المسلمين جميعـاً الحـادي عشـر أي أنّهـا أسلمت بعـد عشـرة من المسلمين والمسلمـات وبـايعت رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل كـل النساء المسلمـات وكـان المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم يبـالـغ بـإكـرامهـا وإعزازها وتبجيلهـا واحترامهـا ويثني عليها كثيـراً ويدعـوها أمّـه وحسبها بـذلك شـرفاً لا يعادله شرف وعندمـا حضرتهـا الوفـاة أوصت إلى المصطفى فقبـل وصايتهـا حتى إذا ما استأثرت بروحها الطاهرة رحمة الله كفنها رسول الله بقميصه وصلّى على جثمـانها ونـزل معهـا إلى لحدهـا واضطجـع بجانبهـا ولم يكن قد فعـل مثـل هـذا قبلهـا مـع ميت من المسلمين فسأله أصحابه عن صنيعه فقال : « لم يكن أحد أبرّ بي بعـد أبي طالبٍ منهـا إنّما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة واضطجعت معها لتهون عليها ضغطة القبر » فإذا أضفنا إلى هذا الفخار فخار كون المرتضى عليه السلام ولدها وقد تغذى من درّ ثدييها قلنا إنّـها بلا جدال خير النساء .

وَٱللَّهُ أَسْعَدَهَا دُنْيَا وَآخِرَةً   جَزَاءَ مَا أَسْلَفَتْهُ مِنْ مَآتِيهَا

فَأَسْلَمَتْ بَعْدَ عَشْرٍ مِنْ تُقَاةِ عِبَا   دِ ٱللَّهِ ذٰلِكَ مِنْ أَلْطَافِ بَارِيْهَا

وَهِيَ ٱلَّتِيْ بَايَعَتْ قَبْلَ ٱلنِّسَاءِ رَسُوْ   لَ ٱللَّهِ بَيْعَةَ صِدْقٍ لَمْ تُؤَنِّيْهَا

وَكَانَ يُثْنِيْ عَلَيْهَا ٱلْمُصْطَفَى وَلَهَا   يَدْعُوْ بِأُمِّيْ إِذَا مَا رَاحَ دَاعِيْهَا

وَكَانَ يُكْرِمُ مَثْوَاهَا وَيَحْفَظُ مَا   لَهَا عَلَيْهِ قَدِيْمَاً مِنْ أَيَادِيْهَا

إِيَّامَ قَدْ كَانَ يَثْوِيْ رَحْبَ مَنْزِلَهَا   مَا بَيْنَ أَبْنَائِهَا يَلْقَى تَحَنِّيْهَا

وَمِثْلُ أَحْمَدَ لَا يَنْسَى جَمَائِلَ مُثْـ   ـلِهَا وَرُبِّيَ يَتِيْمَاً فِيْ مَغَانِيْهَا

وَظَلَّ يَحْمَدُهَا حَتَّى إِذَا رَحَلَتْ   إِلَى ٱلْخُلُوْدِ ٱنْثَنَى يَبْكِيْ وَيَرْثِيْهَا

أَوْصَتْ إِلَيْهِ قُبَيْلَ ٱلْمَوْتِ حَاجَتَهَا   وَحَسْبُ رُغْبَتِهَا قَدْ كَانَ مُجْرِيْهَا

وَكَانَ كَافِنَهَا فِيْ ثَوْبِهِ كَرَمَاً   وَنَامَ فِيْ ٱلْقَبْرِ مَعْهَا وَهْوَ بَاكِيْهَا

كَيْمَا يُهَوِّنُ عَنْهَا ضَغْطَةً عُرِفَتْ   لِلْقَبْرِ مَنْ مَاتَ لَا شَكٌّ يُعَانِيْهَا

وَكَيْ تَفُوْزَ بِأَثْوَابِ ٱلْجِنَانِ تُبَا   هِيْ ٱلصَّالِحَاتِ جَمِيْعَاً فِيْ تَكَسِّيْهَا

وَقِيْلَ لِلْمُصْطَفَى عَنْ حُسْنِ فِعْلَتِهِ   مَعْهَا وَمَا عَهِدَتْهُ قَبْلُ آتِيْهَا

فَقَالَ : مَا بَرَّ بِيْ مِنْ بَعْدِ عَمِّيَ طَا   لِبٍ سِوَاهَا لِذَا إِنِّيْ أُكَافِيْهَا

وَإِنْ أَضَفْنَا إِلَى هٰذَا ٱلْفَخَارِ فَخَا   رَ ٱلْمُرْتَضَى وَغَذَاهُ دَرُّ أَثْدِيْهَا

وَإِنَّهَا أَوْجَدَتْ لِلنَّاسِ قُطْبَ هُدَى   بَعْدَ ٱلرَّسُوْلِ إِلَى ٱلْإِيْمَانِ يَهْدِيْهَا

وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِيْ ذَاعَتْ مَفَاخِرُهُ   هُوَ ٱبْنُهَا وَمَبَادِيْهِ مَبَادِيْهَا

قُلْنَا لَفَاطِمَةُ خَيْرُ ٱلنِّسَاءِ كَمَا   قَالَ ٱلرَّسُوْلُ وَمَنْ إِلَّاهُ يُدْرِيْهَا

ولادة أمير المؤمنين

فِيْ رَحْبَةِ آلْكَعْبَةِ آلزَّهْرا قَـدِ آنْبَثَقَتْ ... أَنْوَارُ طِفْلٍ وَضَـاءَتْ فِيْ مَغَانِيْهَـا[1]

وَآسْتَبْشَـرَ آلنَّـاسُ فِيْ زَاهِيْ وِلاَدَتِـهِ ... قَـالُـوْا : آلسُّعُـوْدُ لَـهُ لا بُـدَّ لاَقِيْهَـا

قَـالُوْا : آبْنُ مَنْ فَـأُجِيْبُوْا : إِنَّـهُ وَلَدٌ ... مِنْ نَسْلِ هَاشِمَ مِنْ أَسْمَى ذَرَارِيْهَـا

هَنُّـوْا أَبَـا طَـالِبِ آلْجَـوَّادَ وَالِـدَهُ ... وَآلأُمَّ فَـاطِـمَـةُ هَيُّـوْا نُـهَـنِّـيْـهَـا

إِنَّ آلرَّضِيْعَ آلَّـذِي شَامَ آلضِّيَـاءَ بِبَيْـ ... ـتِ آللَّهِ عِـزَّتُـهُ لاَ عِـزَّ يَحْكِيْهَـا

أَمَّـا آلْوَلِيْـدُ فَلاَقَى آلأَرْضَ مُبْتَسِمَـاً ... فَمَـا رَغَـا رَهَبَـاً مَـا كَـانَ حَـاشِيْهَـا

إِلَى آلنِّسَـاءِ آلَّتِيْ حَوْلَيْـهِ قَدْ نَـظَرَتْ ... عَيْنَـاهُ نَـظْرَةَ مُسْتَجْـلٍ خَـوَافِيْهَـا

---

(١) كانت ولادة سيدنا ومولانـا أمير المؤمنين في العـام الثلاثين لـولادة المصطفى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام على ما حقق المحققون فتكون ولادته الشريفة سنـة ٦٠١ مسيحية . ومن بشائـر سعده عليه السلام أنّـه ولد في الكعبـة كرّمهـا الله ولدتـه أمّه فيهـا فاستبشر بذلك أبوه وعمومته وعند ولادتـه الشريفـة دعته أمّـه حيدرة ومعنى هـذه الكلمة الأسـد فكأنّهـا أرادت أن تسمّيه بـاسم أبيها فلمـا وقع نـظر أبيه أبي طـالب عليه تـوسّم بمـلامحه العـلاء ودعاه عليـاً وقد صـدّقت الأيـام فـراسته فكـان عليه السلام عليـاً في الـدنيـا والآخرة .

وعـام مـولـد سيـدنـا أميـر المؤمنين عليه السلام هـو العـام المبـارك الـذي بُـدىءَ فيـه بـرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فـأخذ يسمـع الهتاف من الأحجـار والأشجار ومن السمـاء وكشف عن بصره فشاهد أنواراً وأشخاصاً وفي هـذا العام ابتـدأ بالتبتـل والانقطاع والعـزلة في جبـل حرّاء وكان رسول الله يتيمن بذلك العام وبولادة سيدنـا علي عليهما وعلى آلهمـا الصلاة والسلام وكان يسميه « سنة الخير وسنة البركة » وقال المصطفى لأهله عندما بلغته بشرى ولادة المـرتضى « لقد ولـد لنا الليلة مـولود يفتـح الله علينا بـه أبـوابـاً كثيـرة من النعمـة والـرحمة » وكـان قولـه هذا أول نبـواته فـإنّ المرتضى عليه السلام كـان ناصـره والحامي عنـه وكاشف الغماء عن وجهه بسيفه ثبّت الإسلام ورسخت دعائمه وتمهدت قواعده .

وَهُنَّ أَعْجَبْنَ بِٱلْمَوْلُوْدِ شُمنَ بِهِ   شِبْلاً بِبُنَيَّتِهِ سُبْحَانَ بَانِيْهَا

وَقُلْنَ : فَاطِمُ قَدْ جَاءَتْ بِحَيْدَرَةٍ   يَذُبُّ عَنْ قَوْمِهِ ٱلْعُدْوَى وَيَحْمِيْهَا

فَرَاقَ فَاطِمَةً وَٱلطِّفْلُ بَيْنَ يَدَيْـ   ـهَا قَوْلَةٌ سَمِعَتْهَا مِنْ جَوَارِيْهَا

وَٱسْتَبْشَرَتْ ثُمَّ قَالَتْ : وَالِدِيْ أَسَدٌ   فَبِٱسْمِهِ صِرْتُ أُسْمِيْهِ بِخَافِيْهَا

ثُمَّ أَبُوْ طَالِبٍ وَافَى حَلِيْلَتَهُ   وَطِفْلَهَا وَٱنْثَنَى صَفْواً يُحَالِيْهَا

وَهَمَّ بِٱلطِّفْلِ يَسْتَجْلِيْ مَلامِحَهُ ٱلْـ   ـزُّهْرَا فَأَلْقَى ٱلْمَعَالِيْ كُوِّنَتْ فِيْهَا

وَقَالَتِ ٱلإِمُّ: يَا بُشْرَى بِحَيْدَرَةٍ   بُشْرَى أَبَا طَالِبٍ وَافَيْتُ أُسْدِيْهَا

أَجَابَهَا: بَلْ عَلِيٌّ إِنَّنِيْ لأَرَا   هُ بَالِغاً ذُرْوَةَ ٱلْعَلْيَا وَرَاقِيْهَا

اَللّٰهُ أَكْبَرُ مِنْ تِلْكَ ٱلْفَرَاسَةِ بِٱلْـ   ـمَوْلُوْدِ وَٱلْوَالِدُ ٱلْمُفْضَالُ رَائِيْهَا

قَدْ حَقَّقَتْهَا ٱللَّيَالِيْ بِٱلْوَلِيْدِ فَأَمْـ   ـسَى بَيْنَ أَهْلِ ٱلْعُلَى وَٱلْمَجْدِ عَالِيْهَا

وَعَامُ مَوْلِدِهِ ٱلْعَامُ ٱلَّذِيْ بَدَأَتْ   بَشَائِرُ ٱلْوَحْيِ تَأْتِيْ مِنْ أَعَالِيْهَا

فِيْهِ ٱلْحِجَارَةُ وَٱلأَشْجَارُ قَدْ هَتَفَتْ   لِلْمُصْطَفَى وَهْوَ رَائِيْهَا وَصَاغِيْهَا

وَإِذْ دَرَى ٱلْمُصْطَفَى فِيْهِ وِلادَةَ مَوْ   لانَا ٱلْعَلِيِّ غَدَا بِٱلْبُشْرِ يُطْرِيْهَا

وَبَاتَ مُسْتَبْشِراً بِٱلطِّفْلِ قَالَ بِهِ   لَنَا مِنَ ٱلنِّعَمِ ٱلزَّهْرَاءِ صَافِيْهَا

تربية أمير المؤمنين

عَطْفُ ٱلرَّسُوْلِ عَلَى أَفْرَادِ عِتْرَتِهِ   لَقَدْ تَنَاوَلَ دَانِيْهَا وَنَائِيْهَا[1]

وَنَالَ جَمْعَهُمُ مِنْ فَيْضِ رَحْمَتِهِ   مَفَاخِراً لَيْسَ مِنْ فَخْرٍ يُدَانِيْهَا

(١) في السنة السادسة من ولادة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام منيت قريش بأزمة قحط شكاها الناس وتضرّروا منها فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما امتاز به من الشفقة والحنوّ وصلة الرحم والوفاء أن يخفف عن عمّه أبي طالب وهو كثير العيال مؤونتهم فسار إلى =

عَنْهُ مُواصَلَةُ ٱلْأَرْحَامِ قَدْ تَخِذَتْـهَا ٱلنَّاسُ إِذْ كَانَ آتِيْهَا وَمُوْصِيَهَا

وَذَاتُ عَامٍ بِقَحْطِ ٱلْعَيْشِ قَدْ مُنِيَتْ قُرَيْشُ حَتَّى تَعَالَى صَوْتُ شَاكِيْهَا

وَأَوْشَكَ ٱلْجُوْعُ أَنْ يُفْنِيْ جَمَاعَتَهَا وَٱلْجُوْعُ لِلنَّاسِ مِنْ أَدْهَى دَوَاهِيْهَا

وَإِنَّ أَشْقَى ٱلْوَرَى حَالاً وَأَتْعَبُهُمْ عَيْشَاً وَأَقْلَقُهُمْ بَالاً مُعِيْلِيْهَا

وَلَمْ يَفُتْ أَحْمَدَاً أَنَّ ٱلْمَصِيْبَةَ قَدْ نَالَتْ أَبَا طَالِبِ ٱلسَّامِيْ دَوَاعِيْهَا

وَإِنَّهُ ذُوْ عِيَالٍ بَاتَ يَعْجُزُ عَنْ حَاجَاتِهَا وَهْوَ يَغْدُوْهَا وَيُكْسِيْهَا

وَقَالَ فِيْ نَفْسِهِ : إِنِّيْ لِعَمِّيَ مَدْ يُوْنٌ وَدَيْنَتُهُ قَدْ آنَ أُوْفِيْهَا

أَعَالَنِيْ بَعْدَ جِدِّيْ غَيْرَ مُطَّلِبٍ أَجْرَاً إِعَالَةَ بِرٍّ لَسْتُ نَاسِيْهَا

فَهَلْ مِنَ ٱلْعَدْلِ إِذْ ضَاقَتْ مَعِيْشَتُهُ أَنْ لَا أَقُوْمَ بِنُعْمَى كَانَ مُوْلِيْهَا

وَأَعْمَلَ ٱلرَّأْيَ فِيْ تَرْفِيْهِ عِيْشَةِ عَمٍّ كَانَ مِنْ أَوْسَعِ ٱلْأَسْيَادِ تَرْفِيْهَا

فَجَاءَ حَمْزَةَ وَٱلْعَبَّاسَ إِنَّهُمَا عَمَّاهُ بِالرَّغْبَةِ ٱلْعَلْيَاءِ يُسْدِيْهَا

فَقَالَ : هَيَّ بِنَا هَيَّ نُخَفِّفُ عَنْ عَمِّيْ أَبِيْ طَالِبٍ بَلْوَى يُعَانِيْهَا

بِأَخْذِنَا نَفَرَاً مِنْ وُلْدِهِ وَلَنَحْـنُ ٱلْيَوْمَ أَوْلَى بِهَا مُنْهُ نُرَبِّيْهَا

فَمَا أَبَى دَعْوَةَ ٱلْهَادِيْ وَرَغْبَتَهُ عَمَّاهُ بَلْ وَافَقَا قَالاَ : نُلَبِّيْهَا

وَصَاحَبَاهُ فَسَارُوا يَقْصِدُوْنَ دِيَا رَةَ أَبُوْ طَالِبِ ٱلْمِفْضَالُ يَثْوِيْهَا

= عمّيه الحمزة والعباس وقال لهما ألا نحمل ثقل أبي طالب في هذا المحل فنأخذ بعض أولاده ونكفيه حاجتهم فقالا نعم وأصبت وسارا معه إلى دار أبي طالب حيث شافهوه بقصدهم فما أبى وقال لهم دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم إذ كان شديد الحب لعقيل فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً وأخذ محمد صلى الله عليه وآله وسلم علياً وقال قد اخترت من اختاره لي الله علياً . ومن هذا التاريخ كفل المصطفى المرتضى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام .

وَأَنْبَئُوْهُ فَلَمْ يَرْفُضْ بِرَغْبَتِهِمْ وَسَرَّهُ أَنَّ حُبَّ ٱلْخَيْرِ دَاعِيْهَا

وَقَالَ أَبْقُوْا عَقِيْلاً لِيْ وَدُوْنَكُمْ ٱلْأَ م وْلَادُ رَاشِدُهَا ٱلذَّاكِيْ وَنَاشِيْهَا

فَٱخْتَارَ طَالِبَ عَبَّاسٌ وَجَعْفَرَ حَمْـــزَةُ وَأَحْمَدُ مِنْهَا خَارَ عَالِيْهَا

فَٱخْتَصَّ مِنْ وِلْدِهِ ٱلْأَنْجَابِ أَفْضَلَهَا مَخَايِلاً مَا ٱخْتَفَتْ عَنْهُ خَوَافِيْهَا

وَقَالَ قَدْ خِرْتُ مَنْ رَبِّيْ تَخَيَّرَهُ لِيْ خِيْرَةُ ٱللَّهِ خَيْرُ ٱلنَّاسِ يَبْغِيْهَا

هُوَ ٱلْعَلِيُّ بِهِ وَافَى خَدِيْجَتَهُ هَدِيَّةٌ قَالَ بُشْرَى جِئْتُ أَهْدِيْهَا

عَلَى يَدَيْهَا وَفِيْ سَامِيْ عِنَايَتِهِ لَقَدْ نَشَا سَيِّدُ ٱلتَّقْوَى وَحَامِيْهَا

وَحَسْبُهُ إِذْ تَرَبَّى فِيْ ظِلَالِهِمَا أَنَّ ٱلْبَرِيَّةَ تَدْعُوْهُ مُرَبِّيْهَا

حديث أمير المؤمنين عن نشأه

وَحَدَّثَ ٱلْمُرْتَضَى عَنْ نَشْئِهِ بِحِمَى طَهَ وَعَنْ نِعَمٍ قَدْ كَانَ لَاقِيْهَا[1]

وَفَاخَرَ ٱلْعَرَبَ ٱلْعَرْبَا بِهَا وَبِهِ وَبِٱلْفِعَالِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَ آتِيْهَا

---

(١) لم نرَ أقرب لتفهيم مطالع هذه القصيدة المباركة حال المرتضى مع المصطفى وهو في ظلاله من نقل خطبة خطبها أمير المؤمنين بعد انقضاء أمر الخوارج في النهروان فإنّه عليه السلام أجمل حالته في نشأته الأولى بما عرف عنه من البلاغة العجيبة بحيث صوّرها صورة تقرب لتصور قارئها وسامعها حتى ليحسب نفسه يشاهد ذينك النيرين عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام بعينيه وهذا نص تلك الخطبة النفيسة : « أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب ، (أي عندما كان يحارب لنصرة الإسلام في المغازي النبوية) وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر ، (أمّا كسره ربيعة فكان في تلك المغازي المقدسة . وأمّا كسره لمضر فكان بقتله كثيراً من رؤسائهم في مواقع الجمل وصفين لعصيانهم خلافته وانضمامهم إلى معاوية وعائشة) وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرابة القريبة ، والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليد ، يضمني إلى صدره ، ويكنفني في فراشه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ، وما وجد لي كذبةً في قول ، ولا خطلةً في فعل ، ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله وسلم من لدن إن كان فطيماً =

فقَالَ : مِنْ صِغرِ سِنِّي قَدْ أَخَذتُ بِكَلْـــكَـلِ ٱلْأَعَارِبِ لَمْ أَرْهَبْ تَجَمّيْهَـا
وَمَـا رَبِيْعَـةُ تَـنْسَـانِـيْ وَلَا مِضَـرُ مُذْ كُنْتُ فِيْ نَصْرَةِ ٱلْإِسْلَامِ غَازِيْهَا
عَلِمْتُمْ مَـوْضِعِيْ مِنْ أَحْمَـدٍ وَقَـرَا بَتِيْ ٱلْقَـرِيْبَـةُ مِنْـهُ ٱلْكُـلُّ دَارِيْهَـا
وَإِنَّ مَنْـزِلَتِـيْ مِنْـهُ مُـخَصَّـصَـةٌ مَـا فِيْ ٱلْخَـلَائِقِ طُـرًّا مَنْ يُـدَانِيْهَـا
نَعَمْ فَقَـدْ كُنْتُ أَثْـوِيْ حِجْـرَهُ وَأَنَـا طِفْـلٌ وَلِيْ عَطْفَـةُ ٱلْإِشْفَاقِ يُبْـدِيْهَـا
وَطَـالَمَـا ضَمَّنِيْ لُـطْفَـاً وَمَـرْحَمَـةً لِصَـدْرِهِ ضَمَّـةً أَلْقَى ٱلْهَنَـا فِيْهَـا
وَكَـانَ يَكْنُفُنِيْ وَهْـوَ ٱلْمُمَجَّـدُ فِيْ فِـرَاشِـهِ كِنْفَـةً بَـادٍ تَـحَنِّـيْـهَـا
يُمِسُّنِيْ كَـرَمَـاً جُثْمَـانَـهُ وَيُشِمُّـــنِيْ نَـوَافِـجَ مِسْـكٍ فَـاحَ نَـامِيْهَـا
وَكَـانَ يَمْضَغُ لِيْ فُـوْهُ ٱلـطِّعَـامَ حُنُـــوَّاً وَٱلْمَضَـاغَةُ لِيْ بِـٱلرِّفْقِ يُعْـطِيْهَـا
وَلَمْ يَجِـدْ كِـذْبَـةً لِيْ فِيْ صَحَـابَتِـهِ كَـلَّا وَلَا خَـطْلَةً قَـدْ كُنْتُ آتِيْهَـا
وَهْوَ ٱلرَّسُوْلُ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ يَصْحَبُـهُ مِنَ ٱلْمَـلَائِكَةِ ٱلْأَطْهَـارِ سَـامِيْهَـا(١)

= أعظم ملك من ملائكته ، يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن أخلاق العالم ، ليله ونهاره ، ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه ، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ، ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور في كل سنة بحرّاء ، (إسم جبل معروف في مكة كرّمها الله) فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخديجة وأنا ثالثهما ، أرى نور الوحي والرسالة ، وأشمّ ريح النبوّة ولقد سمعت رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، فقلت : يا رسول الله ما هذه الرنّة ؟ قال هذا الشيطان قد أيس من عبادته ، إنّك تسمع ما أسمع ، وترى ما أرى ، إلّا أنّك لست بنبيّ ، ولكنك لوزير وإنّك لعلى خير » اهـ .

(١) يخلق بنا هنا أن نجمل القول عن بداءة الوحي حيث كان المرتضى يشاهد ما يحدث لرسول الله عياناً على ما أشار في خطابه النفيس فنقول : عندما بلغ محمد صلى الله عليه وآله وسلم الأربعين من عمره السعيد بعثه الله رحمة للعالمين ورسولاً للناس أجمعين وأول ما بدىء به رسول الله من النبوّة الرؤيا الصالحة فكان لا يرى شيئاً في نومه إلّا كان =

مُـذْ كَـانَ طِفْـلاً فَـطِيْمَـاً لاَ يُفَـارِقُـهُ   فِـيْ نُهْـرِهِ وَإِذَا أَدْجَـتْ لَيَـالِـيْهَـا

وَكَـانَ يُسْلِكُـهُ طُـرْقَ آلْمَكَـارِمِ بَـلْ   أَسْمَى آلْخِلاَلِ بِهِ قَـدْ كَانَ خَـاطِيْهَا

وَكُنْتُ أَتْبَعُــهُ فِيْهَـا آتِّبَـاعَ فَصِيْـــلٍ   أُمَّــهُ لَسْتُ أَسْهُــوْ عَنْ تَلَقِّيْهَـا

وَكَـانَ فِيْ كُـلِّ يَـوْمٍ رَافِعَـاً عَلَمَـاً   لِيْ مِنْ خَـلاَئِـقِـهِ حَتَّـى أُرَانِيْـهَـا

وَكَـانَ يَـأْمِـرُنِيْ بِـآلإِقْتِـدَاءِ بِـهِ   أَوَامِـرَاً مَـا أَنَـا مِمَّنْ يُجَـافِيْـهَـا

وَكَـانَ فِيْ كُـلِّ عَـامٍ يَخْتَلِيْ بِـرُبَى   حَـرَّاءَ يَرْجُـوْ هُدَى آلْبَـارِيْ وَيَبْغِيْهَا

فَـكُـنْـتُ ثَـمَّ أَرَاهُ لاَ يَـرَاهُ سِـوَا   يَ فِـيْ عِبَـادَتِـهِ وَآللَّـهُ رَائِيْـهَـا

يَـوْمَ آلَّذِيْ كَـانَ فِيْهِ آلْمُسْلِمُـوْنَ ثَلاَ   ثَـةٌ وَلاَ رَابِـعٌ فِيْ آلنَّـاسِ تَـالِيْهَـا

خَـدِيْجَـةٌ وَأَنَـا وَآلْمُصْـطَفَى وَبِنَـا   دِيَـارَةُ آلـدِّيْنِ قَـدْ شِيْـدَتْ مَبَـانِيْهَـا

أَرَى ضِيَا آلْوَحْيِ مَعْ نُوْرِ آلرِّسَالَةِ فِيْ   أَشِعَّـةٍ جَـلَّ رَبُّ آلْعَـرْشِ مُنْشِيْهَـا

أَشُـمُّ ثَـمَّ عَـبِيْـرَاً لِلنُّبُـوَّةِ فَـوَّا   احـاً وَنَفْحَتُهَـا قَـدْ ضَـاعَ مَقْـدِيْهَـا

وَقَـدْ سَمِعْـتُ بِـأُذْنِيْ رَنَّـةً وَمَـثَـا   نِيْ آلْوَحْيِ جِبْرِيْـلُ لِلْهَادِيْ يُؤَدِّيْهَـا

= في اليقظة كما رأى . وظلّ يرى هذه الأحلام الصالحة مدّة ستة أشهر . وحدَّث ﷺ خديجة عن هذه الأحلام فقال « إذا خلوت سمعت نداءً أن يا محمد يا محمد وأسمع صوتاً وقد خشيت أن يكون لهذا أمرٌ وأخشى أن يكون بي جنون » وكانت خديجة تشجعه بأقوالها العذبة . ثمَّ إنّ المصطفى طابت له الخلوة فلم يكن أحبُّ إليه من أن يخلو وحده في جبل حرَّاء فكان يتعبد فيه إلى الله الليالي ذوات العدد وكان كلما فرغ زاده عاد إلى مكة وتزوَّد إلى خلوة ثانية . وكان يصحبه بخلوته هذه ابن عمّه وربيبه سيدنا عليّ كما رأيت في ظاهر قوله في خطابه . وما زال كذلك إلى الشهر الذي أراد الله تعالى به ما أراد من كرامة المصطفى فخرج ﷺ إلى حرّاء . وقد اختلف المؤرخون في ذلك الشهر فقال بعضهم أنّه رمضان وآخرون أنّه ربيع أول وآخرون أنّه رجب . =

فَقُلْتُ رَنَّةُ مَنْ ذِيْ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى قَدْ دَوَى ٱلْيَوْمَ فِيْ أُذْنَيَّ دَاوِيْهَا

= فبينما هو في ذات يوم قائم على جبل حرَّاء إذ ظهر له شخص وقال : أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله لهذه الأمة . ثم أخرج له قطعة نمط من حرير مرصعة بالجواهر ووضعها في يده وقال : اقرأ قال : والله ما أنا بقارىء ولا أدري في هذه الرسالة كتابة قال المصطفى : فضمني إليه وغطني حتى بلغ مني الجهد . فعل ذلك بي ثلاثاً وهو يأمرني بالقراءة ثمَّ قال اقرأ فقلت : ماذا أقرأ وما كنت أقول لك إلاّ افتداءً منه أن يعود إليَّ بمثل ما صنع قال : إقرأ باسم ربّك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربّك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، فقرأتها وانصرف عنّي وهببت راجعاً إلى مكة حتى إذا كنت في شظّ من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل فوقفت أنظر إليه فإذا جبريل على صورة رجل واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلاّ رأيته كذلك فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي إلى أن انصرف عنّي فانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست إليها وحدثتها بالذي رأيت وسمعت فقالت : أبشر يا ابن عمّي واثبت فوالذي نفسي بيده إنّي لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة » .

نقول هكذا ابتدأ جبريل يظهر للمصطفى وينقل إليه الوحي الإلّهيّ على أنّ مقدمات ظهور هذا الوحي بدأت من ولادته صلى الله عليه وآله وسلم والعناية الإلّهيّة شملته منذ كان في بطن أمه وما زالت تحوطه من ذلك اليوم بملك من خير ملائكته كان يصحبه ليله ونهاره على ما قال سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وهو أصدق المخبرين بالإجماع وأقدم المصاحبين بغير نزاع .

ومن الثابت الذي لا ريب فيه أن رسول الله منذ ضمَّ عليًّا إليه كان لا ينفكُّ عن مصاحبته فكان يشاهد منذ نعومة أظفاره عناية الله بمحمد ويسمع ما يسمع وينظر ما ينظر ويستفهم منه عمّا لا يفهم فبيّن له المصطفى ما أشكل عليه حتى ساعة ظهور جبريل للمصطفى وتبشيره بالنبوة وما تلا ذلك من رنّة الشيطان وهي زفرة الخاسر على ما قرأنا في خطبة المرتضى فلا غرو بعد هذا إذا تفرّد أمير المؤمنين عليه السلام دون المسلمين بإدراك كنه الإسلام وتمسّك بأحكامه وتفانى في نصرته وأعجز في شرح قواعده وتبيان مراميه .

فَقَالَ قَدْ أَيسَ ٱلشَّيْطَانُ مِنْ عَبَدَتِهِ وَهْيَ زَفْرَتُهُ فِيْ ٱلْيَأْسِ مُبْدِيْهَا
وَقَالَ تَسْمَعُ مَا قَدْ بِتُّ أَسْمَعُهُ وَأَنْتَ رَاءٍ أُمُوْراً بِتُّ رَائِيْهَا
أَصِخْ فَلَسْتَ نَبِيَّاً بَلْ وَزِيْرَ نَبِيِّي وَٱلْوِزَارَةُ مَا إِلاَّكَ كَافِيْهَا
وَٱبْشِرْ فَأَنْتَ عَلَى خَيْرٍ وَعَافِيَةٍ بِشَارَةٌ كُنْتُ أَيْمُ ٱللَّهِ رَاضِيْهَا

أمير المؤمنين ومعجزة الشجرة

رَوَى ٱلأَمِيْرُ وَمَا مِثْلُ ٱلأَمِيْرِ خَبِيْرٌ بِٱلرِّوَايَاتِ عَنْ طَهَ لِيَرْوِيْهَا[1]
فَقَالَ كُنْتُ مَعَ ٱلْهَادِيْ مُلاَزِمَهُ فِيْ مَكَّةٍ نَتَمَشَّى فِيْ مَمَاشِيْهَا

---

(١) إنّ الحديث الوارد في معجزة الشجرة كثير مستفيضٌ قد ذكره المحدّثون في كتبهم على نحو ما رواه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته وهو شاهد عيان وبعضهم روى أنّ الذين اقترحوا على المصطفى معجزة الشجرة من قريش هم ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب وجماعة من أصحابه قالوا وكان هذا الرجل أشدّ قريش على النبوّة . وهذه رواية أمير المؤمنين قال : « ولقد كنت معه صلى الله عليه وآله وسلم لما أتاه الملأ من قريش فقالوا له يا محمد إنّك قد ادعيت عظيماً لم يدّعه آباؤك ولا أحدٌ من بيتك ، ونحن نسألك أمراً إن أنت أجبتنا إليه وأريتناه علمنا أنّك نبيّ مرسل ، وإن لم تفعل علمنا أنّك ساحرٌ كذّاب ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : وما تسألون ؟ قالوا : تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ الله على كل شيء قدير ، فإن فعل الله لكم ذلك أتؤمنون وتشهدون بالحق ؟ قالوا : نعم ، قال فإنّي سأريكم ما تطلبون وإنّي أعلم أنكم لا تفيئون إلى خير ، وأن فيكم من يطرح في القليب (ومعنى القليب البئر وهذا القول من معجزات نبوّة المصطفى وأخباره عن الغيب فإنّه من ذلك العهد أشار بأنّ في قريش قوماً سيشتدون في الكفر ويحاربونه ويكون نصيبهم الطرح في القليب كعتبة وشيبة ابن ربيعة بن عبد شمس وعمر بن هشام بن المغيرة المكنّى أبا جهل وغيرهم فإنّهم طرحوا في قليب بدر بعد انقضاء الحرب) ومن يحزّب الأحزاب (وأشار المصطفى بهؤلاء إلى أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية والد معاوية وأمثاله ممن كانوا أعدى أعداء النبوّة يحزّبون الأحزاب على المصطفى ويحرضون على قتاله وظلّوا كذلك =

لَمَّـا أَتَتْـهُ قُـرَيْشٌ وَهْـيَ مُنْكِـرَةٌ　عَـلَيْـهِ بَعْـثَتَـهُ إِذْ رَاحَ يُـبْـدِيْـهَـا
وَافَتْ إِلَيْـهِ وَقَـالَتْ غَيْـرَ حَـاشِيَـةٍ　مِنَ ٱلـرَّسُوْلِ وَلَمْ تَـرْهَبْ مُفَـاهِيْهَـا
قَـدِ ٱدَّعَيْتَ عَظِيْمَـاً مَـا ٱدَّعَـاهُ سِـوَا　كَ مِنْ قُـرَيْشٍ عَلَى سَامِيْ مَعَـالِيْهَـا
وَنَحْنُ نَسْـأَلُ أَمْـرَاً فِيْ إِجَـابَتِـهِ　تَصُـحُّ دَعْوَى لَقَـدْ أَصْبَحْتَ دَاعِيْهَـا
مِنْهَـا نُحَقِّقُ إِنْ كُنْتَ ٱلنَّـبِيَّ رَسُـوْ　لَ ٱللَّهِ لِلنَّـاسِ قَـدْ أَقْبَلْتَ تَهْـدِيْهَـا
أَوْ سَـاحِرَاً كَـاذِبَـاً وَافَيْتَ تَسْحَـرُهَـا　وَلِلضَّـلاَلَـةِ تَبْغِيْ أَنْ تُـخَـطِّيْهَـا
فَقَـالَ صَلَّى عَلَيْـهِ ٱللَّهُ مُبْتَسِمَـاً　أَيُّ ٱلْمَسَـائِلِ جِئْتُمْ تَسَـأَلُـوْنِيْهَـا
قَـالُوْا : أَمَـامَكَ أَشْجَـارٌ أَلاَ ٱدْعُ لَنَا　تَـٱللَّهِ وَاحِـدَةً تَـأْتِيْـكَ تَجْـرِيْهَـا
نَـادَاهُـمُ : إِنَّ رَبِّيَ دُوْنَ قِـدْرَتِـهِ　مَـا تَعْجَـزُ ٱلنَّـاسُ عَنْـهُ فِيْ مَـآتِيْهَـا

= إلى أن آتى الله المصطفى النصر فدخل مكة كرَّمها الله) . ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم : يا أيّتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أنّي رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يديَّ بإذن الله ، والذي بعثه بالحقّ لانقلعت بعروقها وجاءَت ولها دويٌّ شديد وقصفٌ كقصف أجنحة الطير حتّى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرفرفةً وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وببعض أغصانها على منكبيَّ وكنت عن يمينه صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما نظر القوم إلى ذلك قالوا علواً واستكباراً : فمرها فليأتك نصفها ويبقى نصفها ، فأمرها بذلك فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشدّه دوياً ، فكادت تلتفُّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالوا كفراً وعتواً : فمر هذا النصف فليرجِع إلى نصفه كما كان فأمره صلى الله عليه وآله وسلم فرجع ، فقلت أنا (أي أمير المؤمنين) لا إله إلاّ الله إنّي أول مؤمن بك يا رسول الله ، وأول من أقرَّ بأنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوَّتك ، وإجلالاً لكلمتك ، فقال القوم كلّهم : بل ساحر كذّاب عجيب السحر خفيف فيه ، وهل يصدقك في أمرك إلاّ مثل هذا ؟ (وهم يعنوني) وإنّي لمن قومٍ لا تأخذهم في الله لومة لائم ، سيماهم سيما الصدّيقين ، وكلامهم كلام الأبرار ، عمّار الليل ومنار النهار ، متمسكون بحبل القرآن ، يحيون سنن الله وسنن رسوله ، لا يستكبرون ولا يعلون ولا يغلُّون ولا يفسدون ، قلوبهم في الجنان ، وأجسادهم في العمل » اهـ .

فـإنْ أجـابَ نِـداكُمْ فِيْ سُؤالِكُمْ   هٰـذا بِمُعْجِـزَةٍ فِيْ ٱلْحالِ يـأْتِيْهـا

أتُؤمِنُـوْنَ وَتـأتُـوْنَ ٱلشَّهـادَةَ بِـٱلْـ   ـحَقِّ ٱلصُّـراحِ كَما تَبْدُوْ لِـرائِيْها

قالُوا : نعَمْ قالَ : إنِّيْ ٱلآنَ مُنْظِرُكُـمْ   هٰـذِيْ ٱلْعَجِيْبَةَ فِيْ سـامِيْ مَعـانِيْهـا

وَإنْ أكُنْ عـالِمـاً خـافِيْ نُفُـوسِكُمْ   فَـلا تَفِيءُ إلَى خَيْـرٍ مَـطاوِيْـهَـا

وَفِـيْكُـمُ فِئَـةٌ خُصَّ ٱلْقُـلَيْبُ بِـهَـا   نَعَمْ وَأُخْـرَى رَعـايَـايَ تُجَـزِّيهَـا

ثُمَّ دَعـا بِٱسْمِ بـارِيْهِ ٱلشُّجَيْـرَةَ دَعْـ   ـوَةَ ٱلْـمُؤَكِّـدِ مِنْهـا أنْ تُـلَبِّـيْـهَـا

وَقـالَ : إنْ كُنْتِ حقّـاً تُؤْمِنِيْنَ بِيَـوْ   مِ ٱلْحَشْرِ وَٱللّهِ بارِيْ ٱلْخَلْقِ ذارِيْها

وَإنَّـنِيْ لَـرَسُـوْلُ ٱلـلّهِ فَـٱنْقَـلِعِيْ   مَعَ ٱلْعُرُوْقِ ٱلَّتِيْ ٱلأرْضُـوْنَ تَغْذِيْهَـا

وَسـارِعِيْ ٱلسَّيْرَ نَحْـوِيْ غَيْـرَ وانِيَـةٍ   بِـطاعَـةٍ رُحْتُ مِنْـكِ ٱلآنَ أبْغِيْهَـا

قـالَ ٱلإمـامُ : وَمَنْ بِـٱلْحَقِّ بَعْثَتُـهُ   ألِيَّــةً صَــدَقَ ٱلْـتـبْـيـانَ ٱلِـيْـهَـا

مَـا أمْهَلَتْ فَـرَأيْنـاهَـا إنِ ٱنْقَلَعَتْ   مَـعَ ٱلْعُـرُوْقِ وَقَـدْ لَبَّتْ مُنـادِيْهَـا

وَأقْبَلَتْ وَلَهَـا قَصْفٌ كَقَصْفِ كَـوا   سِـرِ ٱلـطُّيُـوْرِ إذا أبَـدَتْ تَهَيِّيْهَـا

وَقَـدْ سَمِعْنَـا حَفِيْفَـاً فِيْ أسَـامِعِنَـا   لَـهَـا وَمَعْـهُ دَوِيٌّ كَـادَ يُـؤْذِيْـهَـا

حَتَّى إذَا مَـا دَنَتْ مِنْ أحْمَـدٍ وَقَفَتْ   لَـدَيْـهِ مُبْـدِيَـةٌ طَـوْعَـاً تَـذَلُّيْهَـا

وَرَفْـرَفَتْ ثُمَّ ألْقَتْ فَـوْقَ هَـامَتِـهِ   بِغُصْنِهَـا ٱلسَّـامِقِ ٱلأعْلَى يُحَيِّيْهَـا

وَبَعْضُ أغْصَـانِهَـا قَـدْ ظَلَّلَتْنِي حَيْــ   ـثُ كُنْتُ فِيْ ٱلْقُرْبِ مِنْهُ فِيْ تَلَقِّيْهَـا

وَعِنْـدَ مَا رَأتِ ٱلنَّـاسُ ٱلْعَجِيْبَـةَ قَـا   لَتْ وَهْيَ تُكْبِـرُهَـا وَٱلْكُفْـرُ مُعْمِيْهَـا

مُـرْهَـا فَتَـرْجِـعْ ثُمَّ عُـدْ فَمُـرْ فَيُـوَا   فِيْ طَـائِعَـاً نِصْفُهَـا مِنْ دُوْنِ بَـاقِيْهَـا

فَكَانَ مَا ٱقْتَـرَحَتْ حَتَّى رَأيْتُ غُصُوْ   نَهَـا عَلَى ٱلْمُصْـطَفَى بَـادٍ تَجَمِّيْهَـا

قَـالَتْ عُتُوَّاً وَكُفْـرَاً : مُرْ لِيَـرْجَعَ هٰـــ   ـذَا ٱلنِّصْفُ وَٱلْهُزْءُ مَرْسُوْمٌ عَلَى فِيْهَا

فَعَادَ أَدْرَاجَهُ نِصْفُ آلشُّجَيْرَةِ لِلـ ـثَّانِيْ وَعَادَتْ كَمَا كَانَت بِمَاضِيْهَا
قَالَ آلْإِمَامُ: فَوَحَّدْتُ آلْمُهَيْمِنَ تَوْ حِيْدَاً بِأَلْفَاظِهِ إِذْ رُحْتُ تَالِيْهَا
وَقُلْتُ: إِنِّي يَا طَهَ لَأَوَّلُ مُؤْ مِنٍ بِأَنَّكَ هَادِي آلْخَلْقِ رَاعِيْهَا
وَأَوَّلُ آلنَّاسِ إِقْرَاراً بِطَاعَةِ هَـٰذِهِ آلشُّجَيْرَةِ تُدْنِيْهَا وَتُقْصِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ مِنْ قُرَيْشٍ وَهْيَ تَائِهَةٌ فِيْ ظِلْمَةِ آلْكُفْرِ تَغْشَاهَا دَيَاجِيْهَا
إِلَّا إِنِ آسْتَسْلَمَتْ لِلْعَيْنِ كَاذِبَةٌ عُيُوْنَهَا بِآلَّذِيْ شَامَتْ مَرَائِيْهَا
قَالَتْ: وَحَقِّكَ ذَا سِحْرٌ وَأَحْمَدُ سَحَّـ ـارٌ كَذُوْبٌ يُضِلُّ آلْخَلْقَ تُثْنِيْهَا
وَهَلْ يُصَدِّقُهُ إِلَّا كَذَا وَأَرا دُوْنِي بِقَوْلَتِهِمْ مُذْ أَسْمَعُوْنِيْهَا
وَإِنَّنِيْ آلْحَقَّ مِنْ قَوْمٍ بِنُصْرَتِهَا لِلْحَقِّ مَا خَشِيَتْ يَوْمَاً مُلِيْمِيْهَا
سِيْمَا آلثُّقَاةِ كَسِيْمَاهَا وَقَوْلَةُ أَهْـ ـلِ آلْبِرِّ قَوْلَتُهَا أَنْعِمْ بِوَاعِيْهَا
ضَاءَتْ بِأَعْمَالِهَا آلْحَسْنَاءِ أَنْهُرُهَا وَعَمَّرَتْ بِرِضَى آلْبَارِيْ لَيَالِيْهَا
وَآسْتَمْسَكَتْ بِعُرَى آلْقُرْآنِ وَهْيَ بِهَا سِنَّاتُ طَهَ وَرَبِّ آلْعَرْشِ تُحْيِيْهَا
مَا آسْتَكْبَرَتْ لَا وَلَا غَلَّتْ وَلَا حَقَدَتْ كَلَّا وَلَا أَفْسَدَتْ بِرٌّ حَوَافِيْهَا
أَجْسَادُهَا فِيْ فِعَالِ آلْخَيْرِ مُنْهَكَةٌ لَكِنَّ أَلْبَابَهَا آلْجَنَاتُ تَأْوِيْهَا
تَقُوْلُ: مِمَّا رَوَاهُ آلْمُرْتَضَى عُرِفَتْ هَـٰذِيْ آلْعَجِيْبَةُ فِيْ زَاهِي تَجَلِّيْهَا
كَمَا وَمِنْهَا عَرَفْنَا أَنَّ حَيْدَرَةٌ قَدْ كَانَ أَسْبَقَ إِيْمَاناً بِمُجْرِيْهَا

سبق أمير المؤمنين بالاسلام

ضَاءَ آلْهُدَى لِرَسُوْلِ آللَّهِ وَآنْبَثَقَتْ أَنْوَارُهُ وَإِلَـٰهُ آلْعَرْشِ مُسْنِيْهَا[1]

---

(١) إنّ السبق في الإسلام فضيلة مثابة نزل بها الوحي في آية ﴿ ربّنا اغفر لنا =

= **ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ فتعين على المسلمين أن يتلوا هذا الدعاء في صلواتهم إلى يوم القيامة وهم بها يستغفرون الله لأولئك السبّاقين الصالحين . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطري الذين سبقوا إلى الإيمان ويعلن فضلهم لأنّهم بسبقهم ذاك نصروا الدعوة التي جاء بها أيام كان الحول للمشركين والكفّار . والأحاديث النبوية مستفيضة بالشهادة لأمير المؤمنين على أنّه أول من دخل قلبه الإسلام بل إنّه منذ بدء عهده بالتكليف الشرعي كان مسلماً وعلى ذلك نستطيع أن نقول إنّه لم يعرف الشرك ولا عبد غير الواحد الأحد . ومسألة سبق الإمام الأكبر علي بن أبي طالب في الإسلام ما كانت لتقبل الجدل لو لم يظهر فيما بعد قوم ذوو حول وطول كان يهمهم صرف القلوب عنه فحاولوا الحطّ من قدره واختلقوا عليه ما اختلقوا وإذ انتهوا إلى سبقه إلى الإسلام عجزوا عن إيجاد سابق له يفضلونه عليه وإذ أعيتهم الحيلة عمدوا إلى التدجيل فقالوا إنّه أسلم صغيراً لا يدرك ما الإسلام بفضل وجوده في صحبة المصطفى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام وسهي عليهم أنّهم بهذا أيضاً أزادوا في مجده وفضله لأننا مع كل ذي إيمان نرى أنّ الله الذي اختار المصطفى ليكون رسوله ونبيّه اختار سيدنا أمير المؤمنين ليكون وزيره وعضده الأكبر في نشر دعوته وهيأه إلى ذلك بحصول القحط في قريش فكان سبباً لانتقال المرتضى من بيت أبيه إلى بيت ابن عمّه عليهما الصلاة والسلام . وبالبداهة إنّ العناية التي أعدّت المصطفى للدعوة هي نفس العناية التي أعدت المرتضى لتأييدها وإنّها لعناية الله بالألى اختارهم لنشر دينه .

ومما نذكره في سبق أمير المؤمنين في الإسلام هو أنّ المرتضى عليه السلام كان أزكى الناس بالإجماع يدلّك على ذلك ما نقل إلينا من خطبه وأقواله ورسائله وإجماع الناس على تفوّقه في العلم والبداهة نعرف أنّ الولد الذكيّ يكون موضع عناية والده أو مربّيه يسرّه ملازمته ومحادثته وهذا الذي كان فعلاً فإنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عندما اختصّ لنفسه الغلام عليّاً وهو في السادسة من عمره سرّه ما رآه من ذكائه فصحبه ولازمه وأكثر محادثته يدلك على ذلك ما قاله المرتضى عليه السلام وقد نقلناه فيما تقدّم أنّ المصطفى كان يأويه في حجره ويضجعه بجانبه ويصحبه إلى حرّاء في خلواته حتى كان يسمع ما يسمع المصطفى وينظر ما ينظر فلا عجب بعد هذا إذا اعتقدنا أنّ أمير المؤمنين فتح عينيه على هدى وهو يسمع جبريل ينقل الوحي إلى المصطفى فآمن قلبه إيماناً يقينياً لا يداخله =

وَمُـذْ أَتَتْ أَحْمَـدَ آلْهَـادِيْ نُبُـوَّتُـهُ   كَـانَ آلْـوَصِيُّ بِـإِيْمَـانٍ مُـلاقِيْهَـا

= شكّ ولا يشوبه أثر ريبة أو اعتراض .

ومن المعلوم أنَّ الأطفال يقتفون آثار الذين يربونهم فلا عجب إذا رأينا الغلام علياً يحـذو حذو مـربّيه العـظيم فيصلي صلاتـه ويتلو ما يتلقفـه من فيه من كلمـات التوحيـد والتشهد والاستغفار وهكذا كان يصلّي محمـد وعلي عليهما الصـلاة والسلام منـذ بداءة الوحي معاً والناس طرّاً لا تعـرف عن الإسلام شيئـاً ولذلـك كان حقّـاً وصدقـاً ما سمـع الناس من فم أمير المؤمنين ونقله الثقاة وهو « أنا عبد الله وأخـو رسول الله وأنـا الصدّيق الأكبـر لا يقولهـا غيري إلاّ كـذّاب ولقد صليت قبـل الناس سبـع سنين » أمّا الأحـاديث المروية عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عن سبق أمير المؤمنين في الإسـلام فيضيق عن استيعابهـا المقام وقد قالها في مواطن شتّى منها قوله وعلي إلى جـانبه والنـاس حولهمـا « هذا أول من آمن بي وصدّقني وصلّى معي » . وروى محمد بن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جدّه أبي رافع قـال أتيت أبا ذرّ بـالربـذة أودعه (وهـذا من كبار الصحـابة) فلمـا أردت الإنصراف قال لي ولا ناس معي « ستكون فتنة فاتّقـوا الله وعليكم بالشيـخ علي بن أبي طـالب فاتبعـوه فإنّي سمعت رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لـه : « . . . أنت أوّل من آمن بي ، وأول من يصافحني يوم القيامة ، وأنت الصدّيق الأكبر ، وأنت الفاروق الذي يفـرق بين الحق والبـاطل ، وأنت يعسـوب المؤمنين ، والمال يعسـوب الكـافـرين ، وأنت أخي ، ووزيري ، وخير من أترك بعدي ، تقضي ديني ، وتنجز موعـودي . . . اهـ » أقول وبعـد هذا الإجمال لا أراني بحاجة إلى الازديـاد من إقامـة البراهين على قضيـة كهذه يـدركها المطّلع على تاريخ صدر الإسلام بداهةً إذا لم يكن من المتعنتين .

وكان رسول الله إذا حضـرت الصلاة يخـرج إلى شعاب مكـة ومعه علي فيصلّيـان مستخفين من قومهما فيها فإذا أمسيا رجعا كذلك ثمَّ إنَّ أبا طالب عثـر مرةً عليهمـا وهما يصلّيان في المحل المعروف بالنخلة فـاستدعى ابنـه عليّاً إليـه وقال لـه أيّ بنيَّ ما هـذا الذي أنت عليه فقال يا أبت آمنت بالله ورسوله وصدقت ما جاء بـه ودخلت معه واتبعتـه فقال له أبو طالب أمّا أنه لم يدعك إلاّ إلى خير فالزمه .

وحـدث عفيف الكندي قـال كنت امرءاً تـاجـراً قـدمت للحج وأتيت العبـاس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة فبينما أنا عنده بمكة في المسجد إذا رجـل مجتمع (أي بلغ أشـده) خرج من خبـاء قريب منـه فنظر إلى الشمس فلمـا رآها مـالت تـوضـأ

فَقَدْ رَأَى ٱلْأَسْنَى يَضِيءُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهْوَ يَخْفِيْهِ لِيَخْفِيْهَا

وَكَانَ يَسْمَعُ جِبْرِيْلاً يُشَافِهُهُ بِهَا وَآيَاتُهَا ٱلزَّهْرَاءُ يُوْحِيْهَا

مِنْ قَبْلِ سَبْعِ سِنِيْنٍ مِنْ ظُهُوْرِ رَسُوْ لِ ٱللَّهِ بِٱلدَّعْوَةِ ٱلنَّاجِي مُلَبِّيْهَا

وَكَانَ حَيْدَرَةٌ مَا طَرَّ شَارِبُهُ فِيْ زَهْرَةِ ٱلْعُمْرِ يَسْتَجْلِي حَوافِيْهَا

أَعْوَامُهُ لَمْ تَكُنْ إِلَّا ثَلَاثَةَ عَشْـــرَةً بِمَلْقَى ٱلْهُدَى قَدْ كَانَ طَاوِيْهَا

إِذْ ذَاكَ قَدْ رَضِيَ ٱلْإِسْلَامَ مُتَّبِعاً خُطَى أَبِيْ ٱلْقَاسِمِ ٱلْمَأْمُوْنِ قَافِيْهَا

وَقَدْ تَعَبَّدَ لِلْخَلَّاقِ قَبْلَ جَمِيْـــعِ ٱلنَّاسِ فِيْ إِثْرِ خَيْرِ ٱلْخَلْقِ تَجْرِيْهَا

وَإِنَّ أَهْلَ ٱلْهُدَى قَدْ كَانَ أَوَّلُهَا طَهَ وَكَانَ عَلِيُّ ٱلْبَرُّ ثَانِيْهَا

ثُمَّ خَدِيْجَةُ أُمُّ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ هَدَا هَا ٱللَّهُ فَٱتَّبَعَت أَحْكَامَ بَارِيْهَا(١)

=فأسبغ الوضوء (أي أكمله) ثمَّ قام يصلّي إلى الكعبة ثمَّ خرج غلام مراهق فتوضأ ثمَّ قام إلى جنبه يصلّي ثمَّ جاءَت امرأة من ذلك الخباء فقامت خلفهما ثمَّ ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة ثمَّ خرَّ الرجل ساجداً وخرَّ الغلام وخرَّت المرأة فقلت ويحك يا عباس ما هذا الدين فقال هذا دين محمد بن عبد الله أخي يزعم أنّ الله بعثه رسولاً وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب وهذه امرأته خديجة ليس في الناس مَن على هذا الدين غيرهم قال عفيف بعد أن أسلم يا ليتني كنت رابعهم اهـ وهذه القصة ثابتة ومشهورة .

أمّا مسألة إسلام سيدتنا خديجة وإن كان قد سبق إسلام سيدنا علي عليه السلام أو أسلما في وقت معاً فسنذكر شيئاً عن ذلك في كلامنا عن السيدة المشار إليها في الحاشية التالية :

(١) اشتهر عن محمد بن عبد الله ربيب شيخ قريش أبي طالب وحفيد شيخ قريش عبد المطلب منذ ترعرع الصدق والأمانة وسداد الرأي وما اكتسب صلى الله عليه وآله وسلم هذه الشهرة على حداثته إلّا بعد حوادث ذاعت وشاعت عنه في مكة المكرمة في مواقف وقفتها رؤساء قريش في تدبير الشؤون العامة التي كانت تدبرها بالشورى على الطريقة=

= التي تشبه ما نسميه نحن أبناء هذا العصر بالحكم الجمهوري . وفوق ذلك أنّ الفتى محمداً سافر وهو في الثانية عشرة من ربيع عمره بمعية عمّه الشيخ أبي طالب إلى دمشق للتجارة مع قافلة التجار القرشيين فكان له ﷺ في هذه الرحلة من الحوادث الدالة على نبوته ومستقبله الباهر ما تداوله ركب القافلة عند عودتهم إلى « أم القرى » فأصبح حديث القوم وسمرهم . وهكذا بات سيدنا محمد ﷺ موضع اهتمام مواطنيه المكيين من ذلك العهد .

وكان في مكة المكرمة لذلك العهد سيدة معروفة المكانة يسميها المكيون « سيدة قريش » وكانت امرأة ذكية حازمة قوية شريفة وافرة الجمال والمال يتمنى أعظم عظيم في قريش أن يتزوجها أمّا نسبها فهي خديجة إبنة خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي . وكان لهذه السيدة تجارة واسعة تسيرها إلى الشام في كل عام فتتجر وتكسب .

وحدث أنّ آل عبد المطلب كان قد ضعف حالهم وقلّ مالهم في أزمة القحط التي انتابت الحجاز في هاتيك الأيام فلم يَرَ أبو طالب خيراً لربيبه وابن أخيه سيدنا محمد وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من ربيع عمره إلاّ أن يشير عليه بأن يعرض نفسه على السيدة خديجة وهي من عمومته لتسيره في متجرها إلى الشام مع من تسير من الناس فأبى محمد أن يذلّ نفسه الشريفة الأبيّة بطلب هذه الخدمة وقال لعمّه أمّا إن هي عرضت الأمر عليّ فأفعل .

وكانت خديجة لا تجهل الشاب محمد وهو من عمومتها وقد سمعت عن أمانته وصدقه الشيء الكثير وطالما ودّت أن تساعده على معاشه باستخدامه في قوافلها ولكنها لم تجرأ على عرض ذلك عليه مخافة أن يرفض خدمتها إباءً وترفعاً فلما سمعت ما دار بينه وبين عمّه الشيخ أبي طالب أسرعت فأرسلت بطلبه حتى إذا ما حضر إليها قالت له لقد بلغني عنك من الصدق والأمانة وكرم الأخلاق ما حبّب إليّ أن أعرض عليك المسير مع قافلتي إلى الشام على أن أعطيك ضعف ما أعطي لسواك فقبل محمد المسير وشكرها على هذه المنّة وسار إلى الشام مع قافلة السيدة خديجة التي كان زعيمها غلامها ميسرة وكان له ﷺ في هذه الرحلة وقائع مدهشة مع الراهب بحيراء في الشام وظهر من أمر الغلام محمد في الطريق من المعجزات ما دهش له ميسرة الذي يصاحبه .

= وكانت خديجة كما تقدمت الإشارة على أعظم نصيب من الذكاء والدهاء فلما عاد ميسرة بقافلتها نقل إليها ما رأى وسمع من المعجزات التي تمّت لسيدنا محمد ﷺ فتعلقت بحبّه ورأته كفئاً لها لأنّه يحاكيها بشرف النسب وله من جماله وأمانته والكرامات التي سمعتها عنه ما يعيضها عن المال وكان عندها منه الشيء الكثير فأخذت تفكر بالاقتران به . وحدث أنّها حادثت بشأنه بعض أقربائها ممن اشتهر عنهم معرفة الكتب النصرانية والإسرائيلية وذكرت لهم ما رواه ميسرة عن معجزاته ﷺ فأجمعوا على القول أنه قد يكون نبيَّ هذه الأمة فأزادها هذا تعلقاً به وأرادت بفرط ذكائها أن تنال شرف الاقتران بالرجل الذي قد يكون الهادي الأمين .

أمّا زواج سيدنا محمد ﷺ بالسيدة خديجة فقد كان هكذا . إنّ خديجة قالت يوماً لمحمد وذلك بعد رجوعه من الشام بأيام أن قل لعمّك أبي طالب أن يتعجل إلينا بالغداة فصدع المصطفى وأنبأ عمّه بطلب خديجة فأسرع إليها فقالت له ادخل على عمّي عمرو بن أسد واطلب منه أن يزوّجني من محمد فاستغرب أبو طالب قولها واستبعده وقال لا تهزئي بي يا خديجة فقالت وعلى وجهها الجدّ هي الحقيقة يا شيخ قريش فهكذا أراد الله فاستبشر أبو طالب وأسرع فجمع بني هاشم ورؤساء مضر وسار بهم ومحمد بينهم إلى عمرو بن أسد وكانت خديجة قد أسرّت إليه برغبتها بزواج محمد فاستعدّ لمقابلتهم حتى إذا ما عقد مجلس الخطبة خطب أبو طالب فقال « الحمد لله الذي جعلنا من ذريّة إبراهيم ، وزرع اسماعيل ، وضئضيء معد ، (أي معدنه) وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسوّاس حرمه وجعله لنا بيتاً محجوباً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا أحكام الناس ، ثمّ ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلّا رجح به شرفاً ونبلاً ، وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال قلٌّ ، فإنَّ المال ظلٌّ زائل ، وأمرٌ حائل ، وعارية مسترجعة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطرٌ جليل ، وقد خطب إليكم رغبةً في كريمتكم خديجة بنت خويلد ، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتي عشر أوقية ونشاً (أي عبارة عن خمسماية درهم شرعي)اهـ » . فلما انتهى الشيخ أبو طالب من خطابه خطب عمرو بن أسد فقال « الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفصلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كلّه ، لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يردُّ أحد من الناس فخركم وشرفكم ورغبتنا =

وَخِلْفَهُ وَلَدُ بَرٌّ مَعَ آمْرَأَةٍ   تَقِيَّةٍ تَبِعَا آثَارَهُ فِيهَا

= بالاتصال بحبلكم مثل رغبتكم . فاشهدوا عليَّ معاشر قريش . أنّي قد زوجت خديجة بنت أخي خويلد من محمد بن عبد الله ، على المهر الذي ذكر الشيخ أبو طالب » وقيل إنّ صاحب هذا الخطاب هو ورقة بن خويلد أخو خديجة وأنّ الشيخ أبو طالب قال قد أحببت أن يشركك عمها فقال عمرو بن أسد « اشهدوا عليَّ معاشر قريش أنّي قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد » وهكذا تمّ العقد وأولم المصطفى ودخل بزوجه خديجة فكان بيتها أول بيت في الإسلام .

وعند عقد هذا الزواج المبارك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الخامسة والعشرين من ربيع عمره وشهرين وبضع أيام كما كان هذا الزواج بعد عودته من الشام وهو يتجر لخديجة بشهرين وأيام معدودة . أمّا السيدة خديجة فقد اختلف الرواة في عمرها عندما تشرفت بالاقتران بأشرف الخلائق صلى الله عليه وآله وسلم فقال بعضهم أنها كانت في الأربعين من عمرها وقال بعضهم أقل من ذلك فسموا لها ٣٦ عاماً و٣٢ و٢٨ عاماً ومنهم من جعل عمرها ٤٥ عاماً أمّا أنا فعلى قلّة علمي أرجّح أنّها لم تكن يوم زواجها على أكثر من اثنين وثلاثين عاماً لأنّ المؤرّخين وصفوها بالحسن ولأنّها ولدت أولاداً كثيرين وأنت تعلم أنّ المرأة تنقطع عن الحبل والولادة في الخامسة والأربعين من عمرها وندر من النساء من تحبل وتلد بعد هذا العمر . ولم يرو المؤرخون أنّ السيدة خديجة حبلت وهي عجوز بمعجزة سماوية . أمّا ما نقل عن عائشة من قولها للمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن رأته يكثر من ذكر خديجة ويبالغ في مديحها « ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين » فإنّ قولها هذا لا يحمل إلّا على واحد من أمرين فإمّا أنها تشير إلى عمر ضرّتها عندما ماتت أو إلى الغيرة الطبيعية الموجودة بين الضرائر وربما دفعها الأمران إلى ذلك القول الذي أغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وكانت خديجة ثيباً عندما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت قد تزوجت قبله برجلين أولهما عتيق بن عابد فولدت له بنتاً اسمها هند وهي أُم محمد بن صيفي المخزومي وثانيهما أبو هالة واسمه هند أيضاً فولدت له ولداً اسمه هالة وآخر اسمه هند فكان هنداً ابن هند وعمّر هذا وكان من أكابر صحابة رسول الله وكان يفتخر بقوله أنا أكرم الناس أباً وأمّاً وأخاً وأختاً أبي رسول الله لأنّه زوج أمي وأمي خديجة وأخي القاسم وأختي فاطمة وكان هند هذا من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأكابر أنصاره ومات تحت رايته يوم =

= الجمل وقيل مات بالطاعون في البصرة بعد موقعة الجمل التي أثارتها عائشة وطلحة والزبير على سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

وولدت خديجة لرسول الله القاسم وهو بكر أولاده وكانت ولادته قبل البعثة وبه يكنّى ومات وهو رضيع وزينب ورقية وفاطمة وأم كلثوم واختلف الرواة في ترتيب ولادة هاته الكرائم بنات المصطفى على أنّ مولدهنّ كان قبل البعثة بالإجماع وولدت له توأمين قبل البعثة أيضاً ولم يعيشا واختلف الرواة باسميهما أمّا بعد البعثة فولدت له عبد الله فكان آخر أولاد خديجة على أنه مات رضيعاً أيضاً وهكذا لم يسلم من أولاد خديجة غير الإناث .

وتوفيت خديجة في العام الذي مات فيه أبو طالب أي في السنة العاشرة للبعثة وقبل الهجرة بثلاثة أعوام ومن المؤرخين من يقول أنّهـا ماتت قبل أبي طالب بخمسة وثلاثين يوماً ومنهم من يقول أنّها ماتت بعده بثلاثة أيام ودفنت بالحجون ونزل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في حفرتها فتكون قد عاشت مع زوجها النبيّ الأمين اثني وعشرين عاماً لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم بعث رسولاً للعالمين في السابعة والثلاثين من عمره وتزوج في الخامسة والعشرين من عمره وكانت وفاتها بعد البعثة بعشر سنوات أي وهو في السابعة والأربعين من عمره .

وكان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من إطراء خديجة في حياتها وبعد مماتها وطالما سمعته نساؤه يقول عنها « آمنت بي حين كذّبني الناس وواستني بمالها حين حرمني الناس ورزقتُ منها الولد وحرمته من غيرها » . ولم يتزوَّج المصطفى عليها في حياتها إلى أن ماتت .

أمّا إسلام خديجة فالرواة مختلفون فيه اختلافهم في كثير من حوادث التاريخ النبويّ على أنّ الإجماع على أنّ هذه السيدة الذكية الحازمة توقعت نبوّته من مقدماتها من يوم جاءَتها أخبار المعجزات التي حدثت له في رحلتيه إلى الشام مع راهب بحيراء ومن تظليل الغمام له وغير ذلك مما ليس هنا موضعه ومما كانت تسمعه من علماء النصارى واليهود الذين كانوا يقولون عند سماعهم هذه المقدمات إنّ في كتبهم ما يشير إلى مجيء نبي من هذه الأمة وقد يكون محمد بن عبد الله وعندما أخذ =

فَتَنْثَنِي وَهْيَ تَسْتَنْبِي دِيَانَتَهُمْ وَقَلَّمَا فَقِهَتْ عَالِي مَرَامِيهَا
مِنْهَا أَبُو طَالِبٍ قَدْ كَانَ جَاهِلَهَا وَشَامَ فِيهَا ٱبْنُهُ ٱلصِّدِّيقَ صَائِبَهَا
فَجَاءَهُ سَائِلاً عَنْهَا فَقَالَ لَهُ هِيَ ٱلْحَقِيقَةُ وَضَّاحٌ تَجَلِّيهَا
تَبِعْتُ فِيهَا خُطَى طَهَ لِشِرْعَتِهِ ٱلْـ ـغَرَّا وَقَدْ أَمِنَ ٱلْإِعْثَارَ حَاطِيهَا
فَقَالَ مَا دَامَ لِلْخَيْرَاتِ دَعْوَتُهَا فَٱنْشَطْ وَأَنْتَ لَهَا وَٱنْشُرْ مَبَادِيهَا
كَذَا ٱلْغُلَامُ عَلِيٌّ كَانَ أَوَّلَ مَنْ لَهَا ٱهْتَدَى قَلْبُهُ إِذْ رَاحَ وَاعِيهَا
وَقَالَ مُفْتَخِراً إِنِّيْ نَشَأْتُ عَلَى مَحْضٍ مِنَ ٱلْفِطْرَةِ ٱلْمَحْمُودُ نَاشِيهَا[1]
فَمَا عَبَدْتُ سِوَى بَارِيْ ٱلْخَلِيْقَةِ عَنْ هُدَى عِبَادَةَ بِرٍّ كُنْتُ أَقْضِيهَا
وَهَاتِهِ ٱلنَّفْسُ مَا ٱلْإِشْرَاكُ دَنَّسَهَا يَوْمَاً وَلَا كَانَ عَنْ بَارِيَّ مُلْهِيهَا
وَتِلْكَ نُعْمَى إِلَهُ ٱلْخَلْقِ خَصَّصَنِيْ بِهَا فَأَذْكُرُهَا شُكْرَاً لِمُسْدِيهَا
نَعَمْ أَبَا حَسَنٍ أَنْتَ ٱلسَّبُوقُ إِلَى ٱلْـ ـهُدَى بِهِ ٱلنَّاسُ أَخْلَقُ أَنْ تُجَاهِيهَا

= يأتيه ﷺ الوحي تهيبه وكان يقصّ قصته على خديجة فتشجعه وتصدقه وكان لذلك تأثير عظيم في نفسه حتى إذا ما جهر لها ببعثته آمنت به كما آمن ربيبه سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فكانا في الإيمان متقاربين لا يستطيع الباحث أن يحكم بفضيلة السبق إلى الإسلام لأحدهما دون الآخر إلّا كما قالوا أوحي للمصطفى صباح يوم الاثنين وصلّى مع خديجة في مسائه وصلّى معهما علي في صباح الثلاثاء أي أن سبق خديجة لأمير المؤمنين في الإسلام إذا صحّ يكون بين عيشةٍ وضحاها .

(١) وكان المرتضى عليه السلام يشكر الله سبحانه دائماً لتخصيصه بنعمة الإيمان منذ ولد فنشأ فلم تتدنس نفسه بالإشراك ويقول : « إنّي ولدت على الفطرة وسبقت إلى الإيمان والإسلام » ومعنى قوله هذا أنّه ككل إنسان ولد على الفطرة ولكنه سلم دون الناس من تأثير أبويه عليه في اتّباع دينهما بل صانه الله من ذلك بكفالة ابن عمّه المصطفى ﷺ فغذّى نفسه منذ بدء نشأته بالإسلام والإيمان وفي قوله هذا إشارة إلى الحديث الشريف « كل مولود يولد على الفطرة وإنّما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه » .

وَأَنْـتَ أَوَّلُ مَهْـدِيٍّ وَمُـحْـتَـمِـلٍ مَـعَ آلـرَّسُـوْلِ أَذِيَّـاتٍ يُـلاَقِيْهَـا
وَأَنْتَ أَنْتَ أَخُـوْ آلْهَـادِيْ وَصَـاحِبُـهُ وَشِـرْعَةُ آلْمُصْـطَفَى صَفْـوُ تَـآخِيْهَـا

أمير المؤمنين وإظهار الدعوة

شَبَّ آلْعَلِيُّ بِـظِلِّ آلْمُصْـطَفَى وَتَبَـا شِيْـرُ آلنُّبُـوَّةِ لاَ يَنْفَـكُّ لاَقِيْهَـا[1]
وَكَـانَ يَصْحَبُـهُ فِيْ صَفْـوِ خَلْوَتِـهِ إِلَى مَفَـاوِزِ « حَـرًّا » مَعْـهُ يَـأْوِيْهَـا

(١) بعد أن تمَّ للمصطفى ﷺ عشر سنوات منذ بدىء به بالنبوة أخذ يـدعو إلى الإسلام سرّاً بعضاً من أهل ثقته فأسلم نفر من قريش على يديه وذلك في ثلاث سنـوات بطولها ثمَّ نزلت عليه آية ﴿ **وأنذر عشيـرتك الأقـربين واخفض جناحـك لمن اتّبعك من المؤمنين** ﴾ وادع إلى الله تعـالى ولا تبال للمشـركين حينئذٍ أقـرَّ على إعلان دعـوته لبني هاشم وهم عشيرته الأقربون إلاّ أنّه تهيبهم لما أنس من شدّتهم في شركهم فتربص مـدة شهر فنزلت عليه آية ﴿ **فاصدع بمـا تؤمر واعـرض عن المشركين** ﴾ حينئـذٍ لم يسعه إلاّ تلبية أمر الله سبحانه وتعالى فقصد علياً عليه السلام وهاك رواية عليّ قال : « دعـاني النبي إليه وقـال يا علي إنّ الله أمـرني أن أنـذر عشيـرتي الأقـربين فضقت ذرعـاً وعلمت أنّي متى أبادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمتُّ عليه حتى جاءني جبريل فقال : يـا محمد إن لم تفعل ما تؤمر به يعـذّبك ربّـك فامتثلت أمـر ربّي وجئت إليك يـا علي فاصنـع لنا صاع طعام واجعل عليه رجـل شاة وامـلأ لنا عسـاً من لبن واجمع لي بني عبـد المطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أمرت فبـادرت لتتميم الأمر ودعـوتهم وهم وقتئذٍ أربعـون رجلاً فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعته لهم فلما وضعته تناول رسـول الله حزّة من اللحم فنتفها بأسنانه ثمَّ ألقاها في نـواحي الصحفة ثمَّ قـال خذوا بـاسم الله فأكـل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة وما أرى إلاّ مواضع أيديهم وأيم الله الذي نفس علي بيـده إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القـوم فجئتهم بذلـك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً وأيم الله إن كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول الله أن يكلّمهم بدره عمّه أبو لهب قائلاً : لعلمـا سحركم صـاحبكم فتفرقـوا »اهـ وهكذا لم ينجم عن الاجتماع الأول أمرٌ .

تفرَّق بنو عبد المطلب عن رسول الله وظلَّ ﷺ مكموداً حزينـاً حتى إذا ما جـاء =

وَكَانَ يَشْهَدُ تِلْكَ ٱلْمُعْجِزَاتِ بِعَيْـــنَيْهِ فَيَدْهَشُ مِنْ سَامِي تَبَدِّيْهَا
وَكَانَ يَسْمَعُ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ إِلَى آلـــرَّسُوْلِ تُلْقَى فَتُشْجِيْهِ مَثَانِيْهَا
وَكَانَ يَحْضُرُ جِبْرِيْلاً وَزَوْرَتَهُ مُحَمَّداً بِوُجُوْهِ ٱلْوَحْيِ يُبْدِيْهَا
وَلَيْسَ فِيْ ٱلنَّاسِ غَيْرَ ٱلْمُرْتَضَى وَخَدِيْـــجَةٍ مُلِمٌّ بِذِيْ ٱلْحَالاَتِ دَارِيْهَا

= الغد عاد إلى علي وأمره أن يصنع ما صنع في أمسه وأن يدعو إليه عشيرته الأقربين ففعل فلما تكامل جمعهم لديه قدم لهم الطعام واللبن فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً ثم بدرهم صلى الله عليه وآله وسلم فقال : إنّ الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعهم ما كذبتكم ، ولو غرّرت الناس جميعهم ما غرّرتكم ، والله الذي لا إله إلاّ هو ، إنّي لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافّةً والله لتموتُنَّ كما تنامون ، ولتبعثُنَّ كما تستيقظون ، ولتحاسبنَّ بما تعلمون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنّها لجنّةٌ أبداً ، ولنارٌ أبداً ، يا بني عبد المطلب ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنّي قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة ، يا بني عبد المطلب إنّي لأدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين في الميزان ـ شهادة أن لا إله إلاّ الله وإنّي رسول الله ـ فمن يجبني إلى هذا الأمر ويؤازرني على القيام به يكن أخي ووزيري وخليفتي من بعدي » فلم يجبه أحد من بني عبد المطلب إلاّ عليّ وكان أحدثهم سناً فقال : أنا يا رسول الله . فقال المصطفى اجلس . ثمَّ أعاد القول ثانياً فصمت القوم وأجاب علي أنا يا رسول الله . فقال المصطفى اجلس . ثم أعاد القول ثالثاً فلم يكن في بني عبد المطلب من يجيبه غير علي فقال أنا يا رسول الله . حينئذٍ قال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : إجلس فأنت أخي ووزيري ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي . فنهض القوم غاضبين مستهزئين وهم يقولون شيخهم أبي طالب عليك يا عمّ أن تطيع ابنك الغلام هذا وهم يريدون سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

نقول : ومن تأمل في هذا الحديث يجد أنّ المرتضى قام بنصرة الدعوة من نعومة أظفاره وكان العضد الأول للمصطفى في أول عمل أتاه في سبيلها وسترى فيما يجيء من هذه القصيدة المباركة وحواشيها أنّه ماشى النبوّة ونصرها وخدمها إلى أن بلغت أوج المجد الذي أعدّه لها الله عزّ وجلّ

حَتَّى إِذَا مَا بَشِيْرُ ٱلْوَحْيِ هَيَّأَ لِلْـــهُدَى بَشِيْرَ ٱلْوَرَى أَمْضَاهُ يُفْشِيْهَا

وَتِلْكَ بَعْثَتُهُ ٱلزَّهْرَا عَلَيْهِ صَلَاةُ ٱللَّهِ لِلْخَلْقِ عُرْبِيْهَا وَعُجْمِيْهَا

فَصَارَ يَدْعُوْ إِلَيْهَا مَنْ تَوَسَّمَ فِيْـــهِ ٱلْخَيْرَ سِرّاً وَخَوْفَ ٱلشَّرِّ يُخْفِيْهَا

بِذَا ثَلَاثَةُ أَعْوَامٍ قَضَى وَلَهُ قَدْ دَانَ بَعْضُ قُرَيْشٍ وَٱهْتَدُوْا فِيْهَا

وَبَعْدَهَا جَاءَهُ جِبْرِيْلُ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يُجَاهِرَ بِٱلْإِسْلَامِ تَجْرِيْهَا

وَقَالَ فَٱصْدَعْ بِأَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّكَ مَبْـــعُوْثٌ لِتَدْعُوْ إِلَيْهِ ٱلنَّاسَ تَهْدِيْهَا

أَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ ٱلدُّنْيَا بِشِرْعَتِكَ ٱلْـــغَرَّا وَأَظْهِرْ لَهَا أَسْنَى مَعَانِيْهَا

وَمُذْ تَبَلَّغَ أَمْرَ ٱللَّهِ هَمَّ بِهِ بِهِمَّةٍ مَا ٱعْتَدَا ٱلْكُفَّارِ يُثْنِيْهَا

وَلَمْ يَجِدْ عَضَداً كَيْ يَسْتَعِيْنَ بِهِ عَلَى مُجَاهَرَةٍ قَدْ كَانَ خَاشِيْهَا

إِلَّا ٱلْعَلِيَّ فَنَادَاهُ وَأَخْبَرَهُ بِبُغْيَةٍ حَسْبُ أَمْرِ ٱللَّهِ بَاغِيْهَا

وَقَالَ هَيِّءْ لَنَا فِيْ ٱلْحَالِ مَأْدُبَةً وَلْيَتْقِنَنَّ لَهَا ٱلْأَلْوَانَ طَاهِيْهَا

فَرِجْلُ شَاةٍ عَلَى صَاعِ ٱلطَّعَامِ وَأَعْـــسَاسُ لَهَا ٱللَّبَنُ ٱلنُّوْقِيُّ يُمْلِيْهَا

وَٱدْعُ ٱلْهَوَاشِمَ بِٱسْمِيْ كَيْ أُشَافِهَهَا بِأَمْرِ رَبِّيَ بَارِيَّ وَبَارِيْهَا

قَامَ ٱلْعَلِيُّ بِأَمْرِ ٱلْمُصْطَفَى وَدَعَا إِلَى وَلِيْمَتِهِ أَكْرِمْ بِدَاعِيْهَا

أَبْنَاءَ هَاشِمَ هُمْ كَانُوْا عَشِيْرَتَهُ وَلَمْ يَكُنْ فِيْهِمِ إِلَّا ٱلْمُلَبِّيْهَا

وَعَدُّهُمْ كَانَ عِنْدَ ٱلْأَرْبَعِيْنَ وَهُمْ رَجَالَةُ ٱلْعُرْبِ فِيْ إِحْصَاءِ مُحْصِيْهَا

هٰذِيْ عَشِيْرَةُ طٰهَ بَلْ قَرَابَتُهُ ٱلـــدُّنْيَا ٱلَّتِيْ كَانَ لِلْإِسْلَامِ رَاجِيْهَا

وَإِذْ أَتَتْهُ تَلَقَّاهَا عَلَى رَحَبٍ بِبُشْرِهِ وَٱنْثَنَى صَفْواً يُحَيِّيْهَا

حَتَّى إِذَا مَا ٱسْتَوَى فِيْهَا ٱلْمَقَامُ لَهَا مَدَّ ٱلسِمَاطَ وَفِيْهِ مَا يُشَهِّيْهَا

فَأَقْبَلَتْ وَرَسُوْلُ ٱللَّهِ يَخْدِمُهَا عَلَى ٱلطَّعَامِ وَيَعْنَى كَيْ يُهَنِّيْهَا

حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ ذَاكَ آلـطَّعَـامَ وَمِنْ أَلْبَـانِـهِ سُقِيَتْ وَآللّهُ كَـافِيْـهَـا

ظَلَّ آلطَّعَـامُ كَمَا قَـدْ كَانَ وَهْـوَ وَأَيْـــمُ آللَّهِ مَـا كَـانَ يَكْفِي مُسْتَجِيْعِيْهَـا

وَتِلْكَ مُعْجِـزَةٌ لِلْمُصْـطَفَى وَبِـهَـا قَـامَ آلْعَلِيُّ وَعَنْـهُ نَحْنُ نَـرْوِيْهَـا

ثُمَّ قَدِ آبْتَدَرَ آلْقَوْمَ آلرَّسُوْلُ بِـذِكْـــرَى يُمْنِ بَعْثَتِـهِ يُبْدِي خَـوَافِيْهَـا

وَإِذْ أَبُـوْ لَهَبٍ فِيْ آلْحَالِ قَـاطَعَـهُ وَمَـوَّهَ آلْحَقَّ بِـآلتَّضْلِيْـلِ تَمْـوِيْهَـا

وَقَـالَ يَـا نَـاسُ طَـهَ جَـاءَ يَسْحَـرُكُمْ بِذَا آلطَّعَامِ آحْذَرُوْا آلإِضْلاَلَ وَآلتِّيْهَا

هَيَّ آنْهَضُـوا وَدَعُـوْهُ أَنْ يَغُشَّ نُفُـوْ سَ آلْغَيْرِ فِيْ هٰذِهِ آلدَّعْوَى وَيُصْبِيْهَا

وَهٰكَـذَا آرْفَضَّ ذَاكَ آلإِجْتِمَـاعُ وَأَنْـــفُسُ آلْجَمَاعَةِ دَاجِيْ آلْكُفْرِ غَاشِيْهَا

وَعَـادَ طَـهَ إِلَى تَكْـرَارِ دَعْـوَتِـهِ وَكَـانَ حَيْـدَرَةُ آلْمُقْـدَامُ رَاعِيْهَـا

حَتَّى إِذَا آجْتَمَعَتْ لِـلأَكْـلِ ثَـانِيَـةً عَلَى آلْخِـوَانِ آنْثَنَى طَـهَ يُفَـاهِيْهَا

فَقَالَ : مَـا جَـاءَ قَبْلِيْ قَـوْمَـهُ أَحَـدٌ بِمِثْلِمَـا جِئْتُ مِنْ نَعْمَـاءَ أُسْـدِيْهَا

لَكُمْ بِهَـا آلْخَيْـرُ فِيْ دُنْيَـا وَآخِـرَةٍ إِذَا آنْضَـوَيْتُم إِلَى زَاهِيْ مَغَـانِيْهَـا

فَمَنْ يُـوَازِرُنِيْ مِنْكُمْ فَـذَاكَ أَخِـيْ وَذَاكَ يَخْلِفُنِيْ فِـيْ رَعْيِ نَـامِيْهَـا

فَلَمْ يَجِـدْ مِنْ لَبِيْبٍ رَاحَ مُـقْتَنِعَـاً بِـصِـدْقِ بَعْثَتِـهِ أَوْ رَاحَ رَاضِيْهَـا

وَكُلَّمَـا آزْدَادَ تِبْيَـانَـاً لِبَعْثَتِـهِ آلـــزُّهْـرَا أَزَادَتْـهُ تَكْـذِيْبَـاً وَتَسْفِيْهَـا

ثُـمَّ أَبُـوْ لَـهَـبٍ نَـادَاهُ وَيْـلُكَ لَـمْ يَجِيءْ فَتَىً قَـوْمَـهُ مَـا جِئْتَنَا إِيْهَـا

تَبَّتْ يَـدَاهُ فَـإِنَّ آلْجَهْـلَ تَـوَّهَـهُ وَآلْكُفْـرُ فِيْ دَرَكَـاتِ آلنَّارِ تَتْـوِيْهَـا

وَكَـرَّرَ آلْمُصْـطَفَى أَقْـوَالَـهُ عَلَنَـاً وَقَـدْ تَـوَسَّـعَ إِنْـذَاراً وَتَنْبِيْـهَـا

فَمَـا رَأَى غَيْـرَ آلْبَـابٍ مُحَجَّـرَةٍ هَيْهَـاتَ لَيْسَ يُلِيْنُ آلنُّصْحُ قَـاسِيْهَا

وَأَنْفُسَـاً عَنْ كِتَـابِ آللَّهِ مُعْـرِضَـةً وَآلْكُفْـرُ قَدْ كَـانَ وَآلإِشْرَاكُ مُعْمِيْهَـا

وَأَحْجَمَتْ كُلُّهَا عَنْ فَيْضِ رَحْمَتِهِ   مَــعْ يُمْنِ دَعْـوَتِــهِ فَـٱلْكُـلُّ آبِيْهَـا
إلَّا ٱلْعَلِيُّ فَنَــادَى دُوْنَهَــا: فَــأَنَــا   نَعْمَـاكَ يَـا هَـادِيَ ٱلْأَكْـوَانِ بَـاغِيْهَـا
نَادَى أَنِ ٱجْلِسْ ثَلاثَاً وَهْوَ يَعْرِضُ دَعْـــوَاهُ عَلَى ٱلْقَــوْمِ يَبْغِي مُسْتَجِيْبِيْهَـا
حَتَّى إِذَا بَـاتَ مَـأْيُـوْسَـاً وَمُنْزَعِجـاً   مِنَ ٱلْهَـوَاشِمِ مُعْيَى عَنْ تَـرَضِّيْهَـا
عَنْهَـا تَـوَلَّى إِلَى حَيْثُ ٱلْعَلِيُّ مُنَـوِّ   هَـاً بِـهِ بَيْنَ ذَاكَ ٱلْجَمْـعِ تَنْوِيْهَـا
وَكَــانَ مَـاسِكَـهُ مِنْ طَـوْقِ رَقْبَتِـهِ   يَقُــوْلُ : هٰـذَا لَهَــا وَٱللَّهِ يَحْمِيْهَـا
وَقَـالَ : هٰـذَا أَخِيْ ذَا وَارِثِي وَخَلِيْــــفَتِيْ عَلَى أُمَّتِيْ يَحْمِيْ مَـرَاعِيْهَـا
وَقَـالَ فَـرْضٌ عَلَيْكُمْ حُسْنُ طَـاعَتِهِ   بَعْـدِيْ وَإِمْـرَتُــهُ وَيَـلٌ لِعَــاصِيْهَـا
فَـٱرْفَضَّ جَمْعُهُمْ وَٱلْهُـزْءُ آخِـذُهُمْ   إِلَى ٱلْغَـوَايَـةِ فِيْ أَدْجَى دَيَـاجِيْهَـا
وَهُمْ يَقُـوْلُوْنَ : أَحْكَـامُ ٱلْغِلَامِ عَلِــــيٍّ يَـا أَبَا طَـالِبٍ كُنْ مِنْ مُطِيْعِيْهَـا
كَـذَاكَ حَيْـدَرَةٌ مَـاشَى ٱلنُّبُـوَّةَ مُـذْ   نَـادَى بِهَا ٱلْمُصْـطَفَى لَبَّى مُنَادِيْهَا
وَشَارَكَ ٱلْمُصْطَفَى مِنْ يَوْمِ إِنْ وَضَعَ ٱلْآ   سَاسَ حَتَّى ٱنْتَهَتْ عَلْيَا مَبَـانِيْهَا
فَكَــانَ أَوَّلَ أَرْبَـابِ ٱلْجِهَــادِ جَمِيْــــعَـاً بَعْدَ أَحْمَـدَ فِيْ مَلْقَى أَعَـادِيْهَا
وَكَـانَ آخِرَ مَنْ عَـانَى ٱلْمَصَائِبَ فِيْ   سَبِيْلِهَـا طَـالِبَـاً رِضْـوَانَ مُـوْحِيْهَا
فَهَـلْ يُبَـارِيْـهِ فِيْ هٰـذَا ٱلْفَخَـارِ مُبَـا   رٍ فِيْ ٱلْبَــرِيَّــةِ مَـاضِيْهَــا وَآتِـيْهَـا

أمير المؤمنين والهجرة

مِنْ بَعْــدِ إِنْ رَفَضَتْ طَـهَ عَشِيْــرَتُـهُ   وَلَمْ تُجِبْ دَعْـوَةً قَدْ كَـانَ دَاعِيْهَا[1]

---

(١) لا جدال أنّ هجرة المصطفى مع أصحابه من مكة كرّمها الله إلى المدينة كانت بدء الجهاد لنشر الإسلام في العالم فهي إذن أهم الحوادث الإسلامية وهوذا=

وَافَى قُرَيْشَ جِهَاراً بِـآلنُّبُوَّةِ يَـدْ   عُـوْهَا إِلَيْهَـا وَبِـآلْأُخْـرَى يُمَنِّيْهَـا

=نجمل خبرها هنا مع اقتصارنا في قصيدتنا على نصيب سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام منها فنقول :

ان رسول الله بدأ بتبليغ دعوته لعشيرته القربى وهم بنو هاشم حسب أمر الله فلما رفضت عشيرته قبول دعوته والقيام على نصرته عمّم الدعوى في قريش فأطاعه القليلون وهزيء بدعوته الأكثرون ولم يقتصر الناس على الازدراء به بل عمدوا إلى اضطهاده واضطهاد الأفراد الذين تبعوه فصاروا يؤذونهم ويوقعون بهم وهمّوا بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يريدون الوقيعة به فحماه من أذاهم عمّه الشيخ أبو طالب الذي كان أول نصير للإسلام . وعندما رأى المصطفى توالي الأذى على أصحابه من كفّار قريش أشار إليهم بالهجرة إلى الحبشة وكانت هجرتهم هذه في رجب من السنة الثانية لإظهار الدعوة ولما وصلوا إلى أرض الحبشة نزلوا بخير دار عند خير جار وظلّوا هناك إلى شوّال حيث بلغهم أنّ مشركي قريش قد أسلموا واصطلحوا مع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فأسرعوا بالعودة إلى مكّة وكان العائدون نحواً من ثلاث وثلاثين رجلاً فيهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعثمان بن مظعون والخبر الذي انتهى إلى مهاجري الحبشة لم يكن مكذوباً ولكن بولغ فيه وحقيقته أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم خفّف بدعوته ورأى المشركون أنّ المسلمين قد برحوا مكة فهدأت ثائرتهم على أن الذين عادوا من الحبشة بلغهم وهم في ظاهر مكة أنّ المشركين ما انفكوا يضطهدون المسلمين فدخلوها مستخفين .

وكان بين وقت وآخر يدخل في الإسلام من فتح الله عن بصيرته من النساء والرجال وكلما سمع المشركون بإسلام واحد منهم ازدادوا بغضاً للمسلمين وأذيةً لهم حتى إذا ما أسلم عمر بن الخطاب وكان وجيهاً في قريش ومعروفاً بشدته ازداد حقد المشركين على المسلمين . وفي الأخير اجتمع كفار قريش وأقرّوا على قتل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقالوا لرؤساء بني هاشم إنّ صاحبكم قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا فخذوا منّا دية مضاعفة ويقتله رجل من قريش وتريحونا وتريحون أنفسكم فأبى الهواشم أن يسمحوا بقتل محمد وحينئذٍ أقرّت قريش على منابذة الهواشم ولا سيما بني عبد المطلب وإخراجهم من مكة إلى شعب أبي طالب ومنعهم من حضور الأسواق وأن يمتنع الناس عن مناكحتهم وعن قبول صلح لهم أبداً وعن أن يرأف بهم رائف حتى يعييهم الأمر فيسلمون محمداً لأيديهم فيفتكون به وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في=

فَغَـاظَهَـا أَنَّـهُ أَمْسَى يُسَفِّهُهَـا بِـدِيْنِهَا وَهْــوَ لاَ يَنْفَــكُّ لاَحِيْهَـا

= الكعبة . وكان اجتماع قريش هذا في خيف بني كنانة بالأبطح بأعلى مكـة وحينئذٍ دخـل بنو هاشم وبنو عبد المطلب مؤمنهم وكافرهم الشعب أدخلهم إليه القرشيـون قهراً إلاّ أبو لهب عمّ المصطفى فقد كان ضد قومه مـع قريش وكـان ذلك والمصـطفى في السادسـة والأربعين من عمره السعيد . ومكث بنو هاشم في الشعب سنتين في أشـدّ ما يكـون من البـلاء .

وقد نال الهـواشم من النفي جهد عـظيم ترك مشـركيهم يسيئون معـاملة مسلميهم وحينئـذٍ لم يرَ المسلمـون بداً من الهجـرة ثانيـةً فهاجـر منهم ٨٣ رجلاً و١٨ إمـرأة على رأسهم جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس وقد أضافهم نجاشي الحبشة خير ضيـافة وأطلق لهم الحـرية في دينهم . وسمـع كفّـار قـريش أنّ النجـاشي أكـرم مثـوى المسلمين فخافوا أن يحالفهم وهو نصراني ويمدّهم بقوةٍ يأتون بها على مكة فأرسلوا لـه وفداً من قبلهم يغريه عليهم بدعوى أنّهم يسبّون سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام فما نجحوا في هذه الحيلة .

أمّا الهواشم فبعد أن بلغ منهم الجهد مبلغه وهم في الشعب قال محمد لعمّه أبي طالب إنّ الله سلّط الأرضة على صحيفة قريش فلحست منهـا اسم الله سبحانـه ولم يبق غير ما كتبوه من ظلم بني هاشم فصدق أبو طالب القول وسـار برهط من قـومه إلى مكـة فقابل المشركين وسار بهم إلى الكعبة حيث وجدوا صحّة ما روى المصـطفى وكان هـذا سبباً لإبطال ذلك الاعتصاب ضـدّ بني هاشم فعـادوا إلى مكة كـرّمها الله وعـادت قريش إلى الاختلاط بهم .

وكان قد ذاع في جـزيرة العـرب نبأ محمـد ودعوتـه وما هـو جار في الحجـاز من الاضطراب بسببه فأخذت تفد عليه الـوفود فـأزاد ذلك في حقـد قريش على المصـطفى ودينـه وعلى أثر ذلـك توفي أبـو طالب وهـو كما علمت كـان النصيـر الأكبـر للمصـطفى فاشتدت قريش عليه لوفاته .

وعلى أثـر وفاة الشيـخ أبي طالب واشتـداد قريش على محمـد وأصحـابـه بحيث صـاروا يتعـرضـون لهم ويكثـرون من اضـطهـدهم وكثيـراً مـا كـان يتصـدى سفهـاؤهم للمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فيسبّونه ويؤذونه ويسفون عليه التراب حينئذٍ ضـاق صدره صلى الله عليه وآله وسلم فخـرج إلى الطائف وكان ذلك في شوال من السنـة التي مات فيهـا أبو طـالب خرج إليهـا ومعه=

= يزيد بن حارثة وهو طامع أن تحالفه ثقيف على الإسلام فخاب ظنّه وردّته أشنع ردّ وبالغ سفهاؤها في أذيته فعاد إلى مكّة مكروباً مغموماً .

وكان المصطفى ﷺ في السنوات العشر الماضية يوافي موسم الحج في كل عام ويتبع الحجاج في منازلهم بمنى والموقف ويأتي إليهم في أسواقهم « عكاظ ومجنة وذي مجاز » وكان يعرض نفسه على الناس ويقول : « يا أيّها الناس إنّ الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » أو يقول : « يا أيّها الناس قولوا لا إلّه إلّا الله تفلحوا » كما كان ﷺ يقف في منازل القبائل ويقول : « يا بني فلان إنّي رسول الله إليكم انه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بي وتصدّقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله عزّ وجلّ ما بعثني به » وأجمع الرواة على أنّ أبا لهب عمّ المصطفى كان يتبعه ويكذبه عنوة ويرميه بالحجارة ويغري الناس على الهزء بدعوته . على أنّ المصطفى لم يجد من جميع القبائل التي عرض نفسه عليها قبيلة تنصره وتقوم بدعوته وكان جواب أكثرها بأنّ عشيرتك أعرف منّا بك وهي لم تتبعك ثم يقولون فيما بينهم « إنّ قوم الرجل أعلم به أترون أنّ رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه » .

وما زال المصطفى ﷺ قلقاً لفقد النصير والمساعد حتى أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيّه وإنجاز موعده له فيسّر له الأعوان والأنصار وذلك أنّه خرج كعادته في الموسم قبل ثلاث سنوات من الهجرة يعرض نفسه على القبائل فبينما هو عند العقبة (عند يسار الطريق لقاصد منى والتي تسمى الجمرة باسمها فيقال « جمرة العقبة » وفيها الآن مسجد البيعة إشارة إلى هذا الحادث العظيم الذي ترويه) إذ لقي هناك رهطاً من الخزرج وكانوا ستة رجال فقال من أنتم ؟ قالوا نفر من الخزرج فقال أمن موالي اليهود « أي حلفاء اليهود الذين كانوا ينزلون يثرب وما جاورها وهم قريظة والنضير » قالوا نعم فجلس إليهم ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم الإسلام فأجابوه وصدّقوه لأنّهم كانوا يسمعون من جيرانهم اليهود أنّ الله سيبعث نبيّاً قد قرب زمانه فيجدّد مملكة إسرائيل التي تلاشت فكانوا كأنّهم على استعداد لهذه الدعوة وقالوا للمصطفى لقد تركنا قومنا « وهم الأوس والخزرج » وهم يقتتلون والعداوة بينهم منذ مئة عام فإن يجمعهم الله عليك فلا أعزّ منك وإننا لنشير عليك أن تمكث على رسلك حتى نرجع إلى قومنا =

وَحَــاوَلَتْ أَنْ تُنَــاوِيْــهِ مُكَــابَــرَةً بِبُــطْلِهَا مِثْلَمَــا أَضْحَى يُنَــاوِيْهَــا

= ونقصّ عليهم دعوتك وموعدنا معك الحجة القادمة وهكذا تمَّ الاتفاق بينه وبينهم من غير تعاقد أو بيعة .

وفي الحجة التالية أي السنة التي سبقت سنة الهجرة قدم مكة أحد عشر رجلاً منهم خمسة من الخزرج وهم من الستة الذين اجتمع عليهم المصطفى في الحجة الماضية وأربعة من الخزرج أيضاً واثنان من الأوس فاجتمع بهم المصطفى عند العقبة أيضاً وبايعهم على أن يمنعوه ما يمنعون به نساءَهم وأبناءَهم وعلى أن يرحل إليهم فبايعوه على ذلك وهذه المبايعة يقال لها العقبة الأولى ولما رجع هؤلاء إلى المدينة أرسلوا إلى المصطفى أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك يفقهنا ويدعو الناس بكتاب الله فبعث إليهم رسول الله مصعب بن عمير وكان يقال له المقري وهو أول من تسمى بهذا الإسم ولما وصل هذا إلى المدينة نزل على أبي أمامة أسعد بن زرارة فطفق يعلم الأوس والخزرج القرآن ويؤمّهم ويؤدبهم بآداب الإسلام وكان هذا بدء اجتماع كلمتهم بعد طول الشقاق بينهم وأسلم على يد مصعب هذا سعد بن معاذ وابن عمّه أسيد بن خضير وغيرهما خلق كثير ثمَّ أنَّ مصعب خرج إلى مكة مع من خرج من المسلمين الخزرجيين إلى الموسم مع حجاج قومهم المشركين فاجتمع على رسول الله وأخبره بمن أسلم فسرَّ بذلك . ثم جاءَه بمن معه من مسلمي الأنصار وعلى رأسهم البراء بن معرور وكعب بن مالك وواعدهم على أن يجتمع معهم في العقبة بعد انقضاء الموسم في ليلة اليوم الذي هو يوم النفر الأول فلما كانت الليلة الموعودة حضروا إلى العقبة وكان معهم أبو جابر عبد الله بن عمرو بن خزام من سادات يثرب وكان مشركاً وكانوا ٧٣ رجلاً وامرأتين فوجدوا رسول الله بانتظارهم وكان معه عباس عمّه وعلي وأبو بكر على، أنّه ﷺ أناط بسيدنا علي وأبي بكر حراسة الطريق من طرفيه وأمّا عمّه العباس فلم يكن وقتئذٍ قد أسلم ولكنه أصرَّ على حضور المبايعة للإطمئنان على مستقبل ابن أخيه بصفته زعيم الهواشم .

فلمّا جلس القوم بين يدي رسول الله والعباس بجانبه افتتح الكلام العباس فقال « يا معشر الخزرج (لأنّ العرب كانت تطلق اسم الخزرج على الأوس والخزرج معاً) انَّ محمداً منّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا من هو على مثل رأينا فهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده وقد أبى إلّا الإنحياز إليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون أنّكم =

= وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه مما خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنّكم مسلّموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن تدعوه » وما انتهى العباس حتى قال البراء بن معرور « انَّا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ولكنّا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله » ثم أخذ البراء بيد رسول الله ﷺ وقال : « نعم والذي بعثك بالحق نمنعك مما نمنع به أزرنا (أي نسائنا) وأنفسنا فنحن والله أهل حرب وأهل الحلقة (أي السلاح) ورثناها كابراً عن كابر » وبينا البراء يكلّم رسول الله وإذا بأبي الهيثم بن التيهان يقول « ونقبله على مصيبة المال وقتل الأشراف » فقال العباس : أخفوا جرسكم (أي صوتكم) فإنّ علينا عيوناً . ثم قال أبو الهيثم : « يا رسول الله إنّ بيننا وبين اليهود عهوداً وإنّا قاطعوها فهل حسبت إذا نحن فعلنا ذلك ثمّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟؟ » فتبسم رسول الله وقال : « بل الدم الدم والهدم الهدم (أي تطلبون بدمي وأطلب بدمكم) وذمتي ذمتكم ورحلتي مع رحلتكم أنا منكم وأنتم منّي أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » وقال العباس على الأثر : « عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهدكم في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام ويد الله فوق أيديكم لتجدُنَّ في نصرته ولتشدُّنّ من أزره » فقال الجميع : نعم . قال العباس : « اللهمَّ إنّك سامعٌ شاهدٌ وإنّ ابن أخي قد استرعاهم ذمته واستحفظهم نفسه . اللهمَّ كن لابن أخي عليهم شهيداً » وبعد أن انتهى العباس من قوله هذا قال رسول الله : اخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم . فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فكانوا سعد بن عبادة وأسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وسعد بن خيثمة والمنذر بن عمرو وعبد الله بن رواحة والبرَّاء بن معرور وأبو الهيثم بن التيهان وأسيد بن حضير وعبد الله بن عمرو بن حرام وعبادة بن الصامت ورافع بن مالك كل واحد ناب عن قبيلة من قبائل الخزرج والأوس . فقال رسول الله لأولئك النقباء أنتم كفلاء على غيركم وأنا كفيل على قومي وحينئذٍ تقدم أسعد بن زرارة وهو أصغر أولئك النقباء وأخذ من يد النبي ﷺ وقال : « رويداً يا أهل يثرب إنّا لن نضرب إليه أكباد الإبل إلاّ ونحن نعلم أنّه رسول الله وأنّ إخراجه اليوم مفارقة لجميع العرب وقتل خياركم وأن قطعكم السيوف فإمّا أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم بقتل خياركم ومفارقة العرب فخذوه وأجركم على الله تعالى وأمّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفةً فذروه فهو عذرٌ لكم عند الله عزَّ وجلَّ » فنادى في الحال النقباء « يا سعد امط عنّا =

وَإِذْ رَأَتْ عَجْـزَهَـا عَنْـهُ وَقُـدْرَتَـهُ   مَـالَتْ إِلَيْـهِ لِتُؤْذِيْـهِ بِـأَيْـدِيْـهَـا

= يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها » وهكذا شدّت عقـدة العهد وتمت البيعـة بين الخزرج الذين دعوا أنصار المصطفى وبيته ﷺ وقال الأنصار في ختـام المبايعـة ابسط يدك يا رسول الله فبسطها فبايعه جميع الحاضرين وكـان الواحـد منهم يقول : « أبـايعك على أن أتم عهـدي بوفـائي وأصدق قـولي بفعلي في نصرك » ولمـا انتهت هـذه البيعـة دعيت العقبة الثانية وهكذا ارفضّ الاجتماع وعاد الأنصار إلى يثرب .

وعلمت قـريش بمعـاهـدة الخـزرج لمحمـد ومن معـه من المسلمين فخـافت أن يتغلب عليها بواسطتهم وأخذت تبالغ باضطهاد المسلمين حتى ضيّقوا عليهم ونالوا منهم وجعل البلاء يشتد عليهم حتى أصبحوا بين مفتـون في دينه وبين معـذب مضطهـد وبين هارب متخفي في البلاد وشكوا أمرهم إلى المصطفى ﷺ واستأذنوه في الهجرة فمكث أياماً لا يأذن لهم . ثمّ قال لهم : أريتُ دار هجرتكم أريتُ سبحة ذات نخـل بين لابتين وهما الحرَّتان . ثم خرج إليهم مسروراً فقال: قد أُخبرتُ بدار هجرتكم وهي يثـرب فمن أراد أن يخرج فليخرج إليها . فخرج المسلمون إليها نساءً ورجالاً متتـابعين مستخفين . على أنـه ﷺ قبل هجـرتهم آخى بينهم واتّخذ علياً أخاً لـه وسنـذكـر هـذه المـواخـاة والمـواخاة الثـانية التي آخى بهـا بين المهاجـرين والأنصار في حـاشيـة تجيء ووصـول المهاجرين إلى يثرب أنزلهم في دورهم وآووهم وواسوهم .

وبعد أن هاجر معظم المسلمين إلى يثرب مكث ﷺ في مكة ومعه علي بن أبي طـالب الذي لم يكن يصبـر على صحبته وأبـو بكـر وأخـذ ينتـظر أن يؤذن لـه بـالهجـرة ليصحبهما إليها .

ولما رأت قريش أنّ المسلمين هجـروا مكة وأووا يثـرب عند معـاهديهم الخـزرج حذروا أن يخرج رسول الله ﷺ إليهم وأن يجمع الناس على حربهم فـاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون فيما يصنعون في أمره ﷺ وكانت دار الندوة هذه في منـزل قصي بن كلاب وكانوا لا يقطعـون أمراً إلاّ فيهـا . وبينما كـانوا مجتمعين دخـل عليهم إبليس في صورة شيخ عليه طيلسان من خزّ فقالـوا من الشيخ ؟ قـال : من أهل نجـد سمع بـالذي اجتمعتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً قالوا : أجل فادخل فدخل معهم . ثمَّ أخذوا يتـداولون بـأمر المصـطفى فقال بعضهم لبعض إنّ هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم وإنّا لا نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتّبعه من =

شَأْنُ ٱلأُلَى هَجَرُوْا ٱلْحَقَّ ٱلْمُبِيْنَ جَهَا لَـةً وَمَـا مَلَكُـوْا إِلَّا ٱلتَّـرَارِيْـهَـا

=غيرنا أجمعوا فيه رأياً فقال قائل احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء حتى يصيبه ما أصابهم من هذا الموت . فعارضهم ذلك الشيخ النجدي قائلاً : لا والله ما هذا لكم برأي فإنّكم لو حبستموه ليخرجنّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلا تأمنون أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثمَّ يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم فانتظروا رأياً آخر . فعادوا ثانية إلى المشاورة فقال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا فإذا خرج عنّا فوالله لا نبالي أين يذهب . فاعترض النجدي قائلاً : والله ما هذا برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال والله لو أطلقتموه ما أمنتم أن يحلّ على حيّ من العرب فيغلب بذلك عليهم من قوله وحديثه حتى يبايعوه ثمَّ يسير به إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذوا أمركم من أيديكم ثمَّ يفعل بكم ما أراد . فدبروا به رأياً آخر . فقال أبو جهل بن هشام : والله إنّ لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال الرأي أن تأخذوا من كل قبيلة شاباً جلداً حسيباً في قومه نسيباً وسطاً ويأخذ كل منهم سيفه ثمَّ يغدون إليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه فإنّهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً فلم تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً فيرضوا منّا بديته فنؤدّيها . فقال النجدي : القول ما قال هذا الرجل . فتفرق القوم على ذلك .

وكانت قريش في ندوتها تلك تتآمر على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في بيته لا يدري من أمرها شيئاً فجاءه جبريل وقال له : لا تبت هذه الليلة في فراشك وأخبره بمكر القوم به وأنزل الله عزَّ وجلّ عليه آية ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾ فلما كان الهزيع الأول من الليل أحاط بدار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شبّان قريش الذين نيط بهم قتله على ما تآمرت شيوخهم وجعلوا يرصدون طلوع الفجر ليقتلوه عنوةً فيذهب دمه هدراً لمشاهدة بني هاشم قتلته من جميع القبائل . فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محدقين بداره قال لعلي بن أبي طالب نم على فراشي واتّشح ببردائي هذا الحضرمي ولن يخلص إليك شيء تكرهه . ثمَّ إنّ المصطفى أنبأ علياً بأنّه ذاهب إلى بيت أبي بكر ليختفي فيه ومنه سيهاجر مع أبي بكر =

وَكُــلُّ مَنْ ضَعُفَتْ تَــٱللَّهِ حِجَّـتُــهُ   بِــٱلسَّبِّ وَٱلضَّرْبِ يَـرْجُوْ أَنْ يُقَـوِّيَهـا

=إلى المدينة وأوصاه أن يردّ الودائع التي عنده إلى أهلها وأن يـدبّر لـه ولصاحبـه أبي بكر دليـلاً وراحلتين وأن يعتني بأمـر أهله إلى آخر مـا أوصاه بـه من المهام ثم قـال لـه فـإذا أبـرمت ما أمـرتك بـه كن على أهبة الهجـرة إلى الله ورسولـه . وهكذا تـرك المصطفى المـرتضى عليهمـا الصـلاة والسـلام ممدداً في فـراشـه وسـار نحـو البـاب فخـرج على المشركين وأخذ حفنـة من تراب وتـلا قولـه تعالى ﴿ يسٓ والقـرآن الحكيم - إلى قولـه - فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ وحثا التراب على رؤوسهم فأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلم يروه فلما بعد عنهم قصد منزل أبي بكر فدخل عليه وأقـام فيه إلى الليلة التـالية حيث اصطحبه وخرجا من مكة مستخفيين إلى غار خارجها فأقاما فيه ثلاثة أيام مخافة أن يتبعهما مشركو قريش .

وظلّ شبان قريش بأزاء دار المصطفى إلى نحو الفجـر حيث أتاهم آتٍ فقـال : ما تنتظرون ههنا قالوا : محمداً فقال : قـد خيبكم الله ؛ والله خرج عليكم محمد بعد أن حثا على رؤوسكم التراب وانطلق لحاجته أفمـا ترون مـا بكم ؟ فوضـع كل رجـل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب وجعلوا يتـطلعون إلى داخـل منزل المصـطفى فيرون شخصـاً نائماً على فراشه يظنونه هو فيقولون إنّ محمداً لنائم وما زالوا كذلك إلى أن اتّضح النهار فتسـوروا الدار ودخلوهـا شاهـرين سيوفهم فثـار علي في وجوههم بشجـاعتـه المعهـودة فعرفوه وقالوا هـو أنت ؟ فأين صـاحبك ؟ فقـال لا أدري وأنتم طلبتم منه أن يخـرج من مكة فخرج فتولاهـم الغيظ فسبّوه وضربوه واستـاقوه إلى المسجـد فحبسوه فيـه ساعـة ثمّ أخلوا عنه .

وما كاد ينطلق عليّ حتى أسرع إلى تنفيذ أوامر المصـطفى وإذ علم بخروجـه من مكة إلى الغار مع أبي بكر طفق يرسل لهما الزاد في مـدة ثلاثـة أيام مـع عامـر بن فهيرة الذي كان ينقل إليه أوامـر المصطفى وفي اليـوم الثالث استـأجر لهمـا علي ثلاث أباعر ودليلاً هو الأريقط بن عبد الله الليثي وأرسله بهما إلى المصطفى وصاحبه فسار بهما إلى يثرب .

وإذ علمت قريش بسفر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى يثرب هالها الأمر وأرسلت من يقتفي أثره ويردّه إلى مكة كرّمها الله فما أفلحت على كثرة من تبعه منها . ووصل عليـه الصلاة والسلام إلى يثرب بعد ثمانية أيام من خروجه من مكة فيها الأيام الثلاثة التي قضاهـا في=

تِلْكَ ٱلْجَهَالَةُ وَٱلْجُهَّالُ مَا عَرَفَتْ ... إِلَّا ٱلْبَذَاءَةَ فِي مَلْقَى مُحِجِّيْهَا
لَكِنْ أَبُوْ طَالِبٍ مَا ٱنْفَكَ يَنْصِرُ أَحْـ ... ـمَدَاً وَيَرْدَعُ أَعْدَاهُ وَيُخْزِيْهَا
حَتَّى إِذَا مَاتَ هَبَّتْ وَهْيَ طَالِبَةٌ ... أَذِيَّةَ ٱلْمُصْطَفَى خَالَتُهُ مُؤْذِيْهَا
وَطَالَمَا سَفَتِ ٱلنَّاسِ ٱلتِّرَابَ عَلَيْـ ... ـهِ أَوْ تَقَوَّلَ عَنْهُ ٱلْهَجْرَ مُسْفِيْهَا
وَحَقَّرَتْهُ بِمَا قَالَتْ وَمَا فَعَلَتْ ... عَنْهُ وَمَعَهُ وَجَارَتْ فِي تَعَدِّيْهَا
وَفِي ٱلْأَخِيْرِ رَأَتْ أَنْ تَقْضِيَنَّ عَلَيْـ ... ـهِ وَٱلْمَنِيَّةُ مِنْ دَعْوَاهُ تُنْجِيْهَا
لَكِنَّهَا رَهِبَتْ فِيْهِ عَشِيْرَتَهُ ... وَقَدْ يَعِزُّ عَلَيْهَا أَنْ تُعَادِيْهَا
وَبَعْدَ أَنْ أَعْمَلَتْ فِيْ ذَاكَ فِكْرَتَهَا ... وَكَانَ إِبْلِيْسُ نَارُ ٱلشَّرِّ يُلْظِيْهَا
قَرَّتْ عَلَى أَنَّ فِتْيَانَ ٱلْقَبَائِلِ تُرْ ... دِيْهِ جَمِيْعَاً بِضَرْبٍ مِنْ مَوَاضِيْهَا
بِذَا يُوَزَّعُ فِيْمَا بَيْنَهَا دَمُهُ ... وَمَا ٱلْهَوَاشِمُ أَهْلُ أَنْ تُقَاوِيْهَا
فَتَرْتَضِي دِيَةً عَنْ سَفْكِ خَيْرِ دَمٍ ... إِذَا رَأَتْ أَخْذَهَا بِٱلثَّأْرِ مُعْيِيْهَا
تَآمَرَتْ هٰكَذَا سِرَّاً عَلَيْهِ وَسَا ... رَتْ فِتْيَةُ ٱلْقَوْمِ فِيْ أَسْوَا مَمَاشِيْهَا
فَجَاءَ جِبْرِيْلُ طَهَ مُنْذِرَاً وَلَهُ ... يَقُوْلُ: دَعْ مَكَّةَ وَٱلْكُفْرُ فَاشِيْهَا
وَٱهْجُرْ فِرَاشَكَ فَٱلْكُفَّارُ طَالِبَةٌ ... فِيْهِ حَيَاتَكَ وَٱنْظُر كَيْفَ تَتْقِيْهَا

= الغار فلقيه المسلمون من المهاجرين والأنصار بالفرح والتهليل والتكبير وحمدوا الله الذي أوصله إليهم سالماً .

أمّا عليٌّ عليه السلام فظلّ في مكة كرّمها الله أياماً معدودات نفذ فيها جميع أوامر رسول الله ثمّ هرب من مكة خلسةً ماشياً على قدميه فكان يمشي في الليل ويختبىء في النهار إلى أن بلغ يثرب فتلقاه المصطفى بالترحاب وعانقه وبكى لما رأى من تورم قدميه وجراحاتهما لطول المسير ثمّ تفل عليه صلى الله عليه وآله وسلم في يديه الكريمتين وأمرّهما على قدمي المرتضى فشفيا في الحال وما عاد فشكاهما طوال حياته. وهذه هي الهجرة النبوية التي دخل الإسلام فيها بدوره الجدّي العظيم .

وَمَا دَجَا ٱللَّيْلُ إِلَّا وَٱلْجُنَاةُ غَشَوْا   دَارَ ٱلرَّسُوْلِ وَقَدْ بَاتُوْا مُحِيْطِيْهَا

يَسْتَنْظِرُوْنَ إِذَا مَا نَامَ أَنْ يَثِبُوْا   وَيُرْسِلُوْهُ إِلَى ٱلْجَنَّاتِ يَأْوِيْهَا

وَإِذْ رَآهُمْ رَسُوْلُ ٱللَّهِ مَالَ إِلَى   عَلِيِّنَا مَيْلَةً حُسْنُ ٱلرَّجَا فِيْهَا

وَقَالَ : نَمْ فِيْ فِرَاشِيْ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ   إِلَى ٱلْخُطُوْبِ إِذَا تَدْهَى دَوَاهِيْهَا

وَٱلْبَسْ ثِيَابِيْ وَكُنْ فِيْهَا ٱلْأَمِيْنَ عَلَى   هٰذِيْ ٱلْحَيَاةِ ٱلَّتِيْ ٱلرَّحْمٰنُ يَحْمِيْهَا

وَفِيْ صَبَاحِكَ بَادِرْ يَا أَخِيْ كَرَمًا   إِلَى ٱلْأَمَانَاتِ أَرْجِعْهَا لِأَهْلِيْهَا

كَذَاكَ أَوْصَى بِحَاجَاتٍ مُنَوَّعَةٍ   وَصِيَّهُ كَانَ بِٱلْإِسْرَاعِ يُوْصِيْهَا

وَقَدْ مَضَى غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَجِلٍ   مِنَ ٱلْخُطُوْبِ ٱلَّتِيْ قَدْ رَاحَ غَاشِيْهَا

وَقَدْ تَنَاوَلَ فِيْ يُمْنَاهُ أَتْرِبَةً   وَكَانَ فَوْقَ رُؤُوسِ ٱلْقَوْمِ ذَارِيْهَا

بِهَا لَقَدْ عَمِيَتْ فَٱجْتَازَ مَجْثَمَهَا   وَسَارَ فِيْ هَضَبَاتِ ٱلْأَرْضِ يَطْوِيْهَا

إِنَّ ٱلْعَلِيَّ عَلَى سَامِيْ شَجَاعَتِهِ   لَبَّى ٱلْأَوَامِرَ حَالًا بَاتَ مُجْرِيْهَا

قَدِ ٱرْتَدَى بِثِيَابِ ٱلْمُصْطَفَى وَعَلَى   فِرَاشِهِ نَامَ هَانِيْ ٱلنَّفْسِ هَادِيْهَا

وَلَمْ يَهَبْ وَثْبَةَ ٱلْفِتْيَانِ إِنْ وَثَبَتْ   لِقَتْلِ طَهَ كَمَا تَرْمِيْ مَرَامِيْهَا

وَحِبُّهُ لِرَسُوْلِ ٱللَّهِ دَافِعُهُ   إِلَى ٱلْمَخَاطِرِ خَافِيْهَا وَبَادِيْهَا

وَنَفْسُهُ نَفْسُ حُرٍّ مَا تَعِزُّ فَفِيْ   صِيَانِ نَفْسِ أَمِيْنِ ٱللَّهِ يَفْدِيْهَا

أَمَّا ٱلْجُنَاةُ فَمَا ٱنْفَكَّتْ نُفُوْسُهُمُ   عَلَى غَوَايَتِهَا وَٱلشَّرُّ مُغْرِيْهَا

فَجَاءَهُمْ سَائِلٌ عَنْ طُوْلِ وَقْفَتِهِمْ   وَعَنْ رُؤُوْسِهِمِ وَٱلذَّرُّ عَالِيْهَا

وَقَالَ : وَيْلَكُمْ طَهَ لِحَاجَتِهِ   فِيْ غَفْلَةٍ مِنْكُمُ قَدْ سَارَ يَقْضِيْهَا

فَكَذَّبُوْهُ وَقَالُوْا : لَا يَزَالُ عَلَى ٱلْـ   ـفِرَاشِ يَغْفُوْ قَرِيْرَ ٱلْعَيْنِ هَانِيْهَا

فَلَا يَلُوْحُ ضِيَاءُ ٱلْفَجْرِ إِلَّا وَرُوْ   حُهُ تُفَارِقُ دُنْيَانَا وَتُخْلِيْهَا

حَتَّى إِذَا أَصْبَحُوْا أَلْفَوْا قَنِيْصَتَهُمْ — فَاتَتْ وَآثَارُهَا صَعْبٌ تَقَصِّيْهَا

وَقَدْ رَأَوْا فِيْ فِرَاشِ ٱلْمُصْطَفَى بَطَلَ ٱلْإِ — سْلَامِ رُؤْيَا أَطَارَتْ نَفْسَ رَائِيْهَا

فَأَمْسَكُوهُ وَمَا هَابُوْا عَشِيْرَتَهُ — وَإِنَّ حِرْمَتَهُ كَانُوْا مُهِيْنِيْهَا

وَسَاءَلُوْهُ عَنِ ٱلْهَادِيْ فَقَالَ لَهُمْ — لَا عِلْمَ لِيْ عَنْ خُطَى قَدْ رَاحَ خَاطِيْهَا

طَلَبْتُمُ أَنْ يُخَلِّيْ مَكَّةً فَأَطَا — عَكُمْ وَأَمْسَى بَعِيْدَ ٱلدَّارِ نَائِيْهَا

وَبَسْمَةُ ٱلْهُزْءِ كَانَتْ فَوْقَ مَبْسِمِهِ — وَكَانَ وَهْوَ يُجِيْبُ ٱلْقَوْمَ يُبْدِيْهَا

فَجَرَّرُوْهُ وَقَدْ غِيْظُوْا لِمَسْجِدِهِمْ — وَكَانَ أَشْيَاخُهُمْ فِيْهِ تَنَادِيْهَا

وَبَعْدَ أَنْ حَبَسُوْهُ سَاعَةً تَرَكُوْ — هُ إِنَّهُمْ لَمْ يَكُوْنُوْا مُسْتَزِيْدِيْهَا

وَٱللَّهُ أَنْقَذَ طَهَ مِنْ مَكِيْدَتِهِمْ — فَسَارَ فِيْ هِجْرَةٍ مَحْمُوْدُ سَارِيْهَا

وَكَانَ مَعْهُ أَبُوْ بَكْرٍ يُرَافِقُهُ — إِلَى ٱلْمَدِيْنَةِ إِذْ حَلَّا مَثَاوِيْهَا

وَظَلَّ فِيْ مَكَّةٍ رَبُّ ٱلْوَفَاءِ عَلِيْـ — ـيٌّ كَيْ يُتِمَّ رِغَاباً كَانَ أُوْصِيْهَا

وَأَقْبَلَتْ عَجَلاً أَهْلُ ٱلْوَدَائِعِ تَنْـ — ـشُدُ ٱلْوَصِيَّ عَلَيْهَا كَيْ يُؤَدِّيْهَا

تَقُوْلُ : أَيْنَ وَصِيُّ ٱلْمُصْطَفَى لِيُعِيْـ — ـدَهَا إِلَيْنَا فَنَحْنُ ٱلْآنَ نَبْغِيْهَا

فَيَلْتَقِيْهَا عَلِيٌّ وَٱلْوَدَائِعُ فِيْ — يَدَيْهِ وَهْوَ لَهَا فِيْ ٱلْحَالِ يُعْطِيْهَا

لِذَاكَ أَصْبَحَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ مُشْتَهَراً — بِٱسْمِ ٱلْوَصِيِّ يُنَادِيْهِ مُنَادِيْهَا

ثُمَّ لَهُ ٱلْمُصْطَفَى أَوْصَى وِصَايَتَهُ — بَيْنَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلْأَنْصَارِ تَجْرِيْهَا

وِصَايَةٌ حِكْمُهَا حِكْمُ ٱلْيَقِيْنِ وَمَا — غَيْرُ ٱلْمُكَابِرِ مَنْ يَجْرَا وَيَنْفِيْهَا

وَبَعْدَ أَنْ كَمُلَتْ أَعْمَالُ حَيْدَرَةٍ — كَمَا أَرَادَ صَفِيُّ ٱللَّهِ مُوْحِيْهَا

وَلَّى إِلَى طِيْبَةٍ مِنْ مَكَّةٍ هَرَباً — وَخَلَّفَ ٱلدَّارَ تَنْعِي شِرْكَ بَانِيْهَا

مَشَى لِهُجْرَتِهِ مَشْيَاً عَلَى قَدَمَيْـ — ـهِ فِيْ ٱللَّيَالِيْ لِتُخْفِيْهِ دَيَاجِيْهَا

حَتَّى إِذَا مَـا دَنَا مِنْ طِيْبَـةٍ وَجِـدَ آلْأَ   نْصَـارَ وَآلصَّحْبَ قَدْ حَفَّتْ بِهَـادِيْهَـا
كَآلشَّمْسِ مِنْ حَوْلِهَـا لِأَلَاءُ هَالَتِهَـا   إِذَا آنْجَلَتْ وَهْيَ فِيْ أَزْهَى تَـلَالِيْهَـا
وَعَـانَقَ آلْمُصْطَفَى بِـآلْبُشْـرِ حَيْـدَرَةً   وَفَـرْحَـةُ آلْمُلْتَقَى عَيْنَـاهُ تُجْلِيْهَـا
ثُمَّ بَكَى إِذْ رَأَى فِيْ أَخْمَصَيْهِ جُـرُوْ   حَـاً وَهْيَ دَامِيَـةٌ وَآلسَّيْـرُ مُـدْمِيْهَـا
وَقَـدْ أَمَـرَّ يَـدَيْـهِ بَـعْـدَ تَفْـلَتِـهِ   عَلَيْهِمَـا فَـوْقَهَـا يَبْغِي يُـدَاوِيْهَـا
فَمَا آشْتَكَى بَعْدَ ذَا مِنْ أَخْمَصَيْهِ وَهَا   تِيْـكَ آلْجَـرَاحَـةُ كَـانَ آللَّهُ مُبْـرِيْهَـا
تَمَّتْ كَـذَا آلْهِجْرَةُ آلْكُبْـرَى وَقِصَّتُهَا   تُتْلَى فَتُـطْـرِبُ تَـالِيْهَـا وَمُصْغِيْهَـا

أمير المؤمنين وتآخي المسلمين

قَدْ رَحَّبَتْ يَثْرِبُ بِآلْمُصْطَفَى وَتَلَقَّـ   ـتْهُ بِبَهْجَتِهَا آلْكُبْرَى أَهَالِيْهَا[1]
وَآلُ هُجْـرَتِـهِ مَـعْ آلِ نَصْـرَتِـهِ   تَـزَاحَمَتْ حَـوْلَـهُ وَآلْبُشْـرُ مَـالِيْهَـا

---

(١) كانت هجرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من مكة كرّمها الله إلى المدينة المنورة في شهر ربيع أول من العام الثالث عشر لنبوته وكان معه أبو بكر والدليل على ما تقدم القول .

وعندما بلغ المصطفى قباء وهي على بضع كيلومترات من المدينة المنورة نزل على كلثوم بن الهرم وأقام هنالك أياماً بنى فيها مسجدها المعروف إلى يوم الناس هذا ودعا فيها المسلمين إلى صلاة يوم الجمعة وهي أول جمعة في الإسلام ووقف صلى الله عليه وآله وسلم في الناس خطيباً وقتئذٍ فقال : « إنّ الله كتب عليكم الجمعة ، في مقامي هذا ، في ساعتي هذه ، في مشهدي هذا ، في عامي هذا ، إلى يوم القيامة ، من تركها من غير عذر ، أو أقامها مع إمام جائر ، فلا جمع شمله ، ولا بورك في أمره ، ألا ولا صلاة له ، ولا حجَّ له ، ألا ولا بركة له ، ولا صدقة له » .

وسار بعد ذلك إلى المدينة المنورة فلما وصل إلى مكان مسجده وكان مربداً لبني النجار « وكانت منهم أمه آمنة فبنو النجار أخواله » قال : « تأمنوني به » فأجابه أخواله : لا نبغي به إلّا ما عند الله . فأمر به رسول الله أن يبنى مسجداً وأقام هو في دار أبي =

وَٱلْبَعْضُ كَـانَ يُهَنِّي بَعْضَهَـا فَـرَحَـاً   ثُمَّ إِلَى ٱلْمُصْـطَفَى تُسْدِي تَهَـانِيْهَـا
وَسُـرَّ أَحْمَـدُ مِنْ تِلْكَ ٱلْحَفَـاوَةِ فِيْ   تِلْكَ ٱلْمَغَـانِيْ ٱلَّتِي بِـٱلْعِزِّ يَثْـوِيْهَـا
وَلَمْ يَـطِبْ لِٱسْمِهَا وَقْـعٌ بِأُذْنِ رَسُـوْ   لَ ٱللَّهِ نَادَى : أَسَا صُنْعَاً مُسَمِّيْهَا(١)

= أيوب الأنصاري حتى بنى مسجده الشريف بيده الشريفة وعاونه في بنائه المهاجرون والأنصار بأيديهم .

أمّا أبو أيوب الأنصاري هذا الذي أضاف المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عندما وصل إلى المدينة المنورة فهو خالد بن زيد النجار الأنصاري الخزرجي شهد العقبة وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وكان من أكبر أنصار سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وشهد معه مواقع الجمل وصفين والنهروان وبعد ذلك غزا الروم مع المسلمين مع يزيد بن معاوية سنة خمسين للهجرة وتوفي عند مدينة القسطنطينية فدفن هناك وأمر يزيد بالخيل فجعلت تقبل وتدبر على قبره حتى خفيت آثاره فعل ذلك مخافة أن تنبشه الكفّار . وقد أقام العثمانيون عندما فتحوا القسطنطينية مسجداً عظيماً على اسمه في نهاية خليج قرن الذهب وهو من أشهر مساجد تلك المدينة وأهالي القسطنطينية من مسلمين ونصارى ويهود يحترمون إسم هذا الأنصاري العظيم جدّ الاحترام إلى اليوم ويسمّونه السلطان أيوب .

(١) لا بدَّ هنا وقد وصل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بالمسلمين إلى دار هجرته وهجرتهم أن نذكر شيئاً عن المدينة المنورة فنقول : ترتفع هذه المدينة زادها الله نوراً عن سطح البحر بنحو ٦١٩ متراً وهي واقعة على طول ٣٩ درجة و٥٥ دقيقة شرقاً وعلى عرض ٢٤ درجة و١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء وحرارتها في الصيف تصعد إلى ٢٨ درجة سنتكراد في الظل وقلما تتعداها وتنزل في الشتاء إلى عشر درجات فوق الصفر نهاراً وإلى خمسة تحت الصفر ليلاً وعلى هذا فهي معتدلة الطقس .

واختلف المؤرخون في تاريخها القديم فقال بعضهم إنّ اسمها « يثرب » محرّف عن الكلمة المصرية « اتريبس » وبنوا على هذا الزعم رأيهم من أنّ العمالقة الذين حكموا مصر ويقال أنّهم من العرب هم الذين بنوها بعد ذهاب حكم مصر من أيديهم . وقال آخرون بل إنّ موسى عندما خرج من مصر قاصداً فلسطين أرسل طائفةً من أصحابه لاكتشاف تلك الجهات فساروا إلى تلك البقعة وبلغهم نبأ موته فاستقروا فيها وبنو البلد =

وَقَالَ وَٱللَّهِ لَا تُدْعَى ٱلْمَدِينَةُ بِٱسْمٍ قَدْ يُشِيرُ إِلَى ٱلتَّعْبِيرِ دَاعِيهَا

= ودعوه بالكلمة المصرية « اتريبيس » ودليل هؤلاء كون سكان البلد والقبائل التي كانت محيطة به كان معظمهم من اليهود . وإنّي لا أخالف الرأي الثاني من أنَّ اليهود هم بناة المدينة ولكن على ما أظنُّ أنّهم لم يكونوا رسلاً لسيدنا موسى الكليم الذي كان منذ فكر بالهجرة بقومه من مصر طامعاً بأرض فلسطين حيث مثوى إبراهيم واسحق ويعقوب على أنه عليه السلام خرج بالإسرائيليين من مصر وكانوا مستعبدين فيها وقد انكسرت نفوسهم فلا يصلحون لقتال أهالي فلسطين الأشداء فتيّههم في سيناء أربعين حولاً كما تقول التوراة وكانوا في أثنائها يتحسرون على ثوم مصر وكراثها فلا غرو إذا كان قد هرب بعضهم إلى البلاد العربية فنزلوا الموضع الذي بنيت فيه المدينة المنورة وأقاموا هناك كما لا يبعد أن يكون قد انضمَّ إليهم فيما بعد غيرهم من اليهود الذين ضجروا من الحروب المتوالية التي انتابت مملكة إسرائيل وكيفما كان الحال في تاريخ بناء هذه المدينة التي أصبحت من أعظم المدن المقدسة في العالم فالثابت أنّ تاريخ بنائها يترامى إلى ١٦٠٠ عاماً قبل التاريخ المسيحي أو ١٢٢٠ عاماً قبل تاريخ الهجرة .

وكان إسم هذا البلد يثرب وهو على ما يقولون محرَّف عن الكلمة المصرية اتريبيس كما تقدم القول وفي معنى يثرب التثريب وهو اللوم والتعيير ولذلك أنف المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن يظل هذا الإسم عنواناً للبلد الذي آواه وأكرم مثواه فقال : « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى هي طابة هي طابة هي طابة ثلاثاً » وفي رواية أخرى أنّه قال : « هي طيبة » وفي رواية ثالثة أنّه قال : « هي طياب » قالوا : وأنما سميت يثرب على إسم أحد أولاد نوح وكان يدعى يثرب . وقالوا أيضاً أنّها سميت طيبة باسم بلد في مصر . ويدعوها المسلمون باسم « البارّة » لأنّها برَّت بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المهاجرين وهي لا تزال تبرّ بالذين يأتونها حجاجاً لزيارة سيد المرسلين .

والمدينة المنورة مبنية في وسط وادٍ شاسعٍ يمتدّ إلى الجنوب وأزقتها لا تزال ضيقة ونحن على رأي الذين يقولون بوجوب تركها على ضيقها لأنّ معظم بيوتها أثرية معروف بالتقليد الصحيح أسماء أصحابها الأقدمين العظام من أكابر الصحابة والأنصار بحيث الذي يتشرف بزيارتها يتذكر كيفما اتّجه الأشخاص الذين شادوا الدين ووطدوا مجد الإسلام والحوادث التي حدثت في ذلك العهد المجيد فأثرت على مستقبل شعوب =

= الأرض من الوجهتين الدينية والاجتماعية أعظم وأحسن تأثير . فهناك المزارات الأثرية الدينية التي تدخل الرهبة على النفوس كمزار ومسجد قباء وهو أول مسجد بني في الإسلام بناه رسول الله ﷺ في الجنوب الغربي للمدينة عند دخوله إليها في هجرته وفي وسط صحنه قبة أقيمت على مبرك ناقته حين قدومه إليها في هجرته من مكة . وهناك مزار ومسجد سيدنا حمزة وهو في شمال المدينة في وادي أحد . وهذا الوادي مشهور بالواقعة التي حصلت بين المسلمين والمشركين في ١٥ شوال سنة ٣ من الهجرة وسنذكرها في المغازي النبوية وفيها استشهد سيدنا حمزة عمّ المصطفى ﷺ وغير هذا مزارات كثيرة لا متسع لذكرها هنا .

على أنَّ أهمَّ ما في المدينة المنورة الحرم المدني على ساكنه الصلاة والسلام وهو الحرم الذي جعل هذا البلد بمصاف مكة كرّمها الله والقدس الشريف وأكسبه من الاحترام في نفوس القوم ما ليس بعده احترام . والحرم المدني واقع في وسط المدينة بميلٍ إلى الشرق وهيئته مستطيلة ومتوسط طوله من الشمال إلى الجنوب ١١٦ متراً وربع المتر وعرضه من الشرق إلى الغرب من جهة القبلة ٣٦ متراً و٣٥ سنتيمتراً ومن جهة الباب الشامي ٦٦ متراً . وينقسم في وضعه إلى قسمين هما المسجد والصحن والمسجد يبتدىء من قبلة عثمان وهذا القسم مغطى بقباب ترتكز على أقواس قامت على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب وأمّا الصحن ويسمونه الحصوة فهو ذو شكل مستطيل يميل إلى الباب الشامي ويحيط به من جهاته الثلاث ثلاث أروقة فيها أعمدة تحمل أقواساً رفعت عليها قباب تناطح الجوزاء .

وفي الجهة القبلية الشرقية من الحرم المقصورة الشريفة وفي غرب هذه المقصورة الروضة الشريفة وهي مسافة ما بين القبر الشريف ومنبر المصطفى سميت كذلك لقوله ﷺ : « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » وهي تبلغ ٢٢ متراً طولاً في نحو ١٥ عرضاً وهذه الروضة الشريفة غاصة على الدوام بالناس لشرف مكانتها . وفي غرب الروضة الشريفة قبلة المصطفى ﷺ وهي من أبدع ما صنع الصناع وهي مقامة على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة في الموضع الذي أمر المصطفى بإقامة القبلة فيه وذلك يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله سبحانه بالصلاة إلى الكعبة ـ وكان قبلها يصلّي مع أصحابه إلى بيت المقدس ـ =

= وإلى غرب القبلة المنبر الشريف وكان على عهده ﷺ عبارة عن جزع نخلة ثم استصنع منبراً من خشب الاثل يصعد إليه بثلاث درجات أو أربع . والمنبر اليوم من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية الجمال في دقة صناعته .

أمّا الحرم النبوي فله خمسة أبواب وهي : باب السلام ، وباب الرحمة ، وكلاهما في الغرب . والباب المجيدي لأنّه تجدد على عهد السلطان عبد المجيد وهو في الشمال . وباب النساء ، وباب جبريل ويسمونه باب البقيع ، وكلاهما في الشرق .

والحرم الشريف يحتوي الآن على مسجد المصطفى ﷺ وعلى بيت عائشة وعلى حجرات أزواجه مع الزيادة التي أزيدت عليه . وكان يحيط بمسجده الشريف على عهده ﷺ مساكن أزواجه وكانت في الجهة الجنوبية وبعض الشرقية من الحرم وأما مساكن أصحابه فكانت من الجهة الشرقية .

والمقصورة الشريفة من نحاس أصفر بديعة الصنع ولها باب على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود . وطول هذه المقصورة الشريفة ١٦ متراً من الشمال و١٥ من الشرق . وفي زواياها الأربع أعمدة مزوية عظيمة وعليها ترتكز قواعد القبة الشريفة . ويتصل بهذه المقصورة من الشمال مقصورة سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام وطولها ١٤ متراً من الشمال والجنوب و٧ أمتار ونصف المتر من الشرق والغرب وهذه المقصورة بنيت في موضع بيتها الذي عاشت فيه مع سيدنا علي .

وفي داخل المقصورة الشريفة الحجرة الشريفة وهي المكان الذي توفي فيه رسول الله ﷺ في اليوم ١٢ من شهر ربيع الأول سنة ١١ للهجرة ودفن فيه لقوله ﷺ «ما قُبض نبيٌّ إلّا دفن حيث قُبض » ورأسه الشريف ﷺ إلى الغرب . ولما توفي أبو بكر في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ للهجرة دفن إلى جانبه من جهة الشمال ورأسه إلى قدمي رسول الله . ولما طعن عمر استأذن من عائشة أن يدفن مع صاحبيه فأذنت له ولما مات في ٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣ للهجرة دفن إلى جوارهما ورأسه محاذية لمنكبي أبي بكر . وقد أقيمت على هذه القبور الثلاثة مقصورة من البناء على الشكل ذي خمسة أضلاع ارتفاعه أكثر من ستة أمتار .

وبين بناء المقصورة الشريفة والشبكة النحاسية الخارجة طرقة سعتها نحو ثلاث =

وَهْيَ « ٱلْمَدِيْنَةُ » إِنِّيْ بِتُّ وَاطِنَهَا   وَإِنَّنِيْ بِٱسْمِ ٱلْعَرْشِ وَآلِيْهَا

= أمتار وفي زاويتها من الجنوب كرسي موضوع عليه مصحف شريف يقال أنّه أحد المصاحف الستة التي كتبها عثمان بن عفان وهذا المصحف هدية من الحجاج بن يوسف الثقفي وسماء هذه الطرقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة وفي الجهة الشرقية منها فيما يقابل الوجه الشريف كثير من المشاكي بينها ٣١ مشكاة مرصعة بالماس والزمرد والياقوت ومعلقة بسلاسل من الذهب .

وعلى جدار المقصورة الشريفة فيما يقابل الوجه الشريف حجر من الماس البرلنتي في حجم بيضة الحمام الصغيرة يحيط به إطار من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة ويسمونه بالكوكب الدري لشدة تألقه وهو مثبت في لوحة من الذهب ورصع محيطه بـ ٢٢٧ قطعة كبيرة من الحجارة الكريمة ويقدرون قيمة هذه الماسة وحدها بثمانماية ألف جنيه وهي هدية من السلطان أحمد الأول العثماني أهداها للحجرة الشريفة في أوائل القرن الحادي عشر الهجري وقد علّق تحتها كفٌّ من الذهب المرصع بالجواهر وفي وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدري وهو هدية من السلطان مراد الرابع العثماني أهداه للحجرة الشريفة سنة ١٠٤٧ للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جداً بحجارة من الماس البرلنتي « لا إلّه إلّا الله محمد رسول الله » وهو هدية من السلطانة عادلة كريمة السلطان محمود الثاني أهدته للحجرة الشريفة سنة ١٢٩١ هجرية . وفي هذه الحجرة شيء كثير من الحجارة الكريمة والجواهر الغالية الثمن منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس البرلنتي إسم سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام وهي موضوعة على مقصورتها الداخلية في الجانب الشرقي . وإلى جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم وعقود أخرى لا تقوَّم بثمن وهناك شمعدانات ومراوح من الذهب مرصعة بالجواهر ومكانس من اللؤلؤ وقماقم ومباخر مرصعة عدا ما في خزائن الحجرة الشريفة من المصاحف المجوهرة والتحف الفاخرة والأساور والأقراط والعقود الثمينة مما أهداه تقاة المسلمين والمسلمات لحجرة نبيهم برهاناً على حبّهم له صلى الله عليه وآله وسلم وقد شاع أنّ الاتحاديين في أثناء الحرب العامة سنة ١٩١٦ ـ ١٩١٧ قد سرقوا هذه الذخائر أو بعضها ولكنا لم نتثبت بعد من هذه الإشاعة .

هذا وصف مختصر جداً للحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة على ما هو اليوم ويحسن بنا في هذا المقام أن نذكر ما كان عليه مسجد المصطفى وبيته صلى الله عليه وآله وسلم على

بِـذَا أَشَـارَ إِلَى سَـامِيْ تَمَـدُّنِـهِ وَأَنَّ مَـبْعَـثَـهُ ٱلْأَسْمَى مَغَـانِـيْهَـا

وَحَسْبُهَـا أَنَّهَـا بَـاتَتْ مَقَـرَّ هِـدَا يَـةِ ٱلْبَـرِيَّـةِ فِيْهَـا قَـرَّ هَـادِيْهَـا

وَأَنَّ سُـكَّـانَهَـا أَنْـصَـارُ بَـعْـثَـتِـهِ وَفَضْلُهُمْ أَنَّهُمْ كَـانُـوْا مُـرِيْـدِيْهَـا[1]

= عهده فنقول : إنّ المقصورة الشريفة التي أجملنا وصفها بنيت مكان البيت الذي كان يسكنه مع زوجه عائشة . والمقصورة التي بجانبها بنيت في موضع البيت الذي كانت تسكنه سيدتنا فاطمة الزهراء مع زوجها أمير المؤمنين وولد لهما فيه سيدانا الحسن والحسين عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام . وكان لبيت سيدتنا فاطمة عليها السلام شبّاك يطلّ على بيت أبيها المصطفى لعدم صبره على فراقها ، والذي يدرس ما كتبه المدققون عن بيت المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة المنورة بتدقيق يستطيع أن يستخلص على التقريب أنّ بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان ذا حجرتين وكان بابه لجهة الشام على رأي بعضهم ولجهة الغرب على رأي آخرين وقيل كان له بابان من الجهتين وكان من دون هذا البيت منازل أزواجه وكان محيطها مع بيت عائشة مبنياً باللبن وقواطعها الداخلة من الجريد المكسو بالطين والمسوح الصوفية هذا كل ما يوصف به البيت الذي عاش فيه سيد الخلائق أجمعين وكان مصدر هداية العالمين صلى الله عليه وآله وسلم وكان بجانب بيته مسجده وهو الحرم النبوي اليوم وكان وقتئذٍ في غاية البساطة فمنازل أصحابه المقربين إليه . .

(١) إنّ سكان المدينة المنورة الذين حلّ بينهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون والمهاجرون هم حلفاؤه ويطلق عليهم إسم « الأنصار » لأنّهم نصروا دعوته وهم من الشرف والمكانة في الإسلام في الطبقة الثانية بعد الصحابة من قريش بدليل قول الأنصار يوم السقيفة « منّا أمير ومنكم أمير » فقال لهم عمر بن الخطاب « بل نحن الأمراء وأنتم الوزراء » فما اعترضوا .

وهؤلاء الأنصار هم الأوس والخزرج وهما بطنان من الأزد وكانت ديارهم مأرب باليمن فهاجروا مع من رحل عنها بعد سيل العرم في القرن الثاني عشر قبل الهجرة ومروا على يثرب فطابت لهم فنزلوها ضيوفاً على سكانها اليهود وكانوا من بني النضير وقريظة وقينقاع وغيرهم على أن يكونوا تحت حكمهم . وما زالوا خاضعين لمضيفيهم اليهود حتى قام عليهم ملك اسمه « القيطون » فظلمهم فاستغاثوا « الأوس والخزرج » =

وَإِذْ أَقَامَ بِهَا مَعْ آلِ هُجْرَتِهِ رَغْداً وَطَابَتْ بِسُكْنَاهُمْ رَوَابِيْهَا

آخَى ٱلصِّحَابَ مَعَ ٱلْأَنْصَارِ مُتَّخِذاً لِكُلِّ ذَاتٍ بِهِمْ ذَاتاً تُصَافِيْهَا(١)

= بملوك غسان وهم مثلهم من عرب قحطان فنصرهم الغسانيون وأوقعوا بيهود يثرب وانتقل حكم البلد بذلك إلى الأوس والخزرج وشاركوا اليهود في أملاكهم وأصبحت لهم عصبية عظيمة ولهم حروب مشهورة في جاهليتهم . وكانت هاتان القبيلتان « الأوس والخزرج » متشاكستين فقامت بينهما حروب سفكت فيها دماء كثيرة وظلتا متعاديتين إلى أن ألف بينهما محمد صلى الله عليه وآله وسلم عندما بايعتاه على ما تقدم القول في حاشية سابقة .

(١) إذا كانت الأخوَّة من المبادىء الأساسية لأهل جميع الأديان فإنّها على الأظهر بين المسلمين لما علمت أولاً من اشتراكية العرب التي هي من أصل طبيعتهم والعرب هم أساس الإسلام ومصدره وبهم اقتدى المسلمون وبآدابهم تأدبوا . والقرآن الشريف وطد دعائم هاتيك الأخوَّة إذ قال الله سبحانه وتعالى غير مرة ﴿ **إنّما المؤمنون إخوة** ﴾ وفي الأحاديث النبوية الشريفة شيء كثير عن تآخي المسلمين بحيث لم تجعل ميزة لواحدهم على الآخر إلّا بالتقوى .

وعندما أذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة جمعهم وآخى بينهم على الحقّ والمساواة فآخى بين أبي بكر وعمر وبين حمزة وزيد بن حارثة وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف وبين الزبير وابن مسعود وبين عبادة بن الحارثة وبلال وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ هذا (وكان بجانبه) فهو أخي ووصيّ ثمّ مال إليه عليهما الصلاة والسلام وقال : ألا ترضى أن أكون أخاك ؟ قال أمير المؤمنين عليه السلام : بلى يا رسول الله رضيت فقال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : فأنت أخي في الدنيا والآخرة .

وبعد أن استقرَّ برسول الله المقام في المدينة المنورة آخى بين المهاجرين والأنصار لتتألف قلوب بعضهم ببعض وقال : « تآخوا في الله أخوين أخوين » فتقدموا وتآخوا فكان لكل مهاجر أخ من الأنصار فجاءَ عليّ إلى المصطفى عليهما الصلاة والسلام وعيناه دامعتان وقال : يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تواخ بيني وبين أحد فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا علي أنت أخي في الدنيا والآخرة » وهكذا كما رأيت أبى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن يقرن بعليّ أخاً غيره عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام .

إلَّا عَلِيّاً فَلَمْ يَـذْكُـرْ لَـهُ أَحَـدَاً لِـذِيْ ٱلْأُخُـوَّةِ فِيْ عَـالِيْ مَعَـانِيْهَـا

فَجَـاءَهُ سَـائِـلاً وَٱلـدَّمْـعُ مُنْبَجِسٌ مِنْ عَيْنِـهِ وَبِـهِ سَـالَتْ مَـآقِيْهَـا

وَقَـالَ : أَيْنَ أَخِيْ حَتَّى أُخَـادِنَـهُ فَقَـالَ : خِلُّتُنَا مَـاضٍ تَـآخِيْهَـا

أَلَمْ أُوَاخِـكَ قَبْلاً عِنْـدَ هُجْـرَتِنَـا وَعِنْـدَ مَا دَعْـوَتِيْ نَادَيْتَ : رَاضِيْهَـا

إِنِّي أَخُـوْكَ بِذِيْ ٱلـدُّنْيَا وَأَنْتَ أَخِيْ وَفِيْ ٱلْجِنَـانِ إِذَا مَـا رُحْتَ ثَـاوِيْهَـا

وَقَـالَ : مَنْ كُنْتُ مَـوْلَاهُ فَـأَنْتَ لَـهُ مَـوْلَى وَصِيَّةُ حَقٍّ جِئْتُ أُوْصِيْهَـا

وَكَـانَ ذٰلِـكَ بَيْنَ ٱلنَّـاسِ أَجْمَعِهَـا وَوَسْطَ مَجْلِسِ مَكِّيْهَـا وَطِيـبِيْـهَـا

كَـذَاكَ كَـانَ عَلِيٌّ لِلرَّسُـوْلِ أَخَـاً عَلَى ٱلشَّـدَائِـدِ مَـا تَـدْهَى دَوَاهِيْهَـا

وَكَـانَ يَحْمِـلُ فِيْ ٱلْمَيْـدَانِ رَايَتَـهُ وَفَـوْقَ أَنْصَـارِهِ ٱلْأَخْيَـارِ يُعْلِيْهَـا

وَكَـانَ صَـاحِبَـهُ يُفْضِيْ إِلَيْـهِ بِمَـا فِيْ نَفْسِـهِ مِنْ رِغَـابٍ كَـانَ يَنْـوِيْهَـا

فَمَـا غَـزَا غَـزْوَةً طَـهَ بِسُـؤْدُدِهِ إِلَّا وَحَيْـدَرَةَ ٱلْمِقْـدَامُ غَـازِيْهَـا

وَلَا نَـدَا نَـدْوَةً لِلْمُسْلِمِيْنَ بِـهَـا إِلَّا وَحَيْـدَرَةٌ مِنْ مُسْتَشَـارِيْـهَـا

وَلَا أَرَادَ لِـخَيْـرِ ٱلـدِّيْـنِ مَسْـأَلَـةً إِلَّا وَحَيْـدَرَةٌ قَـدْ هَبَّ يُـجْـرِيْهَـا

كَـذَاكَ كَـانَ وَزِيْـرَ ٱلْمُصْـطَفَى بِنَـا آسَـاسِ دَوْلَتِـهِ مُـذْ هَمَّ يَـبْنِيْهَـا

فَقُـلْ لِمَنْ رَامَ أَنْ يُخْفِيْ فَضِيْـلَتَـهُ هَيْهَـاتَ فَٱلشَّمْسُ لَا يَخْفَى تَـلَالِيْهَا

وَقُـلْ لِـمَنْ رَامَ يَـدْنُـوْ لِـرُتْـبَتِـهِ أَهْـوِنْ عَلَيْـكَ ٱلثُّـرَيَّا أَنْ تُـدَانِيْهَا

تكنية أمير المؤمنين بأبي تراب

أَعْيَا ٱلْجِهَادُ قِوَى ٱلصِّنْدِيْـدِ حَيْدَرَةٍ وَكَانَ فِيْ نَصْرَةِ ٱلْإِسْـلَامِ مُغْيِيْهَا[1]

---

(١) إن تكنيـة سيدنـا أمير المؤمنين عليه السلام « بـأبي تـراب » اختلفت فيهـا الأقـوال=

وَآلنَّاسُ تَعْلَمُ كَمْ عَانَى وَجَاهَدَ فِيْ خَيْـرِ آلنُّبُـوَّةِ أَوْ فِيْ قَهْـرِ عَـادِيْهَـا
وَهْوَ آلْحَرِيْصُ عَلى تَـأْيِيْدِ صَاحِبِهَا وَنَشْـرِ كُـلِّ جَلِيْـلٍ مِنْ مَبَادِيْهَـا
وَذَاتُ يَـوْمٍ وَقَدْ كَـانَ آلْمُجِدَّ بِـطِيْـبَـةٍ يَـرُوْحُ وَيَغْـدُوْ فِي مَمَـاشِيْهَـا
خَارَتْ قِوَاهُ آلَّتِيْ مَـا فِيْ آلْبَرِيَّـةِ مَنْ يَحْكِيْـهِ فِيْهَـا وَلاَ شَخْصٌ يُقَـاوِيْهَـا
فَنَـامَ مُعْتَمِـدَاً عَلْيَـا مَـرَاحِمِ بَـا رِيْـهِ آلَّتِيْ لِحُمَـاةِ آلـدِّيْنِ يُـوْلِيْهَـا

= باختلاف الـرواة وقد اتّخـذها بعض أعـدائه وسيلة للوقيعـة فيه فكـانوا يكنـونه بهـا وهم يـريدون احتقـاره كما أنَّ بعض المملقين الملفقين الـذين أرادوا ممالأة من كـان يهمهم الحطُّ من قـدره عليه السلام لفقـوا في هـذه الكنيـة حـوادث مـا هي من الحقيقـة في شيء .
والحقيقة أنَّ سيدنا أمير المؤمنين كان يحبُّ كثيراً هذه الكنية لـدلالتها في ظـاهرهـا على الزهد الذي كان من أظهر صفاته عليه السلام ولأنَّ ابن عمّه وأخاه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قد كنّاه بهـا في حالة كان يحلو له تذكرها لأنّها كانت تذكّره بأيام شبابه التي أنفقها في نصر الإسلام والجهاد في سبيله إلى أن أعلى الله كلمته وذاعت في العـالمين عقيدتـه . كما يسرُّ كلَّ إنسان ناجح في عمله أن يذكر المتاعب والمصاعب التي مرّت عليه حتى فاز بالنجاح .

أمّـا قصة هـذه التكنيـة فهي أنَّ سيـدنـا أميـر المؤمنين عليه السلام كـان ولا سيمـا بعـد أن وصل المسلمون المهاجرون إلى المدينة المنوّرة يواصل لياليه بأنهره في سبيل خدمة الدين الحنيف الذي تطوّع لخدمته بإخـلاص المسلم الصادق الإيمـان فكان ينفـذ أوامر المصطفى ساعياً مجداً هنا وهناك . وفي ذات يوم في العام الأول من الهجرة بينما كـان مجـداً في قضاء بعض مهام الرسالة خارت قواه بعد الجهد الكثير الذي كان نـاله فتمـدّد على الأرض ونام قرير العين ، شأن العـامل التعب الـذي لا يهمه إلاّ نجـاح عمله حتى ولو بإفناء قواه . وحـدث أنَّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مـرّ به وهـو على تلك الحالـة فهالـه الأمر واستعبـر ولا سيما بعـد أن رأى أنَّ رداءَ المرتضى قـد سقط عنه وأصـاب التراب جلـده الشريف فجلس عند رأسه وجعل يمسح عنه التراب وهو يقـول : « إجلس إنّما أنت أبـو تراب » فصحا المرتضى على صوت المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم ونهض معه وسـارا سويـة . وكان المصطفى كثيراً مـا ينادي علياً بكنية « أبي تـراب » تحبباً وتلطفاً كما أنَّ هـذه الحادثـة ذاعت بين الصحابة والأنصار فصاروا يكنـونه « بـأبي تراب » وقـد كانت هـذه الكنية من أحب الكنى إليه .

وَقَدْ تَوَسَّدَ مَا فَوْقَ آلتُرَابِ لِيُعْـــطِيْ نَفْسَهُ رَاحَةً كَانَتْ تُجَافِيْهَا

فَمَا غَفَا غَفْوَةً إلَّا وَمَرَّ بِهِ   مُحَمَّدٌ فِيْ مَسَاعٍ كَانَ سَاعِيْهَا

وَقَدْ رَآهُ وَعَنْهُ آلثَّوْبُ مُنْحَسِرٌ   رُؤْيَا تَأَثَّرَ مِنْهَا قَلْبُ رَائِيْهَا

وَفَوْقَ جُثْمَانِهِ ذَرُّ آلتُّرَابِ فَلَمْ   يَحْفَلْ بِهِ وَهْوَ كَارِيْ آلْعَيْنِ غَافِيْهَا

فَاسْتَعْبَرَ آلْمُصْطَفَى مِنْ حَالِ صَاحِبِهِ آلــ ـسُّوْءَى آلَّتِيْ لَمْ يَكُنْ تَاللّٰهِ رَاضِيْهَا

وَهَالَهُ نَوْمَةٌ قَدْ نَامَهَا وَغَدَا   مُلْقًى عَلَى آلْأَرْضِ لَا يُؤْذِيْهِ جَافِيْهَ

وَهْوَ آلْمُرَفَّهُ فِيْ دَارِ آلرَّسُوْلِ وَكَمْ   بِهِ آعْتَنَى جُهْدَهُ مُذْ كَانَ آوِيْهَا

وَكَانَ أَحْنَى عَلَى تَرْفِيْهِ عِيْشَتِهِ   مِنَ آلرَّؤُوْمِ آلَّتِيْ تَرْعَى ذَرَارِيْهَا

فَأَيْنَ مَنْ يَصِفُ آلْهَادِيْ وَكُرْبَتَهُ   لِحَالِ مَنْ حَبَّ فِيْ أَسْوَا مَرَائِيْهَا

فَقَدْ رَأَيْنَا رَسُوْلَ آللّٰهِ يَنْظُرُهُ   وَنَظْرَةُ آلْحُبِّ لَا تَخْفَى مَعَانِيْهَا

ثُمَّ ثَوَى قُرْبَهُ فِيْ خَيْرِ عَاطِفَةٍ   رَاحَ آلْمُحِبُّ إلَى آلْمَحْبُوْبِ يُسْدِيْهَا

وَآضَ يَمْسَحُ ظَهْرَ آلْبَرِّ حَيْدَرَةٍ   مِنَ آلتُّرَابِ وَآيُ آلْعَطْفِ يُبْدِيْهَا

وَصَاحَ فِيْهِ آنْتَبِهْ يَا صَاحِ أَنْتَ «أَبُوْ   تُرَابٍ» آنْهَضْ فَحَسْبُ آلنَّفْسِ تُشْقِيْهَا

صَحَا آلْعَلِيُّ وَخَيْرُ آلْأَنْبِيَاءِ عَلَى   حَالٍ مِنَ آلْوِدِّ مَا أَحْلَى تَجَلِّيْهَا

فَآزْدَادَ فِيْهِ هَوًى وَآلْحَمْدُ فِيْ فَمِهِ   حَمْدُ آلرِّيَاضِ لِمَاءِ آلْمُزْنِ يُرْوِيْهَا

وَسُرَّ مِنْ كِنْيَةٍ طَابَتْ لِمَسْمَعِهِ   وَكَانَ يَصْبُوْ إلَى زَاهِيْ تَكَنِّيْهَا

وَكَانَ آخِذَهَا ذِكْرَى مُخَلَّدَةً   لِعَطْفَةِ آلْمُصْطَفَى آلْهَادِيْ مُكَنِّيْهَا

وَآللّٰهُ كَابَتْ أَغْرَاراً لَقَدْ هَزَأَتْ   بِهَا وَأَرْذَلُ أَهْلِ آلْأَرْضِ هَازِيْهَا

وَيْلُ آمِّهَا حَرَّفَتْ فِيْ غَيِّهَا آلْكَلِمَ آلْــ ـغَرَّاءَ أَوْ جَهِلَتْ سَامِيْ مَرَامِيْهَا

وَقَدْ أَسَاءَتْ إلَى آلْهَادِيْ بِذَاكَ وَلَمْ   تَفْطَنْ وَلَمْ تَكُ ذِيْ أُوْلَى مَسَاوِيْهَا

زفاف سيدتنا فاطمة إلى سيدنا أمير المؤمنين

شَبَّتْ بِحِجْرِ رَسُوْلِ ٱللّٰهِ فَـاطِمَـةُ   كَمَـا تُحِبُّ ٱلْمَعَالِي أَنْ تُـلَاقِيْهَـا[1]

وَفِيْ حِمَى رَبَّـةِ ٱلْعَلْيَا خَـدِيْجَةِ قَـدْ   نَشَتْ كَمَـا ٱلطُّهْـرُ وَٱلآدَابُ تَشْهِيْهَا

---

(١) رزق الله المصطفى البنين والبنات من سيدتنا خديجة ولكن ما سلمت غير بناته وذلك تقدير العزيز الحكيم الذي هيأ للإسلام أن تكون بركة السلالة النبوية الطاهرة من أخيه وربيبه وصنوه سيدنا علي بن أبي طالب من زواجه بسيدتنا فاطمة الزهراء على المصطفى وعليهما وعلى آل البيت الطاهرين صلاة الله وسلامه إلى يوم الدين .

أمّا بنات المصطفى ﷺ فأربع وهنَّ أمّ كلثوم ورقية وزينب وفاطمة واختلف الرواة كما سبقت الإشارة في ترتيبهنَّ حسب أعمارهنَّ اختلافاً لا موضع له هنا . وقد تزوجت أم كلثوم ورقية من ولدي عمهما أبي لهب قبل البعثة وهما عتبة وعتيبة ثم طلقاهما بعد البعثة لغلوّهما مع أبيهما بالشرك وأبوهما أبو لهب معروف بأنّه كان أعدى أعداء النبوة كما هو مشهور . ثمَّ تزوجتا من عثمان بن عفان الواحدة بعد الأخرى . أمّا زينب فتزوجت من أبي العاص بن الربيع .

أمّا سيدتنا فاطمة الزهراء فمع أنَّ بعض الرواة جعلها أكبر من رقية وبعضهم جعلها أكبر من زينب فإنّنا ليس فقط نرجح بل نؤكّد أنّها كانت أصغرهنَّ جميعاً لأنها لم تتزوج إلّا بعد الهجرة خلافاً لشقيقاتها اللواتي تزوجن في مكة قبل البعثة والعرب من عادتهم تزويج بناتهم وهنَّ صغيرات .

والذي يرجع إلى تاريخ المصطفى ﷺ يجد الرواة مجمعين على أنَّ سيدتنا فاطمة الزهراء كانت ذات منزلةٍ رفيعةٍ عند أبيها المصطفى لم تكن لشقيقاتها ولا لمخلوقٍ آخر مثلها إلّا منزلة سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان أعزَّ كل عزيز عند النبيّ العربي ولا بدَّ للباحث المدقق من أن يعمل الفكرة في السبب الذي دفع المصطفى ﷺ إلى تخصيص سيدتنا فاطمة الزهراء بذلك الحب الممتاز المشفوع بالاحترام والإكرام .

إنَّ الأب وكلنا آباء ينظر إلى أولاده كلهم بادىء بدءٍ بعينٍ واحدةٍ لأنّهم جميعاً أولاده وفلذة كبده ويساوي بينهم بعقليته بلا تفريق ولا تمييز وهذا أمر طبيعي عام تساوى =

وَنفْسُهَـا آنْبَثَقَتْ مِنْ نَفْسِ وَالِـدِهَـا   وَأُمِّهَـا فَهْيَ تَحْـكِيْـهِ وَتَـحْـكِيْهَـا

=فيه جميع الناس ثمَّ لا بدّ للآباء بعد أن يترعرع بنوهم ويشبون أن يشعروا من نفوسهم بتفاوت العطف في قلوبهم نحو أولادهم على تفاوت ما يظهر من أخلاقهم فتراهم مع حبهم لجميع أولادهم يفضلون الواحد على الآخر إمّا لذكائه أو لأدبه أو لكرم أخلاقه أو لما يُظهر من العطف على أبيه والبرّ به وفوق ذلك فقد جعل الله في أنفس الآباء عطفاً خاصاً على صغير الأولاد وعليلهم وفقيرهم من قبيل الحنوّ الأبوي الطبيعي لأنّ الصغير والعليل والفقير هم دائماً أبداً موضع الحنوّ والعطف .

والذي نستفيده من مراجعة أقوال الرواة أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ما خصَّ سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام بحبّه الخاص الممتاز إلّا لأنّها كانت صغيرة أخواتها وكانت ممتازة بالذكاء ومكارم الأخلاق ومحاسن الطباع لأنّ مثل المصطفى وهو من العدل والفضل على أسمى مرتبة يبعد أن يميل قلبه الأقدس إلى سيدتنا فاطمة ذلك الميل العظيم من غير أن تكون جديرة به وأهلاً له وإذا تقرّر لدينا أنّها خليقة بذلك الميل النبويّ العظيم كان لنا أن نجزم بأنّها ما استحقت هذا الميل العظيم إلّا لأنّها أفضل بنات حواء في مكارم الأخلاق .

وقد أجمع المؤرخون على أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يتنفّث له كرب ولا يطيب له عيش إلّا إذا رأى سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام وكان لا يصبر على فراقها طويلاً فيزورها كل يوم وقد يزورها في اليوم الواحد غير مرّة وقد جعل بيتها بجانب بيته الشريف وجعل بينهما شبّاكاً ليطلّ عليها منه كلما اشتاق لرؤياها . كما أجمعوا أيضاً على أنّها كانت أدلّ الناس عليه وطالما وسطتها أزواجه لديه صلى الله عليه وآله وسلم بشؤونهنَّ كما أنّ أصحابه كانوا يوسطونها لديه بحوائجهم .

وكان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يبالغ بإكرام سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام حتى أنّه على ما أجمع الرواة كان يقوم لها إذا دخلت عليه إعلاناً للقوم بعظم منزلتها عنده . كما أنّه كان يستشيرها في أموره وطالما سمعه الناس يقول إنّ رضاءَه الشريف من رضائها وغضبه من غضبها أو ما هو في هذا المعنى .

وإذا أردنا الإسهاب فيما قيل عن سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام لضاق بنا مجال الكلام فقد أجمع الرواة على أنّها قد كانت على أبدع مثال من الجمال وأزانت جمالها بمكارم الأخلاق وطيب الخلال كما كانت من الذكاء وسداد رأي والطهارة والتقى في =

تَفَرَّدَتْ بِٱلذَّكَا وَٱلْعِلْمِ وَٱتَّخَذَتْ مِنَ ٱلْخَلَائِقِ وَٱلآدَابِ سَامِيْهَا

=مرتبة الكمال .

وبلغت سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام الخامسة عشرة من ربيع عمرها في العام الأول للهجرة وطفق المهاجرون يتحدثون بجمالها وكمالها ويغبطون الذي سيحوز على شرف القران بها وأول من تقدَّم لخطبتها هو أبو بكر لتقرّبه المعروف من المصطفى فجاءَه خاطباً فردَّه صلى الله عليه وآله وسلم ردّاً جميلاً بقوله إنّي منتظرٌ في تزويجها أمر ربّي . ومن هذا الجواب النبوي ازداد إعجاب الناس بسيدة العالمين هذه التي لا يكون زواجها إلاّ بوحي من السماء . ثمَّ تقدَّم لخطبتها عمر بن الخطاب على ما هو معروف من جرأته وإدلاله على المصطفى فردَّه صلى الله عليه وآله وسلم كما ردَّ أبا بكر وحينئذٍ طفق الناس يتساءَلون عن الرجل الكفء الذي سيفوز بهذه الدرَّة الغالية بأمر الله سبحانه ولم يفت أذكياءَهم أنّ ما من كفء لفاطمة بين المهاجرين والأنصار إلاّ سيدنا علي بن أبي طالب الذي كان موضوع إعجاب المصطفى والمسلمين وحسبنا للدلالة على ما كان لهذين النيرين « علي وفاطمة » من المكانة العليا عند المصطفى شهادة عائشة وهي معهما على ما تعلم فإنّها كانت تقول : إنّها لم ترَ أحبَّ إلى رسول الله من علي وفاطمة وما نطقت إلاّ الحق في شهادتها هذه .

وفي السنة الثانية للهجرة أوحى الله لسيدنا محمد أن يزوّج ابنته الزهراء لأخيه وصنوه ووصيه سيدنا علي بن أبي طالب فصدع بأمر ربّه وأوعز إلى أبي بكر وعمر أن يشيرا إليه بأن يتقدم لخطبتها فأجابهما لقد نبهتماني لأمر كنت غافلاً عنه وسار من ساعته إلى رسول الله صلّى الله عليهما وعلى آلهما وسلم وقال له : أتزوجني فاطمة ؟؟ فتبسم رسول الله تبسم الراضي وقال : وهل عندك شيء ؟؟ قال علي : ليس عندي غير فرسي ودرعي فأجابه المصطفى : أمّا فرسك فلا بدَّ لك منها وأمّا درعك فبعها فخرج علي وباع درعه بأربعمائة درهماً وجاء بها إلى رسول الله مهراً لفاطمة عليها السلام .

وسار المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلى فاطمة الزهراء وقال لها : أيّ بنية إنّ ابن عمّك علياً قد خطبك فماذا تقولين ؟ فبكت ثم قالت : كأنك أدخرتني يا أبت لفقير قريش فقال صلى الله عليه وآله وسلم : والذي بعثني بالحقّ ما تكلمت في هذا حتى أذن الله لي من السماء .
فقالت فاطمة حينئذٍ : رضيت بما رضي الله ورسوله . =

= والذي ينظر إلى هذا الزواج الذي تمَّ بوحي إلَهيّ لا يسعه إلاّ أن يقول كما نقول نحن إنّ العناية الإلَهية هي التي شادت دعائم هذا البيت النبوي فجعلت أساسه المصطفى وعضادتيه المرتضى وفاطمة الزهراء وهم مصدر البركة التي تدفقت على المسلمين بأبنائهم الطاهرين الطيبين .

ولما عزم المصطفى أن يعقد لعلي على فاطمة الزهراء جمع المهاجرين والأنصار وخطب فيهم فقال : « الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته ، الذي خلق الخلق بقوّته ، وميزهم بحكمته ، ثمَّ أنّ الله عزَّ وجلَّ جعل المصاهرة نسباً وصهراً ، وكان ربّك قديراً ، ثم ان الله أمرني أن أزوّج فاطمة من علي على أربعمائة درهم فضة » وبعد هذه الخطبة الطيبة التفت المصطفى إلى المرتضى عليهما الصلاة والسلام وقال : « أرضيت يا علي ؟ » فقال علي : « الحمد لله ، وشكراً لأنعمه وأياديه ، وأشهد أن لا إلَه إلاّ الله ، شهاداً تبلغه وترضيه ، وهذا محمد رسول الله ، زوجني ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم ، فاسمعوا ما يقول واشهدوا » فقال الحاضرون : ما تقول يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أشهدكم أني قد زوَّجته » فتقدَّم حينئذٍ الناس من المصطفى والمرتضى مهنئين مباركين يدعون للعروسين بالرفاه والرفاء والبنين . ولا بدَّ أنّ ملائكة السماء قد تهللت بهذا العقد المبارك الذي قضى به ربّ العالمين .

ولما تمَّ العقد على الشكل الشرعي الآنف الذكر دعا رسول الله بطبق بسر « تمر » فوضع بين يديه فقال : « فانتهبوا » فتناول الحاضرون ما طاب لهم . ثمّ أولم علي عليه السلام على فاطمة بكبش أهدي له من سعد وآصع ذرة أهدي له من جماعة الأنصار فكانت وليمة طيبة لعقد طاهر .

وفي الليلة التي بنى بها علي بفاطمة جاءَت أمّ أيمن حاضنة المصطفى بها حتى قعدت في جانب البيت وقعد علي في الجانب الآخر وجاءَ رسول الله ووجهه يطفح سروراً وبشراً بزواج أحبّ الناس إليه وقال لفاطمة : ائتيني بماء فقامت فتعثرت بأذيالها خجلاً وحياءً وأتته بعقب فيه ماء فأخذه رسول الله ومجَّ فيه وقال لها : تقدمي فتقدمت منه فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال : « اللَّهمَّ إنّي أعيذها بك وذريّتها من الشيطان الرجيم » . ثم قال ائتوني بماء فعلم عليّ بأنّه المقصود فخفَّ إلى عقب ماء فأتاه به فصنع مع علي كما صنع مع فاطمة ودعا له بما دعا لها ثمَّ قال : « اللهمَّ بارك فيهما ، =

وَإِنَّهَا فَـزَّةٌ بَيْنَ آلنِّسَاءِ فَلاَ ... بِنْتٌ لِحَوَّاءَ تَدْنُو مِنْ مَعَالِيْهَا

وَمَا آلْقَرَائِحُ تَقْوَى أَنْ تُصَوِّرَ مَا ... فَوْقَ آلطُّرُوْسِ وَإِنْ تَزْكُوْ مَعَانِيْهَا

وَحَسْبُنَا أَنَّ طَهَ كَانَ مُعْطِيَهَا ... عِنَايَةً لَمْ يَكُنْ لِلْغَيْرِ يُعْطِيْهَا

وَكَانَ مُنْزِلَهَا تَاَللَّهِ مَنْزِلَةً ... عَلْيَاءَ مِنْ نَفْسِهِ بِاَلْيُمْنِ تَأْوِيْهَا

وَكَانَ يَنْظِرُهَا فِيْ بَيْتِهِ مَلَكاً ... بَادِيْ آلسَّنَامَا آنْثَنَتْ تُبْدِي تَثَنِّيْهَا

كَانَتْ تَعِزُّ عَلَيْهِ عِزَّةً حَرِمَتْ ... لَهَا شَقِيقَاتُهَا مِثْلاً وَتَشْبِيهَا

وَكَانَ يَذْكُرُ فِيْهَا أُمَّهَا وَبِهَا ... يَلْقَى خَدِيْجَةَ فِيْ أَسْمَى مَبَادِيْهَا

وَكَانَ صَلَّى عَلَيْهِ آللَّهُ يُبْهِجُهُ ... مِنْ دَهْرِهِ سَاعَةً فِيْهَا يُفَاهِيْهَا

وَقَدْ أَزَاحَ إِلَهُ آلْعَرْشِ غَمَّتَهُ ... بِهَا وَسَرَّى تَبَارِيْحاً يُعَانِيْهَا

وَنَفْسُهُ وَجَدَتْ فِيْ بِرِّ فَاطِمَةٍ ... لَدَى آلْخُطُوْبِ آلَّتِي تَدْهَى تَعَازِيْهَا

كَانَتْ تُؤَاسِيْهِ فِيْ رَاضِيْ تَبَسُّمِهَا ... وَكَانَ فِيْ عَطْفِهِ آلأَسْمَى يُؤَاسِيْهَا

مَا قَالَ فَاطِمَةٌ إِلاَّ وَأَفْرَحَهُ ... ذِكْرُ آسْمِهَا فَهْوَ لاَ يَنْفَكُّ يُسْمِيْهَا

وَقَدْ أَدَلَّتْ عَلَيْهِ وَهْوَ وَالِدُهَا ... وَقَدْ تَجَنَّتْ وَمَا أَشْهَى تَجَنِّيْهَا

وَكَانَ يَسْعَى إِلَى تَفْرِيْجِهَا أَبَداً ... حَتَّى تَبِيْتَ عَلَى هَانِيْ تَلَهِّيْهَا

وَيَسْأَلُ آللَّهَ فِيْ سِرٍّ وَفِيْ عَلَنٍ ... أَنْ يَصْطَفِيْهَا مِنَ آلأَيَّامِ صَافِيْهَا

فَمَا دَعَتْهُ لِحَاجٍ وَهْيَ تَطْلُبُهَا ... إِلاَّ وَكَانَ لِمَا تَرْجُوْ مُلَبِّيْهَا

=وبارك عليهما ، وبارك لهما في شملهما » وتلا آية « قل هو الله أحد والمعوذتين » ثمَّ قال لعلي : « ادخل بأهلك باسم الله والبركة » .

وقد كان هذا الزواج المبارك في السنة الثانية للهجرة وأمير المؤمنين في الحادية والعشرين من ربيع عمره وسيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام في السادسة عشرة من ربيع عمرها على المصطفى وعليهما صلوات الله .

وَمَا دَعَاهَا لِغَيْرِ ٱلْإِبْتِهَاجِ بِهَا إِذَا تَجلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ مَخَابِيْهَا

يَقُوْمُ إِن أَقْبَلَتْ كَيْمَا يُشِيْرُ إِلَى عَالِيْ مَكَانَتِهَا فِيْ ٱلْقَوْمِ تَنْوِيْهَا

حَسْبُ ٱلنِّسَاءِ فَخَاراً أَنَّ فَاطِمَةً مِنَ ٱلنِّسَا وَلَهَا أَنْ تُكْثِرَ ٱلتِّيْهَا

نَعَمْ فَقَدْ شَرَّفَ ٱللَّهُ ٱلنِّسَاءَ بِهَا وَإِنْ تَكُنَّ جَمِيْعَاً مِنْ حَوَاشِيْهَا

وَعَمْرَكَ ٱللَّهَ مَنْ كَانَتْ كَفَاطِمَةٍ وَقَدْ تَنَاهَى كَمَا قُلْنَا تَعَالِيْهَا

وَمَنْ أَبُوْهَا خِيَارُ ٱلْخَلْقِ أَجْمَعِهَا وَأُمُّهَا خَيْرُ أُمٍّ فِيْ أُنَاسِيْهَا

وَمَنْ قُرَيْشٌ وَهُمْ أَسْمَى ٱلْأَعَارِبِ أَهْـ ـلُوْهَا وَمَجْدُهُمْ جَازَ ٱلْأَتَاوِيْهَا

وَمَنْ غَدَتْ خَيْرَ أُنْثَى فِيْ شَمَائِلِهَا ٱلْـ ـحَسْنَا ٱلَّتِيْ تَبْهَرُ ٱلدُّنْيَا زَوَاهِيْهَا

وَمَنْ تُشِعُّ شَعَاعَ ٱلشَّمْسِ جَبْهَتُهَا وَلَا تُلَالِيْ إِذَا لَاحَتْ تَلَالِيْهَا

وَمَنْ تُقِيْمُ ٱلْمَعَالِيْ وَٱلْمَفَاخِرُ حَوْ لَيْهَا إِذَا جَلَسَتْ فِيْ صَدْرِ نَادِيْهَا

هِيَ ٱلْجَدِيْرَةُ بِٱلْكِفْءِ ٱلْكَرِيْمِ لَهَا مَنْ بِٱلْمَفَاخِرِ وَٱلْعَلْيَا يُحَاكِيْهَا

وَٱلْعُرْبُ تَطْلِبُ أَكِفَاءً تُزَوِّجُهُمْ بَنَاتِهَا سِنَّةٌ تَأْبَى تَعَدِّيْهَا

وَكُلُّ عِقْدٍ بِغَيْرِ ٱلْكِفْءِ تَحْسَبُهُ عَاراً عَلَيْهَا لَدَى ٱلْأَقْرَانِ يُخْزِيْهَا

فَمَنْ يَلِيْقُ بِبِنْتِ ٱلْمُصْطَفَى حَسَباً وَمَنْ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱلْعَرْبَاءِ كَافِيْهَا

وَمَنْ يُنَاسِبُ طَهَ كَيْ يُصَاهِرَهُ وَهِيَ ٱلْمُصَاهَرَةُ ٱلْمَسْعُوْدُ مُلْقِيْهَا

غَيْرُ ٱلْعَلِيِّ رَبِيْبِ ٱلْمُصْطَفَى وَلَهُ سَبْقُ ٱلْهِدَايَةِ مُذْ نَادَى مُنَادِيْهَا

فَإِنَّهُ بَعْدَ طَهَ خَيْرُ مَنْ وَلَدَتْ قُرَيْشُ مُنْذُ بَرَا ٱلْبَارِيْ ذَرَارِيْهَا

وَإِنَّهُ بَطَلُ ٱلْإِسْلَامِ تَعْرِفُهُ تِلْكَ ٱلْحُرُوْبُ ٱلَّتِيْ أَمْسَى مُجَلِّيْهَا

وَأَعْلَمُ ٱلنَّاسِ بِٱلشَّرْعِ ٱلْمُشَرَّفِ بَعْـ ـدَ ٱلْمُصْطَفَى وَأَجَلُّ ٱلنَّاسِ تَفْقِيْهَا

وَأَطْهَرُ ٱلنَّاسِ نِيَّاتٍ وَأَطْيَبُهَا قَلْبَاً إِذَا مَا أَرَدْنَا أَنْ نُجَاهِيْهَا

وَأَبْلَغُ ٱلنَّاسِ أَقْوالاً وَأَفْصَحُهَا | خِطَابَةً وَهْوَ يُنْشِيْهَا وَيُلْقِيْهَا

وَأَزْهَدُ ٱلنَّاسِ فِيْ ٱلدُّنْيَا وَزُخْرِفِهَا | وَأَبْعَدُ ٱلنَّاسِ عَنْ مُغْرِيْ مَلاَهِيْهَا

وَأَرْحَبُ ٱلنَّاسِ صَدْراً بِٱلْعُفَاةِ إِذَا | وافتهُ مَا فِيْ يَدَيْهِ كَانَ يُوْلِيْهَا

هٰذَا ٱلْعَمِيْدُ ٱلْمُفَدَّى كِفْءُ فَاطِمَةٍ | وَخَيْرُ نِدٍّ لَهَا مَنْ دُوْنِ أَهْلِيْهَا

لِذٰلِكَ ٱخْتَارَهُ رَبُّ ٱلسَّمٰاءِ لَهَا | بَعْلاً وَأَمْسَتْ بِهِ ٱلدُّنْيَا تُهَنِّيْهَا

وَقَبْلَهُ عُمَرٌ وَافَى بِإِثْرِ أَبِيْ | بَكْرٍ وَكُلُّهُمَا قَدْ كَانَ يَبْغِيْهَا

جَاءَا لِخِطْبَتِهَا طَهَ فَقَالَ أَنَا | مُسْتَنْظِرٌ لاِبْنَتِيْ حِكْمَ ٱلْقَضَا فِيْهَا

كَذَاكَ رَدَّهُمَا ٱلرَّدَّ ٱلْجَمِيْلَ لأَ | نَّ ٱللَّهَ لِلْمُرْتَضَى ٱلْعَالِيْ مُهَيِّيْهَا

حَتَّى إِذَا أَذِنَ ٱلْبَارِيْ بِخِطْبَتِهَا | إِلَى عَلِيٍّ سَعَى طَهَ يُرَاضِيْهَا

فَجَاءَهَا قَائِلاً : إِنَّ ٱلْعَلِيَّ فَتَى | قُرَيْشَ يَبْغِيْ فَتَاتِيْ جَاءَ رَاجِيْهَا

قَالَتْ : أَتُزْوِجُنِيْ مِنْ مُتْرِبٍ أَبَتَا | هُ وَٱلْمَدَامِعُ تَهْمِيْ مِنْ مَآقِيْهَا

فَقَالَ : وَٱللَّهِ لَمْ أَئْذِنْ بِزِيْجَتِكِ ٱلزَّهْرَاءَ إِلاَّ لأَنَّ ٱللَّهَ رَاضِيْهَا

وَمَا تَكَلَّمْتُ فِيْهَا قَبْلَ أَمْرِ إِلٰهِيْ فَهْوَ لِيْ مِنْ سَمَاهُ كَانَ مُوْحِيْهَا

قَالَتْ : إِذَنْ بُغْيَةُ ٱلْخَلاَّقِ نَافِذَةٌ | وَقَدْ رَضِيْتُ بِهَا إِنِّيْ أُجَرِّيْهَا

وَكَانَ أَوْعَزَ طَهَ لِلْعَلِيِّ بِأَنْ | يَأْتِيْهِ لِلْخِطْبَةِ ٱلْمَغْبُوْطُ حَاظِيْهَا

فَقَدْ أَتَاهُ أَبُوْ بَكْرٍ يُبَشِّرُهُ | بِنِعْمَةٍ لَيْسَ إِلاَّهُ مُلاَقِيْهَا

وَكَانَ مَعْهُ أَبُوْ حَفْصٍ يُرَافِقُهُ | بِذِيْ ٱلْمُهِمَّةِ حَسْبَ ٱلأَمْرِ يَقْضِيْهَا

قَالاَ : ٱلْتَمِسْ مِنْ رَسُوْلِ ٱللَّهِ فَاطِمَةً | فَمَا لِغَيْرِكَ يَاٱبْنَ ٱلْوِدِّ مُعْطِيْهَا

فَقَالَ : ذَكَّرْتُمَانِيْ لاَ عَدِمْتُكُمَا | بُنَيَّةٍ طَالَمَا قَدْ كُنْتُ نَاوِيْهَا

وَسَارَ يَخْطِبُ بِنْتَ ٱلْمُصْطَفَى عَجِيلاً | فَلَمْ يَخِبْ بِرِغَابٍ كَانَ مُسْدِيْهَا

كَـذَا أَبُـوْ قَـاسِمٍ بِـآلْيُمْنِ زَوَّجَهَـا مِـنْـهُ وَأُمَّتُـهُ تُـهْـدِيْ تَهَـانِـيْـهَـا

زُفَّتْ إِلَيْـهِ بِـإِجْـلَالٍ وَأَحْمَـدُ يَـدْ عُـوْ أَنْ يَزِيْـدَهُمَا آلـرَّحْمٰنُ تَـرْفِيْهَا

جَـرَى يُرَفِّيْـهِ فِيْ هٰـذَا آلْقِـرَان كَمَـا مَضَى إِلَى بِنْتِـهِ آلـزَّهْـرَا يُـرَفِّيْهَـا

وَقَالَ : بَارِكْ إِلٰـهَ آلْعَرْشِ عِقْـدَهُمَا أَكْثِـرْ ذَرَارِيْهِمَـا آلْمَحْمُـوْدُ نَـاشِيْهَـا

زِفَافُ سَعْدٍ بِـهِ آلْأَمْلَاكُ قَـدْ شَرِكَتْ أَهْـلَ آلدُّنَـا بِـآلتَّهَـانِيْ مِنْ أَعـالِيْهَـا

أَيُّ آلْبَشَـائِـرِ أَسْمَى مِنْ بِشَـارَةِ ذَيَّـــاكَ آلْقِـرَانِ وَهَـلْ بُشْـرَى تُسَـامِيْهَـا

بَـدْرُ آلْحَنِيْفِيَةِ آلسَّمْحَـاءِ قَـارَنَ شَمْـــسَاً قَدْ أَضَاءَتْ سَنَىً مِنْ صُلْبِ وَالِيْهَا

وَمِنْهُمَـا آنْتَظِرَ آلنَّسْـلُ آلْمُبَـارَكُ تَمْـــلَا آلْأَرْضَ خَيْرَاتُهُ آلْكَثْرَى فَتُحْيِيْهَا

فَـآلـلّٰهُ كَثَّـرَهُـمْ وَآللّٰهُ طَـهَّـرَهُـمْ وَآلـلّٰهُ أَوْلَاهُـمُ عِـزَّاً وَتَـوْجِـيْـهَـا

وَآللّٰهُ أَوْجَبَ وَافِيْ آلْإِحْتِـرَامِ لَـهُمْ وَحُبَّهُـمْ إِنَّ ذَا ذِكْـرَى لِنَـاسِـيْهَـا

فَمَنْ يُنَـاوِيْهِمِ نَـاوَى آلـرِّسَـالَـةَ فِيْ شَخْصِ آلرَّسُوْلِ فَكَفِّرْ مَنْ يُنَاوِيْهَا

وَإِنَّ عَـائِشَـةً مِنْ نَفْسِهَـا شَهِـدَتْ شَهَـادَةً لَمْ تَـذَرْ شَكَّـاً لِـرَاوِيْهَـا

قَـالَتْ : عَلِيٌّ وَذَاتُ آلطُّهْـرِ زَوْجَتُـهُ كَـانَـا أَحَبَّ آلْـوَرَى طِـرَّاً لِهَـادِيْهَا

أمير المؤمنين والغزوات النبوية

مَـا جَـاءَ أُمَّتَـهُ يَـوْمَـاً أَخُـوْ مِقَـةٍ بَـرٌّ كَمَـا جَـاءَهَـا طَـهَ يُنَـادِيْهَـا[1]

---

(١) ليس من فضول القول أن نتصدى هنا إلى كلمة في الغزوات النبوية التي جمعت كلمة العرب على الإسلام ومهّدت لهذه الأمة سبل المجد فملكتها وأسست مملكة لم يحلم بمثلها أكاسرة فارس وقياصرة الروم وظهر فيها النبوغ والذكاء العربيين بأجمل مظاهرهما .

إنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم نادى ببعثته قومه مسالماً وما خطر له قطّ أن يستعمل الإكراه =

فَقَدْ دَعَاهَـا إِلَى ٱلدُّنْيَـا تَصُوْلُ عَلَى جُهَـاتِهَـا بَيْنَ شَـرْقِيْهَـا وَغَـرْبِيْهَـا

= في دينه بل أنّه ظلّ لآخر عهده بهذا الوجود وهو ينادي ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾ و﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ ولو لم يتصدّ كفّار قريش ومشركوها للمصطفى ومن تبعه في دينه بالأذى والاضطهاد لظلّ رسول الله يدعو إلى دينه بالتي هي أحسن والنتيجة بغير جدال واحدة وهي سيادة هذا الدين القيم على البلاد العربية ولكن كان لا بدّ من بطء انتشار الإسلام في ظلال السلام خلافاً للقتال الذي أعجل بنشره فكان الدين السائد على جزيرة العرب في سنوات معدودات وهو القتال الذي اختاره المشركون حكماً بينهم وبين المؤمنين وهكذا يكون المصطفى قد نزل على حكمهم تاركاً للسيف الفصل بين الحقّ والباطل وعنده النبأ اليقين .

قلنا إنّ النتيجة في هذا النزاع الذي شجر في جزيرة العرب بين محمد بن عبد الله ﷺ وأعدائه المشركين واحدة وهي سيادة الدين الحنيف . وذلك لأنّ الإسلام هو أبسط الأديان في حقيقته لا يكلف الإنسان أن يعتقد بما لا يدركه بحسه ولا يقبله عقله فيلجأ إلى تسليم بغير فلسفة ولا اعتراض وذلك لأنّ كل ما يطلبه من تابعيه أن يشهدوا أن « لا إلَه إلاّ الله » وكلمة التوحيد هذه هي أساس الإسلام وحقيقته الناصعة . وإذا أراد أن يتوسع الإنسان في تفهم الحضرة الإلّهية التي أوجب الإسلام لها الوحدة المطلقة علمه القرآن أنّ الله هو واحد أحد لا والد له ولا ولد ولا أول ولا آخر وهو مبدع الخلائق وهو المجزي على الخير خيراً والمجزي على الشرّ شراً وهو وحده الواجب الوجود الذي يعبد دون سواه . وتسليم الناس بهذه الصفات التي تدور حول الوحدة الإلهية ليس من الصعوبة في شيء لأنّهم أجمعوا أو كادوا يجمعون على أنّ هذا العالم له صانع أو خالق وأنّ هذه النفس لهي خالدة بعد مفارقتها الجسد بالموت وأنّها لتجزى على أعمالها إن صلحت بالجنان وإن ساءت بسعير جهنم . نعم إنّ الناس كادوا يكونون مسلّمين بهذه الحقيقة ولكنهم اختلفوا في معرفة الله فأشرك بعضهم معه بعض مخلوقاته وبعضهم جزّأ خصائصه الإلّهية فجعلوها مجموع آلهة وبعضهم قال غير ذلك وكله هذيان لا يقبله العقل إلاّ بالتسليم المطلق بغير بحث ولا جدال .

ولم يعدم الناس أنبياءً قالوا بالتوحيد ونادوا به منهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام . على أنّ ملة سيدنا إبراهيم تجزّأت بين العرب واليهود باسماعيل واسحق ورسالة موسى كانت لقومه دون سواهم ولذلك جمع سيدنا موسى بين الدين =

وَقَدْ دَعَاهَا إِلَى ٱلْأُخْرَى تَنَالُ بِهَا   سَعَادَةَ ٱلْخُلْدِ فِي فِرْدُوْسِ بَارِيْهَا

= والجنسية فلم يكن للغريب نصيب من التوحيد الذي جاء به . أمّا النصرانية فهي على التوحيد أيضاً وما من نصراني لا يقول « لا إلّه إلّا الله » ولكن يريد النصارى أن يقولوا أنّ الإلّه الواحد له ثلاثة أقانيم هم الأب والإبن والروح القدس وأنّ هؤلاء الثلاثة هم الإلّه الواحد الواجب الوجود وأن الأقنوم الثاني هو الذي تجسد وصار إنساناً فهو نفس سيدنا عيسى عليه السلام إلى آخر ما قالوا مما لا يقبله العقل البشري إلّا بمطلق التسليم وهذا خلا منه الإسلام فلم يجعل في اعتقاد التوحيد تعقيداً بل أطلقه على بساطته فقال « هو الله الأحد » . وجاءَ به القرآن موحى به على محمد بن عبد الله وبين يديه التوراة والإنجيل مصدّقاً بهما ومنادياً بهذا التوحيد البسيط المعقول والمنقول فلا عجب أن تكون له السيادة على العقول . وكان في القرآن من العدل والفضل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحضّ على مكارم الأخلاق ما يهيىء للناس السعادة في هذه الحياة والارتقاء في هذا الاجتماع ؟ لذلك قلنا ونقول لو لم يحرج كفّار قريش ومشركوها المصطفى لساد دين محمد بالحجّة والبرهان والموعظة الحسنة بغير جدال كما فازت النصرانية من قبله ولكن قد يكون فوزه بالسلام بطيئاً كما انتشرت النصرانية قبلاً ببطء وقد يفوت ببطء انتشار الإسلام النجاح العظيم الذي صادفه العرب ليس بسيوفهم فقط بل بالعناية الإلّهية التي عضدتهم أولاً وأخيراً حتى تمّ لهم من الفتح وسعة الملك في أعوام معدودات ما لا ينتظر للقوم مثلهم على خشونتهم ولذلك كان الإجماع على أنّ انتصارهم ذاك كان بمعجزة سماوية .

ولنعد بعد هذه المقدمة إلى الغزوات النبوية فإنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم تدرّج فيها تدرجاً فابتدأ بإعلان دعوته مسالماً ثمّ أوجد له الله في الأوس والخزرج أنصاراً هاجر من مكة إليهم بأصحابه تخلصاً من أذى قريش فأبى القرشيون إلّا أن يعملوا على النكاية به فأرسلوا أولاً من يتتبع خطواته وهو فارٌّ إلى المدينة من ظلمهم ليعيدوه إلى مكة فيسجنوه أو يقتلوه ولما فشلوا في هذه الرغبة أخذوا يجمعون كلمة العرب على قتاله حينئذٍ أذن الله له ولأصحابه وأنصاره بمقاتلة المشركين لسببين أولهما الدفاع عن النفس بإذاء المعتدين وثانيهما الدفاع عن الدعوة باذاء الذين تعرّضوا لها فكانوا يفتنون المهتدين بالاضطهاد والتعذيب ويصدّون الآخرين عن الهدى عنوةً وبمحاولة منع الداعي بتبليغ دعوته بسبّه والسخر به ثم بمحاولة قتله . =

وَقَدْ دَعَاهَا إِلَى أَرْقَى ٱلْخَلَائِقِ وَآلآ م دَابِ دَعْوَةَ مَنْ يَبْغِي تَرَقِّيْهَا

= أمّا أمر الله بالقتال فقد جاء في مواضع شتّى من القرآن إذ قال الله ﴿ **أُذن للذين يقاتلون بأنّهم ظُلموا وأنّ الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربّنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقويٌّ عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور** ﴾اهـ وأنت ترى في هذه الآية المباركة إنّ سبب أذن الله للمسلمين بالقتال هو ظلم المشركين لهم وما ذنبهم إلّا قولهم « ربّنا الله » فأخرجوا من ديارهم لهذا الاعتقاد . ثم أنّ الله سبحانه أبطل قول القائلين بعدم صلاحية القتال لنشر الدين بقوله إنّه لولا أن يدفع الناس بعضهم بعضاً لهدمت الصوامع والمساجد وتعطلت الصلوات وضاع ذكر الله من على وجه الأرض . ثم أن الله سبحانه أبان للمؤمنين المعدّ لهم الانتصار ما يجب أن يكونوا عليه من الأخلاق الفاضلة التي جمعها بأربع كلمات فيها الخير كله وهي الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وجاءَ في القرآن أيضاً في سبيل القتال قوله تعالى ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ـ ولا تعتدوا ـ إنّ الله لا يحبُّ المعتدين ـ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ـ والفتنة أشدُّ من القتل ـ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ـ فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم ـ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ـ فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظالمين ـ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا الله واعلموا أنّ الله مع المتقين** ﴾اهـ . وأنت ترى من هذه الآيات الكريمة ما يخلق أن يصدر عن الإلّه الواحد العادل المؤدب القهار الرحيم لجمعها بين الدفاع عن النفس وتأديب المعتدين وإبطال الفتنة والإنتصار لدين الله .

وفي القرآن أشباه لهذه الآيات الكريمة العادلة التي أنزلت على محمد بن عبد الله ﷺ لعزة الدين وردع الظالمين المعتدين . لا جرم أنّ الإسلام كان ولا يزال مسالماً من سالم أهله إذ قال سبحانه وتعالى ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في** =

فَمَا رَأى غَيْرَ جُهَّالٍ لَهُ طَلَبُوا ٱلْأَ م ذَى وَلَمْ يَكُ أَيْمُ ٱللَّهِ مُؤْذِيْهَا
وَلَمْ يَنَلْهُ سِوَى حَظِّ ٱلنَّصِيْحِ إِهَا نَاتٍ مُنَوَّعَةٍ رَابٍ تَتَالِيْهَا
ثُمَّ تَمَادَتْ قُرَيْشٌ بِٱلْعَدَاوَةِ رَا مَتْ أَنْ تُمِيْتَ ٱلَّذِي قَدْ رَامَ يُحْيِيْهَا
وَمَا ٱكْتَفَتْ بَلْ تَعَدَّتْهُ لِمَنْ تَبِعَتْهُ بِٱلْأَذَى أَخْرَجَتْهَا مِنْ مَآوِيْهَا
وَبَعْدَ هُجْرَةِ طَهَ مَعْ صَحَابَتِهِ لَمْ يَنْجُ مِنْهَا وَلَمْ تُقْصِرْ تَعَدِّيْهَا
تَتَبَّعَتْهُ وَهَمَّتْ أَنْ تُحَارِبَهُ فِيْ دَارِ هِجْرَتِهِ أَوْ فِيْ ضَوَاحِيْهَا
وَعَمَّمَتْ فِيْ جَمِيْعِ ٱلْعُرْبِ دَعْوَتَهَا لِقَهْرِهِ بَيْنَ قَارِيْهَا وَبَادِيْهَا

= **الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، إنّ الله يحبّ المقسطين ، إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾**اهـ . وفي هذه الآيات الكريمة تتجلّى روح الإسلام السلامية العادلة بأجلى تلاليها لدى المنصفون .

أمّا الحروب النبوية وهي التي جرت على عهد المصطفى ﷺ فتنقسم إلى غزوات وسرايا؛ أمّا الغزوات فهي التي حضرها رسول الله بنفسه وأمّا السرايا فهي جمع سريّة وهي القطعة من الجيش وأطلقها المؤرخون على الغزوات التي أرسلها المصطفى مع أحد قوّاده .

والغزوات النبوية سبع وعشرون غزوة حضرها المصطفى بنفسه ولكنه لم يحارب فيها إلّا في غزوة أُحد وحضر عليٌّ المرتضى عليه السلام كل هاتيك الغزوات فكان مجلي الحلبة وفارس الميدان ولم يتخلف إلّا عن غزوة تبوك وهي الأخيرة بأمر المصطفى عليهما الصلاة والسلام .

وأهمُّ الغزوات النبوية هي بدر الكبرى ، وأُحد ، وبني النضير ، والخندق ، والحديبية وخيبر ، وفتح مكة كرّمها الله ، وتبوك . وللمرتضى عليه السلام في هذه الغزوات الكبرى من الأعمال العجيبة والآثار الخالدة ما نحن ذاكروه مفصّلاً في هذه القصيدة المباركة ومذيلوه بالذيول الكافية إن شاء الله تعالى .

وَكَانَ رَأْسُ ٱلْعِدَاةِ ٱلْمُشْرِكِيْنَ أَبُوْ سِفْيَانَ يَقْدَحُ نَارَ ٱلشَّرِّ يُلْظِيْهَا

لِذَاكَ قَدْ نَزَلَتْ آيُ ٱلْجِهَادِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهْوَ مَنْصُوْرُ ٱللِّوَا فِيْهَا

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلْكُفْرَ مُحْتَكِمُ فِيْ أَنْفُسٍ ٱلْعُرْبِ وَٱلْإِشْرَاكُ مُغْوِيْهَا

وَلَيْسَ مِنْ حَكَمٍ إِلَّا ٱلسُّيُوْفُ بِمَا يَجْلُوْ ٱلْحَقِيْقَةَ مِنْ بُطْلٍ يُغَطِّيْهَا

وَمَا عَمُوْا بَصَراً لٰكِنْ بَصَائِرُهُمْ عَنِ ٱلْهِدَايَةِ كَانَ ٱلْغَيُّ يُعْمِيْهَا

صَمُّوْا عَنِ ٱلْحَقِّ إِذْ نُوْدُوْا لَهُ وَأَبَوْا إِلَّا ٱلْأَبَاطِيْلَ تَغْشَاهُمْ دَيَاجِيْهَا

وَمَا رَضُوْا خَالِقاً حَقٌّ عِبَادَتُهُ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَلَّهُوْا ٱلْأَحْجَارَ تَأْلِيْهَا

وَآذَنُوْا ٱلْمُصْطَفَى حَرْباً لَقَدْ حَسِبُوْا أَنَّ ٱلنُّبُوَّةَ تَصْلَى فِيْ لَوَاظِيْهَا

لَعَلَّهُمْ جَهِلُوْا أَنَّ ٱلْإِلٰهَ بِيُمْنَاهُ ٱلْقَوِيَّةِ مُخْزِيْهِمْ وَحَامِيْهَا

فَآذَنَ ٱلْمُصْطَفَى بِٱلْحَرْبِ مَنْ ثَبَتُوْا عَلَى ٱلضَّلَالَةِ تَدْهَاهُمْ مَسَاوِيْهَا

وَمَنْ غَدَوْا حَسَداً مِنْهُمْ لِبَعْثَتِهِ أَعْدَاءَهُ مِثْلَمَا بَاتُوْا أَعَادِيْهَا

وَحَوْلَهُ نَفَرٌ مِنْ آلِ هُجْرَتِهِ أُسْدُ ٱلْحُرُوْبِ إِذَا نَادَى مُنَادِيْهَا

يَحُوْطُهُمْ حَيْطَةً أَنْصَارُ شِرْعَتِهِ أَهْلُ ٱللِّقَا خَزْرَجِيْهَا جَنْبَ أَوْسِيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ فِيْهِمْ حِلْفَ أَحْمَدَ فِيْ تِلْكَ ٱلْمَغَازِيْ ٱلَّتِيْ قَدْ رَاحَ يُزْكِيْهَا

مَا كَانَ يَبْعُدُ عَنْهُ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ إِلَّا لِفَاجِئَةٍ يَبْغِيْ تَلَافِيْهَا

أَوْ كَيْ يُنَفِّذَ لِلْهَادِيْ أَوَامِرَهُ فِيْ ٱلْمُسْلِمِيْنَ كَمَا قَدْ شَاءَ مُوْحِيْهَا

وَكَانَ أَبْسَلَ صِنْدِيْدٍ بِجَيْشِ رَسُوْ لِ ٱللَّهِ يَفْتِكُ بِٱلْأَعْدَا وَيُرْدِيْهَا

(وَٱلْخَيْلُ وَٱللَّيْلُ وَٱلْبَيْدَاءُ تَعْرِفُهُ) لِأَنَّهُ فَارِسُ ٱلْهَيْجَا مُجَلِّيْهَا

وَٱرْجِعْ إِلَى غَزَوَاتِ ٱلْمُصْطَفَى لِتَرَى فَضْلَ ٱلْعَلِيِّ صَرِيْحاً فِيْ أَمَالِيْهَا

وَإِنَّهُ قَدْ قَضَى كُلَّ ٱلْمَغَازِيْ مَعَ ٱلْـهَادِيْ وَجَاءَ مِنَ ٱلآلَاءِ عَالِيْهَا

أمير المؤمنين في غزوة بدر الكبرى

لَاقَتْ قُـرَيْشُ بِبَـدْرٍ شَـرَّ تَهْلُكَـةٍ أَخْلِقْ بِمَنْ حَارَبَ ٱلْبَارِيْ يُلَاقِيْهَا[(١)]
وَنَـالَهَـا بِقِتَـالِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ مِنَ ٱلْأَ م رْزَاءِ فَـادِحُهَـا ٱلْمُؤْذِيْ وَقَـاسِيْهَـا

(١) يحسن بنا هنا أن نجمل أنباء الغزوات النبوية قبل ذكر غزوة بـدر ليلم قارىء علويتنا المباركة هذه بمجمل ما كان من أمر الجهـاد الذي أفضى إلى انتصـار كلمة « لا إله إلّا الله » في العالمين فنقول :

عـرف القـارىء الكـريم ممـا تقـدم في المتـن والحـواشي عـداء قـريش للمصطفى ﷺ ومن تبعه من المسلمين واستمرارهم على هذا العداء حتى بعد الهجرة ولذلك رأى رسول الله ﷺ أن يقطع الطريق بين مكة والشام ليصادر تجـارة قريش وهم أعداؤه وتلك طريقها وأنت تعلم أنّ قطع الطريق التجارية تورث قـريشاً ذلاًّ وضعفـاً وقد رأى هذا بعد أن استـوثق من مقامـه في المدينـة المنورة وقضى فيهـا مع أصحـابه نحـو الحـول . ففي صفر من السنـة الثانيـة للهجرة خـرج رسول الله وأصحـابه وأنصـاره إلى « ودّان » بين الفـرع والأبواء وتبعـد عن المدينـة ست مراحـل وعن مكة أربـع مراحـل . وأراد بخروجه أن يحارب قريشـاً وبني حمزة وهم فخـذ من كنانـة فوداعـة بنو حمـزة ولم يعثر على قريش وعاد من غير حرب إلى المدينة فـأقام بقيـة صفر وصـدراً من ربيع أول وفي مقامه في المدينة أرسل سريّة بقيادة عبيدة بن الحارث فوصل إلى ثنية المسرة في شمـال قـديـد من بـاديـة مكـة ولقي فيهـا جمعـاً من قـريش ولكن لم يحـدث قتـال بينهمـا . وبعث ﷺ سريةً أخرى بقيادة عمّه حمزة بن عبـد المطلب إلى سيف البحـر من ناحيـة العيص وهو مكان على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها طـريقهم إلى الشام فلقي أبا جهـل بن هشام بثـلاثمايـة فارس من قـريش وكاد يشتبـك الجمعان لـولا وساطة مجدي بن عمرو الجهني الذي حال بينهما فلم يحدث قتال .

وفي شهـر ربيع الأول من السنـة الثانيـة للهجـرة خـرج رسـول الله بـالمهـاجـرين والأنصار يريد قريشاً فلما بلغ « بواط » وهو موضع قرب جبل رضوى على مسيرة يوم من ينبع وعلى سبع مراحل من المدينة وهناك طريق تختصـرها العـرب إلى الشام . على أنّ المصطفى لم يجد هناك أثراً لقريش فعاد إلى المدينة ولم يلق كيداً .

وفي جمادى الأولى من السنة الثانية خرج رسول الله ﷺ بـالمهاجـرين والأنصار =

فَكُنْتَ تَلْقَى دِمَـاهَـا وَهْيَ جَـارِيَـةٌ   عَلَى آلْبِطَاحِ فَيُؤْذِي آلْعَيْنَ قَـانِيْهَـا

= غازياً فنزل في موضع اسمه « العشيرة » وهو وادٍ قرب ينبع فأقام فيه جمادى الأولى ولياليًا من جمادى الثانية ووادع هنالك بني مدلج ومن حالفهم من بني حمزة وفي أثناء إقامته في العُشِيرة بعث سريةً بقيادة سعد بن أبي وقّاص للاستكشاف فبلغت الخرار وهو واد من مكة قرب قُدَيد وعاد إليه ولم يلق كيداً وبعد عودته عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة بغير حرب .

وبعد أن أقام رسول الله في المدينة قليلاً انتهى إلى سمعه الشريف أنّ كرز بن جابر الفهري أغار على سرح المدينة « أي رعاتها الذين يسرحون بالمواشي » فخرج في طلبه بالمهاجرين والأنصار فبلغ « سفوان » وهو وادٍ من ناحية بدر فلم يدركه وعاد إلى المدينة وأقام فيها إلى رمضان . وفي أثناء إقامته هذه أرسل سريّة بقيادة عبد الله بن جحش بكتاب مختوم أمره أن يفتحه بعد أن يبعد مسافة يومين عن المدينة فصدع بالأمر حتى إذا أبعد يومين فتح الكتاب وإذا فيه « إذا نظرت كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » فمضى إلى نخلة فمرّت به عير لقريش وفيها عمرو بن الحضرمي وكان محالفاً لقريش وكان ذلك آخر يوم من رجب فلم يحفل عبد الله بن جحش باليوم الحرام ولا وقف عند حدّ أمر رسول الله من الترصد فقط بل هاجم عمرواً ومن معه فقتل عمرواً وأسر اثنين من الرجال الثلاثة الذين كانوا معه وهرب رابعهم وعاد عبد الله بالأسيرين والعير إلى المدينة . فاستاء رسول الله ممّا كان وازداد استياؤه لما حدث من الشغب بين المسلمين إكباراً لحربٍ أثارها عبد الله في يومٍ حرامٍ . فتلافى الله الفتنة بآية ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير ، وصدٌّ عن سبيل الله ، وكفر به ، والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه ، أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾ فلما علم المسلمون بهذه الآية الشريفة سكنت ثائرتهم ، واستلم رسول الله ﷺ الأسيرين وعدّ العير غنيمةً ثمَّ افتدت قريش أسيرها .

وفي يوم الاثنين لثمان خلون من شهر رمضان المبارك أو تسع من السنة الثانية للهجرة « ٥ مارس سنة ٦٢٤ مسيحية » خرج رسول الله بمن أطاع دعوته من المهاجرين والأنصار وكان عددهم ٣١٤ رجلاً منهم ٩٣ من المهاجرين و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج للغزو لأنّه ﷺ كان قد علم أنّ أبا سفيان كان خرج من مكة بثلاثين أو أربعين =

وَكَانَتِ ٱلْجِثَثُ ٱلْهَلْكَى هُنَا وَهُنَا مَنْثُوْرَةً وَلَقَدْ غَطَّتْ رَوَابِيْهَا
وَكَانَ أَسْعَدَ أَعْدَاءِ ٱلشَّرِيْعَةِ حَظّاً هَارِبٌ قَدْ تَخَفَّى عَنْ مُحِبِّيْهَا

= فارساً بقافلة من العير فذهبت إلى الشام بتجارتها فأخذ يترقَّب رجوعها حتى إذا ما اتصل به نبأها وهي عائدة خرج لغزوها حتى إذا ما قرب من العفراء بعث العيون إلى بدر لاستطلاع خبرها . أمّا أبو سفيان فقد كان على حذر من محمد وأصحابه فلما عاد إلى الحجاز علم أنّ محمداً خارج إلى لقائه فأرسل رسولاً من قبله إلى مكة يستنفر قريش لتأمين طريقه وحماية عيرها فنفرت إليه وعلم محمد بنفرتها وهو قريب من بدر فاستشار صحابته وأنصاره معاً في الأمر فأشاروا مجمعين بالقتال حينئذٍ قال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : « سيروا وأبشروا إنَّ الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم » . ثمَّ ارتحل صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا وصل قريباً من بدر بلغه أنّ أبا سفيان نجا بالعير وأنّ قريشاً وراء وادي بدر وهي مصرّة على البقاءِ هنالك لتحضر الموسم الذي كان يقيمه العرب لكي لا يقال أنّهم جبنوا فهربوا من المسلمين وقد نزلت قريش بعدوة وادي بدر الدنيا ونزل المسلمون على أول ماء من بدر ثم انتقلوا منه إلى أدنى ماء من القوم وابتنى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عريشاً له أقام فيه .

وفي صباح الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة « ١٣ مارس سنة ٦٢٤ مسيحية » ابتدأت الحرب بالمبارزة حسب عادة العرب فخرج من المشركين ثلاثة وهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وابنه الوليد وأخوه شيبة فبرز لهم ثلاثة من الأنصار فقال القرشيون لا حاجة لنا بكم نحن نطلب أكفاءَنا من بني عمّنا فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب فكان بإزاء شيبة وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فكان بإزاءِ عتبة وبطل الإسلام الأكبر علي بن أبي طالب عليه السلام فكان بإزاءِ الوليد أمّا حمزة وعلي فما أمهلا أن جندلا صاحبيهما وأمّا عبيدة وشيبة فاختلفا ضربتين متكافئتين وفي الحال هجم حمزة وعلي وأجهزا على شيبة واحتملا عبيدة وهو جريح إلى صفوف المسلمين . وعلى أثر هذا البراز ابتدأ الهجوم بين الصفوف ولم تطل الحرب في ذلك النهار وانجلت عن قهر المشركين وقتل عدد من صناديدهم فيهم أبو جهل بن هشام وأسر المسلمون منهم نحو السبعين وهرب الباقون . فاستاق علي بن أبي طالب هؤلاءِ الأسرى إلى المصطفى فأمر بسوقهم إلى المدينة المنوَّرة حتى إذا ما وصلوها كانت بشائر النصر قد وصلتها مع السعاة فاستقبل الناس الموكب النبوي بالتهليل والتكبير ، وأمر المصطفى بقتل اثنين من =

وَكَـانَ فِيْهَـا عَلِيٌّ رَبَّ نَجْـدَتِـهَـا   يَلْقَى ٱلْأَعَـادِيْ فَيُصْمِيْهَا وَيَشْـوِيْهَـا
وَإِنَّهَـا عَـرَفَتْـهُ فِيْ مَـوَاقِعِـهِ ٱلْـ   ـحَمْرَاءِ أَبْسَلَ مَنْ ضَحَّى أَضَاحِيْهَا
وَإِنَّـهُ أَفْـرَسُ ٱلْفُـرْسَـانِ أَعْـظَمُهُمْ   فَتْكـاً كَمَـا قَـالَ بَـاكِيْهَـا وَنَـاعِيْهَـا
كَـانَ ٱلْمُبَـارِزَ فِيْهَـا وَٱلْمُقَـاتِـلَ وَٱلْـ   ـمَنْصُـوْرَ وَٱلرَّافِـعَ ٱلْأَعْلَامِ مُـرْبِيْهَا
وَٱسْتَاقَ لِلْمُصْطَفَى أَسْرَى قُرَيْش فَمَنْ   قَضَى عَلَيْهَـا وَمَنْ قَدْ كَـانَ يَفْـدِيْهَـا
وَقَدْ حَمَى أَحْمَدَاً فِيْ وَسْطِ قُبَّتِهِ ٱلْـ   ـعَلْيَا ٱلَّتِيْ كَانَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ حَامِيْهَا
حِمَـايَـةٌ مَـا لَهَـا إِلَّا ٱلْعَلِيُّ وَطَـ   ـهَ كَـانَ غَـايَـةَ عَـادِيْهَـا وَرَامِيْهَـا
وَقَـدْ تَصَـدَّى لِأَعْـدَاءِ ٱلنُّبُـوَّةِ كَيْ   يُـزِيْـلَ عَـنْ رَبِّهَـا مُؤْذِيْ تَصَـدِّيْهَـا
وَكَمْ أَرَادَ عِـدَى ٱلْإِسْـلَامِ نَكْبَتَـهُ   بِٱلْمُصْطَفَى فَخَزَى ٱلْبَارِيْ مُرِيْدِيْهَا

=الأسرى هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط لما اشتهرا به من الغلوّ في عداوة المسلمين والجهر في سبّ الشريعة والمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ووزع الباقين على الناس وأوصى بهم خيراً فما زالوا عندهم إلى أن افتدتهم قريش وبعضهم أطلق سبيلهم المصطفى بغير فدية كرماً منه وجعل فدية الذين يكتبون منهم تعليم أولاد المدينة القراءة والكتابة وكان الفراغ من هذه الغزوة في نهاية رمضان وشهد المسلمون عيد الفطر في المدينة .

والذي يطّلع على تفصيل هذه الغزوة في المطولات يجد لسيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام القدح المعلى في الفوز فقد كان أول من افتتح القتال مع صاحبيه في البراز . ثمَّ كان في مقدمة صفوف المسلمين عند الهجوم العام وفي أثناءِ القتال لحظ أنّ المشركين قد اتّخذوا قبة المصطفى غرضاً لسهامهم وأنهم يتقصدونه بالذات وهم يعتقدون أنَّ في موته صلى الله عليه وآله وسلم موت دينه وتلاشي أتباعه فاتّخذ على عاتقه حماية ابن عمّه في قبّته عليهما الصلاة والسلام فوقف إلى جانبها متعرضاً إلى النبال التي كانت تتساقط حوليه كالمطر وهو يرمي راميها بنبله فجندل عدداً كبيراً منهم ثمَّ استلَّ سيفه ذا الفقار وهاجم الناس فأبلى بهم أحسن بلاء فكان آخر من ضرب بسيفه كما كان عليه السلام أول الضاربين .

أمير المؤمنين في غزوة أحد

وَلِلْعَلِيِّ فِعَالُ ٱلْمَجْدِ فِيْ أُحُدٍ ... يَعْيَا وَيَعْجَزُ رَاوِيْهَا وَمُحْصِيْهَا[1]

فَكَمْ بِغَزْوَتِهَا ٱلْكُفَّارُ قَدْ نُكِبَتْ ... بِسَيْفِهِ وَهْوَ بِـإذْنِ ٱللَّهِ نَاكِيْهَا

---

(١) بعد أن رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة بدر لم يقم في المدينة سوى سبع ليالٍ وبعدها سار يريد غزوة بني سليم فبلغ ماءً لهم يسمى « الكدر » فأقام عليه ثلاث ليالٍ ثم رجع إلى المدينة من غير حرب وأقام فيها إلى بقية شوال وذي القعدة .

أمّا أبو سفيان فكان حينما رجع مقهوراً إلى مكة المكرمة بفلول بدر نذر أن لا يمسّ رأسه من جنابة حتى يثأر لنفسه من بدر ويغزو محمداً فخرج بمئتي راكب من قريش برّاً بيمينه يريد المدينة فما زال مجداً حتى بلغ بني النضير على نحو بريد من المدينة وهم يهود كانوا قد حالفوا المسلمين فنزل عليهم وطلب محالفتهم على محمد فرفضوا مناصرته برّاً بحلفهم ولكنهم أووه وأكرموا مثواه ثمَّ خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالاً منهم فأتوا ناحية يقال لها العريض فحرقوا نخلها ووجدوا فيها رجلين من الأنصار فقتلوهما ثمَّ خرجوا راجعين . فلما بلغ المصطفى ما فعل أصحاب أبو سفيان بالنخيل وبصاحبيه خرج في طلبه حتى بلغ قرقرة الكدر فما عثر عليه وكان قد فاته وسميت هذه الغزوة بغزوة السويق لكثرة ما طرح المشركون فيها من أزوادهم التي أكثرها السويق حتى يتخففوا للنجاة .

ولمّا رجع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة السويق أقام في المدينة بقية ذي الحجة ثمَّ غزا نجداً يريد غطفان فأقام في نجد صفراً ولم يحارب وعاد إلى المدينة فأقام فيها ربيع الأول وفي أواخره خرج يريد قريشاً فبلغ « نجران » وهو معدن في الحجاز بناحية « الفرع » فأقام هناك ربيع آخر وعاد بغير حرب إلى المدينة المنوَّرة وفي عودته غزا بني قينقاع .

وبنو قينقاع هؤلاء قوم من اليهود كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولكن بعد موقعة بدر أخذت تبدر منهم بوادر تنمُّ عن أنهم غير مخلصي العهد للمسلمين وحدث في شهر ربيع الآخر من السنة الثانية للهجرة أنَّ إمرأة مسلمة كانت في سوق بني قينقاع فاعتدى عليها يهوديّ منهم اعتداءً قبيحاً فصاحت مستغيثة فأغاثها رجل من المسلمين فقام إلى =

فَلَمْ يَـزَلْ مَنْ حَـوْلَيْـهِ تَضْـرِبُهَـا سُيُـوْفُهُمْ فَتُـلاَقِيْهَـا هَـوَادِيْـهَـا

= اليهودي المعتدي وقتله فقامت عليه اليهود فقتلته فلمّا بلغ هذا رسول الله خرج إلى غـزو بني قينقاع وحاصرهم في ديارهم خمس عشرة ليلة نزلوا على حكمه في آخرها فأجلاهم من ديارهم فخرجوا إلى أذرعات في الشام وسكنوها .

وفي هذه الأثناء بلغ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ قريشاً حذرت طريقها المعتـاد وأخذت تسلك إلى الشام طريق العراق فأرسل إلى لقائها سارية بقيادة زيد بن حارثة فلقيهم على ماء القروة من ميـاه نجد فـأصاب عيـرهم وسار بهـا إلى المدينـة أمّا الـرجال فنجـوا منه هاربين بأنفسهم .

وكان رجل في المدينة يـدعى كعب بن الأشرف وهـو يهوديّ من طيء ثمَّ من بني نبهان وأمّه من بني النضير وكان وجيهاً في مدينة الرسول فلما انتصـر المسلمون في بـدر وجاءَت البشائـر بانتصـارهم إلى المدينـة لم يستطع أن يكتم آلامـه فطفق يقـول علانيـة « والله لئن كان محمد أصاب قريشاً فلبطن الأرض خير من ظهرها » ولما تيقن الخبر سار إلى مكة فنزل على المطلب بن أبي وداعة السهمي وجعل يحرّض قريشاً على رسول الله بأشعاره ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر ثمَّ رجع إلى المدينة فطفق يشبب بنسـاءِ المسلمين حتى آذاهم فلم ير المصـطفى خيراً لهـذا الزنـديق من أن يبلغه أمنيته في قوله « لبطن الأرض خير من ظهرها » وأرسل له بعض الأنصار فقتلوه .

وفي الحقيقة أنّ كسرة قريش في بدر كان لها صدى عظيم في الحجاز وتأثيـر كبير على نفوس الحجازيين وكانت قريش أعظم قبائل الحجاز تألماً منهـا إذ أظهرت لهم مـا لم يكن في حسبـانهم من استفحال أمـر المسلمين فعادت فلولهم إلى مكـة وهي تنادي بـطلب الثأر وكـان بنو أميـة وعلى رأسهم أبو سفيـان هم رؤساء الـدعوة لشنّ غـارةٍ على المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يأخذون فيها بثأر قتلاهم وينقـذون فيها أسـراهم . واجتمعت على هذه الدعوة قريش بأحابيشها ومن والاها من كنانة وأهل تهامة وساروا جميعاً لـطلب الثأر ومـا زالوا مجدّين حتى نزلوا في موضع يقال له عنين بجبل ببطن السبخة من قناة على الشفير الوادي الذي يقابل المدينة المنوَّرة .

ولم تكن أنبـاء قريش بخـافية عن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد كـانت عيـونـه تنقـل إليـه أخبـارها فلمـا انتهى إليه نبـأ نزولهـا بقرب المـدينة جمـع أكابـر المهـاجـرين والأنصـار=

حَتَّى ٱنْجَلَتْ هَرَباً عَنْ شَرِّ مَوْقِفِهَا أَمَامَهُمْ وَعَلِيٌّ ٱلْقَرْمُ مُجْلِيْهَا

= واستشارهم في الأمر فكان رأي أكثرهم الخروج إلى قريش ومحاربتها فتغلبوا بذلك على رأي رسول الله الذي كان رأيه البقاء في المدينة حتى إذا هاجمه القرشيون بعقر داره يلقاهم برجاله على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم امتثل أمر الأكثرية ودخل بيته ولبس لامته وخرج إليهم فوجدهم قد ندموا على غلبة رأيهم على رأيه فقالوا له إن شئت فاقعد فقال لهم : « ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل » وهكذا خرج في ألف من المهاجرين والأنصار وكان خروجه في يوم الجمعة بعد الصلاة لأربع عشرة خلت من شوّال في السنة الثالثة من الهجرة « ٢٩ مارس سنة ٦٢٥ مسيحية » فلما بلغ الشوط انخذل عنه عبد الله بن أبي سلول بثلث الناس ومضى رسول الله حتى نزل الشعب من جبل أُحد في عدوة الوادي فجعل ظهر عسكره إلى أُحد وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وأعطى لواءَه إلى مصعب بن عمير وقدم الفرسان للقاء الأعداء وترك الرماة يحمون قفوتهم .

والتقى القومان ودارت رحى الحرب وكان في طليعة المسلمين الفرسان وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وأبو دجانة وسماك بن خرشة الساعدي فحسوا قريش بسيوفهم حتى كشفوهم عن العسكر وباتت هزيمتهم لا ريب فيها فلما رأى رماة المسلمين أنّ المشركين قد انكشفوا مالوا إلى المعسكر طلباً للغنائم وخلوا ظهور المسلمين للعدو فالتفّت خيَّالة المشركين التي كان يقودها خالد بن الوليد على المسلمين من ورائهم وأخذوهم على غرة فاختلت صفوفهم وزادها اختلالاً أنَّ رجلًا من المشركين قتل مصعب بن عمير حامل اللواء النبوي وصاح أنَّ محمداً قد قتل فكان لصيحته تلك جزع في نفوس المسلمين أزاد في اختلالهم ومكن مشركي قريش منهم فقتل بعضهم وفرَّ بعضهم ولم يبق حول رسول الله إلاَّ نفر يسير في مقدمتهم بطل الإسلام الأكبر علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أبى في هاتيك الشدّة إلّا أن يكون في جانب المصطفى عليهما الصلاة والسلام وبات المصطفى والمرتضى يحاربان ذلك العدو المتكاثر لوحدهما والمسلمون هاربون وكان المشركون قد حفروا حفراً قبل الموقعة ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون فوقع فيها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لشقه وأصيبت رباعيته وشجَّ في وجهه وكلمت شفته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته وكاد يدركه المشركون لولا العليُّ الذي انتشله بيده من هاتيك الحفرة هو وطلحة بن عبيد الله ثم انبرى ذلك الأسد الغضنفر سيدنا علي صلى الله عليه وآله وسلم للمشركين الذين طلبوا رسول الله بذي =

= الفقار وهو سيفه البتار وجعل يضرب به ذات اليمين وذات اليسار فيجندل حوليه الأبطال وما زال كذلك إلى أن أوقع الرعب في قلوبهم بعد أن ملأ الأرض من أشلائهم وقد عجبت الملائكة في السموات من موقفه العجيب ذاك وهو يدفع الخطر عن رسول الله حتى صاح جبريل من السموات العلى « لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي » .

أمّا المسلمون فانهزموا وهم موقنون أنَّ محمداً قد قتل كما صاح صائح المشركين ثمَّ نودي بهم وهم هاربون بأنَّ محمداً لا يزال سليماً فرجع خلق منهم إليه والتفوا حوله وساروا به عائدين حتى إذا ما انتهوا إلى فم الشعب ملأ سيدنا علي درقته ماءً وجاء بها إلى رسول الله ﷺ فغسل عن وجهه الشريف الدم وصبَّ على رأسه وبينما الرسول بالشعب ومعه علي ونفر من المسلمين وإذ قصدتهم خيالة المشركين فتصدّى لها علي بن أبي طالب وأرجعها عن المصطفى عنوةً . ثمَّ أنّ المصطفى أراد أن يعرف ما في أنفس المشركين وإن كانوا يريدون الرجعة إلى مكة بعد الفوز الذي نالوه أم الإغارة على المدينة فلم يجد لهذه المهمة الصعبة إلاّ علينّا المرتضى عليه السلام فوجّهه مستطلعاً فخرج بشجاعته المعهودة في أثرهم فرآهم جنبوا الخيل وأقطعوا الإبل عائدين إلى مكة . وانصرف المسلمون إلى دفن قتلاهم وكان فيهم حمزة بن عبد المطلب قتله وحشي ومثلت به هند زوج أبي سفيان وأمّ معاوية وشقّ قتله على المصطفى وعاد ﷺ إلى المدينة المنورة .

وفي غد ذلك اليوم الذي كان شديداً على المسلمين وهو يوم الأحد ١٦ شوّال للسنة الثالثة للهجرة أذن مؤذن رسول الله بطلب العدو وقد فعل ذلك ليرهب قريشاً ويعلمهم بأنّ موقعة أمسه ما أخارت عزيمته وأمر أن لا يخرج معه إلاّ الذين شهدوا موقعة الأمس وسار بهم على رغم جراحاته حتى بلغ حمراء الأسد وهي على ثمانية أميال من المدينة المنورة فأقام هناك الاثنين والثلاثاء والأربعاء وكان لخروجه هذا تأثير كبير لأنّ المشركين بعد أن انصرفوا راجعين إلى مكة ندموا على تسكعهم عن مهاجمة المدينة المنوّرة وأراد أبو سفيان الرجعة فبلغه خروج محمد ﷺ بأصحابه في طلبه فخاف ورجع بمن معه مكتفين بالنصر الذي نالوه في أمسهم وقصدوا مكة المكرّمة وأمّا المصطفى ﷺ فعاد إلى المدينة المنوّرة بأصحابه يوم الخميس .

لَوْلَا ٱلرُّمَاةُ ٱلَّتِي أَخْلَتْ مَوَاقِفَهَا مِنْ قَفْوَةِ ٱلْجَيْشِ يَبْغِي ٱلسَّلْبَ مُخْلِيْهَا

إِذْ ذَاكَ عَادَتْ قُرَيْشٌ مِنْ وَرَاءِ صُفُو فِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَنَالَتْهُمْ مَوَاضِيْهَا

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَرْدَتْهُ حَامِلُ رَا يَةِ ٱلنُّبُوَّةِ إِذْ أَلْفَتْهُ مُعْلِيْهَا

وَفَاجَأَتْهُمْ تُنَادِي مَاتَ أَحْمَدُكُمْ بِنَبْلَةٍ لَمْ يَخِبْ تَاللَّهِ رَامِيْهَا

وَٱلْمُسْلِمُوْنَ لَقَدْ ضَلُّوْا سَبِيْلَهُمُ وَضَعْضَعَتْهُمْ عِدَاهُمْ فِي مَنَاعِيْهَا

وَبَيْنَمَا تَجْمَعُ ٱلْأَسْلَابَ زِمْرَتُهُمْ إِذَا بِهَا هَرَبَتْ وَٱلْخَوْفُ فَاشِيْهَا

فَفَرَّ مَنْ فَرَّ مِنْهَا لِلْمَدِيْنَةِ أَوْ مَنْ قَدْ أَوَى فَرَقاً دَانِيْ ضَوَاحِيْهَا

إِلَّا ٱلنَّبِيُّ وَمَعْهُ ٱلْمُرْتَضَى فَلَقَدْ تَوَخَّيَا وَقْفَةً سَامٍ تَوَخِّيْهَا

فِيْهَا لَقَدْ ثَبَتَا لِلْكَارِثَاتِ وَمَا هَابَا قُرَيْشاً عَلَى فَاجِي تَجَمِّيْهَا

وَلَا تَشَتُّتَ أَعْوَانِ ٱلنُّبُوَّةِ إِذْ خَافَتْ فَفَرَّتْ فِرَاراً مِنْ أَعَادِيْهَا

وَلَا جِرَاحَةَ طَهَ عِنْدَ سَقْطَتِهِ فِيْ حُفْرَةٍ لِقُرَيْشٍ رَاحَ هَاوِيْهَا

فَأَنْقَذَ ٱلْمُرْتَضَى طَهَ وَمَالَ إِلَى ٱلْـ ـعِدَى ٱلَّتِيْ طَلَبَتْهُ فِيْ تَدَاعِيْهَا

فَفَلَّ مَوْكِبَهَا وَٱلسَّيْفُ فِيْ يَدِهِ وَكَانَ فَارِسَهَا يُدْمِي وَمَاشِيْهَا

وَٱلْأَرْضُ قَدْ مُلِئَتْ فِيْ يَوْمِهَا جُثَثاً مِنْ بَيْنِهَا تَنْدِبُ ٱلْجَرْحَى دَوَامِيْهَا

وَمَنْ لَهَا كُتِبَتْ قِدْماً سَلَامَتُهَا مِنَ ٱلنُّفُوْسِ تَوَلَّتْ فِيْ مَنَاحِيْهَا

عَادَتْ لِمَكَّتِهَا تَاللَّهِ رَاضِيَةً مِنَ ٱلْغَنِيْمَةِ أَنْ تَأْوِيْ مَآوِيْهَا

حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بِٱلْخِزْيِ مَوْطِنَهَا نَاحَتْ وَصَاحَتْ لِتَسْتَبْكِيْ بَوَاكِيْهَا

وَمُذْ دَرَتْ فِئَةٌ مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ أَنَّـ ـهُ سَلِيْمٌ مِنَ ٱلْأَخْطَارِ نَاجِيْهَا

عَادَتْ إِلَيْهِ وَسَارَتْ تَحْتَ رَايَتِهِ إِلَى مَدِيْنَتِهِ ٱلْغَنَّا لِيَثْوِيْهَا

وَطِيْبَةُ قَابَلَتْهُ بِٱلْبَشَائِرِ وَٱلْأَ فْرَاحِ مُنْشِدَةً فِيْهَا أَغَانِيْهَا

وَوَقْفَـةٍ لِعَـلِيٍّ كَـانَ وَاقِفَـهَـا   مَنْصُـوْرَةٍ أَدْهَشَتْ وَٱللّهِ رَائِيْهَـا

مِنْهَا ٱلْمَلاَئِكَـةُ ٱلأَطْهَارُ قَـدْ عَجِبَتْ   وَلِلْعَلِيِّ ٱنْثَنَتْ تُهْـدِيْ تَهَـانِيْـهَـا

وَقَـالَ جِبْـرِيْـلُ قَـوْلاً نَحْنُ نُثْبِتُـهُ   وَحَقَّقَتْـهُ ٱللَّيَـالِيْ فِيْ مَجَـارِيْـهَـا

لاَ سَيْفَ أَمْضَى شَباً مِنْ ذِيْ ٱلْفَقَارِ فَإِنْ   سُلَّتْ سُيُوْفُ كُمَاةِ ٱلْحَرْبِ يَفْرِيْهَا

وَلاَ فَـتَىً كَـعَلِيٍّ إِنْ تَـصَـاوَلَتِ ٱلْـ   ـفُتْيَـانُ كَـرّاً وَفَـرّاً فِيْ تَـلاَقِيْهَـا

أمير المؤمنين وغزوة بني النضير

وَفِيْ ٱلنَّضِيْـرِ عَلِيٌّ كَـانَ أَبْسَـلَ مَنْ   سَـلَّ ٱلـظُّبَـاتِ ٱلأَعْـدَا لِيُفْنِيْهَـا[1]

لِـذَاكَ أَمَّـرَهُ طَـهَ وَسَـوَّدَهُ   عَلى ٱلْجُيُوْشِ ٱلَّتِيْ سَالَتْ مَذَاكِيْهَا

---

(١) قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد غزوة أُحُد رهط من « عُضَل » « والقارة » وهما بطنان من خزيمة بن مدركة وأظهروا له رغبة قومهم في الإسلام وطلبوا منه أن يرسل إليهم بعض أصحابه ليفقهوهم في الدين ويعلموهم القرآن فبعث معهم ستّة من أصحابه بزعامة مرثد بن أبي مرثد الغنوي فخرجوا معهم حتى إذا بلغوا بهم محلّ يدعى « الرجيع » غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلاً فهبّت هذيل وقالت للمسلمين إنّا لا نريد قتلكم ولكن نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا يغدر بكم غادر فرفض القول ثلاثة منهم وقاتلوهم حتى قتلوا وأجاب إلى العهد الثلاثة الآخرون فقتل أحدهم في الطريق وسبق الآخران إلى مكة فبيعا في سوقها وقتلا هناك قتلهما أبو سفيان .

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صفر من السنة الرابعة للهجرة أبو برّاء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة العامريّ فعرض عليه رسول الله أن يسلم فلم يسلم ولم يبعد وقال لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال صلى الله عليه وآله وسلم إنّي أخشى عليهم أهل نجد فقال أبو براء أنا لهم جار فابعثهم فبعث سريّةً بقيادة المنذر بن عمرو الساعديّ فخرجوا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم فقتلت السرية كلّها وكانت أربعين رجلاً لم يسلم منهم إلاّ رجل واحد يدعى عمرو بن أمية الضمري فقد نجا من القتل وأسر وآخر بقي جريحاً =

وَقَــدْ أُقِـيْمَـتْ لِـطَهَ قُبَّــةٌ فَــأَوَى   ظِــلَالَهَــا وَغَــدَا ٱلْإِقْبَــالُ آوِيْـهَــا

=بين القتلى يدعى كعب بن يزيد .

ثم أنّ عمرواً بن أمية الضمري نجا من الأسر وعاد إلى المدينة وفي طريقه التقى برجلين من بني عامر فاغتالهما وكان معهما عقد من رسول الله لم يكن عمرو عالماً به . فلما بلغ المدينة أخبر رسول الله بخبر القوم والقتيلين فقال : هذا عمل أبي براء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً . ثم قال لعمرو لقد قتلت قتيلين لأدينّهما . أي « أعطي ديتهما أو أنظر فيها » .

نعم فقد اهتمَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتلافي شرّ مقتل ذينك الرجلين وحسب حساباً لبني عامر قومهما وأسرع إلى بني النضير وهم محالفوه ومحالفو بني عامر يوسطهم في تسوية ديتهما أو طلب معونتهم إذا أصرّ بنو عامر على طلب الثار فأظهروا له الودَّ والرضى على ما طلب ثمَّ تركوه مستنداً إلى جنب جدار من بيوتهم وخلا بعضهم ببعض وتآمروا عليه ليقتلوه بإلقاء صخرة عليه من أعلى المنزل الذي كان صلى الله عليه وآله وسلم مستنداً إلى جداره وانتدبوا لذلك أحدهم لتنفيذ الغدر الذي نووه أمّا رسول الله فجاءه الوحي الإلّهي منذراً له بما ائتمر القوم فأسرع راجعاً إلى المدينة وأخبر أصحابه بما نواه بنو النضير من الغدر به وأمر بالتهيؤ لحربهم وبالفعل سار إليهم في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة غازياً واستعمل بطل الإسلام الأكبر سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام على العسكر ولما وصلوا إلى موطن بني النضير ضربوا عليهم الحصار وضربت قبّة المصطفى فأواها وكانت من خشب عليها مسوح . وكان في بني النضير رجل أعسر مشهور برمي النبال يدعى غُزوَل فطفق يتقصد القبة النبوية بنبله فأمر صلى الله عليه وآله وسلم بتحويلها إلى حيث لا تصلها النبال فحوَّلت في الحال . وفي إحدى ليالي الحصار تغيب سيدنا علي عليه السلام قرب العشاء فخاف المسلمون أن يكون أصابه مكروه وأسرعوا إلى رسول الله ينقلون إليه خبر غيبته فطمأن خاطرهم وقال دعوه فإنّه في بعض شأنكم وعند الفجر عاد ذلك الغضنفر إلى المعسكر النبوي وفي يمينه رأس ذلك الملعون غزول نبّال النضير الذي كان يتعمد قتل المصطفى وقال شعرت بأنّ هذا وتسعة من قومه خرجوا يطلبون غرَّةً منا ففجأتهم بسيفي فقتلتهم جميعاً فهلّل المسلمون وكبّروا وهم معجبون بهذه الشجاعة النادرة التي لا يأتيها إلّا مثل أسد الله الغالب علي بن أبي طالب عليه السلام .

أمّا بنو النضير فقد تحرّجوا لطول الحصر وهمّوا أن يسلموا إلى المصطفى ولكنهم =

وَحَاصَرَ ٱلْمُسْلِمُوْنَ ٱلظَّافِرُونَ رِبَى آلـــ ـنَّضِيْرِ حَصْراً بِـهِ تَلْقَى تَـلاَشِيْهَـا

إِذَا بِــأَعْسَـرَ فِيْهَــا كَــانَ أَنْبَــغَ مَنْ ... يَـرْمِيْ آلنِّبَالَ فَـلاَ تُخْطِيْ مَـرَامِيْهَـا

تَقَصَّـدَ ٱلْمُصْـطَفَى فِيْ وَسْطِ قُبَّتِـهِ ... وَبَـاتَ عَنْ قَوْسِهِ بِـآلنَّبْلِ يَـرْمِيْهَـا

فَـأَسْرَعَ آلـرَّكْبُ فِيْ تَحْـوِيْـلِ قُبَّتِـهِ ... فَحُـوِّلَتْ حَيْثُ لاَ نَبْـلٌ تُفَـاجِيْهَـا

وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَــالِيْ آلْحَصْـرِ مُــظْلِمَـةٍ ... لاَ نُـوْرَ فِيْهَـا وَقَـدْ أَدْجَتْ دِيَـاجِيْهَـا

غَابَ ٱلْعَلِيُّ بِهَا عَنْ صَحْبِـهِ فَشَكَتْ ... لِلْمُصْـطَفَى غَيْبَـةً لَمْ تَـدْرِ خَـافِيْهَـا

فَقَــالَ : غَيْبَتُــهُ فِـيْ خَيْــرِ مُـلَّتِـهِ ... مَعْ قَصْدِ نَصْرَتِهَا ٱلْمَحْمُوْدُ سَارِيْهَـا

حَتَّى إِذَا لاَحَ نُــوْرُ ٱلْفَجْرِ عَادَ كَـمِــ ـيُّ ٱلْمُسْلِمِيْنَ بِـآيِ ٱلنَّصْرِ يَـرْوِيْهَا

وَرَأْسُ غُــزْوَلَ نَبَّـالِ ٱلنَّضِيْـرِ بِيُمْــ ـنَـاهُ وَبَـسْـمَـتُـهُ وَافٍ تَـجَـلِّيْـهَـا

وَقَـالَ : هٰـذَا وَمَعْـهُ تِسْعَـةٌ كَمَنُــوْا ... لَـنَـا وَنِيَّـتُـهُـمْ سُـوْءٌ لِـنَـاوِيْـهَـا

وَإِذْ شَعَـرْتُ بِهِمْ فَـاجَـأْتُ مَكْمَنَهُمْ ... بِبَــطْشَــةٍ وَهُمْ مِـنْ مُسْتَحَـقِّيْـهَـا

أَخْمَدْتُ أَنْفَاسَهُمْ جَمْعَاً بِضَرْبَةِ سَيْــــفٍ لَمْ يَكُنْ فِيْ سَبِيْـلِ ٱللَّهِ نَابِيْهَـا

فَهَلَّلَ ٱلْمُصْــطَفَى بُشْـراً بِصَــاحِبِـهِ ... وَقَـالَ أَنْتَ كَمِيُّ ٱلْحَـرْبِ غَــازِيْهَـا

وَأَقْبَـلَ ٱلْقَوْمُ نَحْـوَ ٱلْمُرْتَضَى بِـأَهَـا ... زِيْجِ ٱلْمَدَائِحِ يُشْجِي ٱلْقَلْبَ شَادِيْهَا

وَأَكْبَــرُوا هِمَّــةً مِنْــهُ مُـمَـجَّـدَةً ... وَكَـبَّــرُوْا لِلَّذِيْ قَــدْ زَانَــهُ فِـيْـهَــا

=تـوقفوا بعـد أن أتاهم من منـافقي أهل المـدينة المنـورة رسول قـال لهم : اثبتـوا لنـأتي لنصرتكم فتربصوا حيناً فلم يبرّ أولئك المنافقون بوعدهم فاشتدَّ بهم الخوف فطلبـوا من رسـول الله الصلح على أن يجلوا عن منـازلهم ولهم مـا حملت الإبـل من أمـوالهم إلاّ الحلقة فصالحهم ﷺ على ما طلبوا فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل وخرجوا إلى خيبر ومنهم من هاجر إلى الشام . وهكـذا جـلا بنـو النضيـر وهم يهـود من جـوار المدينة المنوّرة .

أمير المؤمنين في غزوة الخندق

تَضَافَرَ ٱلْكُفْرُ وَٱلْإِشْرَاكُ ٱجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمَا ٱلْعُرْبُ نَاشِيْهَا وَفَانِيْهَا[1]
وَقَدْ تَحَزَّبَتِ ٱلْأَحْزَابُ طَالِبَةً لِلْمُسْلِمِيْنَ ٱلتَّلَاشِيْ فِيْ تَدَاعِيْهَا

---

(١) خرج المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم من المدينة المنوّرة في جمادى الأولى من السنة الرابعة للهجرة يريد غزو بني محارب وثعلبة من غطفان فلما وصل إلى موضع يسمّى « نخل » لقي هناك جمعاً كبيراً من غطفان لم يكن للمسلمين قِبَلٌ على لقائه وأدخل الله هيبة المسلمين وهم الفئة القليلة على قلوب ذلك الجمع الكبير فجبنوا عن لقائهم وفي هذه الغزوة صلّى المصطفى صلاة الخوف وانصرف عائداً إلى المدينة المنورة من غير أن يتعرض له أعداؤه .

وكان أبو سفيان في موقعة أُحد توعّد المسلمين بالعودة إلى قتالهم في سوق بدر القادمة وكانت تقام في شعبان من كل عام وبلغ ذلك الوعيد المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم فخرج بالمسلمين إلى بدر في شعبان السنة الرابعة للهجرة أمّا أبو سفيان فخرج بمشركي قريش لتنفيذ وعيده فلمّا بلغ « مجنة » وقالوا بلغ « عسفان » بلغه خروج المصطفى إلى بدر فخاف سوء العاقبة وجبن عن المسير وعاد بأصحابه وهو يقول لهم « أيّها الناس إنّه لا يصلحكم إلّا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وإنّ عامكم هذا عام جدب فارجعوا وأنا راجع » وهكذا لم يجر قتال في غزوة بدر الثانية .

وقد علمنا من غزوة بني النضير أنّ المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم أجلى هذه القبيلة جزاء مكرها وحنثها في عهدها عن منازلها فأبى بعض زعمائها إلّا الإنتقام من محمد فساروا ومعهم جماعة من بني وائل وكلّهم يهود إلى مكة وأخذوا يدعون قريشاً لحرب المسلمين فلبتهم ثمّ خرجوا إلى غطفان فلبوهم وهكذا اجتمعت الجموع لحرب المسلمين وكان أبو سفيان بن حرب قائد الحملة الأكبر فلمّا بلغ المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم تحزّب الأحزاب لحربه شاور أصحابه في أمرها فأجمعوا على الثبات في المدينة المنورة للقائها حتى لا ينال المسلمين ما نالهم في أُحد وكان بينهم رجل حكيم يدعى سلمان الفارسي فأشار على المصطفى أن يحفر خندق حول المدينة ليقيها الأعداء وقال كذلك يفعل الفرس في حروبهم فأمر المصطفى بحفر خندق أمام المدينة المنورة وعانى المسلمون مشقّة عظيمة في حفره وإحكامه وكان المصطفى والمسلمون يحفرونه بأيديهم . ثمّ جاءت قريش ومن =

وَكَانَ أَعْظَمَهَا غَيْظاً يَهُوْدُ نَضِيْـــرٍ إِذْ تَسَطَّوْا عَلَيْهَا فِيْ مَغَانِيْهَا

=تحزّب معها على عداء المصطفى فنزلوا في مجتمع السيول من رومة بين الحرف وزغابة في عشرة آلاف ونزلت غطفان إلى جانب جبل أُحد وخرج المسلمون إلى لقائهم وكانوا ثلاثة آلاف وجعلوا ظهورهم إلى سلع وضربوا معسكرهم هناك تاركين الخندق الذي احتفروه بينهم وبين أعدائهم .

وما اقتصر الحال على هؤلاء الأعداء بل تعدّاه إلى خيانة بني قريظة الذين كانوا عاهدوا المصطفى فنكثوا العهد وانضموا إلى مشركي قريش وغطفان فلما بلغ المسلمين هذا عظم الكرب عليهم إذ رأوا أعداءَهم قد تألبوا عليهم من كل صوب وحدب وهكذا أقام المسلمون على إضطرابهم بضعاً وعشرين ليلة ولم يكن بينهم وبين المشركين إلاّ المراماة بالنبال والحصى وذلك لأنّ أولئك المشركين لم يكن لهم عهد بالخنادق فتهيبوا الخندق الذي وجدوه محفوراً أمامهم وتربصوا عن القتال مكتفين بمراماة الحصى والنبال حتى إذا ما أعيتهم الحال أقبل واحد منهم يدعى نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له ليوثبه الخندق مريداً بذلك تشجيع الناس على اختراق الخندق ومهاجمة المسلمين في معسكرهم فوقع فيه واندقّ عنق الفرس وتلقاه المسلمون بالحجارة فجعلوا يقذفونه بها فناداهم قائلاً : قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب . فلما بلغ صوته سمع المسلمين جعل ينظر بعضهم إلى بعض وبينما هم لكذلك وإذا بأسد الله الغالب سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام هوى إلى قعر الخندق وضرب نوفلاً بسيفه البتار ضربةً قدته نصفين وعاد إلى أصحابه وهم يصفقون طرباً أمّا المشركون فكبر عليهم مقتل نوفل وهو من شجعانهم وصاحوا الثار الثار . وتقدم منهم رجل مغوار قد كان أفرس الفرسان بغير جدال يدعى عمرو بن ودّ وكان وقتئذٍ في التسعين من عمره إلاّ أنّه على شيخوخته ما كان في المشركين أقوى منه ولا أشجع واشتهر عنه أنّه ما كان يخرج إلى حرب إلاّ ويعود منصوراً وحسبك الدلالة على شجاعة وقوة هذا الجبار العنيد أنّ عنترة بن شدّاد العبسي أشجع شجعان العرب المتوفى سنة ٦٠٠ مسيحية أي قبل الهجرة بنحو ١٢ سنة أكره مرة على لقائه في مبارزة فتهيب موقفه وأنشد :

شربت القنا من قبل أن يشترى القنا ونلت المنى من كلّ أشوس عابس
فما كلُّ من يشري القنا يطعن العدى ولا كلّ من يلقى الرجال بفارس
خرجتُ إلى القرم الكميّ مبادراً وقد هجّست في القلب مني هواجسي =

فَـأَسْـرَعَتْ نَـزَلَتْ أُمَّ ٱلْقِـرَى وَدَعَتْ   لِلثَّـأْرِ مِنْ أُمَّـةِ ٱلْهَـادِيْ قُـرَيْشِيْهَـا

= وقلت لمهـري والقنـا يقـرع القنـا   تنبـه وكن مستيقـظاً غيـر نـاعس
فجـاوبني مهـري الكـريم وقـال لي   أنا من جياد الخيـل كن أنت فارسي
ولمـا تجـاذبنـا السيـوف وأفـرغت   ثيـاب المنـايـا كنـت أول لابس
ورمحي إذا مـا اهتـزَّ يـوم كـريهـةٍ   تخـرُّ لـه كـل الأسـود القنـاعس
ومـا هـالني يـاعبـل فيك مهـالـكٌ   ولا راعني هـول الكميّ الممـارس
فـدونـك يـا عمـرو بن ودّ ولا تحـل   فـرمحي ظمـآن لـدمّ الأشـاوس

وعجز ابن ودّ عن عنترة كما عجز هذا عنه فكانا متكافئين شجاعةً وعزمـاً والغريب أنّ عمـرو بن ودّ احتفظ بقوتـه الغريبـة حتى رأيناه شجـع دون المشـركين فنـزل الـوادي يطلب ثأر نوفل .

نزل عمرو بن ودّ الخندق وهو راكب جواده وصاح من يبارز فلما بلغ نداؤه مسامع المسلمين تهيبـوه لشهرتـه فلم يكن فيهم من يلبّي نداءَه غيـر عليّ فتقدم من المصـطفى عليهما الصلاة والسلام وقال أنا له يا نبيّ الله فأشفق المصطفى على عليّ وقال : إجلس فـإنّه عمـرو بن ودّ فجلس على رغمه بينمـا كان عمـرو يكـرّر نـداءَه حتى جعـل يـوبّخ المسلمين ويقول : « أين جنتكم التي تزعمون أنَّ من قتل منكم دخلها أفلا تبـرزون لي رجلاً أقاتله وأبعثه إلى جنتكم وإذ لم يجد مجيباً جعل ينشد :

ولـقـد بـحـحـت مـن الـنـدا   ءِ لـجـمـعـكـم هـل من مـبـارز
إنَّ الـشـجـاعـة فـي الـفـتـى   والـجـود مـن خـيـر الـغـرائـز

أمّا المسلمون فلم يكن فيهم من يجرأ على مبارزة كفّار قريش فـوجموا إلاّ عليّنـا المرتضى فجعل يلحُّ على المصطفى عليهما الصـلاة والسلام أن يـأذن له بـالخروج إلى عمرو بن ودّ وكان المصطفى ﷺ يتبسم ويقول : « اجلس يا علي فإنّـه عمرو بن ودّ » وفي الأخير حرج صـدر أمير المؤمنين وغـلا الدم الشـريف في عروقـه وقال « وإن كـان عمرواً فأنا علي بن أبي طالب » فلما سمع المسلمـون من المرتضى هـذا القول أكبـروه وجعلوا ينظرون إليه بأعين ملؤها الاحترام والإكبار وإذ ذاك أذن المصطفى لبطل الإسلام الأكبر أن يبارز بطل المشركين الأشهر وقلده بيمينه الشريفة سيفـه ذا الفقار وألبسـه درعه الحـديدي وعمّمـه بعمامتـه وقال « اللّهمَّ أعنـه عليـه ، اللهم هـذا أخي وابن عمّي فـلا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين » ثم مـال إلى عليّ بعطفـه الأسنى وقال لـه : « سرّ على بركات الله » وفي الحال هبط سيدنا علي عليه السلام إلى الوادي هبوط الأسد الغضنفـر لملقي =

=فريسته وهو مشهر ذا الفقار بيمينه حتى إذا ما دنا من عمرو بن ودّ أنشد :

لا تــعــجــلنَّ فــقــد أتــا ك مجيب قــولــك غيــر عــاجــز
ذو نــيّــةٍ وبــصــيــرةٍ والــصــدق مــنــجي كــل فــائــز

فنظر عمرو بن ودّ إلى الشاب العليّ نظرة احتقار ولم يجبه فقال له علي : « إنّك يا عمّ كنت عاهدت الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى واحدة من ثلاث إلاّ قبلتها » قال : أجل فقال عليّ : « فإنّي أدعوك أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله وتسلم لربّ العالمين » فقال عمرو « يا ابن أخي أخّر عنّي هذه » فقال علي « والثانية أن ترجع إلى بلادك فإن يك محمد صادقاً كنت أسعد الناس به وإن يك كاذباً كان الذي تريده من قهره » قال عمرو : « هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبداً كيف وقد قدرت على إيفاء ما نذرت » قال علي : « ويلك وما هو الذي نذرته » قال عمرو « يوم أن أفلتُ من بدر بعد أن جرحت نذرت أن لا يمسّ الدهن رأسي حتى أقتل محمداً فقل الثالثة يا ابن أخي » قال علي : « وأمّا الثالثة فهي مبارزتك » فضحك عمرو بن ودّ بملء شدقيه حتى بانت نواجزه وقال : « إنّ هذه الخصلة ما كنت أظنُّ أحداً من العرب يروعني بها على أنّي يا ابن أخي لا أحبُّ أن أقتلك فإن أباك الشيخ أبا طالب كان صديقي وعشيري وفي عمومتك من هو أشدّ منك وأنت بعد في مقتبل العمر وزهوة الشباب » فقال علي : « أمّا أنا فلا أكره أن أقتلك وأهرق دمك في سبيل الله » فغضب عمرو بن ودّ وقال : « ويلك ماذا تقول ؟ » قال علي بفؤاد لا يرهب الموت : « أقول إنّي أحبّ أن أبارزك فانزل عن فرسك وبارزني » وفي الحال نزل عمرو بن ودّ عن فرسه وهو شعلة غضب وسلَّ سيفه وعقر فرسه وضرب جبهته وأقبل على علينا المرتضى عليه السلام فاستقبله علي بدرقته فضربها عمرو بسيفه فقدّها نصفين وشجّ رأسه فعاجله علي بضربة من ذي الفقار وقعت على عنقه فخرَّ على الأرض مضرَّجاً بدمه فأجهز عليه وعاد إلى المدينة يجرُّ ذيل النصر والدم يتدفق من جبهته الشريفة . أمّا المسلمون فلما شهدوا من معسكرهم هلاك عمرو بن ودّ وانتصار علي بن أبي طالب أخذوا يهللون ويكبّرون ويحمدون الله . أمّا المشركون فلمّا رأوا ما حلّ ببطلهم الأشهر انكسرت نفوسهم وخارت عزائمهم .

وعلى أثر مقتل عمرو بن ودّ جاءَ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم رجل يدعى نعيم بن مسعود=

وَيَـطْلُبَانِ مِنَ ٱلْإِسْـلَامِ ثَـأْرَهُمَـا   وَأَخْـذَةُ ٱلثَّـأْرِ تُعْمِي عَيْنَ بَـاغِيْهَـا

= الأشجعي وقال له إنّي أسلمت ولم يعلم القوم بإسلامي فمرني بما تشاء فقال له ﷺ إنّما أنت رجل واحد فخذّل عنّا ما استطعت فإنّ الحرب خدعة فسار نعيم إلى بني قريظة وكان لهم نديماً فأغراهم على مشركي قريش وغطفان قائلاً إنّهم غرباء لا يلبثون أن يعودوا أدراجهم إلى مواطنهم وتبقون هنا وحدكم على عداء محمد في مستقبلكم فالرأي عندي إذا كنتم مصرّين على عهودكم معهم أن تأخذوا رهناً من أشرافهم بأن ينصروكم كلما أراد محمد بكم شرّاً وما زال على هذا حتى استمالهم إلى قوله . ثمّ مضى إلى قريش فاجتمع بأبي سفيان ومن معه من الزعماء وقال لهم لقد بلغني أنّ اليهود قد ندموا لتحزّبهم معكم وأرسلوا إلى محمد سرّاً يظهرون له ندمهم على مظاهرة أعدائه عليه وقالوا له أيسرك أن نرسل لك من أشراف قريش وغطفان رجالاً تضرب أعناقهم ثم نناصرك على من بقي منهم فارتضى محمد بما عرضوا وسار أيضاً بمثل هذا القول إلى غطفان فأثر على هؤلاء وأولئك وأحكم الضغينة في صدورهم على بني قريظة اليهود . فلما كانت ليلة السبت من شوّال السنة الخامسة للهجرة أرسل مشركو قريش وغطفان عكرمة بن أبي جهل في نفر من القبيلتين إلى بني قريظة فقالوا لهم أن يهبوا في صباح غد « السبت » لمهاجمة المسلمين فأجابهم بنو قريظة إننا لا نخرج إلى قتال في يوم السبت وفوق هذا فأنا لا نقاتل محمداً حتى تعطونا بعض أشرافكم رهينة أن تكونوا معنا في المستقبل على المسلمين فلما عاد عكرمة وأصحابه بجواب بني قريظة هذا إلى قريش وغطفان تأكد هؤلاء خبر نعيم وأرسلوا إلى بني قريظة ينبئونهم بأنهم لا يعطون أحداً رهينة فتأكد بنو قريظة من جواب قريش وغطفان صدق ما قال نعيم من خذلهم في المستقبل وهكذا تقاعس هؤلاء وهؤلاء عن القتال وتفرقت كلمتهم ودبّ الشقاق في صدورهم وتسرَّب الرعب إلى قلوبهم وبينما هم لكذلك وإذا بريح باردة في ليلة شاتية هبّت عليهم فكفأت قدورهم وطرحت آنيتهم فأزادتهم جبناً وفرقاً فهبّوا مذعورين مدبرين وكان أبو سفيان أوّل الهاربين وبذلك أزيحت هذه الغمّة الثقيلة عن صدور المسلمين وحمدوا الله ربّ العالمين .

ثمَّ إنّ رسول الله أمر بعد انصراف الأحزاب أن يتوجه المسلمون إلى بني قريظة ليعاقبوهم على نكثهم عهودهم فذهب المسلمون إليهم وحاصروهم خمس وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم عليهم بقتل مقاتلتهم ونفذ =

وَعَجَّلَتْ فَٱنْضَوَتْ غَطْفَانُ رَاضِخَةً ... إِلَيْهِمَا وَأَجَابَتْ صَوْتَ دَاعِيْهَا

وَسَلَّمَتْ أَمْرَهَا فِيْ حَرْبِهَا لِأَبِيْ ... سَفْيَانَ لِلنَّصْرِ قَدْ خَالَتْهُ مُمْشِيْهَا

وَسَارَ رَاكِبُهَا نَحْوَ ٱلْمَدِيْنَةِ فِيْ ... غَزْوِ ٱلشَّرِيْعَةِ مَرْدُوْفاً بِمَاشِيْهَا

وَقَدْ دَرَى أَحْمَدٌ بِٱلْأَمْرِ فَٱتَّخَذَ ٱلْأَ م ... سْبَابَ كَيْ يُكْبِتَ ٱلْأَعْدَاءَ يُنْكِيْهَا

بِخَنْدَقٍ قَامَ بِسْمِ ٱللَّهِ يَحْفِرُهُ ... حِيَالَ طِيْبَةَ مَنَّاعٌ لِمَنْ فِيْهَا

وَقَدْ رَأَى حَفْرَهُ سَلْمَانُ قَالَ وَإِ م ... نَّ ٱلْفُرْسَ فِيْهِ عِدَاهَا ٱلْكُثْرُ تَتْقِيْهَا

حَتَّى إِذَا مَا ٱنْتَهَى مِنْ حَفْرِ خَنْدَقِ ... طَهَ وَعَسْكَرُهُ أَمْسَى مُعَبِّيْهَا

وَافَتْ قُرَيْشٌ بِأَحْزَابِ ٱلْأَعَارِبِ تَبْـ ... ـغِيْ مِنْ تَغَيُّظِهَا مِنْهُ تَشَفِّيْهَا

وَكَانَ فِيْهَا عَلَى رَأْسِ ٱلْعِدَاةِ أَبُوْ ... سَفْيَانَ نَارُ ٱلْوَغَى وَٱلشَّرِّ يُوْرِيْهَا

فَهَالَهَا ٱلْخَنْدَقُ ٱلْمَحْفُوْرُ إِذْ جَهِلَتْ ... أَمْثَالَهُ حُفَراً صَعْبٌ تَخَطِّيْهَا

وَعِنْدَهُ وَقَفَتْ تَرْمِيْ ٱلنِّبَالَ عَلَى ... جَمَاعَةِ ٱللَّهِ مَا ظَلَّتْ تُرَامِيْهَا

وَبَعْدَ مَا طَالَ فِيْ ٱلنِّضَالِ مَوْقِفُهَا ... مِنْ غَيْرِ جَدْوَى وَكَادَ ٱلْمَكْثُ يُعْيِيْهَا

إِذَا بِفَارِسِهَا ٱلْمِغْوَارُ نَوْفَلُ أَهْـ ... ـوَى لِلْحَفِيْرَةِ لَمْ يَرْهَبْ مَهَاوِيْهَا

وَٱلْهُلْكُ قَدْ كَانَ مِنْ حَظِّ ٱلْمَطِيَّةِ وَٱلْـ ... ـتَّهْشِيْمُ مِنْ حَظِّ ذَا ٱلْمَغْرُوْرِ مَاطِيْهَا

= الحكم فيهم . وبعد الانصراف من الأحزاب انضمّ إلى صفوف المسلمين عمرو بن العاص السهمي وخالد بن الوليد المخزومي فأصبحا مجاهدين في سبيل الإسلام بعد أن كانا من ألدّ أعدائه .

وأمّا سلمان الفارسي الذي أشار بحفر الخندق فهو رجل من فارس وقد وقع قبل الهجرة أسيراً في يد الخزرج فاستعبدوه وبعد الهجرة أسلم وحسن إسلامه إلاّ أنّه لم يتحرّر إلاّ بعد غزوة أُحُد وكانت أول مشاهده غزوة الخندق وكان هذا الصحابي نبيهاً ذكياً على معرفة وسداد رأي حتى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يستشيره ويسمع له .

وَقَابَلَتْ بِحَصَاهَا ٱلنَّاسُ نَوْفَلَ إِذْ   كَانَتْ عَلَى جِسْمِهِ ٱلْمَنْهُوْكِ تَرْمِيْهَا

وَإِذْ رَأَى نَوْفَلُ أَنْ لَا نَجَاةَ لَهُ   مِنَ ٱلْحَصَى لَا وَلَا يُرْجَى تَوَقِّيْهَا

نَادَى أَلَا مَوْتَةٌ يَا عُرْبُ أَحْسَنُ مِنْ   هٰذِيْ ٱلَّتِيْ كُلُّ حُرٍّ كَانَ آبِيْهَا

فَلَمْ يَكُنْ غَيْرُ مَوْلَانَا ٱلْعَلِيِّ لِيُوْ   لِيْ نَوْفَلًا بُغْيَةً قَدْ رَاحَ بَاغِيْهَا

وَٱنْقَضَّ فِيْ سَيْفِهِ هَلْ كَانَ صَاعِقَةً   مِنَ ٱلسَّمَاءِ قَدِ ٱنْقَضَّتْ لِرَائِيْهَا

وَقَدْ حَبَى نَوْفَلًا أَسْمَى مَقَاصِدِهِ   بِضَرْبَةٍ لَمْ يَكُنْ يَوْمًا يُثَنِّيْهَا

فَقَدَّ جُثْمَانَهُ قَدًّا وَعَادَ إِلَى   أَصْحَابِهِ مُطْمَئِنُّ ٱلنَّفْسِ هَانِيْهَا

وَٱلْمُشْرِكُوْنَ ٱسْتَشَاطَتْ مِنْ تَغَيُّظِهِمْ   نُفُوْسُهُمْ وَلَظَى ٱلْخُذْلَانِ كَاوِيْهَا

فَجَاءَ عَمْرُو ٱبْنُ وُدٍّ بَعْدَهُ طَلَبًا   لِلثَّأْرِ مُسْتَعِرَ ٱلْأَحْشَاءِ دَامِيْهَا

وَكَانَ قَدْ نَاهَزَ ٱلتِّسْعِيْنَ وَهْوَ بِقُوَّ م ةِ ٱلشَّبَابِ ٱلَّتِيْ مَا مَنْ يُقَاوِيْهَا

أَعْيَا ٱلسِّنِيْنَ وَمَا أَعْيَتْ عَزِيْمَتَهُ   وَلَمْ يَزَلْ بِكُرُوْرِ ٱلدَّهْرِ يُعْيِيْهَا

وَكَانَ أَشْهَرَ مَنْ هَزَّ ٱلْمُهَنَّدَ فِيْ ٱلْـ ـحَرْبِ ٱلْعَوَانِ إِذَا نَادَى مُنَادِيْهَا

وَكَانَ أَبْطَشَ بَطَّاشٍ إِذَا طَلَبَ ٱلْأَ م عْدَاءَ يَوْمَ ٱلْوَغَى بِٱلسَّيْفِ يُدْمِيْهَا

وَقَبْلُ عَنْتَرَةٌ قَدْ هَابَ بَرْزَتَهُ   وَشِعْرُهُ فِيْهِ يُنْبِيْ كَانَ خَاشِيْهَا

وَكَانَ ذِكْرُ ٱسْمِهِ يَمْلَأُ ٱلْعِدَى رَهَبًا   إِنْ قِيْلَ عَمْرُو ٱبْنُ وُدٍّ فِيْ مَغَازِيْهَا

وَصَاحَ يَا صَحْبَ طٰهَ وَيْلُ أُمِّكُمُ   مِنِّيْ صِيَاحًا مَلَا تِلْكَ ٱلْأَتَاوِيْهَا

مَنْ مِنْكُمُ يَبْتَغِيْ مَثْوَى ٱلْجِنَانِ وَقَدْ   زَعَمْتُمُ أَنَّكُمْ تَثْوُونَ عَالِيْهَا

وَمَنْ يُبَارِزُنِيْ مِنْكُمْ فَأَبْعَثُهُ   إِلَى مَرَابِعِهَا ٱلزَّهْرَا لِيَثْوِيْهَا

مَا بَالُكُمْ قَدْ فَرِقْتُمْ مِنْ مُبَارَزَتِيْ   وَبُحَّ صَوْتِيْ لِفُرْسَانٍ أُنَادِيْهَا

وَرَاحَ يَرْجُزُ لَغْوَ ٱلْقَوْلِ مُدَّعِيًا   بِنَفْسِهِ يَتَخَطَّى خَطْوَهُ تِيْهَا

فَلَمْ يَكُنْ مِنْ حُماةِ ٱلدِّيْنِ مُجْتَرِيءٌ عَلى مُـلاَقَـاةِ عَمْـرٍو رَاحَ وَاخِيْهَـا

إلاَّ ٱلْعَلِيُّ ٱلَّـذِيْ أَعْـدَاؤُهُ عَـرَفت مِنْـهُ ٱلشَّجَاعَـةَ مُـذْ أَمْسَى يُـلاَقِيْهَـا

وَلَمْ يَكُنْ فِيْ جُمُوْعِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ سِوَاهُ أَرْوَعَـاً دَعْـوَةُ ٱلـدَّاعِيْ يُـوَافِيْهَـا

فَقَـالَ لِلْمُصْـطَفَى : إِنِّيْ لَـهُ فَـأَبَـاهَا ٱلْمُصْطفَى بَـرْزَةً مَا ٱلأَمْنُ تَـالِيْهَا

فَكَـرَّرَ ٱلْمُرْتَضَى ٱسْتِئْذَانَ صَاحِبِهِ بِعَـزْمَـةٍ مَـا لِقَـاءُ ٱلْمَـوْتِ يُثْنِيْهَـا

وَكَـانَ هَـزْرُ ٱبْنِ وُدٍّ لِلْمَخَـاطِرِ يَـدْفَـعُ ٱلْعَلِيَّ فَلَمْ يَـرْهَبْ تَـوَخِّيْهَـا

وَقَـالَ : شُهْرَةُ عَمْـرٍو فِيْ شَجَـاعَتِـهِ لاَ تَـقْعُـدَنَّ بِـمُثْلِيْ عَنْ تَـلَقِّيْـهَـا

إِنِّيْ سَـأَكْفِيْكُـمُ تَهْـدِيْـدَهُ بِشَبَـا سَيْفِيْ وَأَشْـلاَؤُهُ لِلطَّيْـرِ أُلْقِيْـهَـا

وَإِذْ رَأَى ٱلْمُصْـطَفَى إِصْرَارَ حَيْـدَرَةٍ عَلى مُبَـارَزَةٍ مَـا ٱنْفَـكَّ يَنْـوِيْهَـا

وَمَـا سِوَاهُ عَلَيْهَـا قَـدْ تَجَـرَّأَ مِنْ أَصْحَـابِـهِ بَـلْ رَأَى مِنْهُمْ تَجَـافِيْهَـا

أَجَـازَهَـا لِعَلِيٍّ وَهْـوَ يَسْـأَلُ أَنْ تَنَـالَ يُمْنَـاهُ عَفْـوَاً عَوْنَ بَـارِيْهَـا

وَذُوْ ٱلْفِقَـارِ لَـهُ أَعْـطَى وَأَلْبَسَـهُ دِرْعَ ٱلْحَدِيْـدِ وَعَيْنُ ٱلْعُجْبِ يُثْنِيْهَا

وَبَـعْـدُ عَمَّـمَـهُ زَاهِيْ عَـمَـامَتِـهِ فَكَـانَ أَهْيَبَ مَـا يُلْقَى تَـزَيِّيْـهَـا

وَقَالَ : هٰذَا أَخِيْ هٰـذَا ٱبْنُ عَمِّيَ يَا رَبَّـاهُ نَصْـرَتُـكَ ٱلْعَلْيَـا أُرَجِّيْهَـا

فَـلاَ تَـذَرْ أَحْمَـدَاً فَـرْدَاً فَـإِنَّـكَ خَيْـرُ ٱلْـوَارِثِيْنَ لِـذِيْ ٱلـدُّنْيَـا وَأَهْلِيْهَـا

أَمَّـا ٱلْعَلِيُّ فَقَـدْ وَافَى ٱبْنَ وُدَّ بِنَفْـسٍ لاَ تَهَـابُ ٱلْمَنَايَـا أَوْ تُحَاشِيْهَـا

وَقَالَ : مَا كُنْتَ تُدْعَى لِلثَّلاَثِ كَمَـا عَـاهَـدْتَ إِلاَّ وَإِحْـدَاهَـا تُلَبِّيْهَـا

فَقَالَ عَمْرُو : أَجَلْ فَاعْرِضْ عَلَيَّ أَمَا نِيْـكَ ٱلثَّـلاَثَ فَـإِنِّيْ ٱلآنَ وَاعِيْهَـا

فَقَـالَ : وَحِّدْ وَآمِنْ بِـٱلرِّسَـالَـةِ أَسْـلِمْ قَـالَ : دَعْ دَعْوَةً مَـا زِلْتُ آبِيْهَـا

فَقَـالَ : فَٱرْجِـعْ إِلَى مَغْنَاكَ مُنْتَظِرَاً نَصْـرَ ٱلـرِّسَـالَـةِ إِذْ يَهْنَـاكَ هَـانِيْهَـا

أَجَابَ : كَلَّا فَلَا أُبْقِي نِسَاءَ قُرَيْـــشٍ لاحِيَاتٍ لِذِكْرِي فِي مَخَابِيْهَا
فَقَدْ نَذَرْتُ بِبَدْرٍ إِذْ هَرَبْتُ جَرِيْـــحَاً أَنْ أَعُوْدَ إِلَى ٱلْهَيْجَا فَأُصْلِيْهَا
وَأَقْتُلَ ٱلْمُصْطَفَى فِيْ وَسْطِ مُلَّتِهِ وَنَذْرَتِي جِئْتُ هٰذَا ٱلْيَوْمَ أُوْفِيْهَا
فَقَالَ حَامِيْ حِمَى ٱلْإِسْلَامِ وَيْلُكَ فَٱبْـــرُزْ لِيْ وَوَدِّعْ حَيَاةً جِئْتَ تُفْنِيْهَا
إِنِّيْ مُجِيْبُكَ لِلشَّرِّ ٱلَّذِيْ رَغِبَتْ فِيْهِ مَطَامِعُكَ ٱلْمَلْعُوْنُ نَاوِيْهَا
أَجَابَ عَمْرُوٌ : وَهَلْ تَبْغِي مُبَارَزَتِيْ وَلَيْسَ مِنْ عَاقِلٍ فِيْ ٱلْعُرْبِ يَبْغِيْهَا
نَادَى : نَعَمْ قَالَ أَقْصِرْ ذِيْ رَعُوْنَةُ غِـــرٍّ جَاهِلٍ مَا أَنَا تَـاللَّهِ رَاضِيْهَا
لَا أَرْتَضِيْ لَكَ قَتْلاً مَنْ يَدِيْ فَدَعِ ٱلْـــغُرُوْرَ مِنْ نَفْسِكَ ٱلْمُوْدِيْ تَشَهِّيْهَا
وَفِيَ عُمُوْمَتِكَ ٱلْأَقْوَى فَدَعْنِيَ أَلْـــقَى جَمْعَهَا مُفْرَدَاً حَتَّى أُلَاشِيْهَا
إِنِّيْ لَأَكْرَهُ أَنْ أَلْقَى مِثْلَكَ مِنْ فِتْيَانِ قَوْمِيْ وَإِنْ شَطَّتْ أَمَانِيْهَا
وَكَانَ فِيْ صِحْبَتِيْ قِدْمَاً أَبُوْكَ وَإِنِّـــيْ فِيْكَ صِحْبَتُهُ ٱلْغَرَّا أُرَاعِيْهَا
وَكَانَ يَضْحَكُ مِنْ إِقْدَامِ حَيْدَرَةٍ على ٱلْمَنِيَّةِ كَيْ يُلْقِيْهِ فِيْ فِيْهَا
وَكَانَ فِيْ عُجْبِهِ فَوْقَ ٱلْجَوَادِ يَرَى لِنَفْسِهِ عِزَّةً لَا عِزَّ يَحْكِيْهَا
وَٱلْمُرْتَضَى صَاحَ مِنْ بَعْدِ ٱلْجِدَالِ بِهِ : أَقْصِرْ حَدِيْثَكَ قَدْ حُمَّ ٱلْقَضَا إِيْهَا
أَنْزِلْ إِلَيَّ وَبَارِزْنِيْ وَكُنْ بَطَلاً وَٱلْقَ ٱلْحَقَائِقَ لَا تَبْغِ ٱلتَّرَارِيْهَا
فَٱنْقَضَّ عَمْرُوٌ وَقَدْ أَرْدَى ٱلْجَوَادَ عَلَى عَلِيِّنَا يَدُهُ بِٱلسَّيْفِ يُهْوِيْهَا
فَقَدَّ دِرْقَتَهُ ثُمَّ وَجُبْهَتُهُ قَدْ شَجَّ شَجَّاً فَأَخْزَى ٱللَّهُ مُدْمِيْهَا
إِذْ ذَاكَ أَهْوَى عَلِيٌّ فَوْقَ هَامَتِهِ بِضَرْبَةٍ بَلَغَتْ مِنْهُ تَمَنِّيْهَا
فَكَبَّرَ ٱلْمُسْلِمُوْنَ ٱلرَّاصِدُوْنَ لَهَا بُشْرَاً بِنَصْرَتِهِمْ شُكْرَاً لِجَانِيْهَا
وَهَلَّلَ ٱلْمُصْطَفَى تَهْلِيْلَ مُغْتَبِطٍ بِمِلَّةٍ أَهْلَكَ ٱلْبَارِيْ مُنَاوِيْهَا

وَقَابَلَ ٱلْمُرْتَضَى يَدْعُو وَيَحْمِدُهُ وَقَدْ كَفَى أُمَّةَ ٱلْإِسْلَامِ طَاغِيْهَا
وَبَعْدَ ذَا شَتَّتَ ٱلْأَحْزَابَ خَالِقُهَا مِنْ بَعْدِ مَا أَظْهَرَتْ لُؤْمَاً تَعَادِيْهَا
فَقَدْ أَسَا بَعْضُهَا بِٱلْبَعْضِ ظَنَّتَهُ إِسَاءَةً فَرَّقَتْ بَادِي تَجَمِّيْهَا
وَٱلرِّيْحُ هَبَّتْ عَلَيْهَا وَهْيَ مُحْدِثَةٌ زَوَابِعَاً نَسَفَتْ نَسْفَاً أَثَافِيْهَا
وَسَلَّمَ ٱللَّهُ أَنْصَارَ ٱلْحَنِيْفِيَةِ ٱلْـ سَمْحَاءِ مِنْ مِحْنَةٍ سَوْدَا تُقَاسِيْهَا

أمير المؤمنين في يوم الحديبية

كَانَ ٱلرَّسُوْلُ كَكُلِّ ٱلْعُرْبِ مُحْتَرِمَاً فَرِيْضَةَ ٱلْحَجِّ بِٱلْإِحْرَامِ يَقْضِيْهَا[1]
وَكَانَ إِذْ كَانَ فِيْ أُمِّ ٱلْقِرَى أَبَدَاً يَطُوفُ بِٱلْكَعْبَةِ ٱلْغَرَّاءِ تَجْرِيْهَا

---

(١) خرج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يريد الحجّ ومكة المكرّمة لا تزال في أيدي أعدائه وفي خروجه خطر عليه وعلى مصاحبيه من غدر ولؤم أولئك الأعداء وبالبداهة أن خروجه لم يكن إلّا لاهتمامه بقضاء هذه الفريضة المقدسة التي صارت فيما بعد من شروط الإسلام الخمسة إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إلّه إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً » وهوذا نقصُّ عليك بداءة تاريخ الحج من أقدم أيام العرب وكيفية قضاء هذه الفريضة المقدسة فنقول :

كان العرب يحجّون إلى الكعبة كرّمها الله من قبل الإسلام بنحو خمسة وعشرين قرناً وبالأحرى منذ بناها إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل عليهما الصلاة والسلام . ويبعد العرب في تاريخ حجّهم فيقولون إنّ آدم عليه السلام حجّ إلى موضع الكعبة مستغفراً عن إثمه وحجّت إليه حواء زوجه مستغفرة عن إثمها وأنّهما تعارفا في عرفات في حديث يطول ليس هنا موضعه .

وكانت العرب يحجّون إلى الكعبة على اختلاف أديانهم بين موحدين على دين إبراهيم ووثنيين ومشركين وحتى من تهوّد منهم أو تنصر وكانوا يعتبرونها بيت إلّه العالمين فلم تختصّ بها فئة منهم دون الفيئات الأخرى . ورغماً عن شيوع الوثنية بين=

وَبَعْـدَ هِجْـرَتِــهِ لاَ شَيْءَ أَحْـزَنَــهُ   كَبُعْـدِهِ مَــعْ ذَوِيْــهِ عَنْ مَغَـانِيْهَــا

= العرب ما عبدوا الكعبة لنفسها كما أنّهم لم يعبدوا الحجر الأسود الذي فيها لنفسه بل كانوا يكرمون الكعبة على اعتبار أنّها بيت الله والحجر الأسود على اعتبار أنّ سيدنا إبراهيم الخليل وضعه في الكعبة للعهد على نفسه وولده بجعل هذا البيت العظيم مثابة للناس وقد وضعه سيدنا إبراهيم في الركن الأقرب إلى الباب ليكون أول حدود هذا البيت الذي جعله مصلّى ومسجداً للطائفين والعاكفين والركّع والساجدين إلى الأبد .

وما زال الحجّ عند عرب الجاهلية على ملّة إبراهيم واسماعيل واجباً ومشاعره محترمة حتى عظم شأن قريش بعد واقعة الفيل وقال الناس فيهم إنّهم أهل الله وهو يدافع عنهم إذ ذاك تعالوا على العرب وقالوا : نحن ولاة البيت وسدنته وليس لأحد من الناس مثل منزلتنا واتّفقوا على أن لا يعظّموا شيئاً من الحلّ فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها وأفاضوا من جمع « المزدلفة » وقالوا لا ينبغي لأهل الحلّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحرم إذا جاءوا حجاجاً وأوجبوا أن لا يطوفوا بالبيت إلاّ في ثياب الحمس « أي المتحمسين في دينهم » فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراةً ، فدانت العرب بذلك وقد كان السعي بين الصفا والمروة من لوازم الحجّ في الجاهلية ، وكان لهم صنم على الصفا يسمّى « أساف » وآخر على المروة يسمى « نائلة » وكانوا ينحرون عندهما هديهم . فلما جاء الإسلام امتنع المسلمون عن السعي كيلا يكونوا مثل أهل الجاهلية في وثنيتهم فنزل قوله تعالى : ﴿ **إنّ الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ وحينئذٍ عاد المسلمون إلى السعي بينهما .

أمّا طريقة الحجّ التي يجري عليها المسلمون فهي أنّهم عندما يصلون إلى ميقات الإحرام يحرمون بنية الحج أي أنّ الرجل منهم يتجرّد من مخيط الثياب ويلبس إزاراً أبيض معه رداء ونعلان إذا تيسر له ذلك والمرأة تلبس ملابسها وتكشف يديها ووجهها إن لم تخش الفتنة . ويقول الحاج أو الحاجة في حالة الإحرام « اللّهمَّ إنّي نويت الإحرام لحجّ بيتك الحرام فيسّره لي وتقبّله منّي » ومنهم من ينوي نية العمرة وهي كالحج ولكن ليس لها مدة معينة وأركانها إحرام ، وطواف وسعي ، ومن الحجّاج من ينوي الحجّ والعمرة معاً ، ويُسنُّ على الحاج المحرم أو المعتمر حلق ما شعث تحت البطن وتقليم الأظفار وتسريح الشعر والغسل وصلاة ركعتين يبدأ الإحرام بهما .

ويحرم الحاج منذ وصوله إلى حدّ حرم مكة وهذا الحرم يحتاطها من جميع =

= جوانبها ومسافة ما بين دائرة هذا الحرم ونقطتها المـركزيـة التي هي الكعبة المشـرّفة من جهة الشمال والشرق والجنوب تبلغ خمسة عشر كيلومتراً أمّا من جهة الغرب فلا تتجاوز الخمس كيلومتـرات . وعلى حدّ الحـرم من الجنـوب مكـان يسمّـونـه « أضـاه » . ومن الغـرب يميل قليـل إلى الشمال قـرية « الحـديبيـة » التي نحن بصـددهـا كمـا تـرى في المتن . ومن الشـرق على طريق الـطائف مكان يسمى « الجـوّانة » . وفي هـذا الحرام يتناول الأمان الإنسان والحيوان حتى النبات فكل من دخله فهو آمن وكل من فيه من هذه العوالم الثلاث فهو آمن .

ثمّ إنّ الحاج يبدأ حجّته بقوله « لبيك اللّهمَّ لبيك ، لبيك لا شـريك لـك لبيك . إنّ الحمد والنعمة لـك والملك ، لا شريـك لك » وعليـه أن يكرر هـذه التلبية من وقت إلى آخر حتى إذا ما دخل مكة المكرّمة يقول : « اللهم إنّ هذا الحرم حرمـك ، والأمن أمنـك ، والعبد عبـدك . اللهمّ إنّي جئتك من بـلاد بعيدة ، بـذنوب كثيـرة ، راجيـاً أن تستقبلني بمحض عفوك وكرمك ، وأن تحرّم جسدي على النار ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبـه وسلم » . فإذا انتهى إلى الحـرم يدخـل من باب السـلام وهو يقول : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهمّ أنت السلام ومنـك السلام ، فحيينـا بالسـلام ، وادخلنا الجنـة دار السـلام ، بفضلك يـاذا الجـلال والإكـرام » ثم يسير نحـو الكعبة من جهـة الشرق وهـو يقـول : « اللهمّ إنّ هـذا الحـرم حـرمك وهـذا الأمن أمنك ، اللّهمَّ حـرّم جسمي على النار » وعنـدمـا يقـع بصـره على الكعبة المعظمة يقول : بسم الله والله أكبر (ثلاثاً) لا إلّه إلّا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » ويدخل بعد ذلك من باب شيبة وهو يقـول : « ربِّ أدخلني مدخـل صدق ، وأخـرجني مخرج صـدق واجعل لي من لـدنك سلطاناً نصيراً ، وقـل جاء الحقّ ، وزهق البـاطل ، إنّ البـاطل كـان زهوقـاً . وننزل من القـرآن ما هـو شفاء ورحمـة للمؤمنين ، ولا يزيـد الظالمين إلّا خسـاراً » ثمَّ يتّجـه نحـو الحجـر الأسود فيستقبله ويقـول : « بسم الله ، الله أكبر ، ولله الحمـد ، اللهمَّ اغفر لي ذنبي ، وطهّر لي قلبي ، واشرح لي صدري ، وعافني برحمتك فيهن تعـافي » ثمَّ يستلم الحجر بيمينه ويقبّله (إذا استطاع إليه وصولاً أو يكتفي أن يفعل إشـارة التقبيل) وينـوي الطواف ويقول : « اللهمَّ إنّي نويت طواف بيتك المعظّم سبعة أشواط لوجهك الكريم . =

وَطَالَمَا ٱشْتَاقَهَا شَوْقَ ٱلْمُحِبِّ إِلَى حَبِيْبِهِ وَشَكَا قَاسِيْ تَنَائِيْهَا

=اللهمَّ يسرها لي . وتقبّلها مني » ثمَّ ينطلق بعد ذلك بطوافه وهو يقول : « اللهمَّ ، إيماناً بك ، وتصديقاً بكتابك ، ووفاءً بعهدك ، واتّباعاً لسنّة نبيّك محمد ﷺ ، أشهد أن لا إلّه إلّا الله ، وحده لا شريك له . وأنَّ محمداً عبده ورسوله . اللّهمَّ إنّ هذا البيت بيتك . والحرم حرمك . والأمن أمنك . وهذا مقام العائذ بك من النار . فأعذني منها يا عزيز يا غفّار . اللهمَّ إنّي أعوذ بك من الكفر . والفقر . وضيق الصدر . وعذاب القبر . ومن فتنة المحيا والممات . اللهمَّ : إنّي أسألك العفو . والعافية . والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة . اللهمَّ . أظلّني تحت عرشك . يوم لا ظلّ إلّا ظلّك . واسقني بكأس نبيّك محمد ﷺ . شربةً هنيةً مريئةً لا أظمأ بعدها أبداً . اللهمَّ اجعله حجّاً مبروراً . وسعياً مشكوراً . وذنباً مغفوراً . وتجارةً لن تبور . اللهمَّ إنّي أعوذ بك من الشكّ . والشرك . والنفاق . وسوء الأخلاق . وسوء المنقلب . وسوء المنظر في المال والأهل والولد . اللهمَّ إنّي عبدك وابن عبدك قد أتيتك بذنوب كثيرة . اللهمَّ ما كان لك منها فاغفره لي وما كان منها لعبادك فاحمله عني » يتلو الحاجّ هذه الدعوات من أعماق نفسه في طريق طوافه حتى إذا ما أخذ يدنو من الحجر الأسود يقول : « ربّنا آتنا في الدنيا حسنة . وفي الآخرة حسنة . وقنا عذاب النار » فإذا حاذى الحجر الأسود يقول (وهو يستلم الحجر أو يسلّم عليه بيمينه إذا تعذّر الاستلام) « بسم الله . الله أكبر » ثم يدعو الله بما يشاء من الأدعية السابقة أو ما يحضره من غيرها .

وبعد الطواف سبعة أشواط يتوجه الحاج خلف مقام إبراهيم ويصلّي ركعتين وهي سنة الطواف ويقول : « اللهمَّ إنّك دعوت عبادك إلى بيتك الحرام ، وقد جئت طائعاً لأمرك ، فاغفر لي وارحمني اللهمَّ ، اغفر لي ، ولوالديَّ ، وارحمهما كما ربياني صغيراً . اللهم ، اغفر لي ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات » ثم يقصد الحاج بعد ذلك (الملتزم) وهو يقول : « اللهمَّ ، يا ربَّ البيت العتيق ، اعتق رقابنا ، ورقاب آبائنا ، وأمهاتنا ، وإخواننا ، وأولادنا ، من النار . اللهمَّ أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا ، وعذاب الآخرة . اللهمَّ ، إنّي عبدك ، وابن عبدك ، وأقف تحت بابك ، ملتزم لأعتابك ، متذلّل بين يديك ، أرجو رحمتك ، وأخشى عذابك . اللهم اشرح لي صدري ، ويسّر لي أمري ، واغفر لي ذنبي » ثمَّ يذهب الحاجّ إلى بئر زمزم فيشرب منها هنيئاً مريئاً ثمَّ يتوجّه إلى المسعى فإذا خرج من=

حَتَّى إِذَا مَا ٱلنَّوَى قَدْ طَالَ سَارَ إِلَيْـــــهَا زَائِراً لَمْ يَهَبْ عُـدْوَى أَهَـالِيْهَـا

=باب الصفا يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » ثمّ يصعد على درجات الصفا ويتوجه إلى الكعبة وعندما يقع نظره عليها يقول : « بسم الله ، الله أكبر ، ولله الحمد » ثمّ يسعى إلى المروة قائلاً : « لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له، له الملك . وله الحمد ، يحيي ويميت . وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلاّ الله ، ولا نعبد إلاّ إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، اللهمَّ ، إنّي أعوذ بك من عضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وشماتة الأعداء وزوال النعمة ، ونزول النقمة » ثمّ يهرول الحاجّ بين الميلين الأخضرين وهما عمودان مبنيان في جدران الحرم أحدهما بجوار باب القبلة والثاني بجوار باب علي والمسافة بينهما سبعون متراً ويقول « ربّ اغفر ، وارحم ، وتجاوز عمّا تعلم ، إنّك أنت الأعزّ الأكرم ، ربّنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة . وقِنا عذاب النار ، يا عزيز يا غفّار ، يا أرحم الراحمين » ثمّ يدعو الحاج بما يشاء ويُعدُّ هذا شوطاً من السعي ويجب أن يكرّره سبعاً .

أمّا المسعى هذا فهو ما بين الصفا والمروة وطوله نحو ٤٢٠ متراً وهو شارع عمومي محاط بالبيوت والمخازن والدكاكين بما يجعله مزدحماً دائماً بالناس ولا سيما في موسم الحجّ .

وبعد أن يسعى الحاج سبع أشواط يحلق أو يقصر ويتحلل (أي يفك إحرامه) إذا كان محرماً للعمرة فقط ويظل متحللاً إلى يوم التروية وهو اليوم السابق ليوم عرفة حيث يحرم للحج أمّا إذا كان محرماً للحجّ أو للحج والعمرة معاً فيظلّ محرماً لبعد عرفة بغير تحلل .

ثمّ أنّ الحاج يتوجه إلى عرفة وله أن يبيت في منى إذا أراد ويقضي في عرفة اليوم التاسع من ذي الحجة وجزءاً من ليلة عاشرة في الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل والتلبية والصلاة على النبي وآله والإكثار من تلاوة سورة الإخلاص ومن قوله « لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير » ثم عليه أن يكثر من الدعاء والتضرّع إلى الله بقبول حجّه ، وغفران ذنبه ، وعلى الخصوص بعد العصر . ويسنّ الجمع (أي العصر مع الظهر) مع الإمام بعرفة . فإذا أفاض الإمام أو نائبه من عرفة فينفر معه إلى المزدلفة . =

= واعلم أنّ أهل السنة يكفي عندهم الوقوف بعرفة ولو لحظة واحدة من يوم تاسع ذي الحجة وليلة عاشره ولو فاته الوقوف فاته الحج من عامه فيتحلل بعمرة وعليه قضاء الحج في العام القابل ، ولو كان حجّه نفلاً . وأمّا أهل الشيعة فلو فات الحاج منهم الوقوف بعرفة يوم تسعة ذي الحجة وليلة عاشره فإنّه لا يتحلل حتى يقضي حجّه في عام قابل لذلك يبالغون في الاحتياط لوقوفهم فيقفون في اليومين التاسع والعاشر من ذي الحجة ولا ينزلون من عرفة إلاّ بعد قليل من ليل الحادي عشر منه .

وبعد أن ينفر الحاج إلى مزدلفة يجمع فيها حصى الجمار وعددها ٤٩ حصوة ثم يسير إلى منى وهناك يرمي جمرة العقبة بسبع حصوات وهو يقول « بسم الله ، الله أكبر ، رجماً للشيطان وحزبه ، اللهمّ ، تصديقاً بكتابك ، واتّباعاً لسنّة نبيّك وخليلك عليهما الصلاة والسلام » ثمّ يذبح إن كان عليه هدي . ثمّ يحلق أو يقصر وهو يقول « الحمد لله الذي قضى عني نسكي ؛ اللهمّ زدني إيماناً ويقيناً » وبعد هذا يحلّ للحاج كل ما حرّم عليه في الإحرام إلاّ النساء والطيب . وفي اليوم الثاني يرمي الحاج جمرة العقبة بعد الزوال . ثم يرمي الجمرة الثانية فالثالثة بسبع حصوات في كل جمرة . ويفعل مثل هذا في اليوم الثالث . وبعد ذلك ينزل إلى مكة كرّمها الله ويطوف طواف الإفاضة ويسعى (إذا كان عليه سعي) ويكون يومه هذا الثالث عشر من ذي الحجّة وحينئذٍ يتحلل من إحرامه ويحلّ له النساء والطيب فكل ما حرّم عليه في الحج .

أمّا محرّمات الإحرام فهي : لبس المخيط وتغطية الرأس أو إزالة شعره بنتف أو حلق ، فإذا فعل شيئاً من ذلك تعمداً أو سهواً فعليه الفدية بذبح شاة إلاّ إذا كان ما أزيل من شعر الرأس لا يتجاوز الاثنتي عشر شعرة فعليه أن يتصدق بحفنة برّ . ويحرّم عليه أيضاً تقليم أظافره ، وعليه الفدية إن فعل إلاّ إذا كان ظفراً أو ظفرين فعليه أن يتصدّق بمدّ أو مدين من البر . ويحرم عليه الطيب في بدنه أو ثوبه أو فراشه أو أكله أو شربه أو في عطوس أو في دهان ويجب عليه الفدية لو فعل . ويحرم عليه صيد الحيوان أو قتله أو تنفيره كما يحرم عليه قطع حشيش الحرم وشجره وعليه به فدية دم . ويحرم عليه الجماع وبه يفسد الحج .

وإذا فات الحاج شيء من أركان الحجّ أو العمرة أو شروطهما سهواً أو عمداً بطل =

فَسَارَ مِنْ طِيْبَةٍ بِٱلصَّحْبِ مُعْتَمِراً   لِمَكَّـةٍ وَفُـرُوْضُ ٱلْحَـجِّ نَـاوِيْهَـا
وَلَمْ يَـزَلْ طَـاوِيـاً مَعْهَـا ٱلْقِفَـارَ إِلَى   إِنْ أَقْبَلَتْ وَأَنَـاخَتْ فِيْ ضَـوَاحِيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ رَاغِبَاً بِٱلْحَـرْبِ وَهْوَ بِـأَشْـــهُـرِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّتِيْ قَـدْ حُرِّمَتْ فِيْهَـا
وَفِيْ ٱلْحُـدَيْبِيَةِ ٱلْحَـدْبَا ٱسْتَقَـرَّ إِلَى   أَنْ يَعْرِفَ ٱلرَّأْيَ مِنْ كُفَّـارِ أَهْلِيْهَا[1]

= حجّه وعمرته وإن فاته شيء من الواجبات وجب عليه فدية دم لكل واجب تركه ، وذلك بأن يذبح شاة في الحرم فإن عجز عن الذبح صام ثلاثة أيام في الحج من وقت إحرامه إلى يوم النحر ، وسبعة أيام إذا رجع إلى بلده . هذا إذا ترك شيئاً من واجباته قبل يوم الوقفة في عرفات أمّا إن تركه بعد الوقفة فعليه أن يصوم الأيام العشرة بعد عودته إلى وطنه . وإن فاته شيء من السنن أو المندوبات فعليه أن يتصدق فقط .

(١) بعد ارفضاض أمر الأحزاب استقرّ رسول الله بالمسلمين في المدينة المنورة إلى جمادى الأولى « سنة ٦ هـ » حيث سار ﷺ على بني لحيان يطالبهم بأصحاب الرجيع ولما بلغ « غُران » وهو واد بين أمج وعسفان وكان بنو لحيان نازلين فيه وجدهم قد عرفوا نبأه وهربوا من وجهه معتصمين برؤوس الجبال فتركهم وعاد إلى المدينة .

ولم تستقرّ المدينة برسول الله وأصحابه بضع ليال حتى انتهى إليه ﷺ إنّ عيينة بن حصن أغار في خيل من غطفان على لقاح له في الغابة فأرسل سريّة مستعجلة بقيادة سعد بن زيد في طلب غطفان ثمّ تبعها بخيله ورجله واستنقذ بعض اللقاح وهربت غطفان بالباقي وأقام المسلمون بذي قرد حيث جرت مناوشة مع غطفان يوماً وليلةً ثمّ عادوا قافلين إلى المدينة .

وبقي رسول الله في المدينة إلى شعبان (سنة ٦ هـ » حيث خرج يريد بني المصطلق وهم بطن من خزاعة وكان بلغه أنّهم يتحفزون لحربه بزعامة الحارث بن ضرار فلقيهم على ماء لهم يسمى « المريبع » من ناحية قُدَيد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا فانكسرت خزاعة وفاز المسلمون بأموالهم وأسروا أبناءهم ونساءهم وفيهم جويرية بنت الحارث المشار إليه فتزوجها رسول الله وقسم السبايا على المسلمين وعاد إلى المدينة .

وبعد أن لبث رسول الله في المدينة إلى ذي القعدة « سنة ٦ هـ » خرج بالناس =

وَهُمْ لَقَـدْ فَـرِقُـوْا مِنْ فَجْىءِ حَجَّتِـهِ   وَمَـا دَرَوْا أَنَّ حُـبَّ ٱللَّهِ دَاعِـيْـهَـا

=يريد مكة معتمراً لا يـريد حـرباً وسـاق معه الهَـدي وهو مـا يهدى إلى الحـرم من النعم وحرم ﷺ بالعمرة ليأمن الناس من حربه ونزل في موضع يسمى الحُـدَيبية . ولمـا بلغ قريشاً مسيره ﷺ حسبته غازياً محـارباً وتـأهبت للذود عن مكة كـرّمها الله وأرسلت لـه بديلاً بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه إلى الحديبيـة يسألـه عن مقدمـه فقال لهم إني قدمت حاجّاً ولست محارباً فرجعوا إلى قريش بذلك فـأبت أن تصدق القـول وقالت وإن صـحّ أنّ المسلمين قادمـون للحج فـإنّهم لا يدخلون مكـة أبـداً وبعثت إلى المصـطفى رسولاً آخر يسأله عن مقـدمه فـأجابـه بما أجـاب بديـلاً فلما عـاد إلى قريش بجـوابه لم تطمئن نفوسهم وبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش فلما رآه المصطفى عن بعد قال هذا من قوم يتألهون فـابعثوا الهـدي في وجهه حتى يـراه فلما رأى الهـدي يسيـل عليه من عـرض الوادي رجـع إلى قـريش ينبئهم بـأنَّ المسلمين قـادمـون للحج فجبهـوه قائلين إنـك أعرابي لا علم لـك بـالسيـاسـة فغضب الحليس وقـال أعلى هـذا حالفناكم ؟؟ أيصدّ عن البيت من جاءَ معظماً له ؟؟ وتهددهم بالانتقاض عليهم إن منعوا المسلمين عن الحج فطيبت قـريش خاطـره وأرسلت للمصطفى عـروة بن مسعود الثقفي وأمّه سبيعة فقصداه وكلمه مسعود فقال أجئت قومك بأوشاب الناس لتذلّهم ؟ فإنّ قريشـاً قد عاهدت الله أن لا تدخل مكة عنوةً أبداً فتلطف به رسول الله وأكد له أنّه لم يأت مكّة إلّا لقضاء فريضة الحج فعاد الرجل بأمّه إلى قريش يخبرهم بما سمع .

وبعـد انصراف عـروة استدعى المصـطفى عمر بن الخـطاب وأمـره أن يسيـر إلى قريش ويخبرهم بما قدم لأجله فأجابه عمر أنّه يخاف قريشـاً على نفسـه وليس في مكة من بني عدي من يمنعه منهم وقال ولكن أرسل عثمان بن عفان فهو من أميّة وهي الآمرة في مكة اليوم فأرسل المصطفى عثمان بهذه المهمة فلما بلغ مكة لقيه أبان بن سعيـد بن العاص بن أمية وأجاره حتى يبلغ الرسالة فبلغهـا ثم قالـوا له إن شئت أن تـطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله فغضبت قريش لجوابه واحتبسته عنـدها وبلغ المسلمين أنّ عثمـان قد قتـل فلما انتهى الخبـر إلى رسـول الله قـال لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا أصحابه إلى المبـايعة فبـايعوه بيعـة الرضـوان تحت الشجرة على أن لا يفروا ولكن سرعـان ما بلغـه بطلان الإشـاعة وأنّ عثمـان لا يزال سليماً وذلك بـوصول رسول قريش إليه وهو سهيل بن عمرو العامري .   =

= قدم سهيل على رسول الله وأنبأه إصرار قريش على منعه من دخول مكة بأصحابه واتّفق معه على أن يعود أدراجه على شروط هذه خلاصتها : أولاً أن يرجع المسلمون أدراجهم فلا يدخلون مكة في عامهم ولكن يصح لهم أن يقدموا إليها في الحجة التالية أو بعدها على شريطة أن تكون سيوف فرسانهم في القرب . وثانياً أن لا تحدث حرب بين المسلمين وقريش إلى عشر سنين . وثالثاً أنّ من يأتي محمداً ﷺ من قريش من غير إذن وليّه يردّه عليهم ومن يجيء قريشاً من أصحاب محمد لا يردّونه ورابعاً تطلق الحرية للناس في الدخول في عقد محمد أو عقد قريش .

ومما يذكر في هذا العقد أنّ رسول الله استدعى علياً عليهما الصلاة والسلام وطفق يمليه عليه فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فاعترضه سهيل بن عمرو قائلاً لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللّهمّ فقال رسول الله لعلي : اكتب باسمك اللهم فكتب فقال النبي : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فكتب علي ذلك بينما سهيل صاح معترضاً : لو شهدت أنّك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدّك عن البيت ولكن اكتب باسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله فقال رسول الله لعلي وهو يبتسم : امح يا علي كلمة رسول الله فقال علي : ما أنا بالذي يمحوها فقال رسول الله : أرني القرطاس فقدمه له فمحا بيده الشريفة كلمة رسول الله وقال : اكتب يا علي هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . وقال بعد ذلك : أنا والله رسول الله وإن كذبتموني ثمّ مال إلى سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام وقال : لك مثلها تعطيها وأنت مقهور وكانت قولته تلك نبوّة لما جرى بعد ذلك لأمير المؤمنين مع عمرو بن العاص في موقعة صفين على ما سيجيء . وبعد نهاية كتابة العقد وإمضائه سار سهيل إلى مكة وتحفز المصطفى للعودة إلى المدينة .

وغضب المسلمون لخيبتهم من قضاء الحج وكان أشدهم غضباً عمر بن الخطاب فعارض المصطفى بصلحه فجبهه قائلاً « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيمني » ثمّ أنّ المسلمين تحللوا من عمرتهم بنحر الهدي وحلق الرؤوس . وكان هذا الصلح في ظاهره نصر للمشركين ولكنه في الحقيقة كان نصراً للمسلمين لأنّهم بواسطته أمنوا جانب قريش وانصرفوا إلى إذاعة الدعوة ومكاتبة الملوك ورؤوساء العشائر وكانت رسل محمد إليهم تغدو وتروح وهي آمنة . =

بِمَنْ لَـهُ بَعَثَتْ مِنْ رُسْلِهَـا فَـأَتَتْـــهُ وَآنْشَقَتْ وَهْيَ لاَ تُلْقِيـهِ مُؤْذِيْهَـا
وَبَعْـدَ طُـوْلِ جِـدَالٍ قَـامَ قَـائِمُـهُ   قَـدْ أَعْلَنَتْ عَلَنَـاً رَاضِيْ تَصَـافِيْهَـا
بِجَلْسَـةٍ هَـادَنَ آلْهَـادِيْ سُهَيْـلَ فَتَى   قُـرَيْش فِيْهَـا وَأَرْضَى مُسْتَنَـابِيْهَـا
بِـأَنْ يَعُـوْدَ بِـلاَ حَجٍّ لِطِيبَـةَ عَـوْ   دَةً تُـزِيْـلُ شُكُـوْكَ آلْقَـوْمِ تُقْصِيْهَـا
وَإِنْ بَغَى حَجَّـةً فِيْ مُقْبِـلٍ فَلَهُ   ثَـلاَثَ فِيْ مَكَّـةٍ بِـآلنّسْـكِ يَقْضِيْهَـا
وَأَنْ تَجِيءَ جُمُـوْعُ آلْمُسْلِمِيْنَ وَلاَ   سِـلاَحَ مَعْهَـا وَلاَ حَـجٌّ لِشَـاكِيْهَـا
وَأَنْ يَسُوْدَ رِبَى آلْعُرْبِ آلسَّلاَمُ حُؤُوْ   لاً عَشْـرَةً حَيْثُ لاَ حَـرْبٌ تُؤَاذِيْهَـا
وَإِنْ أَتَى أَحْمَـدَاً مِنْ غَيْـرِ إِذْنِ وَلِيِّـــهِ فَتَى مِـنْ قُـرَيْشٍ أَوْ مَـوَالِيْهَـا
أَعَـادَهُ وَقُـرَيْشٌ لاَ تَـرُدُّ لأَحْـــمَدٍ فَتَىً مِنْ بَنِيْ آلإِسْلاَمِ يَـأْتِيْهَا
وَأَنْ يُبَـاحَ لِكُلِّ آلْعُـرْبِ عِقْـدُ قُـرَيْـــشٍ أَوْ مُحَمَّـدَ قَـاصِيْهَـا وَدَانِيْهَا
وَكَـانَ يَكْتُبُ هَـاتِيْـكَ آلشُّـرُوْطَ عَلِـــيٌّ وَآلـرَّسُوْلُ آلْمُفَـدَّى كَانَ يُمْلِيْهَـا
فَقَـالَ : بَسْمِـلْ فَلَمْ يَقْبَـلْ بِبَسْمَلَةٍ   سُهَيْـلُ إِذْ قَـالَ : لاَ أَدْرِيْ مَعَـانِيْهَـا
قَـالَ آلرَّسُـوْلُ : بِبِسْمِ آللَّهِ تَبْدَأُهَـا   فَقَطْ فَـإِنَّ قُـرَيْشَـاً ذَاكَ يُـرْضِيْهَـا
وَآكْتُبْ : فَذَا مِنْ رَسُوْلِ آللَّهِ أَحْمَدَ مَا   عَلَيْـهِ صَـالَحَهَـا صُلْحَـاً يُؤَاتِيْهَـا
نَـادَى سُهَيْلٌ : لَـوَ آنِّيْ لِلرِّسَالَـةِ قَدْ   عَـرَفْتُ مَا كُنْتُ مَـعْ قَوْمِيْ أُنَـاوِيْهَـا
قَالَ آلرَّسُوْلُ: إِذَنْ تَمْحُوْ آلرِّسَالَـةَ يَا   عَلِيُّ قَـالَ: مُحَـالٌ لَسْتُ مَـاحِيْهَـا
إِنِّـيْ أُؤَيِّـدُهَـا حَـتَّـى أَرَى عَـلَنَـاً   كُـلَّ آلْبَرِيَّـةِ قَـدْ دَانَتْ لِهَـادِيْهَـا
فَقَـالَ أَحْمَدُ: نَـاوِلْنِيْ آلْـوَثِيْقَـةَ كَيْ   أَمْحُـوْ فَـإِنِّي ذِيْ آلـدُّنْيَـا أُمَـاشِيْهَـا
وَمِثْلُهَـا سَتُـلاَقِيْ وَقْـعَـةً عَبَسَتْ   لَهَـا آلْـوُجُـوْهُ فَـلاَ تَـأْبَى تَـرَضِّيْهَـا
وَغِيْـرَةُ آلْمُـرْتَضَى لاَحَتْ بِمَـوْقِفِـهِ   أَسْنَى مِنَ آلشَّمْسِ فِيْ أَبْهَى مَجَالِيْهَا

أَمَّا ٱلرَّسُوْلُ فَنَادَى ٱلنَّاسَ قَالَ أَنَا رَسُوْلُ رَبِّي لِأَهْلِ ٱلْأَرْضِ أَهْدِيْهَا
إِنْ كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ فَٱلْجَهَالَةُ عَنْ تَصْدِيْقِ دَعْوَتِيْ ٱلْغَرَّاءِ تُنْئِيْهَا
وَهٰكَذَا كُتِبَتْ تِلْكَ ٱلشُّرُوْطُ وَأَمْـضَاهَا سُهَيْلُ وَطَهَ آضَ مُمْضِيْهَا
وَعَادَ أَصْحَابُ طَهَ لِلْمَدِيْنَةِ فِيْ عَهْدٍ لِنَشْرِ ٱلْهُدَى جَهْرَاً يُهَيِّيْهَا

أمير المؤمنين في غزوة خيبر

دَعَا ٱلرَّسُوْلُ فَلَبَّى ٱلْمُؤْمِنُوْنَ إِلَى تَأْدِيْبِ خَيْبَرَ عَنْ مَاضِيْ تَعَدِّيْهَا(١)
إِذْ مَالأَتْ خِفْيَةً أَعْدَاءَ أَحْمَدَ مِنْ يَهُوْدِ قِنْقَاعَ ثُمَّ مِنْ نَضِيْرِيْهَا

---

(١) قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ فإنّ المسلمين ساءَهم صلح الحديبية على ما في ظاهره من الحطّ من قدرهم لصدّهم عن قضاء فريضة الحجّ وهم قادمون إلى مكة معتمرين ومن الغبن في شروط الهدنة التي كتبت بينهم وبين المشركين لالتزام المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن يعيد لهم من يأتيه من قريش بغير إذن وليّه خلافاً لقريش التي لا تسلّم من يأتيها من المسلمين هارباً من عدل رسول الله . إلاّ أنّ نتيجة هذه المعاهدة كانت في مصلحة الإسلام والمسلمين معاً لأنّها كما سبقت الإشارة تركت رسل رسول الله في أمن فصارت تغدو وتروح بكتبه صلى الله عليه وآله وسلم حيث تريد ولا من يعترض لها . وكان من نتائجها أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما عاد بالمسلمين إلى المدينة المنورة وهو مرتاح البال من عداء قريش انصرف همّه إلى مناجزة عدوّ يقرب المدينة طالما أظهر العداء للمسلمين وأثبت بأقواله وأفعاله أنّه ينتظر أن تدور الدائرة عليهم ليكون أول محاربهم وذلك العدو هو أهل خيبر وهم من اليهود .

وخيبر هذه هي مدينة بنيت باسم رجل من العماليق وقيل إنّ باني المدينة هو أخو يثرب المسمى خيبر أحد أولاد نوح وهذه المدينة تبعد عن المدينة المنورة نحواً من ٩٢ ميلاً وكانت لذلك العهد وافرة العمران فيها مزارع ونخل وكان أهلها من اليهود ولغتهم العربية وسرّ نقمتهم على المسلمين هو انتصارهم لإخوانهم بني النضير الذين كان من أمرهم ما كان . ولذلك لم يستقر المقام برسول الله في طيبة حتى أخذ يتهيأ إلى غزوة=

وَقَالَ : غَزْوَتُنَا لِلَّهِ وَجْهَتُهَا   لاَ لِلْغَنَائِمِ فَلْيَرْجِعْ مُرَجِّيْهَا

= خيبر واستنفر لهذه الغزوة من صحبوه إلى الحديبية من المهاجرين والأنصار فنفروا معه . وجاءه ﷺ المتخلفون يريدون الخروج معه رجاء الغنيمة فجبههم مؤدباً فقال : « لا تخرجوا معي إلاّ راغبين في الجهاد فأمّا الغنيمة فلا » وأمر منادياً ينادي بذلك . وكان خروجه ﷺ لهذه الغزوة في ٢٠ محرم سنة ٧هـ .

وعندما وصل المصطفى ﷺ إلى ضواحي خيبر ضرب عليها الحصار فامتنعت فصبر عليها ثم أقرّ على فتحها فأعطى اللواء إلى أبي بكر وبعثه بالمسلمين لاختراق الأسوار فسار أبو بكر بالمسلمين وما زالوا يقاتلون بياض يومهم فجهدوا ولم يكن فتح وعادوا في المساء إلى المعسكر . وفي صباح اليوم الثاني أرسل المصطفى المسلمين بقيادة عمر بن الخطاب لاختراق أسوار خيبر فساروا وقاتلوا بياض نهارهم ولم يكن فتح وعادوا في المساء أدراجهم إلى المصطفى . وفي اليوم الثالث استدعى المصطفى الحباب بن المنذر وهو من أبطال الأنصار وأعطاه رايته وأرسله بالمسلمين لاختراق هاتيك الأسوار فلم يكن حظه أفضل من حظ أبي بكر وعمر فعاد في المساء مع المسلمين وهم مجهودون ولم يكن فتح . وفي اليوم الرابع دعا المصطفى إليه سعد بن عبادة وهو من شجعان الأنصار وأعطاه رايته وأرسله في هاتيك المهمة مع المسلمين فساروا وحاربوا مستيئسين وعادوا في المساء أدراجهم على غير نتيجةٍ . فلما رأى المصطفى ﷺ أنَّ أسوار خيبر قد امتنعت على المسلمين ولم تفد فيها شجاعة أبو بكر وعمر والحباب وسعد وهم أكبر قوادّه ذكر بطل الإسلام الأكبر ذكرى يحقُّ له عليه صلوات الله أن يتمثل عندها بقول الشاعر :

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهم   وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وقال ﷺ : « لأدفعنَّ الراية إلى رجل يحبُّ الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، كرَّار غير فرَّار » ولا تخال المسلمين جهلوا في مسائهم ذلك الرجل الذي عناه المصطفى .

وفي صباح اليوم الخامس صلّى رسول الله بالمسلمين صلاة الفجر ثمَّ سأل عن عليّ عليهما الصلاة والسلام فقيل له أنّه يشتكي عينيه فقال : ومن يأتني به ؟؟ ولم يكد يلقي هذا السؤال حتى أسرع سلمة بن الأكوع إلى خيمة علي فوجده عليه السلام منطرحاً على =

وَخَيْبَرُ ذَاتُ يُسْرٍ وَٱلرِّيَاضُ حَوَا لَيْهَا وَأَشْجَارُهَا تَمْلَأُ ضَوَاحِيْهَا

= فراشه عاصباً عينيه فأبلغه رغبة المصطفى فقال : « اللّهمّ لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت » ونهض من فراشه وقال « قدني إليه » فأخذ سلمة بيده وسار به إلى المعسكر فلما دخل على المصطفى ﷺ أنبأه بما كان من امتناع أسوار خيبر على أكابر قوّاده وقال : ليس لها إلّاك يا أبا الحسن فقال علي : « ولكني أرمد يا رسول الله فلا أكاد أبصر موضع قدمي » فمدَّ المصطفى يديه الكريمتين وجذب بهما رأس عليّ ووضعه في حجره الشريف وكشف عصابة عينيه تفل بهما من بصاقه الشريف ودلكهما فبرئتا بإذن الله حتى كأن لم يكن فيهما رمد ولا ألم وقال علي إنّه لم يشك بعد ذلك بعينيه طوال حياته .

وبعد أن شفيت عينا أمير المؤمنين عقد له المصطفى لواءه الأبيض وقال له : « امش ولا تلتفت » فسار عليّ يتبعه المسلمون مهلّلين مكبّرين حتى إذا ما خطا بهم بضع خطوات وقف من غير أن يلتفت إلى ورائه وصرخ بأعلى صوته : « يا رسول الله علامَ أقاتل الناس ؟؟ » فأجابه المصطفى « قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إلَه إلّا الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك ، فقد منعوا منك دماءهم ، وأموالهم ، إلّا بحقّها ، وحسابهم على الله تعالى العالم بما تخفي سرائرهم ، أخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم ، تتصدّق بها في سبيل الله ، يا علي : والذي نفسي بيده ، إنّ معك من لا يخذلك ، هذا جبريل عليه السلام عن يمينك ، بيده سيف لو ضرب به الجبال لقطعها ، فاستبشر بالرضوان والجنّة ، يا علي : إنّك سيد العرب وأنا سيد ولد آدم » نقول : بهذه الكلمات الطيبة ودّع المصطفى عليّاً عليهما الصلاة والسلام .

سار الأسد الغالب علي بن أبي طالب لمهمة عجز عنها أبو بكر وعمر والحباب وسعد حتى داخل الناس اليأس من النجاح فانكسرت قلوبهم أو كادت . حتى إذا ما بلغ بجيشه أسوار خيبر ركّز رايته تحت الحصن وأخذ يعُدُّ جيشه للهجوم فأطلَّ عليه بعض حماة الحصن وناداه أحدهم بصوت جهوري فقال : من أنت ؟ قال : أنا من تعلم عليّ بن أبي طالب . صاح المنادي : علوتم وحقّ ما أنزل على موسى . ولم يكد الصائح يتمّ كلامه إلّا ونزلت طائفة من شجعان الخيبريين فصمد لها المسلمون واشتبك القتال فما زال أمير المؤمنين عليه السلام يدير دفة الحرب بمهارته وشجاعته حتى انكشف =

وَأَهْلُهَـا حَسِبُوْا أَنَّ ٱلْحُصُـوْنَ وَإِنْ   هُمْ يَـظْلِمُـوْنَ لَتَحْمِيْهِمْ وَتَحْمِيْهَـا

= الأعداء وتباعدوا عنه . فهمّ عليّ باتباعهم ودخـول الحصن وإذا بشجاع من خيبـر يدعى الحـارث تصدّى لسيـدنا علي ودعـاه للبراز فلبّـاه واشتبكا ولم يكن إلاّ القليـل حتى وقع الحـارث قتيلاً فلمـا رأى الخيبريـون المنكشفون مـا كان من أمـر أشجع شجعـانهم ولّوا هاربين نحو حصنهم الحصين وفي أثناء ذلك أقبل رجل مفتـول الساعـدين وانقضّ على أمير المؤمنين وهو مشهر سيفه وينادي أنا مرحب أخو الحـارث أطالب بـدمه وفـاجأ أميـر المؤمنين بضربة سيف تلقاها عليه السلام بترسه فطرحتها من يـده فمال علي وإذا بجـانبه بـاب ملقى بجـانب الحصن لا يقوى على حمله السبعـة أنفار فتنـاوله بيـده القويـة وترّس بـه فارتجز مرحب فقال :

قـد عـلمت خيبـر أنّـي مـرحب   شـاكي السـلاح بـطل مجـرَّب

وارتجز أمير المؤمنين فقال :

أنـا الـذي سمتني أُمي حيـدره   ضـرغـامُ آجـامٍ وليث قسـورة

وما زال هذان البطلان يتبارزان بل الأسدان يتصارعان وعلي متتـرس بذلـك الباب ومـرحب لابس الدرعين ومتقلد السيفين ومعتم العمـامتين من فوقهمـا مغفر تحتـه حجر متعوب قدر البيضة حتى تمكن الأسد الهاشمي من مرحب الخيبري فضربه ضربـة سيف على أمّ رأسه تلقاها مرحب بترسه فقدَّت الترس وشقّت المغفرة وكسرت الحجـر ومزقت العمامتين وفلقت هامته حتى أخذ ذو الفقار بأضـراسه فسقط ذلـك البطل الخيبـري على الأرض صريعاً يختبط بدمه وكان لقتله ضجة فرح في صفوف المسلمين وضجيـج خوف في صفـوف الخيبريين فهمّ أميـر المؤمنين باختـراق الحصن وإذا ببطل من خيبـر لا يقل عن صاحبه شجاعةً يدعى ياسر وهو أخو مرحب والحارث الذين بخع بهما أمير المؤمنين قد انقضّ عليه وهو ينادي : أنا ياسر أخو مرحب والحارث أطلب بثارهما وكان يرتجز :

قـد عـلمت خيبـر أنّي يـاسـر   شـاكي السـلاح بـطل مغـاور

فتلقـاه أمير المؤمنين عليه السلام بضـربة سيف أعجلت بـروحه إلى الهـاويـة . وحينئـذٍ خارت عزائم الخيبريين وطلبوا منـه الأمان والصلح فصـالحهم على أن يبقوا في أرضهم شرطاً أن يدفعوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصف غلالها وأن يكونوا تحت حكم المسلمين إلاّ إذا شاء المصطفى إجلاءهم عن بلادهم وعاد منصوراً فـائزاً إلى المصـطفى فحمد الله على =

لِـذَاكَ شَـادُوْا بِـإِسْـرَافٍ حُصُـوْنَهُمْ　　فَـطَاوَلَتْ مَـطْلِعَ ٱلشِّعْـرَى مَبَـانِيْهَـا
عَلَى حُصُـوْنِهِمْ كَـانَ ٱتِّـكَـالُهُـمْ　　بِخَفْـرِهِمْ ذِمَّـةَ ٱلْإِسْـلَامِ تَجْـرِيْهَـا
وَمُـذْ رَأَوْا قَـوْمَ طَـهَ أَقْبَلَتْ فَـفَلُوْا　　أَبْـوَابَهَـا وَتَخَبَّـوْا فِيْ مَخَـابِيْـهَـا

=هذا النصر العظيم الذي أوتيه على يد أخيه ووصيّه عليه السلام .

ولقد عظمت وقفة أمير المؤمنين تلك في خيبر وقتله مرحب الذي كان الناس يضربون بشجاعته المثل وصار المسلمون يتمثلون بتلك الضربة التي ضربه بها على كثرة ما كان محتاطاً لنفسه لاتّقاء مثلها وما زال الناس يتمثّلون بضربة سيف أمير المؤمنين هذه خلفاً عن سلف حتى انتهى إلى شعرائهم فقال أحدهم :

وشـادنٍ أبـصـرتـه مـقـبـلاً　　قلت من وجـدي بـه مـرحبـا
قـدَّ فـؤادي بـالـهـوى قـدُّهُ　　قـدَّ عليٍ في الـوغى مـرحبـا

وعلى ذلك هذه الحادثة أقول إنّي سمعتها لأول مرة من فم عظمة مولاي معز السلطنة السردار أرفع الشيخ خزعل خان سردار عربستان الذي يزين مجالسه الملوكية دائماً بذكرى نوادر أمير المؤمنين وآثاره العظيمة عليه السلام واستشهد عظمته بالبيتين الآنفي الذكر فقلت مولاي لقد خطرت لي أبيات ارتجلتها على ذكر هذه الموقعة قال قل فقلت :

رمـانـي الحبُّ بين يـدي فتـاةٍ　　تكبـرهـا عـلى قـدر انكسـاري
فأريـدُ وصـالهـا وتـريـدُ هجـري　　وذنبي عنـدهـا حسن اصـطبـاري
فلمـا ضـاق صـدري من جفـاهـا　　أردت أن أعـرّفـهـا اقـتـداري
فقلت لهـا احذري فتكي فقـالت :　　ومـني يـا أخـا الـهـيجـا حـذارِ
فـإن تـكُ « مـرحباً » لا تنسَ عيني　　عليـك تسـلُّ سـلاً « ذا الفقـار »
فـهـبـت لـقـاءَهـا ذكّـرتـنـي　　بمصـرع مـرحب وسـترت عـاري
بـبـسـمـة طـالـبٍ عـفـواً وراجٍ　　رضـىً قـد قـابلتهـا بـالـنـفـار
وولّـت وهـي قـائـلـةٌ : بعـيـد　　عـلى من لـيس يكـرمـني مـزاري

فتبسم عظمة مولاي روحي فداه وقال مازحاً « أحسنت وربِّ الكعبة ، ولكن لا تعامل بمثل هذه الشدة الحسان ، لتأمن الذلّ والهوان ، يا صاحب العمران » .

وَطَالَ حصْرُ رَسُوْلِ ٱللَّهِ بَلْدَتَهُمْ   فَلَمْ تُسَلِّمْ وَلَمْ يَخْنَعْ أَهَالِيْهَا
فَقَالَ : نَفْتَحُهَا قَهْراً بِحَوْلِكَ يَا   رَبَّاهُ مَهْمَا تَمَادَتْ فِيْ تَعَصِّيْهَا
فِيْ ٱلْحَالِ نَادَى أَبَا بَكْرٍ وَسَلَّمَهُ ٱلْـ   ـلِّوَاءَ قَالَ لَهُ : فَٱقْصُدْ حَوَامِيْهَا
فَسَارَ وَٱلْجَمْعُ مِنْ حَوْلَيْهِ مُطَّلِبَاً   فَتْحَاً وَهِمَّتُهُ لَمْ يَنْبُ مَاضِيْهَا
وَلَمْ يُوَفَّقْ إِلَى فَتْحٍ وَعَادَ إِلَى   طَـهَ وَبُغْيَتُهُ قَدْ خَابَ بَاغِيْهَا
فَأَوْفَدَ ٱلْمُصْطَفَى مِنْ بَعْدِهِ عُمَرَاً   وَقَالَ حَاجَتُنَا لَا شَكَّ تَقْضِيْهَا
فَسَارَ فِيْهَا أَبُوْ حَفْصٍ عَلَى عَجَلٍ   وَٱرْتَدَّ عَنْهَا وَلَمْ يَبْلغْ صَيَاصِيْهَا
فَأَرْسَلَ ٱلْمُصْطَفَى ٱلْحَبَّابَ يَحْسَبُهُ   لِذِيْ ٱلْمُهِمَّةِ أَهْلاً أَنْ يُوَفِّيْهَا
فَسَارَ فِيْ غَدِهِ ثُمَّ ٱنْثَنَى يَؤُسَاً   مِنْ نَصْرَةٍ رَامَ بِٱلْأَرْوَاحِ يَشْرِيْهَا
كَذَاكَ أَرْسَلَ سَعْدَاً تَحْتَ رَايَتِهِ   فَمَا عَلَى خَيْبَرٍ قَدْ كَانَ مُرْبِيْهَا
فَٱسْتَاءَ طَهَ لِحَمْلَاتٍ لَهُ فُشِلَتْ   عَلَى ٱلتَّوَالِيْ وَلَمْ يَنْجَحْ تَتَالِيْهَا
وَقَالَ : إِنِّيْ لَأُعْطِيْ رَايَتِيْ بَطَلاً   بِٱلنَّصْرِ فَوْقَ رُبَى ٱلْأَعْدَاءِ يُعْلِيْهَا
فَتَىً أَحَبَّ إِلَهَ ٱلْعَرْشِ عَنْ وَلَهٍ   وَقَدْ تَدَلَّهَ بِي تَٱللَّهِ تَدْلِيْهَا
يَكُرُّ كَرَّاً وَلَا يَرْضَى ٱلْفِرَارَ وَيَلْـ   ـقَى ٱلْأُسْدَ فِيْ غَابِهَا تَأْوِيْ مَآوِيْهَا
عَلَى يَدَيْهِ إِلَهُ ٱلْعَرْشِ يَفْتَحُ لِيْ   هٰذِيْ ٱلْحُصُوْنَ وَإِنْ عَزَّتْ بِحَامِيْهَا
وَفِيْ ٱلْغَدَاةِ دَعَا طَهَ ٱلْعَلِيَّ إِلَى   مُهِمَّةٍ هُوَ بِسْمِ ٱللَّهِ قَاضِيْهَا
فَقِيْلَ: إِنَّ عَلِيَّاً يَشْتَكِيْ رَمَدَ ٱلْـ   ـعَيْنِ ٱلَّتِيْ رُؤْيَةُ ٱلْأَنْوَارِ تُؤْذِيْهَا
حَتَّى مَسَالِكُهُ يَخْشَى ٱلْعِثَارَ إِذَا   مَا سَارَ فِيْهَا فَلَا تُلْقِيْهِ يَطْوِيْهَا
فَقَالَ طَهَ : وَمَنْ يَأْتِيْ بِهِ وَإِذَا   «بِسَلْمَةٍ» رَغْبَةُ ٱلْمَهْدِيِّ يُمْضِيْهَا
وَجَدَّ يَطْلِبُ مَوْلَانَا أَبَا حَسَنٍ   مِنْ وَسْطِ خَيْمَتِهِ إِذْ كَانَ لَاجِيْهَا

فَأَظْهَرَ ٱلْمُرْتَضَى أَوْفَى طَوَاعِيَةٍ   لِرُغْبَةٍ لَمْ يَكُنْ يَوْمَاً يُعَاصِيْهَا

وَقَالَ : إِنْ يَمْنَعِ ٱللَّهُ ٱلْهِبَاتِ فَلَا   مُعْطٍ وَلَا مَانِعٌ إِنْ كَانَ مُعْطِيْهَا

فَقَادَهُ «سَلْمَةٌ» وَهْوَ ٱلْمُعَصِّبُ عَيْـ   ـنَيْهِ وَخَطْوَتُهُ رَيْثٌ تَخَطِّيْهَا

وَإِذْ رَآهُ رَسُوْلُ ٱللَّهِ أَمْسَكَهُ   وَقَالَ : ذَا مُبْلِغِيْ رَغْبَى أُرَجِّيْهَا

وَقَالَ : خَيْبَرُ فِيْ أَسْوَارِهَا ٱمْتَنَعَتْ   وَأَنْتَ قَاهِرُهَا حَتْمَاً وَخَازِيْهَا

فَسِرْ عَلَيْهَا وَأَنْتَ ٱلْيَوْمَ فَاتِحُهَا   وَبِٱلْمَذَلَّةِ وَٱلْإِهْوَانِ مَانِيْهَا

قَالَ ٱلْعَلِيُّ : وَلٰكِنْ مِنْ أَذَى رَمَدِيْ   أَشْكُوْ وَعَيْنِي قَدْ سَالَتْ مَآقِيْهَا

فَقَالَ أَحْمَدُ : لَا تَجْزَعْ فَرَمْدَتُكَ ٱلْـ   ـعَضْلَاءُ إِنِّيْ بِإِذْنِ ٱللَّهِ أُبْرِيْهَا

وَرَاحَ مُسْتَقْبِلاً رَأْسَ ٱلْعَلِيِّ عَلَى ٱلْـ   ـحِجْرِ ٱلشَّرِيْفِ بِأَلْطَافٍ يُوَالِيْهَا

ثُمَّ جَلَا بِبَنَانِ ٱللُّطْفِ عَصْبَةَ عَيْـ   ـنَيْهِ وَرَمْدَتُهُ أَمْسَى يُدَاوِيْهَا

وَبِٱلْبُصَاقِ ٱنْثَنَى يَجْلُوْ ٱلْعَمَاسَةَ عَنْـ   ـهُمَا فَزَالَتْ وَكَانَ ٱلْبُرْءُ تَالِيْهَا

وَبَعْدَ ذَا مَا شَكَا مِنْ رَمْدَةٍ دَهَمَتْ   عَيْنَيْهِ كَلَّا وَلَمْ يَعْرِفْ تَأَذِّيْهَا

وَقَالَ طَهَ : فَسِرْ لَا تَلْتَفِتْ أَبَدَاً   حَتَّى تُدَوِّخَ غَاوِيْهَا وَعَاتِيْهَا

وَعَنْ يَمِيْنِكَ جِبْرِيْلٌ وَفِيْ يَدِهِ   سَيْفٌ إِذَا ضَرَبَ ٱلْأَجْبَالَ يَفْرِيْهَا

وَمَنْ بِيُمْنَاهُ نَفْسِيْ عَوْنُ غَزْوَتِكَ ٱلْـ   ـغَرَّا بِنُصْرَتِهِ ٱلْعَلْيَا يُوَشِّيْهَا

أَبْشِرْ بِرِضْوَانِ رَبِّيْ أَنْتَ كَاسِبُهُ   وَبِٱلْجِنَانِ ٱلَّتِيْ لَا شَكَّ تَثْوِيْهَا

وَأَنْتَ لِلْعُرْبِ مَوْلَى مُنْجِدٌ وَأَنَا   مَوْلَى بَنِيْ آدمٍ طُرَّاً وَمُهْدِيْهَا

فَسَارَ حَيْدَرَةٌ سَيْرَ ٱلْهِزَبْرِ إِلَى   مَلْقَى ٱلْفَرَائِسِ بِٱلرَّغْبَى يُمَنِّيْهَا

وَبَعْدَ بِضْعِ خُطَىً نَادَى ٱلرَّسُوْلَ : عَلَى   مَاذَا أُحَارِبُهَا أَوْ مَا أُقَاضِيْهَا

فَقَالَ : قَاتِلْ ذَوِيْهَا أَوْ تَصِيْخُ إِلَى ٱلْـ   ـشَّهَادَتَيْنِ وَتَرْضَى أَمْرَ بَارِيْهَا

لَـكَ الـظَّوَاهِـرُ تُبْـدِيْهَـا فَتَقْبَلُهَـا وَلِلْمُهَيْمِنِ مَـا تُخْـفِي خَـوَافِـيْهَـا

أَبْلِغْ جَمَـاعَتَهَـا طُـرّاً فَـرَائِضَنَـا وَأَفْـرِضْ عَلَيْهَا جَمِيْعَـاً أَنْ تُؤَدِّيْهَـا

فَـإِنْ أَجَابَتْـكَ فَـاعْلَمْ أَنَّهَـا حَقَنَتْ دِمَـاءَهَـا وَنَجَتْ مَـعْ مَـا بِـأَيْـدِيْهَـا

وَإِنْ بِـكَ اللَّهُ آتَى هَـدْيَـهُ رَجُـلاً خَيْـرٌ مِنَ النِّعَمِ الْكَثْرَى تُـزَكِّيْهَـا

كَـذَا الْعَلِيُّ سَعَى وَالنَّـاسُ تَتْبَعُـهُ إِلَى الْحُصُـوْنِ الَّتِيْ أَعْيَتْ مُلاَقِيْهَـا

ثُـمَّ تَـسَـارَعَ فِـيْ إِرْكَـازِ رَايَـتِـهِ بِقُـرْبِهَـا عِنْـدَ مَـا أَمْسَى مُـدَانِيْهَـا

وَصَـاحَ: هَلْ مِنْكُمُ يَـا آلَ خَيْبَرَ مَنْ يَبْغِي مُبَـارَزَةً قَـدْ جِئْتُ دَاعِيْـهَـا

فَصَاحَ صَائِحُهُمْ: مَنْ أَنْتَ قَالَ: أَنَا عَلِيٌّ نَـادَى مَغَـازِيْكُمْ بِعَـالِيْـهَـا

ثُمَّ الْحُمَـاةُ إِلَى لُقْيَـاهُ قَـدْ خَـرَجَتْ وَالْمُسْلِمُـوْنَ تَنَـائَـوْا عَنْ مَرَامِيْهَـا

أَمَّـا الْعَلِيُّ فَلَمْ يَجْـزَعْ لِمَـوْقِفِـهِ وَلَمْ يَخَفْ وَهْـوَ فَـرْدٌ مِنْ تَلَقِّيْـهَـا

فَجَاءَهُ الْحَارِثُ الصِّنْدِيْدُ وَهْـوَ بِخَيْـبَرَ الشُّجَاعُ الَّـذِيْ يَلْقَى أَعَـادِيْهَـا

يَـبْغِـيْ عَلَى جَـهْلَةٍ مِـنْـهُ مُـبَـارَزَةً تَـاللَّهِ مَا عَـاقِلٌ فِيْ النَّاسِ يَبْغِيْهَا

فَصَاوَلَ الْحَارِثَ الْغَمْرَ الَّذِيْ بَطَشَتْ بِـهِ يَـمِيْـنُ عَلِيٍّ وَهْـوَ يُـهْـوِيْهَـا

وَإِذْ رَأَى الْخَيْبَـرِيُّـوْنَ الْقَتِيْـلَ لَـوَوْا وُجُوهَهُمْ وَاصْفِرَارُ الْمَوْتِ غَاشِيْهَا

وَأَسْـرَعُـوْا فَـرَقَـاً يَـأْوُوْنَ حِصْنَهُمُ لِهَلْكَـةٍ فَـاجَـأَتْ رَامُـوْا تَـوَقِّيْهَـا

ثُمَّ انْبَـرَى مَـرْحَبُ يَبْغِي مُـبَـارَزَةً لِأَخْـذِ ثَـأْرِ أَخِيْـهِ الْمُبْتَلَى فِيْـهَـا

وَفَـاجَأَ الْمُـرْتَضَى فَجْئَاً بِضَـرْبَةِ سَيْـفٍ طَيَّـرَتْ تِرْسَـهُ يَا وَيْـلَ مُلْقِيْهَـا

وَكَـانَ فِيْ قُـرْبِـهِ بَـابٌ إِذَا طَلَبَتْ حِمْـلاَنَـهُ السَّبْعَـةُ الْأَنْفَارُ يُعْيِيْهَـا

فَـرَامَـهُ الْمُـرْتَضَـى تِـرْسَـاً وَرَدَّ بِـهِ عَنْ نَفْسِـهِ وَإِلَـهُ الْعَـرْشِ وَاقِيْهَـا

وَكَـرَّ كَـرَّاً عَلَى الْعَـادِيْ وَأَرْسَـلَهُ لِلنَّـارِ فَهْـوَ وَحَقِّ اللَّهِ صَـالِيْهَـا

وَجَاءَهُ يَاسِرُ لِلثَّأْرِ بَعْدَهُمَا فَكَانَ إِثْرَهُمَا فِي ٱلنَّارِ يَأْوِيْهَا
وَبَعْدَ ذَا فُتِحَتْ أَسْوَارُ خَيْبَرَ فَتْحاً بِٱلْعَلِيِّ وَقَدْ دُكَّتْ رَوَاسِيْهَا
وَرَدَّدَ ٱلْمُصْطَفَى شُكْرَ ٱلْعَلِيِّ وَلَا قَتْهُ جَمَاعَتُهُ وَٱلْحَمْدُ فِي فِيْهَا

أمير المؤمنين وأبو سفيان

سِرْعَانَ مَا ٱنْتَشَرَتْ فِي ٱلْعُرْبِ دَعْوَةُ أَحْمَدَ ٱلَّتِيْ كَانَ بِٱلْإِخْلَاصِ دَاعِيْهَا[١]
فَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا مَرَّتْ ثَمَانِيَةُ ٱلْحُؤُوْلِ بِٱلْهُجْرَةِ ٱلْمَغْبُوطُ سَارِيْهَا

---

(١) لما حال الحول على عمرة الحديبية المتقدمة الذكر خرج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه الذين صدّوا معه في العام الماضي ليقضوا تلك العمرة التي فاتتهم حسب المعاهدة التي كتبت وقتئذٍ فبلغ بمن معه الحديبية في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة ومنها دخلوا مكّة وإذ أرادوا الطواف حول الكعبة كرّمها الله خرج منها المكّيون وقضى المصطفى والمسلمون طوافهم وعمرتهم وأقاموا ثلاثاً في مكة وقفلوا راجعين إلى المدينة في ذي الحجة من تلك السنة ولم يعرض لهم حادث يذكر غير أنّ قريشاً كانت تحسب أنّ محمداً وأصحابه في جهد وخوار عزيمة فدهشوا عندما رأوهم أشداء أقوياء العضل تتدفق مياه الصحة من وجوههم فكان ذلك على غير ما أملوا ورجوا .

وسبقت الإشارة أن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن صالح قريشاً في الحديبية الصلح الذي عرفناه تفرغ إلى مراسلة الملوك والأمراء ليدعوهم إلى الإسلام وكان في جملة من راسله هرقل ملك الروم وقد بلغه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ هرقل هذا قدم أورشليم « سنة ٦٢٩ مسيحية » ليشكر الله الذي نصره على الفرس واستخلاصه منهم الخشبة المقدسة التي يزعمون أنّ سيدنا عيسى عليه السلام صلب عليها . وكان رسول المصطفى إلى هرقل هو الحارث بن عمير الأزدي فبينما هو في طريقه إلى هرقل تصدّى له شرحبيل بن عمرو الغساني وقتله فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اغتمّ وجهّز سرية للإقتصاص منه وكان عددها ثلاثة آلاف مقاتل وسلّم قيادتها إلى زيد بن حارثة وقال للجيش فإن قتل فرئيسكم جعفر بن أبي طالب فإن قتل فرئيسكم عبد الله بن رواحة فخرجوا في جمادى الأولى سنة ٨ هجرية فلمّا نزلوا معان بلغهم أنّ هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في جيش كثيف =

أَنَّ ٱلأُلَى هَـرَبُـوْا مِنْ مَكَّـةٍ فِـرَقَـاً   مِنْ مُشْـرِكِيْهَا لَقَـدْ أَمْسَـوْا مُخِيْفِيْهَـا

=وانضمّ إليهم من عرب غسان في الشام عدد كبير فلم يرهبهم هذا ومضوا حسب أمر المصطفى ﷺ بعد أن أقاموا ليلتين في معان فلما بلغوا تخوم بلقاء لقيهم جيش الروم عند قرية تسمى « مشارف » فانحاز المسلمون إلى قرية تسمى « مؤتة » ثم التقى الجمعان فاقتتلا ولم تكن بينهما نسبة لقلة المسلمين وكثرة جيش الروم فقتل زيد بن حارثة فجعفر بن أبي طالب فعبد الله بن رواحة وحينئذٍ أصبح المسلمون بلا أمير فأمّروا عليهم بانتخابهم « خالد بن الوليد » ومن هذه الموقعة بدأت تظهر مواهب هذا القائد العربي العظيم إذ أخذ يحارب الروم وهو يتقهقر بجيشه بانتظام فتهيب الروم اللحاق به مخافة أن يلقي بهم في الصحراء فلم يتبعوه وهكذا أنقذ السرية من الخطر الذي كان محدقاً بها ولم يتجاوز عدد قتلى المسلمين الاثني عشر شخصاً وعاد بها إلى المدينة المنورة .

وكان من قواعد عهد الحديبية إباحة انضمام قبائل العرب لقريش أو لمحمد فدخل بنو بكر في عهد قريش ودخلت خزاعة في عهد المصطفى ﷺ وكان بين هاتين القبيلتين دماء من عهد الجاهلية فحجز بينهما الإسلام لاشتغال الناس به عمّا سواه . وحدث أنّ شخصاً من بني نفاثة إحدى أفخاذ بكر طفق يتغنى بهجاء رسول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجّه فثار الشرُّ بين الحيين لما كان بينهما من العداوة القديمة فطلب بنو نفاثة من شجعان قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ففعلوا وفاجأت بكر وبعض رجال قريش خزاعة ليلاً وهم على ماء لهم يقال له الوثير فقتلوا منهم ٢٠ أو ٢٣ رجلاً . واختلف الرواة في معاونة قريش لبكر في هذه الموقعة فقال بعضهم إنّ الذين عاونوا بكراً من القرشيين لم يشاوروا سيد قريش أبا سفيان وقال بعضهم بل شاوروه فأبى عليهم المعاونة فأتوها خفيةً عنه على ظنّ أنّ رسول الله سوف لا يعلم بها . ولكن الذين عاونوا بكر من قريش ندموا على فعلتهم وخافوا سوء مغبتها بعد إتيانها لأنّهم صاروا يدركون أنّ المصطفى ﷺ أصبح ذا حول وطول وأوفدوا زعيمهم الحارث بن هشام إلى أبي سفيان فأخبروه بما كان فقال أبو سفيان « هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه وأنّه لشرّ والله ليغزونا محمد » وأسرع فاجتمع بأشراف قريش وذاكرهم في الأمر فلم يكن منهم إلاّ المقدر سوء العاقبة من نكث العهد مع المصطفى وقرَّ رأيهم على أن يسير أبو سفيان نفسه إلى المدينة ليستعطف محمداً =

=ويعتذر منه عمّا أخطأت قريش ويجدّد العهد وهكذا سار أبو سفيان إلى المدينة ولم يصحب غير عبده .

أمّا رسول الله ﷺ فكان ليلة واقعة بكر وخزاعة بائتاً عند عائشة وقد حدّثت هذه فقالت : إنّ رسول الله قال لي في صباحها حدث في خزاعة حدث فقلت : يا رسول الله أترى قريشاً يجترئون على نقض العهد الذي بينك وبينهم فقال ينقضون العهد لأمر يريده الله فقلت ألخير أم لشرّ ؟؟ قال : لخير . وما هي إلاّ أيام حتى جاءَ وفد خزاعة يشكو إلى رسول الله اعتداء بكر عليهم بمعاونة قريش فدخلوا عليه وهو ﷺ في مجلسه في المدينة والناس حوله وأنشد زعيمهم عمرو بن سالم يقول :

يا ربّ إنّي ناشدٌ محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيّتونا بالغدير هجّدا وقتلونا ركعاً وسجّدا

فتلقاهم المصطفى بالترحاب وقال ﷺ : « نُصرتَ يا عمرو بن سالم » ودمعت عيناه ثمَّ قال : « لا نُصرتُ إن لم أنصر بني كعب مما أنصر به نفسي وأهل بيتي » ثم مرَّت به سحابة في السماء وأرعدت فقال : « إنّ هذا السحاب يستهل بنصر بني كعب » ثم عكف على وفد خزاعة وكانوا أربعين فارساً فتلطف بهم ووعدهم بالنصرة وأوصاهم بالكتمان وأعادهم إلى منازلهم . .

ثمَّ أنّ المصطفى ﷺ أنبأ أصحابه وأنصاره فقال : « كأنّكم بأبي سفيان قد جاءَكم ليشدّ العقد ويزيد في المدة وهو راجع بسخطه » وبالفعل لم تمض بضعة أيام حتى أقبل أبو سفيان على المدينة المنورة فقصد رسول الله في مسجده وقال : « لقد كنت غائباً في صلح الحديبية فامدد العهد وزدنا في المدة » فأجابه ﷺ : « ألذلك جئت يا أبا سفيان ؟ » قال : « نعم » فقال المصطفى ﷺ : « هل كان فيكم من حدث ؟؟ » قال أبو سفيان : « معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغيّر ولا نبدّل » فأجابه المصطفى : « ونحن على مدتنا وصلحنا » فأعاد أبو سفيان التماسه وكرّره محاولاً أن يستدرج رسول الله إلى غير ما قال بغية الاعتذار له والتفاهم معه إذا كان له علم بواقعة بكر وخزاعة فلم يتوفق إلى جواب شافٍ ولم يندّ عنه أنّ رسول الله في نفسه شيء من قريش فتركه وانصرف وهو وجل يطلب لنفسه فرجاً من المأزق الذي كانت أمّته فيه . =

= ورأى أبـو سفيـان بعـد خروجـه من المسجـد النبـوي على غيـر نتيجـة مـع محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يوسط لديه المقربين من أصحابه فقصد أبا بكر في بيتـه والتمس منه أن يخاطب المصطفى في تجديد العقـد وتحديـد المدة فقـال أبو بكـر : « إنّ جواري في جوار رسول الله والله لو وجدت الذرَّ تحاربكم لأعنتهـا عليكم » فعرف من هـذا الجواب شيئاً مما في أنفس المسلمين نحو قريش فاشتدّ قلقه وتركـه وقصد عمـر بن الخطاب في منزله وعرض عليه الوساطـة لدى محمـد قال عمـر : « أأنا أشفـع لكم إلى رسول الله ؟ فوالله ما كـان من حلنا جـديداً أخلقـه الله وما كـان مقطوعـاً فلا وصله الله » فغضب أبـو سفيان وقال « جزيتَ من ذي رحمٍ شراً يـا أبا حفص » وانصـرف وهو وجـل وأسرع إلى عثمان بن عفان فلما دخل عليه في منزلـه قال : « ليس في القـوم أقرب بي رحمـاً منك (لأنّ كـلاهما من أميـة كما تعلم) فـزد في المدة وجـدّد العقد فـإنّ صاحبـك (ويريـد رسول الله) لا يردّ طلبك أبداً » فقـال عثمان : « إنّ جـواري في جوار رسـول الله » ولم يزد . فخرج أبو سفيان وهو في غاية اليأس وبينما هو في أسواق المدينة ذكر علياً وما لـه من الدلالة على رسول الله فقال إنّي لمسرع إليه يعيننا لدى محمد .

وبينما سيدنا علي في بيته وبين يديه سيدنا الحسن يـداعبه وبـالقرب منـه سيدتنـا فاطمة وعلى حجرها سيدنا الحسين تناغيه وإذا بأبي سفيان داخـل عليهم فرحّب بـه أمير المؤمنين عليه السلام وقال اجلس فجلس أبو سفيان وقال : « يا عليّ إنّك أمسُّ القوم بي رحماً وإنّي قد جئت في حاجة فلا أرجعنَّ كما جئت خائبـاً » فقال علي : « ومـا هي حاجتـك التي قد جئت بها ؟؟ » قال أبو سفيان « أن تشفع بي لدى محمد فيجدد العقد ويزيد في المدة » فقال علي عليه السلام : « ويحك يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله على أمر فلا نستطيع أن نكلمـه فيـه » فـاصفـرَّ وجـه أبي سفيـان وجـلًا ويـأسـاً والتفت إلى سيـدتنـا فـاطمـة الزهراء عليها السلام بذلة وانكسار وقال : « يـا ابنة محمـد أجيري بين النـاس » فقالت : « أنـا امرأة إنّما ذاك إلى رسول الله » فلما رأى أبو سفيان من سيدتنا فاطمة هذا الردَّ مـع علمه أنّ المصطفى لا يردُّ لهـا التماساً سقط في يده وأطـرق إلى الأرض واجماً فنبّهـه صوت سيدنا الحسن وهو يخاطب أباه فعاد إلى سيدتنا فـاطمة وقـال : « هل لـك يا فـاطمة أن تأمري ابنـك هذا أن يجيـر بين الناس فيكـون سيد العـرب إلى آخر الـدهر ؟ » فـنظرت سيدتنا فاطمة إلى سيـدنا الحسن بمـلء عينيها وتبسمت وقـالت : « والله ما يبلغ بـولدي =

وَبَيْنَمَا شِرْعَةُ ٱلْإِسْلَامِ بَالِغَةٌ بِحَوْلِ رَبِّكَ مَا يُرْضِي مُرِيدِيْهَا
كَذَاكَ أَعْلَامُهَا ٱلْعَلْيَا قَدِ ٱنْتَشَرَتْ فَوْقَ ٱلرُّؤُوْسِ وَهَابَتْهَا أَعَادِيْهَا
وَبَيْنَمَا ٱلنَّاسُ تَخْشَى أَنْ تُغَاضِبَ أَهْـلِيْهَا وَتَسْعَى إِلَى مُرْضَاةِ هَادِيْهَا
إِذَا بِأَصْحَابِنَا فِيْ مَكَّةٍ نَكَثَتْ عُهُوْدَهَا وَتَغَاضَتْ عَنْ تَأَلِّيْهَا
نَسَتْ فَمَا ذَكَرَتْ عَهْدَ ٱلْحُدَيْبِيَةِ ٱلْـمَشْهُوْرِ أَوْ قَدْ تَنَاسَتْ عَهْدَهَا تِيْهَا
وَنَاصَرَتْ بَكْرَ فِيْ حَرْبِ ٱلْخَزَاعَةِ لَمْ تَرْهَبْ بِفَعْلَتِهَا طَهَ مُوَالِيْهَا
وَٱلْوَحْيُ أَبْلَغَ طَهَ مَا خَزَاعَةُ فِيْـهِ مِنْ أَذَى صَاحَ أَلْقَى ٱلْيَوْمَ مُؤْذِيْهَا
ثُمَّتْ أَتَتْهُ بِشَكْوَاهَا خَزَاعَةُ تَرْجُوْ عَوْنَهُ وَهْوَ أَسْمَى مَنْ يُشَكِّيْهَا
فَطَيَّبَ ٱلْمُصْطَفَى لِطْفاً خَوَاطِرَهَا وَرَدَّهَا وَهْوَ بِٱلْكِتْمَانِ يُوْصِيْهَا

=وهو صبي أن يجير بين الناس وما يجير أحد على محمد بن عبد الله » ومع هذا الردّ الذي يضيع معه كلُّ أمل ازداد أبو سفيان إلحاحاً فقال : « فكلمي عليّاً إذن يا فاطمة » فقال سيدنا أمير المؤمنين « يا أبا سفيان ليس أحد من أصحاب محمد يقتات عليه بجوار » فأجابه أبو سفيان : « ولكن يا أبا الحسن أرى الأمور انسدّت عليَّ فانصحني » قال عليّ : « والله لا أعلم لك شيئاً يغني عنك ولكنك سيد بني كنانة فقم أنت وأجر بين الناس ثمَّ الحق بأرضك » قال أبو سفيان : « أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ » قال : « والله ما أظنه ولكن لا أجد لك غير ذلك » فنهض أبو سفيان واجماً مأيوساً وقصد المسجد النبوي حيث كان رسول الله وحوله طائفة من المسلمين فقال : « أيّها الناس إنّي أجرت بين الناس ولا والله لا أظنُّ أحداً يخفرني ويردّ جواري : فقال المصطفى « وأنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ؟ » ولم يزد وبعد هذا عاد أبو سفيان أدراجه إلى مكة كرّمها الله حيث حدّث أصحابه بما كان فقالوا له : هل أجاز محمد جوارك قال : لا وإنّما قال : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ولم يزدني . قالوا : رضيت بغير رضى وجئت بما لا يغني عنّا ولا عنك شيئاً ولعمر الله ما جوارك بجائز وإنّ إزالة خفارتك على المسلمين لهيّن وهكذا أصبحت قريش وهي تتوقع أن يغزوها محمد في مكة .

وَلَمْ يَعُدْ بَعْدُ مِنْ عَهْدٍ يُؤَخِّرُهُ   عَنْ مَكَّةٍ وَلَهُ شَاقَتْ مَغَانِيْهَا

وَكَانَ يَصْبُوْ إِلَيْهَا وَهْيَ مَوْطِنُهُ   وَعَيْنُهُ نَحْوَهَا تُبْدِيْ تَرَنِّيْهَا

وَلَيْسَ يَجْهَلُ أَنَّ ٱلْعُرْبَ أَجْمَعَهَا   بِٱلْبِرِّ تَسْتَقْبِلُ ٱلْبَيْتَ ٱلَّذِيْ فِيْهَا

وَأَنَّ أَصْحَابَهُ لَا شَيْءَ يُطْرِبُهُمْ   مِثْلُ ٱلتَّرَبُّعِ فِيْ عَالِيْ مَبَانِيْهَا

وَأَنَّ فِيْ فَتْحِهَا نَصْرُ ٱلْحَنِيْفَةِ نَصْـــرَةً تُدَهْوِرُ فِيْ ٱلْخِذْلَانِ عَاصِيْهَا

لِذَا تَعَجَّلَ فِيْ إِعْدَادِ غَزْوَتِهَا   بِعَزْمَةٍ عِنْدَهُ بَسْلٌ تَوَانِيْهَا

بِهَا أَسَرَّ إِلَى أَقْطَابِ أُمَّتِهِ   فَٱسْتَعْجَلَتْهُ وَمَا كَانَتْ لِتُرْجِيْهَا

وَقَالَ: إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ يَقْصِدُنَا   غَدَاً لِتَرْضِيَةٍ أَصْبَحْتُ آبِيْهَا

وَإِذْ أَحَسَّتْ قُرَيْشٌ بِٱلْمَخَاطِرِ خَا   فَتْ شَرَّ مَا صَنَعَتْ فِيْ ٱلْأَمْسِ أَيْدِيْهَا

وَأَوْفَدَتْ لِجُمُوْعِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ أَبَا   سُفْيَانَ سَيِّدَهَا حَتَّى يُرَاضِيْهَا

وَيَسْتَعِيْدَ لَهَا ٱلْعَهْدَ ٱلْقَدِيْمَ فَلَا   تَدْهَى بِدَاهِيَةٍ صَعْبٌ تَوَقِّيْهَا

فَهَبَّ هَبَّاً أَبُوْ سُفْيَانَ مُنْتَقِيَاً   مِنَ ٱلْأَصَائِلِ عَادِيْهَا وَخَادِيْهَا

وَجَدَّ فِيْ ٱلسَّيْرِ يَبْغِيْ طِيْبَةً فَطَوَى ٱلْـــقِفَارَ حَتَّى أَظَلَّتْهُ عَوَالِيْهَا

فَجَازَهَا لِمَقَرِّ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَأَ   مَّ ٱلْمُصْطَفَى وَمُنَاهُ قَامَ يُبْدِيْهَا

فَقَالَ طَهَ : وَهَلْ أَحْدَثْتُمُ حَدَثَاً   يُضِيْعُ عُهْدَتَنَا ٱلْوُثْقَى وَيَنْفِيْهَا

أَجَابَ كَلَّا : فَقَالَ ٱلْمُصْطَفَى : وَأَنَا   عَلَى عُهُوْدِيْ كَمَا نُصَّتْ أُرَاعِيْهَا

فَقَالَ: لٰكِنَّنِيْ أَرْجُوْ فَقَاطَعَهُ   وَمَالَ عَنْهُ بِعَيْنِ ٱلْجَفْوِ يُغْضِيْهَا

فَهَابَ صَخْرٌ أَبُوْ سُفْيَانَ مَوْقِفَهُ   إِزَاءَ نَارٍ يُرَجِّيْ أَنْ يُطَفِّيْهَا

وَجَاوَزَ ٱلْمَسْجِدَ ٱلطِّيْبِيَّ فِيْ جَزَعٍ   وَسَارَ فِيْ طِيْبَةٍ يَنْحُوْ مَنَاحِيْهَا

عَلَى رَجَاءِ لُقَى شَهْمٍ يَمُدُّ يَدَاً   إِلَيْهِ أَوْ مَنْ لَهُ تُعْمَى فَيُسْدِيْهَا

بِهَا يَنَالُ رِضَاءَ ٱلْمُصْطَفَى كَرَمَاً   عَنِ ٱلْعُمُومَةِ فِيْ أَسْوَا مَسَاوِيْهَا
فَلَمْ يَجِدْ فِيْ أَبِيْ بَكْرٍ سِوَى كَلَفٍ   بِٱلْحَرْبِ لَا يَنْثَنِيْ عَنْ سَعْرِ خَابِيْهَا
وَكَانَ أَكْثَرَ مَيْلاً لِلْوَغَى عُمَرٌ   وَنَارُهُ لَمْ يَزَلْ يَبْغِيْ تَلَظِّيْهَا
كَذَاكَ عُثْمَانُ مَعْ دَانِيْ قَرَابَتِهِ   مِنْهُ أَبَى نَصْرَةً قَدْ جَاءَ يَبْغِيْهَا
فَيَمَّمَ ٱلْمُرْتَضَى فِيْ بَيْتِهِ طَلَبَاً   لِبُغْيَةٍ هُوَ أَسْمَى مَنْ يُلَبِّيْهَا(1)
وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ مَغْبُوطَاً بِمَنْزِلِهِ   مَا بَيْنَ أُسْرَتِهِ ٱلْعَلْيَا يُؤَاسِيْهَا
فِيْ حُجْرِهِ حَسَنٌ طِفْلٌ يُدَاعِبُهُ   مُنَاهِزٌ مِنْ حُؤُوْلِ ٱلْعُمْرِ سَادِيْهَا
وَقُرْبُهُ قَدْ ثَوَتْ بِٱلْبِشْرِ فَاطِمَةٌ   مَعْهَا ٱلْحُسَيْنُ تُنَاغِيْهِ فَيُشْجِيْهَا
قَرَا ٱلسَّلَامَ أَبُوْ سَفْيَانَ ثُمَّ جَثَا   يُبْدِيْ رَغَائِبَهُ يَرْجُوْ تَقَاضِيْهَا
وَقَالَ : إِنِّيْ أَرَى فِيْ ٱلْمُرْتَضَى عَضَدَاً   عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ يُكْفِيْنِيْ عَوَادِيْهَا

---

(1) خليق بنا هنا أن نصف الأسرة العلوية الطاهرة التي هي مظهر الشرف الأكبر لكلّ شريف في العرب والعجم هو شرف النبوّة على صاحبها وعلى أفرادها الخيرين الصلاة والسلام . وقد مرّ بنا فيما تقدّم أنّ سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام زفّت إلى سيدنا علي بن أبي طالب في السنة الثانية للهجرة وفي السنة الثالثة رزقا من هذا الزواج المبارك سيدنا الحسن وعندما ولد دعاه أمير المؤمنين « حرباً » وأرسل يبشر جدّه المصطفى بولده فأسرع صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت فاطمة ودخله وهو يقول والفرح يتدفق من وجهه الشريف أروني المولود فقدمته سيدتنا فاطمة له فاحتضنه بين يديه وقال وما سميتموه ؟ قالت « حرباً » فقال بل هو « حسن » وحنّكه بتمر وأعاده إلى أمه بعد أن دعا له وحمد الله . وفي السنة الرابعة كان مولد سيدنا الحسين وقد سمّاه المصطفى بهذا الإسم كما سمى أخاه الحسن . وفي السنة الخامسة للهجرة ولدت سيدتنا فاطمة الزهراء مولوداً ثالثاً سمّاه المصطفى « محسن » إلاّ أنّه لم يعش . وكان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كثير الشغف بالحسنين وطالما رآه الناس يحضنهما ويداعبهما ويقول : « إنّ الحسن والحسين زهرة شباب الجنة » .

فَكُنْ مُعِيْنِيْ عَلى آسْتِرْضَاءِ أَحْمَدَ فِيْ تَجْـدِيْـدِ عُهْـدَتِنَـا إِذْ هَمَّ يُلْغِيْهَـا
فَقَالَ : وَيْحَكَ طَهَ لَيْسَ يَرْجِـعُ عَنْ إِرَادَةٍ هَـمَّ بِسْـمِ آللّهِ يُـمْـضِـيْـهَـا
فَمَـالَ وَآلْيَـأْسُ فِيْ عَيْنَيْـهِ مُـرْتَسِمٌ لِبِنْتِ أَحْمَـدَ يَسْتَـدْعِيْ تَحَـنِّيْـهَـا
قَـالَتْ : أَنَا مَـرْأَةٌ لاَ شَـأْنَ لِيْ أَبَـدَاً فِيْ مِثْـلِ رَغْبَتِكَ آلْمَـرْدُوْدُ سَاعِيْهَـا
فَقَالَ : هَلْ لَـكِ أَنْ تَسْتَعْمِلِيْ حَسَنَاً لِنَجْـدَةِ آلْعُـرْبِ يَغْـدُوْ وَهْـوَ وَالِيْهَـا
قَالَتْ : وَهَلْ لِصَبِيٍّ أَنْ يُجِيْـرَ عَلى مُحَمَّـدٍ جِيْـرَةً ذَاعَتْ مَـخَـازِيْهَـا
فَقَـالَ : فَآسْتَعْـطِفِيْ لِطْفَـاً عَلِيٍّ بِقُرْ بَى لَمْ يَخِبْ فِيْ كِرَامِ آلْعُرْبِ مُدْلِيْهَا
فَلَمْ تُجِبْ وَجَمَتْ إِذْ ذَاكَ فَـاطِمَـةٌ وَهَـالَهَـا ذِلُّ صَخْـرٍ إِذْ يُفَـاهِيْهَـا
وَقَـالَ حَيْـدَرَةٌ: وَآللّهِ لَيْسَ عَلى آلـــرَّسُوْلِ يُفْتَاتُ مَـا رُغْبَـاكَ تَقْضِيْهَـا
فَقَالَ : فَآنْصَحْ إِذَنْ إِنَّ آلْأُمُوْرَ قَدِ آنْـــسَدَّتْ بِوَجْهِيْ كَمَا أَصْبَحْتُ رَائِيْهَا
أَجَابَ: صَعْبٌ تَلاَقِيْ أَزْمَـةٍ حَدَثَتْ وَلاَ أَظُنُّـكَ يَـا صَخْـرُ مُخَـطِّيْهَـا
وَأَنْتَ مَا دِمْتَ رَأْسَ آلْعُرْبِ سَيِّـدَهَا يَلْتَفُّ حَـوْلَيْكَ بَـادِيْهَـا وَقَـارِيْهَـا
فَقُمْ أَجِـرْ أَنْتَ بَيْنَ آلنَّـاسِ مُتَّكِـلاً عَلى وَجَـاهَـتِـكَ آلْغَـرَّاءِ تَعْمِيْهَـا
وَآلْحَقْ بِمَكَّـةَ لاَ تَلْبِثْ بِـطِيْبَتِـنَـا مِنْ غَيْـرِ فَـائِـدَةٍ حَسْنَـاءَ تَجْنِيْهَـا
فِيْ آلْحَالِ خَفَّ أَبُوْ سُفْيَـانَ مُعْتَمِدَاً نَصِيْحَةَ آلْمُرْتَضَى وَآنْصَـاعَ يُجْرِيْهَـا
وَلاَذَ بِـآلْمَسْجِدِ آلْأَسْنَى وَأَحْمَـدُ فِيْـــهِ بَيْنَ نُـدْوَتِـهِ سِـرَّاً يُـنَـادِيْهَـا
وَقَالَ: يَا نَـاسُ أَصْغُوْا لِي فَـإِنِّيَ قَدْ أَجَـرْتُ قَـوْمِيْ قُـرَيْشَـاً فِيْ مَـآوِيْهَـا
وَلاَ إِخَـالُـكُـمُ تَـنْـوُوْنَ رَدَّ جِـوَا رِيْ أَوْ خُفُـوْرَ عُهُـوْدٍ رِحْتُ رَاعِيْهَـا
أَجَابَهُ آلْمُصْطَفَى : هَلْ أَنْتَ قَائِلُ ذَا وَلَمْ يُـزِدْهُ عَلى مَـا قَـالَ تَسْفِيْهَـا
فَـآرْتَـدَّ حَـالاً أَبُـوْ سُفْيَـانَ مُـطَّلِبَـاً أَصْحَـابَـهُ بِـآلَّـذِيْ قَـدْ تَمَّ يُنْبِيْهَا

وَعِنْدَ مَا حلَّ فِيْ أُمّ ِ ٱلْقِرَى سَرَدَ ٱلأَ م خْبَارَ لِلْقَوْمِ ِ بِٱلتَّزْوِيْقِ يَرْوِيْهَا
فقَالَ : لَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ رَعَا يَا قَدْ أَطَاعَتْ وَرَبّ ٱلنَّاسِ ِ رَاعِيْهَا
وَقَدْ وَجَدْتُ ٱلْجَفَا مِنْ أَحْمَدٍ وَذَوِيْـــهِ إِنَّ جَفْوَتَهُمْ أَصْبَحْتُ خَاشِيْهَا
وَكَانَ أَلْيَنَهُمْ قَوْلاً وَأَسْلَمَهُمْ أَبُوْ تِرَابٍ عَزِيْزُ ٱلنَّفْسِ ِ زَاكِيْهَا
أَشَارَ فَضْلاً عَلَيَّ فَٱمْتَثَلْتُ لَهُ نَصِيْحَةً كُنْتُ بِٱلإِسْرَاعِ ِ آتِيْهَا
وَقَصَّ قِصَّتَهُ مَا بَيْنَ أُمَّتِهِ كَمَا جَرَتْ مُبْدِيَاً أَخْفَى خَوَافِيْهَا
فَمَا ٱطْمَأَنَّتْ إِلَى دَعْوَى إِجَارَتِهِ كَمَا رَوَاهَا رَأَتْهَا لَيْسَ تُنْجِيْهَا
وَأَعْلَنَتْ فَشَلَ ٱلْمَسْعَى وَخَيْبَتَهُ وَلاَزَمَتْ فَرَقَاً خَافِي مَلاَجِيْهَا

أمير المؤمنين في فتح مكة

لِمَكَّةٍ فِيْ نُفُوْسِ ِ ٱلْعُرْبِ مَنْزِلَةٌ عَلْيَا تُطَأْطِيْ لَهَا ٱلْهَامَاتِ تَحْنِيْهَا(١)
فَإِنَّ فِيْ رَبْعِهَا «ٱلْبَيْتُ ٱلْعَتِيْقُ» مَقَـــرُّ ٱلْغَفْرِ طَالِبُهُ بِٱلْبِرّ يَأْتِيْهَا

---

(١) يجمل بنا هنا أن نذكر شيئاً عن مكة كرّمها الله التي كانت مقرّاً لسيدنا إبراهيم عند ما هاجر إلى جزيرة العرب مع سيدنا اسماعيل عليه السلام والتي هي حاضرة قريش وما قريش إلّا القبيلة التي ظهر فيها المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام .

إنّ مكة وتسمى بكة أيضاً ويطلق عليها اسم أمّ القرى تعظيماً لها أي أنّها بالنسبة إلى القرى المنتشرة في بلاد الجزيرة هي الأم وإليها يرجع الناس . هي مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متراً على عرض ٢١ درجة و٣٨ دقيقة وطول ٤٠ درجة و٩ دقائق وينتهي تاريخ بنائها إلى سيدنا إبراهيم الخليل وابنه اسماعيل فقد نزلا في هجرتهما في موضع الكعبة التي بنياها لعبادة الله ثم عاش أبناؤهما حول الكعبة في ظلال بيوت الشعر إلى عهد قصي بن كلاب في نحو القرن الثاني قبل الهجرة فإنّ قصي هذا سافر إلى الشام متاجراً فشاقه ما رأى من بيوتها وعندما عاد بنى لنفسه بيتاً من الحجر بجانب =

وَإِنَّهَا مَرْجِعُ ٱلْعُرْبَانِ تَنْشِدُهَا قَوَافِلاً مَا نَأَتْ عَنْهَا مَثَاوِيْهَا

= الكعبة وتبعته قريش في البناء . وهذه المدينة شرّفها الله تمتد اليوم من الغرب إلى الشرق على عرض ثلاثة كيلومترات طولاً في نحو كيلو متر ونصف عرضاً في وادٍ يميل من الشمال إلى الجنوب وينحصر بين سلسلتي جبال يكاد أن يتصل بعضها ببعض عند أبواب البلد الثلاثة أي من الشرق والغرب والجنوب . أمّا أسماء هذه الجبال فهي في الشمال الفلق ، وقيقعان ، والجبل الهندي ، ولعلع ، وكداء وهذا في أعلى مكة ومن جهته دخل المدينة المصطفى يوم الفتح . وفي الجنوب جبل أبي حديدة ، وكُدَى ، وكُدَيٌّ ، فجبل أبي قبيس ، فجبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم عامرة بالدور بعضها فوق البعض من الأعلى إلى طرف الوادي وعددها اليوم نحواً من سبعة آلاف دار بين كبيرة وصغيرة وأعظمها دور الأشراف الذين يتوارثون الحكم فيها من عهد عهيد جداً . ولا تزال بعض الدور الأثرية باقية آثارها في مكة بالرغم عن إهمال الأتراك الذين كانوا يحكمونها منها دار ابن عباس في المسعى على يمين السالك إلى المروة ، وآثار دار أبي سفيان في الشرق الشمالي للحرم .

والحرم الشريف بين هذه الدور مائل إلى الجهة الجنوبية مما يلي جبل أبي قبيس وفي هذه الجهة دار الخيزران أم الرشيد « وآثارها باقية » يتلوها شرقاً شعب بني هاشم ويسميه الناس شعب علي وهو أشهر وأعظم أنسال بني هاشم بعد المصطفى ، ثم شعب المولد ، ثم شعب بني عامر ، وفي هذه الجهة كانت منازل بني عبد المطلب في الجاهلية ويسكنها اليوم كثيرون من الأشراف . أمّا باقي قريش فكانوا يسكنون في الجهة الأخرى من الحرم نحو الشمال ومن دونهم كانت منازل باقي أهل مكة .

ويتوسط مكة طريق تقطعها من الغرب إلى الشرق وهي أكبر شوارعها وهذا الشارع له أسماء مختلفة فعند بداءته من جرول يسمى حارة الباب فالشبيكة ، فلما يصل إلى الحرم يسمى الشامية فإذا انعطف إلى الجنوب على يمين الحرم يسمى السوق الصغيرة فجياد وهناك البوستة والتلغراف والتكية المصرية ودار الحكومة العثمانية ويسمونها الحميدية وصارت بعد استقلال الحجاز مركز الوزارة الحجازية ، وإلى جوارها إدارة الصحة ، فمركز قشلاق الطوبجية ، فالمطبعة الأميرية ، فإذا وصل هذا الشارع إلى الصفا سمي المسعى ، فالقشيشية ، فسوق الليل ، فالغزة ، ومن هذا الموضع يخرج السائر إلى باب مكة الشرقي أو باب المصلّى . وفي المدينة شوارع =

= أخرى غير هـذه ولو لم تكن بـأهمية هـذا الشارع منهـا السوق ، والقـرارة ، والنقى ، والسلمانية ، والحيدرية ، والبراضية .

وأهالي مكة اليوم مختلفو الأجناس ففيهم عدا الأشراف والعرب الوطنيين مهاجرو الشام ومصر والعراق والمغرب والترك وجاوه والقوقاس وبخارى والهند وغيرها من البلاد الإسلامية وهؤلاء المهـاجرون قصـدوا هذه المـدينة المقـدّسة بـدافع التقـوى أو بعامـل التجارة فاستوطنوها وتناسلوا فيها ولذلك نقدر أن نقول إنّ مكة أكثر بلاد الله في اختـلاط أجنـاس سكّانهـا واختـلاف أزيـائهم وتنـوّع لهجـاتهم وبلبلة ألسنتهم على أنّهم جميعـاً يجتمعون على كلمة « لا إله إلاّ الله » التي وحدت بينهم .

وفي مكّة المكرّمة غير الحرم الشريف مزارات عظيمة الشأن من الوجهتين الدينيـة والتاريخية أهمّها مولد النبي وهو في شعب بني عامر ويسمونه شعب المولد . وهو مكان ينزل إليه بنحو متر ونصف بدرجات من الحجر يبلغ طوله نحو اثني عشر متراً في عـرض ستة أمتار وفي جـداره الغربي بـاب يدخـل منه إلى قبـة في وسطهـا مقصورة من خشب داخلها رخامة قد تقعر جوفها وهي بقية الدار التي كان يسكنهـا عبد الله بن عبـد المطلب وزوجه آمنة وولد فيها سيد العالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكان قـد وهبها المصـطفى لابن عمّه عقيل بن أبي طالب فباعها ولده لمحمـد بن يوسف الثقفي أخي الحجـاج فلما بنى داره المشهـورة باسم « دار ابن يـوسف » وكانت بجـوارهـا أدخلهـا فيهـا . ولمـا حجّت الخيـزران أم الرشيـد بحثت عن الدار التي كـانت مهـداً لأشـرف الخـلائق صلى الله عليه وآله وسلم فلمـا علمت بضمها إلى دار ابن يوسف اشترت تلك الدار وخـرّبتها وفصلت منهـا موضـع دار المصطفى وأعادتها إلى مثل ما كانت عليه وجعلتها مسجداً وهي لا تزال كذلك إلى يـوم الناس هذا .

ومن هذه المزارات المباركة الدينية والتاريخية مولد سيـدنا علي عليه السلام وهي قـريبة من مـولد النبي وهي نفس الـدار التي كان يسكنهـا الشيـخ أبـو طـالب وولـد فيهـا أمير المؤمنين وهي أقلّ اتّساعاً من دار المصطفى ولهـا من الاحترام في أنفس النـاس الشيء الكثير .

ومن هـذه المـزارات المباركـة الـدينية والتـاريخيـة مـولـد سيـدتنـا فـاطمـة =

وَعَمَّـرَا فِيْ رِبَـاهَـا عِنْـدَ زَمْـزَمَ كَعْــــبَــةً لِتَعْبُـدَ فِيْهَــا آلنَّـاسُ بَــارِيْهَـا

= الزهراء عليها السلام وهي دار سيدتنا خديجة وموضعها في درب الحجر وفيها ولـدت للمصطفى كلّ أولاده وسمّيت « مولد فاطمة » لما علمت من الميزة التي خصّها الله ورسـوله بسيـدة النساء هذه، وهذه الدار ينزل إليها بجملة درجات توصل إلى طرقة وعلى يسار هذه الطرقة شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو ثلاثين سنتمتراً ومسطحها نحو عشرة أمتار طولاً في أربعة عرضاً وهي اليوم مستعملة كتاباً يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف وعلى يمينها باب صغير يصعد إليه بدرجتين يدخل منه إلى طرقـة ضيقة عـرضها نحـو مترين وفيهـا ثلاثـة أبواب أحدها الذي عن اليسار يفتح على غرفة كـانت لعبادة المصـطفى وفيها كـان ينزل عليـه الوحي وعلى يمين الـداخل إليهـا مكان منخفض عن الأرض كـان محـل وضـوئـه والباب الذي قبالة الداخل إلى الطرقة يفتح على غرفة واسعة هي غرفته صلى الله عليه وآله وسلم مـع زوجه سيدتنا خديجة . والباب الذي على اليمين يفتح على غرفة مستطيلة واسعـة في وسطهـا مقصـورة صغيرة أقيمت على المكـان الذي ولـدت فيه سيـدة العالمين سيـدتنـا فـاطمـة الزهراء عليها السلام . ولما هاجر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنوّرة استولى على هذه الدار ابن عمّه عقيل بن أبي طالب ، ثم اشتراها منه معاوية بن أبي سفيـان فجعلها مسجـداً ، وعمرت في زمن الناصر العباس . ثم تهدّمت فأعاد عمارتهـا الأشرف شعبـان ملك مصر ثم الملك المظفر صاحب اليمن ثم السلطان سليمان العثماني سنة ٩٣٥ للهجرة .

ومن هذه المزارات المباركة الدينية التاريخية « دار الخيزران » وهي في زقاق على يسار الصاعد إلى الصفا . وهي دار الأرقم المخزومي التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يختبىء فيها مع من آمن معه في صدر بعثته ليقيموا الصلوات سرّاً . وباب هـذه الدار يفتـح إلى الشرق ويدخل منه إلى فسحة واسعة غيـر مسقوفـة وعلى يسارهـا إيوان مسقـوف ، وفي وسط الحائط الذي على يمينها باب يدخل منه إلى غرفة واسعة كـانت مسجد المسلمين ولعلّه أول المساجد الإسلامية .

ومن هذه المزارات المباركة الدينية والتاريخية غار حرّاء وهو الغار الذي كان يتعبّد فيه المصطفى ويصحبه إليه سيـدنا علي عليهمـا الصلاة والسـلام على ما تقـدم معنا في حاشية سابقة .

أمّا مقبرة مكة المكرّمة المسماة « المعلى » ففيها من القبور التاريخية العـظيمة مـا تطأطأ له الرؤوس خشوعاً فهناك ضريـح السيدة خـديجة زوج النبي ، وقبـة السيدة آمنـة =

مِنْ ذٰلِكَ ٱلْعَهْدِ بَاتَتْ وَهْيَ عَاصِمَةٌ لِلْعُرْبِ طُرّاً وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ثَاوِيْهَا
كَانَتْ بِسُكَّانِهَا ٱلْأَمْجَادِ دَارَ عُلَىً مَا فِيْ ٱلْجَزِيْرَةِ مِنْ مِصْرٍ يُحَاكِيْهَا
لِذَا دَعَاهَا ٱلْوَرَى «أُمَّ ٱلْقِرَى» وَلَعَمْـــرِيْ قَدْ أَصَابَ بِهٰذَا ٱلْإِسْمِ دَاعِيْهَا
إِنَّ ٱلْقِرَى كُلَّهَا بَلْ وَٱلْمَدَائِنَ لَا تَأْبَى عَلَى مَكَّةَ ٱلْعُظْمَى تَأَمِّيْهَا
وَكَانَ سُكَّانُهَا أَسْمَى ٱلْأَعَارِبِ أَقْـــدَاراً وَأَفْضَلَهُمْ مَجْداً وَتَوْجِيْهَا
أَوْلَادُ سَيِّدِنَا آسْمَاعِيْلَ نُسْبَتُهُمْ إِلَيْهِ حَسْبُ ٱلْمَعَالِيْ أَنْ نُسَمِّيْهَا
وَهُمْ قُرَيْشٌ وَمَا فِيْ ٱلْعُرْبِ أَجْمَعِهَا مُنَافِسٌ لِقُرَيْشٍ فِيْ تَسَامِيْهَا
وَٱلْعُرْبُ كَانَتْ لَهَا تَٱللّٰهِ طَائِعَةً وَلَمْ يَكُنْ آمِنَاً يَوْمَاً مُعَاصِيْهَا
فَكَانَ أَحْمَدُ يَرْجُوْ فَتْحَ مَكَّةَ كَيْ تَصُوْلَ شِرْعَتُهُ ٱلسَّمْحَا بِأَهْلِيْهَا
وَكَيْ يُطَهِّرَ بِٱلتَّوْحِيْدِ كَعْبَتَهَا فَلَا رَجَاسَةُ شِرْكٍ بَعْدُ تَأْوِيْهَا
وَعَهْدُهُ مَعْ قُرَيْشٍ كَانَ يَمْنَعُهُ عَنْهَا وَعُهْدَتُهَا مَا كَانَ نَاسِيْهَا

= والدة النبي ، وقبّة أبي طالب والد سيدنا علي ، وقبة عبد الله بن الزبير ، وقبر جعفر المنصور الخليفة العباسي وكان قد قدم مكة حاجّاً سنة ١٥٨ هـ فمات ودفن بالمعلى إلّا أنّ قبر هذا الخليفة غير معروف خلافاً للقبور العظيمة بأصحابها السابق ذكرها وهناك شيء كثير من هذه القبور الأثرية .

ولا بدّ لنا من الإشارة إلى أنّ هذه المزارات المباركة الأثرية الدينية الثمينة مهملة جدّ الإهمال وليس فيها من دلائل العظمة شيء مما رأيناه في أوروبا من آثار عظمائهم ولا سيما في روما حيث يعتني النصارى كلّ العناية في تفخيم المواضع الأثرية الدينية التي عندهم وأعتقد أنّ هذا الإهمال هو من فساد الحكم التركي السابق ولا بدّ للدولة الحجازية الجديدة التي استقلت سنة ١٩١٦ في أثناء الحرب الأوروبية العامة أن تهتم بهذه المزارات المقدسة وتعمل على تعزيزها بالنفائس اللائقة بها من ثريات وقناديل وغير ذلك إشارة إلى ما لها في النفوس من صادق الاحترام .

لَـكِنْ قُـرَيْشٌ أَبَتْ إِلاَّ خَيَـانَتَـهُ وَمَـزَّقَتْ عَهْدَهَـا ٱلسَّـامِيْ بِـأَيْـدِيْهَـا
فَلَمْ يَعُـدْ مَـانِـعُ تَـٱللَّهِ يَمْـنَعُـهُ عَنْ حَرْبِهَا فَجَرَى فِيْ ٱلْحَالِ يُمْضِيْهَا
وَقَـدْ مَضَى مُسْرِعَـاً فِيْ ٱلْأَمْرِ يُنْفِـذُهُ بِغَـزْوَةٍ هَيَّـأَ ٱلْبَـارِيْ دَوَاعِيْهَـا(١)

---

(١) ما كان الله ليرضى لرسوله أن ينكث عهوده وهو الآمر بالوفاء بها وما كان رسول الله لينكث عهده مع قريش وهو الأمين المأمون ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه سبحانه على كل شيء قدير وقد قال ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ .

إنّ رسول الله ﷺ أمضى عهد الحديبية مع قريش وهو كاره والمسلمون كارهون لكن قد صدق الله عزَّ وجلَّ القائل ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾فإنّ في أقل من عامين اثنين بلغ الإسلام مكانة عالية من نفوس العرب ما كان يقدّرها له المقدّرون حتى باتت قريش وهم أعدى أعدائه يخافون سطوة أهله ويرسلون زعيمهم أبي سفيان ليسترضي رسول الله ويستغفره على ما مرَّ بنا مع أنّهم قبل عامين كانوا يرفعون عقيرتهم منادين إنّ المسلمين لا يدخلون مكة حتى ولو حجاجاً مسالمين فسبحان محوّل الأحوال .

نعم هيأ الله لرسوله ﷺ سبباً لفتح مكة كرّمها الله ما كان يمرُّ على خاطره الشريف لأنّه لم يفكر قط بحنث عهده مع قريش ومبادرتهم العدوان بعد أن حالفهم على السلام لمدة عشرة أعوام وما ذلك السبب إلاّ جرأة قريش نفسها على نكث عهدها بيدها ومناصرة حليفتها بكر على خزاعة حليفة المصطفى حينئذٍ بات المصطفى في حلّ من العهد الذي أمضاه وكان له أن ينتقم من المعتدين على حلفائه ويؤدبهم أيضاً ويلقي عليهم درساً نافعاً لا ينسونه أبداً وهو أنّ من أوجب واجبات الأفراد والجماعات المحافظة على عهودهم والثبات عليها مهما تبدّلت الأحوال .

نكثت قريش عهدها مع رسول الله في الوقت الملائم وأقرَّ ﷺ على محاربتها والاستيلاء على مكة التي هي حاضرة البلاد الحجازية وقبلة العرب أجمعين وكان يعلم يقيناً أنّ فتح مكّة هو الإنتصار النهائي لدين الله وللقضاء الأخير على الكفر والإشراك في شبه جزيرة العرب .

وأبى المصطفى ﷺ أن يتساهل مع أبي سفيان عندما جاء يستغفره لا بتجديد =

وَقَـدْ تَسَـرَّعَ لَمْ يُمْهِـلْ قُـرَيْشَ وَلاَ أَضَـاعَ فِـرْصَـةَ فَتْـحٍ عَـادَ مُلْقِيْهَـا

= العهد ولا بتمديده كما كان يطلب وأسرَّ إلى أكابر صحابته بنيته على غزوة قريش ودخول مكة كرّمها الله عنوة . وبعد أن ارتحل أبو سفيان عائداً إلى مكة شمّر المصطفى عن ساعد العزم وأخذ يستعدّ لهذه الغزوة الكبرى التي ستكون الفاصل بين الحق والباطل . وبعد أن شاور ﷺ أصحابه وأعدّ للحرب عدّته آذن بالغزو وآمر المسلمين بالجهاد ولكن من غير أن يعلم العامة بغرضه الذي يرمي إليه حتى لا يشيع الخبر فيتصل بقريش فتستعد للحرب . وأرسل إلى محالفيه من أهل البادية وإلى عموم المسلمين المنتشرين خارج المدينة المنورة أن يكونوا في أول رمضان من السنة الثامنة للهجرة في المدينة المنورة وما هلَّ هلال رمضان حتى هبط على مدينة الرسول قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وبني أسد وبني سليم وغيرهم فجمعهم رسول الله ﷺ في مسجده النبوي وخطب فيهم داعياً إلى الجهاد وأوصاهم بكتمان الأمر بقوله : « واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » . ثمَّ دعا فقال : « اللهمَّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » ثمَّ أنّ رسول الله ﷺ أرصد العيون والأرصاد في الطرق المتصلة بالمدينة المنورة حتى لا يتصل نبأ غزوته بقريش فتستعدّ لدفعه ومحاربته .

ولم يسلم المسلمون من منافق حاول أن يغدر بهم وهو حاطب بن أبي بلتعة فكتب كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه بمسير المسلمين لغزوهم وأرسله مع امرأة فعثر عليها بعض عيون المصطفى ففتشوها وأخذوا الكتاب منها وأرسلوها والكتاب إليه ﷺ فاستدعى حاطباً إليه وأطلعه على سوء فعلته فاعتذر وقبل عذره لكي لا تكون فتنة تفسد عليه سياسته .

وفي ٨ رمضان سنة ٨ هجرية « ١ يناير سنة ٦٣٠مسيحية » خرج المصطفى بعشرة آلاف مقاتل يريد مكة كرّمها الله فيهم ٧٠٠ من المهاجرين وأربعة آلاف من الأنصار والباقون من رجال القبائل الآنفة الذكر . وبينما كان المسلمون في طريقهم إلى مكة لقيهم العباس عمّ النبي في مكان يدعى الجحفة وقيل ذو الحليفة وكان مهاجراً بعياله فرحّب به المصطفى ﷺ وقال له : « هجرتك يا عمّ آخر هجرة كما أن نبوّتي آخر نبوّة » ولمّا علم العباس بالغرض السائر فيه المسلمون أرسل عياله إلى المدينة ورجع معهم وطفق يقول لأصحاب رسول الله : « إنّ نفسي رقّت لأهل مكة فوالله لئن دخلها محمد عنوة قبل أن يأتوه ويستأمنوه أهلك قريشاً » كان يقول عباس هذا لصحابة =

= رسول الله وهم قرشيـون مثله يشعرون بما يشعر نحـو الأمّة التي هم منهـا فوجـدهم مثله حنواً وإشفاقاً وفي أنفسهم نحو أبناء بجدتهم مثل الذي في نفسـه ثم كاشف بـذلك ابن أخيه ﷺ فوجده على رغبة الرفق بقريش ولذلك لم يمنعه من المسير إليهم وتحذيرهم مغبة التمادي في عداوة المسلمين وأعطاه بغلته التي كان أهداها له دحية الكلبي ومضى بها مسرعاً لنصيحة قريش .

أما القرشيـون فكانوا منذ عودة أبو سفيان من المدينة المنورة على قلق واضـطراب من أمر محمد ﷺ يتوقعون أن يغزوهم كما كـانو عـارفين أنّهم لم يعودوا أكفّـاء لصده عن مكة إذا قصدها غازياً فاتحاً وبينما هم لكذلك اتّصل بهم نبأ خروج محمد بأصحابه وأنصاره للغزو ولكنهم ، لم يعرفوا وجهته فخرج أبو سفيان وبديل بـن ورقـاء وحكيم بن حزام من مكة يتجسسون أخبار المسلمين وما كادوا يصلون إلى الأراك وهـو من ضواحي مكـة المكرمـة حتى صـادفهم العبـاس عمّ النبي فسلّم عليهم وقـال لأبي سفيـان وكـان صديقه : يا أبا سفيان هذا محمـد قد جاءكم بما لا قِبَـل لكم به . فقـال أبو سفيـان : واصباح قريش فمـا الحيلة فداك أبي وأمي . فقـال العباس : والله لئن ظفـر بك محمـد ليضربنَّ عنقك فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتيك المصطفى فاستـأمنه لـك وليرجـع صاحباك إلى مكة يشيران على أهلها بالتسليم . فقبل أبو سفيـان وصاحبـاه رأي العباس ورجع صاحباه إلى مكة وركب هو رديفاً للعباس وسارا على بغلة المصطفى وما أبعـدت بهمـا قليلاً حتى ظهـرت لهما نيـران المسلمين في موضـع اسمه « مـرّ الظهـران » وكان الوقت ليلاً فتقدما منها ووجدا القوم قد حطوا رحالهم وأوقدوا نيرانهم وكانا كلما مرّا بنار من نيران المسلمين قالوا من هذا ؟ ثمّ يتعـرفون بغلة المصـطفى ويقولـون إنّه عمّ النبي فلا يتعرضون له . ولمّا مرّت البغلة بنار عمر بن الخطاب نهض لها ومـا أبصر أبـا سفيان رديفاً للعباس حتى صاح « ها أبو سفيان عدوّ الله ، الحمد لله الـذي قد أمكن منـك من غير عقد ولا عهد » وسار مسرعاً إلى المصطفى يستأذن بالفتك بأبي سفيان . أمّا العباس فلم يفته الخطر المحـدّق بصاحبـه فأركض البغلة حتى سبقت عمـر وأسرع بـإدخال أبي سفيـان على المصطفى وتبعهمـا عمر وهـو يلهث ويقول : « يـا رسول الله هـذا هـو أبـو سفيـان عدوّ الله قـد أمكننا الله منـه من غير عقـد ولا عهد فـدعني لأضرب عنقـه » فقال العبـاس : « يا رسـول الله لقد أجـرته » ثم جلس إلى رسـول الله وأخذ بـرأسه الشـريف =

=وقال : والله لا يناجيه الليلة رجل دوني . فما أصغى عمر لقول العباس وأخذ يكدّ في شأن أبي سفيان . فقال العباس : مهلاً يا عمر فوالله لو كان أبو سفيان من رجال بني عدي بن كعب (ويريد قبيلة عمر) ما قلت مثل هذا ولكنك قد عرفت أنّه من رجال عبد مناف فقال المصطفى إذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت ائتني به ففعل وانصرف عمر إلى مخيمه غاضباً .

وعندما أصبح الصباح غدا العباس بأبي سفيان إلى المصطفى فقال له ﷺ : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنّه لا إله إلاّ الله » قال أبو سفيان : « بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك للرحم لقد ظننت أنّه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عنّي شيئاً بعد » فقال المصطفى : « ويحك يا أبا سفيان : أما آن لك تشهد أنّي رسول الله ؟ فقال أبو سفيان : بأبي أنت وأمّي أمّا والله هذه فإنّ في النفس منها شيئاً حتى الآن فارجئها» فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « سوف تؤمن » فقال أبو سفيان : « يا محمد ادع الناس بالأمان ، أرأيت إن اعتزمت قريش فكفت أيديها تأمن ؟؟ » قال المصطفى : « نعم من كفَّ يده وأغلق بابه فهو آمن . ومن لجأ إلى الكعبة فهو آمن » ثمَّ قال ﷺ للعباس : سر بصاحبك أبي سفيان إلى مضيق الوادي حتى تمرّ به جنود الله فيراها « أراد بذلك أن يري زعيم أعدائه الحول الذي آتاه الله فتنكسر نفسه ولا يعود إلى ما مضى من لؤمه وعدائه فيغرّر بقريش ويحملها على مناوأته فينالها ما نال سواها من القبائل العربية التي ما زالت تناوئه حتى بطش بها وأبعدها عن ديارها وأمن شرّها » .

وفي الحقيقة أنَّ قريشاً على ما كانت عليه من حول وطول كان من الضروري أن تنضمَّ إلى الإسلام وتقوم بنشره كما كان من الضروري أيضاً أن يحتفظ بها سيدنا محمد ﷺ لأنّها عشيرته وأهل عصبيته وعصبية أصحابه ولا قوام للممالك إلاّ بعصبياتها كما قرّر علماء الاجتماع فإنّ الدول تقوى بقوة عصبيتها وتضعف بضعفها . ولهذا كان همّ رسول الله وأصحابه أن يرضخ القرشيون للقوة الإلٓهية القاهرة ويسلموا له بغير حرب فيدخل مكة هادياً محرراً منقذاً مؤدباً ولا يدخلها فاتحاً غازياً قاهراً مخرباً .

أمّا العباس فسار بصاحبه أبي سفيان إلى ذلك المضيق بينما كان المسلمون يستعدون للمسير إلى مكة كرّمها الله وأخذت قبائلهم تسير في طريق ذلك الوادي وهي =

وَفِيْ آلـطَّرِيْقِ رَأَى آلْعَبَّاسَ قَاصِدَهُ   مُهَـاجِـرَاً بِـذَوِيْـهِ وَهْـوَ يَـطْوِيْهَـا

= متحمسة لدخول البلد الذي كان قبلة العرب فصار قبلة المسلمين يولوا إليه وجوههم من كل الأرض .

وكان أبو سفيان دهشاً مما يرى من القبائل معجباً بنشاط رجالها وحماسهم وما يظهر عليهم من دلائل القوة والبأس وما زال كذلك والقبائل تمرّ من أمامه حتى أقبلت الأوس والخزرج وهما الأنصار وكانت رايتهم مع سعد بن عبادة فلما حاذى سعد أبا سفيان والعباس نظر إليهما بعينين ملؤهما الحقد على قريش وقال : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الكعبة ، اليوم أذلّ الله قريشاً » فاضطرب أبو سفيان لهذا القول وقال للعباس : « والله إنّ ابن أخيك لمهلك قومه » فقال العباس : « كلا فإنّ ابن أخي أوصل لرحمه من كل إنسان عرفته » وبعد قليل مرّ المصطفى بكتيبة خضراء وهو على ناقته القصواء وإلى يمينه سيدنا علي بن أبي طالب وحولهما عليهما الصلاة والسلام رؤساء المهاجرين والأنصار فاعترض المصطفى أبو سفيان صائحاً : « يا محمد لعلّك أمرت بقتل قومك ، فقد زعم سعد أنّه قاتلنا ومذلّ كعبتنا ومذلّنا ، فأنشدك الله في قومك ، وأنت أبرّ الناس وأرحمهم وأوصلهم للرحم » فتبسم المصطفى من مقالة أبي سفيان الدالة على انكسار نفسه وانخذاله ونظر إليه نظرة المشفق وبينما هو لكذلك وإذ تقدم من ناقته ﷺ عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وقالا : « يا رسول الله إنّ أبا سفيان لم يقل إلاّ الحق فإنّا لا نأمن من سعد أن تكون له صولة في قريش » حينئذٍ مال ﷺ بوجهه الشريف إلى أبي سفيان وقال : « كذب سعد يا أبا سفيان ، فاليوم يوم المرحمة ، اليوم أعزّ الله قريشاً ، اليوم يعظّم الله الكعبة ، اليوم تكسى الكعبة » ثمّ توجه بنظره إلى عليّ وأمره أن يسرع إلى سعد وينزع منه اللواء ويحمله ويستلم قيادة الجيش . وحينئذٍ اطمأن أبو سفيان بالاً وقال للعباس « والله ما لأحد قِبَل لهؤلاء ولا طاقة يا أبا الفضل فقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً » فقال العباس : « والله إنّها النبوّة » فقال أبو سفيان «نعم والله فما الرأي عندك يا أبا الفضل ؟؟ » فقال العباس : « أسرع يا صاح إلى قومك واجهد في حملهم على الخضوع والتسليم » فامتثل أبو سفيان وأسرع بجواده إلى مكة كرّمها الله .

لما سار العباس بأبي سفيان إلى معسكر المصطفى عاد رفيقاه بديل وحكيم بن حزام فأخبرا أهل مكة بمقدم محمد عليهم غازياً فاتحاً بجيش جرار لا تقوى قريش على =

= صدّه.فجزعوا لها النبأ وأخذوا يضربون أخماساً لأسداس فيما يفعلون لحماية مدينتهم المقدسة من المسلمين ولم يتفقوا على رأي لأنّ الضعف قد أخار عزائمهم وبينما هم في هذا القلق وكل طائفة منهم على رأي وإذا بأبي سفيان داخل مكة وهو يصرخ بملء فيه « يا معشر قريش هذا محمد جاءكم بما لا قبل لكم به فاستأمنوه » فأزاد صراخه في جزع القوم وكثر الشغب بينهم واختلطت نساؤهم برجالهم وكان في مقدمة النساء زوج أبي سفيان هند بنت عتبة أم معاوية ، فتقدمت من زوجها أبي سفيان وأخذت بلحيته وجعلت تنادي « يا آل غالب اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه ، قُبح من طليعة قوم ، ودافعوا عن أنفسكم وبلدكم » فانتهرها أبو سفيان قائلاً « ويحكِ اسكتي وادخلي بيتك » وقال للناس « ويحكم لا تغرّنكم هذه المرأة من أنفسكم ، فإنّ محمداً قد جاءكم بما لا قِبلَ لكم به ، فمن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل بيته وأغلقَ بابه فهو آمن » فأصغت أكثر قريش لنصيحة أبي سفيان ولاذ بالكعبة من لاذ ولجأ إلى بيته من لجأ ولم يبق على فكرة لقاء المسلمين وصدّهم عن مكة إلّا العدد القليل ممن كان الغرور يملأ رؤوسهم .

ولما دنت جيوش المسلمين من مكة كرّمها الله أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خالداً بن الوليد أن يدخل مع جملة من قبائل العرب من أسفل مكة ويغرز رايته عند أدنى البيوت وقال « لا تقاتلوا إلّا من قاتلكم » وأمر الزبير بن العوام أن يدخل مكة في جملة من قبائل العرب من جهة الحجون ويغرز رايته هناك وأمرهم كما أمر الأولين . وأمر أبا عبيدة بن الجراح أن يقود المشاة ويأخذ معهم بطن الوادي وأمرهم كما أمر الذين من قبلهم. وهكذا انقسمت جيوش المسلمين إلى ثلاث سرايا وهاجمت مكة المكرّمة من أطرافها الثلاث فدخلتها من أعلاها صلحاً ومن أسفلها عنوةً إذ تصدّى للمسلمين بعض قريش فقتل بعضهم خالد بن الوليد وجيشه وفرّ الباقون .

ثمّ أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم دخل مكة المكرمة دخول الفاتح المنصور وإلى يمينه ربيبه ووصيّه سيدنا علي أمير المؤمنين وحولهما عليهما الصلاة والسلام أكابر الصحابة . وكان الرسول وقتئذٍ على ناقته القصواء وهو معتمٌّ بشقة برد حمراء وقد وضع رأسه الشريف على رحل ناقته تواضعاً لله عزَّ وجلّ وكان دخوله بموكبه الحافل هذا من كداء وكان في دخوله يقرأ سورة الفتح ولمّا جاء البيت طاف به سبعاً على راحلته وكان =

فَقَالَ: لٰكِنْ قُرَيْشٌ قَدْ تُضَعْضِعُهَا ۝ هٰذِيْ ٱلْجُيُوْشُ ٱلَّتِيْ سَالَتْ مَذَاكِيْهَا

= محمد بن أبي مسلمة آخذاً بزمامها ليستلم الحجر بمحجتين في يده ثم أخذ المصطفى مفتاح الكعبة من صاحبها عثمان بن طلحة الشيبي ووقف على باب الكعبة كرّمها الله والناس بين يديه جماعات وقال : « لا إلٓه إلاّ الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كلُّ مأثرة أو دم أو مال يدّعي به فهو تحت قدميَّ هاتين ؛ إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاج » ثمَّ قال « يا معشر قريش إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » ثمَّ قال : « يا معشر قريش ما تظنون أنّي فاعل بكم ؟؟ » فصاحت جموعهم « خيراً . أخ كريم . وابن أخ كريم » فقال ﷺ : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ودخل في الإسلام في يوم الفتح هذا معظم رجالات قريش وعلى رأسهم أبو سفيان وابنه معاوية . وأطلق عليهما وعلى أمثالهما ممّن أسلم معهما يوم الفتح اسم « الطلقاء » .

وفي مساء يوم الفتح أخذ رسول الله ﷺ يفكّر بتطهير الكعبة المكرّمة من أرجاس الوثنية بإزالة ما عليها وما في مسجدها من الأصنام والأنصاب قالوا وكان في الكعبة ٣٦٠ صنماً لكلّ حيّ من أحياء العرب صنم خاص . وحسن للمصطفى بعد إعمال رويته ومناجاة خالقه أن يذهب إليها في جنح الدجى ويحطّم أصنامها بيديه الشريفتين فيصبح الناس ولا أثر لوثنيتهم في البيت المخصص لعبادة الله الواحد الأحد . ولم يصطف المصطفى لمعاونته في هذه المهمة المقدسة غير أخيه وصنوه ووزيره المرتضى عليهما الصلاة والسلام فخفَّ إلى مخيمه وكان قريباً منه ودعاه إليه وهرولا مسرعين إلى الكعبة كرّمها الله فطافا بها سبعاً تحت جنح الدجى ثمَّ عكفا على هاتيك الأصنام فكان المصطفى يضربها بقضيب في يده فتتحطم وهي كما تعلم من الصخور والحجارة بمعجزة إلٓهية وهو يقول « جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً » وكان عليّ يبعثر حطامها هنا وهناك ليختلط بعضها ببعض وما زالا كذلك حتى أتيا عليها كلّها ولم يبق أمامهما إلاّ الصنم الأكبر وقد كان مقرّه فوق سطح الكعبة وهو مثبت فيها فعمد المصطفى إلى الصعود إلى سطح الكعبة لتحطيمه فقال لعلي : اجلس . فجلس علي القرفصاء وصعد رسول الله على منكبيه وقال : انهض . فنهض علي متثاقلاً بعض النهوض فلما رأى رسول الله ضعفه بالرغم عمّا اشتهر من قوته تبسم وقال : « اجلس فإنّك لا تستطيع حمل ثقل النبوّة » فجلس علي ونزل المصطفى من =

دَعْنِي أَسِيْرُ إِلَيْهَا آلْيَـوْمَ أَنْصَحُهَـا عَسَى تَـطِيْـعُ وَلَا تُبْـدِي تَعَصِّيْهَـا
فَمَـا لَنَـا نَـدْحَـةٌ عَنْهَـا لِنَصْـرَةِ دِيْــ ـنِ آللَّهِ فَـآرْفِقْ بِهَـا دَعْنِي أُدَارِيْهَـا
فَقَالَ : سِرْ مُسْرِعَاً وَآجْهَدْ لَعَلَّكَ بِآلْــ ـتَّسْلِيْمِ لِلَّهِ وَآلْإِسْـلَامِ تُـرْضِيْهَـا
وَهٰـذِهِ بَغْلَتِيْ تَـطْوِيْ آلْفَـلَاةَ بِهَـا مَـعَ آلـرِّيَـاحِ وَلَا تُبْـطِي بِمَـاطِيْهَا
كَذَا آمْتَطَى بَغْلَةَ آلْهَـادِيْ وَسَارَ بِهَـا يَـطْوِيْ آلْقِفَـارَ مُجِـدَّاً فِيْ فَيَـافِيْهَـا
حَتَّى إِذَا مَـا دَنَـا مِنْ مَكَّـةٍ وَبَـدَتْ لَـهُ آلْجِبَـالُ آلَّتِيْ تَغْشَى مَبَـانِيْهَـا
رَأَى هُنَـاكَ أَبَـا سَفْيَـانَ مَعْـهُ حَكِيْــ ـمٌ مَـعْ بَدِيْـلٍ عُيُوْنَـاً فِيْ مَمَاشِيْهَـا
قَـدْ أَرْسَلَتْهَـا قُـرَيْشٌ لِلتَّجَسُّسِ عَنْ طَـهَ مَخَـافَـةَ بِـآلْعُـدْوَى يُفَـاجِيْهَـا

= على منكبيه وفي الحال جلس القرفصاء وقال لعلي : إصعد . فـامتنع علي عن الصعـود احتـراماً لشخص رسـول الله فكرّر عليـه القول : إصعـد يـا علي . فصعـد علي بن أبي طالب على كاهل محمد النبي العربي الأمّي عليهما الصلاة والسلام فنهض به . وحدَّث عليٌّ الناس عن وقفته تلك على كاهل رسـول الله فقال : لمـا نهض بي رسول الله خيّـل لي أنّي لو شئت لنلت أُفق السماء بل لو شئت أن أتنـاول الثريـا بيدي لفعلت . وحينمـا بلغ علي سـطح الكعبة تنـاول ذلك الصنم الضخم بيـديـه القـويتين فخلعـه من الأوتـاد المثبت بها وقذف به إلى أرض الكعبة فتحطم وتحطمت معـه الوثنيـة من جزيـرة العرب كلها . ثمَّ نزل عن كاهل المصطفى وسارا معـاً وقد قضيـا القضاء الأخيـر على كل كفـر وإشراك وعادا عليهمـا الصلاة والسـلام إلى فراشيهمـا . وعند الفجـر أذّن بلال وأسـرع النـاس للصـلاة في الكعبـة فـوجـدوا الأصنـام قـد تحـطمت وصلّوا صـلاة الفجـر وراء المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم . وبعد الصـلاة أعاد رسـول الله مفتاح الكعبـة إلى عثمـان بن طلحـة الشيبي سادنها ثانية ولا يزال مفتاح الكعبة في أعقابه إلى يوم الناس هذا .

وقـد كان فتـح مكة أعـظم حادث في الإسـلام أصبحت بعده قـريش في مقـدمـة أنصاره واستعادت بالإسلام المكانة العليا التي كانت لها في الجاهلية فلا عجب إذا قلنـا أنّـه لم يمض على فتح مكـة سنتان حتى دانت جـزيـرة العـرب بـالإسـلام وتـلاشى من ربوعها كل أثر للأديان الأخرى .

وبَيْنَمَا هِيَ تَسْعَى سَعْيَهَا وَجَدَتْ عَمَّ آلرَّسُوْلِ بِإِسْرَاعٍ مُرَافِيْهَا

وَأَقْبَلَتْ نَحْوَهُ تَجْلُوْ خَبِيْئَتَهُ لَعَلَّ عَنْ جَيْشِ هَادِيْ آلْخَلْقِ يُنْبِيْهَا

فَقَالَ : وَيْحكَ يَا صَخْرُ فَقَدْ هَلَكَتْ قُرَيْشُ آبْنُ أَخِيْ آتٍ لِيُفْنِيْهَا

وَأَنْتَ أَوَّلُ مَنْ يَقْضِيْ بِهَلْكَتِهِ عَلَى آلْمَسَاوِيْ آلَّتِيْ قَدْ كُنْتَ تَأْتِيْهَا

أَعِدْ رَفِيْقَيْكَ حَالاً يُنْبِئَانِ قُرَيْـ ـشَاً أَنْ تُسَلِّمَ وَآلتَّسْلِيْمُ يُنْجِيْهَا

وَسِرْ عَلَى بَغْلَةِ آلْهَادِيْ وَرَائِي كَيْ تَصُوْنَ نَفْسَكَ مِنْ هُلْكٍ يُلاَقِيْهَا

أَنَا أُجِيْرُكَ عِنْدَ آلْمُصْطَفَى وَإِجَا رَتِيْ وَحَقِّكَ مَا طَهَ بِآبِيْهَا

أَصْغَتْ عُيُوْنُ قُرَيْشٍ لِلنَّصِيْحَةِ وَآلْـ ـعَبَّاسُ قَدْ كَانَ بِآلْإِخْلاَصِ يُسْدِيْهَا

وَعَادَ إِبْنُ حِزَامٍ مَعْ بَدِيْلَ إِلَى قُرَيْشَ كَيْ يُبْلِغَاهَا آلنُّصْحَ تَجْرِيْهَا

وَأَرْدَفَ آلْبَرُّ عَبَّاسُ وَرَاهُ أَبَا سَفْيَانَ سَارَ بِهِ فِيْ آلْأَرْضِ يَطْوِيْهَا

حَتَّى إِذَا أَشْرَفَا بَعْدَ آلْمَسِيْرِ عَلَى مَنَازِلٍ جَيْشُ طَهَ كَانَ مَالِيْهَا

وَكَانَ جِنْحُ آلدُّجَى يَمْلَأ آلْفَضَاءَ وَنَا رُ آلْمُسْلِمِيْنَ تَضِيْ فِيْهِ لَوَاظِيْهَا

مَرَّا عَلَيْهَا وَمَا شَامَا مُعَارَضَةً لِأَنَّ بَغْلَةَ طَهَ آلْكُلُّ دَارِيْهَا

لَكِنَّمَا عُمَرٌ مَا إِنْ تَبَيَّنَ صَخْـ ـرَاً صَاحَ إِيْهَاً أَبَا سَفْيَانِنَا إِيْهَا

قَدْ جِئْتَنَا حَيْثُ لاَ عَهْدٌ تَصُوْنُ بِهِ هٰذِيْ آلْحَيَاةَ آلَّتِيْ بِآلْإِثْمِ تَقْضِيْهَا

فَآعْلَمْ بِأَنِّيَ هٰذَا آلْيَوْمَ مُنْتَقِمٌ لِشِرْعَةِ آللَّهِ مِنْ أَعْدَى أَعَادِيْهَا

وَسَارَ يَقْصِدُ طَهَ وَسْطَ خَيْمَتِهِ وَكَانَ سَابِقَهُ آلْعَبَّاسُ آتِيْهَا

طَالَ آلْجِدَالُ وَثُمَّ قَالَ أَحْمَدُ لِلْـ ـعَبَّاسِ : عَوِّهْ أَبَا سَفْيَانَ تَعْوِيْهَا

إِلَى صَبَاحِ غَدٍ حَتَّى نَرَى فَأَنَا لاَ أَظْلِمُ آلنَّاسَ يَا عَمَّاهُ تَعْمِيْهَا

وَفِيْ غَدٍ جَاءَ عَبَّاسٌ بِصَخْرَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَثِيَابُ آلذُّلِّ كَاسِيْهَا

فَقَالَ : أَحْمَدُ آمِنْ يَا زَعِيمَ قُرَيْـــشٍ قَالَ: مَسْأَلَةُ ٱلْإِيْمَانِ نُرْجِيْهَا
فَقَالَ مُبْتَسِمَاً: لَا بُدَّ تُؤْمِنُ يَوْ مَاً إِنَّنِي مُرْسَلٌ لِلنَّاسِ أَهْدِيْهَا
فَقَالَ صَخْرٌ: أَلَا تُولِي ٱلْأَمَانَ قُرَيْـــشَاً إِنْ دَخَلْتَ عَلَيْهَا فِيْ مَآوِيْهَا
فَقَالَ أَحْمَدُ: مَنْ أَلْقَى ٱلسِّلَاحَ أَمِيْـــنٌ أَوْ بَغَى ٱلْكَعْبَةَ ٱلْعَلْيَاءَ يَأْوِيْهَا
ثُمَّ أَشَارَ إِلَى ٱلْعَبَّاسِ قِفْ بِأَبِيْ سُفْيَانَ كَيْ يَعْرِضَ ٱلْأَجْنَادَ يُحْصِيْهَا
فَسَارَ صَخْرٌ مَعَ ٱلْعَبَّاسِ نَحْوَ مَضِيْـــقٍ مِنْهُ طَهَ جُنُوْدُ ٱللَّهِ يُمْشِيْهَا
هُنَاكَ قَدْ وَقَفَا وَٱلْعُرْبُ سَائِرَةٌ إِلَى قُرَيْشٍ صُفُوْفَاً فِيْ تَتَالِيْهَا
حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ بِٱلْأَنْصَارِ قَائِدُهَا سَعْدٌ وَرَايَتُهَا ٱلزَّهْرَاءِ مُعْلِيْهَا
نَادَى بِصَخْرٍ: بِهَذَا ٱلْيَوْمِ كَعْبَتُكُمْ قَدِ ٱسْتُحِلَّتْ لَنَا مَعْ قَهْرِ حَامِيْهَا
وَٱلْيَوْمَ ذَلَّتْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عِزَّتِهَا عَلَى يَدَيْنَا وَقَدْ بِتْنَا مُذِلِّيْهَا
فَهَالَ تَهْدِيْدُ سَعْدٍ نَفْسَ صَاحِبِنَا صَخْرٍ وَبَاتَتْ وَهَوْلُ ٱلذُّلِّ غَاشِيْهَا
حَتَّىٰ إِذَا مَرَّ طَهَ بَيْنَ كَوْكَبَةٍ خَضْرَاءَ مِنْ جُنْدِهِ بَادٍ تَسَطِّيْهَا
وَٱلْمُرْتَضَى بَطَلُ ٱلْإِسْلَامِ يَصْحَبُهُ فِيْ سَيْرِهِ صِحْبَةً تَسْمُوْ مَعَانِيْهَا
نَادَاهُ صَخْرٌ: أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ أَحْمَدُ هَلْ تَسِيْرُ نَحْوَ قُرَيْشَ ٱلْيَوْمَ تُرْزِيْهَا
أَتَسْتَحِلُّ فَدَتْكَ ٱلنَّفْسُ كَعْبَتَنَا وَهَلْ مَذَلَّتُنَا أَصْبَحْتَ بَاغِيْهَا
فَإِنَّ سَعْدَاً بِذِيْ ٱلْوَيْلَاتِ هَدَّدَنِيْ وَقَالَ لِيْ سَائِرٌ ذَا ٱلْيَوْمَ يُجْرِيْهَا
فَٱسْتَغْرَبَ ٱلْمُصْطَفَى تَهْدِيْدَ صَاحِبِهِ لِقَوْمِهِ وَهْوَ لَا يَرْضَى تَلَاشِيْهَا
وَقَالَ عُثْمَانُ : لَا أَمْنٌ بِسَعْدَ عَلَى قُرَيْشَ أَبْعِدْهُ عَنْهَا فَهْوَ مُؤْذِيْهَا
كَذَا ٱبْنُ عُوْفٍ لَقَدْ ثَنَّى مَقَالَةَ عُثْــمَانٍ وَكَانَ رَسُوْلُ ٱللَّهِ مُصْغِيْهَا
حَتَّى إِذَا ٱنْتَهَيَا مَالَ ٱلرَّسُوْلُ إِلَى أَصْحَابِهِ بِٱلَّذِيْ تَبْغِي يُمَنِّيْهَا

وَقَالَ : أَقْوَالُ سَعْدٍ كُلُّهَا كَـذِبٌ   وَلَسْتُ أَسْمَحُ أَنْ تَجْرِيْ أَحَاشِيْهَا

فَٱلْيَوْمَ يَوْمٌ بِهِ لِلنَّاسِ مَرْحَمَةٌ   فَلَا وَرَبِّكَ لَا تَسْعَى لِتُشْقِيْهَا

وَٱلْيَوْمَ يَوْمٌ أَعَزَّ ٱللَّهُ فِيْهِ قُرَيْـ   ـشاً عِزَّةً وَبِهِ أَخْزَى مُذِلِّيْهَا

وَٱلْيَوْمَ عَظَّمَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ كَعْبَتَهُ   وَإِنَّنِي بِٱسْمِهِ ٱلْقُدُّوسِ كَاسِيْهَا

ثُمَّ ٱنْثَنَى لِعَلِيٍّ قَالَ : لَيْسَ لَنَا   إِلَّاكَ مَنْ يَدْفَعُ ٱلْأَخْطَارَ يُقْصِيْهَا

أَسْرِعْ إِلَى سَعْدَ خُذْ فِيْ ٱلْحَالِ رَايَتَهُ   وَقُدْ جُيُوْشِيْ وَكُنْ لِلنَّصْرِ مُخْطِيْهَا

مَضَى أَبُوْ حَسَنٍ فِيْ أَمْرِ صَاحِبِهِ   وَمَا أَوَامِرُهُ إِلَّاهُ يُمْضِيْهَا

وَسَارَ بِٱلرَّكْبِ طَهَ وَهْيَ مُنْشِدَةٌ   حَوْلَيْهِ عَنْ طَرَبٍ أَشْجَى أَغَانِيْهَا

وَقَالَ صَخْرٌ : غَدَا مُلْكُ ٱلْأَمِيْنِ عَظِيْـ   ـماً وَهْوَ قَاهِرُ أَعْدَاهُ وَمُخْزِيْهَا

فَقَالَ عَبَّاسُ: بَلْ هٰذِيْ ٱلنُّبُوَّةُ قَدْ   تَعَزَّزَتْ وَتَعَالَتْ فِيْ مُرِيْدِيْهَا

أَسْرِعْ إِلَى مَكَّةٍ وَٱنْصَحْ جَمَاعَتَهَا   بِأَنْ تُقَابِلَ بِٱلتَّرْحِيْبِ آتِيْهَا

فَجَدَّ جَدّاً أَبُوْ سُفْيَانَ مُبْتَغِيَا   نَصِيْحَةَ ٱلْقَوْمِ يَأْبَى أَنْ يُمَارِيْهَا[1]

---

(١) يحسن بنا هنا أن نذكر شيئاً من ترجمة أبي سفيان هذا فنقول : هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القرشي الأموي المكي كان في الجاهلية تاجراً يبيع الزيت والأدم ويجهز التجارة بماله وأموال قريش إلى بلاد الشام والعراق . وكان من سادات قريش المعدودين وما زال كذلك إلى أن قامت قيامة قريش على الهواشم وتحالفت ضدها قبيل الهجرة حينئذٍ انتهت إليه زعامة قريش العليا وأصبح وكلمته نافذة على الجميع وأخذ على عاتقه محاربة الإسلام والمسلمين . وكان عند الهجرة في نحو السابعة والخمسين من عمره وقد مرَّ معنا فيما تقدم من مجمل حوادث المغازي النبوية الجهد الذي بذله أبو سفيان لإطفاء نور الله وأبى الله إلّا أن يتمّ نوره .

وفي السنة السادسة للهجرة قصد أبو سفيان الشام للتجارة فأحبَّ هرقل ملك الروم وكان وقتئذٍ في الشام أن يقف منه على ما كان يسمعه من نبأ محمد والإسلام فاستدعاه =

وَإِذْ أَتَى مَكَّةَ نَادَى بِهَا عَلَنَاً: إِنَّ ٱلْأَمِيْنَ عَلَى ٱلْأَبْوَابِ غَازِيْهَا
وَإِنَّهُ مُعْلِنٌ فِيْهَا ٱلْأَمَانَ إِذَا مَا سَالَمَتْهُ وَلَمْ تُظْهِرْ تَعَصِّيْهَا
وَهٰكَذَا سَلَّمَتْ أُمُّ ٱلْقِرَى لِنَبِيِّ ٱللَّهِ سِلْمَاً وَكَانَ ٱلْخَوْفُ فَاشِيْهَا
وَهٰكَذَا فُتِحَتْ لِلْمُسْلِمِيْنَ حُصُوْ نُ ٱلْمُشْرِكِيْنَ ٱلْأُلَى هَابُوا تَدَاعِيْهَا
وَمَا دَرَى أَهْلُهَا إِلَّا وَأَحْمَدُ فِيْ رُبُوْعِهَا بِجُمُوْعٍ تَاهَ مُحْصِيْهَا
فَمِنْ مُشَاةٍ وَقَدْ أَنْضَتْ مَوَاضِيْهَا وَمِنْ كُمَاةٍ وَقَدْ هَزَّتْ عَوَالِيْهَا
وَبَيْنَهَا ٱلْمُصْطَفَى بِٱلنَّصْرِ دَاخِلُهَا وَبِٱلْخُشُوْعِ وَبِٱلتَّقْوَى مُوَافِيْهَا
قَدِ ٱمْتَطَى ٱلنَّاقَةَ ٱلْقَصْوَاءَ وَهْيَ بِهَا دِيْ ٱلْخَلْقِ مُطْرَبَةٌ تُبْدِيْ تَهَادِيْهَا
وَرَأْسُهُ طَاعَةً لِلَّهِ مُلْتَصِقٌ بِرَحْلِهَا وَهْوَ آيُ ٱلْفَتْحِ تَالِيْهَا
تَرَى ٱلْغُزَاةَ بِفِرْزِ ٱلرَّحْلِ مُمْسِكَةً تُوَحِّدُ ٱللَّهَ أَوْفَى ٱلنَّصْرِ مُوْلِيْهَا

=إليه وباحثه في الأمر ملياً بواسطة ترجمان وقال أبو سفيان لأصحابه بعد أن خرج من عند ملك الروم «لقد أمر ابن أبي كبشة (ويريد محمداً ﷺ) وأصبح ملوك الروم يهابونه في سلطانهم» وعرف الناس من قوله هذا أنّ أبا سفيان فهم من حديث هرقل بأنّه بات متخوفاً من الإسلام الذي ظهر في بلاد العرب. ومع ذلك ظلّ أبو سفيان هذا متمادياً بعداوة المصطفى يحارب المسلمين جهده ويحزّب الأحزاب ضدهم إلى يوم فتح مكة حيث أسلم مع بقية قريش كما تقدم.

وأول شاهد أبي سفيان مع المسلمين كانت في غزوة حنين في السنة الثامنة للهجرة ولما قسمت الغنائم أعطاه المصطفى مئة بعيراً منها إشارة إلى مكانته في قريش. ثمّ اشترك أبو سفيان في يوم الطائف فأصابته نبلة في إحدى عينيه ففقئت وأصبح أعور. واشترك أبو سفيان في واقعة اليرموك سنة ١٣ للهجرة على عهد أبي بكر فأصابت نبلة عينه الثانية ففقأتها وأصبح أعمى. وتوفي أبو سفيان في دمشق عند ولده معاوية وكان واليها سنة ٣١ للهجرة عن ٨٨ سنة ودفن فيها.

كَـانَتْ تُكَبِّرُ تَكْبِيْـراً دَوَى بِفَضَـا أُمِّ ٱلْقِـرَى دَاعِيَـاً لِلْحَقِّ أَهْـلِيْهَـا

وَإِذْ أَتَى ٱلْكَعْبَـةَ ٱلزَّهْـرَاءَ طَافَ بِهَا سَبْعَـاً يُسَابِقُ فِيْهَـا مُسْتَـطِيْفِيْهَـا

ثُمَّ عَلَى بَـابِـهَـا أَلْقَى خِـطَابَتَـهُ وَٱلنَّـاسُ تَعجَبُ إِعْجَابَـاً بُمُلْقِيْهَا

فَـوَحَّـدَ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـرْشِ نَـاصِـرَهُ عَلَى عِـدَى ٱلـدِّيْنِ إِنْسِيْهَا وَجِنِّيْهَا

وَقَـالَ إِنَّ دَعَـاوِيْ ٱلْقَـوْمِ بَـاطِلَةٌ فَلْتَعْدِلِ ٱلنَّاسُ عَـنْ مَاضِيْ دَعَاوِيْهَا

إِلَّا سَـدَانَـةُ بَيْتِ ٱللَّهِ كَـعْبَتِـهِ إِنِّيْ لَتَـارِكُـهَـا عَفْـوَاً لِـشَيْـبِيْـهَـا

كَـذَا ٱلسِّقَايَـةُ مُبْقِيْهَا لِصَـاحِبِهَا كَيْمَا يُلَاقِيْ بِهَا ٱلْحُجَّاجَ يَسْقِيْهَا

وَيَا قُرَيْشُ دَعِيْ مَاضِيْ ٱلتَّعَاظُمِ بِٱلآ م بَـاءِ خَيْـرُ عِبَـادِ ٱللَّهِ تَـاقِيْـهَـا

فَـٱلنَّـاسُ مِنْ آدَمٍ طُـرَّاً وَآدَمُ مِـنْ تُرَابِ ذِيْ ٱلْأَرْضِ جَلَّ ٱللَّهُ ذَارِيْهَا

وَمَـا تَـظُنِّيْنَ إِنِّـيْ ٱلْيَـوْمَ فَـاعِلُهُ فَـأَحْسَنَتْ كُلُّهَـا فِيْـهِ تُـظَنِّيْـهَـا

فَقَـالَ: أَنْتُمُ يَـا أَهْـلَ ٱلْـوَلَا طُلَقَـا ءُ فَـٱذْهَبُـوْا وَبِكُمْ نَفسِيْ أُهَنِّيْـهَـا

وَإِذْ رَأَتْ كَـرَمَ ٱلْهَـادِيْ قُـرَيْشٌ فَلَمْ يَبْـطُشْ بِهَا بَـلْ غَدَا لُـطْفَاً يُؤَاسِيْهَا

تَـشَهَّـدَتْ أَسْـلَمَـتْ لِـلَّهِ رَاضِـيَـةً بِـدِيْنِ أَحْمَـدَ غَـازِيْهَـا وَوَالِيْهَـا

وَبِـٱلْحَنِيْفِيَـةِ ٱلسَّمْحَـاءِ قَـدْ رَضِيَتْ دِينَـاً وَطَـابَ لَهَـا ضَـافِيْ تَفَيِّيْهَـا

وَفِيْ دُجَى ٱللَّيْـلِ وَٱلْأَعْرَابُ نَـائِمَةٌ بِمَكَّـةٍ فِيْ أَمَـانٍ مِنْ غَـوَاشِيْهَـا[1]

---

(١) إنّ الكعبـة المعظمـة وهي التي تسمى « البيت العتيق » بناها سيدنـا إبراهيم وولده اسماعيل عليهما الصلاة والسلام لما هاجرا إلى مكة بنياها على شكل مربع زواياه إلى الجهات الأربع حتى تتكسر عليها تيارات الهواء فلا يؤثر ضغط الرياح على كتلتها ، وطـريقة البنـاء هذه هي التي اتّبعهـا الفراعنـة في بناء الأهـرام المصريـة فكانت مـوضع إعجاب أكابر مهندسي العالم في كل عصـر . وما زالت الكعبـة على بناء إبـراهيم حتى جدّد بناءها العمالقة ثمَّ جرهم . ولما آل أمر البيت إلى قصي بن كلاب في القرن الثاني =

=قبل الهجرة هدمها وأعاد بناءها فأحكمه وجعل سقفها من خشب الدوم وجزوع النخل وبنى إلى جانبها دار الندوة وهي أهمّ بناء في مكة بعد الكعبة وجعلها مقرّاً لحكومته وموضعاً لشوراه . ثمَّ قسم جهات الكعبة بين طوائف قريش فبنوا دورهم على المطاف حولها وكانت تخرج الأبواب إليها . وقبل البعثة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام بنحو خمس سنوات هدم السيل الكعبة فاقتسمت قريش بناءها بين قبائلها وكان ياقوم الرومي هو مهندس بنائها بمساعدة نجار مصري فلما انتهوا إلى وضع الحجر الأسود اختلفوا في أي قبائل قريش تختصّ بشرف وضعه في محله وكاد يقضي اختلافها إلى حرب أهلية لو لم يتدارك الأمر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وكان في الخامسة والثلاثين من عمره السعيد الشريف وكان يشتغل معهم في بنائها وكان معروفاً منهم جميعاً بكمال سيرته وعلوّ أخلاقه وصدقه حتى كانوا يدعونه « الأمين » فارتضوه صلى الله عليه وآله وسلم حكماً فأخذ رداءً وضع فيه الحجر الأسود وأمر رجال القبائل فمسكوا أطرافه ورفعوه بالحجر حتى إذا وصلوا به إلى مكانه من البناء في الركن الشرقي وضعه في موضعه بيده الشريفة . وكان الحجر داخلاً في الكعبة فلمّا نادى عبد الله بن الزبير بنفسه خليفة وهو في مكة وأرسل يزيد بن معاوية جيشه لإخضاعه التجأ الزبير إلى المسجد الحرام فضربه الحصين قائد جيش يزيد بالمنجنيقات فأصابت بعض مقذوفاتها الكعبة فهدمتها وأحرقت كسوتها مع بعض أخشابها . على أنّ الحصين لم يلبث أن عاد عن مكة إذ بلغه هلاك يزيد وحينئذٍ هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وأتى لها من اليمن بالجصّ النقي فبناها به وأدخل الحجر في البيت وألصق الباب بالأرض وجعل قبالته إلى الغرب باباً آخر ليخرج الناس منه وجعل ارتفاعه ٢٧ ذراعاً ولما فرغ من بناء الكعبة طيّبها بالمسك والعنبر داخلاً وخارجاً وكساها بالديباج وكان نجاز بنائها في ١٧ رجب سنة ٦٤ للهجرة . ولما ولي الخلافة في الشام عبد الملك بن مروان أرسل على عبد الله بن الزبير قائده الحجاج بن يوسف الثقفي فحصر مكة وفتحها وقتل ابن الزبير « سنة ٧٣ هـ » وأعاد الكعبة إلى ما كانت عليه على عهد المصطفى ولم يطرأ عليها بعد ذلك إلاّ العمارة التي تغير فيها سقفها في زمن السلطان سليم العثماني « سنة ٩٦٠هـ » ثمَّ العمارة الترميمية التي حصلت في زمن السلطان أحمد « سنة ١٠٢١ هـ » ثمَّ العمارة التي أمر بها السلطان مراد الرابع على أثر السيل الهائل الذي حصل في سنة ١٠٣٩ هـ فأحدث فيها صدوعاً رممت بأمر السلطان المذكور . =

= أمّا شكل الكعبة على التعديل الذي أحدثه الحجـاج وقال إنّـه طبق الشكل الـذي كان على عهد رسول الله ﷺ وهو الشكل الذي لا يـزال باقيـاً حتى الآن ، فهو شكـل مربع تقريباً ، مبني بالحجارة الـزرقاء الصلبـة ، ويبلغ ارتفاع البنـاء خمسة عشـر متراً ، وطول ضلعه الذي فيه الميزاب والذي قبالته ، عشـرة أمتار وعشـرة سنتيمترات ، وطـول الضلع الذي فيه الباب والذي يقابله اثنا عشر متراً، وباب الكعبـة على ارتفاع متـرين من الأرض ، ويصعد إليه بدرج يحكي مدارج المنابر ، ودرجها الحالي من الخشب مصفح بالفضة ، أهداه إلى الكعبة أحد أمراء الهند ، وهو نقّال لا يوضـع في مكانـه منها إلاّ إذا فتح بابهـا للزائرين في الاحتفـالات الكبرى ، وهـذه الاحتفالات لا تتجـاوز ١٥ مرة في السنة ، وموضع هذا الدرج اعتيادياً بجوار قبة زمزم من جهـة باب شيبـة ، على أنَّ لباب الكعبة درجاً خشبياً بسيطاً يوضع أمـام بابهـا على الدوام . وفي الـركن الذي على يسـار باب الكعبة الحجر الأسود ، وهو موضوع على ارتفاع متر ونصف من أرضية المكان .

ويحيط بالكعبة من خارجها سور من البناء متوسط ارتفاعه ربع متر ومتوسط عرضه ثلاثون ســنتيمتراً ، ويسمـون هذا السـور « شاذروان » ولعلّهم أقـاموا هـذا السور حـول الكعبة لوقايتها من تأثير السيول التي تنزل بكثـرة من الجبال المحيـطة بمكة إلى الـوادي الذي فيه البلد والكعبة .

ويسمـون زوايا الكعبـة الخارجيـة بالأركـان ، فالشمـالي منهـا يسمـونـه « الـركن العـراقي » والغربي « الـركن الشامي » والقبلي « الـركن اليماني » وفيـه حجـر يسمـونـه « الحجر الأسعد » والشرقي « الركن الأسود » لأنّ فيه الحجر الأسود وتسمية هذه الأركان ترجع إلى اتجاهها .

أمّا الحجر الأسود : فهو حجر صقيل بيضاوي ، غير منتظم ، ولونه أسود يميل إلى الإحمـرار ، وفيه نقط حمـراء ، وتعاريـج صفراء ، وهي أثـر لحـام القـطع التي كـانت تكسـرت منـه ، وقـطره نحـو ٣٠ سنتيمتـراً ، ويحيط بـه إطـار من الفضـة عـرضـه ١٠ سنتيمترات ، والمسافة التي بين ركن الحجر وبـاب الكعبة يسمـونها الملتـزم ، وهو مـا يلتزمه الطائف في دعائه واستغاثته هناك .

ويخـرج من على منتصف حائط الكعبـة الشمالي الغـربي الميـزاب « المـزراب » =

كَـانَتْ بِكَثْـرَتِهَـا تَمْـلَا جَـوَانِبَـهُ   وَٱلْعُـرْبُ تَعْبُـدُهَـا زُلْفَى لِبَـارِيْهَـا

=ويسمونه « ميزاب الرحمة » وهو من بناء الحجاج وضعه على سطح الكعبة لتجري المياه منه ؛ وكان من النحاس فأبدله السلطان سليمان العثماني سنة ٩٥٩ هـ بآخر من الفضة ، ثمَّ استبدل السلطان أحمد العثماني هذا الميزاب بغيره من الفضة المنقوشة المزركشة بميناء زرقاء تتخللها نقوش ذهبية سنة ١٠٢١ هـ . وبعد ذلك صنع السلطان عبد المجيد العثماني سنة ١٢٧٣ ميزاباً من الذهب وأرسله إلى الكعبة فوضع على سطحها وهو الموجود الآن ونقل ميزاب السلطان أحمد إلى الآستانة وحفظ في دار الآثار فيها .

وقبالة الميزاب من الخارج « الحطيم » وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتي الكعبة الشمالية والغربية ، ويبعد عنهما مسافة مترين ، ويبلغ ارتفاعه متراً ، وسمكه متراً ونصفاً ، وهو مغلف بالرخام المنقوش ، ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ٨ أمتار و٤٤ سنتيمتراً ، والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط الكعبة يسمونه « حجر اسماعيل » وكان نحو ثلاثة أمتار منه في نفس بناء الكعبة كما بناها إبراهيم الخليل وولده اسماعيل عليه السلام والباقي كان زريبة لغنم هاجر وولدها اسماعيل ويقال إنّهما مدفونان في هذا الموضع .

أمّا داخل الكعبة فشكله مربع مشطور الزاوية الشمالية ، وهي التي على يمين الداخل وبهذا الموضع باب صغير يسمونه « باب التوبة » يوصل إلى سلم صغير يصعد به إلى سطح الكعبة ، وفي وسط الكعبة من الداخل ثلاثة أعمدة من العود القافلي ، عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الأسود من الجهة الأخرى . وقطر كل عامود نحو ٣٠ سنتيمتراً ، وهذه الأعمدة من وضع عبد الله بن الزبير ، ويغطي سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردي عليها مربعات مكتوب فيها « الله جلّ جلاله » وهذه الكسوة هدية من السلطان عبد العزيز العثماني . وفي قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلّي فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ويحيط بناء الكعبة من الداخل إزار من الرخام المجزّع على ارتفاع نحو مترين ، وقد وضع في الحائط الغربي ألواح محفور عليها أسماء الذين جددوا شيئاً في الكعبة من السلاطين والأمراء . وبجانب باب الكعبة من داخلها على اليسار طاولة من الخشب ، مغطاة بستارة من الحرير الأخضر ، موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة ، وهو من الأطلس =

وَكُلُّ حَيٍّ مِنَ ٱلْعُرْبِ ٱلْكِرَامِ لَهُ   هُنَاكَ دُمْيَةُ شِرْكٍ كَانَ يَتْقِيْهَا

= الأخضر المزركش بالقصب ، يأتي إليها سنوياً من مصر مع الكسوة الشريفة ، ومعلّق بسقف الكعبة عدة مصابيح ذهبية وفضية وبعضها مرصع بالأحجار الكريمة . وتفتح الكعبة في العاشر من محرم للرجال ، وفي ليلة ١١ منه للنساء ، وفي ليلة ١٢ من ربيع الأول للدعاء من غير أن يدخلها أحد من الزائرين ، وفي صبيحته للرجال ، وفي مسائه للنساء ، وفي ٢٠ منه لغسل الكعبة « وكان يحضر الغسل على العهد العثماني شريف مكة والوالي وبعد استقلال الحجاز صار يحضر الغسل جلالة ملك الحجاز ووزراؤه » وفي أول جمعة من رجب للرجال ، وفي تاليه للنساء وفي صباح تاليه للرجال ، وفي مسائه للنساء ، وفي السابع عشر منه للدعاء ، وفي آخر جمعة منه كذلك ، وفي نصف ذي القعدة للرجال ، وفي تاليه للنساء ، وفي ٢٠ منه لغسل الكعبة . وفي ٢٨ منه لإحرامها « وذلك في بدء وقت الحج أمّا طريقة إحرامها فهي أنّهم يحيطونها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرض المكان بعد أن يقصوا بهذا المقدار من ستار الكعبة تعجيلاً لبيعه من الحجاج . وتفتح الكعبة في موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظير أجر يأخذه سدنتها ، وتفتح في ٢٠ من ذي الحجة للغسل .

ولغسل الكعبة احتفال عظيم يحضره جلالة ملك الحجاز ووزراؤه وأعيان مكة . فيدخل جلالة الملك داخل الكعبة فيصلي ركعتين ثمَّ يؤتى إليه بجراول ماء من عين زمزم فيدفقها على أرضها ثمَّ يباشر غسلها مع من معه بمكانس صغيرة من الحوض معدَّة لهذا الغرض ، ويسيل الماء من ثقب في عتبتها ، ثمّ يغسلها جلالة الملك بماء الورد ، ويضمخ أرضيتها وحيطانها على ارتفاع الأيدي بالخلوق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك ، وفي أثناء ذلك يكون البخور بالندّ والعود صاعداً من جميع جهاتها ، ثمَّ يقف جلالة الملك في الباب ويلقي بالمكانس وطول الواحدة ٣٠ سانتيمتراً ، على الجموع المحتشدة فيتزاحمون على تناولها والسعيد منهم من يفوز بواحدة منها للبركة .

والكعبة مكسوة من الخارج ، وهي كذلك من أجل بعيد ، وأول من كساها تبع أبو كرب أسعد ملك حِمْيَر حين مرّ عليها راجعاً من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة ، كساها بالبرد المقصبة وعمل لها باباً ومفتاحاً . وتبعه خلفاؤه فكانوا يكسونها بالجلد والقباطي زمناً طويلاً ، ثم أخذ الناس يقدمون لها هدايا من الكساوي المختلفة فيضعون بعضها فوق البعض ، ولما انتهى أمر مكة إلى قصي وضع على القبائل رفادة =

دُمًى أُقِيمَتْ وَإِبْلِيْسُ مُثَبِّتُهَا   وَلَعْنَةُ اللَّهِ قَدْ غَشَّتْ مَرَائِيْهَا

= لكسوتها سنوياً واستمرّ ذلك إلى بنيه ، وكان أبو ربيعة بن المغيرة قبل الإسلام يكسوها سنة وقبائل قريش تكسوها سنة ، وقد كساها النبي ﷺ بالثياب اليمانية ، ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وعبد الملك بن مروان ، ولما حجَّ المهدي الخليفة العباسي سنة ١٦٠ هـ كان على الكعبة جملة كساوي فشكا إليه سدنتها من كثرتها فأمر بإنزالها تخفيفاً عن سقفها وأمر بأن لا تعلق عليها سوى كسوة واحدة ، ومن هذا التاريخ صار لا يوضع عليها غير كسوة واحدة وصار سدنة الكعبة يوزعون ستار الكعبة القديمة على الحجاج بالثمن الذي يختص به سدنتها .

وبالغ الخلفاء العباسيون بكسوة الكعبة وكانوا يعملونها من الحرير الأسود الذي هو شعارهم وكانوا يستصنعونها في مدينة تنيس المصرية وهي ثغر على البحر المتوسط في شمال دمياط هدمه الملك الكامل سنة ٦٢٤ هـ لكثرة ما كانت تهاجمه سفن الإفرنج في الحروب الصليبية . ولما ضعف شأن الخلفاء العباسيين صارت كسوة الكعبة ترسل لها تارة من ملوك اليمن وأخرى من ملوك مصر إلّا أنّها ما كانت ترسل سنوياً ، ثم اختصَّ بها سلاطين مصر فوقف عليها الملك الصالح ابن الملك الناصر ابن قلاوون قريتي باسوس وسندبيس من أعمال القليوبية فكان خراجهما مختصاً بصنع كسوة الكعبة وكانت العادة أنّه كلما قام على مصر ملك أو سلطان يرسل للكعبة كسوةً داخلية من الحرير الأحمر وأخرى خضراء للحجرة الشريفة النبوية في المدينة المنورة وأمّا الكسوة الخارجية فكانت ترسلها مصر سنوياً وهي من الحرير الأسود ولا تزال هذه العادة جارية في مصر حتى الآن .

وكسوة الكعبة الخارجية تتألف من ثمان ستائر من الحرير الأسود يكتب عليها بالقصب في كل مكان منها « لا إله إلّا الله محمد رسول الله » وطول الستارة نحواً من ١٥ متراً ومتوسط عرضها ٥ أمتار وبعض سنتيمترات ، وتعلق كل ستارتين على جهة من جهات الكعبة ، فتربطان من أعلاهما في حلقات من الحديد تثبتت في سقف الكعبة ، ثم تربطان إلى بعضهما بواسطة عرى وازرة وتثبتان من الأسفل في حلقات مثبتة في « الشاذروان » ثم تربط هذه الستائر ببعضها عند الأركان بعرى وازرة فتصبح كالقميص على جسم الكعبة ، ثم يوضع على محيط الكعبة فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الأعلى حزام يسمونه « رنكاً » مركب من أربع قطع مصنوعة من المخيش المذهب =

= « القصب » مكتوب عليه آيات قرآنية فيكون كالزنار لذلك القميص .

ويتبع هذه الكسوة الشريفة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها « البرقع » وستارة باب التوبة من داخلها ، وكيس مفاتيح الكعبة ، وكسوة مقام إبراهيم الخليل ، وستارة باب منبر الحرم الشريف ، وكل هذه الأشياء تصنع من الأطلس الأسود وتزركش بالقصب وعليها آيات قرآنية .

وللكسوة الشريفة مربوط مخصص في ميزانية الحكومة المصرية قدره ٤٥٥٠ جنيهاً وتحتفل مصر احتفالاً عظيماً بإرسال الكسوة مع المحمل المصري سنوياً تعطل في يومه دواوين الحكومة وكذلك تحتفل يوم رجوع المحمل . أمّا الكسوة القديمة فتقطع قطعاً وتباع للحجاج للبركة وذلك عند وصول الكسوة الجديدة قبيل عيد الأضحى المبارك كما سبقت الإشارة .

أمّا مطاف الكعبة فهو على شكل دائرة بيضاوية من الشمال إلى الجنوب ، وقد فرشت أرضه بالرخام من عهد عهيد ، وهو على حدود الحرم في عهد المصطفى ﷺ ؛ ومسافة ما بين آخره والكعبة من جهة الغرب والجنوب نحو ١٩ متراً ، ومن جهة الشمال والشرق نحو ١٢ متراً وفيه لصق البيت مما يلي باب الكعبة إلى الشمال جزء مربع منحط عنه سعته نحو المترين من كل جهة يسمى « المعجن » وقطر دائرة المطاف من الشمال إلى الجنوب نحو ٥١ متراً ومن الشرق إلى الغرب نحو ٤١ متراً ، والكعبة في وسط المطاف تقريباً .

وأما الحرم المكي فكان في عهد رسول الله ﷺ على حدود المطاف الآن ، وهي حدوده القديمة على عهد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وزاد فيه عمر وعثمان مما اشترياه من الدور التي حوله ، ثم زاد فيه عبد الله بن الزبير عندما جدّد بناء الكعبة ، وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي وعمره عمارة حسنة ، ولما حجّ المهدي الخليفة العباسي سنة ١٦٠ هـ رأى أنّ الكعبة ليست في وسط المسجد فاشترى كثيراً من الدور ولا سيما التي في الجهة الشرقية القبلية وأدخلها إلى المسجد . وزاد فيه أيضاً ابنه الهادي . وكانت دار الندوة عامرة بالحرم تجاه الكعبة من الجهة الشمالية الغربية . وكان ينزل فيها الخلفاء والأمراء في حجهم . فهدمها المعتضد الخليفة=

العباسي سنة ٢٨١ هـ وجعلها مسجداً قائماً بنفسه ، ولها قبلة إلى الكعبة . واستمر هذا المسجد مصلّى الإمام الحنفي إلى سنة ٩٤٧ هـ حيث هدمه كلدي أمير جده وبناه ثانيةً مسجداً ذا طبقتين إحداهما للإمام والمصلين والثانية للمؤذنين والمبلغين وهو لا يزال كذلك حتى الآن. ثم طفق سلاطين مصر يقومون بتعمير ما يتهدم من الحرم المكي الشريف إلى أن استولت على البلاد الدولة العثمانية فصار السلاطين العثمانيون يقومون بهذا الواجب المقدس .

والحرم المكي من داخله على شكل مربع تقريباً وفي وسطه يميل إلى الزاوية الجنوبية الكعبة المكرمة . وطول ضلع الحرم المقابل للحطيم الذي فيه باب الزيادة ١٦٤ متراً وطول الضلع الذي يقابله وهو الذي فيه باب الصف ١٦٤ متراً . وطول ضلعه الذي فيه باب السلام ١٠٨ أمتار . وطول الضلع الذي يقابله وفيه باب إبراهيم ١٠٩ أمتار . ويحيط بالحرم من داخله أربعة أروقة فيها ٣١١ عاموداً . تقوم عليها قباب على محيط المسجد . وأبواب الحرم ثمانية في الجهة الشمالية وهي : باب الدريبة . وباب المدرسة . وباب الحكمة . وباب الزيادة . « إشارة إلى أن هذه الجهة زادت في المسجد ولم تكن منه » وبجواره إلى الغرب باب القطبي . وباب الباسطية . وباب الزمازمية . وباب عمرو بن العاص « وكان يسمى باب العتيق أو باب السدة » . ويليه من الجانب الغربي ثلاثة أبواب وهي : باب العمرة « لأنّ الحجاج يخرجون منه إلى العمرة » وباب إبراهيم. ثمّ باب الحزورة « والحزورة إسم لسوق في الجاهلية كانت في مكان هذا الباب » . ويليه من الجهة الجنوبية سبعة أبواب وهي : باب أم هاني « وهي زوجة هبيرة بن عمرو المخزومي وكان بيتها في موضع هذا الباب » وباب العجلة . وباب الرحمة . وباب أجياد . وباب الصفا . وباب بني مخزوم . ثمّ باب بازان . ويلي ذلك من الجهة الشرقية أربعة أبواب وهي : باب علي « ويسمى أيضاً باب بني هاشم » وباب العباس « لأنّه مقابل لدار العباس عمّ النبي » وباب النبي « لأنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كان يدخل منه إلى الكعبة لقربه من بيت سيدتنا خديجة » ثمّ باب السلام وهو الذي يدخل منه الحاج إلى الحرم عند طواف القدوم .

وفي الحرم المكي ستّ منارات ويؤذن عليها كلها في الأوقات الخمس على أنّ شيخ المؤذنين ويسمونه « الميقاتي » يؤذن على قبة زمزم وهي التي بناها أبو جعفر=

فَبَاشَرَ ٱلْمُصْطَفَى تَحْطِيْمَهَا بِقَضِـــيْبٍ وَٱلْعَلِيُّ عَلَى ٱلْعَبْرَاءِ يُذْرِيْهَا

مَا كَادَ يَهْوِيْ لَهَا إِلَّا وَقَدْ شَهِدَا مِنْ فَضْلِ رَبِّهِمَا ٱلْأَعْلَى تَهَاوِيْهَا

رَاحَا يَقُوْلَانِ جَاءَ ٱلْحَقُّ يُزْهِقُ مَا فِيْ ٱلْأَرْضِ مِنْ بَاطِلٍ قَدْ كَانَ يُغْوِيْهَا

وَكَانَ أَكْبَرُ أَصْنَامِ ٱلْأَعَارِبِ فَوْ قَ ٱلْكَعْبَةِ ٱلنَّائِلُ ٱلْغُفْرَانَ نَاحِيْهَا

بَيْتٌ لِتَوْحِيْدِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ شُيِّدَ لَا لِلْوُثْنِ أَلَّهَهَا ٱلْجُهَّالُ تَأْلِيْهَا

فَحَاذَيَاهُ وَقَالَ ٱلْمُصْطَفَى لِعَلِــيٍّ : إِنَّنِيْ ٱلْكَعْبَةُ ٱلشَّمَاءُ رَاقِيْهَا

أَجْلِسْ وَفِيْ ٱلْحَالِ كَتْفَيْهِ ٱلرَّسُوْلُ عَلَا وَقَالَ : فَٱنْهَضْ لِكَيْ أَلْقَى أَعَالِيْهَا

أَعْيَا قُوَى ٱلْمُرْتَضَى حَمْلُ ٱلنُّبُوَّةِ فِيْ شَخْصِ ٱلنَّبِيِّ وَمَا ٱلْأَثْقَالُ تُعْيِيْهَا

فَقَالَ طَهَ : فَعُدْ وَٱجْلِسْ فَإِنَّ قِوَا مَ كَ ٱلْخَائِرَاتِ حَرِيٌّ أَنْ أُدَارِيْهَا

ثُمَّ جَثَا قَائِلًا : فَٱصْعَدْ فَكَتْفِيَ أَوْ مَ لَى أَنْ تَشِيْلَكَ لَا تَرْهَبْ تَلَوِّيْهَا

أَجَابَ أُكْرِمْتَ أَنْ أَعْلُوْكَ قَالَ لَهُ: لَا فَعْلَةٌ فِيْ رِضَى رَبِّي أُجَافِيْهَا

كَذَا عَلَا كَاهِلَ ٱلْهَادِيْ عَلِيٌّ وَلَوْ أَرَادَ غَشْيَ ٱلثُّرَيَّا كَانَ غَاشِيْهَا

فَقَالَ أَحْمَدُ: أَلْقِ ٱلْآنَ أَكْبَرَ أَصْـــنَامِ ٱلْأَعَارِبِ يَكْفِيْهِمْ تَسَدِّيْهَا

فَهَزَّهُ ٱلْمُرْتَضَى بِٱلْعُنْفِ هَزَّ بِهِ عِبَادَةَ ٱلْوُثْنِ هَزَّاتٍ تُلَاشِيْهَا

وَمَا تَنَاوَلَهُ حَتَّى رَمَاهُ فَنَا دَىْ ٱلْمُصْطَفَى أَزْهَقَ ٱللَّهُ ٱلتَّرَارِيْهَا

= المنصور الخليفة العباسي سنة ١٤ هـ وتحت هذه القبة بئر زمزم التي يستقي منها الحجاج ويحضرون معهم من مائها إلى بلادهم للبركة .

أمّا الأصنام التي كانت في الكعبة وأزالها المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام فقد كانت تملأ مسجد الكعبة وقد تقدم معنا تاريخ إدخالها إلى الكعبة في حاشية سبقت .

وَقَــدْ تَحَـطَّمَ تَحْـطِيْمَــاً بِــرَمْيَتِــهِ وَٱللَّهُ بَــارَكَ كَفَّــاً وَهْـيَ تَــرْمِيْـهَــا
وَإِنَّ أَفْضَــلَ أَعْمَــالِ ٱلنُّبُــوَّةِ تَـحْـــطِيْمُ ٱلتَّمَـاثِيْلِ بَـلْ أَسْمَى مَـآتِيْهَـا
بِـهِ ٱلْخَلاَئِقُ قَـدْ أَضْحَتْ مُـوَحِّـدَةً يَجْثُـوْ إِلَى ٱللَّهِ بِـٱلْإِخْبَـاتِ جَـاثِيْهَـا
وَقَـدْ تَطَهَّـرَتِ ٱلْعُـرْبَـانُ مِنْ رَجَسَـا تِ ٱلشِّرْكِ حَاضِـرُهَا ٱلـزَّاهِـيْ وَآتِيْهَا
وَوَقْفَةُ ٱلْمُرْتَضَى مِنْ فَوْقِ كَتْفِ رَسُوْ لِ ٱللَّهِ أَكْسَبَتْـهُ ٱلـدَّهْــرَ تَـوْجِيْهَــا

أمير المؤمنين يصلح ما أفسده خالد

قَدْ شَايَعَـتْ أَحْمَدَ ٱلْهَادِيْ بِشِـرْعَتِهِ قَبَـائِلٌ وَٱهْتَـدَتْ مَا كَـانَ دَارِيْهَـا[1]
فَـأَسْلَمَتْ وَٱنْثَنَتْ عَنْ شِرْكِهَـا وَأَقَـرَّ تْ بِــٱلشَّهَـادَةِ تَـوْحِيْـدَاً لِبَــارِيْهَـا

---

(١) ذاع الإسلام وشاع في جزيرة العرب بفضل الله تعالى حتى إنّ بعض قبائل العرب دانت بالإسلام وقامت بفرائضه وابتنت المساجد وعمرتها بالسجود والعبادة ولم يتصل نبأها برسول الله ﷺ ومن هذه القبائل التي دانت بالإسلام قبيلة بني جذيمة وكانت نازلة بناحية «يلملم» وكانت هذه القبيلة في الجاهلية ذات حول وطول وقد وترت الناس بمن قتلت منهم ومن قتلاها الفاكه عمّ خالد بن الوليد وعوف والد عبد الرحمن بن عوف الصحابي المشهور وغيرهم من كبار رجالات قريش ولعلّها ما أسرعت إلى الإسلام إلّا لتحتمي به من الذين وترتهم .

ولما دخل رسول الله مكّة المكرّمة ظافراً منصوراً ودخلت قريش في الإسلام أفواجاً حسن للمصطفى أن يرسل سرية لبني جذيمة والظاهر من واقعة الحال أنّ الموتورين من قريش هم الذين حسنوا للمصطفى إرسال هذه السرية إلى جذيمة وأنّ غرضهم لم يفت رسول الله ﷺ فأمر السرية بالمسير عليها ولكن حصر مهمتها بدعوة القبيلة إلى الإسلام فقط فلم يسمح لها بمقاتلتها ولو رفضت الدعوة واختار لقيادة هذه السرية خالد بن الوليد فسار هذا بسريته على جذيمة وكان عددها ٣٥٠ رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم . فلما دنت السرية من يلملم شعر بها بنو جذيمة فتهيبوا مقدمها ولم يأمنوها مع أنّهم مسلمون فشكوا أسلحتهم وخرجوا إلى لقائها فلما دنا منهم خالد بن الوليد قال لهم : « هل أنتم مسلمون أم كفّار ؟؟ » قالوا : « نحن =

= مسلمون قد صلّينا وصدقنا برسالة محمد وبنينا المساجد في ساحتنا وأذّنا فيها » قال خالد : « إذن فما بال السلاح عليكم ؟ » قالوا : « إنّ بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم فشككنا سلاحنا للدفاع عن أنفسنا » قال : « إذن فضعوا سلاحكم » فأطاعه بعضهم ورموا أسلحتهم وفرّ الباقون فأمر خالد بأسر من وضع سلاحه فأسروا . وبات ليلته يضرب أخماساً لأسداس للإنتقام منهم لعمّه الفاكه حتى إذا ما لاح الفجر أمر الناس بقتل الأسرى فقتلوا جميعاً وعاد أدراجه إلى مكة كأنّه لم يأتِ أمراً إدّاً .

ولما انتهى إلى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ما صنع خالد بن الوليد بجذيمة مع اعترافها بالإسلام كبر الأمر عليه صلى الله عليه وآله وسلم وقال : « اللهمَّ إنّي أبرأ إليك مما صنع خالد » ثمّ استدعى علياً وهو كما تعلم موضع ثقته وقال له : علمت ما صنع خالد بجذيمة وهم مسلمون وما لنا سواك لإصلاح ما أفسد فسر إليهم بالنوق والمال فدِ قتلاهم وعوّض عليهم خسائرهم وتلطفهم بإزالة الأحقاد من صدورهم فصدع علي بأمر المصطفى عليهما الصلاة والسلام وسار بالنوق والمال إلى جذيمة فتلطف بها واستصفى صدورها من الأحقاد ببلاغة بيانه وودى قتلاها وعوَّض عليها أضرارها وثبتها في إسلامها وعاد إلى مكة فأنبأ المصطفى بما فعل فقال : أحسنت وأصبت ثمَّ قام رسول الله فاستقبل القبلة شاهراً يديه وهو يقول « اللّهمَّ أبرأ إليك مما صنع خالد » قال ذلك ثلاثاً مستغفراً ربّه من هاتيك الجريمة التي لم يكن الله راضياً عنها ولا رضيها أحد من المسلمين حتى أنّ عبد الرحمن بن عوف الذي كانت قتلت جذيمة في جاهليتها أباه فإنّه غضب وأغلظ القول لخالد فيما فعل ؛ غيرة للدين واحتفاظاً على زمام المسلمين .

أمّا خالد هذا فهو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي المخزومي . كان في واقعة أحد في صفوف المشركين وأسلم بعدها . وكان في الجاهلية من أكابر الغزاة المحاربين فلما أسلم لم يهمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الاستفادة من شجاعته وبراعته الحربية وكان يسمّيه سيفاً من سيوف الله . وأول إمرة تولاها في الإسلام كانت في فتح مكة حيث وجهه رسول الله مع سرية من المسلمين على مكة ليدخلها من أسفلها ففعل وقد وجهه رسول الله وهو في مكة إلى موضع يسمى « نخلة » وفيه صنم يسمى « العزى » فخرج بسريته إليها وكسر الصنم وهدم البيت الذي فيه وعاد منصوراً . ثمّ وجهه على جذيمة =

مِنْهَا جُذَيْمَةُ كَانَتْ فِيْ يَلَمْلُمَ قَدْ   حَلَّتْ هُنَاكَ تَرَى شَتَّى مَآوِيْهَا

= فكان أمره معها ما كان . على ما سبق البيان .

وفي السنة العاشرة للهجرة أرسل المصطفى خالداً على اليمن فلم يفلح فأرسل سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام لهذه المهمة وأمره أن يعيد خالداً في حديث سنذكره في حاشية تالية .

وعندما تولى الخلافة أبو بكر وارتدت طائفة من المسلمين عن الإسلام سار خالد لمحاربتها فجاء هناك أمراً إدّاً وذلك أنّه قتل من أهل الردة رجلاً يدعى «مالك بن نويرة» بالرغم عن توبته وشهادة شاهدين من الصحابة برجوعه إلى الإسلام وبعد أن قتله جعل رأسه ثالثة الأثافي وطبخ طعامه فوق الرأس وتزوج امرأته وكانت رائعة الجمال فتقوّل الناس أنّه لم يقتل مالكاً إلاّ طمعاً بامرأته فغضب عمر أشدّ الغضب لهذه الجريمة وقصد أبا بكر وطلب منه أن يقتله بمالك فرفض بحجة أنّه متأوّل في حكمه فطلب منه أن يعزله فقال أبو بكر « لا أغمد سيفاً شهره رسول الله » وهكذا ثبت خالد على قيادة جيوش أبي بكر طول حياته ولكن لا نكران للحق أنّه كان من أعظم القوّاد .

ولما ظهر مسيلمة الكذّاب مدّعياً النبوّة وجّه أبو بكر خالداً لمحاربته فسار إليه في « اليمامة » وبطش بأتباعه . ولم يكد يتمّ مهمته حتى وجهه أبو بكر إلى فتح العراق وكان ذلك سنة ١٢ للهجرة فسار إليها ودوخ أصحابها الفرس وأخذ منهم الجزية وكانت أول جزية جبيت في الإسلام .

وكان أبو بكر وجّه أبا عبيدة بن الجراح على الشام في جيش من المسلمين فعجز أبو عبيدة عن تدويخ الروم فيها فأمدّه أبو بكر بخالد على أن يكون تحت إمرته فدخل خالد الشام سنة ١٣ للهجرة .

وعندما مات أبو بكر وتولى عمر الخلافة كانت باكورة أعماله أن كتب إلى أبي عبيدة بعزل خالد من إمارة الجيوش التي يقودها فتلطف أبو عبيدة بإبلاغه العزل فلم يعبأ خالد بأمر عمر ولا تكدّر منه ورضي العزل إلاّ أنّه ظلّ في الشام بين غزاة المسلمين كواحد منهم يجاهد في سبيل الله ورأى أبو عبيدة أنّه لا يستغني عن قائد خبير مثله فظلّ يستعين به في فتوحاته وعرف هذا عمر فتغاضى عن وجوده في جيش الشام ولم يشدّد بطلبه إلى المدينة . ثم أنّ عمراً عرف خطأه بعزل خالد فصار يذكره في كتبه إلى أبي =

فَبَعْدَ أَنْ سَادَ طَهَ قَوْمَهُ وَأَوَى   أُمَّ ٱلْقِرَى وَأَطَاعَتْهُ حَوَامِيْهَا
إِلَى جُذَيْمَةَ أَسْرَى خَالِدَاً بِسَرِيَّـةٍ وَقَالَ لَهُ : فَٱذْهَبْ لِنَهْدِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ بِقِتَالِ ٱلْقَوْمِ آمِرَهُ   إِنْ لَمْ تُطِعْ بِرِضَاهَا صَوْتَ دَاعِيْهَا
وَخَالِدٌ كَانَ مُنْذُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ حَا   قِدَاً عَلَيْهَا وَلَمْ يَنْفَكَّ شَانِيْهَا
فَعَمُّهُ فَاكِهُ قَبْلاً لَقَدْ قَتَلَتْ   وَإِنَّ قَتْلَتَهُ مَا كَانَ نَاسِيْهَا
وَإِنَّهُ كَانَ مَوْتُوْراً وَسَارَ عَلَيْـهَا وَهْوَ أَخْذَةُ ثَأْرِ ٱلْعَمِّ نَاوِيْهَا
وَإِذْ دَرَتْ خَالِدُ إِبْنُ ٱلْوَلِيْدِ أَتَا   هَا بِٱلسَّرِيَّةِ خَافَتْ شَرَّ آتِيْهَا
ظَنَّتْ بِمَقْدَمِهِ حَرْبَاً يُرِيْدُ بِهَا   سَفْكَ ٱلدِّمَاءِ وَمَا كَانَتْ تُحَاشِيْهَا

= عبيدة حيث يأمره بالمسير للفتح في أطراف الشام . واشترك خالد بنوع خاص في فتح دمشق وحمص وقنسرين وحلب وكان المجلّي في مواقع المسلمين مع الروم في هاتيك الأطراف .

ثم عظم شأن خالد في نفوس العرب الذين حوله كما عظمت ثروته وصار يهب الهبات بكرم لمن حوله فلما علم بذلك عمر تهيب العاقبة وأرسل فعزله سنة ١٧ للهجرة معلناً أنّه لم يعزله إلاّ ليعلم المسلمون بأنّ ما أوتوه من النصر كان بمعونة الله لا ببراعة خالد ونبوغه الحربي فرضي خالد العزل وانزوى عن القتال وأطاع عمراً فيما أخذه من ماله بحجة أنّه يزيد على حقّه في « الفيء » والغنائم كما أطاعه في المسير إلى المدينة المنورة وبعد ذلك عاد إلى سوريا وأقام في حمص وتوفي فيها سنة ٢١ للهجرة وله قبر هناك يزار وبجواره مسجد يعرف إلى يوم الناس هذا باسم « مسجد سيدي خالد » وأنت ترى من مجمل ما سردناه من أعمال هذا الصحابي النابغة أنّه كان من أفراد شجعان المسلمين ولولا حقد عمر عليه لكان القائد الأكبر لجيوش المسلمين على عهده كما كان في عهد أبي بكر . أمّا سبب حقد عمر على خالد فقالوا أنهما تصارعا في الجاهلية وكانا في مقتبل العمر فصرع خالد عمراً وكسر رجله فحقدها عليه ولم ينسها وقال غيرهم بل ان حقد عمر عليه هو لأنّه كان يرى في خالد شيئاً من التراخي في فروضه والله أعلم .

فَأَسْرَعَتْ لِلِقَاهُ وَهْيَ حَامِلَةُ آلسِّلَاحِ مُشْهِرَةُ شَهْرَاً مَوَاضِيْهَا
وَمُذْ دَنَا خَالِدُ مِنْهَا بِصُحْبَتِهِ نَادَى بِدَعْوَتِهِ لِلدِّيْنِ تَجْرِيْهَا
قَالَ: آلسَّلَامَةُ فِيْ آلْإِسْلَامِ مَنْ تَبِعَ آلدِّيْنَ آلْحَنِيْفَ فَلَا حَرْبُ يُعَانِيْهَا
قَالَتْ: حَنَانَيْكَ إِنَّا بِآلْحَنِيْفِيَةِ آلسَّمْحَاءِ دِنَّا وَأَهْمَلْنَا آلتَّرَارِيْهَا
فَلَيْسَ فِيْنَا أَخُوْ شِرْكٍ عَشِيْرَتُنَا دَانَتْ لِأَحْمَدَ فَانِيْهَا وَنَاشِيْهَا
وَهُوَّذَا عَمُرَتْ فِيْنَا مَسَاجِدُنَا وَلِلتَّعَبُّدِ لِلْخَلَّاقِ نَأْوِيْهَا
نَادَى: عَلَامَ إِذَنْ هٰذِي آلسُّيُوْفُ فَمَنْ أَطَاعَ أَحْمَدَ يَمْشِيْ وَهْوَ مُلْقِيْهَا
فَمَا عَصَتْ فِئَةُ أَلْقَتْ مَوَاضِيْهَا فَرَاحَ آسِرَهَا إِذْ فَرَّ بَاقِيْهَا
وَبَاتَ فِيْ لَيْلَةِ آلْمَلْسُوْعِ يُقْلِقُهُ ذَاكَ آلْعَدَاءُ وَفِيْهِ كَانَ مُحْيِيْهَا
يُرِيْدُ يَثْأَرُ ثَأْرَاً مِنْ جُذَيْمَةَ لِلْعَمِّ آلَّذِيْ أَهْلَكَتْهُ قَبْلُ أَيْدِيْهَا
وَعِنْدَ مَا لَاحَ نُوْرُ آلْفَجْرِ أَهْلَكَ أَسْرَاهُ وَلَمْ يَكُنِ آلْإِسْلَامُ مُنْجِيْهَا
وَعَادَ مُغْتَبِطَاً بِآلْإِنْتِقَامِ إِلَى أُمِّ آلْقِرَى نَاشِرَ آلرَّايَاتِ مُعْلِيْهَا
وَمُذْ دَرَى آلْمُصْطَفَى بِآلْأَمْرِ أَكْبَرَهُ نَادَى سَرِيَّتُنَا سَاءَتْ مَآتِيْهَا
إِنَّ آلْحُقُوْقَ آلَّتِيْ آلْإِسْلَامُ قَدَّسَهَا قَدْ جَارَ مَا عَرَفَ آلْإِنْصَافَ لَا فِيْهَا
وَقَالَ: رَبَّاهُ إِنِّيْ مِنْ جَرِيْمَةِ خَالِدٍ بَرِيءُ وَإِنِّيْ لَسْتُ رَاضِيْهَا
ثُمَّ رَأَى آلْمُصْطَفَى أَنْ يُسْرِعَنَّ إِلَى جُذَيْمَةٍ بِفَتىً تَاقٍ يُرَاضِيْهَا
وَأَنْ يُلَطِّفَ بِآلتَّعْوِيْضِ مُحْنَتَهَا وَبِآلتَّلَطُّفِ وَآلْحُسْنَى يُوَاسِيْهَا
وَمَا لَدَيْهِ حَكِيْمٌ غَيْرُ حَيْدَرَةٍ لِذِيْ آلْمُهِمَّةِ بِآلتَّدْقِيْقِ يُجْرِيْهَا
لِذَا دَعَا آلْمُرْتَضَى حَالاً وَأَوْفَدَهُ إِلَى يَلَمْلَمَ بِآلْأَمْوَالِ وَافِيْهَا
وَقَالَ: أَسْرِعْ إِلَى مَلْقَى جُذَيْمَةَ إِسْرَاعَاً فَمِحْنَتُهَا أَبْغِيْ تَلَافِيْهَا

وَدِ ٱلأُلَى قُتِلَتْ مِنْهَا بِغَيْرِ وَنَى فَإِنَّنَا دِيَةُ ٱلْقَتْلَى نُؤَدِّيْهَا
وَٱسْتَصْفِهَا لِوَلاَنَا وَهْيَ مُسْلِمَةٌ وَقُلْ لَهَا إِنَّنَا طُرّاً مَوَالِيْهَا
وَقُلْ لَهَا وُحْدَةُ ٱلْإِسْلَامِ تَجْمَعُ أَهْـلِيْهِ فَهُمْ أُخْوَةٌ صَفْوٌ تَآخِيْهَا
وَإِنَّ جَامِعَةَ ٱلْإِسْلَامِ رَاسِخَةُ ٱلأَ م رْكَانِ خُيِّبَ مَنْ يَرْجُوْ تَدَاعِيْهَا
أَوْفَى ٱلرَّسُوْلُ حَكِيْمَاً فِي مُهِمَّتِهِ وَإِنَّهُ مِثْلَمَا يَرْجُوْهُ قَاضِيْهَا
وَأَيُّ مُشْكِلَةٍ مَا حَلَّ عِقْدَتَهَا وَأَيُّ مُعْضِلَةٍ مَا دَكَّ رَاسِيْهَا
إِنَّ ٱلذَّكَاءَ إِلَى عُلْيَاهُ مُنْتَسِبٌ وَبَيْنَ أَرْبَابِهِ مَا ٱنْفَكَّ ذَاكِيْهَا
وَبَيْنَ أَضْلُعِهِ قَلْبٌ تَطَهَّرَ بِٱلْإِ م يْمَانِ عَمَّا يُضِلُّ ٱلنَّاسَ يُطْغِيْهَا
سَارَ ٱلْعَلِيُّ يَدِيْ ٱلْقَتْلَى بِأَيْنُقِ طَـهَ وَهْوَ يَطْلُبُ أَنْ يُرْضِيْ أَهَالِيْهَا
وَفِيْ يَلَمْلَمَ لاَقَتْهُ جُذَيْمَةُ بِٱلْـوَلاَ كَذَاكَ بِهِ أَمْسَى مُلاَقِيْهَا
وَقَامَ فِيْهَا خَطِيْبَاً وَهْوَ أَخْطَبُ أَهْـلِ ٱلْأَرْضِ كَانَ إِلَى ٱلْإِخْلَاصِ دَاعِيْهَا
فَلَمْ يَخِبْ ظَنُّهُ فِيْهَا وَقَدْ رَضِيَتْ بِٱلْإِعْتِذَارِ ٱلَّذِيْ أَبْدَى مُفَاهِيْهَا
فَسَالَمَتْ مَنْ أَتَى لُطْفَاً يُسَالِمُهَا وَبِٱلصَّفَا وَٱلْوَلاَ لاَقَتْ مُوَافِيْهَا
وَكَرَّرَتْ بَيْنَ أَيْدِيْهِ تَمَسُّكَهَا بِشِرْعَةِ ٱللَّهِ قَالَتْ : لاَ نُخَلِّيْهَا
وَبِٱلثَّنَا قَبِلَتْ مِنْ جُوْدِهِ دِيَةَ ٱلْـقَتْلَى ٱلَّتِيْ بِٱلسَّخَا قَدْ رَاحَ عَاطِيْهَا
كَذَاكَ عَوَّضَ تَعْوِيْضَاً خَسَائِرَهَا حَتَّى ٱلَّذِيْ خَسِرَتْهُ مِنْ أَوَانِيْهَا
وَعَادَ أَدْرَاجَهُ وَٱلنَّاسُ مُعْجَبَةٌ بِفَضْلِهِ وَلَقَدْ حَبَّتْهُ تَوْلِيْهَا
وَإِذْ أَتَى مَكَّةَ وَافَى ٱلرَّسُوْلَ بِمَا أَجْرَى فَأَطْرَى فِعَالاً كَانَ مُجْرِيْهَا
وَقَالَ أَحْسَنْتَ صُنْعَاً يَا أَبَا حَسَنٍ لاَ زِلْتَ لِلْحَسَنَاتِ ٱلزُّهْرِ تُسْدِيْهَا
وَٱسْتَقْبَلَ ٱلْقِبْلَةَ ٱلزَّهْرَا بِرَفْعِ يَدَيْـهِ طَالِبَاً رَحْمَةَ ٱلْبَارِيْ مُرَجِّيْهَا

وَقَالَ نَفْسِيَ مِمَّا جَاءَ خَالِدُ يَا رَبِّي ثَلاَثَةَ مَرَّاتٍ أُبَرِّيْهَا

أمير المؤمنين يهدى اليمانيين

بِفَتْحِ مَكَّةَ عَدْنَانُ لَقَدْ خَضَعَتْ حِكْمَاً لأَحْمَدَ دَانِيْهَا وَنَائِيْهَا(١)

وَعِنْدَ مَا أَسْلَمَتْ فِيْهَا قُرَيْشٌ غَدَا آلإِ سْلاَمُ شِرْعَةَ قَارِيْهَا وَبَادِيْهَا

---

(١) مع أنّ دخول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مكة وخضوع قريش له ودخولهم في الإسلام أفواجاً قد بدّل حالة جزيرة العرب تبديلاً تامّاً من الوجهتين الدينية والسياسية لأنّ الإسلام تغلب على الوثنية فيها وجمع قلوب ناسها المتشاكسة فأصبحت أمةً واحدةً مع لك بقيت بقايا من العرب تأبى إلاّ محاربة المسلمين والعصيان على الإسلام منها بطون هوازن وبطون ثقيف وكلّها من قيس غيلان فاجتمعت كلمتها على محاربة سيدنا محمد بن عبد الله واختارت لزعامتها رجلاً يدعى مالك بن عوف النصري . فلما سمع رسول الله باجتماع هذه البطون على قتاله خرج إليها باثني عشر ألفاً من المسلمين وهو أكبر عدد خرج به المصطفى غازياً . وعندما بلغ المسلمون وادي حنين وشرعوا ينحدرون فيه وجدوا هوازن وثقيفاً كامنة في شعابه فتصادم الجمعان وكانت الغلبة للمسلمين فقتلوا من قتلوا من المشركين وغنموا مالهم وسلاحهم وظعنهم وأسروا نساءَهم وأولادهم .

ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يؤدب ثقيفاً في مواطنها فيأمن عاقبة مكرها فسار عليها وكانت تنزل الطائف وحاصرها ثم عاد منها من غير أن يفتحها في عودته نزل الجعرانة وهناك أتاه وفد هوازن يلتمسون منه العفو عنهم وإعادة نساءَهم وأولادهم وأموالهم إليهم فأشفق عليهم المصطفى وأراد أيضاً أن يكتسب قلوبهم بالحسنى فقال لهم اختاروا بين أموالكم وبين نسائكم وأولادكم فاختاروا النساء والأولاد فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ما كان لي ولبني عبد المطلب منها أعدته إليكم وأمّا ما كان للمسلمين فالأمر فيه لهم ولكن إذا صلّيت الظهر بالناس تعالوا إليّ مستشفعين لعلّي أبلغكم رغبتكم فجاءُوه بعد أن صلّى بالمسلمين وقالوا « نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا » فقال المصطفى : « أمّا ما كان لي ولأبناء عبد المطلب فهو لكم » فلما سمع المسلمون جواب المصطفى هذا قالوا : « ما كان لنا فهو لرسول الله » وهكذا أرجع المصطفى لهوازن نساءَهم وأولادهم فلما رأوا هذا المعروف دخلوا في الإسلام أفواجاً وهم معجبون بهذا الفضل المحمدي العظيم ولا يستعبد الإنسان غير الإحسان . =

وَإِنْ تَظَلَّ بِأَطْرَافِ ٱلْحِجَازِ بَقَا ... يَا مِنْ ذَوِيْ ٱلشِّرْكِ مَا ٱلأَيَّامُ تُبْقِيْهَا

= وبعد هذا الحادث وفد على المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مالك بن عوف النصري زعيم ثقيف وهوازن مستغفراً تائباً فردّ عليه نساءه وأولاده وأحسن إليه بمئة من الإبل فأسلم وحسن إسلامه وصار سيفاً من سيوف المسلمين وهكذا كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم يكتسب قلوب الناس بالإحسان فيستعبدها علماً منه أنّ الإحسان فوق القوة القاهرة .

وبينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجعرانة يوزّع الغنائم وجه نظره الشريف إلى اليمن فبعث سريّة « بقيادة خالد بن الوليد» إلى همدان وهي إحدى قبائلها وأمره أن يدعوها إلى الإسلام وأن لا يحاربها إلّا إذا حاربته وهذه السرية أجمع المؤرخون على ذكرها إجمالاً بغير تفصيل وليس بين يدينا ما هو أصدق من رواية « البراء » وهو من الصحابة وشهدها بنفسه وهاك روايته على ما نقلها البخاري قال البراء : « بعثنا رسول الله مع خالد إلى اليمن بعد رجوعه من الطائف وقسمة الغنائم في الجعرانة (سنة ٨ هجرية) ثمّ بعث عليّاً مكانه فقال : مرّ أصحاب خالد من شاءَ منهم أن يعقب معك فليعقب ومن شاء فليقبل قال البراء : فكنت فيمن عقب معه فغنمت أواني ذوات عدد » وروى الاسماعيلي رواية البراء هذه وزاد عليها قوله نقلاً عن البراء أنه قال « فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا فصلّى بنا علي وصفّنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا فقرأ على اليمانيين كتاب رسول الله فأسلمت همدان جميعاً فكتب علي إلى رسول الله بإسلامهم فلما قرأ الكتاب خرَّ ساجداً ثم رفع رأسه وقال السلام على همدان »اهـ وهذا الحادث من أعظم حوادث تاريخ صدر الإسلام وأعظمها في نتيجته لأنّ قبيلة همدان اليمانية هي من القبائل الكثيرة العدد في اليمن وإسلامها في يوم واحد على يد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام له من الشأن ما كان يجب أن يسهب في تفصيلها المؤرخون ولكن لسوء الحظ أن التواريخ التي اتصلنا إليها لم تفصله كما أنّ هذه التواريخ التي أجمعت على بعث سيدنا علي في أثر خالد وبعضها يقول أنّ رسول الله أمر عليّاً وقتئذٍ بقوله : « قيد خالداً وأرسله مع من شاء من أصحابه » ما ذكرت شيئاً عن السبب الي حمل المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم على عزل خالد من الإمارة وإرجاعه سواءٌ مقيداً أو حراً إلى مكة كرّمها الله وهذا السكوت موضع نظر للمتأمل أيضاً . كذلك رأينا بعض المؤرخين « الذين اتصلنا بتواريخهم » يخلطون بين هذه السرية وسرية أمير المؤمنين إلى مذحج في السنة العاشرة للهجرة ولكنهم يعودون للقول بأنّهما سريتان لا سرية واحدة .
=

= وإذا جاز لي أن أقول شيئاً عن إهمال المؤرخين لهذا الحادث العظيم مع ذكرهم بالإسهاب ما هو أقلّ من ذلك شأناً من حوادث صدر التأريخ الإسلامي فإنّي أقول بأنّ لذلك واحداً من سببين فإمّا أن المؤرخين ارادوا تغطية أمور أتاها خالد بن الوليد في هذه السريّة إجلالاً لمقامه الصحابي الرفيع والأعمال الباهرة التي أتاها فيما بعد في الفتوحات الإسلامية وإمّا أنهم أرادوا أن يخفوا عملاً عظيماً أتاه سيدنا علي عليه السلام يوم كان يهمّ الناس أن يسدلوا ستاراً كثيفاً على الأعمال العظيمة التي قام بها سيف الله الغالب عليّ بن أبي طالب عليه السلام وربما كان سكوت المؤرخين للسببين معاً فاكتفوا بإشارة بسيطة لذلك الحادث العظيم وهو دخول الإسلام بسرعة مدهشة إلى الأرجاء اليمانية بواسطة صنو المصطفى سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام وكيفما كان الحال فمن الثابت الذي لا ريب فيه أنّ خالداً بن الوليد سار بسريّة من المسلمين لليمن للتبشير بالإسلام ولم يفلح وأنّ سيدنا علي تبعه بأمر المصطفى واستلم قيادة السرية وأفلح بإدخال همدان في الإسلام فأسلمت في يوم واحد ولعمري ما هذا النجاح إلاّ كرامة عظمى من كراماته ونعمة كبرى للإسلام يحقّ للمصطفى عندما بلغه نبأها أن يخرّ للأرض ساجداً لله وهو يقول « السلام على همدان » ونحن نقول بعد كل هذه الأعوام : السلام على علي الذي هدى همدان للإسلام في ظلال السلام .

وكان دخول همدان في الإسلام على يد سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام بدء دخول الإسلام إلى اليمن التي هي مهد بني قحطان وقبائلهم ترجع جميعها إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وهذه القبائل هي حمير وأشهر بطونها زيد الجمهور وقضاعة والسكاسك وكهلان وأشهر بطونها همدان التي نحن بصددها وأنمار وطيء ومذحج وكندة ولخم وجذام والأزد الذين منهم الأوس والخزرج وهم أنصار المصطفى وقد سبقت الإشارة إليهم وعلى ذكر همدان هذه يخلق بنا أن تذكر شيئاً عن عرب قحطان وهم جرثومة العرب وسبب هجرتهم من اليمن فنقول :

إنّ ملوك قحطان كانوا فكروا بالاستفادة من السيول التي تجري في وديانهم لتعينهم على الزراعة فبنوا لذلك سدّاً في موضع يسمى « مأرب » وصفه ياقوت فقال « كان بين ثلاثة جبال يصب ماء السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلاّ من جهة واحدة فكان الأوائل قد سدّوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص =

لِـذَا تَـوَجَّـهَ طَـهَ يُـمْنَـةً وَبَغَى   قَحْـطَانَ فِيْ يَمَنٍ لِلْحَقِّ يَهْـدِيْهَـا
فِيْ ذِيْ آلْمُهِمَّـةِ قَدْ أَسْرَى سَرِيَّتَهُ   وَكَـانَ فِيْ مُـطْلَقِ آلتَّبْشِيْرِ مُسْـرِيْهَـا
وَخَـالِدٌ بِـآسْمِ طَـهَ كَـانَ قَـائِـدَهَـا   فَسَـارَ فِيْهَـا إِلَى هَمْـدَانَ يُمْشِيْهَـا
فَلَمْ يُوَفَّقْ إِلَـى رُغْبَى آلرَّسُـوْلِ وَمَا   حَمْـدَانُ قَدْ قَـابَلَتْ صَفْوَاً مُـوَافِيْهَـا

= فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يجتمع من ماء السيول فيصير خلف السدّ كالبحر فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه إذا أرادوا » على أنّ هذا السدّ العظيم الذي يشير إلى حضارة عظمى لأسلافنا العرب القدماء لما تقادم عهده تصدّعت أركانه ولعلّ تصدّعه يشير إلى أنّ العرب الذين حدث ذلك التصدّع على عهدهم لم يكونوا كأسلافهم من الهندسة فعجزوا عن تلافي الخطر وما استطاعوا تعهد السدّ فنسفته المياه نسفاً في سنة ٤٢٠ قبل المسيح وفاضت مياهه الكثيرة على القرى والمزارع فأتلفتها وأهلكت كثيراً من أهلها وعلى أثر هذا السيل هجر كثير من قبائل العرب البلاد اليمانية لأنّ أراضيها ما عادت تكفيهم للمعيشة بزعامة سيدهم عمران بن عمرو سيد ولد الأزد من كهلان فقدم ثعلبة بن عمرو بن عمران مع عشيرته على الحجاز ونزل بين الثعلبية وبين قار ثمَّ توجه نحو المدينة ونزل على أهلها اليهود وهم أجداد الأوس والخزرج . وسار حارثة بن عمرو بن عمران فافتتحوا الحرم وأجلوا عنه سكانه من جُرهم وأبناؤه يسمون « خزاعة » وعطف عمران بن عمرو نحو عمان ونزلها ويدعى أبناؤه « أزدعمان » . وسارت قبائل نصر بن الأزد ونصر هذا أخو عمران ونزلوا في تهامة . وسار جفنة بن عمرو إلى الشام وأقام بها وبنوه هم آباء الغساسنة سموا كذلك نسبة إلى غسان وهو ماء كان بنو مازن بن الأزد نزلوا عليه فنسب هؤلاء إليه . وممن ترك اليمن وقتئذٍ قبيلة لخم بن عدي بن كهلان ثمَّ من بني الأزد ومنهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة ومنهم طيء ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال فنزلوا بين جبلي « أجأ » و« سلمى » في الشمال الشرقي من المدينة المنورة ويخترقهما وادي الدهناء وكانت الأمثال تضرب في منعتهما . ومنهم قبيلة كلب بن وتيرة من قضاعة أقامت ببادية السماوة في آخر شمال نجد وتتصل بأطراف العراق . ومع ذلك بقي في اليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم وكانت السيادة لهم على البلاد ومنهم الملوك والأقيال .

فَأَسْرَعَ ٱلْمُصْطَفَى فِيْ بَعْثِ حَيْدَرَةٍ   وَقَالَ : بَعْثَتُهُ كُلُّ ٱلرَّجَا فِيْهَا

وَقَالَ أَرْجِعْ إِلَيْنَا خَالِداً عَجِلاً   فَإِنَّ رَجْعَتَهُ أَمْسَيْتُ بَاغِيْهَا

وَصَحْبُهُ مَنْ تَرَى مِنْهَا إِعَادَتَهُ   أَعِدْهُ حَالاً وَأَبْقِ مَعْكَ بَاقِيْهَا

فَسَارَ حَيْدَرَةٌ مَعْهُ سَرِيَّتُهُ   إِلَى رِبَى يَمَنٍ يَنْحُوْ نَوَاحِيْهَا

وَمُذْ رَأَى خَالِداً فِيْ ٱلْحَالِ أَبْلَغَهُ   رِسَالَةَ ٱلْمُصْطَفَى إِذْ رَاحَ قَارِيْهَا

فَعَادَ أَدْرَاجَهُ مَعْ بَعْضِ صُحْبَتِهِ   لِمَكَّةٍ عَوْدَةً مَا كَانَ رَاجِيْهَا

وَٱلْبَعْضُ عَوَّهَهُ مَا بَيْنَ صُحْبَتِهِ   أَبُوْ ٱلْحُسَيْنِ حَبِيْبُ ٱلنَّاسِ تَعْوِيْهَا

وَصَاحَ يَا آلَ هَمْدَانٍ أَتَيْتُكُمُ   بِشِرْعَةِ ٱللَّهِ فِيْ سَامِيْ مَثَانِيْهَا

وَرَاحَ يَخْطِبُ فِيْ عَالِيْ مَعَانِيْهَا   وَيَكْشِفُ ٱلسِّتْرَ عَنْ زَاهِيْ مَغَازِيْهَا

فَكَانَ يَنْثُرُ مَا بَيْنَ ٱلْوَرَى دُرَراً   هَيْهَاتَ مَا دُرَرُ ٱلْغَوَّاصِ تَحْكِيْهَا

وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهِيْ مِنْ سَرْدِ خُطْبَتِهِ   وَٱلنَّاسُ تَحْدِجُ بِٱلْأَنْظَارِ مُلْقِيْهَا

حَتَّى تَوَلَّى ٱلْهُدَى تِلْكَ ٱلنُّفُوْسَ جَمِيْـــعاً وَٱلْعَلِيُّ بِآيِ ٱللَّهِ مُشْجِيْهَا

وَأَسْرَعَتْ آمَنَتْ بِٱللَّهِ بَارِيْهَا   وَبِٱلرَّسُوْلِ وَآيُ ٱلشُّكْرِ فِيْ فِيْهَا

وَٱسْتَقْبَلَتْ بِٱلثَّنَا وَٱلْحَمْدِ حَيْدَرَةً   وَمَا نَسَتْ فَضْلَهُ إِذْ كَانَ مُهْدِيْهَا

وَبَادَرَ ٱلْمُرْتَضَى طَهَ يُبَشِّرُهُ   بِأَنَّ هَمْدَانَ لَبَّتْ صَوْتَ دَاعِيْهَا

وَآمَنَتْ كُلُّهَا إِيْمَانَ مُعْتَرِفٍ   بِٱلْحَقِّ حَتَّى نِسَاهَا مَعْ ذَرَارِيْهَا

فَخَرَّ لِلَّهِ طَهَ وَهْوَ يَحْمَدُهُ   بِسَجْدَةٍ آضَ بِٱلْإِخْبَاتِ آتِيْهَا

وَقَالَ جَهْرَاً : سَلَامُ ٱللَّهِ عَاطِرُهُ   ثُمَّ سَلَامِيْ عَلَى هَمْدَانَ أُقْرِيْهَا

وَعَادَ يَسْحَبُ ذَيْلَ ٱلنَّصْرِ حَيْدَرَةٌ   لِمَكَّةٍ فَتَلَقَّى شُكْرَ أَهْلِيْهَا

وَبِٱلْبَشَاشَةِ لَاقَاهُ ٱلرَّسُوْلُ وَنَا   دَى : ذَا أَخِي وَمُنَايَ فِيْهِ أُلْفِيْهَا

وَحَاتِمُ قَدْ حَبَى طَيْئاً بِشُهْرَتِهِ   وَجَاهَةً لَمْ تَكُنْ لَوْلَاهُ تَجْنِيْهَا[1]

بِهِ تَسَامَتْ عَلَى قَحْطَانَ أَجْمَعِهَا   وَلَيْسَ مِنْ مُنْكِرٍ أَصْلاً تَسَامِيْهَا

---

(١) هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي من قبيلة طيء في اليمن ولد على ما يلوح لنا حوالي سنة ٨٠ قبل الهجرة ومات قبلها أيضاً بسنوات غير كثيرة . ومات أبوه وهو غلام يترعرع فكفله جدّه سعد . وما زال في كفالته حتى طرده من بيته على أثر نفحة من نفحات كرمه العظيمة . وكان سعد رئيساً لقبيلة طيء ذا نوق وتجارة ولم نقف على أنّه كان ممتازاً بالكرم أمّا إذا قلنا كان كريماً فإنّ العرب كلهم كرام واللئيم دخيل عليهم وليس منهم . أمّا عتبة أمّ حاتم فقد كانت ممتازة بالكرم وما زالت تنفق من أموالها على قاصديها بلا رحمة حتى خاف إخوتها عليها الإملاق فحجروا عليها وعلى هذا فيكون حاتم قد ورث الكرم عن أمّه ونهض به نهضة أعجز بها الأوائل والأواخر فبات مضرب الأمثال .

قلنا إنّ العرب كلهم كرام وأنّهم لبريئون من كل بخيل لئيم فهو ليس منهم ولا هم منه حتى لو كان ملكاً يلقب بصاحب الجلالة . ولعمري إنّ قوماً كالعرب من أجلى مظاهرهم الكرم لا بدّ لمن يمتاز بينهم بهذه السجية المحمودة المتخلقون بها حتى أصبحت في طباعهم الطبيعية نعم لا بدَّ أن يكون له من الأعمال في سبيل الكرم ما لم يأت بمثله غيره من الكرام فما الذي فعله حاتم من ضروب الكرم حتى نال بها هذه الشهرة الواسعة التي دامت له كل هذا الزمان وستدوم إلى الأبد ؟ هذا محل حيرة المؤرخ المفكر .

إنّ الشهرة لا تأتي عبثاً ولا تكتسب بالتضليل والتمويه ولا تظننَّ أنّ كلمة مدح من متملق تكسي الممدوح ثوباً لا يبلى أبد الدهر فإنّك إذا ظننت هذا فقد أخطأت . فهذا عظمة مولانا السردار أرفع الشيخ خزعل خان رجل العرب الأكبر في هذا العصر أصبح حديث الناس في مشارقها ومغاربها يتحدثون عن كرمه وفضله وعدله وعلمه وحسن سياسته وبات ثناؤه ملء الأفواه تسمعه حيثما كنت وكيفما اتجهت فهل تحسب أنه حفظه الله قد نال هذه الشهرة صدفةً أو لأنّ بعض الشعراء اتّصلوا به فرفدهم فحمدوه ؟؟ لا والله فلو كان الأمر كذلك لكان لغيره من ملوك العرب وأمرائهم مثل ما له من الذكر العاطر بين الناس فإنّ كثيرين من الشعراء قد قصدوهم ومدحوهم ونالوا رفدهم ولكن =

فَـاْعَجَبْ لِفَـرْدٍ عَلَتْ فِيْـهِ عَشِيْـرَتُـهُ قَـدْراً وَمَـا زَالَ لِـلآبَـادِ مُعْلِيْهَـا

=الأعمال الباهرة المتواصلة التي يأتيها عظمة مولانا الشيخ في كلّ يوم قد ذاع أمرها وشاع بين الناس فكثرت رواتها وتغنى بها الناس في كلّ صقع ومصر وبهـا اشتهر وأصبح عند حدّ قول الشاعر :

كـريـمٌ إذا أمـدحـه والـورى معي وإذا مـا لمتـه لمتـه وحـدي

فبينما يروي أحدهم لعظمته نادرة في الكـرم يعززهـا آخر بنـادرة في العلم فثالث بنادرة من نوادر عدله فرابع بنادرة من نوادر سياسته وكل يوم يسمعون من جدائـد أعمالـه ما يؤيد قدائمها بمثل هذا بلغ أوج المجد والشهرة الخـالدة الـطيبة ومـا شاء الله . حتى إنّ حسـاده وأعداءه ومنـافسيه وليسـوا بقليلين خرست أفـواههم أمام إجمـاع الناس على حمده فباتوا إذا ذكر اسمه الكريم بمعرض ثناء يطاطئون رؤوسهم واجمين سـاكتين رغم أنوفهم .

وعندنا أن حاتماً لم يبلغ ما بلغه من الشهـرة بالكـرم إلّا لأنّه كـان كعظمـة مولانـا السردار أرفع يـواصل أعمـاله الـطيبة مـواصلةً لم تدع سبيـلاً لأعدائـه وحساده ومنـافسيه يصلون بها إلى التأثير على شهرته الطيبة الخالـدة والحطّ من قدر فضله الكبيـر . حدّث عظمة مولانا السردار أرفع الشيخ خزعل خان في أحد مجالسه الأدبية جـلاسه عن حـاتم وكنت بينهم فقال « ذُكر حاتمٌ يوماً لمعاوية بكرمـه فغضب وقال مـا للناس يعجبـون بكرم هذا الرجل وكل الذي أنفقه في سبيل كرمه لا يبلغ عطية واحـدة من عطايـاي الكثيرة ؟ » فتصدّى له أحد جلّاسه الجريئين وكان من كرام العرب فقال « إنّ حاتماً كـان يحسن حبّاً بـالإحسان و أمّـا أنت فتبذل الأموال لتشتري بهـا رضـاء النـاس عنـك بعـد أن تصـديت لمحاربة ابن عمّ رسول الله وأخيه وصنوه وعصيت خلافته وناديت بها لنفسك فهـل يكون كرمك ككرم حاتم الذي كان يهب كل ما تصل إليه يده لتلبية طالب وإغاثة ملهوف ؟؟ » قال مولانا الشيخ حفظه الله « فأطـرق معاويـة قليلاً ثمَّ قـال صدقت والله ان حـاتماً كـان كريماً » .

أمّـا حوادث الكـرم الحاتمي فهي كثيـرة لـو أردنـا استيعـاب مـا انتهى إلينـا منهـا لاحتجنا إلى مجلد ضخم فنجتزىء منها بالقليـل للدلالة على الكثيـر قالـوا : إنّ حاتمـاً منذ كان غلاماً يترعرع كان إذا أعطته أمه غذاءَه يخرج به إلى الحي فيشرك أبناء الجيران =

فَلاِسْمِهِ لَيْسَ فِيْ آلآرَاضِ مِنْ عَرَبِـــيٍّ لَيْسَ يَعْـرِفُ طَيْشَـاً أَوْ يُسَمِّيْهَـا

= به فلحظت أمّه ذلك وأنّه يكاد يضوي من الجوع فصارت تكرهه على مناولـة طعامـه في بيتها .

وعندما شبّ حاتمٌ رأى جدّه أن يستخدمه في رعي إبله فـأرسله بطائفـة منها يـرتاد لها مرعى وبينما هو في طريقه لقيه ركب من العرب فقالوا : يا فتى هل من قرى ؟ فقال حاتم متحمساً : أتسـألوني عن القـرى وقد تـرون الإبل فـانزلـوا . فنزل الـركب وهو لا يعرفهم ونحر لهم ثلاثة من الإبل فدهش الـركب من هذا الكرم العجيب الذي لم يعهدوا مثله وقـال أحـدهم : سـألنـاك القـرى ونحن نـريـد اللبن وكـان القليـل منـه يكفي لإرواء ظمئنـا . قال حـاتم : قد عـرفت هذا ولكني رأيت فيكم وجـوهاً مختلفـة وألوانـاً متفـرقة فعلمت أنّكم من بـلاد مختلفـة فـأحببت أن أريكم من كـرمي مـا تتحـدثـون بـه في بلادكم إذا عدتم إليها . فقالوا : وهل عـرفت من نحن ؟ قال : لا ولكني لأحسبكم من كـرام العرب قـالـوا : بلى والله ثم عـرّفـوه بنفـوسهم فـإذا هم : عبيـد بن الأبـرص وبشر بن أبي حازم والنـابغة الـذبياني نـوابغ شعـراء العرب . فسـرّ حاتم لهـذه الصدفـة المباركة لما تعلم من حفاوة العرب بالشعراء وازداد سروره عنـدما سـألوه ومن أنت أيهـا الأمير ؟ قال : أنا حاتم بن عبد الله بن سعد من طيء . فصاحوا بارك الله فيك وأخذ كلٌّ منهم يمدحه بشعره . فأخذته نخوة العربي الكريم وقال لقد أحببت أن أحسن إليكم فإذا أنتم المحسنون إليّ وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب إبلي أو تقتسمـوها . فمـا وسعهم « وهم شعراء رزقهم من شعرهم » إلاّ اقتسامها فـأصاب الـواحد منهم ٣٩ بعيـراً ومضوا وهم يترنمون بمدح حاتم والتنويه باسمه في منازل العرب فكان هذا بدء شهرتـه بالكـرم التي طبقت بعد ذلك الآفاق. أمّا حاتم فبعد أن انصرف أولئك الشعراء بإبله عـاد أدراجه إلى منازل طيء فلما دخل على جدّه ابتدره قائـلاً ويلك أين تركت الإبـل ؟؟ قال حـاتم والسرور يتدفق من وجهه « يا جدّاه طوقتك بها طوق الحمامة مجد الدهر وكرماً لا يـزال الرجل يحمل بيت شعر آنس بـه علينا عـوضاً عن إبلك » فعـرف الجدّ أنّ حفيـده أضاع الإبـل بكـرمـه فقـال « ويلك أبـإبلي فعلت ذلـك ؟ » قـال : « نعم » قـال الجـدّ : « لا أساكنك أبداً » وهكذا طرده من بيته خوفاً من أن يبدّد جميع ماله . نقول إن سعد الطائي جدّ حاتم قد مات منذ ألف وأربعمائة سنة تقـريباً وسيـان ما إذا كـان قد مـات موسـراً أو معسراً فإنّ العمر هو فترة من الزمـان تنقضي على عسر أو يسـر ولكن ما قـالـه لـه حفيده =

= حاتم من أنّه طوقه مجد الدهر هو الصحيح لأننا بعد كل هذه المدة نذكره اليوم بكرم حفيده ولو كان مثله بالكرم لذكرناه بالإطراء الذي اختصّ به حفيده ولعمري ما الإنسان إلّا ما جنى من حمد وشكران .

وتزوج حاتم بشريفة غنية من كرائم العرب تدعى ماوية بنت مغزر وكانت من الجمال والثروة على قسط عظيم وخطبها كثير من أمراء العرب ووجوههم فردتهم لأنّها لم ترهم أكفاء لها وآثرت حاتماً عليهم لشهرته بكرمه وما كاد يقترن بها حتى أعمل يده في ثروتها الواسعة فجعل يوزعها على عفاته والظاهر أنّها عذلته يوماً على إسرافه بكرمه فقال :

أماويَّ إني لا أقول لسائلٍ	إذا جاء يوماً حلَّ في مالنا النذرُ
أماويَّ أمّا مانعٌ فمبيَّنٌ	وأمّا عطاءٌ لا ينهنهه الزجر
أماويَّ ما يغني الثراءُ عن الفتى	إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر
أماويَّ إن يصبح صدايَ بقفرةٍ	من الأرض لا ماءٌ لديَّ ولا خمرُ
تري أنَّ ما أنفقت لم يكُ ضرّني	وإنَّ يدي مما بخلتُ به صفرُ
وقد علم الأقوام لو أنَّ حاتماً	أراد ثراء المال كان له وفرُ

ولا نعلم ان كانت زوجه ماوية قد رضخت لرأيه وأقرته برضاها بعد هذا القول على كرمه أم لا ؟ ولكن الذي نعلمه أنّه ظلّ إلى آخر حياته وهو يوزع هباته على الناس فينفق كل ما تصل إليه يده وقد اتصل إلى المال الوفير فبدَّده حتى نحر يوماً فرسه ولم يكن يملك سواها لامرأةٍ أتته في ليلة مظلمة والناس في قحل تشكو له جوع أولادها وأنت تعلم منزلة الخيل عند العرب حتى ليفضلونها على نفوسهم .

وكان حاتم يأمر في كل ليلة أحد غلمانه أن يوقد النار على يفاع من الأرض لتراها الناس وتقصد بيته للقرى وهو يقول :

أوقد فإنَّ الليل ليلٌ قرُّ   عسى يرى نارك من يمرُّ   إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ

وبالفعل كان يحرر الغلام الذي أوقد النار إذا جاءَه ضيف مهتدياً بنورها ولكن الأغرب أن أولئك العبيد الذين كان يعتقهم كانوا يأبون العتق ولسان حالهم « ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا » ولعمري إلى أين يذهب أولئك العبيد العتقاء إذا تركوا خدمة أكرم كريم في العرب ؟؟ . =

وَطَيءُ قَـدْ نَحَتَتْ مِنْ صَخْرِهَـا وَثَنَـاً   لَـهُ آلْعِبَـادَةُ بِـآلْإِخْبَـاتِ تُسْـدِيْهَـا[1]

= وقد كرتني نار حاتم هذه بنور عظمة مولاي السردار أرفع الشيخ خزعل خان أمير المحمرة وأمير الكرم حياه الله فإنّ عظمته استجلب النور الكهربائي من باريس سنة ١٩١١ فكان أول عهد بلاد العرب بجملتها بالكهرباء ومدّ أسلاكه في قصوره العامرة في القبلية والكمالية فأصبحت كل قصوره تتلألأ بتلك الأنوار الساطعة وأمر حفظه الله أن يقام قنديل منها بقوة ألفي شمعة على سطح القصر الخزعلي العالي في الكمالية على منارة عالية فسأل بعض المقربين من عظمته عن الحكمة في إيقاد هذا القنديل في فضاء هذا العلو الشاهق فضحك عظمته وقال ألا ترى الناس تأتينا ليلاً فوالله أخشى أن تضل سبيلها إلينا فوضعنا لها هذا النور لتهتدي به إلى منازلنا فكرت حينئذٍ ما كان يفعله حاتم من إيقاد ناره على بقاع الأرض لهذا الغرض الشريف وقلت في الحضرة ارتجالاً :

قد كان حاتمُ يوقد النيران للـ   ـقصّاد في الليل البهيم الداجي
فإذا بشيخِ المحسنين جلا ديا   جيه بنور الكهرباء الوهاج
والله خزعلُ لم تدع مجداً لمحـ   ـسانٍ ولا رجوى ترام لراجي

وولدت ماوية لحاتم ولداً يدعى عديّ وابنة تدعى سفّانة فكانا من السخاء عند ظن والدهما وقد أدركا الإسلام وأسلما على ما سيجيء في الحاشية التالية .

ولم تقتصر عظمة حاتم الطائي على سخائه فقط بل كان من الشعراء المبرزين ومن يقرأ شعره يجد فيه مبلغ عزّة نفسه وتحدثه عن كرمه فيعلم من هو . وكان شجاعاً مظفراً إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ما نهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقداح فاز ، « والضرب بالقداح من أنواع المقامرة عند العرب » وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق ، وكان قد أقسم أن لا يقتل وحيداً لأمه « فكان إذا بارز شجاعاً سأله إذا كان له أخ أم لا فإذا عرفه وحيداً عفا عنه » وكان إذا أهلّ الشهر الأصمّ « وهو رجب الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية » ينحر كل يوم من أيامه عشراً من الإبل ويطعم الناس .

وتوفي حاتم في السنة الثامنة لعام الفيل الموافقة لسنة ٥٧٩ مسيحية أي بعد ولادة رسول الله بثمان سنوات وحسبه فخراً أنّ المصطفى شهد له بمكارم الأخلاق كما سيجيء .

(١) أخذ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعد عودته إلى المدينة المنورة تتميم مهمته المقدسة =

«فِلْسَاً» دَعَتْهُ وَكَمْ جَاءَتْ لِمَسْجِدِهِ آلـــزُّوَّارُ وَٱلْجَهْلُ لِلْإِشْرَاكِ حَادِيْهَا

=بتعميم نشر دعوته ومحاربة كل أثر للإشراك والكفر في بلاد العرب وقد اتصل بمسامعه الشريفة أنّ في طيء في محلة آل حاتم الطائي الكريم الأنف الذكر صنم يسمى الفلس وله بيت يعبده الناس فيه فصمّم صلى الله عليه وآله وسلم على تحطيم الصنم وهدم البيت الذي فيه ولم يجد لهذه المهمة العظيمة سوى أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام فوجهه بسرية فيها نحو مئة وخمسين رجلاً فأغار على أحياء من العرب في طريقه وبشرها بالإسلام وكان الفوز رفيقه حتى إذا ما وصل بسريته إلى محلة آل حاتم هاجمها عند مطلع الفجر وتغلب على أهلها ودكّ بيت الصنم وحطم ذلك الصنم تحطيماً ووجد في خزانته ثلاثة سيوف وثلاثة دروع وكانت هذه السيوف أثرية لها شهرة عند العرب وتسمى رسوب والمخذم واليماني فغنمها مع ما غنم عليه السلام من النعم وسبى النساء وكانت فيهنّ سفّانة ابنة حاتم الطائي وسار بالسبي والغنائم عائداً إلى المدينة المنورة حيث قدمها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاختصّ المصطفى نفسه الشريفة بهاتيك السيوف . ووزّع الغنائم والسبي على المسلمين إلّا سفانة ابنة حاتم الطائي فقد تقدمت منه وكانت جذلة ذات وقار وعقل وقالت « يا محمدٍ أرأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإنّي ابنة سيد قومي وكان أبي يحمي الذمار ، ويفكُّ العاني ، ويشبع الجائع ، ويكسو العاري ، ويقري الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يردّ طالب حاجة قط أنا ابنة حاتم طيء . فقال المصطفى : هذه مكارم الأخلاق حقّاً خلوا عنها فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق وان الله يحبّ مكارم الأخلاق . فشكرت سفّانة نعمة المصطفى ودعت فقالت « شكرتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ، ولا جعل لك إلى لئيمٍ حاجة ، ولا سلب نعمة من كريم إلّا وجعلك سبباً لردّها عليه » فتبسم لها الرسول وانصرف وظلّت سفّانة في حظيرة المسجد فمرَّ بها المصطفى والمرتضى في اليوم التالي فأشار إليها المرتضى أن تكلّم المصطفى فتصدت له وقالت منّ عليّ منّ الله عليك قال « لقد فعلت فلا تعجلي حتى تجدي ثقة يبلغك بلادك » ثمَّ تركها ومضى بعد أن أوصى بها خيراً . وبعد أيام قدم المدينة رهط من طيء وبلغها خبره فأسرعت إلى المصطفى في مسجده وأخبرته بقدوم قومها وثقتها بهم فكساها وأعطاها نفقة وركوباً فأسلمت ودعت وانصرفت إلى أخيها عدي بن حاتم وكان يومئذٍ في الشام هرباً من الإسلام فلما انتهت إليه قال لها : ما ترين في هذ=

دَرَى بِهَا ٱلْمُصْطَفَى مِنْ بَعْدِ عَوْدَتِهِ   مِنْ مَكَّةٍ قَالَ طَيْءُ لَسْتُ نَاسِيَهَا
وَلَا أَنَا تَارِكٌ «فِلْسَاً» وَمَسْجِدَهُ   وَلَا عِبَادَتُهُ لِلنَّاسِ مُبْقِيهَا
وَصَاحَ بِٱلْمُرْتَضَى: أَسْرِعْ أَخِيَّ إِلَى   طَيْءٍ فَأَنْتَ بِلَا شَكٍّ مُرَبِّيهَا
وَحَطِّمْ ٱلصَّنَمَ ٱلْمَعْبُودَ لَا تَدَعِ ٱلْـ   ـجُهَّالَ تَأْتِي إِلَيْهِ وَهْوَ يُغْوِيهَا
وَأَنْتَ أَعْدَى عَدُوٍّ قَاهِرٍ وُثُنَ ٱلْإِ   م شْرَاكِ بَلْ أَنْتَ أَسْمَى مَنْ يُلَاشِيهَا
فَأَسْرَعَ ٱلْمُرْتَضَى وَٱلنَّاسُ تَتْبَعُهُ   وَإِنَّهَا عَرَفَتْ لِلنَّصْرِ يُمْشِيهَا
حَتَّى إِذَا صَارَ فِي طَيْءٍ فَمَا خَضَعَتْ   لِدَعْوَةٍ كَانَ بِسْمِ ٱللَّهِ دَاعِيهَا
لِذَا أَثَارَ عَلَيْهَا ٱلْحَرْبَ أَشْعَلَهَا   وَحَقَّقَ ٱلظَّنَّ إِذْ أَمْسَى مُجَلِّيهَا
فَرَاحَ يَفْتِكُ بِٱلْأَبْطَالِ يَسْحَقُهَا   وَعَادَ بِٱلنَّهْبِ عَنْهَا وَهْوَ سَابِيهَا
وَجَاءَ طَيْئاً فَهَدَّ ٱلْبَيْتَ وَٱلصَّنَمَ ٱلْـ   ـمَشْهُورَ فِيهِ عَلَى مَرْأَى أَهَالِيهَا
وَعَادَ بِٱلسَّبْيِ وَٱلْأَسْلَابِ عَوْدَةَ مَنْـ   ـصُورٍ بِتَقْوَاهُ يَأْبَى ٱلْكِبْرَ وَٱلتِّيهَا
فِيهَا ثَلَاثَةُ أَسْيَافٍ قَدِ ٱشْتَهَرَتْ   فَكَانَ لِلْمُصْطَفَى ٱلْهَادِي مُؤَدِّيهَا
وَمَعْهُ سَفَّانَةٌ بِنْتُ ٱلْمُمَجَّدِ حَا   تِمٍ أَبَرِّ كِرَامِ ٱلْعُرْبِ سَاخِيهَا
وَٱلْمُصْطَفَى قَدْ أَبَى مِنْ أَجْلِ وَالِدِهَا   لَهَا ٱلْإِسَارَ وَلَمْ يَقْبَلْ تَسَرِّيهَا
فَأَسْلَمَتْ وَدَعَتْ لِلْمُصْطَفَى وَغَدَتْ   تَرْوِي مَحَامِدَهُ ٱلْغَرَّا وَتُطْرِيهَا
وَأَسْرَعَتْ لِبِلَادِ ٱلشَّامِ تَطْلُبُ أَنْ   تَلْقَى أَخَاهَا ٱلَّذِي قَدْ كَانَ يَثْوِيهَا
قَدْ كَانَ مَعْ وُفْدِ طَيْءٍ وَهْوَ يَقْصُدُ طَـ   ـهَ فِي رُبَى طِيبَةٍ صَفْواً يُمَاشِيهَا

= الرجل ؟ قالت : أرى والله أن نلتحق به سريعاً فإن يك نبيّاً فللسابق إليه فضيلة وإن ملكاً فلن تزال في عزّ اليمن وأنت أنت فقال : والله هذا هو الرأي وسار لساعته إلى المدينة المنورة وأسلم وحسن إسلامه وأكرم المصطفى مثواه .

لٰكِنَّـهُ فَـرَّ مِـنْ إِخْـوَانِـهِ هَـرَبَـاً مِنَ ٱلْهِدَايَـةِ مُـذْ وَافَتْ عَـوَالِيْهَـا
رَوَتْ لَـهُ أُخْتُـهُ طَيْئَـاً وَنَـكْبَتَهَـا قَـالَتْ : أَبُوْ حَسَنٍ قَـدْ رَاحَ غَازِيْهَـا
وَحَـدَّثَتْـهُ بِمَـا فِيْ طِيْبَـةٍ وَبِهَـا ءُ مَجْـدِ أَحْمَدَ وَٱلْإِسْـلَامِ غَـاشِيْهَـا
قَـالَتْ: فَـأَسْـرِعْ إِلَيْهَـا مُسْلِمَـاً وَتَقَـرَّبْ بِـٱلتَّـوَدُّدِ مِنْ أَعْتَـابِ وَالِيْهَـا
تَقْنِي بِدُنْيَاكَ فَخْرَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَفِيْ ٱلأُخْـرَى مَثُـوْبَتُهُـمْ طُـوْبَى لِقَـانِيْهَـا
أَصْغَى عَـدِيٌّ أَخُوْهَـا لِلنَّصِيْحَةِ إِصْـغَـاءً وَسَـارَ بِـلَا بُطْءٍ لِيُجْـرِيْهَـا
فَرَحَّبَ ٱلْمُصْطَفَى لُطْفَاً بِصَاحِبِ طَيْءٍ وَٱبْنِ حَـاتِمِهَـا أَسْمَى مَـوَالِيْهَـا

أمير المؤمنين في غزوة تبوك

سُبْحَانَكَ ٱللَّـهُ وَٱلتَّسْبِيْحُ أَصْبَحَ فِيْ جَـزِيْرَةِ ٱلْعُـرْبِ فِيْ أَفْوَاهِ أَهْلِيْهَـا[1]
وَقَـدْ غَـدَتْ دَوْلَـةُ ٱلْإِشْـرَاكِ دَائِلَةً مِنْهَـا وَأَصْنَـامُهَـا هُـدَّتْ مَبَـانِيْهَـا

---

(١) وأقام المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بعد عودته من مكة المكرمة في المدينة المنورة إلى رجب من السنة التاسعة للهجرة وفيه أمر المسلمين أن يتجهزوا لغزو الروم انتقاماً لزيد بن حارثة ومن أصيب معه في « مؤتة » كما تقدم في حاشية سابقة ويسمي المسلمون الجيش الذي خرج في هذه الغزوة بجيش العسرة لأنّ التأهب لها كان في زمن عسرة لشدّة الحرّ والجذب في البلاد وفوق ذلك فإنّ المسلمين تهيبوا المسير على الروم وصار يقول المنافقون منهم الذين كانوا يظهرون الإسلام ويكتمون الكفران محاربة الروم لا تشبه محاربة العرب بعضهم لبعض وأخذوا يتشائمون بالانكسار ويثبط بعضهم عزائم بعض . ولم يفت المصطفى ما كان يتهامس به هؤلاء من التشاؤم مع إظهار الارتياح إليه فرأى صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الضرورة تقضي بإبقاء سيدنا علي أمير المؤمنين على المدينة وهي الغزوة الوحيدة التي لم يصحبه فيها . نعم إنّ المصطفى لم يرَ بداً من تخلف سيدنا أمير المؤمنين عن هذه الغزوة لأنّه الكفء الوحيد لإدارة زمام المملكة الإسلامية التي كانت قد امتدت لأكثر جهات جزيرة العرب على كثرة ما في العرب من المسلمين ولا سيما أنه كان يعلم بأنّه سائر إلى محاربة الروم وهو يدرك قوات الروم لا يستخفّ بها فإذا لم=

فَبَعْـدَ تِسْعَـةِ أَعْـوَامٍ لِهِجْـرَةِ طَـــهَ دَانَتِ ٱلْعُرْبُ بِٱلْإِسْلَامِ تَجْرِيْهَا
وَأَصْبَحَتْ أُمَّةً كُبْرَى مُـوَحَّـدَةَ ٱلْأَ مْيَالِ تَارِكَـةً مَـاضِي تَعَـادِيْهَـا
وَرَايَـةُ ٱلـدِّيْنِ أَمْسَتْ وَهْيَ عَـالِيَـةٌ فِيْهَـا وَلَا أَمْـنَ إِلَّا فِيْ تَـفَـيِّـيْـهَـا

=تصب غزوته النجاح فقد ينتقض عليه المنافقون وكثيرهم .

على أنّ المصطفى ما كاد يبعد بغزاة المسلمين من المدينة المنورة حتى طفق أولئك المنافقون الفجار يلغطون باستخلاف سيدنا علي عليه السلام عن الغزوة ويرجفون قائلين « ما خلف المصطفى إلّا استثقالاً له وتخففاً منه » ولعلّهم أرادوا من قولهم هذا أن يوغروا صدره الشريف على المصطفى ويحدثوا شقاقاً بذلك بين المسلمين ينالون مأربهم الشرير من تضييع المجهودات المحمدية الناجحة .

ولما انتهى إلى المسامع الحيدرية الشريفة صدى لغط الناس هذا اغتاظ صلى الله عليه وآله وسلم وشكّ سلاحه وركب جواده وأسرع مقتفياً آثار المصطفى وجيشه فوجدهم منيخين في موضع يسمى « الجرف » فدخل على محمد والعرق يتصبب من جسمه الشريف والغضب بادٍ على وجهه النيّر وقال : « يا نبيّ الله لقد زعم المنافقون أنك ما خلفتني في المدينة إلّا لأنّك استثقلتني وأردت أن تتخفف مني » فتبسم المصطفى وقال « كذبوا كما كذبوا عني فقالوا إنّي ساحر ، وإنّي كاهن ، وإنّي كذّاب ، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك يا علي ألا يرضيك أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبي بعدي » فاستبشر علي بما سمع وعاد أدراجه إلى المدينة المنورة يدبر أمر المملكة الإسلامية العظمى .

وانتهى المصطفى بجيشه الجرار إلى موضع يسمى « تبوك » وهناك جاءه يحنة « يوحنا » ابن رؤبة صاحب « ايله » فصالح رسول الله على الجزية وأتاه أيضاً أهل « جرباء » وأهل « أذرح » فأعطوه الجزية وبعث صلى الله عليه وآله وسلم وهو في « تبوك » خالد بن الوليد في سرية إلى « أكيدر تومة » فذهب إليه وحاربه وأسره وجاء به إلى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فعفا عنه وصالحه على الجزية وأعاده إلى بلده .

وبعد أن أقام المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بضع عشرة ليلة في تبوك عاد إلى المدينة المنورة وكانت هذه الغزوة آخر غزواته .

وَٱلرُّوْمُ فِيْ ٱلشَّامِ خَافَتْ نَهْضَةَ ٱلْعَرَبِ ٱلْـــكُبْرَى وَقَدْ أَكْثَرَتْ فِيْهَا تَظَنِّيْهَا

وَقَدَّرَتْ أَنَّ طَـهَ قَـدْ يُثِيـرُ عَلَيْـــهَا ٱلْحَرْبَ إِنْ لَمْ تُسَارِعَ فِي تَوَقِّيْهَا

وَأَنْ تُفَـاجِئَـهُ بِـٱلْحَـرْبِ غَـازِيَـةً مِنْ قَبْلِمَا ٱلْعُرْبُ بِـٱلْعُدْوَى تُفَاجِيْهَا

وَٱلْمُصْطَفَى قَدْ دَرَى مَا فِي نُفُوسِ جُمُوْعِ ٱلـرُّوْمِ مِنْ نِيَّةٍ سَوْدَاءَ تَنْوِيْهَا

فَـقَـالَ إِنِّيَ بِسْمِ ٱللَّهِ أَسْبِقُـهَـا لِـلْحَـرْبِ إِنِّيَ أَوْلَـى أَنْ أُلاَقِيْـهَـا

وَٱللَّهُ يَنْصُـرُ دِيْنـاً رُحْتُ نَـاشِـرَهُ وَٱلـلَّهُ يَكْبِتُ أَعْـدَاهُ وَيُـخْـزِيْهَـا

وَصَاحَ فِي ٱلنَّاسِ يَدْعُو لِلْمَسِيْرِ عَلَى ٱلْأَرْوَامِ فِيْ ٱلشَّامِ فَٱنْصَاعَتْ لِدَاعِيْهَا

وَلَمْ تُعَارِضْ سِوَى أَهْلِ ٱلْنَفَاقِ فَقَـالَتْ: مَـا مُحَـارَبَـةُ ٱلْأَرْوَامِ نَبْغِيْهَـا

تَشَاءَمَتْ بِٱنْكِسَارِ ٱلْمُصْطَفَى وَغَدَتْ تُحَـذِّرُ ٱلنَّـاسَ مِنْ حَـرْبٍ يُلَظِّيْهَـا

وَلَمْ يَكُنْ مَـا أَشَاعَتْ مِنْ تَشَـائِمِهَـا نَصِيْحَـةً لِعِبَـادِ ٱللَّهِ تُـسْـدِيْهَـا

لٰكِنْ أَرَادَتْ بِـهَـا تَـٱللَّهِ مَـفْسَـدَةً لِلنَّـاسِ كَيْمَا عَنِ ٱلْقِيْتَـالِ تُثْنِيْهَـا

لِأَنَّهَـا قَـدْ أَسَـرَّتْ لِلْحَنِيْفِيَـةِ ٱلـــسَّمْحَاءِ نِيَّةَ سُـوْءٍ فِيْ مَـطَاوِيْهَـا

وَكَـانَ يَـعْـرِفُ طَـهَ مَـا تُخَـبِّئُـهُ صُـدُوْرُهَا مَـا ٱخْتَفَتْ عَنْهُ خَـوَافِيْهَـا

لِـذَاكَ أَبْقَى عَلِيّاً فِيْ ٱلْمَـدِيْنَـةِ يَـرْعَى مُلْكَـهُ وَأَهَـالِيْـهِ يُـرَاعِيْـهَـا

وَمَـا سِـوَاهُ لِأَرْبَـابِ ٱلـنِّفَـاقِ إِذَا غَابَ ٱلرَّسُولُ وَجَدَّتْ فِي مَسَاوِيْهَا

وَسَارَ يَطْلُبُ أَرْضَ ٱلشَّامِ يَنْشُدُهَـا بِـرَكْبِـهِ لَمْ يَهَبْ تَقْتَـالَ رُوْمِيْهَـا

وَمَا غَزَا ٱلْمُصْطَفَى غَزْوَاً بِغَيْرِ عَلِــيٍّ ٱلْمُـرْتَضَى قَاهِرِ ٱلْكُفَّارِ نَـاكِيْهَا

وَلاَ تَسَعَّرَ فِيْ عَهْدِ ٱلْجِهَادِ لَظَى ٱلْـــهَيْجَـاءِ إِلاَّ عَلِيٌّ كَـانَ صَـالِيْهَـا

وَلَمْ يَكُنْ رَاضِيـاً ذَا ٱلْيَـوْمَ قَعْـدَتَـهُ عَنِ ٱلْكَـرِيْهَـةِ إِلاَّ طَـوْعَ رَاضِيْهَـا

فَشَنَّعَ ٱلْقَوْمُ قَـالُوا: قَـدْ تَخَفَّفَ مِنْـــهُ ٱلْمُصْطَفَى وَلَهُ قَـدْ رَامَ تَعْـوِيْهَـا

هَمَّ ٱلْعَلِيَّ ٱلَّذِي قَالُوْا فَخَفَّ إِلَى ٱلْـــسِّلَاحِ فِيْ عَزْمَـةٍ لَمْ يَخْبُ وَارِيْهَا

وَسَـارَ مُتَّبِـعَ ٱلـرِّكْبَانِ قَـاصِـدَهَـا فَـوْقَ ٱلْمُطَهَّمِ وَٱلآثَـارَ قَـافِيْهَـا

حَتَّى رَآهَـا بِأَرْضِ ٱلْجُرْفِ نَـازِلَـةً فَـحَـلَّ فِيْـهَـا وَلاَقَـاهُ مُـلاَقِيْـهَـا

وَقَابَلَ ٱلْمُصْطَفَى يَشْكُوْ إِلَيْـهِ لَغَا ٱلْـــفُجَّارِ يَـرْوِيْ لَـهُ إِرْجَافَ هَـاذِيْهَـا

وَقَـالَ : عَـطْفَـاً نَبِيَّ ٱللَّهِ تَخْـذِلُنِيْ أَنَا ٱبْنُ عَمِّكَ قَالَ ٱلْمُصْطَفَى : إِيْهَا

لَئِنْ تَمَنَّتْ عَلَيْـكَ ٱلْعُـرْبُ قَـوْلَتَهَا فَمَـا نَسِيْتُ لَهَـا مَـاضِيْ تَمَنِّيْهَـا

أَلَمْ تَقُـلْ إِنَّنِيْ ٱلسَّحَّـارُ أَسْحَـرُهَا وَإِنَّنِيْ كَـاهِـنُ ٱلأَصْنَـامِ أَرْقِـيْهَـا

وَإِنَّنِيْ كَـاذِبٌ بِـٱلْمَيْنِ أَخْـدَعُهَـا وَإِنَّـنِـي بِـأَبَـاطِيْلِيْ أُمَـارِيْـهَـا

تَـأَسَّ بِيْ وَٱصْطَبِـرْ مَا أَنْتَ مِنِّيَ إِلاَّ م مِثْـلُ هٰـرُوْنَ مِنْ مُـوْسَى فَتِـهْ تِيْهَـا

خَـلاَ ٱلنُّبُـوَّةِ مَـا بَعْدِيْ يَقُـوْمُ نَبِـــيٌّ فِيْ ٱلْبَـرِيَّـةِ يَـرْعَـاهَـا وَيَهْـدِيْهَـا

أَرْجِـعْ إِلَى طِيْبَـةٍ إِنِّيْ تَـرَكْتُـكَ لِلَّـــذِيْنَ خَلَّفْتُهُـمْ مِنْ عِتْـرَتِيْ فِيْهَـا

فَـطَابَ نَفْسَـاً عَلِيٌّ وَٱنْثَنَى فَـرِحَـاً لِـطِيْبَـةٍ وَهْـوَ وَالِيْهَـا وَقَـاضِيْهَـا

وَغَـزْوَةُ ٱلْمُصْـطَفَى كَـانَتْ مُـوَفَّقَـةً وَنَصْـرَةُ ٱللَّـهِ قَـدْ كَـانَتْ تُـؤَسِّيْهَـا

وَفِيْ تَبُـوْكٍ لَقَـدْ كَـانَتْ وَقَـائِعُهَـا لِـذَا بِهَـا كَـاتِبُ ٱلتَّـارِيْـخِ يُسْمِيْهَـا

وَإِنَّمَـا غَـزَوَاتُ ٱلْمُصْـطَفَى خُتِمَتْ بِهَـا وَقَـدْ كَـانَ بِـٱلإِسْعَـادِ مُنْهِيْهَـا

أمير المؤمنين في حجة أبي بكر

وَآذَنَ ٱلْمُصْطَفَى فِيْ عَامِ تِسْعَـةِ أَنْ تَمْضِيْ لِحَجَّتِهَـا ٱلْحُجَّاجُ تَـأْتِيْهَا[1]

وَقَـالَ يَسْعَى أَبُـوْ بَكْـرٍ بِـرُفْقَتِهَـا فَهْـوَ ٱلأَمِيْـرُ عَلَيْهَـا وَهْـوَ حَـامِيْهَـا

---

(١) في ذي القعـدة من السنة التـاسعة للهجـرة أذن المصطفى لمن يـريـد الحـج =

كَـذَاكَ سَـارَ أَبُـوْ بَكْـرٍ لِحَـجَّتِـهِ   بِـٱلْمُسْلِمِيْنَ ٱلْأُلَى كَانُـوْا مُـرِيْـدِيْهَـا

=بالحج وسمّى أبا بكر أميراً للحج فخرج بالحجاج في أول ذي الحجة قاصداً مكة المكرمة وكان عددهم نحو الثلاثمائة وبعد ذهاب الحجاج بثلاثة أيام أوحى الله إلى رسوله بالبراءة من عهوده مع المشركين فبشّر بها أصحابه فقال له قائلهم : « لو بعثت بها إلى أبي بكر فيبلغها الناس » فأجاب صلى الله عليه وآله وسلم « لا يؤدي عني إلاّ رجل من أهل بيتي » ثم دعا عليّاً عليهما الصلاة والسلام وقال أخرج على ناقتي القصواء فاتبع الحجّاج وادخل معهم مكة فاقض مناسك الحجّ حتى إذا ما أفاضوا إلى منى يوم النحر فأذن بالناس وأبلغهم البراءة كما أوحيت لي » فصدع المرتضى بأمر المصطفى وامتطى الناقة القصواء وسار في أثر الحجاج فالتقى بهم بالقرب من مكة فدخلها معهم وبعد أن قضوا فريضة الحج وأفاضوا إلى منى يوم العيد الأكبر وعند الجمرة الأولى تقدَّم عليه السلام على ناقة المصطفى « القصواء » وصاح بالناس خطيباً فقال « أيها الناس لا يدخل الجنّة إلاّ مؤمن ، ولا يحجّ بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالكعبة عريان . ومن كان له مع رسول الله عهد فله عهد أربعة أشهر من يومنا هذا ثم لا عهد له ، ومن لا عهد له فعهده إلى انقضاء المحرم » وعرف المشركون من خطاب أمير المؤمنين هذا ما كانوا يجهلونه من اضمحلال الإشراك نهائياً وزوال شوكته من عموم جزيرة العرب .

وممّا تجب الإشارة إليه هنا هو أنّ المشركين في ذلك العام قصدوا مكة محرمين للحج حسب عادتهم ناسين أو متناسين بأنّ مكة وكعبتها كرّمهما الله قد باتا بأيدي المسلمين فاختلطوا بحجاج المسلمين وهم يكبّرون تكبير المشركين وكان من أولئك المشركين أناس يتعرون وراء المسجد الحرام ويطوفون بالكعبة عراة الأبدان رجالاً ونساءً وكان يقول هؤلاء العراة إننا لا نطوف بالكعبة ونعبد الله بثياب أذنبنا فيها كما كان يرى بعضهم بأنّهم يعرّون من ذنوبهم كما تعروا من ثيابهم ومن أغرب أحوال هؤلاء العراة أنّ امرأة منهم طافت بالبيت عريانة ويدها على قبلها وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله   فما بدا منه فلا أحلّه

ولمنع عادة التعرّي التي كانت شائعة بين المشركين في حجّهم وعبادتهم نزلت آية ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق** ﴾ الآية .

وبعد ذلك رجع المرتضى وأبو بكر بالحجاج إلى المدينة المنورة وعرف الناس أنّه=

فَجَازَ طِيْبَةَ يَبْغِي مَكَّةَ لِفَرِيْـــضَةٍ يَنَالُ رِضَاءَ ٱللَّهِ قَاضِيْهَا
وَبَعْدَ غَيْبَتِهِ أَوْحَى لِأَحْمَدَ آ   يَاتِ ٱلْبَرَاءَةِ وَٱلْإِنْذَارِ مُوْحِيْهَا
فَقِيْلَ لِلْمُصْطَفَى : فَٱبْعَثْ بِهَا لِأَبِي   بَكْرٍ فَيُعْلِنُهَا لِلنَّاسِ يُفْشِيْهَا
فَقَالَ : كَلَّا فَمَا غَيْرُ ٱلْعَلِيِّ يُبَلِّـــغُ ٱلْبَرَاءَةَ أَوْ يُنْشِي مَثَانِيْهَا
ثُمَّ دَعَا ٱلْمُرْتَضَى فِي ٱلْحَالِ أَبْلَغَهُ   آيَ ٱلْبَرَاءَةِ كَي يَمْضِي يُؤَدِّيْهَا
وَقَالَ أَسْرِعْ عَلَى ٱلْقَصْواءِ فِي طَلَبِ ٱلْـــحُجَّاجِ آثَارُهَا كُنْ صَاحِ قَافِيْهَا
وَٱدْخُلْ بِهَا مَكَّةً وَٱقْضِ ٱلْمَنَاسِكَ مَعْـــهَا مُسْتَثِيْباً بِهَا ٱلْخَلَّاقَ ثَاوِيْهَا
وَبَعْدَ ذٰلِكَ أَعْلِنْ صَاحِ أَنَّ عُهُوْ   دِيْ لِلْأَعَارِبِ قَدْ أَصْبَحْتُ مُلْغِيْهَا
وَأَنَّ نَفْسِيَ مِنْ تِلْكَ ٱلْعُهُوْدِ كَمَا   قَدْ شَاءَ رَبِّي وَأَوْحَى لِي أُبَرِّيْهَا
كَذَا ٱمْتَطَى ٱلنَّاقَةَ ٱلْقَصْوَاءَ حَيْدَرَةٌ   وَرَاحَ يَتْبَعُ ٱلْحُجَّاجَ يَبْغِيْهَا
وَقَدْ تَلَاقَى بِهَا فِي قُرْبِ مَكَّةَ إِذْ   كَانَتْ تَجِدُّ إِلَيْهَا فِي مَسَاعِيْهَا
فِيْ ٱلْحَالِ أَنْبَا أَبَا بَكْرٍ مُصَاحِبَهَا   أَسْرَارَ جَيْئَتِهِ مَا كَانَ مُخْفِيْهَا
وَصَاحَبَ ٱلنَّاسَ فِيْ كُلِّ ٱلْفُرُوْضِ وَكَا   نَتْ مِثْلَمَا شَاءَ رَبُّ ٱلْبَيْتِ تُجْرِيْهَا
حَتَّى إِذَا مَا أَفَاضَتْ وَٱنْتَهَتْ لِمُنَى ٱلْـــحُجَّاجُ أَوْقَفَهَا صَوْتٌ يُنَادِيْهَا
صَوْتُ ٱلْعَلِيِّ ٱلَّذِيْ مِنْ فَوْقِ نَاقَتِهِ   وَافَى بِمَا أَمَرَ ٱلْهَادِيْ يُفَاهِيْهَا
فَقَالَ : يَا نَاسُ أَصْغُوْ لَيْسَ يَدْخُلُ فِيْ ٱلْـــجِنَانِ إِلَّا أَخُوْ ٱلْإِيْمَانِ يَثْوِيْهَا
وَبَعْدَ ذَا ٱلْعَامِ لَا حَجٌّ لِمُشْرِكِكُمْ   أَصْلاً وَمَكَّةُ تَأْبَى أَنْ يُوَافِيْهَا

= لا يبلغ رغائب المصطفى إلّا المرتضى عليهما الصلاة والسلام ولا سيما إذا كانت تنزيلاً ووحياً .

وَلَا يَـطُوْفُ بِبَيْتِ ٱللَّهِ مِـنْ عَبَـدَتْـــهِ بَعْدَ حَجَّتِنَا ذَا ٱلْعَامَ عَارِيْهَـا
وَمَنْ لَـهُ مَعَنَـا عَهْـدٌ فَـأَرْبَعَـةٌ مِنَ ٱلشُّهُـوْرِ نُـرَاعِي عَهْـدَهُ فِيْهَـا
وَمَنْ يَكُنْ دُوْنَ عَهْدٍ عَهْدُنَـا مَعَهُ حَتَّى ٱلْمُحَرَّمَ ثُمَّ ٱلْحَرْبُ تُصْلِيْهَا
بِذَاكَ أَنْذَرَ أَصْحَابَ ٱلْغَوَايَةِ وَٱلْإِشْـــرَاكِ أَنْ لَيْسَ مِنْ سِلْمٍ يُـوَاتِيْهَـا
وَمَـا ٱحْتَفَى بِـأُنَـاسٍ هَـدَّدَتْـهُ وَنَـا دَى: مَا سِوَى شِرْعَةِ ٱلْإِسْلَامِ تُنْجِيْهَا
وَعَـادَ يَصْطَحِبُ ٱلْحُجَّاجَ مَعْهُ أَبُوْ بَكْـرٍ وَطِيْبَةُ قَـدْ سُرَّتْ بِـآتِيْهَـا
وَأَدْرَكَ ٱلـنَّـاسُ أَنَّ ٱلْمُـرْتَـضَـى لَمُبَلِّـغُ ٱلـرِّغَابِ ٱلَّتِي يَسِيْنُ يُلْقِيْهَـا
وَفِيْ ٱلْأَخَصِّ إِذَا كَـانَتْ مُقَـدَّسَـةً وَكَـانَ جِبْرِيْـلُ بِـٱلتَّنْزِيْـلِ مُمْلِيْهَـا

أمير المؤمنين يهدي مَذحج

بَيْنَ ٱلـرَّسُـوْلُ عَلَى مَحْمُـوْدِ عَـادَتِـهِ مَـا بَيْنَ صُحْبَتِهِ فِيْ وَسْـدِ نَادِيْهَـا[1]
فِيْ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْيَمَنِيِّ فِيْ ٱبْتِدَا رَمَضَا نِ وَهْـوَ بِٱلصَّـوْمِ إِذْ صَامَتْ يُهَنِّيْهَـا

(١) إنّ فـوز سيدنـا أمير المؤمنين عليه السلام في هـداية همـدان اليمانيـة بعد أن عجز خالد عن هدايتها كان له صدى عظيم بين المسلمين وعمـوم العرب فتحـدّث به النـاس ولذلك عندما أقرّ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على إرسـال سريـة لبني مَذحـج في اليمن لم يجد كفئاً لها غير هذا الرجل العظيم فاستدعاه إليه وأمره بـالمسير على رأس ثـلاثمائـة فارس إلى مـذحج وعمّمـه بيده الشـريفة وقـال : « امض ولا تلتفت فإذا نـزلت بسـاحتهم فـلا تقاتلهم حتى يقاتلوك » فسار المرتضى بهذه السرية في رمضان سنـة عشرة للهجـرة فلما وصل إلى منازل مذحج فرّق خيله في ضـواحيها فـأتوا بنهب وغنـائم وأطفال ونسـاء ونعم وشاء وغير ذلك وجعل على الغنائم ابن الحُصيب فأقبل على المرتضى رجال من مذحـج يـرمونـه بالنبـل والحجارة فـدعاهم إلى الإسـلام فـأبـوا فصفّ رجـالـه ودفـع لـواءه إلى مسعود بن سنان ثمّ حمل عليهم فقتل منهم عشرين رجلاً وفرّ الباقون وتفرقـوا فكفّ عن طلبهم واكتفى أنّه حلَّ في بلدهم فجاءَه نفر من رؤسائهم خاضعين فأسلموا وقـالوا نحن على من ورائنا من قومنا وهذه صـدقاتنـا فخذ منهـا حقَّ الله ففعل عليه السلام ثمّ قسم الغنـائم=

نَــادَى مَخَـالِفُ قَحْــطَانٍ أَوَدُّ لَهَــا هِــدَايَــةً وَحَــرِيٌّ أَنْ نُــوآخِيْـهَــا
وَكُلُّنَــا عَــرَبٌ سِيَّــانِ مَنْ قَــطَنَتْ هُنَــا وَفِيْ يَمَنٍ أَوْ مَــا يُنَــاجِيْـهَــا
وَجِدُّنَـا يَعْـرِبُ ٱلْمَشْهُـوْرُ يَجْمَعُنَـا فِيْ خَيْــرِ جَـامِعَــةٍ لَسْنَـا نُجَــزِّيْهَـا
وَٱلْعُــرْبُ فِيْ يَـمَنٍ إِلَّا أَبُــوْ حَسَنٍ مَـا إِنْ لَهَا مِنْ دُعَـاةِ ٱلدِّيْنِ يَهْـدِيْهَـا
وَإِنَّنِيْ ٱلْـيَــوْمَ بِسْـمِ ٱللَّهِ مُــرْسِـلُهُ لِمَـذْحِجٍ وَهْـوَ كِفْءٌ أَنْ يُـلاَقِيْهَــا
وَمَــالَ صَلَّى عَلَيْـهِ ٱللَّهُ نَحْــوَ أَخِيْـــهِ قَالَ: سِرْ عَجِـلاً وَٱقْصُدْ مَثَـاوِيْهَا
فَهَبَّ حَيْـدَرَةٌ فِيْ ٱلْحَالِ يَـطْلُبُ أَبْـــطَالَ ٱلـرِّجَـالِ وَلِلْمَسْــرَى يُهَيِّئُهَـا
وَبَعْـدَ مَـا ٱجْتَمَعَتْ جَمْعَـاً سَـرِيَّتُـهُ وَٱلْخَيْـلُ مِنْ تَحْتِهَا تُبْـدِيْ تَهَـادِيْهَـا
وَافَى ٱلــرَّسُـولَ لِكَيْ يَلْقَى أَوَامِــرَهُ عِنْـدَ ٱلْـوَدَاعِ وَبِـٱلتَّـدْقِيْقِ يُجْـرِيْهَـا
فَقَــالَ يَمِمِّ بِـلاَ بُطْءٍ مَــوَاطِنَ مَــذْحِجٍ وَكُنْ لِهُدَى ٱلْإِسْـلَامِ دَاعِيْهَـا
وَلاَ تُقَـاتِـلْ إِذَا مَــا سَـالَمَتْــكَ وَقَـاتِلْهَـا إِذَا رَغِبَتْ بِـٱلْحَـرْبِ تُلْظِيْهَـا
وَعَمَّمَ ٱلْمُصْـطَفَى يُمْنَـاً أَبَــا حَسَنٍ وَرَاحَ يَـدْعُـوْ لَـهُ بِـٱلنَّصْـرِ تَجْـرِيْهَـا
مَضَى إِلَى مَـذْحِجٍ بِـٱلْيُمْنِ حَيْـدَرَةٌ وَحَـوْلُـهُ ٱلــرَّكْبُ تُمْشِيْـهِ وَيُمْشِيْهَــا
حَتَّى إِذَا مَا دَنَا مِنْ أَرْضِهَــا بَعَثَ ٱلـــرِّجَـالَ تَـطْلُبُ غُنْمَـاً مِنْ بَـرَارِيْهَــا
غَـابَتْ وَبَعْـدَ قَلِيْــلٍ نَحْـوَهُ رَجِعَتْ بِـوِلْـدِهَـا وَنِسَاهَــا مَعْ مَــوَاشِيْهَـا
ثُـمَّ رَجَــالَتُـهَــا وَافَـتْ مُـحَــارِبَــةً فَكَـانَ بِٱلْحَـرْبِ مُخْذِيْهَـا وَمُصْمِيْهَا

= أخماساً خصَّ الخمس منها لله وأقرع عليها وقسم الباقي في أصحابه . وبلغ عليّاً وهو في مذحج أنّ رسول الله خرج إلى الحج بجموع من المسلمين وهي حجّة الوداع فتبعه إلى مكة بعد أن كلل الله سريّته بهذا الفوز الباهر ودخل مكة محرماً للحج مهللاً على ما أهلّ المصطفى عليهما الصلاة والسلام فقابله الرسول بالفرح وحمد الله على نعمائه .

فَأَدْبَرَتْ وَهْيَ مِنْ حَوْلَيْهِ هَارِبَةٌ تَرْجُوْ سَلاَمَتَهَا مِنْ بَطْشِ غَازِيْهَا

وَأَرْسَلَتْ رُوَسَاهَا لِلْعَلِيِّ فَجَاءَتْهُ وَإِسْلاَمُهَا تُبْدِيْهِ مِنْ فِيْهَا

فَأَكْرَمَ ٱلْمُرْتَضَى لُطْفاً وِفَادَتَهَا وَفِيْ تَعَطُّفِهِ أَمْسَى يُدَارِيْهَا

وَفِيْ بَلاَغَتِهِ قَدْ رَاحَ يَنْشُرُ آيَاتِ ٱلشَّرِيْعَةِ تَبْشِيْراً وَيَنْشِيْهَا

ثُمَّ ٱلْغَنَائِمُ بِٱلْإِنْصَافِ خَمَّسَهَا وَخَصَّ بِٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ خَامِيْهَا

وَبَيْنَمَا هُوَ فِيْ سَامِيْ مُهِمَّتِهِ كَمَا يُحِبُّ رَسُوْلُ ٱللَّهِ يُمْضِيْهَا

وَإِذْ تَلَقَّى نَبَا حَجِّ ٱلرَّسُوْلِ وَقَدْ وَافَى رِبَى مَكَّةٍ بِٱلطُّهْرِ يَأْوِيْهَا

فَخَفَّ يَنْوِيْ قَضَاءَ ٱلْحَجِّ مُطَّلِبَاً أُمَّ ٱلْقِرَى مَعَهُ هَدْيٌ يُضَحِّيْهَا

وَفِيْ حِمَى ٱلْكَعْبَةِ ٱلزَّهْراءِ يَمَّمَ طَهَ مُحْرِمَاً فَرَآهُ مُحْرِمَاً فِيْهَا

هُنَاكَ حَدَّثَهُ عَمَّا أَتَمَّ بِمَذْحِجٍ وَقَالَ غَدَا ٱلْإِسْلاَمُ فَاشِيْهَا

فَكَرَّرَ ٱلْمُصْطَفَى شُكْرَانَ صَاحِبِهِ عَلَى ٱلْفِعَالِ ٱلَّتِيْ قَدْ كَانَ مُجْرِيْهَا

وَقَالَ مَا يَمَنُ وَٱللَّهِ نَاسِيَةٌ لَكَ ٱلْمَسَاعِيْ ٱلَّتِي قَدْ رُحْتَ سَاعِيْهَا

وَمَا هِدَايَةُ قَحْطَانٍ بِجُمْلَتِهَا إِلاَّ بِفَضْلِكَ يَا خِلِّيْ فَتِهْ تِيْهَا

وصاية المصطفى للمرتضى

هَبَّ ٱلرَّسُوْلُ يُرِيْدُ ٱلْحَجَّ يَطْلُبُهُ فِيْ عَشْرَةٍ مِنْ حُؤُوْلِ ٱلنَّاسِ هَجْرِيْهَا[1]

فَسَارَتِ ٱلنَّاسُ تَبْغِيْ ٱلْحَجَّ صِحْبَتَهُ وَمَا تَخَلَّفَ مِنْهَا غَيْرُ ضَاوِيْهَا

---

(١) صحّت عزيمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قضاء فريضة الحج في السنة العاشرة للهجرة ليودّع في بيت الله المسلمين ويبلغهم بلاغه الأخير لأنّه ما كان يجهل ان مهمته المقدسة قد تمت وأنّه يوشك أن يسير إلى لقاء ربّه عزَّ وجلَّ وكان خروجه من المدينة المنورة في يوم الخميس لستٍّ بقين من ذي القعدة سنة ١٠ للهجرة وكان معه عدد كبير =

= من المسلمين قالوا يتجاوز المئة ألف وصحب في حجته هذه سيدتنا فاطمة الزهراء وولديها الحسن والحسين ونساءه وعمّه العباس وكل من كان لديه من آل عبد المطلب إلّا سيدنا علي الذي كان في مذحج كما تقدم وقد صحبه أيضاً أكابر الصحابة والأنصار وعندما دخل مكة استقبل القبلة ولبّى قائلاً « لبيك اللهمَّ لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، لبيك إله الخلق لبيك ، حقّاً تعبد أو رقاً » وكان الناس معه يزيدون في هذه التلبية أو ينقصون على ما يشاؤون فلم يمنعهم وكانوا يلبون سرّاً فجاءه جبريل عليه السلام وأمره أن يأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية فأمرهم بذلك فملأوا فضاء مكة بالتلبية . وهكذا صار رفع الأصوات بالتلبية من شعار الحج . وبعد أن دخل المصطفى مكة بقومه وفد عليه أمير المؤمنين عائداً من مذحج محرماً سائقاً معه الهدي وبعد أن قضى صلى الله عليه وآله وسلم يوم عرفة ركب ناقته القصواء وأتى بالناس بطن الوادي فخطب على راحلته خطبة الوداع الشهيرة ذكر فيها تحريم الدماء والأموال والأعراض ، ومنع ربا الجاهلية « أي ما كان من ربا في الجاهلية لا يطالب به في الإسلام وأنت تعلم أنّ الإسلام حرّم الربا بتاتاً » ووضع الدماء في الجاهلية « أي الموتورين في الجاهلية لا يحق لهم أخذ الثأر من واتريهم بعد أن أسلموا » وبهذا صالح قبائل العرب وأزال من صدورهم الأحقاد ، وأوصى صلى الله عليه وآله وسلم بالنساء خيراً ، وأمر الناس أن يعتصموا بكتاب الله ، وقال إنّ من اعتصم بكتاب الله لا يضلّ ، وأشهد الله سبحانه على أنّه بلغ ما أمر به واستشهدهم على ذلك فشهدوا ، ثم أمر الناس أن يبلّغ شاهدهم غائبهم بما شهد وما سمع ، ثم أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حرّم على المسلمين دماءهم ، وأبلغهم أنّ كل ما يخالف القرآن من عوائد الجاهلية قد داسه بقدميه الشريفتين إشارة إلى أنّه بات ملغياً ؛ وبينما كان المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم على ظهر ناقته القصواء في موقفه العظيم ذاك نزلت عليه آية ﴿ **اليوم أتممت عليكم نعمتي ، وأكملت لكم دينكم** ﴾ فتلاها والناقة من تحته يكاد يندقّ عضدها من ثقل الوحي وكانت هذه الآية الشريفة آخر الأحكام التي أوحيت لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم انصرف المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلى المنحر بمنى فنحر هديه وكانت ٦٣ بدنة على عدد عمره الشريف وأمر علياً أن ينحر هديه وأمره أن يقسم لحوم الهدي وجلودها بين الناس وقال : « وخذ لنا جذبة من بعير واجعلها في قدر واحدة حتى نأكل من لحمها =

أَمَّا ٱلرِّجَالُ فَقَدْ كَانَتْ مُسَارِعَةً مَعْهُ فَرَاكِبُهَا فِيْ جَنْبِ مَاشِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى كَانَ يَسْعَى فَوْقَ نَاقَتِهِ ٱلْـ ـقُصْوَى بِحُجَّاجِهِ ٱلْأَخْيَارِ يُخْطِيْهَا
قَدْ أَحْرَمُوا وَأَتَوْا أُمَّ ٱلْقُرَى لِقَضَا ءِ ٱلْوَاجِبَاتِ ٱلَّتِيْ ٱلْحُجَّاجُ تَقْضِيْهَا
وَعِنْدَ مَا بَلَغُوا بِٱلْبِرِّ كَعْبَتَهَا طَافُوْا بِهَا أَكْرَمَ ٱلْبَارِيْ مُطِيْفِيْهَا
وَأَقْبَلَ ٱلْمُرْتَضَى مِنْ مَذْحِجٍ لِرِبَا هَا بَعْدَ عَقَدُوْا خَيْرَ ٱلْحِبَى فِيْهَا
هُنَاكَ بَشَّرَ طَهَ وَٱلْحَجِيْجَ بِإِسْـ ـلَامِ ٱلْأُلَى سَارَ لِلْإِسْلَامِ يَهْدِيْهَا
وَبَعْدَ مَا ٱلْحَجُّ قَدْ تَمَّتْ مَنَاسِكُهُ وَٱلنَّاسُ نَالَتْ بِهِ رُضْوَانَ بَارِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى أَسْمَعَ ٱلْحُجَّاجَ خُطْبَتَهُ ٱلْـ ـغَرَّا ٱلَّتِي كَانَ لِلتَّوْدِيْعِ مُلْقِيْهَا
وَضَحَّتِ ٱلنَّاسُ فِيْ تِلْكَ ٱلرُّبُوعِ فِدَى آثَامِهَا وَلَقَدْ تَابَتْ أَضَاحِيْهَا
أَفَاضَ أَحْمَدُ مِنْ حَجِّ ٱلْوَدَاعِ وَمَعْـ ـهُ ٱلنَّاسُ قَدْ رَجِعَتْ تَبْغِيْ مَثَاوِيْهَا
وَأُمَّةُ ٱلْمُصْطَفَى كَانَتْ بِإِمْرَتِهِ تَسِيْرُ فِيْ سُبْلِهَا تَطْوِيْ مَطَاوِيْهَا
حَتَّى إِذَا نَزَلَتْ لِلْإِسْتِرَاحَةِ فِيْ «غَدِيْرِ خَمٍّ» وَكَانَ ٱلسَّيْرُ مُعْيِيْهَا[1]

= ونشرب من مرقها » ففعل المرتضى ما أمره به . وأخبر المصطفى أنّ منى كلها منحر وأنّ فجاج مكة كلها منحر . ثم ركب قاصداً مكة والناس تتعبد فطاف طواف الإفاضة وبعد أن طاف بالبيت سبعاً وقف في « الملتزم » بين ركن الحجر وباب الكعبة فدعا الله سبحانه وألصق صدره الشريف ووجهه بالملتزم ثم انطلق إلى المدينة المنورة والحجاج تتبعه .

(١) وبينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راجعاً بالحجاج انتهى إلى مكان يقال له « غدير خم » وهو يقرب موضع يسمى رابغ وهناك حطّ الرحال وجمع المصطفى أكابر صحابته وأمير المؤمنين إلى يمينه وخطب فيهم فقال : « أيها الناس إنّما أنا بشر مثلكم ، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني مسؤول ، وإنكم مسؤولون فما أنتم قائلون ؟؟ » =

= فأجابه أصحابه قائلين «نشهد أنك قد بلّغت ، وجهدت ، ونصحت فجزاك الله خيراً» فقال صلى الله عليه وآله وسلم : « أليس تشهدون أن لا إلـه إلّا الله وإني عبده ورسوله ، وأن جنته حق ، وناره حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ؟؟؟؟؟ » قالوا : « بلى نشهد بذلك » قال المصطفى : « اللّهمّ اشهد » ثم إنّ المصطفى أخذ يحض على التمسك بكتاب الله فأسهب ، ثم وصّى بأهل بيته خيراً فأطال ، ثم سأل الناس فقال : « ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ » فأجابوا جميعهم بنعم مصدقين معترفين فرفع حينئذٍ المصطفى يمين المرتضى وكان إلى جانبه وقال : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهمَّ والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، واحبب من أحبّه ، وابغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، وأعن من أعانه ، واخذل من خذله ، وأدر الحق من حيث دار » فسمعت الصحابة هذا وأحنت رؤوسها خضوعاً لقول المصطفى وكان ذلك اليوم السعيد هو الثامن عشر من ذي الحجة وقد اتّخذه محبّو سيدنا أمير المؤمنين يوم عيد وبركة من كل عام .

ثم إنّ المصطفى سار بالحجاج قاصداً المدينة المنورة حيث حلّ فيها وذاعت خطبته هذه بين المسلمين وتناقلها العرب في جميع الأقطار وعرفوا منها المنزلة الممتازة لسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

غير أن الناس تتفاوت رغباتهم ومطامعهم كما يختلفون بعواطفهم حتى يستحيل على الفرد الواحد مهما علت صفاته وعظم شأنه أن يرضيهم جميعاً ولا سيما سيدنا أمير المؤمنين الذي كان كثيرون من العرب لا يحبّونه ليس لأنّه لم يكن أهلاً لحبّهم على كمالاته المشهورة وأخلاقه العالية بل لأنّه كان قاهرهم وواترهم في الحروب التي أثارها المصطفى لنصرة الإسلام عليهم فهؤلاء بطبيعة الحال عزّ عليهم أن يكون عليّ مولاهم كما أن رسول الله مولاهم . كما أنّ كثيرين منهم أبوا هذه السيادة لسيدنا عليّ حسداً من عند أنفسهم والحسد آفة الإنسان ومصدر كثير من الشرور التي نشاهدها في العالم . ومن الذين لم يرضوا بوصية المصطفى للمرتضى عليهما الصلاة والسلام رجل يدعى الحارث بن النعمان الفهري ولا نعلم ان كان هذا الرجل من أعداء أمير المؤمنين لأنّه واتره وقاهر قومه أو من حسّاده فركب جواده وأسرع يطلب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة المنورة ليتثبت الخبر من فمه الطاهر وعندما دخل المدينة المنورة قصد المسجد النبوي =

حَتَّى إِذَا ٱجْتَمَعَتْ جَمْعاً بِحَضْرَتِهِ ٱلْــعَلْيَا وَطِيْبُهَا حَـاذَى قُـرَيْشِيْهَـا

نَـادَى أَنَـا بَشَـرٌ يَـا نَـاسُ مِثْلُكُمُ   وَكُـلُّنَـا لِلْمَنَـايَـا لاَ نُحَـاشِيْهَـا

وَإِنَّ دَعْـوَةَ رَبِّيْ لِيْ لَـقَـدْ قَـرُبَتْ   وَبِـٱلـرِّضَى بِـٱلْقَضَـا إِنِّيْ أُلَبِّيهَـا

وَسَـوْفَ يَسْـأَلُكُمْ عَنِّيْ وَيَسْـأَلُنِيْ   عَنْكُمْ إِلٰهُ جُمُوعِ ٱلْخَلْقِ ذَارِيْهَـا

فَمَـا تَقُـوْلُـوْنَ عَنِّي عِنْـدَ رَبِّكُـمُ   وَعَنْ فِعَـالِيْ ٱلَّتِـيْ قَـدْ كُنْتُ آتِيْهَـا

قَالُوا: فَنَشْهَدُ قَدْ بَلَّغْتَ دَعْـوَتَكَ ٱلْــغَـرَّا ٱلْخَـلاَئِقَ عُـرْبِيْهَـا وَعُجْمِيْهَـا

وَقَـدْ جَهَدْتَ كَمَـا يَرْضَى ٱلْإِلٰـهُ لِهـــذَا ٱلـدِّيْنِ لَمْ تَأْلُنَـا نُصْحَـاً وَتَنْبِيْهَـا

فَـاللَّهُ يُجْـزِيْـكَ خَيْـراً يَـا مُبَشِّـرَنَـا   وَذِيْ شَـهَـادَتُنَـا كُـلٌّ يُـذَكِّيْهَـا

فَقَـالَ أَحْمَـدُ: هَـلاَّ تَشْهَـدُوْنَ بِـأَ م نَّ ٱللَّهَ ذَارِيْ ٱلْبَـرَايَـا وَهْـوَ مُفْنِيْهَـا

وَإِنَّـنِـيْ لَـرَسُـوْلُ ٱللَّهِ جِئْتُـكُـمُ   بِمُنْـزَلِ ٱلآيِ وَٱلـرَّحْمٰنُ مُـوْحِيْهَـا

وَإِنَّ جَـنَّـتَـهُ حَـقٌّ وَحَـشْـرَكُـمُ   حَـقٌّ وَنِيْـرَانَـهُ حَـقٌّ يُـلَظِّيْـهَـا

=الشريف رأساً ودخل على المصطفى فوجده جالساً بين أصحابه فجثا بين يديه وقال « يا محمد إنك أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنك رسول الله فقبلنا ذلك منك . وأنك أمرتنا أن نصلّي في اليوم والليلة خمس صلوات . ونصوم شهر رمضان ، ونزكي أموالنا ، ونحجّ البيت . فقبلنا ذلك منك ، ثمّ لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمّك علي ففضلته، وقلت من كنت مولاه فعلي مولاه . فهل كان هذا الشيء منك أو من الله ؟؟ » فاحمرّت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : « والله الذي لا إله إلاّ هو ، إنّه من الله وليس مني » قال ذلك ثلاثاً . فغضب الحارث ونهض وهو يقول : « اللّهمّ إن كان ما يقول محمد حقّاً فأرسل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » ووالله ما كاد يبلغ الحارث هذا باب المسجد حتى رماه الله بحجر من السماء فوقع على رأسه وخرج من دبره فمات وأنزل الله قوله : ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع للكافرين** ﴾ الآية وصدق الله العظيم .

وَإِنَّمَا ٱلسَّاعَةُ ٱلْكُبْرَى لآتِيَةٌ   لَا رَيْبَ فِيهَا وَمَوْتَى ٱلنَّاسِ تَأْتِيْهَا
قَالُوْا: بَلَى شَهِدْنَا قَالَ أَحْمَدُ: يَا   رَبَّاهُ فَاشْهَدْ وَوَالَى ٱلْقَوْلَ تَجْرِيْهَا
فَحَضَّ حَضّاً عَلَى حِفْظِ ٱلشَّرِيْعَةِ فِيْ   سَامِيْ أَوَامِرِهَا أَوْ فِيْ نَوَاهِيْهَا
وَبَعْدَ ذٰلِكَ قَدْ وَصَّى بِعِتْرَتِهِ   خَيْراً وَعِتْرَتُهُ فَرْضٌ تَوَلِّيْهَا
وَقَالَ : هَلاَّ أَنَا أَوْلَى وَأَجْدَرُ مِنْ   نُفُوْسِكُمْ بِكُمْ هَلْ تُوْهِبُوْنِيْهَا
قَالُوْا: نَعَمْ بِلِسَانٍ وَاحِدٍ وَمُحَمَّـ   ـدُ إِجَابَتُهُمْ ذِيْ رَاحَ رَاضِيْهَا
وَمَالَ لِلْمُرْتَضَى ٱلثَّاوِيْ بِجَانِبِهِ   وَكَانَ يَمْسِكُ يُمْنَاهُ وَيُعْلِيْهَا
وَقَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ عَلِيٌّ لَهُ   مَوْلَىً وَرُغْبَايَ ذِيْ بِٱلْجَهْرِ أُبْدِيْهَا
ثُمَّ تَوَجَّهَ لِلَّهِ ٱلْقَدِيْرِ بِوَجْـ   ـهِهِ وَأَصْحَابُهُ تُصْغِيْ لِهَادِيْهَا
وَقَالَ : لَا هُمَّ مَنْ وَالَى عَلِيَّكَ وَا   لِهِ وَأَعْدَاؤُهُ أَنْتَ ٱلْمُعَادِيْهَا
أَحْبِبْ مُحِبِّيْهِ وَٱبْغُضْ مُبْغِضِيْهِ وَمَنْ   سَعَتْ إِلَى فَضْلِهِ وَفِّقْ مَسَاعِيْهَا
وَٱنْصُرْ بِحَوْلِكَ قَوْماً عَنْ تُقَى نَصَرَتْ   رَايَاتِهِ وَٱلأُلَى بِٱلصِّدْقِ تَرْبِيْهَا
وَٱخْذِلْ بِعَدْلِكَ يَا رَبَّاهُ أَنْفُسَ مَنْ   نَوَتْ لَهُ ٱلْخَذْلَةَ ٱلسُّوْءَى مَطَاوِيْهَا
أَعِنْهُ لَا هُمَّ فِيْ سَامِيْ مَقَاصِدِهِ   أَعِنْ مُعِيْنِيْهِ رَبِّيْ مَعْ مُعِيْنِيْهَا
وَٱلْحَقُّ رَبِّيْ أَدِرْهُ كَيْفَ دَارَ لِيَنْـ   ـصُرَ ٱلشَّرِيْعَةَ أَوْ يُخْزِيْ أَعَادِيْهَا
وَمَا ٱنْتَهَى ٱلْمُصْطَفَى مِنْ غُرِّ أَدْعِيَةٍ   قَدْ كَانَ لِلَّهِ بِٱلإِخْبَاتِ يُزْجِيْهَا
حَتَّى رَأَى فِيْ وُجُوْهِ ٱلنَّاسِ وَاضِحَةً   إِشَارَةَ ٱلطَّاعَةِ ٱلْمَحْمُوْدُ مُوْلِيْهَا
وَتَابَعَتْ بَعْدَ ذَا صَحْبُ ٱلرَّسُوْلِ خُطَا   هَا لِلْمَدِيْنَةِ إِذْ حَلَّتْ مَغَانِيْهَا
وَسَارَتِ ٱلرَّكْبُ فِيْ قَوْلِ ٱلرَّسُوْلِ لأَطْـ   ـرَافِ ٱلْجَزِيْرَةِ تَرْوِيْهِ لأَهْلِيْهَا
تَقُوْلُ لِلْمُرْتَضَى أَوْصَى ٱلرَّسُوْلُ عَلَى   غَدِيْرِ خُمٍّ بِذَا أَوْلاَهُ تَجْوِيْهَا

وَمَا مَضَتْ مُدَّةٌ حَتَّى ٱلْوَصِيَّةُ شَا   عَتْ فِيْ ٱلْأَعَارِبِ فِيْ سَامِيْ مَعَانِيْهَا

وَبِٱلرِّعضى قَابَلَ ٱلنَّاسُ ٱلْوَصِيَّةَ مِنْ   دُوْنِ ٱعْتِرَاضٍ وَقَدْ كَانُوا مُطِيْعِيْهَا

قَالَوْا: إِرَادَةُ طَهَ مِنْ إِرَادَةِ بَا   رِيْهِ فَلاَ مُسْلِمٌ بَرٌّ يُنَاوِيْهَا

إِلَّا أُنَاسٌ أَكَنَّتْ بُغْضَةً لِعَلِيٍّ مَا نَسَتْ أَنَّهُ قَدْ كَانَ غَازِيْهَا

فَٱسْتَعْظَمَتْ أَمْرَ هَاتِيْكَ ٱلْوَصِيَّةِ لَمْ   تَرْغَبْ بِهَا كَذَّبَتْ مَنْ رَاحَ يَرْوِيْهَا

أَوْ أَنَّهَا حَسَدَاً كَانَتْ تُؤَوِّلُ هَا   تِيْكَ ٱلْوَصِيَّةَ أَوْ تَسْعَى لِتُخْفِيْهَا

وَٱلنَّاسُ إِذْ كَثُرَتْ شَتَّى مَطَامِعِهَا   لَا ٱلْأَنْبِيَاءُ وَلَا ٱلْأَمْلَاكُ تُرْضِيْهَا

فَكَيْفَ تَرْضَى عَلَى ٱلْمَوْلَى أَبِيْ حَسَنٍ   وَكَانَ مُكْبِتَ عَاصِيْهَا وَعَاتِيْهَا

كَمَا نَرَى ٱلْحَارِثَ ٱلْفِهْرِيَّ تُغْضِبُهُ   وَصِيَّةُ ٱلْمُصْطَفَى يَعْنَى لِيَنْفِيْهَا

مَا حَدَّثُوْهُ بِهَا حَتَّى ٱمْتَطَى عَجَلاً   جَوَادَهُ وَسَعَى فِيْ ٱلْأَرْضِ يَطْوِيْهَا

وَإِذْ أَتَى طِيْبَةَ أَلْفَى ٱلرَّسُوْلَ بِهَا   فِيْ ٱلْمَسْجِدِ ٱلنَّبَوِيِّ ٱلنَّاس يُفْتِيْهَا

فَجَاءَهُ غَاضِبَاً فِيْ زِيِّ مُشْتَبِهٍ   وَسَائِلٍ عَنْ أُمُوْرٍ لَيْسَ يَدْرِيْهَا

نَادَى: أَأَحْمَدُ قَدْ أَمَرْتَنَا فَأَطَعْـــنَا خَمْسَةً مَا سَمِعْنَا قَبْلُ سَادِيْهَا

هِيَ ٱلشَّهَادَةُ بِٱلتَّوْحِيْدِ ثُمَّ بِأَنَّـــكَ ٱلرَّسُوْلُ شَهِدْنَاهَا وَنَحْكِيْهَا

وَأَنْ نُصَلِّيْ مِرَارَاً خَمْسَةً وَلَنَحْــنُ ٱلْيَوْمَ كُلُّ فَتَىً مِنَّا يُصَلِّيْهَا

وَأَنْ نَصُوْمَ وَصُمْنَا بِٱلتُّقَى رَمَضَا   نَاً وَٱلزَّكَاةَ وَهَا إِنَّا نُزَكِّيْهَا

وَأَنْ نَحُجَّ وَهَا حُجَّاجُنَا قَصَدَتْ   رُبُوعَ مَكَّةَ مِنْ أَقْصَى مَثَاوِيْهَا

وَقُلْتَ هٰذِيْ شُرُوْطُ ٱلدِّيْنِ فَٱتَّبِعُوْ   هَا قَوْلَةً كُلُّنَا قَدْ بَاتَ وَاعِيْهَا

فَمَا ٱكْتَفَيْتَ بِذَا بَلْ جِئْتَنَا بِوَصِيَّـــةٍ مُجَدَّدَةٍ بِٱلْأَمْسِ تُوْصِيْهَا

فَقَدْ رَفَعْتَ بِضَبْعَيْ إِبْنِ عَمِّكَ رَفْـــعَةً وَحَقِّكَ لَا جَاهٌ يُوَازِيْهَا

وَقُلْتَ «مَنْ كُنْتُ مَـوْلاَهُ ٱلْعَلِيُّ لَـهُ مَـوْلَى» ٱلْمَقَالَـةُ ذِي قَدْ أَسْمَعُـوْنِيْهَا
فَقُلْ لَنا جَهْـرَةً هَلْ ذِيْ ٱلْمَقَـالَةُ مِنْ أَوْضَـاعِ نَفْسِكَ أَمْ بَـارِيْكَ مُـوْحِيْهَا
فَقَـالَ أَحْمَدُ: بَـلْ مِنْ عِنْدِ رَبِّيَ مَـا مِـنِّـيْ أَلِيَّـةُ حَقٍّ رُحْـتُ آلِيْـهَـا
وَٱلـلَّهِ وَٱلـلَّهِ أَلْـقَـاهَـا ٱلإِلَـهُ إِلَـيَّ مِثْلَمَـا كُنْتُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ مُلْقِيْهَـا
وَٱلْحَارِثُ ٱغْتَاظَ مِنْ قَوْلِ ٱلرَّسُوْلِ وَوَلَّى فِيْ خُطَىً لَيْسَ يَدْرِيْ كَيْفَ يُخْطِيْهَا
وَقَـالَ : إِنْ تَـكُ حَقّـاً يَـا إِلَهِي قَـوْ لَـةُ آلـرَّسُـوْلِ وَحَقّـاً أَنْتَ بَـاغِيْهَـا
أَرْسِلْ عَلَيْنَا جَمِيْعاً مِنْ سَمَائِكَ أَحْـجَاراً وَعَذِّبْ نُفُـوْساً رُمْتَ تُشْقِيْهَـا
وَمَـا أَتَـمَّ خَـزَاهُ آلـلَّهُ قَـوْلَـتَـهُ فِيْ بَـابِ مَسْجِدِ طَـهَ وَهْـوَ تَـالِيْهَـا
إِلاَّ ٱلْحِجَارَةُ مِنْ عَالِيْ ٱلسَّمَـاءِ عَلَيْـهِ ٱللَّهُ سُبْحَـانَـهُ قَـدْ كَـانَ رَامِيْهَـا
فَمَـاتَ حَـالاً وَتِلْكَ ٱلْحَقَّ مُعْجِـزَةٌ بِـهَـا أَطَـاعَ رَسُـوْلَ ٱللَّهِ رَائِيْهَـا
وَأَيْقَنَـتْ أُمَّـةُ ٱلْهَـادِيْ بِـأَنَّ عَـلِيَّـنَا لَقَدْ فَـاقَ كُلَّ ٱلنَّـاسِ تَـوْجِيْهَـا

أمير المؤمنين في مرض المصطفى ووفاته

عُلَّ ٱلرَّسُوْلُ فَعُلَّ ٱلدِّيْنُ وَٱشْتَكَتِ آلـدُّنْيَا ٱلسَّقَامَ ٱلَّتِيْ قَدْ رَاحَ شَاكِيْهَا[1]
وَقَالَ: خُيِّرْتُ مَا بَيْنَ ٱلْخُلُوْدِ بِذِيْ آلـدُّنْيَا وَخَيْرَاتِهَـا مَـعْ كُـلِّ مَـا فِيْهَـا

(١) انتهينا هنا إلى النقاط الخلافية في تاريخ صدر الإسلام وهي النقاط التي أقامت المسلمين وأقعدتهم في جميع أدوار تاريخهم إلى يوم الناس هذا ولعلّ خلافهم عليها سيدوم إلى يوم يبعثون . وليس لمثلي أن يخوض هذه النقاط الخلافية التي تفاقم أمرها ويأمن العثار ولا سيما بعد أن صار لها شبه شكل ديني ودخلت في عداد الاعتقادات الإسلامية وبسببها تشعبت مذاهب القوم ويستحيل عليَّ أن أرضي قرّاء علويتي هذه وحواشيها الضافية إلاّ إذا تساهلوا معي وترفقوا بي وتلطفوا بنظرهم إليَّ كرجل أحبَّ أمير المؤمنين وأكبَّ على مطالعة كل ما يتعلق بشخصه الأقدس في =

وَبَيْنَ جَنَّةِ رَبِّيْ إِذْ أَفُوْزُ بِأَنْوَارِ آلْمُهَيْمِنِ فِيْ سَامِيْ عَلَالِيْهَا

= التواريخ المختلفة وقد حسنت نيته وخلصت طويته وصلحت هويته وانصرفت للخير رغبته ألا وإنني أقول إني فيما أكتبه في هذه الحاشية وما سأكتبه بعدها ليس هو رأيٌ خاصٌ لي أرجح به رواية على أخرى بل عليّ أن أنقل كلام المؤرّخين وأترك الحكم للقارئين فأقول :

بعد أن رجع المصطفى من حجة الوداع إلى المدينة المنورة بشهرين أخذ يشتكي المرض وصار يحدّث الناس عن قرب وفاته وقال إنّه خُيّر بين الخلود ونعم الدنيا وبين الآخرة وجوار ربّه فاختار الآخرة وجوار ربّه ولعمري أنّ النبيّ الأمين الذي أرسله الله يهدي الناس إلى التوحيد ويعلمهم مكارم الأخلاق ويعدّ لهم الخلود في جنان النعيم لحريٌّ به أن يكون مؤثراً لنفسه الطاهرة نعيم ما أحبه للناس من الخلود على هذه الدنيا وجميع ما فيها .

ولما اشتدّ المرض على رسول الله ﷺ قبل وفاته باثني عشر يوماً كان في بيت زوجه ميمونة فجمع نساءه في بيتها وطلب منهنّ أن يسمحن له بأن يمرّض في بيت عائشة فسمحن وهكذا انتقل إلى بيت عائشة وكان جسمه من الضعف بحالة يعجز معها عن المشي على قدميه فتوكأ على كتفي سيدنا علي وعمّه العباس فأوصلاه إلى بيت عائشة .

ويوم الأربعاء السابق ليوم وفاته بستة أيام شعر ﷺ بدنوّ أجله فطلب عليّاً إليه فأسرعت زوجه عائشة واستدعت أباها أبا بكر وكذلك فعلت زوجه حفصة فاستدعت أباها عمر فلما رأى الثلاثة بحضرته قال ﷺ : « انصرفوا فإن تكن لي حاجة أبعث إليكم » فانصرفوا وفي يوم الخميس اجتمع الأصحاب والأنصار بحضرته فنادى ﷺ في ذلك اليوم قال : « أئتوني باللوح والدواة أكتب لكم ما لا تضلّوا من بعدي » فتنازع الحاضرون بين من يريد تلبية طلبه ومن يعارض فيها وكان أول المعارضين عمر بن الخطاب فقال دعوا رسول الله إنّه يتألّم وعندكم القرآن وإذ رأى رسول الله النزاع قال : « أخرجوا ولا ينبغي عند نبي أن يتنازع » فقالوا فيما بينهم : « ما شأنه أهجر ؟ استفهموه » فذهبوا يعيدون عليه فقال « دعوني فما أنا فيه خير مما تدعوني إليه » ثمَّ أوصى فقال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم » وهاتان الروايتان منقولتان عن ابن عباس نقلها كل المؤرخين السنيين فضلاً عن مؤرخي الشيعة فهما ولا جدال صحيحتان فما كان كان يريد أن يقول المصطفى =

=لسيدنا علي عندما طلبه إليه ؟؟ ولماذا عندما رأى أبا بكر وعمر معه داخلان عليه صرفهم جميعاً ولم يفه ببنت شفة ؟؟ وفي حادثة الخميس نقول : ما الذي كان يريد أن يكتب المصطفى في اللوح الذي طلبه ؟ ولماذا تعرَّض عمر لمنع إيصال اللوح والدواة إليه وهو يقول : « إنّ رسول الله غلبه الوجع وعندكم القرآن » ولماذا ارتفعت أصوات الناس لمعارضة عمر حتى أمر المصطفى بخروج الناس من عنده ؟؟ وما هو غرض المصطفى ؟ وما الذي كان يريد أن يسطره على اللوح لكي لا يضلَّ الناس من بعده ؟ ولماذا لم يرد عمر ما أراد رسول الله ؟؟ والله إنّي لفي ارتباك من هذا .

ثمَّ أنّ أبا بكر قد صلّى في الناس من مساء الخميس الذي كان يذكره ابن عباس فيبكي وهو ذلك الخميس الذي لم يُؤتَ في صباحه بلوح وقرطاس إلى رسول الله ليسطر ما يؤمن بعده أمّته الاختلاف إلى صباح الاثنين الذي توفي فيه صلى الله عليه وآله وسلم هذا إذا صحّت رواية الذين قالوا إنّ أبا بكر صلّى في الناس سبعة عشرة مرة . وصلاة أبي بكر في الناس قد حصلت فعلاً فهي حقيقية لا ريب فيها . ولكن موضع الخلاف هو في الذي أمر أبا بكر أن يؤمَّ الجماعة في الصلاة فمن الناس من يقول أنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي أمره بذلك وعلى هذا القول أهل السنة ومنهم من يقول بل عائشة هي التي أصدرت الأمر إلى أبي بكر بإقامة الصلاة في الناس أمّا من عند نفسها مباشرةً أو بإدلالها على رسول الله وعلى هذا القول أهل الشيعة . ويزيد بعضهم على أنّ المصطفى أمر أبا بكر بإقامة الصلاة وعارضت في ذلك عائشة مقترحة أن يقيمها عمر وعللوا هذه المعارضة بخوف عائشة أن يتشائم الناس من أبي بكر إذ يرونه يصلّي بهم ونبيّهم يحتضر . وهذا قرأته في كتب أهل السنّة . ويجوز لمتطفّل ضعيف الفكر قليل العلم أن يتساءَل أولاً لماذا كان رسول الله بالرغم عمّا في جسمه الشريف من الضعف والعياء يتحامل للخروج إلى المسجد وأبو بكر يصلّي في الناس بأمره ؟ أكان راغباً عليه الصلاة والسلام بإمامة الجماعة بعد أن أوجد من ينوب عنه فيها ؟ أو لغرضٍ آخر ؟ مع أنّه على ما في كتب السنة أيضاً بينما كان مرةً يجرّر نفسه للخروج إلى المسجد أغمي عليه ثلاثة مرّات . ثانياً إذا كانت إنابة المصطفى لأبي بكر بإمامة المسلمين عنه في الصلاة دليلاً على استخلافه لولاية المسلمين من بعده لماذا عارضت بها عائشة ؟ . ثالثاً ألا يصحّ لأبله مثلي أن يخطر له أن ما خطر لعائشة من تشاؤم المسلمين من أبي=

بِـذَاكَ أَنْبَـأَ عَنْ دَانِيْ مَنِـيَّتِـهِ   وَإِنَّـهُ لَـمُـلَبٍّ صَـوْتَ دَاعِـيْـهَـا

=بكر إذا أمَّ الناس في الصلاة ورسول الله يحتضر قد خطر مثله على بال المصطفى لو أناط هذه المهمة بعليّ بن أبي طالب عليهما الصلاة والسلام فأشفق على علي كما أشفقت عائشة على أبيها أن يتشائم الناس منه لو أمّهم ورسول الله يحتضر ؟؟ رابعاً هل هذه الإنابة التي اختصَّ بها أبو بكر أكبر قيمةً من وصاية المصطفى للمرتضى في « غدير خمّ » ؟ وأعود فأقول إنّ رجلاً قليل العلم ضعيف النظر مستفسراً مستفتياً غير حازم ولا مرجّح رأياً أو قاطع حكماً أو على حدّ قول الشاعر :

وكم من منكرٍ تولاّ صريحاً   وآفته من الفكر السقيم

نعم إنّ رجلاً هذا حاله مثلي لأخلق بالقارىء الكريم أن يرحب صدره بالإغضاء عمّا اشتبه عليه من هذه الروايات وأن تُطلب له الهداية من الهادي القدير لا أن تتوجه عليه خصومة المخاصمين وعذل العاذلين ومن أقرَّ بجهله حرم عذله وحقّ على المنصفين عذره على أنني لا أجهل بأنني عرّضت نفسي للوم فلأستهدف له طالما الناس على اختلاف وأنا لا أستطيع على ضعفي وجهلي أن أوفق بينهم .

ثمَّ إنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أصبح صباح الإثنين وهو أحسن حالاً وأوفر صحةً فاطمأنّ عليه أصحابه حتى أنّ أبا بكر جاءَه واستأذنه بالمسير إلى بيته بالسنح وهي إحدى ضواحي المدينة وتبعد عنها نحو نصف فرسخ ولعلّ بقية أصحابه فعلوا فعله عدا سيدنا علي الذي ما ترك خدمة المصطفى وتمريضه عليهما الصلاة والسلام إلى أن ذهبت نفسه لخالقها مارة بين صدره ونحره . وفي ضحى لك اليوم عاودته العلة فاشتدَّت وتمت إرادة الله باختيار رسوله إلى جواره فمات صلى الله عليه وآله وسلم على صدر المرتضى راضياً مرضياً وأسرع أمير المؤمنين ومعه أعيان بني هاشم إلى الإهتمام بتجهيزه وأقبلت الصحابة فغصّ المسجد النبويّ بهم وأشهر عمر سيفه وجعل يتهدد ويتوعد كل من يقول إنّ رسول الله قد مات إلى أن جاءَه أبو بكر فخطب في الناس فقال : « أيّها الناس من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات » وتلا آية ﴿ **وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً * وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ فرجع عمر بقول أبي بكر هذا إلى رشده وقال « فكأنّي لم أسمع بهذه الآية في كتاب الله تعالى قبل الآن لما نزل بنا فإنّا لله وإنّا إليه راجعون=

وَعِنْدَمَا ٱسْتَحْكَمَتْ فِيْ ٱلْجِسْمِ عِلَّتُهُ وَٱسْتَفْحَلَتْ وَلَقَدْ أَعْيَتْ مُـدَاوِيْهَـا

= وصلوات الله وسلامه على رسوله وعند الله نحتسب رسولـه » فلما رأى أبـو بكر أنّ ذكـر تلك الآيـة خففت من جزع عمـر والمسلمين استتلى خـطابـه فقـال : « قـال الله تعـالى لمحمد : إنّك ميت وإنّهم ميتون . وقال تعـالى : كل شيء هـالك إلاّ وجهـه له الحكم وإليـه ترجعـون . وقـال سبحـانـه : كـلّ من عليهـا فـان ويبقى وجـه ربّك ذي الجـلال والإكرام . وقال عزّ وجل : كل نفس ذائقة المـوت وإنّما تـوفون أجـوركم يوم القيـامة » فكـانت تلاوة هـذه الآيات الشـريفة معـزية للنـاس عن خطبهم بنبيهم صلى الله عليه وآله وسلم وبينمـا كان الناس في المسجد وهذا حالهم كان علي والعباس وبقية الهواشم حـول المصطفى وهـو مسجى على سرير الموت وهم يقومون بالواجبات الأخيرة نحوه .

وكـانت وفاة المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم يوم الإثنين من شهـر ربيع الأول سنـة ١١ هجـريـة واختلف الناس في تعيين أي الأثانين كان ؟؟ فقيل لليلتيَن خلتـا من الشهر وقيـل لاثنتي عشر خلت من الشهر . وقيـل لثلاث عشـرة منه ويكـون يوم ١٣ ربيـع أول من سنة ١١ هجـرية حسب رأي هؤلاء مـوافقاً ليـوم ٨ يـونيـو سـنة ٦٣٢ مسيحيـة . وكنّـا ذكـرنـا أنّ ولادته صلى الله عليه وآله وسلم كانت في يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ولأربعين سنـة خلت من ملك كسـرى أنـوشـروان المـوافق ليـوم العشـرين من إقـريـل سنـة ٥٧١ مسيحية وعلى ذلـك فيكون عمـره السعيد صلى الله عليه وآله وسلم ٦١ سنـة شمسيـة إلاّ تسعـة وأربعين يوماً والله أعلم ؟ .

أمّـا غسل المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم وتكفينه ودفنـه فقد كـان بمبـاشـرة سيـدنـا علي أميـر المؤمنين عليه السلام وتحت إشرافه فهو الذي غسّله وهو الذي كفّنه وهو الذي أنزله في حفـرته وأكثر الرواة قـالوا بـأحاديث شتّى ثـابتة بـل المصطفى كـان أوصى عليّاً بذلك ومما يؤيد صحة هذه الأحاديث ما عرفناه من تعلق المصطفى بالمرتضى في حياتـه وما سمعنـاه من فمه الشريف عنه فلا عجب إذا أناط به تـولي أمره في ممـاته لعلمـه أنّه لا يـأتي أمراً إلاّ وللشرع فيه رضى وبالإجمال أنّ المرتضى كان كل شيء في ذلك اليوم .

تـوفي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ضحى يـوم الإثنين وقـد زاغت الشمس وحفـرت حفـرتـه الشريفة في الموضع الذي توفي فيـه في بيته المـلاصق للمسجد النبـوي الذي اختصّـه بسكنى زوجـه عائشـة وبعد أن غسله المـرتضى بمعاونـة عمّه العبـاس ونفر ممن طلبـوا =

= شرف هذه المعاونة وكفنه بثلاثة أكفان أسجاه على فراشه بجوار حفرته ووقف بجانبه عليهما الصلاة والسلام وقال يرثيه :

« بأبي أنت وأمي ، يا رسول الله . لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة . الأنباء ، وأخبار السماء . وخصصت حتى صرت مسلياً عمن سواك . وعممت حتى صار الناس فيك سواء ولولا أنّك أمرت بالصبر . ونهيت عن الجزع . لأنفدنا عليك ماء الشؤون . ولكان الداء مماطلاً والكمد محالفاً . وقلّا لك . ولكنه ما لا يملك ردّه . ولا يستطاع دفعه . بأبي أنت وأمي أذكرنا عند ربّك . واجعلنا من بالك » اهـ .

وبقي رسول الله ﷺ مسجى على فراشه بقية يوم الإثنين وليلة الثلاثاء وبياض يوم الثلاثاء وفي يوم الثلاثاء هذا جاءَ أبو بكر وعمر والمهاجرون والأنصار وبقية المسلمين رجالاً ونساءً وأولاداً لزيارة المصطفى وتوديعه فكان يدخل الفوج منهم بعد الفوج على قدر ما تسع الحجرة النبوية فيجدون المرتضى عند رأسه والحسن والحسين عند رجليه وعمّه العباس ونفر من بني عبد المطلب حوله . وعندما دخلوا على المصطفى لم يكن إمامٌ يؤمهم فكبّر كلٌّ منهم أربع تكبيرات أرسالاً ثم قال أبو بكر وعمر : السلام عليك يا رسول الله . ثم قالا : اللهمَّ نشهد أنّه قد بلّغ ما أنزل إليه . ونصح لأمّته . وجاهد في سبيل الله . حتى أعزَّ الله دينه . وتمت كلمته . فاجعلنا إلٰهنا ممن تبع القول الذي أنزل معه . واجمع بيننا وبينه حتى تعرّفه بنا وتعرّفنا به . فإنّه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً . لا نبتغي بالإيمان به بدلاً . ولا نشتري به ثمناً أبداً » فأمّن الناس على ما قالا .

وفي ليلة الأربعاء أُخذ رسول الله ﷺ في قبره ونزل معه في قبره علي بن أبي طالب والفضل بن عباس وقثم أخوه وشقران مولاهم وكان ثمَّ حاضراً أوس بن خولي فسأل علياً أن يسمح له بالنزول معه فسمح وهناك ودعوا خير الخلق الوداع الأخير ثم خرجوا فهالوا عليه التراب .

بقي لنا أن نسأل لماذا أبقوا رسول الله ﷺ مسجّى على فراشه هذه المدة الطويلة أي بين ضحى الإثنين وليلة الأربعاء ؟ أكان ذلك كاحتجاج من المرتضى الذي =

= كان صاحب الكلمة العليا في الغسل والتجهيز على أصحاب رسول الله وأنصاره الذين اشتغلوا عن وفاة المصطفى بأمر الخلافة كما يقول بعضهم ؟ أم كان نظراً بعيداً من سيدنا أمير المؤمنين عليه وعلى المصطفى وآلهما الصلاة والسلام فأراد أن لا يعجل بدفن المصطفى في غيبة أصحابه وأنصاره حتى لا تكون هنالك فتنة فينتقم المسلمون على الذين شغلتهم أنفسهم عن واجب وداع المصطفى كما يرى آخرون ؟ إنّ الجواب على هذا ليس من الأمور السهلة لتشعب الرواة والأخبار والذي نعرفه هو أنّ المهاجرين والأنصار « عدا الهواشم » عندما اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة للمداولة بأمر الخلافة على أثر وفاة المصطفى جاءَ العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب وغيرهما من رجالات قريش إلى علي وهو يعتني بتجهيز المصطفى عليهما الصلاة والسلام وعرضوا عليه أن يبايعوه فوجَّه علي إليهم نظرة من يقول أنحن في موقف بيعة أم في مأتم أعظم خلق الله وكعادته من حضور ذهنه وتجلده على ملقى الخطوب الجسام قال ارتجالاً :

« أيّها الناس : شقّوا أمواج الفتن بسفن النجاة وعرّجوا عن طريق المنافرة ، وضعوا تيجان المفاخرة ، أفلح من نهض بجناح ، واستسلم فأراح ، هذا ماءٌ آجن ، ولقمة يغصُّ بها آكلها ، ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها ، كالزارع بغير أرضه ، فإن أقل يقولوا حرص على الملك ، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت ، هيهات بعد اللتيا والتي ، والله لإبن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثديي أمه ، بل اندمجتُ على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة » اهـ .

والناظر إلى ما وراء هذه الكلمات العلوية يعلم أنّ علياً عليه السلام فوق الموضع الذي وضعه فيه أصحابه عندما عرضوا عليه البيعة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسجّى على فراش الموت فما عليّ بالذي يرهب الموت ، ولا بالذي يحرص على الملك ، ولا بالذي يجني الثمرة قبل وقت إيناعها ، وفوق ذلك فقد كان يعلم أشياء لو علمها أصحابه ومريدوه لاضطربوا ولعلّ هذه الأشياء هي التي حملته على السكوت عما فعل أصحاب السقيفة وعلى إبقاء رسول الله بغير دفن حتى يفرغ أصحاب السقيفة من مهمتهم ويأتونه للقيام بأقدس واجب وهو دفن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم والله سبحانه أعلم .

وعلينا ونحن مشتغلون بمصاب الإسلام الأكبر بالنبي الأمين سيدنا =

= محمد ﷺ أن ترجع إلى شخصه الأقدس فنذكر من أحواله وشخصيته وما تمَّ على عهده إجمالاً ما يكون فيه الإتمام لمباحث كتابنا هذا الذي أحببنا أن نجمل فيه تاريخ صدر الإسلام فنقول :

« نســـب رسول الله ﷺ »

تقدَّم معنا في حاشيةٍ سابقةٍ ذكر النسب النبوي الشريف في كلامنا على قريش فلا نعيد هنا ذكر شرف هذه النبعة الطاهرة التي ابتدأت من اسماعيل بن إبراهيم حتى انتهت إلى المصطفى ﷺ ويكون النسب النبوي الشريف هكذا : محمد . بن عبد الله . بن عبد المطلب . بن هاشم . بن عبد مناف . بن قصي . بن كلاب . بن مرة . بن كعب . بن لؤي . بن غالب . بن فهر . بن مالك . بن النضر . بن كنانة . بن خزيمة . بن مدركة . بن الياس . بن مضر . بن نزار بن معد . بن عدنان . هذا هو المجمع عليه في نسب المصطفى ﷺ كما أنّ لا جدال ولا خلاف في انتهاء نسب عدنان إلى اسماعيل بن إبراهيم وإنّ تعذّر على علماء الأنساب حفظ النسب بين عدنان واسماعيل وغاية ما قالوا إنّ اسماعيل هو الجدّ الحادي والثلاثون للمصطفى عليهما الصلاة والسلام وما من ريبةٍ في ذلك ولا نزاع .

« أزواج المصطفى ﷺ »

وأمّا أزواج المصطفى فأولاهنَّ سيدتنا خديجة ولم يتزوج ﷺ في حياتها عليها وقد ذكرنا خلاصة ترجمتها الزاهرة فيما مضى .

وسودة بنت زمعة . وهي من بني النجار لأنّها بنت أخي سلمى بنت عمرو بن زيد أم عبد المطلب وكانت قبله عند السكران ابن عمّها وهاجر بها إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية ثم رجع بها إلى مكة فمات عنها وهي أول أزواجه ﷺ بعد سيدتنا خديجة وكان عقده عليها في رمضان الشهر الذي ماتت فيه سيدتنا خديجة .

وعائشة بنت أبي بكر . وسوف نأتي على ترجمتها تفصيلاً في حاشية تجيء .

وحفصة بنت عمر بن الخطاب . وهي شقيقة عبد الله بن عمر وأسنُّ منه وأمّها زينب أخت عثمان بن مظعون وكانت قبل المصطفى تحت خنيس بن حذافة فتوفي عنها=

فَمَا رَأَى ٱلْمُصْطَفَى إلَّا بِحَضْرَتِهِ   مَعَ ٱلْعَلِيِّ صِحَاباً لَيْسَ دَاعِيْهَا

= جريحاً بغزوة بدر الكبرى . تزوجها المصطفى على رأس ثلاثين شهراً للهجرة وكانت ولادتها قبل النبوَّة بخمس سنوات وماتت في المدينة المنورة في شعبان سنة ٤٥ للهجرة ولها من العمر ٦٣ سنة ودفنت في البقيع وطلّقها المصطفى ثم استرجعها بأمر جبريل عليهما الصلاة والسلام في حديث طويل ليس هنا محلّه .

وزينب بنت خزيمة . وهي أخت ميمونة مربية المصطفى لأمّها وكانت تدعى في الجاهلية بأمّ المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم وكانت قبل المصطفى تحت الطفيل بن الحارث فقتل يوم بدر شهيداً فتزوجها ﷺ على رأس أحد وثلاثين شهراً للهجرة وتوفيت زينب بعد زواجها بثمانية أشهر ودفنت في البقيع عن ثلاثين عاماً ولم يمت من أزواجه في حياته ﷺ إلّا زينب هذه وسيدتنا خديجة وريحانة .

وأم سلمة . واسمها هند وكانت قبل زواجها بالمصطفى عند أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد وأبو سلمة هذا هو ابن عمة المصطفى المسماة برَّة بنت عبد المطلب وهو أيضاً أخو المصطفى بالرضاعة وكان أبو سلمة وزوجه أم سلمة أول من هاجرا إلى الحبشة ولما مات أبو سلمة تزوجها المصطفى وكفل بناتها الأربع وماتت على عهد يزيد بن معاوية وكان عمرها ٨٤ سنة في المدينة ودفنت في البقيع .

وزينب بنت جحش . وكان اسمها برّة فسماها زينب وكانت قبل المصطفى عند زيد بن حارثة ثمَّ طلقها فلما انقضت عدتها تزوجها ﷺ ولزواجها هذا حديث طويل نزلت فيه آية من السماء وتوفيت سنة ٢٠ للهجرة في المدينة المنورة ودفنت في البقيع ولها من العمر ٥٣ سنة .

وجويرية . وهي من بني المصطفى سبيت في غزوتهم ووقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها على تسع أواق فأدّى المصطفى عنها ذلك وتزوجها وكان اسمها برَّة فسماها المصطفى جويرية تصغير جارية لما أشرنا من حديث سبيها وعتقها وكانت عند زواجها في العشرين من عمرها وتوفيت في المدينة المنورة سنة ٥٦ هـ ولها من العمر ٧٠ سنة ودفنت في البقيع .

وريحانة بنت يزيد . وهي من بني النضير وقيل من بني قريظة وكانت قبل المصطفى عند رجل من بني قريظة يقال له الحكم ووقعت في سبي بني قريظة فكانت =

فَقَـالَ : مَا آلآنَ يَـا صَحْبِيْ أُرِيْدُكُمْ   وَلَيْسَ مِنْ حَاجَةٍ فِيْ آلْحَالِ أُسْدِيْهَا

= صفي رسـول الله فخيرهـا بين الإسلام ودينهـا وهو اليهـودية فـاختارت الإسـلام فأعتقهـا وتزوجها . وطلّقهـا المصطفى ثم راجعهـا وماتت مـرجعة في حجـة الوداع في المـدينة المنورة ودفنت في البقيع .

وهنـالـك أزواج أخـرى خـطبهنَّ ﷺ أو عقـد عليهنَّ ثم فـارقهنَّ أو طلقهنّ ولم يدخل عليهنَّ لا فائدة من الإسهاب بأسمائهن .

وأمّا سراري المصطفى فقد كنَّ أربعاً وهنَّ ماريا القبطية أهداها له المقـوقس وهي أم ولده إبراهيم وجارية وهبتها له زينب بنت جحش وزليخة القرظية وريحانة .

« أولاد المصطفى ﷺ »

ولـم تلد له من نسائـه ﷺ غير سيـدتنا خـديجة وقـد تقدم معنـا ذكر أولاده منهـا وولدت له سريته ماريا القبطية ولداً ذكراً في ذي الحجـة من السنة الثـامنة للهجـرة وعقَّ عنه بكبشين في اليوم السابع لمولده وحلق رأس الغلام وتصدَّق بـزنة شعـره فضة ودعـاه إبراهيم ودفعه لأمّ بردة خولة بنت المنذر بن زيد الأنصاري زوجة البرَّاء بن أوس لترضعه وتـربيه على أنّـه لم يعش فمات في سنـة عشر ولـه من العمر سنـة وعشـرة أشهـر ولمـا احتضر جاءَ المصطفى ﷺ فوجده في حضن أمّه يحتضر فأخذه إلى حجره وقال : « يا إبراهيم إنّا لن نغني عنك من الله شيئاً » ثم زرفت عيناه الشريفتان بالـدموع وقـال : « إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون. تبكي العين . ويحزن القلب. ولا نقـول ما يسخط الـربّ . ولولا أنّه وعـد صادق . ومـوعود جـامع . فـإنّ الآخر منّـا يتبع الأول . وجـدنا عليـك يا إبراهيم وجداً شديداً ما وجدناه » ولما نزل الموت بـإبراهيم أخـذ المصطفى يبكي فقـال عبد الرحمن بن عوف: أو لم تكن نهيت عن البكاء ؟ قال ﷺ : « لا ولكنّي نهيت عن صـوتين أحمقين وصوتين آخـرين صوت عنـد مصيبـة وخمش وجـوه وشق جيـوب ورنـة شيطان . وصوت عند نغمة لهو . وهذه رحمـة منّي لإبراهيم » بـذلك عـرف المسلمون كيف يستقبلون مصـائبهم بالصبـر وبدون جـزع . ودفن إبـراهيم في البقيـع عليـه وعلى المصطفى الصلاة والسلام .

« كتاب المصطفى ﷺ »

كـان رسول الله ﷺ أمّيـاً لا يقرأ ولا يكتب وكـان يستخدم لكتـابتـه كثيـرين في =

وَلَمْ يَبُحْ لَهُمُ عَمَّا لَهُ طَلَبَ آلْـعَلِيَّ بَلْ ظَلَّ رُغْبَاهُ مُخَبِّيْهَا

= مقدمتهم سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعامر بن فهيرة وعبد الله بن الأرقم وكان هذا يكتب الرسائل للملوك وكان في أغلب الأوقات يكتب الوحي وكثير غير هؤلاء وبعد فتح مكة كرّمها الله عندما أسلمت قريش صار من كتابه أبو سفيان وولداه يزيد ومعاوية .

« شعراء المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم »

ولقد أيّد المصطفى سنة ملوك العرب وأمرائهم في إجازة الشعراء والعناية بهم وإكرام منزلتهم ومن الشعراء الذين تشرّفوا باللياذ بحضرته النبوية وكانوا يمدحونه ويناضلون عنه بشعرهم ويهجون كفّار قريش حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم .

« أشهر الحوادث التي تمت في حياة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم »

ولد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في عام الفيل في مكة المكرمة وفي السنة الثالثة لمولده الشريف شُقَّ صدره الطاهر عند ظئره حليمة . وفي السنة الرابعة لولادته المباركة ولد أبو بكر بن أبي قحافة . وفي السنة السادسة كانت وفاة أمّه آمنة . وفي هذه السنة ولد عثمان بن عفان . وفي السنة السابعة لولادته استقلَّ بكفالته جدّه عبد المطلب . وفيها أصابه رمد شديد . وفي السنة الثامنة لولادته توفي جدّه عبد المطلب وكفله عمّه أبو طالب . وفي هذه السنة مات كسرى أنو شروان وفي السنة العاشرة لولادته كانت حرب الفجار الأولى . وفي السنة الثانية عشرة لولادته كانت حرب الفجار الثانية . وفي هذه السنة سافر مع عمّه إلى الشام . وفي سنة ١٣ لولادته ولد عمر بن الخطاب . وفي سنة ١٤ لولادته كانت حرب الفجار الثالثة وحلف الفضول وفي سنة ١٧ لولادته كان سفره إلى اليمن للتجارة مع عميه الزبير والعباس ابنيّ عبد المطلب. وفي سنة٢٥ لولادته كان سفره إلى الشام مع ميسرة غلام خديجة . وفي هذه السنة تزوج خديجة . وفي سنة ٣٠ لولادته ولد سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام وكانت ولادته في الكعبة . وفي سنة ٣٤ لولادته ولد معاوية بن أبي سفيان ومعاذ بن جبل وفي سنة ٣٥ لولادته هدمت قريش الكعبة وبنتها .

وابتدأت نبوّة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في السنة السابعة والثلاثين من عمره السعيد ففي =

وَفِيْ ٱلْخَمِيْسِ وَيَا يَوْمَ ٱلْخَمِيْسِ وَكَمْ مِنْ أَدْمُعٍ عِنْدَهُ قَدْ سَالَ هَامِيْهَا

= هذه السنة صار يرى الضوء والنور ويسمع الأصوات . وفي سنة ٣٨ لولادته كان ابتداء نزول الوحي عليه ﷺ في اليقظة ويحسب المؤرخون هذه السنة الأولى من النبوة . وفي السنة الثالثة للنبوة توفي ورقة بن نوفل . وفي السنة الرابعة للنبوة كان إظهار الدعوة . وفي السنة الخامسة للنبوة ولدت عائشة بنت أبي بكر . وفي هذه السنة كانت الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة . وفي السنة السادسة للنبوة أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب . وفي السنة السابعة للنبوّة تعاهدت قريش على عداء بني هاشم وبني المطلب . وفي السنة العاشرة للنبوة مات أبو طالب وخديجة . وفي هذه السنة تزوج المصطفى سودة بنت زمعة وعقد له على عائشة بنت أبي بكر وهي بنت سبع سنين . وفي سنة ١١ للنبوة كان ابتداء إسلام الأنصار . وفي سنة ١٢ للنبوة كان الإسراء والمعراج . وفي هذه السنة وقعت بيعة العقبة الأولى . وفي سنة ١٣ للنبوة كانت بيعة العقبة الثانية أو الكبرى . وفي سنة ١٤ للنبوة كانت الهجرة الكبرى للمدينة ومنها يبتدىء التاريخ الهجري الذي يعتمد عليه المسلمون في تواريخهم .

وفي السنة الأولى للهجرة حلَّ المسلمون في المدينة المنورة على الرحب والسعة بضيافة الأوس والخزرج وهم الأنصار . وفي هذه السنة كان بناء المسجد النبوي في المدينة ومسجد قباء والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار . وفي السنة الثانية للهجرة ابتدأت الغزوات النبوية فكانت فيها غزوة الأبواء . وغزوة ودان . وفي هذه السنة بنى المصطفى بعائشة بنت أبي بكر وهي في التاسعة من عمرها وفيها شرع الآذان . وفيها سار حمزة بن عبد المطلب لاعتراض عير قريش . وفيها سار عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب إلى بطن رابغ لاعتراض عير قريش أيضاً . وفيها سار سعد بن أبي وقّاص إلى الخرّار لهذا الغرض . وفي هذه السنة تزوج سيدنا علي بسيدتنا فاطمة عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام . وفيها أيضاً كنى المصطفى عليّاً بكنية « أبي تراب » . وفيها أيضاً كانت غزوة بواط وغزوة العشيرة وسرية عبد الله بن جحش إلى بطن نخلة . وفيها أيضاً كان تحويل القبلة . وفرض صوم رمضان . وثمَّ غزوة بدر الكبرى . وفي هذه السنة أيضاً توفيت رقية بنت المصطفى ﷺ . وفيها فرضت زكاة عيد الفطر . وفيها شرعت صلاة عيد الفطر . وفيها فرضت زكاة الأموال . وفيها كانت غزوة قرقرة الكدر وسرية سالم بن عمير ثم غزوتا بني قينقاع والسويق . وفي هذه السنة شرعت التضحية =

= وصلاة عيد الأضحى .

وفي السنة الثالثة للهجرة كانت سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف . وفيها تزوج عثمان بن عفان بأمّ كلثوم بنت المصطفى . وفي هذه السنة كانت غزوتا غطفان ونجران . وسرية زيد بن حارثة إلى قردة . وفي هذه السنة أيضاً تزوج المصطفى ﷺ حفصة ابنة عمر بن الخطاب وزينب بنت خزيمة . وفي هذه السنة ولد سيدنا الحسن عليه وعلى والديه والمصطفى صلاة الله وسلامه . وفي هذه السنة أيضاً كانت غزوتا أحد وحمراء الأسد .

وفي السنة الرابعة للهجرة كانت سرية أبي مسلمة إلى قطن وسرية عبد الله بن أنيس إلى عرفة وسرية القرّاء إلى بئر معونة وسرية عمرو بن أمية الصخري إلى مكة . وفي هذه السنة كانت غزوات بني النضير وذات الرقاع وبدر الصغرى . وفي هذه السنة ولد سيدنا الحسين عليه وعلى أخيه ووالديه والمصطفى الصلاة والسلام . وفي هذه السنة ماتت زينب بنت خزيمة زوج المصطفى وفيها تزوج المصطفى ﷺ أم سلمة . وفي هذه السنة كان تحريم الخمر مبدئياً .

وفي السنة الخامسة للهجرة كانت غزوات دومة الجندل والمريسيع والخندق وبني قريظة . وفي هذه السنة تزوج المصطفى جويرية وزينب بنت جحش . وفي هذه السنة نزلت آية الحجاب وفيها أيضاً فرض الحج على المسلمين .

وفي السنة السادسة للهجرة كانت سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء وسرية عكاشة إلى الغمر وسرية محمد بن مسلمة أيضاً إلى ذي القصة . وسرية عبيدة بن الجراح إلى مصارع أصحاب محمد بن مسلمة وسرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم وسرية زيد بن حارثة إلى العيص . وسرية زيد هذا إلى الطرف . وسريته أيضاً إلى وادي القرى وسريته أيضاً إلى أم قرفه . وسرية عبد الله بن عتيك لقتل أبي رافع . وعبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام اليهودي بخيبر. وفي هذه السنة كانت غزوات بني لحيان والغابة والحديبية . وفي هذه السنة كان تحريم الخمر تماماً . وفيها تزوج المصطفى بأم حبيبة .

وفي سنة ٧ للهجرة اتّخذ المصطفى الخاتم وصار يختم به رسائله . وفي هذه=

فَقَالَ يَا نَاسُ هَاتُوا آللَّوْحَ وَآطَّلِبُوْا   لِيَ آلـدَّوَاةَ بِهَـا فَلْيَـأْتِ دَاوِيْهَـا

=السنة أرسل المصطفى رسله إلى الملوك . وفيها كانت غزوة خيبر . وفيها كانت سرية عمر بن الخطاب إلى طائفة من هوازن . وسرية ابن أبي العوجاء إلى بني سليم وفيها أيضاً كانت عمرة القضاء . وفي هذه السنة تزوج ميمونة .

وفي سنة ٨ للهجرة كان فتح مكة وتلا الفتح غزوة الطائف وغزوة حنين وسرايا كثيرة أهمها سرية خالد بن الوليد إلى جذيمة وتلافي سيدنا علي أمرها . وفي هذه السنة كان اتّخاذ المنبر الشريف للخطابة . وفيها كانت ولادة ولده إبراهيم عليهما الصلاة والسلام من ماريا القبطية . وفي هذه السنة أخذت تفد الوفود على المصطفى وأولها وفد هوازن . وفيها ماتت زينب بنت رسول الله . وفي هذه السنة أسلمت همدان كلّها بدعوة سيدنا علي في يومٍ واحدٍ .

وفي سنة ٩ للهجرة كانت بعثة سيدنا علي إلى طيء ودك معالم بيت صنمها فلس . وفي هذه السنة كانت غزوة تبوك . وسرية خالد بن الوليد إلى أكيدر . وفي هذه السنة ماتت أم كلثوم . وفي هذه السنة كانت حجة أبي بكر ومسير سيدنا علي لإبلاغ « البراءة » وفي هذه السنة كانت عدّة سرايا .

وفي سنة ١٠ للهجرة كانت بعثة سيدنا علي إلى اليمن . وفيها حجة الوداع وفيها أوصى المصطفى للمرتضى عليهما الصلاة والسلام في غدير خمّ . وكانت في سرايا كثيرة وقدمت فيها وفود كثيرة .

وفي سنة ١١ للهجرة كانت وفاة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم على نحو ما تقدم .

« **صفات المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم** »

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كمال الجمال ما يعجز عن تصويره القلم وتعيا عن تصوُّره المخيلة وهنا نصفه على ما وصفه واصفوه ومعاشروه قالوا : كان فخماً مفخماً يتلألأ وجهه كالقمر ليلة البدر وفي وجهه الشريف تدوير ، واسع الجبين ، أزجُّ الحاجبين ، بينهما عرق يدرّه الغضب أقنى العرنين ، أدعج العينين ، أكحلهما ، أهدب الأشفار ، أسيل الخدين ، خليع الفم أشنبه ، مفلج الأسنان ، كثُّ اللحية ، وكان شيب لحيته في عنفقته وصدغيه متقرناً ، وكان عنقه كجيد دمية وكان جسمه الشريف بادناً ذ لحم متماسك ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين والركبتين ، موصول ما بين اللبه =

كَيْمَا أُسَطِّرُ يَـا أَهْلَ آلْـوَلاَ لَكُمُ مَـا تَـأْمَنُـوْنَ بِـهِ مِنْ يَعْـدِيَ آلتِّيْهَـا

فَعَـارِضَ آلْمُصْطَفَى فِيْ سُؤْلِهِ عُمَرُ جَهْـراً وَرَغْبَتُـهُ مَـا شَـاءَ يُمْضِيْهَـا

وَقَـالَ : إِنَّ رَسُـوْلَ آلـلَّهِ تَـغْلِبُـهُ آلاَمُـهُ لاَ تَكُـوْنُـوْا مُسْتَـزِيْـدِيْهَـا

وَعِنْـدَكُمْ لِلْهُـدَى آلْقُـرْآنُ فَـآتَّبِعُـوْا آيَـاتِـهِ لاَ يَضِـلُّ آلـرَّأْيَ وَاعِيْهَـا

وَبَعْدَ ذَا آرْتَفَعَـتْ أَصْوَاتُ صَحْبِ رَسُوْ لِ آللَّهِ حَتَّى دَوَى فِيْ آلدَّارِ دَاوِيْهَا

فَقَـالَ أَحْمَدُ: مَـا جَـازَ آلنِّزَاعُ أَمَـا م مَ آلأَنْبِيَـا تُقْيَـةً ذُوْ آلـدِّيْنِ يَتْقِيْهَـا

هَيَّ آخْـرُجُوْا وَدَعُـوْنِيْ هَـانِئـاً بِفِـرَا شِيْ فِيْ صَفَا خَلْوَةٍ أَصْبَحْتُ رَاجِيْهَا

وَقَالَتِ آلنَّاسُ : مَا لِلْمُصْطَفَى هَجَرَ آلأَ م صْحَابَ مَا عَـادَ يَرْضَى أَنْ يُـوَصِّيْهَا

وَأَسْـرَعَتْ نَحْوَهُ فِيْ آلْحَالِ تَسْأَلُـهُ عَنْ رَغْبَـةٍ صَـدْرُهُ قَـدْ كَـانَ يُخْفِيْهَـا

فَقَالَ : مَا أُضْتُ فِيْهِ آلآنَ أَفْضَلُ مِنْ مَسَـائِـلٍ جِئْتُمُـوْنِيْ تَسْـأَلُـوْنِيْهَـا

=بشعر يجري كالخيط ، عاري الثديين والبطن ، أشعر الذراعين والمناكب وأعالي الصدر ، طويل الزندين ، عظيم الذراعين ، رحب الراحة لينها ، سائل الأصابع ، شثن الكفين والقدمين ، مربوع القامة ، متهادي المشية ، يمشي هوناً برفق ووقار شأن أصحاب الهمم العالية ، ولونه البياض مشرب بحمرة ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا التفت التفت جميعاً ولا يلوي عنقه ، وكان فصيح اللهجة ينطق بجوامع الكلم ويعطي كل حرف من حروف كلامه حقّها من اللفظ ، وكان إذا أشار فإشارته بكفه كلّها ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدَّث قارب يمناه من يسراه وضرب بإبهام اليمنى على اليسرى ، وربما حرَّك رأسه الشريف ، أو عضَّ شفته ، أو ضرب بيده على فخذه ، أو نكت الأرض بعوده ، لك حسب مواضيع حديثه الشريف ، وإذا اشتدَّ وجده أكثر من مسّ لحيته الطاهرة ، وإذا اشتدَّ غمُّه مسح بيده على رأسه ولحيته ، وتنفس الصعداء وقال « حسبي الله ونعم الوكيل » وكان معظم ضحكه التبسم وكان غالباً يمشي منتعلاً وطالما مشى حافياً ، وبالإجمال كان أجمل إنسان خلق وسيخلق على ظهر البسيطة صلى الله عليه وآله وسلم .

وَفِيْ أَوَاخِرِ أَيَّامِ الرَّسُوْلِ أَبُوْ بَكْرٍ إِمَامَةُ طَهَ كَانَ رَاعِيْهَا
بِأَمْرِ عَائِشَةٍ أَوْ أَمْرِهِ اخْتَلَفَتْ فِيْ ذَا الْجَمَاعَةُ سُنِّيْهَا وَشِيْعِيْهَا
لَكِنْ رَأَيْنَا رَسُوْلَ اللَّهِ يَحْمِلُ نَفْـ ـسَهُ الَّتِيْ كَادَتِ الْأَمْرَاضُ تُوْهِيْهَا
إِلَى الصَّلَاةِ فَهَلْ قَدْ كَانَ يَرْغَبُ أَنْ يَلِيْ الْإِمَامَةَ أَمْ يَبْغِيْ تَوَلِّيْهَا
وَهَلْ صَلَاةُ أَبِيْ بَكْرٍ تُشِيْرُ إِلَى أَنَّ الرَّسُوْلَ مُوَلِّيْهِ أَهَالِيْهَا
ذَا لَسْتُ أَدْرُكُهُ إِنَّ الْحَقِيْقَةَ فِيْـ ـهِ فَوْقَ تَقْدِيْرِ عَقْلِيْ لَسْتُ أَدْرِيْهَا
وَإِنَّنِيْ عَارِفٌ جَهْلِيْ وَمُعْتَرِفٌ بِهِ فَلَا أَدَّعِيْ بِالْعِلْمِ تَمْوِيْهَا
قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ نُوْرَ الشَّمْسِ عَنْ رَمَدٍ وَنُوْرُهَا الْمُبْهِجُ الْأَكْوَانِ يُؤْذِيْهَا
وَقَدْ يَكُوْنُ الَّذِيْ تَلْقَاهُ ذَا بَصَرٍ أَعْمَى الْبَصِيْرَةِ وَالتَّضْلِيْلُ مُعْمِيْهَا
وَلَا يُكَلِّفُ نَفْساً فَوْقَ طَاقَتِهَا إِلَّا الَّذِيْ رَامَ بِالْإِعْنَاتِ يُعْيِيْهَا
وَصَحَّ أَحْمَدُ فِيْ الْإِثْنَيْنِ وَانْصَرَفَتْ أَصْحَابُهُ وَأَوَتْ صَفْوَاً مَآوِيْهَا
إِلَّا الْعَلِيُّ فَلَمْ يَتْرُكْ مُلَازَمَةَ الْـ ـهَادِيْ وَصُحْبَتُهُ مَا كَانَ مُخْلِيْهَا
فَكَانَ فِيْ قُرْبِهِ بِرَّاً يُمَرِّضُهُ بِنَفْسِهِ وَمُنَاهُ كَانَ يُجْرِيْهَا
وَفِيْ الضُّحَى اشْتَدَّ دَاءُ الْمُصْطَفَى وَبِنَفْـ ـسِهِ مَضَى لِجِنَانِ الْخُلْدِ يُثْوِيْهَا
فَأَعْوَلَتْ جَزَعَاً نِسْوَانُهُ وَبَنَا تُهُ وَمَا كَانَ أَشْجَى مِنْ تَدَعِّيْهَا
وَصَاحَ فِيْ النَّاسِ نَاعِيْهِ وَرَدَّدَتِ الْـ ـصِّيَاحَ وَالدَّمْعُ يَهْمِيْ مِنْ مَآقِيْهَا
فِيْ الْأَرْضِ فَاجِعَةٌ ذَاعَتْ مَنَاعِيْهَا وَفِيْ السَّمَا فَرْحَةٌ شَاعَتْ تَهَانِيْهَا
مُحَمَّدٌ مَاتَ وَالْأَمْلَاكُ قَدْ بَهِجَتْ بِرُوْحِهِ مُذْ ثَوَتْ فِيْ قُرْبِ مُبْدِيْهَا
وَثَابَ لِلَّهِ مَحْمُوْدَ الْفِعَالِ وَقَدْ أَدَّى الرِّسَالَةَ فَاسْتَوْفَتْ تَأْدِيْهَا
وَأَكْمَلَ الدِّيْنَ حَتَّى لَا انْتِقَاصَ بِأَحْـ ـكَامٍ لَهُ كَانَ بِالْإِحْكَامِ مُنْشِيْهَا

وَراحَ مِنْ حَوْلِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ خَيْرَ شَفِيْـــعٍ لِـلْأُلَى حَفِظُوْا سَامِيْ مَبَادِيْهَا
وَمَنْ أَطَاعُوْا وَلَمْ يَعْصَوْا أَوَامِرَهَا وَمَا تَعَدَّوْا بِتَقْوَاهُمْ نَوَاهِيْهَا
وَقَابَلَ ٱلْمُرْتَضَى وَقْعَ ٱلْقَضَا بِشُجُوْ نٍ لَيْسَ يُدْرِكُهَا إِلَّا مُعَانِيْهَا
وَقَالَ وَٱلْحُزْنُ قَدْ أَمْسَى مُسَاوِرَهُ وَنَفْسُهُ لَا تَرَى شَيْئاً يُعَزِّيْهَا
بِـوَالِدَيَّ رَسُوْلَ ٱللَّهِ أَنْتَ وَبِـالـــنَّفْسِ ٱلَّتِيْ عَنْكَ لَا سَلْوَى تُسَلِّيْهَا
بِمَوْتِكَ ٱنْقَطَعَتْ عَنَّا ٱلنُّبُوَّةُ وَٱلْأَ م نْبَاءُ ظَاهِرُهَا ٱلزَّاهِيْ وَخَافِيْهَا
فَلَا تُرَدَّدُ أَخْبَارُ ٱلسَّمَاءِ وَلَا نَفُوْزُ بَعْدُ بِهَا إِذْ غَابَ رَاوِيْهَا
خُصِّصْتَ حَتَّى غَدَتْ تَاللَّهِ أَنْفُسُنَا مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ مَا ٱلْأَرْزَاءُ تُؤْذِيْهَا
وَقَدْ عَمَمْتَ فَكُلُّ ٱلنَّاسِ مُكْرَبَةٌ حُزْناً عَلَيْكَ يُزِيْدُ ٱلْكَرْبَ بَاكِيْهَا
وَٱللَّهِ لَوْ لَمْ تَكُنْ بِـٱلصَّبْرِ آمِرَنَا وَوَفْقَةُ ٱلْجَزَعِ ٱلْمُؤْذِيِّ نَاهِيْهَا
ٱسْتَنْفَدَتْ دَمْعَهَا ٱلْمَذْخُوْرَ أَعْيُنُنَا عَلَيْكَ حَتَّى يُرَوِّيْ ٱلْأَرْضَ هَامِيْهَا
وَٱلدَّاءُ مَاطَلَنَا وَٱلْغَمُّ حَالَفَنَا وَمَا لِعِيْشَتِنَا بِشْرٌ يُمَاشِيْهَا
وَإِنَّ لَوْعَتَنَا قِلًّا عَلَيْكَ وَهَا نُفُوْسُنَا بَلَغَتْ فِيْهَا تَلَاشِيْهَا
لٰكِنْ إِرَادَةُ رَبِّيْ لَيْسَ يُمْلَكُ رَدُّ م هَا وَطُوْبَى لِمَنْ كَانُوْا مُطِيْعِيْهَا
لَا يُسْتَطَاعُ لَهَا دَفْعٌ إِذَا نَفَدَتْ وَلَيْسَ فِيْ ٱلنَّاسِ طُرّاً مَنْ يُقَاوِيْهَا
فِدَى حَيَاتِكَ أُمِّيْ سَيِّدِي وَأَبِيْ وَمُهْجَتِيْ وَنَوَاكَ ٱلْيَوْمَ مُدْمِيْهَا
وَعِنْدَ رَبِّكَ فَٱذْكُرْنَا وَأُمَّتَنَا حَاشَاكَ لَسْتَ بِنَاسِيْنَا وَنَاسِيْهَا
وَبَيْنَمَا ٱلْمُرْتَضَى يَرْثِيْ ٱلرَّسُوْلَ وَيَبْـــكِيْهِ وَلَوْعَتُهُ مَا ٱلدَّمْعُ يُطْفِيْهَا
كَانَتْ تَغَصُّ رِحَابُ ٱلْمَسْجِدِ ٱلنَّبَوِ م يِّ بِٱلْحَزَانَى وَهَوْلُ ٱلْخَطْبِ غَاشِيْهَا
كَانَتْ مُبَلْبَلَةَ ٱلْأَفْكَارِ تَيَّهَهَا مَنْعَى ٱلْمُفَدَّى رَسُوْلِ ٱللَّهِ تَتْيِيْهَا

وَجَـاءَهَـا عُمَـرٌ وَٱلسَّيْفُ فِيْ يَـدِهِ ... يُكَذِّبُ ٱلنَّاسَ فِيْ مُشْجِيْ مَسَاعِيْهَا

يَقُـوْلُ: مَـا مَـاتَ طَـهَ إِنَّ مَـوْتَتَـهُ ... أَهْـلُ ٱلنِّفَـاقِ لِضَـرِّ ٱلـدِّيْنِ تَبْغِيْهَـا

تَـاللَّهِ هَـامُ ٱلأُلَى تَنْعِيْ مُحَمَّـدَنَـا ... تَقُـوْلُ مَـاتَ نَبِيُّ ٱللَّهِ أَفْـرِيْـهَـا

مَـا مَاتَ أَحْمَـدُ كَـلَّا لَا يَمُـوْتُ وَلَنْ ... يَمُـوْتَ شَـوَّهْتُمُ ٱلإِسْـلَامَ تَشْـوِيْهَـا

بِمِثْـلِ ذَا عُمَـرُ قَـدْ كَـانَ مُـطَّلِبَـاً ... لِمَنْ نَعَى خَيْـرَ خَلْقِ ٱللَّهِ تَسْفِيْهَـا

وَبَيْنَمَـا كَـانَ فِيْ بَـادِيْ تَضَعْضُعِـهِ ... وَرَوْعَـةُ ٱلْخَـطْبِ نَـالَتْهُ بِـأَيْـدِيْهَـا

وَإِذْ بَـدَا بَيْنَ هَاتِيْـكَ ٱلْجُمُـوْعِ أَبُـوْ ... بَكْـرٍ وَصَاحَ بِـهِ: يَـا صَـاحِبِيْ إِيْهَـا

مَـا ٱلْمُصْـطَفَى مَـا أَعَزَّ ٱللَّهُ سُؤْدُدَهُ ... بَيْنَ ٱلْخَـلَائِقِ إِلَّا مِـنْ أُنَـاسِيْـهَـا

وَإِنَّـهُ لَـرَسُـوْلٌ قَـبْـلَهُ رُسُـلٌ ... خَلَتْ وَلَيْسَ بِبَـاقٍ غَيْـرُ ذَارِيْـهَـا

مَنْ كَـانَ يَعْبُدُهُ خَـابَتْ عِبَـادَتُـهُ ... وَإِنَّ عُـبَّـادَهُ سَـاءَتْ مَسَـاعِـيْهَـا

أَمَّـا ٱلأُلَى عَبَـدُوْا ٱللَّهَ ٱلْكَـرِيْمَ فَهُمْ ... عَلَى هُـدَى لَمْ يَضِلُّوْا عَنْ مَـرَامِيْهَـا

فَقُلْ لِمَنْ جَزِعُوْا مِنْ مَوْتِ أَحْمَدَ قَدْ ... ضَلَلْتُمُ سُبُـلاً قَـدْ كَـانَ هَـادِيْهَـا

وَنَحْنُ مُحْتَسِبُـوْهُ عِـنْـدَ خَـالِقِـهِ ... وَقَـدْ تَبَوَّأَ فِيْ ٱلْجَنَّـاتِ عَـالِيْهَـا

عَلَيْـهِ أَعْـطَرُ تَسْلِيْمَـاتِ مُـرْسِلِهِ ... عَـلَيْـهِ مِنْ صَلَوَاتِ ٱللَّهِ ذَاكِـيْـهَـا

وَرَاحَ يَسْـرُدُ آيَـاتٍ تُـشِـيْـرُ إِلَـى ... وَفَـاةِ طَـهَ وَيَسْتَقْصِـيْ مَعَـانِـيْهَـا

نَـادَى لَهَا عُمَـرٌ: مَـا كُنْتُ ذَاكِـرُهَـا ... كَـأَنَّنِيْ قَبْـلُ لَمْ أَسْمَـعْ مَثَـانِيْهَـا

وَخَـطْبُ أَحْمَدَ مَـا أَنْسَى أَبَـا حَسَنٍ ... فُـرُوْضَهُ فَـٱنْثَنَى بِـٱلْحَـزْمِ يَقْضِيْهَـا

فَهْـو ٱلَّـذِيْ غَسَـلَ ٱلْهَـادِيْ وَكَفَّنَـهُ ... وَصِيَّـةٌ كَـانَ قَبْـلاً مِنْـهُ أُوْصِيْهَـا

وَبَيْنَمَـا ٱلْمُـرْتَضَى فِيْ ذَاكَ مُشْتَغِـلٌ ... وَنَفْسُـهُ بَلَغَتْ حُـزْنـاً تَـرَاقِـيْهَـا

وَلَا يَـرَى وَرَسُـوْلُ ٱلـلَّهِ مُـنْبَـسِطٌ ... عَلَى ٱلثَّرَى غَيْرَ أَشْجَـانٍ يُقَـاسِيْهَـا

إِذَا بِصَخْرٍ مَعَ ٱلْعَبَّاسِ مَعْ نَفَرٍ   مِنْ خِيْرَةِ ٱلْعُرْبِ مَكِّيْهَا وَطِيْبِيْهَا
وَافَتْ إِلَيْهِ بِأَنْبَاءِ ٱلسَّقِيْفَةِ تُنْـ   ـبِيْهِ بِمَا كَانَ فِيْهَا مِنْ مَكِيْنِيْهَا
نَادَتْهُ : أَسْرِعْ تَقَبَّلْ صَاحِ بَيْعَتَنَا   فَإِنَّنَا بِٱلرِّضَى بِتْنَا مُبِيْعِيْهَا
فَٱسْتَغْرَبَ ٱلْمُرْتَضَى ٱلْأَنْبَاءَ أَنْكَرَهَا   وَإِنْ يَكُنْ وَاثِقاً مِنْ صِدْقِ مُنْبِيْهَا
وَبَيْعَةُ ٱلصَّحْبِ حُبّاً بِٱلسَّلَامَةِ مِنْ   إِثَارَةِ ٱلشَّرِّ أَمْسَى وَهْوَ آبِيْهَا
وَلَا يَهُوْنُ عَلَى مَنْ شَادَ أَصْرِحَةَ ٱلْإِ   سْلَامِ أَنْ يَرْتَضِيْ يَوْماً تَدَاعِيْهَا
وَوَاجَهَ ٱلنَّاسَ بِٱلْقَوْلِ ٱلصَّرِيْحِ وَإِنْ   لَمْ يُرْضِهَا نَفْسُهُ قَدْ كَانَ مُرْضِيْهَا
فَقَالَ : مِنْ دُوْنِنَا أَمْوَاجُ ذِيْ ٱلْفِتَنِ ٱلْـ   ـكَثْرَى وَقَدْ يُغْرِقُ ٱلدُّنْيَا تَتَالِيْهَا
فَجَاهِدُوْا وَعَسَى نَجْتَازُهَا بِمَرَا   كِبِ ٱلنَّجَاةِ ٱلَّتِيْ بِٱلسِّلْمِ نُرْسِيْهَا
وَعَرِّجُوْا عَنْ طَرِيْقٍ لَا سَلَامَةَ فِيْـ   ـهَا لِلْأُلَى بِٱلْعِدَى رَامُوْا تَخَطِّيْهَا
تَاجُ ٱلْمُبَاهَاةِ يَا صَحْبِيْ ضَعُوْهُ فَمَا   نَرْضَى لِأَنْفُسِنَا يَوْماً تَبَاهِيْهَا
وَلَيْسَ يَفْلَحُ إِلَّا نَاهِضٌ بِجَنَا   حٍ وَٱلْمُلُوْكُ لَتَقْوَى فِيْ مُعِيْنِيْهَا
أَوْ مَنْ غَدَا مُسْتَسْلِماً فَيُرِيْـ   ـحُ ٱلنَّفْسَ مِنْ فِتْنَةٍ صَعْبٌ تَلَافِيْهَا
وَتِلْكَ نَهْلَةُ مَاءٍ آجِنٍ لِعَجُوْ   لٍ رَامَ يَنْهَلُهَا فِيْ ٱلنَّاسِ ظَامِيْهَا
وَلُقْمَةٌ لِأَكُوْلٍ غَيْرُ سَائِغَةٍ   بِهَا يَغَصُّ فَمَا ذُوْ ٱلرَّأْيِ شَاهِيْهَا
هَلْ يَسْتَفِيْدُ مِنَ ٱلْأَثْمَارِ إِنْ قُطِفَتْ   قَبْلَ ٱلنُّضُوْجِ مِنَ ٱلْأَشْجَارِ جَانِيْهَا
أَوْ زَارِعٌ زَرْعُهُ فِيْ أَرْضِ صَاحِبِهِ   وَٱلنَّاسُ إِنْ زَرَعَتْ تَزْرَعْ أَرَاضِيْهَا
فَإِنْ أَقُلْ قِيْلَ عَنْ حِرْصٍ مَقَالَتُهُ   عَلَى ٱلتَّمَلُّكِ تَالِيْهَا وَمُمْلِيْهَا
وَإِنْ سَكَتُّ لَقَالُوْا كَانَ ذَا جَزَعٍ   مِنَ ٱلْمَنِيَّةِ أَمْسَى وَهْوَ خَاشِيْهَا
هَيْهَاتِ بَعْدَ ٱللُّتَيَّا وَٱلَّتِيْ وَمُعَا   نَاةِ ٱلشَّدَائِدِ قَاسِيْهَا وَحَامِيْهَا

أَنْ تَمْسِيَنَّ ٱلْمَنَـايَا وَهْيَ مُـرْهِبَـةٌ   مِثْلِي إِذَا أَرْهَبَتْ غَيْـرِيْ فَـوَاجِيْهَـا
لاَبْنُ أَبِي طَـالِبٍ تَـاَللَّهِ آنَسُ بِـاَلْـــمَوْتِ ٱلَّذِيْ ٱلنَّاسُ تَخْشَاهُ وَيُفْنِيْهَـا
مِنَ ٱلـرَّضِيْعِ بِثَدْيِ ٱلأُمِّ يَرْضَعُـهُ   وَقَـدْ أَوَى حِجْـرَهَـا يَلْقَى تَحَنِّيْهَـا
لٰكِنْ بِصَـدْرِيَ عِلْمٌ لَـوْ أَبَنْتُ خَـوَا   فِيْـهِ ٱضْـطَرَبْتُمُ مِنْهَـا لَسْتُ أُبْـدِيْهَـا
وَقَـدْ أَجَـالَ بُعَيْـدَ ٱلْقَـوْلِ نَـاظِـرَهُ   بِصَحْبِـهِ يَبْتَغِيْ ٱسْتِجْـلاَءَ خَـافِيْهَـا
وَإِنَّهَـا أَدْرَكَتْ مِنْ وَقْـعِ نَـظْرَتِـهِ   بِـأَنَّـهُ فِـي رَجَـاهَـا لاَ يُؤَاتِيْـهَـا
وَإِنَّـهُ نَـاظِـرٌ مَـا لَـيْسَ تَـنْـظُرُهُ   مِنَ ٱلْمَخَـاطِرِ خَـافِيْهَا وَبَـادِيْهَـا
وَظَـلَّ أَحْمَـدُ مُسْجَى فَـوْقَ فَـرْشَتِـهِ   وَٱلنَّـاسُ تُشْغِلُهَـا عَنْـهُ أَمَـانِيْهَـا
حَتَّى إِذَا بَـلَغَتْ آمَـالَـهَـا رَجِعَـتْ   إِلَيْـهِ تَنْـدُبُـهُ مَـعْ هَـاشِمِيِّيْهَـا
صَلَّتْ عَلَيْـهِ زَرَافَـاتٍ بِغَيْـرِ إِمَـا   مٍ فِي صُفُوْفٍ أَلِيْمُ ٱلْخَطْبِ مُشْجِيْهَا
وَلَيْلَةُ ٱلأَرْبَعَـا عِنْـدَ ٱلْعِشَـا دَفَنَ ٱلْـــعَلِيُّ طَـهَ وَلَمْ يَحْفَـلْ بِـدَاجِيْهَـا
بِنَفْسِـهِ أَنْـزَلَ ٱلْجُثْمَـانَ أَوْصَـلَهُ   إِلَى ٱلْحَفِيْـرَةِ فَـاعْتَـزَّتْ بِثَـاوِيْهَـا
ثُمَّ تَنَهَّـدَ مَحْـزُوْنـاً وَأَرْسَـلَ مِـنْ   أَنْفَـاسِـهِ زَفْـرَةً مَـا ٱلنَّـارُ تَحْكِيْهَـا
وَأَرْسَـلَتْ عَيْـنُـهُ فَيَّـاضَ أَدْمُـعِهَـا   تَسْقِيْ حَفِيْـرَتَـهُ ٱلْعُظْمَى وَتَـرْوِيْهَـا
وَلَـوْ تَقَسَّمَ خَطْبُ ٱلْمُصْـطَفَى قِسَمَاً   لَـكَـانَ مِنْ حَـظِّهِ وَٱلـلَّهِ وَافِـيْـهَـا

أمير المؤمنين في خلافة أبي بكر

وَبَيْنَمَـا ٱلْمُـرْتَضَى لاَهٍ بِـفَجْـعَتِـهِ   بِٱلْمُصْطَفَى لاَ يَرَى ٱلدُّنْيَا تُوَازِيْهَا[1]
وَٱلْمُصْطَفَى فِيْ فِرَاشِ ٱلْمَوْتِ تَنْدُبُهُ   نَـوَادِبُ ٱلْعُرْبِ فِيْ مُشْجِيْ تَـدَعِّيْهَا

(١) عندما ابتدأت علّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي انتهت بموته أمر أسامة بن زيد بن =

وَقَبْـلُ أَنْ يَتَـوَارَى فِيْ حَفِيْـرَتِـهِ   جُثْمَـانُــهُ وَبِعَفْـوِ ٱللَّهِ يَـأْوِيْهَـا

=حارثة وهو في الثامنة عشرة من عمره أن يسير بسرية إلى موضع يسمى « أبنى » بضم الهمزة وفتح النون وهو موضع بين عسقلان والرملة وقيل بل قرية عند « مؤتة » وكان قد قتل هناك أبو زيد بن حارثة وقال له « سرّ لأخذ ثأر أبيك » وأمر ﷺ أن يصحب هذه السرية أكابر الصحابة وفيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقّاص وغيرهم فتقمقم هؤلاء من المسير في سرية يقودها غلام كأسامة لا يتجاوز الثامنة عشرة من عمره وعلم المصطفى بتقمقمهم فخرج إلى المسجد وهو معصوب الرأس فخطب في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أمّا بعد أيّها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة ؟؟ ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله وأيم الله كان خليقاً بالإمارة وأنّ ابنه من بعده لخليقٌ بالإمارة وأنّه كان لمن أحبّ الناس إليَّ وأنّهما مظنّة لكلّ خير فاستوصوا به خيراً فإنّه من خياركم » ونزل بعد ذلك المصطفى راجعاً إلى بيته حيث أوى فراشه وهو عليل . أمّا أصحاب رسول الله فما أرادوا الابتعاد عن المدينة ورسول الله عليل بالرغم عن إلحاحه بتسييرها غير مرّة ولرغبة المصطفى في سير هذه السرية وهو عليل وفيها أكابر أصحابه تحت إمارة شاب في مقتبل عمره ولتسكع هذه السرية عن المسير آراء مختلفة وأقاويل عديدة نكتفي بالإشارة إليها هنا تاركين للقارىء اللبيب حكمه فيها وغاية القول أنّ السرية ظلّت في المدينة المنورة بالرغم عن إلحاح المصطفى بتسييرها إلى أن توفي ﷺ .

وعندما نعى النعاة المصطفى إلى أصحاب رسول الله ﷺ وأنصاره اجتمعوا جزعين في المسجد وجاءهم عمر وهو أشدهم جزعاً فأشهر سيفه وهو يقول إنّه لم يمت ثمّ تبعه أبو بكر فخطب في الناس وسرد الآيات المشيرة إلى موته فسكّن روعة عمر ومن كان هنالك من المتضعضعين مثله . ثمّ إنّ أكابر الصحابة والأنصار تركوا المسجد وساروا إلى سقيفة بني ساعدة حيث كان ينوي سعد بن عبادة وكان مريضاً . وقيل بل إنّ الأنصار عند تأكدهم وفاة المصطفى اجتمعوا في تلك السقيفة للنظر في أمر الخلافة فنمي خبرهم إلى أبي بكر وعمر فصحبا نفراً من قريش وساروا إلى هاتيك السقيفة ولما تكامل الجمع قام خطيب من الأنصار فأثنى على الله ما هو أهله ثم قال : « أمّا بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفّت دافّةٌ منكم تريدون أن تختزلونا من أهلنا وتستبدون به دوننا » . ومن هذا الخطاب المقتضب الذي=

وَقَبْلَمَا حُفِرَتْ قَدْ كَانَ يَجْمَعُ أَقْـــطَابَ ٱلصَّحَابَةِ وَٱلْأَنْصَارِ نَادِيْهَا

=نقله مؤرخو السنّة يظهر لعقلي الضعيف السخيف أنّ الأنصار لم يكونوا البادئين بالاجتماع بل إنّهم ما اجتمعوا إلاّ بعد أن علموا أنّ المهاجرين يعملون للخلافة بينهم هذا ما استفدته من قول خطيب الأنصار هذا الذي لما انتهى وقف أبو بكر وقال « أمّا بعد فما ذكرتم من خير فأنتم له أهل ولم تعرف العرب هذا الأمر إلاّ لهذا الحيّ من قريش هم أوسط العرب نسباً وداراً ولدتنا العرب كلها فليست منها قبيلة إلاّ لقريش منها ولادةٌ ودارٌ . وكنّا معاشر المهاجرين أول الناس إسلاماً ونحن عشيرة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأقاربه وذوو رحمه فنحن أهل النبوة وأهل الخلافة » وبعد ذلك أخذ أبو بكر يسرد الآيات التي نزلت في قريش والأنصار والأحاديث التي حدّث بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هؤلاء وهؤلاء ثمَّ وجه أبو بكر خطابه لسعد فقال : لقد علمت يا سعد أنّ رسول الله قال وأنت قاعد بين يديه : إنَّ قريشاً هم ولاة هذا الأمر . أليس الأمر كذلك ؟ فقال سعد صدقت . فقال أبو بكر : فنحن الأمراء وأنتم الوزراء وقد قال رسول الله : « الأئمة من قريش » وأنتم يا معشر الأنصار إخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في الدين وأنتم أحقّ بالرضاء بقضاء الله وقد رضيت لهذا الأمر أحد هذين الرجلين وأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح وكانا على جانبيه فقال عمر وأبو عبيدة « بل لا ينبغي لأحد أن يكون فوقك يا أبا بكر » فقام ضجيج بين الأنصار وهم يريدونها لأنفسهم فكانوا يقولون منّا أمير ومنكم أمير وساد الهرج بينهم وبين المهاجرين مدةً حتى كاد أن يستفحل ويؤول إلى ما لا تحمد مغبته ولكن في الأخير رضيت أكثريتهم بخلافة أبي بكر وبايعته . وممّا يجب أن لا يذهب عن الفكر أنّ هذا الاجتماع خلا من الهواشم وأنّ المهاجرين والأنصار في أثناء شجارهم على الخلافة ما ذكروا حقَّ الهواشم فيه ولا سيما سيدنا علي عليه السلام فهل كانوا مبدئياً متفقين على أن لا تكون الخلافة في بني هاشم لكي لا يجتمع شرف النبوّة وشرف الملك لهم كما يقول بعض النقّاد ؟؟ هذا لا نحير عليه جواباً . ومما نذكره أنّ سعد بن عبادة وهو زعيم الأنصار وكان الاجتماع في سقيفته أبى الرضاء ببيعة أبي بكر وغضب عمر وأراد أن يبطش به فحال الناس دون رغبته . ثم حاول أبو بكر أن يكرهه على البيعة بعد ذلك فأصرَّ على إبائه وأقام مدةً لا يحضر اجتماعاتهم ولا يصلّي في المسجد ولا يسلّم على من لقي منهم حتى إذا كان بعرفة يقف ناحية عنهم وكان يلحُّ عمر على أبي بكر أن يكرهه على البيعة بالسيف فيأبى أبو بكر ذلك مخافة الفتنة ولما ولّي الخلافة عمر هجر سعد المدينة وسار إلى دمشق ومات فيها سنة ١٥ للهجرة . =

وَلَمْ يَكُنْ هَـاشِمِـيٌّ بَيْنَهَـا فَكَـأَ نَّ ٱلْأَمْـرَ لَمْ يُعْنِ يَـوْمَـاً هَـاشِمِيَّهَـا

= وبعد أن تمّت البيعة لأبي بكـر في سقيفة سعـد في نفس يوم الاثنين الـذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انصرف الناس إلى بيوتهم . وفي صباح الثلاثاء ورسـول الله مسجّى على فـراشه اجتمـع الناس « عـدا الهواشم » في المسجـد النبـويِ وفي اجتمـاعهم ذاك كانت البيعة الكبـرى إذ بايـع الناس أبـا بكر بـدعوة عمـر . ثمّ إنّهم انصرفـوا إلى وداع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصلاة عليه فقصدوه في حجرته زرافـات يصلّون عليه بغيـر إمام كمـا تقدم .

وبعـد دفن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم انصـرف أبو بكـر وعمر إلى تـدبيـر أمـر الأمّـة فكـان اهتمـامهم منصرفـاً قبـل كـل شيء إلى إرغـام الهـواشم ومن شـايعهم من المهـاجـرين والأنصار على مبايعة أبي بكر فأرغماهم جميعـاً على البيعة فبـايعوا إلاّ عليّـاً . ثمَّ اهتما بمحاربة أهل الردّة وإرجاعهـا إلى الإسلام فأفلحا . وظلَّ الناس يلغطون ببيعـة أبي بكر وينتقدونها سـرّاً وجهراً حتى اضـطرَّ عمر أن يصعـد المنبر في مسجـد المدينـة ويقول : « فلا يغرنَّ امرءً أن يقول انّ بيعة أبي بكر كانت فلتة ، فلقد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها » وكان قد سبق له أن قال على أثر بيعة أبي بكـر : « إنّ بيعة أبي بكـرٍ كانت فلتـة وقى الله شرها فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه » وذاع هذا القول عنه وتداوله النـاس وفي قولـه هذا كفاية لقوم ينصفون .

أمّا سيدنا علي عليه السلام فأبى البيعة كما أنّه أبى ممالئة الذين انتصروا له وأشاروا عليه بإعلان العداء لأبي بكر وانزوى في بيته يعنى بجمع القرآن وترتيب آياته الشريفة وما زال كذلك إلى أن توفيت زوجه فاطمة الزهراء عليها السلام حينئذٍ بايع أبا بكر . ورأيه عليه السلام في بيعة أبي بكر صريح ظاهر في كثير من خطبه ورسائله المنشورة في « نهـج البلاغـة » ونكتفي هنا بما قاله في خـطبته الشقشقيـة قال : « أمّـا والله لقد تقمصهـا ابن أبي قحافـة ، وإنّه ليعلم أنَّ محلي منهـا محلّ القـطب من الرحى ، فسـدلتُ دونها ثـوبـاً ، وطـويتُ عنهـا كشحاً ، وطفقتُ أرتئي بين أن أصول بيد جذَّاء ، أو أصبر على طخية عمياء ، يهرم فيها الكبيـر ، ويشيب فيها الصغيـر ، ويكدح فيهـا مؤمن حتى يلقى ربّه ، فـرأيت أنّ الصبـر على هاتا أحجى ، فصبرت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجا ، أرى تراثي نهباً » أهو قول المرتضى خير ما يختم به هذا المقال .

وإنّا لندع بعد هذا ما اختلف فيه الرواة عمّا جرى على سيدنا علي وسيدتنا فاطمة=

= عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام فجميعه مما يؤلم ذكره ولا يحسن الآن نشره وأنّ بعضه لو كان صحيحاً لكان من الكبائر التي لا تغتفر والله سبحانه أعلم .

على أنّ سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام ماتت مكربةً حزينةً غاضبةً بعد وفاة أبيها صلّى الله عليهما وعلى آلهما وسلّم بستين أو سبعين يوماً وقيل ستة أشهر وأزاد وفاتها المرتضى زهداً بالخلافة فغدا إلى أبي بكر وهو في المسجد فبايعه . واستقبل أبو بكر وأصحابه بيعة سيدنا علي بالسرور والاغتباط وقال أبو بكر وهو آخذ بيد علي « انّ عصابةً أنت منها يا أبا الحسن لمعصومة، وأنّ أمةً أنت فيها لمرحومة ولقد أصبحت عزيزاً علينا، كريماً لدينا ، نخاف الله إذا سخطت ، ونرجوه إذا رضيت ، ولولا إنّي شدهت ، لما أجبت إلى ما دعيت إليه ، ولكني خفت الفرقة ، واستئثار الأنصار بالأمر على قريش ، وأعجلت عن حضورك ومشاورتك ، ولو كنت حاضراً لبايعتك ، ولم أعدل بك ؛ ولقد حطّ الله عن ظهرك ما أثقل كاهلي به ، وما أسدُّ من ينظر الله إليه بالكفاية ، وإنا إليك لمحتاجون . وبفضلك عالمون ، وإلى رأيك وهديك في جميع الأحوال راغبون ، وعلى حمايتك وحفيظتك معوّلون » فتبسم أبو الحسن عليه السلام لهذا الإعتذار الذي جهر به أبو بكر في المسجد وانصرف إلى بيته متشاغلاً بحزنه بوفاة رسول الله وفاطمة الزهراء عليهم الصلاة والسلام وعاكفاً على عهد الله ينظر فيه ويجمع ما تفرّق منه رجاء ثوابٍ معدٍّ لمن أخلص لله عمله وسلم لعلمه ومشيئته أمره .

« ترجمة أبي بكر »

كان يدعى أبو بكر في الجاهلية عبد اللات وقيل عبد العزّى فسمّاه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله . فهو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرّة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ويجتمع مع رسول الله في مرّة بن كعب . وأمّه أمّ الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم أسلمت بعد إسلامه . وقد دعي أبو بكر باسم « عتيق » لأنّ رسول الله قال له أنت « عتيق النار » وقيل بل أمّه سمّته « عتيقاً » لأنّها ما كان يعيش لها ولد فلما ولد سمّته عتيقاً أي « عتيق الموت » ويلقّب باسم « الصديق » لأنّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عندما عرّج ورجع إلى مكة فأخبر الناس فلم يصدّقوه وقصدوا أبا بكر قائلين : إنّ صاحبك يزعم كذا وكذا فقال لهم « إن قال ذلك فقد صدق . إنّي لأصدقه بما هو أبعد من ذلك . =

= أصدقه بخبر السماء في غدوةٍ أو روحةٍ » فلقّب من ذلك الوقت بالصديق .

كان أبو بكر في أول أمره بزّازاً . وكان وجيهاً في قريش . وكان عالماً بأنساب العرب ولا سيما قريش . وكان من السابقين بالإسلام أسلم في حال دعوة المصطفى له . وصار من دعاة الإسلام فدعا إليه كثيرين وأسلموا بواسطته منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وطلحة بن عبيد الله . وكان ملازماً المصطفى منذ أسلم لا يمنع عنه ماله . ورافق النبي في غزواته كلّها . وفي خلافة أبي بكر قامت فتنة أهل الردّة فأطفأها . وظهر الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب وسجاح المتنبئة وطليحة الأسدي . فحاربهم وأخزاهم وأبطل دعوتهم وكلّهم ادّعوا النبوّة . وأرسل خالد بن الوليد إلى العراق من أدناه وعياض بن غَنم من أعلاه . فسار خالد ووقعت له واقعة الحفير المشهورة قرب الموضع الذي بنيت فيه البصرة وانتصر فيها على جيوش الفرس بعد أن قتل رئيسهم هرمز . ثمَّ قصد الحيرة فصالحه أهلها على الجزية . ثمَّ سار إلى الأنبار وصالح أهلها على ما صالح به أهل الحيرة . وسار إلى عين التمر فالتقّت به جيوش العجم فهزمهم وسبى من كان فيها وأسر الأسرى وفي جملتهم نصير أبو موسى فاتح الأندلس. ثمَّ سار إلى دومة الجندل وأخذها عنوةً . وما زال ينتقل فاتحاً منصوراً من بلد إلى بلد حتى وصل إلى تخوم الشام . فاجتمعت عليه الروم وعرب باديتها فنصره الله عليهم ثمَّ رجع إلى الحيرة ومنها إلى مكة لأداء فريضة الحج . أمّا عياض بن غنم فإنّه اخترق بفتوحاته بلاد كردستان وأرمينيا ثمَّ انضمَّ إلى جيوش أبي عبيدة في الشام كما سبقت الإشارة في ترجمة خالد .

وأنشأ أبو بكر بيت المال للمسلمين بعد أن كثر الفيء وجعل على القضاء عمر بن الخطاب بل كان عمر في الحقيقة وزيره ومشيره وعيبة سرّه وكان خالد بن الوليد قائد جيوشه .

وكان تقياً ورعاً سخياً صالحاً كثير التواضع كثير التقشف كثير الزهد كثير الكرم وكان يقول دائماً « ولّيت عليكم ولست بأخيركم فأعينوني وإذا رأيتموني استقمت فاتبعوني . وإذا رأيتموني زغت فقوّموني » وتزوج أبو بكر في الجاهلية امرأةً تدعى قتيلة بنت عبد العزّى بن عامر بن لؤي فولدت له ابنه عبد الله وابنته أسماء وتزوج أيضاً في =

وَبعْـدَ عُنْفِ جِدَالٍ طَـالَ وَٱنْقَسَمَتْ فِيْـهِ مَـطَامِـعُ طِيْبِيْهَـا وَمَكِّيْهَـا
وَقَدْ تَمَادَتْ بِهِ حَتَّى ٱلْوَعِيْـدِ مَع آلـــتَّهْـدِيْـدِ مُعْلِنَـةً فِيْـهِ تَعَـادِيْهَـا
وَفِيْ ٱلْأَخِيْـرِ تَرَاضَتْ أَنْ يَكُـوْنَ أَبُوْ بَـكْـرٍ أَمِيْـرَاً لَـهَـا سَمَّـتْـهُ وَالِيْهَـا

= الجاهلية امرأةً تدعى أم رومان واسمها دعد وهي بنت عامر بن عميرة الكنانية فولدت له ابنه عبد الرحمن وابنته عائشة زوج المصطفى . وتزوج في الإسلام امرأةً تدعى أسماء وهي بنت عُمَيس وكانت قبله عند جعفر بن أبي طالب فولدت له ابنه محمد . وتزوج أيضاً في الإسلام حبيبة وقيل أم حبيبة بنت خارجة بن زيد الأنصاري وكان يسكنها بالسنح « من ضواحي المدينة المنورة » وولدت له هذه بعد وفاته ابنته أم كلثوم .

واختلف الناس في وفاته فقيل إنّه توفّي على أثر سمّ يقتل بعد تناوله بسنة وقيل بل اغتسل في يوم بارد فحمّ خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى الصلاة وهذا أصحُّ وأمر عمراً أن يصلّي بالمسلمين في مدّة مرضه وكانت آخر كلماته وهو يحتضر « اللهمَّ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » وكانت وفاته بين المغرب والعشاء ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية أمّا مولده فكان بعد الفيل بثلاث سنوات وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام وقيل عشرين يوماً وقبل وفاته أوصى بالخلافة إلى عمر على ما سيجيء .

أمّا صورة أبي بكر على ما صوّره المؤرخون فقد كان أبيض البشرة خفيف العارضين محني القامة لا يتمسك إزاره معروق الوجه نحيفاً أقنى الأنف غائر العينين .

« ترجمة سعد بن عبادة »

أمّا سعد بن عبادة الذي اجتمع المهاجرون والأنصار في سقيفته يوم وفاة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وكان في نية الأنصار مبايعته بالخلافة يومئذٍ فهو سعد بن عبادة الأنصاري الصحابي الخزرجي الساعدي سيد الخزرج وزعيمها الأكبر وكان نقيب بني ساعدة وصاحب راية الأنصار في المشاهد النبوية كلها . وكان مشهوراً بالكرم وكذلك كان آباؤه من قبله . ومن نوادر كرمه أنّه كان يبعث إلى رسول الله جفنةً مملوءةً ثريداً ولحماً في كل يوم منذ حلَّ المصطفى في المدينة المنورة إلى أن سار إلى لقاء ربّه في جنانه ولم يبايع أبا بكر كما تقدم القول وقاطع المسلمين على عهده ولما تولى عمر الخلافة أبى الإقامة في المدينة فهجرها وخرج إلى الشام وما زال هناك إلى أن توفي في حوران من بلاد الشام في سنة ١٥ للهجرة .

بِذِيْ ٱلْوَلَايَةِ فِيْ ٱلْإِثْنَيْنِ يَوْمِ وَفَا　ةِ ٱلْمُصْطَفَى عَلَناً نَادَى مُنَادِيْهَا
وَفِيْ صَبَاحِ ٱلثَّلَاثَا وَسْطَ مَسْجِدِ طَـ　ـهَ تَمَّتِ ٱلْبَيْعَةُ ٱلْكُبْرَى لِبَاغِيْهَا
بِهَا تَسَمَّى أَبُو بَكْرٍ خَلِيْفَةَ طَـ　ـهَ وَهْيَ تَسْمِيَةٌ سَامٍ تَسَمِّيْهَا
وَلَمْ يُبَايِعْ عَلِيٌّ بِٱلْخِلَافَةِ مَنْ　سَمُّوْا خِلَافَتَهُ مَا كَانَ رَاضِيْهَا
وَهُوَّذَا نَحْنُ نَرْوِيْ لِلْمَلَا بِأَمَا　نَةٍ وَصِحَّةِ نَقْلٍ رَأْيَهُ فِيْهَا
فَقَالَ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَقَمَّصَهَا　وَلَيْسَ يَجْهَلُ حَقِّيْ فِيْ تَوَلِّيْهَا
وَعَالِمٌ أَنَّنِيْ مِنْهَا أُحِلُّ مَحَلَّ ٱلْقُطْـ　ـبِ عِنْدَ ٱلرَّحَى فِيْ عُرْفِ رَاحِيْهَا
وَٱلسَّيْلُ مُنْحَدِرٌ عَنِّيْ وَلَيْسَ لِطَيْـ　ـرِ ٱلْأُفْقِ نَيْلُ مَحَلِّيْ فِيْ تَعَالِيْهَا
وَإِنَّنِيْ مُسْدِلٌ دُوْنَ ٱلْخِلَافَةِ ثَوْ　بَ ٱلزُّهْدِ إِنِّيْ بِهِ كُنْتُ ٱلْمُغَطِّيْهَا
وَقَدْ طَوَيْتُ لِوَجْهِ ٱللّٰهِ كَشْحِيَ عَنْـ　ـهَا وَٱلشُّرُوْرُ بِذَا قَدْ كُنْتُ طَاوِيْهَا
وَكُنْتُ بَيْنَ مُرِيْدٍ صَوْلَةً بِيَدٍ　جَذَّاءَ أَوْ صَابِرٍ نَفْسِيْ أُهَدِّيْهَا
وَتُهْرِمُ ٱلْكَهْلَ حَتْماً صَوْلَتِيْ وَتُشَيْـ　ـبُ ٱلطِّفْلَ شَيْباً إِذَا تَدْهَى دَوَاهِيْهَا
وَٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُتَّقِي بَارِيْهِ يَكْدَحُ حَتَّـ　ـى ٱلْحَشْرَ يَوْمَ يُلَاقِيْ رَبَّهُ فِيْهَا
لٰكِنْ رَأَيْتُ جَمِيْلَ ٱلصَّبْرِ أَحْمَدَ عُقْـ　ـبَى وَٱلْخُصُومَةَ أَوْلَى أَنْ أُحَاشِيْهَا
لِذَا صَبَرْتُ وَفِيْ ٱلْخَلْقِ ٱلشَّجَا وَقَذَىً　فِيْ ٱلْعَيْنِ يَطْرِفُهَا حَتَّى يُؤَذِّيْهَا
أَرَى تُرَاثِيَ مَنْهُوْباً وَإِنِّيَ صَا　بِرٌ بِعَيْنِيْ وَلٰكِنْ كُنْتُ أُغْضِيْهَا
وَٱلْمُرْتَضَى لَمْ يُبَايِعْ بِٱلْخِلَافَةِ فِيْ　حَيَاةِ فَاطِمَةِ ٱلزَّهْرَا لِوَالِيْهَا
حَتَّى إِذَا مَا قَضَتْ غَمّاً أَنَالَ أَبَا　بَكْرٍ مُنَاهُ ٱلَّتِيْ قَدْ كَانَ عَاشِيْهَا
وَقَالَتِ ٱلنَّاسُ أَقْوَالاً بِهَا وَبِمَنْ　دَعَا إِلَيْهَا وَآتِيْهَا وَمُمْضِيْهَا
دَوَتْ هُنَا وَهُنَا حَتَّى رَأَى عُمَرٌ　أَنْ لَيْسَ سَهْلاً وَقَدْ ذَاعَتْ تَعَاشِيْهَا

لِـذَاكَ رَدَّ ٱلصَّـدَى فِيْ قَـوْمِـهِ وَدَعَـا هَـا «فَلْتَـةً» قَـالَ: فَلْيُقْتَـلْ مُثَنِّيْهَـا
وَقَـالَ: كَـانَتْ وَلٰكِنَّ ٱلْإِلٰـهَ وَقَى آلـــعِبَـادَ مِنْ شَـرِّهَـا حَمْـدَاً لِـوَاقِيْهَـا
لِـلَّهِ أَنْتَ أَمِيْـرَ ٱلْمُـؤْمِنِيْنَ فَـقَـدْ لَاقَيْتَ مِنْ نُـوَبِ ٱلْأَيَّـامِ قَـاسِيْهَا
وَقَـدْ تَنَـاسَيْتَ أَرْزَاءً مُنِيْتَ بِـهَـا بِفَضْـلِ تَقْـوَاكَ لٰكِنْ لَسْتَ نَـاسِيْهَـا
وَقَدْ صَبَرْتَ عَلَى ٱلْأَحْدَاثِ صَبْرَ كَرِيْـــمٍ صَادِقِ ٱلْعَزْمِ مُسْتَجْلٍ غَوَاشِيْهَا
وَسِـرْتَ نَحْـوَ أَبِيْ بَكْـرٍ تَـرُوْمُ تَـلَا فِيْ فِتْنَـةٍ خَيْـرُ مَـا يُلْفَى تَـلَافِيْهَـا
بَـايَعْتَـهُ بَيْعَـةً قَـدْ كَـانَ يَنْشُـدُهَـا وَبِعْتَهَـا مَنْ غَـدَا بِـٱلْبُشْـرِ يَشْـرِيْهَـا
وَقَـدْ طَلَبْتَ بِهَـا لِلدِّيْنِ عِـزَّتَـهُ ٱلْـــقَعْسَا ٱلَّتِيْ كُنْتَ قَبْلَ ٱلنَّاسِ جَانِيْهَا
وَإِنْ تَنَـافَسَ أَرْبَـابُ ٱلْجِهَـادِ بِهَـا فَـأَنْـتَ أَوَّلُـهَـا لَا مِـنْ أَوَالِـيْـهَـا

أمير المؤمنين في وفاة فاطمة الزهراء

عَـرِّجْ عَلٰى طِيْبَـةٍ وَٱنْـزِلْ مَعَـانِيْهَـا وَسَـائِـلِ ٱلنَّـاسَ شَـاكِيْهَـا وَبَـاكِيْهَـا
لَعَـلَّ يَلْقَـاكَ فِيْهَـا مَنْ يُجِيْبُـكَ عَنْ تِلْكَ ٱلشُّجُـوْنِ ٱلَّتِيْ عَمَّتْ أَهَـالِيْهَـا

---

(١) إنّ انفجاع سيدة نساء العالمين سيدتنا فاطمة الزهراء على أبيها وعليها وعلى آلهما الصلاة والسلام كان على قدر حبّه النبوي لكمالاتها وطهرها وقداستها فكلاهما كان عظيماً والذي أزاد « السيدة » فجعةً وأبعد عن قلبها الطاهر مواطن التعزية هو خروج الخلافة من بيتها وحرمان زوجها منها مع أنّها كانت تحسب أنّها حقٌّ موروثٌ شرعيٌّ لسيدنا عليّ لا خلاف عليه ولا جدال فيه . ونحن نمسك القلم عمّا روى الرواة وكتب الكتاب وسطر المؤرخون عن مسعى سيدتنا فاطمة الزهراء لإرجاع الخلافة إلى زوجها وما لقيت في سبيل ذلك من الذلّ لأنّ ذكر بعضه لا كلّه مما يؤلم القلوب ويجرح العواطف وحسبنا أن نحيل القارىء الكريم إلى كتب التاريخ ليستخلص منها ما أغضينا عن ذكره ونحن آسفون . وكل ما نقوله هنا أنّ سيدتنا فاطمة عليها السلام كانت تخرج إلى الأنصار مستخفية تحت جنح الظلام تستنصرهم لزوجها عليه السلام فكانوا يقولون لولا أننا =

= بايعنا أبا بكر لما تأخرنا عن بيعة علي ولكن سبق السيف العزل ومما لا جدال فيه أنّ المسألة لم تكن سبق بالبيعة ومسابقة إلى الخلافة ولكن تفرّق في كلمة الجماعة رجحت معها الفيئة التي كان يجانبها عمر بن الخطاب المعروف بشدّته وهيبته فقد قبض بيده الحديدية على زمام الحالة واشتدَّ على المهاجرين والأنصار فجمع كلمتهم راضين مكرهين على بيعة أبي بكر وهكذا تمَّ الفوز له .

أمّا سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام فأثرت على صحتها الشريفة وفاة أبيها عليهما الصلاة والسلام أولاً وضياع الخلافة من يد زوجها ثانياً والشدّة التي لقيتها من عمر بن الخطاب ثالثاً ولم يكن لها ما يسليها ويعزّيها وما زالت أليفة حزنٍ وكربٍ وهمٍّ وغمٍّ حتى تسلطت الأمراض على جسدها الطاهر فماتت بعد وفاة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم بستين يوماً وقيل سبعين يوماً وقيل ستة أشهر والإجماع على أنّها ماتت وهي غاضبة غير راضية على ما جرى . وروى بعضهم أنَّ أبا بكر اجتهد كثيراً ليسترضيها فما رضيت وماتت وهي معلنة بأنّ حقوق زوجها عليهما الصلاة والسلام قد غُصبت ونُهبت .

وعندما استأثرت رحمة الله بنفسها الطاهرة على صدر سيدنا علي زوجها أسرع بتجهيزها ودفنها في حجرتها في بيتها المناوح لبيت رسول الله في جوار المسجد النبوي الآن وقد سبق لنا وصف تربتها الشريفة في حاشية سابقة . وبعد أن تمَّ دفنها وقف علي عليه السلام على قبرها الطاهر وقال : « السلام عليك يا رسول الله ، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك . والسريعة اللحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبري . ورقَّ عنها تجلدي . إلّا أنَّ لي في التأسّي بعظيم فرقتك . وفادح مصيبتك . موضع تعزٍّ . فلقد وسّدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك . فإنّا لله وإنّا إليه راجعون . فلقد استرجعت الوديعة . وأخذت الرهينة . أمّا حزني فسرمد . وأمّا ليلي فمسهد . إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم . وستنبئك ابنتك بتضافر أمّتك على هضمها . فأحفها السؤال . واستخبرها الحال . هذا ولم يطل العهد . ولم يخلق منك الذكر . والسلام عليكما . سلام مودّعٍ لا قالٍ ولا سئمٍ . فإن انصرف فلا عن ملالة . وإن أقم فليس عن سوء ظنّ بما وعد الله الصابرين » اهـ .

وكان للمرتضى صلى الله عليه وآله وسلم في موت فاطمة ما يزيد زهده في الدنيا وما فيها فسار إلى أبي بكر وبايعه وانحلّت المشكلة التي كانت تقلق الخواطر في ذلك الحين .

وَكُـلُّ خِـلٍّ يُسِـرُّ ٱلْكَـرْبَ يَنْفُثُـهُ   لِصَحْبِـهِ وَبِـهِ هَمْسَـاً يُنَـاجِيْهَـا

أَصِخْ لَعَلَّكَ تَدْرِي مَا يُضَعْضِعُ سُكَّـانَ ٱلْمَـدِيْنَـةِ مَكِّيْهَـا وَطِيْبِيْـهَـا

أَوْ عَـلَّ صُفْرَةَ هَـاتِيْكَ ٱلْـوُجُوْهِ بِهَـا   غِنَىً عَنِ ٱلْقَـوْلِ أَنْ تُبْدِيْـهِ مِنْ فِيْهَا

نَعَمْ لَقَـدْ جَزِعَتْ مِنْ مُحْنَةٍ دَهَمَتْ   بِـإِثْـرِ أُخْـرَى فَـأَنْسَتْهَـا تَهَنِّيْهَـا

فِيْ أَمْسِهَـا رُزِئَتْ رِزْءاً بِـهَـادِيْهَـا   وَٱلْيَـوْمَ إِبْنَتُـهُ ٱلْأَقْـدَارُ تَنْعِيْـهَـا

وَهَـالَهَـا أَنَّ بِنْتَ ٱلْمُصْـطَفَى ذَهَبَتْ   غَضْبَى إِلَيْـهِ فَتَشْكُـوْ وَهْـوَ مُشْكِيْهَا

وَمَنْ بِحَقِّـكَ لَا يَعْنَى بِفَـاطِمَـةٍ   وَمَنْ بِكُـلِّ عَـزِيْـزٍ لَيْسَ يَفْـدِيْهَـا

وَكَيْفَ قَدْ أَصْبَحَتْ مِنْ بَعْدِ مَا عَلِمَتْ   بِـأَنَّ لِلْمَوْتِ كَـانَ ٱلْحُـزْنُ حَـادِيْهَا

وَأَنَّهَـا لَقَضَتْ عَـنْ لَـوْعَـةٍ وَأَسَىً   قَـدْ أَوْهِيَاهَـا فَمَـا أَجْدَى تَـدَاوِيْهَا

وَأَنَّهَـا ٱحْتَـرَقَتْ فِيْ نَـارِ زَفْـرَتِهَـا   وَلَمْ يَكُنْ دَمْعُهَـا ٱلْهَـامِيْ مُـطَفِّيْهَا

وَأَنَّهَـا غَـرِقَتْ فِيْ سَيْـلِ أَدْمُعِهَـا   وَمَـا ٱلـزَّفِيْـرُ مِنَ ٱلتَّغْـرِيْقِ مُنْجِيْهَـا

وَأَنَّهَا قَدْ غَـدَتْ فِيْ قُرْبِ وَالِـدِهَـا   تَـأْوِيْ ٱلْجِنَانَ ٱلَّتِيْ ٱلْأَبْـرَارُ تَـأْوِيْهَـا

أَجَـلْ فَبِنْتُ رَسُوْلِ ٱللَّهِ مَـا صَبَرَتْ   عَلى ٱللَّيَـالِيْ ٱلَّتِيْ أَدْجَتْ دَيَـاجِيْهَا

وَمَـا ٱسْتَـطَاعَ عَلِيٌّ مَـعْ بَـلَاغَتِـهِ   بِسَـرْدِ آيِ ٱلتَّـأَسِّيْ أَنْ يُؤَسِّيْهَـا

وَلَمْ تَـزَلْ كَارِثَـاتُ ٱلـدَّهْـرِ تُنْحِلُهَـا   وَلِلْمَنِيَّـةِ بِـٱلْإِسْـرَاعِ تُمْشِيْـهَـا

حَتَّى قَضَى ٱللَّهُ أَنْ تَقْضِيْ بِكَـرْبَتِهَا   حَزِيْنَةَ ٱلنَّفْسِ كَـانَ ٱلْيَأْسُ غَـاشِيْهَا

بِـذِمَـةِ ٱللَّهِ ذَاتِ ٱلـطُّهْـرِ فَـاطِمَـةً   وَٱللَّهُ فِيْ رَحَبَـاتِ ٱلْخُلْدِ مُثْـوِيْهَـا

لَئِنْ قَضَتْ وَهْيَ يَـا لِلَّـهِ سَـاخِـطَةٌ   فَٱلْمُصْطَفَى فِيْ ٱلسَّمَا ٱلْعَلْيَا يُرَاضِيْهَا

وَإِنْ تَكُنْ حُرِمَتْ فِيْ ٱلْأَرْضِ تَسْلِيَةً   فَفِيْ ٱلْجِنَـانِ تُـلَاقِيْ مَـا يُسَلِّيْهَـا

لٰكِنَّهَـا تَـرَكَتْ مِنْ بَعْـدِهَـا ٱلْحَسَنَيْـنِ يَبْكِيَـانِ عَلى وَافِـيْ تَحَنِّيْـهَـا

وَغَــادَرَتْ بَعْلَهَــا يَبْكِيْ لِفِــرْقَتِهَــا   أَمْنَــاً وَيُمْنَاً وَتَــوْجِيْهَــاً وَتَــرْفِيْهَــا

وَخَطْبُهَا ضَاعَفَ ٱلْحُزْنَ ٱلْمُبَرِّحَ فِيْ   نَفْسِ ٱلْعَلِيِّ ٱلَّذِيْ مَا ٱنْفَكَّ يَرْثِيْهَا

وَبَعْـدَ مَا أُوْدِعَتْ فِيْ وَسْطِ حُفْـرَتِهَا   لِـرَحْمَـةِ ٱللَّهِ وَٱلإِجْـلَالُ غَـاشِيْهَــا

تَطَلَّعَ ٱلْمُرْتَضَى ٱسْتِطْلَاعَ ذِيْ لَهَفٍ   إِلَى ٱلتّـرَابِ ٱلَّـذِيْ أَمْسَى مُغَـطِّيْهَــا

ثُمَّ إِلَى تُـرْبَـةِ ٱلْهَــادِيْ تَـوَجَّــهَ فِيْ   أَلِيْمِ أَحْـزَانِـهِ مَـا ٱسْـطَاعَ يُخْفِيْهَــا

وَقَالَ: يَا أَحْمَدُ ٱلْهَادِيْ عَلَيْـكَ سَلَا   مِيْ مَـعْ سَلَامِ ٱلَّتِيْ تَهْـوَى تَلَاقِيْهَـا

هٰـذِيْ ٱلَّتِيْ لَحِقَتْ عُلْيَاكَ مُسْـرِعَـةً   وَفِيْ جِـوَارِكَ حَلَّتْ كَيْ تُؤَاسِـيْهَــا

قَلَّ ٱصْطِبَـارِيَ قِلاًّ عَنْ صَفِيَّتِـكَ ٱلْــ   ـزَّهْرَا وَنَفْسِيَ هٰذَا ٱلْخَطْبُ مُوْهِيْهَـا

لٰكِنْ بِفُـرْقَتِكَ ٱلْعُـظْمَى وَجَدْتُ لِنَفْـ   ـسِيْ فِيْ ٱلْمُصِيْبَـةِ هٰذِيْ مَـا يُسَلِّيْهَا

مَا بَيْنَ نَحْرِيْ وَصَدْرِيْ إِنَّ نَفْسَكَ قَدْ   فَــاضَتْ وَلَبَّتْ نِـدَا رَبٍّ يُنَــادِيْهَــا

وَفِيْ حَفِيْـرَتِـكَ ٱلْعَلْيَـا دَفَنْتُـكَ مَحْــ   ـزُوْنَـاً وَلَـوْعَـةُ نَفْسِيْ أَنْتَ تَـدْرِيْهَــا

لِلَّهِ نَحْنُ وَنَحْـنُ ٱلـرَّاجِعُـوْنَ إِلَيْــ   ـهِ رَجْعَــةً لَيْسَ مِنَّا مَنْ يُعَــاصِيْهَـا

إِنَّ ٱلْـوَدِيْعَةَ مِنِّي ٱلْيَـوْمَ قَـدْ أُخِـذَتْ   وَٱسْتُرْجِعَتْ لَمْ تَكُ ٱلْأَقْدَارُ تُرْجِيْهَـا

وَإِنَّ حُــزْنِيَ بَـاقٍ سَــرْمَــداً أَبَــدَاً   بِـهِ طِـوَالُ ٱللَّيَــالِيْ أُضْـتُ أُحْيِيْهَـا

حَتَّى يَخَــارُ لِيَ ٱللَّهُ ٱلــرَّحِيْمُ دِيَــا   رَاً أَنْتَ يَـا خَيْـرَ خَلْقِ ٱللَّهِ تَثْــوِيْهَـا

وَإِنَّ إِبْنَتَــكَ ٱلـزَّهْــرَاءَ تُخْبِـرُكَ ٱلْأَ   خْبَـارَ عَنْ حَالِنَـا ٱلسُّوْءَى وَتَـرْوِيْهَـا

وَسَــوْفَ تَعْلَمُ مِنْهَــا أَنَّ أُمَّتَــكَ ٱلْــ   ـعَـرْبَا عَلَى هَضْمِهَـا أَمْسَى تَجَمِّيْهَا

فَـأَحْفِهَـا كَـرَمَـاً مِنْـكَ ٱلسُّؤَالَ وَكُنْ   مُسْتَخْبِـرَاً حَـالَنَـا مِنْهَـا فَنَحْكِيْهَــا

هٰـذَا وَلَمْ يَطُلِ ٱلْعَهْـدُ ٱلْمَجِيْدُ بِنَـا   عَهْـدُ ٱلنُّبُـوَّةِ فِيْ سَــامِيْ تَجَلِّيْهَــا

وَٱلـذِّكْرُ مِنْكَ ٱلَّـذِي يَحْلُوْ تَـذَكُّـرُهُ   مَــا أَخْلَقَتْهُ ٱللَّيَــالِيْ فِيْ تَتَـالِيْهَــا

ثُمَّ سَـلَامٌ عَلَى رُوْحَيْكُمَـا عَـطِرٌ   أَتْلُوْهُ مَا فِيْ آلسَّمَا لَألَتْ دَرَارِيْهَـا

سَـلَامُ غَيْـرِ بَغِيْضٍ لَا وَلَا سَئِمٍ   مُـوَدِّعٍ زَهِـدَ آلـدُّنْيَا وَمَـا فِيْهَـا

إِنِ آنْصَـرَفْتُ فَلَيْسَ آلْإِنْصِرَافُ مَـلًا   لَا وَآلْمَـلَالَـةُ مِثْلِيْ لَا يُـدَانِيْـهَـا

وَإِنْ أَقَمْتُ فَمَا عَنْ سُوْءِ ظَنِّيَ بِـآللَّــهِ آلْمُعَـزِّيْ آلْحَزَانَى فِيْ تَعَازِيْهَا

وَلَا بِمَـا وَعَـدَ آللَّهُ آلْأُلَـى صَبَـرُوْا   عَلَى آلْمَصَـائِبِ دَاهِيْهَـا وَقَـاسِيْهَا

بِـذَا لَقَـدْ وَدَّعَ آلْمَحْـزُوْنُ حَيْـدَرَةٌ   بِنْتَ آلـرَّسُـوْلِ آلَّتِيْ يَبْكِيْ تَنَائِيْهَـا

وَآلْـحُـزْنُ أَشْـغَـلَهُ أَهَـمَّ سِـوَا   هُ مِنْ مَـطَامِعِ دُنْيَـا خَـابَ رَاجِيْهَـا

أمير المؤمنين وخلافة عمر

مَـا طَـالَ عَهْـدُ أَبِيْ بَكْـرٍ بِـأُمْـرَتِـهِ   وَلَا خِـلَافَتُـهُ آمْتَـدَّتْ لَيَـالِيْهَـا[1]

وَإِذْ أَحَـسَّ بِـأَنَّ آلْمَـوْتَ مُعَجِلُهُ   وَأَنَّ سَـاعَـاتِـهِ تَخْـدِيْ ثَـوَانِيْهَـا

---

(١) إنّ المؤرخ المدقّق بسير الدولة الإسلامية في عهد أبي بكر يجد بكل صراحة أنَّ عمراً بن الخطاب كان مستشار أبي بكر الأكبر في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ فلا عجب إذا عهد إليه أبو بكر بالخلافة عندما حضرته الوفاة وهذا الذي كانت تنتظره صحابة رسول الله على ما سترى في قصة هذا العهد على أننا نستطيع أن نقول أنّ عهد أبي بكر لعمر قد صار سابقة ارتكن عليها المسلمون في الخلافة على نحو ما فعل بنو أمية في الشام والعباسيون في العراق والفاطميون في المغرب ومصر وليس لي أن أتوسع في هذا الموضوع البادي الخطر ولكن هل يتسامح معي قرّاء علويتي المباركة فأسأل عمّا أنا مشتبه به فأقول : هل عهد أبو بكر لعمر بالخلافة لأنّه وجده الأكفأ لها ؟ أو أنّه رأى في ترك الخلافة لاجتهاد الصحابة خطر شقاق أحبَّ أن يتلافاه ؟ الله أعلم .

لما عرف أبو بكر أنّ الموت نازل به لا محالة استدعى إليه عثمان بن عفان وكان يستكتبه غالباً وقال له اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة عثمان أمّا بعد » ولم ينته أبو بكر إلى هذه الكلمة حتى أغمي عليه فأسرع عثمان من عند نفسه وكتب أبو بكر مغمى عليه « فإنّي قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب =

= لم آلكم خيراً» وأخذ بعد ذلك يرقب أبا بكر إلى أن أفاق فقال إقرأ عليَّ ما كتبت فقرأ ما كتبه حتى الذي كان من عند نفسه فكبّر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس إن متُّ في غيبتي . قال نعم . قال جزاك الله عن الإسلام وأهله خيراً . ولي هنا أن أسأل هل كان عثمان مجتهداً فكتب اسم عمر في العهد وأبو بكر في غشيته أم كان مضطلعاً على سرّ هذا العهد ؟ . ثمَّ إنّ أبا بكر أتمَّ إملاء العهد فكانت صورته هكذا « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة عثمان ، أمّا بعد فإنّي قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً . حيث أجلت رأيي . وأعملت فكري . فرأيت أنّ هذا الأمر لا يصلح آخره . إلاّ بما يصلح به أوله . ولا يحتمله إلاّ أفضل العرب مقدرةً . وأملكهم لنفسه . وأشدَّهم في حال الشدّة . وأسلسهم في حال اللين . وأعلمهم برأي ذوي الرأي . لا يتشاغل بما لا يعنيه . ولا يحزن لما لم ينزل به . ولا يستحي من التعلم . ولا يتحير عند البديهة . قويّ على الأمور . ولا يجوز بشيء منها حدَّةً وعدواناً ولا تقصيراً . يرصد لما هو آتٍ عتاده من الحذر » اهـ .

وبعد أن تمّت كتابة العهد استدعى أبو بكر عمراً فلما مثل بين يديه قال له : «« إنّي قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ . فأوصيك بتقوى الله » ثمَّ قال : « يا عمر إنّ لله حقاً بالليل ولا يقبله في النهار . وحقاً في النهار لا يقبله في الليل . وانه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة . ألم ترَ يا عمر إنّما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحقّ وثقله عليهم . وحقٌّ لميزان لا يوضع فيه غداً إلاّ حقٌّ أن يكون ثقيلاً . ألم ترَ يا عمر إنّما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفّته عليهم . وحقٌّ لميزان أن لا يوضع فيه إلاّ باطل أن يكون خفيفاً . ألم ترَ يا عمر إنّما نزلت آية الرخاء مع آية الشدّة . وآية الشدّة مع آية الرخاء ؟ . ليكون المؤمن راغباً راهباً ، لا يرغب رغبةً يتمنى فيها على الله ما ليس له . ولا يرهب رهبةً يلقي فيها بيديه . ألم ترَ يا عمر إنّما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم فإذا ذكرتهم قلت إنّي لا أرجو أن أكون منهم . وانه كر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنّه تجاوز لهم عمّا كان من سيء . فإذا ذكرتهم قلت : أين عملي من أعمالهم ؟ . فإن حفظت وصيتي فلا يكوننَّ غائب أحبَّ إليك من حاضر من الموت ولستَ بمعجزه » اهـ .

وبعد أن أوصى أبو بكر عمراً بما تقدم أرسل عهده مع غلامٍ له يحرسه عمر=

ثُمَّ دَعَا عُمَراً أَسْدَى نَصِيْحَتَهُ إِلَيْهِ قَالَ : آلرَّعَايَا كُنْ مُدَارِيْهَا

= ليقرأه على الناس فخرج عمر بالغلام ومعه العهد فجمع المسلمين حيال بيت أبي بكر وقرأ الغلام العهد بينما كان يقول لهم عمر انصتوا واسمعوا لخليفة رسول الله فإنَّه لم يألكم نصحاً . فلما انتهت تلاوة العهد قال الناس سمعنا وأطعنا فلما سمع أبو بكر وهو على فراشه صياح الناس بقولهم سمعنا وأطعنا تحامل على نفسه وأخرج رأسه من شرفة بيته وقال « أترضون بمن استخلفت عليكم ؟ فإنّي لم أستخلف عليكم ذا قرابة . وإنّي قد استخلفت عليكم عمراً . فاسمعوا له وأطيعوا . فإنّي والله ما آلوت من جهد الرأي » فأجابوه سمعنا وأطعنا .

أمّا أكابر الصحابة فما راق لهم استخلاف عمر فسار عبد الرحمن بن عوف إليه وقال له : انّ عمراً لذو غلظة وقد استخلفته علينا فقال أبو بكر : ذاك لأنَّه يراني رقيقاً ، ولو قد أفضي الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه ، وقد رمقته إذا أنا غضبت على رجل أراني الرضى عنه ، وإذا ألنت له أراني الشدَّة عليه فخرج ابن عوف والله يعلم ما في نفسه . فدخل طلحة على أبي بكر وقال : ما أنت قائل لربّك غداً يا أبا بكر وقد ولّيت علينا فظّاً غليظاً تفرق منه النفوس وتنفضُّ عنه القلوب ؟ فقال أبو بكر أسندوني وكان مستلقياً على ظهره فأسندوه فجلس وقال لطلحة : أبالله تخوُّفني ؟ وإذا قال لي الله لك قلت ولَّيت عليهم خير أهلك . فخرج طلحة وفي نفسه ما لا يعلمه إلاّ الله أمّا سيدنا علي عليه السلام فإنَّه لم يدخل في هذا الأمر ولم يكن له فيه رأي .

وبعد وفاة أبي بكر دفنه عمر بجوار رسول الله وجعل رأسه عند منكبيه صلى الله عليه وآله وسلم وخرج بعد ذلك إلى المسجد فخطب في الناس وأخذ بيعتهم فلم يتخلف الناس عنها وبالبداهة فيهم الراضون وفيهم المتظاهرون بالرضاء وهم كارهون وكان في جملة المبايعين سيدنا عليّ عليه السلام ولم يعدُ سمع عمر ما كان يتهامس به بعضهم عن عهد أبي بكر له فتجاهله .

ثمَّ إنّ الناس صاروا يسمون عمراً خليفة خليفة رسول الله لأنَّ أبا بكر كانوا يسمونه خليفة رسول الله وكأنّهم اعتبروا عمراً خليفة أبي بكر . ثمَّ إنّهم استثقلوا هذه التسمية فسمّوا عمراً « أمير المؤمنين » فكان أول من لقّب بهذا اللقب .

أمّا رأي سيدنا علي عليه السلام باستخلاف أبي بكر لعمر فقد أبانه بإحدى خطبه إذ =

وَبَعْدَ ذَا سَارَ عَبْدٌ بِٱلْوَصِيَّةِ كَيْ يُذِيْعَهَا قَبْلَ أَنْ يَقْضِي مُوَصِّيْهَا
وَسَارَ مَعْهُ أَبُو حَفْصٍ لِيَجْمَعَ أَنْـصَارَ ٱلنُّبُوَّةِ جَمْعَاً مَعْ صَحَابِيْهَا
حَتَّى إِذَا ٱجْتَمَعَتْ فِيْ قُرْبِ دَارِ أَبِيْ بَكْرٍ وَلَمْ تَدْرِ مَا دَاعِيْ تَنَادِيْهَا
نَادَى بِهَا عُمَرٌ: إِنَّ ٱلْخَلِيْفَةَ قَدْ أَوْصَى وَصِيَّتَهُ صَغْيَاً لِقَارِيْهَا
وَرَاحَ عَبْدُ أَبِيْ بَكْرٍ يُذِيْعُ عَلَى ٱلنَّاسِ ٱلْوَصِيَّةَ فِيْ أَجْلَى مَعَانِيْهَا

= قال :

« حتى مضى الأوَّل لسبيله ، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده ، فيا عجباً بين هو يستقيلها في حياته ، إذ عقدها الآخر بعد وفاته ، لشدَّ ما تشطَّرا ضرعيها ، فصيرها في حوزةٍ خشناءَ يغلظ كلمها ، ويخشن مسُّها ، ويكثر العثار فيها ، والاعتذار منها فصاحبها كراكب الصعبة ، ان أشنق لها خرم . وإن أسلس لها تقحَّم . فمني الناس لعمر الله بخيطٍ وشماس . وتلوُّنٍ واعتراض . فصبرتُ على طول المدَّة وشدة المحنة » اهـ .

وأشار المرتضى بقوله هذا إلى ما كان يقوله أبو بكر في حياته مراراً وتكراراً « أقيلوني منها » وهو يعجب كيف كان يطلب في حياته الاستقالة من الخلافة ثمَّ يعهد بها إلى غيره على عهدته بعد مماته أيم الله إنَّ في ذلك لعجباً .

على أنّ مولانا العلي عليه السلام لهو أسمي وأعلى قدراً وهمة أن يبخس الناس أشياءَهم وإذا كان يرى حقّه قد غصب أولاً وثانياً وثالثاً فإنّ ذلك لم يمنعه عن أن يقول في عمر بن الخطاب وعهده كلمة حق فقال : « لله بلاد فلان (وأجمع مفسّرو نهج البلاغة على أنَّ فلاناً هذا هو عمر بن الخطاب كما أنَّ في المقال ما يشير إليه) فقد قوَّم الأود ، وداوى العمد ، وأقام السنّة ، وخلَّف الفتنة ،ذهب نقيَّ الثوب ، قليل العيب ، أصاب خيرها ، (ويريد الخلافة) وسبق شرَّها ، أدَّى إلى الله طاعته ، واتَّقاه بحقه ، رحل وتركهم (أي المسلمين) في طرق متشعبة ، لا يهتدي بها الضال ، ولا يستعين المهتدي » اهـ ولعمر الحق قد أنصف أمير المؤمنين عمراً في حكمه ولم يأخذ عليه إلاّ تركه الناس من بعده على ما تركهم عليه مما كثرت منه الشكوى وعمّت فيه البلوى على ما سترى .

فَصَاحَتِ آلنَّاسِ سَمْعاً لِلْخَلِيْفَةِ صَيْـــحَةً دَوَى فِيْ آلْقَضَا إِذْ ذَاكَ دَاوِيْهَا

ثُمَّ آلْخَلِيْفَـةُ مِنْ مِنْفَـاذِ غُـرْفَتِـهِ   قَدْ شَارَفَ آلنَّاسَ يَبْغِي أَنْ يُفَاهِيْهَا

وَقَالَ : هَلاَّ رَضِيْتُمْ مَنْ عَهِدْتُ لَهُ   وَلَيْسَ مِنِّي أَخَا قُرْبَى أُرَاعِيْهَا

عَهِدْتُ فِيْكُمْ مِنْ بَعْدِيْ إِلَى عُمَرٍ   بِذِيْ آلْخِلاَفَةِ هَلْ بِتُّمْ مُطِيْعِيْهَا

قَالُوْا : نَعَمْ فَآنْثَنَى عَنْهُمْ لِفَرْشَتِهِ   مُعَالِجاً سَكَرَاتِ آلْمَوْتِ غَاشِيْهَا

فَجَاءَهُ إِبْنُ عَوْفٍ قَائِلاً: عُمَرُ   ذُوْ غُلْظَةٍ فَهْوَ قَاسِيْ آلنَّفْسِ جَافِيْهَا

فَكَيْفَ وَلَّيْتَهُ أَمْرَ آلرَّاعِيَّةِ نَا   دَى: لاَ تَخَفْهَا وَلاَ تَرْهَبْ تَمَادِيْهَا

قَدْ كَانَ يَغْلُظُ إِنْ أَبْدِيْ آللُّيُوْنَةَ أَوْ   يَلِيْنُ إِنْ غُلْظَةٌ لِلنَّاسِ أُبْدِيْهَا

فَسَارَ مُقْتَنِعاً أَوْ غَيْرَ مُقْتَنِعٍ   بِحَالَةٍ لَيْسَ غَيْرُ اللَّهِ يَدْرِيْهَا

فَجَاءَهُ طَلْحَةٌ وَآلنَّارُ تَقْدَحُ مِنْ   عَيْنَيْهِ مَا كَانَ غَيْرُ آلْحُقْدِ مُلْظِيْهَا

وَقَالَ : مَا أَنْتَ عِنْدَ آللَّهِ مُعْتَذِرٌ   بِهِ غَداً إِنْ جِنَانُ آلْخُلْدِ تَأْتِيْهَا

وَقَدْ تَرَكْتَ لَنَا فَظّاً فَأَنْفُسُنَا   تَخْشَاهُ فَآشْفُقْ عَلَيْهَا مِنْ مُخَشِّيْهَا

إِنَّ آلْقُلُوْبَ لَفِيْ قَاسِيْ غَلاَظَتِهِ   لاَ بُدَّ تَنْقَضُّ عَنْهُ وَآلْقِلاَ فِيْهَا

فَقَالَ: وَيْلَكَ هَلْ بِآللَّهِ تُرْهِبُنِيْ   وَفَعْلَتِيْ هَلْ عَلَيَّ آلْيَوْمَ تَنْعِيْهَا

فَإِنْ يَقُلْ خَالِقِي مَا أَنْتَ قَائِلُهُ   أَقُلْ عَلَى أُمَّتِيْ وَلَّيْتُ ذَاكِيْهَا

فَسَارَ هٰذَا وَمَنْ يَدْرِيْ خَبِيْئَةَ صَدْ   رِهِ آلَّتِيْ كَانَ عَنْ كُرْهٍ مُخَبِّيْهَا

كَذَا آلْخِلاَفَةُ بَاتَتْ فِيْ يَدَيْ عُمَرٍ   مِنْ قَبْلُ أَنْ يَتَوَفَّى آللَّهُ رَاعِيْهَا

وَبَعْدَ مَوْتِ أَبِيْ بَكْرٍ وَلَحْدَتِهِ   بِقُرْبِ طَهَ آلَّتِي قَدْ كَانَ مُوْصِيْهَا

تَسَابَقَتْ أُمَّةُ آلْهَادِي لِمَسْجِدِهِ   إِطَاعَةً لِأَبِيْ حَفْصٍ مُنَادِيْهَا

هُنَاكَ قَامَ خَطِيباً بَيْنَهَا فَدَعَا   هَا أَنْ تُطِيْعَ فَمَا أَبْدَتْ تَعَصِّيْهَا

وَنَالَ بَيْعَتَهَا طُرَّاً وَلَمْ يَكُ مَوْ   لاَنَا ٱلْعَلِيُّ لِذَاكَ ٱلْعَهْدِ آبِيْهَا

لٰكِنَّمَا هَمَسَتْ نُقَّادُ عَهْدِ أَبِيْ   بَكْرٍ بِآذَانِ مَنْ كَانَتْ تُنَاجِيْهَا

وَسَارَ فِيْ ٱلنَّاسِ قَوْلٌ لاَ جَوَابَ لَهُ   هَلِ ٱلْخِلاَفَةُ إِرْثٌ كَيْ يُلَجِّيْهَا

وَكَانَ يُدْعَى أَبُوْ بَكْرٍ خَلِيْفَةَ طَـ   ـهَ فِيْ خِلاَفَتِهِ مِنْ كُلِّ أَهْلِيْهَا

وَإِذْ قَضَى وَتَوَلَّى بَعْدَهُ عُمَرٌ   قَدْ حَارَتِ ٱلنَّاسُ فِيْ تَلْقِيْبِ وَالِيْهَا

ثَنَّتْ بِتَلْقِيْبِهِ لَفْظَ ٱلْخَلِيْفَةِ لٰـ   ـكِنْ ثِنْيَةُ ٱللَّفْظِ مَا طَابَتْ لِوَاعِيْهَا

فَآسْتَحْسَنَتْ بَعْدَهَا تَلْقِيْبَهُ بِأَمِيْـ   ـرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ بِهِ يَدْعُوْهُ دَاعِيْهَا

فَكَانَ أَوَّلَ مَدْعُوٍّ بِهِ وَغَدَتْ   مِنْ بَعْدِهِ ٱلْخُلَفَا يَتْلُوْ أَسَامِيْهَا

وَرَأْيُ حَيْدَرَةٍ فِيْ ذِيْ ٱلْخِلاَفَةِ يُلْـ   ـقِيْهِ بِخُطْبَتِهِ ٱلْغَرَّاءَ قَارِيْهَا

فَقَالَ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ قُبَيْلَ وَفَا   تِهِ إِلَى عُمَرٍ قَدْ رَاحَ مُوْلِيْهَا

فَاعْجَبْ لَهُ وَهْوَ حَيٌّ كَانَ يَطْلُبُ أَنْ   يُقَالَ مِنْهَا وَيَشْكُوْ مِنْ تَوَلِّيْهَا

حَتَّى إِذَا مَا قَضَى أَمْسَى مُوَرِّثَهَا   لِآخَرٍ بَعْدَهُ يَهْوَى تَذَرِّيْهَا

لَشَدَّ مَا ٱقْتَسَمَا دُوْنَ ٱلصَّحَابَةِ ضَرْ   عَيْهَا وَقَدْ رَوِيَا مِنْ دَرِّ أَثْدِيْهَا

وَبَعْدُ صَيَّرَهَا فِيْ حَوْزَةٍ خَشُنَتْ   جُرُوْحُهَا غَلُظَتْ قَدْ خَابَ آسِيْهَا

مِنْهَا لَيَكْثُرُ قَوْلُ ٱلْإِعْتِذَارِ وَيَكْـ   ـثُرُ ٱلْعِثَارُ كَمَا يَخْشَى ٱلْوَرَى فِيْهَا

كَالنَّاقَةِ ٱلصَّعْبَةِ ٱلْهَوْجَاءَ لَيْسَ أَمِيْـ   ـنَاً مِنْ مُفَاجَأَةِ ٱلْأَخْطَارِ مَاطِيْهَا

إِنْ رَامَ يُشْنِقُهَا لاَ شَكَّ يَخْرِمُ أَنْـ   ـفِهَا وَتُؤْذِيْهِ إِنْ أَمْسَى مُؤَاتِيْهَا

وَعَمْرُكَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ مُنِيَتْ   بِهَا فَمَا تَدْرِيْ كَيْفَ تُمَشِّيْهَا

فَمِنْ شِمَاسٍ إِلَى خَبْطٍ بُعَيْدَ تَلَوُّ   نٍ وَسُوْءِ ٱعْتِرَاضٍ فِيْ تَخَطِّيْهَا

وَهٰذِهِ مِحْنَتِيْ مَعْ هَوْلِ شِدَّتِهَا   وَطُوْلِ مُدَّتِهَا بِالصَّبْرِ أَجْلِيْهَا

ذا قَــوْلُ حَيْــدَرَةٍ فِيْ أُمْــرَةٍ عُمَــرُ   قَــدْ كَانَ آخِـذَهَـا مِنْ كَفِّ مُعْـطِيْهَـا

لٰكِنَّــهُ كَــانَ أَسْمَى هِـمَّـةً وَتُقَـىً   أَنْ يَبْخَس آلنَّـاس شَيْئَـاً مِنْ مَـآتِيْهَـا

فَقَــالَ فِيْ عُمَـرٍ أَيْضَــاً مَقَـالَــةَ حَــــقٍّ مِثْلُهُ لَيْس يَــرْضَى أَنْ يُـوَارِيْهَـا

فَـقَــالَ : لِلَّهِ أَرْضٌ أَنْـبَتَـتْ عُـمَـرَاً   فَقَـدْ رَأَيْنَـاهُ سُبْـلَ آلْخَيْـرِ يَـأْتِيْهَـا

فَـإِنَّـمَـا آلْأَوَدُ آلْمُـعْــوَجُّ قَـوَّمَــهُ   وَكَــانَ لِلْعُلَلِ آلـشَّتَّـى مُـدَاوِيْهَـا

وَسِنَّــةُ آلْمُصْـطَفَى حَقَّـاً أَقَـامَ وَلٰـــكِنْ خَلَّفَ آلْفِتْنَةَ آلْكُبْرَى وَمُـوْرِيْهَا

وَسَــارَ وَهْـوَ نَقِيُّ آلثَّـوْب غَيْـرُ كَثِيْــــرِ آلْعَيْبِ مُتَّـرِكَـا بَلْوَى تُعَـانِيْهَـا

وَكَـانَ مُجْتَنِبَـاً خَيْـرَ آلْخِـلاَفَـةِ سَـا   بِقَـاً شُرُوْرَاً تَعَـالَى صَـوْتُ شَـاكِيْهَا

بِحَقِّ خَـالِقِـهِ قَـدْ كَــانَ خَـائِفَـهُ   وَإِنَّ طَـاعَـتَـهُ أَمْـسَـى مُـؤَدِّيْــهَـا

وَخَلَّفَ آلنَّـاسَ لَمَّا مَـاتَ فِيْ طُـرُقٍ   تَشَعَّبَتْ أَتْـعَبَـتْ تَــآللَّهِ مَـاشِـيْهَـا

مَـا إِنْ بِهَا آلْمُهْتَـدِيْ مُسْتَيْقِنٌ وَكَـذَا   مَنْ ضَـلَّ مَا زَالَ فِيْهَـا يَشْتَكِيْ آلتِّيْهَا

بِــذَا أَشَــارَ عَـلِيٌّ لِلْخِــلاَفَــةِ فِـيْ   عَهْـدٍ بِـهِ عُمَـرٌ قَـدْ كَـانَ كَـاسِيْهَـا

وَكَـيْـفَ أَمَّـنَـهَـا حَـيَّـاً وَخَـلَّـفَـهَـا   مِنْ بَعْـدِهِ لِصُرُوْفِ آلـدَّهْـرِ تُشْقِيْهَا

فَكَــانَ مُنْصِفَـهُ فِيْ حُكْمِـهِ وَفِعَـا   لُـهُ آلْحِسَانُ بِخَيْـرِ آلْمَدْحِ مُبْـدِيْهَـا

أمير المؤمنين في خلافة عمر

كَـانَ آلْعَلِيُّ لِـذَاكَ آلْعَهْـدِ مُلْتَـزِمَــاً   شَرِيْعَةَ آلْمُصْطَفَى يُبْدِيْ خَـوَافِيْهَا[1]

يُفْتِيْ بِهَـا بَيْنَ أَهْلِيْهَا آلْأُلَى عَــرَفُـوْ   هُ أَوْسَعَ آلنَّاسِ فِيْ آلْأَحْكَامِ تَفْقِيْهَا

---

(١) من المعلوم أنّ النزاع كان شديداً بين القائلين بخلافة سيدنا علي عليه السلام وأنّها غصبت منه أولاً وثانياً وثالثاً وبين الذين لم ينكروا أنّه كان الأفضل والأخلق بها مع إجازة =

=ولاية المفضول بحضور الأفضل وإننا لا نتعرض لأقوال هؤلاء وهؤلاء على كثرتها ولكننا نقول إنّ هذين الفريقين ولك أن تسميهم أهل السنة وأهل الشيعة بحثوا طويلاً وتجادلوا ملياً في موقف سيدنا علي بإذاء الخلفاء الثلاثة الذين تقدموه ولكل فريق من ذينك الفريقين استنتاجات استنتجوها لتأييد رأيهم . على أنّ ما لا ريب فيه أنّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام كان أنبل غاية وأسمى قدراً من أن يضيع مصلحة الإسلام حبّاً بمصلحته مع أنّه على ما هو صريح من خطبه وكتبه والأقوال المأثورة أنّه كان ثابت عند القول بأنّ حقّه في الخلافة قد غُصب ونُهب . وخليق بنا معاشر العرب ونحن على أبواب نهضةٍ جديدةٍ نسأل الله أن تكون مباركة أن نتمثل بهذا الإمام الأكبر فلا ينقم صاحب حقّ وقد سلب منه على الأمّة ويعمد إلى الإضرار بها انتقاماً لحقّه المغصوب لما نعلم أنّ الأفراد تفتدي الجماعات بنفوسها ولكن لا يجوز أن تذهب الجماعات فداءً للأفراد .

وكان سيدنا علي عليه السلام في عهد أبي بكر ملازماً بيته يعنى بجمع ما تفرّق من كتاب الله وإفتاء المسلمين بما يشكل عليهم من أمور دينهم ولا يبخل على الخليفة بالنصح والإرشاد إذا استنصحه واسترشد برشده وقد فعل . وكذلك كان في عهد عمر فقد كان لا يألوه نصحاً وإرشاداً ووعظاً وتنبيهاً وكان عمر أعرف الناس بقدر أمير المؤمنين وعلمه وأحرصهم على إكرامه وتمجيده والتنويه باسمه تدلّ على ذلك القصة التالية :

حدّث المحدثون أنّ عمراً نزلت به يوماً نازلةٌ فقام لها وقعد وترنّح لها وتفطّر وقال لمن عنده : يا معشر الحاضرين ما تقولون في هذا الأمر ؟ فقالوا يا أمير المؤمنين أنت المفزع والمنزع فغضب وقال : يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولاً سديداً . ثم قال : أمّا والله إنّي وإيّاكم لنعلم أن نجدتها والخبير بها . قالوا : كأنّك أردتَ ابن أبي طالب . قال : وأنّى يُعدل بي عنه ؟ وهل طفحت حرّةٌ مثله ؟ قالوا : فلو دعوت به يا أمير المؤمنين . قال : هيهات ان هناك شمخاً من هاشمٍ وأثرةً من علمٍ ولحمةً من رسول الله يُؤتى ولا يأتي فامضوا بنا إليه . فانصفوا نحوه وأفضوا إليه فألفوه في حائطٍ له عليه تبّان وهو يتركل على مسحاته ويقرأ أيحسب الإنسان أن يترك سدىً إلى آخر السورة وكانت دموعه تهمي على خديه فأجهش الناس لبكائه فبكوا ثمّ سكت فسكتوا فسأله عمرٌ عن تلك الواقعة فأصدر جوابها . فقال عمرٌ : أمّا والله لقد أرادك الحقُّ ولكن أبى =

وَذَاتُ يَـوْمٍ أَبُوْ حَفْصٍ لَقَـدْ نَـزَلَتْ   بِـهِ مُـلِمَّــةُ سُـوْءٍ رَامَ يَـتْـقِـيْـهَـا

= قومك . فقال أمير المؤمنين عليه السلام : يا أبا حفص خفض عليك من هنا ومن هنا إنَّ يوم الفصل كان ميقاتاً . فوضع عمر إحدى يديه على الأخرى وأطرق إلى الأرض وخرج كأنّه ينظر في رماد . اهـ .

نقول ومن هذه الموقعة تعلم كيف كان عمر يحترم أمير المؤمنين عليه السلام ويقدر قدر فضله وعلمه وكيف كان أمير المؤمنين حاضر الذهن سديد الرأي يحلّ المشاكل التي تعرض له بالسرعة التي حلّها لعمر وهو واقف بين يديه وما هذا بكثير على سيدنا علي على ما عرف الناس من علمه وفضله .

وكان عمر على ما علم الناس شديداً سريع الغضب كثير الصخب وهذا مجمع عليه لا إختلاف فيه وكانت الصحابة والأنصار تتقيه وتخشاه إلّا سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فقد كان وحده يتصدّى له ويعترضه وكيف لا يكون كذلك وهو الذي ما كان يرهب في الحق لومة لائم . وحدث في ذات يوم أنّ عمراً استدعى امرأة حاملاً لتأدية شهادة أمامه فأجهضت فرقاً من هيبته وشدّته فأمر بإخراجها من حضرته وبقي بوجلٍ من مسؤولية إجهاضها أمام الله والشريعة فاستفتى في ذلك أكابر الصحابة فقالوا لا حرج عليك في شدّتك وإنّما أنت مربٍّ . وكان في ذلك المجلس سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فغضب للشريعة غضبةً « هاشميةً » وقال : حنانيك يا عمر فإن كان أصحابك بما قالوا قد راقبوك فقد غشوك وإن كان جهد رأيهم فقد أخطئوا . والحقيقة أنّك مذنب في هذه الشدة التي سببت هذا الضرر وعليك تحرير رقبة كفّارة عن ذنبك فرجع عمر إلى حكمه وأمر بتحرير رقبة وقال : « لولا عليّ لهلك عمر » وكان عمر يكرر هذا القول في كل موطن يتصدّى له فيه سيدنا عليّ عليه السلام للمحافظة على حقوق الله كما هو مشهور .

وما كان سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام يبخل على عمر بنصائحه الرشيدة وآرائه السديدة سواء في سياسة الأمة أو في حروبه مع الروم والفرس على ما هو مشهور ومعلوم .

وقصارى القول أنّ أمير المؤمنين كان يخلص النصيحة لعمر حبّاً بمصلحة الإسلام والمسلمين وما كانت تشغله عن المصلحة العامة مصلحته الخاصة التي ضاعت فهل فينا =

وَلَمْ يَجِدْ ذَا حِجَى مِنْ صَحْبِهِ وَمُشِيْــرِيْـهِ بِصَـائِـبِ آراءٍ يُـجَـلِّيْـهَـا

=نحن معاششر العرب من ينحو نحوه ويتأثر خطواته إذا ضاعت مجهوداته وبُخس حقه في هذا العصر ؟ .

« ترجمة عمر بن الخطاب »

هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزَّى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عديّ بن كعب بن لؤي بن غالب ويجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في لؤي . وأمّا أمّه فهي حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وكان مولده في مكة في عام ١٣ بعد الفيل فهو أصغر من رسول الله بـ١٣ سنة . وأسلم عمر بعد جماعةٍ من الناس وبعد أن كان أشدَّ الناس على المسلمين وكان سبب إسلامه أنّ أخته وبعلها أسلما سرّاً من عمر فدخل إليهما خباب بن الأرت يعلمهما الدين خفيةً فوشى بهم واشٍ إلى عمر فجاء دار أخته غاضباً فتوارى خباب منه داخل البيت فقال عمر : ما هذه الهينمة عندكم ؟ قالت أخته : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا . قال : أراكما قد صبوتما . قال صهره أرأيت إن كان هو الحق ؟ فوثب عليه عمر فوطئه وطئاً شديداً فجاءت أخته فدفعته عنه فنفحها بيده فدمى وجهها ثمّ ندم ورقّ وجلس واجماً . فخرج إليه خبّاب فقال : أبشر يا عمر فإنّي أرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لك الليلة قد استجيبت فإنّه لم يزل يدعو منذ الليلة « اللّهمَّ أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمروٍ بن هشام » قال عمر صدقت يا صاح وانطلق لساعته وهو متقلد سيفه إلى دار الأرقم بن الأرقم المخزومي التي كان المسلمون مستخفون بها ورسول الله معهم وكان وقتئذٍ على الباب حمزة وطلحة وأناس من المسلمين فوجل القوم من عمر إلاّ حمزة فإنّه قال قد جاءنا عمر فإن يرد الله به خيراً يهده وإن يرد غير ذلك كان قتله علينا هيناً . وكان رسول الله عندئذٍ في غرفته مختلياً يناجي ربّه فسمع كلامهم وخرج وأخذ بمجامع ثوب عمر وحمائل سيفه وقال « ما أنت بمنته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللّهمَّ هذا عمر اللهمَّ أعزَّ الإسلام بعمر » فقال عمر في الحال « أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمداً رسول الله » ففرح المصطفى والمسلمون بإسلامه فرحاً كثيراً .

وكان عمر شديداً غليظاً بقدر ما كان غيوراً حازماً يدلك على غلظته معارضته =

= رسول الله ﷺ في صلح الحديبية وله مـع المصطفى كثيـر مثلها ولكن المصـطفى كان يتسامـح معـه لمـا يعلمـه من غيـرتـه وحسن نيتـه . وتعــرف شـدّتـه من معـارضتـه رسـول الله ﷺ يوم طلب اللوح والدواة ليكتب مـا يؤمن النـاس الضـلال بعـده . وقـد ظهـرت شدَّتـه على أشدهـا في مجتمـع السقيفـة حيث أراد أن يقتـل سعـداً وهـو زعيم الأنصـار على ما علمت لأنّـه أبى بيعة أبي بكـر ولولا أبـو بكر وعبـد الـرحمن بن عـوف لقتله . وكان في عهد أبي بكر هو المتصرف بشؤون الخلافة بشدّته واعتذر عنه أبو بكـر بأنّه كان يشتدُّ عند ما يرى أبا بكـر يلين للناس ويلين عنـدما كـان يشتدّ . وكـان في مدة خلافته لا يجرأ أحد من زعماء الصحابة والأنصار على مواجهته ومخالفة رأيـه إلاّ سيدنـا عليّ أمير المؤمنين ولم يذكر المؤرخون ان غيره من أكابر الصحابـة والأنصار قـوي على مناهضته أو جرىء على مخالفة أوامره . ومن شدّته أنّه حجر عليهم جميعـاً في المدينـة المنورة فما كان يسمح لأحدهم بمبارحتها إلاّ من كان مـوضع ثقتـه منهم فاستخـدمه في حروبه أو ولاّه الحكم في بلاده ورعاياه .

وفي عهد عمر امتدَّت الفتوحـات الإسلاميـة امتداداً عـظيماً ونصـر الله المسلمين على مملكتي الروم والفرس بسرعة هائلة فأصبحت دولة الخلافة واسعة السلطان عظيمة الجاه . وكان عمر قابضاً عليها بيده الحديـدية يسيـرها على الـروح الإسلاميـة التي بثها محمد بن عبد الله ﷺ بوحيٍ من الله .

وكان عمر تقياً ورعاً زاهداً غير مفـرّط في أحكام الشـريعة إلاّ أنّـه كان يتـوسَّع في هاتيك الأحكام على ما تقضي به مصلحة الدولة بعد أن اتّسعت ودانت لها مصـر والشام واليمن والعراق وفارس أو معظمها .

وإجمال القول ان عمراً الذي كان في الجاهلية يرعى الإبـل وينقل عليهـا متاجـره إلى الشـام ومصر وفـارس قد بـرهن على اقتدار عجيب في السيـاسة والـرئاسـة والكفاءة النادرة في توسيع سلطان المسلمين إلى أبعد مـدى كان ينتـظر في السنوات العشـر التي تربَّع بها على عرش الخلافة .

وتزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظعـون من بني جُمح من قـريشٍ فولـدت له عبد الله وعبد الرحمن الأكبر وحفصة التي تزوجها رسول الله . وتزوج في الجاهلية أيضاً =

= مليكة ابنة جرول من خزاعة فأولدها عبيد الله وقد فارقها في هدنة الحديبية . وتزوج قريبة ابنة أبي أمية وفارقها . وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم فولدت له فاطمة . وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصماً وطلقها . وتزوج أم كلثوم بنت سيدنا عليّ فولدت له زيداً ورقية ومات عنها . وتزوّج لهيَّة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر . وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو . وخطب أم كلثوم ابنة أبي بكر التي ولدت له بعيد وفاته وهي صغيرة وأرسل فيها إلى أختها عائشة زوجة رسول الله وكانت تربيها عندها فقالت الأمر إليك ثمّ خاطبت الفتاة أم كلثوم بذلك فقالت لا حاجة لي فيه فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين ؟ فقالت نعم إنّه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته بذلك فقال أكفيك عمراً وسار إليه فقال له يا أمير المؤمنين بلغني خبرٌ أعيذك بالله منه قال ما هو ؟ قال خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر قال نعم أفرغبت بي عنها أم رغبتَ بها عني ؟ قال لا واحدة ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين عائشة في لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك ولا نقدر أن نردّك عن خلق من أخلاقك فكيف بها ان خالفتك في شيء فسطوت بها فكنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحقّ عليك قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلّك على خير منها أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب تعلق بها بنسب من رسول الله فاقتنع عمر وتزوّج بأم كلثوم . وكذلك خطب عمر أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت « يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً » .

وكان عمر مشهوراً بعدله وفضله وكمالاته شهرةً لا يختلف فيها اثنان إلّا أنّه مع ما عرف عن حزمه وسداد رأيه عجز عن ضمان راحة المسلمين من بعده كما ضمنها في حياته فترك الأمر شورى من بعده عرضةً للقضاء والقدر والباحثون المدققون في التاريخ ما زالوا في حيرةٍ من هذا الأمر أو أنّهم كانوا ولا يزالون يتحاشون الخوض فيه بحرية يتعذّر على المؤرخين الاستمساك بها من غير أن يتعرضوا إلى ما لا يحبون من الغمز واللمز وعندي على ضعف رأيي وقلة علمي أنّ عمراً الذي طالما لحظ توسع معاوية في الشام وعجز عن استخلاصها منه كما فعل مع غيره من العمال ما فاته أنّ هذا الداهية الأموي سينصر بعده عثماناً بن عفان وهو أمويٌّ مثله ومن عمومته تحقيقاً لمطامع أمية التي كانت لها الزعامة في قريش على عهد الجاهلية وهي تصبو إلى استعادتها في =

فَلَمْ يَكُـنْ مِنْ ذَوِيْـهِ رَبُّ مَشْـوَرَةٍ   يُـزِيْـحُ نَـازِلَـةً قَـدْ رَاحَ خَـاشِيْهَـا
فَقَـالَ: أَعْلَمُ مَعْكُمْ بِـالْخَبِيْـرِ بِهَـا   وَبِـابْنِ نَجْـدَيْهَـا مُجْلِي دَيَاجِيْهَـا
قَـالُوْا : لَعَـلَّ الَّـذِيْ تَعْنِيْـهِ حَيْـدَرَةً   فَـإِنَّ آرَاءَهُ مَـا مَـنْ يُـخَـطِّيْـهَـا
أَجَـابَ : مَا مِثْلُهُ مِنْ حُـرَّةٍ طَفَحَتْ   وَمَـا سِوَاهُ لَـهُ الْحَـاجَـاتُ أُسْـدِيْهَا
قَالُوْا : أَلَا فَادْعُهُ حَالاً لِمَجْلِسِكَ الْـ   ـعَـالِيْ وَدَعْـوَتُـكَ الْعَلْيَـا يُلَبِّيْهَـا
أَجَابَ : إِنَّ هُنَا شَمْخَ الْقَرَابَةِ مِنْ   طَـهَ وَإِثْـرَةَ عِـلْمٍ قَـدْ تُـوَازِيْهَـا
يُؤْتَى وَهَيْهَـاتَ أَنْ يَـأْتِيْ وَسَـاحَتُـهُ   أَخْلِقْ بِنَـا أَنْ نُـرَاعِيْـهِ وَنَـأْتِيْهَـا
هُبُّـوْا إِلَيْـهِ فَهَبُّـوْا وَالْخَلِيْفَـةُ مَعْـ   ـهُمْ لِلَّذِيْ فَاقَ كُلَّ النَّاسِ تَجْوِيْهَا
حَتَّى إِذَا مَـا انْتَهَـوْا مِنْ دَارِهِ دَخَلُوْ   هَـا بِاحْتِـرَامٍ لِمَنْ بِالْمَجْدِ يَشْوِيْهَا
أَلْـفَـوْهُ مُـؤْتَـزِراً تَـبَّـانَـهُ وَبِـخَـلْـ   ـوَةٍ بِهَـا الْعُـزَّةُ الْعَلْيَـا يُنَـاجِيْهَـا
وَكَـانَ يَتْلُوْ تُقَىً آيَ التَّـزَهُّـدِ كَيْ   يُـرَوِّضَ النَّفْسَ تَـرْوِيْضَـاً فَيُشْجِيْهَـا
وَكَـانَ يَبْكِيْ فَـأَبْكَـاهُمْ وَيَطَّلِبُ الْـ   ـرِّضَى لِأُمَّتِـهِ مِنْ فَضْـلِ بَـارِيْهَـا
حَتَّى إِذَا كَفْكَفَ الـدَّمْعَ الْهَـطُوْلَ وَكَفْكَفُوْا الـدُّمُوْعَ الَّتِيْ فَـاضَتْ مَجَارِيْهَـا
أَبْـدَى لَـهُ عُمَـرٌ خَـافِيْ مَشَـاكِلِهِ   وَقَالَ : مَا الرَّأْيُ قُلْ لِيْ كَيْ أُدَارِيْهَا
فَـرَاحَ يُبْـدِيْ عَلِيٌّ مِنْ زَكَـانَتِـهِ الْـ   ـرَّأْيَ السَّـدِيْـدَ لِيَجْلُوْهَـا وَيَتْقِيْهَـا

الإسـلام نعم ما فـاته هـذا كما لم يفتـه حقّ بني هاشم في الخلافـة ولا سيمـا زعيمهم الأعظم سيدنا أمير المؤمنين فحار في أمره ولم يجد وسيلةً للخلاص من هـذا المأزق إلّا بترك الخلافة الشورى حصرها في الستة الباقين من العشـرة الذين مـات رسول الله وهـو راضٍ عنهم تاركاً لهم أن يـدبروا أمـرهم بأنفسهم وهـذا كان غـاية اجتهـاده على أنّه لم يكن اجتهاداً صحيحاً لما حدث على أثره من الثورات والفتن على مـا سنبين ذلك فيمـا يجيء .

فَـأَدْهَشَ آلنَّـاسُ ذَيَّـاكَ آلـذَّكَـاءُ وَلَمْ   تَجْهَلْهُ مِنْ قَبْـلُ أَنْ أَمْسَى مُفَـاهِيْهَـا

وَقَـالَ لِلْمُـرْتَضَى رَبِّ آلـذَّكَـا عُمَـرُ   مَقَـالَـةً قَـالَ قَبْـلاً مَـا يُضَـاهِيْهَـا

أَرَادَكَ آلْـحَـقُّ لٰـكِـنَّ آلْأَنَـامَ أَبَـتْ   تِلْكَ آلْإِرَادَةَ نَـادَى آلْمُـرْتَضَى إِيْهَـا

خَفِّضْ عَلَيْكَ أَبَا حَفْصٍ بِحَقِّكَ مِنْ   هُنَـا وَمِنْ هٰهُنَـا آلْأَقْـوَالُ تُلْقِيْهَـا

فَـإِنَّمَا كَـانَ يَوْمُ آلْفَصْـلِ عِنْدِيَ مَيْـ   ـقَـاتَـاً وَأَحْـوَالُـهُ أَدْرِيْ خَـوَافِيْهَـا

فَـدَقَّ كَفَّـاً بِكَفٍّ سَـاهِيَـاً عُمَـرُ   بِنَـظْرَةٍ لِلثَّـرَى قَـدْ رَاحَ مُلْقِيْـهَـا

وَسَـارَ تَـتْبَعُـهُ أَصْحَـابُـهُ وَعَلِـ   ـيٌّ عَـادَ لِلْخَلْوَةِ آلْمَحْمُـوْدُ رَاضِيْهَا

وَتِلْكَ مَـوْقَعَـةٌ مَـا بَيْنَ حَيْـدَرَةٍ   وَبَيْنَـهُ مَـا خَلَتْ مِمَّـا يُـدَانِيْهَـا

كَـذَاكَ كَـانَ عَـلِيٌّ وَحْـدَهُ يَـتَصَـ   ـدَّى لِلْخَلِيْفَـةِ تَـذْكِيْـرَاً وَتَنْبِيْهَـا

وَهْـوَ آلَّـذِي دَوَّنَ آلتَّـارِيْخُ شِـدَّتَـهُ   وَقَالَ : كَانَتْ وُجُوْهُ آلْعُرْبِ تَتْقِيْهَا

فَكَانَتِ آلنَّاسُ تَخْشَاهُ وَتَرْهَبُ صَخْـ   ـبَـةً لَـهُ كَـانَ لَا يَنْفَـكُّ سَـاخِيْهَـا

وَقَـدْ دَعَـا حَـامِـلاً يَـوْمَـاً لِحَضْـرَتِـهِ   يَبْغِيْ آلشَّهَـادَةَ مِنْهَـا كَيْ تُـؤَدِّيْهَـا

فَـأَجْهَضَتْ فَـرَقَـاً مِنْـهُ وَأَنْـزَلَتِ آلْـ   ـجَنِيْنَ خَـوْفَـاً فَنَـادَى مَنْ يُنَحِّيْهَـا

وَسَـارَ مُسْتَفْتِيَاً جَمْـعَ آلصَّحَابَـةِ فِيْ   جِنَـايَـةٍ قَـالَ عَمْـدَاً لَسْتُ جَـانِيْهَـا

فَأَجْمَعَتْ وَقَضَتْ أَنْ لَا قَصَاصَ عَلَيْـ   ـهِ إِنَّـهُ لِـرِعَـايَـاهُ مُـرَبِّـيْـهَـا

إِلَّا آلْـعَـلِيُّ فَـنَـادَاهُ بِـلَا رَهَـبٍ   إِنَّ آلصَّحَـابَـةَ قَـدْ سَـاءَتْ فَتَـاوِيْهَا

فَـإِنْ تُـرَاقِبُـكَ فِيْهَـا فَهْيَ خَـادِعَـةٌ   أَوْ كَـانَ ذَا عِلْمُهَـا إِنِّيْ مُخَـطِّيْهَـا

عَلَيْـكَ تَحْرِيْـرُ عَبْـدٍ كَيْ تُكَفِّـرَ عَنْ   جِنَـايَـةٍ أَنْتَ عِنْـدَ آلشَّـرْعِ آتِيْهَـا

فَلَمْ يَسَـعْ عُمَراً إِلَّا آلْخُضُـوْعُ لِأَحْـ   ـكَامِ آلشَّرِيْعَةِ نَادَى : أَنْتَ قَاضِيْهَا

وَقَـالَ لَـوْلَا عَلِيٌّ مَـا نَجَـا عُمَـرُ   مِنَ آلْهَـلَاكِ وَأَتْلَى آلْقَـوْلَ تَـأْوِيْهَـا

نَعَمْ فَـإِنَّ عَلِيّـاً فِيْ ٱلشَّـرِيْعَـةِ لَا يَبْغِيْ سِوَى مُرْتَضَى ٱلرَّحْمٰنِ مُوْجِيْهَا
وَلَا يَهَـابُ عَـظِيْمَـاً فِيْ أَوَامِـرِهَـا وَلَا يُمَـارِيْ وَجِيْهَـاً فِيْ نَـوَاهِيْهَـا
وَكَـانَ يَعْـرِفُ قَـدْرَ ٱلْمُـرْتَضَى عُمَـرٌ مُنَـوِّهَـاً بِـآسْمِـهِ فِيْ ٱلْخَلْقِ تَنْـوِيْهَـا
وَهْـوَ ٱلْمُشِيْرُ عَلَيْـهِ فِيْ مُعَـالَجَـةِ ٱلْـ ـصِّعَابِ مِنْ بَعْدِ أَنْ تُعْيِي مُشِيْـرِيْهَا
وَكَـانَ مُـتَّـبِـعَـاً آرَاءَهُ بِـحُـرُوْ بِ ٱلْفُرْسِ وَٱلرُّوْمِ لَمَّا رَاحَ صَالِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ عُمَـرٌ يَـوْمَـاً لِيَنْكُـرَ آ لَاءَ ٱلْعَلِيِّ ٱلَّتِيْ ٱلتَّـارِيْـخُ يُنْشِيْهَـا

أمير المؤمنين والتاريخ الهجري

وَلَمْ تَكُ ٱلنَّاسُ فِيْ ٱلْإِسْـلَامِ ذَاكِرَةً تَـارِيْـخَ أَعْمَـالِهَـا إِمَّـا تُسَمِّيْهَـا[1]
وَلَا رَسَـائِلُهَـا كَـانَتْ تُـؤَرَّخُ كَيْ يَـدْرِيْ لَهَـا زَمَنَ ٱلْإِرْسَـالِ قَـارِيْهَـا

---

(١) لم يهتم المسلمـون بأمـر التاريـخ حتى عهد عمـر بن الخطاب فكـانت كتب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وكتب أبي بكر وعمـر نفسه كمـا كانت كتب عمّـال الدولـة الإسلاميـة وكتب المسلمين بعضهم لبعض غفلاً من تاريخ كتابتها ومازال الحـال كذلـك إلى السنة السابعة للهجـرة وكان النـاس إذا جرى بينهم ذكـر ولادة أحدهم أو مـوقعة من مـواقعهم جعلوا تاريخها من عام الفيل الذي هو عـام مولـد رسول الله أو من حـرب الفجار أو من بناء الكعبة إلى مثـل ذلك من الحـوادث التي كانت مشهـورة بينهم . وأول من انتبه إلى وجوب إيجاد تاريخ ثابت يرجعون إليه في تاريخ كتبهم ووقائعهم هو أبو موسى الأشعري عامل عمر على البصرة فإنّه كتب إلى عمر يقول « تأتينا كتبك وليس لها تاريخ نعرف منه موعد صدورها فيشتبه علينا قديمها من جديدها وناسخها من منسوخهـا فهلّا اتّخـذت لها تاريخاً يزيل عنّا الإشكال وتنتظم منه الأحوال ؟؟ » فلما انتهى هذا الكتاب إلى عمر انتبه لسدّ هذه الثلمة وجمع أعيان الصحابة والأنصار وعرض عليهم طلب أبو مـوسى وسألهم أيَّ تاريخ نتبع ؟ فقال قوم منهم ان الأولى أن نتبع تاريخ الفـرس وقال آخـرون بل نتبـع تـاريخ اليهـود وقال غيـرهم بل الأولى بنـا أن نتبع تـاريخ الفيـل الذي كنـا نستعمله في جـاهليتنـا فـاعتـرضهم أميـر المؤمنين عليه السلام وقـال : « بـل نتبـع تـاريـخ هجـرتنـا مـع =

كَذَاكَ كَانَتْ تَحَارِيْرُ ٱلْخَلِيْفَةِ مَا ٱلْـــعُمَّـالُ أَوَّلُهَـا تَـدْرِي وَثَـانِيْهَـا

وَقَـدْ يُحَـرِّرُ فِيْ أُخْـرَى رَسَـائِلِهِ   مَـا فِيْـهِ يَنْسَـخُ أَوْلاَهَـا وَيُلْغِيْهَـا

كَـانَتْ تَحَـارُ بِهَـا ٱلْعُمَّـالُ جَـاهِلَةً   أَيَّ ٱلْأَوَامِـرِ يَبْغِيْهَـا لِتُجْـرِيْـهَـا

وَٱلْأَشْعَـرِيُّ بِـذَا أَفْضَى إِلَى عُمَـرٍ   وَقَـالَ كُتْبُـكَ تَتْـرَى حَـارَ تَـالِيْهَا

وَمَـا لَـهَـا زَمَـنٌ فِـيْـهِ تُـؤَرِّخُـهَـا   كَـيْمَـا نُـلِمُّ بِبَـادِيْـهَـا وَتَـالِيْـهَـا

فَـذَاكَـرَ ٱلْقَـوْمَ فِيْ تَـارِيْخِـهِ عُمَـرٌ   يُـرِيْدُ فَتْـوَى حَصِيْفُ ٱلرَّأْيِ يَفْتِيْهَـا

فَكَـانَ مِنْهَـا ٱلَّتِيْ رَامَتْ مُتَـابَعَـةَ ٱلْأَ م عْجَـامِ   قَـالَتْ بِـهِ إِنَّـا نُمَـاشِيْهَـا

وَمَنْ أَشَـارَتْ بِتَـارِيْـخِ ٱلْيَهُـوْدِ وَقَـا   لَتْ نَحْنُ فِيْــهِ خَلِيْقٌ أَنْ نُجَـارِيْهَـا

= رسول الله ﷺ فإنّه بدء مجد ديننا الحنيف » فوافق عمر والحاضرون على قوله وحسبوا السنين التي مرّت عليهم منذ هجرتهم إلى ذلك العهد فإذا هي سبعة عشر حولاً فدعوا عامهم العام ١٧ للهجرة . ثم تباحثوا في الشهر الذي تبتدىء منه سنتهم الهجرية فقال بعضهم رمضان لأنّه أكرم الشهور عند الله وفيه نزل القرآن وقال آخرون بل المحرم أولى أن يكون بدء السنة الهجرية إذ فيه ينصرف الناس من حجّهم فخليق أن يحسبوه بدء سنتهم فاتّفقوا على ذلك . ومن ذلك العهد أخذ المسلمون يؤرخون كتبهم ووقائعهم الهامة على الحساب الهجري . وكان العرب منذ جاهليتهم يتمشون على القمر ويحسبون شهورهم على سيره فتبدأ عند إهلاله وتنتهي عند تمام محاقه فظلوا كذلك بعد الإسلام إلى يوم الناس هذا .

أمّا عام الفيل الذي كانت قريش تؤرخ منه حوادثها فقصته أن أبرهة ملك الحبشة قدم الحجاز ونزل مكة ومعه خلق كثير وكانوا يركبون الفيلة فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل فأهلكتهم وهكذا بمعجزة سماوية سلّم الله بيته من ذلك الغازي الذي كان قادماً لتهديمه وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الحادث في قرآنه الشريف . ولما هلك صاحب الفيل وقومه عزّت قريش وهابتهم الناس كلهم . وفي عام الفيل هذا ولد المصطفى ﷺ على قول أكثر المؤرخين .

وَمَنْ أَشَـارَتْ بِـامِ ٱلْفِيـلِ قَـائِلَةً قُـرَيْشُ ٱتَّخَـذَتْـهُ قَبْـلُ هَـادِيْهَـا
فَـصَـاحَ حَـيْـدَرَةٌ كَـلَّا وَأُمَّـتُـنَـا لَهَـا ٱلْمَزَايَـا ٱلَّتِي ٱلتَّـارِيْـخُ يُسْنِيْهَـا
وَهُجْـرَةُ ٱلْمُصْطَفَى مِنْهَـا مَفَـاخِـرُنَـا تَبْـدَا فَحَقٌّ لَنَـا تَـدْوِيْنُهَـا فِـيْهَـا
فَقَالَتِ ٱلنَّاسُ : نِعْمَ ٱلرَّأْيُ رَأْيُكَ يَا عَلِيُّ زَادَكَ رَبُّ ٱلْعَـرْشِ تَجْـوِيْهَـا
وَإِنَّهَـا مِنْ حَكِيْمٍ حِكْـمَـةٌ بَلَغَـتْ مِنَ ٱلْمَقَـاصِدِ وَٱلْأَغْـرَاضِ عَـالِيْهَـا
وَسَارَتِ ٱلنَّاسُ مِنْ ذَاكَ ٱلزَّمَانِ عَلَى تَـارِيْـخِ هُجْـرَتِهَـا تُحْصِي مَـآتِيْهَـا

أمير المؤمنين في خلافة عثمان

وَبَيْنَمَـا عُمَـرٌ يَـوْمَـاً بِمَسْجِـدِ طَـــهَ لِلصَّـلَاةِ وَمَـا صَلَّى مُصَلِّيْهَـا[1]
إِذْ خَـرَّ مُلْقَىً وَمَـطْعُـوْنَـاً بِسِتِّ جِـرَا حَـاتٍ يُهَـدِّدُهُ بِـٱلْمَـوْتِ دَامِيْهَـا

---

(١) بلغ ملك المسلمين من السعة ما شاء الله أن يبلغ في أقرب ما يكون من الزمن على عهد عمر بن الخطاب وذلك بفضل الله وعونه وإخلاص المسلمين في دينهم وعدلهم في فتحهم وحكمهم حتى دانت لهم الشام والحجاز وفارس وعجزت عن لقائهم دولتا الروم والفرس وجيء إلى المدينة المنورة بغلمان من الفرس كانوا سبياً فاستعبدوهم منهم فيروز الملقب بأبي لؤلؤة وكان هذا غلاماً للمغيرة بن شعبة وكان يبيح له العمل لقاء درهمين في كلّ يوم يدفعهما خراجاً له فجاء أبو لؤلؤة هذا يوماً إلى عمر وهو يطوف في أسواق المدينة وقال له أعنّي على المغيرة بن شعبة فإنّ عليَّ خراجاً كثيراً قال : وكم خراجك : قال درهمان في كل يوم قال عمر : وما هي صناعتك ؟ قال نجار ونقاش وحدّاد قال : فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال وقد بلغني عنك أنّك لو أردت لعملت رحاً تطحن بالريح قال : نعم قال : فاعمل لي رحاً قال : إن عشت لأعملن لك رحاً يتحدّث بها من في المشرق والمغرب وانصرف فقال عمر : لقد توعدني العبد .

جرى هذا الحديث بين عمر وأبي لؤلؤة قبل أربعة أيام من مقتله فما اهتمّ عمر بتهديد الغلام ولا احتاط لنفسه منه وقيل إن كعب الأحبار اليهودي جاء عمراً وأنبأه بأنّه

وَكَـانَ طَـاعِنَــهُ مَـوْلَى ٱلْمَغِيْـرَةِ إِثْـــ ـئَـارَاً لِأُمَّــتِــهِ إِذْ رَاحَ غَــازِيْــهَــا

= سيموت بعد ثلاثة أيام على ما يتـرائى له في التـوراة في اليوم التـالي لمحادثتـه مع أبي لؤلؤة وأنّه كرر عليه ذلك في اليومين السابقين لمقتله وإني لأستبعد هذه الرواية لأنّ عمر على ما كان عليه من الشدّة والهيبة لأبعد من أن يتحمل من كعب الأحبار إنذاره بالموت اليوم بعد اليوم وهو لا يشكو ألماً كما أنّ أولاد عمر لأبعد من أن يتخذوا كعب الأحبار كشريك مع الـذين تـآمروا على عمـر أو عـارف بتلك المؤامـرة التي أفضت إلى قتله فيقتلونه مع من قتلوا ممن اشتبهوا بهم .

وظاهر السبب الـذي حمل أبـا لؤلؤة الفارسي على تهـديد عمـر ثمَّ الفتك بـه هو تظلمه إليه من ثقل الخراج الذي كان يدفعـه لسيده المغيـرة وردّ عمر لـه بقولـه إن ذلك الخراج ليس بكثير ولو كان أبو لؤلؤة ناقماً من تحمل ذلك الخراج حقيقةً لكان الأولى أن يقتـل المغيرة الـذي يتقاضـاه منه لأنّـه عدوّه المبـاشر ومستعبـده لا من عمر وهـو حـاكم المسلمين الأكبر وإمامهم الأعظم ولا بدَّ أن يكون هنالك دافع له على الجريمة غير دافع الانتقام من سبب بسيط كهذا .

على ان قـد شاع بين المسلمين بعـد أن جُرح عمـر ان الجريمـة كانت على أثـر مؤامرة إذ روى عبد الرحمن بن أبي بكر غداة طعن عمر بـأنّه رأى جفينـة والهرمـزان وأبا لؤلؤة يتهامسون فلما وقعت عيونهم عليه اضطربوا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه فلما روى عبد الرحمن هذه الرواية جيء له بالخنجر الـذي قتل بـه عمر فقـال هو نفس الخنجر الذي سقط من أيدي أولئك المتآمرين وأنت تعلم أنّ الثلاثة الـذين ذكرهم عبـد الرحمن بن أبي بكـر هم من الفرس فـإذا صحّت الـروايـة وهي صحيحـة بشـاهـد الخنجر يكون أولئك الثلاثة قد تآمروا على قتل عمر وان المنفذ لهاتيك الجريمة كان أبو لؤلؤة فما الداعي لهذه الجريمة يا ترى ؟؟ .

إنّ المسلمين على شهادة عبد الرحمن بن أبي بكر اتهمـوا هؤلاء الثلاثـة غير انهم لم يتمهلوا لاستطلاع طلع سرّهم في جريمتهم ففي حال طعن عمر في المسجد تبـع أبا لؤلؤة رجل من التيم فقتله وأخذ الخنجر من يده وبعد وفاة عمـر أسرع ابنـه عبيد الله إلى الهـرمزان وجفنـة وقتلهما وهكـذا قتل الثـلاثة من غيـر أن يسألـوا عن جريمتهم والسبب الذي دفعهم إليها ولذلك بقيت سرّاً في ضمير الأيام . =

لِأَنَّـهُ فَـارِسِـيٌّ شَـامَ دَوْلَـتَـهُ   قَدْ جَاسَتِ ٱلْعُرْبُ دَانِيْهَا وَقَـاصِيْهَا

= والذي أراه هو أنّ الاثنين من هؤلاء الثلاثة وهما أبو لؤلؤة والهرمزان مجوسيان من أهل فارس وثالثهم جفنة كان نصرانياً من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبي وقاص إلى المدينة ليعلم بها الناس الكتابة فلا يبعد أن يكون هؤلاء الناس قد ثارت ثائرتهم على عمر فتآمروا على قتله لأنّه رئيس الأمّة العربية التي دوخت قومهم الفرس وأخضعتهم لسلطانها فتكون الجريمة سياسية محضاً .

ومما يذكر عن هذه الجريمة أنّ صهيب الذي كان وقتئذٍ نائب الخليفة المؤقت قبض على عبيد الله بن عمر قاتل الهرمزان وجفنة وسجنه لأنّ إقدامه على قتلهما لمجرد رؤية عبد الرحمن بن أبي بكر أنّهما يسارّان أبا لؤلؤة ومن غير إذن وليّ الأمر افتئات على الشرع ما كان عدل المسلمين يرضاه حتى ولو كان القتيل خليفتهم . فلما بويع عثمان بالخلافة جلس في المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر وقال لمن حوله من أكابر المهاجرين والأنصار أشيروا في هذا الذي قتل في الإسلام ما فتق فاختلف الناس فيما بينهم وذهب الكثيرون منهم أن يطلق سراحه بحجة أنّه منتقم لأبيه إلّا سيدنا علي عليه السلام فقد كان لا يعرف في شرع الله كبيراً ولا صغيراً ولا عربياً ولا أعجمياً فقال : إنّه قاتل وأرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين : قُتل عمر بالأمس ويقتل اليوم ابنه وقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين إنّ الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان إنّما كان هذا الحدث ولا سلطان لك فقال عثمان : أنا وليّ المسلمين وقد جعلتها ديةً واحتملتها في مالي وهكذا دفع الدية عثمان وأطلق سبيل عبيد الله بن عمر . وأنت ترى في هذه القضية التي عرضت على عثمان في بدء حكمه أنّ علياً عليه السلام كان يرى أن تظلّ للشرع هيبته في النفوس بتنفيذه على كبار المسلمين قبل صغارهم ليلزم كلُّ رجل منهم حدَّه . وان المهاجرين ما استطاعوا ان يعارضوه فيما رأى إلّا أنهم أكبروا ان يقتل الخليفة في يوم وأن يقتل أحد أولاده في اليوم التالي فكان دفاعهم عن القاتل من قبيل الشفقة عليه وأمّا فتوى عمرو بن العاص فلم تكن صحيحة لأنّ السلطان الحقيقي على الناس ليس لشخص الحاكم بل للشريعة التي قام للسهر على تنفيذها فإذا مات الحاكم وقتل لا تموت الشريعة بل تظلُّ حيةً وعلى الحاكم الجديد ان ينفذ حدَّها على المجرمين ولو كان إجرامهم سابقاً لعهد حكمه وإلّا للزم كلَّ حاكم أن يصدر عفواً عاماً عن جميع المجرمين الذين أجرموا قبل ولايته ولم يُفصل في أمرهم إذا صحت فتوى=

= ابن العاص وعندي ان عثمان لم يفته فساد ما ذهب إليه عمرو بن العاص وإنّما استعمل حقّه كوليّ المسلمين بالعفو عن القاتل والإكتفاء بالدية التي دفعها من جيبه مؤيداً بذلك قول سيدنا عليّ بأنّ الشرع يعتبر عبيد الله قاتلاً وجب عليه الحدّ ولكنه راعى الظروف التي حدثت فيها الجريمة وموقفه في بدء عهده بالخلافة .

أمّا حادثة القتل فقد كانت هكذا : فإنَّ عمراً بن الخطاب خرج إلى الصلاة في المسجد النبوي صباح الأحد لست ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ٢٤ للهجرة وقد استوت الناس صفوفاً للصلاة حتى إذا ما تقدم الناس ليؤمهم وسجد ابتدره أبو لؤلؤة من ورائه بخنجر مسموم طعنه به ست طعنات كانت الثلاث الأولى في ظهره فالتفت ليرى طاعنه فعاجله بثلاث مثلها في صدره وكانت الطعنة الأخيرة في سرَّته التي فتكت به وقضت عليه وجرح أبو لؤلؤة معه بعض من كانوا في القرب منه .

وعندما جرح عمر أمر عبد الرحمن بن عوف وكان بجانبه أن يصلّي بالناس واحتمله ابنه عبد الله وبعض المسلمين إلى داره وجيء له بطبيب يداوي جروحه فلما كشف عليها قال يا أمير المؤمنين وصّ ومال إلى من حوله وقال إنّه لا يشفى فجاءَه بعض المقربين منه وطلبوا منه أن يوصي بالخلافة أسوةً بأبي بكر فتردّد وقال : لو كان أبو عبيدة حيّاً استخلفته لأنّ رسول الله كان يُسميه « أمين هذه الأمة » فقال بعضهم ألا تستخلف ابنك عبد الله ؟ قال عمر قاتلك الله والله ما أردت هذا كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته ألا أرب لنا في أموركم ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهلي بشيء إن كان خيراً فقد أصبنا منه وإن كان شرّاً فشرعنا إلى عمر فحسب آل عمر أن يحاسب رجل واحد ويسأل عن أمر أمّة محمد وقد كنت أريد أن أولي رجلاً أمركم هو أحراكم بأن يحملكم على الحقّ وأعني به عليّاً ثمّ رأيت أن لا أتحمل أمركم حيّاً وميتاً عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ أنهم من أهل الجنة ومات وهو عنهم راضٍ وهم علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص خالا رسول الله والزبير بن العوام حواريه وابن عمّته وطلحة الخير بن عبيد الله فيختاروا منهم رجلاً فإذا اتفقوا على اختيار أحدهم والياً فأوصه بالعرب فهم أس الخلافة وبالأنصار أن يحسن لمحسنهم ويعفو عن مسيئهم وأحسنوا مؤازرته وأعينوه .

ثمّ إنّ عمراً دعا خمسة من أشار إليهم لأنّ سادسهم وهو طلحة كان غائباً فلما=

= اجتمعوا لديه قال لهم : إنّي نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلّا فيكم وقد قبض رسول الله وهو عنكم راضٍ وإنّي لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس وإنّي لممهلكم ثلاثة أيام بعد دفني تختارون فيها واحداً منكم وانظروا طلحة فهو آتيكم . ثمَّ قال لأبي طلحة المقداد بن الأسود إذا وضعتوني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط في بيت واحد ولا تدع أحداً يختلط بهم حتى يختاروا رجلاً منهم .

ثمَّ وجه عمر بصره إلى صهيب وقال له صلِّ بالناس ثلاثة أيام وادخل علياً وعثمان وسعد وابن عوف والزبير وطلحة إذا حضر وأحضر معهم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحداً فاشدخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما فإن انقسموا نصفين فرضي ثلاثة رجلاً ورضي الثلاثة الآخرون رجلاً فحكم ولدي عبد الله بن عمر .

ثمَّ استدعى عمر ولده عبد الله وقال له أقم مع الرهط وارقب شوراهم وأعنهم على الاتفاق على رجل منهم وساعد صهيب على قتل واحد أو اثنين منهم إن اختلفا عن الجماعة وإن انقسموا قسمين فكن مع القسم الذي فيه عبد الرحمن بن عوف. واعلم أن ليس لك من الأمر شيء ولا أرضى أن تدخل في هذا الأمر .

وتوفي عمر ليلة الأربعاء لثلاث ليالٍ بقين من ذي الحجة ودفن في سحر الأربعاء بجوار المصطفى وأبي بكر وكان وهو على فراش الموت قد أرسل واستأذن عائشة بأن يدفن مع صاحبيه في تلك الحجرة التي كانت حجرتها على عهد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فأذنت . وكانت مدة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ هجرية إلى ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هجرية وكان عمره حين قتل ٦٣ سنة وهو العمر الذي عاشه المصطفى وأبو بكر .

أمّا المملكة الإسلامية التي مات عنها عمر فقد كانت تقسم إلى عشر أمارات وهي : أمارة مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي . وأمارة الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفي . وأمارة صنعاء وأميرها يعلى بن منية حليف بني نوفل . وأمارة =

فَهَـالَـهُ مَـا رَأَى مِـنْ ذُلِّ أُمَّـتِـهِ وَهَمَّ يَبْغِيْ ٱنْتِقَـامَـاً مِنْ مُـذِلِّيْهَـا

= نجد وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة وأمارة البحرين وما يتبعها وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي « وهذه الأمارات الخمس في الجزيرة العربية » وأمارة الكوفة وما يتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفي . وأمارة البصرة ونواحيها وأميرها أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري « وكلتا الأمارتان في العراق » وأمارة دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان . وأمارة حمص وأميرها عمير بن سعد « وكلتاهما في سوريا » وأمارة مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمي . وكانت عاصمة الخلافة المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام وكان الخليفة يقيم فيها وإليه مرجع الأمور كلّها فهو الذي يولّي ويعزل ويصدر الأحكام ويسير الجيوش وإليه ينتهي الخراج .

وعندما دفن عمر جمع أبو طلحة المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة عدا طلحة الذي كان غائباً وأدخل معهم عبد الله بن عمر ووقف على حراستهم فكثر بينهم اللجاج واستحال الاتفاق فتهددهم المقداد ان توانوا عن البتّ في الأمر في ثلاثة أيام كما أوصى عمر ولحلّ الإشكال تقدم عبد الرحمن بن عوف وخلع نفسه من كلّ حقٍّ بالخلافة وطلب أن يحكموه فكان أول راضٍ بالتحكيم عثمان وتبعه الآخرون إلّا سيدنا علي عليه السلام فقد ظلّ ساكتاً فقال له ابن عوف ما تقول يا أبا الحسن ؟ قال : أعطني ميثاقاً لتؤثرنّ الحقَّ ولا تتبع الهوى ولا تخصّ ذا رحم ولا تألوا الأمة فأعطاه ميثاقه : فرضي بأن يكون في الأمر حكماً . وحينئذٍ خرج والأمر في عنقه إلى الناس يتلمس رغبتهم فوجدهم متحيزين لعثمان فعاد إلى بيت المسور فخلا بالزبير وسعد فوجد ضلعهما مع علي فقال لا يقوم بعد أبي بكر وعمر أحد يرضى عنه الناس . ثمّ انصرف إلى علي فناجاه طويلاً ولا يعلم أحد ما دار بينهما كل ذلك كان في سواد الليل حتى إذا ما آذن الفجر خرجوا إلى الصلاة في المسجد وبعد الصلاة دعا عبد الرحمن بن عوف أكابر المهاجرين والأنصار والأمراء ووجه خطابه إلى عليّ قائلاً : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنّة رسوله وسنّة الخليفتين من بعده . فغضب أمير المؤمنين وقال بل أعمل بسنة الله ورسوله ومبلغ علمي وطاقتي . فأعرض عنه ابن عوف إلى عثمان وقال له ما قال لعلي فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة وتأثر سيدنا علي عليه السلام وسار قليلاً وهو يقول : « سيبلغ الكتاب أجله » ثمّ رجع يشقّ الناس وبايع عثمان وتقدم الناس فبايعوه وكانت بيعته يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ فاستقبل بخلافته =

= المحرم سنة ٢٤ هـ .

لا جرم أنَّ بيعة عثمان كانت بتأثير بني أمية وان عبد الرحمن بن عوف ما اشترط على سيدنا عليّ أن يعمل بسنة الخليفتين إلاّ وهو يعلم أنّه لا يفعل ولكن أراد أن يعرض الأمر على علي وهو لا يجهل أنّ الأمر له ولكن كما قال عليه السلام : « سيبلغ الكتاب أجله » .

هذا وان المرتضى عليه السلام عندما سار لمبايعة عثمان بن عفان بالخلافة قال لأصحاب الشورى « لقد علمتم أنّي أحقُّ بها من غيري ، ووالله لأسلمنَّ ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور إلاّ عليَّ خاصة ، التماساً لأجر ذلك وفضله ، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه » اهـ وفي هذه الكلمات الجامعة المختصرة أبان ما في نفسه الشريفة من الزهد والورع وإيثار مصلحة المسلمين على مصلحة نفسه فحقٌّ له في ذلك حمد الحامدين وشكر الشاكرين إلى يوم الدين ولا سيما على قوله أن تسليمه عليه السلام بما أرادوا منحصر ببقاء الظلم مقتصراً عليه لا يتجاوزه إلى سواه من المسلمين فهل من فضل فوق فضل أبو الحسنين الذي تناسى حقّه ولم ينس حقوق المسلمين ؟؟ .

« العشرة الذين مات رسول الله وهو راضٍ عنهم »

كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشرة من أصحابه اختصهم لمشورته وتدبير أمر أمّته ومات وهو عنهم راضٍ وكان هؤلاء أعوانه وحواريوه وعيبة سرّه وموضع ثقته وهم زعماء الأمّة بغير جدال أولهم وأفضلهم بالإجماع سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام الذي آخاه دون سائر المسلمين وقال : من كنت مولاه كان عليّ مولاه وقال له : إنّك مني كهارون من موسى إلاّ النبوّة . وأبو بكر بن أبي قحافة . وعمر بن الخطاب . وعثمان بن عفان . وعبد الرحمن بن عوف . وأبو عبيدة بن الجرّاح . وخالد بن الوليد . وطلحة بن عبيد الله . والزبير بن العوّام . وسعد بن أبي وقاص . ويخلق بنا بعد أن حصر عمر عند موته الخلافة في الستة الذين بقوا منهم دون سائر المسلمين حتى أولاده اعترافاً منه بميزتهم أن ننشر تراجمهم تتميماً لمباحث علويتنا المباركة هذه التي نرمي إلى تلخيص تاريخ صدر الإسلام في حواشيها وتراجم نوابغ الرجال الذين ظهروا في ذلك العهد الأنور . =

= ولقد سبق لنا نشر تراجم أبي بكر وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد . وسنأتي على تراجم عثمان بن عفّان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في مواضعها من هذه القصيدة المباركة كلٌّ في موضعه وننشر هنا تراجم أبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص لأنّ ليس لنا رجعة إليهم فيما بعد فنقول :

« ترجمة أبي عبيدة بن الجراح »

هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك القرشي الصحابي يلتقي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فهر . وأمّه أمّ غنيمة بنت جابر . أسلم في بدء الدعوة فهو من المسلمين السابقين وكان بطلاً مجرباً خبيراً مجلياً وكان يسميه المصطفى « أمين الأمّة » وكان أبو عبيدة كثير الشغف برسول الله يداوم صحبته ولا يريد مفارقته حتى أنّ الرسول في السنة الثانية للهجرة أراد أن يرسله في سريّة للغزو فتجهّز ولما دنا موعد المسير أخذ يبكي صبابة إلى المصطفى فأشفق على هذه العواطف الشريفة التي كان يبديها نحوه وردّه وبعث مكانه عبد الله بن جحش . ثم كانت لأبي عبيدة سرية إلى ذي القصة في السنة السادسة للهجرة في أربعين رجلاً فغزوا وغنموا . وفي غزوة السلاسل كان أبو عبيدة في الذين أرسلهم المصطفى إلى عمرو بن العاص يشجعونه قبل وقوع الغزوة لأنّه خاف الإقدام في أرض جذام في مسيره ليدعو إلى الإسلام . وشهد أبو عبيدة غزوة بدر وقتل أباه فيها بيده وكان في صفوف كفّار قريش . وشهد بعدها كل المشاهد النبوية .

وفي خلافة أبي بكر توجّه أبو عبيدة لفتح الشام وكان قائداً لجيوش المسلمين السائرين لفتح حمص وإذ تعذّر عليه فتح الشام وحده أمدّه أبو بكر بخالد بن الوليد على ما تقدم في ترجمة خالد . واشتهر في أثناء فتوح الشام عدل أبي عبيدة وحلمه ورعايته لأهل البلاد المغزوّة خلافاً لخالد الذي اشتهر بشدّته فلما حصر المسلمون دمشق تقدم أهاليها من أبي عبيدة بالتسليم فدخلها صلحاً ودخلها خالد من الطرف الثاني عنوة واختلفا فيما بينهما على ذلك اختلافاً كاد يقضي على النزاع مع أنّ خالداً كان يومئذٍ تابعاً لأبي عبيدة وليس له صفة رسمية في جيش المسلمين لعزل عمرٍ له على ما سبقت الإشارة ولم ينته الإشكال بينهما إلاّ بطلب أبي عبيدة أن يحكم عمراً في الاختلاف =

= الذي حدث بينهما . وفتوحات الشام كلها كانت بقيادة أبي عبيدة أو تحت إشرافه وكان خالد معاوناً له وأظهر أبو عبيدة من حسن السياسة مع السوريين ما حببهم بالتسليم لحكم المسلمين بحيث كانت المواقع التي جرت تجري مع جيش الروم وحده لا يساعدهم فيها مساعد من الأهالي وذلك لثقتهم بالعرب الفاتحين وعدل أبي عبيدة هذا فضل كبير لهذا الصحابي العظيم الذي يدعى بحق من مشاهير رجال السياسية والحرب أمّا خالد فكان يفضله في البراعة الحربية ولكن كان دونه بمراحل بحسن السياسة لذلك نقل عن عمر عند موته أنّه قال : لو كان أبو عبيدة حيّاً لما رجحت غيره للخلافة .

وتوفي أبو عبيدة بالطاعون في غور بيسان عند قرية تسمى عمياً وقبره هناك لا يزال قائماً إلى الآن وهو موضع احترام الناس وكانت وفاته سنة ١٨ للهجرة عن ٥٨ سنة قضاها بالجهاد في سبيل الإسلام وإعلاء كلمته واسمه سيظلُّ خالداً في ربوع الشام معروفاً بالثناء على مروءته وفضله وحلمه وعطفه ومكارم أخلاقه إلى يوم يبعثون .

« ترجمة عبد الرحمن بن عوف »

هو عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري يرجع بنسبه إلى زهرة أخي قصي ولدا مرة بن كلاب ويجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمرة وكان إسلامه بواسطة أبي بكر فكان من المسلمين الأولين السابقين وهاجر الهجرتين هجرة الحبشة وهجرة المدينة وشهد بدراً وأحد والمشاهد كلها وفي يوم أحد جرح ٢١ جرحاً وسلّمه الله على أنّ بعض النبل أصابت رجله فكان يعرج وسقطت ثنيتاه فكان أهتم . وكان رسول الله يحبّه كثيراً لما يشاهد من غيره ومروءته وبعثه بسرية إلى دومة الجندل على بني كلاب وقبل ذهابه عممه بيده الشريفة وسدلها بين كتفيه وقال له : إن فتح الله عليك فتزوج ابنة شريفهم فسار متوكلاً على الله وانتصر وتزوج تماضر بنت الأجنع ابن ثعلبة أميرهم . وفي غزوة تبوك ميّز رسول الله ابن عوف على سائر أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وأمره أن يصلّي في الناس وأدركه مرةً وهو يصلّي بالناس فصلّى خلفه وما اتّخذ الناس صلاته هذه بأمر المصطفى حجةً على حقّه بإمامة المسلمين ولكن حسبوها عطفاً من المصطفى عليه وتشريفاً لمقامه .

وعندما توفي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لزم الحياد في كل ما جرى في السقيفة وبايع مع المبايعين ولم ينبث ببنت شفة وانصرف من ذلك اليوم إلى تجارته في المدينة وكان =

فَلَمْ يُفِـدْهُ ٱلتَّـدَاوِيْ وَٱلـطَّبِيْبُ لَقَـدْ   نَادَى : جُرُوْحُكَ لَيْسَ ٱلطِّبُّ مُبْرِيْهَا

= موفقاً فيها ميسوراً ولم يـدخل في حـرب ولا في عمل من أعمـال المسلمين إلّا من خير يسديه أو نصيحة يؤدّيها وكذلك فعـل عندمـا أوصى أبو بكـر بالخـلافة لعمـر فكان على رأس المبايعين وكان عمر يحبّه ويحترمه كثيراً ويثق به ثقةً لا تحدّ يدلك على ذلك قولـه لولده عبد الله وهو يوصي قبيل وفاته إذا انقسم هؤلاء الستة فكان ثلاثة في جانب وثلاثـة في جـانب فكن في الجانب الـذي فيه ابن عـوف وما ذلـك إلّا لاعتقـاد عمـر بعـدالتـه ونزاهته .

وكان عبد الرحمن بن عوف زاهـداً بعمالات الـدولة حتى بـالخلافـة نفسها يـدلك على ذلك تنازله عن حقوقه فيها بالشورى التي عينها عمر لاختيـار الخليفة مـع أنّه جعله من أصحاب الحقّ فيها وكان تنازله عن حقوقه سبباً لحلّ المشكلة بالتي هي أحسن وقـد وثقت منه الصحابة وجعلته حكماً بينها . وأراد ابن عـوف بعد أن أصبـح الأمر في عنقـه أن يتثبت من رأي النـاس في الخليفة الـذي يرضـونه فخـرج إليهم وأخذ يتـطلع سـرّهم فوجد بني أمية قد لعبوا دورهم واستمالوا الناس إلى عثمان فرجع إلى أصحابه وأسرَّ إلى ابن أبي وقّاص بأنّ الناس لا يجتمعون على واحد ثمَّ خلا بسيدنا علي طويلاً قبـل بزوغ الفجر ولم يذكر أحد من المؤرخين ما دار بينهما ولكن الراجح أنّه أطلعه على مـا يجول في صدور الناس مبيناً له اضـطراره إلى مبايعـة عثمان وقـد استنتجت هذا من سكـوت سيـدنا علي أميـر المؤمنين عليه السلام عن عبد الـرحمن بن عوف فلم يقـل فيـه كلمـة لـوم لا تصريحاً ولا تلميحاً لمبايعته عثمان عند ذكر الشـورى ويكفي هذا لـلاعتقاد بنـزاهة هـذا الصحابي الكبير وطهارة ذيله من كل ما جرى .

وفي عهد عثمان انصرف عبد الرحمن بن عوف إلى تجارته فنمت نمواً عظيماً ولم يتطلع إلى وظيفة ولا عمل عملاً في دولته إلّا أنّه ما كان راضياً عمّا جرى في عهده وهـو أول من اجتـرأ عليه فقسم إبـل الصدقـة بين الناس بعـد أن وهبهـا عثمـان لبعض أولاد الحكم وكان همّه الإنفاق على المعوزين من ماله فكان يتصدّق بـالسبعمائـة راحلة وأكثر للفقراء بأحمالها وأقتابها ومما يؤثر عنه ورعه وتقواه وتواضعه .

وتـوفي عبد الـرحمن بن عوف في سنـة ٣٢ هجريـة في أواخر أيـام عثمـان وكـان سعد بن أبي وقاص ممن حملوا جنازته وسيدنا علي بن أبي طالب من مشيعيه ودفنوه في =

=البقيع وبعد دفنه قال سيدنا علي عليه السلام : « إذهب يابن عوف أدركت صفوها وسبقت كدرها » فكان قوله هذا من جملة ما يؤثر عنه من أنبائه بالغيب . وخلف ابن عوف مالاً عظيماً من ذهب ومتاع وماشية وغير ذلك وأوصى بصدقات كثيرة من بعده .

« ترجمة سعد بن أبي وقاص »

هو إسحاق بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب الزهري المكي المدني أسلم بدعوة أبي بكر وعمره ١٧ سنة وهو أول من رمى النبل في الجهاد وكان من المهاجرين الأولين وسمّاه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم « فارس الإسلام » وشهد جميع المشاهد النبوية واشترك في فتح الشام فكان على رأس الجيش الذي فتح الحيرة سنة ١٢ هجرية ثمَّ سار بجيش كبير على القادسية وفتحها . وبعد ذلك أرسله عمر إلى المدائن في العراق فدخل بابل ومن هناك أرسل سرايا من جيشه لفتح العراق وفارس ثمَّ سار إلى مدائن كسرى ففتحها وصلّى صلاة الفتح في إيوان كسرى الشهير وكانت أول جمعة أقيمت في العراق وذلك في صفر سنة ١٦ للهجرة وغنمت جيوشه غنائم كثيرة من الفرس . وسعد هذا هو الذي مصر الكوفة والبصرة وحوّل معسكره من المدائن إلى الكوفة وبنى الناس له قصراً فخماً فيها أطلق عليه اسم « قصر سعد » .

ولم يسلم سعد ممن سعى إليه إلى عمر فعزله كما فعل مع غيره من عمّاله فإنَّ عمراً لم يبق على أمير أو عامل أمداً طويلاً إلاّ على اثنين فقط أولهما أبو عبيدة بن الجراح فقد أبقاه على إمارة جيشه في الشام حتى مات ومعاوية فقد أبقاه في الشام رغم ما انتهى إليه عنه والظاهر أنّه كان يرى نفسه عاجزاً عن عزله وكان عزل سعد عن إمارة العراق في سنة ٢٠ للهجرة .

وكان سعد في الشورى من أنصار سيدنا علي قال ذلك لعبد الرحمن بن عوف صراحةً عندما ناجاه في الأمر . وعندما تمَّ الأمر لعثمان عزل أمير الكوفة المغيرة بن شعبة وأعاد سعداً إليها وذلك سنة ٢٤ للهجرة وظلَّ في إمارة الكوفة في صدر خلافة عثمان على أحسن حال حتى إذا ما بدأ الأمويون يتوسعون بتسلطهم على عمالات الخلافة فلم يكن سعد من ممالئيهم وكيف يكون كذلك وهو على ما تعلم من أكابر الصحابة المتلقين الإسلام من فم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ؟؟ فنووا له ما نووه لأمثاله من =

أَوْصَى بِشُوْرَى لِتَعْيِيْنِ ٱلْخَلِيْفَةِ مُحْــتَـاطَاً لِحَـادِثَـةٍ تُخْشَى طَـوَارِيْهَـا
وَبِـٱلْبَقِيَّـةِ مِنْ صَحْبِ ٱلـرِّسَـالَـة نَـا طَ ٱلسُّـدَّةَ ٱلْمُبْتَغَى سَـامِي تَـرَقِّيْهَـا
سَعْـدٌ عَلِيٌّ وَعُثْمَـانٌ وَطَلْحَـةُ وَٱلْــزُّبَيْرُ كَانَ ٱبْنُ عُوْفٍ صَاحِ سَـادِيْهَا
مِنْ صُحْبَةٍ عَشْرَةٍ مَاتَ ٱلرَّسُوْلُ وَقَدْ أَرْضَتْـهُ كُلَّ ٱلـرِّضَى جُلَّى مَسَاعِيْهَـا
لَهَـا دَعَـا عُمَـرٌ وَٱلْعَهْـدُ أَبْلَغَهَـا ثُـمَّ نَصَـائِحُـهُ قَـدْ رَاحَ يُلْقِيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ طَلْحَـةٌ فِيْ طِيْبَـةٍ وَلِـذَا قَـالَ ٱنْـظُرُوْهُ ثَـلاَثَـاً وَهْـوَ يَـأْتِيْهَـا
ثَمَّتْ أَبَـا طَلْحَـةٍ نَـادَى وَقَـالَ لَـهُ: صَحَـابَةُ ٱلْمُصْـطَفَى رَاقِبْ مَثَـاوِيْهَـا
وَلاَ تَـدَعْ قَبْـلَ أَنْ تَقْضِيْ مُهِمَّتَهَـا شَخْصَـاً يَزُوْرُ حِمَـاهَـا أَوْ يُنَـاجِيْهَـا

=مخالفيهم وكان مع سعد عبد الله بن مسعود على الخراج وكان موضع ثقة الأمويين فطفق هذان يتنافسـان ويتصادمـان وحدث أنّ سعـداً استدان من بيت المـال مالاً قـرضاً حسناً فجاءَه عبد الله بن مسعود وهو في عسرة يتقاضـاه الدين فـاستمهله فما أمهله وشـدّد عليه النكير حتى أنّه استعان ببعض أصحابه على إكراهه على دفع ما عليه واضـطرّ سعد على عظم مقامـه في الإسلام أن يـوسط الناس لإقنـاع ابن مسعود بـاستنظاره ورفـع الأمر إلى عثمان فما كان منه إلاّ أن عزل سعداً من الأمارة وأبقى ابن مسعود في عمله . فكبر هذا على سعد بن أبي وقاص وقدم المدينة فلزم بيته وآلى على نفسه أن لا يدخل بشيء فيما بعد من شؤون المسلمين وصدق في حلفه فما دخل في فتنة عثمان ولا تعرّض لها بخير ولا بشـرّ . حتى إذا ما انتهت الفتنـة بمقتل عثمـان وبويـع سيدنـا علي عليه السلام بالخـلافـة استدعاه للبيعة فجاءَه وقال « لقد آلوت على نفسي أن لا أدخل بأمر من أمـور المسلمين ولذلك لا أبايع حتى يبايع الناس لأكون كواحد من سوادهم ولكن والله ما عليـك فيَّ من بأس » فخلّى عنه وعندما بايع المسلمون جاءَه وبايعه وانصـرف لعزلتـه فلم يتداخـل في أمر من أمور الخلافة في ما كان بعد ذلك .

وكان سعد حليمـاً غير شـديد كـريماً سخياً مهاب الـدعوة فصيح اللسان صـادق العزيمة وعاش إلى سنة ٥١ هجرية وقيل ٥٥ وتوفي في المدينة ودفن في العقيق ولـه من العمر ٧٤ سنة .

أَوْصِ ٱلْخَلِيْفَةَ بِٱلْعُرْبِ ٱلْكِرَامِ فَهُمْ   إِسُّ ٱلْحَنِيْفَةِ مُذْ شِيْدَتْ مَبَانِيْهَا
أَوْصِ ٱلْخَلِيْفَةَ بِٱلْأَنْصَارِ مُحْسِنُهَا   يَحْنُو عَلَيْهِ وَيَعْفُو عَنْ مُسِيْئِيْهَا
وَبَعْدُ أَوْصَى صُهَيْبَاً أَنْ يَؤُمَّ عِبَا   دَ ٱللَّهِ حَتَّى تُوَلِّيْ ٱلنَّاسُ وَالِيْهَا
وَقَالَ : عُوْهُ بِدَارٍ بَعْدَ دَفْنِيَ أَصْـ   ـحَابَ ٱلْمَشُوْرَةِ يَاٱبْنَ ٱلْوِدِّ تَعْوِيْهَا
وَٱمْنَعْ مُوَاصَلَةً مَعْهَا تَؤُوْلُ إِلَى   مُنَافَسَاتٍ أَنَا مَا زِلْتُ حَاشِيْهَا
حَتَّى تَقِرَّ عَلَى فَرْدٍ تُبَايِعُهُ   مِنْهَا وَيَنْهَضُ لِلْأَحْكَامِ يُجْرِيْهَا
فَإِنْ تَنَكَّبَ فَرْدٌ عَنْ جَمَاعَتِهَا   فَٱقْتُلْهُ مَا دَامَ يَأْبَى أَنْ يُمَاشِيْهَا
وَإِنْ تَجَنَّبَ إِثْنَانِ ٱلْجَمَاعَةَ حَكِّـ   ـمْ فِيْهِمَا ٱلسَّيْفَ كَيْ يَعْتَزَّ بَاقِيْهَا
وَإِنْ هِيَ ٱنْقَسَمَتْ حَكِّمْ لَهَا وَلَدِيْ   وَنَفِّذِ ٱلْحُكْمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ تَجْرِيْهَا
وَبَعْدَ ذَاكَ ٱبْنَهُ ٱسْتَدْعَى وَقَالَ: أَعَبْـ   ـدَ ٱللَّهِ رَاقِبْ بِذِيْ ٱلشُّوْرَى مُشِيْرِيْهَا
فَإِنْ هِيَ ٱخْتَلَفَت كُن حَيْثُ أَكْثَرُهَا   أُجْبُرْ عَلَى رَأْيِهَا ٱلْأَعْلَى أَقَلِّيْهَا
وَإِنْ هِيَ ٱنْقَسَمَتْ كُن عِنْدَ قِسْمَتِهَا   مَعَ ٱبْنِ عُوْفٍ وَمَا لِي مَنْ يُمَالِيْهَا
وَلَا تَغُرُّكَ أَمْجَادُ ٱلْخِلَافَةِ يَا   بُنَيَّ يَوْمَاً فَتَشْهَاهَا وَتَبْغِيْهَا
فَلَسْتَ صَاحِبَهَا كَلَّا وَلَسْتَ لَهَا   أَهْلَاً وَأَوْزَارُهَا مَا أَنْتَ شَالِيْهَا
يَكْفِيْ ٱلَّذِيْ نَالَنِيْ مِنْهَا وَخَيْرُ بَنِـ   ـيَّ مَنْ إِذَا مَا دَنَتْ مِنْهُ يُجَافِيْهَا
وَظَلَّ يَأْمُرُ وَٱلْأَبْصَارُ شَاخِصَةٌ   وَنَفْسُهُ لُفِظَتْ وَٱلنُّصْحُ فِيْ فِيْهَا
وَبَعْدَ مَوْتِ أَبِيْ حَفْصٍ قَدْ ٱجْتَمَعَتْ   صَحَابَةُ ٱلْمُصْطَفَى طَوْعَاً لِدَاعِيْهَا
وَكَانَ ثَمَّ ٱضْطِرَابٌ فِيْ مَبَاحِثِهَا   وَكَانَ قِيْلٌ وَقَالٌ فِيْ تَنَاطِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهَا إِلَّا ٱلْمُطَالِبُ بِـٱلْـ   ـعَرْشِ ٱلَّذِيْ زَهْوُهُ قَدْ كَانَ مُغْرِيْهَا
وَفِيْ ٱلْأَخِيْرِ رَأَتْ أَنَّ ٱلسَّلَامَةَ فِيْ ٱلْـ   ـتَّحْكِيْمِ وَهْوَ مِنَ ٱلْأَرْزَاءِ مُنْجِيْهَا

وَٱسْتَسْلَمَتْ لِابْنِ عَوْفٍ بَعْدَمَا ٱقْتَنَعَتْ   أَنَّ ٱلْمُحَـالَ لَأَدْنَى مِنْ تَـرَاضِيْهَـا

وَبَعْدَ مَا قَـالَ جَهْرَاً قَـدْ تَرَكْتُ حُقُـوْ   قِيْ بِـٱلْخِلَافَـةِ إِنِّيْ زَاهِـدٌ فِيْهَـا

أَمَّا ٱبْنُ عُوْفٍ فَمُذْ بَاتَ ٱلْمُحَكَّمَ فِيْ   أَصْحَـابِـهِ وَهْـوَ نَـاءٍ عَنْ تَـرَجِّيْهَا

تَتَبَّعَ ٱلنَّـاسَ يَسْتَجْلِيْ غَـوَامِضَ مَـا   تَخْفِيْ ٱلصُّدُوْرُ ٱلَّتِيْ شَطَّتْ أَمَـانِيْهَا

وَلَمْ يَكُنْ جَـاهِـلاً مَـا فِيْ أُمَيَّةَ مِنْ   مَنَـازِعٍ لِلْعُـلَى كَـانَتْ تُـخَفِّيْهَـا

كَـانَتْ سِيَـادَتُهَـا فِيْ ٱلْجَاهِلِيَّـةِ تُغْـ   ـرِيْهَـا بِنَيْـلِ مَقَـامَـاتٍ تُضَـاهِيْهَـا

وَكَانَ فِيْ ٱلشَّامِ مَنْ يَعْنَى وَيَجْهَدُ فِيْ   إِيْجَـادِ عِتْـرَتِـهِ مَـاضِيْ تَـوَلِّيْهَـا

وَكَـانَ فِيْ طِيْبَـةٍ قَـوْمٌ تُعَـاوِنُـهُ   عَلَى مُنَاهُ ٱلَّتِيْ مَـا ٱنْفَـكَّ يَنْـوِيْهَـا

وَكَـانَ عُثْمَانُ مِنْ تِلْكَ ٱلْعَشِيْـرَةِ قَـدْ   يُنِيْلُهَـا مَـا تَـرَجَّتْ مِـنْ تَعَـلِّيْهَـا

لِـذَاكَ أَلْقَى ٱبْنُ عَـوْفٍ أَنَّ رَغْبَتَهَـا   بِـهِ مُـحَـالٌ عَلَيْـهِ أَنْ يُقَـاوِيْهَـا

فَـعَـادَ أَدْرَاجَـهُ إِذْ مَـدَّ رَاحَـتَـهُ   مُبَـايِعَـاً لِابْـنِ عَفَّـانٍ مُـوَالِيْهَـا

وَبَـايَعَ ٱلنَّـاسُ عُثْمَـانَـاً كَمَـا طَلَبَتْ   أُمَيَّـةُ ٱلْعُـرْبِ مَكِّيْهَـا وَشَـامِيْهَـا

فِيْ عَهْدِهِ ٱسْتَقْبَلَتْ مَجْدَاً لَقَدْ فَقَدَتْـ   ـهُ فِيْ ٱلْحَنِيْفَـةِ مُذْ سَـادَتْ مَبَادِيْهَـا

وَٱلْمُرْتَضَى مَا تَعَدَّى ٱلْإِحْتِجَاجَ عَلَى   شُـوْرَى قَدِ ٱنْحَـرَفَتْ عَنْهَا مَـوَالِيْهَـا

وَكَـانَ مُنْتَـظِرَاً تِلْكَ ٱلنَّتِيْـجَـةَ لَمْ   تَفُتْهُ مِنْ قَبْـلُ أَنْ تَبْـدُو خَـوَافِيْهَـا

لٰكِنَّهُ ٱعْتَادَتْ أَنْ يَلْقَى ٱلْحَوَادِثَ بِٱلـ   ـتَّرْحَابِ مَهْمَـا تَنَاهَتْ فِيْ مَسَـاوِيْهَا

يَقُـوْلُ يَا نَفْسُ صَبْـرَاً أَجْمِلِيْ جَزَعَـاً   دَعِيْ ٱلتَّقَـادِيْرَ تَجْـرِيْ فِيْ مَجَارِيْهَـا

وَمَـدَّ نَحْـوَ ٱبْنِ عَفَّـانٍ يَـدَيْـهِ وَلَمْ   يُبْـطِـئْ بِبَيْعَتِهِ أَعْـظِمْ بِمُعْطِيْهَـا

وَهٰكَذَا صَارَ عُثْمَـانُ ٱلْخَلِيْفَةَ فِيْ ٱلْأَ   عْـرَابِ آمِرَهَـا ٱلْأَسْمَى وَنَـاهِيْهَـا

وَقَـالَ فِيْ تِلْكُمُ ٱلشُّوْرَى أَبُـو حَسَنٍ   مَقَـالَـةً لَا يَضَـلُّ ٱلْحَقَّ وَاعِـيْهَـا

لَـمَّـا تَـبَـيَّـنَ أَنَّ آلـنَّـاسَ مَـائِلَةٌ ... إِلَى آبْنِ عَفَّـانَ إِذْ شَامَتْـهُ مُـرْضِيْهَـا

فِيْهَـا أَبَـانَ خَفَـايَـا نَفْسِـهِ وَتَفَـا ... نِيْهَا لِخَيْـرِ آلـرَّعَـايَا مَعْ تَعَـالِيْهَا

فَقَـالَ : لَمْ تَجْهَلُوْا أَنِّيْ بِبَيْـعَتِـكُمْ ... أَوْلَى وَلٰكِـنَّكُـمْ مَـا بِعْـتُمُـوْنِـيْهَـا

وَهَـا أُسَلِّمُ وَآسْمِ آللَّهِ مَـا سَلِمَتْ ... هٰـذِيْ آلـرَّعِيَّـةُ مِنْ حَيْفٍ يُنَـاجِيْهَـا

وَمَـا تَخَصَّصَ بِيْ ذَا آلظُّلْمُ فَـادِحُـهُ ... وَآلنَّـاسُ تَـرْتَـعُ فِيْ عَـدْلٍ يُهَنِّيْهَـا

وَإِنَّمَـا كَـانَ تَسْلِيْمِيْ لِمَثُـوبَـةٍ ... قَدْ بِتُّ مِنْ فَيْضِ جُوْدِ آللَّهِ رَاجِيْهَا

وَلِلزَّهَـادَةِ فِيْـمَـا آلنَّـاسُ رَاغِـبَـةٌ ... بِـهِ وَمِنْ أَجْلِهِ تُـبْـدِيْ تَفَـانِـيْهَـا

نَعَمْ عَلٰى نَفْسِهِ قَـدْ كَـانَ يُؤْثِـرُ أُمَّـ ... ـةَ آلـرَّسُـوْلِ عَلِيٌّ كَيْ يُؤَاسِيْـهَـا

وَهْوَ آلْخَلِيْقُ بِحَمْدِ آلنَّـاسِ أَجْمَعِهَا ... إِنْ أَنْصَفَتْ نَـظَمَتْ فِيْـهِ أَغَـانِيْهَـا

أمير المؤمنين في مقتل عثمان

وَمُـذْ تَـبَـوَّأَ عُـثْـمَـانٌ خِـلَافَـتَـهُ ... وَجَـازَ سُلْطَانُـهُ قَـاصِيْ أَرَاضِيْهَـا[1]

بَـدَتْ أُمَيَّـةُ بِـآسْتِقْبَـالِ سُؤْدُدِهَـا ... مَـعَ آلزَّمَـانِ آلَّـذِيْ أَضْحَى مُؤَاتِيْهَـا

---

(١) يظهر لي على قلّة علمي وزهادة بضاعتي أنّ عثمان بن عفان كان طيّب القلب جداً حسن الطوية سهل القياد لين العريكة وأنّه على ما اشتهر من مزاياه الصالحة في صحبته لرسول الله ﷺ أنّه لو لم يكن أموياً ولو لم تكن أميّة طامحة إلى استعادة مكانتها في الإسلام وعلى رأسها معاوية وهو من الدهاء على ما علم الناس لما ترك عمر الأمر وهو يحتضر على فراش الموت في ذمّة الرهط الباقين من العشرة الذين توفي رسول الله وهو راضٍ عنهم ولما خطر لعثمان أن يصل يوماً إلى الخلافة ويتولى أمرها فعثمان مظلوم لا في خلعه وقتله فقط بل وفي ولايته على المسلمين وهم في صدر الإسلام يعرفون حلاله وحرامه ومتأدبون بآدابه العالية وفيهم خلق كثير قد عرفوا رسول الله وصحبوه وتلقوا آيات الله من فمه وتفقهوا على يديه .

تولّى عثمان الخلافة وهو لا يجهل ضعفه وقوة من حوله من أميّة التي مهدت له=

= الصعاب حتى بلغ ذروة المجد وتربع على دست الحكم فما أمهل أن استنام لأصحابه الأمويين واللائذين بهم فسلمهم قياد الخلافة واكتفى أنّه صاحبها . والأمويون على ما هو معروف كانوا في الجاهلية كأبناء عمهم الهواشم أهل حول وطول في قريش ولكن لما ظهر المصطفى ﷺ بدعوته وأبت قريش التصديق بها وانقلبت عليه تضطهده وتكذّبه وتحقره انقلبت بالتحقير والإضطهاد إلى الهواشم حتى أنها تحالفت ضدّهم وأبعدتهم عن مكة وفيهم المصدق بالدعوة والمكذّب لها والشديد عليها كأبي لهب عمّ المصطفى واغتنم الأمويون هذه الفرصة وتوسعوا في جاههم وباتت لهم الزعامة المطلقة على قريش كلها يدلّك على هذا أنّ أبا سفيان والد معاوية كان زعيم القوم وهو الذي كان يحرّضهم على محاربة المصطفى والمسلمين قهراً للإسلام ودكاً لمعالمه وما كان ذلك منه لكراهته للإسلام وتمسكه بالكفر والإشراك فقط بل رغبةً أن يقضي نهائياً على جاه الهواشم استئثاراً بالسلطة لأميّة وحدها . وأنت تعلم أنّ الذين دخلوا الإسلام من أمية قبل فتح مكة المكرمة كانوا أفراداً قلاقل على رأسهم عثمان بن عفان . وأنّ المصطفى في يوم الحديبية إذ أراد أن يرسل عمراً بن الخطاب إلى قريش ليتفاهم معهم قال إني أخاف على نفسي إن ذهبت إذ لا أجد لي ناصراً فيها فيقتلونني مع أنّه من أعيان قريش وقال بل أرسل عثمان وله من قومه ما يضمن سلامته وهكذا كان .

وكان إسلام الأمويين قهراً يوم فتح مكة فهم قد أسلموا لا عن اقتناع بالإسلام والنبوّة بل خضوعاً للقوّة القاهرة وحسبك أنّ أبا سفيان مع خوفه من جيش المصطفى وهو ﷺ قادم لفتح مكة ومع أنّه قدم على المصطفى في معسكره بنصيحة صاحبه العباس ومع أنّه رأى بعينيه عظمة الإسلام مع ذلك أبى أن يصغي لدعوة رسول الله ويشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله وقال له أرجئها فإنّ في النفس منها شيء على أنّه ما أمهل يوم الفتح أن أسلم مع ولديه يزيد ومعاوية لكي لا تفقد أمية مكانتها بل ان قريشاً لم تسلم كلها في ذلك اليوم إلّا برغبة الاحتفاظ بمنزلتها في العرب بعد أن رأت ان رسول الله قد تغلّب عليها بمن جاء بهم من مختلف القبائل العربية المسلمة .

ثم إنّ معاوية تولى الشام على أثر فتحها وأخذ يوطّد له فيها مركزاً دائماً بالرغم عن أنّه عامل لعمر وعمر ما كان ينام عن عمّاله وما كان يبقي على واحد منهم إذا بلغه عنه بعض ما كان يبلغه عن معاوية من الترف وجمع المال والظهور بمظاهر العظمة ولا =

وَبَـاتَ عُثْمَـانُ مَـزْوِيَّـاً بِمَنْـزِلِـهِ   وَصَـارَ مِـرْوَانُ رَاعِيْهَـا وَقَـاضِيْهَـا

=يتأتى أن يكون عمر قد أغفل أمر معاوية شذوذاً بل بـالعكس لا بدّ انـه فكر كثيـراً بعزلـه ولكنه لم يقدم عليه حذراً من حـدوث ما لا تـأمن مغبته لـو هو عـزله . وبـالرغم عن ان الأخبـار في ذلـك قليلة وقلتهـا نـاجمـة عن مـداراة النـاس الأمـويين في خـلافتهم التي استطالت على الخلافة بعد عهد قصير وبـالرغم عن ذلـك بقي عندنـا ما يشيـر إلى عدم رضاء عمر عن معاوية فقال الرواة انَّ عمراً ذهب إلى الشام في رحلته الثانية وهو على ما تعلم من زهده في معيشته فاستقبله معاوية بعظمة ملوك الروم وهو على أفخر بـرذون في أفخر ثياب فأعرض عنه عمر فتبعه معتذراً فقـال إنّ القوم في الشـام اعتادوا على مـظاهر العظمة في ملوكهم فليس لي أن أغيّر ما اعتادوا قالوا إنّ عمراً قبل عذر معاوية وأقول أنا انه ما قبل العذر إلّا وهو مضطرّ .

وعندي أنّ الناس عندما ناجاهم ابن عوف فوجدهم شيعة عثمـان ما كـانوا كـذلك إلّا ولأمية وبالأحرى معاوية يدٌ في الميل إلى عثمان وممـا يستلفت الأنظار ان المؤرخين لم يقولوا عن ابن عوف انه وجد في الناس من يميل إلى غير عثمان من أكابـر الصحابـة كالزبير وطلحة وسعد وفي هذا دلالة واضحة على انَّ الناس كانوا يعرفـون الحقّ لسيدنـا علي عليه السلام وانّهم ما مالوا عنه لسواه على رغبة فيه بل بدافع من بني أميـة أمّا دافـع رغبة كسب أو تهيب مغبة شرّ .

ثمَّ رأينا الزبير وسعداً عندما رجع ابن عوف إلى أصحابه في جـانب علي ولذلـك قال ابن عوف لا أرى القوم سيجتمعون على خليفة وقد صدق .

وما كاد عثمـان كما سبق القـول يستسلم لعمومتـه الأمويين حتى أخـذت الشكوى تتعـالى من هنا ومن هنـا ليس لأنّه أسـرع فأبـدل عمّال الخـلافة بـالأمـويين أو مـواليهم وشيعتهم بل لأنّ الذين ولّاهم لم يكـونوا من النـزاهة والعـدل والاستقامـة وحسن السيرة على ما عهد المسلمون بولاتهم وحكامهم وتحوَّلت شكايات النـاس إلى تقمقم وموجـدة عنـدما رأوا أنّهم يـرفعون شكـاويهم إلى الخلافـة فلا ينـظر فيها إلّا إذا أكـره على ذلـك إكراهاً خـلافاً لمـا عهدوا في زمن عمـر وازدادوا حقداً ومـوجدةً عنـدما رأوا أمـوال الأمّة وأشياءَها تتسرَّب إلى جيوب الأمويين وأشياعهم وهي على مـا تعلم كانت مشتـركة بينهم يقتسمونها على السوية على عهد النبوَّة وفي عهدي أبي بكر وعمر فكان هذا أسوأ مـا أثر عليهم وحملهم على إعـلان غضبهم على الأمويين وعلى الخليفـة عثمان الـذي استبدوا=

كَـذَا أُمَيَّـةُ صَـالَتْ دُوْنَـهُ وَقَـدِ آسْـ ـتَصْفَتَ لِأَنْفُسِهَـا خَيْـرَاتِ أَهْلِيْهَـا

= بالخلافة تحت ظلاله وكانوا يقولون إمّا أنّ الخليفة على رأيهم وهو الذي يمهّد لهم سبل الانتفاع ليسلكوها وإمّا أنّه على غير رأيهم ولكنه يعجز عن صدّهم لضعفه وعلى الحالين هو غير كفء للخلافة وعليه أن يخلع نفسه منها .

وسبق لنا القول انّ الناس لم يزالوا يذكرون حقّ علي في الخلافة فأصبحوا يتشيعون له في طعنهم على عثمان وينوهون باسمه في كلّ زمان ومكان ويرجعون إليه في الشكوى فيجدونه مثلهم ناقماً على ما ينقمون وغير راضٍ كما أنّهم ليسوا براضين ولهذا كان عثمان يتهم سيدنا عليّ بتحريش الناس ضدّه ولا أعتقد أنّه لم يكن عارفاً بحقيقة الأسباب التي حملت الناس على النشوذ عليه والنهوض في وجهه ولكنه مع ذلك لم يكن لضعفه بمستطيع أن يعمل عملاً مع عمومته الأمويين فيكفّ أذاهم عن الناس ويكتسب بذلك رضاء الناس .

وكان على رأس المشنعين بعثمان ومن حوله من الأمويين رجل من أكابر الصحابة القريشيين يدعى أبو ذرّ فقد عرف الناس هذا الرجل من أقدم أصحاب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه صادق أمين غيور على الإسلام فكانوا يحترمونه ويكرّمونه . وقد أبى هذا الرجل إلاّ الجهر بما في نفسه من إنكار تساهل عثمان مع الأمويين وذلك عندما أعطى عثمان بيوت أموال المسلمين إلى مروان بن الحكم واختصّ ابن ثابت بشيء منها فصار أبو ذرّ يتجوّل في شوارع المدينة المنورة وهو ينادي « بشّر الكافرين بعذاب أليم » ويشفع هذا بتلاوة قوله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذابٍ أليم** ﴾ وكان ينقل الناس إلى عثمان نبأ أبي ذرّ وهو يتغاضى حتى استفحل الأمر في المدينة فأرسل له رسولاً يقول له انته عمّا أنت فاعل فشجبه قائلاً : أينهاني عثمان عن قراءَة كتاب الله تعالى ؟ وعيب من ترك أمر الله تعالى ؟ فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحبُّ إليَّ وخيرٌ لي من أن أسخط الله برضاء عثمان . فأغضب جوابه عثمان واحفظه ولكنه تصابر وتماسك إلى أن قال عثمان يوماً في المسجد والناس حوله وفيهم أبو ذرّ أيجوز للإمام أن يأخذ من مال المسلمين شيئاً قرضاً فإذا أيسر قضى ؟ فقال كعب الأحبار لا بأس بذلك فانتهره أبو ذرّ قائلاً أتعلمنا ديننا يا ابن اليهوديين ؟ فغضب عثمان وقال قد كثر أذاك لي وتوليك بأصحابي يا أبا ذرّ فالحق بالشام ولا تقم بعد اليوم بجواري . وبالفعل أرسله إلى معاوية في الشام فجعل أبو ذرّ =

في الشام ينكر على معاوية أشياء يفعلها جهراً في الأسواق وهو يكرر الآيات فبعث إليه معاوية ليسكته ثلاثمائة ديناراً فقال أبو ذرّ لرسوله إن كان هذا المال من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا أقبلها وإن كان صلةً فلا حاجة لي فيه وردّه عليه فعلم معاوية أنّ الرجل فوق أن يبيع ذمته بالمال فتهيبه وبقي أبو ذرّ على حاله من تجوله في الأسواق وهو يجهر بما يجهر به من التشنيع على الأمويين فكان يقول : لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ما هي في كتاب ولا سنّة نبيّه والله والله لأرى حقّاً يطفأ وباطلاً يحيا وصادقاً مكذّباً وأثرةً بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه ونحو ذلك .

ثمّ إنّ معاوية بنى قصره في دمشق المعروف بالخضراء فجاءه أبو ذرّ وقال إن كان ما بنيت من مال الله فهو الخيانة وإن كان من مالك فهو الإسراف فضاق صدر معاوية عن احتماله وخاف على الشام من فلتات لسانه فاستدعاه إليه وقال له : يا عدوّ الله وعدوّ رسوله لقد أزعجت الناس بما تقول ووالله لو كنتُ قاتل رجلٍ من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك ولكني أستأذن فيك فأغلظ له أبو ذرّ في الجواب فأمر بسجنه وكتب إلى عثمان فأجابه أن أحمل جندباً بن جنادة « إسم أبي ذرّ » إليَّ على أخشن مركب فوجّه به كذلك إلى المدينة فلما دخل على عثمان وقد أنهكه السفر حتى سقط لحم فخذيه أمره عثمان بالمسير إلى الربذة « بجوار البصرة » ليعيش منفياً فيها وأمر الناس أن يتجنبوا محادثته ومخالطته .

أمّا سيدنا علي عليه السلام فقد أكبر معاملة أبي ذرّ على هذا الوجه من الشدّة لا لسبب سوى أنّه غاضب لله ناقدٌ أعمال الأمويين فما عبىء بمنع عثمان عن مخالطته وسار لوداعه وهو ذاهب إلى المنفى وكان معه الحسنان وأخوه عقيل وعمّار وكان مروان بن الحكم يرافق أبا ذرّ ليمنع الناس عن مكالمته فأراد الحسن مخاطبته فمنعه مروان فتقدم سيدنا علي غاضباً من مروان وضرب السوط بين أذني بعيره وقال لمروان تنحَّ نحاك الله إلى النار فتنحى وظلّ سيدنا علي ومن معه يلاطفون أبا ذرّ إلى أن أبعدوا عن المدينة وحينئذٍ خاطب سيدنا علي جندباً وهو يودّعه فقال :

« يا أبا ذرّ غضبتَ لله فارجُ من غضبت له ، إنّ القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب منهم بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عمّا منعوك ، وستعلم من الرابح غداً ، والأكثر =

=حسداً ، ولو أنَّ السموات والأرضين كانتا على عبدٍ رتقاً ثم اتقى الله لجعل الله لـه منهما مخرجاً ، لا يؤنسنك إلاّ الحقُّ ، ولا يوحشنك إلاّ الباطل ، فلو قبلت دنياهم لأحبـوك ، ولو قرضت منها لأمنوك » اهـ .

ثمَّ إنَّ سيـدنا علي عليه السلام مـال إلى ولديـه وقال ودّعـا عمّكما وإلى أخيه وقـال ودّع أخاك فودّعه كلٌّ منهم بكلمات طيّبة مؤثّرة فبكى أبو ذرّ وكان شيخاً كبيراً وقال : رحمكم الله يا أهل بيت الـرحمة إذا رأيتكم ذكـرت بكم رسول الله وما لي في المدينـة سكن ولا شجن غيركم اني ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشـام فسيرني إلى بلد ليس لي فيـه نصير ولا دافـع إلاّ الله والله لا أريد إلاّ الله صـاحباً ومـا أخشى مع الله وحشة . ثمَّ صافح أبو ذرّ مودّعيه فصافحوه وعادوا إلى المدينة . أمّا مـروان فأكبـر انتهار سيـدنا علي لـه وقامت قيـامته إلاّ أنّـه ظلَّ أمـام هذا السيـد العظيم مقهـوراً مخذولاً في حديثٍ يطول لا محلَّ له هنا . وأمّا أبو ذرّ فقد مات في الربـذة بعد نفيـه ببضع سنـوات وكان أبو ذرّ رجل أسمر ضـربٌ من الرجـال خفيف العارضين في ظهـره انحناء ولم أقف على ترجمته أكثر من أنّه كان كثير الصحبـة لرسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد شهـد عنه علي فقـال قـال رسول الله : « مـا أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبـراء من ذي لهجة أصـدق من أبي ذرّ » .

ومن قصـة نفي أبي ذرّ إلى الشـام فـالـربـذة والكلمـات التي ودّعـه بهـا سيــدنـا علي عليه السلام عرفنا أنَّ حكم عثمان لـم يكن على ما يـريد المسلمـون الأولون الـذين تلقوا آداب الإسـلام وتفقهوا في شـريعته على رسـول الله عليه السلام فـإنَّ أبـا ذرّ من السـابقين في الإسلام وغضبته على عثمان وعمّاله لها محلها من الاعتبار وسيدنا أمير المؤمنين لا يجرأ مسلم صادق الإيمان على الطعن في صدقه أو انتقاصه بـذمّ وإقراره أبـا ذر على رأيه في خلافة عثمان وعمّالها لا يمكن إغفال وجاهته عند الباحثين المدققين . ومن ثمَّ فقد كان إجماع في المسلمين على الشكوى من عمّال عثمان وقـد اتّفق هذا الإجمـاع على رأي أبي ذرّ وعلي فإذا كانت لا تجتمع الجماعة على باطـل وإذا كان سيـدنا علي أسمى من أن يؤيد باطـلاً أو يحارب حقّـاً وإذا أضفنا إلى هـذا وذاك إنكار عـائشة وطلحـة والزبيـر أعمال عمّال عثمان أيضاً وجهرهم بالتشنيـع بحكمه على مـا هو ثـابت صريـح في كتب التاريخ على اختلافها حتى التي وضعت لإرضاء بني أمية ظهر لنا أنَّ الشكوى من خلافة =

وَأَكْثَرَتْ بَعْدَ ذَا نَقْدَ آلْخِلَافَةِ حَتَّى أَصْبَحَتْ هَدَفاً يَرْمِيهِ قَالِيهَا

=عثمان في محلها ولكنا نعود فنقول إنّ عثمان لا ذنب له في كل ما جرى في خلافته إلّا ضعفه واستسلامه إلى الأمويين ولا سيما مروان بن الحكم الذي كان وزيره وصاحب ختمه والمسيطر على خلافته ومعاوية داهية الأمويين الذي كان وهو حاكم الشام لا ينفكّ يعمل إلى غرض معين ظهر فيما بعد وهو استئثاره بالخلافة لنفسه ولبيته من بعده .

وبعد فإنّ الخلافة ما تعرضت للأخطار التي تعرّضت لها إلّا لأنّهم جعلوها مشاعاً بلا قاعدة في قريش في يوم السقيفة على أثر وفاة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ولو أنّهم أقروها في بيتٍ معين لما طمع بها الطامعون فتفرقوا لأجلها شيعاً فكان من أمرها ما نعلم لأنّ ما في كل وقت يقوم « مستبدٌ عادل » كعمر يضبط الأمور كما ضبطها ويمنع النفوس من إدراك مطامعها . وعندي وأعود فأقول على جهلي وقلة علمي أنّ وجوه مهاجري قريش من يوم السقيفة دخل على نفوسهم طمع الوصول إلى الخلافة إن لم يكن عاجلاً فآجلاً فإذا توفق عمر إلى الحجر على بعضهم في المدينة وهو يقول « خيرٌ لكم أن لا تروا الدنيا ولا تراكم » فما كلُّ خليفة يستطيع أن يقول هذا القول ويستطيع أن ينفذه إذا هو قاله . وعلى هذا فتكون الثورة التي أفضت إلى قتل عثمان قد كانت بداءة أسبابها من عمل أهل السقيفة والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثمَّ أنّ استخلاف أبي بكر عمراً قد أوجد للثورة سبباً آخر فقد تمَّ الاستخلاف بمجرد اجتهاد الإمام ومن غير أن يتقيد بشورى فصار همّ الذين يحسبون أنفسهم أولياء عهد الخلافة التزلف للخليفة والتسابق لكسب رضاه ولعلَّ هذا السبب هو الذي أعان عمر على تنفيذ رغبته بحبس من حبس في المدينة من وجوه قريش ولكن لا يبعد أن يكون أوجد شيئاً من التحاسد بين الذين كان عمر عنهم راضٍ والذين لم يكن راضياً عنهم وبالأحرى بين الذين استعملهم وبين الذين أهمل أمرهم ولا جرم أنَّ الشورى التي جعلها عمر مبدءاً جديداً للإستخلاف كانت سبباً ثالثاً للثورة فإنَّ عمراً بمطلق اجتهاده حصر المرشحين للخلافة بالستة الباقين من العشرة الذين مات رسول الله وهو راضٍ عنهم فجعل لعمله شبه مصوَّغ ولا بدَّ أنّ الناس تساءلوا همساً إن لم يكن جهراً إذا أراد عثمان أن ينحو نحوه فيمن يحصر الخلافة ؟ وقد لا يموت إلّا والذين حصر عمر فيهم الشورى قد تداركهم الموت إلّا واحد أو اثنين منهم فيكون له عذر أن يرجع إلى قاعدة أبي بكر فيستخلف ولا أظنهم كانوا يعتقدون أنّه سيستخلف غير واحد من بني أميّة لما =

وَرَاجَعَتْهَا تُرِيدُ ٱلْعَدْلَ شَاكِيَةً   عُمَّالَهَا فَتَأَبَّتْ أَنْ تُشَكِّيْهَا

= أظهر من الميل الشديد إلى أبناء عشيرته الأمويين والظاهر أنّ هذا كان عندهم عند حذّ اليقين ولذلك كانوا شديدي القلق من استسلامه للأمويين وتسليمه زمام الخلافة لهم كأنّه يهيئوهم إلى الاستئثار بالخلافة دون جميع قريش فيكون ما أباه أبو بكر وعمر على الهواشم وهم أهل رسول الله وعشيرته وورثاؤه الشرعيون قد صار للأمويين وليس لهم يد بيضاء في نشر الإسلام بل بالعكس كانوا على رأس محاربيه والمجاهدين في سبيل محوه .

فمن هذه الأسباب التي سردناها يسهل على القارىء اللبيب أن يفهم شيئاً من حقيقة ما دفع الناس إلى التقمقم على خلافة عثمان والرغبة عنها وتفرُّق كلمة وجوه قريش إذ راح كلٌ منهم يعمل لنفسه فيجمع الأموال ويحزب الأحزاب انتظاراً لليوم الذي تخلو فيه الخلافة من واليها فينهض للمطالبة بها .

هذا ما كان من أمر وجوه قريش أمّا المسلمون فقد كانوا مسلمين قبل كلّ شيء وكانوا ينظرون إلى الخلافة كإمامة دينية ويهمهم أن يكون صاحبها متشبهاً برسول الله الذي يمثله فيما بينهم ولا سيما بالمساواة بين الناس بالفيء والغنائم والوظائف وكانت لعهد عثمان أدرّ مالاً وأعظم نفعاً وأكثر وجاهةً مما كانت على عهد النبوّة وكانوا يرون أنفسهم متساوين في الحقوق لا يفضل قرشيهم سائر العرب ولا عربيهم سائر المسلمين فلما رأوا عثمان يميز الأمويين بوظائفه وخيرات خلافته حتى أثرت بطونهم ثارت ثائرتهم وانصرفوا إلى البحث في الخلافة ولمن هي شرعاً وهم راغبون بإرجاعها إلى صاحبها الشرعي وهو سيدنا عليّ لما عهدوه من استعداده إلى إرجاع الحكم فيها لما كان عليه على عهد المصطفى ﷺ وكان هذا سبباً لإيجاد فئةٍ من الناس تنادي بحق سيدنا عليّ الضائع وتطلب أن يعاد إليه وهي أساس الشيعة .

ويجب أن لا ننسى أنّ الناس يعملون بطبيعة سنة البقاء لمصالحهم فكان كثيرون منهم ينظرون إلى المستقبل وقد فاتهم الخير من حاضرهم وانقسموا بذلك شيعاً فكانت شيعة تتحزب إلى طلحة لأنّ طلحة اتّصل بها وأخرى إلى الزبير لأنّها عرفته وغيرها إلى غيره من وجوه قريش ممن تحسب أنّه سيفوز بالخلافة وكل شيعة من هاته الشيع كانت تؤمل أن يكون حظها على عهد صاحبها لو هو تولى الخلافة ما ناله الأمويون وشيعتهم على عهد عثمان على أنّ أشياع سيدنا علي كانوا شاذّين عن هذه القاعدة لأنّهم يعرفونه =

وَكَـانَ فِيْهَـا أَبُـوْ ذَرٍّ يُجَـاهِـرُ فِيْ   نَقْـدِ ٱلْخِـلَافَـةِ لَا يُخْفِيْ مَسَـاوِيْهَـا

=لا يحابي بالوجوه ولا يشتري الدنيا بالآخرة ولا يعرف في الحق صاحباً محاذياً أو عدوّاً مخالفاً وهذا ثابت ومعروف ولذلك لا يصعب علينا أن نقول أن شيعة علي ما تشيعت له إلّا وهي على اعتقاد أنّه على الحقّ وأنّها تنصر الله ورسوله في انتصارها له وبالبداهة أنّ هذه الشيع كان نموها في العراق ومصر أكثر من الشام التي كانت خاضعة لمعاوية وهو على ما تعلم من يده الحديدية ذات القفاز المخملي الناعم فهناك لم يكن من يجرأ على المجاهرة بعداء الأمويين إمّا رهبةً من معاويتهم أو توقعاً للخير منه في الحال على ما عرف من سخائه أو في الاستقبال عند ما يصبح الخليفة .

ويظهر أنّ الأمويين بعد أن تقادم عهد عثمان بالخلافة ما عادوا يكترثون لنقد الناقدين ونقمة الناقمين فازدادوا تمادياً وازداد الناس تقمقماً وكان الخليفة عثمان في المدينة لا يسمع لهم شكوى أو ان سمعها لا يعمل على ما يزيلها فأخذوا يفكرون بعمل جدّي يقومون به لإكراه خليفتهم على سماع شكاويهم والعدل في حكمه معهم وجعلوا يتكالبون في ذلك بين سائر الأمصار الإسلامية ويريد أن يقنعنا المؤرخون وآخرهم الشيخ محمد الخضري المصري في عصرنا هذا بأنّ الذين كانوا يتكاتبون للتحريض على عثمان هم فئات قليلة وأنّهم كانوا يفتئتون على عمال عثمان افتئاتاً فقالوا إنّ أهل كلّ مصر كانوا إذ انتهت إليهم كتب الشكوى من عمّال عثمان في الأمصار الأخرى يحمدون الله أنّ ليس حال مصرهم كحال تلك الأمصار وإنّي لا أريد أن أمرّ على هذه النقطة من غير أن أبحث فيها على قلة علمي مع أنّي لا أجهل كيف كانت تكتب التواريخ حتى قام أناس من أهل النقد علقوا عليها بما سمّوه « بفلسفة التاريخ ونقده » .

إذا صحّت رواية هؤلاء المؤرخين بأنّ الناقمين على عمّال عثمان كانوا أفراداً قلاقل وأنّهم كانوا يكذبون بما يشيعونه عن مفاسدهم لأغراض خاصة يرمون إليها فهل كان يتعذّر على عمّال عثمان إظهار كذبهم ومنع الناس عن الاغترار بهم ؟؟ نعم لم يكن في ذلك الزمان تيلغراف ولا تليفون ولا بريد منظم ولا سكك حديدية ولا طيارات تقرّب الأبعاد وتصل الناس بعضهم ببعض بالسرعة التي توصلهم بها اليوم ولكن الناس كانوا في بقعة متجاورة متلاصقة هي عبارة عن الحجاز واليمن ونجد والعراق والشام وفلسطين ومصر وكانوا يتنقلون في أطرافها للتجارة وفوق ذلك كان حجاجهم يجتمعون سنوياً في مكة المكرمة فيتعارفون ويتآلفون ثمّ يعود كلُّ فريقٍ منهم لبلده فإذا صحّت رواية =

= المدافعين عن الأمويين عن كذب ما كان يرويه الناقمون على عمّال عثمان للزم أن يظهر كذبهم للملأ إن لم يكن بين عشية وضحاها فقل بين سنة وأخرى وهذا لم يحصل بل الذي ينظر إلى ما بين سطور التاريخ كان يجد عداد الناقمين على عثمان ينمو عددهم يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى حتى إذا ما كان الحول الرابع والثلاثين للهجرة كان الخطب قد استفحل وبلغ الحزام الطبيين وكانت الشكوى بالأكثر من مروان بن الحكم المتصرف بشؤون الخلافة فعلاً فسمه ما تشاء وزيراً أو مسيطراً أو حاكماً بأمره أو « دكتاتور » كما يقول الإفرنج في عصرنا الحاضر .

والظاهر أنّ عثمان ما كانت تصل إليه كل شكاوى الناس بل كان الكثير منها يخفيه عنه مروان بن الحكم والقليل الذي يصله كان يسهل على مروان أن يقنعه بأنه كذب وافتراء من أعداء الأمويين والحاسدين لهم على النعمة التي ظفروا بها على عهده وكان عثمان لطيبة قلبه كثير الثقة بمروان فيصدقه فيما يقول كما أنّ معاوية كان يتابع كتبه لعثمان مشنعاً بأعداء الأمويين المنبثين في العراق ومصر فيصدقه أيضاً ومثل معاوية ما كان يصعب عليه أن يؤثر رجلٍ طيب القلب طاهر السريرة حسن النية كعثمان بن عفان .

وقد استفحل أمر نفر من القرشيين النازلين في الكوفة أولاً فما وجد مروان لحلّ مشكلتهم إلاّ ببعثهم إلى الشام بأمر عثمان على أمل أن يتولاهم معاوية بحكمته فاستقبلهم هذا الداهية بالبشاشة والإكرام وأدرَّ عليهم الخير الكثير ولكن لم يجده هذا نفعاً وظلوا على نقد خلافة عثمان ينعون على عمّاله عملهم فخاف أن يفسدوا عليه أهل الشام فكتب بذلك إلى عثمان فأمره أن يوجههم إلى حمص فأرسلهم إليها فكانوا في حمص على نحو ما كانوا في الشام فشدّد عليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أمير حمص فأظهروا الرضوخ فأمنهم وأعادهم إلى الكوفة فعادوا أشدَّ مما كانوا نقمةً على الأمويين .

وكان سيدنا علي عليه السلام لا ينفك يجتمع بعثمان ويسدي إليه النصيحة أثر النصيحة ويحذّره عقبى الاستسلام إلى أصحابه ويشرح له شكايات الناس ومظالمهم ويطلب منه أن يكشفها وكان يلين له طوراً ويغلظ تارةً أمّا عثمان فكان يحسب أنّ كل ما كان يقوله له سيدنا علي ليس من النصيحة في شيء وإن هو إلاّ من تأثير حقده عليه لأنه فاز =

= بالخلافة دونه وأجمع المؤرخون بعضهم صراحةً وبعضهم ضمناً أنّ عثمان لو أصغى إلى نصائح علي لما كان تلافي الشرّ صعباً عليه .

وعندما كثرت شكاوى الناس إلى عثمان من عمّاله وأصحابه الأمويين رأى أن يرسل رسله إلى أطراف الخلافة فيقفون بنفوسهم على مبلغ هاتيك الشكاوى من الحقيقة فسيّر محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمّار بن ياسر إلى مصر وآخرين مثلهم من أكابر قريش إلى الجهات ليستطلعوا طلع الحالة وكان ذلك في بدء سنة ٣٥ للهجرة فعادوا إليه جميعاً منكرين على الناس شكاياتهم ولم يتخلف عنهم إلاّ عمّار فإنّه بقي في مصر وانضمَّ إلى الناقمين الشاكين ونحن لا نريد أن نعتقد أنّ هؤلاء الزعماء مالوا مع الهوى ولكن يسبق إلى اعتقادنا أنّ عمّال عثمان تناولوهم وأقاموا بينهم وبين الشاكين سدّاً فلم يصلوا إليهم وما هذا بعزيز على الحكّام إذا أرادوا أن يخفوا الحقائق على المحققين كما أننا نرى في تخلف عمّار بمصر برهاناً على أنّه كان يعتقد بأنّ عودته إلى المدينة بالنبأ اليقين قد يعود عليه بالضرر ولا نفع منه للمسلمين .

عاد هؤلاء إلى عثمان ينكرون كل شكوى للناس ويحمدون عمّال عثمان ولكن الشكاوى لم تنقطع بل ظلّت ترد على عثمان تترى وكان سيدنا علي عليه السلام لا ينقطع عن نصحه وتنبيهه إلى الخطر المحدق به وبالخلافة رغماً عمّا كان يراه منه من سوء الظنّ بإخلاصه فأحرج بذلك عثمان فأرسل هذا إلى عمّاله أن يقدموا عليه في موسم الحج فجاءَه منهم عبد الله بن عامر أمير البصرة ومعاوية أمير الشام وعبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير مصر فجمعهم وضمَّ إليهم سعيد بن العاص أمير الكوفة وكان في المدينة وعمرو بن العاص فاتح مصر وسألهم عمّا يشكو الناس منه فأنكروا عليه كلَّ شكاية وقالوا له أمّا أرسلت روّادك فجاءُوك بالنبأ اليقين؟وكل ما عدا ذلك فهو فرية وكذب فسألهم عن مداواة الداء قبل أن يستفحل فما كان منهم إلاّ من أوجب استعمال الشدَّة فمن قائل يقتل الشاكين ومن قائل أن يرجع إلى الشدَّة التي كان يجري عليها عمر فهزَّ عثمان رأسه وقال : « إنّ الفتنة لدائرة وطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها » وفي قوله هذا ما يفيد أنّه كان بينهم مغلوباً على أمره يشعر من نفسه أنّه ألعوبة بأيديهم لا حول له ولا طول وبعد ذلك أعادهم إلى عمالاتهم من غير أن يفعل شيئاً يرضي به الشاكين فيطفىء نار الفتنة =

= ومما يذكر أنّ معاوية لم يفته حرج الحالة فطلب إلى عثمان أن يسير معه إلى الشام فيحميه من أعدائه فأبى قائلاً أنّه لا يدع جوار رسول الله فعرض عليه أن يرسل له جيشاً من الشام يحميه فقال لا أضيق على أهل المدينة بهم ولا بدَّ أنّ عثمان قد حذر الأمرين وتوقع من ورائهما الفتنة التي كان شديد الخوف منها فقد يفضي مسيره إلى الشام أن يجتمع الناس في المدينة ويخلعوه ويولّوا سواه وفي قبوله جيش الشام يحتمي به أن يهاجم الناس المدينة بحجة إخراج جيش الشام منها فيفضي الأمر إلى خلعه وهو ما كان يرضى الخلع كما عرفنا ذلك منه عندما ضيّق الناس عليه الحصار وطلبوا منه أن يخلع نفسه فقال إنّه لا يخلع ثوباً كساه الله .

أمّا أولئك الشاكون فقد كان صبرهم قد أعيل فهمّوا بالفتنة بعد خروج أمرائهم إلى المدينة بدعوة عثمان ولكن لم يتيسّر ذلك لهم إلاّ من في الكوفة فقد خرجوا بحجة أنّهم يستعينون بعثمان على أميرهم سعيد بن العاص وما كادوا يصلون إلى الجرعة حتى وجدوا سعيداً قادماً عليهم فردّوه كرهاً إلى المدينة ورجعوا متمسكين بأبي موسى الأشعري وكتبوا بذلك إلى عثمان فأقرّهم على ما فعلوا تلافياً للفتنة .

وتراسل بعد هذا أهل الكوفة والبصرة ومصر على أن يرسلوا وفوداً منهم إلى عثمان « يأمرون بالحق وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن أشياء ينكرونها عليه » فلما علم عثمان بمقدم هؤلاء الوفود استشار من حوله من الأعيان في أمرهم فأشاروا عليه أن يقتلهم فلم يفعل مخافة أن يوري زند الفتنة بيده وهو الأمر الذي كان منه على أشدّ الحذر فخالفهم وأحضر الوفد إليه وسمع شكاياتهم الواحدة بعد الأخرى وأخذ يفند لهم واحدةً واحدة لا بإنكارها أو إثبات صحة اجتهاده فيها بل بالاستشهاد بأن قد أجرى مثلها المصطفى ﷺ أو عمر أو أبو بكر وكان فيما قاله شيء من المغالطة على نحو ما نأتي ببعضه للاستشهاد . فأجاب عثمان عن حجة الناس عليه بأنّه ولّى الأحداث بأنّ المصطفى سبق له تولية أسامة بن زيد وهو حدث ووجه المغالطة في الأمر هو الفرق بين أسامة الذي كان موضع إعجاب المصطفى بكمالاته وبين الذين ولاّهم عثمان وقد ثبت عليهم ما ثبت من عدم كفاءتهم للحكم واسترسالهم في أهوائهم . واحتجَّ عن إعطائه أمواله إلى بني أمية بأن ما أعطاه لهم هو من ماله الخاص الذي أصابه من الفيء بصفته خليفة المسلمين وأنه حرٌّ فيه وأنّه كان يولي الناس الأعطيات الكبيرة على عهد =

ضَجَّتْ أُمَيَّـةُ مِنْـهُ وَٱلْـخَلِيْـقَـةُ إِذْ قَـدْ كَانَ يُؤْذِيْـهِ مَا قَـدْ كَـانَ يُؤْذِيْهَـا

= المصطفى إلى آخر ما قال ووجه المغالطة في هذا هـو أنّه كـان يعطي أمـواله على عهـد المصطفى للفقراء لا لبني أميّة وان ما كـان يعطيـه هو من صلب مـاله لا من مـال الفيء الذي اختصه لنفسه وهو للمسلمين وما كان يفعـل مثل ذلـك أبو بكـر وعمر بـل المأثـور عنهما أنّهما كانا لا ينالان من أموال المسلمين إلاّ ما يسدّ حاجتهما وحاجة عيالهما وفات عثمان أيضاً وجه شكوى المسلمين من تخصيص بني أميّة بالأموال الوفيرة أو هو تجاهله وحقيقـة تلك الشكوى هي أنّـه بإعـطائـه الأمـوال إلى بني أميّـة وبتسليمـه إلى عهـدتهم المملكة الإسلامية يحكمونهـا كان يعمـل على تحويـل الخلافـة الإسلاميـة التي أسسها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لتكون اشتراكية عـاملة على إسعاد أهلهـا على السويـة على أبدع نـظام عرفه البشر إلى « ملك عضوض » لا يمتاز بشيء عن الممالك الدنيوية المعروفة وأحقيـة شكوى السلف الصالح هذه ظهرت بكل جـلاء ووضوح فيمـا بعد عنـدما نهض معـاوية لمحاربة سيـدنا علي عليه السلام ثم استئثـاره بالخـلافة لنفسـه وحصرهـا في بني أميّة فلم تبق تلك الخلافة على مـا أوجدهـا الله على يد رسـوله النبيّ العـربي الأمي لإسعاد البشـرية على أسمى وأفضـل مبادىء الشعبيـة « الديمـوقـراطيـة » التي بعـد ١٣٠٠ سنـة أخـذت تتطلبها وتسعى إليها أرقى وأعظم شعوب الأرض .

وفي الأخير انصرفت الوفود من المدينة وهي غير راضية عن عثمـان بل ومـأيوسـة من إعادة الخلافة إلى العهد الـذي كانت عليـه في ظلال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم على نحو مـا يعلمـون من أحكام الشـريعة الإسـلامية السمحـاء وعنـدمـا عـادوا إلى بـلادهم وأبلغـوا جماعتهم ما كان من أمر عثمـان منهم ازدادوا غضباً وأخـذوا يتحفزون إلى عمـل حاسم يضع حدّاً لتمادي أمية في الحكم مستفيدةً قوةً من ضعف عثمان بن عفان .

أمّا الشكاوى التي كان الناس يتمسكون بها على عثمان فهي كثيرة أهمها أنّه أوطأ بني أمية رقاب الناس وولاّهم الولايـات وأقطعهم القـطائع . وافتتحت أرمينيـا في أيامـه فأخذ الخمس كله ووهبه إلى مروان . وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلةً فأعطاه أربعمائة ألف درهماً . وأعاد الحكم بن أبي العاص إلى العمل بعد أن صرفـه رسول الله ولم يستخدمه أبو بكر وعمر وما كفاه هذا بل نفحه مئة ألف درهماً . وأقـطع الحارث بن الحكم مـوضع سـوق يسمى تهرز وكـان رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم تصـدّق بـه على المسلمين . وأقـطع مروان بن الحكم « فـدك » وقد كـانت سيـدتنـا فـاطمـة عليها السلام طلبتهـا بعـد وفـاة =

وَمَـا آسْتَطَاعَ آبْنُ عَفَّـانٍ بِهَامِيَـةِ آلأَ م مْــوَالِ إِسْكَـاتَــهُ إِذْ رَاحَ يُسْـدِيْهَــا

= أبيها ﷺ تارةً بالميراث وأخرى بالنحلة فدفعها أبـو بكر وعمـر عنها . وحمى المـراعي حول المدينة كلها من مـواشي المسلمين كلهم إلاّ عن بني أمية فـأباحهـا لهم . وأعطى عبد الله بن أبي سرح جميـع ما أفـاء الله عليه من فتـح أفريقيـا بالمغـرب « من طرابلس الغـرب إلى طنجة » من غيـر أن يشرك فيـه أحد من المسلمين . وأعـطى أبا سفيـان بن حرب وال. معاوية مـائتي ألف درهماً من بيت المـال في اليوم الـذي وهب مروان المئة ألف درهم وقد زوَّجه ابنته أم أبان فجاءَ زيد بن الأرقم صاحب المال بالمفاتيح فوضعهـا بين يدي عثمان وبكى فقـال عثمان أتبكي إن وصلت رحمي ؟ قـال لا ولكن أبكي لأنّي أظنك أخذت هـذا المال عـوضاً عمّـا كنت تنفقه في سبيـل الله في حياة رسـول الله ولو أعـطيت مروان مئة درهم لكان كثيـراً ولو أعـطيت أبا سفيـان درهماً واحـداً لكـان أكثـر وكلاهما حـاربا الإسـلام ما شـاء الله فقال عثمـان الق المفاتيـح ياابن أرقم فـإنّا سنجـد غيرك . وأتاه أبو موسى الأشعـري بأمـوال العراق فقسمهـا كلّها في بني أميـة وغير ذلـك كثير . ولم يكن هذا وحده سبب نقمة النـاس على عثمان بـل هنالـك أمور أخـرى منها تحجبه عن رعاياه وتهاونه في إقامة الحدود وردّ المظالم وكفّ الأيدي العادية وأنت تعلم أنّ أكثر هاتيك الأيدي العادية كانت أيدي بني أمية ومن شايعهم .

وفي حجـه سنة ٣٥ هجـرية خـرج أهل مصـر في أربع رفـاق عليهم أربعة أمـراء وعـددهم نحو الألف وكـان أميـرهم الأكبـر الغـافقي بن حـريب العكي وكـان معهم ابن السوداء ولـم يعلنوا أنّهم خارجون للثورة بل أظهروا للناس أنّهم سائرون للحـجّ . وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم نحو الألف وكان أميرهم عمرو بن الأصمّ وادّعوا أنّهم يريدون الحج أيضاً وخرج أهل البصرة في أربع رفاق وعـددهم نحو الألف وعليهم أربعة أمراء وأميـرهم الأكبر حـرقوص بن زهيـر السعدي وتـظاهروا بـرغبة الحج أيضاً . لا جرم أن خروج هؤلاء الثائرين للمدينة وهم يتظاهرون برغبة الحـج وجهـل عمّال عثمـان بحقيقة نـواياهم ممـا يوجـد العجب من دهاء منـظمي هذه الثـورة وبراعتهم في تكتم نياتهم . وقد بلغ ثائرو هذه الأمصار الثلاثة ضواحي المدينة المنـورة في زمن متقـارب وفي هذا أيضاً من البراعـة والدهـاء ما فيـه ونزلـوا في موضـع يسمى « ذخشـب » وأرسلوا من قبلهم روّاداً قصـدوا أكابـر الصحابـة وفي مقدمتهم سيـدنا عليّ وطلحـة والزبيـر وأنباؤهم أنّهم مـا قدمـوا المـدينـة لـلاعتـداء على شخص الخليفـة ولا لإحداث حدث في الإسلام ولكن لإكراه الخليفة على إقالة عمّاله الذين طالما شكـوهم =

بَـلْ زَادَهُ جِـرْءَةً إِذْ كَـانَ يَشْجِبُـهُ   يَقُـوْلُ تِلْكَ حُقُـوْقُ ٱللَّهِ أَقْضِيْهَـا

=لعثمان ولم يشكّهم وعادوا من غير أن يجدوا مشجعاً لهم ولعلّهم كانوا يطلبون قبل كل شيء إقصاء مروان بن الحكم عن الخلافة على نوع خاص على اعتبار أنّه السبب الأكبر لكل ما كان يجري في الخلافة .

وأرسل الثائرون من يرود أمر المدينة ويطّلع طلع أهلها فعادوا إليهم ينبئونهم أنّ الناس في المدينة لا يعلمون عن مقدمهم شيئاً فأقبلوا على المدينة ودخلوها فتهيب عثمان قدومهم وأسرع بنفسه إلى منزل سيدنا عليّ عليه السلام فدخل عليه وقال : يابن عم إن قرابتي قريبة ولي عليك حقّ وقد جاء من ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحيّ ولك عند الناس قدرٌ وهم يسمعون منك وأحبُّ منك أن تركب إليهم فتردهم عنّي فإن في خروجهم عليّ وهناً لأمري وجراةً عليَّ فقال عليّ : على أي شيءٍ أردُّهم ؟ قال عثمان : على أنّ أصير إلى ما أشرتَ به ورأيته لي . قال علي : إنّي قد كلمتك مرةً بعد أخرى وأنت تعد وترجع وهذا من فعل مروان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد إذ أطعتهم وعصيتني قال عثمان : ولكن الآن آليت أن أطيعك فقال حبذا لو صدقت وأسرع فركب إلى القوم ومعه ثلاثون رجلاً من خيار المهاجرين والأنصار فكان من المهاجرين سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل وأبو جهم العدوي وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وكان من الأنصار أبو أسيد الساعدي وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وغيرهم فأتوا الثائرين وكلمهم علي ومحمد بن مسلمة فسمعوا منهما وهمّوا بالرجوع بأصحابهم يطلبون مصر ورجع سيدنا علي عليه السلام مع من معه إلى المدينة وقابل عثمان وأشار عليه أن يتكلم بكلام يسمعه الناس منه ليسكنوا إلى ما بعدهم به من النزوع إلى الإصلاح وقال له : إنّ البلاد قد تمخضت عليك ولا آمن أن يجيء الشرّ من جهة أخرى فتقول لي يا عليّ اركب إليهم فإن لم أفعل تقول قد قطع رحمي واستخفَّ بحقي فقبل عثمان النصيحة وأرسل فاستدعى زعماء الثائرين فقدموا إلى المسجد وخرج إليهم عثمان فخطب خطبته نزع فيها ما يشكى منه ووعد بالتوبة فرقَّ الناس وبكوا حتى خضلوا لحاهم وبكى هو أيضاً فلما نزل وعاد إلى بيته وجد هناك مروان وسعداً ونفراً من بني أمية لم يحضروا خطبته بل سمعوا بها ونقموها فقال مروان أأتكلم يا أمير المؤمنين أم أسكت ؟ فقالت نائلة إمرأة عثمان وكانت حاضرة بل تسكت فأنتم والله قاتلوه وميتمو=

وَفِيْ ٱلْأَخِيْـرِ رَأَى عُثْمَـانُ شِـرَّتَـهُ   قَـدِ ٱسْتَطَالَتْ وَيُخْشَى مِنْ تَمَـادِيْهَا

= أطفاله انه وقد قال مقالته لا ينبغي له أن ينزع عنها فشجبهـا مروان فشجبته وتشاتمـا ثمَّ عاد مروان فقال لعثمان : بأبي أنت وأمي وددت لو أنّ مقـالتك هـذه كانت وأنت ممتنـع فكنتُ أنا أول من رضي بها وأعان عليها لكنك واأسفاه قلت ما قلت حين أعطى الخـطة الذليلة الذليل والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبةٍ تخوَّف عليها . مـا زدت على أن جرأت الناس عليك وما زال مروان يغري عثمان بالـرجوع عن وعـده مبيناً له أنّه هو الذي أطمع الناس بضعفه حتى اقتنع وسمـح له أن يخـرج إلى الناس وينقض قوله فخـرج مروان وقـال لهم بغلظةٍ : ما بـالكم قد اجتمعتم كـأنّكم جئتم لنهبٍ شاهت الوجوه أتريدون أن تنزعوا ملكنـا من أيدينـا اعزبـوا عنّا وان والله رمتمـونا لتمـرنَّ عليكم ماحلاً ولتملنَّ بكم ما لا يسركم ولا تحمدوا فيه غبَّ رأيكم ارجعوا إلى منازلكم فإنّا والله غير مغلوبين على ما في أيـدينا اهـ فلمـا سمع النـاسِ من فم مروان غيـر ما سمعـوا من عثمان رجعوا وهم يسبّونهما كليهما . ولما بلغ عليـاً عليه السلام ما كـان من مروان أسـرع إلى عثمـان فوبّخـه لانقياده إلى مـروان وأنذره بسـوء العقبى وأعلنه بـأنّه سـوف لا يعـود إلى معاتبته أبداً وانصرف وبعد انصرافه دخلت عليه امرأته نائلة فحضته على الإصغاء لسيدنا علي والإعراض عن مروان فندم على ما كان منه وأرسل ثانيةً إلى علي يستقدمـه فرفض أن يجيء إليه فسار إليه عثمان تحت جنح الظلام فقال له علي عليه السلام ما هذا يـا عثمان ؟ أبعد ما تكلمت على منبر رسول الله وأعـطيت من نفسك ثمَّ دخلت بيتـك فخرج مـروان إلى الناس يشتمهم على بابك ؟ والآن تريـد مني أنِ أعود فـأراضي الناس فهـل تظن أنَّ باستطاعتي أن أراضيهم لا والله وهكذا انصرف عثمان من دار علي وهو مأيوس .

وفي صباح اليوم التـالي خرج عثمـان إلى المسجد ليصلي بـالناس وخـطب فيهم بعد الصلاة فقال إنَّ الناس قد رجعوا بعد أن علموا أن ما بلغهم عن إمامهم كـان باطـلاً فما أمهل عمرو بن العاص ان عارضه قائلاً وإنك هناك يابن النابغة فملت والله جبتك مذ عزلتك عن العمل . فلما سمع عمرو بن العاص قول عثمان خرج من المسجد وهو أشدُّ نقمةً على عثمان من كلّ الناقمين عليه وسار لساعته إلى قصره في فلسطين فأقام فيه بعد أن بذر في صدور الناس من الحقد على عثمان ما بذر .

وما أمهل الثائرون ان عادوا بعد خروجهم من المدينة فاعتـرضهم علي عليه السلام رغبة تلافي الشرّ وكـان معه محمـد بن مسلمة وقـال لهم ما سبب عـودتكم ؟ وهو يـظنّ أنّهم=

فَـرَاحَ مُبْعِـدَهُ لِلشَّــامِ يَحْسِبُ قَـدْ   يَـكُفُّ شِــرَّتَــهُ عَـنْــهُ مُعَــاوِيْـهَــا

= عائدون لـلإنتقام لأنفسهم مما أسمعهم مروان في أمسهم فـأخرجـوا صحيفةً في أنبـوبة رصـاص وقالـوا وجدنـا غلام عثمـان بالبـويب على بعير من إبـل الصدقـة ففتشنا متـاعه فـوجدنـا فيه هـذه الصحيفة يـأمر فيهـا بجلد عبد الـرحمن بن عويس وعمـرو بن الحمق وعـروة بن البيـاع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحـاهم وصلب بعضهم فـاغتـاظ سيدنـا علي عليه السلام من هـذه الفعلة التي كانت مـوقظة الشرّ وسـار ومعـه محمـد بن مسلمـة إلى عثمان فدخلا عليه وكان عنده مروان وأخبراه برجعة الثـائرين إلى المـدينة وطلبـا منه أن يأذن بدخول المصريين منهم عليه فقال مروان بل أنا أخرج فأكلمهم فقال عثمان أسكت فضَّ الله فاك ما أنت وهذا الأمر أخـرج عنّي فخرج فقصَّ علي مـا كان من أمـر الأنبوب الذي مسكه المصريون مع ساعيه وأخرج له الأنبوب من جيبـه فتناولـه عثمان ونـظر إلى الكتاب الذي فيه وأقسم بالله أنّـه ما كتبـه ولا أرسله فقال علي أليس هـذا الختم ختمك والسـاعي من عمّالـك والراحلة من نـوق الصدقـة قال نعم ولكنني مـا كتبت الكتـاب ولا أمرت به فقال محمد بن مسلمة : صدق والله هذا من عمل مـروان فقال علي ان الأولى لتلافي الشرّ أن تسمـح للمصريين بـالدخـول عليك وتتلطف بهم لعلّك تستميـل قلوبهم قال فليدخلوا فأرسل علي أحد السعاة يـطلبهم فحضر منهم بعض وجـوههم فلم يسلّموا عليه بالخـلافة وذكر ابن عديس مـا فعل عبـد الله بن سعد عـامله على مصر بـالمسلمين وأهل الذمة وكيف استأثر بالغنائم وقال ومثل هذا يشكو أهل الكوفة والبصرة وغيرهما من الأمصـار وقد قـدمنا المـدينة ونحن نـريد أن نحملك على الحقّ فـردّنا علي وضمن لنـا نزوعك إلى الحقّ وما كدنا نهمُّ بالعـودة حتى رأينا غـلامك وكتـابك وعليـك خاتمـك . فحلف عثمان أنّه ما كتبه وقال علي ومحمد إنّه لصادق فقال المصريون ومن كتبه ؟ فقال عثمان لا أدري قالوا فمن يجرأ عليـك ويبعث غلامـك وجمل من الصـدقة وينقش على خاتمك ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة وأنت لا تعلم ؟ قال عثمان لا أعلم والله قالوا ما أنت إلاّ صادق أو كاذب فإن كنت كاذباً فقد حقّ عليـك الخلع لما أمـرت به من قتلنا والتنكيل بنا بغير حقّ وإن كنت صادقاً فالواجب أن تخلع نفسـك لضعفك عن هـذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيـد من تقطع الأمـور دونه لضعفه وغفلته فاخلع نفسك منه كما خلعك الله فقال عثمـان لا أنزع قميصـاً ألبسنيه الله ولكن أتوب وأنزع قالوا لو كان هذا أول ذنب تبت منه قبلنـا ولكن رأيناك تتـوب ثمَّ تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله تعالى وإن منعك أصحابك =

لٰكِنْ أَبُــوْ ذَرٍّ لاَقَى فِيْ ٱلشَّـاَمِ أُمَيَّـــــةَ عَلَى نَحْـوِ مَـا قَـدْ كَـانَ يَـدْرِيْهَـا

=وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك فقال عثمان أما ان أتبرأ من خلافة رسول الله فالقتل أحبّ إليَّ من ذلك وأمّا قولكم تقاتلون من منعني فإنّي لا آمر أحداً أن يقاتلكم فمن قاتلكم فبغير أمري وكثر بعد ذلك الجدال بين عثمان والمصريين فنهض سيدنا علي وأخرج المصريين حتى إذا ما أصبحوا خارجاً حاول أن يلطف من شنآنهم فما استطاع إلى ذلك سبيلاً فتركهم ومضى إلى بيته وهو آسف مما جرى ويتوقع الشرَّ مما هو آت .

أمّا الثائرون فإنّهم يئسوا من الإصلاح وحصروا عثمان في الحال فلم يجد مشيروه خيراً من أن يكتبوا إلى الأجناد يستنجدونهم على الثائرين على أنّهم أشاروا على عثمان أيضاً أن يعود إلى سيدنا علي عليه السلام كي يستخدم نفوذه على الثائرين وبفضل مساعيه يطاولونهم إلى أن تصل النجدات المطلوبة ففعل وأرسل إلى علي أن يتوسط بينه وبين الثائرين ويردهم عنه على أن يعطيهم ما يطلبونه فقال سيدنا علي إنّهم لا يقبلون التعلل وقد كان من أمري معهم ما كان وهكذا ردّ الرسول ولم يفته عليه السلام أنّ عثمان وبالأحرى مشيريه في هذه المرة يريدون المطاولة فأعاد عثمان رسوله إلى علي وهو ملحف عليه أن يأتيه فما امتنع وجاءَه فقال له : قد ترى ما كان من الناس ولست آمنهم على دمي فارددهم عنّي فإنّي أعطيهم ما يريدون من الحقّ من نفسي وغيري فقال سيدنا علي : إنّ الناس أحوج إلى عدلك منهم إلى قتلك ولا يرضون إلاّ بالرضى وقد كنت أعطيتهم أولاً عهداً فلم تفِ به فلا تعوزني هذه المرة فإنّي معطيهم عليك الحقّ فقال عثمان : أعطهم فوالله لأفينَّ لهم فخرج علي إلى الناس وقال لهم : إنّما طلبتم الحقَّ وقد أعطيتموه وقد زعم عثمان أنّه منصفكم من نفسه وأنا الضمين فقال الناس قبلنا فاستوثق منه لنا فإنا لا نرضى بقول دون فعل فتركهم سيدنا علي وعاد إلى عثمان فأنبأه بأنّ الناس ما عادوا يقنعون بمجرد الوعد بل يطلبون العمل . فقال عثمان إنّي لا أستطيع أن أردّ ما كرهوا في يوم واحد فاضرب بيني وبينهم أجلاً . فقال عليّ : أمّا ما كان في المدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك إليه قال نعم فأجلي فيما في المدينة ثلاثة أيام فأجابه إلى ذلك وكتب تعهد على نفسه على ردّ كل مظلمة وعزل كلّ عامل كرهوه فخرج علي إلى الثائرين وبشّرهم بما كان فاستبشروا وخففوا الحصار وأقاموا ينتظرون التنفيذ .

أمّا عثمان وبالأحرى بطانته فجعلوا يعدّون عدتهم للقتال ومضت الأيام الثلاثة ولم =

رَأى جَمَــاعَتَهَــا فِيْ مِثْلِمَــا عُمَــرٌ   لَمَّــا تَجَــوَّلَ فِيْهَــا كَــانَ رَائِيْهَــا

=يفعل شيئاً فـاغتاظ الثـائرون وشـدّدوا الحصار عليـه فأشـرف عليهم من منزلـه وخاطبهم متلطفـاً بهم يسألهم الـرفق به وبهم وهم يقـولون اخلع نفسـك فيقـول لا أخلع سـربـالاً ألبسنيه الله .

ولما مضت ثمان عشرة ليلة من الحصار قدم المدينـة ركبان من الأمصـار فأخبـروا خبر من تهيأ إليهم من الجنود الذين أعدهم عمّال عثمان لنجدته حسب طلبه فلما انتهى ذلـك إلى الثائـرين اشتدَّت عـزيمتهم على حلّ المشكلة قبـل أن تصـل جنـود الأمصـار فحالوا بين عثمان والناس ومنعوه كل شيء حتى الماء وهم ينادون بـأعلى أصواتهم أنّهم لا يريدون قتله ولكن خلعه أمّا عثمان فكان مصرّاً على البقاء في خلافته وأرسل سرّاً إلى علي وطلحة والزبير وأزواج النبي يطلب منهم إسعـافه بـالماء فكـان أول من لبّاه سيـدنا علي عليه السلام فجاءه في الغلس فقال أيّها الناس إنَّ الـذي تفعلونه لا يشبـه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة فإنّ الروم وفارس لتأسر فتـطعم وتسقي فقـالوا : لا والله ولا نعمـة عين فرمى بعمـامته بـالدار وأمـر بـالمـاء وأدخله على عثمان عنوةً ثمَّ جاءَت أمّ حبيبة زوج النبي بالماء لعثمان فما استطاعت توصيله إليه . أمّا عائشة زوج النبي فكانت من أشدّ الناس على عثمان تغـري الناس بـه وتنعي عليه عمله وتسميـه نعثلاً فلمـا وصلها رسـوله يـطلب منهـا أن تمـدَّه بـالمـاء علمت أنّ الثـورة قـد استفحلت فأحبت الخروج إلى مكة حتى لا تحضر الفاجعة واستدعت أخاهـا محمد بن أبي بكر وطلبت منه أن يصحبها فأبى فخرجت وحدها إلى مكة قبيل سفر الحجاج .

وكان طلحة لا يتحاشى الظهور بعداوته لعثمان فيؤلّب عليه الناس ويشدّد عزائمهم خلافاً للزبير الذي كان ملازماً بيته لكنه كان إذا أتى إليـه الثائـرون يحسّن لهم عملهم . وكـان عبد الله بن عبـاس ملازمـاً باب عثمـان لا يفارقـه فلما آن ميقـات الحـج وعثمـان محصور ولّاه أمارة الحجّ فقال الأفضـل عندي أن أبقى على جهـاد هؤلاء الناس فـأقسم عليه أن يسير فسار .

ولمـا رأى الثائـرون أن موسم الحـج قد دنـا وأن عمّال عثمـان قد وجهـوا الجنود عليهم عمـدوا إلى حلّ المشكلة بقتـل عثمان ونمي ذلـك إلى سيدنـا علي فأسـرع حالاً وأرسل ولديه الحسن والحسين وقال الزما بابه وموتا دونه أو تمنعاه وكذلك قـدم لحمايـة عثمان من القتل محمد بن طلحة ومـروان بن الحكم وسعيد بن أبي وقّـاص وعبد الله بن =

فَعَادَ لِلنَّاسِ فِيْ ٱلْأَسْوَاقِ يَنْشِرُ مِنْ آيِ ٱلْكِتَابِ ٱلَّتِيْ رَامُوْهُ يَطْوِيْهَا

= الزبير وغيرهم من أبناء الصحابة فوقفوا بباب عثمان ومنعوا الثائرين من الدخول وبينما هم يجالدونهم خرج عثمان إلى أبناء الصحابة فزجرهم وأدخلهم داره وأغلق الباب عليهم دون الثائرين فقام رجل من أسلم يقال له تيار بن عياض وكان من الصحابة فنادى عثمان فخرج إليه وبينما هو يناشده أن يخلع نفسه إذ رماه كثير بن الصلت الكندي بسهم فقتله فصاح المصريون قائلين ادفع إلينا القاتل لنقتله به قال ما أنا لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي فلما سمعوا جوابه ثاروا وهاجموا الباب فدخل عثمان وأقفله وجلس إلى المصحف يقرأ فيه أمّا الثائرون فإذ تعذر عليهم فتح الباب جاؤوا بنار فأحرقوه والسقيفة التي فوقه وبينما هم لكذلك خرج إليهم من دار عثمان أولاد الصحابة على رأسهم الحسن والحسين ليردّوا الناس وكان معهم مروان بن الحكم فتعرض له رجل من بني الليث يدعى « البياع » فضرب مروان على رقبته فأثبت سيفه وقطع أحد علباويه فعاش بعد ذلك أوقص ولو لم تنجده مرضعته فاطمة أم إبراهيم بن عدي وتأخذه جريحاً إلى بيته لذففوا عليه . ولقي المغيرة بن الأخنس بن شريف رجلاً فقتله واقتحم الناس بعد ذلك الدار فتصدى لهم الحسن والحسين ومن معهما من أولاد الصحابة فمنعوهم فما كان منهم إلاّ أن اقتحموا الدار من دار عمر بن حزم التي بجوارها حتى ملأوها وندبوا منهم رجلاً ليعرض على عثمان أن يخلع نفسه فدخل عليه وهو في غرفته مكبّ على قراءة القرآن فقال له اخلعها وندعك فقال ويحك والله لست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاوة فخرج عنه ولم ينله بسوء . فأدخلوا عليه رجلاً من بني ليث فآخر فكان يجيب عثمان كلاً منهما بما يرضيه ولكنه يأبى أن يخلع نفسه فيخرج ولا يناله بسوء . وكان آخر من دخل عليه محمد بن أبي بكر فقال له عثمان ويلك أعلى الله تغضب هل لي إليك جرم إلاّ حقّه أخذته منك « إشارة إلى أنّه عزله من أمارة مصر » فأمسك محمد بلحية عثمان وقال قد أخزاك الله يا عثل فقال لست بعثل ولكني عثمان وأمير المؤمنين فقال محمد ما أغنى عنك معاوية ولا مروان وفلان وفلان فقال عثمان ياابن أخي ما كان أبوك « ويريد أبا بكر » ليقبض عليها . فقال محمد لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك والذي أريد بك أشدّ من قبضي على لحيتك . فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به فتركه محمد وخرج وهو يقول تصاغر أمامي فتركته . وفي حال خروجه هجم على عثمان قتبرة وسودان بن حمران والغافقي فضربه الغافقي بحديدة معه فسال دمه على المصحف وجاء سودان =

وَلَمْ يُفِــدْ مَعَــهُ مَسْعَى مُـعَــاوِيَــةٍ   إِذْ أَنَّ ذِمَّتَــهُ مَـا آسْــطَاعَ يَشْـرِيْـهَـا

=ليضربه بالسيف فأكبت عليه امرأته نائلة لتمنعه وتلقت السيف بيدها فنفح أصابعها فـأطنَّ أصـابع يـدها وولت وثنّى على عثمـان فقتله . ودخـل غلمـة لعثمـان لينصـروه فضـرب أحدهم رقبة سـودان فقتله ووثب قتبرة على الغـلام فقتله وانتهبوا مـا في البيت وخرجـوا وأغلقوه على القتلى الثلاثة عثمان والغلام وسودان وبخـروجهم وثب أحد غلمـان عثمان على قتبـرة فقتله وكـان قتـل عثمـان يـوم الجمعـة لثمـاني عشـرة خلت من ذي الحجـة سنة ٣٥ هـ .

وبقي عثمان ثلاثة أيام قتيلاً مضرجاً بدمه لا يجرأ أحـد على دفنه ثمَّ أن حكيم بن حزام القرشي وجبير بن مطعم كلّمـا علياً أن يـأذن بدفنـه فأذن وحسن لهم أن يـدفن ليلاً تلافياً للشرّ وسار بجنازته الحسن والحسين والزبير ومـروان بن الحكم وحذيفـة ودفن في حشّ كـوكب خـارج البقيـع وصلّى عليـه جبيـر بن مـطعم وكـانت ولايتـه ١٢ عـامـاً إلاّ ١١ يوماً .

وقد أفصح سيدنا أمير المؤمنين عن رأيه الأعلى في قتل عثمان وقتلتـه بما لم يبق معه مقال لقائل فقال : « لو أمرتُ به لكنت قاتلاً ، أو نهيت عنه لكنت ناصـراً ، غير أنَّ من نصره لا يستطيع أن يقول خـذله من أنـا خيرٌ منـه ، ومن خذلـه لا يستطيـع أن يقول نصره من هو خير مني ، وأنا جامع لكم أمره ، استأثـر فأسـاء الأثرة ، وجـزعتم فأسـأتم الجزع ، ولله حكم واقع ، في المستأثر والجازع » اهـ .

« كلمة إلى الشيخ محمد الخضري »

رأت إدارة الجامعة المصرية أن تلقي محاضرات في تاريخ الأمم الإسـلامية على طلبتها فانتدبت لذلـك حضرة الأستـاذ الشيخ محمـد الخضري ففعـل وطبع محـاضراتـه ووزعها على الناس . وبـالطبـع ان إدارة الجامعـة عندمـا وثقت بعلم الشيخ وأنـاطت به إطلاع تلاميذ الجامعة وهم زهرة الشبيبة المصرية أعلى تاريـخ الأمم الإسلاميـة وما فيـه من العبر أرادت منه أن يكون صادعاً بالحق متوخياً ما فيه مصلحة المسلمين والظاهـر أنّ الشيخ كان عارفاً بالمهمة التي انتدب إليها يقدّرها حقَّ قدرها .

وقد رأينا في محـاضرات الشيـخ الخضري أقـوالاً كثيرةً لا يقـول بها إلاّ بنـو أميّة وأنصارهم فقلنا ما كان أحرى بالشيخ لو كان في أيام معاوية بن أبي سفيان ومن تبعه من =

= الخلفاء الأمويين فيلقي من حواليهم محاضراته على الناس فيرضيهم بها أمّا الآن وقد مرّت على الدولة الأموية نحو ألف وثلاثمائة عاماً فأنا أؤكد لحضرة الأستاذ الفاضل بأنّ ما في الناس من يرضيهم قوله إذا لم يكن مدعوماً بالحقّ مؤيداً بالبرهان الأشهب .

لم يذكر الشيخ الخضري في محاضراته ما كان في « غدير خمّ » ولم يلتفت حق الإلتفات إلى الأسباب التي دعت حملة أسامة بن زيد على الامتناع عن الخروج بأمر المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم للغزو ولا قال لنا شيئاً عن عمر عندما منع أن يؤتى للمصطفى باللوح والدواة وهو على فراش الموت واعتذر ما شاء الإعتذار عمّا كان في السقيفة وكلّ هذا نغتفره له لاعتقادنا بأنّه مُلبسٌ ثوبه الدينيُّ ولو قال جهرةً في محاضراته ان المسألة سياسية بحتة لا علاقة لها بالدين وغلّط الذين ألبسوها ثوبها الديني . ولكن الذي لا نعذره عليه هو تصغيره أمر الخوارج الذين خرجوا على عثمان وذهابه مع الذاهبين إلى تكذيبهم ونسبته حركتهم ضمناً بل قل صراحةً إلى الصحابة ولا سيما سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام ضمناً أو صراحة أمير المؤمنين والصحابة الآخرين لأنّهم كانوا يعيبون عثمان وعمّاله لتجاوزهم الحدود الإسلامية في سياسة الرعية وتمتعهم بخيراتها ولومه عثمان لأنّه لم يستعمل الشدّة مع الذين وقفوا بوجهه يطلبون منه الرجوع إلى الحقّ كما أشار عليه عمّاله كل هذا وأمثاله كثير في محاضراته المشار إليها وقع منا موقع الدهشة والاستغراب حتى خلنا أنّه أمويٌّ في القرن الأول للهجرة يتكلم لا أحد علماء القرن الرابع عشر الهجري . ولعمري إذا هان على الناس سماع كلمة في أيّ كان من السلف فما فيهم مؤمن يرضى أن ينال نائل من سيدنا عليّ بن أبي طالب عليه السلام في هذا العصر حيث لا مؤثر سياسي يحملهم على الإغضاء وهم متألمون .

إننا بكل احترام نتقدم من حضرة الأستاذ الشيخ محمد الخضري ببيان منزلة سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام من أنفس المسلمين أمّا منزلته عند الله ورسوله فهو أدرى بها مني لأنّه مسلم صحيح الإيمان يعرف فوق ما أعرف أنا من حقيقتها ولا أريد أن أجادله في هذا الأمر إلّا من الوجهة التاريخية الدنيوية فأقول : إنّ الأستاذ يعلم ما فعلت السياسة لتنفير المسلمين من سيدنا علي وحسنيه عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام ولا يعزب عن علمه الواسع كيف كان الناس يسبّون سيدنا علي على عهد الأمويين من على المنابر وفي مجالسهم وذلك صريح ثابت لا جدال فيه ولا يجهل =

فَـرَاحَ يَشْكُـوْ مَـآتِيْـهِ لِصَـاحِبِـهِ   وَقَـالَ شِـرَّتُـهُ صَعْبٌ تَـلاَفِيْهَـا

= الأستاذ حفظه الله ما كان ينال شيعة سيدنا عليّ ومحبّيه من اضطهاد الأمويين وعمّالهم وما بُذل من الهبات والجهود لوضع الأحاديث وتصنيفها لتحقير سيدنا علي أو إيصال غيره من الصحابة إلى مرتبته العليا . وفي الأخير يعلم الأستاذ ولا يجهل أنّ مساعي بني أمية هذه قد نجحت نجاحاً باهراً حتى كنت لا تجد في المسلمين من يسمّي أولاده عليّاً أو حسناً أو حسيناً وقد انتشرت فيهم أسماء معاوية ويزيد وعبد الملك ومروان بعضهم لتشبعه من روح الكره لآل البيت الطاهر وبعضهم خوف الاتهام بتشيعه لهم حتى روى أحد الرواة أنّه لم يجد في الشام كلّها في نحو سنة ٨٠ للهجرة من سمّى أولاده بأسماء آل البيت الشريفة سوى رجل واحد عثر به في برية الشام فاستغرب أمره وظنّه متشيعاً فسأله كيف رضي أن يسمّي أولاده عليّاً وحسناً وحسيناً فقال : إنّي ما سمّيتهم بهذه الأسماء إلاّ لأستبيح سبهم وانتهارهم فكأنّي أسبّ أولئك الذين لهم هذه الأسماء فتأمّل .

نعم هذا ما فعله بنو أميّة في مدى حكمهم وقد بلغ المئة عاماً . على أنّ هذا لم يمنع الناس أن يكونوا متشيعين سرّاً لسيدنا عليّ وولديه وأولادهما رغم تلك السياسة القاهرة الضاغطة فنال من شعر الأمويون بهم على هذا المذهب ما نالهم من الشرّ على ما هو معلوم . ثمّ أنّ آل البيت الطاهر وشيعتهم لم يسلموا على عهد العباسيين من الاضطهاد والتنكيل أيضاً لمطالبتهم بالخلافة وحسبانها من حقّ الطالبيين دون سواهم فما استطاع العباسيون على طول عهدهم بالخلافة ودخول الأتراك فيها من قتل هاتيك الروح الشريفة روح التشيع لوصي المصطفى ووزيره وأفضل وأكمل رجل في الإسلام بعد المصطفى عليهما الصلاة والسلام . ثمّ دارت الأفلاك وتحوّلت الأحوال وتلاشت القوى الضاغطة على العقول وأطلقت للناس الحرية في اعتقادها فرجعت إلى ما كانت عليه من احترام أهل البيت الطاهر وتقديسهم فما عدت تجد واحداً يخلو بيته من اسم محمد أو عليّ أو حسن أو حسين كما ما عدت ترى شخصاً واحداً يدعى باسم معاوية أو يزيد أو عبد الملك أو مروان . وهذا الإنقلاب وحده يكفي للإعتقاد بأنّ لآل البيت الطاهر مكانة عند الناس منبثقة من مكانة المصطفى وأنّ المكانتين متلازمتان لا انفكاك لإحداهما عن الأخرى سيان ذلك في نظر العامة أو الخاصة فالعامة تنظر إلى مكانة أهل البيت من الجهة الدينية فقط والخاصة من جهتي الدين والعلم بالتاريخ حتى صار=

فَـاسْمَـحْ بِـإِرْجَـاعِـهِ أَوْ مُـرْ فَـأَقْتُلُهُ فَـإِنَّـهُ مُقْلِقُ ٱلـدُّنْيَـا مُـدَسِّيْهَـا

=كثيرون من علماء السنّة الذين لا بدَّ لهم من إقرار ما جرى في صدر الإسلام والدفاع عنه أن يجهروا بجواز ولاية المفضول بحضور الفاضل وأن يعلنوا عند ذكر الحوادث التي نحن بصددها قولهم : « إننا لا نظن بصحابة رسول الله إلّا خيراً » وما ذكرنا هذا لحضرة الأستاذ لأنّه لا يعرفه ولكن لأنّا نشكو من تطرفه بالتشيع للأمويين ما ساقه إلى تقرير كل ما كتب للدفاع عن دعوى بني أميّة كحقائق راهنة لا تقبل الجدل حتى زلق به القلم إلى توجيه ما كنّا نريد أن ننزّه قلمه عنه إلى شخص سيدنا علي عليه السلام حتى لرأيناه يتهم هذا السيد الأروع الجليل بمقتل عثمان بشبه صراحة إن لم تقل بصراحة .

وبعد فهل يعتقد حضرة المؤرخ الكبير الشيخ محمد الخضري اعتقاداً صحيحاً أنّ سيدنا علي ما بذل فوق الجهد ليرجع عثمان عمّا يساق إليه من الشطط بأيدي أصحابه الأمويين ؟ وهل يعتقد اعتقاداً صحيحاً أنّ سيدنا علي الذي طالما عارض عمراً على شدَّته غيرةً على الشريعة السمحاء وكان عمر يسمع له ويقول : « لولا علي لهلك عمر » يسهل عليه أن يرى الأمويين يسيطرون في ظلال عثمان على المسلمين ويتمتعون بخيرات الخلافة الإسلامية ويسكت ؟؟ وهل يعتقد أنّ سيدنا علي ما بذل جهده ليمنع الفتنة مراراً وتكراراً وإنّه لم يتوسط بإخلاص بين عثمان والثائرين لذلك وكان عثمان يقتنع من نصائحه الصادقة وبعد بالإصلاح ثمَّ يعترض الأمر ويفسده مروان ؟ إذا كان يعتقد الشيخ الخضري أنّ هذا لم يحصل ولذلك لم يذكره في كتابه لتبرير سيدنا علي من قتل عثمان فما أحراه أن يرجع إلى التاريخ وإن كان يعتقده قد حصل ولكن لم يكن عليٌّ مخلصاً فيه فكان يجب أن يذكره في كتابه ويقيم البراهين على عدم إخلاص سيدنا علي بنصائحه لنعرف كيف نقيم الحجة لإقناعه بإخلاص الإمام وفي الأخير إذا كان الشيخ الخضري يعتقد ما كتبه في محاضراته بأنّ عمّال عثمان ما كانوا مخطئين وأنّ الثائرين قد ظلموهم وظلموا صاحبهم عثمان وأنّ سيدنا علي وغيره من كبار الصحابة كطلحة والزبير حتى عبد الرحمن بن عوف الذي كان متجنباً الخلافة وعمالاتها وكان أول من تجرأ على عثمان فمدَّ يده إلى إبل الصدقة التي ما كادت تصل إلى عثمان حتى وهبها لبعض ولد الحكم فأخذها وقسّمها بين الناس احتجاجاً على الهبة واعتراضاً عليها فإذا كان مبلغ علمه بالتاريخ أنّ هؤلاء الصحابة وبقية الناس كانوا مخطئين بتخطئة عثمان فيما يفعل ولا يرضاه الشرع الإسلامي فأقول بكل أسف إنّه قد بعد عن الحقيقة =

فَقَــالَ عُثْمَــانُ أَرْجِعْــهُ بِغَيْــرِ تَــوَا نٍ إِنَّ قَتْلَتَــهُ مَــا ٱلْخَيْــرُ تَــالِيْهَــا

= وأأسف أن يحلَّ تلامذة الجامعة المصرية في القرن الرابع عشر للهجرة محاضراته في محل الاعتبار كأنّها حقيقة واقعية لا ريب فيها ولا باطل يعتورها .

وأراد الشيخ محمد الخضري حسب اجتهاده أن يصغّر المسألة في نظر المسلمين لقصد حسن طبعاً وهو جمع كلمتهم بعد أن بعدوا عن هاتيك المواقع بهذا العهد الطويل وبعد أن لم يبق في الناس من يهمه التسلح بها فقال : « من الغريب أن تبقى هذه الحادثة سبباً دائماً لتفريق كلمة المسلمين ففي بعض الأحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والأسنة وفي بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهي بعداء ونفور وليس ذلك إلاّ لأنّ المسألة ألبست ثوب الدين وكلٌّ حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه إلى غرض من الأغراض . ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه قومٌ من رعيته بعضهم سيء القصد « كذا » والبعض الآخر تابع لهم ثمّ قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الإسلام ثمّ نحكم بأنّهم أخطأوا خطئاً عظيماً ثمّ ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو نبين الصواب له لخطئه وغاية الأمر أنّ الباقي لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان فالعاقل همّه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية » انتهى قوله .

ونحن نشكر للشيخ محمد الخضري حسن قصده في هذا القول وتقرّه على أن على المسلمين اليوم أن لا يحقدوا على ما كان بل أن يستفيدوا منه العبرة ويعودوا إلى جمع كلمتهم بعد تفريقها ولا نتعرض إلى تجريده المسألة من ثوبها الديني كل هذا نحن به مع الشيخ الخضري ولكن نخالفه فيما عداه نخالفه في أنَّ الناس غضبوا على عثمان عن سوء قصد والغاضبون الحقيقيون هم سيدنا علي وأبو ذرّ وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعائشة ونحوهم من زعماء المهاجرين والأنصار وما غضبوا على عثمان إلاّ لأنّه أغضب الشريعة فإن كان المراد من البحث في الموضوع هو العبرة فعلينا أن نظهر الحقيقة ليعتبر الناس بها فنقول لهم مثلاً : « إنّ عثمان مع أنّه زوج ابنتي رسول الله ومع أنّه ثالث الخلفاء الراشدين ومع أنّه من السابقين إلى الإسلام مع ذلك كلّه عندما أخطأ إلى الشريعة باستسلامه إلى الأمويين وتوزيعه عليهم أموال المسلمين وعمالات المسلمين لم يتسامح معه المسلمون بأن وقفوا في وجهه وثاروا عليه وحصروه وطلبوا منه أن يصلح ولما لم يستطع الإصلاح طلبوا منه أن =

فَكَــانَ مُـرْجِعَــهُ بَيْنَ ٱلْجُنُـوْدِ بِــلاَ   كَــرَامَــةٍ هُــوَ أَوْلَى أَنْ يُــلاَقِيْـهَــا

=يستقيل ولما أبى الاستقالة قتلوه » نعم إذا قلنا هذا القول نكون قد قلنا الحقيقة وألقينا على الملوك والناس درساً من أشرف الدروس الشعبية « الديموقراطية » الإسلامية التي يفتخر المسلمون أنّها من أصول دينهم الحنيف ولا سيما إذ يرون الأوربيين يعملون بها بعد ألف وثلاثمائة عاماً وبعد أن بلغوا من الرقي العلمي والعملي ما بلغوا وفي إعطائنا هذا الدرس للمسلمين وملوك المسلمين نكون قد وصلنا إلى الغاية الصحيحة التي ينشدها الشيخ محمد الخضري وكل من يهتمُّ بخير المسلمين ويتمنى لهم أن يعودوا إلى ماضيهم المجيد وقد يكون هذا القول إذا اقتنع به المسلمين اليوم وسيلةً لجمع كلمتهم بعد فرقتها كل هذه الأعوام الطوال فقد يجتمعون على حبّ محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولكن من المحال أن يجتمعوا على قولٍ يحطُّ من أقدار آل البيت الطاهر والله سبحانه أعلم .

« ترجمة عثمـــان »

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي يجتمع برسول الله بعبد مناف . وأمّه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف . ولد في السنة الخامسة من ميلاد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم على يد أبي بكر وزوّجه المصطفى ابنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة وهاجر مع المهاجرين إلى المدينة وحضر المشاهد مع المصطفى إلّا بدراً حيث كان يمرّض زوجه رقية التي توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له الرسول في غنائم بدر ثمَّ زوَّجه ابنته الثانية أمّ كلثوم ولذلك دعي « ذو النورين » وفي يوم الحديبية أراد المصطفى أن يرسل عمراً ليتفاهم مع المشركين فخاف قائلاً ليس لي من ينصرني فابعث بعثمان إليها وقومه هم السائدون فيها فأرسل عثمان بهذه المهمة على نحو ما تقدم في يوم الحديبية وفي غزوة تبوك أنفق عثمان كثيراً من ماله واشترى بئر رومة بماله أيضاً ثمَّ تصدَّق بها على المسلمين وكان في جملة كتاب الوحي وأخلص لأبي بكر في خلافته فكان أمينه وكاتبه وبيده كتب عهده لعمر على ما تقدم . وكان وفياً لعمر يكتب له . وولّي الخلافة بعد مقتل عمر على نحو ما تقدم معنا أيضاً .

وفي عهد عثمان كانت مغازي أهل الكوفة الري وأذربيجان . وسيّر سلمان بن ربيعة الباهلي على أرمينيا بعد انتقاضها فأيد بها حكم الخلافة وفتحت أيضاً طبرستان =

= وهي مصرٌ واسعٌ على شاطىء بحر الخزر . وفي سنة ٣٢ هـ أوغل عبد الرحمن الباهلي في بلاد الخزر ولم يكن نجاحه كبيراً . وثارت الفرس على عهده وانتقضت على حكمه فطوعها جيش البصرة . وكان معاوية بعهده يغزو الروم فبلغ عمورية وتوسع في أرمينيا حتى تفليس وفي هذا العهد صنع معاوية السفن الحربية وأنزل فيها المسلمين وكان عمر من قبل يمنعه من ذاك ففتح قبرس وهذا أول عهد المسلمين بالحرب البحرية وأمر عثمان أن يكون جند المسلمين في البحر متطوعين بملء إرادتهم وكان أميرال أسطول معاوية عبد الله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فكان يغزو كثيراً . وهذا أول أميرال عربي مسلم خاض البحار للحرب والغزو . ثم أنَّ عمرواً بن العاص عاد في أيامه إلى مصر وصنع أسطولاً بحرياً أيضاً ثمَّ عزله عثمان ثانيةً وعيّن لمصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ولما جاء قسطنطين ملك الروم بأسطول فيه ستمائة سفينة حربية يريد فتح الثغور المصرية سار إليه ابن أبي سرح بأسطوله وقدم معاوية بأسطوله وحاربا أسطول الروم في البحر وتغلبا عليه وقهراه واستوليا على كثير من سفن الروم وسمّيت هذه الموقعة بموقعة أم الصواري وهكذا أصبحت الخلافة الإسلامية في عهد عثمان دولة بحرية ولم يكن لها عهد في البحار قبل ذلك .

ولم تكن أيام عثمان هادئة فإنّ البلاد انتقضت عليه فحاربها وأعادها إلى الطاعة ثمَّ ثار عليه العرب وانتهت ثورتهم بمقتله على نحو ما تقدم وكانت أعوام خلافته اثنتي عشر عاماً إلاّ ١٢ يوماً .

وتزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله فولدت له عبد الله ولم يعش وتزوج في المدينة أختها أم كلثوم . وتزوج فاختة بنت غزوان من قيس عيلان وولدت له عبد الله الأصغر فلم يعش . وتزوج أم عمر بنت جندب الروبي فولدت له عمراً وخالداً وأباناً وعمرواً ومريم . وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً وأمَّ سعيد . وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبد الملك ومات . وتزوج رملة بنت شيبة من بني عبد مناف فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو . وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم .

أمّا عمّال عثمان في عام مقتله فهم : عبد الله بن الحضرمي على مكة . والقاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف . ويعلى بن منبه على صنعاء . وعبد الله بن عامر =

= على البصرة . ومعاوية بن أبي سفيان على الشام . وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد على حمص « وكان مرجعه إلى معاوية » . وحبيب بن مسلمة الفهري على قنسرين وحلب . وأبو الأعور السلمي على الأردن . وعلقمة بن حكيم الكناني على فلسطين . وأبو موسى الأشعري على الكوفة « وعلى خراجها جابر المازني وعلى حربها القعقاع بن عمرو » وجرير بن عبد الله البجيلي على قرقسيا . والأشعث بن قيس الكندي على آذربيجان وعتبة بن البهاس على حلوان . ومالك بن حبيب على الملة . والنيسر على همدان . وسعيد بن قيس على الريّ . والسائب الأقرع على أصبهان . وكان على مصر عبد الله بن سعد ولكن الثورة أفضت إلى تغلب محمد بن أبي حذيفة عليها وكان له على بيت المال بمصر عقبة بن عامر وعلى القضاء زيد بن ثابت .

أمّا صورة عثمان : فقد كان ربعة ليس بالقصير والطويل . حسن الوجه . بوجنتيه نكات جدري . أقنى مشرف الأنف . رقيق البشرة . عظيم اللحية طويلها . أسمر اللون . كثير الشعر . له جمة أسفل أذنيه . ضخم الكراديس . بعيد المنكبين . أصلع الرأس .

« مصحف عثمان »

والمعروف بين الناس أنّ القرآن الشريف هو من جمع عثمان بن عفان ولذلك يسمّونه مصحف عثمان والحقيقة في هذا الأمر هو أنّ سيدنا علي انصرف إلى جمع القرآن بعد وفاة المصطفى عليهما الصلاة والسلام وكانت حفصة بنت عمر زوج المصطفى تجمع هي أيضاً ما تفرّق من الكتاب الكريم وتمّ ترتيبه وقتئذٍ والأمر بيد أبي بكر وصار الناس يتناسخونه فلما كان عهد عثمان حدث لغط بين الأمصار فيقولون مصحف فلان خير من مصحف فلان أو مصحف الشام مثلاً خير من مصحف العراق فخاف عثمان أن يفضي الحال إلى إدخال شيء من التحريف على الكتاب الكريم فطلب الصحف التي كانت عند أبي بكر واستكتب منها عشر نسخ وأرسلها إلى الجهات وأمر بإحراق كل ما عداها وهكذا حفظ القرآن الشريف بغير تغيير ولا تبديل ولا خطأ وأطلق عليه إسم « مصحف عثمان » ولا نعلم ما فعل الله بهذه المصاحف العشرة إلّا أنّهم يقولون أنّ أحدها موجود في المكتبة القيصرية في موسكو وله صورة أخذت بالفوتوغراف باسم الحكومة المصرية وهي موجودة في المكتبة السلطانية في القاهرة . =

وَعَادَ فِي طَيْبَةٍ يَرْغِيْ وَيَزْبِدُ تَشْـنِيْعَاً لِأَعْمَالِهِ ٱلْكَثْرَى وَتَسْفِيْهَا

=وفي مكتبة السلطنة المصرية أيضاً يوجد مصحف آخر يقولون أنّه أحد هاتيك المصاحف العشرة . ويوجد في خزينة الآثار النبوية في القسطنطينية مصحف ثالث يقولون أنّه من هاتيك المصاحف . ويقولون أنّ المصحف الشريف الذي سبق لنا ذكره في الحجرة الشريفة النبوية في المدينة المنورة هو منها والله أعلم .

« ترجمة مروان بن الحكم »

أمّا ترجمة مروان بن الحكم الذي هو رأس هذه الفتنة فهو مروان بن الحكم بن العاص بن أميّة الأموي القرشي وأمّه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكناني ولد في السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم مع من أسلم من كفّار ومشركي قريش يوم الفتح وهم الذين سماهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يومئذٍ « الطلقاء » وأطلق المسلمون عليهم إسم « المؤلّفة قلوبهم » والحكم هذا هو عمّ عثمان بن عفّان وسار بعد الفتح إلى المدينة فأقام فيها مدّةً ثمّ طرده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها فسار إلى الطائف بولده وفيهم مروان وهو غلام يترعرع وسكنها أمّا سبب طرد النبي الحكم بن العاص فذلك لأنّه كان يحتال ويستخفي ويسمع ما يسرُّه رسول الله إلى أكابر الصحابة ويفشيه في مشركي قريش وسائر الكفّار والمنافقين وكان يقلد المصطفى في مشيته مستهزئاً وأنت تعلم أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتكفأ في مشيته وكان يفعل الحكم ذلك عن حسد وشنئان فالتفت رسول الله ووجده على هذه الحالة فقال له كذلك فلتكن يا حكم ومن ذلك الوقت أصبح الحكم يرتعش ويختلج وبعد أن وقف رسول الله على سوء خبيثته نفاه إلى الطائف فظلّ فيها ولم يسمح أبو بكر وعمر له بالخروج منها حتى إذا تولى الأمر عثمان قدم المدينة مع ولده فاختصّ عثمان كبيرهم مروان للكتابة فما زال حوله حتى تغلب عليه وأصبح الآمر الناهي في خلافته وكان عمره لا يزيد عن ٢٢ عاماً .

وكان مروان داهيةً حيالاً خبيثاً فاختصه معاوية بصداقته واتّفق معه على السيطرة على الخلافة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان وهكذا كان ويدلك على اقتدار هذا الرجل ما رأيت من جرأته من الكتابِ الذي كتبه وختمه بختم عثمان وأرسله إلى عامل مصر وفيه ما فيه من الأمور ذات المسؤولية الكبرى والنتائج المخيفة من غير أن يعرف عثمان هذا والناس في بحران ثورتهم .

وعندما قتل عثمان أصيب مروان بضربة سيف على ما تقدم فقطعت إحدى =

فَـآمَـرَ آلنَّـاسَ أَنْ تَجْفُـوْ مَجَـالِسَـهُ   وَأَنْ تُـقَـاطِعُـهُ سِـرّاً وَتَـجْـرِيْهَـا

= علباويه وأصبح بعدها أوقص على أنّ مروان هذا زيادةً في جرأته لم يشأ أن يهرب إلى معاوية مع من هرب من بني أميّة بعد مقتل عثمان بل ظلّ هناك وكان مع المبايعين للإمام عليّ على أنّه ما أمهل أن نكث بيعته وانضمّ إلى عائشة والزبير وطلحة ومن معهما من أصحاب الجمل وصحبهم إلى البصرة . وفي واقعة الجمل وقع مروان أسيراً في يد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فتقدم منه ولداه الحسن والحسين مستشفعين به فخلّى سبيله فعرضا عليه أن يأتي ويبايعه فقال : « أو لم يبايعني بعد قتل عثمان ، لا حاجة لي في بيعته ، إنّها كفٌّ يهودية ، لو بايعني بيده لغدر بسبته ، أمّا أنَّ له أمرةً كلعقة الكلب أنفه ، وهو أبو الأكبش الأربعة ، وستلقىٰ الأمّة منه ومن ولده يوماً أحمر » وهذا أيضاً مما كان عليه السلام ينبيء به عمّا يجري في المستقبل إذ بالفعل تولّى مروان الخلافة أجلاً يسيراً على ما سترى ثمَّ تولّاها بعده أحفاده الأربعة الواحد بعد الآخر وهم أولاد ابنه عبد الملك الوليد وسليمان ويزيد وهشام وكان من أمر الأمّة في عهدهم ما لم يخرج عن أخبار أمير المؤمنين عليه السلام .

وبعد أن أطلق سيدنا علي عليه السلام مروان خرج إلى الشام فانضمَّ إلى صاحبه معاوية وحضر معه حرب صفين وبعد مقتل سيدنا عليّ وتنازل سيدنا الحسن عن الخلافة إلى معاوية ولّى هذا على المدينة صاحبنا مروان ثمَّ جمع له إلى المدينة مكة والطائف ثمَّ غضب عليه فعزله وولّى سعيد بن العاص مكانه فسار مروان إلى الشام غاضباً ولقي معاوية وأغلظ له القول وتهدَّده بأولاده وأنذره بالتغلب على الخلافة وأقام في دمشق وهو ليس على ولاء مع معاوية .

ولما أصرَّ معاوية على أخذ بيعة الناس لابنه يزيد على حياته كبر هذا على مروان وهو كما تعلم شريكه في استخلاص الخلافة لبني أميّة من عهد عثمان ولذلك هجر دمشق وأقام في المدينة المنورة وفي نفسه ما فيها على معاوية . وتوفي معاوية سنة ٦٠ هجرية وخلفه ابنه يزيد فظلّ مروان في المدينة أيضاً على عهده وما زال كذلك إلى أواخر سنة ٦٣ هجرية حيث ثار أهالي المدينة وانتقضوا على يزيد بن معاوية وكان أول عمل عملوه أنّهم حصروا الأمويين في دار مروان ثمَّ أطلقوا سراحهم على أن يرتحلوا عن المدينة وأن يقسموا أن لا يمالئوا عليهم يزيد ولا غيره من أعدائهم ففعلوا وكان في جملة الذين خرجوا من المدينة من الأمويين مروان وابنه عبد الملك . وانجلت الثورة =

فَمَـا أَطَـاعَتْ وَلَا عَنْـهُ قَـدِ ٱمْتَنَعَتْ   وَظَـلَّ يَهْجُـوْهُ فِيْ ضَـافِيْ نَـوَادِيْهَـا

= عن خضوع المدنيين ليزيد . ويزيد هـذا هو صـاحب الجريمـة المشهورة ألا وهي قتـل سيد الشهداء سيدنا الحسين عليه وعلى أبيه وجدّه وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام .

وفي ١٤ ربيع أول سنة ٦٤ هـ « ١٠ نوفمبر ٦٨٣ مسيحية » توفي يـزيد بن معـاوية فخلفه ابنه معاوية الثاني بعهدٍ منه وما كاد معاويـة الثاني وهـو لم يكن يتجاوز من العمـر ٢١ سنـة يتربـع على دست الخلافـة حتى رأى الناس حـوله على حـزبين أحدهمـا مـع عبد الله بن الزبيـر الذي كـان قد نـادى بنفسه في الحجـاز خليفةً للمسلمين والثـاني مع مـروان بن الحكم ابن عمه . وذلـك لأنّ مروان صعب عليـه أولاً ولاية يـزيد فـاحتملها مكرهاً منزوياً في المدينة ولكنه لم يحتمل ولاية معاوية الثاني فهمَّ أن يترك الشام ليلحق بـالمدينـة فقيل لـه بل الأولى أن تـظلَّ هنا فـإنّ معاويـة لا يعيش لضعف جسمـه وكثـرة أمراضه وأنت زعيم الأمويين فأصغى وقام على رأس حزبه الكبير ينظر إلى ما يكون .

غيـر أنّ معاويـة الثاني لضعف جسمـه وتأثيـر الأمراض عليـه لم يطق حـال الشام وانقسام الناس فيها كما لم يتحمل الذين يدلون عليه والذين يكيـدون له فـاستدعى يـوماً الناس بعد قليـل من خلافتـه إلى المسجد الأمـوي ووقف فيهم خطيبـاً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أمّا بعد فإنّي قد ضعفت من أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخـطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستةً مثل ستة الشـورى فلم أجدهم فـأنتم أولى بأمركم فاختاروا لـه من أحببتم » ونزل عن المنبـر نافضـاً ردنيه من أمـر لم يكن كفئاً لـه ودخل بيته منزوياً بأمراضه ولـم يطل انزواؤه فمات بعد ثلاثة أشهر وعلى أثر وفاته اجتمع أهــل الشـام على بيعــة مـروان وبــايعـوه وكــان ذلـك لثــلاثٍ خلون من ذي القعـدة سنة ٦٤ للهجرة .

وكـان زعيم المتشيعين لعبد الله بن الـزبير الـذي نـادي بنفسـه خليفـة منـذ تـولى الخلافة معاوية الثاني رجل اسمه الضحاك وكان يكتفي بإقلاق راحة معـاوية الثـاني وهو يعلم أنّه لا يعيش فلما رأى مروان أصبح خليفـة المسلمين هاجمـه بين الجابيـة والمرج ودام القتـال بينهما عشـرين ليلةً وانتهى بقتل الضحـاك وانخذال أصحـابه وكـان هذا في محرم سنة ٦٥ للهجرة وبعد ذلك انصرف مروان إلى أمصار سوريا وأخضعها بالسيف ثم سار بجنده إلى مصر ففتحها كل ذلك في مدى تسعة أشهر .

وكان الناس عندما بايعوا مروان بايعوا بولاية العهد خالداً بن يزيد بن معـاوية وهـو =

لِـذَا نفَـاهُ لِيَنْجُـوْ مِنْ مَـلاَمَتِـهِ   إِلَى حِمى آلـرَّبَذَةِ آلْمَشْقِيُّ ثَـاوِيْهَـا

وَعِنْدَ مَـا سَـارَ لِلْمَنْفَى آلتَّقِيُّ أَبُـوْ   ذَرٍّ بِجُنْـدِ آبْنِ عَفَّـانٍ يُمَـاشِيْهَـا

سَعَى لِتَـوْدِيْعِـهِ آلْمَـوْلَى أَبُـوْ حَسَنٍ   وَآبْنَـاهُ مِنْ طِيْبَـةٍ حَتَّى عَـوَالِيْهَـا

وَإِذْ دَنَـا مَـوْعِـدُ آلتَّفْـرِيْقِ وَدَّعَـهُ   بِـخُـطْبَـةٍ قَـرَّطَ آلآذَانَ دُرِّيْـهَـا

فَقَـالَ بُشْـرَى أَبَـا ذَرٍّ فَغَضْبَتُـكَ آلْــ   ـكُبْرَى لِـرَبِّكَ لَمْ تَنْفَـكَّ تُبْـدِيْهَـا

فَـاطْلُبْ مُكَـافَـأَةً مِمَّنْ غَضِبْتَ لَـهُ   سُبْحَـانَـهُ فَهْـوَ يَا بُشْـرَاكَ مُسْـدِيْهَـا

وَآلنَّـاسُ مِنْـكَ عَلَى دُنْيَـا تُلَذُّ بِهَـا   خَـافَتْ وَكَمْ غَرَّتِ آلـدُّنْيَـا أَهَـالِيْهَـا

وَخِفْتَ مِنْهَـا عَلَى دِيْنٍ تَـدِيْنُ بِـهِ   وَقَـدْ أَبَيْتَ لَـهُ يَـا صَاحِ تَشْـوِيْهَـا

فَاهْرُبْ بِمَا خِفْتَ مِنْهَا يَا أُخَيَّ عَلَيْــ   ـهِ وَآتْـرُكْ مَـالَـهُ خَـافَتْ بِـأَيْـدِيْهَـا

مَـا كَانَ أَحْـوجُهَا تَـآللَّهِ لَـوْ رَشَـدَتْ   إِلَى آلَّـذِي عَنْـهُ قَـدْ أَحْبَبْتَ تُنْهِيْهَـا

وَأَنْتَ عَمَّـا عَلَيْكَ آلْيَـوْمَ قَـدْ مَنَعَتْ   مَـا كَانَ أَغْنَـاكَ مَا آلـدُّنْيَـا تُـرَجِّيْهَـا

غَـدَاً سَتَعْلَمُ مَنْ رَبُّ آلـرَّبَـاحِ وَمَنْ   هُـوَ آلْحَسُوْدُ وَعُقْبَى آلـدَّارِ تَـدْرِيْهَـا

لَوْ كَانَتِ آلأَرْضُ رَتْقَاً وَآلسَّمَاءُ عَلَى   عَبْـدٍ وَبَيْنَهُمَـا قَـدْ تَـاهَ تَتْيِيْـهَـا

= صغيـر . فلما استتبَّ الأمـر لمروان في الشـام ومصر حـدثتـه نفسـه أن يبـايـع لـولـديـه عبد الملك وعبد العزيز ويخلع خالداً بن يزيد ولهذا السبب تزوَّج أم خالد ليسيطر على ولدها خالد وهو ولي عهده ويمنعه من معارضته في خلعه وبيعة ولديه وهكذا فعـل . أمّا أمّ خالد فغضبت لابنها وضيعة حقّـه بالخـلافة وكتمت مـا في نفسها أيـاماً إلى ذات ليلة حيث جـاءها مـروان لينام عنـدها فقـامت عليه مـع جواريهـا وهو نـائم وجعلن الوسـائد والبـرادع عليـه وجلسنَ فـوقهـا حتى خنقتـه وذلـك في دمشق في شهـر رمضـان سنة ٦٥ للهجرة وهو ابن ٦٣ سنة وهكـذا انتهت حياة هـذا الرجـل الذي لعب أكبـر دور في عهد عثمان وفاز بالخلافة لنفسه في آخر الزمان .

ثُمَّ ٱتَّقى ٱللَّهَ حَقّاً فَهْوَ يُخْرِجُهُ مِنْ ضِيقَةٍ كَانَ لَا يَرْجُوْ تَخَطِّيْهَا

لَا يُؤْنِسَنَّكَ إِلَّا ٱلْحَقُّ تَتْبَعُهُ وَٱسْتَوْحِشَنَّ أَخَا ٱلدِّيْنِ ٱلتَّرَارِيْهَا

لَوْ كُنْتَ تَقْبَلُ دُنْيَاهَا وَتَقْرِضُ مِنْـ ـهَا أَمَّنَتْكَ وَهَامَتْ فِيْكَ تَوْلِيْهَا

وَكَانَ يُصْغِيْ أَبُوْ ذَرٍّ لِخُطْبَةِ مَوْ لَانَا ٱلْعَلِيِّ وَيَسْتَقْصِيْ مَعَانِيْهَا

حَتَّى إِذَا مَا ٱنْتَهَى نَادَى بَقِيْتَ أَبَا ٱلْـ ـحُسَيْنِ لِلنَّاسِ فِيْ ٱلْبَلْوَى تُؤَاسِيْهَا

وَقَالَ أَنْتُمُ آلَ ٱلْبَيْتِ رَحْمَةُ رَ م بِّيْ لِلْخَلَائِقِ جَلَّ ٱللَّهُ مُوْلِيْهَا

لَوْلَاكُمُ لَمْ أَجِدْ مِنْ وَحْشَةٍ لِمَدِيْـ ـنَةِ ٱلرَّسُوْلِ ٱلَّتِيْ عُثْمَانُ يَثْوِيْهَا

بِذَاكَ وَدَّعَهُ ثُمَّ تَوَجَّهَ لِلْـ ـمَنْفَى لِيَحْيَا بَعِيْدَ ٱلدَّارِ نَائِيْهَا

وَنَفْيُهُ قَدْ أَرَادَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ عَلَى أُمَيَّةٍ حِقْدَهُمْ بَاتُوْا مُلِيْمِيْهَا

وَمِثْلُهَا كَمْ أَتَتْ مِنْ فَعْلَةٍ نَفَرَتْ مِنْهَا نُفُوْسُ ٱلْأُلَى كَانُوْا مُحِبِّيْهَا

وَإِنَّهُمْ آخَذُوا عُثْمَانَ وَهْوَ وَلِـ ـيُّ ٱلْأَمْرِ فِيْ كُلِّ سُوْءٍ مِنْ مَسَاوِيْهَا

وَسَادَ بَيْنَهُمُ أَنْ لَا نَجَاةَ لَهُمْ مِنْهَا وَقَدْ عَمَّ فِيْ ٱلْأَمْصَارِ شَاكِيْهَا

إِلَّا بِعُزْلَةِ عُثْمَانٍ زَعِيْمِ أُمَيَّـ ـةٍ وَكَانَتْ بِهِ تُجْرِيْ تَسَطِّيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ لَا يَأْلُوْ ٱلْخَلِيْفَةَ إِرْ شَاداً وَنُصْحاً وَإِنْذَاراً وَتَأْبِيْهَا

وَقَدْ تَوَقَّعَ أَحْدَاثَ ٱلزَّمَانِ لَهُ وَأَنَّهُ سَوْفَ يَعْيَا عَنْ تَوَقِّيْهَا

وَكَانَ كُلُّ ٱلَّذِيْ قَدْ شَامَ بَارِقَهُ ٱلْـ ـعَلِيُّ فِيْ سُحُبٍ سَحَّتْ هَوَامِيْهَا

وَقَدْ تَسَعَّرَتِ ٱلنِّيْرَانُ وَٱلْتَهَبَتْ وَرَاحَ مُعْتَرِفاً بِٱلْعَجْزِ مُطْفِيْهَا

فَفِتْنَةٌ فِيْ ضِفَافِ ٱلنِّيْلِ قَائِمَةٌ وَفِيْ ٱلْعِرَاقَيْنِ أُخْرَى لَاحَ خَافِيْهَا

وَفِيْ ٱلشَّآمِ أَمَانٍ بَاتَ صَائِدُهَا مُعَكِّراً مِنْ مِيَاهِ ٱلْمُلْكِ صَافِيْهَا

وَفِيْ بَقِيَّةِ أَمْلَاكِ ٱلْخِلَافَةِ أَخْـ ـطَارٌ مُهَدِّدَةٌ صَعْبٌ تَحَامِيْهَا

وَفِيْ ٱلشِّفَـاهِ وَفِيْ ٱلآذَانِ وَشْـوَشَـةٌ بِـٱلشَّـرِّ تُنْبِيءُ كَانَ ٱلْخَـوْفُ يُكْمِيْهَـا

مِنْهَـا ٱلصَّحَابَـةُ وَٱلْأَنْصَارُ فِيْ شَغَبٍ بَـاتَتْ وَمَا خَـابَ فِيْ ٱلْبَلْوَى تَظَنِّيْهَـا

هِيَ ٱلْكُمَـاةُ ٱلَّتِيْ ٱحْتَجَّتْ بِحَجَّتِهَـا وَأَقْبَلَتْ لِلْعِـدَا وَٱلْحُقْـدُ حَـادِيْهَـا

وَافَتْ إِلَى طِيْبَـةِ ٱلْفَيْحَـاءِ ثَـائِـرَةً عَلَى ٱبْنِ عَفَّـانَ مِنْ نَـائِيْ بَـوَادِيْهَـا

كَـانَتْ وُفُـوْداً مِنَ ٱلْأَمْصَـارِ قَـادِمَـةً عَلَيْـهِ تُبْـدِيْ لَـهُ مُخْـزِيْ شَكَـاوِيْهَـا

مُصْـرِيُّهَا كَـانَ مُغْتَاظَـاً يُسَابِقُ بَصْــرِيْهَا وَفَـاتَهُمَـا بِـٱلسَّبْقِ كُـوْفِيْهَـا

وَإِذْ رَأَى جَمْعَهَـا عُثْمَـانُ مُحْتَشِـدَاً خَـافَ ٱلْقَضَـاءَ ٱلَّـذِيْ يَتْلُوْ تَنَـادِيْهَـا

وَسَـارَ يَطْلِبُهَـا فِيْ وَسْطِ مَسْجِدِ طَــهَ بِـٱلتَّلَطُّفِ يَبْغِيْ أَنْ يُـرَاشِيْـهَـا

وَقَدْ عَلاَ مَنْبَرَ ٱلْهَادِيْ وَبَسْمَـلَ وَٱسْــتَهْدَى وَأَيَّـهَ بَيْنَ ٱلْجَمْـعِ تَـأْيِيْهَـا

وَقَـالَ : تُبْتُ إِلَى رَبِّيْ وَعُـدْتُ إِلَى رَعِيَّتِيْ مُقْسِمَـاً أَنْ لاَ أُرَائِيْـهَـا

وَلَمْ يَـزَلْ خَـاطِبَـاً فِيْهَـا يُجَـامِلُهَـا حَتَّى هَمَتْ فِيْ ٱلْبُكَـا مَعْـهُ مَـآقِيْهَـا

لٰكِنَّـهُ لَمْ يَكَـدْ يَـأْوِيْ لِـمَنْـزِلِـهِ حَتَّى رَأَتْ بَعْـدَهُ مُـرْوَانَ لاَحِيْهَـا

فَجَـاءَهَا غَـاضِبَـاً يَلْحُـوْ تَجَمْهُـرَهَـا وَرَاحَ بِـٱللَّوْمِ وَٱلتَّعْنِيْفِ يُـؤْذِيْهَـا

فَـأَذْهَبَتْ مِنْ نُفُوْسِ ٱلْقَـوْمِ قَسْوَتُـهُ مَـا نَـالَ عُثْمَـانُ مِنْ بَـادِيْ تَحَنِّيْهَـا

وَأَيْقَنَتْ أَنَّ إِصْـلاَحَ ٱلْخِـلاَفَـةِ لاَ يُـنَـالُ مَـادَامَ مُـرْوَانُ مُنَـاجِيْهَـا

وَأَنَّ عُثْمَــانَ لاَ يَـنْفَـكُّ مُـعْتَـمِـدَاً عَلَى وِزَارَتِـهِ هَيْـهَـاتِ يُقْصِيْـهَـا

فَهَـاجَمَتْ بَيْتَـهُ حَـالاً وَقَـدْ بَلَغَ ٱلْــسَّيْلُ ٱلزُّبَى وَطِلاَبُ ٱلْعَدْلِ يُغْرِيْهَا

وَحَـاصَـرَتْـهُ بَغَتْ مِنْـهُ ٱلتَّنَـازُلَ أَرْ بَعِيْنَ يَـوْمَـاً طِـوَالاً مَـعْ لَيَـالِيْهَـا

وَكَـانَ مُمْتَنِعَـاً أَنْ يَسْتَـقِيْـلَ وَيَـعْــرَى مِنْ ثِيَـابِ فَخَارٍ آضَ كَـاسِيْهَـا

وَبَعْدَ أَنْ طَالَ عَهْدُ ٱلْحَصْرِ أَرْسَلَ عُثْــمَـانُ عَلِيَّـاً إِلَيْهَـا كَيْ يُـرَاضِيْهَـا

وَقالَ : إِنِّيْ أَخافُ ٱلْمَوْتَ مِنْ يَدِها فَٱحْقُنْ دَمِي وَٱصْرِفَنْهَا عَنْ تَعَدِّيْهَا
فَقَالَ: وَٱللَّهِ يَا عُثْمَانُ مَا قَصَدَتْ لَكَ ٱلْهَلاكَ وَلاَ ذَا مِنْ مَرَامِيْهَا
وَإِنَّمَا هِيَ تَبْغِيْ ٱلْعَدْلَ مِنْكَ فَإِنْ عَدَلْتَ وُقِيْتَ أَسْوَاءَ تُلاقِيْهَا
شَكَتْ إِلَيْكَ مِرَاراً وَهْيَ صَابِرَةٌ وَلَمْ تَكُنْ مِثْلَمَا تَرْجُوْ مُشَكِّيْهَا
أَحْرَجْتَهَا وَهْيَ هٰذَا ٱلْيَوْمَ قَدْ خَرَجَتْ عَلَيْكَ إِنِّي عَلَيْكَ ٱلْحَقَّ مُعْطِيْهَا
أَجَابَ عُثْمَانُ: عِدْهَا بِٱلَّذِيْ طَلَبَتْ وَعُوْدَ صِدْقٍ أُرِيْدُ ٱلآنَ أُوْفِيْهَا
قَالَ ٱلْعَلِيُّ : وَلٰكِنْ مَا صَدَقْتَ لَهَا قَبْلاً فَإِيَّاكَ تَنْوِيْ أَنْ تُدَاجِيْهَا
وَسَارَ يُبْلِغُهَا وَعْدَ ٱلْخَلِيْفَةِ يَسْـ ـتَرْضِيْ قُلُوْباً طَوَتْ ضِغْناً مَطَاوِيْهَا
وَٱلْمُرْتَضَى خَيْرُ مَنْ دَاوَى ٱلنُّفُوسَ مِرَا ضاً بِٱلْعَدَا وَهُوَ طَبٌّ أَنْ يُدَاوِيْهَا
وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَهَا بِٱللُّطْفِ يُعْطِفُهَا عَمَّا تُحَاوِلُ مِنْ شَرٍّ وَيُثْنِيْهَا
وَبِٱلْمَوَاعِيْدِ يُطْفِيْ نَارَ حِدَّتِهَا وَبِٱلْمَوَاعِظِ وَٱلآيَاتِ يَهْدِيْهَا
حَتَّى ٱسْتَنَامَتْ إِلَيْهِ فِيْ رَغَائِبِهَا بِشَرْطِ أَنَّ ٱبْنَ عَفَّانٍ يُجَارِيْهَا
وَأَمْهَلَتْهُ ثَلاثَاً كَيْ يُقِيْلَ بِهَا عُمَّالَهُ كَانَ ذَا أَقْصَى تَوَخِّيْهَا
مَرَّتْ وَلَمْ يُجْرِ عُثْمَانُ ٱلإِقَالَةَ بَلْ لَوْ رَامَهَا لَمْ يَكُنْ مَرْوَانُ مُمْضِيْهَا
لِذَاكَ شُدَّتْ عَلَيْهِ شِدَّةً جَزِعَتْ لَهَا ٱلنُّفُوْسُ وَجَدَّتْ فِيْ تَحَرِّيْهَا
نَفَاقَمَ ٱلْخَطْبُ حَتَّى قَدْ تَعَذَّرَ دَفْـ ـعُ ٱلْكَارِثَاتِ ٱلَّتِيْ هَلَّتْ بَوَادِيْهَا
فَأَنْجَدَ ٱلْمُرْتَضَى عُثْمَانَ بِٱلْحَسَنَيْـ ـنِ قَائِلاً: فَٱحْمِيَاهُ مِنْ تَصَدِّيْهَا
أَوْ تُقْتَلا دُوْنَهُ لاَ تَرْهَبَا خَطَراً مِنْ ٱلرَّزَايَا ٱلَّتِيْ فَحَّتْ أَفَاعِيْهَا
لٰكِنَّهُ ٱلْقَدَرُ ٱلْمَحْتُوْمُ حُمَّ وَقَدْ قَضَى ٱبْنُ عَفَّانَ مَقْتُوْلاً بِأَيْدِيْهَا
وَٱسْتَحْكَمَتْ فِتْنَةٌ كَانَتْ أُمَيَّةُ فِيْ كُلِّ ٱلإِمَارَاتِ تُوْرِيْهَا وَتُذْكِيْهَا

وَقَالَ فِي قَتْلِ عُثْمَانٍ أَبُو حَسَنٍ   مَقَالَةً أَظْهَرَتْ آرَاءَهُ فِيْهَا
فَقَالَ : لَوْ أَنَّنِي يَوْمَاً بِقَتْلَتِهِ   أَمَرْتُ مَنْ قَتَلُوْهُ كُنْتُ جَانِيْهَا
أَوْ كُنْتُ نَاصِرَهُ لَوْ كُنْتُ زَاجِرَ ثُوَّ م   ارٍ عَلَيْهِ تَعَدَّتْ أَوْ مُنَهِّيْهَا
مَا بِآسْتِطَاعَةِ أَنْصَارِ آلْقَتِيْلِ مُبَا   هَاةِ آلْأُلَى خَذَلْتَهُ فِيْ تَزَوِّيْهَا
وَلاَ آلأُلَى خَذَلَتْهُ أَنْ تُفَاخِرُهَا   أَنْصَارُهُ مَا تَمَادَتْ فِيْ تَبَاهِيْهَا
وَإِنَّنِيْ مُجْمِلُ أَمْرَ آلْفَجِيْعَةِ فِيْ   مَقَالَةٍ لَيْسَ مِنْ بُطْلٍ بُغَشِّيْهَا
قَدْ كَانَ مُسْتَأْثِرَاً بِآلْأَمْرِ صَاحِبُنَا   وَإِنَّ أَثْرَتَهُ سَاءَتْ مَآتِيْهَا
وَآلنَّاسُ قَدْ جَزِعَتْ مِنْ سُوْءِ أَثْرَتِهِ   فَأَتْبَعَتْهَا بِأَسْوَاءٍ تُحَاكِيْهَا
وَآلْحُكْمُ لِلَّهِ فِيْ مُسْتَأْثِرٍ وَجَزُوْ   عٍ أَوْرَثَانَا مِنَ آلْأَرْزَاءِ قَاسِيْهَا
وَآلْقَوْلُ قَوْلُ عَلِيٍّ وَهْوَ أَعْرَفُ بِآلْأُ م   مُوْرِ مِنْ كُلِّ مَنْ يَرْوِيْ أَمَالِيْهَا

خلافة أمير المؤمنين

مَا مَاتَ عُثْمَانُ إِلَّا وَآلصِّيَاحُ دَوَى   بَيْنَ آلْأَعَارِبِ أَعْطُوْا آلْقَوْسَ بَارِيْهَا[1]
إِنَّا نَرُوْمُ إِمَامَاً عَالِمَاً فَقِهَاً   وَعَى آلشَّرِيْعَةَ وَآسْتَقْصَى مَعَانِيْهَا

---

(١) لا بدَّ من إرسال نظرة صادقة تخترق أعماق ما في فؤاد سيدنا عليّ عليه السلام ساعة بلغه نبأ قتل عثمان ليسهل علينا تفصيل بيعته وكيفية قبوله الخلافة . فإنّ سيدنا علي عليه السلام على ما تشهد أعداؤه قبل أصدقائه ومبغضوه قبل محبّيه لم يكن من رجال الدنيا المتمسكين بزخارفها المتولعين ببهرجتها بل ما كانت عنده على ما فيها من جاه ومجد ويسر وترف لتساوي عفطة عنز كما قال . وإذا كان قد نادى بالخلافة لنفسه وشدَّد على الذين حرموه منها بعد وفاة المصطفى عليهما الصلاة والسلام فقد كان ذلك منه لثلاثة أمور : أولها اعتقاده أنّها من حقّه الشرعي وقد غصبت منه وثانيها اعتقاده أنّه أقدر على تمشية الأمور على سنن ابن عمّه المصطفى من سواه وثالثاً لأنّ سيدتنا فاطمة الزهراء كانت تأبى أن ترى في زعامة المسلمين بعد أبيها غير زوجها عليهم الصلاة =

وَحَـاكِمَـاً عَـادِلاً لِلْحَقِّ مُنْتَصِـرَاً بِـهِ تَـنَـالُ رَعَـايَـاهُ تَـسَـاوِيْـهَـا

= والسلام . ولكن وفاة سيدتنا فاطمة وانتقال الخلافة من أبي بكر إلى عمر إلى عثمان وحصول ما قد حصل في عهد عثمان من القلاقل والفتن ومرور الأيام بأحداثها والأعوام بصروفها كل ذلك جعل حكيماً زاهداً عابداً مثل سيدنا أمير المؤمنين غير راغب بالولاية يتمنّى لو خلص من متاعبها على شرط أن يخلص من التبعة التي في عنقه نحو الإسلام والمسلمين أمام الله سبحانه ولم يكن يرهب سواه هو أصرَّ على رفضها .

قد لا يدرك كنه ما نقوله الذين لا يعرفون ما هي التقية وما هو الصلاح وما هي التبعة وما هو الضمير الحي وفي الأخير من هو عليٌّ بن أبي طالب على حقيقة قداسة نفسه وطهارة وجدانه وصحة عقيدته ومتانة إيمانه ولذلك نقول جازمين غير وجلين ولا مترددين أنَّ سيدنا علي عليه السلام عند ما سمع بمقتل عثمان لم يدخل على نفسه الشريفة ما دخل على نفوس غيره من الناس من مختلف المؤثرات فما أكبر الخطب كما أكبره الأمويون لأنَّ عثمان ولو أنّه خليفة المسلمين ما خرج عن حدّ أنّه واحد منهم تلك مبادىء الاشتراكية الإسلامية وقد قتل قبله عمر وهو خليفة . ولا صغر الخطب في نظره كما صغر في نظر غيره من أعداء عثمان لأنّه كحكيم حازم بعيد النظر ما فاته ضرر الفوضى التي فشت في المسلمين حتى انتهت بمقتل عثمان وطالما جاهد ليتلافى هاتيك الفوضى بما بذل من النصح لعثمان ولم يفلح . ولا شمت بمقتله كما شمت كثيرون لأنّه في الحقيقة لم يكن عدواً لشخص عثمان وحاشا لنفسه العلوية الطاهرة أن تخبىء عداوةً وحقداً لعثمان أو غيره من الذين كانوا يظهرون له العداوة أو يحقدون عليه . وإجمال القول أنّه كان عند تلك الواقعة ينظر إلى المصلحة الإسلامية وهو في عقر بيته ويفكر في ما سيعقبها من الأخطار وعلى الأخص في مسؤوليته الشخصية أمام ربّه ودينه وابن عمّه المصطفى والمسلمين .

أمّا الثائرون فعند ما فصلوا في أمر عثمان على ما لم يكونوا يريدونه لأننا لا نزال على رأينا بأنّهم كانوا يفضلون أن يستقيل عثمان ولا يغمسوا أيديهم بدمه وما قتلوه إلاّ بعد أن يئسوا من استقالته وخافوا أن تدهمهم الجيوش التي أرسل يطلبها من عمّاله فتنكل بهم وتبقى الخلافة على الحال التي كانوا يرونها مخالفة للشرع وعلى رأيهم كان أكابر الصحابة والأنصار نعم عندما فصلوا في أمر عثمان بقتله طفقوا ينادون باسم سيدنا علي عليه السلام جهراً ويصفونه بما عرف به من العلم والفضل والزهد والسابقة والقرابة =

وَسَيِّدَاً مَا تَعَالَى عَنْ رَعِيَّتِهِ   فَإنْ أَتَتْهُ تُفَاهِيْهِ يُفَاهِيْهَا

=والشجاعة وغير ذلك من حميد الصفات التي حلّاه الله بها فجعلته المفرد العلم لا ندّ له بمحامده وأخلاقه الفاضلة وكانوا ينوهون باسمه جهرةً حتى ملأوا بأصواتهم آفاق المدينة المنورة وما كان منهم من يرضى أن يكون خليفة المسلمين سوى وصيّ الرسول الأمين .

أمّا كبار المهاجرين فقد كان على رأسهم ثلاثة هم بقية العشرة الذين مات رسول الله وهو عنهم راضٍ وهم الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وكان سعد هذا غاضباً على عثمان أشدّ الغضب وقد آلى على نفسه أن لا يدخل قطعاً بشؤون المسلمين ولذلك كان على حيدةٍ تامةٍ خلافاً للزبير وطلحة فإنّهما كانا على رغبة شديدة بالخلافة يتمنى كلُّ واحدٍ منهما لو تكون نصيبه ولكن ما فاتهما أنَّ دون وصولهما إليها وقتئذٍ خرط القتاد لأنّ الناس بعد أن مرَّ عليهم ما مرَّ من الأحداث لم يعودوا ينصرفون عن علي إليهما مهما كان الحال وأعني بالناس هم أهل المدينة وفيهم أكابر الصحابة والأنصار وجماعة الثائرين النازلين فيها .

وكان المقرَّر لدى الناس أنّ الكلمة الأولى والأخيرة في الخلافة هي لأهل المدينة المنورة أنفسهم دون سواهم فقد رأينا أبا بكر قد أصبح خليفةً في حال بيعة أهل المدينة له وكتب بذلك إلى الأمصار التي كانت خاضعة لرسول الله فمن رضي ببيعته أقرَّه ومن عصاها حاربه وكذلك عمر أصبح خليفةً منذ قرىء عهد أبي بكر له على أهل المدينة من غير أن يهتمَّ بمن في بقية الأمصار وكذلك كان الحال في ولاية عثمان فإنّ عبد الرحمن بن عوف عندما تفوَّض من أصحابه الخمسة أن يكون الحكم بينهم خرج ليسأل أهل المدينة رأيهم بالذي يريدونه للخلافة وما خطر له قط أن يرجع في الأمر إلى أهالي الأمصار . وحسب هذه السوابق ما كان في المدينة المنوَّرة من يشكّ بأنّ لأمصار المسلمين الأخرى أدنى حقّ أو رأي بانتخاب أو تعيين الخليفة . وبطبيعة الحال ما كسب أهالي المدينة هذا الحقّ إلاّ لأنّ رؤساء المهاجرين والأنصار كان أكثرهم فيها وهم على التحقيق أهل الحلّ والعقد في مصالح المسلمين .

وعندما انجلت الثورة عن مقتل عثمان أسرع زعماء بني أميّة وأكابر المنتمين إليهم إلى الإختفاء من وجه الثائرين فبعضهم لزموا بيوتهم والبعض هربوا إلى الشام ملتجئين إلى معاوية زعيمهم وكان في وقت الحصار قد ترك المدينة أناس منهم أيضاً ومع ذلك =

وَآمِـرَاً إِشْـتِـرَاكِيَّـاً كَـمَـا نَـزَلَتْ   آيُ آلْهُـدَى وَكَمَا قَـدْ شَاءَ مُـوْحِيْهَـا

= كان معظم رؤساء المهاجرين والأنصار الأقدمين في المدينـة كما سبق القـول خلافـاً لما زعم الشيخ محمد الخضري في محاضراته من أن أكثرهم كان خارج المدينـة وهو وهـم ينفيه التاريخ بكل صراحةٍ .

ولقـد تشعبت الروايـات في كيف كانت بيعـة سيدنـا علي عليه السلام ولم يكن تشعبهـا لعدم إمكان الوصول إلى حقيقتهـا فإنّ الـذين حفظوا الـوقائـع التي قبلها مـا كان يتعـذّر عليهم حفظها ولكن لأنَّ الناس في صدر الإسلام كان يهمهم إرضـاءً لمعاويـة والأمويين أن يزيدوا وينقصوا فيها على ما تقتضيه المصلحة أو تريده « القوة القـاهرة » فـانتهى إلينا من متضارب الروايات ما يحـار في تمحيصه اللبيب أمّـا نحن فنرى أنّ أصحّ الروايـات التي يرتاح إليها الضمير هي رواية سيدنا علي عليه السلام نفسه عن هاتيك البيعـة فإنّـه أولاً ما من مسلم صادق الإيمان يشكّ بصدقه وثانياً أنّه كان يخاطب بأقواله الكريمـة التي نعتمد عليها لنعرف حقيقة كيفية بيعته منها الذين حضروها فلا يتـأتى أن يخاطبهم بمـا لم يكن كأنّه كـان وهو يـريد أن يحجهم بـه ومثل سيـدنا علي أسمى قـدراً وأعظم نـزاهةً من أن يقول ما لم يكن أو تنطق شفتاه بغيـر الحق فقد قـال عليه السلام في خطبتـه الشقشقية بعـد أن ذكـر ولاية أبي بكـر وعمر وعثمـان ما نصـه « فما راعني إلاّ والنـاس كعُرف الضبـع إليَّ ينثـالون عليَّ من كـل جانب ، حتى لقـد وطىءَ الحسنان ، وشُقَّ عـطفـاي ، مجتمعين حولي كربيضـة الغنم » أي أنّه عليه السلام في حـال قتل عثمـان فاجـأه الناس من كـل صوبٍ وحـدبٍ يريـدون بيعته . وقـد كرَّر مثـل هذا القـول في غير مـوضع من خـطبه ورسـائله الشـريفة . ثمَّ روى لنـا عليه السلام كيف كان قبـوله الخـلافة على التمـاس القوم وإلحـاحهم فقال : « أمّا والـذي فلق الحبة ، وبـرأ النسمة ، لـولا حضور الحـاضر ، وقيـام الحجة بـوجود النـاصر ، ومـا أخذ الله على العلمـاء أن لا يقارُّوا على كـظة ظـالم ، ولا سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها ، ولسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز » وفي هذه الكلمات ومثلهـا أيضاً أبـان الأسباب التي حملتـه على قبول رجاءَ النـاس والتماسهم وهي أولاً وجـاهة حجتهم عليـه بأنَّهم ينصـرونه على الحقّ ، وثانياً أنّه كان يرى بأنّ الله قد أوجب على العلماء أن لا يتغافلوا عن ظلم الظالم ومظلمة المظلوم وأنَّ هذين السببين هما اللذان حملاه على قبول الخلافة ولولاهما لكان بلا شكّ قد تخلّى عن الخلافة أخيـراً كما تخلّت عنه أولاً . =

= ثمَّ أنّ علياً عليه السلام كتب إلى معاوية على أثر بيعته ما نصه « أمّا بعد فإنَّ الناس قد قتلوا عثمان عن غير مشورة مني وبايعوني عن مشورة منهم واجتماع فإذا أتاك كتابي فبايع لي وأوفد إليَّ أشراف أهل الشام قبلك » ولا يمكن أن يكتب سيدنا أمير المؤمنين بأنَّ الناس بايعوه عن مشورة وإجماع إلى معاوية وهو أعلم الناس بما في صدره من الضغن إن لم يكن حقيقةً راهنة لا جدال فيها كما أننا لم نرَ في أجوبة معاوية لأمير المؤمنين على ما فيها من لغو وجرأة وافتئات ما أنكر عليه صحة بيعته أو أنَّ الناس ما أجمعوا عليها .

وليس أمامنا سوى قول طلحة والزبير أنّهما بايعا بلسانيهما ولم يكونا راضيين عن البيعة في قلبيهما وهذا نحن مصدقوه عنهما مثبتوه لهما فإنَّ كلاً منهما كان يشتهي الخلافة لنفسه عاملاً لأجلها في سرّه ولكنهما لم يجرءَا على طلبها جهرةً بعد أن قتل عثمان باذاء إجماع المسلمين على سيدنا علي وانثلالهم إليه من كلّ صوبٍ وحدبٍ فرضيا بالأمر الواقع وتقدما الناس بعرض الخلافة على علي لأنّهما أدركا أنّ الثورة التي نفخا في ضرامها طويلاً لا يمكن أن يطفئها إلّا سيدنا علي ورأيا أيضاً بظهورهما أمامه بمظهر الراغب ببيعته ما يوصلهما إلى بعض مطامعهما من الولاية على البصرة والكوفة بدليل جيئتهما إليه بعد بيعته يطالبانه بهذين المصرين وهما يمتنان عليه بالبيعة .

ولا يجب أن ننسى في هذا المقام أنّ أهالي المدينة وهم أصحاب وأنصار المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأولادهم أنهم كانوا في أثناء الثورة من رأي الثائرين لأنّهم لو لم يكونوا كذلك لوقفوا في وجوههم وحاربوهم وأنت تعلم أنّ الثائرين الذين قدموا المدينة كانوا في نحو ثلاثة آلاف مقاتل وقيل في نصف هذا العدد كما تعلم أنَّ أهالي المدينة وضواحيها كان فيهم من رجال القتال أضعاف هذا العدد فلو لم يكونوا على رأي الثائرين لما أقرّوهم على عملهم بل ستعلم فيما بعد أن عبدان الصحابة مع أعراب البادية انضموا إلى الثائرين أيضاً . وثانياً أنَّ أهالي المدينة كانوا على رأي الثائرين في بيعة سيدنا علي ولو لم يكونوا على رأيهم لما مشوا معهم إلى علي يعرضون عليه البيعة .

وعلى هذا فالثابت المقرّر عندنا على اختلاف الروايات أنّ الناس اجتمعوا وتشاوروا وأجمعوا على بيعة سيدنا علي وكان على رأسهم طلحة والزبير وأنّ سيدنا علي =

=ما قبل التماسهم ورضي بخلافتهم إلّا بعامل الإخلاص لدينه وملّته وعلى نية أن يعيد الحال إلى ما كانت عليه على عهد المصطفى أو يروح ضحيةً للدين الحنيف الذي طالما جاهد في سبيله لذلك ما أصغى إلى من حوله من الناصحين الذين أرادوا أن يداري ويراشي الناس لتطمئنّ به الخلافة . وقد أعلن الناس عندما قدموا يلحون عليه بقبول البيعة بذلك وهاك ما جرى :

سار القوم إلى سيدنا علي عليه السلام على أثر مقتل عثمان وهو يستعيذ بالله من شرّ ما كان ودخل عليه زعماؤهم وفيهم طلحة والزبير وغيرهما من وجوه المهاجرين والأنصار وزعماء الثائرين وفاجئوه بقولهم « لا بدَّ للناس من إمام وأنت إمامنا » فانتهرهم سيدنا علي وقال « لا حاجة لي في أمركم » فقال طلحة والزبير يستحيل أن نعدل عنك لسواك بل ليس لهذا الأمر غيرك وأنت أسبق الناس إلى الإسلام وأقربهم قرابةً إلى رسول الله فقال عليه صلوات الله : « دعوني والتمسوا غيري ، فإنّا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ولا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول . وإنَّ الآفاق قد أغامت ، والحجة قد تنكرت ، واعلموا إنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتموني فأنا كأحدكم ، ولعلّي أسمعكم وأطوعكم لمن ولّيتموه أمركم وأن أكون لكم وزيراً ، خير لكم منّي أميراً » فقالوا ننشدك الله ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى الإسلام ؟ ألا ترى الفتنة ؟ ألا تخاف الله ؟ وما زالوا به حتى أصاخ إلى طلبهم وقال لهم بصراحته المعهودة وبلاغته المشهورة « أمّا والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارُّوا على كظّة ظالم أو سغب مظلوم ، لألقيت حبلها على غاربها ، ولسقيت آخرها بكأس أولها ، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز » فقالوا بورك فيك يا أمير المؤمنين فامدد يدك لنبايعك . فنظر إليهم نظرة المعاتب وقال عليه السلام بعد أن استخار الله واستعان به « ففي المسجد فإنَّ بيعتي لا تكون خفيةً ولا تكون إلّا في المسجد » فساروا به إلى المسجد وهم فرحون متهللون يهللون ويكبّرون حتى إذا ما دخله علا المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : « ذمتي بما أقول رهينة ، وأنا به زعيم ، إنَّ من صرّحت له العبر عمّا بين يديه من المثلات ، حجزته التقوى عن تقحّم الشبهات ، ألا وإنَّ بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيّكم صلى الله عليه وآله وسلم ، والذي بعثه بالحق لتبلبلنَّ بلبلةً ، ولتغربلنَّ غربلةً ، ولتساطنَّ سوط القدر ، حتى يعود أسفلكم =

= أعلاكم وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقنَّ سابقون كانوا قصروا ، وليقصرنَّ سابقون كانوا سبقوا ، والله ما كتمت وسمةً ، ولا كذبت كذبةً ، ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم ، ألا وإنَّ الخطايا خيلُ شمس ، حمل عليها أهلها ، وخلعت لجمها ، فتقحمت بهم في النار ، ألا وأنَّ التقوى مطايا ذللٌ حُمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة ، حقٌّ وباطلٌ ، ولكل أهلٌ فلئن أمر الباطل لقديماً فعل ، ولئن قلَّ الحقُّ فلربما ولعلّ ، ولقلَّما أدبر شيءٌ فأقبل ، شُغل مَن الجنة والنار أمامه . لساعٍ سريعٌ نجا ، وطالبٌ بطيءٌ رجا ، ومقصر في النار هوى . اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هي الجارة ، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة ، ومنها منقذ السنة ، وإليها مصير العاقبة . هلك من ادَّعى . وخاب من افترى . من أبدى صفحته للحق هلك . وكفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره . لا يهلك على التقوى سنخ أصل . ولا يظمأ عليها زرع قوم . فاستتروا في بيوتكم . واصلحوا ذات بينكم . والتوبة من ورائكم . ولا يحمد حامد إلاّ ربّه . ولا يلم لائم إلاّ نفسه »اهـ وبعد أن انتهى المرتضى عليه السلام من سرد هذه الجواهر المنثورة على الناس نزل عن المنبر فأقبلوا عليه يبايعونه وعلى رأسهم طلحة والزبير فقال لهما تواضعاً وتلطفاً بل أنا أبايعكما قالا كلاّ فإننا مبايعاك وكان أول المبايعين طلحة بيده الشلاء فتشائم الناس منها وقالوا إنَّ أول يدٍ قدمت إليه كانت شلاء ثمَّ ثنى الزبير وتبعهما الناس وبعد ذلك طُلب سعد بن أبي وقاص فجيءَ به فقيل له بايع فقال « لقد آلوت أن لا أدخل بأمر من أمور المسلمين فأمهلني ريثما يبايعك الناس ولا بأس عليك مني » فتركه وكذلك فعل عبد الله بن عمر فإنّه طلب المهلة إلى بعد بيعة الناس وكفله سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

وبعد أن تمّت البيعة خطب سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فقال : « إنَّ الله سبحانه أنزل كتاباً هادياً بين فيه الخير والشرّ . فخذوا نهج الخير تهتدوا . واصرفوا عن سمت الشر تقصدوا . الفرائض الفرائض أدّوها إلى الله تؤدّكم إلى الجنة . إنَّ الله حرَّم حراماً غير مجهول . وأحلَّ حلالاً غير مدخول . وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها . وشدَّ الإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحق . ولا يحلُّ أذى المسلم إلاّ بما يجب . بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو الموت . فإنَّ الناس أمامكم وإنَّ الساعة تحدوكم من خلفكم تخففوا تلحقوا فإنّما ينتظر بأولكم آخركم . اتقوا الله في عباده وبلاده . فإنّكم مسؤولون حتى عن =

نَخْتَارُ مَنْ يَزْدَرِيْ ٱلْأَمْـوَالَ يَحْقِرُهَا زُهْـدَاً وَيَبْـذِلُهَـا بِـرَّاً لِعَـافِيْهَـا
نَخْتَارُ مَنْ بِفُرُوْضِ ٱلدِّيْنِ مُضْطَلِعَاً مِنْ بَـدْئِهَا مُفْضِيَاً فِيْهَا لِخَـامِيْهَا
نَخْتَارُ مَنْ كَانَ لِلْهَادِيْ ٱلرَّسُوْلِ أَخَاً تِلْكَ ٱلْأُخُـوَّةُ أَخْلِقْ أَنْ نُـرَاعِـيْهَـا
نَخْتَـارُ خَيْرَاً وَصِيَّ ٱلْمُصْـطَفَى لِعِبَا دِ ٱللَّهِ مَـا غَيْـرُهُ لِلْحَقِّ يُمْشِـيْهَـا
نَخْتَـارُ وَٱلْأَمْرُ شُـوْرَى زَوْجَ فَـاطِمَةٍ إِلَى ٱلْخِـلَافَـةِ تُسْمِيْـهِ وَيُسْمِيْهَـا
خِـرْنَا ٱلَّـذِيْ رَبُّـهُ قَـدْ خَـارَهُ وَرَسُـوْ لُـهُ وَخِيْـرَتُـهُ هُبُّـوْا لِـنُمْـضِيْـهَـا
فَلْنَسْـرِعَنَّ بَنِيْ ٱلْإِسْـلَامِ أَجْمَعُنَـا لِنُسْكِنَ ٱلـدَّارَ بِـٱلْإِجْـلَالِ بَـانِيْهَـا
كَـذَاكَ كَانَتْ جُمُـوعُ ٱلْمُسْلِمِيْن يُنَـا دِيْ بَعْضَهَا ٱلْبَعْضُ مَا أَحْلَى تَنَادِيْهَا
وَبِـٱلتَّهَـالِيْـلِ أَمَّتْ دَارَ حَـيْـدَرَةٍ بِمَـا لَـدَيْهَـا مِنَ ٱلآمَـالِ تُـزْجِيْهَـا
وَإِنَّ أَصْوَاتِ خَلْقِ ٱللَّهِ مَا ٱجْتَمَعَتْ إِلَّا عَلَى ٱلْحَـقِّ تُعْـلِيْـهِ فَيُعْلِيْـهَـا
وَزُمْـرَةٌ مِنْ وُجُوْهِ ٱلْقَـوْمِ قَدْ دَخَلَتْ عَـلَى ٱلْعَـلِيِّ وَحَيَّـاهُ مُـحَـيِّيْـهَـا
فِيْهَـا ٱلـزُّبَيْـرُ وَفِيْهَـا طَلْحَـةُ وَسِـوَى هٰذِيْنِ مِمَّنْ سَمَوْا فِيْ ٱلْعُرْبِ تَوْجِيْهَا
قَـالَتْ : مَمَالِكُنَـا ذَا ٱلْيَـوْمَ شَـاغِـرَةٌ وَأَنْتَ صِهْـرُ نَبِيِّ ٱلـلَّهِ تَحْـمِيْـهَـا
بَــادِرْ لِنَجْـدَتِنَـا وَٱقْبَـلْ إِمَـارَتَنَـا فَضْـلاً وَإِنَّـا إِلَى عُلْيَـاكَ نُهْـدِيْهَـا
فَقَـالَ: لَا حَـاجَـةٌ لِيْ فِيْ إِمَـارَتِكُمْ وَلَا أَنَـا بَعْـدَ هٰـذَا ٱلْيَـوْمِ بَـاغِيْهَا
قَالَتْ: نُحَاذِرُ أَنْ نَرْضَى سِوَاكَ لَهَـا وَمَنْ سِـوَاكَ مِنَ ٱلْأَرْزَاءِ يُنْجِيْهَـا

= البقاع والبهائم . وأطيعوا الله ولا تعصوه . وإذا رأيتم الخير فخذوا بـه . وإذا رأيتم الشرّ فأعرضوا عنه » اهـ .

وبعد أن أكمل أمير المؤمنين عليه السلام خطبته خرج من المسجد يتبعه الناس وعلى وجوههم سمات الفرح وتوزعوا في المدينة وهم يهنئون بعضهم بعضاً بإعطاء القوس باريها وإسكان الدار بانيها .

وَأَنْتَ أَسْبَقُ كُلِّ آلْمُسْلِمِينَ إِلَى آلْإِ م يْـمَــانِ سَـابِقَــةٌ أَكْـرِمْ بِـآتِيْهَـا

وَأَنْتَ أَقْـرَبُ قُـرْبَى لِلرَّسُـوْلِ وَنَحْــــنُ أُسْـرَةُ آلْمُصْـطَفَى طُـرّاً نُـوَالِيْهَا

نَـادَاهُمُ: يَمِّمُـوْا غَيْـرِي فَـإِنِّيَ قَــدْ زَهِــدْتُ فِيْهَــا وَأمُّــوْا مُسْتَجِيْبِيْهَــا

إِنَّــا لَمُسْــتَقْبِلُوْ أَمْــرٍ مَـصَــاعِبُــهُ لَهَــا وُجُــوْهٌ تُغَشِّيْـهَــا طَــوَارِيْهَــا

فَـلاَ تَقُوْمُ لَهَـا هٰذِي آلْقُلُوْبُ وَلاَ آلْـــعُقُــوْلُ تَثْبُتُ فِيْ مَلْقَى تَمَـاسِيْهَــا

آفَـاقُكُمْ قَـدْ أَغَــامَتْ وَهْيَ مُمْـطِرَةٌ بُــرُوْقُهَــا مَــا آخْتَفَى عَنِّيْ تَلَوِّيْهَــا

وَقَـدْ تَنَكَّـرَتِ آلسُّبْـلُ آلَّتِيْ وَضَحتْ تَنَكُّــراً يُـوْرِثُ آلْإِضْــلاَلَ وَآلتِّيْهَــا

فَــإِنْ أَجَبْتُ فَــإِنِّـيْ رَاكِـبٌ بِـكُـمُ طُرْقَـاً بِعِلْمِيْ يُجَافِيْهَا مُجَـافِيْهَا

وَلَسْتُ أُصْغِيْ إِلَى قَـوْلٍ وَمَعْتَبَـةٍ مَا دُمْتُ أَحْكَامَ رَبِّ آلْعَرْشِ أُجْرِيْهَا

وَإِنْ تَــرَكْــتُمْ عَــلِيَّــاً مِنْ وِلاَيَتِكُمْ فَــإِنَّنِي وَاحِــدٌ مِـنْ بَيْـنِ أَهْلِيْـهَــا

وَقَــدْ أَكُــوْنُ وَأَيْـمُ آللّٰهِ أَكْثَـرَكُـمْ سَمْعَــاً وَطَوْعَــاً وَإِخْـلاَصَــاً لِـوَالِيْهَــا

وَإِنْ أَكُــوْنَ وَزِيْــرَاً فِــيْ إِمَــارَتِــهِ خَيْــرٌ لَكُمْ فَـدَعُــوْنِي مِنْ تَـوَلِّيْهَــا

وَمَا آنْتَهَى مِنْ مَقَالِ آلرَّفْضِ حَيْدَرَةٌ وَعَـزْمَةُ آلصِّـدْقِ وَآلتَّصْمِيْمِ يُبْدِيْهَـا

حَتَّى عَـرَتْ سَـامِعِيْــهِ دَهْشَــةٌ وَإِلَيْـــهِ وَجَّهُـوْا نَظَرَاتِ آلْيَأْسِ تَوْجِيْهَـا

قَــالُوْا: وَلَيْسَ لَهَــا إِلاَّ أَبُـوْ حَسَنٍ يُجْــرِيْ سَفِيْنَتَهَـا أَمْنَــاً وَيُـرْسِيْهَــا

إِنَّــا نُنَــاشِــدُكَ آللّٰهَ آلْمُهَـيْمِـنَ أَنْ تُعِيْدَ لِلشِّرْعَــةِ آلسَّمْحَا تَــلاَلِيْهَا

وَأَنْ تَـمُــدَّ يَــدَاً بَـيْضَــا لِأُمَّـتِـنَــا بِهَــا تَعُـوْدُ إِلَى مَــاضِيْ تَصَـافِيْهَــا

أَلاَ تَـرَى يَـا مُفَــدَّى شَـرَّ مَــوْقِفِهَـا وَمَـا غَـدَتْ فِيْـهِ مِنْ بَلْوَى تُعَـانِيْهَــا

أَلاَ تَرَى آلْمُلْكَ وَآلْإِسْلاَمَ فِيْ خَـطَرٍ دَانٍ وَنَـكْـبَـتُــهُ صَـعْـبٌ تَــلاَفِـيْـهَــا

أَلاَ تَـرَى آلْفِتْنَـةَ آلْهَـوْجَـاءَ تُحْـرِقُنَـا نِيْــرَانُهَــا لَعَنَ آلْبَــارِيْ مُلَظِّيْـهَــا

أَلَا تَـخَـافُ إِلٰـهـاً أَنْتَ تَـعْـبُـدُهُ فِيْ أُمَّةٍ بِكَ قَـدْ نَـاطَتْ أَمَـانِيْهَا
وَلَمْ يَـزَالُـوْا بِـهِ حَتَّى أَصَـاخَ لَهُمْ سَمْعَـاً وَدَعْـوَتُهُمْ أَمْسَى مُـلَبِّيْـهَـا
وَقَالَ: لَوْلَا حُضُورُ ٱلْحَاضِرِيْنَ وَنَصْـــرُ ٱلنَّـاصِرِيْنَ لَهَـا مِنْ مُسْتَهِيْنِيْهَا
وَمَـا عَلَى ٱلْعُلَمَـاءِ ٱللّٰهُ يَـأْخُـذُ مِنْ مَـوَاثِقٍ خَيْـرُهَـا سَعْيَـاً مُـوَفِّيْهَـا
أَنْ لَا تَقَـرَّ عَلَى كَـظَّاتِ ظَـالِمِ قَـوْمٍ أَوْ سَغَـابَـةِ مَـظْلُوْمٍ يُقَاسِيْهَـا
لَكُنْتُ أَلْقَيْتُ أَحْبَـالَ ٱلْخِـلَافَـةِ مَا طَـالَتْ عَلَى مَنْكِبَيْهَـا غَيْـرَ شَـالِيْهَا
وَكُنْتُ آخِـرَهَـا مِنْ كَـأْسٍ أَوَّلِهَـا أُسْقِيْ فَخَمْـرَتُهَـا يُؤْذِي تَحَسِّيْهَـا
وَإِنَّ دُنْيَـاكُمُ عِـنْـدِيْ لَأَهْـوَنُ مِنْ عَفِيْطِ عَنْـزٍ تَـرَعَّتْ فِيْ مَـرَاعِيْهَـا
وَمَـا أَتَـمَّ عَـلِيٌّ سَـرْدَ خُـطْبَـتِـهِ عَلَى ٱلْـوُجُوْهِ ٱلَّتِيْ حَـازَتْ تَرَجِّيْهَـا
حَتَّى عَلَى فَضْلِهِ أَثْنَتْ وَصَـاحَ أَمِيْـــرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَمِيْـدَ ٱلْعُـرْبِ مُثْنِيْهَـا
أُمْـدِدْ يَمِيْنَـكَ فَضْـلاً كَيْ نُبَـايِعَهَـا وَٱظْفَـرْ بِبَيْعَـةِ إِخْـلَاصٍ نُؤَدِّيْهَـا
فَقَالَ: فِيْ عُقْرِ دَارِيْ لَسْتُ أَقْبَلُ مِنْــكُـمْ خِفْيَـةً يَـا مُسْتَبِـيْـعِـيْـهَـا
وَإِنَّمَـا ٱلْمَسْجِدُ ٱلْمَبْـرُوْرُ مَـوْضِعُهَـا وَٱلنَّـاسُ تَشْهَـدُ عَـاطِيْهَـا وَمُعْـطِيْهَـا
فَـأَسْرَعُـوْا بِٱلْعَلِيِّ ٱلْمُـرْتَضَى وَأَهَـا زِيْـجُ ٱلسُّـرُوْرِ يُغَنِّيْـهَـا مُغَـنِّيْـهَـا
وَٱلنَّـاسُ مِنْ حَوْلِـهِ تُبْدِيْ بَشَـائِرَهَـا مِنْ بَعْـدِ أَنْ بَلَغَتْ فِيْـهِ تَمَـنِّيْـهَـا
حَتَّى بـاذَا مَا ٱنْتَهَتْ لِلْمَسْجِـدِ ٱلنَّبَوِيِّ بَـايَعَتْـهُ وَمَـا ضَنَّتْ بِـأَيْـدِيْهَا
وَهٰكَـذَا صَـارَ مَـوْلَانَـا ٱلْعَلِيُّ أَمِـــيْرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَسَادَ ٱلْعُـرْبَ حَامِيْهَـا
وَسُرَّتِ ٱلْخَلْقُ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ بِـهِ وَفَـاضَتْ عَلَى ٱلـدُّنْيَـا تَهَـانِيْهَـا
أَمَّـا أُمَيَّـةُ فَـٱغْتَـاظَتْ لِخَيْبَـتِهَـا وَأَصْبَحَتْ وَهْيَ سَكْرَى فِيْ تَشَاجِيْهَا

خطط أمير المؤمنين في خلافته

سَنَّ ٱلشَّــرِيْعَـةَ طَــهَ مِثْلَمَـا نَــزَلَتْ عَـدْلاً وَبِـرّاً وَإِحْسَـانَـاً وَتَنْــزِيْهَـا[1]
وَكَــانَ بَيْنَ يَــدَيْــهِ فِـيْ رِسَــالَتِــهِ « وَصِيُّـــهُ » رَاقِبُ أَعْمَــالَــهُ فِيْـهَــا

---

(١) لا بدّ لمؤرخ الحوادث التي نحن بصددها إذا كان ناقـداً حصيفاً نـزيهاً من البحث عن ظروفها وملابساتها لا الإكتفاء بروايات الرواة المختلفة وإصدار الحكم عليها كما لا بدَّ له من إرسال رائد طـرفه إلى الأشخـاص القائمين بهـا وأحوالهم النفسيـة إذا أراد أن يتجنب الخطل في أحكامه

فقد تولى سيدنا علي عليه السلام الخلافة والناس على غير ما كانوا عليه في زمن النبـوَّة يوم كانوا مسلمين بكل معنى الإسـلام يطلبـون الآخرة ويجـاهدون في سبيلهـا ويزدرون بالدنيا وزخارفها وملاهيهـا وتعودوا في أيـام عثمان بن عفـان ما لم يعـرفوه من قبـل وهو التفاوت بين المسلمين في الوظائف والحقوق والأموال فنسوا أنّ الإسـلام قد سـاوى بين الجميع وأنّ المسلم لا يفضل أخاه المسلم إلاّ بالتقوى وان من كان من أقـرباء النبـوة أو ذا وجاهة في قريش أو سابقة في إسلام أو جهاد لا ميزة له على إخوانـه المسلمين عربـاً كانوا أو عجماً أحراراً أو عبيداً نعم كلّ هذا نسيه المسلمون بعد أن رأوا في عهـد عثمان أنّ الأمويين قد نالوا من المنافع في خلافته ما كان يحسدهم عليه سائر الناس وأن الذين كانوا يتزلفون إليهم فازوا بربح ووجاهة لم يفز بمثلهمـا من كان بعيـداً عنهم غير متصـل بهم .

أمّـا سيدنـا علي عليه السلام فظلَّ وحـده كما كـان على عهـد المصـطفى لا يعـرف إلاّ الشريعة التي رضع لبنها منذ نعومة أظفاره وتـربى على يديهـا وتأدّب بـآدابها العـالية ولم يفته التبدل الـذي حدث في المسلمين بـل كان على تمـام معرفتـه ولذلـك بات زاهـداً بولاية المسلمين راغباً عن خلافتهم بعـد أن كان يـطالب بها وهـو متحقق بأنَّ حقّـه فيها صريح وقد أخذوه منه عنوةً وظلماً وكان متأكداً بـأنّه لـو تولاهـا لما استقـام له الأمـر فيها ولذلك رفضها عندمـا عرضت عليـه بعد مقتـل عثمان وقـال خير أن أكـون وزيراً من أن أكون أميراً لأنّ الـوزير عليـه إعطاء الـرأي والمسؤولية أمـام الله واقعة على الخليفـة وقد يستخفُّ النـاس بهذه المسؤوليـة إلاّ الذين آمنـوا واتّقوا الله وتفـانوا بـطلب رضاه . وفي يقيني أنَّ سيدنا علي مـا قبل الخـلافة التي عـرضت عليه بـالإلحاح إلاّ بـدافع واحـد وهو =

= مسؤوليته أمام الله لو هو أصرَّ على رفضها بعد أن وضعها أعيان الصحابة والأنصار في عنقه معلنين أنّ ليس لها سواه لانتشال الأمّة من المصائب التي تتهددها . هذه هي الحقيقة لا ما قاله الشيخ الخضري في محاضراته وهذا نصّه « كانت الكلمة في المدينة إذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء الغالبين (وقد سبق له فحقرهم ما شاء) الذين قتلوا الخليفة ولم يكن في نظر جمهورهم أليق من علي للخلافة فكلموه في البيعة له فامتنع قليلاً ثمَّ أجاب إلى ذلك » لا يا حضرة الشيخ ليس هذا هو الصحيح فإنَّ الذين كلموا سيدنا علي بالخلافة كانوا وجوه المهاجرين والأنصار مع زعماء الثائرين وفي نظر المؤرخ النزيه أنَّ كلاً من كان في المدينة كانوا على رأي الثائرين وأنّ سيدنا علي ما امتنع عن قبول الخلافة « قليلاً » بل امتنع طويلاً ولو لم يخيفوه من الله ويستنزلوا شفقته على المسلمين أن تتأكلهم الفوضى ولو لم تكن نفسه الشريفة تدفعه إلى نجدة الناس وهم في أشدّ المحنة لما رضي بخلافتهم كما جهر صراحةً أمامهم وما ذلك لأنّها ليست من حقّه ولا لأنّ الذين يعرضونها عليه ليسوا أهل الحق بالبيعة ولا لعدم كفاءته بسياسة البلاد وجدارته بتمشية الأمور كلا لا هذا ولا ذاك ولكن لأنّه عليه السلام كان يعلم حقّ العلم بما عرض على الناس فبدّل أحوالهم تبديلاً لا يرضاه عالمٌ حكيمٌ صالحٌ مثله وإنَّ بإرجاعهم إلى ماضي حالهم في عهد النبوة من المصاعب والأهوال ما لم يكن ليخفى عليه وقد جهر بهذا على أثر بيعته وصارح الناس به فقال : « لم تكن بيعتكم إيايّ فلتةً ، وليس أمري وأمركم واحداً ، أنّي أريدكم لله ، وأنتم تريدونني لأنفسكم ، أيُّها الناس ، أعينوني على أنفسكم ، وأيم الله لأنصفنَّ المظلوم من ظالمه ، ولأقودنَّ الظالم من خزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً » وقال : « إنّي حاملكمْ على نهج نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنفّذ فيكم ما أمرتُ به إن استقمتم لي ، وبالله المستعان ، ألا إنَّ موضعي من رسول الله بعد وفاته كموضعي منه أيام حياته ، فامضوا إلى ما تؤمرون به . وقفوا عند ما تنهون عنه ، ولا تعجلوا في أمر حتى أبينه لكم ، فإنَّ لنا عن كلِّ أمرٍ تنكرونه عذراً » وقال أيضاً : « ألا ليقولنّ رجالٌ منكم غداً قد غمرتهم الدنيا ، فاتّخذوا العقار ، وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارهة ، واتّخذوا الوصائف الرقِقة ، فصار ذلكَ عليهم عاراً وشناراً إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون ، فينقمون ذلك ويستنكرون ، ويقولون حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ، يرى أنَّ الفضل له على سواه لصحبته ، =

وَقَـدْ تَفَقَّـهَ فِيْهَـا فَهْـوَ عَـالِمُهَـا   وَقَـدْ تَبَحَّـرَ فِيْهَـا فَهْـوَ فَـالِيْهَـا
وَقَـدْ تَشَبَّـعَ مِنْ رُوْحِ ٱلشَّـرِيْعَـةِ حَـــتَّى لَمْ يَفُتْـهُ دَقِيْقٌ مِنْ مَعَـانِيْهَـا
وَمَـا مِنَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ ٱلرَّاشِـدِيْنَ عَلَيْــــمٌ كَـانَ يَقْـرُبُ مِنْ عُلْيَـاهُ تَفَقِيْهَـا
وَطَـالَمَـا نَـوَّهَ ٱلْهَـادِيْ بِعِلْمِ عَلِـــيٍّ مَعْ زَكَانَتِـهِ فِيْ ٱلنَّاسِ تَنْوِيْهَا
بِذَا ٱلصَّحَابَةُ وَٱلْأَنْصَارُ قَـدْ شَهِدَتْ   شَـهَـادَةً كُـلُّ ذِيْ دِيْنٍ يُـزَكِّـيْهَـا
فَإِنْ يَقُلْ قَدْرَ عِلْمِيْ قَدْ حَكَمْتُ فَمَا   أَحْكَـامُـهُ غَيْـرُ آيِ ٱللَّهِ يُبْـدِيْهَـا
وَٱلْمُرْتَضَى خَيْرُ مَنْ صَلَّى وَصَامَ وَأَدَّ م ى ٱلْوَاجِبَاتِ ٱلَّتِيْ ٱلْإِسْلَامُ يَقْضِيْهَا
وَكَـانَ مُسْتَمْسِكَـاً بِـٱلشَّـرْعِ مُقْتَفِيَـاً   فِيْهِ خُطَى ٱلْمُصْـطَفَى يَأْبَى تَخَـطِّيْهَا
وَكَـانَ لِلْحَقِّ سَـيْفُ ٱللَّهِ فِيْ يَـدِهِ   بِـهِ ٱلْأَبَـاطِيْـلُ لَا يَنْفَـكُّ يُفْلِيْهَـا
وَلَمْ تَكُنْ عِنْـدَهُ ٱلـدُّنْيَا وَزُخْـرُفُهَـا   إِلَّا مَـتَـاعَ غُـرُوْرٍ فَهْـوَ قَـالِـيْهَـا
وَمُذْ عَلَا ٱلْعَرْشَ نَادَى بِٱلرُّجُوْعِ إِلَى   مَـوَاطِنِ ٱلشَّرْعِ رُجْعَى هَمَّ يُجْـرِيْهَا

= فـإنّ الفضل النيـر غداً عنـد الله ، وثـوابـه وأجـره على الله ، وأيمـا رجـل استجـاب لله وللرسـول ، فصدّق ملتنـا ، ودخل في ديننـا ، واستقبل قبلتنـا ، فقـد استـوجب حقـوق الإسلام وحدوده ، فأنتم عباد الله ، والمـال مال الله ، يقسم بينكم بـالسويـة ، لا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء ، وأفضل الثواب ، لـم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً ، وما عند الله خيرٌ للأبرار » .

نقول هذه هي الخـطط التي وضعها سيـدنا علي لنفسـه في خلافتـه ولـم يكن فيها مبتدعاً مجتهداً ولكن مقلداً لرسول الله عليهما الصلاة والسلام وهي الخـطط التي يقرّهـا الشرع وتنطبق على أحكام القرآن الشريف فإذا كان المسلمون قد أبوا السيـر عليها فمـا الذنب ذنبه ووالله لو كان علي يريد الدنيا لما فاته السير فيها ولا كان عاجزاً عن مـراضاة النـاس عليها ولكن هيهـات هيهات مـا أبو الحسن ببـائعٍ أخـراه بـدنيـاه ولا هـو راضٍ للمسلمين إلّا ما يرضاه الله ورسول الله .

فَمَـا تَلَفَّتَ حَـوْلَيْـهِ لِيَنْـظُرَ حَـا   لَا لَمْ تَكُنْ مِثْلَمَا ٱلْإِسْلَامُ يَبْغِيْهَـا

وَلَا رَنَـا لِـلْآلِي كَـانَتْ مَـطَامِعُهَـا   بِـٱلْمُلْكِ وَاسِعَـةً لَا شَيْءَ يَكْفِيْهَـا

وَلَمْ يَكُنْ مِنْـهُ هٰـذَا غَـفْلَةً وَغَبَـا   وَلَا خَفَـايَا ٱلْـوَرَى قَدْ كَـانَ غَـابِيْهَا

وَهْـوَ ٱلَّذِي كَـانَ فِيْ وَافِيْ فَـرَاسَتِـهِ   أَحْـدَاثُ مَـا تَلِدُ ٱلْأَيَّـامُ يُنْبِيْـهَـا

وَإِنَّمَا كَـانَ يَهْـزَا بِـٱلْمَصَـاعِتِب فِيْ   جَنْبِ ٱلشَّـرِيْعَـةِ إِمَّـا رَاحَ يُمْضِيْهَا

وَعِنْـدَهُ أَنْ يُـرَاضِيْ ٱللَّهَ أَفْضَـلُ مِنْ   إِسْخَـاطِهِ وَرَعَـايَـاهُ يُـرَاضِيْهَـا

يَقُوْلُ : يَا نَاسُ أَصْغُوْا لِيْ فَأَنْصَحُكُمْ   نَصِيْحَـةً خَيْـرُكُمْ مَنْ رَاحَ وَاعِيْهَـا

فَـإِنَّ بَيْعَتَكُـمْ إِيَّـايَ لَمْ تَـكُ فَلْـــتَةً وَلَا كُنْتُ فِيْ ذَا ٱلْعَهْدِ بَـاغِيْهَا

أَنْتُمْ تُـرِيْـدُوْنَنِيْ مِنْ أَجْلِ أَنْفُسِكُمْ   إِرَادَةً لَـمْ أَكُنْ أَصْـلاً مُـجَـارِيْهَـا

وَمَـا أَنَـا مِـثْلُكُـمْ إِنِّـيْ أُرِيْـدُكُـمُ   لِـلَّهِ نِيَّـةُ صِـدْقٍ ظِـلْتُ نَـاوِيْـهَـا

فَبَـــادِرُوْا وَأَعِيْنُـوْنِي بِـبِـرِّكُـمُ   عَلَى نُفُـوْسِكُمُ كَـيْمَـا أُوَاسِيْهَـا

يَنَـــاسُ إِنِّي لِلْمَـظْلُوْمِ أُنْـصِفُـهُ   فَـلَا يُـرَدِّدُ تَشْهَـاقَـاً وَتَـأْوِيْـهَـا

وَأَسْحَبُ ٱلـظَّالِمَ ٱلْعَـاتِيْ وَأُوْرِدُهُ   مَنَـاهِلَ ٱلْحَقِّ كُـرْهَـاً وَهْـوَ آبِيْهَـا

عَلَى مَنَاهِجِ هَادِيْ ٱلْخَلْقِ حَامِلُكُمْ   وَخَيْـرُكُمْ يَـا عِبَـادَ ٱللَّهِ قَـارِيْهَـا

وَإِنَّنِيْ مُنْـفِـذٌ فِـيْـكُـمْ أَوَامِـرَهُ   إِنِ ٱسْتَقَمْتُـمُ لِيْ حَـتَّى اجْـرِّيْـهَـا

وَمَوْضِعِيْ مِنْ رَسُوْلِ ٱللَّهِ ظِـلٌّ كَمَا   لَـوْ كَـانَ حَيَّاً بِـهِ وُجِّهْتُ تَـوْجِيْهَـا

فَـٱمْضُوْا مُضِيَّـاً إِلَى مَا تُؤْمَـرُوْنَ بِـهِ   تَقْـوَىً وَبِـرَّاً وَخَيْـرُ ٱلْخَلْقِ تَـاقِيْهَـا

وَعِنْـدَ مَا عَنْـهُ تُنْهَوْنَ ٱنْتَهُـوْا وَقِفُـوْا   بِـطَاعَـةٍ فَـازَ بِـٱلنُّعْمَى مُـؤَدِّيْهَـا

لَا تَعْجَلُوْا فِيْ أُمُـوْرٍ عَنْكُمُ خَفِـيَتْ   حَتَّى أُبَيِّنَ بِـٱلْإِفْصَـاحِ خَـافِيْهَـا

فَـإِنَّ لِيْ ٱلْعُـذْرُ عَمَّـا تُنْكِـرُوْنَ وَلَا   أُمْضِيْ أُمُـوْرَاً كِتَـابُ ٱللَّهِ يَنْفِيْهَـا

وَمِنْكُمُ ٱلْيَوْمَ مَنْ دُنْيَاهُمُ غَمرَتْـــهُمْ فَٱنْكَفَوْا أَوْسَعَ ٱلْأَقْوَامِ تَرْفِيْهَا

قَوْمٌ لَقَدْ فَجَرُوْا ٱلْأَنْهَارَ وَٱتَّخَذُوْا ٱلْـــعُقَارَ سُكْنَى أَطَابَتْ نَفْسَ غَانِيْهَا

قَدْ ٱمْتَطَوْا صَهَوَاتِ ٱلْخَيْلِ عَنْ بَطَرٍ وَسَاكَنُوْا ٱلْغِيْدَ وَٱسْتَحْلَوْا تَصَبِّيْهَا

فَـإِنْ مَنَعْتُهُمْ حَـالاً تَلَذُّهُـمُ وَعِيْشَةً مَا رَسُوْلُ ٱللَّهِ رَاضِيْهَا

وَسِرْتُ فِيْهِمْ إِلَى مَا يَعْلَمُوْنَ مِنَ ٱلْـــحُقُوْقِ وَهِيَ ٱلَّتِيْ أَأْبَى تَخَطِّيْهَا

عَدُّوْا ٱسْتِفَاءَتَهُمْ عَمَّا إِلَيْهِ مَضَوْا عَاراً وَمَا كَانَ مِنْهُمْ غَيْرُ نَابِيْهَا

وَٱسْتَنْكَرُوْا عَنَتاً فَتْوَى حَكَمْتُ بِهَا وَأَضْمَرُوْا ٱلْحُقْدَ وَٱلْبَغْضَا لِمُفْتِيْهَا

قَالُوْا أَبُو حَسَنٍ قَدْ هَمَّ يَحْرِمُنَا حُقُوْقَنَا قَوْلَةً أَبْغِي تَحَاشِيْهَا

فَـأَيُّمَا رَجُلٌ مِنْكُمْ بِصُحْبَةِ طَـــهَ قَدْ أَدَلَّ وَوَافَى وَهْوَ يُدْلِيْهَا

يَرَى عَلَى غَيْرِهِ فَضْلاً بِهَا وَعُلَىً لِنَفْسِهِ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُكَافِيْهَا

فَـإِنَّمَا فَضْلُهُ عِنْدَ ٱلْمُهَيْمِنِ وَهْـــوَ بِٱلَّذِي تَكْسِبُ ٱلْأَقْوَامُ يُجْزِيْهَا

وَأَيُّمَا رَجُلٌ لَبَّى ٱلْإِلَٰهَ وَهَا دِيْ ٱلْخَلْقِ تَلْبِيَةً تَهْدِيْ مُلَبِّيْهَا

وَدَانَ مَعْنَا بِدِيْنِ ٱللَّهِ مُعْتَلِنَاً وَلَاءَ أُمَّتِنَا مَعْ حَرْبِ عَادِيْهَا

وَٱسْتَقْبَلَ ٱلْقُبْلَةَ ٱلْعَلْيَاءَ قُبْلَتَنَا بِخَشْيَةِ ٱللَّهِ يَا بُشْرَى لِخَاشِيْهَا

فَإِنَّهُ بَاتَ بِٱلْإِسْلَامِ مُشْتَرِكاً مَعْنَا شَرَاكَةَ حَقٍّ لَسْتُ خَابِيْهَا

لَهُ ٱلْحُقُوْقُ ٱلَّتِيْ ٱلْإِسْلَامُ وَاضِعُهَا كَمَا ٱلْحُدُوْدُ ٱلَّتِيْ سُنَّتْ يُرَاعِيْهَا

أَنْتُمْ عِبَادَ ٱلَّذِيْ أَبْرَاكُمْ وَكَذَا ٱلْأَمْوَالُ أَمْوَالُهُ فِيْكُمْ أُجَزِّيْهَا

وَإِنَّنِيْ لَمُسَاوٍ بَيْنَ أُمَّةِ طَـــهَ وَٱلْمُهَيْمِنُ قَدْ أَمْضَى تَسَاوِيْهَا

وَٱلْمُتَّقُوْنَ لَهُمْ خَيْرُ ٱلْجَزَاءِ غَدَاً فِيْ جَنَّةِ ٱلْخُلْدِ مَا أَثْوَوْا مَثَاوِيْهَا

لَمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ هٰذِيْ ٱلدَّارَ مَثْوَبَةَ ٱلْأَبْرَارِ حَتَّى يُرَجِّيْهَا مُرَجِّيْهَا

بِـذَا أَبُـوْ حَسَنٍ نَـادَى بِخُـطَّتِـهِ فِيْ قَـوْمِهِ عِنْـدَ مَا قَـدْ بَـاتَ رَاعِيْهَـا
وَصَـارَحَ آلْقَـوْمَ أَنْ لَا مِيْـزَةٌ أَبَـدَاً فِيْ حُكْمِـهِ بَيْنَ عُـرْبِيْهَـا وَعُجْمِيْهَـا
وَإِنَّـهُ لِحُـدُوْدِ آلشَّـرْعِ مُـرْجِعُهَـا وَإِنَّـهُ لِـرِضَـاءِ آلـلَّهِ مُـمْشِيْـهَـا

أول مشاكل خلافة أمير المؤمنين

مَـا تَمَّتِ آلْبَيْعَـةُ آلْكُبْـرَى لِحَيْـدَرَةٍ وَآلنَّـاسُ فِيْ ثَوْرَةٍ صَعْبٌ تَـلَافِيْهَا(١)
وَلَمْ يَكَدْ يَعْمِلُ آلـرَّأْيَ آلسَّدِيْـدَ بِهَا كَيْمَـا عَلَى خَيْرِ مَـا يُـرْجَى يُهَـدِّيْهَـا

---

(١) إنَّ أول مشكلة عرضت على سيدنـا علي أمير المؤمنين عليه السلام في خـلافته هي مشكلة الثـائرين الـذين باتـوا في الحقيقة بعـد مقتل عثمـان أصحاب الحـلّ والعقد في المدينة المنورة فكان من همّ الخليفة قبل كلّ شيء وهو عليه السلام مـا تعلم من أصالـة الرأي أن يعنى بتفـريق جموعهم فيعيـد أهالي الأمصـار إلى أمصارهـا ويستعيد النـظام رويـداً رويداً بعد الفوضى التي أحدثتها الثورة وهذا لا يتأتى لـه إلاّ إذا عاونـه وجهاء المسلمين الذين حوله من المهاجرين والأنصار وعمّال الأمارات الإسـلامية . وبعـد ذلك لا بـدَّ أن ينظر في مقتل عثمـان وتوقيـع القصاص على القتلة إذا كـان في ذلك مصلحـة الخلافـة والمسلمين لأنّ القصاص الشرعي لم توجده الشريعة السمحـاء وعموم الشـرائع المنـزلة والموضوعة للإنتقام بل للتأديب حباً بالمصلحة العامة فإذا أمضى في سبيل الإنتقام وكان في إمضائه أضرار بالمصلحة العامـة خرج عن حـدّه الشرعي وأنتـج الحكم على ضعف رأي ممضيه وفأله . ولذلك ترى في القرآن العزيز الرحمة مصاحبة العدل لقـد أمر بهمـا الله سبحانه عباده معاً وقال ما يلخص بأنّ الرحمة أقرب للتقوى إذا كان في العدل تقية .
كمـا نرى جميـع الشرائـع تترك للملك حقَّ العفـو عن المجرمين لمـا قدمنـا من تفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة فتـلافي الفتنة مثـلاً أفضل بكثيـر من اقتصاصٍ لقتيل من قاتله إذا كان القصاص مفضياً إلى فتنة وهذا من الأمور البديهية التي لا تحتـاج إلى إسهابٍ في البحث .

ومن المعلوم أنّ للقوَّة الشأن الأول في إجراء أحكام الشريعة فالضعيف مثلاً يعجز عن إجراء أحكام الشرع على القوي المعتزّ بقوّته ومن ذلك أمر الثورات التي تحدث في العالم وهي قديمة فيه فإنّ الثائرين إذا ما فازوا بثورتهم يكون فوزهم نتيجة قوتهم سـواءً =

= إذا كانت ثورتهم على حقّ أو على باطل ولذلك اعتاد الملوك ومن حولهم من أولياء الأمور أن يعملوا على إطفاء نيران الثورات بالعفو العام حتى ولو تغلبوا على الثائرين لأنّهم لا يجهلون أنّ التشديد على الثائرين قد يعدُّهم إلى العودة إلى الثورة متى رأوا من نفوسهم قوةً عليها .

لا جرم أنَّ هذا مما ينطبق على الثورة التي قامت في المدينة المنورة وانجلت عن قتل عثمان فإنّ الثائرين تغلبوا على الخليفة في عاصمته فحصروه في داره وأعلنوا مراراً وتكراراً أنّهم لا يريدون قتله ولكن إقالته من خلافته والظاهر أنّهم لم يكونوا يملكون حقَّ عزله وخلعه لما تعلم من أنَّ الخلافة الإسلامية وقتئذٍ لم يكن لها نظام ثابت يعين الذين يولون الخليفة والذين يملكون حقّ خلفه أو عزله والذين تحقّ لهم الخلافة دون سواهم بل كان ذلك كلّه بمطلق اجتهاد أكابر الصحابة وكانوا ينفذونه بما يملكون من قوة وإذا تحقق لنا هذا وهو محقق لا ريب فيه كان في تعيين المجرمين الذين أجلبوا على عثمان ومبلغ استحقاقهم للقصاص الشرعي نظرٌ هذا على فرض أنّ الخليفة الجديد استطاع أن يملك ناصيتهم ويجري فيهم القصاص . إذ أنَّ الشرع الشريف بل وعموم الشرائع الإلّهية والموضوعة تحكم على القاتل بالقتل ولكنها تنظر قبل كل شيء إلى نية القاتل « والأعمال بالنيّات » فما سواءٌ قتل امرىءٍ لأخذ ماله أو للاثثار منه أو لأيّ سبب من الأسباب الخصوصية وقتل امرىءٍ رأى قاتلوه أن وجوده مضرٌّ بالجماعة لما بيده من السلطة العامة ولا سيما إذا حاولوا إصلاحه وبالأكثر إذا عرضوا عليه الاستقالة وألحّوا بها وكان يرفضها وفوق ذلك إذا أرسل يستدعي أنصاراً له يحاربهم بهم ليظلَّ في دسته متمكناً من نواصي الأمّة . وفي تواريخ الثورات في جميع شعوب الأرض وفي الخلافة الإسلامية نفسها شيء كثير من هذا فطالما ثار الناس على الخلفاء والملوك وقتلوهم أو خلعوهم وكان البعض ممن يخلفونهم يدني الثائرين منه ويعتزُّ بهم والبعض ينكل بهم تنكيلاً إذا رأى نفسه متمكناً من نواصيهم مخافة أن يفعلوا معه ما فعلوه مع سلفه . والعبرة كل العبرة بالقوة فهي التي تفعل فعلها في الثورات وفي غير الثورات بل وفي كل شيء نقول هذا كنظرة إجمالية ونحن لا نرى الثائرين قد أحسنوا الصنيع بقتل عثمان ولا نقرّهم على عملهم بل بالعكس نشجب كل ثورة وكل اعتداء شخصي على الحياة .

ولنعد الآن إلى مولانا أمير المؤمنين عليه‌السلام فقد رأيناه يرفض الخلافة عندما عرضت =

= عليه على أثر مقتل عثمان لما يعلمه من المشاكل التي تحيط بها وقال خيرٌ لكم أن أكون وزيراً من أكون أميراً ثمَّ رأيناه يقبلها لأنّه رأى نفسه مسؤولاً أمام الله والمصطفى ودينه عن المسلمين في فوضاهم على أنّه ما كان يجهل أنّ الأمر لم يكن في يده وقتئذٍ بل في أيدي الثائرين الذين ملكوا ناصية القوّة . وأخذ ككل عاقل مدبر حازم يعالج الأمر بالتي هي أحسن وبينما هو كذلك ولم يمرّ عليه يوم أو يومان وهو على دست الخلافة وإذا ببعض الصحابة قد جاءوه ولا نعرف ان كانوا حسني النية أو سيئيها ولكن الذي نعلمه أنّهم لم يكونوا مقدرين الحالة حقَّ قدرها وعرضوا عليه معاقبة الذين أجلبوا على عثمان فنظر إليهم المرتضى عليه السلام بعين ملؤها الودّ والعطف وأجابهم بصراحةٍ وإخلاصٍ وسداد رأي قال :

« يا أخوتاه إنّي لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف لي بقوّةٍ ، والقوم المجلبون على حدّ شوكتهم ، يملكوننا ولا نملكهم ، وها هم هؤلاء ، قد ثارت معهم عبدانكم ، والتفّت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، وهل ترون موضعاً لقدرة على شيءٍ تريدونه ؟ ، وإنَّ هذا الأمر أمر جاهلية ، وإنَّ لهؤلاء القوم مادَّةً ، إنَّ الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور : فرقةٌ ترى ما ترون ، وفرقةٌ ترى ما لا ترون ، وفرقةٌ لا ترى هذا ولا ذاك ، فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمحةً ، فاهدأوا عني ، وانظروا ماذا يأتيكم به أمري ، ولا تفعلوا فعلةً ، تضعضع قوَّةً ، وتسقط منَّةً ، وتورث وهناً وذلّةً ، وسأمسك الأمر ما استمسك ، وإذا لم أجد بدّاً فآخر الدواء الكيّ » اهـ .

والذي يتدبر كلمات سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام والحكمة تتدفق من كل حرف من حروفها يظهر له أولاً أنّ الثوّار كانوا قابضين على زمام الحالة ، وأنّهم ليسوا نفراً من الأمصار فقط بل كان معهم عبدان صحابة المصطفى وأنصاره وبالطبع ما انضمَّ عبدان هؤلاء إلى الثائرين إلّا برضاء ساداتهم وثانياً قد كان معهم عدد ليس بقليل من عربان بادية الحجاز ولهم نصيبهم من الحول والطول وثالثاً أنّ أهالي المدينة وهم بالطبع أكابر الصحابة والأنصار ووجوه المسلمين ما كانوا مجمعين على رأي ففرقة تحبذ عمل الثائرين فلا ترضى الاقتصاص منهم وفرقة على العكس تطلب الاقتصاص منهم لأنّهم عارضوا مصالحها وأضرّوا بها بثورتهم وفرقة على الحياد وهذه الفرقة لا أحد يعلم إلى أيّ الفرقتين تنضوي إذا حرَّك سيدنا أمير المؤمنين ساكناً في الأمر بمثل هذه السرعة . =

فَهَلْ أَرَادَ بِذَا إِخْرَاجَ مَوْقِفِهِ يَا هَلْ تَرَى أَمْ أَرَادَ ٱلْعَدْلَ آتِيْهَا
عَنْهَا تَرَى نَدَّ أَنَّ ٱلنَّاسَ ثَائِرَةٌ وَذُوْ ٱلرَّشَادِ عَلَيْهِ أَنْ يُدَارِيْهَا
وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ أَدْرَى بِٱلْمَصَاعِبِ مِنْـ ـهَا وَهْوَ مُفْتَكِرٌ فِيْمَا يُجَلِّيْهَا
لِذَا تَلَطَّفَ إِذْ أَصْغَى لِمَطْلَبِهَا وَرَاحَ بِٱلْعَطْفِ وَٱلْحُسْنَى يُفَاهِيْهَا
فَقَالَ: يَا أُخْوَتَاهُ لَسْتُ أَجْهَلُ حَا لاً قَدْ وَفَدْتُمْ عَلَيَّ تُعْلِمُوْنِيْهَا
لٰكِنَّمَا شَوْكَةُ ٱلثُّوَّارِ قَائِمَةٌ فَكَيْفَ لِيْ ٱلْيَوْمَ قُوْلُوْا أَنْ أُقَاوِيْهَا
وَإِنَّهَا مَلَكَتْنَا وَهْيَ ظَافِرَةٌ بِنَا فَصَبْراً إِلَى أَنْ تُمْلِكُوْنِيْهَا
ثَارَتْ وَعِبْدَانُكُمْ مَعْهَا بِشِرْكَةِ أَعْـ ـرَابِ ٱلْبَوَادِيْ ٱلَّتِيْ وَافَتْ تُمَالِيْهَا
وَإِنَّهَا بَيْنَكُمْ بَاتَتْ تَسُوْمُكُمُ مَا تَبْتَغِيْ كُلُّكُمْ بِتُّمْ مُطِيْعِيْهَا
فَهَلْ تَرَوْنَ لَدَيَّ ٱلْيَوْمَ مَوْضِعَ قُدْ م رَةٍ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مَعْ تَجَمِّيْهَا
وَٱلْأَمْرُ ذَا جَاهِلِيٌّ لَيْسَ تَعْرِفُهُ شَرِيْعَةُ ٱلْمُصْطَفَى فِيْ عُرْفِ أَهْلِيْهَا
أَلَا ٱعْلَمُوْا أَنَّ لِلثُّوَّارِ ثَوْرَةَ أَفْـ ـكَارٍ مُرُوْرُ ٱللَّيَالِيْ قَدْ يُلَاشِيْهَا
وَإِنَّ لِلنَّاسِ فِيْ مَشْهُوْدِ فِتْنَتِهَا أَمْراً مُحَرِّمُهُ حَتْماً يُجَزِّيْهَا
فَفِرْقَةٌ رَأْيُهَا مَعْكُمْ تُوَافِقُكُمْ عَلَى ٱلْقِصَاصِ بِهِ نَادَى مُنَادِيْهَا

= ثمَّ عرفنا أنّ سيدنا أمير المؤمنين كان في نيته أن ينظر في المشكلة متى هدأت الأحوال وانطفأت نار الثورة بحيث يعطي كلَّ ذي حقّ حقّه بالحسنى من غير تعرُّض إلى ما يضيع قوةً ويورث ذلّاً وخواراً . هذا كان عزمه عليه السلام وختم كلامه بقوله أنّه سيمسك الأمر ما استمسك إلّا إذا اضطرّ فسيمضي عزمه بالشدة فإنّ آخر الدواء الكي .

لا جرم أنّ سيدنا علي قد أصاب القول وصرَّح عمّا في نفسه بغير رياء وأظهر الحالة لأصحابه كما هي بغير مداجاة ولو كان مَن حوله مخلصين لما جرى من الشدائد ما جرى بعد ذلك ولكن قُدّر فكان ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى عَدْلاً مُنَابَذَةَ آلـ ـثُّوَّارِ تَطْلِبُ مِنَّا أَنْ نُوَاتِيَهَا
وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى هٰذا وَذَاكَ وَلَا نَدْرِيْ لَهَا وَجْهَةً مِنْ بَعْدُ تَمْشِيْهَا
فَالصَّبْرُ أَوْلَى اصْبِرُوا حَتَّى الزَّمَانُ يُهَدِّ مِ يُّ النُّفُوْسَ الَّتِيْ شَطَّتْ مَرَامِيْهَا
وَرَيْثَمَا تَقَعُ الْأَلْبَابُ مَوْقِعَهَا وَتَسْتَمِرُّ عَلَى حَالٍ نُوَخِّيْهَا
إِذْ ذَاكَ تُؤْخَذُ بِالْحُسْنَى الْحُقُوْقُ عَلَى سَمَاحَةٍ دُوْنَ أَهْوَالٍ نُعَانِيْهَا
أَلَا اهْدَأُوا وَانْظِرُوا مَاذَا يَجِيءُ بِهِ أَمْرِيْ فَمَا أَنَا مُغْضِيْ الْعَيْنِ غَافِيْهَا
وَجَانِبُوْا فَعْلَةً تُفْضِيْ نَتِيْجَتُهَا إِلَى التَّضَعْضُعِ مَا ذُوْ الرَّأْيِ يَأْتِيْهَا
وَقَدْ يَكُوْنُ بِهَا إِسْقَاطُ مُنَّتِنَا أَوْ ذِلَّةٌ إِنْ فَعَلْتُمْ تُوْرِثُوْنِيْهَا
مَا اسْتَمْسَكَ الْأَمْرُ إِنِّيْ سَوْفَ أَمْسُكُهُ وَكُلُّ جَائِحَةٍ عَنْهُ سَأَزْوِيْهَا
أَمَّا إِذَا اسْتَفْحَلَتْ تَاللَّهِ عِلَّتُهُ فَالْكَيُّ آخِرُ مَا أُلْفِيْهِ يُشْفِيْهَا
وَقَوْلَةُ الْمُرْتَضَى هٰذِيْ لَتُنْبِئُنَا بِنِيَّةٍ لِصَلَاحِ النَّاسِ يَنْوِيْهَا
وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيْ الْحَقِّ مُتَّرِكاً فَوْضَى تَعُمُّ بِلَا اسْتُثْنَا مَسَاوِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ رَاضِيَاً إِهْمَالَ عُلَّتِهَا لٰكِنَّهُ كَانَ يَرْجُوْ أَنْ يُدَاوِيْهَا
مَتَى اسْتَقَرَّتْ أُمُوْرُ النَّاسِ وَانْطَفَأَتْ نَارُ الْعِدَا كَانَ يَعْنَى كَيْ يُطَفِّيْهَا
بِحُكْمَةٍ تُرْتَجَى مِنْ مِثْلِهِ فَإِذَا اسْـ ـتَعْصَتْ عَلَيْهِ بِنَارِ الْحَزْمِ يَكْوِيْهَا
وَمَا لِحَيْدَرَةٍ إِبْلَاغُ أَنْفُسٍ أَرْ بَابِ الْمَطَامِعِ إِنْ جَارَحت أَمَانِيْهَا

أسباب الانتقاض على أمير المؤمنين

تَقْوَى وَزُهْدٌ وَبِرٌّ ذِيْ صِفَاتُ أَمِيْـ ـرِ الْمُؤْمِنِيْنَ لِكُلِّ النَّاسِ يَبْغِيْهَا(١)

---

(١) إنَّ المؤرّخ الناقد إذا أجال نظرةً صادقةً إلى الأسباب الحقيقية التي عجّلت =

= بانتقاض الناس على خلافة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين عليه السلام يظهر لـه أنّها غيـر ما كتبـه كثيرون فيها من نقّاد التاريخ والباحثين فيه ومذهبة لحيرة الذين حاروا منهم بـالتوفيق بين ما اشتهر عن سيدنا علي من أصالة الـرأي ومضاء العـزيمة وبعـد الهمة وغـزارة الحكمة وسعـة العلم وبين التشويش الـذي رافق خلافتـه منذ تـولاهـا إلى اليـوم الـذي فيـه قتله عبـد الرحمن بن ملجم لعنـه الله . وعندي على قلّة علمي أنّ مـا من إنسان في الـوجود كان في طوقه أن يعمل خيراً مما عمـل سيدنـا أمير المؤمنين اللهمَّ إذا كـان مقيداً بقيـود الشريعة السمحاء مصرّاً على إجراء أحكامهـا في المسلمين في الظروف التي تـولّى فيها هذا السيد العظيم الخلافة فالـظروف إذن هي التي أوجدت ذلـك الإضطراب لا شخص الإمام الأعظم ولا سوء تدبيره كما يطعن عليه أعداؤه عليه السلام .

لا جرم لو تولّى سيدنا علي الخلافة على أثر وفاة رسول الله لما حدث في خلافته حادث مما سيمرُّ بنا وإذا كـان ليس لنا أن نتكهن عن شيء لم يحصـل فما هـو بمحظور علينا أن نشير إليه لتنبسط أمام القارىء اللبيب الحقيقة التي طالما تلمسها المتلمسون .

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقام دعوته على دعامة الدين والتفَّ حوله الناس وهم يـطلبون ثواب الآخرة لا يهمهم شيء من زخـارف الدنيـا فكانـوا الفئة القليلة الـظافرة بقـوة إلَهية على الفئـة الكثيرة . ولمـا تمَّ النصر لـلإسلام ودخـل الناس فيـه أفواجـاً بعد فتـح مكـة المكـرمة لم تكن قلوب « الـطلقاء والمؤلفـة قلوبهم » متشبعـة من روح الإسـلام كقلوب المهـاجرين والأنصـار ولـذلـك كثـر عـدد المنـافقين بين المسلمين وهم الـذين أظهـروا الإسـلام بألسنتهم خضـوعاً للقـوة وانطوت قلوبهم على الكفـر والإشراك . وقـد ظهرت نيات هؤلاء السيئة للإسلام على عهد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك على مـا مرَّ بنـا إذ تقاعس عنها كثيرون وقام كثيرون يرجفـون بسوء نتـائجها تثبيــطاً لعـزائم المسلمين عن الجهـاد . كما ظهـر خبث نوايـا هؤلاء أيضاً بعـد وفاة المصـطفى إذ ارتدَّ كثيـرون منهم فحاربهم أبو بكر وأعادهم إلى الإسلام بالسيف لما تعلم من حكم الشرع على المرتدّ .

وظـلَّ هؤلاء المنـافقـون منتشـرين بين المسلمين في عهـد عمـر وليس لهم سمـة معلومة تميّزهم عن المخلصين الصادقين في الإيمان فكان بالطبع تأثيرهم كبيراً في ذلك الوسط الإسلامي . وأراد الله سبحانه أن يجعل عهد عمر فتحاً ونمـواً للإسـلام فاتّسعت الـدولة الإسـلامية وكثـر الألى دخلوا في الإسلام من الفـرس والروم والأرمن والسـريـان =

= وغيرهم فأزاد هذا النمو بالطبع عدد المنافقين بين المسلمين أو على الأقل قل إنّ كثيرين ممن أسلموا من الروم والفرس والسريان والأرمن لم يكونوا واقفين على حقائق الشريعة الإسلامية السمحاء وآدابها العالية ومباديها الراقية فكان لانضمامهم إلى الجماعة تحت لواء الإسلام تأثيره ولا سيما لأنّ الإسلام يساوي بين تابعيه مساواةً لا تمييز فيها لمسلم على مسلم لا بجنس ولا بسابقة ولا بمال ولا بحسب ولا بعصبية ولا بأي شيء آخر .

ثمّ انتقلت الخلافة إلى عثمان بن عفان وعلى عهده كانت الكلمة العليا لبني أميّة وهؤلاء من الطلقاء المؤلفة قلوبهم وقد أسلموا « إلاّ زعيمهم عثمان » يوم فتح مكة المكرمة فلا ينتظر منهم بعد أن استضعفوا زعيمهم وحكموا باسمه المملكة الإسلامية أن يدققوا في إجراء الأحكام الشرعية ويطبّقوا قوانينها على أنفسهم أولاً وعلى المسلمين ثانياً بل كان هذا لا يلائم مطامعهم إذ من الثابت أنّهم كانوا يعملون في عهد عثمان على استبقاء الخلافة في بيتهم أو على الأقلّ أن يصبحوا إذا لم يتوفقوا إلى استبقاء الخلافة في بيتهم في حالة من الوجاهة والثروة والنفوذ تجعل الخليفة رهن إشارتهم كائناً من كان فجعلوا يتناولون من أموال المسلمين باسم هبات من عثمان ما يستطيعون نيله وكانوا يحزبون الأحزاب بمن تسهل استمالته إليهم بالأموال والمنافع سواء من العرب أو من الأعاجم الذين دانوا بالإسلام والناس تسعة أعشارهم إذا لم نقل كلهم عبيد منافعهم .

ثمّ أنَّ الناس الذين قلنا أنّهم عبيد منافعهم ليس كلهم ينظرون إلى منافعهم الدنيوية بل منهم من كانوا ينظرون إلى منافعهم الأخروية الآجلة ويفضلونها على المنافع الدنيوية العاجلة ومثل هؤلاء كانوا كثيرين في ذلك الزمان لجدة الإسلام وقرب العهد بالمصطفى وانبثاث الكثيرين بينهم ممن صحبوه صلى الله عليه وآله وسلم ورووا أنباءه وحدّثوا بأحاديثه الباهرة وهؤلاء هم الذين نعوا على عثمان أعمالهم وكانوا غير راضين عمّا كان يجري في الخلافة على عهده وانضمّ إلى هؤلاء المحرومون من المنافع التي فاز بها الأمويون وأصحابهم بدافع الحسد والغيرة .

وعلى هذا لنا أن نقول إنّ سيدنا علي عليه السلام قد تولى الخلافة والناس لم يبقوا على ما كانوا عليه في عهد النبوة وعهدي أبي بكر وعمر يعملون أعمالهم ووجهتهم الآخرة=

فَمَا ٱلْهَوَاشِمُ أَسْمَى مِنْ قُرَيْشَ وَلَا ٱلْأَ م عْـرَابُ يَفْضُلُهَـا قَـدْراً صَحَـابِيْهَـا

= زاهدين بالدنيا وزخرفها بل تعوَّدوا شيئاً آخر وهو أنَّ في الخلافة منافع قد يختصُّ بها من كان من عشيرة الخليفة أو اتصلوا به وبالمتوجهين بخلافته . ونستـطيع أن نقـول إنّ هذا التحوّل في الأفكار كاد يكون عامّاً في المسلمين يوم قتل عثمان إلاّ من عصم الله .

ولا بدَّ لنا من نظرية أخرى معقولـة وأحسبها واقعيـة وهي أنّ العرب الـذين غلبهم الإسلام على أمرهم وأشير إلى بعضهم باسم « المنافقين » وإلى البعض باسم « المؤلفـة قلوبهم » كانوا على أشدّ الكره لرسول الله ولـوصيّه عليهمـا الصلاة والسـلام وإنّما القـوّة القاهرة كانت تحملهم على إخفاء هـذا الكره في صـدورهم لعلمهم ما يتبـع إظهاره من التنكيل بهم . وهذا الكره أمر طبيعي لا غرابة فيه إذ ما من مغلوب يحبّ غالبه المنتصـر عليـه . ويدلّـك على هذا الكـره ما كـان من أمر الحكم أبي مـروان الذي كـان يتنصت أحاديث المصطفى ويشيعهـا بين المسلمين للإضـرار بالإسـلام وبطبيعـة الحال مـا كان يشيعها إلاّ بين الذين يرضون سماعها من شركائه بكراهة رسول الله وأمثال هذا مـا كانـوا قليلين .

وإذا كـان هؤلاء المنافقـون يكرهـون رسول الله لأنّـه تغلّب عليهم فبالأولى كـانـوا يكرهون أصحابه وأنصاره الذين كانوا سيوفه المشهـرة وقد شهـرها لحـربهم وقهرهم بهـا بـإذن الله . وبالبـداهة كـان هذا الكـره لأصحاب رسـول الله وأنصـاره يتفـاوت بتفـاوت أعمالهم الحربية . وإذا عرفنا أنَّ سيدنا علي كان فتى المغازي النبوية وأنّ ما في أولئك المنافقين من لا يذكر أنّه عليه السلام قاتل أباه أو أخاه أو عمّه أو خاله أو ابنه كـان من الصعب جـداً أن ينسوا الثـأر على ما نعلم من « ثـارات العرب » وأن تصفـو قلوبهم إلى من كان المجلي في الحـروب التي اشتملت بين المسلمين والمشـركين إلاَّ الـذين عـصمـهم الإسـلام فعرفـوا أنَّ علياً كـان سيف الله وقد أشهـره سبحانـه على المشركين والكـافرين لنصرة دينه وإعلاء راية شريعته في العالمين . وإذا كان هؤلاء الناقمون على سيدنا علي وهم ليسوا بقليلين عاجزين عن الإيثار لأنفسهم منه فما كان يصعب عليهم أن يلبّوا دعوة كلِّ من ينادي بعداوته ولا سيمـا بعد أن أصبـح خليفة المسلمين وهم لا يـطيقون لـو أنَّ الحكم لهم أن يروا قاهرهم والمنكل بهم صاحب الحكم فيهم . وعندي أنَّ هـذا الكره الذي كان متأصلاً في صـدورهم هو الـذي أقعدهم عن نصـرة أمير المؤمنين لمـا دعتهم إليها سيدتنا فاطمة الزهراء عليهما وعلى المصطفى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام . =

وَلَا ٱلْأَعَاجِمُ مُذْ دَانَتْ لِشِرْعَةِ أَحْـ ـمَدٍ يُنَافِسُهَا فِي ٱلنَّاسِ عُرْبِيْهَا
وَمَا هُنَالِكَ تَمْيِيزٌ وَلَا رِتَبٌ لَدَى أَبِي حَسَنٍ لِلنَّاسِ يُعْطِيْهَا
هٰذِي خُلَاصَةُ رَأْيِ ٱلْمُرْتَضَى بِإِمَا مَةٍ يُقِيْمُ حُدُوْدَ ٱلشَّرْعِ وَالِيْهَا
وَمُذْ تَرَبَّعَ فِي دَسْتِ ٱلْخِلَافَةِ أَعْـ ـلَنَ ٱلرَّغِيْبَةَ ذِيْ مَا كَانَ مُخْفِيْهَا
وَٱلْمُسْلِمُوْنَ لَقَدْ فَاتُوْا بَدَاوَتَهُمْ مِنْ عَهْدِ عُثْمَانَ وَٱجْتَازُوْا فَيَافِيْهَا
تَعَوَّدَتْ رَفَلَاتِ ٱلْعَيْشِ أَنْفُسُهُمْ حَتَّى تَنَاسَتْ بِإِسْرَاعٍ تَبَدِّيْهَا
فَقَلَّ مِنْهُمْ مَنْ يَرْضَى ٱلْخُشُوْنَةَ فِيْ عَيْشٍ تَعَوَّدَ فِيْهِ قَبْلُ تَرْفِيْهَا
وَإِذْ رَأَوْا ٱلْمُرْتَضَى لَا شَكَّ مُرْجِعَهُمْ إِلَى بَدَاوَتِهِمْ وَٱلْكُلُّ آبِيْهَا
تَقَمْقَمُوْا وَتَوَلَّوْا عَنْ خِلَافَتِهِ وَصَارَ هَمُّهُمُ ٱلْأَسْمَى تَدَاعِيْهَا

= وبعد هذا البيان سهل علينا أن نفهم لماذا تسارع القوم إلى الإرفضاض من حول سيدنا علي عليه السلام من يوم تربّعه على دست الخلافة ومجاهرته بما جهر به من عزمه على المساواة بين الناس وإعادتهم إلى عهدهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنهم من كانوا يكرهونه ويحقدون عليه . ومنهم من توسموا خيبتهم بمطامعهم في خلافته . ومنهم من عزَّ عليهم أن يرجعوا إلى خشونة العيش بعد أن ترفّهوا وبطروا . وكان وراء هؤلاء جميعاً بنو أمية وأصحابهم . وما كان ينتظر منهم أن يرضوا بخلافة سيدنا عليّ ويخضعون لها وهم موقنون أنّه سيفتتح أعماله بالضرب على أيديهم جميعاً وتنحيتهم عن كلما كسبوه من مال وجاه وسلطان على عهد عثمان . فقل لي يرعاك الله هل كان باستطاعة إنسان مهما عظمت قدرته وتعالت ميزته ومهما تسامى في علمه وفضله ومهما قويت إرادته واتّسعت حكمته أن يرضي هؤلاء الجماعات وحاله معهم حال علي التي ذكرناها وإيمانه بالله ما عرفنا ؟؟ لا والله . وقد كان سيدنا علي عارفاً بما ينتظره من المصاعب ولكنه أقدم على قبول الخلافة بعد الإحجام وهو موقن أنَّ هذا القبول هو جهاد جديد في سبيل الإسلام فإمّا أن يعيد حالته إلى ما كانت على عهد المصطفى عليهما الصلاة والسلام وإمّا أن يموت شهيداً في سبيله وهو تفانٍ له حقه من الإجلال والاعتبار .

إلَّا آلأُلَى عَصَمَ آلْبَارِيْ نُفُوسَهُمُ فَآسْتَمْسَكَتْ بِنُصُوْصِ آلشَّرْعِ تَتْقِيْهَا

فَكَانَ ذَا بَدْءُ عَهْدِ آلإِنْقِلَابِ عَلَى إِمَامَةٍ سُنَنُ آلْهَادِيْ تُمَشِّيْهَا

وَمَا تَقَادَمَ فِيْهَا عَهْدُ حَيْدَرَةٍ بَلِ آنَّهُ مِثْلَمَا نَدْرِيْ مُمَسِّيْهَا

بَلْ لَمْ يَكُنْ حَقَّهَا نِسْيَانُ عَهْدِ رَسُوْ لِ آللَّهِ وَهْوَ عَلَى هٰذَا مُرَبِّيْهَا

كَذَاكَ لَمْ تَنْسَ مَا لِلْمُرْتَضَى بِنُفُوْ سِ آلْعُرْبِ مِنْ غُصَّةٍ كَانَتْ تُخَبِّيْهَا

فَهَلْ نَسَتْ أَمْسَهَا إِذْ كَانَ قَاهِرَهَا بِذِيْ آلْفَقَارِ وَمُدْمِيْهَا وَمُصْمِيْهَا

وَلَيْسَ فِيْهَا سِوَى آلْمَوْتُوْرِ مَاتَ أَبُوْ هُ أَوْ أَخُوْهُ وَهٰذَا آلْقَرْمُ مُرْدِيْهَا

وَآلْعُرْبُ ثَارَاتُهَا لَا تُنْتَسَى أَبَداً وَآلْأَخْذُ بِآلثَّأْرِ مِنْ أَسْمَى مَبَادِيْهَا

وَآلشِّرْكُ مَا زَالَ يُغْرِيْ أَكْثَرِيَّتَهَا عَلَى كَرَاهَةِ مَاحِيْهِ وَغَازِيْهَا

وَبَعْدَ هٰذَا وَهٰذَا مَا أُمَيَّةُ تُغْـ ـضِيْ عَنْ مَطَامِعِهَا أَوْ عَنْ أَمَانِيْهَا

وَكَانَ عُمَّالُ أَمْصَارِ آلْخِلَافَةِ شِيْـ ـعَةً لَهَا أَوْ أُنَاساً مِنْ مُحِبِّيْهَا

بِهِمْ فَشَتْ بَيْنَ كُلِّ آلنَّاسِ سَطْوَتُهَا وَسَطْوَةُ آلْحُكْمِ تُعْيِيْ مَنْ يُقَاوِيْهَا

كَذَاكَ كَانَتْ جَمَاعَاتُ آلْعِدَاةِ يُنَا جِيْ بَعْضَهَا آلْبَعْضُ كَيْ تُبْدِيْ تَعَصِّيْهَا

كَانَتْ بِثَارَاتِ عُثْمَانٍ تَصِيْحُ وَفِيْ فُؤَادِهَا غَيْرُ مَا تُبْدِيْهِ مِنْ فِيْهَا

وَإِنَّمَا دَمُهُ فِيْ عُنْقِهَا وَلَئِنْ لَاقَى مَنِيَّتَهُ مِنْ غَيْرِ أَيْدِيْهَا

رؤساء أعداء أمير المؤمنين

لِكُلِّ مُجْتَمَعٍ فِيْ أَيِّمَا عَمَلٍ نَاسٌ تَذِيْعُ بِهِ ذَيْعاً أَسَامِيْهَا(١)

وَلَيْسَ مِنْ ثَوْرَةٍ إِلَّا لَهَا زُعَمَا ءُ تَنْفُخُ آلنَّارَ عُدْوَاناً وَتُلْظِيْهَا

---

(١) لا بدَّ لكل مجتمع في أي عمل كان من أناس تذيع أسماؤهم فيه وقد يكونون هم دعاته أو مسيروه وكذلك حال الثورات فإنّها لا تتم بغير زعماء يدعون إليها =

وَلاَ تُسَاقُ سَوَادُ ٱلنَّاسِ ثَائِرَةً إلَّا إذَا أَحْكَمَ ٱلتَّدْبِيْرَ دَاعِيْهَا
فَرَاحَ يَخْلِقُ أَسْبَاباً لِفُتْنَتِهِ تُثِيْرُ ثَائِرَةَ ٱلْبَغْضَا وَتُسْنِيْهَا
وَإِنَّ أَعْدَاءَ مَوْلاَنَا أَبِيْ حَسَنٍ مِنْ يَوْمِ امْرَتِهِ أَبْدَتْ تَعَصِّيْهَا
طَوْعَاً لِأَرْبَعَةٍ كَانُوْا ٱلرُّؤُوْسَ لَهَا وَكَانَ حَوْلَهُمْ جَهْرَاً تَجَمِّيْهَا
فَطَلْحَةُ وَٱلزُّبَيْرُ ٱلطَّامِعَانِ بِخَيْـ ـرَاتِ ٱلْخِلاَفَةِ وَٱسْتِقْطَاعِ أَرْضِيْهَا

=ويحسنون للناس ركوب المخاطر فيها بما يختلقونه من الأسباب المبرّرة لها . والثورة التي قامت من اليوم الأول الذي تولّى فيه سيدنا علي عليه السلام الخلافة ذاع فيها بين الناس أسماء زعمائها فإذا هم معاوية بن أبي سفيان أمير الشام وطلحة والزبير وهما من أكابر الصحابة وعائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ هؤلاء الأربعة قاموا ينادون بها ويدعون الناس إليها وكانت حجّتهم الظاهرة لعصيانهم الخليفة هي المطالبة بدم عثمان وقد اتّهموا به سيدنا علي ظلماً وعدواناً وأمّا الأسباب الحقيقية التي دعتهم إلى الثورة فقد كانت غير ذلك إذ عرفنا وعرف الناس أنّ معاوية كان يطمح بنظره إلى الخلافة وحوله بنو أميّة . وطلحة والزبير كلٌ منهما كان يرجو الخلافة لنفسه ولما لم ينالاها طمحا إلى أمارتي الكوفة والبصرة ليشبعا مطامعهما من خيرات ذينك المصرين ولكي يكيدا فيهما للخليفة . وأمّا عائشة فحتى الآن يجهل الناس حقيقة غرضها من النهوض بالثورة فقالوا أنّها كانت تكرهه عليه السلام لأنّه من أحمائها على القاعدة العامة في النساء وهي كرههنّ لأحمائهنّ ولكن هذا الكره مهما تعاظم ما كان يدعو مثل عائشة لتترك خباءَها وتقف على رأس الثائرين في وجه أحبّ الناس لزوجها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فما الذي دعاها يا ترى لركوب هذا المركب الخشن ؟ لا أعلم تالله حقيقته ولا وجدت في المؤرخين من أبدى له سبباً يقنعني . على أنّ هؤلاء الزعماء لم يجدوا سبباً يقنعون الناس به على الإقدام على عصيان سيدنا علي في خلافته ومحاربته غير المطالبة بدم عثمان كما سبق القول بعد جعله في عنقه وما كانوا يجهلون براءَة سيدنا علي من دم عثمان ولكنهم اتّهموه به عن ظلم وعدوان ووجدوا النفوس مهيأة لقبول الدعوة ضد سيدنا علي لما أسلفنا من كره بعضهم له وعدم معرفة بعضهم ولا سيما الأعاجم لقدره ومكانته العليا ولتأثر البعض بنفوذ حكّامهم عليهم وكانوا من أميّة أو من أصحاب الأمويين .

يَلِيْهِمَـا فِيْ تَحَـدِّيْهَـا مُعَـاوِيَـةٌ وَكَـانَ دُوْنَـهُمَـا يَـبْغِـيْ تَـوَلِّيْـهَـا

تَلِيْهِ عَـائِشَـةٌ وَٱلنَّـاسُ تَجْهَـلُ حَـــتَّى ٱلْيَوْمَ مَا كَـانَ لِلْعُدْوَانِ حَـادِيْهَا

وَكَـانَ عُثْمَـانُ فِيْ ٱلشِّنْـآنِ حِجَّتَهَـا يُـدْلِيْ بِهَا لِخِـدَاعِ ٱلنَّاسِ مُـدْلِيْهَـا

عداء عائشة لأمير المؤمنين

فَهَـلْ نَسَتْ لَحْيَهَـا عُثْمَـانَ عَـائِشَـةٌ عَلى رُؤُوسِ ٱلْمَـلا لَوْمَـاً وَتَسْفِيْهَـا

وَطَـالَمَا أَعْلَنَتْ أَنْ لاَ ٱنْـطِبَـاقَ عَلى حُكْمِ ٱلشَّـرِيْعَـةِ أَعْمَـالٌ يُجِـرِّيْهَـا

وَكَمْ صِحَابُ رَسُوْلِ ٱللَّهِ قَدْ سَمِعَتْ مِنْهَـا مَـلاَمَتَـهُ سِـرّاً وَتَجْـرِيْهَـا

وَكَمْ دَعَتْ وُجَهَـاءَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ إِلَـى إِرْجَـاعِـهِ عَنْ أُمُـوْرٍ كَـانَ يَـأْتِيْهَـا

وَكَمْ بِـأَقْـوَالِهَـا ٱلثُّـوَّارُ قَـدْ شَجَعَتْ لَمَّـا تَكَـاثَـرَ بَيْنَ ٱلنَّـاسِ رَاوِيْهَـا

وَلَـمْ تَـدَعْ طِيْبَـةً إِلاَّ عَـلى ثِقَـةٍ بِـأَنَّ بُغْيَتَهَـا ٱلـثُّـوَّارُ تُمْـضِيْـهَـا

مَـا بَالُهَـا خَذَلَتْ عُثْمَـانَ وَهْـوَ عَلى شَفِيْـرِ هَـاوِيَــةٍ لاَ شَـكَّ هَـاوِيْهَـا

---

(١) سبقت الإشارة عن حيرة الناس في أمر عائشة ودخولها في مضايق الثورة ضد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام حتى كانت من زعماء الثائرين الأربعة الذين اشتهرت أسماؤهم في عداوته وشنآنه وكانوا السبب الأكبر في تألّب الناس عليه وجعل عهد خلافته عهد تشويش واضطراب وحروب داخلية أفضت في الأخير إلى سفك دمه الأقدس من يد لئيم رافقت اللعنات روحه إلى أبد الأبيد هي لعنات الله وملائكته ورسله والناس أجمعين .

نعم حار النقّاد في ثورة عائشة زوج المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وابنة أبي بكر لركوبها هذا المركب الخشن فجعلوا ينقبون في ثنايا التاريخ ويقلّبون حوادث حياتها مع المصطفى لعلّهم يجدون سبباً مقنعاً لحملها على الحقد على سيدنا علي عليه السلام إلى درجة أن تؤلب الناس عليه من ساعة انتهاء نبأ بيعته إلى سمعها وهي في مكة المكرمة فذكروا بعض حوادث لا بدَّ أن تحدث بينها وبين سيدتنا الزهراء بصفتها ابنة زوجها أو بين سيدنا علي بصفته من أحمائها وأحبّ الناس إلى زوجها المصطفى وأكثرهم دلالاً عليه فما ذكروا =

وَلَمْ تُحَـرِّكْ يَـدَاً بَيْضَـاءَ تُـنْقِـذُهُ   بِهَـا وَعَنْهُ صُـرُوْفُ ٱلـدَّهْـرِ تُجْلِيْهَـا

=غير تافه الحوادث وبسائطها مما لا يدعو إلى شنآن مستمرّ حتى بين عـامة النسـاء فكيف بخاصتهنّ كعائشة وقد دخلت بيت المصطفى في التاسعة من عمرها وتربّت على يديه ؟ حتى أنَّ سيدنا علي عليه السلام هو أيضاً كان في حيرة من أمرها فقـال : « وما لنـا إلى عائشـة من ذنب إلاّ أنّ أدخلناها في حيزنا » وما هذا بذنب كما تعلم فكأنّه يقول إننا لا ذنب لنـا إليها حتى تجاهر بعداوتنا وتدعو الناس إلى محاربتنا .

وقال بعض نقّاد المؤرخين إنّ عـائشة كـانت ترجـو في تحريضهـا على عثمان أن يخلعه الثائرون أو يقتلوه ويتولّى الخـلافة طلحـة بن عبيد الله لتـرجع الخـلافة إلى بيتهـا وعللوا ذلك بقولهم إنّ الأمويين عندما أعادوا بالخلافة إلى عصبية الجـاهلية تنبهت بقيـة العصبيات في قريش فقام طلحة وعائشة يتعاونان على استعـادة الخلافـة إلى عشيرة بني تيم التي منها أبو بكر وطلحة بحجّـة أنَّ أول الخلفاء كـان أبو بكـر وأنَّ طلحة كـان أحد الستّة الذين حكم عمر بأحقيتهم بـالخلافـة بجعلها شـورى بينهـم وأنت تعلم أنَّ أبا بكـر هوابن عامـر بن عمرو بن كعب بن سعـد بن تيم بن مرة وأمّـا طلحة فهـو ابن عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعـد بن تيم بن مرة فيكـون أبو بكـر ابن عمّ عبد الله والـد طلحة ويجمعهما كليهما تيم . وقد تكون هذه الحجة معقولة ولكن هل كـانت عائشـة يا هل ترى واثقةً من إمكان فوز طلحة بالخلافـة مع وجـود سيدنـا علي عليه السلام ؟ ومن ثمَّ إذا كانت فكرة العصبية الجاهلية قد أعادها الأمويون إلى نفـوس المسلمين أما كـانت الثورة على عثمان التي أثارتها تلك العصبية كافية لإقناع عائشة وطلحة قبل غيرهما بأنّها بدعـة غير مضمونة النجاح ؟ وفي الأخير هل وجد طلحة وعـائشة في بني تيم ومن حـولهم من الأنصار الذين يميلون لهم وهم أهل الكوفـة على ما نعلم الكفـاءَة الكافيـة للتغلب على الأمويين وهـم مسيطرون على كـل بلاد الخـلافة بمـا نشروا فيهـا من العمّال المخلصين لهم عـدا عن أهـل الشـام الـذين كـانـوا شيعـةً لهم ؟ فضـلاً عن الهــواشم واعتـزازهـم بالمصطفى والمـرتضى عليهما وعلى آلهمـا الصلاة والسـلام وتمجّدهم بـالنبوَّة واحتـرام عموم المسلمين لهم احترامـاً دينياً يـوجب على كل متـدين منهم أن يكون شيعـةً لهم . أقـول إذا كان مبلغ اجتهـاد عائشـة وطلحة ينتهي إلى هـذا الحـدّ فـلا عجب إذا كـانت خيبتهما قريبة سريعة وهكذا كان .

ويقول بعض نقّاد التاريخ ان عائشة حصلت في أيام عثمان على حول وطول على =

بَـلْ أَسْرَعَتْ بِخُـطَاهَا وَهْيَ قَـائِلَةٌ:   دَعِ ٱلتَّقَـادِيْرَ تَجْـرِيْ فِيْ مَجَـارِيْهَـا

وَلاَزَمَتْ مَكَّـةً كَـانَتْ تُـرَاقِبُ مِنْـــــهَـا فِتْنَـةً لَمْ تُخَيِّبْ ظَنَّ مُـوْرِيْهَـا

فَمَـا لَهَـا أَكْبَـرَتْ قَـاسِيْ نَتِيْجَتِهَـا   وَلَمْ تَجُـزْ رَغْبَـةً كَـانَتْ تُـوَخِّيْهَـا

لَعَلَّهَـا طَلَبَتْ لِـلأَمْـرِ طَـلْحَتَـهَـا   إِذْ كَـانَ فِيْ ٱلْعَرَبِ ٱلْعَـرْبَاءِ تِيْميْهَـا

وَإِذْ تَـوَلاَّهُ عَـنْ حَقٍّ أَبُـوْ حَسَـنٍ   وَخَـابَ فِيْمَـنْ أَرَادَتْـهُ تَمَنِّـيْـهَـا

بَكَتْ عَلى مَنْ نَعَتْ أَعْمَـالَهُ وَسَعَتْ   لِقَتْلِهِ بِـٱلَّـذِي أَبْـدَتْـهُ مِنْ فِيْهَـا

لِكَيْ تُضَعْضِعَ حُكْمَ ٱلْبَرِّ حَيْـدَرَةٍ   بِـفِتْـنَـةٍ تَـتَـلَظَّى مِـنْ تَـبَـاكِـيْـهَـا

أَوْ إِنَّهَـا رَهِبَتْ حُكْمَ ٱلْعَلِيِّ بِشِـدَّ م ةِ ٱلشَّـرِيْعَـةِ إِذْ تَبْغِـيْ تَـرَاخِيْـهَـا

فَلَمْ تَجِـدْ غَيْـرَ إِبْـدَاءِ ٱلْعَـدَاءِ لَـهُ   وَسِيْلَةً مِنْ قَضَـاهُ ٱلْعَدْلِ تُنْجِيْهَـا

أَوْ إِنَّهَـا كُنَّـةٌ فِيْ صَـدْرِهَـا لِبَنِيْ   أَحْمَـائِهَـا بُغْضَـةٌ تَـأْبَى تَحَـامِيْهَـا

وَهْيَ ٱلَّتِيْ دَفَعَتْهَـا لاِعْتِلاَنِ عَـدَا ٱلْـــوَصِيِّ عَفْـوَاً وَلَمْ يَنْظُرْ تَعَـدِّيْهَـا

وَٱلْمُـرْتَضَى قَالَ فِيْ شِنْـآنِ عَـائِشَـةٍ   لَـهُ وَقَـدْ شَنِئَتْ مَنْ لَيْسَ شَـانِيْهَـا

سِـوَى ٱنْضِوَاهَـا إِلَيْنَـا مَـا لَنَـا أَبَـدَاً   ذَنْبٌ إِلَيْهَـا إِلَى ٱلْعُـدْوَى يُهَيِّـيْـهَـا

وَٱلنَّـاسُ فِيْ حِيْرَةٍ مِنْ أَمْـرِهَـا وَإِلَى   ذَا ٱلْيَـوْمِ مَا مِنْهُمُ يَـدْرِيْ خَـوَافِيْهَـا

تَـٱللَّهِ مَـا خَيْبَـةٌ حَـاقَتْ بِـطَلْحَتِهَـا   تَكْفِيْ إِلَى ٱلْجَهْرِ بِٱلْبَغْضَاءِ تَجْرِيْهَـا

=المسلمين فكانوا يرجعون إليها فتروي لهم الأحاديث عن زوجها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وبواسطتها صار لها نفوذ عظيم عليهم وكان الأمويون قد تركوا لها هذه الميزة إضعافاً لشأن سيدنا علي ونفوذه بين المسلمين وأنّها عندما علمت بولاية سيدنا علي أيقنت بأنّ نفوذها سيتلاشى بجانبه كما يتلاشى نور القمر إذا بزغت الشمس فنهضت لمحاربته احتفاظاً بمكانتها وهذا القول أيضاً لا يخرج عن حدود العقل ولكنه أضعف من القول المتقدم وذاك عندي هو الأقوى والله أعلم .

وَلَا ٱلْعَـدَاوَةُ لِـلْأَحْمَـاءِ مُـوصِلَةٌ إِلَى مُخَـاطَـرَةٍ صَعْبٌ تَخَـطِّيْهَـا
لٰكِنْ أَرَادَتْ رُكُوْبَ ٱلصَّعْبِ مُعْرِضَةً عَنْ نَـاصِحِيْهَـا وَمَنْ بَـاتُـوْا مُلِيْمِيْهَـا
وَٱسْتَهْـدَفَتْ لِسِهَـامِ ٱللَّوْمِ رَاضِيَـةً فَهَـلْ يُـلَامُ لَعَمْـرُ ٱلْحَقِّ رَامِيْهَـا

عداء طلحة والزبير لأمير المؤمنين

فِيْ عَهْدِ عُثْمَانَ جَدَّتْ صَحْبُ أَحْمَدَ فِيْ ٱسْـ ـتِصْفَاءِ قَوْمٍ عَلَى ٱلدُّنْيَا تُمَالِيْهَا[١]
فَكَانَ فِيْ ٱلْكُوْفَةِ ٱلزَّهْـرَاءِ طَلْحَةُ مَنْـ ـظُوْراً صُـحْبَـةٌ مَـعْـرُوْفَـةٌ فِيْـهَـا

(١) ليس في عداء الزبير وطلحة لسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام ما يدعو إلى العجب فإنّهما صارا يطمعان بالخلافة منذ جعلها عمر شورى في الستة الذين هم من العشرة الحاصلين على رضوان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والطمع في رؤوس الرجال . ويجب أن نعلم أنَّ طلحة غير الزبير ولكلٍّ منهما وجهةٌ فإنَّ طلحة من يوم السقيفة ظهر بتشيعه لأبي بكر لأنّه تيميّ مثله وقد علمتَ أنّه نقم على أبي بكر عندما عهد بالخلافة إلى عمر دونه فدخل عليه وهو على فراشِ الموت وقال له ما قال كما ذكرنا في حاشيةٍ وسبقت . أمّا الزبير فهو من قصي ويمتّ للهواشم من طرف أمّه وهي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم وهي عمّة المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام ولذلك كان يحسب من بني هاشم أو على الأقلّ شيعةً لهم وقد روى الثقاة إنّ القوم عندما بايعوا أبا بكر يوم السقيفة غضب الزبير للإفتئات على ابن خاله سيدنا علي عليه السلام وخلا ومعه أبو سفيان وجماعة من المهاجرين بعباس وعلي وجعلا يحرضانهما على طلب الخلافة ولو بالسيف فأبيا لا فرقاً ولا عن خوار عزيمة ولكن خوف الفرقة والفتنة . ثمَّ أنّ الزبير لم يبايع أبا بكر إلّا مكرهاً وكان بين الذين رفضوا بيعته ولاذوا ببيت سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام فجاءَهم عمر والسيف مشهر بيده واستاقهم لبيعة أبي بكر وهم كارهون في حديث طويل لا فائدة من سرده . وكان يقول سيدنا علي عليه السلام : « ما زال الزبير منا حتى كبر ابنه عبد الله فأقصاه عنّا » وأنت تعلم أنّ عبد الله بن الزبير أمّه أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة وأنّ عائشة هي التي ربّته وكانت تتكنى به فتدعى « أمّ عبد الله » فلا بدَّ أنَّ عائشة هي التي غرست في صدر عبد الله بن الزبير كراهة سيدنا علي وهو الذي حوَّل أباه عن سيدنا علي بعد أن تجدَّد في نفسه الطموح إلى الخلافة على أثر عهد عمر =

وَكَانَ فِيْ ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّا ٱلزَّبِيْرُ لَهُ   صَحْبٌ يُنَادِيْ بِهِ جَهْرَاً مُنَادِيْهَا

= بشوراه . هذا كلُّ ما يقال عن الزبير وما في نفسه نحو الخلافة لا نفس الخليفة فأين هو من طلحة الذي كان جشعاً للمال طالباً للدنيا يحسب نفسه كوليّ عهد للخلافة بعد أبي بكر لأنّه من أرومته وكلاهما تيميٌّ فإنّه لم يكن ساعةً واحدةً منذ بويع أبو بكر بالخلافة في جانب سيدنا علي عليه السلام أو من محبّيه .

وقد كان طلحة والزبير على رأس معارضي عثمان في استسلامه إلى الأمويين وطالما انتقداه ونصحاه كما كان يفعل علي وأبو ذرّ وعبد الرحمن بن عوف وعائشة وغيرهم من أكابر المهاجرين والأنصار . ولما اشتدت الفتنة واستفحل أمر الثائرين صار طلحة والزبير دون من ذكرنا على رأس المحرضين على قتل عثمان حتى رووا أنّ عثمان كان يقول وهو محصور « ويلي على ابن الحضرمية » (يريد طلحة) أعطيته كذا وكذا بهاراً ذهباً وهو يروم دمي يحرّض الناس على نفسي اللهمّ لا تمتعه به ولقّه عواقب بغيه » وروى مؤرخو تلك الفتنة أنّ طلحة كان يوم قتل عثمان مقنعاً بثوب قد استتر به عن أعين الناس وكان يرمي دار عثمان بالسهام ورووا أيضاً أنّه لما امتنع على الذين حصروه الدخول من باب الدار حملهم طلحة إلى دار بعض الأنصار فأصعدهم إلى سطحها وتسوروا منها على عثمان داره فقتلوه .

أمّا الزبير فكان في وقت الفتنة ملازماً داره حتى إذا ما جاءَه بعض رؤساء الثائرين كان يحرضهم على خلع عثمان أو قتله مشنعاً بأعماله حتى إذا ما جاء يوم القتل خرج إلى الثائرين وطفق يقول لهم جهرةً اقتلوا عثمان فقد بدل دينكم فقالوا له إنّ ابنك عبد الله على بابه يحامي عنه فقال ما أكره أن يقتل عثمان ولو بُدىء بابني أنّ عثمان لجيفة على الصراط غداً .

والذي يؤيد هذه الروايات وغيرها مثلها مما لم نذكر هو أولاً أنّ عثمان كان يستعين في ضيقه في حصره بسيدنا علي عليه السلام ولم يستعن بطلحة والزبير وهذا يكفي وحده للدلالة على أنّه كان واثقاً من إخلاص سيدنا أمير المؤمنين له وسوء نيّة طلحة والزبير نحوه وثانياً أنّ مروان بن الحكم في موقعة الجمل قتل طلحة وهو يقول إنّه مثئرٌ منه لعثمان لأنّه قاتله ولو لم يهرب الزبير من تلك الموقعة وظفر به مروان لما تأخر عن قتله كما قتل طلحة وسترى تفصيل هذا عند كلامنا على موقعة الجمل ثالثاً وهو الأثبت من كل ما تقدم أنّ سيدنا علي عليه السلام عندما بلغه نكث طلحة والزبير بيعته وتأليبهما الناس=

كِـلاهُمَـا كَــانَ يُحْصِيْ مِنْ أَحِبَّتِـهِ   فِيْ مِصْـرِهِ عِـدَّةً لِلْحَـرْبِ شَـاكِيْهَـا

=عليه بدعوى مطالبته بدم عثمان بعد أن فارقاه إلى مكة بحجة الحج قال « والله ما انكروا عليَّ منكراً ، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً ، وأنّهم ليطلبون حقـاً هم تاركـوه ، ودماً هم سفكوه ، فإن كنت شريكهم فيه فإنَّ لهم نصيبهم منه ، وإن كانوا وُلُّـوه دوني فما الـطلبة إلاّ قِبلهم ، وأنَّ أول عـدلهم للحكمُ على أنفسهم ، وأنَّ معي لبصيرتي ، مـا لبَّست ولا لبِّس عليَّ ، وأنّهـا للفئة البـاغية فيهـا الحما والحمـة ، والشبهـة المغـدقـة ، وأنَّ الأمـر لواضحٌ وقد زاح الباطـل عن نصابـه ، وانقطع لسـانه عن شغبـه ، وأيم الله لأفرطنَّ لهم حوضاً أنا ماتحه ، لا يصدرون عنه بريّ ولا يعبُّون بعده في حسىً » وهذا يكفي للإقناع بأنّ طلحة والزبير كانا في مقدمة الناقمين على عثمان المؤلبين عليه ينعون عليه عمله إلاّ أنّهما كانا في الوقت نفسه يتمنيان أن يترك الخلافة استقالةً أو خلعاً أو قتلاً ليفوزا به وهنا يفترقان لأنّهما في خلع عثمان أو قتله كانا متفقين أمّا في الولاية فكانـا مختلفين لأنّ كلاًّ منهما كان يطلبها لنفسه ولا يرضاها لصاحبه وإذا كان الغرض مرض كما يقـال فقد كـان غرضهما بالخلافة منسيهما سيدنا أمير المؤمنين وحقّه المقدس فيها .

وعندما أظهر طلحة والزبير ما كانا يخفيانـه من مطامعهـا ونكثا بيعـة سيدنـا علي جهرةً لأنّه لم يُبلغهما ما كانا يرجوانه من المطامع دون الخلافـة بعد أن أرغمتهمـا الثورة على التخلّي عنها قال سيدنا أمير المؤمنين وفي قوله عليه السلام فصل الخطاب واصفاً إقبالهما عليه على رأس الناس لبيعته ثمَّ انصرافهما عنه ناكثين بيعتهما ما نصه :

« فأقبلتم إليَّ إقبال العوذ المطافيل على أولادها تقولون : البيعـة البيعة ، فقبضت كفي فبسطتموها ، ونازعتكم يـدي فجذبتمـوها ، اللهمَّ أنّهمـا قطعـاني وظلماني ونكثـا بيعتي وألّبا الناس عليَّ ، فاحلل ما عقدا ، ولا تحكم لهما مـا أبرمـا ، وأرهما المسـاءة فيما أملا وعملا ، ولقد استثبتهما قبل القتال واستأنيت لهما أمام الدفاع ، فغمـطا النعمة وردّا العافية » اهـ .

وقصارى القول أنّ طلحة والزبير كان كلٌّ منهما طامعاً بالخلافة لنفسه حتى إذا مـا خـابا منهـا رضيـا بمـا دونها من المـطامـع فلمـا رأيـا أنّهمـا لا يبلغـانهـا وأميـر المؤمنين عليه السلام على سـدّة الخلافـة نهضا للعصيـان بدعـوى المطالبـة بدم عثمـان ودعيا الناس إلى حربه وكانا من زعماء محاربيه .

وَإِنَّـهُ إِنْ بَغَى نَيْلَ ٱلْخِـلاَفَـةِ ٱلْـــ ـفَـاهَا لِبُغْيَتِـهِ تُنْضِي مَـوَاضِيْهَـا

وَمُـذْ هُمَـا رَأَيَـا أَنَّ ٱلْخِـلاَفَـةَ صَا رَتْ لِلْعَلِيِّ وَخَـابَـا فِي تَـوَلِّيْهَـا

سَـارَا إِلَيْـهِ وَقَـالاَ وَلِّـنَـا فَلَنَـا حُقُـوْقُنَـا إِنَّنَـا نَبْغِي تَقَـاضِيْهَـا

وَفَـوْقَ ذَا إِنَّـنَـا نَبْـغِـي مُكَـافَـأَةً عَلَى ٱلْإِمَـامَـةِ إِذْ جِئْنَـاكَ نُهْـدِيْهَـا

فَخَيَّبَ ٱلْمُرْتَضَى فِيْ ٱلْحَالِ مَسْأَلَةَ ٱلْإِ م ثْنَيْنِ قَـالَ: ٱرْجِئَاهَـا لَسْتُ مُعْطِيْهَا

مَـا رَدَّهَا ٱلْمُـرْتَضَى إِلاَّ وَكَـانَ يَـرَى مَصَـالِحَ ٱلـدِّيْنِ وَٱلـدُّنْيَا تُنَـافِيْهَـا

وَكَـانَ يَعْـرِفُ رُغْبَى صَـاحِبَيْـهِ وَمَـا أَرْضُ ٱلْعِـرَاقَيْنِ أَيْمُ ٱللَّهِ تَكْفِيْـهَـا

وَفَـوْقَ هٰذَا هَـلِ ٱلْمَوْلَى أَبُـوْ حَسَنٍ بِـٱلْمُلْكِ يَرْشُـوْ ٱلرَّعَـايَا أَوْ يُـرَاشِيْهَا

لِـذَا ٱسْتَمَـالَهُمَـا عَفْـواً مُعَـاوِيَـةٌ إِلَيْـهِ بُغْيَـةَ غُنْمٍ كَـانَ يَبْـغِيْـهَـا

وَٱفْتَهُمَـا رِقْعَـةٌ مِـنْـهُ بِبَيْعَـةِ أَهْـــلِ ٱلشَّـامِ بَيْعَةَ مَكْـرٍ رَاحَ يُسْدِيْهَـا

قَـالَ ٱلـزُّبَيْـرُ لَهَـا وَهْـوَ ٱلْأَسَنُّ وَفِيْـــمَـا بَعْدُ طَلْحَةُ بِٱلْإِقْبَـالِ حَـامِيْهَـا

وَقَـالَ: دُوْنَكُمَا أَرْضَ ٱلْعِـرَاقِ فَـأُمَّـــاهَـا وَأَمْـرُكُمَـا لاَ شَـكَّ يُـرْضِيْهَـا

وَإِنَّ بَيْعَـتَهَـا تُـدْنِـيْـكُـمَـا لِحِـمَى خِـلاَفَةِ ٱلْمُصْطَفَى ٱلْعَلْيَا وَتُـدْنِيْهَـا

وَمِنْ عَجَـائِبِ هٰذَا ٱلـدَّهْـرِ مِثْلُهُمَـا يَغْـرَى بِهَـا وَعَلِيٌّ ٱلْقَـرْمُ رَاعِيْهَـا

لَـوْلاَ مَـوَاقِفُ شُـوْرَى سَنَّهَـا عُمَـرٌ مَـا كَـانَ مِثْلُهُمَـا يَـرْجُـوْ تَـذَرِّيْهَـا

نَعَمْ لَقَـدْ شَجَعَـا مِنْ رُقْعَـةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِـمَـا رَأَيَـا كُـلَّ ٱلْمُـنَى فِـيْهَـا

وَأَسْـرَعَا لِـرُبَى أُمِّ ٱلْقُـرَى وَقَـدِ ٱنْـــضَمَّـا لِعَـائِشَـةٍ مَـعْ مَنْ يُـوَالِيْهَـا

وَأَلَّفَـا عُصْبَـةً رَاحَتْ تَـنُـوْحُ عَلَى عُثْمَـانَ مُـعْلِيَـةً فِـيْـهِ تَـدَعِّيْهَـا

وَفِيْهِمَـا ٱلْمُرْتَضَى قَـدْ قَالَ قَـوْلَةَ حَــــقٍّ مَـا مُرُوْرُ لَيَـالِيْ ٱلـدَّهْـرِ يُنْسِيْهَـا

فَقَـالَ: وَٱللَّهِ مَـا هُمْ مُنْكَـراً نَكَـرُوْا عَلَيَّ أَوْ بِـدْعَـةً كَـانُـوْا مُـزِيْلِيْهَـا

وَلَا هُمُ جَعَلُوْا بَيْنِي وَبَيْنَهُمُ   عَدَالَةً حَبَّذَا لَوْ قَاسَمُوْنِيْهَا

قَدْ أَوْهَمُوْنِي بِعُثْمَانٍ وَقَتْلَتِهِ   جَرِيْمَةً هُمُ لَا يَعْدُوْنَ آتِيْهَا

فَإِنْ تَوَلَّوْهُ دُوْنِي أَنَّ طَلْبَتَهُمْ   عَلَيْهِمُ أَنْ يَكُوْنُوْا مُسْتَجِيْبِيْهَا

وَإِنْ أَكُنْ مَعَهُمْ فِيْهَا مُشَارِكَهُمْ   فَشِرْكَةُ ٱلشُّرَكَا عَدْلٌ تُسَاوِيْهَا

وَإِنَّ حِصَّتَهُمْ مِنْهَا لَمُوْقِعَةٌ   عَلَيْهِمِ ٱلْحَقَّ فِيْ دَعْوَى مُدَاعِيْهَا

فَلْيَعْدِلُوْا بَدْءَ ذِيْ بَدْءٍ بِحُكْمِهِمِ   عَلَى نُفُوْسِهِمِ وَٱلْإِثْمُ غَاشِيْهَا

وَقَدْ أَبَى ٱلْمُرْتَضَى إِلَّا مُصَارَحَةَ ٱلْإِ م ثْنَيْنِ فِيْ خُطْبَةٍ مَا مَانَ مُلْقِيْهَا

فَقَالَ: أَقْبَلْتُمُ إِقْبَالَ مُطْفِلَةٍ   عُوْذٍ عَلَى وُلْدِهِنَّ كَيْ تُرَانِيْهَا

وَقُلْتُمُ ٱلْبَيْعَةَ ٱلْكُبْرَى لِصَاحِبِهَا   وَكُنْتُمُ عَلَنَاً جَهْرَاً مُبِيْعِيْهَا

وَإِنَّ كَفِّيَ عَنْكُمْ قَدْ قَبَضْتُ فَكُنْـــتُمْ بَاسِطِيْهَا وَلَمْ تُبْسَطْ لِخَازِيْهَا

نَازَعْتُكُمْ نَزْعَةَ ٱلْآبِي يَدِيْ فَجَذَبْـــتُمْ أَنَامِلَهَا كُنْتُمْ مَشُوْقِيْهَا

رَبَّاهُ إِنَّهُمَا ظُلْمَاً لَقَدْ قَطَعَا   نِيْ دُوْنَ مَعْتَبَةٍ أَخْشَى تَجَلِّيْهَا

وَهَا هُمَا بَيْعَتِيْ ٱلزَّهْرَاءُ قَدْ نَكَثَا   هَا مُسْرِعِيْنَ إِلَى مَلْقَى مُبِيْحِيْهَا

عَلَيَّ قَدْ أَلَّبَا لَمْ يَرْهَبَا حَرَجَاً   مَعَاشِرَ ٱلنَّاسِ فَٱسْتَعْصَى مُوَالِيْهَا

فَاحْلِلْ إِلٰهِي مِنْ عُلْيَاكَ مَا عَقَدَا   هُ تِلْكَ بُغْيَةُ حَقٍّ جِئْتُ بَاغِيْهَا

وَمَا هُمَا أَبْرَمَاهُ لَسْتَ تُحْكِمُهُ   لِتَطْمَئِنَّ ٱلرَّعَايَا مِنْ مُضِلِّيْهَا

وَمَا هُمَا أَمَّلَاهُ عَامِلَانِ لَهُ   تُرِيْ مَسَاءَتَهُ مَنْ لَيْسَ رَائِيْهَا

إِنِّيْ ٱسْتَتَبْتُهُمَا قَبْلَ ٱلْقِتَالِ فَمَا   ثَابَا وَحَرْبُهُمَا مَا زِلْتُ مُرْجِيْهَا

وَنِعْمَتِيْ غَمَطَاهَا فِيْ عِنَادِهِمَا   قَدْ كُنْتُ مِنْ فَضْلِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ مُعْطِيْهَا

عداء معاوية لأمير المؤمنين

أَمَّا مُعَاوِيَةُ وَٱلشَّامُ طُعْمَتُهُ   وَبَيْنَ جَنْبَيْهِ آمَالٌ يُوَخِّيهَا[1]
فَلاَ سَبِيلَ إِلَى ٱسْتِرْضَائِهِ أَبَداً   لِبَيْعَةِ ٱلْمُرْتَضَى حَتَّى يُؤَدِّيهَا

---

(١) أمّا معاوية بن أبي سفيان أمير الشام فعداؤه للمرتضى يدرك سرّه القارىء اللبيب بالبداهة بعد الذي قدمناه من مشاكل الخلافة على عهد عثمان بن عفان وكل ما يقال فيه هو أنّ هذا الرجل كان أقدر رجالات الأمويين بل كان داهية المسلمين في ذلك الحين وعندي أنّه هو الذي أوجد في صدور بني أمية فكرة استعادة المجد الذي كان لهم في الجاهلية وقد بدأ عمله أن توسع في الشام واستفحل أمره على عهد عمر فيها حتى لم يستطع عزله مع ما عرف عن شدّة عمر على عمّاله وعزله بعضهم ولم يأتوا بعض ما أتى معاوية في الشام والذي يعرف عمر بن الخطاب وسهره على عمّاله وأباءه عليهم الترف واقتناء الأموال وتخريب الأحزاب وسكوته عن معاوية وقد فعل هذا جميعه لا يسعه إلاّ القول بأنّ عمر كان يدرك حقّ الإدراك بأنَّ عزل معاوية عن الشام ليس من الهنات الهينات . ومن الغريب أنّ هذه النظرية البسيطة التي يدركها كل واقف على تاريخ صدر الإسلام ممعن بأنبائه قد فاتت حضرة الشيخ محمد الخضري في محاضراته فجعل بقاء معاوية في الشام على عهد عمر شاهداً على كفاءَة الرجل ورضاء عمر عنه فتأمل . ولا أكون مبالغاً إذا قلت أنَّ عمر لم يترك عند مقتله الأمر شورى للستة إلاّ حذراً من معاوية واستفحال أمره وقد أدرك بثاقب رأيه بأنّه لو عهد بالخلافة إلى واحدٍ وكان الواحد غير عثمان لأثار معاوية الفتنة من ذلك الزمان . مع أنّ الأيام أظهرت أنّ ترك عمر الأمر للستة هو الذي سبب كل هذه المتاعب التي نحن بصددها وهو الذي مهّد لمعاوية طريق الفوز بالخلافة فقبض على خناقها وأورثها للأمويين وأنّي لمعتقد اعتقاداً راسخاً أنّ القوم ما أجمعوا على عثمان عند الشورى العمرية إلاّ بتأثير معاوية ونفوذه على الناس كما سبق القول وأنَّ عثمان لم يستسلم للأمويين حتى استحكمت الفوضى في بلاد المسلمين إلاّ بتأثير معاوية أيضاً . وإجمال القول أنّ معاوية كان من الدهاء على أعظم جانب وكان يستحلّ كل أمر للفوز بغرضه وكان يعرف كيف يستجلب الناس إليه بالهبات والمواعيد فلا عجب إذا التفوا من حوله والناس لا يزالون ناساً يعبدون منافعهم ويسعون وراء مصلحتهم .

هذه حال معاوية بن أبي سفيان مع سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام من وجهة =

= طمعه بالخلافة أمّا من الوجهة النفسية الشخصية فقد كان معاوية شخصياً أعدى عدوّ لأمير المؤمنين لأنّه واتره بأخيه حنظلة وخاله الوليد وجدّه عتبة قتلهم عليه السلام بيمينه القاهرة عندما كانوا يحاربون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صفوف المشركين ولم يخرج معاوية عن كونه أحد العرب الموتورين بأعزّ الناس إليه وهم الأخ والخال والجد فلا عجب إذا كان في نفسه من الحقد على قاتلهم ما لا يمحوه كرور الأيام فكيف يرضى أن يخضع لهذا القاتل ويطاطىء له رأسه إذا ما أحسَّ أنّ باستطاعته مقاومة سلطانه وضعضعة أركان خلافته ؟؟ .

ومن تدبر حال معاوية وظروفه ومطامعه واستعداده على حوله وسلطانه وتمكنه من أهل الشام وكثيرين من كبار العرب وعلى توسعه بالعطاء والمنع يظهر له جلياً أنّ المستحيل أقرب من رضائه ببيعة سيدنا علي عليه السلام وأنّه سيحارب البيعة العلوية جهده وما وجد إلى الحرب سبيلاً .

وما كان معاوية وحده في الشام كفؤاً لمناوأة سيدنا أمير المؤمنين ومكانته العالية في نفوس المسلمين لا تقاوم لولا عمّال عثمان وكلهم من الأمويين أو من المتشيعين لهم وهم مسيطرون على البلاد الإسلامية يسيرون الناس على ما يريدون شأن الحكّام مع المحكومين في كل زمان ومكان .

وقد نشرنا في حاشية سبقت الكتاب المختصر الذي أرسله سيدنا علي عليه السلام إلى معاوية يطلب منه أن يبايع وأن يرسل أشراف الشام إلى المدينة المنورة للبيعة وهذا الكتاب يدلّ على أنّ سيدنا علي لم يفاجىء معاوية بالعزل خلافاً لما يزعم بعض رواة التاريخ وتابعهم الشيخ الخضري وبنى عليه ما بنى من ملامة سيدنا أمير المؤمنين لتعجله بالعزل إذ لم يكن فيه ما يشير إلى العزل . وأمّا معاوية فقد كان جوابه أنّه شجب البيعة وأرسل إلى طلحة والزبير يطمعهما بالخلافة على ما سترى حينئذٍ رأى سيدنا علي بحكمته أنّ الإغضاء عن معاوية أو تجاهل أمره ليس من الحكمة في شيء وما من فائدة من مجاملة رجل لا يقنع بشيء دون الخلافة فكتب له الكتاب التالي بعد أن فرغ عليه صبره وهاك نصه :

« أمّا بعد فإنّ الله سبحانه جعل للدنيا ما بعدها ، وابتلى فيها أهلها ، ليعلم أيهم =

وَٱلْمُـرْتَضَى قَـاهِـرٌ أَيْضَـاً أَبَـاهُ بِهَـا تِيْكَ ٱلْحُرُوْبِ فَسَلْ إِنْ شِئْتَ يَدْرِيْهَا
فَكَـانَ فِيْ نَفْسِـهِ مِنْـهُ كِفَـايَتُهَـا وَٱلْخَوْفُ مِنْ عَدْلِهِ قَدْ كَـانَ غَاشِيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ جَـاهِلاً مَعْ ذَا حَقِيْقَةَ حَـا لِ كُـلِّ ذِيْ بَصَرٍ فِيْ ٱلنَّاسِ رَائِيْهَا
بِـأَنَّ لاَ ٱلْمُـرْتَضَى يَـرْضَى إِمَـارَتَـهُ فِيْ ٱلشَّامَ كَلَّا وَلاَ ٱلْإِسْـلاَمُ رَاضِيْهَا
وَلاَ هُـوَ ٱلْمُكْتَفِيْ بِـٱلشَّـامِ يُقْنِعُـهُ مِنْهَـا ٱلتَنَعُّمُ فِيْ هَـانِيْ مَغَـانِيْهَـا
وَهْـوَ ٱلزَّعِيْمُ ٱلْمُـرَجَّى مِنْ أُمَيَّةَ كَيْ يُعِيْـدَ سُلْطَتَهَـا ٱلْعَلْيَـا وَيُسْنِيْهَـا
وَحَـوْلَـهُ عُصْبَـةٌ تَبْكِيْ وَتَنْـدُبُ عُثْـ ـمَـانَـاً وَإِنْ سَكَتَتْ يَسْعَى لِيُبْكِيْهَـا
وَكَـانَ مَنْ تَـطْلِبْ ٱلـدُّنْيَا تُمَـالِئُهُ عَلى هَـوَاهُ كَمَـا أَضْحَى يُمَـالِيْهَـا
وَلَمْ تَكُنْ تُـرْفَـةُ ٱلـدُّنْيَا وَزِيْنَتُهَـا لِلْمُـرْتَضَى كَيْ بِهَا يُـرْضِيْ مُحِبِّيْهَـا
وَفِيْـهِ أَقْـوَالُـهُ تَتْـرَى وَنَنْـظِمُ مِنْـ ـهَا مَا يُشِيْـرُ إِلَى مَنْثُوْرِ بَـاقِيْهَـا
فَقَالَ : يَاٱبْنَ أَبِيْ سِفْيَانَ قَدْكَ فَخَفْ رَبَّ ٱلشَّـرِيْعَـةِ وَٱسْتَعْصِمْ بِهَـادِيْهَـا

= أحسن عملاً ، وليس للدنيا خلقنا ، ولا بالسعي فيها أمرنا ، وإنّما وضعنا فيها لنبتلى فيها ، وقد ابتلاني الله بك وابتلاك بي ، فجعل أحدنا حجةً على الآخر ، فغدوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن ، وطلبتني بما لم تجن يدي ولساني ، وعصبته أنت وأهل الشام بي ، وألب عالمكم جاهلكم ، وقائمكم قاعدكم ، فاتّق الله في نفسك ، ونازع الشيطان قيادك ، واصرف إلى الآخرة وجهك ، فهي طريقنا وطريقك ، واحذر يصيبك الله منه بعاجل قارعة تمسّ الأصل وتقطع الدابر ، فإنّي أولي لك بالله إليةً غير فاجرة ، لئن جمعتنا وإيّاك جوامع الأقدار ، لا أزال بباحتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

ولا ضرورة إلى الإشارة بأنّ معاوية كان قد تسلح بفتنته بدم عثمان وقد عصبه بسيدنا علي ليحمل الناس على عدائه ويسوقهم إلى قتاله وأوّل آيات القرآن على هواه وكان ما كان . . . .

فَٱللَّهُ قَدْ جَعَلَ ٱلدُّنْيَا بِزُخْرُفِهَا لِمَا يَلِيْهَا فَلَا يَخْدَعْكَ زَاهِيْهَا
كَمَا ٱبْتَلَى أَهْلَهَا فِيْهَا لِيَعْلَمَ مِنْ أَعْمَالِهَا مُحْسِنِيْهَا مِنْ مُسِيْئِيْهَا
وَمَا خُلِقْنَا لِذِيْ ٱلدُّنْيَا لِنَطْلُبَهَا لِنَفْسِهَا وَنُقَضِّيْ ٱلْعُمْرَ تَرْفِيْهَا
وَإِنَّمَا قَدْ وُجِدْنَا فِيْ بَحَابِحِهَا لِنُبْتَلَى بِرَزَايَاهَا وَنُخْلِيْهَا
وَلَا أُمِرْنَا بِسَعْيٍ دَائِمٍ لِمَلَذَّ م اتِ ٱلْحَيَاةِ فَنُمْسِيْ مُسْتَلِذِّيْهَا
بِكَ ٱلْإِلٰهُ ٱبْتَلَانَا وَٱبْتَلَاكَ بِنَا عَافَانِيَ ٱللَّهُ مِنْ بَلْوَى أُرَانِيْهَا
فَقَدْ غَدَوْتَ عَلَى ٱلدُّنْيَا لِتَطْلُبَ نُعْـــمَاهَا وَنَفْسُكَ شَطَّتْ فِيْ تَشَهِّيْهَا
لَهَا تَأَوَّلْتَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ عَلَى مَا تَشْتَهِيْهِ فَحَالَتْ عَنْ مَعَانِيْهَا
طَلَبْتَنِيْ بِٱلَّذِيْ لَمْ أَجْنِهِ بِيَدِيْ وَلَا لِسَانِيْ فَقُلْتَ ٱلْكِذْبَ تَمْوِيْهَا
عَصَبْتَ مَعْ مَنْ بِأَرْضِ ٱلشَّامِ مَأْثَمَةً بِيْ لَمْ أَكُنْ وَٱسْمِ رَبِّ ٱلْخَلْقِ جَانِيْهَا
وَرَاحَ عَالِمُكُمْ يُغْرِيْ ٱلْجَهُوْلَ بِعُدْ م وَانِيْ فَقُبِّحَتِ ٱلْغَرْوَى وَمُغْرِيْهَا
نَازِعْ قِيَادَكَ شَيْطَاناً يُخَادِعُهُ إِنَّ ٱلشَّيَاطِيْنَ تَسْتَغْوِيْ مُطِيْعِيْهَا
وَٱصْرِفْ بِوَجْهِكَ لِلْأُخْرَى وَنَحْنُ لَهَا نَسْعَى وَقَدْ بَلَغَ ٱلْإِسْعَادَ سَاعِيْهَا
وَٱحْذَرْ لَعَمْرُكَ أَنْ تَمْنَى بِقَارِعَةٍ تَلْقَى ٱلْأُصُوْلَ وَأَسْرِعْ أَنْ تُلَاشِيْهَا
أُوْلِيْ أَلِيَّةَ صِدْقٍ غَيْرَ فَاجِرَةٍ بِٱللَّهِ يَاٱبْنَ أَبِيْ سُفْيَانَ أُبْلِيْهَا
لَئِنْ تُجَمِّعْنَا ٱلْأَقْدَارُ أَنْزِلُ فِيْ ذُرَاكَ مُسْتَمْكِناً مِنْ ضَبْعِ أَهْلِيْهَا
حَتَّى ٱلْمُهَيْمِنُ يَقْضِيْ بَيْنَنَا نَصَفاً وَٱلنَّاسُ يُكْفِيْهُمْ طُغْيَانَ طَاغِيْهَا
مَا فَاجَأَ ٱلْمُرْتَضَى فِيْ ذَا مُعَاوِيَةً تَحَدِّياً لِيُثِيْرَ ٱلْحَرْبَ يُوْرِيْهَا
وَلَا أَرَادَ بِذَاكَ ٱلْإِنْتِقَامَ لِهَا م شِمٍ وَقَدْ عَمَّ مِنْ عُثْمَانَ شَاكِيْهَا
لٰكِنْ بَوَادِرُ شَرٍّ مِنْهُ قَدْ بَدَرَتْ وَلَمْ يَفُتْ عِلْمَهُ مَا قَدْ يُتَالِيْهَا

وَمَـا ٱلْعَلِيُّ لَيَـرْضَى فِيْ خِـلَافَتِـهِ أَنْ لَا تَعُـوْدَ رَعَـايَـاهُ لِمَـاضِيْهَـا

فَـلَا تَمُـوْتُ ذِئَـابُ ٱلْغَـابِ جَائِعَـةً وَلَا ٱلْخِـرَافُ ذِئَـابُ ٱلْغَـابِ تُفْنِيْهَـا

وَلَا يَنَـامُ وَمِنْ حَـوْلَيْـهِ تُنْصَبُ أَشْـرَاكُ ٱلْمَكَائِدِ سَاهِيْ ٱلْعَيْنِ غَافِيْهَـا

وَإِنَّـهُ لَـمُـدَاوٍ دَاءَ أُمَّـتِـهِ بِـطُبِّهِ وَٱلشِّفَـا مِنْ عِنْـدِ بَـارِيْهَـا

وَإِنْ تَلُمْـهُ أُنَـاسٌ فِيْ سِيَـاسَتِـهِ إِلَى ٱلْمَـلَامَةِ كَـانَ ٱلْجَهْـلُ دَاعِيْهَـا

ابتداء النزاع بين معاوية وأمير المؤمنين

تُسْعُـوْنَ يَوْمَاً لَقَدْ مَـرَّتْ لِمَقْتَلِ عُثْـمَانٍ تُعِدُّ لِـذِيْ ٱلدُّنْيَـا عَوَادِيْهَـا(١)

بِهَـا ٱلْخِلَافَـةُ قَـدْ بَـاتَتْ مُهَـدَّدَةً بِثَـوْرَةٍ خَـابَ مَنْ يَـرْجُـوْ تَـوَقِّيْهَـا

---

(١) لم يكن معاوية بجاهل أمر الثورة القائمة على عثمان ولا أعتقد أنّه لم يكن مستطيعاً أن يكشف عنه أو على القليل أن يجاهد لدفع الأذى عنه ولكنه لم يفعل ولعلّه رأى مصلحته بترك الأمور للأقدار تتصرف فيها كيف تشاء . وظلّ معاوية يترقب أنباء المدينة حتى ورده كتاب مروان بن الحكم ينعي له به عثمان وهاك نصه : « وهب الله لك أبا عبد الرحمن قوة العزم ، وصلاح النية ، ومنَّ عليك بمعرفة الحقّ واتباعه ، فإنّي كتبت إليك هذا الكتاب بعد قتل عثمان أمير المؤمنين عليه السلام ، وأيُّ قتلةٍ قُتل ؟ نحركما ينحر البعير الكبير عند اليأس من أن ينوء بالحمل ، بعد أن نُقبت صفحته بطيّ الراحل ، وسير الهجير ، وإنّي معلمك بخبره غير مقصر ولا مطيل ، انَّ القوم استطالوا مدَّته ، واستقلوا ناصره ، واستضعفوه في بدنه ، وأملوا بقتله بسط أيديهم فيما كان قبضه عنهم ، واعصوصبوا عليه ، فظلّ محاصراً قد منع من صلاة الجماعة ، وردّ المظالم ، والنظر في أمور الرعية ، حتى كأنّه هو فاعلٌ لما فعلوه ، فلما دام ذلك أشرف عليهم ، فخوَّفهم الله وناشدهم ، وذكرهم مواعيد رسول الله ، وقوله فيه ، فلم يجحدوا فضله ولم ينكروه ، ثمّ رموه بأباطيل اختلقوها ليجعلوا ذلك ذريعةً إلى قتله ، فأظهر لهم التوبة مما كرهوا ، ووعدهم الرجعة إلى ما أحبّوا ، فلم يقبلوا ذلك ، ونَهبوا داره ، وانتهكوا حرمته ، ووثبوا عليه فسفكوا دمه ، وانقشعوا عنه انقشاع سحابة قد أفرغت ماءَها ، منكفئين قِبَل ابن أبي طالب ، انكفاء الجراد أبصر المرعى ، فأخلق ببني أمية =

فَقَدْ تَلَقَّى ٱبْنُ هِنْدٍ نَعْيَ صَاحِبِهِ   وَقَالَ: قَتْلَتُهُ مَا ٱلسِّلْمُ تَالِيْهَا

= أن يكونوا من هذا الأمر بمجرى العبوق ، إن لم يثأره ثائر ، فإن شئت أبا عبد الرحمن أن تكونه فكنه والسلام » اهـ .

فلما انتهى هذا الكتاب إلى معاوية شمّر عن ساعد العزم طالباً الأمر لنفسه متسلحاً بطلب دم عثمان وأعدَّ للأمر عدّته بنفسه ووضع له الخطط التي حسبها موصلةً لغرضه وكان أول ما فعله أن خرج إلى المسجد فنعى للناس عثمان وأكبر أمر الجريمة التي أفضت إلى قتله وبكى فاستبكى الناس ثمَّ عطف عليهم واستمالهم إلى ممالئته بالمطالبة بدم عثمان فعاهدوه على ذلك غاضبين على القتلة . ثمَّ جيء إلى معاوية بقميص عثمان وهو مغموس بدمه وأصابع نائلة التي بترت عندما تلقت ضربة سيف قاتله فعلا المنبر وأعانهما على أهل الشام فازدادوا حقداً على قاتليه ورغبةً في المطالبة بدمه وكان يقول أنّ دم عثمان معصوب بعنق ابن أبي طالب الذي حضَّ القتلة على قتله رغبةً في نيل الخلافة لنفسه .

وبادر معاوية فأرسل إلى عمّال الأمصار وهم على ما علمت إمّا من الأمويين وإمّا من أشياعهم يحضهم على إفساد الناس ومنعهم من بيعة علي وإنهاضهم إلى المطالبة بدمه المعصوب بعنق ابن أبي طالب على زعمه فقام عمّال الأمصار بما أشار معاوية مستعملين بذلك نفوذهم كحكّام .

ولم يفت معاوية أنّ مساعيه لا يكون لها التأثير الذي يريده ما لم يكن له مناصرون في المدينة المنورة وهي عاصمة الخلافة وفيها أهل الحلّ والعقد ورأى أنّ أفضل من يستعين بهم على سيدنا علي عليه السلام فيها الزبير وطلحة لما لهما من الحول والطول لأنّهما من العشرة المشهود لهم بالجنّة ومن الستّة الذين أدخلهما عمر في الشورى فصار لهم حقّ بالخلافة فكتب إلى الزبير كتاباً هذا نصّه :

« إلى الزبير بن العوام من معاوية بن أبي سفيان سلامٌ عليك ، أمّا بعد فإنّك الزبير بن العوام ابن أبي خديجة ، وابن عمّة رسول الله ، وحواريه ، وسلفه ، وصهر أبي بكر ، وفارس المسلمين ، وأنت الباذل في الله مهجته بمكة عند صيحة الشيطان ، بعثك المنبعث ، فخرجت كالثعبان المنسلخ ، بالسيف المتصلت ، تخبط خبط الجمل الوديع ، كلّ ذلك قوة إيمان ، وصدق يقين ، وسبقت لك من رسول الله البشارة بالجنة ، وجعلك عمر أحد المستخلفين على الأمّة ، واعلم يا أبا عبد الله ، أنَّ الرعية=

وَمَـا أَنَـا تَـارِكٌ ثَـأْرَ آبْنِ عَمِّيَ بَـلْ　　عِـدَاتُـهُ بِشَبَـا سَيْفِـيْ أَلاشِيْهَـا

=أصبحت كـالغنم المتفرقـة لغيبة الـراعي ، فسارع رحمـك الله إلى حقن الـدمـاء ، ولمّ الشعث ، وجمع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، قبل تفاقم الأمر ، وانتشـار الأمّة ، فقـد أصبح الناس على شفـا جرف هـار ، عمّا قليـل ينهار ، إن لم يـرأب ، فشمّـر لتـأليف الأمّة ، وابتغ إلى ربّـك سبيلاً ، فقـد أحكمت الأمر من قبلي لـك ولصاحبـك (ويريـد طلحة) على أنّ الأمر للمقدم ثمَّ لصاحبه من بعده ، جعلك الله من أئمة الهدى ، وبغاة الخير والتقوى والسلام » اهـ .

وكتب إلى طلحـة كتابـاً هذا نصـه : « من معاويـة بن أبي سفيـان إلى طلحـة بن عبيد الله سلامٌ عليك ، أمّا بعد فإنّك أقلّ قريش في قريش وتراً ، مع صباحة وجهـك ، وسماحة كفـك ، وفصاحـة لسانـك ، فأنت بـأزاء من تقدمـك ، في السابقـة ، وخامس المبشـرين بالجنـة ، ولك يـوم أُحُد وشـرفه وفضله ، فسـارع رحمك الله إلى مـا تقلدك الرعية من أمرها ، مما لا يسعك التخلف عنه ، ولا يرضى الله منك إلّا بالقيام به ، فقد أحكمت لك الأمر قبلي ، وأمّا الزبيـر فغير متقـدّم عليك بفضـل ، وأيّكما قـدّم صاحبـه فالمقدَّم الإمام والأمر من بعده للمقدَّم له ، سلك الله بك قصد المهتدين ، ووهب لـك رشد الموفقين والسلام » اهـ .

ومـا اكتفى معاويـة بهذين الكتـابين بل كتب كتبـاً أخرى إلى وجهـاء الأمويين في المـدينة وبـاقي الأمصار تنشـر منها مـا يشير إلى مـا في نفس الـرجـل من الأطمـاع إلى الخلافة وهاك نصّ كتابه إلى مروان بن الحكم « أمّـا بعد فقـد وصل إليَّ كتـابك بشـرح خبر أمير المؤمنين ، وما ركبوه به ، ونالوه منه ، جهـلاً بالله ، وجـرأةً عليه ، واستخفـافاً بحقّه ، ولا أمانٍ لوَّح الشيطان بهـا في شرك البـاطل ، ليـدهدههم في أهـويات الفتن ، ووهـدات الضلال ، ولعمـري لقد صـدق عليهم إبليس ظنه ، ولقـد قنصهم بـالشـوطـة فخه ، فعلى رسلك أبا عبد الله يمشي الهوينا ويكون أولاً ، فـإذا قرأت كتـابي هذا فكن كالفهد لا يصطاد إلّا غيلةً ، ولا يتشازر إلّا عن حيلةٍ ، وكـالثعلب لا يفلت إلّا روغانـاً ، واخفِ نفسـك منهم إخفاء القنفـذ رأسه عنـد لمس الأكفّ ، وامتهن نفسك امتهـان من ييـأس القوم نصـره وانتصاره وابحث عن أمـورهم بحث الدجـاجة عن حبّ الـدخن عند فقاسها ، وانغل الحجاز فإنّي منغل الشام والسلام » اهـ .

وكتب إلى سعيـد بن العاص وهـو كما تعلم أمـويٌّ وكان أميـر الكوفـة كتابـاً وهذا=

وَصَاحَ فِيْ ٱلْمَسْجِدِ ٱلشَّامِيِّ : وَاكَرَبِيْ   لِقَتْلَةٍ كَـانَ عُثْمَـانُ مُعَانِيْهَـا

= نصّه : « أمّا بعد فإنّ كتاب مروان ورد عليَّ من ساعة وقعت النازلة ، يقبل به البرد بسير المطيّ الوجيف ، تتوجس توجس الحية الذكر خوف ضربة الفأس وقبضة الحاوي ، ومروان الرائد لا يكذب أهله ، فعلامَ الإفكاك يابن العاص ، ولات حين مناص ؟ ، ذلك أنّكم يا بني أمية عمّا قليل تسألون أدنى العيش من أبعد المسافة ، فينكركم من كان منكم عارفاً ،ويصدُّ عنكم من كان لكم واصلاً ، متفرقين في الشعاب ، تتمنون لمظة المعاش ، إنَّ أمير المؤمنين (ويريد به عثمان) عُتب عليه فيكم ، وقتل في سبيلكم ، ففيمَ القعود عن نصرته ، والطلب بدمه ! ، وأنتم بنو أبيه ذوو رحمه وأقربوه وطلاب ثاره ، أصبحتم مستمسكين بشظف معاشٍ زهيد ، عمَّا قليل يُنزع منكم ، عند التخاذل وضعف القوى ، فإذا قرأت كتابي هذا فدبَّ دبيب البرء في الجسد النحيف ، وسرّ سير النجوم تحت الغمام ، واحصد حصد الذرة في الصيف لانجحارها في الصرد ، فقد أيدتكم بأسد رأي والسلام » اهـ .

وكتب إلى عبد الله بن عامر ما نصّه « أمّا بعد فإنَّ المنبر مركب ذلول ، سهل الرياضة ، لا ينازعك اللجام ، وهيهات ذلك إلّا بعد ركوب إثباج المهالك ، واقتحام أمواج المعاطب ، وكأنّي بكم يا بني أمية شعار يركُّ كالأوارك تقودها الحداة ، أو كرخم الخندمة تذرف خوف العقاب ، فثب الآن رحمك الله قبل أن يستشري الفساد ، ويدبُّ السوط جديداً ، والجرح لمَّا يندمل ، ومن قبل استضراء الأسد والتقاء لحييه على فريسته ، وساور الأمر مساورة الذئب الأطلب كسيرة القطيع ، ونازل الرأي ، وانصب الشرك ، وارم عن تمكن وضع الهناء مواضع النقب ، واجعل أكبر عدتك الحذر ، وأحدَّ سلاحك التحريض ، واغضِ عن العوراء ، وسامح اللجوج ، واستعطف الشارد ، ولاين الأشوس ، وقوّ عزم المريد ، وبادر العقبة ، وازحف زحف الحية ، واسبق قبل أن تسبق ، وقم قبل أن يقام لك ، واعلم أنّك غير متروك ولا مهمل ، فإنّي لكم ناصح أمين والسلام » اهـ .

وكتب إلى الوليد بن عقبة ما نصّه : « يا ابن عقبة ، كنُّ الجيش ، وطيب العيش ، أطيب من سفعٍ سموم الجوزاء عند اعتدال الشمس في أفقها ، إنّ عثمان أخاك أصبح بعيداً منك ، فاطلب لنفسك ظلاً تستكنُّ به ، إنّي أراك على التراب رقوداً ، وكيف بالرقاد بك ، لا رقاد لك ، فلو قد استتبَّ هذا الأمر لمريده ، ألفيت=

=كشريد النعام ، يفزع من ظلّ الطائر ، وعن قليل تشرب الرقق ، وتستشعر الخوف ، أراك فسيح الصدر ، مسترخي اللبّ ، رخو الحزام ، قليل الاكتراث ، وعن قليل يجتثُّ أصلك والسلام » اهـ .

وكتب إلى يعلى بن أمية ما نصّه : « حاطك الله بكلاءته ، وأيدك بتوفيقه ، كتبت إليك هذا صبيحة ورد عليَّ كتاب مروان بخبر قتل أمير المؤمنين ، وشرح الحال فيه ، وأنّ أمير المؤمنين طال به العمر حتى نقصت قواه ، وثقلت نهضته ، وظهرت الرعشة في أعضائه ، فلمّا رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعاً للإمامة والأمانة وتقليد الولاية ، وثبوا له ، وأكبّوا عليه ، فكان أعظم ما نقموا عليه ، وعابوه به ، ولايتك اليمن ، وطول مدتك عليها ، ثم ترامى بهم الأمر حالاً بعد حال ، حتى ذبحوه ذبح النطيحة مبادراً بها القوت ، وهو مع ذلك صائم ، معانق المصحف ، يتلو كتاب الله فيه ، عظمت مصيبة الإسلام بصهر رسول الله ، والإمام المقتول على غير جرم سفكوا دمه ، وانتهكوا حرمته ، وأنت تعلم أنَّ بيعته في أعناقنا ، وطلب ثأره لازم لنا ، فلا خير في دنيا تعدل بنا عن الحقّ ، ولا في أمرة توردنا النار ، وأنَّ الله جلَّ ثناؤه لا يرضى بالتعذير في دينه ، فشمّر لدخول العراق ، فأمَّا الشام فقد كفيتك أهلها ، وأحكمت أمرها ، وقد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله أن يلقاك بمكة ، حتى يجتمع رأيكما على إظهار الدعوة ، والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم ، وكتبت إلى عبد الله بن عامر يمهّد لكم العراق ، حزونة عقابها ، واعلم يابن أمية أنّ القوم قاصدوك باديءَ بدءٍ لاستنزاف ما حوته يداك من المال ، فاعلم ذلك واعمل على حسبه إن شاء الله والسلام » اهـ .

أقول وما نشرت كتب معاوية هذه ومثلها كثير مما كتبه إلى زعماء الأمويين وأنصارهم صبيحة ورود نعي عثمان إليه إلّا لبيان فساد زعم الزاعمين بأنَّ سيدنا علي عليه السلام تعجّل بمقاطعة معاوية وأنّه لو سالمه لأمن شرَّه حتى أنّ جناب الشيخ محمد الخضري في محاضراته التي وضعها بعد هذه الحوادث بألف وثلاثمائة سنة وقع في هذا الخطأ ولامه عليه السلام على تلك المقاطعة وكان من رأيه أن سيدنا علي كان من الواجب أن يقتصّ من الثائرين صبيحة يوم بيعته وأن يسالم معاوية والأمويين ويقرّهم على ما بأيديهم من الأمارات وبعض حالهم ما تقرأه في كتب معاوية فتأمّل . . .

على أنّ سيدنا علي عليه السلام مع ما يعلم من خوافي معاوية وما يكنه صدره من=

= المطامع البعيدة أرسل إليه يعلنه ببيعته بجواب سبق لنا نشره في حاشية سابقة فكان جواب معاوية له أنّه يأبى بيعته وأنّه يعصب فيه دم عثمان أو يسلمه الثائرين إلى آخر ما قال وكرّر الكتابة إلى الزبير في معنى ما كتبه له ولطلحة وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الله الزبير أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان سلامٌ عليك ، أمّا بعد فإنّي قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا ، واستوثقوا كما يستوثق الحلب ، فدونك الكوفة والبصرة ، لا يسبقك إليهما ابن أبي طالب ، فإنّه لا شيء بعد هذين المصرين ، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك ، فاظهرا الطلب بدم عثمان ، وادعوا الناس إلى ذلك ، وليكن منكما الجدُّ والتشمير ، أظفركما الله وخذل مناويكما » اهـ . وأفلحت هذه الدسيسة من معاوية إذ لم يشكّ الزبير وطلحة بصدقه في بيعتهما ونشطا إلى مناوأة سيدنا علي عليه السلام بعد أن خيبهما بولاية الكوفة والبصرة وسارا إلى مكة المكرمة وانضما إلى عائشة وتبعهما مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وأخذوا يستعدون إلى المسير إلى العراق لأخذ بيعة أهلها ومحاربة علي بهم تنفيذاً لدسيسة معاوية المشار إليها .

وسبق القول أنّ سيدنا علي عليه السلام كتب إلى معاوية يعلنه بأنَّ الناس في المدينة بايعوه مجمعين ويطلب بيعته فأجابه أنّه لا يبايعه إلاّ إذا سلّمه قتلة عثمان وما من يجهل الغرض الذي رمي إليه معاوية بطلبه هذا بل هو بديهيٌّ يحكم به كل ذي إلمام بحوادث صدر الإسلام فإنّ معاوية ما كان يجهل غلبة الثائرين على المدينة وأنّ علياً لو مالأ معاوية وسلّمه قتلة عثمان أو أراد أن يجري القصاص عليهم لثار الثائرون عليه كما ثاروا على عثمان وهكذا يكون قد أفسد عليه أمره من أهون الطرق على أنَّ سيدنا علي لم تفته الدسيسة فتحاشاها وأجاب معاوية بأن بايع وطع ثمَّ تقدم من الخليفة مطالباً بدم عثمان لأنّ العاصي لا ينظر في دعواه فكان جوابه هذا سبباً لعصب معاوية دم عثمان بسيدنا علي وكان يقول إنّه ما حمى القتلة إلاّ لأنّه هو الذي دفعهم إلى القتل وبعد أخذ ورد بين سيدنا علي ومعاوية وظهور مساعي معاوية ضد الخلافة لم يرَ سيدنا علي عليه السلام إلاّ استعمال الحزم وقد بلغ السيل الزبى فجهر برأيه في المسجد النبويّ خطيباً فقال : « وقد قلبت هذا الأمر ببطنه وظهره ، حتى منعني النوم ، فما وجدتني يسعني إلاّ قتالهم أو الجحود بما جاءَ به محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فكانت معالجة القتال ، أهون =

وَذَا قَـمِيصُ آبْـنِ عَـفَّـانٍ وَذَا دَمُـهُ عَلَيْـهِ أَفْعَـالُ مَـنْ أَرْدَوْهُ يَنْـعِيْـهَـا

وَذِيْ أَصَـابِـعُ ذَاتِ آلصَّـوْنِ نَـائِلَةٍ أَمَـامَكُمْ كَانَ سَيْفُ آلـظُّلْمِ فَارِيْهَـا

وَكَـانَ يَبْكِي لِيَسْتَبْكِيْ آلْعُيُـوْنَ عَلى عُثْمَـانَ وَآلنَّـارُ فِيْ آلْأَلْبَـابِ يُلْظِيْهَـا

حِقْـداً عَلى مَعْشَـرِ آلثُّـوَّارِ ثُمَّ يُنَا دِيْ آلنَّـاسَ لِلثَّأْرِ شَـامِيْهَـا وَمَكِّيْهَـا

ثُمَّ يَقُـوْلُ : وَلَـوْلَا حَضُّ حَيْـدَرَةٍ عَلى آلْجَـرِيْمَـةِ مَـا آلثُّـوَّارُ تُمْضِيْهَـا

فَـآلثَّـأْرُ عِنْـدَ عَلِيٍّ وَهْـوَ قَـاتِلُهُ وَحَـرْبُـهُ كُـلُّ ذِيْ دِيْنٍ يُـوَخِّيْهَـا

بِمِثْلِ ذَا كَانَ يَسْتَهْوِيْ آلنُّفُوْسَ إِلَى عَـدَاوَةِ آلْمُـرْتَضَى ظُلْمَـاً وَيُغْـرِيْهَـا

بِـذَاكَ أَشْعَـلَ نَـارَ آلْحِقْـدِ أَلْهَبَهَـا فِيْ أَنْفُسِ آلنَّاسِ كَيْ تُبْدِيْ تَعَصِّيْهَا

لِإِمْـرَةِ آلْمُرْتَضَى كَيْمَـا تُعَـارِضُ بَيْـ ـعَـةً تَحِقُّ لَـهُ شَـرْعَـاً وَتُلْغِيْـهَـا

وَمَـا آكْتَفَى بِأَهَـالِيْ آلشَّامِ أَفْسَـدَهَا عَـلى خِـلَافَتِـهِ حَتَّى تُـنَـاوِيْـهَـا

بَـلِ آسْتَطَالَ إِلَى آلْأَمْصَـارِ شَجَّعَهَا عَلى آلْعَصَـاوَةِ قَـاصِيْهَـا وَدَانِيْهَـا

وَإِنَّ أَعْـوَانَـهُ سَـارَتْ مُـوَزَّعَـةً عَلى آلْمَمَـالِكِ شَـرْقِيْهَـا وَغَـرْبِيْهَـا

كَـانَتْ تُنَادِيْ بِثَـارَاتِ آلْقَتِيْلِ وَتَسْـ ـتَبْكِيْ آلْعُيُـوْنَ عَلَيْـهِ فِيْ تَبَـاكِيْهَا

ثُـمَّ تَـقُـوْلُ: عَـلِيٌّ كَـانَ قَـاتِـلَهُ حُبَّـاً بِـأُمْـرَتِـهِ يَبْغِيْ تَـوَلِّيْهَـا

وَإِنَّ قَـتْـلَةَ عُـثْـمَـانٍ بِـذِمَّـتِـهِ وَمِنْـهُ لَا مِنْ سِـوَاهُ نَحْنُ نَـبْغِـيْهَـا

وَآلنَّاسُ هَيْهَاتِ تَغْنَى بِآلْحَقَائِقِ فِيْ آلْأَ مْ قُـوَالِ إِنْ أَحْسَنَ آلتَّلْفِيْقَ رَاوِيْـهَـا

فَلَيْسَ مِنْ عَـجَبٍ أَنْ تَـسْتَـنِيْـمَ إِلَى خَـدِيْعَـةٍ سَمِعَتْهَـا مِنْ مُفَـاهِيْهَـا

= عليٍّ من معالجة العقاب ، وموتـات الدنيـا ، أهون عليَّ من مـوتـات الآخـرة »
وأخذ عليه السلام يستعد لحرب معاوية في الشام ولسان حاله يقول :

السيف أصدق إنباءً من الكتبِ في حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعبِ

وَأَنْ تَهُبَّ إِلَى ثَـأْرِ ٱلْخَلِيْفَـةِ مَـعْ أُمَيَّـةٍ وَشَنِيْـعُ ٱلْقَتْـلِ مُـوذِيْهَـا
وَأَنْ تُعَـاصِيْ أَمِيْـرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَـلِيَّـاً مِثْلَمَـا قَـدْ قَضَى بَغْيَـاً مُعَصِّيْهَـا
كَـذَا مُعَـاوِيَـةٌ مَـا فَـاتَ طَلْحَـةَ وَٱلـزُّبَيْـرَ مَنَّـاهُمَـا ٱلـدُّنْيَـا وَأَهْلِيْهَـا
بِـرُقْعَـةٍ قَـالَ فِيْهَـا: بَيْعَتِيْ لَكُمَـا وَٱلشَّامُ طَوْعُكُمَا فِيْ ٱلْحَالِ تُعْطِيْهَا
فَعَجِّـلَا وَٱطْلِبَـاهَـا فِيْ ٱلْعِـرَاقِ فَمَـا بِهَـا يَضُنُّ عَلَى زَعْمِيْ عِـرَاقِـيْهَـا
وَلِـلْعَـلِيِّ لَـقَـدْ أَوْفَـى رِسَـالَتَـهُ يَقُـوْلُ: مَا لَـكَ وَٱلثُّوَّارُ تَحْمِيْهَـا
فَـأَسْرِعْ إِلَيْنَـا بِهَـا أَوْ أَنْتَ حَـامِلُهَـا عَلَى ٱلْجَـرِيْمَـةِ فَـٱسْتَنْظِرْ تَـوَالِيْهَـا
وَإِنَّ أَمْـرَتَـكَ ٱلْعَلْيَـا أُقَـاوِمُـهَـا وَلَنْ أَزَالَ مَـدَى ٱلْأَيَّـامِ عَـاصِيْهَـا
وَإِنَّنِيْ مُـثِـرٌ مِنْـكَ ٱلـشَّهِـيْـدَ وَلَا تَـرَى أُمَيَّـةُ إِلَّا أَنْـتَ عَـادِيْـهَـا
وَإِذْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى هٰذَا وَذَاكَ وَمَا ٱلْـحُسْنَى بِمُجْدِيَـةٍ نَفْعَـاً لِـوَاخِيْهَـا
وَقَـدْ تَعَـذَّرَ بِـٱلْمَعْـرُوْفِ دَمْـلُ دَمَـا مِيْلِ ٱلْخِلَافَـةِ نَادَى صِرْتُ أَكْوِيْهَـا
وَآذَنَ ٱلنَّـاسَ بِٱلْحَـرْبِ ٱلْعَوَانِ عَلَى أَهْـلِ ٱلشَّـآمِ وَمَنْ وَالَى مُعَـاوِيْهَـا
وَقَـالَ: قَلَّبْتُ بَـطْنَ ٱلْأَمْـرِ مُفْتَكِـرَاً لِـظَهْـرِهِ بِـخَـوَافِـيْـهِ أُجَـلِّيْـهَـا
وَقَـدْ حُرِمْتُ لَـذِيْذَ ٱلنَّـوْمِ مِنْ قَلَقِيْ وَفِيْـهِ كَمْ مِنْ لَيَـالٍ كُنْتُ مُحْيِيهَـا
فَمَا وَجَدْتُ سِوَى هَوْلِ ٱلْقِتَالِ لِأَعْـدَاءِ ٱلْحَنِيْفَـةِ أَوْ عِصْيَـانِ هَـادِيْهَـا
وَإِنَّ نَـارَ ٱلْوَغَى عِنْـدِيْ لَأَهْـوَنُ مِنْ نَـارِ ٱلْجَحِيْمِ ٱلَّتِيْ أَخْشَى تَلَظِّيْهَـا
وَإِنَّ مَـوْتَاتِ ذِيْ ٱلـدُّنْيَا لَأَهْـوَنُ مِنْ مَـوْتَـاتِ آخِـرَةٍ مَـا زِلْتُ أَتَّقِيْهَـا
كَـذَاكَ أَفْتَى بِحَرْبِ ٱلشَّـامِ حَيْـدَرَةٌ فَتْـوَى أَخُوْ ٱلـرَّأْيِ وَٱلتَّفْكِيْرِ يُفْتِيْهَـا
فَـقَـابَلَتْـهَـا عِبَـادُ ٱللّٰهِ رَاضِيَـةً وَلَمْ يَكُنْ غَيْـرُ مَا يُـرْضِيْـهِ يُـرْضِيْهَـا

مسير طلحة والزبير بعائشة إلى البصرة

وَبَيْنَمَا يَتَهَيَّا ٱلْمُرْتَضَى لِجِهَا دِ ٱلشَّامِ مِنْ بَعْدِ مَا أَبْدَتْ تَعَصِّيْهَا[١]

وَإِذْ تَلَقَّى نَبَا عِصْيَانِ عَائِشَةٍ بِمَكَّةٍ مَعَ قَوْمٍ مِنْ مُرِيْدِيْهَا

---

(١) تقدم لنا القول أنّ عائشة كانت أشدَّ الناس على عثمان ونزيد هنا أنّها ما زالت تغري الناس بعدائه والانتقاض عليه حتى أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله ﷺ فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين إليها هذا ثوب رسول الله لم يبلَ وعثمان قد أبلى سنته . قالوا إنّ عائشةً هي أول من سمّى عثمان نعثلاً والنعثل الكثير شعر اللحية والجسد وقد كان عثمان كذلك كما علمت وكانت تقول اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً . وقد سبق لنا القول أنّ عائشة تركت المدينة والفتنة على أشدّها وهي لا تشكُّ أنَّ عثمان مقتول وأقامت في مكة تنتظر هذه النتيجة التي كانت تتوقعها والظاهر أنّها لم تكن تتوقع أن يتولى سيدنا علي الخلافة وكانت تنتظرها لطلحة فقد روى المؤرخون أنّ عائشة عندما بلغها وهي بمكة نبأ مقتل عثمان قالت : بعداً لنعثل وسحقاً ، إيهِ ذا الأصبع (تريد به طلحة وقد شلّت أصبعه يوم أُحُد) إيه يا شبل ، إيهِ يابن عمّ ، لكأنّي أنظر إلى أصبعه (الشلاء) وهو يأخذ البيعة حثوا له الإبل ودعُوها . وأقبلت مسرعة إلى المدينة وهي تقول : إيهِ ذا الأصبع لله أبوك أمّا إنّهم وجدوا طلحة لها كفؤاً ؟ وما أسرعت بالسفر إلاّ وهي تظنّ أنّ الناس يتأخرون بالبيعة فتأتي المدينة وتعمل على مبايعة طلحة وما كان أشدّ خيبة أملها عندما انتهت إلى « شراف » وهي في ضواحي مكة فهناك استقبلها عبيد ابن أبي سلمة الليثي وكان قادماً من المدينة فقالت له : ما عندك ؟ قال : قتل عثمان . قالت بلهف : ثمَّ ماذا ؟ . قال : ثمَّ حارت بهم الأمور إلى خير محار بايعوا عليّاً . فاصفرّ وجه عائشة كمداً وحزناً وصاحت : لوددت أنَّ السماء انطبقت على الأرض إن تمَّ هذا ويحك انظر ماذا تقول . قال : هو ما قلت لك يا أمّ المؤمنين فولولت فقال لها : ما شأنك يا أمّ المؤمنين والله ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى بها من علي ولا أحقّ ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته فلماذا تكرهين ولايته ؟؟ فما ردَّت له جواباً وأمرت بالحال بردّ ركايبها إلى مكة وعادت وهي تخاطب نفسها فتقول : قتلوا ابن عفّان مظلوماً . فقال لها قيس بن أبي حازم وكان بركابها ألم أسمعك تقولين بعداً لنعثل وسحقاً وقد عهدتك من قبل أشدَّ الناس عليه وأقبحهم فيه قولاً قالت : لقد كان ذلك =

وَكَـانَ مَعْهَـا ٱلـزَّبِيْـرانِ ٱللَّذَانِ أَرَا   دَا فِتْنَـةَ ٱلْقَـوْمِ وَٱسْتِغْـوَا مُـطِيْعِيْهَـا

=ولكن نظرت في أمره فرأيتهم استتابوه حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائماً محرماً في شهر حرام فقتلوه .

وعندما استقرَّت عائشة في منزلها في مكة جعلت تنوح وتندب عثمان وتشدّد النكير على قاتليه ولا تكتم أسفها على أخصائها فتقول : تعسوا تعسوا! لا يردّون الأمر في تميم « وهذا على ما أظن هو بيت القصيد من انقلابها » وإذ كان لعائشة بين الناس مكانة ممتازة لما هو مشهور عن حبّ المصطفى لها صلى الله عليه وآله وسلم ولأنّها كانت تكثر من تحديث الناس بأحاديثه النبوية التفَّ الناس من حولها وبكوا لبكائها وأخذوا معها يطالبون بدم عثمان .

ثمَّ أنَّ طلحة والزبير عندما يئسا وهما في المدينة من علي واقرَّا على الإنتقاض عليه كتبا لعائشة يحضانها على تخذيل الناس على بيعة علي وأرسلا لها كتاباً مع ربيبها عبد الله بن الزبير فازدادت به جرأة وطفقت تذيع دعوتها بمطالبة علي بدم عثمان والتفَّ من حولها الأمويون والمتشيعون لهم وهم الذين أسماهم المؤرخون « عثمانية » فرصة انقلابها هذا فتناسوا لها نقمتها على عثمان وتحريضها الناس عليه بغية الانتفاع بنفوذها على محاربة سيدنا علي بن أبي طالب . وهكذا أصبحت عائشة في مكة زعيمة المطالبين بدم عثمان وموضع اهتمام معاوية ومروان وأصحابهما الأمويين في تنفيذ الخطط التي وضعوها لمحاربة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

أمّا طلحة والزبير بعد أن تمّت بيعة سيدنا عليّ انتظرا أياماً في داريهما وهما يتوقعان أن يكونا منه كما كان مروان من عثمان فيستبدان بالخلافة دونه فخاب فألهما ورأيا أمير المؤمنين مشتغلاً برتق الفتق وإصلاح الفاسد برأيه وحكمته وأنّه مصمّم تصميماً قاطعاً على معاملة المسلمين بالمساواة التي يقضي بها الشرع فلا يميزهما عن غيرهما بفيء ولا بحق فنقما ذلك عليه . ولا بدَّ أنّ الذين جاءوه يغرونه بالاقتصاص من قتلة عثمان كان بينهم طلحة والزبير أو أنّهما صاحبا هاتيك الفكرة أرادا بها أن يوقعاه بمشكلة لا يستغني بها عن التماس معونتهما فما فازا بأربهما بل رأياه يقضي الأمور بسديد رأيه بغير مشورتهما فتأكدا حينئذٍ أنّهما في دولته غير بالغين أرباً . فما عتما أن توجها بآمالهما إلى الإبتعاد عن المدينة فيكون الزبير أميراً للبصرة وله فيها شيعة وطلحة أميراً للكوفة وله فيها شيعة فاتفقا على الذهاب إلى سيدنا علي ومطالبته بهاتين الأمارتين =

= لنفسيهما وبالفعل ذهبا إليه بملتمسهما بعد ولايته ببضع أيام وطلبا منه أن يولّيهما البصرة والكوفة فقال سأنظر في هذا الأمر فامهلاه أياماً ثمَّ عادا إليه فوجداه غير مبلغهما سؤلهما فذكراه بمعاونتهما له على بلوغ الخلافة وتمنيا عليه بذلك فردَّهما ولا رضي أن يرشوهما ببلاد المسلمين فحقدا عليه وأغضبهما ردّه وخرجا ناقمين . وبينما هما لكذلك وردت عليهما تحارير معاوية ببيعته لهما وأخذ مروان وغيره من الأمويين يجتمعون عليهما فكان ذلك مشدداً عزيمتهما على الخروج على سيدنا علي عليه السلام ولم يكونا جاهلين أمر عائشة في مكة واستلامها زعامة المطالبين بدم عثمان فيها فأقرًا على الإنضمام إليها وإذ كان رحيلهما إلى مكة لا يكون بغير إذن سيدنا علي عليه السلام سارا إليه فاستأذناه بالخروج فانقطعا عنه مدة ثمَّ جاءاه فاستأذناه بالخروج إلى مكة قصد العمرة فلم يفته ما في نفسيهما وقال والله ما العمرة تريدان فحلفا له أنّهما لا يريدان غير العمرة فقال لهما ما العمرة تريدان وإنّما تريدان الغدرة ونكث البيعة فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث بيعته يريدان وما بغيتهما غير العمرة فقال عليه السلام فأعيدا البيعة ثانيةً فأعاداها بأشدّ ما يكون من الإيمان والمواثيق فأذن لهما كل هذا والناس بين يديه وهو في المسجد النبوي وبعدما خرجا التفت إلى من حوله وقال : والله لا ترونهما إلّا في فتنة يقتتلان فيها قالوا يا أمير المؤمنين فمرّ بردهما عليك قال بل أدعهما ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . ومن هذا القول العلوي نعلم أنّه عليه السلام لم يكن جاهلاً أمرهما وأمر الذين يكيدون له معهما ولكنه أبى أن يأخذهما على ما يعلم من سرهما ويجهل الناس حتى لا يعطي لأعدائه حجةً عليه تؤيد حجتهم الأولى وهي اتهامه بدم عثمان . لا جرم أنَّ علياً عليه السلام لو قبض على طلحة والزبير عندما جاءاه مستأذنين للعمرة وحجر عليهما لامتلأت أرجاء بلاد الخلافة بصياح الأمويين قائلين أنَّ علياً قتل في الأمس عثمان وحجر اليوم على طلحة والزبير ليستبدّ بالخلافة ويكون لقولهم هذا تأثير عظيم في الصدور لأنَّ الناس يجلون طلحة والزبير ويعرفون لهما المكانة العالية في العالم الإسلامي وهكذا يرى المدقق الحكيم مبلغ حكمة سيدنا أمير المؤمنين بعدم التعرض لحرية هذين الصحابيين والاكتفاء باستعادة بيعتهما إمام المسلمين في المسجد النبوي .

وعندما خرج طلحة والزبير من المدينة إلى مكة جعلا يقولان لكل من يلقيانه في طريقهما أنّ ليس لعلي في عنقهما بيعة وإنّما بايعاه مكرهين واتّصل قولهما هذا بسيدنا =

وَٱبْنُ ٱلـزُّبَيْرِ ٱلَّـذِي مَا زَالَ مُلْتَـزِمَـاً ... رِكَـابَهَـا مَـا تُنَـاجِيْـهِ يُنَـاجِيْهَـا

=علي من القادمين على المدينة فقال عليه السلام « أبعـدهما الله ، وأغـرب دارهما ، أمّـا والله لقد علمت أنّهما سيقتلان نفسيهما أخبث مقتل ، ويأتيان من وردا عليه بأشأم يوم ، والله ما العمرة يريدان ، ولقد أتياني بوجهي فاجرين ، ورجعا بـوجهي غادرين نـاكثين ، والله لا يلقيانني بعد اليوم إلاّ في كتيبة خشناء يقتتلان فيها بنفسيهما ، فبعداً لهما وسحقاً » .

وعندما انتهى طلحة والزبير إلى مكة أسرعا إلى منزل عائشة وأخذوا يـدبرون أمـر المسير إلى العراق حسب إشارة معاوية وانضمّ إليهم مروان بن الحكم وقد ترك المـدينة فراراً ويعلى بن أمية حاكم اليمن وجاء معه ببعض رجالات اليمن وذاع نبـأ مسير عـائشة إلى البصرة فأكبـره أهالي مكـة لأنّهم ما انتـظروها أن تـدخل في الفتنـة بصورة جـديّة . وكان في مكة وقتئذٍ أم سلمة وهي إحدى أزواج المصطفى فسارت إليها غير مرة وأكثرت لها النصيحة وذكرتها بمكانة سيدنا علي عند المصطفى عليهما الصلاة والسلام وبأحاديثه الكثيرة التي تشير إلى موقفها الحرج الذي وقفتـه والواجب أن تتحـاشاه فمـا سمعت لها نصيحة وكانت تقول إنّها ضرَّةٌ تغشني .

وعندما صحت عـزيمة هؤلاء العصـاة على السفر طلبـوا لهودج عـائشة بعيـراً أيّداً فجاءَهم يعلى بـن أمية ببعيره المسمى عسكر وكان عظيم الخلق شديداً فلما رأته عـائشة أعجبها وأنشأ الجمال يحدثها بشدته وقوته ويسميه في أثناء حديثـه عسكراً فلمـا تكررت لفظة « عسكر » على لسان الجمال تشاءمت من الجمل واسترجعت وقالت ردّوه لا حاجة لي بـه فتقدم منهـا عبد الله بن الـزبير وهـو ربيبها وأدلّ النـاس عليهـا وسـألهـا عن سبب رفضها ركوب « عسكر » على شدّته وقوتـه فقالت انّ رسـول الله كان ذكـرها جمـلاً بهذا الإسم ونهاها عن ركوبه وأمرته أن يطلب لها جمـلاً غيره فمضى في هـذه المهمة فـوجد في أسواق مكة رجلاً من عرنية ومعه جمـل أحمر شـديد القـوى فاعتـرضه واشتـرى منه جمله بعد أن أخبره أنّه لعائشـة أمّ المؤمنين وسألـه إن كان يعـرف طريق البصـرة فيكون دليلهم فيها فقال نعم وكان دليلهم . ولما عرض جمل العرني على عائشـة رضيته مـطيةً لهـودجها فـرفع عليـه الهودج وكـان موشحـاً بجلود النمر ووضعـوا فوقـه دروع الحـديـد والرفارف المزركشة ودخلت فيـه عائشـة وأنزلت الستـائر وسـار في مقـدمة النـاس وكان رايتهم ولم يكن لهم رايـة سواه ولـذلك دعـاهم الناس « أصحـاب الجمل » وكـان ذلك العرني دليل القوم ماسكاً زمام الجمل وكانت عائشة فيه هي الآمرة الناهية . =

= وكان يعلى بن أمية أمير اليمن الذي هبط مكة بعد وصـول كتاب معـاوية إليـه وقد سبق لنا نشره هو الذي يجهز الناس للرحيل وجاءهم بستمـاية بعيـر وستمايـة ألف درهم ومن هذا وحده تعلم كيف كان عمّال عثمان يحكمون الناس ويتسطون على أموالهم .

وسار المنادون في أسواق مكة وهم ينادون : « إنّ عائشـة أمّ المؤمنين ، وطلحة ، والزبير ، شاخصون إلى البصرة ، فمن أراد إعزاز الإسلام ، وقتال المحلين ، والـطلب بثأر عثمان ، وليس له مركب وجهاز فليأتِ » فأقبل الناس على النداء بين مكيين ومدنيين فكانوا ستماية راكب وصار يتبعهم الناس حتى بلغـوا التسعمايـة ثمَّ انضمت إليهم رجال القبائل في طريقهم فبلغوا نحواً من ثلاثة آلاف .

ولمـا خرج أصحـاب الجمل من مكـة والجمـل رأيتهم وقـائـدهم أذن مـروان بن الحكم في النـاس ثمَّ أقبل على طلحـة والزبيـر وقال على أيّكمـا أسلّم بـالأمـارة وأؤذن بالصلاة فقال عبد الله بن الزبير وهل لها غير أبي وقال محمد بن طلحة وهل لها غير أبي وابتدأت بينهما الفتنة فتدراكتها عائشة من وسط هودجها واستدعت مروان إليها وقالت له أتريد أن تفـرّق أمرنـا ؟ فليصلّ بـالناس ابني عبـد الله « وتريـد به ابن أختهـا عبد الله بن الزبير » فكان يصلّي بالناس .

وما زال أصحاب الجمل سائرين في طريقهم حتى انتهوا إلى «الحوأب» وهـو ماء لبني عامر بن صعصعة فأخـذت الكلاب تنبـح وكانت كثيـرة فنفرت صعـاب الإبل وقـال قائلٍ بقرب هودج عائشة « ألا ترون ما أكثر كلاب الحوأب ما أشدّ نباحها ؟ » وما كـادت ترنّ هذه الكلمات في أذن عائشة وهي في هودجهـا حتى اصفرَّ وجههـا وقفَّ الشعر في رأسهـا وارتجفت أعصابهـا وصاحت وأنّهـا لكلاب الحـوأب !! ردّوني ردّوني ومـا زالت تصيـح حتى أناخ الحـادي جملها ووقف الـركب وجاءَهـا الزبيـر وولده عبـد الله وطلحة ومروان ويعلى بن أمية وغيرهم يسألـونها عمّـا نالهـا فقالت ردّوني ردّوني إنّي للهيَّـة فقد كان رسول الله بين نسائه في ذات يوم فطلب أن يغسل رأسه فجئتـه بماء وجعلت أصبّـه على رأسه وأخذت أمّ سلمة تحيس له وبينما نحن لكذلك رفع رأسه الشريف وهـو مبتلّ بالماء وقال ﷺ : يا ليت شعري أيتكنَّ صاحبة الجمل الأذنب تنبحهـا كلاب الحـوأب فتكون ناكبة عن الصراط ؟ . فرفعت أم سلمة يدها وقالت أعوذ بالله وبرسـوله من ذلـك =

= وامتنعت أنا عن صبّ الماء وقلت قولها وإذا بالمصطفى ﷺ يضرب بيمناه على ظهري ويقول : إيّاكِ أن تكونيها ثم قال ثانيةً : يا بنت أبي أميّة إيّاكِ أن تكونيها يا حميراء قالت عائشة فاصفرَّ وجهي وجزعت ولكن تجلدت وقلت أعوذ بالله أن أكونها يا رسول الله فتبسّم وهزَّ رأسه الشريف وعدنا إلى غسله . وما أتمّت عائشة سرد قصتها حتى استرسلت بالنواح والبكاء وهي تقول ردّوني إلى بيتي فقد صدق رسول الله فأنا صاحبة الجمل الأذنب وهوذا كلاب الحوأب تنبحني وقد تنكبت عن الصراط فأخذ القوم يشجعونها على المسير وهي ترفض إلى أن أعياهم حالها وخافوا إن هي عادت أدراجها أن تفشل حملتهم وتضيع مجهوداتهم وتخيب آمالهم وبينما هم في حيرتهم تلك وإذا بعبد الله بن الزبير يناديها ويقول : ويلنا يا أمّاه (وكان عبد الله يدعو عائشة أمّه وهي كما تعلم خالته) فقد أدركتنا خيل ابن أبي طالب فجزعت لهذا النبأ ورضيت بالمسير وهكذا استأنف القوم المسير في طريقهم .

ولما انتهى أصحاب الجمل إلى « حفر أبي موسى » قريباً من البصرة أناخوا فيه وبلغ نبأهم عثمان بن حنيف وكان عامل عليّ على البصرة فجزع من مقدمهم وأرسل لهم أبا الأسود الدؤلي يعلم له علمهم فسار إليهم حتى إذا ما بلغ منزلهم قصد خباء عائشة وكان في وسط القوم وسألها عن سبب مجيئها بمن معها ؟ فقالت إنّي مطالبة بدم عثمان فقال ليس في البصرة من قتلة عثمان أحد قالت نعم فإنّهم مع عليّ بن أبي طالب في المدينة وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله أتغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيوفكم ؟ فقال أبو الأسود ما أنت من السوط والسيف ؟؟ إنّما أنت حبيس رسول الله ﷺ وقد أمرك أن تقرّي في بيتك ، وتتلي كتاب ربّك ، وليس على النساء قتال ، ولا لهنَّ الطلب بالدماء ، وأنّ عليّاً لأولى بعثمان منك ، وأمسُّ رحماً ، فإنّهما أبناء عبد مناف . فقالت عائشة لست بمنصرفة حتى أمضي لما قدمت إليه أتظنُّ يا أبا الأسود أنَّ أحداً يقدم على قتالي ؟ فتبسم أبو الأسود وقال أمّا والله لنقاتلنَّ قتالاً أهونه الشديد . وتركها وسار غاضباً إلى الزبير فقال له : يا أبا عبد الله عهد الناس بك وأنت يوم بويع أبو بكر آخذٌ بقائم سيفك تقول : لا أحد أولى بهذا الأمر من ابن أبي طالب فأين هذا المقام من ذاك ؟ فقال الزبير ولكنّا نطالب بدم عثمان فقال أبو الأسود أنت وصاحبك (ويريد طلحة) وليّتماه فيما بلغنا ؟ فتلعثم لسان الزبير وقال : فانطلق إلى =

= طلحة واسمع ما يقول فعرف أبو الأسود أنَّ الزبير سبق إلى الفتنة على غير إرادته فهو مغلوب على أمره فتركه ومضى إلى طلحة فوجده سادراً في غيّه مصرّاً على الحرب والفتنة فعاد إلى البصرة وأخبر عثمان بن حنيف بما رأى وسمع وقال إنّها الحرب فتأهب لها .

أمّا عثمان بن حنيف فحار في أمره وطفق يضرب أخماساً لأسداس فما وجد له مخرجاً وذاكر في الأمر أعيان البصرة فوجدهم مفترقين فمنهم من يقول أنَّ أصحاب الجمل على الحقّ وفيهم عائشة وطلحة والزبير ومكانتهم من الإسلام والمصطفى لا يقدح فيها قادح ومنهم من كانوا يقولون إنّ هؤلاء جاءونا بعد أن بايعوا علياً ناكثين فعلينا أن نردَّهم ومنهم من كانوا يقولون ما لنا ولهؤلاء قدموا علينا يفتنوننا ويلوننا فإذا كانوا يطلبون دم عثمان فإنّ قتلة عثمان عندهم لماذا لم يقتلوهم وإذا كانوا يريدوننا لنشاركهم بطلب قتلته فما لنا بذلك أرب وإذ رأى أميرهم عثمان بن حنيف منهم الفرقة انكسر قلبه .

ثم إنّ عائشة وطلحة والزبير أمروا أصحابهم باقتحام البصرة فساروا إليها حتى إذا ما بلغوا المربد دخلوا من أعلاه ولقيهم عثمان بأصحابه وانقسم البصريون قسمين قسمٌ من شيعة سيدنا عليّ ونفراً بجانب أميرهم عثمان بن حنيف وقسم كانوا من شيعة أصحاب الجمل فانضموا إليهم وخطب طلحة في الناس فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان وفضله وما استحلَّ منه ودعا إلى الطلب بدمه وحثّهم عليه . ثمَّ تبعه الزبير فقال قول طلحة . وكان البصريون يسمعون الخطابين وفيهم من يقول صدقاً وبرّاً ومنهم من يقول فجراً وغدراً وأمراً بالباطل فقد بايعا علياً ثمَّ جاءَا يستنهضاننا لمحاربته وكثر اللغط والهرج . وحينئذٍ تقدَّمت عائشة وهي في هودجها على جملها وقالت بصوتها الجهير « كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عمّاله ، ويأتوننا بالمدينة فيستنيروننا فيما يخبروننا عنهم ، فننتظر في ذلك ، فنجده برياً نقياً وفياً ، ونجدهم فجرةً غدرةً كذبةً ، وهم يحاولون غير ما يظهرون ، فلما قووا كاثروه ، واقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام ، والشهر الحرام ، والبلد الحرام ، بلا ترة ولا عذر ، ألا أنَّ لما ينبغي لا ينبغي لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان ، وإقامة كتاب الله » فأزاد خطاب عائشة الشغب بين البصريين ثمَّ اشتبك القتال بينهم وانضمَّ أصحاب الجمل إلى من تشيع لهم =

وَقَـدْ تَقَـدَّمَتِ آلـرُّكْبَـانَ عَـائِشَـةُ   وَآلنَّـاسُ مِنْ حَوْلِهَـا تَشْدُوْ أَغَـانِيْهَـا
كَرَايَةِ آلْحَرْبِ كَانَتْ ضِمْنَ هَوْدَجِهَا   وَآبْنُ آلـزُّبَيْرِ فَتَـاهَـا كَـانَ مُعْلِيْهَـا
وَكَـانَ هَـوْدَجُهَـا يَسْعَى بِـهِ جَمَـلٌ   قَـدْ بَـاعَـهُ عَـرَنِيٌّ مِنْ حَـوَاشِيْهَـا
أُفٍّ لَـهُ جَـمَـلاً أُفٍّ لِسَـائِـقِـهِ   فَـإِنَّـهُ سَـائِـقُ آلأَرْزَاءِ مُفْـشِيْـهَـا
يَـا لَيْتَنَا مَـا عَرَفْنَـا ذٰلِكَ آلْجَمَـلَ آلْـــمَشْئُوْمَ فِيْ خَطَوَاتٍ رَاحَ خَـاطِيْهَـا
وَبَيْنَمَـا آلنَّـاسُ مَعْـهُ وَهْـوَ قَـائِـدُهَـا   تَسِيْـرُ فِيْ فَلَوَاتِ آلأَرْضِ تَـطْوِيْهَـا
مَـرَّتْ عَلَىٰ عَيْنِ مَاءٍ وَآلْكِـلاَبُ بِهَـا   نَبَّـاحَةٌ فَعَـوَى فِيْ آلْحَـالِ عَـاوِيْهَـا
وَصَاحَ صَائِحُهَا ذِيْ مَاءُ حَـوْأَبَ فَلْـــنَشْرَبْ وَهٰذِيْ ظَوَامِيْ آلْعِيْسِ نُسْقِيْهَا
وَمَـا دَوَتْ «حَوْأَبُ» فِيْ اذْنِ عَـائِشَةٍ   حَتَّى أَعَـادَتْ إِلَيْهَـا ذِكْـرَ مَـاضِيْهَـا
عَادَتْ إِلَى عَهْدِهَـا فِيْ طِيْبَةٍ بِحِمَى   طَـهَ وَجِـيْـرَتُـهُ آلْغَـرَّاءُ تُـؤْوِيْهَـا

= من البصريين فكاثروا أصحاب عثمان بن حنيف وتغلبوا عليهم ودخلوا البصرة عنوة في حديث يطول وكان قد لجأ عثمان بن حنيف إلى بيته فأرسلوا بطلبه فاقتحموا بيته وضربوه وأهانوه ونتفوا لحيته وشاربيه وحاجبيه وأشفار عينيه وامتنعوا عن قتله إكراماً لصحبته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل ذلك جرى بأمر عائشة وجعل أصحاب الجمل على بيت المال في البصرة عبد الرحمن بن أبي بكر . على أنّ البصريين لم يرضخوا لتغلب أصحاب الجمل عليهم فنهضوا إليهم وحاربوهم بموقعة كبرى قتل فيها خلق كثير وكانت هذه الموقعة لخمس ليالٍ بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٣٦ للهجرة وانجلت عن تغلب أصحاب الجمل فهرب من ظلّوا على ولاء سيدنا علي عليه السلام يقصدونه وبايع طلحة والزبير وعائشة المستضعفون وبعد أن تمَّ فوز أصحاب الجمل على البصريين أرسلوا يبشرون به معاوية في الشام وأصحابهم في المدينة المنوَّرة وأرسلت عائشة إلى أبي موسى الأشعري أمير الكوفة تطلب منه الانضمام إليها وتهيئة الرجال لنجدتها على محاربة سيدنا عليّ والطلب بدم عثمان فما أجابها وأقرَّ على التزام الحياد في هذه الفتنة .

وَقَـوْلَـةٌ نَسِيْتُهَـا كَـانَ قَـائِلَهَـا ... لَهَـا فَقَالَتْ: نَعَمْ ذَكَّـرْتُمُـوْنِيْهَـا

فَـإِنَّـهُ كَـانَ يَـوْمَـاً بَيْنَ نِسْـوَتِـهِ ... عَـطْفَاً يُؤَانِسُهَـا صَفْـوَاً يُفَـاهِيْهَا

وَإِذْ بِـهِ قَـالَ مَنْ مِنْكُنَّ تَنْبَحُـهُ ... كِلَابُ حَوْأَبَ فِيْ صَافِيْ مَجَارِيْهَا

فَٱسْتَغْرَبَتْ قَوْلَةَ ٱلْهَادِيْ نِسَاهُ وَلَمْ ... تَـدْرِيْ ٱلَّتِيْ بَيْنَهُنَّ كَـانَ يُعْنِيْهَـا

ثُمَّ رَنَـا ٱلْمُصْطَفَى عَـطْفَاً لِعَـائِشَـةٍ ... وَقَـالَ: إِيَّـاكِ مِنْهَـا أَنْ تَكُـوْنِيْهَـا

تَذَكَّرَتْ وَهْيَ فِيْ وَسْطِ ٱلنَّبِيْحِ مَقَا ... لَ ٱلْمُصْطَفَى فَبَكَتْ وَٱلذِّكْرَ مُشْجِيْهَا

وَٱسْتَرْجَعَتْ حَزَنَـاً كَانَتْ تَقُـوْلُ: أَنَا ... لُـهَيَّـةُ وَٱنْثَنَـتْ تَشْـكُـوْ تَلَهِّـيْـهَـا

وَأَسْـرَعَتْ فَـأَنَـاخَتْ وَهْيَ غَـاضِبَـةٌ ... بَعِيْـرَهَـا وَٱلْبُكَـا يَمْـلَا مَـآقِيْهَـا

وَأَعْـلَنَـتْ أَنَّـهَـا لَا بُـدَّ رَاجِـعَـةٌ ... عَنْ رَكْبِهَا فَهْيَ تَـأْبَى أَنْ تُمَاشِيْهَا

رَاحَتْ تَقُوْلُ: أَنَا تَـٱللّهِ صَاحِبَـةُ ٱلْـ ... ـمَـاءِ ٱلَّتِيْ كَانَ خَيْـرُ ٱلْخَلْقِ يَبْغِيْهَـا

رُدُّوْا بَعِيْـرِيْ وَرُدُّوْنِـيْ عَلَيْـهِ إِلَـى ... خِـدْرِيْ فَنَفْسِيَ مَا قَـدْ كَانَ يَكْفِيْهَـا

وَٱلْتَفَّ أَصْحَـابُهَا مِنْ حَـوْلِهَـا وَلَقَـدْ ... هَـابُـوْا تَـرَدُّدَهَـا رَامُـوْا تَـرَضِّيْهَـا

وَعَـالَجُـوْا أَنْ تُؤَاتِيْهُمْ بِـزُخْـرُفِ مَـا ... قَـالُـوْا وَظَلَّتْ عَلَى جَـافِيْ تَـأَبِّيْهَـا

فَلَمْ يَكُنْ غَيْـرُ أَنْ قَـالُـوْا ٱلْعَلِيُّ أَتَى ... بِخَيْلِهِ مَـا عَنِ ٱلتَّنْكِيْبِ يُثْنِيْـهَـا

خَـافَتْ عَلِيَّـاً وَوَاتَتْهُمْ بِمَـا طَلَبُـوْا ... وَٱسْتَـأْنَفَتْ مَعَهُمْ كُـرْهَـاً تَخَطِّيْهَـا

حَتَّى إِذَا بَلَغَ ٱلـرُّكْبَـانُ بَصْـرَةَ أَلْـ ... ـقَوْا ٱلذُّعْرَ فِيْ أَهْلِهَا كَـانُوْا مُثِيْـرِيْهَا

وَبَعْـدَ أَنْ فَتَنُـوْا ٱلْأَهْلِيْـنَ وَٱقْتَـتَلُوْا ... مَعْهُمْ قَـدِ ٱسْتَلَمُـوْا شَتَّى مَـلَاجِيْهَـا

دَرَى ٱلْإِمَـامُ بِذَا فَـٱخْتَـارَ طَلْبَـةَ مَنْ ... حَلُّوْا ٱلْعِرَاقَ وَأَثْوَوْا فِيْ ضَـوَاحِيْهَـا

وَأَرْجَـأَ ٱلشَّـامَ حَتَّى يَسْـتَـتِبَّ لَـهُ ... أَمْـرُ ٱلْعِـرَاقِ وَمِنْ ثَـمَّ يُـوَافِيْهَـا

مسير أمير المؤمنين إلى البصرة

سَهْلٌ عَلى ٱلنَّاسِ أَنْ تُبْدِيْ مَلامَتَها عَلى ٱلْفِعَالِ ٱلَّتِيْ ٱلْحُكَّامُ تُجْرِيْهَا(١)
وَتُصْدِرَ ٱلْحُكْمَ فِيْ تَسْفِيْهِهَا وَحَرِ م يٌّ أَنْ نَخُصَّ بِذَاكَ ٱلْحُكْمِ تَسْفِيْهَا
فَكَمْ جَهُوْلٍ رَأى سَيْرَ ٱلْإِمَامِ إِلَى صَحَابَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَلْعُوْنِ يُرْزِيْهَا

---

(١) عندما سمع سيدنا أمير المؤمنين نبأ أصحاب الجمل وقصدهم البصرة صحت عزيمته على اللحوق بهم ومقاتلتهم قبل المسير إلى الشام ومقاتلتهم لأنّ ما خطر لمعاوية بدهائه لم يفت حكمة سيدنا أمير المؤمنين وسداد رأيه وهو أنّ القوم في الشام قد حملهم معاوية على العصيان وكان من أمرهم ما كان العجلة في حرب الشام كالمتمهل ما وراء ذلك من ضرر وأمّا القوم في العراق فإنّهم ما زالوا على الطاعة وأنّ عائشة وطلحة والزبير وبقية العصابة ما قصدوا بلادهم إلاّ يستميلوهم إلى رأيهم ويشدوا أزرهم بهم فالمصلحة تقضي بالحيلولة بينهم وبين ما يطلبون وهي لعمر الحقّ نظرةٌ صادقةٌ من سياسيٍّ حكيمٍ يعرف من أين تؤكل الكتف . وكان يريد سيدنا أمير المؤمنين أن يظفر بأصحاب الجمل وهم في الطريق فيقاتلهم قبل أن يدخلوا البصرة ويعيدهم أدراجهم خائبين فلم يتوفق إلى ذلك لاختلاف الناس حوله في أمر غزوته فمنهم من كان يقول له : دع القوم وما يصنعون فإن أطاعوك سرت بهم على نهج الشريعة السمحاء وإن عصوك كان لك عذرٌ عند ربّك بإهمالك شأنهم . ومنهم من كان يشير عليه أن يبقى في المدينة المنوّرة ويرسل سريّةً وراء أصحاب الجمل تحاربهم . ومنهم من كانوا يقولون له الأمر أمرك ونحن طوع رضاك . أمّا سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فما أعجبه إلاّ المسير وراء أصحاب الجمل ضارباً بكل رأيٍ يخالف رأيه هذا عرض الحائط . والظاهر أنّه كان قد سئم تفرقة الكلمة ، واضطراب حبل الأمّة ، وتضارب الآراء ، واختلاط المنافقين بالأوفياء ، فقال : « والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم ، حتى يصل إليها طالبها ، ويختلها راصدها ، ولكني أضرب بالمقبل إلى الحق ، المدبر عنه ، وبالسامع المطيع ، العاصي المريب ، أبداً . حتى يأتي عليَّ يومي ، فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي ، مستأثراً عليَّ ، منذ قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى يوم الناس هذا »اهـ لا جرم أنَّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام قد أصاب ، لباب الصواب ، وقال ما فيه فصل الخطاب ، فحسبه التغلب عليه ، والتلاعب بحقوقه ، وكفاه يرضى بما يرضى به =

= الناس وهم متعنتون ، فأمّا أن يعيدهم إلى الحقّ ، أو يدعهم والباطل .

وعلى ذكر الضبع التي قال سيدنا عليّ أنّه لا يكون مثلها مخدوعاً نقول : إنّ العرب تضرب بها المثل في الحمق فتقول : « أحمق من الضبع » وزعموا أنَّ صائد الضبع يدخل عليها وجارها وهو يقول : أطرقي أم طريق ، خامري أمَّ عامر ، ويكرّر ذلك عليها فتلجأ إلى أقصى مغارها فتنقبض فيقول الصائد : أمّ عامر ليست في وجارها ، أم عامر نائمة ، ولا يزال يكرر ذلك على سبيل اللدم وهو ما يقال للأطفال حتى يناموا إلى أن تطمئن فتمدّ يديها ورجليها وتستلقي ، فيدخل عليها ويوثقها وهو يقول لها : أبشري أمَّ عامر ، بشاء هزلي ، وجواد عظلي ، يقول هذا وهو يشدّ عراقيبها وهي صابرة صامتة ولو شاءت لقتلته .

وبعد أن أعدَّ سيدنا علي عليه السلام عدّته للخروج إلى البصرة صلّى في الناس في المسجد النبويّ وعلا المنبر فأفصح عن سرّ رحلته فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أيّها الناس ، انَّ عائشة سارت إلى البصرة ، ومعها طلحة والزبير ، وكلٌ منهما يرى الأمر له دون صاحبه ، أمّا طلحة فابن عمّها ، وأمّا الزبير فختنها ، وأنّهم لو ظفروا بما أرادوا ، ولن بنالوا ذلك أبداً ، ليضربنَّ أحدهما عنق صاحبه ، بعد تنازعٍ شديد ، والله أنَّ راكبة الجمل الأحمر ، ما تقطع عقبة ، ولا تحلُّ عقدةً ، إلاَّ في معصيةِ الله وسخطه ، حتى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة ، أي والله ، ليقتلنَّ ثلثهم ، وليهربنَّ ثلثهم ، وليتوبنَّ ثلثهم ، وأنّها التي تنبحها كلاب الحوأب ، وأنّهما ليعلمان أنّهما مخطئان ، وربَّ عالمٍ قتله جهله ومعه علمه لا ينفعه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد قامت الفتنة ، فيها الفئة الباقية ، أين المحتسبون ؟ ، أين المؤمنون ؟ ، ما لي ولقريش ، أمّا والله لقد قتلتهم كافرين ، ولأقتلنّهم مفتونين ، وما لنا إلى عائشة من ذنب إلاَّ أنّا قد أدخلناها في حيزنا ، والله لأبقرنَّ الباطل حتى يظهر الحقُّ من خاصرته ، فقل لقريش : فلتضجّ ضجيجها » اهـ فهلّل الناس وكبّروا لخطابه وهم متحفزون للمسير تحت رايته المنصورة .

وكان خروج المرتضى عليه السلام إلى البصرة في آخر شهر ربيع الآخر سنة ٣٦ للهجرة خرج ومعه أولاده الحسن والحسين ومحمد (ابن الحنفية) ومن والاه من المهاجرين والأنصار وأتقياء المسلمين وبلغ عدد ركبه نحو التسعمائة . =

وَلَـوْ تَـدَبَّـرَتِ ٱللُّوَّامُ خَـافِيَـةَ ٱلأَمْـرِ ٱلَّتِيْ ٱلْمُرْتَضَى قَـدْ كَانَ دَارِيْهَـا
لَاسْتَصْوَبَتْ عَزْمَةً كَانَتْ سَلَامَةُ أَطْـرَافِ ٱلْعِـرَاقَيْنِ فِيْهَـا مِنْ عَيُـوْثِيْهَـا
عَـزِيْمَـةٌ مَـا لَهَـا إِلَّا أَبُـوْ حَسَنٍ عِنْـدَ ٱلشَّـدَائِـدِ وَٱلْأَخْـطَارِ يُمْضِيْهَـا
نَادَى بِغَيْرِ وَنًى فِيْ ٱلنَّاسِ فَٱجْتَمَعَتْ حَـوْلَيْـهِ رَاكِبُهَـا ٱلْغَـازِيْ وَمَـاشِيْهَـا
وَمَـا تَوَانَى سِـوَى أَهْلِ ٱلنِّفَـاقِ فَلَمْ تَحْفَـلْ بِـدَعْـوَةِ حَقٍّ رَاحَ دَاعِيْهَـا
وَقَالَ بَعْضُهُمُ: دَعْ حَرْبَ طَلْحَةَ وَٱلـزُّبَيْـرِ وَٱلـرَّأْيُ عِنْـدِيْ فِيْ تَـلَافِيْهَـا
فَقَالَ: وَٱللَّهِ لَا احْكِيْ ٱلضِّبَاعَ بِـإِهْـمَالِ ٱلْمَكَائِدِ مَعْ مَغْـرَى مُكِيْدِيْهَـا
إِنَّ ٱلضِّبَاعَ عَلَى ٱللَّدْمِ ٱلطَّوِيْـلِ تَنَامُ شَـرَّ نَـوْمَتِهَـا وَٱللَّدْمُ هَـادِيْهَـا
حَتَّى تَـرَى رَاصِـدِيْهَـا تَمَّ خَتْلُهُمُ لَهَـا وَقَـدْ أَسَـرُوْهَـا فِيْ مَخَـابِيْهَـا
لَكِنَّنِيْ أَضْرِبُ ٱلْمُسْتَدْبِـرِيْنَ عَنِ ٱلْـحَقِّ ٱلَّـذِينَ أَذَاعُوْا ٱلْبُـطْلَ تَمْوِيْهَـا
بِـٱلْمُقْبِلِيْنَ إِلَى ٱلْحَقِّ ٱلَّـذِيْنَ بِهِمْ أَلْقَى أَعَـادِيْـهِ مَنْصُـوْراً وَأُفْنِيْـهَـا
وَبِٱلسَّمِيْعِ ٱلْمُطِيْعِ ٱلْمُهْتَدِيْ بِهُدَى مُـحَمَّـدٍ إِنَّنِيْ أَلْـقَى مُـرِيْـبِيْـهَـا

= وكانت وفود العرب تفد عليه مقدمة الطاعة وتطلب الانضمام إليه والسير معه فيحمد لها طاعتها وإخلاصها ويعيدها أدراجها وذلك لأنه عليه السلام لم يكن خارجاً للغزو والفتح ولكن لتأديب طائفة من المسلمين عصت عليه وردّها إلى الطاعة فرأى بنظره البعيد ورأيه السديد أنّه لو صحب العربان في خروجه لما أمن استفحال الخطب ولتعذر عليه حفظ النظام بين أصحابه وعدم الاختلاف في المهمة التي هو خارج إليها وهي إعادة السلام إلى المسلمين واستئصال الفتنة وتأديب مثيريها .

وكان عليه السلام يتلقى في طريقه أبناء الممالك الإسلامية عاصيها وطائعها حتى إذا ما بلغ الربذة علم بأنَّ أصحاب الجمل دخلوا البصرة محاربين بعد أن قاتلهم البصريون فأقام في الربذة أياماً موجهاً بصره نحو الكوفة لعلمه أنَّ أهلها من أخلص المخلصين لخلافته .

حَتَّى ٱلْمَنَـــايَا تُـلاَقِيْنِي بِبَسْمَتِهَـا يَـوْمَـاً كَمَـا بِـاْبْتِسَـامَـاتِيْ أُلاَقِيْهَـا

حَسْبِـي فَـوَٱللّهِ أَنِّـي لَمْ أَزَلْ أَتَشَـــكَّى مِنْ ضِيَاعِ حُقُوْقِي أَوْ مُضِيْعِيْهَا

مِنْ يَوْمِ قَدْ قَبَضَ ٱللَّهُ ٱلرَّسُوْلَ إِلَى يَوْمِ ٱلْعُصَاةِ ٱلَّتِيْ أَصْبَحْتُ غَـازِيْهَا

وَعِنْـدَ مَـا آنَ مِيْقَـاتُ ٱلْمَسِيْرِ دَعَـا أَبُـوْ ٱلْحُسَيْنِ ٱلرَّعَـايَا كَيْ يُفَـاهِيْهَـا

مُـوَدِّعَـاً مُفْصِحَـاً عَنْ سِرِّ رَحْلَتِـهِ مُجَلِّيَـاً كُـلَّ لَبْثٍ قَـدْ يُـغَشِّيْهَـا

فَقَـالَ: عَـائِشَـةٌ سَـارَتْ بِعُصْبَتِهَـا إِلَى ٱلْعِـرَاقِ لِتَسْتَغْـوِيْ أَهَـالِيْهَـا

وَطَلْحَـةٌ سَـارَ مَعْهَـا وَٱلـزَّبَيْـرُ وَكُـــلٌّ مِنْهُمَـا أُمْرَةُ ٱلْإِسْلاَمِ شَـاهِيْهَـا

صِهْـرٌ لَهَـا ذَا وَذَا أَدْنَى عُمُـوْمَتِهَـا قُـرْبَى فَسَـارَا بِهَـا لِلْحَرْبِ تُلْظِيْهَـا

وَٱللَّهِ لَـوْ ظَفَـرُوْا يَـوْمَـاً بِـطَلْبَتِهِمْ وَٱلْمُسْتَحِيْـلُ لَأَدْنَى مِـنْ تَلَقِّيْهَـا

لَاَسْتَحْكَمَتْ فِتْنَـةٌ شَعْـوَاءُ بَيْنَـهُمُ فِيْ ٱلْحَـالِ نِيْـرَانُهَـا تُعْيِي مُـطَفِّيْهَـا

فِيْهَـا ٱلزَّبَيْـرَانِ كُـلٌّ جِيْـدَ صَاحِبِـهِ يَفْـرِيْ بِضَـرْبَـةِ سَيْفٍ لاَ يُثَنِّيْهَـا

وَٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّتِيْ سَارَتْ عَلَى ٱلْجَمَلِ ٱلْـــمَشْئُوْمِ وَهْوَ بِهَـا ٱلآرَاضُ يَطْوِيْهَـا

فَـلاَ تَحُلُّ وَقَـدْ سَـارَتْ وَتَقْـطَعُ عِقْـــدَةً وَشَـوْطَـاً بِـلاَ إِسْخَـاطِ بَـارِيْهَـا

حَتَّى تَـرَاهَـا بِمَنْ مَعْهَـا لَقَـدْ وَرَدَتْ مَـوَارِدَ ٱلْهُلْكِ تَهْـوِيْ فِيْ مَهَـاوِيْهَـا

وَصَحْبُهَـا سَـوْفَ يَفْنَى ثُلْثُهَـا وَيَفِـــرُّ ٱلثُّلْثُ عَنْهَا وَيَرْجُـوْ ٱلْعَفْوَ بَـاقِيْهَا

وَهْيَ ٱلَّتِيْ فِيْ تَجَـرِّيْهَـا لَتَنْبَحُهَـا كِـلاَبُ حَـوْأَبَ إِنْـذَاراً وَتَنْبِـيْهَـا

كَـذَا ٱلـزَّبَيْـرَانِ قَـدْ جَـاءَا بِعِلْمِهِمَـا خَـطِيْئَـةً لَيْسَ مِنْ غَفْـرٍ لِجَـانِيْهَـا

وَرُبَّ صَـاحِبِ عِلْمٍ فِيْ جَهَـالَتِـهِ قَضَى وَمَـا عِلْمُـهُ عَنْـهُ مُجَلِّيْـهَـا

وَحَسْبُنَـا ٱللَّهُ هٰـذِيْ فِتْنَـةٌ سُعِـرَتْ لٰـكِنْ لَـنَـا فِئَـةٌ مَـبْـرُوْرَةٌ فِـيْـهَـا

فَـأَيْنَ يَا نَـاسُ جَمْـعُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَأَهْـــلُ ٱلْإِحْتِسَـابِ فَإِنِّي ٱلْيَـوْمَ دَاعِيْهَا

مَالِيْ وَمَا لِقُرَيْشٍ كُنْتُ قَاتِلَهَا فِيْ ٱلْأَمْسِ كَافِرَةً مَا كُنْتُ مُبْقِيْهَا

وَٱلْيَوْمَ أَقْتُلُهَا عَدْلاً وَقَدْ فُتِنَتْ أَوْ إِنْ تَتُوْبَ وَتَنْأَى عَنْ مَسَاوِيْهَا

وَعِنْدَ بِنْتِ أَبِيْ بَكْرٍ خَطِيْئَتُنَا دُخُوْلُهَا بَيْنَنَا مَا إِنْ تُمَحِّيْهَا

لَأَبْقِرَنَّ وَأَيْمُ ٱللَّهِ بَاطِلَهَا حَتَّى ٱلْحَقِيْقَةُ مِنْ أَحْشَاهُ أُبْدِيْهَا

فَقُلْ غَدَاً لِقُرَيْشٍ فَلْيَضِجُّ ضَجِيْـ ـجُهَا وَإِنِّيْ كَمَا تَهْوَى مُلَاقِيْهَا

كَذَاكَ جَيْشُ ٱلْوَصِيِّ ٱلْمُرْتَضَى قَصَدَ ٱلْـ ـعِرَاقَ كَيْمَا مِنَ ٱلْإِفْسَادِ يُنْجِيْهَا

تَقَدَّمَ ٱلنَّاسَ غَازِيْ ٱلْكَافِرِيْنَ إِمَا مُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ بِحَوْلِ ٱللَّهِ يُخْطِيْهَا

وَحَوْلَهُ حَسَنَاهُ مَعْ مُحَمَّدِهِ كَوَاكِبٌ نُوْرُهُ ٱلْوَهَّاجُ يُسْنِيْهَا

وَفِيْ ٱلطَّرِيْقِ تَلَقَّى عَنْ رَعِيَّتِهِ أَنْبَاءَ عَادِلِهَا ٱلتَّاقِيْ وَبَاغِيْهَا

وَعَنْ مَمَالِكِهِ أَنْبَاءَ خَاضِعِهَا إِلَى خِلَافَتِهِ ٱلْكُبْرَى وَعَاصِيْهَا

كَانَتْ بِهَا ٱلرُّسُلُ تَأْتِيْهِ مُتَابَعَةً فِيْ كُلِّ مَرْحَلَةٍ بِٱلْيُمْنِ يَطْوِيْهَا

وَقَابَلَتْهُ وُفُوْدُ ٱلْعُرْبِ طَالِبَةً مِنْهُ إِلَى حَيْثُ يَبْغِيْ أَنْ يُمَاشِيْهَا

وَلَوْ يَشَا سَاقَ مِنْهَا تَحْتَ أُمْرَتِهِ ٱلْـ ـصُّفُوْفَ يَمْلَا بِهَا تِلْكَ ٱلْأَتَاوِيْهَا

لٰكِنْ أَبَى وَهْوَ خَاشٍ مِنْ تَنَافُرِهَا أَنْ يَسْتَعِيْنَ بِبَادِيْهَا وَقَارِيْهَا

فَكَانَ يُرْجِعُهَا عَنْهُ وَيُثْنِيْ عَلَى إِطَاعَةٍ لِوَلِيِّ ٱلْأَمْرِ تُسْدِيْهَا

وَمَعْهُ أَصْحَابُهُ كَانَتْ كِفَايَتُهُ وَكَانَ فِيْ نَفْسِهِ ٱلْكُبْرَى يُوَازِيْهَا

وَهَلْ أَبُوْ حَسَنٍ فِيْ ٱلْحَرْبِ يَنْتَظِرُ ٱلْأَ صْحَابَ فِيْ ٱلنَّصْرِ إِنْ ثَارَتْ لَوَاظِيْهَا

وَهَلْ إِذَا ٱشْتَبَكَتْ فِيْهَا ٱلرِّجَالُ وَحَـ ـقَّ ٱلْقَتْلُ وَٱلضَّرْبُ إِلَّاهُ مُجَلِّيْهَا

وَلَمْ يَزَلْ ضَارِبَاً فِيْ ٱلْبِيْدِ يَقْطَعُهَا وَخَيْلُهُ يَمْلَأُ ٱلآفَاقَ مَهْبِيْهَا

حَتَّى بِالَى ٱلرَّبْذَةِ ٱلرَّكْبُ ٱنْتَهَتْ فَثَوَتْ فِيْ ظِلِّ حَيْدَرَةِ ٱلْغَازِيْ ضَوَاحِيْهَا

وَلَمْ تَـكُ ٱلْبَصْرَةُ ٱلْغَنَّا لَتَبْعُـدُ عَنْـــهَا غَيْـرَ بِضْعَـةِ أَمْيَـالٍ لِمَـاشِيْهَـا

مدد الكوفيين لأمير المؤمنين

لَمَّـا ٱسْتَقَـرَّ إِمَـامُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ بِـرَبْـــذَةٍ وَأَنْصَـارُهُ قَـدْ خَيَّمَتْ فِيْهَـا[١]

رَأَى بَـدَاءَةَ ذِيْ بَـدْءٍ مُخَـاطَبَـةَ ٱلْأَ م صْحَابِ فِيْ ٱلْكُوْفَةِ ٱلزَّهْـرَا بِنَادِيْهَا

أَوْفَى لَهَـا رُسْلَهُ كَيْمَـا تُخَبِّـرُهَـا عَنْ حُسْنِ رَغْبَتِـهِ حَتَّى تُمَـالِيْهَـا

---

(١) عندما نزل سيدنـا علي عليه السلام في الربـذة وبلغه مـا فعل أصحـاب الجمل في البصرة من اعتدائهم على الناس ودخولهم البلد محـاربين رأى بداءة ذي بـدءٍ أن يستنفر إليه أهل الكوفة وهم مخلصون له مطيعون خـلافته مبـايعون فكتب إليهم الكتـاب التالي « من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة ، جبهة الأنصار ، وسنام العـرب ، أمّا بعد ، فإنّي أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعـه كعيانـه ، انَّ الناس طعنـوا عليه ، فكنت رجـلًا من المهاجـرين أكثر استعتـابه ، وأقـلُّ عتابـه ، وكان طلحـة والزبيـر أهون سيرهما فيه الوجيف ، وأرفق حدائهما العنيف ، وكان من عائشة فيه فلتة عتب ، أتيح له قوم قتلوه ، وبايعني الناس غير مكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين ، واعلموا أنَّ دار الهجـرة قلعت بأهلهـا وقلعوا بهـا ، وجاشت جيش المـرجـل ، وقـامت الفتنـة على القـطب ، فحسبي بكم إخوانـاً ، وللدين أنصاراً ، فـانفروا خفـافـاً وثقـالاً ، وجـاهـدوا بـأموالكم وأنفسكم في سبيـل الله لعلّكم تفلحـون » اهـ وكتب عليه السلام إلى أبي مـوسى الأشعري » وكان قد تولى إمارة الكوفة في آخر أيام عثمان بطلب الكوفيين وأقـرّه سيدنـا علي على أمارتها لقـول الأشتر لـه إنّ الناس فيهـا تريـده » الكتـاب التـالي « من عبد الله علي أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس ، أمّـا بعد فقـد بعثت إليك هـاشم بن عتبة ، لتشخص إليَّ من قبلك من المسلمين ، ليتوجهوا إلى قوم نكثوا بيعتي ، وقتلوا شيعتي ، وأحـدثوا في الإسـلام هذا الحـدث العـظيم ، فـأشخص بـالنـاس إليَّ معـه حين يقـدم عليك ، فإنّي لم أوّلك المصر الذي أنت فيه ، ولم أقـرّك عليه ، إلاّ لتكـون من أعواني على الحقّ وأنصاري على هذا الأمر والسلام » اهـ .

نقـول أرسل سيـدنا علي عليه السلام هـذين الكتـابين إلى أبي مـوسى الأشعـري وأهـل الكوفة مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهـو لا يشكُّ أنَّ أبـا موسى سينهض إلى تلبيتـه بالطاعة الواجبة له عليه السلام كخليفة المسلمين وكربيب المصطفى وابن عمّه وصهـره أمّا أبـو =

كَـذَاكَ أَوْفَـى بِـلاَ بِطْءٍ أَوَامِـرَهُ   إِلَى آبْنِ قَيْسٍ أَبِي مُـوْسَى لِيُمْضِيْهَا

=موسى فلم يكن عند ظنّ سيدنا علي فحبس الكتاب الذي كتبه للكوفيين وأخشن الجواب لهاشم قائلاً : إذا كان يريد عليٌّ الصلح فأنا معه وإذا كان يريد الحرب فأنا مخالفه وأنَّ بيعة عثمان هي في عنق علي وعنقي فلنبدأ أولاً بقتلة عثمان ثمَّ ننظر في غيره وإذ ألحف عليه تهدده بالسجن والقتل وهكذا أظهر أبو موسى ابتعاده عن نصرة الإمام ورغبته بمشاكسته فكتب هاشمٍ إلى سيدنا أمير المؤمنين يقول : « إنّي قدمت بكتابك على امرىءٍ مشاقّ ، بعيد الردّ ، ظاهر الغلّ والشنآن ، فتهددني بالسجن ، وخوفني بالقتل » فلما انتهى جواب هاشم إلى سيدنا علي لام الأشتر الذي كان قد أشار عليه بالإبقاء على أبي موسى أميراً للكوفة وبعث إلى الكوفة ابنه الحسن عليه السلام ومعه عمار بن ياسر وزيد بن صوحان وقيس بن سعد بن عبادة وأمرهم أن يعزلوا أبا موسى عن أمارة الكوفة وصحبهم إلى الكوفيين بالكتاب التاليَ « من عبد الله علي أمير المؤمنين ، إلى من بالكوفة من المسلمين ، أمّا بعد فإنّي خرجت مخرجي هذا ، إمّا ظالماً وإمّا مظلوماً ، وإمّا باغياً وإمّا مبغياً عليَّ ، فانشد الله رجلاً بلغه كتابي هذا إلاّ نفر إليَّ ، فإن كنت مظلوماً أعانني ، وإن كنت ظالماً استعتبني ، والسلام » اهـ .

ولما بلغ سيدنا الحسن عليه السلام بأصحابه الكوفة دعوا الناس إلى المسجد فحضروا وفيهم أبو موسى الأشعري أميرهم فعلا المنبر سيدنا الحسن خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أيّها الناس إنّا جئناكم ندعوكم إلى الله ، وإلى كتابه وسنّة رسوله ، وإلى أفقه من تفقه من المسلمين ، وأعدل من تعدلون ، وأفضل من تفضلون ، وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ، ولم تجهله السنة ، ولم تقصد به السابقة ، إلى من قربه الله ورسوله قرابتين ، قرابة الدين ، وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى كل مأثرة ، إلى من أعان الله به رسوله والناس متخاذلون ، فقرب منه وهم متباعدون ، وصلّى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم محجمون ، وصدقه وهم يكذبون ، إلى من لم ترد له ولا تكافأ له سابقة ، وهو يسألكم النصر ، ويدعوكم إلى الحق ، ويأمركم بالمسير إليه لتوازروه وتنصروه على قوم نكثوا راية بيعته ، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ، ومثلوا بعمّاله ، وانتهبوا بيت ماله ، فاشخصوا إليه رحمكم الله ، فمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون » وبعد هذا الخطاب تلا عليهم كتاب سيدنا علي عليه السلام فكان للكتاب والخطاب تأثيرهما في نفوس =

وَكَـانَ مِنْ عَهْـدِ عُثْمَـانٍ أَوَاخِـرِهِ   كَمَـا أَبُـوْ حَسَـنٍ أَبْقَـاهُ وَالِـيْهَـا

= الناس مما لم يخف على أبي موسى فعلا المنبر خطيباً فقال : « الحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ، فجمعنا بعد الفرقة ، وجعلنا إخواناً متحابين بعد العداوة ، وحرَّم علينا دماءنا وأموالنا ، قال الله سبحانه : ﴿ **لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها** ﴾ فاتّقوا الله عباد الله ، وضعوا أسلحتكم ، وكفوا عن قتال إخوانكم ، أمّا بعد يا أهل الكوفة ، إن تطيعوا الله بادئاً وتطيعوني ثانياً ، تكونوا جرثومة من جراثيم العرب ، يأوي إليكم المضطرّ ، ويأمن فيكم الخائف ، إنّ علياً إنّما يستنفركم لجهاد أمّكم عائشة وطلحة والزبير حواري رسول الله ومن معهم من المسلمين ، وأنا أعلم بهذه الفتن ، إنّها إذا أقبلت شبهت ، وإذا أدبرت أسفرت ، إنّي أخاف عليكم أن يلتقي غاران منكم فيقتتلا ، ثمَّ يتركا كالأحلاس الملقاة بنجوة من الأرض ، ثمَّ يبقى رجرجة من الناس ، لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، إنّها قد جاءتكم فتنة كافرة لا يدري من أين تؤتى ، تترك الحليم حيراناً ، كأنّي أسمع رسول الله يذكر الفتن فيقول : أنت فيها نائماً خيرٌ منك قاعداً ، وأنت فيها جالساً خيرٌ منك قائماً ، وأنت فيها قائماً خيرٌ منك ساعياً ، فثلّموا سيوفكم ، وقصّفوا رماحكم ، وانصلوا سهامكم ، وقطّعوا أوتاركم ، وخلوا قريشاً ترتق فتقها ، وترأب صدعها ، فإن فعلت فلأنفسها ما فعلت ، وإن أبت فعلى أنفسها ما جنت ، سمها في أديمها ، استنصحوني ولا تستغشوني ، وأطيعوني ولا تعصوني ، يتبين لكم رشدكم ، وتصلى هذه الفتنة من جناها » اهـ .

قال الراوي: كان أبو موسى يخطب في الناس وهم ينظرون إليه شزراً ولولا الذي رأوه من رصانة وسعة صدر سيدنا الحسن وعمّار بن ياسر لمزقوه إرباً لأنّهم لم يكونوا يوماً راضين عن عمّال عثمان وقد عرفت كيف أكرهوه على عزل عامله عليهم سعيد بن العاص كما رأيت ثوارهم في المدينة يشتركون بالثورة ضد عثمان مع المصريين والبصريين . وما كاد ينتهي من خطابه حتى ابتدره سيدنا الحسن بآدابه العالية الخليقة بمن يكون جدّه المصطفى وأباه المرتضى وأمّه فاطمة الزهراء عليهم الصلاة والسلام وقال لأبي موسى « علامَ يا عمّ تثبط الناس عنّا فوالله لا نريد إلّا الإصلاح وما مثل أمير المؤمنين يخاف منه على شيء » قال أبو موسى صدقت بأبي وأمي ولكن المستشار مؤتمن وإنّي أوردت ما سمعته عن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عن الفتنة . فغضب عمّار وقال أيّها =

= الناس إنّما قال رسول الله ذلك لأبي موسى خاصةً . فاعترضه رجل من تميم وتقدم أناس فانتصروا لعمّار وطفق أبو موسى يكفّ الناس عن الفتنة وبينما هم لكذلك وإذا برسول يحمل كتابين من عائشة أحدهما لأبي موسى خاصةً والثاني لأهل الكوفة فقرأهما على الناس فإذا بهما تطلب من الكوفيين وأميرهم أن يقعدوا عن نصرة علي إذا لم يرغبوا بالنهوض معها لمطالبته بدم عثمان فقال زيد بن صوحان وكان من أصحاب عليٍ : انظروا أيّها الناس إلى هذه المرأة أمرت أن تقرَّ في بيتها وأمرنا نحن أن نقاتل حتى لا تكون فتنة فأمرتنا بما أمرت به وركبت ما أمرنا به . فاعترضه رجل يدعى شيث بن ربعي قائلاً : وما أنت وذاك أيّها العماني الأحمق سرقت أمس بجلولاء فقطعك الله وتسب أمّ المؤمنين ؟ فمد زيد يده المقطوعة إلى أبي موسى وقال : أترد الفرات عن أمواجه دع عنك ما لست تدركه ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **آلَمَ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا** ﴾ ثمَّ أمال وجهه إلى الناس وقال : سيروا إلى أمير المؤمنين وصراط سيد المرسلين وانفروا أجمعين . وتلا زيداً سيدنا الحسن عليه السلام فصاح : أيّها الناس ، أجيبوا دعوة إمامكم ، وسيروا إلى اخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لئن يليه أولو النهي ، أمثل في الآجلة ، وخير في العاقبة ، فأجيبوا دعوتنا ، وأعينونا على أمرنا ، أحلمكم الله » وما كاد سيدنا الحسن ينتهي من دعوته حتى نهض عبد خير فقال : يا أبا موسى أخبرني عن هذين الرجلين (ويريد طلحة والزبير) ألم يبايعا عليّاً ؟ قال : بلى قال : أفأحدث عليّ حدثاً يحلُّ به نقض بيعته ؟ قال أبو موسى لا أدري . قال : لا دريت ولا أتيت إذا كنت لا تدري فنحن تاركوك حتى تدري . ثمَّ مال إلى الناس وقال : هلمّوا إلى أمير المؤمنين فهناك الناس يطلبون نصرة الحق على الباطل وهكذا كان الإجماع ضد أبي موسى فنزل عن المنبر وخفَّ إلى بيته مخذولاً .

وأرسل سيدنا الحسن رسولاً إلى سيدنا علي على المصطفى وعليهما الصلاة والسلام ينبئه عمّا كان من أبي موسى فنادى الأشتر وكان بصحبته وقال له : أنت شفعت في أبي موسى أن أقرّه على الكوفة فاذهب فأصلح ما أفسدت فأسرع الأشتر إلى الكوفة ووصلها بأسرع ما يمكن وجعل يمرّ بالناس ويقول اتبعوني إلى القصر فيتبعونه حتى إذا ما انتهى إلى قصر الأمارة دخل على أبي موسى وقال له : اخرج من قصرنا لا أمّ لك اخرج الله نفسك فوالله إنّك لمن المنافقين قديماً . فاصفرَّ وجه أبي موسى وسأله أن يمهله عشية ذلك اليوم فأمهله على أن لا يبيت بعدها في قصر الأمارة . وحاول =

وَقَالَ: بَيْعَةُ عُثْمَانٍ لَفِيْ عُنقِ آلْـــعَلِيِّ مَا بَالُهُ قَدْ رَاحَ نَاسِيْهَا

وَإِنَّنِي لَسْتُ مِطْوَاعَاً لِرَغْبَتِهِ وَلاَ بِكُوْفَتِنَا نَاسٌ تُوَخِّيْهَا

لَكِنْ إذَا كَانَ يَبْغِي آلصُّلْحَ يَنْشُدُهُ فَآلنَّاسُ مَعْهُ وَإِنِّي فِي أَوَالِيْهَا

كَذَاكَ رَدَّ سُعَاةَ آلْمُرْتَضَى بِخُشُوْ نَةٍ فَعَادَتْ بِلاَ جَدْوَى لِمُوْفِيْهَا

فَأَوْفَدَ آلْمُرْتَضَى مِنْ بَعْدِهَا حَسَنَاً بِسُلْطَةٍ مَا أَبُوْ مُوْسَى يُنَاوِيْهَا

فَسَارَ وَآسْتَنْفَرَ آلأَصْحَابَ مُعْتَمِدَاً عَلى نُفُوْذِ أَبِيْهِ فِيْ تَجَمِّيْهَا

وَأَجْلَبَ آلرَّجْلَ مِنْ أَهْلِ آلْبَدَاوَةِ وَآلْـ ـقِرَى وَأَبْعَدَ مَنْ كَانُوْا مُعِيْقِيْهَا

وَعَنْ إمَارَتِهَا نَحَّى آلأَمِيْرَ أَبَا مُوْسَى وَأَقْصَاهُ عَنْ سُكْنَى مَثَاوِيْهَا

وَكَانَ سُكَّانُهَا أَنْصَارَ بَيْعَةِ مَوْ لاَنَا أَبِي حَسَنٍ آلسَّامِيْ مُرِيْدِيْهَا

سَارَتْ جُمُوْعَاً تُنَادِيْ بِآسْمِ حَيْدَرَةٍ عَلى خُطَى حَسَنِ آلْقَدَّامِ مُخْطِيْهَا

وَقَبْلَمَا وَصَلَتْ أَنْبَا آلْوَصِيُّ بِمَا تَعُدُّ كَانَتْ كَمَا أَنْبَا لِمُحْصِيْهَا

وَقَابَلَتْهُ بِذِيْ قَارٍ وَكَانَ مَضَى بِصَحْبِهِ نَحْوَهَا أَثْوَوْا صَيَاصِيْهَا

فَآسْتَقْبَلَ آلْقَوْمَ بِآلتَّرْحَابِ حَيْدَرَةٌ وَرَاحَ يُطْرِيْ وَقَدْ لَبَّتْ تَدَاعِيْهَا

= الكوفيون أن يقتحموا القصر وينتهبوا ما فيه من متاع أبي موسى فمنعهم وقال إنّي قد أخرجته وعزلته عنكم وهذا حسبنا وحسبكم فكفَّ الناس عنه .

وفي اليوم التالي أعلن الأشتر دعوة الجهاد تحت راية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فسار بهم سيدنا الحسن وعمّار بن ياسر إلى « ذي قار » حيث كان يثوي جيش سيدنا علي وكان عليه السلام أنبأ أصحابه قائلاً : سيأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل فكان كما قال لهم وبلغ عدد الكوفيين الذين انجدوا الخليفة هذا العدد بتمامه كأنّه كان محصيهم وما هذه هي المرة الأولى التي أنبأت بها سيدنا علي عليه السلام بما سيكون وصدق .

فَقَالَ : أَهْلاً بِكُمْ أَبْنَاءَ كُوْفَةَ فِيْـكُمْ نَصْرَةُ ٱلدِّيْنِ أَنَّى آضَ يَبْغِيْهَا
قَاتَلْتُمُ قَوْمَ كِسْرَى وَٱنْتَصَرْتُمُ فِيْ قِتَالِهَا وَغَنِمْتُمْ مَا بِأَيْدِيْهَا
مَنَعْتُمُ بِٱسْمِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ حَوْزَتَكُمْ أَعَنْتُمُ ٱلنَّاسَ فِيْ مَلْقَى أَعَادِيْهَا
وَقَدْ دَعَوْتُكُمُ دَعْوَى لِأُشْهِدَكُمْ مَعْنَا ٱلْأُلَى ٱلْبَصْرَةُ ٱلْغَنَّاءُ تَأْوِيْهَا
فَإِنْ رَأَيْتُمُ مِنْهَا ٱلْإِنْصِيَاعَ فَذَا تَٱللَّهِ بُغْيَتُنَا ٱلْكُبْرَى نُرَجِّيْهَا
وَإِنْ تَلُجَّ فَبِٱلْحُسْنَى تُعَالِجُ أَمْـرَاضاً شَكَتْ وَبَكَتْ مِنْهَا لِنُشْفِيْهَا
وَإِنْ هِيَ ٱبْتَدَأَتْ بِٱلظُّلْمِ نَدْفَعُهَا بِمِثْلِهِ وَإِذَا أَرْغَتْ نُرَاشِيْهَا
وَلَسْتُ أَتْرُكُ مَا فِيْهِ ٱلصَّلَاحُ وَلَا أَرْضَى ٱلْمَفَاسِدَ مَا رَاحُوْا مُعِيْثِيْهَا
بِذَا أَبُوْ حَسَنٍ عَنْ كُنْهِ رَحْلَتِهِ أَمَاطَ كُلَّ لِثَامٍ قَدْ يُغَشِّيْهَا
إِذَا بِهِ لَا يُرِيْدُ ٱلْإِعْتِدَاءَ عَلَىٰ ٱلْـعَاصِيْنَ لٰكِنَّهُ وَافَى يُرَبِّيْهَا

مقابلة أمير المؤمنين لطلحة والزبير

وَجَدَّتِ ٱلصُّلَحَا فِيْ ٱلصُّلْحِ تُنْشِدُهُ لِلْمُسْلِمِيْنَ فَلَمْ تَنْجَحْ مَسَاعِيْهَا[1]
كَانَتْ تَرَى عِنْدَ مَوْلَانَا أَبِيْ حَسَنٍ سَمَاحَةً وَلَدَى أَعْدَائِهِ تِيْهَا

---

(١) لم يكن سيدنا علي عليه السلام في خروجه إلى البصرة يريد البطش والانتقام ولكن التأديب وإعادة النظام ولذلك كان يتأنى كثيراً في قتال أصحاب الجمل ويتمنى لو توفق إلى حلّ مشكلتهم من غير أن يلجأ إلى تحكيم السيف وكان كثيرون من رؤساء المسلمين والعلماء على مثل نيته الطاهرة فاجتهدوا في صرف المشكلة بإقناع عائشة بالعودة إلى خدرها وترك السياسة والحرب للرجال وإقناع طلحة والزبير بالرجوع عمّا أقدما عليه ولا سيما أنّ بيعة سيدنا علي في عنقيهما فلم يفلحوا ومن هؤلاء من أقبلوا بعشائرهم على سيدنا علي ينصرونه ومنهم من ضربوا في الفلوات الشاسعة ابتعاداً عن فتنة شجرت بين المسلمين وما استحلوها .

وإذ أعيت الحيل سيدنا علي عليه السلام ولم يبق في قوس اصطباره منزع سار أصحابه =

حَتَّى إِذَا يَئِسَتْ مِنْ مَنْـعِ أُمَّــةِ طَــــهَ مِنْ مَــوَاقِفِ شَــرٍّ كَــانَ آتِـيْهَــا

= من ذي قار يريـد البصرة وعلم أصحـاب الجمل بمقـدمه فخـرجوا إلى لقـائه وعسكـروا حيال البصرة ولم يبق إلّا أن يشتبك الجيشان ويحكم السيف في هذا الخلاف .

وأراد سيدنا علي عليه السلام بدافع حميته الدينية وغيرتـه الإسلاميـة أن يرمي آخـر سهم في كنـانته في سبيـل الصلح فركب جـواده وهو أعـزل من السلاح وانـطلق نحو معسكـر أصحاب الجمل أمّا أصحابه فدهشوا لمسيره نحو أعدائـه على هذه الحـال وهم يعلمون أن أقصى ما يتمنونه قتله وحاولوا أن يرجعوه عن رغبته فما استطاعوا لذلـك سبيلاً . أمّـا أصحاب الجمل فعندما رأوا علياً مقبلاً عليهم تهيبوه وفرقوا لمقدمه وهم لا يجهلون مبلغ شجـاعة أبي الحسنين عليه السلام حتى إذا مـا دنا منهم وصـار صوتـه مسموعـاً من معسكرهم نادى الزبير وطلحة أن يقبلا إليه فما امتنعا عن تلبيته وبادر وهما مدججان بالسـلاح على جواديهما حتى إذا ما دنوا منـه صاح بهم قـائلاً لقـد أعددتمـا للحرب عـدتها ولكن هـل أعددتما لها عذراً تعتذران به عند الله ؟ وهل أتيت ذنباً أو أحدثت حدثاً أحـلَّ دمي ؟ أما قال الله في كتابه العزيز ﴿ **إنّما المؤمنون إخوة** ﴾ فعلامَ تثيران هذه الفتنة ؟ فقـال طلحة بلا خشية ولا وجل إننا جئنا نطالبك بدم عثمان فنظر إليه سيدنا علي بن أبي طالب بعين العاتب هل أنت يا طلحة تطالب بدم عثمان وهو لا يعدوك قال بـل دم عثمان في عنقـك ما دمت تحمي قتلته فقال ويلك أأتيت بعرس رسول الله عدة حـرب وتركت عـرسك في بيتهـا ؟ أما بـايعتني يا طلحـة علناً !؟ فقـال طلحة قـد كان ذلـك والسيوف مشهـرة على عنقي . فعرف سيدنا علي من حديث طلحة أنّه لا يرعوي عن غيـه فتركـه وأرسل نـظرةً صادقة إلى الزبير وقال : إنّما دعوتك لأذكرك حديثاً قاله لي ولك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلّك نـاسيه . قـال قل لعلّي أذكـره . قال علي أتـذكر يـوم رآك رسول الله معتنقي فقـال لـك أتحبه ؟ قلت وما لي لا أحبّه وهو أخي وابن خالي ؟ فقال أما أنّك ستحاربه وأنت ظـالم له . فأطرق الزبير هنيهة كمن يفكر ثمّ حوقل واسترجع وقال : أذكرتني يا أبـا الحسن ما أنسانيه الـدهر وقـد ندمت على مـا فعلت فوالله لا أحـارب قوماً أنت تحميهم قال هـذا الزبير وثنى عنان جواده راجعاً إلى معسكر أصحاب الجمل وهو نادم تـائب وتبعه طلحـة وهو يحرق الأرم على سيدنا علي بعد الذي رأى من نـدم صاحبـه الزبيـر . ولما وصـلا إلى معسكر الجمل لقيهما زعماء القـوم يستخبران منهمـا خبر علي فقـال طلحة إنّـه فتن صاحبكم وقال الزبير على البداهة : =

لَاذَتْ بِحَيْدَرَةٍ حَامِيْ ٱلْحِمَى فِئَةٌ   مِنْهَا وَأُخْرَى تَوَلَّتْ فِيْ بَرَارِيْهَا
وَأَسْرَعَتْ لِلْوَغَى جِنْدُ ٱلْخِلَافَةِ قُبْـ   ـلَ ٱلْبَصْرَةِ ٱلْمُبْتَلِيْ بِٱلشَّرِّ ثَاوِيْهَا
وَخَيَّمَتْ بِإِذَاءِ ٱلْمُعْتَدِيْنَ لِـرَ   مِ دِّ ٱلْكَيْدِ قَهْراً وَأَثْوَتْ فِيْ ضَوَاحِيْهَا
وَأَشْفَقَ ٱلْمُرْتَضَى أَنْ يُهْرِقَنَّ دِمَا   ءَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ بِلَا عِذْرٍ وَيُمْنِيْهَا
فَرَاسَلَ ٱلنَّاسَ يَدْعُوْهَا لِطَاعَتِهِ   بِٱسْمِ ٱلْكِتَابِ وَبِٱلنُّعْمَى يُمَنِّيْهَا
فَمَا ٱرْعَوَتْ وَعَلَى ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي رَغِبَتْ   فِيْهِ أَصَرَّتْ وَظَلَّتْ فِيْ تَرَغِّيْهَا
وَلَا تَعَجَّلَهَا بِٱلْحَرْبِ حَيْدَرَةٌ   بِحُلْمِهِ بَلْ أَنَّى يَبْغِيْ تَلَافِيْهَا
وَبَادَرَ ٱلْقَوْمَ فَرْدَاً أَعْزَلاً وَصِحَا   بُهُ بِفِعْلَتِهِ تُبْدِيْ تَحَزِّيْهَا
وَكَانَ يَسْعَى بِهِ رَكْضَاً مُطَهَّمُهُ   بِطَلْبَةٍ تَحْمُدُ ٱلدُّنْيَا مُوَخِّيْهَا
حَتَّى إِذَا مَا دَنَا مِنْ مَبْرَكِ ٱلْجَمَلِ ٱلَّـ   ـذِيْ ٱلْعِدَاةُ حَوَالَيْهِ تَجَمِّيْهَا

= نادى عليٌّ بأمرٍ لست أنكره   وكان عمرو أبيك الخير مذ حين
فقلت حسبك من عذلٍ أبا حسنٍ   بعض الذي قلتَ منذ اليوم يكفيني
ترك الأمور التي تخشى مغبتها   والله أمثل في الدنيا وفي الدين
فاخترتُ عاراً على نارٍ مؤجَّجةٍ   أنَّى يقوم لها خلقٌ من الطين

فاصفرَّت وجوه القوم وعلموا أنّ الزبير قد ندم على ما فعل ولم يعد على رأيهم في محاربة سيدنا أمير المؤمنين وأخذوا يضربون أخماساً لأسداس لتلافي هذا الخطر الذي فوجئوا به .

أمّا سيدنا علي عليه السلام فقد عاد إلى أصحابه وهو مسرورٌ منشرح الصدر فقالوا له يا أمير المؤمنين تبرز إلى طلحة والزبير حاسراً وهما شاكا السلاح وأنت تعرف مبلغ حقدهما عليك ؟ فتبسّم عليه السلام وقال : « إنّهما ليسا بقاتليَّ ، إنّما يقتلني رجلٌ خامل الذكر ، ضئيل النسب ، غيلةً ، في غير ما حرب ، ولا معركة رجل ، ويل أمّه إنّه أشقى البشر ، ليودنَّ أنَّ أمّه هبلت به ، أمّا أنّه وأحمر ثمود لمقرونان في قرنٍ » .

نَـادَى آلـزُّبَيْـرَ وَنَـادَى طَلْحَـةً عَلَنَـاً أَنْ أَقْبِلاَ حَسْبُ أَهْلِ آلدِّيْنِ نُغْوِيْهَـا

فَـأَقْبَـلاَ وَلِكُـلٍّ مِنْهُـمَـا طَمَـعٌ أَعْمَى بَصِيْـرَتَـهُ عَمَّـا يُـدَانِيْـهَـا

وَقَـدْ تَـدَرَّعَ وَآشْتَـكَّ آلسِّـلاَحَ وَوَا م فَـاهُ بِشِـدَّتِـهِ مَـا كَـانَ مُكْمِيْهَـا

مَـا سَلَّمَا عِنْـدَ مَا مِنْ جَاهِـهِ دَنَـوَا وَلاَ عُيُـونُهُـمَـا هَـابَتْ مُـلاَقِيْهَـا

أَمَّـا آلإِمَـامُ فَعَيْنُ آلْعَتْبِ أَرْسَـلَ مِنْـــهَا نَظْرَةً ذُوْ آلْحِجَى يَدْرِيْ مَعَانِيْهَا

وَقَـالَ : أَعْدَدْتُمَـا لِلْحَـرْبِ عِـدَّتَهَـا يَـا صَـاحِبَيَّ عَلَىٰ بَـادِيْ مَسَـاوِيْهَـا

فَهَـلْ لِـرَبِّكُمَـا أَعْـدَدْتُمَـا حُجَجَـاً لِعُصْبَـةٍ سُقْتُمَـاهَـا قَـدْ تُبَـرِّيْهَـا

أَمَـا آلشَّـرِيْعَـةُ آخَتْ بَيْنَ أُمَّتِنَـا أَمَـا حَـرِيٌّ بِنَـا نَـرْعَى تَـآخِيْهَـا

أَمَا خَلِيْقٌ بِنَـا تَحْـرِيمُ سَفْـكِ دِمَـا ءِ آلْمُسْلِمِينَ وَنَكْفِيْـهُمْ مُـرِيْـقِيْـهَـا

بِـآللَّهِ هَـلْ حَـدَثٌ مِنِّيْ أَحَـلَّ دَمِيْ أَمِ آلْمَحَـارِمُ قَـدْ بِـتُّمْ مُـحِلِّيْـهَـا

فَقَـالَ طَلْحَـةُ : أَلَّبْتَ آلْعُصَـاةَ عَلَىٰ عُثْمَـانَ لَـوْلاَكَ لَمْ يَفْقُمْ تَعَصِّيْهَـا

وَثَـأْرُهُ مِنْـكَ نَحْنُ آلْيَـوْمَ نَـطْلُبُـهُ مَـا دِمْتَ تَـأْوِيْ أَعَـادِيْـهِ وَتَحْمِيْهَـا

فَقَهْقَـهَ آلْمُـرْتَضَى سُخْـرَاً بِقَـوْلَتِـهِ وَقَالَ : شَوَّهْتَ صَاحِ آلْحَقَّ تَشْوِيْهَا

هَلْ أَنْتَ يَا طَلْحُ قَدْ وَافَيْتَ تَطْلُبُ ثَا رَاتِ آبْنِ عَفَّـانَ تَسْتَقْضِيْ مُـدِيْنِيْهَـا

فَلَعْنَـةُ آللَّهِ تَغْشَى قَـاتِـلِيْـهِ وَأَخْـــشَى أَنْ يَنَـالَكَ قِسْطٌ مِنْ غَـوَاشِيْهَا

يَا طَلْحُ قَدْ جِئْتَنَا مُكْرَاً بِعِـرْسِ رَسُوْ لِ آللَّهِ عِـدَّةَ حَرْبٍ رُحْتَ شَـاكِيْهَـا

وَجُزْتَ عِرْسَـكَ فِيْ صَافِيْ مَنَـازِلِهَا أَمِيْـنَـةً تَـتَـهَـنَّـا فِـيْ تَـظَلِّيْـهَـا

يَـا طَلْحُ قُـلْ لِيْ أَمَـا بَـايَعْتَنِيْ فَعَلَى مَ تَنْكُثُ آلْبَيْعَـةَ آلْمَحْمُـوْدُ مُعْطِيْهَـا

فَقَـالَ طَلْحَـةُ لاَ خَـاشٍ وَلاَ خَجِـلٌ مَقَـالَـةً قَـدْ أَسَـا مُسْتَعْـذِرَاً فِيْهَـا

بَـايَعْتُكَ آلأَمْسَ وَآلأَسْيَـافُ مُشْهَـرَةٌ مَـا فَـوْقَ رَأْسِيَ مِنْ أَيْـدِيْ مُبَيْعِيْهَـا

وَإِذْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى أَنَّ ٱلنَّصِيْحَةَ مَعْـــهُ غَيْرَ مُجْدِيَـةٍ نَفْعَاً لِمُسْـدِيْهَا

أَمَـالَ أَلْحَـاظَـهُ عَنْـهُ وَسَـدَّدَهَـا إِلَى آلـزُّبَيْـرِ فَلَمْ تُخْـطِىءْ مَرَامِيْهَـا

وَقَـالَ : إِنَّ مَـرَدَّ ٱلنَّـاسِ أَجْمَعِهَـا إِلَى ٱلْإِلَـهِ آلَّـذِي يَـدْرِي خَـوَافِيْهَـا

وَهْـوَ آلَّـذِي يَتَـوَلَّى أَمْـرَهَـا نَصَفَـاً عَلَى صَنَـائِعِهَـا آلشَّتَّى يُكَـافِيْهَـا

وَسَـوْفَ تَعْلَمُ أَنَّ آللَّهَ مُسْعِـدُهَـا إِنْ أَحْسَنَتْ وَإِذَا أَخْـطَتْ فَمُشْقِيْهَا

وَقَـدْ دَعَوْتُـكَ هَذَا ٱلْيَـوْمَ أُذْكِرُكَ آلْـــمَاضِيْ فَقَدْ تَحْسُنُ آلذِّكْرَى لِنَاسِيْهَا

مَقَـالَـةُ ٱلْمُصْـطَفَى إِذْ قَـالَهَـا لِكُلَيْـــنَا هَلْ لَبِثْتَ نَـظِيْرِي صَـاحِ وَاعِيْهَا

فَقَـالَ : كَـلَّا فَقُلْهَـا عَـلَّ أَذْكُـرُهَـا قَـالَ ٱلْعَلِيُّ : أَصِخْ سَمْعَاً لِأَرْوِيْهَا

فِيْ ذَاتِ يَـوْمٍ لَقَـدْ أَلْفَـاكَ مُعْتَنِقِيْ عِنَـاقَ ذِيْ مِقَـةٍ يَهْـوَى تَبَقِّيْـهَـا

فَقَالَ : هَلْ أَنْتَ تَهْوَى صَاحِبِيْ وَأَخِيْ وَهَـلْ حُقُـوقُ وَلَاهُ أَنْتَ مُـوْفِيْهَـا

فَقُلْتَ : مَا لِيَ لَا أَهْـوَاهُ وَهْـوَ أَخِيْ هُـوَ آبْنُ خَـالِيَ قُـرْبَـاهُ أُهَـاوِيْهَا

نَـادَى : فَـإِنَّـكَ قَـالِيْـهِ وَظَـالِمُـهُ غَـدَاً وَمَـا زَادَ عَمَّـا قَـالَ تَنْبِيْهَـا

وَمَا آنْتَهَى آلْمُرْتَضَى مِنْ سَرْدِ قِصَّتِهِ عَلَى آلزُّبَيْرِ آلَّذِي قَدْ كَـانَ صَاغِيْهَا

حَتَّى آرْعَوَى مُرْجِعَاً يُؤْذِيْ أَصَابِعَهُ مِنَ آلنَّـدَامَةِ تَعْضِيْضَـاً وَيُـدْمِيْهَـا

يَقُـولُ : أَذْكَرْتَنِي مَـا آلدَّهْـرُ صَرَّفَـهُ عَنْ فِكْرَتِيْ يَا وَصِيَّ آلْمُصْطَفَى إِيْهَا

قَـدِ آرْعَـوَيْتَ فَـوَآللَّهِ آلْعَظِيْمِ يَمِيْـــنَاً لَا أُحَارِبُ قَـوْمَاً أَنْتَ حَـامِيْهَـا

وَعَـادَ أَدْرَاجَـهُ يَبْغِـيْ جَمَـاعَتَـهُ لِكَيْ بِتَـوْبَتِـهِ آلْحَسْنَـاءِ يُنَبِّيْـهَـا

وَعَـوْدُهُ نَحْـوَهَـا بِـآلْيَـأْسِ حَيَّـرَهَـا فَـلَا تَسَـلْ كَيْفَ لَاقَى مُسْتَحِيْـرِيْهَا

وَطَلْحَـةٌ عَـادَ مَعْـهُ وَهْـوَ مُمْتَعِضٌ مِنْـهُ زِنَـادُ آلْـوَغَى لِلنَّـاسِ يُـوْرِيْهَـا

وَآلْمُـرْتَضَى عَادَ مَسْـرُوْرَ آلْفُؤَادِ إِلَى أَصْحَـابِـهِ طَـالِبَـاً هَـانِيْ مَثَاوِيْهَـا

حرج موقف الزبير

قَدْ هَالَ عَـائِشَةَ عَـوْدُ ٱلزُّبَيْـرِ عَنِ ٱلْـــقِتَـالِ وَٱكْتَـأَبَتْ مِنْـهُ حَـوَاشِيْهَـا[1]
وَخَـافَتِ ٱلنَّـاسُ خُـذْلَانَـاً بِـزَوْرَتِـهِ عَنْهَـا يُشَتِّـتُ تَشْـتِيْتَـاً تَجَـمِّيْهَـا

---

(١) ما شاع بين أعيان أصحاب الجمل رجوع الزبير عن حرب علي حتى سقطوا في أيديهم لما يعلمونه من سوء تأثير رجعته على الناس وهم يبرّرون به وبطلحة وعائشة محاربتهم لسيدنا علي وازدحموا حوله يقنعونه بالرجوع عن عزمه بما أوتوا من زلاقة لسان وقوّة بيان فلم يفلحوا وفي الأخير لم يروا من ينيلهم بغيتهم بالتأثير على أفكاره غير ولده عبد الله الذي كان متسلطاً عليه فاستدعته عائشة وطلبت منه أن يذهب إلى أبيه ويقنعه بالبقاء مع حملتها فأسرع إليه وقال له : ما هذا يا أبتاه أتراك هبت سيوف أصحاب علي أو خفت شجاعته ؟ أم تراه رشاك بأمارةٍ لتشتت هذه الجموع التي غرّرت بها فجمعتها للقتال فتفرّ من وجهه فيعمل سيفه برقابها ؟ قال الزبير : لا يا بنيَّ ليس هذا ولا ذاك وما عليٌّ ممن يرشو ولا أنا ممن يخاف لقاء المنون ولكن هي حقوق أخوالي بني هاشم وحقوق محمد بن عبد الله وعلي بن أبي طالب مقدسة لدى المسلمين فلا نستطيع تجاهلها وإنّي لقد خفت الآخرة وعلمت أنّ الدنيا لا تغني عن الآخرة شيئاً فتبت عن خطئي وأقسمت أن لا أحارب علياً ولا قوماً يحميهم . فقال يا أبتاه أترى من مصلحتنا أن يظلَّ علي خليفة المسلمين وهو مساوينا مع أداني الناس ويأبى علينا أن يميزنا بفيء أو أمارة مع أننا ما أيقظنا هذه الفتنة إلّا لتكون أنت الخليفة ونحن عمّالها وهكذا ما زال عبد الله يغري أباه ويتملّقه ويقول له كفّر عن يمينك بتحرير رقبة وسرّ معنا إلى قتال عدونا وعدوّك ولا تجعلنا مضغةً بأفواه الناس وأحدوثةً لنساء قريش فتقول قد جبن الزبير حتى أثرت عليه هيبة ابن أبي طالب ورجاله وفي مثل هذا أثار ثائرة نخوته فقال إنّ عبدي مكحول حرّ كفّارة عن يمينٍ أرجىء تنفيذها وسأسير معكم فابتدىء القتال حتى لا يقال إنّي جبنت عن حرب ابن خالي أبي الحسن ولكن يا ولدي لا أظنكم بقتال ابن أبي طالب بناجحين فقال عبد الله دع عنك سوء الظن فإنّنا نفر من كل من يسيء ظنه بنتيجة هذا القتال أن تكون لنا وأقم معنا وهذا ما تتمناه أمي (ويريد عائشة) التي تتوكأ عليك في فتنتها فقال إنّي على ما تريد عائشة وتريد أنت ولا حول ولا قوة إلّا بالله .

وَهَـاجَمَتْـهُ لِتُغْـوِيْـهِ وَتُـرْجِـعُـهُ عَنْ تَـوْبَـةٍ قَـدْ نَـوَاهَـا لاَ يُخَلِّيْهَـا
فَلَمْ تَـدَعْ حُجَّةً مِمَّـا تَخَـالُ بِهَـا آلْإِ م قْنَـاعَ إِلَّا بِهَـا جَـاءَتْـهُ تُـدْلِيْهَـا
حَتَّى إِذَا عَجِـزَتْ عَنْـهُ وَعَـزْمَتُـهُ عَلَى آلْإِنَـابَـةِ أَوْهَتْ عَـزْمَ مُثْنِيْهَـا
وَافَـاهُ يَلْحُـوْهُ عَبْـدُ آللَّهِ وَهْـوَ فَتَـا م هُ بِـآسْمِ خَـالَتِـهِ مَـعْ مَنْ يُـوَالِيْهَـا
فَقَـالَ : يَـا أَبَتِيْ أَوْرَيْتَ فِـتْـنَـتَـنَـا حَتَّى إِذَا آشْتَعَلَتْ حَـاوَلْتَ تُـطْفِيْهَـا
أَهَبْتَ رَايَاتِ صَحْبِ آلْمُرْتَضَى فَجَبُنْـــتَ أَمْ تَهَيَّبْتَ أَنْ تَـلْقَى قَـوَارِيْـهَـا
أَمْ قَـدْ رَشَـاكَ عَلِيٌّ كَيْ تُشَتِّتَ أَعْـــدَاهُ فَيَتْبَعُـهَـا بِـآلسَّيْفِ يُـفْنِيْهَـا
وَأَنْـتَ تَعْـلَمُ مَـا نَبْـغِي بِـفِتْـنَتِـنَـا إِلَّا آلْخِـلاَفَـةَ إِذْ نُلْفِيْـكَ رَاعِيْهَـا
قَـالَ آلزُّبَيْـرُ : أَعَبْـدَ آللَّهِ وَيْلَكَ تُغْـــرِيْنِي بِحَـرْبٍ لَقَـدْ أَمْسَيْتُ آبِيْهَـا
فَـلاَ تَخَـوَّفْتُ أَصْحَـابَ آلْعَلِيِّ وَلاَ طَمِعْتُ بِـآلرَّشْـوَةِ آلْمَلْعُوْنُ عَـاطِيْهَا
لٰكِنْ تَذَكَّرْتُ عَهْدِيْ فِيْ صَحَابَةِ طَـــهَ وَآلْحُقُـوْقُ آلَّتِي حَقِّيْ أُرَاعِـيْهَـا
حُقُـوْقُ هَاشِمَ أَخْـوَالِيْ وَأَحْمَدَ وَآلْـــعَلِيِّ وَاضِحَـةٌ صَعْبٌ تَعَـاشِيْهَـا
وَيْلِيْ أَمَا آلْمُرْتَضَى أَوْلَى آلْبَـرِيَّةِ بِيْ إِنْ تَطْلُبِ آلنَّاسُ فِيْ آلدُّنْيَا مُحِبِّيْهَـا
وَمَا آنْتِفَاعِيْ بِذِي آلدُّنْيَـا إِذَا هِيَ عَـــنِّي يَـا فَتَى تُبْعِدُ آلْأُخْـرَى وَتُقْصِيْهَا
فَثِقْ بُنَيَّ لَقَـدْ عَـادَ آلصَّـلاَحُ إِلَى نَفْسِيْ فَمَـا عُدْتُ بِـآلْإِفْسَـادِ أُمْنِيْهَـا
وَقَـدْ حَلَفْتُ يَمِيْنَـاً لَسْتُ تَـارِكَهَـا مَـا بَـرَّ بِـآلْأَيْمُنِ آلـزَّهْـرَاءِ آلِيْهَـا
أَنْ لاَ أُحَـارِبَ قَـوْمَـاً كَـانَ حَيْـدَرَةٌ زَعِيْمَهَـا وَهْـوَ لِلنِّيْضَـالِ مُمْشِيْهَـا
فَرَاحَ يَضْحَكُ عَبْـدُ آللَّهِ ضِحْكَةَ مَقْـــهُـوْرٍ وَقَالَ : أَبِيْ حُـوْشِيْتَ تَسْفِيْهَا
يَـأْبَى أَبُـوْ حَسَنٍ إِنْصَـافَنَـا فَيُسَـا م وِيْـنَـا بِـأُمَّـتِـنَـا حَـتَّى أَدَانِـيْـهَـا
وَلِـلْبَـدَاوَةِ يَبْـغِي أَنْ يُـرَجِّـعَـنَـا أَدْرَاجَنَـا تَـارِكِيْ آلـدُّنْيَـا لِأَهْلِيْهَـا

وَإِنَّ أَحْـوَالَـهُ ذِيْ غَيْـرُ صَـالِحَـةٍ لَـنَـا وَأَنْتَ رَعَـاكَ ٱلـلَّهُ تَـدْرِيْهَـا
أَشْفِقْ عَلَيْنَـا وَلَا تَتْـرُكْ جَمَـاعَتَنَـا فِيْ شَـرِّ مَـوْقِفِهَـا ٱلْأَرْيَـاحُ تَـذْرِيْهَـا
وَعَنْ يَمِيْنِـكَ كَفِّـرْ إِذْ رَجِعْتَ بِهَـا كُفَّـارَةً يُصْبِحُ ٱلْإِسْـلَامُ رَاضِيْهَـا
وَلَا تَبِتْ مُضْغَةَ ٱلْأَفْوَاه فِيْ ٱلْعَرَبِ ٱلْـ ـعَـرْبَـا يَلُوْكُ بِمَـا قَـدْ جِئْتَ لَاكِيْهَـا
تُمْسِيْ نِسَـاءَ قُـرَيْشٍ وَهْيَ قَـائِلَةٌ إِنَّ ٱلـزُّبَيْـرَ جَبَـانٌ فِيْ نَـوَادِيْهَـا
وَبَعْـدَ أَنْ لَـجَّ عَبْـدُ ٱللَّهِ صَاحَ أَبُـوْ هُ إِنَّ عَـزْمَـتِـيَ ٱلْـغَـرَّا أُوَنِّـيْـهَـا
وَإِنَّ عَبْـدِيَ مَـكْـحُـوْلُ أُحَـرِّرُهُ كُفَّـارَةً لِيَمِيْـنٍ عُـدْتُ مُكْـرِيْـهَـا
وَإِنَّنِيْ نَـازِلٌ لِـلْحَـرْبِ مُبْتَـدِىءٌ بِهَـا لِتَعْلَمَ أَنِّيْ لَسْـتُ خَـاشِيْـهَـا
وَكَيْ أُحَقِّـقَ رُغْبَـى أَنْتَ طَـالِـبُهَـا لٰكِنْ أَظُنُّـكَ يَـا ٱبْنِيْ لَسْتَ مُلْفِيْهَـا
فَقَالَ : دَعْ عَنْكَ سُوْءَ ٱلظَّنِّ يَا أَبَتِيْ فَصَحْبُنَـا لَـمْ يَسُــؤْ يَـوْمـاً تَـظَنِّيْهَـا
وَسِـرْ لِحَـرْبِ عَلِيٍّ مُسْـرِعَـاً مَعَنَـا وَنَـلْ نَصِيْبَـكَ إِنْ كُنْتَ ٱلْمُجَلِّيْهَـا
وَذَاكَ كُـلُّ ٱلَّـذِيْ تَـبْغِيْـهِ أُمِّيَ إِذْ عَلَيْـكَ كَـانَ بِـلَا شَـكٍّ تَـرَكِّيْهَـا

بدء واقعة الجمل

لَمْ تَـطْمَئِنَّ إِلَى وَعْدِ ٱلـزُّبَيْـرِ صِحَـا بُـهُ وَزَوْرَتُـهُ عَنْهَـا لَـتُـوذِيْهَـا[١]
لِـذَا رَأَتْ أَنَّ حُسْنَ ٱلرَّأْيِ صَـائِبَـهُ أَنْ تَبْـدَأَ ٱلْحَـرْبَ حَـالاً لَا تُـرَجِّيْهَـا

---

(١) كان كثيرون من زعماء العرب حول عائشة وطلحة والزبير يثبطون عزائمهم عن متابعة الفتنة حقناً لدماء المسلمين ويقنعونهم بمصالحة سيدنا عليّ والرجوع إلى طاعته فلم يفلحوا وبينما كان هؤلاء يجدّون في مساعيهم السلمية ويرسلون رسلهم إلى سيدنا عليّ فيقول لهم قوله المشهور وهو إنّي ما جئت للحرب ولكن للصلاح كان أصحاب الجمل يتحفزون للحرب وهم يعتقدون أنّهم منصورون على جيش أمير المؤمنين عليه السلام لا لأنّهم أشجع منه وأصبر على مكاره الحرب ولا لأنّ من عندهم من ـ

وَتُعْلِنُ ٱلنَّاسَ بِٱلنِّيْضَالِ عَائِشَةٌ   وَبِٱلْأَحَادِيْثِ عَنْ طَهَ تُنَخِّيْهَا
وَبِٱلْمَثُوبَةِ فِيْ ٱلْجَنَّاتِ تُطْمِعُهَا   وَبِٱلتَّوَسُّعِ فِيْ ٱلْإِرْغَادِ تُغْرِيْهَا
وَبِٱبْنِ عَفَّانَ كَانَتْ تَسْتَثِيْرُ عَلَى   أَبِيْ ٱلْحُسَيْنِ مِنْ ٱلْأَحْقَادِ قَاسِيْهَا
وَكَانَ ثَمَّ دُعَاةٌ لِلصَّلَاحِ تُرِيْدُ ٱلسِّلْمَ لٰكِنَّمَا خَابَتْ مَسَاعِيْهَا

= الناس أعظم حولاً وطولاً من رجال أمير المؤمنين بل لاعتقادهم بأنَّ ما في المسلمين من يجرأ على الوقوف في وجه عائشة بصفتها أحبّ أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبصفتها امرأة لما تعلم من امتناع العرب عن محاربة النساء ولهذا الغرض احتمل العصاة عائشة إلى الحرب وجعلوا جملها رايتهم

فلما تقدم سيدنا علي عليه السلام من معسكر أصحاب الجمل ودعا طَلحة والزبير إليه وخاطبهم بما خاطبهم به كما تقدم القول وعاد الزبير وهو تائب عن العصيان معرض عن حرب أمير المؤمنين راغباً عن قتال أصحابه ذاكراً إنذار المصطفى له وتعب الناس في إقناعه للبقاء معهم حتى جاءَه ابنه عبد الله وأغراه بالرجوع عن عزيمته وتقديم الكفارة عن يمينه لكي لا يقول الناس قد جبن حينئذٍ صحت عزيمة أصحاب الجمل على البدء بالقتال مخافة أن يعود الزبير إلى توبته فيكون سبباً لتفرّق الناس عن جملها اقتداءً به . وبالفعل كان الزبير هو مفتتح القتال ليذهب عن نفوس ولده وأصحاب الجمل ما اتّهموه به من أنَّ نكوله عن حرب أمير المؤمنين هو لجبنه فنصل سنان رمحه وحمل على عسكر علي عليه السلام فلمّا رآه سيدنا أمير المؤمنين كاراً على عسكره برمحٍ لا سنان له عرف على البداهة أنّه محرجٌ على خوض غمرات الحرب وأنّه لا يزال عند يمينه فنادى بأصحابه أن أفرجوا عنه فإنّه محرج . وهكذا دنا الزبير من معسكر الخليفة أولاً وثانياً وثالثاً وعاد إلى أصحاب الجمل ولم يصب بشرٍ وفي المرة الثالثة عندما رجع إلى أصحاب الجمل كرّر إنشاد أبياته التي سبق لنا نشرها فلما سمعها أصحاب الجمل عرفوا أنّه فارٌّ من الحرب غير ثابت معهم على الاصطلاء بنارها فأسرعوا إلى إشعال نار القتال وهاجموا معسكر سيدنا أمير المؤمنين فلقيهم عليه السلام بأصحابه واشتبك القتال بين المسلمين ذلك القتال الذي تألّم له المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في السماء فشكا إلى خالقه من جور أهل النفاق الذين أحدثوا بين المسلمين هذا الشقاق .

وَثَـارَتِ ٱلْفِتْنَةُ ٱلْهَـوْجَاءُ تَحْـرِقُ فِيْ نِيْـرَانِهَـا كُـلّ مَنْ قَـدْ رَاحَ صَـالِيْهَـا
وَقَــدْ تَقَـدَّمَتِ ٱلْعَـاصِيْنَ عَـائِشَـةٌ كَـأَنَّـهَـا رَايَـةٌ فِيْ كَـفِّ مُعْـلِيْهَـا
وَكَـانَ هَـوْدَجُهَـا يَسْعَى بِـهِ جَمَـلٌ بِـهِ دَعَـا هَـاتِـهِ ٱلْمَـأْسَاةَ دَاعِيْهَـا
يَقُـوْدُهُ كُـلُّ ذِيْ جَـاهٍ وَذِيْ حَسَبٍ مِنَ ٱلْأَعَـارِبِ مَكِّيْهَـا وَبَصْـرِيْهَـا
وَكَـانَ مُفْتَتِحَ ٱلنِّيْضَـالِ صَاحِبُنَـا آلــ ـزُّبَيْـرُ يَبْغِي ٱلْمَنَـايَـا لَا يُحَـاشِيْهَـا
أَرْجَـا ٱلْيَمِيْنَ ٱلَّتِيْ قَدْ كَـانَ حَالِفَهَـا لَـوْلَا ٱبْنُـهُ لَمْ يَكُنْ وَٱللَّهِ مُـرْجِيْهَـا
مِنْ غَيْـرِ أَسْلِحَـةٍ قَـدْ كَـرَّ كَـرَّتَـهُ عَلَى رِجَـالِ عَلِيٍّ غَيْـرَ خَـاشِيْهَـا
كَيْ لَا يُقَـالَ لَقَـدْ خَـارَتْ عَـزَائِمُـهُ كَمَـا لَـهُ قَـالَ عَبْـدُ ٱللَّهِ تَجْـرِيْهَـا
وَإِذْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى أَنْ لَا سِلَاحَ مَعَ آلــ ـزُّبَيْـرِ فِيْ ٱلْهَجْمَـةِ ٱلْمَقْتُـوْلُ آتِيْهَـا
نَـادَى بِأَصْحَـابِهِ عَنْـهُ ٱفْرِجُـوْا كَرَمـاً فَـإِنَّـهُ مُحْـرَجٌ لِلْحَـرْبِ يُمْضِيْهَـا
فَمَـا تَصَـدَّى لَـهُ مِنْ صَحْبِـهِ أَحَـدٌ لِأَنَّـهَـا عَـرَفَـتْـهُ غَـيْـرَ رَامِيْـهَـا
فَـأَقْبَلَتْ بَعْـدَهُ أَصْحَـابُ عَـائِشَـةٍ إِلَى ٱلْقِتَـالِ وَشَـدَّتْ فِيْ تَـدَاعِيْهَـا
فَقَـابَلَتْهَـا صَنَـادِيْـدُ ٱلْخِلَافَـةِ بِـٱلْأَ م سْيَـافِ تَـطْلِبُ أَنْ تُفْنِيْ مُـلِدِّيْهَـا
يَقُـوْدُهَا ٱلْقَـاهِرُ ٱلْأَسْمَى أَبُـوْ حَسَنٍ وَحَسْبُهَـا أَنَّـهُ لِلنَّصْـرِ مُمْشِيْـهَـا
وَهَكَذَا ٱشْتَبَكَ ٱلْجَمْعَـانِ وَٱبْتَسَمَتْ بِيْضُ ٱلـظُّبَى وَبَنُوْ ٱلْإِيْمَـانِ فِيْ فِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى فِيْ ٱلسَّمَا يَشْكُوْ لِخَالِقِهِ مَـا نَـالَ أُمَّتَـهُ مِنْ مُسْتَخِيْنِيْـهَـا

انتصار أمير المؤمنين في موقعة الجمل

وَطَـالَتِ ٱلْحَـرْبُ أَيَّـامـاً مُسَـاجَلَةً وَٱلنَّـاسُ فِيْهَا لَقَـدْ أَبْدَتْ تَفَـانِيْهَا[1]

---

(١) لما عاد الزبير إلى أصحاب الجمل وهو ينشد أبياته تقدم منه طلحة وسار بـه =

وَكَـانَ حَيْـدَرَةُ فِيْهَـا ٱلْمُبَـارِزُ وَٱلْــبَطَّاشُ يَضْرِبُهَـا بِٱلسَّيْفِ يُـدْمِيْهَـا

= بين الناس وهو يقول « إنَّ علياً إن يظهر فهـو مفنيكم يا أهـل البصرة ، فـاحموا حقيقتكم منه ؟ ، فإنّه لا يبقي حرمةً إلّا انتهكها ، ولا حريماً إلّا هتكـه ، ولا ذريّةً إلّا قتلهـا ، ولا ذوات خـدر إلّا سباهنَّ ، فقـاتلوا مقاتلة من يـذبُّ عن حـريمـه ، ويختـار المـوت على الفضيحة يراهـا في أهله » إلى مثل ذلـك من الأقوال التي كـانوا يختلقـونها ليخيفـوا بها البصـريين ليثبوا على معسكـر المرتضى ويثبتـوا على قتالـه وهكذا استـاقـوا النـاس إلى مهاجمة معسكـر سيدنـا أمير المؤمنين وأخـذوا يرشقـون أصحابـه بنبالهم فكـأنّها صبيب المطر .

أمّـا سيدنـا أميـر المؤمنين عليه السلام فتمهّـل عن مقـابلة الشـرّ بمثله إلى أن رأى نبـال العصـاة تترامى على أصحـابه وجيء لـه ببعض القتلى منهم فاستسلم لقضـاء الله ونـزل على ما نزل عليه القوم من تحكيم السيف وأعطى رايته إلى ابنه محمد بن الحنفيـة وقال « تـزول الجبال ولا تـزل ، عضَّ على ناجـذك ، أعـر الله جمجمتـك ، تـد في الأرض قـدمـك ، إرمِ ببصـرك أقصى القـوم ، وغضَّ بصـرك ، واعلم أنَّ النصـر من عنـد الله سبحانه » .

فتهيب محمد وهو غـلامٌ يافـعٌ موقفـه وتوقف قليـلاً فقال لـه أبوه أميـر المؤمنين : احمل يا محمد . فقال أما ترى يا أبتاه السهام كأنّهـا شآبيب المـطر ؟ فدفعـه في صدره وقال أدركك عرق من أمك . ثم أخذ منه الراية فهزّها وقال :

اطعن بـهـا طعـن أبيـك تـحمـدِ　　لا خيـر في حـربٍ إذا لم تـوقـد
بالمشرقيّ والقنا المسدَّدِ

ثمَّ حمل عليه السلام فحمل الناس خلفه فطحن عسكر البصـرة وأعاد للنـاس ذكر فعـاله العظيمة في الغزوات النبوية وهو المجلي والمصلي فيها على ما يعلم الثقلان .

وبقيت الحرب أيامـاً حول الجمـل وكان كلّمـا قتل قـوم من أصحاب عـائشة قـام للدفاع عن جملها آخرون وكانت عائشة في هـودجها تتمثـل بالمصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم يوم كـان يخرج لغزو الكفّار والمشركين لنصرة الدين وشتـان بين الموقفين حتّى أنّهـا مرةً بـل غير مرةٍ أخذت كفّاً من حصى فحصيت بها أصحاب سيدنـا علي عليه السلام وهي تصيح بصـوتها الجهوري شاهت الوجوه كما صنع رسول الله يوم حنين فمـا عدمت قـائلاً يقـول بقربهـا =

= « ومـا رميتَ إذا رميتَ ولكن الله رمى » فانـظر رعاك الله إلى أيّ حـدٍّ بلغ اجتهاد عـائشة حتى حسبت أنّها تحارب سيدنا علي وقومه كما كان المصطفى يحارب أبا سفيان وقـومه على أنّ الذي قال « الله رمى » بقربها هـو الذي صـدقها المقـال ورمية الله سبحـانه هي الصادقة بغير جدال .

وفي اليـوم الثالث للمـوقعة أصبـح القومـان على القتال فـزحف سيدنـا علي نحو الجمـل بنفسه في كتيبتـه الخضراء من المهـاجرين والأنصـار وحولـه بنوه حسن وحسين ومحمد فدفع رايته إلى محمـد وقال « أقـدم بها حتى تـركزهـا في عين الجمل ولا تقفنَّ دونه » فتقدم محمد فرشقته نبال العصاة فقال لأصحابه رويداً حتى تنفد سهامهم فلم يبق لهم إلّا رشقـة أو رشقتان وإذ رأى أميـر المؤمنين وهو يـرقب الحملة تباطئهـا أرسـل إلى محمد يستحثه وأمره بالمناجزة فلما أبطأ عليـه جاءَ بنفسـه من خلفه فـوضع يـده اليسرى على منكبه الأيمن وقال له أقدم لا أمَّ لـك ثم أدركته عليه السلام رقـة على ولده فتنـاول الرايـة بيسراه وأشهر ذا الفقار بيمناه وحملَ فغاص في عسكـر الجمل فـأهلك خلقاً كثيـراً منهم وعاد وقد انحنى سيفه وهو يقطر دماً فـأقامـه بركبتـه وهو يـزئر زئـرة الأسد فقـال له بنـوه وأصحابه والأشتر وعمّار نحن نكفيك يا أمير المؤمنين فما أجاب أحداً منهم ولا ردَّ إليهم بصره وعاد ثـانيةً لـوحده فـدخل وسط عسكـر الجمل وجعـل يضربهم بـذي الفقار وهم ينفضون من حوله فرقين خائفين جزعين حتى خضب الأرض بدماء القتلى ثمَّ رجـع وقد انحنى سيفه فأقامه بركبته فاعصوصب بـه أصحابـه فناشـدوه الله في نفسه وفي الإسـلام وقالوا إن تصب يذهب الدين فـامسك ونحن نكفيـك فقال : والله لا أريـد بما تـرون إلّا وجه الله والدار الآخرة . ثمَّ مال إلى ابنـه محمد وقـال هكذا تصنـع يـابن الحنفيـة فقال الناس من ذا يستطيع ما تستطيعه يا أمير المؤمنين ؟؟ .

وهكذا دامت الحرب بضعة أيام قتل فيها خلقٌ كثير من الفريقين ولمـا رأى سيدنـا علي أنّ الموت عند الجمل وأنّه ما دام قائمـاً فالحـرب لا تطفـأ نارهـا وضع سيفـه على عاتقه الشريف وعطف نحوه وأمر أصحابه بذلك فتبعوه وكان زمام الجمل قـد أفضى إلى بني ضبـة بعد أن تـداوله خلقٌ كثيـرٌ للدفـاع عنـه فقتلوا دونـه حتى إذا مـا انتهى الإمـام وأصحابه إلى الجمل اشتبكوا بالقتال مع أصحابـه ولا سيما بني ضبـة الآخذين بخـطامه وكان من واجبهم أن يموتوا دونه فاستمرَّ القتـال فيهم وخلص علي عليه السلام في جماعـة من =

بِنَفْسِـهِ وَهْـوَ فَـرْدٌ كَـانَ يَهْجُمُ مَـا   بَيْنَ ٱلصُّفُـوْفِ وَيَسْتَقْصِي هَـوَادِيْهَـا

= النخع وهمدان إلى الجمل فقال لرجل من النخع اسمه بحير : دونك الجمل يا بحير . فبادر هذا وضرب الجمل بسيفه ضربةً نجلاء فوقع لجنبه وضرب الأرض بجرانه وعجَّ عجيجاً لم يسمع بأشدّ منه فما هو أن صرع الجمل حتّى فرّت الرجال كما يطير الجراد في الريح الشديدة الهبوب فصاح سيدنا أمير المؤمنين أن قوا عائشةً من الهلال وأمر أخاه محمد بن أبي بكر وكان في أصحابه أن يتولى أمر أخته عائشة وينقلها بهودجها إلى البصرة ففعل وسار بها إلى دار عبد الله بن خلف وكانت أعظم دور البصرة وأمر عليه السلام بالجمل أن يحرق ثمَّ يذرّى في الريح وقال « لعنه الله من دابة فما أشبهه بعجل بني إسرائيل » ثمَّ قرأ قوله تعالى : ﴿ **وانظر إلى إلٓهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليمّ نسفاً** ﴾ الآية .

وبعد أن رأى سيدنا أمير المؤمنين ما حوله من جرحى أصحاب الجمل وأنّ أصحابهم قد فرّوا وتفرقوا أيدي سبا أمر المنادي أن ينادي في أصحابه أن لا يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح ولا يدخلوا دور المسلمين فينهبونها ويسبون مخدراتها وكان أمره هذا مؤيداً لما كرر قوله به عليه السلام وهو أنّه سائر لتأديب عصاة المسلمين لا للتنكيل بأمّة سيد المرسلين فهو مؤدّب ومربّي لا غازي وفاتح فأعجب الناس بأمره وخضعوا لمشيئته .

ولما انهزم أصحاب الجمل ركب علي على البغلة الشهباء التي كان يركبها رسول الله عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام وكانت عنده وسار في القتلى يستعرضهم فمرَّ بكعب بن سور قاضي البصرة وهو قتيل فقال أجلسوه فأجلسوه فقال له : « ويل أمّك يا كعب بن سور لقد كان لك علم لو نفعك ولكن الشيطان أضلّك وأغواك فعجلك إلى النار أرسلوه . . ثمَّ مرَّ بطلحة بن عبيد الله قتيلاً (وسنذكر كيفية قتله فيما بعد) فقال أجلسوه فأجلسوه فقال له عليه السلام (أعزز عليَّ أبا محمد أن أراك معفراً تحت نجوم السماء ، وفي بطن هذا الوادي ، أبعد جهادك في الله ، وذبّك عن رسول الله ، تعرض نفسك إلى ما تعرضت إليه ؟ » وبينما عليّ يقول هذا وإذا برجل وقف إلى جانبه وقال أشهد يا أمير المؤمنين لقد مررت عليه بعد أن أصابه السهم وهو جريح فصاح بي فقال : من أصحاب من أنت ؟ فقلت : من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام فقال : امدد يدك لأبايع لأمير المؤمنين فمددت إليه يدي فبايعني لك فقال علي « أبى الله أن يلقى =

كَـأَنَّمَـا صَعقَـاتُ آللَّهِ يَحْمِـلُهَـا عَلَىٰ آلْعِـدَى فَهْيَ تَفْنَى فِيْ تَلَقِّيْهَـا
لِـلَّهِ دَرُّ عَـلِيٍّ وَهْـوَ خَـائِضُ هَـا تِيْـكَ آلْمَعَامِـعِ لاَ يَخْشَى دَوَاهِيْهَـا
أَعَـادَ ذِكْرَ مَغَـازِيْ آلْمُصْـطَفَى وَعَلِـيٌّ كَـانَ فِيْهَـا مُجَلِّيْهَـا مُصَلِّيْهَـا
ذِكْـرَى لَتفْـرَقُ أَرْبَـابُ آلنِّفَـاقِ لَهَـا عَـادَتْ إِلَى ذُهْنِ مَنْ يَبْغِيْ تَنَاسِيْهَـا
فِيْ وَقْعَةِ آلْجَمَلِ آلسَّوْدَا آلَّتِيْ تَرَكَتْ أَصْحَـابَـهُ وَبَـلاَءُ آللَّهِ دَاهِـيْـهَـا
وَقَدْ رَأَى آلْمُرْتَضَى أَنْ لاَ سَبِيْلَ إِلَى إِنْهَـاءِ مَجْـزَرَةٍ إِنْ شَـاءَ يُـنْهِـيْهَـا
إِلَّا إِذَا آلْجَمَلُ آلْمُغْوِيْ آلْعُصَاةَ هَوَى فَـإِنَّـهَـا تَـتَـصَـبَّـاهُ وَيُـرْدِيْـهَـا

= طلحة ربّه إلّا وبيعتي في عنقه » ثمَّ مرَّ بعبد الله بن خلف الخزاعي وكـان عليه السلام قتله بيده مبارزةً وكان رئيس أهل البصرة فقال أجلسوه فأجلسوه فقـال : « الويـل لك يـابن خلف لقد عانيت أمراً عظيماً » وهكذا كان كلما مرَّ عليه السلام بوجيه من القتلى يقول كلمته فيه حتى إذا ما بلغ البصرة دخل بيت انمال فلما رأى كثرة ما فيه قال مراراً « يـا بيضاء ويـا صفراء غرّي غيري » ثم صعّد نظره في هاتيك الأموال وقال أقسمـوها بين أصحـابي خمسمايـة فخمسمـاية فقسمت بينهم فمـا نقصت درهماً ولا زادت درهمـاً كأنّـه عليه السلام كـان يعـرف مبلغهـا ومقدارهـا وكانت ستـة آلاف ألف درهم وكان أصحـاب سيدنـا علي اثني عشـر ألفاً . وبعد أن توزعت الأموال بين الناس قدم أعـرابي لم يحضر وقعـة الجمل وقـال يا أمير المؤمنين كنت شاهداً معك بقلبي وإن غـاب عنك جسمي فـاعطني من الفيء شيئـاً فدفع إليه الذي أخذه لنفسه وهو خمسمائة درهماً ولم يصب من الفيء شيئاً .

ثمَّ طلب الناس من سيدنـا علي عليه السلام أن يقسم بينهم أهل البصـرة فيكونـون رقيقاً وسبياً لهم فقال « لا » فقالوا فكيف تحلُّ لنا دماءَهم وتحرم علينا سبيهم ؟ فقال : « كيف يحـلُّ لكم ذريّة ضعيفـة في دار هجرة وإسلام ؟ أمّا مـا أجلب به القـوم في معسكـرهم عليكم فهـو لكم مغنم ، وأمَّا مـا وارت الدور ، وأغلقت عليـه الأبواب ، فهـو لأهله ولا نصيب لكم في شيء منـه » فلمـا أكثـروا عليـه وألحـوا أراد أن يقنعهم بصـواب حكمـه فقال : « فأقرعوا على عائشة إذن لأدفعهـا إلى من تصيبه القـرعة » فقـالوا نستغفـر الله يا أمير المؤمنين أن تسبى زوج رسول الله . فتبسّم سيـدنا علي عليه السلام وقـال وكذلـك النساء المسلمات فإنّهنَّ جميعاً بنات رسول الله . فاقتنع القوم بحكمه وانصرفوا .

كَانَتْ حَوَالَيْهِ تَفْنَى وَهْيَ صَابِرَةٌ   عَلَى ٱلرَّزَايَا ٱلَّتِي رَاحَتْ تُلَاقِيْهَا

كَمْ فِرْقَةٍ قَدْ تَلَاشَتْ عِنْدَ مَوْقِفِهِ   بِأَثْرِ أُخْرَى وَمَا هَابَتْ تَلَاشِيْهَا

حَتَّى تَظُنَّ بِهَاتِيْكَ ٱلنُّفُوْسِ عِبَا   دَةً لَهُ تَتَرَجَّى خُلْدَهَا فِيْهَا

وَإِذْ رَأَى ٱلْمُرْتَضَى أَنَّ ٱلْجَهَالَةَ تُمْـ   ـشِيْ ٱلنَّاسَ حَتَّى مَنَايَاهَا وَتُرْزِيْهَا

نَادَى بِأَصْحَابِهِ : فَٱرْمُوْا نِبَالَكُمُ   عَلَيْهِ حَتَّى تُغَشِّيْهِ رَوَامِيْهَا

فَسَدَّدَتْ نَحْوَهُ أَقْوَاسَهَا وَرَمَتْ   نِبَالَهَا لَمْ يَكُنْ يُخْطِيْهِ رَامِيْهَا

حَتَّى غَدَا جِسْمُهُ ٱلْمُرْمَى كَقُنْفُذَةٍ   لَاقَتْ بِأَشْوَاكِهَا ٱلْكَثْرَى مُفَاجِيْهَا

ثُمَّ تَقَدَّمَ مِنْهُ ٱلْمُسْلِمُوْنَ وَمِنْ   حَوْلَيْهِ عِصْبَتُهُ تُبْدِيْ تَرَاغِيْهَا

وَٱلْحَرْبُ قَائِمَةٌ فِيْهَا تُبَاعُ نُفُوْ   سُ ٱلنَّاسِ مُرْخَصَةً وَٱلْمَوْتُ يَشْرِيْهَا

صَاحَ ٱلْعَلِيُّ ٱعْقُرُوْهُ وَٱنْشَطُوْا لِنَقِيْ   فِيْ ٱلْحَالِ عَائِشَةٌ مِمَّا يُؤَاذِيْهَا

فِيْ ٱلْحَالِ كَانَ مُجِيْرٌ عِنْدَ دَعْوَةِ مَوْ   لَانَا ٱلْعَلِيِّ بِلَا بِطْءٍ مُلَبِّيْهَا

وَبَادَرَ ٱلْجَمَلَ ٱلْمَلْعُوْنَ أَهْلَكَهُ   بِضَرْبَةِ ٱلسَّيْفِ عَاشَتْ كَفُّ مُهْوِيْهَا

أَقْعَى وَعَجَّ عَجِيْجاً وَهْوَ يَضْرِبُ بِٱلْـ   ـجُرَانِ أَرْضاً نَجِيْعُ ٱلدَّمِ رَاوِيْهَا

وَإِذْ رَأَتْ هُلْكَهُ أَنْصَارُ عَائِشَةٍ   تَهَارَبَتْ فِرَقاً تَبْغِيْ مَخَابِيْهَا

حَتَّى لَتَحْسَبُهَا سِرْبَ ٱلْجَرَادِ إِذَا   طَارَتْ وَكَانَ هُبُوْبُ ٱلرِّيْحِ ذَارِيْهَا

وَآمَرَ ٱلْمُرْتَضَى أَنْ لَا يُسَاءَ إِلَى ٱلْـ   ـجَرْحَى وَأَنْ يَتَوَلَّاهَا مُؤَاسِيْهَا

وَلَا تُتَبَّعَ مَنْ فَرَّتْ مُرَجِّيَةً   سَلَامَةً وَأَوَتْ خَوْفاً مَآوِيْهَا

وَأَنْ تُصَانَ فَلَا تَفْجَا مَنَازِلُهَا   بِدَاخِلِيْهَا لِيَلْقَى ٱلْأَمْنَ ثَاوِيْهَا

وَقَالَ : إِنْ هِيَ إِلَّا فِرْقَةٌ سَلِمَتْ   مُذْ أَسْلَمَتْ وَكِتَابُ ٱللَّهِ حَامِيْهَا

وَإِنْ تَخَطَّتْ حُدُوْدَ ٱلشَّرْعِ جَاهِلَةً   فَٱللَّهُ يَغْفِرُ مَاضِيْهَا بِآتِيْهَا

وَصَاحَ بِٱبْنِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدٍ ٱلْـــزَمْ خِدْرَ عَائِشَـةٍ كُنْ أَنْتَ آوِيْهَا

وَبَعْدَ أَنْ نَقَلُوْا بِٱلْعَطْفِ هَـوْدَجَهَا   وَضَيْعَةُ ٱلنَّصْرِ فِي ٱلنِّيْضَالِ تُشْجِيْهَا

نَادَى ٱلْوَصِيُّ : ٱحْرِقُوْا هٰذَا ٱلْبَعِيْرَ وَذُ م رُّوْا فِي ٱلـرِّيَاحِ بَقَـايَاهُ لِتُسْفِيْهَـا

عَلَيْـهِ لَعْنَـةُ رَبِّي قَـدْ تَشَبَّـهَ بِـٱلْـــعِجْلِ ٱلَّذِيْ قَدْ غَوَى آسْرَائِيْلَ تَشْبِيْهَا

وَسَـارَ لِلْبَصْـرَةِ ٱلْغَنَّـا فَـوَاصَلَهَـا   مُسَـالِمَـاً وَٱعْتَنَى فَضْـلاً بِـأَهْلِيْهَـا

أَلْفَى هُنَـالِكَ أَمْـوَالاً فَخَصَّصَهَـا   بِنَـاصِـرِيْـهِ بِهَـا أَغْنَى مُـفِيْئِـيْهَـا

وَأَعْلَنَ ٱلْعَفْـوَ عَمَّنْ قَـدْ عَصَـاهُ وَمَنْ   مَا لَا ٱلْعِدَاةَ ٱلَّتِيْ قَـدْ رَاحَ مُخْزِيْهَـا

وَلَمْ يَكُنْ مِنْ عِبَـادِ ٱللَّهِ مُـنْـتَـقِمَـاً   وَقَـدْ أَطَـاعَتْ وَعَـدَّتْ عَنْ تَعَصِّيْهَـا

مصير الزبير بن العوام

فَـرَّ ٱلـزُّبَيْـرُ مِنَ ٱلنِّيْـرَانِ خَلَّفَهَـا   لِقَـوْمِ أَحْمَـدَ تَقْلِيْهَـا وَتَشْـوِيْهَـا[١]

وَقَــدْ تَـنَـدَّمَ عَمَّـا جَـرَّ مِـنْ إِحَنٍ   عَلَى ٱلْخِـلَافَـةِ مَـا سَهْـلٌ تَـلَافِيْهَـا

---

(١) فرَّ الزبير من واقعة الجمل قبيل اشتباك الفريقين في القتال حاسباً فراره هو الغنيمة لأنّه ذكر في كلام سيدنا علي له وفيما ذكره من حديث المصطفى عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام ما جدَّد في نفسه العواطف الدينية والإنسانية معاً وإذ كان ذا ضميرٍ حيٍّ ووجدانٍ صحيح تجسم أمام عينيه الشرُّ الذي أقدم عليه فرأى أنّه في تلك الفتنة مسيءٌ قبل كل شيء إلى الإسلام ومن ثمَّ إلى رسول الله ووصيّه عليهما الصلاة والسلام ومن ثمَّ إلى المسلمين ومن ثمَّ إلى أخواله الهواشم فكبر ذلك عليه وعاد إلى هداه وإذ كان يعرف أنَّ تلافي الفتنة ليس في طوقه ولا أمر العصاة في يده فيصرفهم عن عصيانهم اكتفى بوعد سيدنا علي أمير المؤمنين بأن لا يخوض غمار الحرب وعزَّز وعده بصادق الإيمان على أنّه لم يحنث بيمينه ولم ينكث عهده برضائه ولكن أرغم عليه بإلحاح ابنه عبد الله أن يظلّ بين العصاة حتى لا يقال أنّه فرَّ من القتال جبناً لأنّ الجبن عند العرب داعية الذلّ والخزلان بل هو العيب الكبير الذي لا يرضاه من كان ذا مكانة فيهم كالزبير فنصل سنان رمحه وبرز للقتال مفرداً متعرضاً لنبال أنصار الخلافة وربما كان يتمنى في =

وَكَـانَ إِذْ غَـادَرَ ٱلْمَيْـدَانَ مُكْتَئِبَـاً عَلٰى ٱلشُّـرُوْرِ ٱلَّتِيْ قَـدْ فَـاتَـهُ فِيْهَـا

= خروجه ذاك أن تصيبه نبلةٌ فتقتله كفارةً عن الذنب الذي جناه بعصيان أمير المؤمنين ووصي رسول ربّ العالمين وما هذا ببعيد عن مثل الزبير وإخلاصه لدينه ونبيه وآل بيته هذا هو اعتقادنا فيه بل اعتقاد أمير المؤمنين نفسه الذي كان يقول « ما زال الزبير منّا حتى كبر ابنه عبد الله فصرفه عنّا » .

وبعد أن فرَّ الزبير من الموقعة وفي حالةٍ من الندم واليأس يدركها من يتصور حالته وهو فارّ ووراؤه المسلمون يقتتلون بفتنةٍ كان يحب أن لا تكون لو خلصت النوايا وعدمت المطامع وانصرفت النفوس إلى المصلحة العامة أخذ يتنقل بجواده بين الجبال والوديان حتى انتهى إلى موضع يدعى « وادي السباع » فنزل فيه .

وكان في وادي السباع جمعٌ من بني تميم زعيمهم الأحنف بن قيس وكانوا هناك معتزلين الفتنة التي شجرت بين المسلمين آسفين لحدوثها وبينما الأحنف جالس في مجلسه والناس حوله وإذا بوافد عليه من قومه ينبئه بوصول الزبير فارّاً من القتال فحوقل ذلك الأمير واسترجع وقال بصوت عال « ما أصنع بالزبير وقد لفَّ غارين من المسلمين حتى أخذت السيوف منهما مأخذها انسلَّ وتركهم أمّا أنّه لخليق بالقتل قتله الله » ومن أمعن النظر في قول الأحنف هذا ظهر له مبلغ الكمد الذي كان يشعر به لحدوث هذه الفتنة وأنّه كان يعتقد أنّ الزبير هو في مقدمة الذين كانوا مثيريها .

وكان من جملة الناس الملتفين على الأحنف في مجلسه ذاك رجل يدعى عمرو بن جرموز وكان قاتلاً فاتكاً فلما سمع كلمات الأحنف حدثته نفسه أن ينتقم للمسلمين من الزبير فأسرَّ ذلك في نفسه وأعدَّ له عدّته .

أمّا الزبير فقد بلغه مقال الأحنف فيه فخاف على نفسه القتل وبادر فامتطى جواده طالباً الفرار وما كاد يبعد قليلاً حتى رأى فارساً يتبع خطواته ولما دنا منه وقف وقال : ما شأنك ؟ قال عمرو بن جرموز وكان هو المقتفي خطواته : جئت لأسألك عن أمر الناس الذين تركتهم وراءك قال الزبير : إنّي تركتهم قياماً في الركب يضرب بعضهم وجه بعض بالسيف . فسار ابن جرموز معه وكلٌّ منهما يتّقي الآخر على أنَّ ابن جرموز كان بين حين وآخر يعود فيسأله عن الناس وما هم فيه من الحرب وما زالا سائرين إلى أن حضرتهما الصلاة فقال الزبير : يا هذا إنا نريد أن نصلّي فقال ابن جرموز : وأنا أريد ذلك قال=

وَسَــارَ فِيْ فَلَوَاتِ ٱلْأَرْضِ مُخْتَفِيَـاً   عَنِ ٱلْأَنَــامِ فَـلاَ يَـرْنُـوْهُ رَانِيْهَـا

=الزبير : فتؤمنني وأؤمنك . قال نعم . وهكذا نزلا عن جواديهما عند نبع ماء وأخذا يتوضئان ثمَّ مال الزبير إلى الصلاة فما كاد يسجد سجدته الأولى حتى شدَّ عليه عمرو بن جرموز بسيفه فاحتزَّ رأسه وأخذ خاتمه وسيفه وحثا على جثمانه التراب ورجع على الفور إلى الأحنف بن قيس فأخبره بما فعل وهو يحسب أنّه قد أحسن صنعاً . فقال الأحنف : والله ما أدري أسأت أم أحسنت ؟ إذهب إلى علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ومفتي المسلمين وأخبره بما صنعت فأسرع عمرو بن جرموز على جواده وخاتم الزبير وسيفه معه قاصداً أمير المؤمنين عليه السلام .

سار ابن جرموز قاصداً البصرة وهو يعلم أنَّ أمير المؤمنين مخيمٌ في ضواحيها يحارب العصاة على ما كان أخبره الزبير وكان يعلّل نفسه ببعيد الآمال فيحسب أنَّ سيدنا علي سيلقاه بصدره الرحب وثغره الباش ويطلق لسانه على بلاغته المشهورة بالثناء على همّته ونجدته ويغدق عليه من الخيرات الشيء الكثير لأنَّه قتل كبيراً من عصاة خلافته وربما علل نفسه في الحصول على أمارة في مصر من أمصار المسلمين مكافأةً على صنيعه هذا وما زال يطوي به جواده الأرض وهو محلق في سماء الخيال طامعاً ببعيد الآمال حتى دنا من البصرة فعلم من الناس بانجلاء موقعة الجمل عن نصر سيدنا أمير المؤمنين ودخوله البصرة ظافراً غانماً فازدادت مطامعه بالمكافأة قائلاً في نفسه : كم سيكون أمير المؤمنين مغتبطاً مسروراً بعد انتصاره على أصحاب الجمل عندما سيقف على بشرى مقتل الزبير الذي ما فرَّ إلاّ لإثارة فتنة أخرى على خلافته ؟ وبهذه النية دخل ابن جرموز البصرة وقصد رأساً سيدنا أمير المؤمنين في دار الأمارة فألفاه في مجلسه يعمل لإصلاح الفاسد ومداواة المعتل والعمل على ما فيه خير المسلمين فسلّم عليه بالأمارة ووضع بين يديه خاتم الزبير وسيفه وقصَّ عليه أمره معه لم يخف عنه شيئاً كل ذلك وأمير المؤمنين عليه السلام يصغي وعيناه تحدقان بسيف الزبير الملقى أمامه حتى إذا ما انتهى ابن جرموز من سرد قصته صعَّد إليه بصره وقال له : أنت قتلته ؟ قال : نعم . قال أمير المؤمنين : « والله ما كان ابن صفية جباناً ، ولا لئيماً ، ولكن الحين ومصارع السوء » وصمت قليلاً ثمَّ قال : ناولني هذا السيف . فأسرع ابن جرموز بالتقاط السيف وتقديمه إلى سيدنا علي فتناوله بيده الشريفة وأخذ يهزُّه مراراً وقال : « هذا سيف الزبير وطالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله » فقال ابن جرموز وقد بدأ يفهم أن مطامعه=

جَـرَى بِـهِ خَبَبَـاً يَسْعَى مُـطَهَّمُـهُ   يَعْلُوْ ٱلْجِبَـالَ وَيَهْـوِيْ فِيْ مَهَـاوِيْهَـا

=بعيـدة التحقيق : أين الجـائـزة يـا أميـر المؤمنين وقـد قتلت أعـدى أعـداء خـلافتـك ؟ فتبسّم عليه السلام وقال أتطلب الجائزة يـا ابن جرموز وقد قتلت الـزبير حـواري رسول الله ؟؟ والله لـولا دخولـه في الفتنة حتى أهـدر الشرع دمـه لقتلتك بـه ولكن جائـزتك هي التي أعدّها الله لقاتله فقد سمعت رسول الله يقول : « بشّر قاتل ابن صفيّة بـالنار » فلمّـا رأى ابن جـرموز أنّ جـائزتـه هي تبشيره بـالنار وأنّـه لولا الشـرع وإحلالـه دماء العصـاة على الخلافة لكان مقتولاً بالزبير هرول هارباً ناقماً راضياً من الغنيمة بـالسلامـة وفي نفسه من العداء لسيدنا علي ما فيهـا ثمَّ خرج على أميـر المؤمنين مع أهـل النهر لضيعـة مطامعـه وخيبة آماله فقتله عليه السلام معهم .

هكذا ختمت حياة الزبير بن العوام الذي صـرعته مصـارع الحين كما قـال سيدنـا أمير المؤمنين والذي يستلفت النـظر في هذه القصـة هو كمـال سيدنـا أمير المؤمنين في أخلاقه العالية ذلك الكمال الذي رفَّعه عن الحقد والضغينة وحب الانتقام من رجل أقـلّ ما يقال فيه أنّه كان من زعماء الذين ألّبوا الناس عليه وحملوه على أن يفتتح عهد خلافته بسفـك دماء المسلمين . لا جـرم أنّ هذا العلوّ في الأخـلاق الفـاضلة لا يكـون إلّا في نفس من عـلا الناس بقـداسته وطهـارته وإيمـانه كـالإمام الأعـظم أمير المؤمنين سيـدنـا علي بن أبي طـالب عليه السلام ولو كـان غيره في مـوقفه لمـا أمهل أن صفق طـرباً لمن وافـاه يبشّره بهلك أعدى عداة خلافتـه ولكن أنعم على قاتله بـالهيل والهيلمـان وضمه إلى من حوله من الأنصار والأعوان ولكن حاشا لأمير المؤمنين أن يكون كـذلك . إنّـه عليه السلام كان كعميد للمسلمين ينظر إلى جمهـورهم نظر الأب إلى البنين فهـو لا يحقد على العـاصي ولا يحفظ في صدره ضغينةً على المعـادي بل يـطلب للجميع الصـلاة والإصلاح شـأن الأب المربي . إنّه ما كتم أسفه لمصرع الزبيـر ولا نسي خدمـات هذا الصحـابي الكبير للإسلام على عهد المصطفى عليهما الصلاة والسلام فأنسـاه فضله هذا إسـاءَته الأخيـرة لخـلافتـه ولا عجب في ذلـك وهـو يعـرف معنى قـول الله ﴿ **الحسنـات تـذهبن السيئات** ﴾ وأبى إلّاأن يهزَّ سيف الزبير ويذكر لصاحبه مـواقفه في الغـزوات النبويـة كما أبت عليه نفسه الشـريفة أن يكتم قـاتله بأنَّ جـزاءَه النار وأنّـه لولا أن يهـدر الشرع دمـاء العاصين على الخلافة لقتله بالزبير . وبذلك كان سيدنا علي بن أبي طالب أفضـل قدوة للأمراء المسلمين في معاملة رعاياهم فلا يحقدون عليهم ولا يمكرون بهم ولا يكيـدون لهم أحياءً وأمواتاً . =

حَتَّى إِذَا حَلَّ فِيْ وَادِيْ آلسِّبَاعِ رَأَى أَنَّ آلْهَنَا عِنْدَهَا فِيْ قَعْرِ وَادِيْهَا

= وأقول هنا والشيء بالشيء يذكر إنّ هذه القصة كنت سمعتها من فم عظمة مولاي السردار أرفع الشيخ خزعل خان للمرة الأولى في سنة ١٩١١ ميلادية ففي تلك السنة كنت في المعية السنية في المحمرة وحدث فيها حادث يحسن بنا تلخيصه للتاريخ لما فيه من العبرة البالغة وهو :

في خلال سنة ١٩١٠ عيّن الاتحاديون الذين كانوا مسيطرين على الدولة العثمانية رجلاً منهم يدعى سليمان نظيف والياً لولاية البصرة وهي كما تعلم على حدود المحمرة ومرّ هذا الوالي بمصر فاجتمعت به وذكرت له فساد السياسة التركية مع العرب وأمرائهم ووجوب تبديلها بسياسة أنفع للأتراك والعرب ولا سيما في العراق واليمن وذلك بمسالمة الأمراء المجاورين وإنصاف أهالي المدن الخاضعين للحكم العثماني مباشرةً وقلت إنّها السياسة الوحيدة التي يرجى من ورائها تجديد مجد الدولة العثمانية كما يحب العرب والأتراك معاً فأظهر ذلك الوالي حسن النية في سماع نصائحي التي هي نتيجة درس واختبار طويلين وسار إلى البصرة وبالفعل سار عليها وتودّد إلى عظمة مولاي السردار أرفع الشيخ خزعل خان وساكن الجنان الشيخ مبارك الصباح أمير الكويت أجمل تودّد وكانت أجمل مظاهر سياسته تلك أنّ الأمان قد استتب في ولاية البصرة لأنّ الأشقياء الذين كانوا يغتنمون فرصة غضب هذين الأميرين العظيمين وهما صاحبا الحول في هاتيك الأطراف من سوء سياسة الولاة الأتراك فيعوثون في البلاد فساداً قد تهيبوا هذا الوفاق لعلمهم إنّ الدولة العثمانية إذا كانت تعجز عن تأديبهم فالأميران لا يعجزان وهكذا بقي سليمان نظيف والياً في البصرة ثمانية أشهر والولاية على أحسن ما يكون من الأمن لا بفضل تدابيره ولا بسطوة دولته ولكن بنفوذ الأميرين الجليلين المشار إليهما وهما في الحقيقة صاحبا الحول والطول وكان من حسن حظ العرب توثّق عرى الوداد بينهما حتى كانا كأخوين متضامنين .

غير أنّ الطبع غلاب والاتحاديون لم تكن سياستهم في الدولة العثمانية سياسة تأمين وتعمير بل سياسة ضغط وتوسع فصعب على سليمان نظيف بل وعلى الوزارة الاتحادية في الآستانة نفسها أن يكون الأمر في سواحل العراق بيد هذين الأميرين العظيمين وكانا على اتحاد تام فحدثتهم نفوسهم الشريرة بالاعتداء عليهما وبالفعل انقلب سليمان نظيف بين عشية وضحاها على الأميرين وابتدأ العدوان ضد إمارة =

= المحمرة في حديث يطول وكانت نتيجة اعتدائه هذا أن تحوَّلت هذه السياسة الاتحادية الخرقاء إلى مشكلة دولية حملت الدولة الإنكليزية الوفية على الظهور بمظهرها الحقيقي وهو المحاماة عن حقوق أمراء العرب وأسرعت الوزارة الاتحادية لإخفاء خزلانها بعزل سليمان نظيف عن البصرة وكان لي في هذا الحادث يد معروفة لأنّي ذهبت وقتئذٍ إلى بغداد وقابلت ناظم باشا الذي أرسله الاتحاديون إلى العراق لإكراه ناسها على الاستسلام لإدارة الاتحاديين القاهرة وهي ترك لغتهم وجنسيتهم العربية الشريفة بالقسر فحدثت ناظم باشا عن فساد سياسة سليمان نظيف وما ستجرُّ على الدولة من المشاكل وأنا أحسبه عاقلاً نزيهاً فإذا هو شرّ من أصحابه وإذ لم يقنع من قولي أرسلت التيلغرافات العديدة لطلعت بك وشوكت باشا زعيمي الاتحاديين في وزارتهم وقتئذٍ . وعلى أثر جهادي هذا وإخلاصي اعتدى ناظم باشا على حريتي وأخرجني من بغداد باستبداد التركي الغشوم في حديث غريب ليس هنا محلّه .

أذكر أنني بعد عودتي من بغداد إلى المحمرة المحمية كنت مرة في حضرة عظمة مولاي السردار أرفع الشيخ خزعل خان في مجلسه العامر بأهل العلم والفضل وإذ ذكر ذاكرٌ سليمان نظيف وعزله وارتحاله عن البصرة مخذولاً فقال عظمته حفظه الله تعالى لا تذكروه بشرّ فقد فعل ما فعل تنفيذاً لرغبات الدولة التي ائتمنته على مصالحها وإذا كان عمله قد جرَّ عليه أو على دولته الضرر فما الذنب عليه بل على الوزارة التي عملت برأيه أو حملته على السير على ما ارتأت وإنّي لست بحاقد عليه إنّها مشادّة بين العرب والأتراك فهم يحاولون أن يستعبدونا ونحن نحاول أن لا نكون عبيداً لهم : فأعجب الحاضرون بهذه الأخلاق الفاضلة المزدانة بها تلك النفس العالية نفس الحضرة السنية الخزعلية فقال روحي فداه لا تتعجبوا فأين أنا من أبي الحسن عليه السلام ألم تسمعوا بما قاله يوم قتل الزبير بن العوام وجاءَه قاتله يستجيزه وقصَّ علينا قصة الزبير . ثم قال حفظه الله : ألا أن من يريد أن يتعلم مكارم الأخلاق فليتربَّ على يدي سيدنا أمير المؤمنين وليتأدّب بأدبه فازددنا إعجاباً بهذا الأمير العظيم بارك الله فيه وقلت في الحال مرتجلاً :

الله أكبر يا معزُّ فأنت أفضـ   ـل من تسوَّد في الأعارب أو حكم
وأبرُّ مَن تبع العليَّ مقلّداً   أحكامه ومردّداً عنه الحكم
لا غروَ أن أضحت بك العرب الكرا   مُ بعزةٍ تعساءَ تحسدها العجم
=

= فلقـد حلمت عن العـدى حتى لتأ   بى أن تَنـالَ وقـد بغت بغيـاً بـذم
وكـذاك كـان المـرتضى لعـداتـه   وكـذا يكـون المجـد حقّـاً والكـرم

« ترجمة الزبيــر »

هو أبو عبد الله الزبير بن العوّام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي فيجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقصيّ . وأمّـه صفية بنت عبـد المطلب بن هـاشم عمّة المصـطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام . أسلم الزبير وهو في الخامسة عشرة من عمره وكان إسلامه بعد أبي بكر بقليل وهاجر إلى الحبشة أولاً وإلى المدينة ثانياً . وهو أحد العشرة المشهـود لهم بالجنّـة وأحد الستـة الذين خصّهم عمـر بـالشـورى . وقـد شهـد الـزبيـر المشـاهد كلّهـا مع رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وكان أول من سـلَّ سيفاً للجهـاد في الإسـلام . وآخى الـرسول بينـه وبين سلمة بن سـلامة من الأنصـار . وكان يـدعى الـزبيـر حـواري رسـول الله والحواري معنـاه الخالصـة أو المخلص تقول فـلان خالصـة فلان وخلصـانه وحواريه وسبب تلقيبه بهذا اللقب الشـريف هو أنّـه في يوم الأحـزاب في غزوة الخنـدق لبّى دعوة الرسول إذ انتدب ثلاثاً مَن يأتيه بنبأ القوم فكان الزبير ملبّيه فيهـا فقال إنّ لكـل نبيٍّ حواري وحواريَّ الزبير . وكان الزبير مع عمرو بن العاص يوم فتح مصـر على عهد عمر بن الخطاب . وقد كان الزبير أشدّ الصحابـة تمسكاً بـالولاء لبني هـاشم على عهد الرسول لأنّهم أخواله وكانوا يحسبونه واحداً منهم .

وكان الزبير أشدَّ الناس كدراً لضياع الخلافة من سيدنـا عليّ في يوم السقيفـة ولم يبايع أبـا بكر إلّا وهـو مكره إذ لجـأ وقتئذٍ إلى بيت سيـدتنا فـاطمة وجـاءَه عمر والسيف مشهر بيده واستاقه قهراً إلى أبي بكر حتى بـايعه والقصـة مشهورة وكـان يصحب فاطمـة الزهراء عليها السلام لاستنهاض المهاجرين والأنصار لنكث بيعة أبي بكر ومبايعة عليّ وأحـاديثه في الانتصار لأمير المؤمنين عليه السلام كثيرة أجمع المؤرخون على صحتها .

وعندما عـاد عبد الـرحمن بن عوف يـوم الشورى من مشـاورة الناس وأنبـأ الزبيـر بوجوب مبايعة عثمان أنكر عليه ذلك ونادى ليس لها إلّا علي بن أبي طالب عليه السلام . ولـم ينقلب الـزبير على سيـدنا علي إلّا بعـد أن كبر ابنـه عبد الله فـأثر عليـه وأبعد قلبـه عن موالاته طمعاً بالخلافة على ما سترى في ترجمة عبد الله هذا . =

وَلَمْ تَكُنْ عَنْ قِتَالِ ٱلْقَوْمِ رَاضِيَةً فَحَايَدَتْهَا وَقَرَّتْ فِيْ مَثَاوِيْهَا

= وكان الزبير شديداً على عثمان يغري الناس بقتله كما كان بقية وجوه الصحابة والأنصار وكان في مقدمة من بايعوا سيدنا علي بايعه بعد طلحة ثمَّ كان في مقدمة المنقلبين عليه على ما سبقت الإشارة وتلا ذلك مسيره مع أصحاب الجمل لحربه ففراره إلى أن قتل غيلةً كما تقدم القول وكان مقتله وهو في السابعة والستين من عمره . وكان الزبير أسمر اللون ربعة في القوام معتدل اللحم خفيف اللحية أسود الشعر فصيح اللسان .

أمّا مدينة الزبير التي دعيت باسمه فهي تبعد ثمانية أميال عن البصرة وقد بنيت على الأرض التي جرت عليها موقعة الجمل وكان في موضع هذه المدينة قبر الزبير ولم نجد فيما بين أيدينا من التواريخ كيفية نقل رفاته من وادي السباع إلى هذا الموضع ولا أسماء الذين نقلوها ولكن قبر الزبير كان هناك من عهد عهيد وكان متهدماً وكان بجواره خان تنزل فيه القوافل وهي سائرة من البصرة إلى الشام وبنيت بجواره بضعة بيوت من الآجر وسوق صغيرة من قبل سنة ١٠٠٠ للهجرة .

وعندما ظهر الشيخ أحمد عبد الوهاب الشهير في نجد بدعوته وأيّده الأمراء آل سعود ترك نجداً كثيرون من ذوي البيوتات النجدية الكريمة منهم آل زهير وآل بسام وآل ثاجب وآل فداغ وآل مشري وآل منديل وسكنوا في هذا الموضع ودعوه على إسم الزبير وابتنوا بجوار قبر الزبير مسجداً للصلاة وأخذ الناس يتبعونهم ويجاورونهم فكبرت بهم المدينة واشتهرت بتجارة الخيل يستوردونها من نجد ويرسلونها بطريق البصرة أو الكويت إلى بومباي لتباع في أسواق الهند ويبلغ عدد سكان هذه المدينة الآن نحو عشرة آلاف نسمة وكان الحكم فيها لآل زهير ظلّوا يحكمونها إلى منذ أربعين سنة وكان آخر حكّامها منهم المرحوم سليمان الزهير الشهير . ثمَّ تسطت عليها الدولة العثمانية بعد أن تسطت على البصرة واستخلصت حكم هذا البلد من آل سعدون وجعلتها قصبةً تابعة للبصرة إلاّ أنّها أبقت الزعامة فيها لأهلها العرب وكان حاكمها الأخير على ما أعهد منذ أعوام صاحب السعادة عبد الكريم آل مشري .

وليس في الزبير وضواحيها زراعة لعدم وجود الماء هناك ولذلك عمد كثيرون من أشراف الزبيريين إلى الانتقال إلى البصرة فأصبحت أكثر العائلات الكريمة التي أشرنا إليها ساكنة البصرة اليوم ولكن ظلّ لها أقرباء وعلائق عقارية ومالية في الزبير . =

وَبَيْنَمَا ٱلْأَحْنَفُ ٱلْمُقْدَامُ مُجْتَمِعٌ   بِصَحْبِهِ بِٱلَّذِي يَجْرِي يُفَاهِيْهَا

= « ترجمة عبد الله بن الزبير »

هو عبد الله بن الزبير بن العوام وأمّه أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبيها وعندما هاجرت أمّه إلى المدينة مع زوج أبيها أم رومان وأختها عائشة كانت حاملاً به فولدته في « قباء » فكان أول مولود للمهاجرين وجاءت به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فوضعته في حجره فدعا بتمرة فمضغها ثمَّ تفل في فيه فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ثمَّ حنّكه بتلك التمرة ودعا له وباركه . وكان فرح المسلمين بمولد عبد الله كبيراً لأنّ اليهود كانوا يقولون إنّ المسلمين سوف لا يلد لهم ولد . وقد دعاه رسول الله عبد الله وكنّاه بكنية جدّه « أبي بكر » .

وكان الزبير شديد الشغف بولده عبد الله كما كان المسلمون يحبّونه للسبب الأنف ذكره وعندما بلغ السابعة من عمره أرسله أبوه الزبير إلى المصطفى ليبايعه فتبسّم صلى الله عليه وآله وسلم وقبل بيعته .

ثمَّ إنَّ عائشة إذ لم يرزقها الله ولداً انصرفت إلى تربية ابن أختها عبد الله بن الزبير والعناية به وكانت تحبّه حباً جماً وقالت عائشة للمصطفى يوماً وقد يئست من الولد بماذا أكنّى وليس لي ولد فقال صلى الله عليه وآله وسلم بابن أختك عبد الله فصارت تكنى « بأمّ عبد الله » .

وشبَّ الزبير بين يدي خالته فأثرت على أمياله وأبعدته عن ولاء سيدنا علي عليه السلام مع موادّة بني هاشم حتى إذا ما بلغ الشباب صار يؤثّر على أبيه ويبعده عن عليّ وبني هاشم . ودخل على نفس عبد الله بن الزبير الطمع بالخلافة من يوم حصر عمر حقّ ولايتها بالستة وأبوه أحدهم فكان يحلم بأن يكون أبوه الخليفة وفي أيام عثمان كان عبد الله بن الزبير من أشدّ الناس على عثمان يقدح به ويحرش الناس عليه . حتى إذا ما قتل عثمان وخاب فأل خالته بولاية طلحة أسرع إلى مكة وانضمَّ إليها قبل مسير أبيه وطلحة إليها . ورافق عائشة وأصحاب الجمل إلى البصرة وكان في مدة حملة الجمل هو الذي يصلّي بالناس بأمر عائشة كما تقدم . كما كان عبد الله هذا هو الوسيط الوحيد بين الناس وعائشة فهو الذي أحضر لها جمل العرني لتركبه وهو الذي هددها بجيش سيدنا علي عند « الحوأب » حتى حملها على استئناف المسير بعد أن عزمت على الرجوع تائبةً نادمةً . وكذلك كان هو الذي أثّر على أبيه الزبير ليحنث باليمين التي =

= حلفها لسيدنا علي أن لا يحاربه . وعندما أظفر الله سيدنا علي بأصحاب الجمل عرض عبد الله هذا أن يبايعه عليه السلام بواسطة محمد بن أبي بكر فرفض بيعته لعلمه بأنّه غير صادق بها وعفا عنه فهرب إلى الشام وانضمَّ إلى معاوية وحضر معه موقعة صفّين الشهيرة .

وبعد مقتل سيدنا علي عليه السلام ورضاء سيدنا الحسن ببيعة معاوية ذهب عبد الله بن الزبير إلى المدينة وأقام فيها وكان معاوية يغدق عليه نعمه شأنه مع أعاظم رجال قريش ووجوه الأنصار على أنّ عبد الله بن الزبير كان في جملة الذين انقلبوا على معاوية عندما أرسل يطلب منه ومن أمثاله من كبار أبناء الصحابة والأنصار الرضاء ببيعة ابنه يزيد فرأى معاوية بعد أن استوثق من أهل الشام والعراق لابنه أن يسير بنفسه إلى المدينة ليستعمل نفوذه عليهم ويحملهم على الرضى بيزيد وقبل وصوله إلى المدينة أسرع سيدنا الحسين عليه السلام وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير هذا إلى مكة وهم مصممون على رفض البيعة ليزيد ومقاومتها مهما كانت الحالة . وكان معاوية يهمّه بيعة هؤلاء قبل كل مَن في المدينة لأنّهم كانوا وقتئذٍ أكبر وأوجه أولاد المهاجرين فلمّا وصل المدينة بخيله ورجله وهيله وهيلمانه وسمع أنَّ هؤلاء الزعماء الثلاثة قد تركوها وساروا إلى مكة كرمها الله تبعهم إليها وهو يتظاهر أنّه يريد النسك والحج فلما بلغها استدعاهم إليه وطلب منهم البيعة لابنه يزيد وعللهم بأن يكونوا في ولايته أصحاب الحلّ والعقد فلم يجب سيدنا الحسين وقال عبد الله بن الزبير أنّ الأولى أن تتركها شاغرة كما تركها رسول الله فيختار الناس لها من يشاؤون أو أن تعهد بها إلى رجل ليس من بني أبيك كأبي بكر أو أن تجعلها في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولدك ولا بني أبيك كما فعل عمر فحاول معاوية أن يستدرجهم بالوعود إلى موافقته على بيعة يزيد فما أفلح معهم وأصرّوا على إباء البيعة فقال : أحببت أن أتقدم إليكم ، إنّه قد أعذر من أنذر ، إنّي كنت أخطب فيقوم إليَّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح ، وإنّي قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن ردَّ عليَّ أحدٌ منكم كلمةً في مقامي هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقينَّ رجلٌ إلّا على نفسه . وبعد أن أتمَّ كلماته هذه دعا بصاحب عسكره بحضرتهم وقال : أقم على رأس كلّ رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فإن ذهب رجلٌ منهم يردُّ عليَّ كلمةً =

نَـادَى : وَمَاذَا أَنَـا بِـآللَّهِ أَفْعَـلُ بِـآلــــزَّبَيْـرِ مُشْقِيْ عِبَـادِ آللَّهِ مُـؤْذِيْهَـا

= بتصديق أو تكذيب فليضـرباه بسيفيهمـا ثمَّ قال : ومنذا أنا ذاهب إلى المسجـد فسقهم إليه . وبالفعل خرج معاوية المسجد وكان غاصاً بالناس بدعوة معاوية واستيق إليه سيدنا الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وقام على رأس كـلّ منهم رجلان مشهـران سيفيهما . وعلا معاوية المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : « إنَّ هؤلاء الرهط ، (وأشار إلى الثـلاثـة) سـادة المسلمين وخيـارهم ، لا يبتـزُّ أمر دونهم ، ولا يقضى إلاّ عن مشورتهم ، وأنّهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعـوا على إسم الله » فلم يكن في الناس إلاّ المبايع لأنّهم لو أرادوا أن لا يبايعوا لما استـطاعوا إلى ذلـك سبيلاً ولأنّهم رأوا سـاداتهم والسيوف مشهرة على رؤوسهم فتهيبوا موقفهم وبعد أن أكـره هؤلاء الثلاثـة على البيعة عادوا إلى المدينة وفي نفوسهم ما فيها على الحقّ المغصوب والأمر المسلوب .

وعندما مرض معاوية مرض الموت دعا إليـه ابنه يـزيد فـأوصاه وصيتـه وأهمها أن يكرم أهل الحجاز ويبرُّهم وأن يمالىءَ أهل العـراق بحيث إذا طلبوا منـه في كل يـوم أن يعزل عاملاً فليفعل وأن يعتصم بأهل الشام ويتخذهم بـطانته ثمَّ قـال : ولست أخاف أن ينازعك في الخلافة سوى أربعة أولهم الحسين بن علي وهذا سوف لا يدعه أهل العراق فإذا ظفرت به فلا تتعرَّض له بسوء لقرابته من رسول الله . والثاني عبد الله بن عمـر وهذا وقذته العبادة فإذا رأى الناس قد بايعوك بايع . والثـالث عبد الـرحمن بن أبي بكر وهـذا ليس له همة سوى في اللهو والنساء فيصنع ما يصنع الناس . والرابع عبد الله بن الـزبير وهذا سيجثم لك جثوم الأسد ويروغك مراوغة الثعلب فإن هو فعلهـا فظفـرت به فقـطعه إربـاً إربـاً اهـ وتـرى من هـذا أنّ معـاويـة لم يكن يحسب حسـابـاً إلاّ لسيـدنـا الحسين وعبد الله بن الزبير .

وعنـدما تـوفي معاويـة في هـلال رجب سنـة ٦٠ للهجـرة « ٧ إفـريـل سنـة ٦٨٠ ميلادية » نادى ابنه يـزيد بنفسـه خليفةً للمسلمين فبـايعه النـاس في دمشق ثمَّ كتب إلى الأمصار فبايعته وكان همّه الأعظم أن يأخذ بيعة النفر الـذين ذكرنـاهم فكتب بذلـك إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وكان عامل أبيه على المدينة ما نصّه « أمّا بعد فخـذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير أخذاً ليس فيـه رخصة حتى يبـايعوا والسـلام » فلما ورد نعي معاوية على المدينة المنوَّرة وهمَّ الوليد بن عتبة بالعمل حسبما أمره يزيد أسرع عبد الله بن الزبير إلى مكة وقال للناس : إنّي عائذٌ بالبيت . ولم يكن يصلّي مع النـاس =

قَــدْ لَفَّ غَــارَيْنِ مِنْ أَخْيَــارِ أُمَّتِنَــا بِفِتْنَــةٍ نَــارُهَــا تُعْيِي مُــطْفِيْهَــا

= أو يفيض في الحج بإفاضتهم . وفعل مثل ذلك سيدنا الحسين فخرج بأولاده ونسائه وأولاد ونساء أخيه الحسن إلى مكة وبايع عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ليزيد بعد أن بايع الناس .

وعندما أقبل سيدنا الحسين على مكة أقبلت الناس عليه وفيهم عبد الله بن الزبير وكان هذا يعلم يقيناً أنّ أهل الحجاز لا يبايعونه ما دام الحسين موجوداً فكتم ما في نفسه واتضع لصاحبه . حتى إذا ما دعا العراقيون سيدنا الحسين إليهم ليبايعوه ولبّاهم وسار إليهم أخذ عبد الله بن الزبير يترقب سير الحوادث وهو ينوي أن يعلن الدعوة لنفسه سواءً ظفر الحسين على معاوية بمعاونة العراقيين أو خُذل . فلما انتهى إلى عبد الله بن الزبير نبأ فاجعة المسلمين الكبرى بمقتل سيدنا الحسين عليه السلام دعا الناس إلى بيعته فبايعه الحجازيون وكان سبق ذلك عصيان أهل المدينة وأرسل يزيد بن معاوية مسلماً بن عقبة لقتالهم فسار إليهم وحاربهم وانتهك حرمة مدينة الرسول وأخضعهم بالسيف . وعلى أثر ذلك سار بأمر يزيد إلى مكة لإخضاع عبد الله بن الزبير اللائذ بالبيت العتيق فانتهى إلى مكة لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ هـ فصمد له عبد الله بن الزبير وطال القتال ورمى رجال يزيد مكة كرّمها الله والبيت العتيق بالمجانيق وما زال القتال مشتبكاً حتى ورد على مكة نعي يزيد وقد مات لأربع عشرة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤ للهجرة « ١٠ نوفمبر ٦٨٣ ميلادية » فوقف القتال وارتدّ جيش الشام أدراجه وظلّ عبد الله بن الزبير ولي الأمر في مكة كرّمها الله وكل الحجاز .

وخلف يزيد ابنه معاوية الثاني وهذا لم تطل مدّته فاعتزل ومات وخلفه مروان بن الحكم كما مرَّ معنا في ترجمة مروان وهذا قاتل الضحاك وغلبه وكان هواه مع عبد الله بن الزبير ومات ولا يزال عبد الله بن الزبير ولي أمر المسلمين في الحجاز . ولما مات مروان خلفه ابنه عبد الملك بن مروان وهذا رأي الحجاز والعراق منتقضتين عليه فقرَّ رأيه على أن يبدأ بمحاربة العراق ثمَّ يذهب إلى إخضاع الحجاز فلم يفلح بحربها وامتدَّت سلطة عبد الله بن الزبير إلى العراق . ثم أنَّ عبد الملك سار بنفسه إلى العراق وحاربها وأخضعها ووجّه وهو في الكوفة حملةً على الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي وذلك سنة ٧٢ للهجرة وبوصوله إلى مكة حصرها ورماها بالمجانيق ولم يزل كذلك حتى أضنى أهل مكة الحصار وضرب المجانيق فتفرقوا عن عبد الله بن الزبير =

حَتَّى إِذَا ٱحْتَكَمَتْ بِيْضُ ٱلظُّبَى بِرِقَا ... بِ ٱلنَّاسِ بَالِغَةً مِنْهَا تَمَنِّيْهَا

وَلَّى عَلَى وَجْهِهِ مِنْ بَيْنِهَا هَرَباً ... وَخَلَّفَ ٱلدَّارَ تَنْعِيْ خَطْبَ بَانِيْهَا

أَحْرَى بِهِ ٱلْقَتْلُ فَلْيَشْرَبْ ثُمَالَةَ هَا ... تِيْكَ ٱلْخُمُوْرِ ٱلَّتِيْ قَدْ كَانَ سَاقِيْهَا

وَكَانَ عَمْرُو ٱبْنُ جَرْمُوْزٍ بِحَضْرَتِهِ ... يُصْغِيْ لِقَوْلَتِهِ إِذْ رَاحَ مُلْقِيْهَا

فَهَبَّ مُقْتَفِياً آثَارَ صَاحِبِنَا ... بِنِيَّةِ ٱلْقَتْلِ كَانَ ٱللَّهُ قَافِيْهَا

وَصَحَّ مَنْ رَاحَ يَرْوِيْ لِلزُّبَيْرِ مَقَا ... لَةَ ٱبْنِ قَيْسٍ وَأَنَّ ٱلْقَتْلَ تَالِيْهَا

فَهَابَ مَثْوَاهُ فِيْ تِلْكَ ٱلْقِفَارِ وَلَمْ ... يَأْمَنْ عَلَى نَفْسِهِ إِنْ ظَلَّ آوِيْهَا

وَسَارَ عَنْهَا وَرَجْوَاهُ ٱلنَّجَاةُ وَأَرْ ... ضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةٌ فِيْ وَجْهِ طَاوِيْهَا

وَمَا خَطَا خَطَوَاتٍ فِيْ تَهَرُّبِهِ ... إِلَّا رَأَى خَلْفَهُ شَخْصاً يُتَلِّيْهَا

حَتَّى إِذَا ٱلْتَقَيَا قَالَ ٱلزُّبَيْرُ : وَمَا ... تَبْغِيْ فَبُغْيَتُكَ ٱلْحُسْنَا أُلَبِّيْهَا

أَجَابَ عَمْرٌو : لَقَدْ وَافَيْتُ أَسْأَلُ عَنْ ... أَهْلِ ٱلْحَنِيْفَةِ قَالَ : ٱلْحَرْبُ تُفْنِيْهَا

وَبَعْدَ طُوْلِ حَدِيْثٍ تَطْمَئِنُّ لَهُ ... نَفْسُ ٱلزُّبَيْرِ ٱلَّتِيْ خَافَتْ مُمَاشِيْهَا

عَلَيْهِمَا حَانَ مِيْقَاتُ ٱلصَّلَاةِ فَنَا ... دَاهُ ٱلزُّبَيْرُ : هَلُمَّ كَيْ نُصَلِّيْهَا

وَقَالَ : تُؤْمِنُنِيْ يَا عَمْرُو قَالَ : بَلَى ... وَعَجَّلَتْ كُلُّ نَفْسٍ فِيْ تَوَضِّيْهَا

وَإِذْ جَثَا أَبُ عَبْدِ ٱللَّهِ عَاجَلَهُ ... عَمْرٌو بِضَرْبَةِ سَيْفٍ رَاحَ مُهْوِيْهَا

وَٱجْتَثَّ رَقْبَتَهُ وَٱحْتَازَ خَاتِمَهُ ... وَسَيْفَهُ وَٱنْثَنَى فِيْ زَهْوِهِ تِيْهَا

= وخرجوا بالأمان إلى الحجاج فأمنهم ودخل مكة فاعتصم عبد الله بن الزبير بالبيت العتيق فما رعى له الحجاج حرمةً وضرب الكعبة بالمنجنيق واجتازها عنوةً ودخل على عبد الله بن الزبير وهو معتصم بالكعبة وقتله أشنع قتلة وكان في الثانية والسبعين من عمره إذ كان مولده في السنة الأولى من الهجرة كما سبق القول وأمّا خلافته فدامت تسع سنين إذ كانت بيعته سنة ٦٤ للهجرة .

وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنِّيْ ٱنْتَقَمْتُ لِأُمَّـــةِ ٱلرَّسُوْلِ وَقَدْ أَهْلَكْتُ طَاغِيْهَا

وَعَادَ لِلْأَحْنَفِ ٱلْمُغْرِيّ يُخْبِرُهُ بِفَعْلَةٍ فِيْ سَبِيْلِ ٱلدِّيْنِ آتِيْهَا

فَقَالَ : لَمْ أَدرِ إِنْ كُنْتَ ٱلْمُسِيءَ بِهَا أَمِ ٱلْمُجِيْدَ صَنِيْعاً فِيْ تَوَلِّيْهَا

فَاقْصُدْ حِمَى ٱلْمُرْتَضَى وَٱسْتَفْتِهِ عَجِلاً فَمَا لِأُمَّتِنَا إِلَّاهُ يُفْتِيْهَا

فَسَارَ لِلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّاءِ يَضْرِبُ فِيْ ٱلْـــبَيْدَا مُطَهَّمُهُ يَطْوِيْ فَيَافِيْهَا

حَتَّى إِذَا مَا ٱنْتَهَى لِلْحَضْرَةِ ٱلْعَلَوِيَّـــةِ ٱلَّتِيْ لَا تُحَابِيْ مَنْ يُوَالِيْهَا

سَيْفَ ٱلزُّبَيْرِ لَقَدْ أَلْقَى وَخَاتِمَهُ أَمَامَهَا بِهِمَا يَرْجُوْ تَرَضِّيْهَا

وَقَالَ : أَهْلَكْتُهُ أَبْغِيْ رِضَاءَ إِلَـــهِيْ وَٱلْخِلَافَةُ عَاشَتْ بَعْدَ عَادِيْهَا

فَأَنْكَرَ ٱلْمُرْتَضَى هٰذِي ٱلْجِنَايَةَ إِنْـــكَاراً عَلَى عَمْروٍ ٱلْجَرْمُوْزِ جَانِيْهَا

وَقَالَ : وَٱللَّهِ مَا كَانَ ٱلزُّبَيْرُ إِذَا خَاضَ ٱلرِّجَالُ غِمَارَ ٱلْحَرْبِ كَاعِيْهَا

لٰكِنَّمَا ٱلْحَيْنُ مَعْ سُوْءِ ٱلْمَصَارِعِ يَرْ مِيْ ٱلْمَرْءَ فِيْ نَكْبَةٍ صَعْبٌ تَوَقِّيْهَا

ثُمَّتْ تَنَاوَلَ ذَاكَ ٱلسَّيْفَ فِيْ يَدِهِ وَهَزَّهُ هَزَّةً قَدْ كَانَ رَاضِيْهَا

وَقَالَ : يَا طَالَمَا جَلَّى ٱلزُّبَيْرُ بِهِ عَنِ ٱلرِّسَالَةِ خَطْباً كَانَ فَاجِيْهَا

فَقَالَ عَمْروٌ أَجِزْنِي وَٱلصَّنِيْعَةُ قَدْ جَلَّتْ بِجَائِزَةٍ كُبْرَى تُوَازِيْهَا

قَالَ ٱلْوَصِيُّ : أَتَرْجُوْ أَنْ أُجِيْزَ عَلَى صَنِيْعَةِ ٱلشَّرِّ وَٱلآثَامِ مُسْدِيْهَا

فَقَدْ سَمِعْتُ رَسُوْلَ ٱللَّهِ يَنْذِرُ مَنْ يُرْدِيْ ٱلزُّبَيْرَ بِنَارِ ٱلْخُلْدِ يَصْلِيْهَا

كَذَاكَ قَدْ رَدَّ عَمْرواً خَائِباً يَئِساً مِنَ ٱلْأَمَانِي ٱلَّتِيْ قَدْ كَانَ رَاجِيْهَا

لَوَ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِيْهَا دِمَاءُ ذَوِيْـــهَا ٱلشَّرْعُ مُهْدِرُهَا مُعْفٍ مُرِيْقِيْهَا

لَمَا نَجَا عَمْرُو مِنْ عَذهل ٱلْإِمَامِ وَإِنْ نَجَّى ٱلْإِمَامَةَ مِمَّنْ كَانَ شَانِيْهَا

وَمَا ٱكْتَفَى أَنْ يُجَافِيْهِ وَيُرْجِعَهُ مَعَ ٱلْبِشَارَةِ بِٱلنِّيْرَانِ يَشْوِيْهَا

وَٱلْمُـرْتَضَى كَانَ أَسْمَى هِمَّـةً وَتُقًى مِنْ أَنْ يُؤَاتِيْ عَلَى ٱلآثَـامِ مُجْرِيْهَـا
وَإِنْ تَكُنْ خَــدَمَتْــهُ فِيْ سِيَــاسَتِـهِ وَضَعْضَعَتْ عَـزْمَ مَنْ أَمْسَى يُنَاوِيْهَـا
وَكَـانَ يَـرْفِضُ عَـوْنـاً لِلْخِـلاَفَـةِ لاَ تَـرْضَى ٱلشَّـرِيْعَـةُ عَنْـهُ مِنْ مُعِيْنِيْهَـا
وَهْـوَ ٱلَّذِيْ قَـدْ تَوَلاَّهَـا لِيَخْدِمَ شَـرْ عَ ٱلْمُصْـطَفَى لاَ لِإِطْمَاعٍ يُـوَخِّيْهَـا

مصير طلحة بن عبد الله

أَعْمَالُ طَلْحَةَ فِيْ قَتْـلِ ٱلْخَلِيْفَةِ عُثْــــمَـانٍ أُمَيَّـةُ لَمْ تَجْهَـلْ خَـوَافِيْهَـا[1]
فَــإِنَّهَـا عَــرَفَتْ مَـاضِي عَـدَاوَتِـهِ لَــهُ وَكَـانَ عَلَى ٱلْأَشْهَـادِ يُبْـدِيْهَـا
وَطَالَمَا كَـانَ يَسْتَهْوِيْ ٱلنُّفُـوْسَ إِلَى عِصْيَـانِـهِ عَلَنَـاً بِـآلْقَتْـلِ يُغْـرِيْهَــا

---

(١) مرَّ بنا فيما تقدم أنَّ طلحة كان في مقدمة الناقمين على عثمان الناعين عليه وعلى عمّاله أعمالهم وكان يغري الثائرين بقتله ويدعوهم إليه حتى أنّه في يوم مقتله كان مشتملاً بشملته إخفاءً لشخصه وكان يرمي دار عثمان بنبله مع رماتها ولما تعذّر على الثائرين دخول دار عثمان لتصدّي الحسن والحسين وبقية أبناء الصحابة إلى منعهم سار بهم إلى دار مجاورة لدار عثمان وأصعدهم إلى سطحها وبذلك دخلوا دار عثمان وقتلوه . وكان الأمويون يعرفون هذا كلّه ولا سيما مروان بن الحكم إلاّ أنّهم ما كانوا في الحقيقة مطالبين بدم عثمان بل كانوا يطلبون الخلافة ولذلك وجّهوا خصومتهم على أمير المؤمنين عليه السلام واتّهموه ظلماً بالتحريض على عثمان وحماية قتلته والذين ثاروا عليه من العقاب ولو تولاها أيٌّ كان من غير بني أميّة لكانت نغمتهم واحدة باتّخاذ دم عثمان حجةً لهم يحتجون بها عليه ليضعفوا أمره ويؤلّبوا الناس عليه توصلاً إلى الخلافة . ولهذا لا عجب إذا أغضوا عن طلحة والزبير وغيرهما ممن تألبوا على عثمان وتناسوا لهم حملاتهم الشديدة على ذلك الخليفة المقتول أو تجاهلوا ذلك بعد أن انضموا إليهم وأصبحوا في صفوفهم .

إلاّ أنّ مروان بن الحكم يختلف عن سائر الأمويين بأنّه هو السبب المباشر لقتل عثمان وإذا كان الثائرون على عثمان نقموا عليه لأجل عمّاله فجلّ نقمتهم كانت على مروان الذي كان هو الخليفة « غير الرسمي » المتصرف بشؤون الخلافة بينما كان عثمان=

فَهَــوَّشَ ٱلنَّـاسَ تَهْــوِيْشَــاً وَأَلَّبَهَــا   عَلَيْــهِ حَتَّى تَمَــادَتْ فِيْ تَعَصِّيْهَــا

= عاكفاً على الصلاة والصوم وتلاوة القرآن العزيز ولم يكن له من الأمر غير الإسم . ولهذا كان ضمير مروان يوبّخه ويؤنّبه كلّ ما ذكر عثمان وطيبة قلبه وأنّه قتل بجريرته وكان كعربي يرغب من صميم قلبه أن يثأر له من قاتليه الأصليين وعلى رأسهم طلحة والزبير .

وما زال مروان بن الحكم يحارب مع أصحاب الجمل إلى أن تشتت شملهم وامتلأت الأرض من دماء قتلاهم حتى إذا ما تفرّقوا بعد هلاك الجمل أيدي سبا رأى أنّه مكرهٌ على الفرار كما فرّ من بقي حيّاً من أصحابه ولكن عزَّ عليه أن يترك ميدان القتال وطلحة وهو عدوّه الأكبر حيّ فقال لا أطلب ثأر عثمان من طلحة بعد اليوم وانتحى له بسهمٍ أصاب ساقه وقطع أكحله وكان طلحة قبل سهم مروان قد أصيب بجروح كثيرة وهو ثابت على القتال يشجّع النفر القليل الذين ثبتوا معه على حرب أنصار الخليفة فلما أصابه سهم مروان وقع من فوق جواده إلى الأرض وتركه الذين ظلّوا معه وولّوا هاربين يطلبون السلامة لأنفسهم من بطش سيدنا أمير المؤمنين .

وجعل طلحة يئنُّ بين الجرحى الكثيرين الذين حوله وهو يقول « ما رأيت كاليوم دم شيخ قرشي أضيع من دمي » وبينما كان طلحة يجود بروحه ودماؤه تسيل من جسده وشرُّها دم أكحله حيث أصابه سهم مروان وإذا بأعرابيّ مرَّ به فقال له من أصحاب مَن أنت ؟ فقال من أصحاب علي عليه السلام فقال اقرىء أمير المؤمنين السلام وأبلغه توبتي وندمي على ما كان مني وامدد يدك لأبايع لأمير المؤمنين ثانيةً فمدَّ إليه يده فبايعه وتركه الأعرابي ومضى أمّا طلحة فزفر وتأوّه وقال اللّهمَّ خذ لابن عفّان منّي وقضى . ثم مرَّ معنا في حاشية سابقة كيف مرَّ أمير المؤمنين بجثته وهو قتيل مضرّج بدمه وما قاله عندها وهكذا انتهت حياة هذا الصحابي الكبير .

« ترجمة طلحة »

هو أبو محمد طلحة بن عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة ويجتمع برسول الله بمرَّة . وأمّه تدعى الصعبة بنت الحضرمي وكانت قبل أن يتزوجها أبوه عبيد الله زوجاً لأبي سفيان بن حرب والد معاوية فطلّقها ثمَّ تبعتها نفسه فقال يتشوَّق إليها قصيدة مطلعها : =

وَعِنْدَمَا ٱسْتَفْحَلَتْ إِذْ ذَاكَ فِتْنَتُهَا وَخَابَ مَسْعَى ٱلْأُلَى رَامُوا تَلَافِيْهَا

= إنّي وصعبة فيما أرى بعيدان والودُّ ودٌّ قريب

وطلحة أحد الصحابة العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة الذين ترك عمر الأمر شورى بينهم . وكان يلقّب بطلحة الخير . وطلحة الفياض . وطلحة من السابقين إلى الإسلام أسلم على يد ابن عمّ أبيه أبي بكر قبل إظهار الدعوة وهاجر إلى المدينة مع نساء أبي بكر وعياله . ولم يحضر طلحة موقعة بدر فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أرسله يومئذٍ مع سعيد بن زيد ليتجسس عبر قريش على أنّه شهد أغلب المشاهد النبوية .

وأهمّ مواقف طلحة كانت في غزوة أُحُد وفيها شُلّت أصبعه وقد روى طلحة نفسه ما جرى له في أُحُد قال : « أتى مالك بن زهير الجشمي بسهم يريد رسول الله وكانت رميته لا تخطىء فاتّقيت السهم بيدي عن وجه رسول الله فأصاب خنصري فشلَّ » ولذلك كانوا يسمّونه « أبا أصبع » كما رأينا عائشة تدعوه . وروى الثقاة أنّ طلحة عندما ألقى السهم وأصاب أصبعه قال آه فقال رسول الله « لو قال بسم الله لدخل الجنة والناس ينظرون ، من أحبَّ أن ينظر إلى رجل يمشي في الدنيا ، وهو من أهل الجنة ، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » وأنَّ سيدنا عليّ عليه السلام وهو على ما علمت من إنصافه لأعدائه قبل أصدقائه ذكر ذاكرٌ بحضرته بعد موقعة الجمل طلحةً بسوء فزبره وقال : « إنّك لم تشهد يوم أُحُد وعظم غنائه عن الإسلام مع مكانه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » . فقال قائلٌ وما كان غناؤه وبلاؤه يرحمه الله يوم أُحُد ؟ فقال عليه السلام : « نعم يرحمه الله لقد رأيته وأنّه يترس بنفسه دون رسول الله وأنّ السيوف لتغشاه والنبل من كل ناحية وما هو إلّا جنةً لرسول الله يقيه بنفسه » وهكذا كان عليّنا عليه السلام لا يبخس الناس أشياءَهم ولو كانوا عداته ولا سيما أكابر الصحابة الذين أيدوا الإسلام ونشروا دعوته .

ولم يحضر طلحة مجتمع السقيفة عندما بويع ابن عمّه أبو بكر إلّا أنّه لم يتأخّر عن البيعة . وبواسطة قرابته من أبي بكر كان يطمع أن ينال الخلافة ويعدُّ نفسه لها يدلك على ذلك دخوله على أبي بكر وهو يجود بنفسه يعاتبه على بيعة عمر كما تقدم القول في حاشية سبقت . والظاهر أنّ عمر كان يحسب لطلحة حساباً فاتّخذه موضع شوراه وميّزه بعطاء قالوا وكان طلحة على عهد عمر يختلي بخاصته ويتحادثون بالخلافة بعد عمر على أن يبايعوه بها وبلغ ذلك عمر فخطب في الناس محذراً لهم العودة إلى ما جرى في وقت بيعة أبي بكر قائلاً « إنّها فلتة ولكن وقّى الله شرَّها » . =

= وكان طلحة غائباً عن المدينة عندما قتل عمر فلم يحضر شورى الستـة وعاد إليهـا يوم بيعة عثمان فلمّا علم بها داخله الهمّ والغمّ وكان في مقـدمة النـاقمين عليه ولكن مـا تأخّر عن بيعته ويظهر لي أنه عرف بأنَّ فوز عثمان كان بفضل مـا بذل معـاوية من المـال في تحزيب الأحزاب فـأراد أن يحذو حـذوه ودليلي على ذلك أنّـه باع من عثمـان أرضاً بسبعمائة ألف درهم فحملها إليه فقال طلحة « إنّ رجلاً يبيت وهذا المال عنده وفي بيتـه لا يدري ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله » وبالفعل شرع في تلك الليلة يوزعها مع رسله في شوارع المدينة المنوَّرة على الناس حتى أصبح الصباح وما عنده درهمٌ واحدٌ . قـال راوي هـذا الخبر وهـو حسن البصري فعـل هـذا طلحـة ثم جـاءَ إلينـا يـطلب الـدينـار والدرهم . وعلى مثل هذه الرواية وما عـرفناه بعـد من نقمته على سيـدنا علي لأنّـه أراد المسـاواة بينه وبين المسلمين بـالعطاء لا يفسّـر توزيعـه المال على النـاس إلاّ لاكتساب قلوبهم يوم يعلن البيعة لنفسه والله أعلم .

أمّا ظهوره بالعداء لعثمان فهو ما لا ريب فيه وقد تضافرت عليه الـروايات وأهمّهـا في نظرنا شهادة أمير المؤمنين الذي لا يشكّ مؤمن في صـدقها وقـد شهد عليه السلام غيـر مرّة بكل صراحة بأنَّ طلحـة كان أشـدَّ الناس على عثمـان ومن هاتيـك الشهادات بـل أبينها وأصرحها قـوله عنـدما بلغـه أنّ طلحة نكث بيعتـه ونهض يطالبـه بدم عثمـان على شفار السيوف « قد كنت وما أهدَّد بـالحرب ، ولا أرهب بـالضرب ، وأنـا على ما قـد وعدني ربّي من النصر ، والله ما استعجل (طلحة) متجرّداً للطلب بدم عثمـان ، إلاّ خوفـاً من أن يطالب بدمه لأنَّه مظنته ، ولم يكن في القول أحرص عليه منه ، فـأراد أن يغالط بمـا أجلب فيـه ليلتبس الأمـر ، ويقـع الشـكّ ، ووالله مـا صنـع في أمـر عثمـان واحـدةً من ثلاث ، لئن كان ابن عفان ظالماً كما كان يزعم ، لقـد كان ينبغي لـه أن يوازر قـاتليه ، وأن ينابذ ناصريه ، ولئن كان مظلوماً ، لقد كان ينبغي له أن يكون من المتهنهين عنـه ، والمعذرين فيه ، ولئن كان في شكّ من الخصلتين لقـد كان ينبغي لـه أن يعتزلـه ويركن جانباً ، ويدع الناس معه ، فما فعل واحدةً من الثلاث ، وجاءَ بأمر من لم يعرف بابـه ، ولم تسلم معاذيره » اهـ وفي هذا كفاية .

ثمَّ رأينا في سياق ما نحن فيه كيف بايع طلحة قبل كـل الناس سيـدنا علي وكيف نكث بيعتـه وكيف ألَّب الناس عليـه وكيف سـار إلى البصـرة وكيف قُتـل . وممـا تجب =

وَكَانَ فِيْ زمْرَةِ آلثُّوَّارِ حِيْن رَمَتْ دَارَ آبْنِ عَفَّانَ بِآلْأَنْبَالِ يَرْمِيْهَا

وَصَارَ يَطْلُبُ مِنْهَا قَتْلَهُ وَبِهِ قَدْ كَانَ رَغْمَ نَوَاهِيْ آلشَّرْعِ يُفْتِيْهَا

حَتَّى إِذَا هَاجَمَتْ دَارَ آلْخِلَافَةِ تَبْـغِيْ قَتْلَ صَاحِبِهَا صَبْرَاً بِأَيْدِيْهَا

وَحَالَ دُوْنَ مُنَاهَا مَوْقِفُ آلْحَسَنَيْـنِ مَعْ بَنِيْ آلصَّحْبِ إِذْ صَدُّوْا تَعَدِّيْهَا

وَافَى بِهَا طَلْحَةُ دَارَ آلْخَلِيْفَةِ مِنْ سَطْحٍ بِجِيْرَتِهَا آلدُّنْيَا يُحَازِيْهَا

أُمَيَّةُ عَرَفَتْ هٰذِيْ آلْفِعَالَ لَهُ لٰكِنَّهَا أَظْهَرَتْ عَنْهَا تَغَاضِيْهَا

لَمَّا رَأَتْهُ عَلَى عُدْوَانِ حَيْدَرَةٍ مُصَمِّمَاً وَهْوَ فِيْ هٰذَا مُرَاهِيْهَا

وَكَانَ يَعْرِفُ مُرْوَانُ حِكَايَتَهُ وَكَانَ مَعَ طَلَبِ آلثَّارَاتِ يَحْكِيْهَا

وَكَانَ مَعْ مَنْ سَعَوْا سَعْيَاً بِعَائِشَةٍ لِوَقْعَةِ آلْجَمَلِ آلسَّوْدَاءَ يُزْفِيْهَا

وَعِنْدَ مَا نَصَرَ آللّٰهُ آلْعَلِيَّ وَأَعْـدَاهُ قَدِ آنْخَذَلَتْ وَآللّٰهُ مُخْزِيْهَا

مُرْوَانُ نَادَى : وَثَأْرِيْ لَسْتُ تَارِكَهُ وَنَشْأَتِيْ لَسْتُ بَعْدَ آلْيَوْمِ مُنْسِيْهَا

لَأَقْتُلَنَّ بِعُثْمَانٍ وَإِنْ طَلَبَ آلـنَّاسُ آلسِّوَى طَلْحَةً كِذْبَاً وَتَمْوِيْهَا

فَإِنَّهُ دُوْنَ كُلِّ آلنَّاسِ قَاتِلُهُ وَآلنَّفْسُ فِيْ قَتْلِهِ تُلْفِيْ تَشَفِّيْهَا

وَبَيْنَمَا طَلْحَةُ بَاقٍ لِحَرْبِ رِجَا لِ آلْمُرْتَضَى مَعْ بَقَايَا آلنَّاسِ يُنْخِيْهَا

وَقَدْ مَلَتْ جِسْمَهُ نَبْلُ آلْخِلَافَةِ وَآلْـجِرَاحُ مِنْ دَمِهِ سَالَت مَجَارِيْهَا

= الإشارة إليه هنا هو أن اشتراك طلحة والزبير في نقمتهما على عثمان وعدائهما لسيدنا عليّ قد جعل اسميهما مصطحبين ولذلك أطلق عليهما إسم « الزبيرين » فحيثما وجدت هذا الإسم فاعلم إنّما يراد به طلحة والزبير .

وقتل طلحة بين من قتل مع الجمل وله من العمر ٧٥ سنة ودفن في موضع الموقعة وهو إلى الشمال الشرقي من بلد الزبير علىٰ مسافة يسيرة ومدفنه معروف هناك إلى اليوم ويسمّونه « قبر طلحة الخير » .

وَإِذْ رَمَى طَلْحَـةً مِرْوَانُ رَمْيَـةَ مَوْ تُـورٍ تَشَفَّـى بِهَـا تَـآلـلّهِ رَامِيْـهَـا

فَـرَاحَ طَلْحَـةُ يَشْكُـوْ مِنْ جِـرَاحَتِـهِ وَقَـدْ دَرَى لَيْسَ غَيْرُ ٱلْمَـوْتِ تَالِيْهَـا

وَبَيْنَمَـا هُـوَ مَـا فَـوْقَ ٱلتِّـرَابِ يُعَـا نِيْ سَكْرَةَ ٱلْمَوْتِ مَعْ جَرْحَى تُعَانِيْهَا

لاَقَى فَتَىً قُرْبَهُ يَمْشِيْ فَقَالَ : أَخَا ٱلْأَ م عْـرَابِ بَـادِرْ عَـزِيْـزَاً فِيْ قُـرَيْشِيْهَـا

فَجَـاءَهُ ٱلْعَـرَبِيُّ ٱلشَّهْمُ يَسْـأَلُـهُ عَنِ ٱلـرِّغَابِ ٱلَّتِـيْ يَـرْجُوْ لِيَقْضِيْهَـا

فَقَالَ : هَلْ أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ حَيْدَرَةٍ أَجَـابَ : أَمْـرَتُـهُ إِنِّيْ مُـوَالِيْهَـا

فَقَالَ : مَا نَفْسُ شَيْخٍ فِيْ ٱلْأَعَارِبِ قَدْ ضَـاعَتْ كَنَفْسِيْ وَإِنِّيْ كُنْتُ مُرْدِيْهَـا

هَلْ أَنْتَ تَعْرِفُنِيْ يَا صَاحِ قَالَ : بَلَى يَا طَلْحَ ذِيْ ٱلْحَرْبُ مَا إِلَّاكَ مُلْظِيْهَا

فَقَـالَ : أَبْلِغْ عَلِيَّـاً تَـوْبَتِيْ عَلَنَـاً وَٱطْلُبْ لِيَ ٱلْعَفْوَ مِنْ عَلْيَاهُ تَجْـرِيْهَا

وَٱمْـدُدْ يَـدَاً كَيْ أُثَنِّيْ ٱلآنَ بَيْعَتَـهُ بِـهَـا مُبَـايَعَـةً لِلَّهِ أُعْـطِيْـهَـا

فَـمَـدَّهَـا وَتَلَقَّى مِـنْـهُ بَـيْـعَـتَـهُ وَسَـارَ نَـحْـوَ عَلِيٍّ كَـيْ يُؤَدِّيْـهَـا

وَبَعْـدَ ذَا طَلْحَـةُ أَبْـدَى تَـأَوُّهَ مَـأْ يُـوسٍ وَمُـهْجَتُـهُ بَادٍ تَعَـفِّيْـهَـا

وَصَاحَ : خُذْ لِٱبْنِ عَفَّانٍ بِعَدْلِـكَ يَا رَبَّـاهُ مِنِّيْ حُقُـوْقَـاً أَنْتَ رَاضِيْهَـا

وَلَمْ يَـزَلْ جِـرْحُـهُ ٱلنَّغَّـارُ يُنْهِكُـهُ حَتَّى قَضَى لَاهِبَ ٱلْأَحْشَـاءِ ذَاكِيْهَا

مصير عائشة أم المؤمنين

بِهَلْكَـةِ ٱلْجَملِ ٱلْمَلْعُـوْنِ صَاحَ عَلِـيٌّ تِلْكَ عَـائِشَـةٌ إِنِّيْ لَحَـامِيْهَـا

بِهَا إِلَى ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّا ٱذْهَبُوْا وَأَحِلُّـوهَـا هُنَـالِـكَ فِيْ أَضْفَى مَبَـانِيْهَـا

---

(١) لما قتل الجمل لعنه الله في موقعة الجمل على ما تقدم في حاشية سبقت أمر سيدنا علي عليه السلام أن يحتفظ الناس بالهودج وفيه عائشة ثمَّ أمر محمد بن أبي بكر وهو =

وَكَــانَ لِآبْنِ أَبِي بَكْـرٍ مُحَمَّــدَ هَــا   تِيْـكَ آلْأَوَامِـرُ بِـآلتَّشْـدِيْـدِ مُعْـطِيْهَـا

= أخوها على ما تعلم وعمّار بن ياسر بأن يسرعا إلى الهودج وينظرا في أمر عائشة وراحتها ويحملانها إلى البصرة ففعلا ونقلا الهودج بعائشة وهي صاخبة باكية وأنزلاها في دار عبد الله بن خلف وكانت أعظم دور البصرة وطفقا بأمر أمير المؤمنين يتعهدان راحتها . وزارها سيدنا أمير المؤمنين مغضياً عن كلما كان منها إجلالاً لحبّ المصطفى لها وأسمعته في زيارته لها من قوارص الكلم ما وسعه حلمه شأنه عليه السلام مع المستضعفين والنساء . ثم أنّ أمير المؤمنين أمر برجوع عائشة إلى المدينة المنوّرة وجهزها بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع ونحو ذلك مما يوفّر لها الراحة في سفرها وسمح لها أن تصحب من أصحابها الذين أتوا معها من أحب الرجوع إلى المدينة واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات ليكنّ في صحبتها ويسهرن على راحتها وجعل موكبها تحت إشراف وقيادة أخيها محمد بن أبي بكر .

وفي يوم السبت غرّة رجب سنة ٣٦ للهجرة خرجت عائشة من البصرة راجعة إلى الحجاز وخرج سيدنا علي ووجوه الناس لوداعها وقبل أن يتحرّك هودجها قالت « يا بنيَّ ، لا يعتب بعضنا على بعض ، إنّه والله ما كان بيني وبين علي في القديم ، إلاّ ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وأنّه على معتبتي لمن الأخيار » فقال سيدنا علي عليه السلام : « صدقت والله ، ما كان بيني وبينها إلاّ ذاك ، وأنّها لزوجة نبيّكم في الدنيا والآخرة » وسارت عائشة من البصرة قاصدةً مكّة كرّمها الله حتى إذا ما بلغتها بقيت إلى الحجّ فحجّت ثمّ استأنفت مسيرها إلى المدينة فاستقرّت في بيتها وهي تقول « مكانك تحمدي أو تستريحي » .

وأجمع المؤرخون أنّ عائشة منذ حرب الجمل استسلمت إلى اليأس والحزن والفجيعة فكانت تكثر من النوح والبكاء تائبةً عمّا فعلت نادمةً أشدَّ الندم زاهدةً بالدنيا راغبةً عن أهلها متمنيةً الموت وكانت تقول ليتها رزقت عشرة أولاد وفقدتهم ولا كانت حرب الجمل أو ليتها ماتت قبل عشرين عاماً فلا رأت موقعة الجمل ولا حضرتها . وعندما بلغ عائشة نبأ مقتل سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام اشتدَّ جزعها وتفاقم الخطب عليها فأخذت تكثر من تعداد فضائله وتطريه وتندبه وقد تجسمت أمام عينيها كمالاته الباهرة وصفاته الزاهرة وما زالت كذلك إلى أن روَّحها الموت من شقائها فسارت إلى ربّها رهينة عفوه وغفره في سنة ٥٧ للهجرة . =

مَـعَ آبْنِ يَـاسِــرَ كَيْ فِيْهَـا يُعَـاوِنَـهُ   فَلَبَّيَــاهَــا عَلَى أَسْمَـى مَعَــانِيْهَــا

=

« ترجمــة عائشـــة »

إنَّ عائشةً هي بنت أبي بكر وقد ذكرنا نسبه فيما تقدم وأمّها أمّ رومان ابنة عامر بن عـويمر بن عبـد شمس بن عتاب بن أذينـة بن سبيـع بن دهمـان بن الحـارث بن تميم بن مالك بن كنانة . عقد عليها رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مكة وهي بنت سبـع سنين وبنى عليها في المدينة وهي بنت تسع سنين وكان ذلك في شوّال على رأس ثمـانية عشر شهراً من

وَأَسْـرَعَـا مِثْلَمَـا شَـاءَ ٱلْعَلِيُّ بِهَـا   إِلَى رِبَى ٱلْبَصْـرَةِ ٱلْغَنَّا لِتَـأْوِيْهَـا
وَقَـدْ ثَـوَتْ دَارَ عَبْـدِ ٱللَّهِ أَعْـظَمَ دُوْ   رِ ٱلْبَصْرَةِ ٱلرَّحْبِ تَهْنَـا فِيْ مَغَانِيْهَـا
حَتَّى إِذَا مَـا أَتَى تِلْكَ ٱلْمَـدِيْنَـةَ مَـوْ   لاَنَـا وَلاَقَى بِحُسْنِ ٱلصَّفْحِ أَهْلِيْهَـا
وَافَى إِلَيْهَـا كَـرِيْمَـاً صَـافِحَـاً فَتَلَقَّـ   ـتْـهُ عَلَى غَيْـرِ مَـا يُـرضِي مُحِبِّيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ مُهْمِـلاً تَـرْفِيْـهَ عِيْشَتِهَـا   وَلاَ ٱلْتِقَـاهَـا بِلَوْمٍ مَـعْ مُلِيْمِيْهَـا
وَبَعْـدَ بِضْعَـةِ أَيَّـامٍ لِمَـكَّـةَ قَـدْ   أَعَـادَهَـا بِجَـلاَلٍ مَعْ حَـوَاشِيْهَـا
وَكَـانَ مَعْهَـا أَخُـوْهَـا رَأْسَ مَـوْكَبِهَـا   وَهْـوَ ٱلْمُـرِيْـدُ لَهَـا رَغْـدَاً وَتَـرْفِيْهَـا
وَأَرْبَـعُـوْنَ فَـتَـاةً فِـيْ رَكَـائِـبِـهَـا   تَسْعَى بِخِـدْمَتِهَـا كَيْمَـا تُؤَاسِيْهَـا
وَلِلْوَدَاعِ أَتَى ٱلْمَـوْلَى أَبُـوْ حَسَنٍ   بِصَحْبِـهِ كَـرَمَـاً مِنْـهُ يُـحَيِّيْهَـا
فَـأَكْبَـرَتْ بَعْـدَ ذَيَّـاكَ ٱلْعَـدَا لَـهُ   هٰذِيْ ٱلأَيَادِي ٱلَّتِيْ قَدْ رَاحَ يُسْدِيْهَا
وَأَعْلَنَتْ شُكْـرَهَـا بَيْنَ ٱلأُلَى مَعَـهُ   لِنُعْمَـةٍ لَمْ تَكُنْ تَـرْجُـوْ تَـلَقِّيْـهَـا

= وفي عهد عمر بن الخطاب لم يكن لها غير رواية الحديث والإفتاء على أنّها أظهرت اقتدارها على أشدّه في عهد عثمان إذ انقلبت عليه مع المنقلبين على نحو ما أشرنا إليه في حاشية سبقت . ثمَّ أعلنت العداء لسيدنا علي عليه السلام وكان من أمرها معه في يوم الجمل ما كان وقد ذكرنا أسبابه .

ولم تسلم عائشة على عهد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من قذف القاذفين فاتّهموها بصفوان بن المعطل السلمي فأنزل الله براءتها في قرآنٍ يتلى وينقل وجُلد قاذفوها الحدّ . ولم تحمل عائشة ولا ولدت وتطييباً لخاطرها كنّاها المصطفى بابن أختها أسماء عبد الله بن الزبير فصارت تدعى « أمُّ عبد الله » . ومات المصطفى عنها وهي دون العشرين من عمرها .

وتوفيت عائشة في ١٧ رمضان من عام ٥٧ للهجرة في عهد معاوية في المدينة المنوَّرة ودفنت في البقيع فارتاحت من آلامها النفسية التي كانت تعانيها ليلاً ونهاراً منذ حرب الجمل إلى يوم وفاتها وكان عمرها عند وفاتها ٦٤ سنةً .

قَالَتْ : بَنِيَّ تَصَافُوْا لاَ عِتَابَ وَلاَ   مَلاَمَ أُمَّتُنَا أَبْغِي تَصَافِيْهَا

وَلَيْسَ بَيْنَ أَمِيْرِ آلْمُؤْمِنِينَ وَبَيْـ   ـنِيْ مِنْ مُنَازَعَةٍ مَا آلدَّهْرُ مَاحِيْهَا

وَلَمْ تَكُنْ بَيْنَنَا إِلاَّ مُنَافَرَةٌ   تَكُوْنُ بَيْنَ آلْحَمَى فَرْضٌ تَنَاسِيْهَا

وَآلْمُرْتَضَى خَيْرُ مَنْ يُرْجَى لِمَعْتَبَتِيْ   وَإِنَّهُ مِنْ خِيَارِ آلنَّاسِ تَاقِيْهَا

وَقَالَ حَيْدَرَةٌ : وَآللَّهِ قَدْ صَدَقَتْ   بِقَوْلِهَا فَعَلَيْنَا أَنْ نُدَارِيْهَا

وَوَاصَلَتْ بَعْدَ ذَاكَ آلسَّيْرَ عَائِشَةٌ   بِرَكْبِهَا فِيْ صَيَاصِيْ آلْأَرْضِ تَطْوِيْهَا

سَارَتْ مُبَلْبَلَةَ آلْأَفْكَارِ يَصْحَبُهَا   بِلْبَالُهَا أَبَداً تَلْحُوْ تَجَنِّيْهَا

تَبْكِيْ وَتَنْدُبُ مَا قَدْ كَانَ نَادِمَةً   نَدَامَةً كَالَّتِي تُنْمَى لِكُسْعِيْهَا

وَبَعْدَ مَا بَلَغَتْ أُمَّ آلْقِرَى لَبِثَتْ   لِمَوْعِدِ آلْحَجِّ فِيْ ضَافِيْ مَثَاوِيْهَا

ثُمَّ آنْثَنَتْ بِجَوَاهَا لِلْمَدِيْنَةِ لاَ   شَيْءٌ عَلَى شَرِّ مَا جَاءَتْ يُعَزِّيْهَا

فَمَا رَقَا دَمْعُهَا يَوْماً بِتَوْبَتِهَا   عَمَّا جَنَتْهُ وَلاَ جَفَّتْ مَآقِيْهَا

وَقَتْلَةُ آلْمُرْتَضَى أَنْمَتْ نَدَامَتَهَا   وَأَحْرَمَتْهَا آلتَّكَرِّيْ فِيْ لَيَالِيْهَا

وَطَالَمَا قَدْ تَمَنَّتْ لَوْ قَضَتْ وَمَضَتْ   لِرَبِّهَا قَبْلَ أَنْ سَاءَتْ مَسَاعِيْهَا

أَوْ لَيْتَهَا عَشْرَةٌ مِنْ وُلْدِهَا وَلَدَتْ   وَآلدَّهْرُ فِيْهِمْ جَمِيعاً كَانَ رَازِيْهَا

وَلَمْ تَكُنْ مَعَ أَعْدَاءِ آلْعَلِيِّ إِلَى   شَرِّ آلْمَسَاعِي آلَّتِيْ رَامَتْ تُمَاشِيْهَا

وَطَالَمَا ذَكَرَتْ جَهْراً فَضَائِلَ مَوْ   لاَنَا آلْعَلِيِّ آلْمُفَدَّى وَهْيَ تُطْرِيْهَا

حَزِيْنَةً لَمْ تَزَلْ فِيْ بَيْتِهَا تَتَمَنَّـ   ـى آلْمَوْتَ مَا غَيْرُهُ قَدْ كَانَ يُرْضِيْهَا

حَتَّى تَوَلَّتْ إِلَى دَارِ آلْخُلُودِ فَجَا   زَتْ فِيْ ثَوَا آلْقَبْرِ آلاَماً تُعَانِيْهَا

لِسَبْعَةٍ بَعْدَ خَمْسِيْنٍ لِهِجْرَةِ طَـ   ـهَ بِآلْمَنِيَّةِ قَدْ لاَقَتْ تَمَنِّيْهَا

مراقبة معاوية لموقعة الجمل

وَكَـانَ يَـرْقُبُ عَنْ بُعْـدٍ مُعَـاوِيَـةُ   حَوَادِثَ ٱلْجَمَلِ ٱلشَّتَّى وَيَـدْرِيْهَا[1]

وَهْـوَ ٱلَّـذِي بِـدَهَـاهُ كَـانَ أَوْجَـدَهَـا   وَهْوَ ٱلَّذِيْ كَـانَ قَدْ أَغْـرَى مُشِيْرِيْهَـا

وَكَـانَ يَـطْمَـعُ أَنْ تَكْفِيْـهِ عَـائِشَـةُ   مَـوَاقِفَـاً مَـعْ عَلِيٍّ كَـانَ خَـاشِيْهَـا

---

(١) كان معاوية صاحب الرأي الأول في مسير طلحة والزبير إلى العراق فهو رأس فتنة الجمل وكان يرقب عن بعد أنباء هـاتيك الفتنـة ويستطلع أخبـارها فيقف عليهـا أولاً فأولاً من أصحابه الذين كانوا يأتونه بها طمعاً بهباته فعرف كلّ ما جرى وأهمّه خيبـة ظنه بعائشة التي كان يرجو أن تكفيه بنفوذها هول مقاتلة سيدنا علي عليه السلام .

أمّا سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام فإنّه كما رأينا قد أصدر عفواً عاماً عن الثائـرين بعـد مـوقعـة الجمـل وسبق وأوصى أصحـابـه أن لا يتتبعـوا الهـاربين ولا يجهـزوا على الجرحى فبرهن في هذا : أولاً على أنّه كـان ولا يزال يعتبـر نفسه من المسلمين بمنـزلة الأب من أولاده فهو مؤدّب عصاتهم وثائريهم لا منتقم منهم ولا طامع بمـا في أيديهم . وثانياً على أنّـه السياسي الـذي يضع الأمـور في مواضعهـا فيعفو ويحمـل عند المقـدرة ويشتدّ في التأديب حتى لا يظنُّ به أعداؤه العجز . وثالثاً على أنّـه ما كـان يرهب الـذين نجوا من زعماء الثائرين أن ينضوا إلى من ورائهم في الشام اعتمـاداً على الله سبحانـه وعلى الحقّ الـذي له وهـو صريـح لا يقبل التـأويل ولـذلـك لم ينكـل بهم بـل تـركهم أحراراً .

أمّا زعماء الثائرين الـذين نجوا من القتـل في موقعـة الجمل فكـان المشهور فيهم مـروان بن الحكم وعبد الله بن الـزبير وهـذان أقامـا مدّةً في البصـرة وعـرضـا بـواسـطة المقربين من سيدنا الإمام الأعظم أن يعودا إلى بيعته فرفض قائلاً لو بايعاني كلّ يـوم لما أمهلا أن ينكثا بيعتي كما فعلا وعرف هذان من جواب سيدنـا أمير المؤمنين أنّـه عليه السلام لا يركن إليهما وعرفا من نفسيهما أن فراسته فيهما صادقة فانتهزا الفـرصة وأسـرعا بـالهرب إلى الشام وكذلك فعل غيرهما من زعماء أصحاب الجمل ولاذوا جميعاً بمعاوية .

أمّـا معاويـة فالـظاهر لنـا أنّه لم يتـوقع انتصـار عـائشـة وأصحـابهـا على سيـدنـا علي عليه السلام بعد أن تبعهم ولكنه كـان يظنُّ عنـدما دبـر أمر الحملة على العـراق أنّ الإمام =

فَخَابَ ظَنًّاً كَمَا خَابَحت وَمَنْ مَعَهَـا   زَوْجُ آلـرَّسُـوْلِ بِـآمَـالٍ تُـرَجِّيْهَـا

= يعتمد على حقّه ونفوذه وعمّاله في ذلك الصقع ويلزم المدينة المنوَّرة فيسهل على أصحاب الجمل استمالة العراقيين بحجة المطالبة بدم عثمان وبتأثير نفوذ عائشة وطلحة والزبير على المسلمين وإذا اعترض هؤلاء الخوارج معترض من أصحاب علي تغلبوا عليه بحدّ السيف كما فعلوا في البصرة عندما قدموا إليها . وربما كان هذا رأي عائشة وأصحابها بل أبعد هؤلاء في ظنهم إلى أن حسبوا أنَّ المسلمين لا يجرأون على محاربة عائشة بصفتها زوج المصطفى المحبوبة بدليل ما قالته إلى أبي الأسود الدؤلي عندما أرسله عثمان بن حنيف عامل أمير المؤمنين على البصرة ليستطلع طلع مسيرها فساء فألها وخابت في ظنّها .

ولما جرى ما ليس بالحسبان ووقف الناس في وجوه أصحاب الجمل انتصاراً للخليفة الشرعي وتقديراً لمكانته الرفيعة في الإسلام بصفته ابن عمّ المصطفى وربيبه وصهره زوج أحبّ بناته إليه وأخيه ووصيّه عليهما الصلاة والسلام سقط أصحاب الجمل في أيديهم ولكنهم أصرُّوا على القتال ولما انجلت الموقعة عن انتصار الخليفة ومقتل طلحة والزبير وهلاك أصحاب الجمل وسارت الأنباء في ذلك إلى معاوية هاله الأمر وعرف بعده أنّ الفوز على خلافة سيدنا علي ليس من الهنات الهينات فأخذ يضرب أخماساً لأسداس بما أوتي من الدهاء ليخرج من هذه المعمعة على شيء من مطامعه البعيدة وهو مقتنع كل الإقتناع أنَّ لا سبيل إلى الإتفاق مع الإمام الذي يأبى إلَّا إعادة المسلمين إلى عهد النبوَّة على ما يرضى عنه الشرع . ولهذا أخذ يستدني أكابر القرشيين ويغدق عليهم الأموال ويعللهم بالوعود فاجتمعت لديه طائفة منهم ممّن همتهم الدنيا . وفي الوقت نفسه كانت نوادب عثمان تتجوَّل في الأمصار منادية بثارات عثمان متهمةً سيدنا علي بدمه وحماية قاتليه فتفسد عليه الألى أطاعوه وبايعوه وكان نجاحها يزيد معاوية شجاعةً في مواصلة العداء لسيدنا علي والإصرار على عصيانه وغرضه من هذا كلّه معروف وهو الاستيلاء على الخلافة . وممَّا أزاد معاوية أملاً بنيل الخلافة هو مقتل طلحة والزبير لأنّه بعدهما وبعد أن رأينا سعداً وهو بقية العشرة المشهود لهم بالجنة زاهداً بالخلافة وكلّ ما دونها من الوظائف لم يعد أمامه من يستطيع أن يقول إنّه أليق من معاوية للخلافة من شيوخ قريش هذا إذا تغلب على سيدنا عليّ ﵇ واستلبها من يده .

وَأَطْفَأَ ٱلْفِتْنَةَ ٱلْهَوْجَاءَ حَيْدَرَةٌ   بِقُدْرَةِ ٱللَّهِ فَٱنْزَاحَتْ عَوَادِيْهَا

فَمَنْ أَطَاعَتْ عَلِيّاً مِنْ جَمَاعَتِهَا   قَدِ ٱطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ وَهْوَ رَافِيْهَا

وَأَسْرَعَتْ هَرَبَاً تَبْغِيْ مُعَاوِيَةً   مِنْهَا ٱلْأُلَى لَمْ تَزَلْ تَنْوِي تَعَصِّيْهَا

فَٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ وَمُرْوَانٌ وَغَيْرُهُمَا   مِنَ ٱلْعُصَاةِ ٱلَّتِيْ شَطَّتْ مَرَامِيْهَا

سَارَتْ إِلَى ٱلشَّامِ تَرْوِيْ شَرَّ مَا شَهِدَتْ   فِيْ حَرْبِ حَيْدَرَةٍ وَٱلْخَوْفُ فَاشِيْهَا

فَهَابَ ٱبْنُ أَبِيْ سُفْيَانَ مَوْقِفَهُ   وَشَامَ أَطْمَاعَهُ ٱلْأَقْدَارُ تُنْئِيْهَا

وَحَارَ فِيْ أَمْرِهِ لَمَّا رَأَى ٱلْخُطَطَ ٱلْـ   ـسُّوءَى ٱلَّتِيْ خَطَّهَا ضَاعَ ٱلرَّجَا فِيْهَا

لٰكِنَّمَا نَفْسُهُ ظَلَّتْ تُحَدِّثُهُ   بِنَيْلِ أَطْمَاعِهِ أَوْ مَا يُدَانِيْهَا

فَرَاحَ يَعْنَى بِلَا بُطْءٍ بِعَسْكَرِهِ   وَيَسْتَزِيْدُ لَهَا مِمَّا يُقَوِّيْهَا

وَيَسْتَمِيْلُ إِلَيْهِ مِنْ قُرَيْشٍ رُؤُوْ م سَهَا ٱلْأُلَى كَانَ مَا تَبْغِيْهِ يُوْلِيْهَا

وَبِٱلَّذِي هِيَ تَرْجُوْهُ مِنَ ٱلرُّتَبِ ٱلْـ   ـعَلْيَا ٱلَّتِيْ تَتَشَهَّاهَا يُمَنِّيْهَا

فَأَصْبَحَتْ حَوْلَهُ فِيْ ٱلشَّامِ طَائِفَةٌ   مِنْهَا تُؤَيِّدُهُ سِرّاً وَتَجْرِيْهَا

بِهَا ٱسْتَعَرَّتْ وَعَادَتْ نَفْسُهُ لِمُنَا م هَا بَعْدَمَا ٱلْيَأْسُ أَمْسَى وَهْوَ مُوْهِيْهَا

وَٱزْدَادَ فِيْ غَيِّهِ مِمَّا إِلَيْهِ تَرَا   مَى مِنْ مُمَالَأَةِ ٱلْأَمْصَارِ قَاصِيْهَا

كَانَتْ نَوَادِبُ عُثْمَانٍ تَجُوْلُ عَلَيْـ   ـهَا بِٱسْمِهِ وَهْيَ بِٱلشَّنْآنِ تُغْرِيْهَا

كَانَتْ تُنَادِيْ جِهَارَاً : إِنَّ قَتْلَتَهُ   تَمَّتْ بِأَمْرِ عَلِيٍّ وَهْوَ رَاضِيْهَا

وَإِنَّ مَنْ قَتَلَتْهُ قَدْ أَوَتْ لِظِلَا م لِهِ فَأَمَّنَهَا مِمَّا يُؤَذِّيْهَا

فَلَمْ يَنَلْهَا قِصَاصٌ وَهْيَ قَاتِلَةٌ   عَمْدَاً وَلَيْسَ لَهَا عُذْرٌ يُبَرِّيْهَا

بِمِثْلِ ذَا سَدَلَتْ فَوْقَ ٱلْحَقِيْقَةِ فِيْ   قَتْلِ ٱلْخَلِيْفَةِ عُثْمَانَ ٱلتَّرَارِيْهَا

بِهَا مُعَاوِيَةُ صَحَّتْ عَزِيْمَتُهُ   عَلَى مُوَاصَلَةِ ٱلْعُدْوَانِ يُمْضِيْهَا

فَـلاَ مَقَـامُ عَلِيٍّ فِيْ آلْخِـلاَفَـةِ أَوْ مَصَـالِـحُ آلـدِّيْنِ وَآلـدُّنْيَـا لَتُثْنِيْهَـا
وَلاَ آلسَّـلاَمَـةُ لِـلْإِسْـلاَمِ وَهْـوَ لَقَـدْ أَمْسَى عَلَى خَـطَرٍ قَـدْ كَـانَ يَبْغِيْهَـا
قَدْ كَانَ يَطْلُبُ أَنْ يَرْقَى آلْخِـلاَفَةَ أَوْ تَنْـدَكُّ أَرْكَـانُهَـا مَـا فَـوْقَ رَاقِيْهَـا
ثُمَّ آلـزَّبِيْـرَانِ مَـاتَـا كَـانَ مَـوْتُهُمَـا مُـزِيْـدَ أَطْمَـاعِـهِ فِيْهَـا وَمُنْمِيْهَـا
فَمَـا خَلِيْـقٌ بِهَـا إِلاَّهُ بَـعْـدَهُمَـا وَبَعْـدَ سَعْـدٍ وَقَـدْ أَمْسَى مُجَـافِيْهَـا
إِذَا أَزَاحَ عَـلِيَّـاً عَـنْ مَـعَـالِـمِـهَـا فَيَنْـثَنِـيْ دُوْنَ شَـكٍّ وَهْـوَ وَالِيْـهَـا
هٰذَا آلَّذِيْ كَانَ فِيْ نَفْسِ آبْنِ هِنْدَ عَلَى قَـاصِيْ مَـطَامِعِهَـا وَهْـوَ آلْمُقَـوِّيْهَـا

أمير المؤمنين ومعاوية

مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ تَلاَشَتْ فِتْنَةُ آلْجَمَلِ آلْـــمَلْعُوْنِ وَآلنَّاسُ عَدَّتْ عَنْ تَعَادِيْهَا[1]
وَقَـدْ أَعَـادَ صَفَـاءَ آلسِّلْمِ حَيْـدَرَةٌ إِلَى رِبَى آلْبَصْـرَةِ آلْغَنَّـا وَأَهْلِيْهَـا

---

(١) بعد أن أقام سيدنا أمير المؤمنين حيناً في البصرة رتق فيها الفتق الذي فتقته أصحاب الجمل وأعاد إليها الأمان وأمّن أهلها من العدوان وولّى أمرها عبد الله بن عباس وأقبل عليه السلام إلى الكوفة وكان كما سبقت الإشارة على ثقة من ولاء أهلها فضلاً عن إخلاص الذين نصروه منهم في موقعة الجمل فاستقبله الكوفيون بالإجلال والإحترام وتألّبوا من حوله يتمنون رضاءه ولو بتضحية أرواحهم . وما كاد يستقرّ في الكوفة حتى أخذ يراسل عمّال عثمان في أطراف العراق وفارس يطلب بيعتهم فلبّاه أكثرهم وكان في مقدمتهم جرير بن عبد الله البجلي وهو عامل عثمان على همدان فإنّه ما كاد يتلقى كتاب أمير المؤمنين حتى دعا أهل همدان لمبايعته فلبّوه . ثم سار جرير إلى الكوفة وبايع سيدنا عليّ وبينما هو في الكوفة صحّت عزيمة أمير المؤمنين على بعث من يأتمنه إلى معاوية يطلب بيعته وذكر ذلك لأصحابه فقال جرير : ابعثني يا أمير المؤمنين إليه فإنّه لم يزل لي ممحضاً الودّ فإنّ آتيه فادعوه على أن يسلم لك هذا الأمر ويجتمع معك على الحق على أن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمّالك ما عمل بطاعة الله واتّبع ما في كتاب الله كما وأرجو أن أعدّ أهل الشام إلى طاعتك وولايتك فجلّهم قومي وأهل بلادي =

أَنْضَى إِلَى ٱلْكُوفَةِ ٱلْخَضْرَا ٱلْإِمَامُ خُطَا ... هُ وَٱنْثَنَى بِـٱلْهَنَا وَٱلْيُمْنِ ثَـاوِيْهَـا

= وقد رجوت أن لا يعصوني . فقال الأشتر وكان في المجلس لا تبعثه يا أمير المؤمنين ولا تصدّقه فوالله إنّي لأظنُّ هواه هواهم ونيته نيتهم فقال أمير المؤمنين دعه حتى ننظر ما يرجع به إلينا وبالفعل كتب عليه‌السلام كتاباً إلى معاوية هذا نصّه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين ، أمّا بعد ، فإنَّ بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنَّه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يردَّ ، وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار ، إذا اجتمعوا على رجل ، وسمّوه إماماً ، كان ذلك لله رضىً ، فإن أبي قاتلوه على اتّباع سبيل المؤمنين ، وولّاه الله ما تولى ، ويصليه جهنم وساءت مصيراً ، وأنَّ طلحة والزبير بايعاني ، ثمَّ نقضا بيعتي ، فكان نقضها كردَّتهما ، فجاهدتهما على ذلك ، حتى جاءَ الحقُّ ، وظهر أمر الله ، وهم كارهون ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإنَّ أحبَّ الأمور إليَّ منكَ العافية ، إلّا أن تتعرَّض للبلاء ، فإن تعرَّضت له قاتلتك ، واستعنتُ بالله عليك ، وقد أكثرتَ في قتلة عثمان ، فأدخل فيما دخل فيه الناس ، ثمَّ حاكم القوم إليَّ أحملك وإياهم على كتاب الله ، فأمّا تلك التي تريدها ، فخدعة الصبي عن اللبن ، ولعمري ، لئن نظرتَ بعقلك دون هواك ، لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم أنّك من الطلقاء الذين لا تحلُّ لهم الخلافة ، ولا تُعرض فيهم الشورى ، وقد أرسلت إليك جرير بن عبد الله البجلي ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ، فبايع ولا قوّة إلّا بالله ، اهـ » .

ثمَّ إنَّ سيدنا علي استدعى جرير إليه وسلّمه الكتاب الآنف الذكر وقال له : إنَّ حولي من أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، من أهل الرأي والدين من قد رأيتَ ، وقد اخترتك عليهم لقول رسول الله فيك أنّك من خير ذي يمن ، ائتِ معاوية بهذا الكتاب ، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون فنعمّا ، وإلّا فانبذ إليه ، وأعلمه إنّي لا أرضى به أميراً ، وأنَّ العامة لا ترضى به خليفةً . فتناول جرير كتاب أمير المؤمنين عليه‌السلام ووعده بأنّه سيبذل ما بوسعه لإقناعه بالطاعة وسار برسالة أمير المؤمنين متوجهاً إلى الشام .

وعندما بلغ جرير دمشق استقبله معاوية بالحفاوة والإكرام على ما هو معروف عن دهائه وتناول منه كتاب أمير المؤمنين فقرأه بإمعان ثمَّ ذكر له جرير الشيء الكثير لإقناعه بالطاعة لأمير المؤمنين وحضه على الدخول فيما دخل فيه المسلمون . فلم يكن لمعاوية =

وَقَدْ أَطَاعَتْ عُلاَهُ غَيْرَ نَاكِثَةٍ أَهْلُ ٱلْعِرَاقَيْنِ نَائِيْهَا وَدَانِيْهَا

= أن يبتَّ في مجاوبته رأياً فاكتفى أن تلطف بجرير وقال له انظر وتنظر واستطلع رأي أهل الشام وأعاقه عنده بين التسويف والمماطلة ريثما يستوثق من أمره وتفتق له حيلته ما يخرجه من حيرته .

« **كلمة في الخلافة** »

ويخلق بنا هنا أن نرسل نظرة إلى كتاب أمير المؤمنين هذا الذي أرسله إلى معاوية وفيه من التصريح في أمر الخلافة ما اتّخذه فيما بعد بعض العلماء كأساس لاختيار الخليفة فنقول :

إنّ حقّ سيدنا علي عليه السلام بالخلافة صريحٌ لا يقبل الجدل سواءٌ بصفته أخا رسول الله وربيبه ووصيّه وزوج أحبّ بناته إليه سيدتنا فاطمة الزهراء ووالد أولادها الذين هم أبناء رسول الله عليهم جميعاً الصلاة والسلام أو بصفته أول من أسلم وأعظم من نصر الإسلام وأعلم من تفقه وأفتى في الشريعة وأتقى وأزهد وأبرّ المسلمين . على أنّه عليه السلام لم يذكر حقّه هذا لمعاوية مع أنّه ذكره في مواضع شتّى من خطبه وكتبه لعلمه بأنّ معاوية غير راضٍ به ولا خاضعٍ له بل ذكر له أموراً يرضاها ويعتقدها تسهيلاً لإقناعه بالحقّ الذي ينكره وفي ذلك من النظر البعيد والرأي السديد ما يخلق صدوره عن أرشد رشيد أنجبه الإسلام وهو سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

اكتفى سيدنا علي عليه السلام أن يحجّ معاوية بما هو معترف به فقال له إنّ الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان بايعوني فتلزمك بيعتي فكأنّه يقول له ما دمت تعتقد أنّ بيعة هؤلاء الخلفاء الثلاثة صحيحة فعليك أن تعتقد بصحة بيعتي فتبايع .

ثمّ قال سيدنا أمير المؤمنين أنّ ليس للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردّ وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار وأراد بهذا عليه السلام أن يقول لمعاوية ما دام الناس قد قبلوا وأنت منهم ببيعة المهاجرين والأنصار لأولئك الخلفاء الثلاثة وما تركوا للذين شهدوا بيعتهم من سائر المسلمين حقّ الخيرة ولمن غابوا حقّ الردّ فلا يجوز لك طالما بايعني هؤلاء المهاجرون والأنصار أن تختار في البيعة أو تردّ بيعتي .

ثمّ إنّ سيدنا علي عليه السلام صرّح لمعاوية بأنّ الذي يبايعه المهاجرون والأنصار يكون لله فيه رضى لأنّ كلّ أمر لا يكون إلّا بسماح من الله وعلى هذا فالخارج على الخليفة =

إذْ ذاكَ هَمَّ بِأَهْلِ آلشَّامِ يَطْلُبُ مِنْــــهَــا أَنْ تُبَـايِعَــهُ أَوْ أَنْ يُنَـاوِيْهَــا
أَوْفَى لِـذَاكَ جَرِيْـراً نَحْـوَهَـا بِـرِسَـا لَـةٍ لَقَدْ كَـانَ بِـآلْإِخْـلَاصِ مُمْلِيْهَـا
كَانَتْ بِإِسْمِ آبْنِ صَخْرٍ وَآلْوَصِيُّ عَلِيْـــمٌ عَـارِفٌ أَنَّــهُ حَتْمَـاً مُعَصِّيْهَـا
وَكُلُّهَـا حِكَـمٌ مَسْـرُوْدَة وَمَـوَا م عِظٌ وَآيَـاتُ إِرْشَـادٍ لِـقَـارِيْـهَـا
قَـالَ آلْإِمَـامُ عَـلِيٌّ بَعْـدَ بَسْمَـلَةٍ غَـرًّا وَحَمْـدَلَـةٍ تَحْلُوْ لِتَـالِـيْهَـا
وَبَعْدَ حُسْنِ صَلَاةٍ قَدْ زَكَتْ وَصَفَتْ عَلَى مُحَمَّـدَ خَيْـرِ آلْخَلْقِ هَـادِيْهَـا
أَمَـا وَإِعْـلَانُ أَقْـطَابِ آلْمَـدِيْنَـةِ بَيْــــعَتِي آلَّتِي جَـرَّهَتْهَـا قَبْـلُ تَجْـرِيْهَـا

= الذي يبايعه المهاجرون والأنصار على هؤلاء أن يـردّوه بالحجـة فإن أبى كـان عليهم أن يقاتلوه .

ثمَّ ذكـر عليه السلام أنَّ حكم الخارج على الخليفـة كحكم المـرتـدّ عن الإسـلام يجب قتـاله وحسب هـذا الحكم الشرعي قـاتل الإمـام الأعظم طلحـة والزبيـر ومن معهما من أصحاب الجمل .

ثمَّ تبـرَّأ عليه السلام من قتل عثمـان وقال لـه إنّك لـو نظرت بعين العقـل إلى كيفية قتله لاعترفت أنت بنفسك ببراءَتي منها . أمّا مسألـة النظر في قتلة عثمـان والاقتصاص منهم فقد صرح له عليه السلام أن دعواه بها في حال عصيانه على الخلافة غير مشروعة ولا مسموعة فمن الواجب عليه أن يطيع خليفته ثمَّ يحاكم القـوم إليه فيحمله وإيّـاهم على كتاب الله وفي هذا الجواب الحجّة البالغة .

ثمَّ ذكر له عليه السلام أنّه من الطلقـاء وهم كفّار قـريش ومشركـوهم الذين أسلمـوا بعد فتح مكّة فعفـا عنهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقـال إنّ هؤلاء الطلقـاء لا تحقُّ لهم الخلافـة ولا تعرض فيهم الشورى وهنـا تحديـد يجب الإنتباه إليـه في مسألـة الخلافـة فإذا كـانت لا تجوز للطلقاء من قريش فكيف تسامح المسلمون بهـا لمن لم يكن قريشيـاً بل ولم يكن عربياً ؟ .

هذا ما عنَّ لنا تسطيـره ذيلاً لكتـاب أمير المؤمنين عليه السلام لمعـاوية علمـاً منّا أنّـه لا يخلو من فائدةٍ لمستفيد أو ذكرى لناسٍ والله وليّ الهداية .

لأنْتَ مُلْتَزِمٌ شَرْعَاً بِهَا مَعَ أَهْــلِ آلشَّامِ مُؤْمِنِهَا آلتَّاقِيْ وَذُمِّيِّهَا

لِأَنَّ مَنْ بَايَعُوْنِي بِـآلْخِلافَـةِ بَا يَعُـوْا آلأُلَى سَلَفُوْنِي فِيْ تَـوَلِّيْهَا

وَبَايَعُـوْنِي عَلَى مَا بُـوْيِعُـوْا قُبُلِيْ عَلَيْهِ مِنْ وَاجِبَاتٍ رُحْتُ أُجْـرِيْهَا

فَلَمْ تَكُنْ خِيْـرَةٌ لِـلشَّـاهِـدِيْنَ وَلاَ رَدٌّ لِمَنْ غَابَ إِنْ كَانُـوْا مُـرِدِّيْهَـا

وَإِنَّمَا خُصَّتِ آلشُّوْرَى بِمَنْ هَجَرَتْ أُمَّ آلْـقِـرَى لِنَبِيِّ آللَّهِ مُنْجِيْهَـا

وَبِـآلأُلَى نَصَـرَتْـهُ فِيْ مُحَارَبَـةِ آلْـكُفَّـارِ وَآسْتَنْزَلَتْـهُ فِيْ مَغَـانِيْهَـا

فَإِنْ هِيَ آجْتَمَعَتْ جَمْعَاً عَلَى رَجُلٍ يَلِيْ آلْإِمَـامَـةَ أَمْسَى وَهْـوَ وَالِيْهَـا

وَإِنَّ رَبَّـكَ رَاضٍ عَـنْ وِلَايَـتِـهِ وَكُـلُّ ذِيْ تِقْيَـةٍ حَسْنَـاءَ رَاضِيْهَـا

وَإِنْ تَفَـرَّدَ عَنْ إِجْمَـاعِهَـا رَجُـلٌ بِمَـطْعَنٍ أَوْ بِـرُغْبَى كَـانَ يَبْغِيْهَـا

رَدَّتْـهُ لِلْحَقِّ بِـآلْبُـرْهَـانِ نَـاصِحَـةً وَإِنْ أَبَـاهُ عَلَيْهَـا فَـهْـوَ عَـادِيْهَـا

وَقَـاتَـلَتْـهُ إِلَى أَنْ يَـسْلُكَـنَّ سَـبِيْــلَ آلْمُؤْمِنِيْنَ آلَّتِيْ مَا ضَلَّ مَـاشِيْهَا

وَآلـلَّهُ سُبْـحَـانَـهُ وَلاَّهُ مُنْـتَـصِـفَـاً مَـا قَدْ تَـوَلَّى وَرُشْدُ آلـرَّأْيِ مُوْلِيْهَـا

وَإِنَّـهُ سَـوْفَ يُصْلِيْـهِ جَـهَـنَّـمَ إِذْ سَاءَتْ مَصِيْرَاً لِمَنْ قَـدْ رَاحَ يَصْلِيْهَا

إِنَّ آلـزُّبَيْـرَ وَمَعْـهُ طَلْحَـةٌ نَقَضَـا لِيْ بَيْعَـةً بَـايَعَـاهَـا مَـعْ مُبَيْعِيْهَـا

وَنَقْضُهَـا مِنْهُمَـا مِثْـلُ آرْتِـدَادِهِمَـا عَنِ آلْحَنِيْفَةِ فِيْ أَحْكَـامِ قَـاضِيْهَـا

لِـذَاكَ جَاهَـدْتُ قَهْـرَاً فِيْ قِتَـالِهِمَـا بِعَـزْمَـةٍ أَنْتَ قَبْـلُ آلنَّـاسِ تَـدْرِيْهَـا

حَتَّى تَغَلَّبَ أَمْـرُ آلـلَّهِ وَآنْتَصَـرَتْ حُقُـوْقُـهُ وَآخْـزَوَتْ خَـزْيَـاً أَعَـادِيْهَـا

فَـآدْخُـلْ مُعَـاوِيَـةٌ فِيْمَـا آلْعِبَـادُ بِحَــقٍّ فِيْـهِ دَاخِلَةٌ وَآتْبَـعْ مَخَـاطِيْهَـا

فَـإِنَّ أَفْضَـلَ مَـا أَرْجُـوْهُ عَـافِيَـةٌ تَهْنَـا بِهَـا وَتُبَـاهِيْ فِيْ تَكَسِّيْهَـا

إِلَّا إِذَا كُنْتَ تَخْتَـارُ آلْـخِصَـامَ وَلاَ تَبْغِيْ آلسَّـلاَمَ لِأَطْمَاعٍ تُـرَجِّيْهَـا

فَلَيْسَ لِيْ غَيْرُ هٰذا ٱلسَّيْفِ مِنْ حَكَمٍ وَٱللّهُ عَـوْنِيَ فِيْ بَلْوَى أُعَـانِـيْهَـا
يَا صَاحِ فِيْ قَاتِلِيْ عُثْمَانَ تُكْثِرُ إِكْـ ـثَاراً حَقِيْقَتُهُ ٱلْبُطْلَانُ غَاشِيْهَا
أَطِعْ كَمَا قَدْ أَطَاعَ ٱلنَّاسُ أَكْثَرُهُمْ خِلَافَتِيْ فَهْيَ لَمْ تَظْلُمْ مُطِيْعِيْهَا
وَحَاكِمِ ٱلْقَوْمَ وَٱرْجِيْ ٱلْإِنْتِصَافَ إِلَىٰ شَرِيْعَةِ ٱللّهِ إِذْ بِٱلْعَدْلِ أُمْضِيْهَا
أَمَّا ٱلَّتِيْ أَنْتَ تَبْغِيْهَا وَتَنْشُدُهَا فَرَغْبَةٌ مَا ٱخْتَفَتْ عَنِّيْ خَوَافِيْهَا
كَخِدْعَةِ ٱلصَّبِيْ عَنْ ثَدْيِ ٱلظُّؤُوْرِ وَقَدْ أَبَتْ رِضَاعَتَهُ إِذْ رَاحَ شَاهِيْهَا
لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَيْنِ ٱلْعَقْلِ دُوْنَ هَوىً وَأَعْيُنُ ٱلْعَقْلِ مَا ٱلْبُطْلَانُ يُعْمِيْهَا
وَجَدْتَنِيْ مِنْ دَمِ ٱلْمَقْتُوْلِ أَبْرَأَ عُرْ بِ ٱلْأَرْضِ طُرّاً قُرَيْشِيْهَا وَعَامِيْهَا
وَٱعْلَمْ بِأَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِنَا ٱلطُّلَقَا وَهْيَ ٱلَّتِيْ حَرِمَتْ مَعْنَا تَكَافِيْهَا
فَلَا يَحُلُّ لَهَا عَرْشُ ٱلْخِلَافَةِ وَٱلْـ ـشُّوْرَى إِذَا طُلِبَتْ مِنْ مُسْتَحِقِّيْهَا
وَهَا جَرِيْرٌ إِلَيْكَ ٱلْيَوْمَ أَبْعَثُهُ كَيْمَا لَهُ بَيْعَتِيْ ٱلْكُبْرَى تُؤَدِّيْهَا
بَايِعْ وَلَا قُوَّةٌ إِلَّا بِرَبِّكَ وَٱعْـ ـلَمْ إِنَّهُ لِلَّذِيْ يَتَّقِيْهِ يُوْلِيْهَا
لٰكِنْ مُعَاوِيَةٌ لَاقَى جَرِيْرَ بَشُوْ شاً لَمْ يُجَبِّهْهُ فِيْمَا جَاءَ تَجْبِيْهَا
وَرَاحَ يُمْطِلُهُ مَطْلاً وَرَغْبَتُهُ بِبَيْعَةِ ٱلْمُرْتَضَى قَدْ كَانَ يُرْجِيْهَا
وَكَانَ فِيْ حِيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ وَصُرُوْ فُ ٱلدَّهْرِ يَرْهَبُ أَنْ يَدْهَاهُ دَاهِيْهَا

معاوية وعمرو بن العاص

مَا ٱنْفَكَّ فِيْ هَمِّهِ يَعْنَى مُعَاوِيَةٌ وَحَالُهُ مَعْ عَلِيٍّ غَيْرَ رَاضِيْهَا[1]
فَكَانَ يَعْلَمُ مَا يَلْقَاهُ مِنْ خَطَرٍ فِيْ حَرْبِهِ إِذْ سَعَى كَيْمَا يُلَظِّيْهَا

---

(١) لم يكن أشدّ حيرةً وارتباكاً من معاوية في تلك الأيام العصيبة التي تلت قهر =

وَكَــانَ لاَ يَـرْتَجِيْ نَفْعَــاً بِــدَوْلَتِــهِ لِنَفْسِــهِ إِنْ غَـدَا يَــوْمــاً مُــوَالِيْهَــا

=أصحاب الجمل وانتصار سيدنا علي عليه السلام وكأنّ شـديد التـردّد لا يعرف كيف يتـدبَّر في أمره بالرغم عن إطاعة أهل الشام له وكثرة الأنباء التي تأتيه من الأمصار مشجعةً لـه على العصيان وبينما هـو في حيرتـه وتردّده جـاءَه أخوه عتبـة بن أبي سفيان وقـال له : استعن بعمرو بن العاص فإنَّه مَن قد علمت في دهائـه ورأيه وقـد اعتزل عثمـان في حياتـه وهو لأمرك أشدُّ اعتزالاً إلاّ أن تثمن له دينه فسيبيعك فإنّه صاحب دنيا . فقـال أصبت يا أخي فقد أذكرتني بداهية العرب هذا وكنت ناسيه وأسرع فكتب إلى عمرو بن العاص الكتاب التالي : أمّا بعد ، فإنَّه كان من أمر علي وطلحة والزبير ، ما قد بلغك ، وقد سقط إلينـا مروان بن الحكم ، وعبد الله بن الزبير ، في نفرٍ من أهل البصرة ، وقدم علينا جريـر بن عبد الله البجلي في بيعة علي ، وقد حبست نفسي عليك ، فأقبل أذاكرك أموراً لا تعـدم صلاح مغبتها ، إن شاء الله اهـ .

وقد علمنا مما مضى من حواشي كتابنا هـذا كيف ترك عمـرو بن العاص المـدينة قبيل مقتل عثمان وسيره إلى القدس وانزوائه في دارٍ كانت له في تلك المدينة المقدسـة على أنّه كان كثير الاهتمام بأنباء الخـلافة يتـطلع إلى ما يجـري فيها وكـانت جواسيسـه تحمل إليه أنباءَها فعرف منها كل ما كان بغير زيـادة ولا نقصان ومـا جهل حيـرة معاويـة وخوار عزائم الأمويين بعد انتصار سيدنا علي على أصحاب الجمل وكان يعلم من نفسه أنّه إذا انضمّ إلى معاوية قد يفوزان على أمير المؤمنين بدهائهما إلاّ أنّه مـا كان يـرى في ذلك ما يرضي ضميره ودينه كما أنّه ما كان يرى لدى سيدنا علي عليه السلام ما يبلغـه مطامعـه في دنيـاه لعلمه أنَّ أبـا الحسنين لا يماليـه على رغباتـه ولا يرضى لـه إلاّ ما يـرضى عنه الشرع .

وبينما كان عمرو بن العاص في حيرته لا يدري إن كان يظلُّ على عزلته أو يخرج منها إلى معاوية لنيل مطامعه وإذ وافى إليه رسول معـاوية ومعـه كتابـه فجدّد الـطمع في نفسه واستدعى ولديه عبـد الله ومحمد إليـه وأطلعهما على كتـاب معاويـة وطلب رأيهما فيمـا يفعـل . فقـال ابنـه عبـد الله أرى أنَّ رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبض وهـو عنـك راضٍ ، والخليفتـان بعده مـاتا وهمـا راضيان عنـك ، وقتل عثمـان وأنت عنه غـائب ، فقـرَّ في منزلك ، فلست مجعولاً خليفةً ، ولا تـزيد على أن تكـون حاشيـةً لمعاويـة ، على دنيا قليلة أوشكتما أن تهلكا وتتركاها ، فتتساويا في عقابهـا . وقال ابنـه محمد : أرى أنّـك =

وَإِنَّـهُ لَمُضِيْـعٌ فِي خِـلاَفَـتِـهِ   مَـآرِبَـاً يَـشْتَـهِيْـهَـا لاَ يُخَـلِّيْـهَـا

=شيخ قريش ، وصاحب أمرها ، وإن تصرَّم هذا الأمر وأنت عليه غافل ، تصاغر أمرك ، فالحق بجماعة أهل الشام ، وكن يداً من أيديها ، طالباً بدم عثمان ، فإنّه سيقوم بذلك بني أمية . فقال عمرو : أمّا أنت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني . وأنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي . وأنا ناظر ما يقرُّ عليه رأيي . وصرفهما وبقي بياض يومه وسواد ليلته وهو يفكر ضارباً أخماساً لأسداس تتنازعه عوامل الدين والدنيا وهي كما رأيت متضاربة . وما زال في حيرته وتردّده حتى اختلط عقله فدعا غلامه وردان وكان داهيةً مارداً وقال : ارحل يا وردان . احطط يا وردان . وكرر ذلك ثلاثاً . فقال له وردان خلطت أبا عبد الله أمّا أنّك إن شئت أنبأتك بما في قلبك . قال هات ويحك . قال اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك فقلتَ أنَّ علياً معه الآخرة في غير دنيا وفي الآخرة عوضٌ عن الدنيا . وأنَّ معاويةً معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض عن الآخرة وأنت واقف بينهما . فتبسم عمرو بن العاص وقال قاتلك الله ما أخطأت ما في قلبي فما ترى يا وردان ؟ قال أرى أن تقيم في بيتك فإن ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك. فصمت عمرو قليلاً ثمَّ رفع رأسه وقال بل أسير إلى معاوية . وأمر في الحال بشدّ الرحال إلى الشام .

وعندما بلغ عمرو بن العاص الشام استقبله معاوية بالإكرام وأنزله على الرحب والسعة وبالغ في إكرامه . وعرف عمرو من حفاوة معاوية به شدّة حاجته إليه فباعده من نفسه وكايد كلٌ واحدٍ منهما صاحبه وما زالا كذلك إلى ذات يوم حيث جاءَه معاوية وقال أبا عبد الله طرقتنا في ليلتنا ثلاثة أخبار ليس فيها ورد ولا صدر . قال وما ذاك ؟ قال أولها أنَّ محمداً بن أبي حذيفة كسر سجن مصر فخرج هو وأصحابه وهو من آفات هذا الدين . وثانيها أنّ قيصر ملك الروم زحف بجماعته على الشام . وثالثها أنّ علياً في الكوفة تهيأ للمسير إلينا . فتبسم عمرو تبسّم من لا يعبأ بالأخطار وقد اعتاد معالجة الأقدار وقال أمّا ابن أبي حذيفة فما يتعاظمك من رجل خرج في أشباهه أن تبعث إليه رجلاً يقتله أو يأتيك به وإن قاتل لم يضرَّك . وأمّا قيصر فاهدِ له الوصائف وآنية الذهب والفضة وسله الوداعة فإنّه إليها سريع وأمّا علي فلا والله يا معاوية ما يسوَّى بينك وبينه في شيء من الأشياء وأنّ له في الحرب حظاً ما هو لأحدٍ من قريش . وأنّه لصاحب ما هو فيه إلّا أن تظلمه . قال معاوية ولكن أنت تعلم أنّه شقَّ عصا المسلمين ، وقتل =

= الخليفة ، وأظهر الفتنة ، وفرّق الجماعة ، وقطع الرحم . فقال عمرو خفّف عنك يا معاوية ما أنت وعلي حملا بعير ، ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه ، ووالله ما أنت بكفءٍ لحربه ، ولكني قد تعودّت من الله إحساناً وبلاءً جميلاً ، فما تجعل لي أن شايعتك على حربه وأنت تعلم ما في ذلك من الغرر والخطر ؟ قال معاوية احتكم عليّ وإنّي لراضٍ . قال عمرو : أتجعل مصراً طعمةً لي ؟ فتلكأ عليه معاوية وقال يا أبا عبد الله إنّي أكره لك أن تتحدَّث العرب عنك أنّك إنّما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا . قال عمرو : إذن فدعني عنك أمّا أنت تريد بحرب علي الدنيا أيضاً ؟؟ . فقال معاوية إنّي لو شئت أن أمنّيك وأخدعك لفعلت . قال عمرو : لا لعمر الله ما مثلي يخدع لأنّا أكيس من ذلك . وما زالا يتشادّان حتى وعد معاوية عمراً بمصر وأقسم على ذلك فعاهده عمرو على أن يناصره على سيدنا عليّ وهكذا اتّفقا لأمرٍ يريده الله .

« ترجمة عمرو بن العاص »

هو أبو عبد الله (ويكنى أبو محمد أيضاً وهو إسم ثاني أولاده) عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن حصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وكان أبوه العاص بن وائل أحد المستهزئين برسول الله ﷺ والمكاشفين له بالعداوة والأذى وفيه وفي أصحابه نزل قوله تعالى ﴿ **إنّا كفيناك المستهزئين** ﴾ وأبوه هذا لقبه المسلمون (بالأبتر) لأنّه قال لقريش « سيموت هذا الأبتر غداً (ويريد رسول الله) فينقطع ذكره » لأنّه ﷺ لم يكن له ولد ذكر يعقب منه فأنزل الله قوله ﴿ **إنّ شانئك هو الأبتر** ﴾ وكان عمرو بن العاص كأبيه يؤذي رسول الله بمكة ويشتمه ويضع في طريقه الحجارة يوم كان ﷺ يخرج من منزله ليلاً فيطوف بالكعبة فكان عمرو بن العاص يضع في طريقه الحجارة ليعثر بها . وكان عمرو بن العاص في القوم الذين خرجوا إلى زينب ابنة رسول الله عندما خرجت مهاجرةً من مكة إلى المدينة فروّعوها وقرعوا هودجها بكعوب الرماح حتى أجهضت جنيناً ميتاً من أبي العاص بن الربيع بعلها فلما انتهى صنيع هؤلاء إلى سمع رسول الله نال منه وشقّ عليه مشقةً شديدةً ولعنهم . وكان عمرو بن العاص يهجو رسول الله هجاءً شديداً ويعلمه صبيان مكة فينشدونه فكان هؤلاء الصبيان يصيحون برسول الله إذا مرَّ بهم =

يُلِحُّ لَحّاً عَلَيْهِ أَنْ يُجِيْبَ أَمِيْــرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَنَارُ ٱلْحُقْدِ يُطْفِيْهَا

= رافعين أصواتهم بذلك الهجاء وإذ علم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم هذا قال وهو يصلّي في الكعبة « اللهمَّ انَّ عمراً بن العاص هجاني ولست بشاعر فالعنه بعدد ما هجاني » . وفي ذات يوم بينما كان رسول الله ساجداً يصلّي في فناء الكعبة عمد عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وعمرو بن العاص إلى سلاجل فرفعوه بأيديهم ووضعوه على رأسه الشريف فصبر صلى الله عليه وآله وسلم ولم يرفع رأسه وبكى في سجوده ودعا عليهم فجاءَت ابنته فاطمة الزهراء وهي باكية فاحتضنت ذلك السلاجل ورفعته وألقته وقامت على رأس أبيها عليهما الصلاة والسلام تبكي فرفع رأسه الشريف وقال « اللهمَّ عليك بقريش » قالها ثلاثاً ثمَّ قال رافعاً صوته « أنّي مظلوم فانتصر » قالها ثلاثاً ثمَّ قام فدخل منزله وكان ذلك بعد موت عمّه أبي طالب بشهرين . ولشهرة عمرو بن العاص بعداوة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أوفدته قريش إلى النجاشي ملك الحبشة ليزهده في الإسلام فيطرد عن بلاده من هاجر إليها من المسلمين فسار إلى الحبشة وقام بمهمته جهده ولكن ما أصغى النجاشي إلى قوله وظلَّ على إكرام المسلمين .

إنَّ الإسلام يجبُّ ما قبله فإنّ عمراً بن العاص ما زال عدواً للإسلام والمسلمين يحارب رسول الله مع الكفّار والمشركين إلى أن هداه الله للإيمان وقد حدَّث هو نفسه عن إسلامه وهذه روايته قال : لما انصرفنا من غزوة الخندق جمعتُ رجالاً من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون منّي فقلت لهم والله إنّي لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوّاً منكراً وإنّي قد رأيت رأياً فما ترون فيه ؟ فقالوا ما رأيت ؟ فقلت أرى أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومه أقمنا عند النجاشي فإن نكون تحت يديه أحبُّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد أمّا إذا ظهر قومنا على محمد فنحن من قد عرفوا قالوا إنّا على رأيك فقلتُ فأجمعوا ما نهدي له وكان أحبُّ ما يأتيه من أرضنا الأدم فجمعنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنّا لفي الحبشة موضع إكرام وحفاوة النجاشي الذي سرَّ من هديتنا وإذ قدم عمرو بن أمية الضمري وكان بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه فقلت لأصحابي هذا عمرو بن أمية لو قد دخلتُ على النجاشي على ما تعلمون من إدلالي عليه وسألته إيّاه فأعطانيه فضربت عنقه فإذا فعلت ذلك رأت قريش إنّي قد أجزأتُ عنها حين قتلتُ رسول محمد . فاستحسن أصحابي عزيمتي ودخلت على النجاشي وسجدت بين يديه فرحّب =

= بي كعادته معي فقلت له إنَّ الرجل الذي أتاك من الحجاز هو رسول عدوٌ لنا فاعطنيه لأقتله فإنَّه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . فغضب النجاشي وضرب أنفه بأصبعه ضربةً شديدةً هي إشارة الغضب عند القوم قال عمرو بن العاص : فوالله إذ رأيت هذا وددت لو انشقت الأرض ودخلتها فرقاً منه . ثمَّ قلت أيّها الملك والله لو ظننت أنّك تكره هذا ما سألتكه . فقال النجاشي ويل أمُّك أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ فقلت أيّها الملك أكذلك هو ؟ فقال أيّ والله أطعني ويحك واتبعه فإنَّه والله لعلى حقّ وليظهرنَّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قال عمرو بن العاص : فلمّا سمعت هذا من فم النجاشي صبوت إلى الإسلام وعدت إلى أصحابي فأخبرتهم بالأمر وأسرعت إلى المدينة فلما أتيتها قصدت خالد بن الوليد وكان صديقي وأسررت إليه بما في نفسي فسار معي إلى رسول الله فلمّا دخلت عليه قلتُ يا رسول الله أبايعك على أن تغفر لي ما تقدَّم من ذنبي ولم أذكر ما تأخر فقال بايع يا عمرو فإنّ الإسلام يجبُّ ما قبله وإنَّ الهجرة تجبُّ ما قبلها فبايعته وأسلمت اهـ هذه رواية عمرو بن العاص عن إسلامه وكان إسلامه سنة ثمان من الهجرة وعرف المصطفى مكانته من الشجاعة والدهاء فاستدناه منه وأرسله بسرية إلى ذوات السلاسل من بلاد قضاعة على رأس ثلاثمائة مقاتل وكانت أمُّ العاص بن وائل من (بلى) فبعث رسول الله عمراً إلى أرض (بلى) وعذرة ليتالف أهلها ويدعوهم إلى الإسلام فسار حتى إذا كان على ماء أرض جذام يقال له السلاسل وبها سمّيت تلك السرية (ذات السلاسل) خاف فكتب إلى رسول الله يستنجده فأمدَّه بجيش فيه مئتا فارس فيهم أهل الشرف والسوابق من المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر وأمّر عليهم أبو عبيدة بن الجرَّاح فلمّا قدموا على عمرو بن العاص قال هذا أنا أميركم وإنما أنتم مددي فقال أبو عبيدة بل أنا أمير من معي وأنت أمير من معك فأبى عمرو ذلك فقال أبو عبيدة لقد أمرني المصطفى أن أطاوعك ولا أخالفك فإن خالفتني أطعتك قال عمرو إنّي أخالفك فسلم إليه أبو عبيدة بالأمارة وصلّى خلفه في الجيش كلّه وانتهت الحملة بنصرة المسلمين .

ثمَّ إنَّ رسول الله ولّى عمراً بن العاص على عمّان وظلَّ في ولايته حتّى قُبض ﷺ ثمَّ عمل عمرو لأبي بكر في مدّة خلافته . وعندما فتحت سوريا وفلسطين =

وَإِذْ أُشِيْـرَ إِلَيْـهِ أَنْ يَـعُـوْدَ إِلَىٰ ٱبْــــنِ ٱلْعَاصِ فَهْوَ ٱلَّذِي ٱلْبَلْوَى يُجَلِّيْهَا

= على عهد عمر بن الخطاب كان عمرو بين القواد الفاتحين تحت إمرة أبي عبيدة بن الجرّاح وبعد الفتح ولّى عمر على دمشق وبعلبك معاوية وعلى فلسطين والأردن أخاه يزيد بن أبي سفيان ولم تطل أيام يزيد فمات فولّى عمر مكانه عمراً بن العاص ثمَّ جمع عمر فلسطين والأردن لولاية معاوية وأرسل عمراً بن العاص لفتح مصر ففتحها ولم يزل عليها حتى مات عمر وخلفه عثمان فثبّته عليها أربع سنوات ثمَّ عزله عنها وولّاها عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري فكان هذا بدء الشرّ بين عمرو بن العاص وعثمان على أنّ عمراً كان على ما عرف عن دهائه يداري ما في نفسه فيظهر الود ويخفي البغضاء والحقد .

وقد عرفنا مما تقدم كيف ترك عمرو بن العاص عثمان بين يدي قاتليه وارتحل عن المدينة إلى داره في القدس . وكيف أظهر الشماتة عندما سمع بمقتل عثمان . وكيف ارتحل إلى معاوية واتّفق معه . وسنذكر ما كان منه في حرب صفّين فيما يجيء إن شاء الله .

وقد برَّ معاوية بعهده فأطلق يد عمرو بن العاص في مصر فسار إليها فاتحاً وكانت خاضعة لسيدنا علي وكان يحكمها من قبله محمد بن أبي بكر فحاربه ودخلها عنوة ثم ظفر به فأحرقه بجوف حمار وقام بهذا الإثم الفظيع معاوية بن حديج . ولما بلغ ذلك عائشة في المدينة ازداد كربها وغمّها وجزعت جزعاً شديداً وصارت تلعن معاوية وعمرو بن العاص ومعاوية بن حديج عقب كل صلاة وضمّت عيال أخيها محمد إليها .

وسنأتي فيما بعد على ذكر المؤامرة التي دبّرت لقتل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام في موضعها .

وما زال عمرو بن العاص والياً لمصر متمتعاً بخيراتها ولم يكن لمعاوية فيها غير الإسم إلى أن توفي سنة ٤٣ للهجرة عن تسعين عاماً ودفن في المقطم من ناحية السفح .

وكان عمرو بن العاص من فرسان قريش وقادتهم وحكمائهم المحنكين وكان شاعراً حسن الشعر وله حكمٌ مأثورة وكان أظهر مظاهره الدهاء حتى أنّ عمر بن الخطاب كان كلّما استضعف رجلاً في عقله ورأيه يقول أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحدٌ يريد=

فَــإِنَّهُ بِــآلــدَّهَــا مَـا مَنْ يُشَــاكِلُهُ   وَإِنَّــهُ يَــطْلُبُ آلــدُّنْيَـا وَيَبْـغِيْـهَــا

فَهَمَّ فِيْ آلْحَـالِ يَدْعُـوْهُ لِحَضْـرَتِـهِ   بِـرُقْعَـةٍ كَـانَ بِـآلْإِسْــرَاعِ مُـوْفِيْهَــا

وَكَـانَ فَاتِـحُ مِصْرٍ ذُوْ آلـدَّهَاءِ لَـدَى   عُثْمَـانَ فِيْ حَـالَـةٍ لَبْسٍ خَـوَافِيْهَــا

يُـرِيْـدُ مِنْهَــا رِغَـابَــاً غَيْـرَ بَــالِغِهَـا   وَكَــانَ يُــظْهِـرُهَــا آنـاً وَيُخْفِيْهَــا

فَعِنْــدَ مَـا ثَــارَتِ آلثُّـوَّارُ نَــاقِمَــةً   عَلَىٰ آبْنِ عَفَّـانَ لَمْ يَنْكُـرْ تَـدَاعِيْهَـا

وَكَـانَ يُـظْهِـرُ بَيْنَ آلنَّـاسِ نَصْـرَتَـهُ   وَبِــآلْخَفَــاءِ عَلَيْــهِ كَــانَ يَنْعِيْـهَــا

حَتَّى إِذَا بَلَغَ آلسَّيْــلُ آلـزُّبَى وَتَيَقَّــــنَ آلْمَصِيْبَـةَ مَـا آلْأَقْــدَارُ تُنْشِيْهَـا

عَنِ آلْمَـدِيْنَـةِ قَــدْ وَلَّى وَخَلَّفَ عُثْـــمَـانَـاً لِأَعْـدَائِـهِ مَــا بَيْنَ أَيْـدِيْهَــا

وَسَـارَ لِلْقُـدْسِ فِيْـهِ كَـانَ يَمْلِكُ دَا   رَاً فَخْمَــةً وَأَوَى ضَـافِيْ مَبَــانِيْهَـا

وَكَانَ يُرْسِيْ عَلَىٰ حَسْبِ آلْهَوَا سُفُنَ آلْأَ   طْمَـاعِ حَتَّى إِذَا مَـا هَبَّ يُجْرِيْهَـا

وَكَــانَ يَسْمَـعُ أَنْبَــاءَ آلْـخِـلَافَــةِ مِنْ   سُعَــاتِـهِ آلْكُثْـرِ تَـأْتِيْـهِ فَتَـرْوِيْهَـا

مِنْهَـا دَرَى قَتْلَ عُثْمَـانٍ وَكَيْفَ جَرَى   فَقَــالَ : قَتَلْتُــهُ مَــا كُنْتُ آبِيْـهَــا

وَبَيْعَــةُ آلْمُــرْتَضَى مِنْهَــا تَلَقَّـفَهَــا   مَعْ مَا جَرَى بَعْدُ مِنْ عِصْيَانِ عَاصِيْهَا

= أنّه سبحانه خالق الأضداد .

أمّا أمّ عمرو بن العاص فهي سلمى وتلقب (بالنابغة) وهي بنت حرملة من بني صلان بن عنترة بن أسد بن ربيعة بن نزار أصابها سبأ فاشتراها عبد الله بن جدعان الشيمي بمكة ثمّ أعتقها فصارت بغياً فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب وأميّة بن خلف الجحمي وهشام بن المغيرة المخزومي وأبو سفيان بن حرب والعاص بن وائل السهمي في طهر واحد فولدت عمراً فادّعاه كلّهم فحكمت أمّه فبه فقالت هو من العاص بن وائل فقيل لها أبو سفيان أشرف نسباً فقالت إنّ العاص بن وائل كثير النفقة عليَّ وأبو سفيان شحيح قالوا ولكنّ عمراً كان أقرب شبهاً بأبي سفيان وكان الناس كثيراً ما يهجون عمراً بأمّه ويقدحون بنسبه ويعيبونه فيه .

وَلَمْ تَفُتْـهُ رِغَابُ ٱلصَّـائِحِيْنَ بِثَـا   رَاتِ آبْنِ عَفَّانَ خَافِيْهَا وَبَادِيْهَـا
وَحَمْلَةُ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَلْعُونِ إِذْ خَرَجَتْ   عَلَىٰ ٱلْخَلِيْفَـةِ أَيْضَـاً كَـانَ يَـدْرِيْهَـا
وَظَـلَّ فِيْ كُـلِّ هٰـذَا وَهْـوَ مُعْتَـزِلُ   حَـوَادِثَ ٱلدَّهْـرِ يَـأْبَى أَنْ يُمَاشِيْهَا
حَتَّى إِذَا مَا تَلَاشَتْ فِتْنَةُ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَـــلْعُوْنِ وَٱنْخَـذَلَتْ فِيْهَـا أَهَـالِيْهَـا
أَمْسَى يُـفَكِّـرُ فِـيْ أَمْـرٍ يُـوَصِّلُهُ   إِلَى مَـطَامِعِهِ مَـا كَـانَ نَـاسِيْهَـا
وَبَيْنَمَـا هُـوَ فِيْ هَـذَا أَتَتْـهُ رِسَـا   لَةُ آبْنِ هِنْدٍ فَلَمْ يَغْفَـلْ مَعَـانِيْهَـا
مِنْهَـا دَرَى أَنَّـهُ أَمْسَى بِـحَيْـرَتِـهِ   مُضَعْضَعَ ٱلرَّأْيِ يَسْعَى فِيْ دَيَاجِيْهَا
مَعْـهُ أُمَيَّـةُ قَـدْ خَـارَتْ عَـزِيْمَتُهَـا   وَمَـا لَهَـا غَيْـرُهُ شَخْصٌ يُقَـوِّيْهَـا
وَإِنَّـهُ إِنْ سَعَى مَـعْهَـا يُـؤَيِّـدُهَـا   حَتَّى تَـفُـوْزَ بِـآمَـالٍ تُـوَخِّيْهَـا
فَقَـدْ يَنَالُ بِهَـا قَـاصِيْ مَـطَامِعِهِ   وَمَـا ٱلْـعَلِيُّ إِذَا وَافَـاهُ يُـعْـطِيْهَـا
وَكَـانَ أَبْنَاهُ مَعْـهُ فَـآسْتَشَـارَهُمَـا   بِـدَعْوَةٍ لَيْسَ يَـدْرِيْ مَـا يُتَـالِيْهَـا
قَـالَ ٱلْكَبِيْـرُ: فَحَـاذِرْ مِنْ مُعَـاوِيَـةٍ   وَدَعْـوَةٍ لَا يُـرِيْـدُ ٱلْحَقَّ دَاعِيْهَـا
أَرْضَيْتَ أَحْمَـدَ وَٱلصِّدِّيْقَ مَـعْ عُمَـرٍ   حَتَّى قَضَـوْا بِفَعَـالٍ كُنْتَ آتِيْـهَـا
وَإِنَّ قَـتْلَةَ عُـثْـمَـانٍ لأَنْـتَ بَـرِيْ   ءٌ مِنْ شَـرَاكَـةِ بَـاغِيْهَـا وَجَـانِيْهَا
وَلَسْتَ تَطْمَعُ فِيْ نَيْـلِ ٱلْخِلَافَـةِ بَلْ   هَيْهَـاتِ يَـا أَبَتَـاهُ أَنْ تُـدَانِيْـهَـا
فَـإِنْ يَـفُـزْ بِتَـوَلِّـيْهَـا مُـعَـاوِيَـةُ   فَلَسْتُ أُلْفِيْـكَ إِلَّا مِـنْ مَـوَالِيْـهَـا
وَإِنَّنِي مُشْفِـقٌ أَنْ تَتْرُكَاهَا سَرِيْـــعَاً حَامِلَيْنِ إِلَى ٱلْأُخْرَى مَسَاوِيْهَا
وَقَـالَ ثَـانِيْهِمَـا: كَـلَّا فَعُـزْلَتُـهُ   تُفْضِيْ إِلَى حِطَّةٍ فَـرْضٌ تَحَاشِيْهَا
فَلْيَلْحَقَنَّ بِـأَرْضِ ٱلشَّامِ مُضْـطَلِبَاً   أَسْمَى ٱلْمُنَى وَٱلْمَعَالِيْ مِنْ مُعَاوِيْهَا
فَقَـالَ عَمْرٌو: فَعَبْـدُ ٱللَّهِ يَـطْلُبُنِيْ   لِـلدِّيْنِ طَلْبَـةَ حَقٍّ كُنْتُ وَاعِيْهَـا

لكِنَّمَا رَغْبَةُ آلدُّنْيَا يَجُوْلُ بِهَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا مَا زِلْتُ شَاهِيْهَا
وَبَعْدَ أَنْ طَالَ فِيْ هٰذَا تَفَكُّرُهُ أَنْضَى خُطَاهُ إِلَى آلدُّنْيَا يُمَالِيْهَا
وَسَارَ لِلشَّامِ يَسْتَرْشِي مُعَاوِيَةً يَقُوْلُ: خَاطِبُ ذَاتِ آلْحُسْنِ يُحْلِيْهَا
وَمَا آرْتَضَى غَيْرَ مِصْرٍ رَشْوَةً لِيُمَا لِيْهِ عَلَى شَهَوَاتٍ كَانَ شَاهِيْهَا
وَمِصْرُ تُطْمِعُ أَرْبَابَ آلْمَطَامِعِ بِآلْـ ـخَيْرِ آلْوَفِيْرِ آلَّذِيْ يُلْفى بِوَادِيْهَا
وَعَمْرُو فَاتِحُهَا وَهْوَ آلْخَيْرُ بِهَا فَلَيْسَ مِنْ عَجَبٍ إِنْ بَاتَ بَاغِيْهَا
وَمَا مُعَاوِيَةٌ لَوْلَا تَحَوُّجُهُ إِلَى مُعِيْنٍ كَعَمْرٍو وَكَانَ يُوْلِيْهَا
وَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِذْ ذَاكَ مَالِكَهَا لِذَا بِهَا نَفْسُ عَمْرٍو رَاحَ شَارِيْهَا
وَكَمْ أَتَى آلشَّامَ كَآبْنِ آلْعَاصِ ذُوْ جَشَعٍ فَنَالَ شَهْوَتَهُ أَوْ مَا يُوَازِيْهَا
وَفِيْ آلْخِلَافَةِ مَا يُغْرِيْ آلطَّمُوْعَ بِهَا إِلَّا إِذَا خَافَ رَبَّ آلْعَرْشِ حَامِيْهَا

معاوية يعلن العصيان

كَفٌّ تُصَافِحُ كَفّاً وَهْيَ طَامِعَةٌ بِمِصْرَ نَارُ آلْوَغَى وَآلظُّلْمِ تُوْرِيْهَا[١]
وَحِلْفُ شَرٍّ بِهِ تَمَّتْ مُحَالَفَةٌ ضِدَّ آلْخِلَافَةِ مَا آلْإِسْلَامُ رَاضِيْهَا
قَدْ فَازَ عَمْرٌو بِوَعْدٍ مِنْ مُعَاوِيَةٍ بِأَنْ يَعُوْدَ لِمِصْرٍ وَهْوَ وَالِيْهَا

---

(١) شعر معاوية بعد أن استوثق من معونة عمرو بن العاص بكفاءته لمقاومة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فصحت عزيمته على إعلان العداء فأمر منادياً ينادي الصلاة الجامعة فلمّا اجتمع الناس وفيهم جرير بن عبد الله البجلي رسول الخليفة علا معاوية المنبر وقال: الحمد لله الذي جعل الدعائم للإسلام أركاناً، والشرائع للإيمان برهاناً، يتوقد فيه في الأرض المقدسة، جعلها الله محلّ الأنبياء والصالحين من عباده، فأحلّهم أرض الشام، ورضيهم لها، كما سبق في مكنون علمه من طاعتهم، ومناصحتهم خلفاءه والقوّام بأمره، والذابين عن دينه وحرماته، ثمّ جعلهم لهذه الأمّة نظاماً، وفي سبيل=

= الخيرات أعلاماً ، يردع الله بهم الناكثين ، ويجمع بهم ألفة المؤمنين ، وبالله نستعين ، على ما تشعَّب من أمر المسلمين بعد الإلتئام ، وتباعد بعد القرب ، اللهمَّ انصرنا على أقوام يوقظون نائمنا ، ويخيفون آمننا ، ويريدون إراقة دمائنا ، وإخافة سبلنا ، وقد علم الله أنا لا نريد لهم عقاباً ، ولا نهتك لهم حجاباً ، ولا نوطئهم زلفاً ، غير أنّ الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ، ما جاوب الصدى ، وسقط الندى ، وعرف الهوى ، حملهم على ذلك البغي والحسد فنستعين الله عليهم ، أيُّها الناس ، قد علمتم أنّي خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأمير المؤمنين عثمان بن عفّان ، عليكم ، إنّي لم أقم رجلاً منكم على خزايةٍ قطُّ ، وإنّي وليُّ عثمان ، وقد قتل مظلوماً ، والله تعالى يقول : ﴿ **ومن قُتل مظلوماً ، فقد جعلنا لوليّه سلطاناً ، فلا يسرف في القتل إنّه كان منصوراً** ﴾ وأنا أحبُّ أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان » اهـ وما كاد ينتهي معاوية من خطابه الذي على ما رأيت بين سطوره من الدهاء والمكر حتى نادى الناس بالمطالبة بدم عثمان وبايعوا معاوية على ذلك وأوثقوا له على أن يبذلوا بين يديه أموالهم وأنفسهم حتى يدركوا بثأره أو تلتحق أرواحهم بالله . ثمَّ انصرف معاوية فانصرف الناس حتى إذا ما خلا في قصره استدعى إليه جريراً وقال له لقد طال مكوثك عندنا وأعملت الفكرة طويلاً فرأيتني لا يسعني إلاّ المطالبة بدم عثمان وأنا وليّه فارجع إلى صاحبك وأخبره إنّي لا أبايعه ولا أطيعه وكذلك أهل الشام أو يدفع لنا قتلة عثمان فنقتلهم به وهذا كتاب منّي إليه فاحمله له فحاول جرير كثيراً أن يثنيه عن عزمه فما أفلح وهكذا عاد خائباً إلى الكوفة يخبر أمير المؤمنين بكلّ ما رأى وسمع بعد طول غيبته عنه .

أمّا الكتاب الذي حمله جرير إلى سيدنا علي عليه السلام فهذا نصّه « من معاوية بن صخر إلى علي بن أبي طالب ، أمّا بعد ، فلعمري ، لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان ، كنت كأبي بكر وعمر وعثمان ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوي بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلاّ قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت (الخلافة) شورى بين المسلمين ، ولعمري ليست حججك عليَّ ، كحججك على طلحة والزبير ، لأنّهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجّتك على أهل الشام كحجّتك على أهل =

وَلَمْ يَكُنْ قَطُّ مَغْبُوْنَاً مُعَاوِيَةٌ   بِصَفْقَةٍ كَانَ بِٱلتَّوْفِيْقِ جَانِيْهَا

= البصرة ، لأنَّ أهل البصرة أطاعوك ولم يطعك أهل الشام ، فأمّا شرفك في الإسلام ، وقرابتك من النبيّ عليه الصلاة والسلام ، وموضعك من قريش ، فلست أدفعه ، والسلام » اهـ .

وإنّا نعود فنقول إنّ معاوية ما كان يهمه في الحقيقة قتل عثمان ولا كان يشجيه قميصه الملطخ بالدم وأصابع نائلة التي قُدَّت يوم مقتله . ولكنها ذريعة كان يتذرع بها للوصول إلى الخلافة ، ووسيلة يتوسل بها لتأليب الناس على سيدنا علي عليه السلام توصلاً لخلعه عن الخلافة واستئثاراً بها .

أمّا أهل الشام فهم صنفان صنف من خالصة العرب وقد التفوا حول معاوية طمعاً بالاستفادة من كرمه الجمّ الحاتمي والوصول إلى ما يحلمون به من الرتب العالية لو هو تولّى الخلافة . وصنف من عامة العرب وسواد أهل الشام وهم خاضعون لمعاوية من عهدٍ عهيد وقد ملك قيادهم وسيطر عليهم فما كان لهم إلّا أن يرضوا بما يرضى وأن يسيروا وراءَه كيف سار وهكذا استفحل أمر معاوية وأصبح خطراً على سلامة المسلمين وباتت الحرب بمساعيه ضد أمير المؤمنين على قاب قوسين .

أمّا بيعة أهل الشام لمعاوية يومئذٍ فقد كانت على الطلب بدم عثمان وعلى أن يكون أميراً لا يطمع في الخلافة بل يترك أمرها شورى . قالوا وكان في المسجد يومئذٍ أربعمائة رجل من المهاجرين والأنصار ممن صحبوا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم على رأسهم عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبيد الله بن عمر ومروان بن الحكم ونحوهم فاعجب لهذا العدد الكبير الذي انضوى لمعاوية طمعاً بالدنيا وكانت لا تزال هذه الدنيا غرَّارة بأهلها ولا حول ولا قوّة إلّا بالله .

« ترجمة جرير »

هو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك بن نضر بن ثعلبة بن جثم بن عويف بن حرب بن علي بن مالك بن سعد بن نذير بن قسر من كهلان قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رمضان سنة عشر للهجرة فبايعه وأسلم وكان جرير صبيح الوجه جميلاً . قال رسول الله فيه « كأنّ على وجهه مسحة مَلَك » وكان عمر يقول جرير يوسف هذه الأمّة . وكان طوالاً ينقل في ذروة البعير من طوله . وكانت نعله ذراعاً . وكان =

أَلَا يَهُونُ عَلَيْهِ بِٱلْخِلَافَةِ أَنْ يُعْطِي بِغَيْرِ وَنًى مِصْراً لِرَاجِيْهَا
هٰذَا إِذَا لَمْ يَخُنْهُ بَعْدَ نَصْرَتِهِ خِيَانَةً كَانَ عَمْرُوٌ مِنْهُ خَاشِيْهَا
وَكَانَ يَعْرِفُ عَمْراً فِي حَقِيْقَتِهِ تَٱللَّهِ صَاحِبُهُ يَدْرِي خَوَافِيْهَا
وَإِنَّهُ وَاحِدٌ فَذٌّ يُقَابِلُ بِٱلدَّهَا ٱلْأُلُوْفَ وَلَا يَخْشَى تَجَمِّيْهَا
لِذَا ٱسْتَعَزَّ بِهِ عِزّاً مُعَاوِيَةٌ وَلَمْ يَعُدْ يَرْهَبِ ٱلْأَخْطَارَ دَاهِيْهَا
وَرَدَّ رَدّاً جَرِيْراً قَائِلاً عَلَنَاً: مَا أُمْرَةُ ٱلْمُرْتَضَى يَا صَاحِ أَدْرِيْهَا
وَقُلْ لَهُ مَا أَنَا رَاضٍ بِأُمْرَتِهِ وَلَسْتُ وَٱللَّهِ أُحْصَى مِنْ مُطِيْعِيْهَا
كَذَاكَ عَادَ جَرِيْرٌ خَائِبَاً خَجِلاً بِخَيْبَةِ ٱلسَّعْيِ يَشْكُو مِنْ مُخِيْبِيْهَا
ثُمَّ ٱنْبَرَى بِٱلدَّهَا يُغْرِيْ مُعَاوِيَةٌ أَصْحَابَهُ وَبِمَا تَرْضَى يُمَنِّيْهَا
يَقُوْلُ: أَصْبَحْتُ يَا أَحْوَانُ مُلْتَزِمَاً حَرْبَ ٱلْخِلَافَةِ أَبْغِي أَقَاوِيْهَا
فَقَدْ حَمَتْ قَاتِلِي عُثْمَانَ فَهْيَ إِذَاً مَسْئُوْلَةٌ عَنْ دِمَاءٍ أُضْتُ أُجْرِيْهَا

=يخضب لحيته بالزعفران من الليل ويغسلها إذا أصبح فتخرج كالنير واستعمله عمر وعثمان بعده وآخر عمل له كان في همذان استعمله عليها عثمان وقد مرَّ معنا كيف أنّه بايع سيدنا علي وحمل أهل همذان على بيعته بعد انتهاء موقعة الجمل . ثمّ عرفنا كيف وجهه المرتضى عليه السلام إلى معاوية في الشام بعد أن عرض هو عليه ذلك بناءً على ثقته بنفوذه هناك .

ولما عاد جرير بالفشل والخيبة اتّهمه أصحاب سيدنا علي بممالئة معاوية وأنّه ما أطال المكوث في الشام وطاول في مخابرة معاوية إلّا ليكتسب هذا الوقت الكافي ليعدَّ عدَّته للعصيان والظاهر أنّ سيدنا علي عليه السلام داخله الشك بإخلاصه فأهمل شأنه فاعتزله ولم يحضر حرب صفّين على أنّه اعتزل معاوية أيضاً وأقام في الجزيرة في العراق ملتزماً بيته حتى توفي بالسراة من أعمال العراق سنة ٤٤ للهجرة في ولاية الضحاك بن قيس على الكوفة .

بِمِثْلِ ذَا كَانَ يَسْتَهْوِي ٱلشَّآمَ إِلَى ٱلْـــعِصْيَانِ وَٱلْحَرْبِ يمْشِيْهَا وَيُزْجِيْهَا
فَٱسْتَسْلَمَتْ وَبكَتْ مَعَهُ قَتِيْلَ بَنِيْ أُمَيَّةٍ لَيْتَ يَدْرِيْ ٱلْحَقَّ بَاكِيْهَا
صَاحَتْ بِثَارَاتِ عُثْمَانٍ تُرِيْدُ عَلِيّـاً مِثْلَمَا بُلِّغَتْ مِنْ مُسْتَشَارِيْهَا
وَبَايَعتْ بِٱسْمِ أَخْذِ ٱلثَّأْرِ مُقْدِمَةً عَلَىٰ ٱلصِّعَابِ ٱلَّتِيْ تُخْشَى مُعَاوِيْهَا
وَٱلشَّامُ بُؤْرَةُ شَرٍّ أَصْبَحَتْ وَبِهَا سُكَّانُهَا قَدْ تَمَادَتْ فِيْ تَرَاغِيْهَا
فِيْهَا عِدَا ٱلْمُرْتَضَى ظُلْمَاً قَدِ ٱجْتَمَعَتْ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَحَدْبٍ فِيْ تَفَعِّيْهَا
هُنَاكَ دَاهِيَةُ ٱلدُّنْيَا مُعَاوِيَةٌ يَرْمِيْ ٱلْخِلَافَةَ كَيْ يَصْطَادَ بَازِيْهَا
مَا هَمُّهُ دَمُ عُثْمَانٍ وَمَنْ سَفَكَتْــهُ أَصْبَحَتْ عِنْدَهُ إِذْ رَاحَ آوِيْهَا
وَلَا قَمِيْصُ ٱبْنِ عَفَّانَ ٱلْمُلَطَّخُ بِٱلْــدَّمِ ٱلَّذِي أَهْرَقَتْهُ فِيْ تَعَصِّيْهَا
وَلَا أَصَابِعُ ذَاتِ ٱلْخِدْرِ نَائِلَةٍ وَإِنْ هِيَ ٱنْتَشَرَتْ مِنْ قَدِّ مَاضِيْهَا
لٰكِنَّ نَفْسَ ٱبْنِ حَرْبٍ فِيْ شَرَاهَتِهَا لَا شَيْءَ عَنْ طَلَبِ ٱلثَّارَاتِ يُثْنِيْهَا
وَلَمْ تَكُنْ تَطْلُبُ ٱلثَّارَاتِ مُلْحِفَةً إِلَّا لِتُبْلِغَهَا أَقْصَى أَمَانِيْهَا
فَتَرْتَقِيْ سِدَّةَ ٱلدِّيْنِ ٱلْحَنِيْفِ بِثَا رَاتٍ تُنَادِي بِهَا فِيْ ٱلنَّاسِ تَمْوِيْهَا
وَٱلْتَفَّ مِنْ حَوْلِهَا مَنْ كَانَ يَضْطَلِبُ ٱلْــدُّنْيَا وَأَغْرَتْهُ بِٱلسُّوءَى مَلَاهِيْهَا
مِنْ كُلِّ مُرْتَقِبِ ٱلْعُلْيَاءِ ذِيْ وَلَعٍ بِهَا وَمَا هَمُّهُ إِلَّا تَرَقِّيْهَا

مسير أمير المؤمنين إلى الشام

وَبَعْدَ عَوْدِ جَرِيْرٍ لِلْإِمَامِ بِأَنْـــبَاءِ ٱلشَّآمِ وَمَا يَنْوِيْ مُعَاوِيْهَا[1]
أَبَى أَبُوْ حَسَنٍ إِلَّا مُرَاسَلَةَ ٱلْــعَاصِيْ ٱبْنِ صَخْرٍ بِآيِ ٱلنُّصْحِ يُسْدِيْهَا

---

(١) قدم سيدنا علي عليه السلام من البصرة إلى الكوفة-بعد موقعة الجمل لاثنتي عشرة =

طَـالَتْ وَلٰكِنَّهَـا مَـا أَثْمَـرَتْ ثَمَـراً فِيْ أَنْفُسٍ طَـوَتِ ٱلْبَغْضَا مَـطَاوِيْهَـا

= ليلة من شهر رجب سنة ٣٦ للهجرة . فدخل الكوفة ومعه أشراف الناس من أهل البصرة وغيرهم فاستقبله أهل الكوفة بالتكبير والتهليل وفيهم قرَّاؤهم وأشرافهم ودعوا له بـالبركـة ونزل في الرحبـة ثمَّ دخل المسجـد الأعظم فصلّى فيـه ركعتين وصعد المنبـر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله وقال : « أمّا بعد ، يا أهل الكوفة ، إنَّ لكم في الإسـلام فضلاً ، ما لم تبدّلوا وتعبروا ، دعوتكم إلى الحقّ فأجبتم ، وبدأتم بالمنكر فغيرتم ، إلاَّ أنَّ فضلكم فيمـا بينكم وبين الله ، فـأمَّـا الأحكـام والقسم ، فـأنتم أسـوة غيــركم ممن أجـابكم ، ودخل فيمـا دخلتم فيه ، ألا إنّ أخـوف ما أخـاف عليكم ، اتبـاع الهـوى ، وطول الأمل ، أمَّا أتباع الهوى فيصدُّ عن الحقّ ، وأمَّا طول الأمل ، فينسي الآخرة ، ألا إنَّ الدنيا قد رحلت مدبـرةً ، وأنَّ الآخرة قـد ترحلت مقبلةً ، ولكـلّ واحدةٍ منهـا بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حسـاب ولا عمل ، الحمـد لله الذي قصر وليه ، وخذل عدوَّه ، وأعزَّ الصادق المحقّ ، وأذلَّ الناكث المبـطل ، عليكم بتقوى الله ، وطاعـة من أطاع الله من أهـل بيت نبيكم ، الذين هم أولى بـطاعتكم فيما أطـاعـوا الله فيــه ، من المستحلين المـدعين ، القــائلين إلينـا ، يتفضلون بفضلنــا ، ويجاحدونا أمرنا ، وينازعـونا حقّنـا ، ويدافعـونا عنـه ، فقد ذاقـوا وبال مـا اجترحـوا ، فسوف يلقون غيّـاً ، إلاَّ أنّه قـد قعد عن نصـرتي رجالٌ منكم ، وأنـا عليهم عاتب ذارٍ ، فـاهجروهم ، وأسمعـوهم ما يكـرهون ، حتى يعتبـوا ، ليعرف بـذلـك حـزب الله عنـد الفرقة » وعندما انتهى أمير المؤمنين من خطابه تقدم إليـه وجوه الـذين تعدوا عن نصـرته فاعتذروا فقبل أعذارهم ورضي عنهم بعد أن أكثر من عتابهم ولومهم .

وقد سبقت الإشارة بأنّه عليه السلام ما كاد يستقرّ به المقام في الكوفـة حتى انصرف إلى دعوة أمراء العراق وفارس إلى الـطاعة فلبّـوه وأطاعـوه وبايعـوه ثمَّ انصرف إلى مخـاطبة معاوية ومخابرته فأرسل له جريراً كما تقدم وكـانت نتيجة رسـالته مـا رأينا من التسـويف والمماطلة ثمَّ رجوع جرير إلى أمير المؤمنين بالخيبة والفشل وتلا ذلك مـراسلات كثيـرة بين سيدنا عليّ ومعاوية لم تنجم عن خبر وقد تمادى معاوية مع سيـدنا علي في رسـائله تمـادياً مـا وجدت في العلمـاء والمؤرخين من رضيـه لـه حتى ولا الـذين يتشيعـون إلى الأمويين وإنّي لأعرض عن كل ذلك وأنزّه هذه العلوية المباركة عن نشر هاتيك الرسائـل وأكتفي بالإشارة إليها ولا حول ولا قوَّة إلاّ بالله . =

= وقد صبر سيدنا علي عليه السلام أشهراً معدودة حاول فيها جهده أن يستميله إلى الحقّ ويحوّله عن الباطل فما أجدت مساعيه نفعاً وظلّ معاوية وأعوانه يعيثون فساداً في ممالك الخلافة فيحملون الناس باسم ثأر عثمان على كره سيدنا علي ونكث بيعته حتى إذا ما استفحل الخطب وتفاقم الخطر لم يرَ سيدنا أمير المؤمنين غير تحكيم السيف لإعادة السلام إلى بلاد الخلافة فنادى بالجهاد على أهل الشام فلبّاه أكثر أهل العراق وتقاعس الأقلون ممن تأكلهم الترف وخارت منهم العزائم وكان خروجه عليه السلام من الكوفة في أوائل ذي الحجة سنة ٣٦ للهجرة .

سار المرتضى بأصحابه إلى النخلة وهي إحدى ضواحي الكوفة وهناك رتب صفوفهم وركب في مقدمتهم ودعا فقال « اللهمَّ ، إنّي أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد ، اللهمَّ أنت الصاحب في السفر ، وأنت الخليفة في الأهل ، ولا يجمعهما غيرك ، لأنّ المستخلف لا يكون مستصحباً ، والمستصحب لا يكون مستخلفاً » (نقول : وابتداء هذا الكلام يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد قفّاه أمير المؤمنين عليه السلام بأبلغ كلام وتمّمه بأحسن تتمة من قوله ولا يجمعهما غيرك إلى آخر ما قال فأجاد وأعجز لأنّ من يستصحب لا يكون مستخلفاً لاستحالة وجود الشيء الواحد في مكانين بالنظر إلى الجسم البشري وأمّا الله جلّت قدرته فذاته القدسية ليست مكانية بل هو جلّ جلاله موجود في كل زمان ومكان فيحيط علمه وقضاؤه وقدره وعنايته بالمستصحبين والمستخلفين معاً فهو سبحانه المرجوّ لنصرة السائرين لنصره وحماية المستخلفين من الأهل والولد) .

وقد ولّى سيدنا علي عليه السلام على الكوفة عند خروجه منها حبيب بن مالك، فقال له وهو آخذ بعنان دابته عند رحيله : أتخرج يا أمير المؤمنين بالمسلمين فيصيبوا أجر الجهاد بالقتال وتخلفني بالكوفة لحشر الرجال ؟ فقال : لن يصيبوا من الأجر شيئاً ، إلّا كنتَ شريكهم فيه ، وأنت ههنا أعظم غناءً عنهم ، منك لو كنت معهم » وعندما قطع سيدنا علي برحاله النهر أمر مناديه فنادى بالصلاة فتقدم عليه السلام فصلّى ركعتين حتى إذا قضى الصلاة أقبل على الناس بوجهه فقال : « أيّها الناس ألا من كان مشيعاً أو مقيماً فليتمَّ الصلاة ، فإنّا قوم سفر ، ألا ومن صحبنا فلا يصومنَّ المفروض ، والصلاة المفروضة ركعتان » . وبعد هذا سار أمير المؤمنين بركبه قاصداً الشام لحرب معاوية .

كَيْمَا يُشِيْدُ لَـهُ مُلْكاً عَلَىٰ أُسُسِ ٱلْـــخِلاَفَـةِ ٱلْمُشْتَهى مِنْـهُ تَـدَاعِيْهَـا
وَكَانَ يَسْمَعُ أَعْمَـالَ ٱلْعُصَاةِ أَبُـوْ ٱلْـــحُسَيْنِ مِنْ فَمِ رَاوِيْهَـا وَشَـاكِيْهَـا
فَيَسْتَعِيْـذُ بِبَـارِيْـهِ وَيَنْشُـدُ مَـنْ حَـوْلَيْهِ مِنْ صَحْبِهِ لِلْحَرْبِ يُنْخِيْهَـا
فَـلاَ يَـرَى غَيْـرَ آرَاءٍ يُشَتِّتُـهَـا ٱلْـــخُؤُوْرُ مَـا إِنْ تُلَبِّي صَوْتَ دَاعِيْهَـا
وَظَـلَّ فِيْ ذَا شُهُـوْرَاً وَهْـوَ مُصْطَبِرٌ عَلَىٰ عِـدَاهُ ٱلَّتِيْ وَالَتْ تَـعَـدِّيْهَـا
وَقَـدْ تَمَـادَتْ فَـلاَ صِقْـعٌ وَلاَ بَلَدٌ لَمْ تَفْشُ فِيْ أَهْلِهِ شَتَّى مَسَـاوِيْهَـا
وَلَمْ يَعُـدْ لِعَلِيٍّ أَنْ يَخَـارَ سِـوَى حَـرْبٍ بِنِيْـرَانِهَـا يَكْـوِيْ مُلَظِّيْهَـا
فَـأَعْلَنَ ٱلْحَرْبَ مُضْـطَرَّاً وَحُمَّ قَضَـا ءُ ٱللَّهِ أَنْ تُـزْعِجَ ٱلـدُّنْيَـا تَمَـاسِيْهَـا
كَيْمَـا يُـرَبِّيْ بِهَـا أَهْـلَ ٱلشَّـآمَ وَقَـدْ جَـارَتْ بِمَـا أَظْهَـرَتْـهُ مِنْ تَعَصِّيْهَـا
ذَا بَعْـدُ أَنْ ضَـاعَ مَسْعَـاهُ بِعَـوْدَتِهَـا إِلَى ٱلْهُـدَى وَأَطَـاعَتْ مُسْتَضِلِّيْهَـا
كَـذَاكَ قَدْ سَـارَ يَبْغِيْ ٱلشَّامَ حَيْـدَرَةٌ يُـرِيْـدُ تَـطْوِيْـعَ عَـاصِيْهَـا وَبَـاغِيْهَـا
وَحَـوْلَـهُ مِنْ كُمَـاةِ ٱلْحَـرْبِ طَـائِفَـةٌ يَفُـوْتُ قَافِـزُهَـا فِيْ ٱلسَّيْـرِ مَـاشِيْهَـا
وَكَـانَ مَسْعَـاهُ مَـا بَيْنَ ٱلْفُـرَاتِ وَدَجْـــلَةٍ يَجِـدُّ بِتِلْكَ ٱلأَرْضِ يَـطْوِيْهَـا
وَكَـانَ عِنْـدَ مَـوَاقِيْتِ ٱلصَّـلاَةِ يُنَـا دِيْ ٱلنَّـاسَ عَنْ وَرَعٍ كَيْمَا تُصَلِّيْهَـا
وَمَـرَّةً لَمْ يَجِـدْ أَرْضَـاً مُـلاَئِمَـةً إِلَى ٱلصَّلاَةِ بِوَقْتِ ٱلْعَصْرِ يَقْضِيْهَا(١)

---

(١) روى عمر بن عبد الله بن يعلى بن مرّة الثقفي عن أبيه عن عبد خير قال كنت مع علي أسير في أرض بابل في سيره إلى صفين وحضرت صلاة العصر فجعلنا لا نأتي مكاناً إلّا رأيناه أقبح من الآخر حتى أتينا على مكان أحسن ما رأينا وكادت الشمس تغيب فنزل علي فنزل الناس معه فدعا الله فرجعت الشمس كمقدارها من صلاة العصر فصلّينا العصر وغابت الشمس فأكبرنا معجزةً صنعها الله سبحانه بكرامته عليه‌السلام .

فَجَدَّ حَتَّى ٱنْتَهَى وَقْتَ ٱلْغُرُوْبِ إِلَى | أَرْضٍ أَرَادَ يُصَلِّيْ عَصْرَهُ فِيْهَا
وَإِذْ دَعَا قَدْ أَعَادَ ٱللَّهُ خَالِقُهُ ٱلـ | ـشَّمْسَ ٱلْمُضِيْئَةَ فِيْ أَسْنَى تَلاَلِيْهَا
ظَلَّتْ تُلأْلِىءُ حَتَّى مَا ٱلصَّلاَةُ كَمَا | يَرْضَى ٱلإِلٰهُ ٱنْتَهَى مِنْهَا مُصَلِّيْهَا
غَابَتْ وَقَدْ عَادَتِ ٱلدُّنْيَا لِظُلْمَتِهَا | وَبَاتَ صَحْبُ عَلِيٍّ فِيْ دَيَاجِيْهَا
وَتِلْكَ مُعْجِزَةٌ كُبْرَى لِحَيْدَرَةٍ | ذَاعَتْ وَشَاعَتْ وَكُلُّ ٱلنَّاسِ تَحْكِيْهَا
ثُمَّ عَلَىٰ كَرْبَلاَءٍ مَرَّ حَيْدَرَةٌ | فَأَوْقَفَ ٱلنَّاسَ حِيْنَاً فِيْ بَرَارِيْهَا[1]
نَادَى : ٱلرِّحَالُ هُنَا تَثْوِيْ بِكَرْبَتِهَا | هُنَا ٱلدِّمَاءُ عِدَاةُ ٱللَّهِ تُمْنِيْهَا
مَا كَرْبَلاَءُ سِوَى كَرْبٍ وَمَعْهُ بَلاَ | ءٌ لِلأُلَى سَوْفَ تَثْوِيْ فِيْ مَثَاوِيْهَا
بِذَاكَ أَنْبَأَ عَنْ خَطْبِ ٱلْحُسَيْنِ وَكَمْ | مِنَ ٱلْحَوَادِثِ قَدْ شِمْنَاهُ يُنْبِيْهَا
وَعِنْدَ مَا بَلَغَتْ سَابَاطَ حَمْلَتُهُ | حَلَّتْ بِأَمْرِ عَلِيٍّ فِيْ ضَوَاحِيْهَا[2]

---

(١) روى سعيد بن حكيم العبسي عن الحسن بن كثير عن أبيه أنَّ علياً عليه السلام أتى كربلاء في طريقه إلى صفين فوقف فيها قليلاً فقيل له يا أمير المؤمنين هذه كربلاء فقال ذات كربٍ وبلاءٍ ثم أومأ بيده إلى مكان فقال ههنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم ثمَّ أومأ بيده إلى مكانٍ آخر فقال ههنا مراق دمائهم ثمَّ مضى إلى ساباط وكان هذا من جملة أنبائه بالغيب التي اختصّه الله بها وقد أشار بها إلى مصرع سيد الشهداء الحسين عليه وعلى أبيه وجدّه وآل البيت الصلاة والسلام .

(٢) ولمّا مرَّ سيدنا علي بساباط وهي بالقرب من الأنبار استقبله بنو خشوشة وهم دهاقينها فنزلوا عن خيولهم وتقدموا منه ومعهم براذين قد أوقفوها في طريقه فقال عليه السلام ما هذه الدواب التي معكم ؟ وما أردتم بهذا الذي صنعتم ؟ ويريد نزولهم عن خيولهم في ملاقاته قالوا أمّا هذا الذي صنعنا فهو منا نعظم به الأمراء وأمّا هذه البراذين فهدية لك وقد صنعنا للمسلمين طعاماً وهيأنا لدوابكم علفاً كثيراً فقال عليه السلام أمّا هذا الذي زعمتم أنه فيكم خلق تعظمون به أمراءكم فوالله لا نفع به للأمراء وأنّكم لتشقّون به على أنفسكم وأبدانكم فلا تعودوا له . وأمّا دوابكم هذه فإن أحببتم أن =

وَأَقْبَلَتْ نَحْـو مَـوْلاَنَـا أَبِي حَسَنٍ   مِنْهَا آلدَّهَاقِيْنُ فِيْ أَجْلَى تَصَافِيْهَا
عَلَيْهِ قَدْ عَرَضَتْ شَاهِيْ آلْمَآكِلِ مَعْ   ضَافِيْ آلْمَنَازِلِ نَادَى : لَسْتُ رَاضِيْهَا
فَمَا عَلَيْكُمْ أَيْمُ آللَّهِ تَكْلِفَةٌ   لَنَا وَكُلْفَتُكُمْ إِنِّي أُحَاشِيْهَا

= آخذها منكم وأحسبها لكم من خراجكم أخذناها منكم . وأمّا طعامكم الذي صنعتم لنا فإنّا نكره أن نأكل من أموالكم إلاّ بثمن . قالوا يا أمير المؤمنين نحن نقوّمه ثمّ نقبل ثمنه قال إذن لا تقوّمونه بثمنه نحن نكتفي بما هو دونه . قالوا يا أمير المؤمنين فإنّ لنا من العرب موالي ومعارف أتمنعنا أن نهدي لهم أو تمنعهم أن يقبلوا منّا ؟ فقال كلّ العرب لكم موالي وليس ينبغي لأحد من المسلمين أن يقبل هديتكم وان غصبكم أحد فاعلمونا قالوا يا أمير المؤمنين إنا نحب أن تقبل هديتنا وكرامتنا قال ويحكم فنحن أغنى منكم وتركهم وسار .

نقول من يتدبر هذه القصة تتجلى له صفات أمير المؤمنين العالية ومباديه السامية مما لم تبلغ حدّه ديموقراطية هذه الأيام التي يتغنى بها المتغنون فقد نصح سيدنا أمير المؤمنين دهاقين الفرس أن يعدلوا عن النزول عن خيولهم إكراماً للأمراء إذا مرّوا بهم واستقبلوهم ولسان حاله يقول : بالتساوي بين الناس حتى لا يكلّف أحدهم مشقة لإكرام الآخر بما ليس وراءه فائدة لمستفيد . وامتنع عن قبول هديتهم إلاّ بثمنها وذلك غاية العدل لأمير يقود جيشاً محارباً سائراً للقتال . وعندما احتجوا بقولهم أنّ بعض العرب لهم أصدقاء يريدون أن يهادوهم أجابهم أمير المؤمنين بل إنّ كلّ العرب أصدقاؤكم لا بعضهم مشيراً إلى أنّ وجود العرب الفاتحين بأرضهم لا يمنع أن يجعل الغالبين والمغلوبين بحكم الأصدقاء . لا جرم أنّ الديموقراطية الحقيقية التي هي من أجلى المبادىء الإسلامية قد تجلّت في كلمات سيدنا علي بن أبي طالب المسجدية التي خاطب بها دهاقين الفرس وهي التي يوجبها الإسلام على تابعيه من الحكّام اللهمّ إذا كان القائم على تنفيذها تقيّ صالح عارف بأحكام الله كسيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام .

ويخلق بنا في هذا المقام أن نذكر اعترافاً بالحقّ وإقراراً بالفضل ما شهدناه شهادة عيان ونحن في خدمة مولانا صاحب العظمة الشيخ خزعل خان أدامه الله مدى الدوران فطالما رآه الناس وهو يتجوّل على يخته الملوكي في شطّ العرب ونهري بهمشير وقارون ينادي بالناس الذين يتجولون على بلايمهم فيتكلفون . الوقوف لأخذ سلامه وتقديم =

وَحَمْلَةُ ٱلْمُـرْتَضَى مَـرَّتْ بِفَجْـوَةِ أَرْ   ضٍ لَمْ تَجِدْ عِنْدَهَـا مَاءً تُـرَوِّيْهَا[1]

= الاحترام لشخصه الملوكي أن اجلسوا يا أولادي ولا تتكلفوا هذه المشقة فما أنا إلاَّ أبوكم وصاحبكم وشهدت هذا بنفسي وأنا بين يدي عظمته الملوكية فأثنيت على هذا العطف واللطف فقال حفظه الله : هذا ما تلقيناه عن سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام وذكر لي قصة دهاقين ساباط وقال بدعته المحمودة المشهورة ومن أكون أنا بجانب أمير المؤمنين الذي أبدى مثل هذا العطف لأولئك الدهاقين ؟؟ وذكرت هذا العطف واللطف الخزعلي وأنا معجب لكثيرين من أهالي العراق فحدثوني أمثال ذلك عن عظمته الشيء الكثير وألفيتهم أكثر إعجاباً مني بأخلاقه الفاضلة التي تركته في أرفع مقام من الاحترام في عيون العرب والأعجام .

كذلك كنت بخدمة عظمته الملوكية سنة ١٩١١ فصحبني أعزَّ الله به الإسلام إلى الأهواز وكان خارجاً إلى لقاء البختيارية الذين اعتدوا عامئذٍ على حدود أمارته المحمية فعندما حلَّ في الأهواز وأخذت تفد عليه رجال القبائل للحرب أخذت أيضاً ترد عليه الهدايا من القبائل المجاورة من قمح وأرز وغنم ودجاج وسمن فكان لا يقبل شيئاً منها إلَّا بثمنه على أنّه حفظه الله كان يدفع للذين يهادونه بأضعاف أثمان هداياهم فكانوا يتأبون عن قبولها وهم يقولون إنّ أرواحهم وأموالهم هي وقف لخدمته فيقول لهم لا والله فإنّ سيدنا علي ما قبل الهدايا بغير ثمنها عندما سار إلى صفين . شهدت هذا بنفسي وعرف العراقيون أكثر منه عن عظمته الملوكية في جميع حروبه وهم يذكرونها لعظمته بالإعجاب .

ولقد كنت أعجب من هذه الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة التي خصَّ الله سبحانه بها هذا الأمير العربيّ العظيم الذي تتبع تعاليم سيدنا علي عليه السلام وتأدّب بأدبه العلوي فبارك الله فيه وأكبت حساده وأعاديه وأعزَّ به أصحابه ومريديه .

(١) روى سعيد التيمي المعروف بعقيصاء قال كنّا مع علي عليه السلام في مسيره إلى الشام حتى إذا كنّا في السواد عطش الناس واحتاجوا إلى الماء فانطلق بنا سيدنا علي حتى أتى إلى صخرة ضرس في الأرض كأنَّها رابضة عنز فأمرنا فاقتلعناها فخرج لنا من تحتها ماء فشرب الناس وزاد عن حاجتهم ثمَّ أمرنا فأكفأناها عليه . وسار الناس حتى إذا مضوا قليلاً قال عليه السلام أمنكم أحد يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه ؟ قالوا نعم يا أمير المؤمنين . قال فانطلقوا إليه فانطلق منّا رجالٌ ركباناً ومشاةً فاقتصصنا الطريق إليه =

وَقَدْ رَأَتْ صَخْرَةً ضِرْسَاً كَرَابِضَةِ آلْـــعَنْزِ آلْمُقِيْمَةِ فِيْ صَافِيْ مَرَاعِيْهَا

فَجَدَّ حَيْدَرَةٌ جِدّاً لِمَرْبَضِهَا   حَتَّى غَدَا مَعَ مَنْ مَعْهُ مُدَانِيْهَا

وَصَاحَ هُبُّوْا لَهَا يَا صَحْبُ وَآقْتَلِعُوْ   هَا وَآشْرَبُوْا مِنْ مِيَاهِ آلنَّبْعِ صَافِيْهَا

فَبَادَرُوهَا بِأَيْدِيْهِمْ كَمَا أَمَرَ آلْـــمَوْلَى أَبُوْ حَسَنٍ رَاحُوْا مُزِيْحِيْهَا

فَفَجَّرَ آللَّهُ عَيْنَاً تَحْتَ مَرْبَضِهَا   وَأَسْرَعُوْا وَتَسَقَّوْاْ مِنْ مَجَارِيْهَا

وَأَكْفَأُوْا فَوْقَهَا فِيْ آلْحَالِ صَخْرَتَهَا   وَوَاصَلُوْا آلسَّيْرَ يَطْوُوْنَ آلْأَتَاوِيْهَا

وَكَانَ بِآلْقُرْبِ دَيْرٌ يَمَّمُوْهُ وَقَصُّــوْا قِصَّةَ آلْعَيْنِ لِاسْتِجْلَاءِ خَافِيْهَا

فَقَالَ صَاحِبُهُ: تَآللَّهِ مَا بُنِيَتْ   عَمَارَةُ آلدَّيْرِ إِلَّا كَيْ تُجَرِّيْهَا

وَلَيْسَ غَيْرُ نَبِيٍّ أَوْ وَصِيِّ نَبِـــيٍّ مِنْ خَلَائِقِ رَبِّ آلْعَرْشِ يُجْرِيْهَا

فَأَكْبَرُوْا عِنْدَ هَذَا آلْقَوْلِ مُعْجِزَةً   كَانَ آلْخَلِيْفَةُ بِآسْمِ آللَّهِ آتِيْهَا

ثُمَّ مَضَى آلْمُرْتَضَى بِآلصَّحْبِ يَسْلُكُ فِيْ   طَرِيْقِهِ آمِنَاً فِيْ سَيْرِهِ آلتِّيْهَا

حَتَّى إِلَى آلرِّقَّةِ آلْمَعْرُوْفِ مَوْضِعُهَا   عَلَى آلْفُرَاتِ آنْتَهَى أَثْوَى ضَوَاحِيْهَا(١)

= حتى انتهينا إلى المكان الذي حسبنا أنّه فيه فطلبناه فلم نجد للماء أثراً حتى إذا عجزنا انطلقنا إلى دير قريب منّا فسألناهم أين هذا الماء الذي شربنا منه منذ قليل ؟ قالوا ليس قربنا ماء فقلنا بلى فقد شربنا منه . قالوا أأنتم شربتم منه ؟ قلنا نعم . فقال صاحب الدير ما بني ديرنا هذا إلّا بذلك الماء وما استخرجه إلّا نبيّ أو وصيّ نبيّ فأكبروا ما سمعوا وعلموا أنّ الماء خرج لسقيهم بكراماته عليه السلام وعادوا فحدثوا أمير المؤمنين عليه السلام بما كان فحمد الله الذي خصّه بكرامته وعنايته حمداً كثيراً .

(١) إنّ الرقة بلد صغير على الفرات معروف لا يزال عامراً إلى يوم الناس هذا . وكان أهله عندما انتهى إليه أمير المؤمنين عليه السلام شيعةً لمعاوية وذلك أنّ سماك بن معاوية الأسدي كان قد فارق سيدنا علي في نحو مئتي رجل من بني أسد وترك الكوفة وجاء إلى الرقة ونزلها ودخل في طاعة معاوية ثمّ تبعه أناس من بني أسد فبلغوا السبعمائة . =

وَأَهْلُهَـا لَمْ تَكُنْ طَوْعَ ٱلْخِـلَافَـةِ كَـا نَتْ مَـعْ مُعَـاوِيَـةٍ تُبْـدِيْ تَعَصِّيْهَـا
فَكَـانَ مَنْزِلُـهُ عِنْـدَ ٱلْبَلِيْـخِ عَلَىٰ ٱلْـــفُـرَاتِ يَقْـرِبُ مِنْهَـا لَا يُقَـاصِيْهَـا
وَجَـاءَهُ رَاهِـبٌ ثَـمَّ وَأَخْـبَـرَهُ بِمَا تُخَبِّيْ ٱلنَّصَارَى فِيْ مَخَابِيْهَا[1]
فَقَالَ أَصْحَابُ عِيْسَى سَطَّرَتْ قِدَمَاً أُسْطُوْرَةً تُـدْهِشُ ٱلـدُّنْيَا أَمَـالِيْهَا

=فلمّا وصل أمير المؤمنين إلى الرقة امتنع هؤلاء بها فأبى سيدنا علي أن يحاربهم ونزل في القرب من الرقة في موضع يسمى البليخ على الفرات أيضاً وجعله معسكراً له .

(١) بعد أن نزل سيدنا علي البليخ جاءَه راهبٌ من صومعةٍ قريبةٍ منها وقال له عندنا كتاب ورثناه عن آبائنا كتبه أصحاب عيسى ابن مريم عليه السلام أتحبُّ أن أعرضه عليك ؟ قال نعم . فقرأ الراهب الكتاب فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، الذي قضى فيما قضى ، وسطر فيما كتب ، أنّه باعثٌ في الأميين رسولاً منهم ، يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويدلهم على سبيل الله ، لا فظٌّ ولا غليظ ، ولا صخّاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويصفح ، أمته الحمّادون الذين يحمدون الله على كل نشز ، وفي كلّ صعودٍ وهبوط ، تذلُّ ألسنتهم بالتكبير والتهليل والتسبيح ، وينصره الله على من ناوأه ، فإذا توفّاه الله ، اختلفت أمّته من بعده ، ثمَّ اجتمعت فلبثت ما شاءَ الله ، ثمَّ اختلفت ، فيمرُّ رجل من أمَّته بشاطىء هذا الفرات ، يأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر ، ويقضي بالحق ، ولا يركس الحكم ، الدنيا أهون عليه من الرماد ، في يوم عصفت به الريح ، والموت أهون عليه من شرب الماء على الظمآن ، يخاف الله في السرّ ، وينصح له في العلانية ، لا يخاف في الله لومة لائم ، فمن أدرك ذلك النبيّ ، من أهل هذه البلاد فآمن به ، كان ثوابه رضواني والجنة ، ومن أدرك ذلك العبد الصالح ، فلينصره ، فإنَّ القتل معه شهادة » اهـ . وبعد أن تلا الراهب على سيدنا علي الكتاب قال له : وأنا مصاحبك فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك . فبكى عليه السلام ثمَّ قال : الحمد لله الذي لم أكن عنده منسياً ، الحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار . ثمَّ إنّ الراهب ظلَّ مع سيدنا علي لا يفارقه وكان يتغذّى معه ويتعشّى حتى أصيب يوم صفين . فلمّا خرج الناس يدفنون قتلاهم . قال سيدنا علي : اطلبوا الراهب فطلبوه فإذا هو قتيل . فصلّى عليه أمير المؤمنين واستغفر له مراراً وقال : هذا منّا أهل البيت . لا جرم أنَّ من أخلص لآل البيت الطاهر فهو منهم ويحشر معهم .

مَحْفُوْظَةٌ قَدْ وَرِثْنَاهَا تُخَبِّرُ عَنْ ... رِسَالَةِ ٱلْمُصْطَفَى خَافِيْ مَعَانِيْهَا
وَعَنْ حُدُوْثِ شُرُوْرٍ بَيْنَ أُمَّتِهِ ... مِنْ بَعْدِ مَوْتَتِهِ صَعْبٌ تَلَافِيْهَا
وَعَنْ مُرُوْرِ تَقِيٍّ مِنْ صَحَابَتِهِ ... عَلَى ٱلْفُرَاتِ ٱلْهُدَىٰ يَعْنَى لِيُفْشِيْهَا
وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْهَادِيْ وَدَانَ لَهُ ... لَفَازَ بِٱلْجَنَّةِ ٱلْمَغْبُوطُ ثَاوِيْهَا
وَإِنَّ نَصْرَةَ ذَيَّاكَ ٱلتَّقِيِّ لَفَرْ ... ضٌ وَٱلشَّهَادَةُ مَعْهُ ٱللَّهُ رَاضِيْهَا
وَقَالَ لِلْمُرْتَضَى : مَوْلَايَ إِنِّيَ رَا ... غِبٌ بِصُحْبَتِكَ ٱلْعَلْيَا مُوَخِّيْهَا
مَا عُدْتُ أَتْرُكُهَا حَتَّى أُصَابَ بِمَا ... بِهِ تُصَابُ بِحَرْبٍ رُحْتَ تُلْظِيْهَا
وَقَوْلَةُ ٱلرَّاهِبِ ٱلتَّاقِيْ وَصُحْبَتُهُ ... أَبْكَتْ عَلِيّاً وَأَشْجَتْهُ مَغَازِيْهَا
وَقَالَ: أَحْمَدُ رَبِّي فَهْوَ ذَاكِرُنِيْ ... ذِكْرَى غَدَتْ كُتُبُ ٱلْأَبْرَارِ تَرْوِيْهَا

مسير معاوية للقاء جيش أمير المؤمنين

قَدْ كَانَ يَقْظَانَ يَسْتَنْبِيْ مُعَاوِيَةٌ ... حَوَادِثَ ٱلْمُرْتَضَى يَعْنَى لِيَدْرِيْهَا[1]
وَكَانَ يَرْشُوْ ٱلَّذِي يَأْتِيْ إِلَيْهِ بِهَا ... مِنَ ٱلْجَوَاسِيْسِ عُرْبِيْهَا وَعُجْمِيْهَا
وَكَانَ يَرْجِعُ فِيْ كُلِّ ٱلْأُمُوْرِ إِلَى ... عَمْرٍو وَآرَاؤُهُ كَانَتْ تُمَشِّيْهَا

---

(١) كان معاوية منذ جاءه عمرو بن العاص إلى دمشق وعاهده على مناوأة سيدنا علي عليه السلام شديد الركون إليه عظيم الثقة به لعلمه أنه أدهى دهاة العرب وكان لا يبرم أمراً دون مشورته ولا يجري عملاً إلّا بإشارته ولم يفت معاوية خطر موقفه في عصيان سيدنا علي عليه السلام ولذلك كان دائم السهر على تنسم أخباره والوقوف على ما يجريه في الكوفة وكان له قوم يتجسسون معسكر الخلافة في الكوفة ويأتونه بصحيح الأخبار طمعاً بهباته .

وعندما عرف معاوية أنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سائر إليه بخيله ورجله وقد خرج من الكوفة فعلاً سقط في يده وأسرع إلى عمرو بن العاص يستشيره فقال له =

وَعِنْدَ مَا شَاعَ فِيْ أَرْضِ ٱلشَّآمِ مَسِيْـــرُ ٱلْمُرْتَضَى نَحْوَهَـا لِلْفَتْحِ يَبْغِيْهَـا

= هذا : ما دام عليٌّ سائر إليك بنفسه فعليك أن تسير إليه بنفسك لكي لا يعدم جيشك سداد رأيك ولا عدوّك مكيدتك وعليك أن لا تدعه يصل إلى الشام فيحاربك فيها بل أسرع إليه واعترضه في طريقه وحاربه بعيداً عنها . ومن نصيحة عمرو هذه يظهر لنا أنّ فاتح مصر كان مقدّراً سيدنا أمير المؤمنين حقَّ قدره عارفاً أنَّ الانتصار عليه ليس من الهنات الهينات وأنّ محاربته عليه‌السلام تحتاج إلى مكايدة وإطالة رويَّة . ثمّ أنَّ عمراً على ما يظهر كان يدرك حقّ الإدراك أنّ انتصار أمير المؤمنين على معاوية من الأمور الممكنة القريبة الوقوع ولذلك أشار على معاوية أن يعترضه بطريقه ويحول دون وصوله إلى الشام مقدّراً أنّه إذا انتصر على معاوية يستطيع هذا أن يعود بفلول جيشه إلى الشام ويعتصم بها لحربٍ أخرى خلافاً لما لو جرت الحرب في الشام وتمت النصرة لسيدنا علي حينئذٍ يدخل الشام منصوراً كما دخل البصرة ويفسد أمر معاوية نهائياً . وفي الأخير نظنُّ أنّ اعتماد عمرو بن العاص في هذه الحرب قد كان بالأكثر على المكايدة لعلمه أنّ أمير المؤمنين بعيدٌ من الكيد يتحاشى الختل والخديعة لما عرف عن صحة دينه وصدقه في عبادته أمّا عمرو ومعاوية فكانا لا يتحاشيان كل عمل يفضي إلى النصر . ولقد أصغى معاوية إلى نصيحة عمرو وأقرَّ على السير مع جيشه يقوده بنفسه .

أمّا أهل الشام فلم يذع بينهم نبأ سير سيدنا علي لمحاربتهم حتى تولاهم الفرق لما سمعوه من صحابة المصطفى وأنصاره عن مواقفه العظيمة في الغزوات النبوية حتى كان يجول على ألسنتهم قول جبريل من السماء له « لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي » وكانوا يضربون بشجاعته الأمثال وأزادهم فرقاً من بطشه ما سمعوه من إبلائه بأصحاب الجمل من أفواه الذين نجوا بأنفسهم وقصدوا الشام . وفوق هذا كانوا يرهبون أهل العراق لما اشتهر عنهم من البسالة في حروبهم . ولذلك خارت عزائمهم وصاروا لا يخفون مخاوفهم فهمَّ هذا معاوية وعمرو بن العاص فأخذ عمرو على عاتقه تبديد ما تسطى على نفوس أهل الشام من الخوف فطفق يخطب في مجالسهم فيقول إنّ علياً أمسى بغير حول ولا طول وأنَّ أصحابه تولّاهم الخور وتفرقت كلمتهم وأنَّ أهل العراق قد تفرّق جمعهم ووهنت شوكتهم وفُلَّ حدُّهم وأنَّ أهل البصرة مخالفون لعلي بعد أن قتل منهم الخلق الكثير وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل وإنّما سار علي في شرذمة قليلة سهل لقاؤها قريب خذلها والانتصار عليها . وكان يتبع هذا =

نَـادَى مُعَاوِيَـةً عَمْـرٌو: سَـرَاعِ إِلَى | لِقَـائِـهِ فِيْ طَـرِيْقٍ رَاحَ يَمْشِيْـهَـا
وَلَا تَـدَعْـهُ يُـوَافِيْ آلشَّـامَ يَقْـرَبُهَـا | بَـلْ لَا تَـدَعْـهُ بِمَنْ مَعْـهُ يُـدَانِيْهَـا
وَسِرْ بِنَفْسِكَ فِيْ رَأْسِ آلْجُنُـوْدِ وَلَا | تَـدَعْ قِيَـادَتَهَـا كُنْ أَنْتَ رَاعِيْهَـا
وَلَا تَغِبْ عَنْـهُ غَيْبَاً بِـآلْمُكَـايَـدَةِ آلْـــ | ـمَنْصُـوْرُ بَيْنَكُمَـا تَـآللَّهِ رَاصِيْهَـا
فَـإِنَّ حَيْـدَرَةً صَعْبُ آلْمَـرَاسِ وَلَا | تَهُـوْنُ حَـرْبُ عَـوَانٌ هَمَّ يُلْظِيْهَـا
وَخَافَتِ آلنَّاسُ مِنْ مَلْقَى أَبِيْ حَسَنٍ | لَمَّـا دَرَتْ أَنَّـهُ بِـآلْجَيْشِ آتِيْـهَـا
فَرَاحَ يَخْطُبُ عَمْرٌو فِيْ آلْمَجَالِسِ كَيْ | يَجْلُوْ مَخَـاوِفَهَـا عَنْهَـا وَيُقْصِيْهَـا
فَقَـالَ: إِنَّ عَلِيَّاً بَـاتَ أَضْعَفَ مِنْ | أَنْ يَغْلِبَ آلشَّـامَ أَوْ يَلْقَى أَهَـالِيْهَـا
وَإِنَّ أَصْحَـابَـهُ خَـارَتْ عَـزَائِمُهَـا | وَعَـادَ أَهْـوَنُ شَيْءٍ أَنْ نُـلَاشِيْهَـا
وَشَتَّتَ آلـدَّهْـرُ آهَـالَ آلْعِـرَاقِ فَـأَمْـــ | ـسَتْ يَسْتَحِيْـلُ وَلَا يُـرْجَى تَجَمِّيْهَـا
وَأَصْبَحَتْ مَـا لَهَا مِنْ شَـوْكَةٍ وَقِـوَى | وَفَلَّتِ آلْغِيَـرُ آلْكُثْـرَى مَـوَاضِيْهَـا
وَغَـزْوَةُ آلْجَمَـلِ آلْكُبْـرَى مُضَيِّعَـةٌ | رِجَـالَهَـــا بَيْنَ كُـوْفِيْهَـا وَبَصْـرِيْهَـا
وَإِنَّ حَـيْـدَرَةً آتٍ بِـشِـرْذِمَـةٍ | قَـلِيْلَةٍ إِنَّـنَـا لَا شَـكَّ نُـرْدِيْـهَـا
يَـا نَـاسُ ثَـارَاتُ عُثْمَـانٍ لَنَـطْلُبُهَـا | وَمَـا آلتَّقِيُّ أَخُـوْ آلْإِيْمَـانِ نَـاسِيْهَـا
آللَّهُ آللَّهُ فِيْ صَـوْنِ آلْحُقُـوْقِ فَـلَا | تُضَـاعُ مِنَّـا وَمَـا كُنَّـا مُضِيْعِيْهَـا

= الهذيان في تضعيف سيدنا علي والاستهانة بحملته باستثارة حميتهم ونخوتهم بذكر مقتل عثمان فيقول : وقد قتل خليفتكم والله الله في حقّكم أن تضيعوه وفي دمكم أن تطلّوه .

وهكـذا نجح هـذا الداهيـة عمرو بن العـاص من جمع أهـل الشام وتبـديد الخـوف من نفوسهم فعادوا واجتمعوا حول معـاوية فسـار بهم مجتازاً حمـاة فحلب حتى بلغ الفرات فعسكـر على ضفافه بالقـرب عن معسكر سيـدنا علي عليه السلام في مـوضـع الـرقـة بقـرب صفين .

وَفِي دِمَـائِكُمْ مِنْ أَنْ تُـطَلَّ سُـدَىً   أَوْ أَنْ تَنَـامُوْا عَلَى عُـدْوَى مُـطِلِّيْهَـا
بِمِثْـلِ ذَا كَـانَ عَمْـرُوٌ يَسْتَثِيْـرُ نُفُـوْ   سَ ٱلنَّاسِ يَدْفَعُهَـا لِلْحَرْبِ يُغْـرِيْهَا
حَتَّى إِذَا ٱجْتَمَعَتْ تِلْكَ ٱلْجُمُوعُ لَدَيْـ   ـهِ سَـاقَهَـا لِلْوَغَى ظُلْمَاً مُعَـاوِيْهَـا
وَكَـانَ يَصْحَبُهَـا عَمْـرُوٌ فَجَـازَ بِهَـا   حَمَـاةَ مَعْ حَلَبٍ مَعْمَـا يُتَـالِيْهَـا
حَتَّى ٱنْتَهَتْ وَأَنَاخَتْ فِي ٱلْفُرَاتِ عَلَى   ضِفَـافِـهِ وَتَـدَانَتْ مِنْ أَعَـادِيْهَـا

موضع موقعة صفين وتاريخها

وَفِيْ ٱلْفُرَاتِ ٱلتَقَى ٱلْقَوْمَانِ وَٱصْطَدَمَا   وَٱلْحَـرْبُ بَيْنَهُمَا فَحَّتْ أَفَـاعِيْهَـا[1]
فِيْ فَجْوَةٍ بِٱسْمِ صِفِّيْنٍ لَقَـدْ عُرِفَتْ   بِـٱلْقُـرْبِ مِنْ رِقَّـةٍ أَوْ مَـا يُنَـاحِيْهَـا

---

(١) وجرت الموقعة بين سيدنا علي ومعاوية في موضع يسمى صفين على الفرات وهذا الموضع قريب من بلد « الرقة » أو من قرية « جرابلس » وهي قريبة من الرقـة على أنّ هذا الموضع لم يعرف إلاّ بهذه الموقعة المحزنـة ولم يكن معروفـاً قبلها ولا صـار له شـأن بعدهـا . وقد يكـون اسم صفين مشتق من صفن الرجـل أي صفَّ قدميـه فكأنّهم يريدون الموضع الـذي صُفَّت فيه أقـدام الرجـال أو ربما أخـذوا هذا الإسم من صـافن القوم الماء أي اقتسموه بالحصص لأنّ بدء موقعة صفين كانت على المـاء إذ منع رجـال معاوية رجـال علي من الاستقاء فضـربوهم وغلبـوهم حتى إذا ما تغلبـوا على الماء أمـر سيدنا علي أن يسمحـوا لرجـال معاويـة المغلوبين أن يستقوا كرماً منه وفضـلاً . هذا إذا اعتبرنا أنّ اسم صفين وضعه المسلمون في أثناء تلك الموقعة أو بعدها أمّا إذا كـان هذا الإسم قد أطلق على ذلك الموضع قبل الموقعة فقد تكون تسميته مشتقة من صافن على تقدير أنّ الناس كانوا يستقون منه بالمحاصَّة أو قد يكون هذا الإسم محرَّفاً عن السريانية أو الفـارسية لأنّ قبـل الإسلام كـانت هاتيـك الأطراف في حكم السـريان فـالفرس والله أعلم .

وقد أطلق القوم على هذه الموقعة إسم هذا المـوضع فعـرفت بموقعـة صفين كما عرفت موقعة سيدنا علي مع عائشة والزبير وطلحة في البصرة باسم موقعـة الجمل نسبـةً إلى الجمل الذي كان يحمل هودج عائشة وقد تفانى الناس من حوله .

=

وَإِنْ هِيَ ٱنْـدَرَسَتْ مَـازَالَ ذَاكِـرُهَـا   يَبْكِيْ ٱلـدِّمَـاءَ ٱلَّتِيْ رَوَّتْ أَرَاضِيْهَـا
وَأُمَّـةُ ٱلْمُصْـطَفَى ٱلشَّنْـآنُ فَـرَّقَهَـا   حَتَّى تَعَـادَى عُـرَاقِيْهَـا وَشَـامِيْهَـا
وَكَـانَ مَهْبَـطُهَـا لِلْحَـرْبِ حَجَّـةَ سِـــتٍّ وَٱلثَّـلَاثِيْنَ فِيْ تَارِيْخِ هِجْرِيْهَـا

ابتداء موقعة صفين

وَآمَـرَ ٱلْمُـرْتَضَى أَنْ لاَ تُبَـادَأَ أَعْـــدَاهُ ٱلْعَدَا قَبْلَ أَنْ تُبْدِي تَعَدِّيْهَـا[1]
وَكَـانَ يَرْغَبُ فِيْ عَـوْدِ ٱلسَّلَامِ إِلَى   أَهْـلِ ٱلْحَنِيْفَةِ مَـعْ مَـاضِيْ تَـآخِيْهَـا

= أمّا تاريخ موقعة صفين فقد كـان ابتداؤهـا في أواخر ذي الحجـة سنة ٣٦ هـ وفي محرم سنة ٣٧ تهادن القوم لأنّه شهر حرام وعادت الحرب فاشتدت ثانيـةً في شهر صفـر سنة ٣٧ على ما سترى .

(١) عندما أصبح جيشا سيدنا علي ومعاوية متجاورين على ساحـل الفرات أخـذا يتحفزان للقتال . وأول ما كان من أمرهما أنَّ أبا الأعور السلمي وكان على مقدمة جيش معاوية أخذ يناوش مقدمة الجيش العلوي فكان ثمَّ قتال غير ذي شأن وكـان على مقدمـة جيش سيدنا علي الأشتر النخعي على أنَّ أبا الأعـور بعد أن كـرَّر مناوشـاته ليعجم عـود الجيش العلوي عاد إلى معسكر معاوية العام وفي عوده استـولى على « قناصـرين » وهو المـوضع الـذي كان يستقي منـه الجيشان المـاء فلمـا بلغ ذلـك الأشتـر هجم على أبي الأعـور بأربعـة آلاف مقاتـل وأجلاه عن المـاء فما كـان من معاويـة إلاّ أن هجم بقضـه وقضيضه على الأشتر فتهيبه وانسحب إلى معسكر سيدنا علي تاركاً المـاء لمعاويـة فمنع هذا الورد عن الجيش العلوي . أمّا سيدنا علي عليه السلام فلما رجع إليه الأشتـر ينبئه بتغلب معاوية على الماء أقدم بجيشه الجرار وكان يربو على مئة ألف مقاتل إلى مـوضع صفين وتقدمت طلائع هذا الجيش العظيم من جيش معاوية وأخذت ترميه بنبـالها فلقيهـا جيش معاوية بالنبال واشتبك القتال هـوياً وانتهى بـانتصار العلويين على أهـل الشام فـاستولـوا على الشريعة وقال قائلهم أنا نعامل أعداءَنا بما عاملونا به فنمنعهم الماء وعـرضوا ذلـك على سيدنا أمير المؤمنين فقال « خـذوا من الماء حـاجتكم ، وارجعوا إلى معسكـركم ، وخلوا بين أهـل الشام وبين المـاء ، فإنَّ الله قـد نصركم عليهم بـظلمهم وبغيهم » فترك العلويون حسب أمر خليفتهم عليه السلام حرّاً فصار العراقيون والشـاميون يستقـون منه أحـراراً =

وَكَـانَ فَـاتِحَـةَ ٱلنِّضَـالِ مَنْـعُ رِجَـا ل ِ ٱلشَّامِ عَنْ صَحْبِهِ ٱلْأَمْوَاهَ تُسْقِيهَا

=ولا يؤذي أحدهم صاحبه وكانت تلك منةً من أمير المؤمنين أبي معاوية وعمرو بن العاص أن يعترفا بها ويعرفا لصنو المصطفى وأخيه فضله وعطفه . على أنَّ المرتضى عليه السلام ما لبث بعد هذا أن أعلن بين أصحابه « لقد خلّينا الماء لأهل الشام ، لأنّا لا نفعل فعل الجاهلية ، وسنعرض عليهم كتاب الله ، وندعوهم إلى الهدى ، فإن أجابوا وإلاَّ ففي حدّ السيف ما يغني ، إن شاء الله » كذلك كان يرمي سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام إلى الساعة الأخيرة إلى تلافي الشرّ بالتي هي أحسن وبالفعل كتب إلى معاوية الكتاب التالي :

« من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية ومن قبله من قريش ، سلام عليكم ، وإنني أحمد إليكم الله الذي لا إلٓه إلاّ هو ، أمّا بعد ، فإنَّ لله عباداً آمنوا بالتنزيل ، وعرفوا التأويل ، وفقهوا في الدين ، وبين الله فضلهم في القرآن الحكيم ، وأنتم في ذلك الزمان ، أعداءُ الرسول ، تكذبون بالكتاب ، مجمعون على محاربة المسلمين ، من ثقفتم منهم حبستموه أو عذبتموه أو قتلتموه ، حتّى أراد الله تعالى إعزاز دينه ، وإظهار أمره ، فدخلت العرب في الدين أفواجاً ، وأسلمت له هذه الأمّة طوعاً وكرهاً ، فكنتم ممن دخل في هذا الدين ، إمّا رغبةً ، وإمَّا رهبةً ، على حين فاز أهل السبق بسبقهم ، وفاز المهاجرون الأولون بفضلهم ، ولا ينبغي لمن ليست له مثل سوابقهم في الدين ، ولا فضائلهم في الإسلام ، أن ينازعهم الأمر الذي هم أهله وأولى به ، فيحارب ويظلم ، ولا ينبغي لمن كان له عقل ، أن يجهل قدره ، ويعدو طوره ، ويشفي نفسه بالتماس ما ليس بأهله ، فإنَّ أولى الناس بأمر هذه الأمّة قديماً وحديثاً ، أقربها من الرسول ، وأعلمها بالكتاب ، وأفقهها في الدين ، أولهم إسلاماً ، وأفضلهم جهاداً ، وأشدُّهم بما تحمله الأئمة من أمر الأمّة اضطلاعاً ، فاتّقوا الله الذي إليه ترجعون ، ولا تلبسوا الحقَّ بالباطل ، وتكتموا الحقَّ وأنتم تعلمون ، واعلموا أنَّ خيار عباد الله ، هم الذين يعملون بما يعلمون ، وأنَّ شرارهم الجهّال الذين ينازعون بالجهل أهل العلم ، فإنَّ للعالم بعلمه فضلاً ، إنَّ الجاهل لا يزداد بمنازعته العالم إلاَّ جهلاً ، ألا وإنّي أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنّة نبيّه ، وحقن دماء هذه الأمّة ، فإن قبلتم أصبتم رشدكم ، واهتديتم لحظكم ، وإن أبيتم إلاّ الفرقة ، وشقّ عصا هذه الأمّة ، لم تزدادوا من الله إلاّ بعداً ، ولا يزداد الربّ إلاّ سخطاً ، والسلام » اهـ . =

فَقَــاتَلَتْهَـا وَفَــازَتْ بِــٱلْمِيَــاهِ فَنَــا دَى ٱلْمُرْتَضَى فَٱتْرِكُوْا وِرْدَاً لِظَامِيْهَا

أَبْـدَى بِـذْلِـكَ مِنْ فَيَّاضِ رَحْمَتِــهِ عَلَى أَعَـادِيْـهِ مَــا يَكْفِيْ لِيَهْـدِيْهَــا

وَرَامَ مِنْ فَـوْقِ ذَا حَقْنَ ٱلدِّمَـا وَرَعَاً بِـدَعْــوَةٍ رَاحَ لِلتَّــوْفِيـقِ دَاعِيْـهَــا

وَأَرْسَـلَ ٱلرُّسْـلَ لِلْأَعْـدَاءِ تَنْشُـدُهَـا لِلسِّلْمِ كَـانَ بِـذَا فَضْــلاً مُـوَافِيْهَــا

فَلَمْ يُفِـدْ سَعْيُهَا سِلْمَاً وَقَـدْ رَجَعَتْ إِلَى أَبِي حَسَنٍ تَـنْعِـي مَسَــاعِـيْهَــا

فَلَمْ يَعُدْ غَيْرُ تَحْكِيْمِ ٱلسُّيُـوْفِ فَخَا رَ ٱللَّهَ حَيْــدَرَةٌ فِيْ شَهْـرِ مَــاضِيْهَـا

كَـذَاكَ سُلَّتْ سُيُـوْفُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ مِنَ ٱلْأَغْــمَــادِ وَٱنْجَلَتِ ٱلْفُـرْسَان تُنْضِيْهَـا

وَثَارَتِ ٱلْحَرْبُ تُفْنِيْ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَـوَا دِيْهَـا فَـوَيْـلٌ لِمَنْ كَـانُـوا مُثِيْـرِيْهَــا

فِيْ شَهْرِ حِجَّةَ قَدْ كَانَتْ مَوَاقِعُهَا آلـــــشَّعْـوَا سِجَــالاً فَغَشَّتْــهُ دَوَاهِيْهَــا

= سار رسول أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب بهـذا الكتاب وفيـه ما فيـه من الصراحة التي يوحيها الإسلام وتقضي بها الحكمة ويدعـو إليها حبّ السـلام حتى إذا ما دفعه إلى معاوية بن أبي سفيان تلاه هذا مثنى وثلاث واستدعى عمراً بن العاص وأطلعـه عليـه فما أثـرت نصائحـه ومواعـظه على عواطفهمـا ولا ثناهمـا عن عزمهمـا وأقرّا على مجاوبته ببيت واحد من الشعر وهو :

ليس بيـني وبـيـن قـيسٍ عـتــابٌ غيـر طعن الكلى وضـرب الـرقـاب

فلمّا عاد رسول أمير المؤمنين إليه بهذا الجواب الجاف المشير إلى تصميم أعدائه على حربه استعاذ بالله واسترجع وتألّم لما سيصيب المسلمين وتوجّع وتلا آية ﴿ **لا تهـدِ من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهو أعلم بالمهتـدين** ﴾ وأمر النـاس أن يتهيأوا للمسير إلى القتال فأطاعـوا فمرَّ بهم على الفـرات وسبقته مقـدمته إلى لقـاء مقدمـة أهل الشام وابتدأ القتال بين القومين وكان أهل الشام البادئين لأنّ سيدنا علي أمـر مقدمتـه أن لا تبادىء القوم القتال وكان قتـالهم ترامياً بالسهـام فتطاعنـاً بالـرماح فتضـارباً بـالسيوف ويتخلل ذلك مبارزات بين الأبطال وقضوا في ذلك ما بقي من شهر ذي الحجة سنـة ٣٦ وكان القتال بينهما سجالاً لم يسفر عن فصل لأحدَ الفريقين .

فَلَمْ تَكُنْ نُصْــرَةٌ تُنْهِي ٱلْفَجِيْعَـةَ أَوْ   رَأْيٌ سَـدِيـدٌ لِأَهْـلِ ٱلْخَيْـرِ يُنْهِيْهَـا

هدنة محرم سنة ٣٧ هجرية

وَلَا يَجُوْزُ لَدَى ٱلْعُـرْبِ ٱلْقِتَالُ بِـأَشْــــهُـرِ ٱلْحَرَامِ   فَتَـأْبَى خَوْضُـهُ فِيْهَا[١]

كَــانَتْ تُحَـرِّمُــهُ كَيْمَــا تَجِيءُ إِلَى   أُمِّ ٱلْقِرَى وَفُرُوْضَ ٱلْحَـجِّ تَقْضِيْهَا

---

(١) كـان بدء القتـال في صفين في أواخر ذي الحجـة وهو كمـا تعلم من الأشهر الحرُم المحرَّم فيها القتال ولكن معاوية وأصحابه ما عبثوا بالتحريم فـابتدأوا فيـه الحرب وما كان لأصحاب سيدنا علي عليه السلام إلاّ الدفاع عن أنفسهم فتلقوا ضرباتهم بمثلهـا والشرّ بالشرّ والبادي أظلم على أنّ الحرب كـانت سجالاً فلمـا انسلخ ذو الحجة ودخـل محرّم نـادى سيدنـا علي بتوقيف القتـال على أمل نهـو المشكلة بالصلح بعـد أن ظهرت قـواته الكبرى أمام معاوية بأعظم مظاهرها وأوفى له رسله في ذلـك فكان جـوابه واحـداً « وهو أن يسلم له قتلة عثمان ليقتلهم به ويترك الأمر شورى » وهكذا انتهى شهر محـرّم بطولـه والرسل تغدو وتروح بين معاوية وأمير المؤمنين على غير جـدوى لأنَّ معاويـة كان مصـرّاً على رفض الطاعة لأميـر المؤمنين ويطمـع إذا تخلّى عن الخلافـة أن ينال بـدهائـه بيعة المسلمين وعرف الناس بعـد ذلك أنَّ لا بـدَّ من استئناف القتـال ليحكم السيف في هذا الخصام .

« الأشهر الحرُم »

ذكرنا في حاشية سبقت عناية العرب بالحـجّ إلى البيت الحرام منـذ الجاهليـة وإذ كانت معيشة العرب وقتئذٍ على الغزو والحرب وكـان بعضهم أعداءً لبعض رأوا بضـرورة الحال ضرورة تحريم القتال في زمن الحـج حتى لا تتعطل النـاس عنه وهـو فرض دينيٌّ عند جميعهم فحرّموا الشهر الذي يكون فيه الحجّ وهو ذو الحجة والشهر الذي يسيـر فيه الناس إلى الحجّ وهـو ذو القعدة والشهـر الذي يعـودون فيه إلى منـازلهم وبلادهم وهـو محرّم ليكون الحجّاج آمنين في هذه الأشهـر الثلاثـة على نفوسهم عنـد قضاء الفـريضة وعلى منازلهم وبلادهم إذا تركوها للحجّ وهذه الأشهر الثلاث الحرُم من أسمائها ما يدلُّ على هذا التحريم فأشاروا بذي القعدة إلى قعـود الناس عن الحـرب وبذي الحجـة إلى أنّه الشهر الذي تقام فيه فريضـة الحج وبمحـرَّم إلى أنّه الشهـر الذي يحتـرم فيه النـاس =

كَـذَا ٱلشَّـرِيْعَـةُ قَـدْ نَصَّتْ بِحُـرْمَتِـهِ   بِمُنَّـزَلِ ٱلآيِ فِيْ أَجْلَى نَـوَاهِيْهَـا

=بعضهم بعضاً فيحرمون فيه القتال . وكان العرب أيضاً يحرّمون شهر رجب فيسمّونه الأصمّ أي الذي لا يسمع فيه صوت قرقعة سلاح أو أنّة جريح أو حشرجة قتيل . والسبب في تحريم هذا الشهر هو لأنّهم كانوا يرصدونه لابتياع حوائجهم والقيام بشؤونهم الخاصة قبل مسيرهم إلى الحجّ .

والناس في اختلاف في تعيين هذا الشهر فكانت مضر تعرفه نفس الشهر الذي يتقدم شعبان أمّا ربيعة فكانت تعتبر رمضان رجباً وتحرّم فيه القتال لذلك يقولون رجب مضر ورجب ربيعة لتعيين وقت كلّ منهما . ويطلق العرب كلمة الفرد على رجب إشارةً لعزلته عن الأشهر الحرم الأخرى . وربما كانوا يستعملون رجب لقضاء العمرة ويسمونها الحج الأصغر أو الحج الرجبي .

ومعنى تحريم هذه الأشهر عند العرب أنّهم كانوا يحترمونها ويلقون السلاح فيها ويتركون الغزو الذي كانت عليه معايشهم . وكانت هذه الشهور هدنة عامة عند العرب جميعاً حتى لا يحول القتال دون قضاء فريضة الحج . وكانوا يستقبحون الحروب الأربعة التي ثارت فيها فسموها بالفجار (بكسر الفاء) إشارة إلى أنّ الذين حاربوا فيها قد فجروا وفسقوا وداسوا نواميس القوم وقد قال في ذلك شاعرهم خداش بن زهير العامري :

فلا توعديني بالفجار فإنّه   أحلَّ ببطحاء الحجون المخازيا

وقد أقرَّ الإسلام الحرمة في الأشهر الحرُم على أثر ما حدث في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة وقد أشرنا إليها في حاشية سبقت فإنّ رسول الله ﷺ بعث عبد الله هذا إلى نخلة وأعطاه كتاباً وأمره أن لا يفتحه إلّا بعد مسيرة يومين فلمّا فتحه وجد فيه « امضِ حتى تنزل بنخلة فائتنا من أخبار قريش بما اتّصل إليك منهم » فسار بأصحابه وكانوا ثمانية حتى نزلوا « نخلة » فمرَّ بهم عمرو بن الحضرمي بنفرٍ من قريش ومعهم تجارة وكان ذلك في آخر يوم من شهر رجب الأصم فقتلوا ابن الحضرمي وأسروا رجلاً من قومه وساقوا العير إلى المدينة فأنكر رسول الله على عبد الله فعلته وقال « والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » ولما بلغ قريشاً فعلة عبد الله في الشهر الحرام استقبحوها هم أيضاً وأقبل قوم منهم على المصطفى محتجين قائلين « أيحلُّ القتال في الشهر الحرام ؟؟ » فنزلت حينئذٍ آية ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل قتال** =

لٰكِنْ مُعَاوِيَةُ مَا كَانَ يَعْبَأُ بِالنُّصُوصِ بَلْ كَانَ بِالتَّأْوِيلِ يَلْوِيهَا

= فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله ﴾ ثمَّ نزل بعد ذلك قوله تعالي : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرُم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ وهكذا أيّد الله تحريم القتال في الأشهر الحرُم فلا يحارب فيها المسلمون إلّا مدافعين لقوله تعالى : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ .

« تحريم النسيء »

وكانت العرب تنسيء الشهور أي تؤخّرها فتحلّ القتال في شهرٍ حرام وتحرّمه في شهرٍ ثانٍ وقد اختلف الباحثون في فهم هذا التأخير الذي نزلت فيه آية التحريم فقال بعضهم إنّ العرب كانوا يؤخّرون سنتهم كل أربع سنوات شهراً ليوفقوا بين الدورة القمرية والدورة الشمسية رغبةً منهم في جعل موسم الحج في زمنٍ ثابتٍ . وقال آخرون بل هو تلاعب منهم يريدون به أن يحلّوا المحرّم حتى لا تمرّ عليهم ثلاثة أشهر متتاليةً وهم ممتنعون عن القتال الذي كان عليه مدار تعيشهم . وكان يتولى منهم النسيء قوم من بني كنانة يطلق عليهم اسم « النسائين » أو « القلامس » فكان يقوم أحد هؤلاء إذا صدر الحجاج من مُنى فيقول : أنا الذي لا أعاب ولا أخاب ولا يردُّ لي قضاء » فيقول الناس : صدقتَ أنسئنا شهراً فيحلّ لهم المحرم ويحرّم عليهم صفر من السنة التالية وكان هؤلاء يفتخرون بهذا الحق وقال فيه شاعرهم عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن مالك بن كنانة يفتخر بالنسأة على العرب :

لقد علمت معدٌّ أنَّ قومي ... كرام الناس إنَّ لهم كراما
فأيُّ الناس فأتونا بوترٍ ... وأيُّ الناس لم تعلك لجاما
ألسنا الناسئين على مُعدٍ ... شهورُ الحلّ نجعلها حراما

والذي نراه أنّ النسيء لم يكن عملية حسابية يريدون بها جعل الحجّ في زمنٍ ثابتٍ كما ذهب بعضهم ولو كانت كذلك لوجب أن يزاد شهر في كل سنة رابعة يستغرق تقريباً الفرق بين الدورتين الشمسية والقمرية كما يفعل اليهود في شهورهم فهم يماشون القمر ويحسبون دورته شهراً ولكنهم في كل سنة رابعة يزيدون على شهورها شهراً فتكون ثلاثة عشر شهراً ويسمونه آذاراً ثانياً فيكون فيها آذاران لا آذار واحد فلو صحّ زعم هؤلاء لكان من الواجب أن يكون للعرب شهر مزاد في كل سنة رابعة يسمونه محرماً ثانياً =

بَادَا بِذِي ٱلْحِجَّةِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ رِجَا ... لَ ٱلْمُرْتَضَى ٱلْحَرْبَ فِيْ صِفِّيْنَ تَجْرِيْهَا

فَقَابَلَتْهُ دِفَاعَاً وَهْيَ مُكْرَهَةٌ ... عَنْ نَفْسِهَا وَبِهَا لاَقَتْ مُبَادِيْهَا

وَٱلْإِثْمُ فِيْمَا يُحِلُّ ٱلْمُحْرَمَاتِ بِلاَ ... شَكٍّ عَلَى هَامِ مَنْ رَاحُوْا مُحِلِّيْهَا

وَفِيْ ٱلْمُحَرَّمِ نُوْدِيْ بِٱلْمُوَادَعَةِ ٱلْـ ... ـحُسْنَا فَكَانَتْ كَمَا نَادَى مُنَادِيْهَا

وَعَادَتِ ٱلنَّاسُ وَٱلتَّحْرِيْمُ مُمْسِكُهَا ... عَنِ ٱلْقِتَالِ إِلَىٰ ضَافِيْ مَآوِيْهَا

وَبَادَرَ ٱلْمُرْتَضَى حِلْمَاً مُعَاوِيَةً ... بِدَعْوَةِ ٱلسِّلْمِ وَافَاهُ يُثَنِّيْهَا

أَوْفَى بِهَا رُسْلَهُ حُبَّاً بِحَقْنِ دِمَا ... ءِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ فَمَا أَلْفَتْهُ مُصْغِيْهَا

مَرَّ ٱلْمُحَرَّمُ فِيْ تِلْكَ ٱلْمُسَاوَمَةِ ٱلْمَـ ... ـحْمُوْدُ رَاغِبُهَا ٱلْمَذْمُوْمُ آبِيْهَا

وَٱلنَّاسُ قَدْ سَئِمَتْ طُوْلَ ٱلْجِدَالِ بِلاَ ... جَدْوَى وَعَادَتْ إِلَى مَاضِيْ تَجَالِيْهَا

وَهٰكَذَا ضَاعَتِ ٱلآمَالُ ثَانِيَةً ... بِٱلصُّلْحِ وَٱلسِّلْمِ مَا أَشْقَى مُضِيْعِيْهَا

عودة الحرب في صفر

وَحَرْبُ صِفِّيْنَ فِيْ أَهْوَالِهَا ٱسْتَعَرَتْ ... وُقُوْدُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْإِعْنَاتُ يُوْرِيْهَا[1]

كَانَتْ بَدَاءَتُهَا مُنْذُ ٱبْتَدَا صَفَرٌ ... بَيْنَ ٱلْقَبِيْلَيْنِ فِي تَالِيْ تَلَظِّيْهَا

= لا أن يؤخّروا تحريم محرم إلى صفر كما كانوا يفعلون . ومما يؤيّد رأينا هذا آية تحريم النسيء وهي ﴿ **إنّما النسيء زيادة في الكفر يضلُّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله** ﴾ ومن هذه الآية الكريمة يظهر سبب النسيء بكل صراحة وهو تحليل ما حرّمه الله من القتال في الشهر الحرام فقال سبحانه وتعالى إنّه زيادة في الكفر وحاشا لله سبحانه وتعالى أن يجعل من الكفر رغبة قوم أرادوا جعل الحجّ في زمنٍ ثابتٍ لو أرادوه والله سبحانه أعلم .

(١) لما فشلت المساعي السلمية التي بذلها سيدنا علي أمير =

=المؤمنين عليه السلام وكـانت عن محض حلم ودافع تقـوى في فرصـة موادعـة المحرَّم لم يبق فرار من استئناف القتال فانصرف ليلة أول صفر كلٌّ من الفريقين يتحفز للقتال ويستعدُّ له جهده .

أمّا سيدنا أمير المؤمنين فقد أصبح ودعا بالصـلاة الجامعـة فاجتمـع الناس فصلّى بهم وبعـد أن انتهت الصلاة نـاداهم قـائـلاً : « أيّهـا النـاس ، لا تقـاتلوا الأعـداء حتى يقاتلوكم ، فأنتم بحمد الله على حجة ، وترككم قتالهم حجة أخرى ، فإذا هزمتموهم ، فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورةً ، ولا تمثلوا بقتيـل ، وإذا وصلتم إلى رحـال القوم ، فـلا تهتكوا ستـراً ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تـأخـذوا شيئـاً من أمـوالهم ، ولا تهيجـوا امـرأةً ، وإن شتمت نسـاؤهم أعـراضكم ، وسببنَ أمـراءكم وصلحاءكم ، فإنهنَّ ضعاف القوى والأنفس ، عباد الله ، اتّقوا الله ، وغضّـوا الأبصار ، واخفضوا الأصوات ، وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على المنازلة والمناضلة والمعانقة والمكادمة والملازمة ، فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحـون ، ولا تنازعـوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إنَّ الله مع الصابرين » ثمَّ رفع أمير المؤمنين يديه إلى السماء ودعـا فقـال : « اللهم ألهمهم الصبـر ، وأنـزل عليهم النصـر وأعـظم لهم الأجــر » ثمَّ أنّـه عليه السلام جعـل الأشتـر على خيـل الكـوفـة . وسهـل بن حنيف على جنـد البصــرة . وعمّار بن ياسـر على رجال الكـوفة . وقيس بن سعـد على رجالـة البصرة . وسلّم رايـة الحرب إلى هاشم بن عتبة المرقال . وجعل على قرآء الكوفة والبصرة مسعر بن فدكي .

وأمّا معاوية بن أبي سفيان فأصبح فجمع أصحابه وأنصاره فصلّى بهم ثمَّ إنّه جعل على ميمنته ابن ذي الكلاع الحميري . وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري . وعلى مقـدمته أبـا الأعور السلمي وعلى خيـل دمشق عمرو بن العـاص . وعلى رجالـة دمشق مسلم بن عقبة المري . وعلى الناس كلّهم الضحاك بن قيس .

وإذ كان رجال سيدنا أميـر المؤمنين عليه السلام قد أمـروا أن لا يبادئـوا أعداءَهم القتـال ظلّوا في معسكـرهم متحفزين للقـاء أعدائهم لـو هم هاجمـوهم على أنَّ أهل الشـام ما تـأخّروا عن الابتـداء بالقتـال فبايـع رجال منهم على المـوت وعقلوا أنفسهم بعمـائمهم فكانوا خمسة صفوف وهاجموا معسكر أمير المؤمنين في صبيحة أول صفـر الخير وكـانوا بقيادة حبيب بن مسلمة فخرجت للقائهم طائفة من رجال الخلافة من أهل الكوفة بقيـادة=

=الأشتر واشتبكوا بالقتال يومهم بطوله وكان القتال شديداً ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض .

وفي صباح يوم ٢ صفر خرج للقتال أبو الأعور السلمي بطائفة من أهل الشام فخرج للقائهم هاشم بن عتبة بطائفة من جنود الخلافة فاقتتلوا معظم يومهم ثمَّ تفرقوا وكانت الحرب سجالاً لم يتمَّ فيها نصر لأحد الفريقين .

وفي صباح يوم ٣ صفر الخير خرج عمّار بن ياسر بطائفة من جنود الخلافة فخرج للقائه عمرو بن العاص بطائفة من أهل الشام فلمّا رأى عمّار عمراً خارجاً لقتاله نادى بمن معه قائلاً « يا أهل العراق أتريدون أن تنظروا إلى من عادى الله ورسوله وجاهدهما ، وبغى على المسلمين ، وظاهر المشركين ، فلمّا رأى الله يُعزُّ دينه ، ويظهر رسوله ، أتى النبيَّ عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، وهو فيما نرى راهب غير راغب ، ثمَّ قبض النبيُّ ،فما زال والله بعده معروفاً بعداوة المسلم ، واتّباع المحرَّم ، فدونكموه فاثبتوا له وقاتلوه » ثم مال عمّار لزياد بن النضر وهو على الخيل وقال له : أحمل على أهل الشام . فحمل زياد وقاتله الناس وصبروا له . فحمل عمّار فأزال عمراً بن العاص عن موضعه . ثمَّ إنَّ زياداً بارز عمراً بن معاوية من بني المنتفق وكان أخاه من أمّه فلما التقيا تعارفا فانصرف كلٌّ منهما عن صاحبه وتراجع الناس ولم يكن ثمة فصل في الحرب .

وفي صباح يوم ٤ صفر الخير خرج محمد بن سيدنا علي (ابن الحنفية) بطائفة من رجال الخلافة فخرج للقائه عبيد الله بن عمر بطائفة من أهل الشام (وكان هذا من رجال معاوية وسبب انضوائه إلى معاوية هو أنّه كان ناقماً على سيدنا علي عليه السلام لأنّه عندما قتل الذين اتّهموا بمقتل أبيه عمر بن الخطاب طلب سيدنا علي من عثمان أن يجري عليه الحدّ على ما تقدمت الإشارة إلى ذلك في حاشية سابقة) واشتبك الفريقان وكانا عظيمين بقتال هائل مخيف كثر فيه القتلى والجرحى على غير جدوى فطلب عبيد الله محمداً إلى المبارزة فأسرع إليه فلمّا رأى سيدنا علي عليه السلام تقدم ابنه محمد لمبارزة عبيد الله بن عمر أسرع على جواده فردّ ابنه وتقدم للمبارزة عوضاً عنه فخاف عبيد الله من بطش سيدنا أمير المؤمنين وفرَّ من وجهه وهكذا انتهى القتال في ذلك اليوم . =

= وفي صباح يوم ٥ صفر الخير خرج عبد الله بن عباس بطائفة من جنود الخلافة فخرج إليه بعض أهل الشام بزعامة الوليد بن عقبة واستمرَّ القتال وعمَّ الوبال وفي أثناء الحرب تقدم الوليد من عبد الله بن عباس وسبّه وسبَّ معه بني عبد المطلب فغضب عبد الله غضبةً هاشميةً وطلبه للبراز فجبن الوليد عن لقائه شأن الجبان الذي يطلق لسانه بالسبِّ ويضنُّ بجسمه عن الضرب وانصرف من أمامه فازداد غضبه وهاجم جمع الشام وأعمل بهم سيفه وهو غاضب لبني أبيه فأبلى فيهم بلاءً عظيماً .

وفي صباح يوم ٦ صفر الخير هجم من جيش أمير المؤمنين قيس بن سعد الأنصاري بطائفة من المقاتلة فلقيه ابن ذي الكلاع الحميري بطائفة من أصحاب معاوية فكان القتال بينهما شديداً سِجالاً ثمَّ افترقا وقد انسلخ النهار من غير فصل .

وفي صباح يوم ٧ صفر الخير جرى القتال بين طلائع القومين وعلى أصحاب الخلافة الأشتر وعلى أصحاب معاوية حبيب بن مسلمة ودام القتال بينهما إلى الظهر ثمَّ افترق الفريقان من غير جدوى منتجة . حينئذٍ رأى سيدنا علي عليه السلام أنَّ هذه المطاولة في حرب الطلائع لا تنهي حرباً ولا تفصل في المشكلة فقال لمن حوله « حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بأجمعنا ؟؟ » وأخذ يفكربهجوم عام ويعدُّ له عدَّته بفكره النير .

وبعد أن صلّى أمير المؤمنين بالناس صلاة العشاء في ليلة الأربعاء (٨ صفر الخير) قام فيهم خطيباً فقال : « الحمد لله الذي لا يبرم ما نقض ، وما أبرم لم ينقضه الناقضون ، ولو شاء ما اختلف اثنان من خلقه ، ولا اختلفت الأمّة في شيء ، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله ، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار ، فنحن بمرأى من ربّنا ومسمع ، فلو شاءَ عجّل النقمة ، وكان من التغيير ، حتى يكذب الظالم ، ويعلم الحقُّ أين مصيره ، ولكنه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة دار القرار ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، ألا وإنَّكم لاقو القوم غداً ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله النصر والصبر ، وألقوا أعداءَكم بالجدّ والحزم ، وكونوا صادقين » اهـ فكبّر القوم ملبّين وأسرعوا إلى تعهد سلاحهم فمرَّ بهم كعب بن جعيل وشهد استعدادهم للحرب فقال :

أصبحت الأمّة في أمرٍ عجب . والملك مجموعٌ غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب . أنَّ غداً تهلك أعلام العرب =

وَقَالَ : أَحْمَدُ رَبَّ ٱلنَّاسِ وَهْوَ بِهَا أَدْرَى وَرَغْبَتُهُ ٱلْعُلْيَا لَيُمْضِيهَا

= وقضى أمير المؤمنين ليلته وهو يصلّي آونةً ويتعهد أبطال الرجال أخرى حتى إذا ما لاح الفجر صلَّى بالناس وخرج بهم إلى القتال بهجوم عام . وما فات معاوية وعمرو بن العاص استعداد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام للهجوم العام ففعلا في تلك الليلة فعله وأخذا يتعهدان أصحابهما ويستحثانهم على القتال . وعند الفجر أمر معاوية جيوشه بأن يصطفوا للقتال . ثمَّ اشتبك القومان بقتال مخيف سالت فيه الدماء أنهاراً وغطت جثث القتلى الأرض وافترقا عند المساء وكلٌّ غير غالب .

وفي صباح الخميس ٩ صفر الخير صلّى علي عليه السلام بالناس غلساً وخرج بهم إلى أهل الشام وكان على ميمنته عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعلى ميسرته عبد الله بن عباس والناس على راياتهم ومراكزهم وكان في قلب الجيش مَن معه من أنصار المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم من أهل المدينة وعدد من خزاعة وكنانة . وأمّا معاوية فقد رفع في ذلك اليوم قبةً عظيمةً وألقى عليها الثياب وبايعه أكثر أهل الشام على الموت وأحاط بقبته خيل دمشق . وزحف عبد الله من بديل أولاً على جيش معاوية فلقيه حبيب بن مسلمة فلم يزل يحوزه ويكشف خيله حتى اضطرَّهم إلى التقهقر حيث قبة معاوية في ظهر ذلك اليوم فنادى عبد الله بن بديل بأصحابه قائلاً « ألا إنَّ معاوية ادَّعى ما ليس له ، ونازع الحقَّ أهله ، وعاند من ليس مثله ، وجادل بالباطل ليدحض به الحقَّ ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ، الذين قد زُينت لهم الضلالة ، وزُرع في قلوبهم حبُّ الفتنة ، ولبّس عليهم الأمر ، وزادهم رجساً إلى رجسهم ، فقاتلوا الطغام الجفاة ولا تخشوهم ، قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشفِ صدور قوم مؤمنين » ثمَّ طفق يحمسهم بمثل هذا الكلام . وتبعه زيد بن قيس الأرحبي فجعل أيضاً يحرّض الناس بكلامه المشجّع على مداومة القتال وهكذا ظلّ رجال علي يداومون ملاصقة رجال معاوية المتقهقرين المغلوبين . ولمّا رأى معاوية انكشاف أصحابه ودنوَّهم من قبته أمدَّهم بمدد كبير كشف أهل العراق وردَّهم أدراجهم فلما رأى سيدنا علي انكشاف جيشه خرج بنفسه مدداً له فنشط خروجه عليه السلام عزائم القوم فاستمرَّ القتال على أشدّه وكان يومئذٍ ما تشيب له الأطفال من ضرب الأسنة ورمي النبال ودام الحال على هذا المنوال وعمَّ النكال في ثلاثة أيام بين الأنهر والليال لم ينقطع فيها النضال وكان ثمَّ مجزرة هائلة انتثرت فيها رؤوس الرجال وتجندلت من ورائها الأبطال وكان فيها سيدنا علي عليه السلام فوق جواده يرقب الموقعة بنفسه ويتعهد صفوف جيشه بشخصه متنقلاً=

فَلَيْسَ يُبْرَمُ مَا قَدْ كَانَ نَاقِضَهُ مِنَ ٱلشُّؤُوْنِ ٱلَّتِيْ ٱلدُّنْيَا تُلاَقِيْهَا
وَلَيْسَ يُنْقَضُ مَا قَدْ كَانَ مُبْرِمَهُ مِنَ ٱلْأُمُوْرِ ٱلَّتِيْ قَدْ شَاءَ يُجْرِيْهَا
لَوْ شَاءَ مَا ٱثْنَانِ فِيْ دُنْيَاهُمَا ٱخْتَلَفَا وَلاَ شَكَتْ أُمَّةٌ مُؤْذِيْ تَجَزِّيْهَا
وَلاَ تَحَدَّى أَخَا فَضْلٍ وَمَكْرُمَةٍ مَفْضُوْلَهُ جَاحِدَ ٱلآلاَءِ نَاسِيْهَا
وَهُوَذَا غِيَرُ ٱلْأَقْدَارِ تَدْفَعُنَا مَعَ ٱلْعِدَى لِمَهَاوٍ لاَ نُحَاشِيْهَا
وَنَحْنُ مِنْ رَبِّنَا ٱلْوَافِيْ ٱلْجَلاَلِ بِمَسْـــمَعٍ وَمَرْأًى أَمَانِيْهِ نُجَارِيْهَا
فَلَوْ يَشَا ٱلنَّقْمَةَ ٱلْكُبْرَى لَعَجَّلَهَا وَكَانَ عَنْ رَحْمَةٍ بِٱلنَّاسِ مُرجِيْهَا
وَكَانَ مِنْ فَضْلِهِ ٱلتَّغْيِيْرُ يُحْدِثُهُ فِيْ ٱلْمُعْضِلاَتِ ٱلَّتِيْ تَدْجُوْ دَيَاجِيْهَا
حَتَّى يَرَى ٱلظَّالِمُ ٱلْكَذَّابُ كِذْبَتَهُ لاَحَتْ لَدَى ٱلنَّاسِ مَهْمَا شَاءَ يُكْمِيْهَا
وَإِنَّمَا ٱلْحَقُّ حَقٌّ لاَ يَضِيْعُ وَلَوْ فِيْ أُمَّةٍ أَصْبَحَتْ تَهْوَى ٱلتَّرَارِيْهَا
وَٱللَّهُ قَدْ جَعَلَ ٱلدُّنْيَا دِيَارَةَ أَعْمَـــالٍ يَفُوْزُ ٱلْأُلَى قَدْ أَحْسَنُوْا فِيْهَا
نَعَمْ وَقَدْ جَعَلَ ٱلْأُخْرَى دِيَارَ قَرَا رٍ نَحْنُ نَغْبُطُ فِيْهَا مُسْتَثِيْبِيْهَا
إِنَّ ٱلنُّفُوْسَ ٱلَّتِيْ قَدْ أَحْسَنَتْ فَلَهَا ٱلْـــحُسْنَى جَزَاءٌ وِفَاقٌ مِنْ مُجَازِيْهَا
وَإِنْ أَسَاءَتْ لَهَا ٱلسُّوْءَى جَزَاءُ مَسَا وِيْهَا ٱلَّتِيْ خَالِقُ ٱلْأَكْوَانِ مُحْصِيْهَا
أَلاَ وَإِنَّكُمْ لاَقُوْ عِدَاتِكُمْ غَدَاً وَخَيْرُكُمْ تَقْوَى مُغَادِيْهَا
تَهَجَّدُوْا وَٱسْجُدُوْا لِلَّهِ لَيْلَتَكُمْ وَٱلآيَ فَٱتْلُوْا تُقَوِّيْكُمْ مَثَانِيْهَا

=ذات اليمين وذات الشمال فما كان يرى ثلمةً في جيشه إلّا سدَّها بسيفه البتّار وناهيك بضربات ذي الفقار . حتى إذا ما أيقن معاوية بالإنكسار مال إلى صاحبه عمرو بن العاص وكان عنده أكبر مستشار وأخذا يتداولانِ بحيلةٍ تنقذهما من الإنخذال والعار وتوصلهما إلى ما يحلمان به من بعيد الأوطار .

وَٱلنَّصْرُ فَٱطَّلِبُوْهُ مِنْ إِلٰهِكُمُ أَخْلِقْ بِهِ طَلْبَةُ ٱلتَّاقِيْنَ يُوْلِيْهَا

وَٱلْقَوْا ٱلْعِدَى بِنُفُوْسٍ مِلْؤُهَا ثِقَةٌ بِٱللَّهِ كَيْ تُكْفِؤُوْهَا عَنْ تَنَزِّيْهَا

بِذَا أَبُوْ حَسَنٍ أَنْبَا ٱلصِّحَابَ بِهَجْـــمَةٍ بِهَا حَرْبُ أَهْلِ ٱلشَّامِ يُنْهِيْهَا

وَلَمْ تَكَدْ تَبْلُغُ ٱلْأَصْحَابَ دَعْوَتُهُ حَتَّى ٱسْتَجَابَتْ وَقَرَّتْ أَنْ تَلَبِّيْهَا

وَكَبَّرَتْ بِحَمَاسٍ وَهْيَ صَائِحَةٌ تَقُوْلُ نَصْرَةُ رَبِّ ٱلْعَرْشِ نَبْغِيْهَا

وَفِيْ ٱلصَّبَاحِ لَقَدْ شَدَّتْ بِغَيْرِ وَنَى عَلَى ٱلْعِدَى وَعَلِيٌّ ٱلْقَرْمُ هَادِيْهَا

فَقَابَلَتْهَا جُيُوْشُ ٱلشَّامِ وَٱسْتَعَرَتْ حَرْبُ مَلَتْ أُفْقَ صِفِّيْنٍ سَوَافِيْهَا

دَامَتْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِشِدَّتِهَا ٱلْـــقُصْوَى وَأَنْهُرُهَا تَتْلُوْ لَيَالِيْهَا

وَٱلنَّاسُ تُهْرِقُ مَعْصُومَ ٱلدِّمَاءِ فَتَجْـــرِيْ لِلْفُرَاتِ ٱلَّذِيْ قَدْ كَانَ يَسْقِيْهَا

وَغَشَّتِ ٱلْأَرْضُ قَتْلَى ٱلْمُسْلِمِينَ وَجَرْ حَاهُمْ وَلَا مَنْ يُدَاوِيْ أَوْ يُوَارِيْهَا

وَكَانَ حَيْدَرَةٌ فِيْ صَحْبِهِ أَسَدَاً تَتْلُوْهُ أُسْدٌ تُمَلِّيْ عَيْنَ رَائِيْهَا

وَكَانَ يَلْقَى أَعَادِيْهِ بِصَارِمِهِ فَيَنْثُرُ ٱلْهَامَ صَيَّالاً وَيَذْرِيْهَا

وَذُوْ ٱلْفَقَارِ وَلَا سَيْفٌ يُعَادِلُهُ إِنْ جَازَ مِنْ كَفِّهِ ٱلْعَلْيَا هَوَادِيْهَا

وَلَا فَتَىً كَعَلِيٍّ وَٱلْعَلِيُّ فَتَى ٱلْإِ سْلَامِ مَا تَطْلُبُ ٱلْعَلْيَا مُكَافِيْهَا

وَمَنْ يُنَاوِيْ قُرَيْشَاً وَهْيَ مُشْرِكَةٌ فَعِنْدَ فُتْنَتِهَا أَيْضَاً يُنَاوِيْهَا

وَمَا عَجِيْبٌ إِذَا أَمْسَتْ بِبَطْشَتِهِ مَقْهُوْرَةً مَا سِوَى ٱلتَّسْلِيْمِ يُنْجِيْهَا

أَجَلْ فَإِنَّ عَلِيَّاً فَازَ وَٱنْتَصَرَتْ جُيُوْشُهُ وَإِلٰهُ ٱلْعَرْشِ حَامِيْهَا

وَلَمْ يَعُدْ مِنْ سَبِيْلٍ لِلنَّجَاةِ لَدَى ٱلْأَ عْدَاءِ إِنْ طَلَبَتْ خَوْفَاً مَنَاجِيْهَا

إِلَّا مُكَايَدَةً يَسْعَى مُعَاوِيَةٌ بِهَا وَمَا غَيْرُ إِبْنِ ٱلْعَاصِ يُنْشِيْهَا

وَحَـرْبُ صِفِّيْنَ مَا زَالَتْ بِشِـدَّتِهَا ... وَنَـارُهَا تَـأْكُـلُ ٱلْأَبْـطَالَ تُفْنِيْهَا[1]

فَٱسْتَشْهَدَتْ فِئَةٌ مِنْ خَيْرِ صَحْبِ رَسُو ... لِ ٱللَّهِ دُوْنَ عَلِيٍّ ٱلْمُـرْتَضَى فِيْهَـا

فَـهَـالَ حَيْـدَرَةً قُـتْلَى بِـلاَ عَـدَدٍ ... أَطْمَـاعُ إِبْنِ أَبِيْ سَفْيَـانَ تُـرْدِيْهَـا

(١) كثرت القتلى في ذلك اليوم من الجانبين حتى غشت أشلاؤها أرض صفّين وكان سيدنا علي عليه السلام حزيناً على هذه النفوس المسلمة البريئة التي تستشهد ظلماً وعدواناً لا لسبب سوى لطمع معاوية بالخلافة وأزاده حزناً مقتل عمّار بن ياسر وهو من أكابر الصحابة وقد كان عزيزاً عليه كما كان عزيزاً على المصطفى عليهما الصلاة والسلام فقال حتى متى هذه المجزرة ؟ قال هذا وساق جوادَه طالباً معسكر معاوية مع نفرٍ من أبطال أصحابه وحمل حملةً شعواء على أهل الشام فنقض صفوفهم نقضاً وشتّت جموعهم تشتيتاً وقال :

أقـتـلهـمُ ولا أرى مـعـاويـه ... ألجاحظ العين العظيم الحـاويـه

ثمَّ نادى معاويةً للبراز قائلاً على مَ يقتل الناس بيننا هلمَّ أحاكمك إلى الله ، فأينا قتل صاحبه ، استقامت له الأمور .

أمّا معاوية فلمّا رأى هجوم سيدنا علي عليه السلام على معسكره وانتقاض صفوف جيشه تهيب موقفه وولّى إلى أخريات الناس حيث رأى عمراً بن العاص فسأله أن يعينه برأيه لتلافي الشرّ وبينما هما لكذلك وإذ جاءَهما من أصحابهما من أخبرهما بطلب علي معاوية للبراز فقال عمرو بن العاص : لقد أنصفك والله فاخرج إليه واقتله ونل الخلافة قال هذا وبسمة الهزء على شفتيه . فصاح معاوية ويلك ما أنصفتني إنّك لتعلم أنَّ علياً لم يبرز إليه أحد إلّا قتله فقال عمرو ولكن لا يحسن بك وأنت تضع نفسك في موضعه وتزاحمه على خِلافته أن تترك مبارزته جبناً تكسب به سبّة الأبد . فغضب معاوية وقال ويلك أمّك لقد طمعت بالخلافة من بعدي تتطلب أن أهلك لتنالها والله لا أبارزه أبداً .

وبعد أن رأى سيدنا علي عليه السلام أنَّ معاوية قد جبن عن الخروج إليه عاد فأعمل سيفه فيمن لقيه من أهل الشام مخضباً الأرض بدمائهم على ما عهد الملأ من شجاعته وبطشه .

=

= « ترجمة عمّار بن ياسر »

أمّا عمّار بن ياسر الذي أفجع مقتله سيدنا علي أمير المؤمنين وعموم المسلمين فهاك ترجمته مع قصة قتله :

هو عمّار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسي المذحجي يكنّى أبا اليقظان وكان حليف بني مخزوم . كان ياسر والد عمّار قحطانياً عربياً من عنس في مذحج أمّا ابنه عمّار فكان مولى لبني مخزوم لأنَّ أباه ياسراً قدم مكة مع أخوين له يقال لهما مالك والحارث في طلب أخ لهم رابعٍ فرجع الحارث ومالك إلى اليمن وأقام ياسر في مكة فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فزوَّجه أبو حذيفة أمةً يقال لها « سميَّة » فأولدها عمّاراً فأعتقه أبو حذيفة فمن ههنا كان عمّار مولى بني مخزوم على أنَّ أباه عربيٌّ قحطانيٌّ لا غشَّ فيه .

وكان عمّار بن ياسر ممن سبقوا إلى الإسلام قبل الهجرة فاشتدَّت عليه قريش وعذّبته حتى اضطرَّ أن يجحد إسلامه بلسانه مع اطمئنان قلبه بالإيمان فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ إلاّ من أكره وقلبه مطمئنٌ بالإيمان ﴾ . وقد هاجر عمّار إلى أرض الحبشة ثمَّ إلى المدينة المنورة فكان من المهاجرين الأوّلين . وشهد بدراً والمشاهد كلّها وأبلى بلاءً حسناً فيها ثمَّ شهد اليمامة وقطعت أذنه فيها . وكان عمّار آدم طوالاً يضطرب في مشيته أشهل العينين بعيد ما بين المنكبين شائب اللحية لا يخضبها بالحناء . وكان يقول إنّه ترب رسول الله في سنه لم يكن أقرب إليه صلى الله عليه وآله وسلم بالعمر منه . وكان يقول عنه المصطفى « إنّ عماراً مليء إيماناً إلى أخمص قدميه » وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « من أبغض عمّاراً أبغضه الله فما زلت أحبّه من يومئذٍ » وسئل المصطفى يوماً إذا اختلف الناس من بعدك وقامت الفتنة فيمن تأمرنا به أن نتبع ؟ قال عليكم بابن سمية (أي عمّار) فإنّه لن يفارق الحقَّ حتى يموت .

وعندما شرع المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ببناء المسجد الجامع في المدينة المنوَّرة كان المسلمون ينقلون اللبن لبنة بعد لبنة إلاّ عمّار فقد كان ينقل لبنتين بعد لبنتين لحماسٍ في دينه وزيادة رغبته في الأجر وما زال مجداً في ذلك حتى غُشي عليه من شدّة التعب فأتاه رسول الله وجعل يمسح التراب عن رأسه بيده الشريفة ويقول : « ويحك يا ابن =

وَإِذْ دَرَى أَنَّ عَمَّـاراً قَضَى وَمَضَـى فِيْ حَوْمَةِ ٱلْحَرْبِ أَمْسَى مِنْ أَضَاحِيْهَا

= سميّة ، الناس ينقلون لبنةً لبنةً وأنت تنقل لبنتين لبنتين ، رغبةً في الأجر ، وأنت مع ذلك تقتلك الفئة الباغية » وذاع قول المصطفى هذا بعمّار بين المسلمين وحفظوه كما حفظوا الأقوال الشريفة النبوية الأخرى التي قالها له وكانوا بعد أن افترقوا يعرفون الحقّ في الفرقة التي يكون معها عمّار ويقولون لا تقتله إلّا « الفئة الباغية » .

وظلَّ عمّار يجاهد في سبيل الإسلام فكانت له يد بيضاء في فتوحات الشام والعراق على عهدي أبي بكر وعمر ثمَّ استعمله عمر بن الخطاب على الكوفة وأرسل معه عبد الله بن مسعود مستشاراً ووزيراً وكتب إلى أهل الكوفة يقول : « أمّا بعد فإنّي بعثت إليكم عمّاراً أميراً ، وعبد الله بن مسعود وزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب محمد ، فاسمعوا لهما ، واقتدوا بهما ، فإنّي قد آثرتكم بهم على نفسي » .

وكان عمّار من أشدّ الناقمين على عثمان لا ينفكُّ ينعي عليه عمل عمّاله وجعله الخلافة طعمةً لبني أميّة ولشدّته هذه حمل غلمان عثمان عليه ونالوا منه من الضرب الموجع الشيء الكثير حتى انفتق له فتق في بطنه وزعموا أنّهم كسروا ضلعاً من أضلاعه وكان ضربه هذا سبباً لانقلاب بني مخزوم وهو من مواليهم على ما تقدم على عثمان ومجاهرتهم بعدائه .

وكان عمّار في عهد سيدنا علي عليه السلام من سيوفه المشهرة فسار معه إلى قتال الجمل وقد رأينا مسيره مع سيدنا الحسن إلى الكوفة عندما أبى أبو موسى الأشعري مناصرة أمير المؤمنين كما تقدم في حاشية سابقة وأبلى أفضل بلاء وأحسنه في حرب الجمل .

وفي حرب صفين كان عمّار بن ياسر في مقدمة قوّاد سيدنا علي ومن أكابر المحاربين معه على شيخوخته لأنّه كما سبق القول كان ترب المصطفى بالسنّ فيكون عمره يومئذٍ بين ٩٤ و٩٥ سنة ومع ذلك كان من القوّة ما يدعو إلى الدهش بدليل ما رواه المؤرخون من آيات البسالة التي أبداها في تلك الحرب وكان آخر أمره أنّه في يوم ٩ صفر الخير سنة ٣٧ للهجرة وموقعة صفين على أشدّها خرج على الناس فقال : « اللهمَّ ، إنّك تعلم ، إنّي لو أعلم أنَّ رضاك في أن أقذف نفسي في هذا البحر (وأراد الفرات الذي يجري بقربه) لفعلته ، اللهمَّ ، إنّك تعلم ، إنّي لو أعلم ، أنَّ رضاك في أن أضع ظبة سيفي في بطني ، ثمَّ أنحني عليها حتى تخرج من ظهري ، لفعلته ، وإنّي =

بَكَاهُ حُزْنَـاً عَلَى وَافِيْ صَـدَاقَتِـهِ   لِـدِيْنِهِ وَٱنْبَـرَى فِيْ ٱلنَّـاسِ يَنْعِيْهَـا

=لا أعلم اليوم عملاً هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم عملاً هو أرضى لك منه لفعلته ، أيّها الناس ، إنّي لأرى قوماً ليضربونكم ضرباً يرتـاب منه المبـطلون ، وأيم الله ، لو ضربـونا حتى يبلغـوا بنا سعفات هجر ، لعلمت أنـا على الحقّ ، وأنّهم على البـاطل » ثمَّ قـال : « من يبتغي منكم رضوان الله ربّـه ، ولا يـرجـع إلى مـال ولا ولـد ، فليصحبني » فأتتـه عصابـة من الأبطال ملبيـةً نداءَه متحمسـة بحماسـه فقال لهم « أقصدوا بنا هؤلاء القـوم ، الذين يـطلبون دم عثمـان ، والله ما أرادوا الـطلب بدمـه ، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستحبوها ، وعلموا أنَّ الحقّ لزمهم ، حال بينهم وبين ما يتمرغـون فيه منها ، ولم يكن لهم سابقة يستحقون بها طاعة النـاس ، والولايـة عليهم ، فخدعـوا أتباعهم ، وقالوا إمامنا قتل مظلوماً ، ليكونوا بـذلك جبـابرةً وملوكـاً ، فبلغوا مـا ترون ، فلولا هذا ما تبعهم من الناس رجلان ، اللهمَّ ، إن تنصرنا فلطالما نصرتَ ، وإن تجعل لهم الأمر ، فادَّخر لهم بما أحدثوا في عبادك العذاب الأليم» قال عمّار هذا في أصحابـه ومضى بهم إلى المعمعمة فكان لا يمرُّ بوادٍ من أوديـة صفين إلاَّ وتبعه من كـان فيها من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى إذا مـا انتهى إلى هاشم بن عتبـة بن أبي وقّاص وهـو مرقـال وكان صاحب راية سيدنا علي وكان أعـور فقال لـه « يا هـاشم أعوراً وجبنـاً لا خير في أعور لا يغشى البأس ، إركب يا هاشم ، فركب ومضى معه وهو يقول :

أعـور يـبـغـي أهـله مـحـلاَّ   قـد عـالـج الحيـاة حتى مـلاَّ
لا بـدَّ أن يـفـلَّ أو يُـفـلاَّ   يـتلُّهـم بـذي الـكعـوب تـلاَّ

وعمّـار يقول : « تقـدَّم يا هـاشم ، الجنة تحت ظـلال السيوف ، والمـوت تحت أطـراف الأسـل ، وقـد فتحت أبـواب السمـاء ، وتـزينت الحـور العين ، اليـوم التقى الأحبـة ، محمداً وحـزبه » وهكـذا انقضَّ عمار وأصحـابه على الأعـداء والموقعـة على أشدّها فلقي عمراً بن العاص بوجهه يحارب فناداه قائلاً « ويلك يـا عمرو ، بعتَ دينـك بمصر ، تباً لك » فقال عمرو : ولكن اطلب بدم عثمان . قال عمّار « أشهد على علمي فيك ، إنّك لا تـطلب بشيء من فعلك وجه الله ، وإنّـك إن لم تقتل اليـوم تمت غداً ، فانظر إذا أعطي الناس على قدر نياتهم ما نيتك ، لقد قاتلتَ صاحب هذه الراية (ويريد علياً) ثلاثاً وهو مع رسول الله وهـذه الرابعـة ما هي أبـرُّ وأتقى » قال هـذا عمّار وانبـرى للقتال بقلب كأنَّه قُدَّ من الصخر الأصمّ فما زال يبلي بالناس عاملاً السيف بـرقابهم حتى=

وَكَـانَ عَمَّـارُ خَيْــرَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ جِهَـا   دَاً وَٱلصَّحَـابَـةِ مَكِّيْهَـا وَطِيْبِيْـهَـا

وَقَـالَ أَحْمَـدُ فِيْـهِ كُـلَّ مَحْمَـدَةٍ   حَسْنَـاءَ مَا زَالَتِ ٱلْأَقْـوَامُ تَـرْوِيْهَـا

وَإِنَّ أَعْمَـالَـهُ فِيْ ٱلـدِّيْنِ بَـاهِـرَةٌ   مَحْمُـوْدَةٌ تُـطْرِبُ ٱلـدُّنْيَا أَمَـالِيْهَا

وَإِنَّ قَـتْلَتَـهُ تَـٱلـلَّهِ فَـاجِـعَـةٌ   وَمَـا فَجَـائِـعُ صِفِّيْنٍ تُحَـاكِيْـهَـا

نَادَى لَهَا ٱلْمُـرْتَضَى وَٱلْحُزْنُ مَـالِكُهُ   حَتَّى مَتَى يَـا تَرَى صَحْبِيْ أُضَحِّيْهَـا

= قتل خلقاً كثيراً على أنّه أصيب بجروح كثيرة خارت معها قواه فوقع على الأرض مضرَّجاً بدمه بضربة سيف ضربه بها أبو الغارية واحتزَّ رأسه ابن السكسكي .

ومن غـريب أمر النـاس في موقعـة صفين أنّهم كانـوا عندمـا ينتهي القتـال يختلط بعضهم ببعض ويتحادثون كإخوان متصـافين كأنّ مـا يقومـون به من القتـال ليس بالأمـر الكبير. وروى عبد الـرحمن السلمي من مقاتلة الخـلافة قـال : « لما قتـل عمّـار دخلت عسكر معاوية لأرى هل بلغ منهم قتل عمّار ما بلغ منّا فإذا أرى معاوية وعمراً بن العاص وعبد الله بن عمرو على خيولهم يتحدثون فدنوت منهم بجوادي لأسمع حديثهم فسمعت عبد الله بن عمرو يقول لأبيه يا أبتِ قتلتم عمّاراً في يومكم هذا وقد قال رسول الله فيه ما قال : قال عمرو وما قال ؟ فروى عبد الله لأبيه قول رسول الله بعمّـار يوم بنـاء المسجد في المدينة فمال عمرو بن العاص إلى معاوية وقال أما تسمع ما يقول عبد الله ؟ فهزَّ معـاوية كتفيه استخفافاً وقال أنحن قتلنا عماراً ؟ إنّما قتله من جاءَ به .

وعاش أبو الغارية قاتل عمّار بن ياسـر إلى زمن الحجاج بن يـوسف الثقفي ودخل هذا يوماً على الحجاج وهو يحكم العراق بشدّته وظلمه وحولـه أصحابـه فأكـرمه وسـأله قائلاً هل أنت قاتل عمّار بن ياسر ؟ قال نعم فتبسم الحجاج وقـال لأصحابـه من سرَّه أن ينظر إلى عظيم الباع يوم القيامة فلينظر إلى هذا الذي قتل ابن سميّة . ثمَّ إنَّ أبا الغارية سأل الحجاج حاجةً له فلم يجبه إليها فقال توطىء لهم الدنيا ولا يعطونا منها ويزعم إنّي عظيم الباع يـوم القيامـة فضحك الحجـاج حتى استلقى وقال : «أجل والله ، من ضـرسه مثل أُحُد ، وفخذه مثل جبل ورقان ، ومجلسه مثل المـدينة والـربذة ، إنّـه لعظيم البـاع يوم القيامة ، والله ، لو أنَّ عمّاراً ، قتله أهل الأرض كلهم ، لدخلوا كلّهم النار» .

وَساقَ نَحْوَ آلْعِدَى حَالاً مُطَهَّمَهُ   بِسُرْعَةٍ طَالِبَاً مَلْقى مَعَاوِيْهَا
وَعِنْدَمَا آلْمُرْتَضَى وَافَى مَعَسْكَرَ أَهْـــلِ آلشَّامِ خَافَتْ وَوَلَّتْ عَنْ مَثَاوِيْهَا
وَصَاحَ أَيْنَ آبْنُ حَرْبٍ كَيْ أُحَاكِمَهُ   إِلَى عَدَالَةِ رَبِّيْ وَهْوَ آبِيْهَا
عَلى مَ تُقْتَلُ فِي آلْمِيْدَانِ أُمَّتُنَا   ظُلْمَاً وَنَحْنُ زِنَادُ آلشَّرِّ نُوْرِيْهَا
إِلَيَّ فَآبْرُزْ مُعَاوِيْ دُوْنَ أُمَّتِنَا   فَمَنْ يَفُزْ مِنْ كُلَيْنَا كَانَ وَالِيْهَا
فَهَابَ دَعْوَةَ مَوْلاَنَا أَبِيْ حَسَنٍ   إِلَى آلْبِرَازِ آبْنُ صَخْرٍ رَاحَ خَاشِيْهَا
وَمَا رَأَى فِيْ سِوَى آبْنِ آلْعَاصِ مِنْ عَضَدٍ   عَنْهُ آلْكَوَارِثُ وَآلأَخْطَارُ يُدْرِيْهَا
فَجَاءَهُ مُسْتَشِيْرَاً وَآلْقُنُوْطُ قَدِ آسْـــتَوْلَى عَلَى نَفْسِهِ وَآلْحُزْنُ بَازِيْهَا
فَقَالَ عَمْرٌو سَدَادُ آلرَّأْيِ عِنْدِيَ أَنْ   تَلْقَى عَلِيَّاً وَهَذِيْ آلْحَرْبُ نُنْهِيْهَا
فَآبْرُزْ لَهُ بَرْزَةً تَقْضِي عَلَيْهِ بِهَا   وَتَسْتَبِدُّ بِذِيْ آلدُّنْيَا وَأَهْلِيْهَا
أَجَابَ وَيْلَكَ هَلْ يَلْقَى أَبَا حَسَنٍ   مِثْلِيْ وَلَقِيْتُهُ آلإِهْلاَكُ تَالِيْهَا
تُرِيْدُ لِيْ مَوْتَةً شَنْعَا تَنَالُ بِهَا   بَعْدِيْ آلْخِلاَفَةَ لَكِنِّي أُجَافِيْهَا
وَقَدْ تَبَسَّمَ عَمْرٌو وَآبْتِسَامَتُهُ   لِقَوْلَةٍ قَالَهَا لَهْوَاً وَتَفْكِيْهَا
وَعَادَ حَيْدَرَةٌ مِنْ بَعْدِ صَيْحَتِهِ   وَلَمْ يَكُنْ إبْنُ حَرْبٍ مَنْ يُلَبِّيْهَا
وَأَعْمَلَ آلسَّيْفَ فِيْ آلأَعْدَاءِ جَنْدَلَهَا   قَتْلَى وَفَرَّقَ تَفْرِيقَاً تَجَمُّيْهَا

مؤامرة معاوية وعمرو بن العاص

رَأَى مُعَاوِيَةٌ أَنَّ آلأُمُوْرَ عَلَى   مَا لاَ يُحِبُّ فَأَحْرَى أَنْ يُدَارِيْهَا[1]
رَأَى جُيُوشَ أَمِيْرِ آلْمُؤْمِنِيْنَ تَكَا   دُ تَبْلُغُ آلنَّصْرَ مِنْهُ فِيْ مَغَازِيْهَا

---

(١) إنّ التجاء معاوية وعمرو بن العاص إلى المؤامرة والخديعة قد كان على أثر =

رَأى حَـوَالَيْـهِ أَبْـطَالَ ٱلْـوَغَى جُثَثَـاً   وَٱلـطَّيْـرُ نَـائِلَةٌ مِنْهَـا تَغَـدِّيْـهَـا

=ليلة الهرير وهي الليلة العظيمة التي اشتدّ فيها القتال وما أدراك ما ليلة الهرير ها نحن نذكرها إجمالاً والتفصيل يحتاج إلى مجلد كبير .

غلّس علي عليه السلام غداة الجمعة عاشر صفر الخير سنة ٣٧ هجرية فصلّى بالناس ثمّ زحف بعسكره على أهل الشام وكانت الحرب قد أكلت من الفريقين ولكنها في أهل الشام أشدّ نكايةً وأعظم وقعاً . وكان الملال من الحرب على كثرة ضحاياها قد نال مناله من النفوس وكان على مقدمة جيش الخلافة فتى الهيجاء الأشتر النخعي فسار على فرس كميت وهو مدجج بالسلاح وبيده الرمح فجعل يضرب رؤوس أهل العراق بقناته ويقول سوّوا صفوفكم رحمكم الله حتى إذا عدل الصفوف والرايات استقبلهم بوجهه وحمد الله وأثنى عليه وقال : الحمد لله الذي جعل فينا ابن عمّ نبيّه ، أقدم المسلمين هجرةً ، وأولهم إسلاماً ، وإنّه لسيفٌ من سيوف الله ، صبّ الله على أعدائه ، فانظروا إذا حمى الوطيس ، وثار القتام ، وتكسر المرّان ، وجالت الخيل بالأبطال ، فلا أسمع إلّا غمغمة وهمهمة، فاتبعوني وكونوا في أثري . قال الأشتر هذا ومال نحو معسكر أهل الشام فتبعته الصفوف وهي نهزأ بالحتوف فأبلوا أعظم بلاء بأصحاب معاوية وكانت موقعةً عظمى كثرت فيها الضحايا حتى قدروا القتلى والجرحى يومئذٍ بنحو سبعين ألفاً وقد دامت لموقعة ذلك اليوم بطوله وكل الليل وهي ليلة الهرير وكان سيدنا علي في قلب الجيش والأشتر على الميمنة وابن عباس على الميسرة . ولما انجلت الموقعة عن نصر عظيم لجيش الخلافة وقد ولّى من بقي سليماً من جيش معاوية هاربين وقف في القوم خطيباً سيدنا علي عليه السلام وكان قد بدأ الهزيع الثالث من ليلة الهرير فحمد الله وأثنى عليه وقال « أيّها الناس ، قد أبلغ بكم وبعدوكم الأمر ما قد رأيتم ، ولم يبق من أهل الشام إلّا آخر نفس ، وأنّ الأمور إذا أقبلت أعتبر آخرها بأوّلها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين ، حتى بلغنا منهم ما بلغنا ، وأنا غادٍ عليهم بالغداة ، أحاكمهم إلى الله » فهلل الناس وكبّروا ودعوا لأمير المؤمنين وقد اشتدّ نشاطهم إلى غزوة الغد وهم موقنون أنّ الحرب تنتهي فيها والنصر الأخير بات على قيد خطوات منهم .

لا جرم أن تفوّق جيش أمير المؤمنين على جيش معاوية قد بدأ بأسنى مظاهره حتى أيقن معاوية بالقهر والإنخذال وأزاد بلباله تقدم الإمام الأعظم سيدنا علي منه يريد مبارزته ففرّ من وجهه مختفياً في أقصى معسكر ولم يعد له إلّا الإلتجاء إلى دهاء =

رَأى ٱلْجُمُوْعَ ٱلَّتِيْ وافَى بِهَا سَئِمَتْ هَـوْلَ ٱلْقِتَالِ فَعَـدَّتْ عَنْ تَـدَاعِيْهَـا
رَأى أَبَـا حَسَنٍ قَـدْ جَـاءَ يَـطْلُبُـهُ إِلَى مُبَـارَزَةٍ يَـلْقَى آلـرَّدَى فِـيْهَـا
وَفِيْ ٱلْأَخِيْـرِ رَأَى أَنَّ ٱلْهَـزِيْمَـةَ قَـدْ حَلَّتْ بِـأَصْحَـابِـهِ صَعْبُ تَـلافِيْهَـا
وَإِنَّـهُ مُشْـرِفٌ فِيْ شَـرِّ مَـوْقِفِـهِ عَلَى ضِيَـاعِ أَمَـانٍ كَـانَ رَاجِيْهَـا
فَصَـاحَ وَٱلْيَـأْسُ يَـطْوِيْهِ وَيَنْشُـرُهُ يَـا عَمْرُو خُـذْ بِيَدِيْ حَـاشَا تُخَلِّيْهَـا
فَقَالَ عَمْرٌو: أَرَى أَهْـلَ ٱلشَّآمِ لَقَـدْ خَـارَتْ عَـزَائِمُهَـا مَـا أَنْ تُقَـوِّيْهَـا

=عمرو بن العاص عسى أن يعينه برأي على حيلة تخرجه بجيشه من المأزق الحرج الذي بات فيه فجاءَه والخوف يملأ نفسه وقال : يا عمـرو إنّ غداً لمصبحنـا عليٌّ بالفصـل ولا أرى إلّا القهـر والذلّ فمـا ترى ؟ فتبسّم عمـرو بدهـائه المشهـور وقال : إنَّ رجـالك لا يقومون لرجاله ، ولستَ مثله، هـو يقاتلك على أمـر ، وأنت تقاتلهم على غيـره ، أنت تريد البقاء ، وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخـافون عليـاً إن ظفر بهم ، قـال ويلك وما الحيلة ؟ قـال لا تجزع يـا معـاويـة فقـد أعددتها من قبل ولكن هل عزمت عزماً لا رجوع بعده على أن تعطيني مصر ؟ فإنّ نفسي لم تزل تنزع إلى خيمتي التي نصبتها بجوار النيـل . قال معـاوية لقـد سبق واتّفقنا على هذا وقسماً بالله لست ناكثاً عهدي فامددني بـرأيك قبـل فوات الـوقت . قال عمـرو وهو مـطمئن البال يهـزأ بمعاويـة والمخاوف التي تسـاوره وقال : ألقِ إلى القوم أمراً إن قبلوا اختلفوا وإن ردّوه اختلفوا وفي الحالين تفرّق كلمتهم وتنتصر عليهم . قال معاوية وما هو روحي فداك ؟ قال : وزّع نسـخ القرآن على جنـودك فتعليا في صبـاح الغد على رماحها في وجوه رجـال معـاويـة وأرسـل معهم من يـدعـوهم إلى تحكيم كتـاب الله في هـذا الخلاف . وإنّك بالغ في هذا حاجتك لا محالـة . وإنّي لا أزل أؤخّر هـذا الأمر لـوقت حاجتك إليه . ولكني أعود فأذكرك بمصر وأنا فـاتحها وأحقّ النـاس بالتمتـع بخيراتهـا . ولما سمع معاوية حيلة عمرو بن العاص صفّق لها طرباً . وقال صدقتَ وربِّ الكعبة انّها لحيلة ما خطرت على بـال إبليس وأنّها لناجحة بـإذن الله وأنّك لحـاكم مصر وصـاحبها وأنّـك لحيّـة يـا عمـرو فضحـك عمـرو بن العـاص وقـال ولكن لسوء الحظ إنّـك أنت الحاوي.

هكذا اتفق معاوية وعمرو بن العاص على الاحتيال على سيدنا علي عليه‌السلام بـاسمِ القرآن وأسرعا بدعوة قوادهمـا إذ أنبآهم بهـا وأمراهم بتنفيـذها فـأسرعـوا إلى ذلك كمـا سترى

وَأَنَّ صَحْبَكَ يَا ٱبْنَ ٱلْوِدِّ عَاجِزَةٌ عَنْ صَحْبِ حَيْدَرَةٍ مَا أَنْ تُكَافِيْهَا
وَلَمْ تَكُنْ فِيْ لِقَاكَ ٱلْيَوْمَ نِيَّتُهُ كَنِيَّةٍ أَنْتَ فِيْ لُقْيَاهُ تَنْوِيْهَا
فَإِنَّهُ تَارِكُ ٱلدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا وَأَنْتَ تَطْمَعُ فِيْ هَانِيْ مَلاَهِيْهَا
وَفَوْقَ هٰذَا فَآهَالُ ٱلْعِرَاقِ إِذَا بِهَا ظَفِرْتَ لَهَابَتْ أَنْ تُؤَاذِيْهَا
لِذَاكَ عَنْ نَفْسِهَا وَافَتْ مُدَافِعَةً بِحَرْبِهَا وَلِذَا تُبْدِيْ تَفَانِيْهَا
لٰكِنَّمَا ٱلشَّامُ لَا تَخْشَى ٱلْوَصِيَّ إِذَا مَا سَادَ فِيْهَا وَأَمْسَى وَهْوَ رَاعِيْهَا
لِحُسْنِ مَا ذَاعَ عَنْ سَامِيْ فَضَائِلِهِ بَيْنَ ٱلْبَرِيَّةِ عُرْبِيْهَا وَرُوْمِيْهَا
وَخَيْرُ مَشُوْرَةٍ عِنْدِيْ أَشُوْرُ بِهَا عَلَيْكَ وَٱلْفَوْزُ مَضْمُوْنٌ لِمُجْرِيْهَا
أَنْ تَطْرَحَنَّ إِلَى ٱلْأَعْدَاءِ مَسْأَلَةً وَٱللَّهِ تَعْجُزُ عَنْ إِدْرَاكِ خَافِيْهَا
تَدْعُوْ لِفُرْقَتِهَا سِيَّانِ إِنْ قَبِلْتَهَا أَوْ أَبَتْهَا وَفِيْ ٱلْحَالَيْنِ تُغْوِيْهَا
فَقَالَ: عَجِّلْ بِهَا وَٱلْوَقْتُ دَارِكْ هَا رَكْبُ ٱلْعِرَاقِ قَدِ ٱشْتَاقَتْ مَهَارِيْهَا
وَأَوْشَكَتْ أَنْ تَحُوْزَ ٱلنَّصْرَ أَبْهَرَهُ بِوَقْعَةٍ أَبْتَغِيْ حَتْمَاً تَوَقِّيْهَا
فَقَالَ عَمْرُوٌ: وَلٰكِنْ مِصْرُ إِنِّيَ لَا أَزَالُ أَطْمَعُ أَنْ أَثْوِيْ بِوَادِيْهَا
وَلَمْ أَزَلْ أَشْتَهِيْ ٱلنِّيْلَ ٱلسَّعِيْدَ وَخَيْمَتِيْ أُقِيْمَتْ عَلَيْهِ لَسْتُ نَاسِيْهَا
فَقَالَ: وَٱللَّهِ مَا إِلَّاكَ يَحْكُمُهَا وَمَا لِغَيْرِكَ يَا ٱبْنَ ٱلْعَاصِ مُعْطِيْهَا
فَهَاتِ رَأْيَاً بِهِ صَحْبُ ٱلْخِلَافَةِ عَنْ نَفْسِيْ وَعَنْ عَسْكَرِيْ فِيْ ٱلْحَالِ يُقْصِيْهَا
أَوْ تَسْطُوَنَّ عَلَى جَيْشِيْ وَتَقْهَرُنِيْ وَإِنَّنِيْ بِتُّ أَخْشَى مِنْ تَسَطِّيْهَا
فَقَالَ: حَسْبُكَ لَا تَجْزَعْ مُعَاوِيَةٌ فَمَكْرُ عَمْرِكَ بِٱلْأَعْدَاءِ يُوْهِيْهَا
أَسْرِعْ إِلَى نُسَخِ ٱلْقُرْآنِ دُوْنَ وَنَىً وَقُلْ لِصَحْبِكَ بِٱلْأَرْمَاحِ تُعْلِيْهَا
بِهَا تَقَابَلُ أَصْحَابَ ٱلْوَصِيِّ وَكُنْ جَهْرَاً إِلَى حُكْمِهِ ٱلْقُدْسِيِّ دَاعِيْهَا

بِـذَا تَفُـوْزُ بِمَبْغَـاكَ ٱلَّـذِيْ عَجِـزَتْ   سُيُـوْفُ صَحْبِكَ عَنْـهُ مَـعْ عَـوَالِيْهَـا
وَإِنَّهَــا حِيْلَةٌ قَــدْ كُنْـتُ مُعْـدِدَهَــا   لِـوَقْتِ حَاجَتِـكَ ٱلْقُصْوَى وَمُـرْجِيْهَا
فَٱنْهَضْ لَهَا وَٱذْكُرَنْ مِصْراً وَخِصْبَ أَرَا   ضِيْهَا وَلاَ تَنْسَيَنْ فَضْلَ ٱبْنِ عَـاصِيْهَا
فَقَـالَ دَاهِيَـةُ ٱلْعُـرْبَـانِ: إِنَّـكَ حَيَّــــةُ أَجَـابَ: وَلٰكِنْ أَنْـتَ حَـاوِيْهَـا
وَهَبَّ لِلْمَكْـرِ عَمْـروٌ مَـعْ مُعَـاوِيَـةٍ   بِـحِيْلَةٍ لَمْ يَـكُنْ إِبْلِيْسُ رَاصِيْـهَـا

رفع المصاحف وطلب التحكيم

وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَـالِيْ ٱلـدَّهْـرِ قَـاتِمَـةٍ   لَيْـلاَءَ عَمَّتْ بِلاَ ٱسْتُثْنَـا كَوَادِيْهَـا(١)

---

(١) عندما أصبح صباح السبت ١١ صفر الخير اصطفَّ أصحاب الخلافة للقتال وما كادوا يمضون إليه حتى رأوا أشباه الرايات أمام أهل الشام في وسط الفيلق فجعلوا يحدقون بها فعرفوا أنّها المصاحف في أطراف الرماح وهي عظام مصاحف العسكر ورأوا بينها ثلاثة رماح شدّت في بعضها وعليها مصحف المسجد الأعظم وكان يرفعه عشرة من الجنود وكان عدد المصاحف التي رفعها يومئذٍ أهل الشام نيف وخمسمائة مصحفاً ولا بدَّ لنا من القول أنّ المسلمين الأولين كانوا يحرصون على استصحاب مصاحفهم معهم في حروبهم وفي جميع أسفارهم فلا عجب إذا وجد في جيش معاوية خمسمائة مصحفاً وقد قدره المقدرون بنيف ومئة ألف مقاتل .

وبينما كان أصحاب سيدنا علي ينظرون إلى هاتيك المصاحف وقد أعليت فوق الرماح تقدم من رجال معاوية الطفيل بن أدهم وكان حيال وسط جيش سيدنا علي وأبو شريح الجذامي حيال الميمنة وورقاء بن المعمر حيال الميسرة ونادوا بملء أصواتهم بحيث يسمع أصحاب سيدنا علي قائلين « يا معشر العرب ، الله الله في النساء والبنات والأبناء ، من الروم والأتراك وأهل فارس غداً ، إذا فنيتم ، الله الله في دينكم ، هذا كتاب الله بيننا وبينكم » وما كادت تدوي هذه الكلمات في آذان أصحاب سيدنا علي حتى اختلط حابلهم بنابلهم واختلت صفوفهم وانقسموا فرقاً بعضهم رأوا عدالة الطلب فنادوا بالتحكيم وبعضهم أبوا إلاّ مداومة القتال وحدث ما قدره عمرو بن العاص من تفريق كلمة العلويين بحيلته فقال سيدنا علي حينئذٍ « اللهمَّ ، إنّك تعلم ، أنّهم ما الكتاب يريدون ، فاحكم بيننا وبينهم إنّك أنت الحكم ، الحق المبين » .

فِيْهَا لَقَدْ هَـرَّتِ ٱلنَّاسُ ٱلْقِتَـالَ هَرِيْـــراً وَهْيَ تَـطْلُبُ أَنْ تُجْلَى دَيَاجِيْهَـا
حَتَّى إِذَا لَاحَ نُـوْرُ ٱلْفَجْرِ صَـاحَ عَلِــيٌّ أَسْرِعُوْا فَـٱلْعِدَى فُلَّتْ مَـوَاضِيْهَا
قَدْ أَدْبَرَتْ عَنْكُمُ وَٱلْخَـوْفُ سَائِـدُهَا يَـدُوْسُ عَائِـرَهَا ٱلْمَجْـرُوْحَ كَاعِيْهَـا
وَٱللَّهُ مُؤْتِيْكُمُ ذَا ٱلْيَـوْمَ نَـصْـرَتَـهُ وَلَا مَـرَدٌّ لِـنُعْـمَى كَـانَ مُؤْتِيْـهَـا
فَـأَسْرَعَ ٱلنَّـاسُ لِاسْتِئْنَافِ هَجْمَتِهِمْ وَكُلُّهُمْ مُـطْمَئِنُّ ٱلنَّـفْسِ هَـادِيْهَـا
فَشَاهَدُوْا فَوْقَ أَرْمَاحِ ٱلْعِدَى نُسَخَ ٱلْــقُرْآنِ كَـانَتْ مَـعَ ٱلتَّكْبِيْرِ تُعْلِيْهَـا
وَمَنْ يَصِيْحُ بِهِمْ يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ ٱلْأَمْ جْـوَادِ حَتَّى مَتَى ٱلْبَلْوَى نُعَـانِيْهَـا
آلـلَّهُ آلـلَّهُ فِـيْ أَوْلَادِكُـمْ وَنِـسَـا كُمْ مِنْ مَـوَاقِفِ إِهْـوَانٍ تُـلَاقِيْهَـا
إِذَا فَنِيْـتُمْ فَـإِنَّ ٱلْـفُـرْسَ غَـازِيَـةٌ دِيَـارَكُمْ وَجُمُـوْعُ ٱلـرُّوْمِ تَسْبِيْهَـا
وَٱلتُّرْكُ تُسْرِعُ فِيْ ٱسْتِئْصَالِ شَافَتِكُمْ وَأَكْبَـرُ ٱلشَّـرِّ فِيْ مَغْـزَى مَغُـوْلِيْهَـا
ٱللَّهُ ٱللَّهُ فِـيْ ٱلـدِّيْنِ ٱلْـحَنِيْفِ إِذَا أَنْصَـارُهُ كَـانَ هٰـذَا ٱلشَّـرُّ مُفْنِيْهَـا
هٰـذِيْ مَثَـانِيْ إِلٰـهِ ٱلْعَـرْشِ بَيْنَكُمُ وَبَيْنَنَـا مِثْلَنَـا كُـوْنُـوْا مُـطِيْعِيْهَـا
وَإِنَّهَـا ٱلْيَـوْمَ تَـدْعُـوْنَـا لِـطَاعَتِهَـا دَعْـوَى وَأَفْضَلُنَـا تَقْـوَى يُلَبِّيْهَـا
وَإِذْ وَعَتْ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِيْ صِحَابُ عَلِــيٍّ وَٱلْمَصَـاحِفُ تُعْلَى فِيْ أَيَادِيْهَـا
قَـالَتْ بِقَـوْلَتِـهِ عَنْ خِشْيَـةٍ وَتُقًى وَرَدَّدَتْـهَـا وَلَمْ تَـفْقَـهْ مَغَـازِيْهَـا
وَقَـدْ تَـقَسَّـمَتِ ٱلْآرَاءُ قِـسْمَـتَـهَـا فِيْهَـا كَمَـا شَاءَ مُـوْحِيْهَـا وَمُفْشِيْهَـا
فَفِـرْقَةٌ قَـدْ رَأَتْ حُكْمَ ٱلْكِتَابِ وَأُخْــرَى خَـالَفَتْهَا تَقُـوْلُ ٱلْحَرْبُ نَبْغِيْهَـا
بِـذَاكَ حَـابِلُهَـا قَـدْ بَـاتَ مُخْتَلِطاً بِنَـابِلٍ مُمْنِيَـاً بِـٱلْعَجْـزِ سَـادِيْهَـا
وَصَـاحَ حَيْـدَرَةٌ: رَبَّـاهُ إِنَّـكَ أَدْ رَى بِـٱلْأَعَادِيْ وَمَـا تَطْوِيْ مَـطَاوِيْهَا
وَإِنَّهَـا لَمْ تُـرِدْ أَصْـلًا كِتَـابَـكَ أَوْ تَبْغِيْ هِـدَايَتَـهُ وَٱلشَّـرُّ غَـاوِيْهَـا

فَـاْحْكُمْ إِلٰهِي فِيْمَـا بَيْنَنَـا وَلأَنْـــتَ اْلْحَاكِمُ اْلْعَدْلُ قَدْ نُزِّهْتَ تَنْزِيْهَا
عَمَّا تُكِيْدُ اْلْعِدَى لِيْ فِيْ مَصَاحِفِهَـا   وَقَطُّ مَـا تَبِعَتْ سَـامِيْ مَبَـادِيْهَـا

مذاكرة أمير المؤمنين أصحابه بالتحكيم

ثُمَّ اْنْثَنَى لِكِبَـارِ اْلْقَـوْمِ حَيْـدَرَةٌ   يُرِيْدُ مِنْهَا بِذِيْ اْلـدَّعْوَى تَـرَوِّيْهَا[1]
فَمَا أَصَرَّتْ عَلَى اْلتَّحْكِيْمِ مُجْمِعَـةً   وَلاَ عَلَى اْلْحَرْبِ شَدَّتْ كَيْ يُجَارِيْهَا

---

(١) فـاز عمرو بن العـاص بمكيدتـه ونال معـاوية بغيتـه ودبَّ الإنقسـام دبيبـه في أصحاب سيدنا علي أمير المؤمنين فقال عدي بن حـاتم الطائي يـا أمير المؤمنين إنّـه لم يصب منّا عصبة إلاّ وقد أصيب من أعدائنا مثلها وكلٌّ مقروح ولكنّـا أمثل بقيـةً منهم وقد جزع القوم وليس بعد الجزع إلاّ ما نحبّ فناجزهم . وأيّد كلامه الأشتر النخعي فقال يـا أمير المؤمنين إنَّ معاويةً لا خلف له من رجاله ولكن بحمـد الله لك الخلف ولـو كان لـه مثـل رجالـك لم يكن له مثـل صبرك ولا نصـرك فأقـرع الحديـد بالحـديد واستعن بـالله الحميد . ونهض عمرو بن الحمق فقال يا أمير المؤمنين إنَّا والله مـا أجبناك ولا نصـرناك على البـاطل ولا أحببنـا إلاّ الله ولا طلبنا إلاّ الحقّ ولـو دعانـا غيرك إلى مـا دعوتنـا إليـه لاستشرى فيه اللجاج وطالت فيه النجوى وقـد بلغ الحقُّ مقطعـه وليس لنا معـك رأي . فاعترض هؤلاء الأشعث وقد كلل وجهه الغضب وقال يا أمير المؤمنين أنَّا لك اليـوم على ما كنّا عليه أمس وليس آخر أمرنا كـأوله ومـا من القوم أحـد أحنى على أهلِ العـراق ولا أوثر على أهل الشام منّي ومع ذلك أقول أجب القوم إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ فـإنَّك أحقُّ به منهم وقد أحبَّ الناس البقاء وكرهوا القتال .

أصغى سيدنا أمير المؤمنين إلى ما قال أصحابه بصدرٍ رحب حتى إذا ما أبدى كلٌّ منهم ما عنده أرسـل إليهم نظرةً تختـرق مكنونـات صدورهم وقـال : أيّها النـاس ، إنّي أحقُّ من أجـاب إلى كتاب الله ، ولكن معـاوية وعمـرو بن العـاص وابن أبي معيط وابن أبي سرح وابن مسلمة (وهؤلاء كانوا الباقين من زعماء أهلِ الشام) ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إنّي أعرف بهم منكم ، صحبتهم صغـاراً ورجالاً ، فكـانوا أشـرَّ صغار وشـر رجال ، ويحكم إنّها كلمة حقّ يراد بها باطل ، إنّهم ما رفعـوا المصاحف وهم يعـرفونـا ويعملون بها ،ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة ، أعيروني سواعدكم وجماجمكم سـاعةً =

ثُمَّ رَأى ٱلنَّـاسَ حَوْلَيْـهِ قَدِ ٱجْتَمَعَتْ وَصَيْحَـةُ ٱلسِّلْمِ تَعْلُو مِنْ نَـوَاحِيْهَـا
فَـأَمَّهَـا كَـرَمـاً كَيْمَـا يُشَـافِهُهَـا بِمَـا لَـهُ ٱجْتَمَعَتْ لاَ كَيْ يُمَـارِيْهَا
وَقَـالَ: إِنِّـي يَـا قَـوْمِي أُحَـقُّكُـمُ بِـآيِ رَبِّـي إِنْ نَـادَى مُنَـادِيْـهَـا
لٰكِنْ دُعَـاةُ كِتَـابِ ٱللَّهِ قَـدْ طَلَبَتْ بِمَـا دَعَتْ أَنْ تُـرَاشِي مُسْتَجِيْبِيْهَـا
إِنِّيْ لأَعْـرَفُ مِنْكُمْ أَجْمَعِيْنَ بِـهَـا وَبِـٱلَّـذِي تَبْتَغِيْـهِ فِيْ مَـرَامِيْـهَـا
صَحِبْتُهَـا طِفْلَةً مِنْ يَـوْمِ نَشْـأَتِهَا حَتَّى أَشَـابَتْ لَيَـالِيْهَـا نَـوَاصِيْهَـا
يَـا قَـوْمِ دَعْـوَتُهَـا حَقٌّ أُرِيْـدَ بِـهِ بُـطْلٌ يُغَشِّيْ عَلَى أَبْصَـارِ مُصْغِيْهَـا
بَـلْ كَيْ تُخَادِعَكُمْ تُـوْهِيْ عَزَائِمَكُمْ تُكَيْـدَكُمْ بَعْـدَ أَنْ أَعْيَـا تَلَطِّيْـهَـا
أَهْـلَ ٱلْجِهَادِ أَعِيْـرُوْنِي سَـوَاعِـدَكُمْ سُـوَيْعَـةً فَبِـهَـا وَٱلـلَّهِ أُفْـنِيْـهَـا
قَـدِ ٱنْتَهَى ٱلْحَقُّ يَا قَـوْمِيْ بِمَقْطَعِـهِ إِلَى ٱلْعِـدَاةِ ٱلَّتِيْ جَـارَتْ لِيُـرْدِيْهَا

= واحدة ، فقد بلغ الحقُّ مقطعه ، ولم يبق إلاّ أن يقطع دابر الذين ظلموا » وما كاد ينتهي أمير المؤمنين من كلماته الدرية التي برهن بها على أنّه أدرك حقَّ الإدراك سرّ مكيدة عمرو بن العاص ومعاوية وأنّه يرى أنَّ ساعة النصر قد دنت حتى دوت أصوات عشرين ألفاً من رجاله أقبلت نحوه بزعامة مسعر بن فدكي وزيد بن الحصين وعصابة من القراء الذي صاروا خوارج فيما بعد وطفقوا ينادون بملء أصواتهم « يا أمير المؤمنين ، يا علي ، أجب القوم إلى كتاب الله ، إذ دعيتَ إليه ، وإلاّ قتلناك كما قتلنا ابن عفان ، فوالله إنّا لنفعلنّها إن لم تجبهم » فخرج سيدنا علي إليهم وطفق يلاطفهم ويتملقهم في مثل قوله « ويحكم ، أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه ، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني ، أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله ، إنّي إنّما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن ، فإنّهم قد عصوا الله فيما أمرهم ، ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه ، ولكني قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم ، وأنّهم ليس العمل بالقرآن يريدون » على أنَّ هؤلاء أصرُّوا على طلبهم وما كانت هذه الكلمات وأمثالها من فم الحضرة المقدسة الحيدرية لتثنيهم عن طلبهم فأخذوا يحاورونه مصرّين على إجابة أهل الشام وترك الخصام وتحكيم القرآن .

فَـأَيِّــدُوْهُ أَعِيْــرُوْهُ جَمَـاجِـمَكُـمْ لِيَجْلُوَنَّ عَنِ آلــدُّنْيَـا آلتَّـرَارِيْـهَـا
وَكَــانَ حَيْــدَرَةٌ يُلْقِـيْ خِـطَابَتَــهُ بِغَيْــرَةٍ تَــأْسُــرُ آلْأَلْبَــابَ تَسْبِيْهَــا
فَلَمْ تُؤَثِّـرْ عَلَى آلسُّمَّاعِ وَاأَسَفَ آلْإِ سْــلَامِ تَــآللَّهِ لَمْ تُــدْرِكْ مَعَـانِيْهَـا
وَصَـاحَ عُشْرُوْنَ أَلْفـاً مِنْ جَمَـاعَتِـهِ بِــهِ: أَلَا أَبْلِغِ آلْأَعْــدَا أَمَــانِيْـهَــا
أَلَا أَجِبْهَـا إِلَى حُكْمِ آلْكِتَابِ وَحَـا شَـا آيَـهُ أَنْ تُعَـادِيْ مَنْ يُصَـافِيْهَـا
أَجِــبْ وَإِلَّا فَــإِنَّ قَــاتِـلُوْكَ كَــقَـتْــــلَةِ آبْـنِ عَفَّــانَ هَــا إِنَّــا نُـثَنِّيْـهَـا
وَبَعْـدَ ذَاكَ أَلَحَّتْ فِيْ مُـوَادَعَــةِ آلْــــعِـدَى وَمَــا قَبِلَتْ إِلَّا تَــوَخِّيْهَـا
وَقَـدْ أَصَمَّتْ وَمَا أَصْغَتْ مَسَـامِعَهَـا عَنْ بَيِّنَــاتِ عَلِيٍّ وَهْــوَ يُـبْــدِيْهَـا
وَهْيَ آلْخَوَارِجُ فِيْمَا بَعْدُ قَدْ خَرَجَتْ عَلَى آلَّـذِيْ أَكْـرَهَتْـهُ أَنْ يُهَـابِيْهَـا

الشغب في جيش أمير المؤمنين

وَبَيْنَمَــا عَنَتَــاً كَــانَتْ تُـغَــاضِبُــهُ وَكَانَ فِيْ حِلْمِهِ آلسَّامِيْ يُرَاضِيْهَـا[1]
كَــانَتْ طَــلَائِعُــهُ تَلْقَى أَعَــادِيَــهُ وَبِــآلْخَسَــائِرِ وَآلْأَرْزَاءِ تُـمْنِيْهَــا

---

(1) عندما خرج سيدنا أمير المؤمنين لملاقاة أولئك الألوف المؤلفة الطالبة إجابة أهل الشام إلى ما طلبوه من تحكيم القرآن خرج الأشتر بطائفة من أبطال العراق قاصداً نهو الحرب على شفار السيوف معتقداً أنّ أهل الشام خارت عزائمهم فلا يلبثون أن يسلموا إليه ويدينوا قهراً إلى أمير المؤمنين على أنه ما كاد يدنو من أصحاب معاوية إلاّ وتبعه بعض أصحابه ينبئه بأنّ طالبي الصلح والنزول على ما عرضه أهل الشام من تحكيم القرآن قد استفحل أمرهم حتى أنّهم يتهددون سيدنا أمير المؤمنين بالقتل وأنه عليه السلام قد رحب بهم صدره كثيراً وتلطف بهم جهده ونشر عليهم من مواعظه الشيء الكثير وما ارعووا فحوقل واسترجع وتردّد في أمر هجومه وبينما هو في تردُّده جاءَه يزيد بن هاني من قبل أمير المؤمنين يدعوه إليه فلما انتهى إليه أخبره بحرج موقف سيدنا علي مع الناس وأنّه يدعوه إلى الرجوع فقال الأشتر إرجع لأمير المؤمنين وقل له : ليس =

= هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني عن موقفي إنّي قد رجوت الفتح فلا تعجلني فرجع يزيد إلى أمير المؤمنين وأخبره بقول الأشتر فلما علمه الناس ازدادوا هرجاً ومرجاً وقالوا يا علي والله ما نراك إلاّ أمرته بالقتال قال أرأيتموني ناجيت رسولي سرّاً ؟ أمّا كلمته علانيةً أمامكم وأنتم تسمعون ؟ قالوا فابعث إليه فليأتك وإلاّ فوالله إعتزلناك وقاتلناك فقال أمير المؤمنين ويحك يا يزيد أسرع إلى الأشتر وقل له أن يقبل إليَّ فإنّ الفتنة قد وقعت فأسرع يزيد إلى الأشتر فإذا هو قد أعمل السيف برقاب أهل الشام ولاحت الغلبة لرجال أمير المؤمنين فأخبره بأمر المرتضى وأنبأه نبأ الفتنة فقال الأشتر أبرفع المصاحف ثارت فتنتهم ؟ قال يزيد نعم قال الأشتر أمّا والله لقد ظننت أنّها حين رفعت ستوقع خلافاً وفرقة بين رجالنا إنّها مشورة ابن النابغة ثمَّ قال لابن هاني ويحك ألا ترى إلى الفتح ؟ ألا ترى إلى ما يلقى أعداؤنا ؟ ألا ترى إلى ما يصنع الله لنا ؟ أينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه ؟ فقال له يزيد أتحبُّ أنّك ظفرت ههنا وأنّ أمير المؤمنين بمكانه الذي هو فيه يُفرج عنه ويسلم إلى عدوّه ؟ قال الأشتر سبحانه الله ، لا والله ، لا أحبُّ ذلك ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله . وثنى عنان جواده وعاد أدراجه فتبعه أصحابه وكلّهم آسفون على فوت النصر الذي لاحت لأعينهم بشائره وكاد يتمّ لهم .

وعندما بلغ الأشتر موقف أمير المؤمنين وجده بين الناس على مثل ما حدثه يزيد بن هانيء وهم يتهددونه بالإعتزال عنه وبقتله أيضاً فصاح بهم والغضب آخذٌ منه مأخذه « يا أهل الذلّ والوهن ، أحين علوتم القوم ، وظنوا أنكم لهم قاهرون ، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ، وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وتركوا سنّة من أنزلت عليه ، فلا تجيبوهم ، أمهلوني فواقاً ، فإنّي قد أحسست بالفتح » . فأجابوه بلسان واحدٍ لا نمهلك كلا لا نمهلك . قال فأمهلوني عدوة الفرس ، فإنّي قد طمعت بالنصر . قالوا إذن ندخل معك في خطيئتك . فازداد كرب الأشتر وغيظه وقال حدثوني عنكم ، وقد قتل أماثلكم ، وبقي أراذلكم متى كنتم محقين ؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشام ؟ فأنتم الآن حين أمسكتم عن قتالهم مبطلون . أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقون ؟ فقتلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم ، وأنّهم خيرٌ منكم في النار ، قالوا دعنا منك يا أشتر قاتلناهم في الله ، وندع قتالهم في الله ، إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا . فقال خدعتم والله فانخدعتم ، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ، يا أصحاب =

=الجباه السود ، كنّا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا ، وشوقاً إلى لقاء الله ، فلا أرى فراركم إلّا إلى الدنيا من الموت ، ألا فقبحاً لكم يا أشباه الرجال ، ما أنتم برائين بعدها عزّاً أبداً ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون . وكان القوم والأشتر يخاطبهم بهذه الكلمات وهم يقاطعونه ويصفرون له ويمتهنونه ثمّ سبّوه وسبّهم وضربوا بسياطهم وجه دابته .

وإذ رأى سيدنا أمير المؤمنين أنّ الخطب قد استفحل صاح بالناس فكفوا وقال الأشتر : يا أمير المؤمنين إحمل الصفّ على الصفّ تصرع القوم . فصاح الناس قائلين إنّ أمير المؤمنين قد قبل الحكومة ورضي بحكم القرآن . فقال الأشتر إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين . فصاح الناس بملء أصواتهم : قد رضي أمير المؤمنين ، قد قبل أمير المؤمنين .

كل هذا جرى وسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام ساكت واجم مطرق إلى الأرض لا ينبث ببنت شفة ثمّ رفع رأسه الشريف وأرسل نظره إلى الناس أهابت بهم فسكتوا فقال : « أيّها الناس : إنّ أمري لم يزل معكم على ما أحبّ ، إلى أن أخذت منكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت ، وأخذت من عدوّكم فلم تترك ، وأنّها فيهم أنهى وأنهك ، إلّا أنّي كنت أمس أمير المؤمنين ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً ، فأصبحت منهياً ، وقد أحببتم البقاء ، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون » وما انتهى سيدنا أمير المؤمنين من خطابه النفيس الدالّ على الآلام التي تشعر بها نفسه الطاهرة من فرقة الناس واختلافهم . إلّا وعاد الناس إلى الجدال بين موافق على التحكيم وقائل باستئناف القتال والهرج آخذ مأخذه منهم حتى بات جمع كلمتهم من المستحيل .

« ترجمة الأشتر »

هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن خزيمة بن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن أدد . أدرك الإسلام على عهد المصطفى فأسلم وحسن إسلامه وأخلص لرسول الله فكسب رضاءه وثقته وفي الحديث أنّهم ذكروا الأشتر أمام المصطفى يوماً فقال « إنّه المؤمن » مشيراً بذلك إلى قوّة إيمانه وصحة عقيدته . =

بِهَا لَقَدْ صَاحَ: يَا أَهْلَ ٱلْمَذَلَّـةِ وَٱلْإِ م هَـانِ يَـا مَنْ أَبَتْ إِلَّا تَـرَاخِيْهَـا

= وكان الأشتر أشهر أنصار سيدنا عليّ وأعوانه والقائلين بخلافته منذ وفاة المصطفى حتى قالوا إنّه كان لا يرى شرعية الخلافة لغير سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام . ولذلك يجعلونه أقدم وأعظم المتشيعين وأفضل من دافع عن حقوق وصيّ النبيّ الأمين .

وكان الأشتر في المسلمين الذين فتحوا العراق وفارس فأقام في الكوفة وبقي فيها وكان هناك في مدّة عثمان وكان مجاهراً بعداوة عثمان والنقمة على عمّاله الأمويين . واتّفق في أواخر أيّام عثمان أنّ الوليد بن عقبة عامله على الكوفة كان يجهر بشرب الخمر وإتيان المحرمات فكانت أعماله هذه بدء شكوى الكوفيين من عثمان فأخذوا يكتبون له عن أحوال عامله ويطلبون منه عزله وكان الأشتر زعيم هؤلاء الشاكين ولم يرَ عثمان بدأً من إرضائهم بعزله فعزله وولّى بدله سعيد بن العاص فلمّا قدم هذا الكوفة رأى من حسن السياسة أن يتألف من في تلك المدينة من العرب فجعل يكثر من دعوتهم إلى مجالسه ومسامرتهم والعمل على اكتساب قلوبهم وهم لا ينفكون ناقمين غير راضين عمّا يجري في الخلافة وفي ذات ليلة بينما كان وجهاء قريش في الكوفة يسمرون في دار الأمارة عند سعيد بن العاص قال هذا إنّ سواد العراق بستان لقريش عامةً ولبني أميّة خاصةً فغضب الأشتر لقوله وقال أتزعم أنّ السواد الذي أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستانٌ لك ولقومك ؟ ولم يكد يتمّ كلامه حتى انتهره صاحب الشرطة قائلاً ويلك يا أشتر أتردُّ على الأمير مقالته ؟ وأغلظ له في الكلام فازداد الأشتر غضباً ومال إلى من كان حوله من النخع وغيرهم من أشراف العرب المقيمين في الكوفة وقال ألا تسمعون ؟ فأخذتهم نخوة العرب ووثبوا على صاحب الشرطة بحضرة سعيد ووطئوه بأرجلهم وطئاً عنيفاً وجرّوه من رجله فغضب سعيد من هذه الموقعة وامتنع عن مسامرتهم وازدادوا هم كراهةً لعثمان وعمّاله وطفقوا يجهرون بسبّهم والتشنيع بأعمالهم حتى استفحل أمرهم فأرسل سعيد يشكوهم إلى عثمان فكتب هذا إليه يأمره بإبعادهم إلى الشام فلمّا انتهى إلى سعيد بن العاص أمر عثمان استدعى إليه الأشتر ومالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد النخعي وعلقمة بن قيس النخعي وصعصعة بن صوحان العبدلي ومن نحا نحوهم بعداوة عثمان من العرب النازلين في الكوفة فلما اجتمعوا إليه قال لهم « إنّكم قوم من العرب ، ذوو أسنان (أي شيوخ) وألسنة ، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً ، وغلبتم الأمم وجنيتم مواريثهم ، وقد بلغني أنّكم ذممتم قريشاً ، ونقمتم على الولاة فيها ، ولولا =

= قـريش لكنتم أذلـةً ، انَّ أئمتكم جُنَّتكم ، انَّ أئمتكم ليصبـرون لكم على الجـور ، ويحتملون فيكم العتـاب ، والله لتنتهنَّ أو ليبتلينكم الله بمن يسـومكم الـخسـف ، ولا يحملكم على الصبر ، ثمَّ تكونـون شركـاءهم فيما جـررتم على الرعيـة في حيـاتكم ، وبعـد وفاتكم » فجبهـوه وردّوا قولـه وأغلظوا له وهـو يحاول أن يحملهم على الخضـوع فيأبون فلم يرَ إلاّ أن ينفذ أمر عثمان فنفاهم إلى الشام .

ولما بلغ الأشتر وأصحـابه الشـام أكرم معـاوية مثـواهم وتلطّف بهم وأغدق عليهم الخير وهو يـريد أن يتـألفهم فما أفلح وظلّوا يشنعـون بعثمان وعمّـاله في مجـالسه وبين النـاس حتى أعجزه أمـرهم فكتب إلى عثمان يستـأذنه بـإرجـاعهم إلى الكـوفـة حتى لا يفسـدوا عليه أهـل الشام فـأذن له بـذلـك فـأرسلهم بـطريق حمص وكتب إلى عـاملهـا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أن يعـوّقهم عنده ويشـدّد عليهم فاستقبلهم عبـد الرحمن بوجهٍ عابس وقال لهم « يا بني الشيطان ، لا مرحباً بكم ، ولا أهلاً ، قد رجـع الشيطان محسـوراً ، وأنتم بعد في بسـاط ضـلالكم وغيّكم ، جـزى الله عبـد الـرحمن (ويـريـد نفسـه) ان لـم يؤذكم يا معشـر من لا أدري أعرب هم أم عجم ؟ أتـراكم تقولـون لي ما قلتم لمعاوية ؟؟ أنا ابن خالد بن الوليد ، أنا ابن من عجمته العاجمـات ، أنا ابن فـاقي عين الـردَّة ، والله يا أشتـر ويا ابن صـوحـان ويـا جميعكم ، لأطيـرنَّ بكم طيـرةً بعيـدة المهوى ، إن بلغني عنكم ما أكره » وبعد هـذا أمر أن يقيمـوا في دارٍ وأن يجري عليهم رزقهم بالتقتير وكان كلما ركب أمشاهم في ركابـه أذلاّءَ فتهيبوا شـدّته وصبـروا على أذاه وطفقوا يظهرون له التوبة فصدَّقهم وكتب إلى عثمان يستأذنه بإرجاعهم إلى الكـوفة وأنّـه كبح جماحهم وأكرههم على الطاعة فأطاعوا . فأذن عثمان برجوعهم فرجعوا إليهـا وكأنّ أول عمل أتوه فيهـا أن ساروا بـأهل الكـوفة إلى المـدينة يـطلبون خلعـه واشتركـوا فعلاً بحصاره فقتله على ما مرَّ بنا في حاشيةٍ سابقة .

وكــان الأشتــر أول المنــادين بعــد مقتــل عثمــان بخــلافــة سيــدنــا أميــر المؤمنين عليه السلام وأقرب المقربين إليه وكان الأمير يعتمد عليـه ويثق بإخـلاصه ويستشيـره بمهام الخلافة ويحترمه غاية الإحترام . وحدث أنَّ سيدنا علي ولّى على الحجاز واليمن والعراق بعض أبناء عمّه العباس فقال الأشتر علناً في أحد مجالسه « ها عليّ قد استعمل أبناء عمّه على عمالات المسلمين فلماذا قتلنا الشيخ (ويريد عثمان) بالأمس ؟! » فبلغ =

وَقَدْ تَلَجَّتْ أَعَادِيْكُمْ إِلَى نُسَخِ آلْـــقُـرْآنِ حَـاسِبَـةً فِيْهَـا مَنَـاجِيْهَـا

= قوله هذا مسامع الحضرة المقدسة الحيدرية فاستدعاه إليه وقال له : « بلغني يا مالك أنّك قلت كيتَ وكيت ولك الحقُّ والله فيما قلتَ ولكن هل وليتُ حسناً أو حسيناً أو واحداً من أولاد أخي جعفر أو أخي عقيلاً أو أحد أولاده عملاً من أعمال المسلمين ؟ اللهمَّ لا . وإنّما وليتُ أولاد عمّي العباس لأنّي سمعت عمّي العباس رحمه الله يطلب من رسول الله ﷺ الإمارة مراراً فقال له : « يا عمّ إنّ الأمارة إن طلبتها وكلتَ إليها وإن طلبتك أعنت عليها » وقد رأيتُ بنيه في أيام عمر وعثمان يجدون في أنفسهم أن وُلّي غيرهم من أبناء الطلقاء ولم يولّى أحد منهم فأحببتُ أن أصل رحمهم وأزيل ما كان في أنفسهم . وبعدُ فإن علمتَ أحداً من أبناء الطلقاء هو خيرٌ منهم فائتني به » فلمّا سمع الأشتر اعتذار أمير المؤمنين عذره على عمله واعتذر عمّا قال فقال أمير المؤمنين : لا تعتذر فإنّ النصيحة إخلاص في الصداقة . ومن هذه القصة يتضح لنا ما كان عليه الأشتر من الإخلاص والصراحة في قوله وعمله .

والأشتر هو الذي أشار على سيدنا علي عليه السلام بالإبقاء على أبي موسى الأشعري في أمارة الكوفة عند بيعته وقبل الإمام مشورته لثقته به ولعلمه أنّه أخبر الناس بأهل الكوفة فلمّا حلَّ أمير المؤمنين الربذة عندما سار لحرب الجمل وأرسل يستنصر بأهل الكوفة وأظهر أبو موسى التراخي في نصرته على ما تقدم القول في حاشية سبقت نادى سيدنا علي الأشتر وقال له معاتباً هذا صاحبك الذي أشرتَ أن تبقيه على الكوفة فغضب الأشتر وسار على الفور إلى الكوفة وعزل أبو موسى وجاء بمقاتلة الكوفة لحرب الجمل على ما رأينا .

وقد أبلى الأشتر في حرب الجمل أعظم بلاء ومن مواقعه أنّه بارز عبد الله بن الزبير وكلاهما على ظهر جواده وتعانقا متصارعين وارتميا إلى الأرض فكان الأشتر فوق عبد الله بن الزبير فجعل عبد الله يصرخ من تحته :

اقتلوني ومالكاً   واقتلوا مالكاً معي

ولشدة اختلاط الناس وثوران النقع ما فهم أصحاب الجمل قوله ولو قال اقتلوني والأشتر لقتلوهما وقتئذٍ معاً على أنّ عبد الله بن الزبير أفلت بعد جهاد كثير من تحت الأشتر لأنّ هذا كعادته كان يخرج إلى الحرب بعد أن يمتنع عن الأكل ثلاثة أيام . =

وَقَـدْ دَعَـتْكُـمْ لِآيَـاتٍ مُـطَهَّـرَةٍ   وَٱللَّهِ لَمْ تَنْـحُ فِي يَـوْمٍ نَـوَاحِيْهَـا

= وبعد نهاية وقعة الجمل زار الأشتر عائشة فقالت له يا مالك أنت الذي صنعت بابن أختي ما صنعت ؟ قال نعم ولولا أنّي كنت طاوياً ثلاثة أيام لأرحت أمّة محمد منه . فقالت أما علمت أنّ رسول الله قال « لا يحلُّ دم المسلم إلاّ بإحدى أمور ثلاث : كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان أو قتل نفس بغير حقّ ؟؟؟ فقال الأشتر على بعض هذه الثلاثة قاتلناه يا أمَّ المؤمنين وأيم الله ما خانني سيفي قبلها ولقد أقسمت أن لا يخونني بعدها ثمّ قال على البداهة :

أعايش لولا أنّي كنت طاوياً   ثلاثاً لألقيتِ ابن أختك هالكا
غداة ينادي والرجال تحوزه   بأضعف صوتٍ اقتلوني ومالكا
فلم يعرفوه إذ دعاهم وغمه   خدبٌ عليه في العجاجة باركا
فنجاه مني أكله وشبابه   وانّي شيخ لم أكن متماسكا
وقالت على أيّ الخصال صرعته   بقتلٍ أتى أم ردّةٍ لا أبالكا
أم المحصنُ الزاني الذي حلَّ قتله   فقلتُ لها لا بدَّ من بعض ذلكا

فقطبت عائشة وجهها وقالت أحمد الله الذي أنقذ عبد الله لأسماء وإنّي عندما سمعت أنّه خرج لمبارزتك صحت « واثكل أسماء » .

وقد رأينا كيف كانِ الأشتر من أعاظم القوّاد الذين صحبوا سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام إلى صفين وأشرنا إلى بعض مواقعه العظيمة فيها ونقول إنّ سيدنا أمير المؤمنين بعد أن رجع إلى الكوفة وكان ما كان من أمر التحكيم على ما سيمرّ بنا أناط بالأشتر عمالة الجزائر فكان مقامه في « نصيبين » وأرسل محمد بن أبي بكر أميراً على مصر فلم يقوَ محمد على حكم البلاد لكثرة الدسائس التي كان يدسها معاوية وعمرو بن العاص له فأرسل يشكو أمره إلى سيدنا علي فما رأى عليه السلام لضبط حكم مصر إلاّ الأشتر عامله على الجزيرة فكتب إليه يقول : « أمّا بعد ، فإنّك ممن أستظهر به على إقامة الدين ، وأقمع به نخوة الأثيم ، وأسدُّ به الثغر المخوف ، وقد كنتُ ولّيتُ محمداً بن أبي بكر مصر ، فخرجت عليه خوارج وهو غلامٌ حدث السنّ ، ليس بذي تجربة للحروب ، فأقدم عليَّ لننظر فيما ينبغي ، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام » فلمّا وصل هذا الكتاب إلى يد الأشتر أسرع إلى الكوفة وتباحثا ملياً في أمر مصر ومطامع عمرو بن العاص ومعاوية فيها وقرّ رأياهما على أن يخرج=

خُدِعْتُمْ بِٱلَّذِي قَالَتْ وَخَدْعَتُهَا قَبِلْتُمُوْهَا كَمَا يَهْوَى مُعَاوِيْهَا
وَٱللَّهِ قَدْ تَرَكَتْ آيَ ٱلْكِتَابِ وَسِنَّـــةَ ٱلنَّبِيِّ فَكَلاًّ لاَ نُلاَخِيْهَا
يَا صَحْبَنَا أَمْهِلُوْنِي قَدْ شَعَرْتُ بِقُرْبِ ٱلنَّصْرِ أَعْدَاؤُكُمْ حَانَتْ مَخَازِيْهَا
وَكَانَ أَشْتَرُنَا يَتْلُوْ مَقَالَتَهُ وَٱلنَّاسُ يَصْخَبُ دَانِيْهَا وَقَاصِيْهَا
وَطَالَمَا قَاطَعَتْهُ غَيْرَ رَاضِيَةٍ عَنْهَا تُصَفِّرُ تَصْفِيْراً لِتَالِيْهَا

= الأشتر إلى مصر وهكذا سار متوجهاً إليها .

وكان لمعاوية في الشام العيون والأرصاد في الكوفة فبادروه بنبأ تعيين الأشتر لمصر وخروجه إليها فعظم ذلك عليه ودعا واحداً من أعوانه وكان من موالي آل عمر وطلب منه أن يستعمل دهاءه في اغتيال الأشتر بحيلة فسار الرجل إلى الميناء التي كان يقصدها المسافرون من العراق إلى مصر على البحر الأحمر لأنّهم كانوا يقصدون مصر براً وأقام فيها إلى أن وصل الأشتر فتقرّب منه بما ذكره له من فضل سيدنا علي وبني هاشم وذمّ الأمويين حتى وثق به واطمأنّ إليه فاحتال أن دسّ له السمّ في شرابه فمات وكان ذلك في اليوم الثالث لوصوله إلى الميناء التي كان يقصد منها مصر على السفن ثمّ اختفى الرجل فلم يعثر عليه أصحاب الأشتر .

وكانت وفاة الأشتر سنة ٣٩ للهجرة ولما بلغ سيدنا علي نعيه أكبر المصاب فيه وجزع عليه وقال : « إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، والحمد لله ربّ العالمين ، اللهمَّ إنّي أحتسبه عندك فإنَّ موته من مصائب الدهر » قال هذا وبكى ثمَّ قال : « رحم الله مالكاً ، فقد وفّى بعهده ، وقضى نحبه ، ولقي ربّه ، وقد وطنا أنفسنا أن نصبر على كلّ مصيبةٍ ، بعد مصابنا برسول الله ، فإنّها من أعظم المصيبات » اهـ .

وعلى ذكر الأشتر هذا يخلق بنا أن ننشر عهد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام إليه عندما ولّاه مصر وفي هذا العهد من ضروب السياسة وفنون الحكمة في سياسة الرعية ما يخلق به أن يكتب على ألواح بماء الذهب ويعلق على جدران دور الحكام ليتأدبوا بأدبه ويعملوا به لتسعد الرعية وتعمر البلاد وهو وحده يشهد لسيدنا أمير المؤمنين بأنّه أفضل من حكم الناس وخير من جاءَ للحكم بالقسطاس وأحكم من سطر السياسة الحكيمة على صفحات القرطاس وهاك العهد .

=

حَتَّى إِذَا مَا ٱنْتَهَى مِنْ سَرْدِهَا بَدَرَتْـــهُ بِٱلصُّرَاخِ وَهَجْرُ ٱلْقَوْلِ فِيْ فِيْهَا
قَالَتْ: فَلَا مُهْلَةٌ تُخْطِيْ خَطِيْئَتَكَ ٱلْــكُبْرَى بِهَا فَلْيَخَفْ بَارِيْهِ مُخْطِيْهَا

العهد العلوي العظيم

(وهو أفضل ما كتب في سياسة الرعية على الخطط الديموقراطية)

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا ما أمر به أميـر المؤمنين عبد الله علي بن أبو طالب ، مـالـك بن الحـارث الأشتر النخعي ، في عهده إليه ، حين ولّاه مصر ، جبـاية خـراجها ، وجهـاد عدوّهـا ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها .

أمر بتقوى الله وإيثار طاعته ، واتّباع ما أمر به في كتابـه من فرائضـه وسننه ، التي لا يسعد أحد إلّا باتّباعها ، ولا يشقى إلّا مع جحودها وإضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ، فإنَّه جلَّ اسمه قد تكفل بنصر من نصره ، وإعزاز من أعزَّه .

وأمره أن يكسر نفسه عند الشهوات ، ويزعها عند الجمحـات ، فإنَّ النفس أمَّـارة بالسوء إلّا ما رحم الله .

ثمَّ اعلم يا مالك : إنّي قد وجّهتك إلى بلادٍ قد جرت عليهـا دول قبلك من عدلٍ وجور ، وأنَّ الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمـور الولاة قبلك ، ويقـولون فيـك ما كنتَ تقـول فيهم ، وإنّما يستـدلُّ على الصالحين بمـا يجري الله لهم على ألسن عباده ، فليكن أحبُّ الذخائر إليك ذخيرة العمـل الصالـح ، فاملك هـواك ، وشحَّ بنفسك ، على ما لا يحلُّ لك ، فإنَّ الشـحّ بالنفس الإنصـاف منها فيمـا أحبّت أو كـرهت ، وأشعر قلبـك الرحمـة للرعية والمحبـة لهم واللطف بهم ، ولا تكـوننَّ عليهم سبعـاً ضاريـاً تغتنم أكلهم ، فإنّهم صنفـان : إمَّا أخ لـك في الدين ، أو نـظير لـك في الخلق ، يفـرط منهم الـزلـل ، وتعـرض لهم العلل ، ويؤتى على أيـديهم في العمـد والخـطأ ، فأعـطهم من عفوك وصفحـك ، مثل الـذي تحبُّ أن يعـطيـك الله من عفـوه وصفحه ، فإنَّك فوقهم ، ووالي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من وَلَّاك ، وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم .

= ولا تنصبنَّ نفسك لحرب الله ، فإنَّه لا يدي لك بنقمته ، ولا غنى لك عن عفوه ورحمته ، ولا تندمنَّ على عفو ، ولا تبجحنَّ بعقوبةٍ ، ولا تسرعنَ إلى بادرةٍ وجدت منها مندوحةً ، ولا تقولنَّ إنّي مؤمَّر آمر فأطاع ، فإنَّ ذلك أدغال في القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرُّب من القبر ، وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبَّهةً أو مخيلةً ، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك ، على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فإنَّ ذلك يطامنُ إليك من طماحك ، ويكفُّ عنك من غربك ، ويفيء إليك بما غرب عنك من عقلك .

إيّاك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه في جبروته ، فإنَّ الله يذلُّ كلَّ جبار ، ويهين كلَّ مختال .

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصَّة أهلك ، ومن لك فيه هوىً من رعيتك ، فإنّك ألَّا تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدحض حجته ، وكانَ لله حرباً له حتى ينزع ويتوب ، وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعمة الله ، وتعجيل نقمته ، من إقامةٍ على ظلم ، فإنَّ الله سميع دعوة المضطهدين ، وهو للظالمين بالمرصاد .

ولكن أحبُّ الأمور إليك ، أوسطها في الحقّ ، وأعمّها في العدل ، وأجمعها لرضى الرعية ، فإنَّ سخط العامة ، يجحف برضى الخاصَّة ، وأنَّ سخط الخاصَّة يغتفر مع رضى العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونةً في الرخاء ، وأقلَّ معونةً لهُ في البلاء ، وأكره للإنصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقلَّ شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصَّة ، وإنّما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء ، العامَّة من الأمَّة ، فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم .

وليكن أبعد رعيتك منك ، وأشنؤهم عندك ، أطلبهم لمعايب الناس ، فإنَّ في الناس عيوباً الوالي أحقُّ مَن سترها ، فلا تكشفنَّ عمَّا غاب عنك منها ، فإنّما عليك تطهير ما ظهر لك ، والله يحكم على ما غاب عنك ، فاستر العورة ما استطعت ، يستر الله منك ما تحبُّ ستره من رعيتك . =

وَقَــالَ أَنْجَــابُكُمْ مَــاتَتْ وَوَاأَسَفَــا ... ةُ أَيُّ خَيْــرٍ لَيُــرْجَى مِنْ بَــوَاقِيْهَــا

= أطلق عن الناس عقدة كلِّ حقد ، واقطع عنك سبب كل وتر ، وتغابَ عن كلِّ ما لا يصحُّ لك ، ولا تعجلنَّ إلى تصديق ساعٍ ، فإنَّ الساعي غاشٌ وإن تشبّه بالناصحين .

ولا تدخلنَّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ، ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور ، فإنَّ البخل والجبن والحرص غرائز شتَّى يجمعها سوء الظن بالله .

إنَّ شرَّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام فلا يكوننَّ لك بطانةً ، فإنَّهم أعوان الأثمة ، وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم ، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ، ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ، ولا آثماً على إثمه ، أولئك أخفُّ عليك مؤونةً ، وأحسن لك معونةً ، وأحنى عليك عطفاً ، وأقلُّ لغيرك ألفاً ، فاتّخذ أولئك خاصَّةً لخلواتك وحفلاتك ، ثمَّ ليكن آثرهم عندك ، أقولهم بمرّ الحقّ لك ، وأقلَّهم مساعدة فيما يكون منك ، مما كره الله لأوليائه ، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع .

والصق بأهل الورع والصدق ، ثمَّ رضهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطلٍ لم تفعله ، فإنّ كثرة الإطراءِ تحدث الزهو ، وتدني من العزَّة .

ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ سواء ، فإنَّ في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءَة ، والزم كلًّا منهم ما ألزم نفسه ، واعلم أنّه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته ، من إحسانه إليهم ، وتخفيفه المؤنات عليهم ، وترك استكراهه إيّاهم ، على ما ليس قبلهم ، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك ، فإنَّ حسن الظن يقطعُ عنك نصباً طويلاً ، وأنَّ أحقَّ من حسّن ظنك به ، لمن حسن بلاؤك عنده ، وأنَّ من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده . ولا تنقض سنةً صالحةً عمل بها صدور هذه الأمّة ، واجتمعت بها الألفة ، وصلحت عليها الرعية ، ولا تحدثنَّ سنةً تضرُّ بشيء من ماضي تلك السنن ، فيكون الأجر لمن سنّها ، والوزر عليك بما نقضت منها . وأكثر مدارسة العلماء ، ومنافثة الحكماء ، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك . =

يَـا وَيْحَكُمْ أَخْبِـرُوْنِي عَنْ مَـوَاقِفِكُمْ   مَـتَى بِـحَقّـِكُمْ كُـنْـتُـمْ مُـحِـلِّيْـهَـا

= واعلم أنَّ الـرعيـة طبقـات ، لا يصلح بعضهـا إلاّ ببعض ، ولا غنى ببعضهـا عن بعضٍ ، فمنها جنود الله ، ومنهـا كتَّابُ العـامة والخـاصة ، ومنهـا قضاة العـدل ، ومنها عمّال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزيـة والخراج من أهـل الذمّـة ومسلمة النـاس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنـة ، وكلٌّ قد سمى الله سهمه ، ووضع على حدّه فريضةً في كتابه أو سنـة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ، عهـداً منه عندنا محفوظاً .

فالجنود بإذن الله حصون الرعية ، وزين الـولاة ، عزُّ الـدين وسبل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلاّ بهم ، ثمَّ لا قوام للجنود إلاّ بما يخرج الله لهم من الخراج الـذي يقوون به في جهاد عدوّهم ، ويعتمدون عليـه فيما يصلحهم ، ويكـون من وراء حاجتهم ، ثمَّ لا قوام لهذين الصنفين إلاّ بالصنف الثالث من القضاة والعمّال والكتّاب ، لما يحكمـون المعاقد ، ويجمعون من المنافع ، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها ، ولا قوام لهم جميعاً إلاّ بالتجار وذوي الصناعات ، فيما يجتمعـون عليه من مـرافقهم ، ويقيمونـه من أسـواقهم ، ويكفونهم من التـرفق بأيـديهم ، ما لا يبلغـه رفق غيرهم ، ثمَّ الـطبقـة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحقُّ رفدهم ومعونتهم ، وفي الله لكلٍّ سعة ، ولكلٍّ على الوالي حقٌّ بقدر ما يصلحه ، وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك ، إلاّ بالإهتمـام والاستعانـة بالله ، وتـوطين نفسه على لـزوم الحقّ والصبر عليـه ، فيما خفَّ عليه أو ثقلَ ، فولِّ من جنودك ، أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامـك ، وأنقـاهم جيبـاً ، وأفضلهم حلمـاً ، ممن يبـطىءُ عن الـغضـب ، ويستـريـح إلى العـذر ،ويرأف بـالضعفاء ، وينبـو على الأقويـاء ، وممن لا يثيره العنف ، ولا يقعـد به الضعف .

ثمَّ الصق بذوي الأحساب ، وأهـل البيوتـات الصالحـة ، والسوابق الحسنـة ، ثمَّ أهـل النجدة والشجـاعة ، والسخـاءِ والسماحـة ، فإنّهم جمـاع من الكرم ، وشُعَب من العرف ، ثمَّ تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالـدان من والدهمـا ، ولا يتفاقمنَّ في نفسـك شيءُ قـويتهم به ، ولا تحقـرنَّ لطفاً تعاهـدتهم به وإن قـلَّ ، فإنّـه داعية لهم إلى بـذل النصيحة لك ، وحسن الظنّ بك ، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكـالاً على جسيمها ، فإنَّ لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه . =

= وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته ، وأفضل عليهم من جدته ، بما يسعهم ويسع من وراءَهم من خلوف أهليهم ، حتى يكون همهم همّاً واحداً في جهاد العدوّ ، فإنّ عطفك عليهم ، يعطف قلوبهم عليك .

وإنَّ أفضل قرَّة عين الولاة ، استقامة العدل في البلاد ، وظهور مودَّة الرعية ، وأنّه لا تظهر مودَّتهم إلاّ بسلامة صدورهم ، ولا تصحُّ نصيحتهم إلاّ بحيطتهم على ولاة أمورهم ، وقلّة استثقال دولهم ، وترك استبطاءِ انقطاع مدتهم ، فافسح في آمالهم ، وواصل في حسن الثناءِ عليهم ، وتعديد ما أبلى ذوي البلاء منهم ، فإنَّ كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهزُّ الشجاع ، وتحرّض الناكل إن شاء الله ، ثمَّ اعرف لكل امرىءٍ منهم ما أبلى ، ولا تضيفنَّ بلاءَ امرىءٍ إلى غيره ، ولا تقصرنَّ به دون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرىءٍ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضعة امرىءٍ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً .

واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ، ويشتبه عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقومٍ أحبَّ إرشادهم ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الله والرسول** ﴾ فالردُّ إلى الله ، الأخذُ بمحكم كتابه ، والردُّ إلى الرسول ، الأخذُ بسنته الجامعة غير المفرّقة .

ثمَّ اختر للحكم بين الناس ، أفضل رعيتك في نفسك ، ممن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى في الزلة ، ولا يحصرُ من الفيءِ إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون أقصاه ، وأوقفهم في الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرُّماً بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم عند اتّضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه اطراءٌ ، ولا يستميله إغراءٌ ، وأولئك قليل ، ثم أكثر تعاهد قضائه ، وافسح له في البذل ما يزيل علته ، وتقلُّ معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ، ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، فانظر في ذلك نظراً بليغاً ، فإنَّ هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار ، يعمل فيه بالهوى ، وتطلب به الدنيا .

ثمَّ انظر في أمور عمّالك ، فاستعملهم اختباراً ، ولا تولهم محاباةً وأثرةً ، فإنّهم =

= جماع من شَعب الجور والخيانة ، وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياءِ ، من أهل البيوتات الصالحة ، والقدم في الإسلام المتقدمة ، فإنّهم أكرم أخلاقاً ، وأصحُّ أعراضاً ، وأقلُّ في المطامع أشرافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثمَّ أسبغ عليهم الأرزاق ، فإنَّ ذلك قوَّة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك ، أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم ، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإنَّ تعاهدك في السرّ لأمورهم ، حدوة لهم على استعمال الأمانة ، والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان ، فإنَّ أحد منهم بسط يده إلى خيانة ، اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، اكتفيت بذلك شاهداً ، فبسطت عليه العقوبة في بدنه ، وأخذته مما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ، ووسمته بالخيانة ، وقلدته عار التهمة .

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإنَّ في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلاّ بهم ، لأنَّ الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك في عمارة الأرض ، أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأنَّ ذلك لا يدرك إلاّ بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلاّ قليلاً ، فإن شكوا ثقلاً أو علةً ، أو انقطاع شرب أو بالة ، أو إحالة أرض اغتمرها غرق ، أو أجحف بها عطش ، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلنَّ عليك شيءٌ خففت به المؤنة عنهم ، فإنّه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك ، وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم ، وتبجحك باستفاضة العدل فيهم ، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم ، والثقة منهم ، بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم ، فربما حدث من الأمور ما إذا عوَّلت فيه عليهم من بعد ، احتملوه طيّبة أنفسهم به ، فإنَّ العمران محتمل ما حملته ، وإنّما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنّما يعوز أهلها اشراف أنفس الولاة على الجمع ، وسوء ظنّهم بالبقاء ، وقلّة انتفاعهم بالعبر .

ثمَّ انظر في حال كتّابك ، فولِ على أمورك خيرهم ، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكايدك وأسرارك ، أجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ، ممن لا تبطره الكرامة ، فيجترىء بها عليك في خلافٍ لك بحضرة ملأٍ ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمّالك عليك ، وإصدار جواباتها على الصواب عنك ، فيما يأخذ لك =

= ويعطي منك ، ولا يضعف عقداً اعتقده لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور ، فإنَّ الجاهل بقدر نفسه ، يكون بقدر غيره أجهل ، ثمَّ لا يكن اختيارك إيّاهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ، فإنّ الرجال يتعرَّفون لفراسات الولاة بتصنعهم ، وحسن خدمتهم ، وليس وراءَ ذلك من النصيحة والأمانة شيءٌ ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك ، فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثراً ، وأعرفهم بالأمانة وجهاً ، فإنَّ ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره ، واجعل لرأس كل أمرٍ من أمورك رأساً منهم ، لا يقهره كبيرها ، ولا يتشتت عليه كثيرها ، ومهما كان في كتّابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته .

ثمَّ استوص بالتجار وذوي الصناعات ، وأوصِ بهم خيراً ، المقيم منهم ، والمضطرب بماله ، والمترفق ببدنه ، فإنّهم مواد المنافعِ ، وأسباب المرافق ، وجلابها من المباعد والمطارح ، في برِّك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ، ولا يجترؤون عليها ، فإنّهم سلم لا تخاف بائقته ، وصلح لا تخشى غائلته ، وتفقد أمورهم بحضرتك ، وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أنَّ في كثير منهم ضيقاً فاحشاً ، وشحّاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكماً في البياعات ، وذلك باب مضرةٍ للعامة ، وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار ، فإنَّ رسول الله ﷺ منع منه ، ولكن البيع بيعاً سمحاً ، بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع ، فمن قارف حكرةً بعد نهيك إيّاه ، فنكل به ، وعاقبه من غير إسراف .

ثمَّ الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم ، والمساكين والمحتاجين ، وأهل البؤسى والزّمنى ، فإنّ في هذه الطبقة قانعاً ومعترّاً ، واحفظ لله ما استحفظك من حقّه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك ، وقسماً من غلّات صوافي الإسلام في كل بلد ، فإنَّ للأقصى منهم مثل الذي للأدنى ، وكلٌّ قد استرعيت حقّه ، فلا يشغلنّك عنهم بطر ، فإنّك لا تعذر بتضييع التافه ، لأحكامك الكثير المهمّ ، فلا تشخص همّك عنهم ، ولا تصعّر خدك لهم ، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون ، وتحقره الرجال ، ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع ، فليرفع إليك أمورهم ، ثمَّ اعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه ، فإنّ هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم ، وكلٌّ ، فاعذر إلى الله في تأدية حقّه إليه ، وتعهد أهل =

فَـاَشْتَدَّ غَيْظُ فَتَى اَلْهَيْجَـاءِ وَهْوَ يَـرَا   هَا تَرْفُضُ اَلنُّصْرَةَ اَلْعُظْمَى وَتُقْصِيْهَا

= اليتم ، وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له ، ولا ينصب للمسألة نفسه ، وذلـك على الولاة ثقيلٌ ، وقد يحفظه الله على أقوام طلبوا العاقبة ، فصبروا أنفسهم ، ووثقوا بصدق موعد الله لهم .

واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرّغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عـاماً ، فتـواضع فيـه لله الذي خلقـك ، وتقعد عنهم جنـدك وأعوانـك من أحـراسـك وشرطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع ، فإنّي سمعت رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في غير موطن ، (لن تقدَّس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقّـه من القويّ غيـر متتعتع) ، ثمَّ احتمل الخرق منهم والعيَّ ، ونحّ عنهم الضيق والأنف ، يبسط الله عليك بذلك أكنـاف رحمته ، ويوجب ثواب طاعته ، وأعط ما أعطيت هنيئاً ، وامنع في إجمال وأعذار .

ثمَّ أمور من أمورك لا بدَّ من مباشرتها ، منها إجابة عمّالك بما يعيـا عنه كتّـابك ، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك ، بما تحرج به صدور أعـوانك ، وأمض لكل يومٍ عمله ، فإنَّ لكل يومٍ ما فيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المـواقيت ، وأجـزل تلك الأقسـام ، وإن كـانت كلّهـا لله ، إذا صلحت فيهـا النيّـة ، وسلمت منها الرعية .

وليكن في خاصة مـا تخلص به لله دينـك ، إقامـة فرائضـه التي هي له خـاصة ، فاعط الله من بدنـك ، وفي ليلك ونهارك ، ووفِ مـا تقرَّبت بـه إلى الله من ذلك كـاملاً غير مثلومٍ ولا منقوص ، بالغاً من بدنك مـا بلغ ، وإذا قمت في صلاتـك للناس ، فـلا تكـوننَّ منفراً ولا مضيعـاً ، فإنَّ في النـاس من بـه العلة ، ولـه الحـاجـة ، وقـد سـألتُ رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين وجّهني إلى اليمن كيف أصلّي بهم ؟ فقـال (صـلِّ بهم كصـلاة أضعفهم ، وكن بالمؤمنين رحيماً) .

وأمّا بعد هذا ، فلا تطولنَّ احتجابك عن رعيتك ، فإنَّ احتجاب الولاة عن الرعيـة شعبة من الضيق ، وقلة علم بالأمـور ، والاحتجاب منهم يقـطع عنهم علم ما احتجبـوا دونـه ، فيصغر عنـدهم الكبير ، ويعـظم الصغير ، ويقبـح الحسن ، ويحسن القبيـح ، ويثابُ الحقُّ بالباطل ، وإنّما الوالي بشر لا يعرف مـا توارى عنـه الناس بـه من الأمور ، وليست على الحق سمـات تعرفُ بهـا ضروب الصـدق من الكـذب ، وإنّمـا أنت أحـد رجلين ، أمّـا امرؤ سخت نفسـك بالبـذل في الحق ، ففيمَ احتجابـك ، من واجب حقّ =

وَأَكْثَـرَ ٱللَّوْمَ وَٱلتَّعْنِيْفَ وَٱحْتَـدَمَ ٱلْـــجِدَالُ مَعْ مَنْ تُلَاحِي مَنْ يُلَاحِيْهَـا

=تعطيه ، أو فعل كريم تسديه ، أو مبتلى بالمنع ، فما أسرع كفُّ النـاس عن مسألتـك ، إذا أيسوا من بَذلِك ، مع أنَّ أكثر حاجات الناس إليك ، مما لا مؤونـة فيه عليـك ، من شكاة مظلمة ، أو طلب إنصاف في معاملة .

ثمَّ إنَّ للوالي خاصة وبطانة ، فيهم استئثار وتطاول ، وقلّة إنصـاف في معاملة ، فـاحسم مـادةَ أولئك بقـطع أسباب تلك الأحـوال ، ولا تقـطعنَّ لأحـد من حـاشيتـك وخاصتك قـطيعةً ، ولا يـطمعنَّ منك في اعتقـاد عقدة تضـرُّ بمن يليها من النـاس ، في شربٍ أو عملٍ مشتـركٍ يحملون مؤونته على غيـرهم ، فيكون مهنـأ ذلك لهم دونـك ، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة .

والزم الحقَّ من لزمه من القريب والبعيـد ، وكن في ذلك صـابراً محتسبـاً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يثقل عينك منه ، فإنَّ مغبّة ذلك محمودة .

وإن ظنّت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرك ، واعدل عنك ظنونهم بأسحارك ، فإنَّ في ذلك ريـاضة منـك لنفسك ، ورفقـاً برعيتـك ، وأعذاراً تبلغ بـه حاجتـك ، من تقويمهم على الحق .

ولا تدفعنَّ صلحاً دعاك إليه عدوُّك ولله فيه رضى ، فإنَّ في الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك ، وأمناً لبـلادك ، ولكن الحذر كـل الحذر من عـدوّك بعد صلحـه ، فإنَّ العدوَّ ربما قارب ليتغفل ، فخذ بـالحزم واتهم في ذلـك حسن الظنّ ، وإن عقـدت بينـك وبين عدوك عقـدةً ، أو ألبسته منـك ذمَّةً ، فحط عهـدك بـالـوفـاءِ ، وارع ذمتـك بالأمانة ، واجعل نفسـك جُنَّة دون مـا أعطيت ، فـإنّه ليس من فـرائض الله شيء الناس أشدُّ عليه اجتماعاً ، مع تفرُّق أهـوائهم ، وتشتت آرائهم ، من تعظيم الـوفاءِ بـالعهود ، وقد لزم ذلك المشركـون فيما بينهم دون المسلمين ، لمـا استوبلوا من عـواقب الغدر ، فلا تغدر بذمتك ، ولا تخيسنَّ بعهـدك ، ولا تختلنَّ عدوُّك ، فـإنّه لا يجتـرىءُ على الله إلاَّ جاهل شقي ، وقد جعل الله عهـده وذمته أمنـاً أفضاه بين العبـاد برحمتـه ، وحريمـاً يسكنون إلى منعته ، ويستفيضون إلى جواره ، فـلا أدغال ولا مـدالسة ولا خـداع فيه ، ولا تعقد عقداً تجوّز فيه العلل ، ولا تعـولنَّ على لحنِ قول بعـد التأكيـد والتوثقـة ، ولا يدعونك ضيق أمرٍ لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغيـر الحق ، فإنَّ صبـرك على =

وَأَوْقَـظَتْ فِتْنَـةٌ شَعْـوَاءُ وَٱلْتَهَبَتْ   نِيْـرَانُهَـا وَعَـلِيٌّ هَـمَّ يُـطْفِـيْـهَـا

= ضيق أمرٍ ترجو انفراجه ، وفضل عاقبته ، خير من غدرٍ تخاف تبعته ، وأن تحيط بك من الله طلبة ، لا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك .

إياك والدماء وسفكها بغير حلّها ، فإنّه ليس شيءٌ أدعى لنقمة ، ولا أعظم لتبعة ، ولا أحرى لزوال نعمة ، وانقطاع مدة ، من سفك الدماءِ بغير حقها ، والله سبحانه مبتدىءٌ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة ، فلا تقوينَّ سلطانك بسفك دمٍ حرامٍ ، فإنَّ ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله وينقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندي ، في قتل العمد ، لأنَّ فيه قود البدن ، وإن ابتليت بخطأ ، وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بعقوبة ، فإنَّ في الوكزة فما فوقها مقتلة ، فلا تطمحنَّ بك نخوة سلطانك ، عن أن تؤدّي إلى أولياءِ المقتول حقّهم .

وإيّاك والإعجاب بنفسك ، والثقة بما يعجبك منها ، وحبَّ الإطراء ، فإنّ ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ، ليمشق ما يكون من إحسان المحسنين .

وإيّاك والمنَّ على رعيتك بإحسانك ، أو التزيد فيما كان من فعلك ، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك ، فإنَّ المنَّ يبطل الإحسان ، والتزيد يذهب بنور الحق ، والخلف يوجب المقت عند الله والناس ، قال الله تعالى : ﴿ **كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ .

وإيّاك والعجلة بالأمور قبل أوانها ، أو التسقط فيها عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت ، أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كل أمر موضعه ، وأوقع كل أمر موقعه .

وإيّاك والإستئثار بما الناس فيه أسوة ، والتغابي عمّا تعنى به ممّا قد وضح للعيون ، فإنّه مأخوذ منك لغيرك ، وعمّا قليل تنكشف عنك أغطية الأمور ، ويُنتصف منك للمظلوم ، أملك حمية أنفك ، وسورة حدّك ، وسطوة يدك ، وغرب لسانك ، واحترس من كل ذلك ، بكفّ البادرة ، وتأخير السطوة ، حتى يسكن غضبك ، فتملك الاختيار ، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك ، بذكر المعاد إلى ربّك .

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدّمك ، من حكومة عادلة ، أو سنّة فاضلة ، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، أو فريضة في كتب الله ، فتقتدي بما شاهدت مما =

فَصَاحَ بِٱلْقَوْمِ لَا تُعْطُوْا نُفُوْسَكُمْ أَهْوَاءَهَا حَسْبُهَا مُؤْذِي تَلَاحِيْهَا
فَقَالَ مَالِكُ: بَادِرْ بِٱلصُّفُوْفِ أَمِيْـــرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى ٱلْأَعْدَا لِتُرْدِيْهَا
فَصَاحَتِ ٱلنَّاسُ: رَاضِيْ ٱلْمُرْتَضَى بِحُكُوْ مَةِ كِتَابُ إِلٰهِ ٱلْعَرْشِ قَاضِيْهَا
ثُمَّ تَوَالَى صِيَاحُ ٱلنَّاسِ: إِنَّ أَمِيْــرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ آرْتَضَاهَا لَا تُؤَنِّبْهَا
وَكَانَ حَيْدَرَةٌ وَسْطَ ٱلْمَشَاغِبِ فِيْ حَالٍ مِنَ ٱلْهَمِّ هَالَتْ قَلْبَ رَائِيْهَا
فَلَمْ يَفُهْ وَهْوَ سَاهٍ سَاكِتٌ يَتَرَ وَّى بِٱلْحُكُوْمَةِ يُلْفِيْ ٱلْمَكْرَ غَاشِيْهَا
حَتَّى إِذَا خَفَتَتْ صَيْحَاتُهَا نَهَضَ ٱلْإِ مَامُ يَخْطُبُ فِيْهَا وَهْوَ رَانِيْهَا
فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَمْرِيْ لَمْ يَزَلْ مَعَكُمْ كَمَا أُحِبُّ بِكُمْ نَفْسِيْ أُهَنِّيْهَا
إِلَى مَوَاقِفِنَا ذَا ٱلْيَوْمَ حَيْثُ رَأَيْــنَا ٱلْحَرْبَ قَدْ أَكْثَرَتْ فِيْكُمْ أَضَاحِيْهَا
وَإِنْ تَكُنْ أَخَذَتْ ذِيْ ٱلْحَرْبُ مِنْكُمُ لَــكِنْ فِيْ عِدَاتِكُمُ أَرْبَى تَقَصِّيْهَا
قَدْ أَنْهَكَتْهَا وَأَنْكَتْ فِيْ جَمَاعَتِهَا وَخَلَّفَتْهَا يَخَافُ ٱلْقَهْرَ طَاغِيْهَا
أَنَا عَلَيْكُمْ قَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيْــرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ وَآمَالِيْ أُجَرِّيْهَا
فَصِرْتُ ذَا ٱلْيَوْمَ مَأْمُوْرَاً أُنَفِّذُ أَطْــمَاعَاً لَكُمْ وَأَمَانِيكُمْ أُوَاتِيْهَا
إِنَّ ٱلْبَقَاءَ لَقَدْ أَحْبَبْتُمُ وَأَنَا مَا عُدْتُ أَمْنَعُ عَنْ رُغْبَى مُحِبِّيْهَا

= علمنا به فيها، وتجتهد لنفسك في اتّباع ما عهدت إليك في عهدي هذا، واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك، لكيلا تكون لك علة عند تسرّع نفسك إلى هواها.

وأنا أسأل الله، بسعة رحمته، وعظيم قدرته، على إعطاء كل رغبة، أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه، من الإقامة على العذر الواضح إليه، وإلى خلقه، مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، إنا لله وإنّا إليه راجعون، والسلام على رسول الله صلّى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين، وسلّم تسليماً كثيراً والسلام اهـ.

وَلَمْ يُزِدْ فَوْقَ هٰذَا ٱلْمُرْتَضَى فَكَفَى ... بِـهِ ٱلْخُصُوْمَـةَ بَـاغِيْهَـا وَآبِيْهَـا
وَأَبْـدَتِ ٱلْـقَـوْمُ آرَاءً مُـنَـوَّعَـةً ... هَيْهَـاتَ مَـا جُلِيَتْ عَنْهَـا غَـوَاشِيْهَـا
نَمَّتْ عَلَى فِـرْقَـةٍ بِـٱلـرَّأْيِ مُفْضِيَـةٍ ... إِلَى بُلُوْغِ ٱلْعِـدَى أَقْصَى أَمَـانِيْهَـا

الرضـاء بالتحكيـم

وَبَيْنَمَا ٱلنَّاسُ فِيْ هٰذَا ٱلتَّضَارُبِ بِٱلآ ... م رَاءِ مِنْ غَيْـرِ أَنْ يَـرْفَضَّ نَـادِيْهَـا[1]
وَإِذْ بِصَـائِحِ أَهْـلِ ٱلشَّامِ يَـطْلُبُهَـا ... إِلَى ٱلْحُكُـوْمَةِ يَسْتَهْـوِيْ مُـرِيْـدِيْهَـا

---

(١) وبينما كان الشغب على أشدّه بين أصحاب سيدنا علي عليه السلام وإذ برسول من قبل معاوية قدم عليه برقعة منه فيها يقول : « أمّا بعد ، فإنَّ هذا الأمر قد طال بيننا وبينك ، وكلٌّ واحدٍ منّا يرى أنّه على الحق فيما يطلب من صاحبه ، ولن يعطي واحد منا الطاعة للآخر ، وقد قتل فيما بيننا بشرٌ كثير ، وأنا أتخوّف أن يكون ما بقي أشدَّ مما مضى ، وأنّا سوف نسأل عن هذه المواطن ، ولا يُحاسب غيري وغيرك ، وقد دعوتك إلى أمرٍ لنا ولك فيه حياة وعذر ، وبراءة وصلاح للأمّة ، وحقن للدماء ، وألفة للدين ، وذهاب للضغائن والفتن ، وذلك أن نحكّم بيني وبينك حكمين مرضيين ، أحدهما من أصحابي ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بيننا بما أنزل الله ، فهو خير لي ولك ، وأقطع لهذه الفتن ، فاتّقِ الله فيما دعيتَ إليه ، وارضَ بحكم القرآن ، إن كنت من أهله ، والسلام » اهـ .

قرأ المرتضى عليه السلام كتاب معاوية جهراً على الناس فازدادت به إصراراً على طلب التحكيم وأرغت وأزبدت على من لا يريده حتى تغلب رأي الذين يريدونه على رأي الذين يرفضونه حينئذٍ حوقل عليه السلام واسترجع وكتب إلى معاوية هذا الجواب « من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان ، أمّا بعد ، فإنَّ أفضل ما شغل به المؤمن نفسه ، اتّباع ما حسن به فعله ، واستوجب فضله ، وسلم من عيبه ، وإنَّ البغي والزور يزريان بالمرء في دينه ودنياه ، فاحذر الدنيا ، فإنّه لا فرح في شيءٍ وصلت إليه منها ، ولقد علمت أنّك غير مدرك ما قضى فواته ، وقد أقام قوم أمراً بغير الحق ، وتأوّلوه على الله جلَّ وعزَّ ، فأكذبهم ، ومتعهم قليلاً ثمَّ اضطرّهم إلى عذابٍ غليظ ، فاحذر يوماً يغتبط فيه من حمد عاقبة عمله ، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده ، وغرّته الدنيا =

بِـرُقْعَةٍ كَـانَ مُـوْفِيْهَـا مُعَـاوِيَـةٌ   إِلَى آلْـوَصِيِّ يُرِيْـدُ آلْكَيْـدَ مُـوْفِيْهَـا

يَقُـوْلُ : بَـادِرْ عَلِيُّ لِلْحُكُـوْمَـةِ كَيْ   نَكْفِيْ آلْبَـرِيَّـةَ أَهْـوَالاً تُعَـانِيْهَـا

وَأَنْتَ أَفْضَـلُ مَنْ يَتْقِيْ أَوَامِـرَ بَـا   رِيْـهِ أَلَيْسَ حَـرِيٌّ أَنْ تُـؤَاتِيْـهَـا

وَأَنْتَ مِثْلِيَ مَسْـؤُوْلٌ وَحقّـكَ عَـنْ   هٰـذِيْ آلدِّمَـاءِ آلَّتِيْ بِآلـظُّلْمِ نُمْنِيْهَا

أَسْرِعْ إِلَى دَعْوَةٍ قَـدْ جِئْتُ أَنْشُدُهَـا   فَـآلصَّفْـوُ مَـا بَيْنَنَـا لاَ شَـكَّ تَـالِيْهَـا

وَآقْبَـلْ قُبُوْلِيَ أَحْكَـامَ آلشَّرِيْعَـةِ وَهْـــيَ آلْعَدْلُ إِنْ كُنْتَ حَقّاً مِنْ أَهَـالِيْهَا

وَعِنْـدَمَا كَـانَ يَقْرَا آلْمُـرْتَضَى عَلَنـاً   تِلْكَ آلـرِّسَـالَـةَ يَسْتَجْلِيْ خَـوَافِيْهَـا

كَـانَتْ صَحَابَتُـهُ تُـرْغِيْ وَتُـزْبِـدُ مِنْ   حَـوْلَيْـهِ قَـائِلَةً: مَـا آلْحَـرْبُ نَبْغِيْهَـا

وَقَدْ أَصَرَّتْ بِـلاَ فِكْرٍ عَلَى طَلَبِ آلــــتَّحْكِيْمِ لَمْ يَـكُ مَنْ يُثْنِيْ مُصِرِّيْهَـا

وَقَـدْ تَغَلَّبَ رَأْيُ آلْقَـائِلِيْـنَ بِهِـدْ   نَـةِ آلشَّـآمِ عَلَى مَنْ لَيْسَ رَائِيْهَـا

فَحَـوْقَلَ آلْمُـرْتَضَى وَآلنَّاسُ تُكْـرِهُهُ   عَلَى مُسَـايَـرَةِ آلأَعْـدَاءِ تَكْـرِيْهَـا

وَخَطَّ أَسْـطُرَهُ فِيْهَـا يُـجِيْـبُ عِـدَا   هُ لِلْحُكُـوْمَـةِ كُـرْهـاً وَهْـوَ آبِيْهَـا

فَقَالَ: يَا آبْنَ أَبِيْ سُفْيَانَ أَفْضَلُ مَا آلإِ م نْسَـانُ يَشْغَـلُ فِيْـهِ آلنَّفْسَ يُـرْبِيْهَـا

هَـوَ آتِّبَـاعُ آلَّـذِيْ يَحْلُوْ وَيَحْسُنُ مِنْ   خَيْـرِ آلْفِعَـالِ بِـهِ يَعْنَـا لِيَـأْتِيْهَـا

بِهَـا لَقَـدْ يَتَبَـدَّى فَضْلُهُ وَعُيُـوْ   بُـهُ وَإِنْ كَثُـرَتْ حَتْمـاً تُـوَارِيْهَـا

وَآلْبَغْيُ وَآلزُّوْرُ فَآعْلَمْ يُـزْرِيَانِ بِدِيْـــنِـهِ وَدُنْيَـاهُ وَآلآثَـامُ يَجْنِيْـهَـا

= واطمأنّ إليها ، ثمَّ أنّك قد دعوتني إلى حكم القرآن ، وقد علمتُ أنّك لست من أهله ، ولا حكمه تريد ، والله المستعان ، ولقد أجبنا القـرآن إلى حكمه ، ولسنـا إيّاك أجبنـا ، ومن لم يرضَ بحكم القرآن فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً ، والسلام » اهـ .

وعلى أثر هذا الكتاب والجواب تفاهم الفريقان على اختيار نوّاب عنهم يتذاكرون بتعيين الحكمين للوصول إلى الصلح على ما سترى . .

حَذَارِ دُنْيَاكَ مَا مِنْهَا وَصَلْتَ إِلَيْـــهِ مَا بِهِ فَرَحٌ وَٱزْهَدْ مَلاَهِيْهَا
وَقَدْ عَلِمْتَ مُنَاكَ ٱلْكُثْرَ ضَائِعَةً وَبَعْدَ يَوْمِكَ أَبْعِدْ أَنْ تُلاَقِيْهَا
وَإِنَّ قَوْمَاً بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ قَدْ طَلَبَتْ أَمْرَاً وَطَلْبَتُهَا هَيْهَاتَ تُلْفِيْهَا
لَهُ تَأَوَّلَتِ ٱلْكِذْبَ ٱلصُّرَاحَ عَلَى ٱلْـــبَارِي وَآيَاتِهِ قُلْ جَلَّ مُوْحِيْهَا
وَٱللَّهُ أَكْذَبَهَا وَٱلْبُطْلُ مَتَّعَهَا هَوْنَاً بِمَا شَهِيَتْهُ مِنْ أَمَانِيْهَا
فَٱضْطَرَّهَا لِعَذَابَاتِ ٱلْجَحِيْمِ وَيَا وَيْلٌ لِمَنْ فِيْ مَسَاوِيْهِ يُلاَقِيْهَا
فَٱحْذَرْ مَوَاقِفَ يَوْمٍ لاَ ٱغْتِبَاطَ بِهِ إِلَّا لِمَنْ حُمِدَتْ أَعْمَالُهُ فِيْهَا
إِذْ ذَاكَ يَنْدَمُ مَنْ أَلْقَى ٱلْقِيَادَ إِلَى ٱلـــشَّيْطَانِ يُنْفِذُ أَغْرَاضَاً يُوَخِّيْهَا
إِذِ ٱطْمَأَنَّ إِلَى ٱلدُّنْيَا وَغُرَّ بِهَا وَبَاتَ مُزْدَرِيَ ٱلْأُخْرَى وَنَاسِيْهَا
لِحُكْمِ آيَاتِ رَبِّيْ قَدْ دَعَوْتَ وَأَدْ رِيْ لَسْتَ مِنْ أَهْلِهَا بَلْ لَسْتَ تَبْغِيْهَا
فَٱللَّهُ سُبْحَانَهُ عَوْنِيْ عَلَيْكَ وَمَا مَعُوْنَةُ ٱللَّهِ غَيْرُ ٱلْبِرِّ يَقْنِيْهَا
وَمَا أَجْبَنَاكَ كَلَّا يَا مُعَاوِيَةُ بَلْ آيُهُ عَنْ تُقَىً بِتْنَا مُجِيْبِيْهَا
وَمَنْ أَبَى حُكْمَ آيِ ٱللَّهِ ضَلَّ وَمَنْ بِهِ ٱرْتَضَى فَهْوَ خَيْرُ ٱلنَّاسِ تَاقِيْهَا
وَبَعْدَ ذَاكَ بَدَا حُسْنُ ٱلتَّفَاهُمِ مَا بَيْنَ ٱلْخُصُوْمِ عِرَاقِيْهَا وَشَامِيْهَا
وَقَدْ أَنَابَتْ لِتَنْفِيْذِ ٱلْحُكُوْمَةِ عَنْـــهَا نَوْبَةً قَالَتِ ٱلْقُرْآنُ يَهْدِيْهَا

تعيين الحكمين

وَفِيْ ٱلْمُوَادَعَةِ ٱلْكُبْرَى تَوَسَّطَ أَشْـــعَثُ لِتَجْرِيْ صَفَاءً فِيْ مَجَارِيْهَا[1]
فَكَانَ يُظْهِرُ إِخْلَاصَاً لِحَيْدَرَةٍ وَإِنَّ أُمْرَتَهُ يَبْغِيْ تَعَالِيْهَا

---

(١) عندما تمَّ التفاهم بين سيدنا علي ومعاوية وأقرَّ أصحابهما على التحكيم تقدم الأشعث من أمير المؤمنين عليه السلام وكان من جملة أصحابه وقال له : يا أمير المؤمنين ، ما=

= أرى الناس إلاَّ قد رضوا ، وسرَّهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن ، فإن شئت أتيتُ معاوية فسألته ما يريد ، ونظرتُ فيما يسأل . قال : آتـه إن شئت . فسار الأشعث إلى معاوية وهو في معسكره وسأله قـائلاً : لمـاذا رفعتم هذه المصـاحف ؟ قال معاوية : لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به ، فابعثوا رجلاً منكم تـرضونه بـه ، ونبعث منّا رجلاً ، ونأخذُ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله ، ولا يعـدوانه ، ثمَّ نتبع ما اتفقـا عليه . فقال الأشعث : هذا هو الحقّ ، ولكن ألا ترى أن تعتمد على قوم من فقهائنـا ، يختـارون من ينوب عنّـا ، وتفعلون أنتم كذلـك ؟ قال معـاوية : لا بـأسَ بهـذا . فعـاد الأشعث إلى أميـر المؤمنين وأنبـأه بمـا كـان من أمـره مـع معـاويـة فلم يعـارض وسمّى أصحاب سيدنا علي نفراً من فقهائهم وأرسلوا إلى معاوية فسمّى هو أيضاً نفراً من فقهـاء أصحابه وأطلق على هؤلاء وأولئك اسم القرّاء أي الذين يقرأون القرآن ويلمّون بأحكامه واجتمع هؤلاء القراء عراقيهم وشاميهم بين الصفوف ومعهم المصحف الشريف فنـظروا فيه وتدارسوا وتعهدوا على إحيـاء ما أحيـا القرآن وإمـاتة مـا أمات القـرآن وأقسموا على المصحف الشريف ورجع كلّ فريق من هؤلاء القرّاء إلى صاحبه .

أمّـا قرّاء الشـام فنادوا بعمـرو بن العاص حكمـاً عنهم فرضيه معاويـة بل قـل إنَّ معاوية كان الموعز إليهم به وكان ذلك في حال وصولهم إلى معاوية كأنّهم متفقون عليـه من قبل وطار خبره في الحال إلى أميـر المؤمنين . وأمّا قـرّاء العراق فـإنّهم عندمـا بلغوا مجلس أميـر المؤمنين عليه السلام نـادوا بـاسم أبي مـوسى بن قيس الأشعـري حكمـاً ينـوب عنهم . فقال علي : إنّي لا أرضى بأبي موسى ولا أرى أن أوليه فقـال الأشعث وزيد بن الحصين ومسعر بن فدكي في عصابة من القرّاء إنّا لا نرضى إلاَّ به فـإنّه قـد كان حـذّرنا مما وقعنا فيه . فقال علي إنّه ليس لي برضى وقد فارقني وخذل الناس عنّي وهـرب مني حتى أمنته بعد خمسة أشهر (وذلـك بعد انتهـاء موقعـة الجمل وذهـاب سيدنـا علي من البصرة إلى الكوفة) ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك . قالوا والله ما نبـالي أكنتَ أنتَ أو ابن عباس ولا نريد إلاَّ رجلاً هو منك ومن معاوية سـواء ليس إلى واحد منكمـا أدنى من الآخـر . قـال علي فـإنّي أجعـل الأشتـر . فقـال الأشعث وهـل سعـر الأرض علينـا إلاَّ الأشتر ؟ وهل نحن إلاّ في حكم الأشتر ؟ قال علي ومـا حكمه ؟ قـال الأشعت ، حكمه أن يضـرب بعضنـا بعضـاً بـالسيف حتى يكـون مـا أردتَ ومـا أراده فتبسم سيـدنـا أميـر =

فَقَالَ: إنْ شِئْتَ سِرْ يَا صَاحِ فَٱنْصَرِفَ ٱلْوَ   سِيْطُ نَحْـوَ ٱلْأَعَـادِيْ فِيْ مَثَاوِيْهَـا[1]

= المؤمنين وقال : إنَّ معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحداً هو أوثق برأيه ونظره من عمرو بن العاص وأنّه لا يصلح للقرشي إلّا مثله فعليكم بعبد الله بن العباس فارموه به ، فإنَّ عمراً لا يعقد عقدةً إلّا حلّها عبد الله ، ولا يحلُّ عقدةً ، إلّا عقدها ، ولا يبرم أمراً إلّا نقضه ، ولا ينقض أمراً إلّا أبرمه . فقال الأشعث لا والله لا يحكم فينا مضريان حتى تقوم الساعة ، ولكن نجعل رجلاً من أهل اليمن إذ جعلوا رجلاً من مضر . فقال علي إنّ أخاف أن يُخدع يمنيكم فإنّ عمراً ليس من الله في شيء ، إذا كان له في أمر هوى . فقال الأشعث والله لئن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن أحبُّ إلينا من أن يكون بعض ما نحبُّ في حكمهما وهما مضريان . فقال أمير المؤمنين عليه السلام وهو يجيل عينيه الكريمتين فيمن حوله من القرّاء قد أبيتم إلّا أبا موسى الأشعري ؟ قالوا نعم . قال فاصنعوا ما شئتم . فاعترضهم الأشتر وقال يا أمير المؤمنين الزنيّ عمرو بن العاص فوالذي لا إلّه غيره لئن ملأت عيني منه لأقتلنه . وقال الأحنف بن قيس : يا أمير المؤمنين إنّك رُميتَ بحجر الأرض ، ومن حارب الله ورسوله ، وأنف الإسلام ، وإنّي قد عجنت هذا الرجل ، (ويريد أبا موسى) وحلبت أشطره ، فوجدته كليل الشفرة ، قريب المقعر ، وإنّه لا يصلح لهؤلاء القوم إلّا رجل يدنو منهم حتى يكون في أكفهم ، ويتباعد عنهم حتى يكون بمنزلة النجم منهم ، فإن شئت أن تجعلني حكماً فاجعلني ، وإن شئت أن تجعلني ثانياً أو ثالثاً ، فإنَّ عمراً لا يعقد عقدةً إلّا حللتها ، ولا يحلّ عقدةً إلّا عقدت لك أشدَّ منها . فعرض سيدنا علي هذا على القرّاء فأبوه وقالوا لا يكون حكمنا إلّا أبا موسى . فقال سيدنا أمير المؤمنين موجهاً خطابه إلى الأشتر وحنيف بن قيس : إنّ القوم أتوني بعبد الله بن قيس مبرنساً فقالوا ابعث هذا رضينا به والله بالغ أمره . قال عليه السلام هذا ومال للقرّاء قائلاً : ائتوني بصاحبكم .

وكان أبو موسى معتزلاً القتال منزوياً بإحدى جهات الشام فبعثوا إليه رسولاً فأسرع إلى صفّين فأبلغه سيدنا علي وقوع اختيار أصحابه عليه وطلب منه أن يكون عند ظنّهم به فأقسم أن يكون صادقاً مخلصاً لا يحكم إلّا بما يحكم به القرآن .

ومن تأمّل هذا عرف حال أصحاب سيدنا علي وما كانوا عليه من شتات الرأي فلا عجب إذا وقع اختيارهم على رجل أقلّ ما يقال فيه أنّه كان معتزلهم وهم يقاتلون . كما=

لَاقَى مُعَـاوِيَـةً فِيْهَـا وَأَنْبَـأَ وَآسْـــتَنْبَـا وَجَـاءَ ذَوِيْـهِ وَهْـوَ مُنْبِيْهَـا

=لا بدَّ لنا من الإشارة إلى أنّ القوم كانوا يحاولون أن لا يدعوا السلطان في قريش وكانت فكرتهم هذه هي التي أوجدت في نفوسهم الرغبة بأبي موسى كما نقول إنّ هؤلاء الذين أصرّوا على اختيار أبي موسى الأشعري لهذه المهمة هم زعماء الخوارج الـذين خرجـوا فيمـا بعد على أميـر المؤمنين بحجّة أنّـه رضي بالتحكيم ورضي بـأبي موسى الأشعـري حكماً مع أنّهمَ هم الذين أكرهوه على كل ذلك إكراهاً والأمر لله من قبل ومن بعد .

« ترجمـــة الأشـــعث »

هـو أبـو محمـد معـدي كـرب الملقب بـالأشعث بن قيس بن معـدي كـرب بن معـاويـة بن جبلة بن عـدي بن ربيعـة بن الحـارث بن معـاويـة بن الحـارث الأصغـر بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مرتّع بن معاويـة بن ثور بن عفيـر الكندي الصحابي . وأمّه كبشة بنت يزيد بن شرحبيل بن يزيد بن امرىء القيس بن عمرو مقصور الملك .

عـرفنا الأشعث في الجـاهلية شجـاعاً نبيـلاً وحـدث أنَّ بني مـراد قتلوا قيسـاً أبـا الأشعث في بعض حروبهم فخرج الأشعث لـطلب ثأر أبيـه وخرجت معـه كندة فـاخطوا أعـداءَهم بني مـراد ووقعـوا على بني الحـارث بن كعب فـدارت الـدائـرة عليهم وأسـر الأشعث وافتدى نفسه إذ كان غنياً بثلاثة آلاف بعيراً وهي فدية عظيمة لم يفد بهـا عربي قبله ولا بعده فقال في ذلك عمرو بن معدي كرب الزبيدي :

فـكـــان فـداؤه ألـفـي بـعـيـرٍ   وألـفـــاً مـن طـريـقـاتٍ وتـلـدِ

وحدث أنّ كندة قـدموا حجـاجاً قبـل الهجرة فعـرض رسول الله نفسـه عليهم كما كانت عادته صلى الله عليه وآله وسلم يعرض نفسه على القبائـل فدفعـه بنو وليعـة من بني عمرو بن معـاوية ولم يقبلوه فلما هاجر إلى المدينة المنوَّرة وتمهَّدت دعوته وجاءَته وفود العـرب كان فيهم وفد كندة وفيهم بنو وليعة فأسلموا فأطعمهم رسول الله طعمةً من صدقـات حضرمـوت . وكان قد استعمـل المصطفى على حضـرموت زيـاد بن لبيد البيـاضي الأنصاري فـدفعها زياد إليهم فأبوا أخذها وقالوا لا ظهر لنا فابعث بها إلى بلادنـا على ظهر من عنـدك فأبى زياد وحدث بينهم وبينه شرٌّ كاد يكون حرباً . فرجع قوم منهم إلى رسول الله وكتب زياد إليه صلى الله عليه وآله وسلم بما جرى فقال المصطفى لبني وليعة « لتنتهنَّ يـا بني وليعة ، أو لأبعثنَّ عليكم=

أَنَّ ٱلشَّـآمَ تُـوَلِّيْ أَمْـرَهَـا نَـفَـراً مِنْهَـا لِتَخْتَارَ فِيْ ٱلتَّحْكِيْمِ قَـاضِيْهَـا

=رجلاً عديل نفسي ، يقتل مقاتلكم ، ويسبي ذراريكم » وكان في مجلس المصطفى وقتئذٍ عمر بن الخطاب وقد روى هذه الحادثة فقال : « فما تمنيت الأمارة إلّا يومئذٍ ، وجعلت أنصب له صدري ، رجاء أن يقول هو هذا ، فأخذ بيد علي عليهما الصلاة والسلام وقال : هو هذا » ثمَّ كتب لهم رسول الله كتاباً إلى زياد يحسم المشكلة . وكان في جملة وفد كندة الأشعث فأسلم معهم .

وعندما توفي المصطفى ﷺ وطار الخبر إلى قبائل العرب ارتدت بنو وليعة عن الإسلام وتحنَّث بغاياهم وخضبن أيديهنَّ شماتة بموته فأمّر أبو بكر زياداً على حضرموت وأمره بأخذ البيعة على أهلها واستيفاء صدقاتهم فبايعوه إلاَّ بني وليعة فلمّا خرج ليأخذ الصدقات من بني عمرو بن معاوية أخذ ناقةً لغلام منهم يعرف بشيطان بن حجر فمنعه الغلام عنها وقال له خذ غيرها فأبى زياد ذلك ولجَّ فاستغاث شيطان بأخيه العداء بن حجر وانتهى الخلاف إلى إعلان بنو وليعة ردّتهم ومحاربة زياداً وأصحابه فقتل خلق كثير وكانت الغلبة للمسلمين واستغاث بنو وليعة بالأشعث فقال لا أغيثكم إلّا إذا ملكتموني عليكم فملّكوه وتوَّجوه كما تتوَّج ملوك قحطان فخرج إلى زياد في جمع كثيف واستنجد زياد بأبي بكر فكتب هذا إلى مهاجر بن أبي أمية وكان عامله على صنعاء يأمره بنجدة زياد فأسرع إلى حضرموت وأنجد زياداً وحارب الأشعث وأصحابه وقهرهم ولجأ الأشعث ومن سلم من أصحابه إلى الحصن المعروف « بالنجير » فحاصرهم المسلمون حصاراً شديداً حتى جاعوا وضعفوا فنزل الأشعث ليلاً إلى زياد ومهاجر وسألهما الأمان على نفسه مع عشرة من أصحابه حتى يقدما بهم على أبي بكر فأعطياه الأمان له ولمن طلب فسلمهما الحصن فدخلاه بالمسلمين وقالوا للأشعث أعزل أصحابك العشرة فعزلهم وقتلوا الباقين وكانوا ثمانماية وقطعوا أيدي النساء اللواتي أظهرن الشماتة بموت رسول الله وحملوا الأشعث إلى أبي بكر مصفداً بالحديد مع أصحابه العشرة فعفا عنه وعنهم . وأزاد أبو بكر في إكرام الأشعث وتأليف قلبه فأزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة وكانت عمياء فولدت له محمداً واسماعيل وإسحاق قالوا وخرج الأشعث يوم بنائه على أمّ فروة إلى أسواق المدينة فما مرَّ بذات أربع إلاَّ عقرها وقال لصاحبها هذه وليمة البناء وثمنها في مالي ودفع أثمانها إلى أربابها . وقال أبو جعفر محمد بن جرير في تاريخه وكان المسلمون يلعنون الأشعث ويلعنه الكافرون أيضاً وتلعنه سبايا قومه وسماه نساء قومه « عرف النار » وهو إسم للغادر عندهم . =

= واعتمد أبو بكر على الأشعث في حروبه وكذلك عمر بن الخطاب لأنّه كان باسلاً شجاعاً فشهد وقعة اليرموك في الشام ومواقع القادسية والعراق والمدائن وجلولاء ونهاوند وأبلى فيها البلاء الحسن وذلك على عهد عمر بن الخطاب .

وعندما أفضت الخلافة إلى عثمان ولّاه آذربيجان وكان له من خراجها ألف درهم سنوياً ثمَّ عزله عنها بعد سنوات وكان قد أثرى فانتقل إلى الكوفة وسكنها على أنه ظلّ على ولاء الأمويين فلم يشترك في ثورة الكوفيين ضد عثمان ولا اشترك في حرب الجمل بل تثاقل عنها . وقد انضمَّ إلى سيدنا أمير المؤمنين عندما دخل الكوفة بعد حرب الجمل وأصبح من رجاله واشترك معه في حرب صفين وكان له في استخلاص الماء من رجال معاوية شجاعة وعزيمة تحمدان كما حارب رجال معاوية بعد ذلك بإخلاص حتى إذا ما رفعت المصاحف كان على رأس القائلين بضرورة إجابة أهل الشام إلى التحكيم وعرض نفسه للوساطة بين سيدنا أمير المؤمنين ومعاوية وهو الذي أوجد فكرة تعيين أبي موسى الأشعري حكماً عن أهل الشام وكان على رأس القائلين به وذلك لأنّه يمانيٌّ مثله على أنّه كان في مقدمة النادمين على هذا الخطأ العظيم الذي ارتكبه أصحاب سيدنا علي بانتخاب أبي موسى وإكراه سيدنا علي عليه السلام على قبوله . وحضر الأشعث اجتماع دومة الجندل ثم عاد بعد ظهور حيلة عمرو بن العاص إلى الكوفة وهو ناقم على أهل الشام وعلى التحكيم وعلى كل ما جرى وقتئذٍ فجرَّ ما جرَّ من القلاقل والفتن على المسلمين فبرهن على أنّه كان من المنافقين أولاً وأخيراً .

ومما يذكر أنّ سيدنا أمير المؤمنين بينما كان مرةً في المسجد يخطب في موقعة صفين وأمر الخوارج يقلق خاطره الشريف ويزعجه أيّما إزعاج قام رجل من أصحابه وقال له نهيتنا عن الحكومة ثمَّ أمرتنا بها فما ندري أي الأمرين أسدُّ . فصفق عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى وقال : « هذا جزاء من ترك العقدة » وأراد بقوله الشريف بالذي ترك العقدة جماعة المشاغبين الذين أصرّوا على قبول التحكيم ورفضوا قبول نصحه . وكان في المسجد الأشعث فحسب أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد بقوله نفسه بأنّه هو الذي ترك العقدة فنال جزاءَه وصاح : « يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك » فغضب عليه السلام وخفض إليه بصره وقال : « ما يدريك ما عليَّ ممَّا لي عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ، حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرَّةً ، =

وَقَالَ ذِيْ ٱلْفِكْرَةُ ٱلْحَسْنَاءُ صَالِحَةٌ ... لِذِيْ ٱلْحُكُومَةِ أَخْلَقْ أَنْ نُؤَاتِيْهَا

فَلَمْ يُعَارِضْ عَلِيٌّ فِكْرَةً بَدَرَتْ ... مِنِ ٱبْنِ صَخْرٍ وَنَادَاهُ: أُجَارِيْهَا

وَبَعْدَ ذَا صَحْبُهُ مَعْ صَحْبِ صَاحِبِهِ ... سَمَّتْ بِغَيْرٍ وَبِى جَهْرَاً مُنَابِيْهَا

دَعُوْا ٱلْمُنَابِيْنَ بِٱلْقُرَّاءِ إِنَّهُمُ ... كَانُوْا خِيَارَ ٱلْوَرَى عِلْمَاً وَتَفْقِيْهَا

وَعِنْدَ مَا ظَهَرُوْا بَيْنَ ٱلصُّفُوْفِ تَلَا ... آيَ ٱلْكِتَابِ مَعَ ٱلْإِخْبَاتِ تَالِيْهَا

وَبَعْدَ ذٰلِكَ سَمَّتْ عَمْرَوَ نَائِبَهَا ... جَمَاعَةُ ٱلشَّامِ لِٱسْتِرْضَا مُعَاوِيْهَا

وَٱلْأَشْعَرِيُّ أَنَابَتْهُ صِحَابُ عَلِيٍّ ... وَهْوَ قَدْ كَانَ عَنْ جَفْوٍ مُنَابِيْهَا

قَدْ كَانَ مُعْتَزِلاً صِفِّيْنَ مُبْتَعِدَاً ... عَنْ حَرْبِهَا تَارِكَاً كُلَّ ٱلْأُلَى فِيْهَا

وَمَا نَسِيْنَا لَهُ مَاضِيْ فَعَائِلِهِ ... فِيْ كُوْفَةٍ عِنْدَ مَا قَدْ كَانَ وَالِيْهَا

وَمَا خِلَافَةُ مَوْلَانَا أَبِيْ حَسَنٍ ... يَوْمَاً لَقَدْ حَسِبَتْهُ مِنْ مُعِيْنِيْهَا

وَمَا ٱنْتَقَتْهُ صِحَابُ ٱلْمُرْتَضَى لِسِوَى ٱبْـ ... ـتِعَادِهِ فِيْ هَوَاهُ عَنْ مُنِيْبِيْهَا

فِيْهِ لَقَدْ رَغِبَتْ دُوْنَ ٱلْأَعَارِبِ إِذْ ... كَانَ ٱبْنُ قَيْسٍ أَبُوْ مُوْسَى يَمَانِيْهَا

وَمَا أَرَادَتْ قُرَيْشِيَّ ٱلصِّحَابِ لِهٰـ ... ـذَا ٱلْأَمْرِ أَوْ هَاشِمِيْهَا أَوْ عِرَاقِيْهَا

وَذَاكَ يَكْفِيْ لِتِبْيَانِ ٱلتَّخَاذُلِ فِي ... صَحْبِ ٱلْعَلِيِّ وَيُنْبِيْ عَنْ تَجَزِّيْهَا

أَمَّا عَلِيٌّ فَلَاقَى ٱلنَّاسَ مُعْتَلِنَاً ... أَنَّ ٱلنِّيَابَةَ مَا لَاقَتْ مُكَافِيْهَا

= والإسلام أخرى ، فما فداك من واحدةٍ منهما مالك ولا حسبك ، وإنَّ أمراً دلَّ على قومه السيف ، وساق إليهم الحتف ، لحريٌّ أن يمقته الأقرب ، ولا يأمنه الأبعد » ولعمري ما جبه سيدنا أمير المؤمنين الأشعث على ما يعهد الناس من حلمه إلَّا لضيق صدره الشريف من نفاقه الذي ابتدأ بالتحكيم وانتهى بشرّ الخوارج العظيم .

وتزوج الأشعث في سنة ٣٦ هـ إحدى كرائم الحسن عليه السلام وتوفي في الكوفة سنة ٤٢ هـ .

وَصَاحَ وَٱلْغَيْظُ يَبْدُوْ مِنْ جَوَارِحِهِ بِصَحْبِهِ وَهْيَ تَمْشِي فِيْ غَوَاسِيْهَا
هَلاَّ ذَكَرْتُمْ أَبَا مُوْسَى وَخَذْلَتَهُ لإِمْرَتِي عَلَنَاً مَا كَانَ يُخْفِيْهَا
نَسِيْتُمُ فِعْلَهُ فِيْ وَقْعَةِ ٱلْجَمَلِ ٱلْـ ـمَلْعُوْنِ إِذْ كَانَ عَنِّيْ ٱلنَّاسَ يُقْصِيْهَا
وَفَرَّ مِنِّيْ شُهُوْرَاً خَمْسَةً وَأَتَا نِيْ خَاضِعَاً بَعْدَ مَا قَدْ هَلَّ سَادِيْهَا
وَفَوْقَ ذَا فَهْوَ لاَ حَزْمٌ لَهُ وَذَكَا ءُ كَيْ يُلاَقِيْ مِنَ ٱلأَعْدَاءِ ذَاكِيْهَا
وَذَا مُعَاوِيَةُ قَدْ خَارَ دَاهِيَةَ ٱلأَ م غْرابِ عَمْرَاً لِيُرْضِيْهِ وَيُؤْذِيْهَا
وَلَيْسَ يَكْفَأُهُ رَأْيَاً وَحُسْنَ دَهَا إِنْ تَذْكُرِ ٱلنَّاسُ فِيْ يَوْمٍ دَوَاهِيْهَا
إِلَّا ٱبْنُ عَبَّاسَ عَبْدُ ٱللَّهِ فَهْوَ إِلَى ٱبْـ ـنِ ٱلْعَاصِ كِفْءٌ بِآرَاءٍ يُجَلِّيْهَا
فَإِنْ رَمَيْتُمْ بِهِ عَمْرَاً رَأَيْتُمُ دَبْـ ـسَاءَ تَتَبَّعَهَا لِلصَّيْدِ بَازِيْهَا
فَقَالَتِ ٱلنَّاسُ: لاَ نَرْضَى لأُمَّتِنَا تَحْكِيْمَ إِثْنَيْنِ فِيْهَا مِنَ قُرَيْشِيْهَا
كَذَاكَ بَاتَ أَبُوْ مُوْسَى مُمَثِّلَ صَحْـ ـبِ ٱلْمُرْتَضَى كَانَ قَاصِيْ ٱلدَّارِ نَائِيْهَا
فَأَرْسَلَتْ نَحْوَهُ رُوَّادَهَا فَأَتَتْ بِهِ إِلَيْهَا وَآلَى أَنْ يُوَالِيْهَا

صحيفة الهدنة

وَبَعْدَ ذَلِكَ قُرَّاءُ ٱلْعِرَاقِ وَقُرَّ م اءُ ٱلشَّآمِ تَوَلَّتْ فِيْ تَنَادِيْهَا
وَضْعَ ٱلشُّرُوْطِ ٱلَّتِيْ تُفْضِيْ بِأُمَّتِهَا إِلَى مُهَادَنَةٍ كَانَتْ تُرَجِّيْهَا

---

(١) بعد أن تمَّ اختيار الحكمين شرع القرّاء بتسطير صحيفة الهدنة والموادعة فبحثوا في ذلك طويلاً وأقرَّ رأيهم في الأخير على أن تكون صورتها هكذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين ، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما ، فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله ، وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله ، قضية علي على أهل العراق ، ومن كان من شيعته ، من شاهد وغائب ، وقضية معاوية على أهل الشام ، =

حَتَّى إِذَا مَـا ٱنْتَهَتْ مِنْ بَحْثِهَا كَتَبَتْ صَحِيْفَـةَ ٱلْعَهْدِ فَـٱسْتَوْفَتْ مَعَـانِيْهَـا

= ومن كـان من شيعته من شـاهد وغـائب ، إننا رضينـا أن ننـزل عنـد حكم القـرآن فيمـا حكم ، وأن نقف عند أمره فيما أمر ، فـإنّه لا يجمـع بيننا إلاَّ ذلـك ، وإننا جعلنـا كتاب الله سبحـانه حكمـاً بيننا فيمـا اختلفنا فيـه ، من فاتحتـه إلى خـاتمتـه ، نحيي مـا أحيـا القـرآن ، ونميت ما أمـات القـرآن ، على ذلـك تقـاضينـا ، وبـه تـراضينـا ، وانَّ عليـاً وشيعته ، رضوا أن يبعثوا عبد الله بن قيس ناظراً ومحـاكماً ، ورضي معـاوية وشيعتـه أن يبعثوا عمراً بن العـاص ناظـراً ومحاكمـاً ، على أنّهم أخذوا عليهمـا عهد الله وميثـاقه ، وأعظم ما أخـذ الله على أحدٍ من خلقـه ، ليتخذان الكتـاب إمامـاً ، فيما بُعثا إليه ، لا يعدوانه إلى غيره ، ما وجداه فيه مسطوراً ، وما لم يجداه مسمى في الكتاب ، ردَّاه إلى سنة رسول الله الجامعة ، لا يتعمـدان لها خـلافاً ، ولا يتبعـان هوىً ، ولا يـدخلان في شبهة ، وقد أخذ عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص ، على علي ومعاوية ، عهـد الله وميثاقه ، بالرضاء بما يحكمان به من كتاب الله وسنّة نبيّه ، وليس لهما أن ينقضا ذلك ، ولا يخالفاه إلى غيره ، وأنّهما آمنان في حِكمهما ، على دمائهما وأموالهما وأهلهما ، ما لم يعدوا الحقَّ ، رضي بذلك راضٍ ، أو أنكره منكر ، وأنَّ الأمّة أنصار لهما ، على ما يقضيان به من العدل ، فإن توفي أحد الحكمين ، قبل انقضاء الحكومة ، فـأمير شيعتـه وأصحابه ، يختارون مكانه رجلاً ، لا يألون عن أهل المعدلـة والأقساط ، على مـا كان عليـه صاحبـه من العهد والميثـاق ، والحكم بكتاب الله وسنّـة رسولـه ، وله مثـل شرط صاحبه ، وإن مات أحد الأميرين قبل القضاء ، فلشيعته أن يـولّوا مكـانه رجـلاً يرضـون عدله ، وقـد وقعت هذه القضيـة ، ومعهما الأمن والتفـاوض ، ووضع السـلاح والسلام والموادعة ، وعلى الحكمين عهد الله وميثاقه ، أن لا يألوا اجتهاداً ، ولا يتعمدا جوراً ، ولا يـدخـلا في شبهـة ، ولا يعـدوا حكم الكتـاب ، فـإن لم يقبلا ، بـرئت الأمّـة من حكمهمـا ، ولا عهد لهمـا ولا ذمة ، وقـد وجبت القضية ، على مـا قـد سمي في هـذا الكتـاب ، من مـواقـع الشروط ، على الحكمين والأميـرين والفـريقين ، والله أقـرب شهيداً ، وأدنى حفيظاً ، والناس آمنون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم ، إلى انقضاء مدة الأجل ، والسلاح موضوع ، والسبل مخلاة ، والشاهد والغـائب من الفريقين سـواء في الأمن ، وللحكمين أن ينزلا منزلاً عدلاً ، بين أهل العراق والشام ، لا يحضرهما فيه إلاّ من أحبا عن مـلأٍ منهمـا وتـراضٍ ، وأنّ المسلمين قـد أجلوا هـذين القـاضيين ، إلى انسـلاخ شهر رمضـان (سنـة ٣٧ هـ) ، فـإن رأيـا تعجيـل الحكـومـة فيمـا وجهـا إليـه =

كَانَتْ خُلاَصَتِهَا أَنْ يَحْكُمَ ٱلْحَكَمَا   نِ وَفْقَ آيِ ٱلْهُدَى أَوْ مَا يُجَارِيْهَا

= عجلاها ، وإن أرادا تأخرها بعد شهر رمضان إلى انقضاء الموسم (موسم الحجّ) فذلك إليهما ، وإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنّة نبيّه ، إلى انقضاء الموسم ، فالمسلمون على أمرهم الأوَّل في الحرب ، ولا شرط بين الفريقين ، وعلى الأمّة عهد الله وميثاقه ، على التمام والوفاء بما في هذا الكتاب ، وهم يدٌ على من أراد فيه إلحاداً وظلماً ، أو حاول له نقضاً » اهـ وكان تاريخ هذه الصحيفة لليلة بقيت من صفر الخير سنة ٣٧ هـ وبعد الإنتهاء من وضعها على صورتها المشار إليها نسخوها نسختين سار بإحداها أصحاب سيدنا علي إليه ليمضيها ويشهدا الشهود ثمَّ يعطوها إلى معاوية وسار أصحاب معاوية بالنسخة ليمضيها ويشهد عليها الشهود ثمَّ يعطوها إلى سيدنا علي .

ولما انتهت نسخة الصحيفة إلى يد معاوية وكان بجانبه عمرو بن العاص أنكرا أن يلقّب سيدنا علي بفاتحتها بلقب « أمير المؤمنين » وقال معاوية : بئس الرجل أنا إن أقررت أنَّ علياً أمير المؤمنين ثمَّ قاتلته . وقال عمرو بل نكتب اسمه واسم أبيه إنّما هو أمير أهل العراق وأمّا أميرنا فلا . قال هذا واحتمل الصحيفة وسار بها إلى سيدنا علي عليه السلام في خيمته وقال له إننا لا نرضى بهذه الصحيفة ما لم تمح منها عن اسمك لقب « أمير المؤمنين » فإنّنا لو عرفناك أميراً للمؤمنين لما قاتلناك : فتبسم سيدنا علي عليه السلام وقال امحوا كلمة « أمير المؤمنين » ولكن الله سبحانه لا يمحوها عني فقال الأحنف كلا يا أمير المؤمنين لا تمح هذا اللقب عنك فإنّي أتخوف إن محوته أن لا يرجع إليك أبداً فلا تمحه . فقال عليه السلام لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ يقول لي يوم الحديبية ستلقى مثلها وقصّ على الناس كيف أنكر المشركون على المصطفى لقب « رسول الله » يومئذٍ وطلبوا منه محوه وكيف أبى سيدنا علي وكان يكتب الصحيفة محوه وقد سبق لنا تفصيل ذلك في حاشية سبقت ثمَّ قال المرتضى إن ذلك الكتاب أنا كتبته بيننا وبين المشركين واليوم أكتبه إلى أبنائه كما كتبه رسول الله إلى آبائهم شبهاً ومثلاً . فقال عمرو بن العاص : سبحان الله أتشبهنا بالكفّار ونحن مسلمون ؟ فقال علي : يا ابن النابغة ومتى لم تكن للكافرين وليّاً وللمسلمين عدوّاً . فنهض عمرو بن العاص وهو غاضب وقال : والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بعد اليوم . فقال سيدنا علي أمّا والله إنّي لأرجو أن يظهر الله عليك وعلى أصحابك .

وما كاد يخرج معاوية حتى تولى الحماس الحاضرين فنضوا سيوفهم وقالوا : يا =

وَأَنْ يَكُوْنَ مَدَى ٱلتَّحْكِيْمِ دَوْرَةَ عَا مٍ عـلا تَقَاتُـلَ مَـا بَيْنَ ٱلْمَـلاَ فِيْهَـا
وَإِنَّهَـا هُـدْنَـةٌ فِيْهَـا أَمَـانُ جَمِيْـــعِ ٱلنَّاسِ فِيْ كُلِّ مَأْوَى مِنْ مَآوِيْهَا
وَفِيْ ٱلصَّحِيْفَةِ قَدْ سَمُّوْا ٱلْعَلِيَّ أَمِيْـــرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَـا آلُـوْهُ تَـوْجِيْهَـا
حَتَّى إِذَا مَـا تَـلَقَّـاهَـا مُعَـاوِيَـةٌ نَـادَى: إِمَارَتُـهُ مَـا كُنْتُ أَدْرِيْهَـا
بَلْ تَكْتُبُوْنَ ٱسْمَهُ وَٱسْمِي كَمَا وُجِدَا صَرْفاً وَمِنْ بَعْدِ ذَا يَا صَحْبُ أُمْضِيْهَا
وَسَارَ عَمروٌ بِهَـاتِيْكَ ٱلصَّحِيْفَـةِ نَحْـــوَ ٱلْمُرْتَضى طَالِبـاً تَحْوِيْـرَ مَا فِيْهَـا
وَقَـالَ مَـا أُمْـرَةُ ٱلْإِسْـلَامِ نَعْـرِفُهَـا أَصْـلاً عَلَيْـكَ فَكَـلاَّ لَسْتَ رَاعِيْهَـا
فَقَـالَ حَيْـدَرَةٌ: فَـٱمْحُـوْا ٱلْإِمَـارَةَ لَـــكِنَّ ٱلْمُهَيْمِنَ عَنِّي لَيْسَ مَـاحِيْهَـا
وَقَـالَ: قَدْ صَـدَقَ ٱلْهَـادِيْ بِقَـوْلَتِـهِ لِيْ: سَـوْفَ تَلْقَى رَزَايَـا بِتُّ لاَقِيْهَـا
وَقِصَّةُ ٱلْمُصْطَفَى يَوْمَ ٱلْحُدَيْبِيَـةِ ٱلْـــمَشْهُوْرِ قَدْ رَاحَ بِـٱلْأَشْجَانِ يَـرْوِيْهَا
فَقَـالَ: قَـدْ أَنْكَـرَتْ كُفَّـارُ مَكَّـةَ أَنَّـــهُ ٱلـرَّسُـوْلُ وَآلَى أَنْ يُـرَاضِيْهَـا
فَلَسْتُ أَعْجَبُ إِنْ أَنْسَـالُهَـا نَكَـرَتْ إِمَـارَتِـي وَحَـرِيٌّ أَنْ أُدَارِيْـهَـا
إِنْ أَمْحُهَـا مَـا أُمَّحَتْ عَنِّيْ وَرَبُّكُمْ لاَ شَـكَّ رَغْمَ عِـدَاةِ ٱلْحَقِّ مُبْقِيْهَـا
لِيْ أُسْـوَةٌ بِرَسُـوْلِ ٱللَّهِ لَسْتُ سِوَى رَبِـيْبِـهِ وَبِـهِ نَـفْسِـي أُعَـزِّيْهَـا

= أمير المؤمنين مرنا بما شئت . فقال لهم سهل بن حنيف : أيّها الناس اتهموا رأيكم فقد شهدنا صلح رسول الله يوم الحديبية ولو نرى قتالاً لقاتلنا ثمَّ لم نرَ في ذلك الصلح إلاّ خيراً .

وبعد أن محى بأمر سيدنا علي لقب « أمير المؤمنين » عن اسمه الشريف وقّع على الصحيفة بخاتمه المبارك وسار القرّاء بنسختيها إلى معاوية فوقّع عليهما بختمه . وكان ختم سيدنا علي من أعلاها وفيه « محمد رسول الله » وختم معاوية من أسفلها وفيه « محمد رسول الله » أيضاً اهـ .

فَقَالَ عَمْرٌو: وَيَا سُبْحَانَ رَبِّيَ قَدْ ... شَبَّهْتَنَا بِدُعَاةِ آلْكُفْرِ تَشْبِيْهَا

فَقَالَ حَيْدَرَةَ: خَفِّضْ عَلَيْكَ مَتى آلْـ ... ـكُفَّارُ لَمْ تَكُ قُلْ لِيْ مِنْ مَوَالِيْهَا

بَلْ قُلْ مَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ آلْحَنِيْفِيَّةِ آلـ ... ـسَّمْحَاءِ تَعْنَى بِهَا مَا كُنْتَ شَانِيْهَا

فَاْغْتَاظَ عَمْرٌو وَنَادَى: مَا مَجَالِسُكَ آلـ ... ـسُّوْئَى عَلَى إِثْرِ يَوْمِيْ ذَا أُخَطِّيْهَا

وَعَادَ أَدْرَاجَهُ بَيْنَا آلْعَلِيُّ يُنَا ... جِيْ آللَّهَ أَنْ يَقْهَرَ آلأَعْدَا وَيُخْزِيْهَا

وَهٰكَذَا أُمْضِيَتْ تِلْكَ آلصَّحِيْفَةُ مِنْ ... كِلَا آلْفَرِيْقَيْنِ كَيْ تَجْرِيْ مَجَارِيْهَا

فَكَانَ مُسْتَبْشِراً فِيْهَا مُعَاوِيَةُ ... إِذْ أَنْقَذَتْهُ مِنَ آلْبَلْوَى أَمَالِيْهَا

أَمَّا آلْعَلِيُّ فَأَمْسَى وَهْوَ مُكْتَئِبُ ... مِمَّا تَجُرُّ عَلَيْهِ مِنْ مَسَاوِيْهَا

تأثير الحكومة على الناس

مِنْ بَعْدِ إِمْضَاءِ هَاتِيْكَ آلصَّحِيْفَةِ مَا ... بَيْنَ آلْفَرِيْقَيْنِ فِيْ أَجْلَى مَبَانِيْهَا[1]

رَاحَتْ صِحَابُ آبْنِ حَرْبٍ وَهْيَ مُوْقِنَةٌ ... بِفَوْزِهَا تَتَهَادَى فِيْ تَهَانِيْهَا

---

(١) بعد أن تمّت كتابة صحيفة الهدنة وأمضاها سيدنا علي ومعاوية حملها الأشعث وبعض أناس وساروا بها على الناس يعرضونها عليهم فرضيها أهل الشام فلم يكن فيهم من يعترض لثقتها باقتدار عمرو بن العاص ودهائه ولشدّة ارتكانها عليه . ثم ساروا بها إلى أهل العراق يعرضونها عليهم فقبلها بعضهم وأنكرها البعض وكان في مقدمة المنكرين فرقة عنزة وكانت في نحو أربعة آلاف مقاتل فصاح فتيان منهم لا حكم إلّا لله وحملت [illegible] بالسيوف على أهل الشام فلقيها هؤلاء واشتبك القتال وانجلى عن بعض القتلى والجرحى . وعندما وصل الأشعث إلى بني مراد من أصحاب علي عرض عليهم الصحيفة فقال صالح بن شفيق وكان من زعمائهم :

مـا لعليٍّ في الـدمـاء قـد حكم ... لـو قـاتـل الأحـزاب يـومـاً مـا ظلم

ثمَّ قالوا : لا حكم إلّا لله يا أشعث ولو كره المشركون . ثمَّ مرَّ على رايات بني راسب فقرأ الصحيفة عليهم فقال رجل منهم : « لا حكم إلّا لله ، لا نرضى ، ولا =

= نحكّم الرجال في دين الله » . ثمَّ مرَّ على رايات تميم وهو يقرأها فقال زعيمٌ منهم « لا حكم إلّا لله ، سبحانه يقضي بالحقّ وهو خير الفاصلين » وخرج عروة بن أذينة أخو مرداس بن أذينة التميمي فقال : « أتحكمون الرجال في أمر الله ؟ لا حكم إلّا لله ، فأين قتلانا يا أشعث ؟ » ثمَّ شدَّ بسيفه ليضرب به الأشعث فأخطأه وضرب عجز دابته ضربةً خفيفةً فصاح به الناس : أملك يدك . فكفَّ . ورجع الأشعث ومن معه إلى سيدنا علي فقالوا : يا أمير المؤمنين إننا عرضنا الحكومة على صفوف أهل الشام فقالوا جميعاً رضينا وعرضناها على أهل العراق فارتضاها أكثرهم وأنكرها قليل منهم وقالوا : « لا حكم إلّا لله » فمل بالراضين على الغاضبين حتى نقتلهم . فقال علي عليه السلام ما دام الغاضبون راية أو رايتين ونفراً من الناس فلندعهم وشأنهم . وما كاد عليه السلام ينتهي من كلماته إلّا وراءه نداء الناس من كلّ صوبٍ وحدبٍ « لا حكم إلّا لله ، الحكم لله يا علي لا لك ، لا نرضى بأن يحكم الرجال في دين الله ، إنَّ الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه ، أن يقتلوا أو يدخلوا تحت حكمنا ، وقد كنّا أخطأنا وزللنا حين رضينا بالتحكيم ، وقد بان لنا زللنا وخطأنا ، فرجعنا إلى الله وتبنا ، فارجع أنت يا علي كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تبنا ، وإلّا برئنا منك » فقال علي عليه السلام : « ويحكم أبعد الرضاء والميثاق والعهد نرجع ؟ أليس الله تعالى قد قال : ﴿ **أوفوا بالعقود** ﴾ ؟ وقال : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾ أما جعلتم الله عليكم كفيلاً ؟ وهكذا أبى سيدنا علي أن يحنث بعهده ويغدر بأيمانه وأبت الخوارج إلّا تضليل التحكيم والطعن فيه . فبرىء هؤلاء من سيدنا علي وبرىء عليه السلام منهم واستفحل الشرّ .

ثمَّ إنَّ محمداً بن جريش تقدم من سيدنا علي وقال : أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ؟ والله إنّي لأخاف أن يؤرّث ذلّاً . فقال عليه السلام : أبعد أن كتبناه ننقضه ؟ إنَّ هذا لا يحلُّ ، ولعمري قد فعلتُ ما فعلتُ ، لما بدا فيكم من الخور والفشل عن الحرب . وبينما الناس في هذا البحران تقدمت همدان من سيدنا علي وقال زعيمها سعيد بن قيس : ها أنا ذا وقومي لا نردُّ لك أمراً يا أمير المؤمنين ، فقل ما شئتَ نعمله . فقال عليه السلام : أمّا لو كان هذا قبل سطر الصحيفة ، لأزلتهم عن عسكرهم ، أو تنفرد سالفتي ، ولكن كتب ما كتب فانصرفوا راشدين . =

مَـا دَامَ دَاهِيَـةُ ٱلْأَعْـرَابِ صَـاحِبُـهُ رَبَّ ٱلْحُكُومَةِ يَـدْرِي كَيْفَ يُجْرِيْهَـا
لٰكِنَّمَـا شَعَرَتْ صَحْبُ ٱلْعَلِيِّ بِسُـوْ ءِ ٱلْإِخْتِيَـارِ وَفَـاتَ ٱلْقَـوْسَ رَامِيْهَـا

= على أنّ سيدنا علي عليه السلام مهما اتصف به من الحلم وسِعة الصدر والتجمل لدى ترادف الأحداث ضاق صدره وعيل صبره من قوم أكرهـوه على صلح لم يرَ فيـه مصلحة المسلمين وعلى تحكيم من ليس بثقة ولا مقتدرٍ وجاءُوه في الأخير يلحون ويلحفـون بأن ينكث عهـده وينقض وعده فغضب لله وشـريعته ورسـوله وضميـره وتـولاه الجـزع والهمُّ وخـرج إلى الناس خـطيباً فقـال : إنَّ هؤلاء القوم ، لم يكـونـوا لينيبـوا إلى الحق ، ولا ليجيبـوا إلى كلمة سـواء ، حتى يرمـوا بالمنـاسـر ، تتبعهـا العسـاكـر ، وحتى يـرجمـوا بـالكتائب ، تقفـوها الجـلائب ، وحتى يجرَّ بـبلادهم الخميس يتلوه الخميس ، وحتى يرعوا الخيـول في نواحي أرضهم ، وبـإحياء مشـاربهم ومسارحهم ، وحتى تُشنَّ عليهم الغارات من كل فجّ ، وحتى يلقاهم قوم صُدق خُبر ، لا يزيـدهم هلاك من هلك ، من قتلاهم وموتاهم في سبيل الله ، إلّا جدّاً في طاعـة الله ، وحرصـاً على لقاء الله ، ولقـد كنّـا مع رسـول الله نقتل بَـاءَنا وأبنـاءَنا وأخـوالنا وأعمـامنا ، لا يـزيدنـا ذلك إلّا إيمـانـاً وتسليمـاً ، ومضيّاً على أمضّ الألم ، وجهـداً على جهاد العـدو ، والاستقـلال بمبـارزة الأقران ، ولقد كان الرجل منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان ، تصـاول الفحلين يتخالسـان نفسيهما أيُّهما يسقي صـاحبه كـأس المنون ، فمـرَّةً لنا ومـرَّةً لعدوّنـا منّا ، فلمـا رآنا الله صدقاً صُبراً ، أنزل بعدوّنا الكبت ، وأنـزل علينا النصـر ، ولعمري لـو كنّا نـأتي ، مثل الذي أتيتم ، ما قام الدين ، ولا عزَّ الإسلام » اهـ .

وبعد أن ألقى سيدنـا أمير المؤمنين هـذا الخطاب على أصحـابه أمـرهم بالتحفـز للعودة إلى الكوفة وسرعـان ما عـاد بهم إليها وهم بين خـوارج ناقمين عليـه ، ومطيعين يتفانون في سبيل رضاه . وكذلك فعل معاوية إلّا أنّ قومه كانوا طواعية له يأتمرون بـأمره وينتهـون بنهيه ولا يتـوخون غيـر رضاه . فجـاء بهم الشام ولا همَّ لـه ولهم إلّا أن يفـوز صاحبه عمرو بن العاص بخديعة أبي موسى الأشعري وما كان ذلك باعتقاده بعيد المنال أو في حكم المحال .

على أنّ النـاس قبل أن يعـودوا إلى مواطنهم أسـرعوا إلى دفن مـوتـاهم واحتملوا جـرحاهم وممـا يسترعي الأنـظار أنّهم جميعـاً كـانـوا متصـافين ولم يفـرّق بينهم إلّا أنّ بعضهم شيعة لمعاوية وبعضهم شيعة أمير المؤمنين .

فَأَصْبَحَتْ تَتَنَاجَى بِٱلْمَخَاوِفِ مِنْ سُوْءِ ٱلْمَصِيْرِ وَلاَ تُلْفِي ٱلْمُنْجِّيْهَا
وَلِلْعَلِيِّ مَضَتْ تُبْدِيْ مَخَاوِفَهَا مِنِ ٱبْنِ قَيْسٍ ٱلَّذِيْ قَدْ صَارَ قَاضِيْهَا
صَاحَتْ مُجَاهِرَةً لاَ حُكْمَ إِلَّا لِرَ م بِّ ٱلْعَرْشِ هَيَّ إِلَى ٱلْهَيْجَاءِ نُلْظِيْهَا
فَقَالَ حَيْدَرَةُ: لاَ أَرْتَضِيْ نَكَلاً عَنْ عِهْدَةٍ أَنْتُمُ كُنْتُمْ مُسِيْقِيْهَا
وَٱللَّهُ آمَرَ أُوْفُوْا بِٱلْعُقُوْدِ فَلاَ نَعْدُوْ أَوَامِرَهُ لاَ بُدَّ نُوْفِيْهَا
فَسَارِعُوْا لِذَوِيْكُمْ وَٱرْقُبُوْا سُفُنَ ٱلْأَ م قْدَارِ مَاخِرَةً تَبْغِيْ مَرَافِيْهَا
وَبَعْدَ ذَا رَحَلَتْ أَجْنَادُ كُلِّ فَرِيْـ ـقٍ فِيْ صَحَابَةِ مَوْلاَهَا لِأَرْضِيْهَا
فَسَارَ لِلْكُوْفَةِ ٱلْغَنَّا أَبُوْ حَسَنٍ وَلِلشَّآمِ بِلاَ بِطْءٍ مُعَاوِيْهَا
وَكَانَ هٰذَا يُرَاعِيْ صَحْبَهُ وَيُرَا شِيْهَا وَبِٱلْمَالِ وَٱلْأَقْطَاعِ يَرْشِيْهَا
وَذَاكَ يَقْصُدُ إِرْجَاعَ ٱلْعِبَادِ إِلَى عَهْدِ ٱلنُّبُوَّةِ فِيْ أَبْهَى مَجَالِيْهَا
لِذَا ٱلْخَوَارِجُ كَانَتْ مِنْ نَصِيْبِ عَلِـ ـيٍّ فِيْ خِلاَفَتِهِ تَبْغِيْ تَدَاعِيْهَا
فَبَاتَ يَجْهَدُ فِيْ تَأْلِيْفِهَا عَبَثاً بِلُطْفِهِ فَيَرَى لاَ شَيْءَ يُرْضِيْهَا
وَمَنْ أَرَادَ رِضَاءَ ٱللَّهِ يَتْعَبُ مَعْ عِبَادِهِ وَلْيَعْيَا عَنْ تَرَضِّيْهَا

الحكمـــان

وَدُوْمَةُ ٱلْجَنْدَلِ ٱلْحُصْنُ ٱلْحَصِيْنُ غَدَا أُحْدُوْثَةَ ٱلنَّاسِ فِيْ شَتَّى مَثَاوِيْهَا[1]
كَانَتْ عُيُوْنُ عِبَادِ ٱللَّهِ تَرْقُبُهُ لَمَّا غَدَتْ فِيْ مَغَانِيْهِ أَمَانِيْهَا

---

(١) سار أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري وعمرو بن العاص إلى « دومة الجندل » وهي حصن للمسلمين يبعد عن المدينة المنوَّرة نحواً من ١٥ مرحلة وعن الكوفة نحواً من عشر مراحل اختاراه لخلوتهما وأرسل سيدنا أمير المؤمنين مع أبي موسى أربعمائة مقاتلاً بقيادة شريح بن هاني الحارثي وأرسل معاوية مع عمرو بن العاص أربعمائة مقاتلاً أيضاً فأوصلوهما إلى حصن « دومة الجندل » وتركوهما فيه . وقبل أن =

فَـإِنَّمَـا حَكَمَــاهَـا فِيْــهِ قَـدْ نَــزَلَا   لِـخَلْوَةٍ وَضَـعَتْ فِـيْهَـا تَــرَجِّـيْهَــا

= يترك رجال أمير المؤمنين صاحبهم أبا موسى تقدَّم منه شريح بن هاني وأخذ بيده وقال : يا أبا موسى ، إنّك قد نصبت لأمرٍ عظيم ، لا يجبر صدعه ، ولا تستقـال فتنته ، ومهمـا تقـول من شيء عليك أو لـك ، يثبت حقّه ، ويـرى صحته ، وإن كـان باطـلاً ، وأنّه لا بقاء لأهل العراق إذا ملكهم معاويـة ، ولا بأس على أهـل الشام إن ملكهم علي ، وقـد كـانت منك تثبيـطة أيام الكـوفة والجمـل ، فإن تشفعهـا بمثلها يكن الـظنُّ بك يقينـاً ، والرجاء منك يأساً ، وأنشده شعراً :

أبــا مــوسى رميت بشــرٍّ خـصمٍ   فـلا تُضـع العـراق فـدتــك نفسي
وأعط الــحـقَّ شــامـهــمُ وخــذه   فـليس الـيــوم ذا مـهــلٍ كــأمسِ
وانَّ غــداً يــجـيءُ بــمــا عـليـهِ   بحكم الــدهــر من سعــدٍ ونحسِ
ولا يخــدعـك عمــروٌ انَّ عمــرواً   عــدوُّ الـحقِّ مــطلعَ كــلِّ شـمسِ
لــه خُــدَع يحــار العـقــل منهــا   مــمــوَّهــة مــزخــرفــة بــلبسِ
فــلا تجعـل معــاويــة بن حــربٍ   كشيـخٍ في الحـوادث غيــر نكسِ
هــداه الله لــلإســلام فــرداً   ســوى عـرس النبيِّ وأيِّ عــرسِ

وتقـدم منه عبـد الله بن عباس وكـان يصحب الأربعمائـة ويصلّي بهم بالنيـابة عن سيدنا علي عليه السلام وقال له : يا أبا موسى ، إنَّ الناس لم يرضوا بك ، ويجتمعوا عليك ، لفضلٍ لا تشارك فيه ، وما أكثر أشباهـك من المهاجـرين والأنصار والمتقـدمين قبلك ، ولكن أهل العراق أَبَوا إلاَّ أن يكون الحكم يمانياً ، ورأوا أنَّ معظم أهل الشـام يمانيين ، وأيم الله أنّي لأظنُّ ذلـك شرّاً لـك ولنا ، فـإنَّه قـد ضُمَّ إليك داهيـة العرب ، وليس في معاوية خلة يستحقُّ بها الخلافة ، فإن تقذف بحقك على باطله ، تدرك حـاجتك منـه ، وان يطمع باطله في حقك ، يدرك حاجته منك ، واعلم يـا أبا مـوسى أنّ معاويـةً طليق الإسلام ، وأنّ أباه رأس الأحزاب ، وأنّه يدَّعي الخلافة من غير مشـورة ولا بيعة ، فـإن زعم لك أنَّ عمر وعثمان استعملاه ، فلقد صدق ، استعمله عمـر وهو المـراقب عليه ، بمنزلة الـطبيب ، يحميه مـا يشتهي ، ويؤخّره ما يكره، ثمَّ استعمله عثمان بـرأي عمر ، وما أكثر من استعملاه ممن لم يدَّعِ الخـلافة ، واعلم أنَّ لعمـروٍ مع كـلِّ شيءٍ يسرُّك ، خبثاً يسوءك ، ومهما نسيتَ ، فلا تنسَ أنَّ علياً بايعه القوم ، الذين بايعـوا أبا بكـرٍ وعمر وعثمان ، وأنّها بيعة هدى ، وأنـه لم يقاتـل إلاَّ العاصين والنـاكثين » فقال أبـو موسى : =

= رحمك الله ، والله ما لي إمام غير علي وإنّي لواقف عندما رأيٍ ، وأنَّ حقَّ الله أحبُّ إليَّ من رضاء معاوية وأهل الشام ، وما أنت وأنا إلّا بالله . ثمَّ مال إلى شريح وقال : ولكن ما ينبغي لقوم اتهموني ، أن يرسلوني لأدفع عنهم باطلاً ، أو أجرَّ إليهم حقّاً . . . . !! .

أمّا أصحاب معاوية فإنّهم ودعوا عمراً بن العاص من غير أن يكلّموه كأنّهم كانوا على ثقةٍ من أمره غير أنّه عندما ودّع معاوية قبل ارتحاله عن صفين قال له هذا « يا عمرو : إنَّ أهل الكوفة أكرهوا علياً على أبي موسى وهو لا يريده ، ونحن بك راضون ، وقد ضُمَّ إليك رجل ، طويل اللسان ، كليل المدية ، وله بعدُ حظٌّ من دينٍ ، فإذا قال فدعه يقل ، ثمَّ قل فأوجز ، واقطع المفصل ، ولا تلقه بكلّ رأيك ، واعلم أنَّ خبء الرأي زيادة في العقل ، فإنّ خوَّفك بأهل العراق ، فخوّفه بأهل الشام ، وإن خوَّفك بعلي ، فخوّفه بمعاوية ، وإن خوَّفك بمصر ، فخوّفه باليمن ، وإن أتاك بالتفصيل فأته بالمجمل . فتبسم عمرو تبسم الهازىء وقال : خفف عنك يا معاوية ، فأنت وعلي اليوم رجلا قريش ، ولم تنل في حربك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت ، ذكرت أنَّ لعبد الله ديناً ، وصاحب الدين منصور ، وأيم الله لأفنينَّ علله ، ولأستخرجنَّ خبأه ، ولكن إذا جاءَني بالإيمان والهجرة ومناقب علي ما عسيتُ أن أقول ؟؟؟ . قال معاوية : قل ما ترى . فقال عمرو وهل تدعني وما أرى ؟ قال بلى . قال عمرو فاسكت إذن . وتركه وخرج مغضباً كأنّه كره أن يوصيه ثقةً منه بنفسه . وقال عمرو بن العاص وهو خارج من حضرة معاوية لبعض أصحابه : إنّما أراد معاوية أن يصغر أمر أبي موسى لأنّه علم أنّي خادعه غداً فأحبّ أن يقول أنَّ عمراً لم يخدع أريباً فكدته بالخلاف عليه وأنشد :

يشجعني معاوية بن حرب   كأنّي للحوادث مستكينُ
وإنّي عن معاويةٍ غنيٌّ   بحمد الله والله المعينُ
فقلتُ له ولم أردد عليه   مقالته وللشاكي أنينُ
ترى أهل العراق يذبُّ عنهم   وعن جيرانهم رجل مهينُ
فلو جهلوه لم يُجهل عليٌّ   وغثُّ القول يحمله السمينُ
ولكن خطبه فيهم عظيم   وفضل المرء فيهم مستبينُ =

وَهَا هُمَا آنْزَوَيَا حَوْلاً لِمُعْضِلَةٍ أَعْيَتْ مَشَاكِلُهَا آلْكَثْرَى مُحِلِّيْهَا

= فـإن أظفـر فلم أظفـر بـوغـدٍ وإن يـظفـر فقـد قُـطع الـوتينُ

وعندما خلا عمرو بن العاص بعبد الله بن قيس الأشعريّ تجرَّد لخداعه وانصرف إلى استهوائه وطفق يحمد سبقه للإسلام وصحة دينه وذكاءه وتقاه ويخلق له من الأعمال الباهرة في سبيل الدين ما أتاه وما لم يأته وكان يجلسه في صدر المجلس ويجلس بين يديه ويبالغ بتجلته واحترامه وإكرامه وما زال كذلك حتى خدعه وكسب ثقته وفاز بودّه.

وكان أبو موسى هذا كثير التشيع إلى عمر بن الخطاب معجباً بأعماله متوفراً على حمد مآتيه وكان رأيه أنَّ خير حلّ لهذه المشكلة أن يتولى الخلافة عبد الله بن عمر بن الخطاب وهو يعتقد أنَّه سرُّ أبيه فيجدّد للمسلمين عهده وأنْ لا سبيل للوصول إلى هذا إلَّا بخلع علي ومعاوية وترك الخلافة شورى كما تركها عمر بن الخطاب للستة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فكان أبو موسى كلما اجتمع بعمرو بن العاص يقول له : هل لك في أمر هو للأمّة صلاح ولصلحاء الناس رضىً ان تولي عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي لم يدخل في شيء من هذه الفتنة ولا هذه الفرقة ؟ وكان عمرو يجيبه قائلاً : فأين أنت يا أبا موسى من معاوية . فيقاطعه أبو موسى قائلاً : لا تذكر صاحبك ألا تراني أعرض عن ذكر صاحبي . فيقول عمرو ألستَ تعلم أنَّ عثمان قتل مظلوماً فيقول أبو موسى : بلى . فيقول عمرو ما يمنعك إذن من معاوية وهو وليّ عثمان وقد قال الله تعالى : **﴿ من قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً ﴾** . ثمَّ كان عمرو بن العاص يسهب بشرح هذه الآية الكريمة فيفسّرها على هوى معاوية فيفسّر سلطان ولي المظلوم بالاستيلاء على وظيفته فيقول له إنّ الله في كتابه الكريم قد ولّى معاوية الخلافة التي كانت لعثمان وقتل عنها وهذا أغرب ما سمع بتأويل القرآن وقد نوَّه بهذا التفسير الفاسد سيدنا علي في غير موضع من خطبه الغرّاء . ثمَّ كان يقول : إنَّ بيت معاوية من قريش ما قد علمت . فإن خشيت الناس أن تقول ولّى معاوية وليس له سابقة فإنَّ لك حجةً أن تقول وجدته ولي عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه ، الحسن السياسة ، الحسن التدبير ، وهو أخو أمّ حبيبة أمّ المؤمنين ، زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد صحبه وهو أحد الصحابة ، واعلم يا أبا موسى ان هو وُلّيَ الأمر أكرمك كرامةً لم يكرمك أحد قطُّ مثلها . فيقول أبو موسى : اتّق الله يا ابن العاص أمّا ما ذكرت من شرف معاوية فإنّ هذا الأمر ليس على الشرف =

وَبَاتَ دَاهِيَةُ ٱلْأَعْرَابِ يَلْعَبُ بِٱلْـ ـعَجُوْزِ أَلْعَابَ مَكْرٍ كَانَ رَاصِيْهَا

وَإِنَّ عَمْراً عَلَى عِلْمِ ٱلْعِبَادِ بِهِ مُدَرِّهُ ٱلْأَشْعَرِيَّ ٱلْغَمْرَ تَدْرِيْهَا

هُنَاكَ كُنْتَ تَرَى عَمْراً يُبَالِغُ فِيْ إِكْرَامِ صَاحِبِهِ يَحْبُوْهُ تَجْوِيْهَا

فَبِٱلتَّجِلَّةِ وَٱلْإِكْرَامِ مَقْدَمَهُ يَلْقَى إِذَا جَاءَهُ مَكْراً وَتَمْوِيْهَا

= يولّاه أهله ولو كان على الشرف لكان أحقُّ الناس بهذا الأمر أبرهة بن الصباح إنّما هو لأهل الدين والفضل . مع أنّي لو كنت أُعطيه لأفضل وأشرف قريش لأعطيته علياً بن أبي طالب . وأمّا قولك أنّ معاوية وليّ عثمان قوله هذا الأمر فإنّي لم أكن أوليه إيّاه لنسبته من عثمان وأدع المهاجرين الأولين . وأمّا تعريضك لي بالأمرة والسلطان فوالله لو خرج لي من سلطانه ما وليّته وما كنت أرتشي في الله وإن شئت وافقتني على سنّة عمر بن الخطاب بالرجوع إلى شوراه . بهذا وأمثاله كان يدور الجدال بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري بين جدران دومة الجندل . وعلى مثل هذه الحوادث قد مضت الأيام فالأسابيع فالأشهر من غير أن يلين عود لأبي موسى إذ كان صلب الرأي لا يرضى أن تحلّ هذه المشكلة إلّا على طريقته وهي خلع علي ومعاوية معاً وترك الأمر شورى لأعيان قريش كما تركه عمر للستّة شورى بينهم .

وبعد أن عجز عمرو بدهائه المشهور عن زحزحة أبي موسى عن رأيه يتظاهر باقتناعه به وتمسكه به وحتى لا يدع لأبي موسى سبباً للشكّ طفق هو أيضاً يذكر محاسن الشورى على طريقة عمر ويطري عبد الله بن عمر ويذكر له ما سيكون من أمر إدارة الخلافة وتنظيمها بعد خلع علي ومعاوية وشرع يذكر أسماء أعيان قريش الذين سيكون من حقّهم الدخول في الشورى إلى آخر ما كان يفيض فيه ويجيد لاكتساب ثقة صاحبه عبد الله الذي فرح فرحاً عظيماً بكسبه عمراً بن العاص إلى رأيه وحسب نفسه أنّه قد قام بأفضل خدمة للإسلام والمسلمين .

وأمّا عمرو بن العاص فقد كان يضحك في سرّه من سلامة نية أبي موسى الأشعري حتى وثق به وحسبه يوافقه على خلع معاوية ويساعده على تسليم زمام الخلافة لعبد الله بن عمر بن الخطاب حسبةً لله تعالى من غير أن يتفق معه على أخذ ولاية مصر لنفسه .

وَكَانَ يُعْلِي مَعَ ٱلْإِجْلَالِ مَجْلِسَهُ   يَقُولُ: صُحْبَتُكَ ٱلْهَادِيْ لَأَتْقِيْهَا

وَكَانَ يَخْلُق آثَاراً لَهُ حُمِدَتْ   مَا كَانَ يَعْهَدُهَا كِذْباً وَيُطْرِيْهَا

وَكَانَ بِٱلْمَدْحِ يُغْرِيْهِ وَيَخْدَعُهُ   بِلَا ٱنْقِطَاعٍ وَآيُ ٱلْحَمْدِ يُسْدِيْهَا

وَكَانَ يَنْعَتُهُ نَعْتاً بِأَفْضَلِ أَنْـ   ـوَاعِ ٱلنُّعُوْتِ لِيَسْتَهْوِيْهِ زَاهِيْهَا

وَلَمْ يَزَلْ بِأَبِي مُوْسَى يَكِيْدُ لَهُ   كَيْداً وَأَمْيَالُهُ مَكْراً يُرَانِيْهَا

حَتَّى تَمَلَّكَهُ وَٱحْتَالَ حِيْلَتَهُ   عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْرِيْ مَغَازِيْهَا

فَرَامَ بَادِيءَ بَدْءٍ أَنْ يُجَرِّرَهُ   إِلَى جَمَاعَتِهِ كَيْمَا يُمَاشِيْهَا

فَخَابَ سَعْياً وَلَيْسَ ٱلْأَشْعَرِيُّ بِتَا   رِكٍ عَلِيَّاً لِيَسْتَصْفِيْ مُعَاوِيْهَا

وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلشُّوْرَى شِعَارُ أَبِيْ   مُوْسَى يَقُوْلُ: لِمَاذَا لَا نُثَنِّيْهَا

فَنَخْلَعُ ٱلرَّجُلَيْنِ ٱلْقَائِمَيْنِ بِأَمْـ   ـرِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَنُعْطِيْ ٱلْقَوْسَ بَارِيْهَا

مَنْ تَرْتَضِيْهِ جُمُوعُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ إِذَا   مَا نَالَ سَامِيْ ٱلتَّسَمِّيْ مِنْ مُشِيْرِيْهَا

وَكَانَ عَمْروٌ يُنَاوِيْهِ بِفِكْرَتِهِ   ذِيْ وَهْوَ يَأْبَى إِبَاءً أَنْ يُخَلِّيْهَا

وَبَعْدَ طُوْلِ جِدَالٍ كَانَ بَيْنَهُمَا   مِنْ غَيْرِ جَدْوَى لِإِبْنِ ٱلْعَاصِ يَجْنِيْهَا

أَبْدَى أَخِيْرَاً لَهُ ٱسْتُحْسَانَ فِكْرَتِهِ   وَقَالَ: هَيَّ بِنَا يَا صَاحِ نُمْضِيْهَا

أَعْيَا فَوَافَقَهُ عَيَّاً وَثُمَّ لَصَى   إِلَيْهِ فِيْ خُدْعَةٍ قَدْ رَاحَ نَاوِيْهَا

وَقَالَ: إِنِّي أَرْضَى ٱلْخَلْعَ أَحْكُمُ فِيْـ   ـهِ ثُمَّ شُوْرَاكَ قَدْ أَصْبَحْتُ بَاغِيْهَا

وَإِنَّ إِرْضَاءَ رَبِّ ٱلْعَرْشِ أَفْضَلُ مِنْ   إِرْضَاءِ صَحْبِيَ فِيْ إِغْضَابِ بَارِيْهَا

وَكَانَ عَمْروٌ بِذِيْ ٱلْأَقْوَالِ يَخْدَعُ عَبْـ   ـدَ ٱللَّهِ مُسْتَرْسِلاً فِيْمَا يُضَاهِيْهَا

حَتَّى ٱسْتَنَامَ إِلَى مَا كَانَ يَسْرُدُهُ   مِنْهَا وَمَا خَالَهُ يَهْزَا بِهِ فِيْهَا

وَهٰكَذَا ٱتَّفَقَا أَنْ يَتْرُكَا عَلَناً   خِلَافَةَ ٱلْمُصْطَفَى شُوْرَى لِأَهْلِيْهَا

وَيَخْلَعَـا جَهْـرَةً عَنْـهَـا مُعَـاوِيَـةً   وَٱلْمُرْتَضَى خَلْعَةً مَا ٱلْعَدْلُ رَاضِيْهَـا

إعلان حكم الحكميـن

مَـرَّتْ عَلَى هُدْنَـةِ ٱلْإِسْلَامِ مِـدَّتُهَـا   وَٱلنَّـاسُ تَسْتَطْلِعُ ٱلْأَخْبَـارَ مُنْبِيْهَـا(١)

وَلَمْ تَكُنْ تَتَـرَجَّى أَنْ يَسُـوْدَ عَـلَى   رُبُـوْعِهَـا ٱلسِّلْمُ أَوْ تَصْفُـوْ لَيَـالِيْهَـا

---

(١) لم تكن دومة الجندل سجناً لعمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري ولا صومعةً أنزويا فيها فلا يقابلان أحداً بل كان يقصدهما الناس بين حين وآخر وعرفنا من الذين زاروهما المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهم وكانوا يجتمعون بهما ويحادثونهما على أنَّ هؤلاء الزوار كان منهم مَن هواه مع معاوية كالمغيرة وكان معتزل القتال ومنهم مَن كان يطلبها لنفسه كعبد الله بن الزبير ومنهم مَن كان هوى بعض الناس معه كعبد الله بن عمر بن الخطاب ومع أنّ اختلاط الناس بالحكمين مما يؤثر على آرائهما مع ذلك فأحسب أنّ مسألة التحكيم ابتدأت بالحيلة وانتهت بالحيلة فلم يؤثّر عليها مؤثّر ما وخلاّصة ما في الأمر أنَّ الأشعث الذي كان يشجع الناس على قبول التحكيم لم يكن قطّ مخلصاً بطريقته لا في صحبة علي ولا ضدّه وأنَّ أبا موسى كان متعشقاً حكم عمر بن الخطاب وكل عملٍ ينمي إليه فمنذ دعي إلى الحكومة وضع نصب عينيه شيئاً واحداً وهو ترك الأمر شورى في قريش كما تركها عمر ولبلاهته لم يفرّق بين حالة الناس عند وفاة عمر وحالتهم بعد موقعة صفين وأنَّ الناس إذا قبلوا بالستّة الذين حصر فيهم عمر الخلافة فذلك لأنّهم من أصحاب رسول الله الذين جاهدوا معه ولأنَّ معاوية والأمويين كانوا وراءَهم يكرهونهم على ذلك الرضاء ولكن هيهات أن يقبلوا بغيرهم فلا تفترق كلمتهم ولا سيما إذا كان المزاحم على الخلافة معاوية وهو كما نعلم من الطلقاء وهم مشركو قريشٍ الذين ظلّوا يحاربون رسول الله ﷺ إلى أن نصره عليهم بدخوله مكة المكرمة عنوةً وفاته أخيراً أنَّ معاويةً لا يتخلى عن الخلافة سواءٌ حكم الحكمان بتخليه عنها أو لم يحكما . أمَّا عمرو بن العاص وهو أبو حيلة التحكيم وأمُّها فكان هواه معروفاً وهو عامل على تنفيذه كيفما كانت الحالة .

ولقد عرفنا أنَّ الأيّام انقضت بعضها تلو البعض وعمرو بن العاص يروغ من أبي موسى روغان الثعلب وهذا لا يتحوَّل عن رأيه وفي الأخير تظاهر عمرو بالإقتناع برأي أبي موسى والنزول على حكمه وأرسل الحكمان في رمضان سنة ٣٧ هـ إلى سيدنا علي =

لِعِلْمِهَا أَنَّ فِيْ أَرْضِ ٱلشَّآمِ أُنَا   سٌ لَا تَرُوْمُ سِوَى تَأْمِيْرِ وَالِيْهَا

=ومعاوية يطلبان منهما أن ينتدبا من يحضر من قبلهما إلى دومة الجندل لسماع الحكم فأوفد سيدنا علي أربعمائة مقاتلاً بقيادة شريح بن هانىء الحارثي ومعه عبد الله بن عباس يصلّي بهم وصحبهم الأشعث أيضاً وأرسل معاوية أربعمائة مقاتلاً بقيادة يزيد بن أسد القسري فلما بلَغ الفريقان دومة الجندل خرج إليهم الحكمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص فقال هذا لأبي موسى كعادته من خداعه تكلّم يا عبد الله فأنت مقدم عليَّ وقد صحبت رسول الله قبلي فأنت أكبر منّي سناً وقدراً ثمَّ أتكلم أنا فتقدم عبد الله بن عباس من أبي موسى وقد رأى من عيني عمرو بن العاص الخديعة وقال له : ويحك والله ، إنّي لأظنه خدعك ، إن كنتما اتفقتما على أمر ، فقدمه قبلك ليتكلم به ، ثمَّ تكلم أنت بعده ، فإنّه رجل غدّار ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى فيما بينك وبينه ، فإذا قمت في الناس خالفك . فجبهه أبو موسى قائلاً : إيهاً عنك إنّا قد اتفقنا وتركه وأقبل على الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمَّ قال : أيّها الناس ، إنّا قد نظرنا في أمر هذه الأمّة ، فلم نرَ شيئاً هو أصلح لأمرها ، وألمُّ لشعثها ، من أن لا تتباين أمورها ، وقد أجمع رأيي ورأي صاحبي ، على خلع علي ومعاوية ، وأن نستقبل هذا الأمر ، فيكون شورى بين المسلمين ، يولون أمورهم من أحبّوا ، وإنّي قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أموركم ، وولوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً . وتنحى بعد هذا القول الأخرق فأقبل عمرو بن العاص وهو يتهادى تهادي المنتصر ، وحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال : إنَّ هذا قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة ، فإنّه وليُّ عثمان ، والطالب بدمه ، وأحقُّ الناس بمقامه .
وما كاد يفوه عمرو بن العاص بهذه الكلمات حتى نزلت على سمع أبي موسى كالصاعقة فامتقع لونه وارتجفت أعصابه وصاح بملء فمه : ما لك لا وفقك الله قد غدرتَ وفجرتَ ، إنّما مثلك مثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، وإن تركته يلهث .
فقال عمرو وهو يتبسم تبسم الساخر ببلاهته : إنّما مثلك مثل الحمار ، يحمل أسفاراً .
وبينما كان أبو موسى وعمرو بن العاص يتلاحيان كان الهرج والمرج قد ساد الناس فتقدم شريح بن هانىء من عمرو بن العاص وقنعه بالسوط وحمل عبد الله بن عمرو بن العاص على شريح فقنعه بالسوط وقام الناس فحجزوا بينهما فجعل شريح يقول أخطأت إذ لم أضرب عمراً بالسيف بدل السوط أتى الدهر ما أتى . واغتنم فرصة الهرج عمرو بن العاص وأبو موسى فهربا من بين الناس مختفيين وصاح في الناس سعد بن=

وَمَا ٱلْوَصِيُّ بِـرَاضٍ أَنْ يُضِيْعَ حُقُوْ قَـهُ وَيُغْضِي عَلَى مَسْعَى مُضِيْعِيْهَـا

=قيس الهمداني وكان من أصحاب سيدنا علي عليه السلام فقال : والله لو اجتمع الحكمان على هدى ، ما زادا بأعلى مما نحن عليه ، وما ضلالهما يلازم لنا ، وما رجعا إلّا بما بدءا به ، وإنّا اليوم لعلى ما كنّا عليه أمس . فاعترضه يزيد بن أسد القسري وهو أمير أصحاب معاوية فقال : يا أهل العراق ، اتّقوا الله ، فإنَّ أهون ما تردُّونا وإيّاكم إليه الحرب ، ما كنّا عليه بالأمس ، وهو الفناء ، وقد شخصت الأبصار إلى الصلح ، وأشرفت الأنفس على الهلاك ، وأصبح كلُّ امرىءٍ يبكي على قتيل ، ما لكم رضيتم بأول أمر صاحبكم ، وكرهتم آخره ؟ إنّه ليس لكم وحدكم الرضى . فجبهه أهل العراق وسفهوه وقال شاعرهم :

لآليت من يرضى من الناس كلهم بعمروٍ وعبد الله في لجة البحرِ
رضينا بحكم الله لا حكم غيره وبالله ربّاً والنبيّ وبالذكرِ
وبالأصلع الهادي عليٍّ إمامنا رضينا بهذا الشيخ في العسر واليسرِ
رضينا به حياً وميتاً وأنّه إمامُ الهدى في الحكم والنهي والأمر
فمن قال لا قلنا بلى إنَّ أمره لأفضل ما نعطاه في ليلة القدرِ
وما لابن هندٍ بيعة في رقابنا وما بيننا غير المثقفة السمرِ
وضرب يزيل الهام عن مستقره وهيهات هيهات الرضى آخر الدهرِ
أبت ليَ أشياخ الأراقم سبةً أسبُّ بها حتى أغيَّب في القبرِ

وهكذا انصرف أهل العراق للعراق وأهل الشام للشام وفي النفوس ما فيها من الأحقاد والأضغان وأيقنت الناس أنَّ لا صلح ولا سلام .

« ترجمة أبي موسى الأشعري »

هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حصار بن حرب بن عامر بن عمر بن بكر بن عامر بن عذر بن وائل بن ناجية بن الجماهر بن الأشعر . وأمّه بنت أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . قدم على رسول الله وأسلم وهو صلى الله عليه وآله وسلم في مكة قبل هجرة الحبشة والأكثرون على أنَّ أبا موسى لم يهاجر إلى الحبشة بل أسلم وعاد إلى اليمن ولم يزل فيها حتى قدم هو وناس من الأشعريين على المصطفى فوافق يوم قدومهم قدوم أهل السفينتين جعفر بن أبي طالب وأصحابه من الحبشة فوافوا رسول الله في خيبر فظنَّ قوم أنَّ أبا موسى قدم من الحبشة =

وَقَلَّ مَنْ ظَنَّ خَيْراً فِيْ ٱلْحُكُـوْمَةِ مَـا دَامَ ٱبْنُ قَيْسٍ مَعَ ٱبْنِ ٱلْعَاصِ مُجْرِيْهَا

= مع جعفر . وصحب أبو موسى المصطفى مدةً ثمَّ ولّاه ﷺ عدناً والساحل بجوارها (لحج وأبين وما جاورهما) . وولاه أبو بكر زبيداً من مخاليف اليمن . وفي عهد عمر بن الخطاب كان أبو موسى مع فاتحي الشام وشهد خطبة عمر في الجابية ووفاة عمر بن الجرّاح ثمَّ إنّ عمر ولّى أبا موسى على البصرة سنة ١٧ هـ لمَّا عزل المغيرة عنها وبأمره فتح أبو موسى نصيبين في تلك السنة وفتح بأمره أيضاً الأهواز وأصبهان سنة ٢٣ هـ وعاد إلى البصرة فظلَّ فيها إلى صدرٍ من خلافة عثمان حيث عزله هذا الخليفة وولّى على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز سنة ٢٩ هـ فغضب وسار إلى الكوفة فسكنها وفي نفسه ما فيها على عثمان وعمّاله .

وبقي الأشعري في الكوفة إلى أواخر أيام عثمان حيث هبَّ الكوفيون لمناوأة عثمان وأكثروا من الشكوى على واليه عليهم سعيد بن العاص فطلبه عثمان إليه مع من طلب من الولاة ثمَّ أعاده إلى الكوفة فأبى أهلها قبوله وأعادوه إلى عثمان ونادوا بأبي موسى والياً عليهم وذلك لما أنسوه فيه من الإنصراف إلى الصلاة والعلم بالكتاب ولشرف صحبته لرسول الله وقُتل عثمان والكوفة بولاية أبي موسى وبويع سيدنا علي خليفةً للمسلمين فأخذ عليه السلام ينظر في أمر العمّال ويستبدل الذين كثرت منهم الشكوى فأصرَّ الأشتر على إبقاء أبي موسى على ولاية الكوفة محسناً الظنَّ به شاهداً باستقامته وعدله فوافقه سيدنا علي على ذلك . ولمّا خرج أصحاب الجمل إلى البصرة وتغلبوا عليها وبطشوا بطشتهم بعامل سيدنا علي عليها كتبوا إلى أبي موسى أن ينضمَّ إليهم مع أهل الكوفة فأبى وأعلن حياده متعهداً أن لا يكون ضدَّهم وقال جهراً إنّها فتنة يتحاشاها فلما تبع سيدنا علي أصحاب الجمل ووصل إلى الربذة كان عليه السلام متأكداً أنّ أهل الكوفة شيعة له وأنَّ أبا موسى من الأمناء لبيعته فكتب إليه يطلب المدد فرفض وكان بعد ذلك ما مرَّ بنا تفصيله من ذهاب الأشتر إلى الكوفة وطرده أبا موسى منها فخرج أبو موسى إلى داخلية العراق وظلَّ خمسة أشهر مقاطعاً سيدنا علي ثمَّ عاد إليه تائباً وبايعه ومضى بعد ذلك إلى الشام فأقام في إحدى قراها في موضع سمّوه « عرضاً » وما عرفت أين موقعه وظلَّ هناك إلى أن انتهت موقعة صفين بالتحكيم واختاره الناس حكماً عن أهل العراق وكان من أمره في التحكيم ما قد رأينا .

وبعد فشله في التحكيم وظهور خديعته فرَّ إلى مكة غاضباً على عمرو بن العاص =

وَعِنْدَمَا حَانَ نُطْقُ ٱلْحُكْمِ وَٱلسَّنَةُ ٱلْـــمَضْرُوْبَةُ ٱلْوَعْدِ قَدْ وَافَتْ مُحِيْلِيْهَا
وَافَــتْ وُفُــوْدُ عَـلِيٍّ دُوْمَــةً وَوُفُــوْدُ ٱلشَّـآمِ وَٱلضَّغْنُ بَـادٍ مِنْ مَـآقِيْهَـا
«وَٱلْعَيْنُ تَعْـرِفُ مِنْ عَيْنَيْ مُحَـدِّثِهَـا إِنْ كَانَ مِنْ حُزْبِهَـا أَوْ مِنْ أَعَادِيْهَـا»
وَعِنْـدَمَا عَقَـدَتْ تِلْكَ ٱلْـوُفُـوْدُ حِبَـاهَـا وَٱسْتَقَـرَّ بِهَـا لِلْحُكْمِ نَـادِيْهَـا
وَافَى إِلَيْهَـا أَبُوْ مُـوْسَى بِمَـظْهَـرِ مَنْ حُقُـوْقُ شَرْعِ إِلٰـهِ ٱلْعَرْشِ مُـوْفِيْهَـا
وَكَــانَ يَتْبَعُـهُ عَمْــرُوٌ بِمَشِيَـةِ مُخْــتَـالٍ فَحُـوْرٍ يُجِيْـدُ ٱلْـدَّلَّ وَٱلتِّيْهَـا
فَـٱسْتَقْبَلَ ٱلْحَكَمَيْنِ ٱلنَّـاسُ مُبْشِـرَةً وَقَـدْ حَفَى بِهِمَـا بِـٱلصَّفْـوِ حَـافِيْهَـا
وَقَـالَ عَمْروٌ: أَبَـا مُوْسَى فِـدَاكَ أَبِيْ مِنْ سَيِّـدٍ بَلَغَ ٱلْجَـوْزَاءَ تَـوْجِيْهَـا
لَقَــدْ صَحِبْتَ رَسُــوْلَ ٱللَّهِ قَبْلِيَ ثُـــمَّ فِتَّنِيْ بِسِنِيِّ ٱلْعُمْـرِ طَـاوِيْـهَـا
لَكَ ٱلتَّقَدُّمُ فِيْ ٱلْقَوْلِ ٱلَّذِيْ أُذُنُ ٱلْإِ م سْــلاَمِ تُصْغِيْ إِلَيْـهِ كُنْ مُنَــاجِيْهَـا
وَزُخْـرُفُ ٱلْقَوْلِ غَـرَّ ٱلْأَشْعَرِيَّ فَلَمْ يَفْـطَنْ لِحِيْلَةِ عَمْـروٍ كَيْ يُحَـاشِيْهَـا
وَوَاجَهَ ٱلنَّاسَ بِٱلْحَمْدِ ٱلْوَفِيْرِ عَلَى ٱلْــرَّبِّ ٱلْقَـدِيْـرِ إِلٰـهِ ٱلنَّـاسِ ذَارِيْهَـا
ثُمَّتَ عَلَى ٱلْمُصْطَفَى صَلَّى صَلاَةَ أَمِيْـــنٍ مُسْلِمٍ كُـلُّ ذِيْ تَقْـوَى يُصَلِّيْهَـا
وَقَـالَ: يَا نَـاسُ بِتْنَـا نَـاظِـرِيْنَ مَلِيًّـــاً فِيْ أُمُــوْرِكُمْ كَيْمَـا نُــوَاسِيْهَـا

= وعلى نفسه وعلى كلّ ما حوله وكان يزعم أنّه أراد نصيحة الأمّة وظلّ في هاتيك المدينة المقدَّسة إلى أن مات واختلف الناس في سنة موته فقالوا إنّها سنة ٤٢ هـ وقالـوا سنة ٥٠ والله أعلم .

وأبو موسى هذا هو الذي نبه عمر بن الخطاب إلى وجوب تأريخ كتبه وذلك عندما تولّى البصرة سنـة ١٧ هـ فكان تنبيهـه هذا سبباً لوضـع التاريـخ الهجري على مـا تقدم القول في حاشية سبقت .

وكان أبو موسى قصيراً خفيف اللحم حسن الصوت جيد القراءة إلاّ أنّه كـان فائـل الرأي على بساطة تسهل معها خديعته على ما رأينا من أمره في التحكيم سامحه الله .

فَلَمْ نَرَ ٱلْخَيْرَ فِيْ ٱسْتُصْلَاحِ أُمَّتِكُمْ مِنْ بَعْدِ أَنْ عَاثَهَا بِٱلشَّرِّ عَاثِيْهَا
وَكَيْ نَلُمَّ بِصَافِيْ وُدِّهَا شَعَثاً بِهَا فَفَرَّقَ تَفْرِيْقاً مُحِبِّيْهَا
إِلَّا بِخَلْعِ عَلِيٍّ مَعْ مُعَاوِيَةٍ خَلْعاً بِهِ ٱلشِّرْعَةُ ٱلسَّمْحَاءُ نُرْضِيْهَا
وَٱلْأَمْرُ نُبْقِيْهِ شُوْرَى بَيْنَ أُمَّتِنَا لِتَنْتَقِيْ مِنْ قُرَيْشٍ مَنْ يُمَالِيْهَا
ذَا مَا عَلَيْهِ لَقَدْ تَمَّ ٱلْوِفَاقُ مَعَ آبْـــنِ ٱلْعَاصِ أَعْلُنُهُ فِيْ ٱلنَّاسِ تَجْرِيْهَا
وَإِنَّنِيْ خَالِعٌ مَعْهُ مُعَاوِيَةً وَٱلْمُرْتَضَى خَلْعَةً كُوْنُوْا مُرِيْدِيْهَا
وَلْتَخْتَرِ ٱلنَّاسُ مَنْ تَرْضَى لِأُمْرَتِهَا كِفْئاً كَرِيْماً يُرَقِّيْهَا وَيُهْنِيْهَا
وَمَا ٱنْتَهَتْ قَوْلَةُ ٱلْمَخْدُوْعِ وَهْوَ بِهَا يَجُدُّ مَا كَانَ يَدْرِيْ ٱلْهَزْلُ يُغْمِيْهَا
حَتَّى تَصَدَّى لَهُ عَمْرٌو بِلَا خَجَلٍ يُشَوِّهُ ٱلْحَقَّ بِٱلتَّضْلِيْلِ تَشْوِيْهَا
وَقَالَ: يَا نَاسُ هٰذَا قَالَ قَوْلَتَهُ وَكُنْتُمُ سَامِعِيْهَا وَهْوَ تَالِيْهَا
فِيْهَا لَقَدْ خَلَعَ ٱلْيَعْسُوْبَ صَاحِبَهُ عَنِ ٱلْخِلَافَةِ أَضْحَى مِنْهُ مُخْلِيْهَا
وَإِنَّنِيْ قَدْ خَلَعْتُ ٱلْيَوْمَ حَيْدَرَةً مَعْهُ وَخَلْعَتُهُ بِٱلْعَدْلِ نَأْتِيْهَا
لٰكِنَّنِيْ مُثْبِتٌ جَهْراً مُعَاوِيَةً فَوْقَ ٱلْخِلَافَةِ تُعْلِيْهِ وَيُعْلِيْهَا
هٰذَا وَلِيُّ ٱبْنِ عَفَّانٍ وَرَبُّكَ أَعْــــطَاهُ ٱلْوِلَايَةَ فَهْوَ مِنْهُ عَاطِيْهَا
وَإِنَّهُ بِٱلدَّمِ ٱلْمَهْدُوْرِ يَطْلُبُ أَعْــــدَاهُ ٱلَّتِيْ قَتَلَتْهُ فِيْ تَعَصِّيْهَا
لِذَا بِإِمْرَتِهِ قَدْ كَانَ أَجْدَرُ مِنْ كُلِّ ٱلْوَرَى فَهْوَ بِسْمِ ٱللّٰهِ رَاقِيْهَا
وَأَحْدَثَ ٱلشَّغَبَ ٱلْقَوْلَانِ وَٱضْطَرَبَتْ مَعَاشِرُ ٱلنَّاسِ مِنْ مَعْنًى مُكِيْدِيْهَا
وَهَالَ صَحْبَ عَلِيٍّ أَنْ يَفُوْزَ بِعَبْــــدِ ٱللّٰهِ عَمْرٌو فَيُغْوِيْهِ وَيُخْزِيْهَا
وَٱغْتَاظَ غَيْظاً أَبُوْ مُوْسَى لِخِزْيَتِهِ أَمَامَ أَصْحَابِهِ وَٱلْحِقْدُ فَاشِيْهَا
وَقَالَ: مَا لَكَ يَا عَمْرٌو غَدَرْتَ بِنَا وَقَدْ فَجَرْتَ فَلَا لَاقَيْتَ تَرْفِيْهَا

ثُمَّ تَبَادَلَ هٰذَانِ آلسِّبَابَ بِأَقْوَالِ آلْبَذَاءَةِ كَانَ آلْحُقْدُ يُمْلِيْهَا

وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ عَمْرٍو شَرِيْحُ بِضَرْ بَاتِ آلسِّيَاطِ يُؤْذِيْهِ تَتَالِيْهَا

كَذَاكَ صَحْبُ عَلِيٍّ بِآلْعَجُوْزِ لَقَدْ هَمَّتْ تُرِيْدُ بِهِ أَسْوَا مَآتِيْهَا

فَلَمْ تَنَلْهُ آخْتَفَى عَنْهَا وَسَارَ إِلَى أُمِّ آلْقِرَى خَلْسَةً إِذْ رَاحَ لاَجِيْهَا

وَعَادَ كُلُّ فَرِيْقٍ نَحْوَ مَوْطِنِهِ وَفِي آلنُّفُوْسِ حِزَازَتٌ تُلَظِّيْهَا

وَأَيْقَنَ آلنَّاسُ أَنْ لاَ سِلْمَ يُرْفِهُهَا وَآلْحَرْبُ بَالِغَةٌ مِنْهَا أَمَانِيْهَا

معاوية بعد نبأ التحكيم

خِدَاعُ عَمْرٍو خِفَافُ آلطَّيْرِ قَدْ حَمَلَتْـهُ لاِبْنِ حَرْبٍ سَرِيْعَاً فِيْ خَوَافِيْهَا[1]

أَوِ آلْخَدِيْعَةُ كَانَ آلرِّيْحُ نَاقِلَهَا إِلَى مَسَامِعِهِ حَالاً وَرَاوِيْهَا

---

(١) هرب عمرو بن العاص من بين الناس واختفى عن العيون والأرصاد في إحدى غرف دومة الجندل مطمئناً إلى نجاحه مرتاحاً إلى عمله وأخذ القرطاس فكتب إلى معاوية :

أتتك الخلافة مزفوفةً هنيئاً مريئاً تُقرُّ العيونا

تُزفُّ إليك زفاف العروس بأهون من طعنك الدارعينا

وما الأشعريُّ بصلد الزناد ولا خامل الذكر في الأشعرينا

ولكن أتيحت له حبَّة يظلُّ الشجاع لها مستكينا

فقالوا وقلت وكنتُ أمرءاً أجهجه بالخصم حتى يلينا

فخذها ابن هندٍ على بعدها فقد دافع الله ما يحذرونا

وقد صرف الله عن شامكم عدوّاً مبيناً وحرباً زبونا

وما انتهت أشعار عمرو بن العاص إلى معاوية حتى طار فرحاً وسروراً بها وازداد فرحاً عندما اطلع على نتيجة التحكيم وأسرع فدعا الناس إلى مبايعته فبايعه أهل الشام خليفةً واستقرَّ حكمه فيهم لا يتعداهم وأخذ يفكر بتوسيع أمره في بلاد الخلافة رويداً رويداً اتّكالاً على سعة حيلته وتساهله مع الناس وعلى نفرة الناس من حكم سيدنا أمير =

فأَعْلَنَ آلنَّاسَ خَلْعَ آلْمُـرْتَضَى وَدَعَا هَـا كَيْ تُبَـايِعَـهُ جَهْـرَاً بِـأَيْـدِيْهَـا
وَإِنَّ دَعْـوَتَـهُ أَلْـفَـتْ بِـأَنْـفُسِ آ هَـالِ آلشَّـآمِ هَـوَىً وَافَتْ تُلَبِّيْهَـا
وَعَـادَ عَمْـرُوٌ إِلَيْهَـا وَهْـوَ مُنْتَصِـرُ فَـآسْتَقْبَلَتْهُ بِـآيِ آلْمَـدْحِ تُسْـدِيْهَـا
وَحَـلَّ أَسْمَى مَحَـلٍّ عِنْـدَ صَاحِبِـهِ وَبَـاتَ مِنْـهُ قَـرِيْـرَ آلْعَيْنِ هَـانِيْهَـا
لٰكِنَّ بَيْعَـةَ إِبْنِ آلصَّخْرِ قَـدْ قَصُـرَتْ عَلَى آلشَّـآمِ وَمَـا جَـازَتْ أَهَـالِيْهَـا
وَإِنَّمَـا كَانَ يَـرْجُـوْ فَتْـحَ مَمْلَكَـةِ آلإِ م سْـلاَمِ بِـآلسَّيْفِ قَـاصِيْهَـا وَدَانِيْهَـا
فَـوَاصَـلَ آلْعَـزْمَ فِيْ تَحْقِيْقِ رُغْبَتِـهِ وَمِـثْلُهُ لَـمْ يَكُـنْ وَآللّٰهِ مُـرْجِـيْـهَـا
إِذْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ آلنَّـاسَ تُوْجِـدُ فِيْ ظِـلاَلِـهِ تِـرْفَـةً يَـحْلُوْ تَـفَيِّـيْـهَـا
لِـذَا تُـفَضِّـلُهُ عَـمَّـنْ يُـحَـاوِلُ أَنْ يَعُـوْدَ مَعْهَـا إِلَى قَـاسِيْ تَبَـدِّيْهَـا
وَلَمْ يَكُنْ جَاهِلاً مَا فِيْ آلْعِرَاقِ مِنَ آلـ ـشِّقَـاقِ وَآلنَّـاسُ يُـوْهِيْهَـا تَجَـزِّيْهَـا
وَإِنَّـهُ مَـعَ عَمْـرٍو بِـآحْتِيَـالِهِمَـا قَـدْ يَظْفَـرَانِ بِذِيْ آلـدُّنْيَا وَمَـا فِيْهَـا
وَيَبْلُغُ آلأُمْـرَةَ آلْـعُلْيَـا بِـسُؤْدُدِهَـا مَهْمَا آلْمَصَاعِبُ حَالَتْ دُوْنَ بَاغِيْهَـا
وَبَاتَ يَطْمَـعُ فِيْ نَهْبِ آلْخِلاَفَـةِ أَقْـ ـطَاعَاً وَكَانَ آخْتِلاَفُ آلنَّاسِ مُغْيِيْهَـا

أمير المؤمنين بعد نبأ التحكيم

أَمَّـا آلإِمَامُ فَلَمْ يَجْهَـلْ مَكِيْـدَةَ عَمْـ ـرٍو كَـانَ مُنْتَظِرَاً كَيْـدَاً يُحَـاكِيْهَـا[١]

= المؤمنين الذي يأبى إلاّ إرجاعهم إلى القرآن وسنّة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وكان اتّكاله بالأكثر على ما عرفه يقيناً من اختلاف أهل العراق فيما بينهم مما يضعف أمرهم أمامه وما كان في ذلك فائل الرأي ضائع الحساب .

وبعد قليل وصل عمرو بن العاص إلى الشام فاستقبله معاوية بغاية التجلة والإكرام وأحلّه المحل اللائق به من الإجلال والإحترام .

(١) هرب أبو موسى الأشعري من أيدي أصحاب سيدنا علي وهو موقن أنهم =

وَكَانَ أَدْرَى ٱلْـوَرَى بِٱلْأَشْعَرِيِّ وَمَا فِيْ نَفْسِـهِ مِنْ خُـوَارٍ كَـانَ مُـوْهِيْهَـا

= قاتلوه لا محالة لو ظفروا به وقصد رأساً مكة معتصماً بالكعبة كرمها الله محتمياً بها وهو على أشدّ الندم والغيظ وكان يقول لمن يصادفه : والله لقد حذّرني ابن عباس غدرة الفاسق ولكني اطمأنيت إليه وظننت أنّه لا يؤثّر شيئاً على نصيحة الأمّة . ونحن بدورنا نقول لا ندري والله ما هي نصيحة الأمّة التي أرادها أبو موسى بإخلاء الخلافة من أمير المؤمنين عليه السلام وهو من الأمّة على ما نعلم ويعلم في محل القطب من الرحى كما نجهل ما كان يريد بترك الأمر شورى بين قوم كلّ منهم يريدها لنفسه وما فيهم بإجماع الأئمة من يعادل سيدنا أمير المؤمنين بوجه من الوجوه ولكن قُدّر فكان .

ولما انتهى نبأ ما كان من أمر التحكيم وخديعة أبي موسى الأشعري إلى سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام لم يقع منه في موقع الغرابة لأنّه كان مقدراً هذه النتيجة السوداء المحزنة وخرج إلى الناس في المسجد فعلا المنبر خطيباً فقال : « الحمد لله ، وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، والحدث الجليل ، وأشهد أنّ لا إله إلّا الله ، وحده لا شريك له ، ليس معه له غيره ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، صلّى الله عليه وآله ، أمّا بعد ، فإنّ معصية الناصح الشفيق ، العالم المجرّب ، تورث الحسرة ، وتعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري ، ونخلت لكم مخزون رأيي ، لو كان يطاع لقصير أمر ، فأبيتم عليّ إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقدحه ، فكنت أنا وإيّاكم كما قال أخو هوازن :

أمرتكم أمري بمتعرج اللوى فلم تستبينوا النصح إلّا ضحى الغد

إلّا أنّ هذين الرجلين ، اللذين اخترتموهما ، قد نبذا حكم الكتاب ، وأحييا ما أمات ، واتّبع كلّ منهما هواه ، وحكم بغير حجّة ولا بينة ولا سنّة ماضية ، واختلفا فيما حكما ، فكلاهما لم يرشد الله ، فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للمسير ، وأصبحوا في معسكركم » اهـ وعندما نزل أمير المؤمنين عن المنبر اعترضه الناس بين متقمقم يلومه على الحكومة وهو غير ملوم ومتفانٍ بالانتصار له يطلب منه أن يسرع بالهجوم .

« قصة قصير »

استشهد سيدنا علي عليه السلام بالمثل المشهور « لو كان يطاع لقصير أمر » فحسن لنا أن نسرد قصة قصير هذا فنقول :

=

فَمُنْذُ تَبَلَّغَ مَا قَدْ كَانَ مِنْ نَبَإِ آلـــتَّحْكِيمِ وَٱلْحِيْلَةِ ٱلسُّوْءَى وَمُجْرِيْهَا

= كان في سنة ٢١٥ مسيحية ملك على الحيرة يدعى جذيمة بن مالك الأزدي وكان ذكياً شجاعاً انتصر في حروب كثيرة وكان أبرص ولكن الناس تأدباً كانوا يلقّبونه بالأبرش أو الوضاح وكان جذيمة يأنف من منادمة الناس منفرداً بنفسه وكان سلوته الوحيدة ابن أخته رقاش ويدعى عمرو ففقد خلسةً وجزع عليه أشدّ الجزع وبعد مدة عثر بعمرو هذا رجلان من بني القين فأتيا به إلى جذيمة ففرح فرحاً عظيماً وخيرهما في المكافأة فاختارا منادمته ما عاش وعاشا فنادمهما أربعين سنة وسُرَّ من صحبتهما ولم يفرّق بينه وبينهما إلاَّ الموت وضربت الناس بهما المثل في دوام الصحبة فقالوا « كندماني جذيمة » وقال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكاً مضمناً هذا المثل :

وكنا كندماني جذيمة حقبةً   من الدهر حتى قيل لن يتصدَّعا
فلمّا تفرَّقنا كأني ومالكاً   لطول اجتماعٍ لم نبت ليلةً معا

وكان على عهد جذيمة ملك من العماليق يدعى عمرو بن الظرب وكان يملك الجزيرة وأعالي الفرات ومشارق الشام وكانت عاصمته « تدمر » فزحف إليه جذيمة وناصبه الحرب حتى قتله وخلفت جذيمة على الحيرة ابنته زينب الملقبة « بالزباء » وكانت وافرة الجمال وافية الذكاء كاملة الاحتيال وما كادت تستلم زمام الملك حتى أقامت فيه من معالم الإصلاح ما جعلها مضرب الأمثال . وكانت وهي مجدّة وراء سياسة مملكتها عاملة على رقيها تفكر بالانتقام لأبيها من الأبرش قاتله وإذ رأت أنَّ أخذه عنوةً بحرب يتعذَّر عليها عمدت إلى الحيلة فطفقت تحسن مخاطبته وتكثر من مراسلته بحجة تأييد السلم بين بلاديهما حتى إذا ما شعرت من كتبه أنّه بات على ثقة منها أرسلت تخطبه لنفسها وتدعوه إليها ليقترنا ويضما مملكتيهما إلى مملكة واحدة . فلما انتهى كتاب الزباء إلى جذيمة الأبرش ارتاح إليه وشاور بما فيه من أمر زواجها أهل خاصته فوافقوه عليه إلاّ وزيره قصير بن سعد اللخمي . وكان هذا في الأصل من عبيد جذيمة ولما ظهر عليه من الذكاء وحسن الرأي حرّره واستوزره فإنَّ قصيراً هذا خالف أصحاب جذيمة وما فات سداد رأيه ما في نفس الزباء من سيده وقال : « الرأي أن تكتب إلى الزباء أن تحضر إليك فإن كانت صادقة النية لبت الطلب وأمّا أنت يا مولاي فإيّاك أن تذهب إليها وتقع في حبالتها وقد وترتها بقتل أبيها فأبى جذيمة الإصغاء إليه وقد خالف مشيريه وأزاده تشجيعاً على إجابتها ابن أخته عمرو بن عدي . فهزَّ قصير =

وَافَى إِلَى ٱلنَّاسِ فِيْ سَامِيْ عَزِيْمَتِهِ   وَٱلنَّـاسُ تَعْـرِفُـهُ مَـا هَمَّ يُمْضِيْهَـا
وَقَـالَ لِلَّهِ حَمْـدِيْ فَـٱحْمَـدُوْهُ مَعِيْ   وَإِنْ أَرَتْنَـا لَيَـالِيْنَـا كَـوَادِيْهَـا

= كتفيه وقال « لا يطاع لقصير أمر » .

وصحت عزيمة جذيمة على الذهاب إلى الزباء فاستخلف عمراً ابن أخته على ملكه وسار بخاصته إلى تدمر وفيهم قصير وما كاد يدنو منها حتى أرسلت الزباء وفوداً من قبلها لاستقباله ومعهم الهدايا فقال جذيمة لقصير ما رأيك في هؤلاء القادمين علينا ؟؟ فقال : أعلم أنَّ هؤلاء هم جنود الزباء فإن ساروا أمامك فلا تخفهم وسر معهم وإن أحاطوا بك فاعلم أنّهم غادرون فاهرب على جوادك وما هو إلاّ القليل حتى وصل رجال الزباء فأحاطوا بجذيمة ولم تفت قصير المكيدة فأدبر راجعاً إلى الحيرة .

ولما بلغ جذيمة تدمر سار به أصحاب الزباء إلى قصرها وعندما أدخلوه عليها بادرته جواريها فأخذنَ بضبعيه وأجلسنه على النطع وقطعن راهشيه ومددن ذراعيه على طست كي لا يضيع شيءٌ من دمه وما زال دمه يسيل حتى فاضت روحه وجمعت الزباء دمه في ربعةٍ (وعاء العطر) وحفظته في خزائنها . وفي خلال مقتل جذيمة على هذا الشكل كان رجال الزباء أوقعوا برجاله فأهلكوهم .

أمّا قصير فعندما بلغ الحيرة أخبر الناس بما ينتظر من الكيد لجذيمة فاجتمعوا وملكوا ابن أخته عمراً بن عدي عليهم وكان قصير يحرّض عمراً على الأخذ بثأر خاله جذيمة إلاّ أنَّ عمراً كان يهاب الإقدام على ذلك لما سمعه من حيطة الزباء لنفسها وكثرة ما لديها من قوَّة فعمد قصير إلى الحيلة وجدع أنفه وصلم أذنيه وسار إلى الزباء وهو يظهر الحقد على عمرو بن عدي مدعياً أنّه هو الذي فعل به ما فعل انتقاماً لخاله بحجة أنّه هو الذي أشار عليه بالمسير إلى الزباء فلما رأت هذه قصيراً على ما ذكرنا وسمعت قوله انطلت عليها حيلته وأنزلته في قصرها وأكرمت مثواه وجعلته موضع شوراها فاغتنم الفرصة واطلع على دخائلها في قصرها وعرف فيه نفقاً متصلاً بخارج السور فأسرَّ ما عرف بنفسه ثمَّ ادَّعى أنّه يملك أموالاً وفيرة في الحيرة واستأذن أن يسير إليها ليأتي بها فأذنت له فخرج إلى الحيرة وأطلع عمراً بن عدي على سرّ النفق وجاءَ بألفي فارس شاكي السلاح وجعلهم في غرائر (أي أكياس كبيرة) وجعل كل غرارتين على جمل وجعل عمراً حادي تلك الجمال ومضى بها إلى تدمر حتى إذا ما دخلتها أسرع قصير إلى الزباء وقال لها أبشري فقد جئتك بما صأى وصمت أي الإبل والذهب فاصعدي =

وَإِنَّنِيْ شَاهِدُ أَنْ لا إِلٰهَ سِوَاهُ لِلْخَلائِقِ أُنْسِيهَا وَجِنِّيْهَا
وَإِنَّ أَحْمَدَ خَيْرَ آلْخَلْقِ أَجْمَعِهَا رَسُوْلُهُ آلْمُصْطَفَى لِلنَّاسِ يَهْدِيْهَا
صَلَّىٰ آلْإِلٰهُ عَلَيْهِ كُلَّمَا سَطَعَتْ شَمْسٌ عَلَى أَرْضِنَا تُجْلِيْ دَيَاجِيْهَا
وَبَعْدُ يَا صَحْبَنَا فَإِنْ أَتَاهَا فَآلدَّهْرُ ذُوْ غِيَرٍ فَأَبْعِدْ أَنْ نُحَاشِيْهَا

= إلى أعلى سور القصر لتنظريها فصعدت وأرسلت طرفها إلى المدينة فرأت الجمال تكاد تسوخ أقدامها في الأرض من ثقل أحمالها وبينما كانت تنظر إليها وإذا بها قد انيخت وخرجت الرجال من غرائرها وجعلت تعمل السيف بأهل المدينة .

وكان قصير عندما بلغ تدمر سار بعمرو بن عدي إلى باب النفق الخارجي وأدخله فيه وقال أسرع إلى داخل القصر وقف عند باب النفق الآخر حتى إذا ما جاءَت الزباء لتدخل النفق وتهرب استقبلها بسيفك وانتقم منها لخالك ففعل . وبالفعل عندما رأت الزباء المكيدة أسرعت إلى النفق لتهرب فوجدت عمراً في وجهها مشهراً سيفه فأسرعت إلى خاتم مسموم بأصبعها فامتصته وقالت « بيدي لا بيد عمرو » ووقعت ساقطةً عند قدميه تجود بنفسها فأجهز عليها واستحوز على أموالها ودكَّ معالم قصرها . وكان ذلك سنة ٢٧٢ مسيحية أي بعد أربع سنوات من قتل خاله ومات عمرو سنة ٢٨٨ مسيحية .

هذا خلاصة ما أورده العرب عن الزباء أمّا مؤرخو الإفرنج فيدعون الزباء ملكة تدمر ويقولون إنّها حاربت الرومان وانتصرت عليهم غير مرةٍ إلى أن انتصر عليها الأمبراطور الروماني « أورليان » فأسرها ونقلها إلى رومة وماتت فيها .

« أبيات دريد بن الصمة »

أمّا البيت الذي استشهد به سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام فهو من قصيدة حماسية منسوبة لدريد بن الصمة شاعر هوازن وهاك بعضها :

نصحتُ لعرَّاضٍ وأصحاب عارضٍ ورهط بني السوداءِ والقوم شهَّدي
علانيةً ظنوا بألفي مدجَّجٍ سراتهمُ في الفارسي المسرَّدِ
أمرتهمُ أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلّا ضحى الغدِ
فلما عصوني كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم أو أنني غير مهتدي
وما أنا إلّا من غزيَّة إن غوت غويتُ وان ترشد غزية أرشد

وَإِنَّ مَعْصِيَةَ ٱلنِّدْسِ ٱلشَّفِيْقِ أَخِي ٱلـــنُّصْحِ ٱلْمُجَرَّبِ لَمْ تُؤْمَنْ مَخَاشِيْهَا

فَتُـوْرِثُ ٱلْحَسَرَاتِ ٱلْكُثْـرَ صَاحِبَهَا وَتُعْقِبُ ٱلنَّـدَمَ ٱلْمَـوْفُـوْرَ آتِيْـهَـا

وَفِيْ ٱلْحُكُـوْمَةِ أَمْـرِيْ قَـدْ أَمَـرْتُكُمُ إِذْ كُنْتُ أَعْـرِفُ خَـافِيْهَـا كَبَادِيْهَـا

وَقَـدْ نَخَلْتُ لَكُمْ مَخْـزُوْنَ رَأْيِي فِيْـــهَا مُوْصِـلاً حَالَهَـا ٱلْمُشْجِي بِآتِيْهَا

لٰكِنْ عَـرَفْنَا « قَصِيْـرَاً » لَا يُطَاعُ لَـهُ أَمْـرٌ إِذَا ذَكَـرَ ٱلْأَمْثَـالَ نَـاسِيْهَـا

وَقَـدْ أَبَـيْتُـمْ وَيَـا ذُلَّاهُ مَشْـوَرَتِـي إِبَـاءَةً لَـيْسَ مِـنْ شَـرٍّ يُـوَازِيْـهَـا

خَـالَفْتُمُـوْنِي جُفَـاةً فِيْ تَتَبُّـعِهَـا نَـابَـذْتُمُـوْنِيْ عُصَـاةً فِيْ تَحَـدِّيْهَـا

حَتَّى قَـدِ آرْتَـابَ رَيْبَـاً فِيْ نَصِيْحَتِـهِ نَصِيْحُكُمْ فَهْـوَ يَـأْبَى أَنْ يُثَـنِّيْـهَـا

وَزَنْـدُ فِكْـرَتِـهِ مَـا عَـادَ يَقْـدَحُ نِيْــــرَانَ الـرَّوِيَّـةِ فَـٱلْعُصْيَـانُ مُـطْفِيْهَـا

وَكُنْتُ مَعْكُمْ كَمَا كَانَتْ هَـوَازِنُ مَعْ نَصِيْحِهَـا إِذْ عَصَتْـهُ فِيْ مَخَـاطِيْهَـا

وَهَـا هُمَا حَكَمَـاكُمْ كَـانَ حُكْمُهُمَـا مُـخَـالِفَـاً آيَ رَبِّـي لَا يُـرَانِيْـهَـا

هُمَـا لَقَدْ نَبَـذَا أَحْكَامَ شَـرْعِهِمَا ٱلْأُم غَـرِّ لَمْ يُـرْسِيَـاهَـا فِيْ مَـرَاسِيْهَا

وَأَحْيَيَـا مَا أَمَـاتَ ٱلشَّـرْعُ مِنْ بِـدَعٍ وَمَـوَّتَـا سُنَنَـاً وَٱلشَّـرْعُ مُحْيِيْهَـا

وَكَـانَ كُـلُّهُـمَـا وَٱلـلَّهِ مُـتَّـبِـعَـاً هَـوَاهُ وَٱلنَّفْسُ تُغْـوِيْ مَنْ يُهَـاوِيْهَا

قَضَى بِـلَا حُجَّـةٍ زَهْـرَاءَ وَاضِحَـةٍ وَسُنَّــةٍ لِـرَسُـوْلِ ٱللَّهِ نَـدْرِيْـهَـا

لِـذَا قَـدِ ٱخْتَلَفَـا فِيْمَـا ٱحْتَكَمَـا فِيْ أَمْـرِكُمْ لِمُنَىً فَسَـلْ تَـوَخِّيْهَـا

كِـلَاهُمَا ٱللَّهُ لَمْ يَـرْشُدْ فَقَـدْ غَـوِيَـا غِـوَايَـةً نَحْنُ نَمْشِيْ فِيْ غَـوَاشِيْهَـا

فَلِلْجِهَــادِ ٱسْتَعِـدُّوْا وَٱلْعُصَـاةُ لَتَـأْ بَى أَنْ يَكُوْنَ سِوَى ٱلنِّيْضَالِ قَاضِيْهَا

وَكَـانَ يَخْـطُبُ بَيْنَ ٱلنَّـاسِ حَيْـدَرَةُ وَنَغْمَـةُ ٱلْخَزْلِ فِيْ خَـافِيْ مَطَاوِيْهَـا

لَقَـدْ أَسَاءَتْ إِلَيْـهِ أَمْسِ وَٱنْصَـرَفَتْ إِلَى عَـدَاوَتِـهِ ذَا ٱلْيَـوْمَ تُبْـدِيْهَـا

عَلَيْهِ قَدْ خَرَجَتْ ظُلْمَاً تُؤَاخِذُهُ بِـرَغْبَةٍ قَـدْ أَصَرَّتْ أَنْ تُجَرِّيْهَا
مَا آسْطَاعَ تَحْوِيْلَهَا عَنْ شَرِّ رَغْبَتِهَا بِـأَمْسِهَا عِنْـدَمَا وَافَى يُفَـاهِيْهَـا
وَآلْيَـوْمَ تَنْقِمُ مِنْـهُ فِيْ نَتِيْـجَتِـهَـا بَغْيَـاً وَشِـرَّتُهَـا صَعْبٌ تَـلاَفِيْهَـا
كَـذَا آلْخِـلاَفَةُ بَـاتَتْ فِيْ مَتَاعِبِهَا بِحَـالَـةٍ لَمْ تَكُنْ تُـرْضِي مُحِبِّيْهَـا
فَفِيْ آلْعِرَاقَيْنِ قَدْ هَبَّ آلْخَوَارِجُ لِلْـحَرْبِ آلْعَوَانِ فَلَمْ تَهْدَأْ سَوَافِيْهَا
وَفِيْ آلشَّامِ آبْنُ حَرْبٍ بَاتَ يَطْمَعُ فِيْ أَرْضِ آلْخِـلاَفَةِ طُـرَّاً فَهْـوَ غَـازِيْهَـا
وَآلْمُرْتَضَى كَانَ يَلْقَى آلْكَارِثَاتِ بِعَزْمٍ لاَ يُـفَـلُّ فَتَـلْقَـاهُ تَمَـاسِيْـهَـا
وَصَحْبُـهُ آنْصَرَفَتْ لِلْحَـرْبِ تَنْصُـرُهُ عَلَى آللَّيَـالِي آلَّتِيْ أَدْجَتْ دَيَـاجِيْهَـا

أمير المؤمنين ومؤلهوه

أَتَى آلْـوَصِيُّ فِعَالاً فَـوْقَ طَـاقَـةِ أَهْـلِ آلأَرْضِ مَا مِنْهُمُ تَآللَّهِ يَأْتِيْهَا[١]
هِيَ آلْخَوَارِقُ قَدْ أَضْحَى عَلَى يَدِهِ آلـرَّحْمٰنُ خَـالِقُـهُ لِلنَّـاسِ يُجْلِيْهَـا

---

(١) لا جـرم أنّ ما أتى أميـر المؤمنين عليه السلام من الخوارق التي يعجـز عن إتيـانهـا البشر قد جعل في أنفس معاصريه ومشاهدي كمالاته ومعجزاته شكّاً في حقيقته فـذهب قوم إلى أنه نبيّ ولكن ما يصنعون بقـول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وهـو « لا نبيّ بعدي » ؟ وقـال غيرهم إنّ الجوهر الإلٓهي حلَّ في بدنه على نحـو ما قـال النصارى في عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام وغلا آخرون فقالوا إنّما هو الإلٓه الواحد الخـالق الرازق تنـزّه الله عمّا كفروا وقد روى الرواة الثقاة عن هؤلاء الكفرة الذين ألّهوا المرتضى وعبدوه روايات شتّى وأجمعوا على أنّه عليه السلام عندما عجز عن إعادتهم إلى الهدى أحرقهم بالنار ليـلاشي بدعتهم ويبيد كفرهم .

ولقد عرف المصطفى بما كشف الله عن بصيـرته لمعـرفة الغيب مـا سيكون لابن عمّـه وأخيه ووصيّـه وصنوه المـرتضى عليهما الصـلاة والسلام من الشـأن العجيب عنـد الناس فنبهه إلى ذلك وقال « يهلك فيك رجلان محبٌّ غـال ومبغض قال » وقـال له مـرَّةً « والذي نفسي بيده لولا أنّي أشفق أن يقول طوائف من أمّتي فيك ما قالت النصارى في =

فَكَـانَ بِـآلآتِيَـاتِ آلْـوَاقِعَـاتِ يُفَـا هِيْ آلنَّاسَ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَجْرِيْ وَيُنْبِيْهَا
وَبِـآلْبَـوَاهِـرِ مِنْ نُصْـحٍ وَمِنْ حِكَمٍ يُـزِيْنُ أَقْـوَالَـهُ آلْغَـرَّا وَيُحْلِيْـهَـا
وَأَوْقَفَ آلشَّمْسَ عَنْ مَـرْئِيِّ دَوْرَتِهَا أَوِ آسْتَضَـاءَ بِـأَنْـوَارٍ تُحَـاكِيْـهَـا
وَبَجَّسَ آلْمَاءَ مِنْ صَخْرٍ وَمِنْـهُ سَقَى جُيُـوْشَـهُ وَآرْتَـوَتْ مِنْـهُ مَـوَاشِيْـهَـا

= ابن مريم لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمرّ بملأ من الناس إلّا أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة » .

أمّا قصة أولئك الذين ألّهوا المرتضى فأول من جهر بهذا الكفر منهم هو عبد الله بن سبأ وتبعه نفر من الناس قالوا كانوا مرةً في المسجد الجامع في الكوفة فعلا المرتضى عليه السلام المنبر خطيباً وبينما هو يخطب في الناس قاطعه عبد الله وطفق يصيح أنت أنت ولا يزيد فقال له المرتضى ويلك من أنا ؟ فقال عبد الله أنت الله فأمر أمير المؤمنين بالقبض عليه مع شيعته وزجهم في السجن وهو مغتاظ ثمّ أسرع إلى سجنهم فلقيهم فيه وطفق يقنعهم بأنّه إنسان مثلهم وعبد من عبيد الله يحاكيهم ووضع خده على التراب وقال لهم ويلكم إنّما أنا عبد من عبيد الله فاتّقوا الله وارجعوا إلى الإسلام فأصرّوا على الكفر واستمروا على طغيانهم وهم يصيحون بل أنت إلّهنا وخالقنا ورازقنا ، وعندما أعيته الحيل معهم هاب أن تتفشى دعوتهم في الناس فأمر فحفرت لهم حفرتان تتصلان ببعضهما بسرب وأمر أن توقد النيران بإحداهما وأن يوضع أولئك الكفرة في الأخرى ليؤذيهم دخانها فيرتدعون فلمّا صاروا في حفرة الدخان استتابهم وتوعدهم فأبوا وأصرّوا على الكفر فأمر بزجهم في حفرة النار وعندما بلغوها صاحوا « الآن ظهر لنا ظهوراً بيناً أنّك أنت الإلّه لأنّ ابن عمّك الذي أرسلته قال لا يعذّب بالنار إلّا ربّ النار » وكان هذا آخر كلامهم واحترقوا .

وروى بعضهم أنّ زعيم هذه الفئة الضالة عبد الله بن سبأ أظهر التوبة وتوسط له بعض الناس لدى أمير المؤمنين فعفا عنه ونفاه من الكوفة إلى المدائن وظلّ فيها مخفياً كفره حتى قتل أمير المؤمنين عليه السلام فلمّا بلغه نبأ قتله قال والله لو جئتمونا بدماغه في سبعين صرّة لعّلمنا أنّه لم يمت ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه قالوا واجتمع حول عبد الله بن سبأ هذا بالمدائن جماعة على هذا الكفر وكانت لهم دعوة تبعها كثيرون وبقيت باقيتهم زمناً طويلاً .

وَبِـالْكَمَـالِ تَـجَلَّى إِذْ تَـنَـزَّهَ عَنْ نَقَائِصِ النَّاسِ بِالْإِجْمَاعِ تَنْـزِيْهَا

لِـذَا غَـلَتْ فِئَـةٌ فِيْـهِ بِقَـوْلَتِـهَـا وَأَلَّـهَـتْـهُ مَعَـاذَ اللَّهِ تَـأْلِـيْـهَـا

وَنَبَّـأَ الْمُصْـطَفَى مِنْ قَبْـلُ حَيْـدَرَةً بِأَمْـرِهَـا وَهْـوَ خَـاشٍ مِنْ تَغَـالِيْهَـا

فَقَـالَ: يَهْلَكُ مَنْ يَغْلُوْ بِحُبِّـكَ أَوْ يَغْلُوْ بِبُغْضِـكَ وَالنِّيْـرَانُ يَشْـوِيْهَـا

لَـوْلَا الْمَخَافَةُ مِنْ قَوْمٍ تَقُـوْلُ كَمَـا قَالَ النَّصَارَى بِعِيْسَى فِيْـكَ يَجْرِيْهَـا

لَقُلْتُ فِيْـكَ مَقَالاً يَسْتَثِيْـرُ هَـوَى الْـــنُّفُـوْسِ نَحْوَكَ مِنْ أَقْصَى مَطَاوِيْهَا

وَلِلتَّبَـرُّكِ تَـقْنِـيْ النَّـاسُ أَتْـرِبَـةً مِنْ تَحْتِ نَعْلِكَ إِذْ فِيْ السَّيْرِ تُذْرِيْهَا

وَكَـانَ مَـا قَـالَ طَـهَ وَانْجَلَتْ فِئَـةٌ وَحُبُّ حَيْـدَرَةٍ بِالشِّـرْكِ مُغْـوِيْهَـا

فَـأَلَّـهَـتْـهُ وَضَـلَّتْ فِـيْ مَـحَبَّـتِـهِ عَنِ الْهِـدَايَـةِ وَاجْتَـازَتْ مَثَاوِيْهَـا

أَجَـلْ فَقَدْ كَـانَ عَبْـدُ اللَّهِ إِبْنُ سَبَـا لِلشِّـرْكِ قَـائِـدَهَـا جَهْـرًا وَمُغْـرِيْهَـا

وَذَاتِ يَـوْمٍ أَمِيْـرُ الْمُؤْمِنِينَ عَـلَا فِيْ ذُرْوَةِ الْمِنْبَـرِ الْكُـوْفِيِّ عَـالِيْهَـا

وَرَاحَ يَنْشُـرُ هَـاتِيَـكَ الْجَـوَاهِـرَ مِنْ فِيْـهِ عَلَى النَّاسِ فِيْ زَاهِيْ تَـلَالِيْهَا

وَأَعْيُنُ النَّـاسِ لَا تَنفَـكُّ تَحْـدُجُـهُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ وَحَـدْبٍ وَهْوَ مَـالِيْهَا

كَـذَاكَ آذَانُهَـا تُصْغِيْ لِحِكْمَتِـهِ الْـــغَرَّا الَّتِيْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ يُلْقِيْهَـا

وَبَيْنَمَـا هُـوَ فِيْ غَـرَّاءِ خُـطْبَتِـهِ مُسْتَـرْسِلاً يَقْـرَعُ الْأَسْمَاعَ يُشْجِيْهَـا

وَإِذْ دَوَى صَـوْتُ عَبْدِ اللَّهِ وَهْـوَ يُنَـا دِيْ: أَنْتَ أَنْتَ فَنَادَى الْمُرْتَضَى إِيْهَا

وَقَـالَ: وَيْلُكَ يَـاذَا مَنْ أَكُـونُ أَنَـا أَجَـابَ: أَنْتَ إِلَـهُ الْخَلْقِ بَـارِيْهَـا

فَـأَظْلَمَ النُّـوْرُ فِيْ عَيْنَيْ أَبِيْ حَسَنٍ غَيْـظًا وَسَفَّهَ مُبْدِيْ الشِّـرْكَ تَسفِيْهَـا

وَقَـالَ: هَيَّ امْسُكُـوْهُ مَـعْ جَمَـاعَتِـهِ فَـإِنَّهُمْ شَـوَّهُـوْا الْإِيْمَـانَ تَشْـوِيْهَـا

حَتَّى إِذَا حَـبَسُـوْهُـمْ رَاحَ يُقْـنِعُـهُمْ بِـأَنَّـهُ مِنْ عِبَـادِ اللَّهِ يَحْكِيْهَـا

فَلَمْ يُفِدْ وَعْظُهُ فِيهِمْ وَلَا قَنِعُوْا بِأَنَّهُ فِيْ آلْبَرَايَا مِنْ أُنَاسِيْهَا
فَهَالَهُ أَمْرُهُمْ هَوْلاً وَدَعْوَتُهُمْ لِلْكُفْرِ أَصْبَحَ يَخْشَى مِنْ تَفَشِّيْهَا
وَقَالَ: هَيَّ آحْرُقُوْهُمْ إِنَّ أَنْفُسَهُمْ إِبْلِيْسُ بِآلْكُفْرِ وَآلْإِشْرَاكِ طَاغِيْهَا
وَطَهِّرُوْا آلْأَرْضَ مِنْ طُغْيَانِهِمْ فَقَدِ آرْ تَدُّوْا عَنِ آلشِّرْعَةِ آلسَّمْحَا وَمُوْحِيْهَا
وَأَعْلَنُوا آلْكُفْرَ وَآلْكُفَّارُ لَيْسَ لَهَا إِلَّا لَظَى آلنَّارِ فِيْ آلدَّارَيْنِ تَصْلِيْهَا
فَبَادَرَتْ حَفَرَتْ أَعْوَانُ حَيْدَرَةٍ حَفِيْرَةً أُلْهِبَتْ نِيْرَانُهَا فِيْهَا
وَأَوْصَلَتْهَا بِأُخْرَى لِلدُّخَانِ وَيَا سِرْعَانَ مَا بَاتَتِ آلْكُفَّارُ تَأْوِيْهَا
فَجَاءَهَا وَهْيَ فِيْ وَسْطِ آلدُّخَانِ يُنَا دِيْ أَنْ تَتُوْبَ فَمَا لَبَّتْ مُنَادِيْهَا
فَقَالَ: هَيَّ آنْقُلُوْهَا لِلسَّعِيْرِ فَمَا آرْ عَوَتْ وَلَا كَانَ ذَا آلدُّخَّانُ كَافِيْهَا
فَأَرْسَلُوْهَا إِلَى آلنِّيْرَانِ تَحْرِقُهَا فَلَمْ تَهَبْهَا وَظَلَّتْ فِيْ تَعَصِّيْهَا
كَانَتْ تَقُوْلُ جِهَاراً: لَا يُعَذِّبُ بِآلـــنِّيْرَانِ إِلَّا إِلٰهُ آلنَّارِ ذَارِيْهَا
إِنَّ آبْنَ عَمِّكَ طَهَ كَانَ أَنْبَأَنَا بِذَا وَنَبَّهَنَا مِنْ قَبْلُ تَنْبِيْهَا
وَقَدْ أَصَرَّتْ عَلَى طُغْيَانِهَا وَمَضَتْ فِيْهِ وَمَا آتَّعَظَتْ حَتَّى تَلَاشِيْهَا

أمير المؤمنين وصاحب الحلوى

وَافَى أَبَا حَسَنٍ يَوْماً أَخُوْ طَمَعٍ يَشْرِيْ وَلَاهُ بِحَلْوَى رَامَ يُهْدِيْهَا[1]
وَكَانَ يَطْلُبُ مِنْ تِلْكَ آلْمُصَانَعَةِ آلـــسُّوْءَى مِنَ آلْمُرْتَضَى رُغْبَى يُرَجِّيْهَا

---

(١) خطر لأحد ذوي المطامع الراغبين عن الحق المقدمين على الباطل أن يتقرّب من سيدنا أمير المؤمنين بحلوى يكتسب بها رضاءه فيسعف أمله بحاجةٍ له وإذ كان يعرف أنَّ عمله غير شرعي أتاه في ظلمة الليل فاحتمل في وعاءٍ حلوى طبخها وسار بها إلى منزل أمير المؤمنين عليه السلام فقرع الباب والناس نيام فخرج بنفسه الشريفة إلى الباب وفتحه وهو مستغرب تلك الزيارة في جنح الظلام وقد روى سيدنا علي نفسه ما =

وَافَاهُ فِي ظُلْمَةِ ٱللَّيْلِ ٱلْبَهِيمِ وَقَدْ   كَانَ ٱلْأَمِيرُ يُنَاجِي رَبَّهُ فِيهَا

فَبَادَرَ ٱلْبَابَ يَسْتَجْلِي خَبِيئَةَ هَا   تِيْكَ ٱلزِّيَارَةِ وَٱلْإِبْهَامُ غَاشِيْهَا

وَإِذْ بِشَخْصٍ وَفِي يُمْنَاهُ يَحْمِلُ حَلْـ   ـوَاهُ فَسَلَّمَ وَهْوَ مِنْهُ يُدْنِيْهَا

فَصَاحَ: وَٱعَجَبِي مِنْ طَارِقٍ بِظَلَا   مِ ٱللَّيْلِ دَاراً بِهَا قَدْ قَرَّ آوِيْهَا

وَفِي يَدَيْهِ لَنَا مَلْفُوفَةٌ بِوِعَا   ءٍ كَانَ فِيهِ عَنِ ٱلرَّائِي مُغَطِّيْهَا

مَعْجُونَةٌ عُجِنَتْ فِيْمَا إِخَالُ بِرِيْـ   ـقِ ٱلصِّلِّ أَوْ قَيْئِهِ أُفٍّ لِطَاهِيْهَا

وَقَالَ: هَلْ ذِيْ زَكَاةٌ أَمْ لَنَا صِلَةٌ   أَمْ فِيْ عَطَا صَدَقَاتِ ٱلْبِرِّ تُعْطِيْهَا

مُحَرَّمٌ ذَا عَلَيْنَا نَحْنُ آلُ رَسُوْ   لِ ٱللَّهِ هَيْهَاتَ مَا كُنَّا مُحِلِّيْهَا

نَادَاهُ: لَاذَا وَلَاذَا ذِيْ هَدِيَّةُ مَنْ   يَرْجُوْ رِضَاكَ بِهَا ذَا سُؤْلُ مُهْدِيْهَا

فَهَبَّلَ ٱلْمُرْتَضَى رَبَّ ٱلْهَدِيَّةِ نَا   دَى إِنَّهَا خِدْعَةٌ يَا صَاحِ تَأْتِيْهَا

وَافَيْتَ تَخْدَعُنِيْ عَنْ دِيْنِ رَبِّي يَا   ذَا فِيْ هَدِيَّةِ مِطْمَاعٍ يُزَجِّيْهَا

هَلْ أَنْتَ مُخْتَبِطٌ أَمْ أَنْتَ تَهْجُرُ مَحْـ   ـمُوْماً أَمِ ٱلْجِنَّةُ ٱلْكُبْرَى تُؤَاخِيْهَا

وَٱللَّهِ لَوْ كُنْتُ أُعْطَى مَا تُقِلُّ أَقَا   لِيْمُ ٱلْبَرِيَّةِ شَرْقِيْهَا وَغَرْبِيْهَا

= كان بينه وبين صاحب الحلوى فقال: « أعجب من طارق، طرقنا بملفوفةٍ في وعائها، ومعجونةٍ شنئتها، كأنما عجنت بريق حيَّةٍ أو قيئها، فقلت: أصلةٌ أم زكـاةٌ أم صدقـةٌ، فذلك محرَّم علينا آل البيت، فقال لا ذا ولا ذاك ولكنها هديَّةٌ. فقلتُ هبلتـك الهبول، أعن دين الله أتيتني لتخـدعني، ؟ أمختبط ؟ أم ذو جنـة ؟ أم تهجـر ؟ والله لـو أعطيتُ الإقـاليم السبعة، بمـا في تحت أفـلاكهـا على أن أعصي الله، في نملة أسلبهـا جَلب شعيرةٍ، ما فعلته، وأنَّ دنياكم عندي، لأهون من ورقـةٍ، في فم جرادةٍ تقضمهـا، ما لعليّ ولنعيمٍ يفنى، ولذَّةٍ لا تبقى، نعوذ بـالله من سبات العقـل، وقبح الـزلل، وبه نستعين » اهـ قال أمير المؤمنين هذا وعاد إلى داخل داره مستأنفاً مناجـاة ربّه على عـادته ورجع صاحب الحلوى بحلواه يتعثر بأذيال الفشل وقد ضاع رجاه.

عَلَى مُعَاصَاةِ رَبِّي بِآغْتِصَابِ نُمَيْـــلَةٍ جُلَيْبَ شَعِيْرٍ كُنْتُ آبِيْهَا
أَهْوِنْ بِدُنْيَاكُمْ يَا نَاسُ فِي نَظَرِيْ مَهْمَا تَغَالَى آلْمُغَالِيْ فِي تَقَنِّيْهَا
إِنِّي لأَحْسَبُهَا مِثْلَ آلْوُرَيْقَةِ فِي فَمِ آلْجِرَادَةِ أَسْرِعْ أَنْ تُلاَشِيْهَا
مَا لِلْعَلِيِّ وَلَذَّاتٍ تَزُوْلُ وَلاَ تَبْقَى وَنُعْمَى كُرُوْرُ آلدَّهْرِ يُفْنِيْهَا
أَعُوْذُ بِآللَّهِ مِنْ شَرِّ آلسَّبَاتِ لِعَقْـــلِيْ أَوْ خُطَى زَلَلٍ قَدْ ضَلَّ خَاطِيْهَا
وَأَسْتَعِيْنُ بِهِ وَهُوَ آلْمُعِيْنُ عَلَى حُقُوْقِ دِيْنِي وَأَرْجُو أَنْ أُوَفِّيَهَا
قَدْ قَالَ هٰذَا لِذِيْ آلْحَلْوَى وَعَادَ إِلَى صَفَاءِ خَلْوَتِهِ طُوْبَى لِرَاضِيْهَا
وَسَارَ رَاشِيْهِ بِآلْحَلْوَى وَخَيْبَةُ مَسْـــعَاهُ بِرَشْوَتِهِ آلْخُزْلاَنُ تَالِيْهَا

أمير المؤمنين وأخوه عقيل

فِيْ ذَاتِ يَوْمٍ أَتَى رَبْعَ آلأَمِيْرِ عَقِيْـــلٌ طَالِباً مِنْهُ جَدْوَى كَانَ يَبْغِيْهَا[1]
نَادَاهُ: أَنْتَ شَقِيْقِي وَآلْعِيَالُ عَلَى طَوَىً وَمَنْ يَا تَرَى إِلاَّكَ يَكْفِيْهَا

---

(١) إنَّ أعظم ما صرف الناس عن سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام من بدء خلافته إلى نهايتها هو عدم محاباته الناس في توزيع الأموال عليهم والعدل في قسمتها بينهم على السوية كما أنّ أعظم الأسباب التي مكنت معاوية من مناهضة سيدنا علي أولاً وفوزه بالخلافة ثانياً هو توزيعه الأموال بغير حساب على كلّ من كان يرجو نفعه أو يخاف شرَّه . وكان سيدنا عليّ مقيداً نفسه بأوامر القرآن الشريف وسنّة ابن عمّه رسول الله عليهما الصلاة والسلام ومن جملتها المساواة في العطاء بين عموم المسلمين شريفهم ومشروفهم قديمهم في الإيمان وحديثهم لأنّه كان يعرف قدر الآية العظيمة التي نزلت على محمد بن عبد الله وهي ﴿ إنّما المؤمنون إخوة ﴾ وكان يدرك حقَّ الإدراك وهو إمام المتشرعين أنَّ من شروط الأخوَّة المساواة في الحقوق ولا تكون أخوَّة حيث لا يكون تساوي . وكان يدخل في هذا التساوي جميع المسلمين حتى أولاده وإخوته وأبناء عمّه وفي اعتقاده أنّ آل البيت الطاهر وآل بيت النبوّة لا يجوز أن يكونوا عالة على المسلمين أو على بيت مال المسلمين كما أنّه عليه السلام كان يرى أنَّ من كان ذا فضلٍ في =

فَقَالَ: أَبْشِرْ عَطَائِيْ يَا أُخَيَّ أَنَا   أُعْطِيْكَهُ وَٱلْعَطَايَا قَدْرَ مُعْطِيْهَا

= المسلمين أو جهادٍ في سبيل الإسلام فإنَّ جزاءَه على ربّه في يوم الدين .

وحدث أنَّ عقيلاً وهو أخ شقيق لأمير المؤمنين كان كثير العيال وقد مال إلى الترف شأن أكثر المسلمين الذين مالوا إليه بعد أن اتّسعت المملكة الإسلامية وتوفَّرت أسباب الترف للمسلمين فيها وبعد أن استنَّ الأمويون على عهد عثمان سنّة التوسعة على ذويهم ومحبّيهم بدعوى أنّهم آل البيت المالك فقصد سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام يسترفده في أواخر سنة ٣٨ للهجرة على ما أرجّح مدعياً أنّه كثير العيال وأنَّ عطاءَه من بيت مال المسلمين لا يكفيه بينما خيرات الخلافة تساق إلى أخيه وهو أمير المؤمنين . فتلطف به سيدنا علي وقال له : إنَّ بيت المال ، هو للمسلمين وليس لي ، وما أنا إلاّ واحد من المسلمين ، فانظرني ريثما أقبض عطائي فأعطيك بعضه . فغضب عقيل وألحف بالسؤال وقال : لست أسألك أن ترفدني من عطائك وهو لا يكاد يكفيك ولكن أعطني من بيت مال المسلمين ونحن أحقُّ به من سوادهم . فتبسم عليه السلام وقال : أقم إلى يوم الجمعة والقني في الجامع فظنَّ عقيل أنّه بعد صلاة الجماعة سيحقق سؤله ويفتح له خزائن بيت المال فيوسّع عليه منها وانصرف على أن يعود إليه في اليوم الموعود .

وفي يوم الجمعة امتلأ جامع الكوفة بالمصلّين وأقيمت الصلاة وعند نهايتها علا سيدنا أمير المؤمنين المنبر كعادته فخطب في الناس مرهباً مرغباً بفصاحته المشهورة وبلاغته المأثورة فخلب الأسماع وأشجى النفوس بما نثر من درر الكلام ثمَّ نزل عن المنبر فاستدعى إليه أخاه عقيلاً وكان بين المصلّين وقال له : ما تقول في مَن خان هؤلاء أجمعين ؟ قال عقيل : بئس الرجل هو . فضحك أمير المؤمنين وقال : فأنت تطلب مني أن أخونهم وأميّزك عنهم بالعطاء . فاستاء عقيل وتركه ومضى .

ثمَّ إنَّ عقيلاً صبر مدةً على القصد ونفسه تطمع بالتوسعة في الرزق وكان يتألم ممّا هو فيه من خشن العيش مع عياله فرجع إلى أخيه أمير المؤمنين ملحفاً بالسؤال طامعاً بالنوال فعرض عليه عطاءَه ثانيةً فأباه وهو لا يرى فيه ما يبلغه مطامعه فضلاً عمّا يورث أخاه من الضيق لو أخذ عطاءَه وسار غاضباً مغتاظاً فجمع صبيته وجاء بهم إلى أخيه أمير المؤمنين والبؤس والضرُّ ظاهران عليهم فلما رأى عليه السلام إلحاف عقيل قال جئني في المساء لأدفع إليك شيئاً فتركه وعاد بأولاده وفي المساء عاد إلى أخيه وفي حال =

وَلَا يَجُوْدُ يَدٌ إِلَّا بِمَا وَجِدتْ   مَهْمَا يَعُزُّ عَلَيْهَا قَدْرُ عَافِيْهَا

= وصوله له مدَّ أمير المؤمنين شيئاً في يده وقال : دونك هذا . فأهوى عقيل على العطية يحرص عليها وقد غلبه الجشع ولم تكد تلمسها يده حتى خار كما يخور الثور تحت يد جازره لأنّها كانت حديدةً محماةً بالنار . فضحك أمير المؤمنين وقال : ثكلتك أمك ، أتخور من حديدةٍ أوقدت لها نهار الدنيا ؟ فكيف بك وبي غداً إن سلكنا في سلاسل جهنم ؟ . ثمَّ قال له ليس لك عندي إلّا ما ترى . فغضب عقيل وانصرف عنه وسرعان ما ارتحل بعياله إلى الشام يطلب رفاه العيش في ظلّ معاوية .

وعندما بلغ عقيل الشام استقبله معاوية بالتجلة والإكرام شأنه مع كل الذين كانوا يقصدونه من أشراف قريش ليعتزَّ سلطانه بهم ويتخذ التفافهم حوليه حجةً على رضاء المسلمين بخلافته وكراهتهم لخلافة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام . وأمر له يوم قدومه بمئة ألف درهم وقال له رفّه بها عيالك ولك مثلها كلما نفدت . ثمَّ قال له وهو يحسب أنّه امتلك نفسه بعطائه : يا أبا يزيد ، أأنا خير أم عليّ ؟ . وكان عقيل جريئاً بديه الجواب فقال : وجدت علياً أنظر لنفسه منه لي ، ووجدتك أنظر لي منك لنفسك . فاحتمل معاوية هذا الجواب وكان حمولاً لغلظة قريش فيما يجبهونه به تفرغاً لعداء سيدنا علي وحده ولعلمه أنَّ قريشاً بأجمعها تعتبره مغتصباً الخلافة فهو مضطرٌ إلى مداراتها والصبر عليها حتى لا تجتمع كلمتها ضدَّه وتنضمّ إلى سيدنا علي وتحاربه تحت راية الخلافة .

وظلَّ عقيل في الشام يتنعم بأموال المسلمين التي كان يغدقها معاوية عليه استجلاباً لرضائه وكان كثيرون من قريش عائشون في الشام بكرم معاوية مثله وفي ذات يوم بينما كان معاوية في مجلسه ووجوه الناس حوله وفيهم عقيل . خطر لمعاوية أن يلقي كلمةً يحطُّ بها من قدر سيدنا علي ويرفع نفسه فقال : هذا أبو يزيد بينكم ، لولا علمه أنّي خير له من أخيه ، لما أقام عندنا وتركه . فغضب عقيل لهذا التعريض بأخيه وقال : إنَّ أخي خيرٌ لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي ، وقد آثرت دنياي ، أسأل الله خاتمة خير . فخجل معاوية وسكت .

على أنَّ مسير عقيل إلى معاوية وإقامته عنده قد ترك سبيلاً لأعداء سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام أن يطعنوا بحكمه وينالوا منه فاختلفوا لارتحاله عنه أسباباً مختلفة كقول بعضهم أنّه تركه ومضى لأنّه ألفاه على غير الحق . وقول آخرين إنّ عقيلاً ترك أخاه ومضى لأنّه رأى معاوية أفضل منه وأحقَّ بالخلافة . ونحو ذلك من الأقوال التي أرادوا =

فَقَالَ: هَيْهَاتَ يَكْفِيْنِي عَطَاؤُكَ وَآلـــدُّنْيَا تُسَاقُ لِأَيْدِيْ هَاشِمِيِّيْهَا

= بنشرها بين الناس تنفيرهم عنه . وأنت تعلم أنَّ الناس يصدّقون كل ما يسمعون من غير تحقيق ولا تدقيق وقد اتّصل لغط هؤلاء الأعداء بأمير المؤمنين فعزَّ عليه أن ينال أعداؤه منه ويحوّلوا فضيلته في عدم تمييزه أخاه عن سائر المسلمين إلى نقيصةٍ فيه فصعد المنبر في صلاة الجمعة خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً ، أو أجرَّ في الأغلال مصفَّداً ، أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد ، وغاصباً لشيء من الحطام ، وكيف أظلم أحداً لنفسٍ يسرع إلى البلى قفولها ، ويطول في الثرى حلولها ، والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق ، حتى استماحني من برّكم صاعاً ، ورأيت صبيانه شعث الشعور ، غُبر الألوان ، من فقرهم ، كأنّما سُوّدت وجوههم بالعظلم ، وعاودني مؤكّداً ، وكرَّر عليَّ القول مردّداً ، فأصغيت إليه سمعي ، فظنَّ أنّي أبيعه ديني وأتّبع قياده ، مفارقاً طريقتي ، فأحميت له حديدةً ثمَّ أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضجَّ ضجيج ذي دنف من ألمها ، وكاد يحترق من مسّها ، فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسان للعبه ، وتجرّني إلى نار سجرها جبّارها لغضبه ، أتئن من الأذى ولا أئن من لظى ؟ » اهـ .

قال هذا أمير المؤمنين عليه السلام ونزل عن المنبر وهو مرتاح الضمير إذ شافه المسلمين بحقيقة ما كانوا عليه مختلفين . أمّا الناس فلما وعوا هذا القول الصراح وفيه فصل الخطاب ، آبوا إلى رشدهم في قصة عقيل ، وابتعدوا عن الظنّ والتأويل ، وتركوا ما كانوا فيه من قالٍ وقيل ، وانصرفوا معجبين ، من عدل أمير المؤمنين ، وإبائه خيانة المسلمين ، ولو بمساعدة أخيه وهو من الأقرباء الأدنين .

وقد تقع في موقع الغرابة قصة عقيل مع سيدنا علي هذه عند الناس في هذه الأيام فيعجبون من سيدنا أمير المؤمنين الذي أبى مساعدة أخيه من بيت مال المسلمين وكان مطلق التصرف فيه يستطيع أن يعطيه منه ما يشاء على نحو ما كان يفعل عثمان مع الأمويين وعلى نحو ما يعهدوه بالملوك والأمراء في سائر أزمنة التاريخ القديم ولكن الذين يعرفون نصوص الشريعة الإسلامية التي تقضي بأن يكون الخليفة أميناً على بيت المال غير متصرف فيه والتي لا ترضى بتمييز مسلم على آخر سواءٌ في ذلك الشريف والمشروف والقريب والبعيد ويضيف إلى هذا معرفة أخلاق أمير المؤمنين ورغبته الأكيدة =

فَٱفْتَحْ خِزَانَةَ بَيْتِ ٱلْمَـالِ عَنْ كَرَمٍ   إِلَـى عُفَـاتِـهِمْ مِـثْلِيْ لِـتُـغْـنِـيْـهَـا

= بأن يكون بنو هاشم قدوة الناس في الزهد وقصد العيش يتحول عجبه هذا إلى إعجاب بذلك الإمام العظيم الذي أخذ على عاتقه الشريف تنفيذ نصوص الشريعة وأنّه عليه السلام كان يرى أنّها لا تنفّذ بالدقة بين الناس إلّا إذا نفذها على نفسه وأبنائه وإخوانه ليكونوا قدوةً لغيرهم . وحاشا لله أن يجيز أمير المؤمنين لنفسه ما كان ينكره على عثمان وإن أجازه معاوية ومن تبعه من الخلفاء .

« ترجمـــة عقيـــل »

هو عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم فهو أخ شقيق لسيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام وابن عمّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وكان لفاطمة بنت أسد من أبي طالب بن عبد المطلب أربعة أولاد ذكور بين الواحد والآخر عشر سنوات أكبرهم طالب والثاني عقيل والثالث جعفر والرابع سيدنا علي فهو أصغرهم ويكبره عقيل صاحب الترجمة بعشرين سنة . ولأبي طالب من غير فاطمة أولاد آخرون سبق لنا ذكرهم في حاشية سبقت .

وكان أبو طالب كثير الشغف بعقيل يدلك على ذلك قوله لأخيه العباس وابن أخيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عندما قصداه ليأخذا منه بعض أولاده فيخففون عنه مؤونتهم في سنة الغلاء كما تقدمت الإشارة « دعوا لي عقيلاً وخذوا من تشاؤون » وقد أشار المصطفى إلى هذا بقوله لعقيل : « يا أبا يزيد ، إنّي أحبك حبين ، حبّاً لقرابتك مني ، وحبّاً لما كنت أعلم من حبّ عمّي إيّاك » والمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم كان أحرص عباد الله أجمعين على صلة رحمه وأحفظ الناس طراً لجمائل المحسنين إليه وعلى رأسهم أبو طالب فلا غرو إذا كان حبّه الشريف لعقيل مضاعفاً .

وكان يكنّى عقيل بابنه يزيد كما كان كثير العيال وقد رأيناه يسوقهم إلى أخيه أمير المؤمنين عليه السلام ليستنزل شفقته عليهم فيحسن إليهم من بيت مال المسلمين .

ونال عقيل من كفّار قريش ما نال جميع بني هاشم قبل الهجرة وتأخرت هجرته إلى المدينة فهاجر إليها مسلماً قبيل غزوة الحديبية وشهد غزوة مؤتة مع أخيه جعفر وظلّ في المدينة كل مدة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وخرج إلى الكوفة بعد موقعة صفين وأقام فيها ولم يشهد شيئاً من حروبه مع أخيه سيدنا علي ثمّ خرج إلى معاوية عندما رأى =

وَلَا تَدَعْ صِبْيَتِيْ فِيْ شَرِّ مَتْرَبَةٍ   فِيْ عَهْدِ عَمٍّ لَهُ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا
قَالَ ٱلْوَصِيُّ: فَجِئْنِيْ لِلصَّلَاةِ بِيَوْ   مِ ٱلْجُمْعَةِ ٱلظُّهْرَ صَلِّ مَعْ مُصَلِّيْهَا
وَبَعْدَ ذَاكَ أَرَى تَحْقِيْقَ مَسْأَلَةٍ   قَدْ جِئْتَ تَطْلُبُ مِنِّيْ أَنْ أُقَضِّيْهَا
لَبَّى عَقِيْلُ وَوَافَى لِلصَّلَاةِ مَعَ ٱلـ   ـنَّاسِ ٱلَّتِيْ أَقْبَلَتْ طَوْعاً لِدَاعِيْهَا
وَٱلْمُرْتَضَى أَمَّهَا بِرّاً كَعَادَتِهِ   وَقَامَ فِيْهَا خَطِيْباً لَا يُدَاجِيْهَا
فَكَانَ يَأْمُرُهَا بِٱلْبِرِّ يَطْلُبُهُ   مِنْهَا وَعَنْ مُنْهَيَاتِ ٱلشَّرْعِ يَنْهِيْهَا
حَتَّى إِذَا مَا ٱنْتَهَتْ تِلْكَ ٱلصَّلَاةُ دَعَا   عَقِيْلَ دَعْوَى فَظَنَّ ٱلْمَالَ تَالِيْهَا
فَقَالَ: يَا ٱبْنَ أَبِيْ مَاذَا تَقُوْلُ بِمَنْ   يَخُوْنُ هٰذِيْ ٱلرَّعَايَا أَوْ يُحَابِيْهَا
أَجَابَ: إِنَّ أَشَرَّ ٱلنَّاسِ خَائِنُهَا   إِنَّ ٱلْخِيَانَةَ تُزْرِيْ قَدْرَ آتِيْهَا
فَقَالَ: إِنَّكَ قَدْ وَافَيْتَ تُلْزِمُنِيْ   خِيَانَةً صَاحِبُ ٱلتَّقْوَى يُحَاشِيْهَا
فَسَارَ عَنْهُ عَقِيْلُ غَيْرَ مُقْتَنِعٍ   بِحُجَّةٍ لَمْ تُنِلْ جَدْوَى لِرَاجِيْهَا
وَعَادَ ثَانِيَةً مَعْ وُلْدِهِ لِأَمِيْـ   ـرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ يُنَادِيْ أَنْتَ كَافِيْهَا
فَقَالَ: جِئْنِيْ مَسَاءً يَا عَقِيْلُ فَقَدْ   يَنَالُ مَبْغَاهُ مِنْ قَوْمٍ مُمَسِّيْهَا

= أخاه عليه السلام يأبى أن يميزه عن غيره من المسلمين بالعطاء على ما تقدم القول .

وانصرف عقيل عن معاوية عائداً إلى المدينة المنورة فابتنى فيها داره المعروفة إلى يوم الناس هذا باسم « دار عقيل » وسكنها إلى آخر عمره .

وكان عقيل حافظاً راوياً للأنساب وأخبار العرب بل كان أقدر الناس في هذا وكان الناس يقصدونه فيخبرهم بأخبار الجاهلية غثها وثمينها على أنّ الناس كانوا يكرهونه لسرده مساويهم وكان سريع البادرة في الجواب قويّ الحجة في الجدل فصيحاً ملساناً . وكان من عادته أن يخرج كل يوم إلى المسجد الجامع في المدينة المنورة فيصلّي مع المصلّين ثمَّ يبسط سجادته ويجلس إلى الناس فيحدثهم بأنباء الجدود وأنسابهم وفقد بصره في آخر عمره وتوفي عام ٥٠ للهجرة في خلافة معاوية وله من العمر ٩٦ سنة .

فَجَاءَهُ بَعْدَ أَنْ صَلَّى آلْعِشَاءَ فَلاَ   قَاهُ آلْوَصِيُّ سَمُوْحَ آلنَّفْسِ رَاضِيْهَا

وَقَالَ: دُوْنَكَ يَا صَاحِ آلْعَطِيَّةَ خُذْ   هَا تِلْكَ غَايَةُ مَا فِيْ آلطَّوْقِ أُعْطِيْهَا

فَمَدَّ يُمْنَاهُ حَتَّى مَا تَنَاوَلَهَا   أَلْقَى بِهَا آلْأَرْضَ يَشْكُوْ لَذْعَ حَامِيْهَا

وَصَاحَ: مَا لَكَ تَكْوِيْنِيْ أُخَيَّ وَذِيْ   حَدِيْدَةٌ مَا آبْتَغَى رَفْدِي مُحَمِّيْهَا

فَقَالَ حَيْدَرَةٌ: أُلْفِيْكَ مُشْتَكِيَاً   نَاراً بِدُنْيَاكَ سَهْلٌ أَنْ تُطَفِّيْهَا

فَكَيْفَ لَوْ أَنَّنَا سِرْنَا غَداً لِرِبَى   جَهَنَّمٍ مِثْلَمَا تَهْوَى لِنَأْوِيْهَا

فَيَا أُخِيْ لَيْسَ عِنْدِيْ فَوْقَ حَقِّكَ مِنْ   عَطِيَّةٍ مِثْلَمَا تَرْجُوْ أُؤَدِّيْهَا

فَسِرْ لِأَهْلِكَ وَآقْصُدْ فِيْ حَوَائِجِهَا   وَلاَ تَرُمْ تِرْفَةً تُخْشَى مَسَاوِيْهَا

فَسَارَ عَنْهُ عَقِيْلٌ وَهْوَ مُكْتَئِبٌ   يَأْبَى عَلَيْهِ فِعَالَ آلْبِرِّ يَنْعِيْهَا

وَيَمَّمَ آلشَّامَ يَرْجُوْ فِيْ مَرَابِعِهَا   يُسْراً وَمَا آلْيُسْرُ نَاءٍ عَنْ مَثَاوِيْهَا

مَا دَامَ فِيْهَا مُعَاوِيْهَا يَجُوْدُ بِمَا   لِ آلْمُسْلِمِيْنَ كَفَيْضِ آلسُّحْبِ هَامِيْهَا

وَكَانَ يَلْقَى قُرَيْشاً بِآلنُّضَارِ يُرَجِّـ   ـيْ أَنْ يُحَوِّلَهَا عَنْ نَصْرِ عَالِيْهَا

وَطَالَمَا خَدَعَ آلْمَالُ آلنُّفُوْسَ فَشَطَّـ   ـتْ فِيْ تَوَخِّيْهِ عَنْ أَحْكَامِ بَارِيْهَا

وَلَمْ يَخِبْ بِآبْنِ حَرْبٍ ظَنُّ صَاحِبِنَا   فَقَدْ رَأَى عِنْدَهُ يُسْراً وَتَرْفِيْهَا

حَبَاهُ مِئَةَ أَلْفٍ مِنْ دَرَاهِمِهِ   بَدَاءَةً قَالَ فَآشْكُرْ بِرَّ مُوْلِيْهَا

أَنْفِقْ بِغَيْرِ حِسَابٍ غَيْرَ مُقْتَصِدٍ   مِنْهَا وَزِدْ مَعَ مَنْ تَهْوَاهُ تَرْفِيْهَا

وَقَالَ: هَلْ أَنَا خَيْرٌ يَا عَقِيْلُ أَمِ آلْـ   ـعَلِيُّ لِلنَّاسِ إِنْ تُزْجِيْ أَمَانِيْهَا

نَادَى عَقِيْلٌ: أَخِيْ وَآللَّهِ يَرْتَقِبُ آلْـ   ـجَنَّاتِ يَطْلُبُ أَنْ يَثْوِيْ أَعَالِيْهَا

وَأَنْتَ تَرْتَقِبُ آلدُّنْيَا لِلَذَّتِهَا   وَتَبْتَغِيْ بِآلْعَطَايَا كَسْبَ أَهْلِيْهَا

وَمَا تَعَلَّمَ مِنْ هٰذَا مُعَاوِيَةُ   أَنْ يُقْصِرَ آلْقَوْلَةَ آلْمَذْمُوْمَ حَاكِيْهَا

فَقَالَ فِيْ ذَاتِ يَوْمٍ وَهْوَ مُجْتَمِعٌ بِصَحْبِهِ كَانَ عَنْ صَفْوٍ يُنَادِيْهَا
لَوْ لَمْ يَجِدْنِي عَقِيْلٌ مِنْ أَخِيْهِ لَهُ خَيْراً لَمَا جِيْرَتِي قَدْ رَاحَ رَاضِيْهَا
أَرَادَ فِيْ ذَاكَ أَنْ يُزْرِيْ بِقَدْرِ عَلِيٍّ ثُمَّ مِيْزَتُهُ عَنْهُ يُجَلِّيْهَا
وَكَانَ ثَمَّ عَقِيْلٌ عِنْدَهُ فَأَبَى وَقِيْعَةً بِأَخِيْهِ هَمَّ يَتْقِيْهَا
وَصَاحَ: إِنَّكَ خَيْرٌ مِنْ أَخِيْ لِيَ فِيْ دُنْيَايَ مَا دُمْتُ دُوْنَ ٱلدِّيْنِ بَاغِيْهَا
وَإِنَّهُ ٱلْخَيْرُ فِيْ دِيْنِيْ وَأَسْأَلُ رَ م بَّ ٱلْعَرْشِ خَاتِمَةً حَسْنَا أُلَاقِيْهَا
هٰذَا عَقِيْلٌ وَذِيْ تَاللَّهِ قِصَّتُهُ قَدْ شَوَّهَتْهَا ٱلْعِدَى بِٱلْكِذْبِ تَشْوِيْهَا
قَالُوْا: أَبُوْ حَسَنٍ أَضْحَتْ خِلَافَتُهُ مَا إِنْ لَهَا فِيْ ٱلْبَرَايَا مَنْ يُوَالِيْهَا
حَتَّى أَخُوْهُ عَقِيْلٌ قَدْ عَصَاهُ بِهَا وَسَارَ لِلشَّامِ يَسْتَصْفِيْ مُعَاوِيْهَا
فَغَاظَهُ مِنْ أَعَادِيْهِ رِوَايَتُهَا ٱلْـ ـكِذْبَ ٱلصُّرَاحَ وَلَمْ تَرْهَبْ تَمَنِّيْهَا
وَوَاجَهَ ٱلنَّاسَ مِنْ أَعْلَى ٱلْمَنَابِرِ فِيْ هٰذِيْ ٱلْحَقِيْقَةِ بَادِيْهَا وَخَافِيْهَا
بِخُطْبَةٍ تَخْلُبُ ٱلْأَسْمَاعَ مُعْرِبَةٍ عَنِ ٱلنَّزَاهَةِ فِيْ أَسْمَى مَعَانِيْهَا
فَقَالَ وَهْوَ أَمِيْرُ ٱلْقَوْلِ مُبْدِعُهُ وَٱلنَّاسُ تَحْدُجُ بِٱلْأَنْظَارِ رَاعِيْهَا
لَئِنْ عَلَى حَسَكِ ٱلسَّعْدَانِ شَائِكِهِ أَبِيْتُ يَا قَوْمِ لَيْلَاتِيْ فَأُحْيِيْهَا
أَوْ أَنْ أُجَرَّرَ فِيْ ٱلْأَغْلَالِ مُحْتَمِلاً أَثْقَالَهَا كَجُنَاةِ ٱلنَّاسِ أَحْكِيْهَا
أَحَبُّ لِيْ مِنْ لُقَى رَبِّيْ وَأَحْمَدَ فِي يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ فِيْ حَالٍ أُحَاشِيْهَا
حَالُ ٱلظَّلُوْمِ غُصُوْبِ ٱلْمَالِ حَالُ فَتَىً كَانَ ٱلْأَمِيْنَ فَخَانَ ٱلْعَهْدَ تَجْرِيْهَا
وَكَيْفَ تَظْلُمُ نَفْسِيْ ٱلنَّاسَ وَهْيَ إِلَى ٱلْـ ـقُفُوْلِ لِلتِّرْبِ تُمْشِيْنِيْ وَأُمْشِيْهَا
وَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيْلاً فِيْ خَصَاصَتِهِ مِنْ بُرِّكُمْ يَرْتَجِيْ صَاعاً يُمَلِّيْهَا
وَحَوْلَهُ صِبْيَةٌ شُعْثُ ٱلشُّعُوْرِ بِأَلْـ ـوَانٍ غَدَتْ غُبْراً وَٱلْجُوْعُ مُكْبِيْهَا

كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ تِلْكَ ٱلْوُجُوهُ بِعِظْـــلِمٍ وَكَانَتْ تُضِيْ قَبْلاً بَوَادِيْهَا

وَلَحَّ مُسْتَجْدِيَاً لَحَّاً وَعَاوَدَنِيْ   فِيْ حَاجِهِ يَبْتَغِيْ مِنِّيْ تَقَاضِيْهَا

وَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَنْ صَغَيْتُ لَهُ   صَغْيَاً بِعَاطِفَةِ ٱلْإِشْفَاقِ أُبْدِيْهَا

فَظَنَّ أَنِّيَ بِٱلْإِلْحَاحِ مُتَّبِعٌ   قِيَادَهُ وَطَرِيْقُ ٱلْإِثْمِ خَاطِيْهَا

وَأَنَّ أَحْكَامَ دِيْنِي بِتُّ بَائِعَهَا   لَهُ وَبَاتَ كَمَا قَدْ شَاءَ شَارِيْهَا

وَلَمْ يَكُمْ لِيَ إِلَّا أَنْ حَمَيْتُ لَهُ   حَدِيْدَةً مِنْهُ قَدْ سَارَعْتُ أُدْنِيْهَا

أَرَدْتُهَا عِبْرَةً كُبْرَى مُؤَثِّرَةً   لَهُ إِذَا مَا ٱكْتَوَى مِنْ مَسِّ دَافِيْهَا

وَكَادَ مَيْسَمُهَا ٱلنَّارِيُّ يَحْرُقُ يُمْـــنَاهُ فَبَادَرَنِيْ يَشْكُو تَلَظِّيْهَا

وَضَجَّ مِنْ أَلَمٍ قَاسٍ تَأَلَّمَهُ   ضَجِيْجَ مَنْ فِيْهِ آلَامٌ يُعَانِيْهَا

نَادَيْتُهُ ثَكَلَتْكَ ٱلثَّاكِلَاتُ عَقِيْـــلُ مِنْ فَتىً رَاهِبِ ٱلنِّيْرَانِ خَاشِيْهَا

فَهَلْ تَئِنُّ أَنِيْنَاً مِنْ حَدِيْدَةِ إِنْـــسَانٍ أَرَادَ بِهَا لَهْوَاً وَتَفْكِيْهَا

وَأَنْتَ تَسْحَبُنِيْ قَهْرَاً لِنَارِ جَهَنَّـــمٍ وَرَبُّكَ لِلظُّلَّامِ مُوْرِيْهَا

أَمِنْ أَذَىً أَنْتَ فِيْ هٰذَا ٱلْأَنِيْنِ وَلَا   أَئِنُّ مِنْ سَعْرَةِ ٱلنِّيْرَانِ أُصْلِيْهَا

فَتِلْكَ يَا نَاسُ حَالِيْ مَعْ عَقِيْلَ أَخِيْ   عَلَى ٱلْمَلَا جَهْرَةً أَصْبَحْتُ رَاوِيْهَا

وَمَا أَتَمَّ ٱلْإِمَامُ ٱلْبَرُّ خُطْبَتَهُ   حَتَّى ٱهْتَدَى وَأَوَى لِلْحَقِّ وَاعِيْهَا

نَادَتْ: عَدَالَةُ مَوْلَانَا أَبِيْ حَسَنٍ   مَا ٱلظُّلْمُ يَقْرُبُ مِنْهَا أَوْ يُنَاجِيْهَا

وَمَنْ يُسَاوِيْ ٱلرَّعَايَا فِيْ إِمَارَتِهِ   فَزَادَهُ ٱللّٰهُ تَعْزِيْزاً وَتَوْجِيْهَا

تِلْكَ ٱشْتِرَاكِيَّةُ ٱلْإِسْلَامِ لَيْسَ لَهَا   إِلَّا أَبُو حَسَنِ ٱلْمِفْضَالِ يُجْرِيْهَا

أمير المؤمنين والربيع بن زياد

كَانَ ٱلرَّبِيْعُ فَتَى ٱلْإِسْلَامِ يَنْصُرُهُ   بِسَيْفِهِ مَا دَعَا لِلْحَرْبِ دَاعِيْهَا[1]

وَكَانَ مِنْ وُجَهَاءِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَمِنْ   عُمَّالِ دَوْلَتِهِمْ بِٱلْبِرِّ يُرْضِيْهَا

---

(١) زعم الشريف الرضي جامع كتاب نهج البلاغة أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام عاد العلاء بن زياد الحارثي وهو من أصحابه ولم نقف على رجل بهذا الإسم بين الذين اشتهروا بصحبته عليه السلام ولكنّا نعرف رجلاً آخر يدعى الربيع بن زياد الحارثي فلعلّه هو وترجمة هذا هي أنّه الربيع بن زياد بن أنس بن قطر بن زياد بن الحارث بن مالك بن أدد وهو الذي افتتح بعض خراسان على عهد عمر وقال فيه هذا الخليفة « داوني على رجل إذا كان في القوم أميراً فكأنّه ليس بأمير وإذا كان في القوم ليس بأمير فكأنّه الأمير بعينه » وهذا خير ما يمدح به رجل وكان خيراً متواضعاً ومن نوادره مع عمر ما ننقله عن لسانه قال : كنت عاملاً لأبي موسى على البحرين فكتب إليه عمر بالقدوم عليه هو وعمّاله فلما قدمنا المدينة أتيت « يرفا » حاجب عمر فقلت يا صاح جئتك مسترشداً وابن سبيل فقل لي أي الهيئات أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يرى عليها عمّاله فأومأ إليَّ بالخشونة فاتخذت خفين مطرقين ولبست جبة صوف ولبست عمامتي على رأسي ثمَّ دخلت مع بقية العمّال على عمر فصفنا بين يديه وصعَّد بصره فينا وصوّب فلم تأخذ عينه أحداً غيري فدعاني وقال من أنت ؟ قلت الربيع بن زياد الحارثي قال وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت البحرين . قال كم ترزق ؟ قلت ألفاً . قال ذلك كثير فما تصنع به ؟ قلت اتقوَّت منه شيئاً وأعود بباقيه على أقارب لي فما فضل منهم فعلى فقراء المسلمين قال لا بأس ارجع إلى موضعك فرجعت إلى موضعي من الصفّ فصعد عمر فينا بصره ثانيةً وصوَّب فلم تقع عينه إلّا عليَّ فدعاني إليه ثانيةً وقال كم سنّك ؟ قلت خمس وأربعون فقال الآن حيث استحكمت فعد إلى مكانك فعدت ثم دعا عمر بالطعام وأصحابي حديثو عهد بلين العيش فأتى بخبز يابس وأكسار بعير فجعل أصحابي يعافون ذلك وجعلت آكل فأجيد وأنا أنظر إلى عمر فإذا هو يلحظني من بينهم ثمَّ سبقت منّي كلمة تمنيت لها أنّي سخت في الأرض فقلت يا أمير المؤمنين إنَّ الناس يحتاجون إلى صلاحك فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا فزجرني ثمَّ قال كيف قلت ؟ فقلت يا أمير المؤمنين أن تنظر إلى مؤونتك من الطحين فيخبز قبل إرادتك إيّاه بيوم ويطبخ لك اللحم كذلك فتؤتى بالخبز ليناً وباللحم غريضاً فسكن من غربه وقال يا ربيع إننا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من =

وَبَيْنَمَا كَانَ فِيْ حَرْبِ ٱلْخَوَارِجِ فِيْ ظِلِّ ٱلْوَصِيِّ يُلاَقِيْهَا وَيُرْدِيْهَا
مَرَّتْ بِجُبْهَتِهِ نَشَّابَةٌ جَرَحَتْـهَا وَٱلْجِرَاحَةُ قَدْ أَعْيَتْ مُدَاوِيْهَا
كَانَتْ تُعَاوِدُهُ آلاَمُهَا أَبَداً آنَاً فَآنَاً وَلاَ يَنْفَكُّ يَشْكِيْهَا

= سبايك وصنّاب ولكني رأيت الله نعى على قومٍ شهواتهم فقال ﴿ **أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا** ﴾ ثمَّ أمر أبا موسى بإقراري في عمالتي وأن يستبدل بأصحابي اهـ وظلّ الربيع عاملاً على البحرين إلى ولاية عثمان حيث استبدله مع بقية عمّال الخلافة بالأمويين وشيعتهم وفي خلافة أمير المؤمنين عليه السلام أظهر الربيع من الإخلاص له الشيء الكثير وتولّى بعض أعماله وحارب معه الخوارج فجرح في إحدى المواقع بجبهته بنشابة فظلّ جرحه نغاراً فكان يعاوده حيناً بعد حين وتوفي على عهد معاوية وهو معمر .

وعندما عاده أمير المؤمنين قال كيف نجدك أبا عبد الرحمن ؟ قال أجدني يا أمير المؤمنين لو كان لا يذهب ما بي إلاّ بذهاب بصري لتمنيت ذهابه قال وما قيمة بصرك عندك ؟ قال لو كانت لي الدنيا لفديته بها قال لا جرم ليعطينك الله على قدر ذلك إنّ الله يعطي على قدر الألم والمصيبة وعنده تضعيف كثير فلطفت كلمات الأمير الحكيمة هذه من آلام الربيع فحمد الله على بلواه وتجلد ثمَّ أجال أمير المؤمنين بصره في دار الربيع فوجدها ذات سعة ورياش ثمين فقال ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا ، وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج ؟؟ وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري بها الضيف وتصل فيها الرحم وتطلع منها الحقوق مطالعها فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة فكان لهذه الكلمات موقعها الطيب من نفس الربيع فشكر وحمد ثمَّ قال يا أمير المؤمنين ألا أشكو إليك عاصم بن زياد أخي ؟ قال ما له ؟ قال لبس العباء وترك الملاء وغمَّ أهله وأحزن ولده فقال عليه السلام ادعوا لي عاصماً فلما أتاه عبس في وجهه وقال ويحك يا عاصم ترى الله أباح لك اللذات وهو يكره ما أخذت منها لأنت أهون على الله من ذلك أما سمعته يقول : ﴿ **وأمّا بنعمة ربّك فحدّث** ﴾ وقوله : ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم واعملوا صالحاً** ﴾ قال عاصم فلمَ أقصرت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن وأكل الجشب ؟؟ قال إنّ الله تعالى فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره وما انصرف علي عليه السلام حتى نزع عاصم العباء ولبس الملاء وعاش بالرغد والرفاه بعد ذلك .

فَعَادَهُ ٱلْمُرْتَضَى يَوْماً بِعَطْفَتِهِ مُخَفِّفاً عَنْهُ أَسْقَامَاً يُعَانِيْهَا
وَقَالَ : مَا بِكَ قُلْ لِيْ كَيْفَ أَنْتَ فَنَا دَاهُ ٱلرَّبِيْعُ : بِحَالٍ لَسْتُ رَاضِيْهَا
لَوْكُنْتُ أَعْمَى وَأَشْفَى لَارْتَضِيْتُ عَمَى عَيْنِيْ وَآلَامُ جُرْحِيْ لَا أُقَاسِيْهَا
فَقَالَ: مَا قِيْمَةَ ٱلْإِبْصَارِ عِنْدَكَ حَتَّى أُضْتَ تَبْذِلُهُ نَادَى بِهِ: إِيْهَا
لَوِ ٱلْعَوَالِمُ لِيْ أُفْدِيْ بِهَا بَصَرِيْ إِنِّيْ بِهِ هٰذِهِ ٱلآلَامُ أُفْدِيْهَا
فَقَالَ: مَثُوبَةُ ٱلْبَارِيْ بِقَدْرِ مُصَا بِ ٱلْمَرْءِ فَٱصْبُرْ بِتَقْوَى كَيْ تُلَاقِيْهَا
ثُمَّ ٱلْأَمِيْرُ أَجَالَ ٱلطَّرْفَ رَدَّدَهُ بِٱلدَّارِ إِذْ شَمَخَتْ شَمْخَاً مَبَانِيْهَا
فَقَالَ : مَا تَبْتَغِيْ مِنْهَا بِزَائِلَةِ ٱلـ ـدُّنْيَا عَلَى وُسْعِهَا مَا دُمْتَ مُخْلِيْهَا
وَأَنْتَ أَحْوَجُ فِيْ ٱلْأُخْرَى لَهَا سَكَنَاً رَحْبَاً وَفِيْ ظِلِّ رَبِّ ٱلْعَرْشِ تَأْوِيْهَا
بَلَى بِهَا تَبْلُغُ ٱلْأُخْرَى بِطُرْفَتِهَا إِنْ شِئْتَ فَٱعْمَلْ عَلَى مَثْوَى مَغَانِيْهَا
أَنْ تُطْلِعَنَّ حُقُوْقَ ٱلنَّاسِ مَطْلِعَهَا مِنْ ذِيْ ٱلدِّيَارِ فَتُرْضِيْ مُسْتَحِقِّيْهَا
وَأَنْ تُوَاصِلَ فِيْهَا بِٱلْوَلَا رَحِمَاً وَأَنْ تُلَاقِيْ بِهَا ٱلْأَضْيَافَ تَقْرِيْهَا
صَاحَ ٱلرَّبِيْعُ : جَزَاكَ ٱللَّهُ حَيْدَرَةٌ خَيْرَاً عَنِ ٱلنَّاسِ إِذْ لِلْخَيْرِ تَهْدِيْهَا
قَدْ عِدْتَنِيْ فَبِكَ ٱلآلَامُ قَدْ شُفِيَتْ فَمَا أَنَا بَعْدَ هٰذَا ٱلْيَوْمِ شَاكِيْهَا
وَأَنْتَ مَهَّدْتَ لِلأُخْرَى أَمَامِيَ سُبْـ ـلَاً صِرْتُ بِٱلْبِرِّ وَٱلْإِحْسَانِ أُمْشِيْهَا
وَقَالَ: فَٱنْصَحْ أَخِيْ إِنِّيْ إِلَيْكَ لأَشْـ ـكُوْهُ وَقَدْ قَاطَعَ ٱلدُّنْيَا وَأَهْلِيْهَا
فَقَالَ: هَيَّ ٱطْلُبُوْهُ مَا مُقَاطَعَةُ ٱلـ ـدُّنْيَا بِمُكْسِبَةِ ٱلْأُخْرَى لِبَاغِيْهَا
فَجَاءَ عَاصِمُ فِيْ وَاهِيْ عَبَاءَتِهِ وَكَانَ عَنْ رَغْبَةٍ بِٱلزُّهْدِ كَاسِيْهَا
نَادَى بِهِ ٱلْمُرْتَضَى بَعْدَ ٱلسَّلَامِ : لِمَا ذَا ٱلْيَوْمَ نَفْسُكَ عَنْ جَهْلٍ تُعَادِيْهَا
قَدِ ٱسْتَهَامَ بِكَ ٱلشَّيْطَانُ وَهْوَ وَأَيْـ ـمُ ٱللَّهِ يَلْعَبُ بِٱلْأَهْفَاءِ يُغْوِيْهَا

أَمَا رَحِمْتَ ٱلْأُلَى حَوْلَيْكَ مِنْ وَلَدٍ فَرُحْتَ فِيْ عِيْشَةِ ٱلزُّهَّادِ تُؤْذِيْهَا
وَهَلْ حَسِبْتَ بِأَنَّ ٱللَّهَ حَلَّلَ هٰـذِيْ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيَأْبَى أَنْ نُوَافِيْهَا
لَأَنْتَ أَهْوَنُ مِنْ هٰذَا عَلَيْهِ فَفُزْ بِنِعْمَةِ ٱللَّهِ وَٱنْعَمْ فِيْ تَعَاطِيْهَا
فَقَالَ عَاصِمُ: لٰكِنْ يَا خَلِيْفَتَنَا أَرَاكَ لَذَّاتُ ذِيْ ٱلدُّنْيَا تُحَاشِيْهَا
فَأَنْتَ تَأْكُلُ مِنْ خَشْفِ ٱلطَّعَامِ وَتَلْـبَسُ ٱلْخِشَانَ ٱلَّتِيْ يُؤْذِيْ تَكَسِّيْهَا
فَقَالَ : وَيْحَكَ إِنِّيْ لَسْتُ مِثْلَكَ أَصْـلاً فِيْ ٱلْفُرُوْضِ ٱلَّتِيْ ذُوْ ٱلدِّيْنِ يُمْضِيْهَا
عَلَى أَئِمَّتِنَا تَقْدِيْرُ أَنْفُسِهَا قَدْرَ ٱلضِّعَافِ كَذَا يَقْضِيْ مُوَلِّيْهَا
كَيْ يَأْتَسِيْ ٱلْفُقَرَاءُ ٱلْمُعْدِمُوْنَ بِهَا إِذَا ٱنْجَلَتْ وَجَلَالُ ٱلْفَقْرِ غَاشِيْهَا
بِنِعْمَةِ ٱللَّهِ حَدِّثْ صَاحِ قَوْمَكَ وَٱظْـهِرْهَا وَهَيْهَاتِ أَنْ تَبْقَى لِمُخْفِيْهَا
وَٱلطَّيِّبَاتُ ٱلَّتِيْ ٱلرَّحْمٰنُ أَنْعَمَ إِنْـعَامَاً عَلَيْهَا بِهَا فَسَلْ تَجَافِيْهَا
بِذَاكَ أُنْزِلَتِ ٱلآيَاتُ وَهْيَ هُدَىً لِلْمُسْلِمِيْنَ إِذَا بَاتُوْا مُطِيْعِيْهَا
بِذَا ٱرْعَوَى عَاصِمٌ عَنْ غَيِّهِ وَقَضَى أَيَّامَهُ بَعْدَ ذَا رَغْدَاً وَتَرْفِيْهَا
كَذَاكَ حَيْدَرَةٌ كَانَتْ مَجَالِسُهُ عِلْمَاً وَهَدْيَاً وَإِرْشَادَاً وَتَفْقِيْهَا
فَإِنْ رَأَى ٱلنَّاسَ ٱلْأَسْقَامُ تُزْعِجُهَا فَفِيْ مَوَاعِظِهِ ٱلْغَرَّا يُؤَاسِيْهَا
وَإِنْ رَأَى نِعَمَ ٱلْبَارِيْ تُحِيْطُ بِهَا فَبِٱلْمَبَرَّاتِ لَا يَنْفَكُّ يُغْوِيْهَا
وَإِنْ رَآهَا أَسَاءَتْ فَهْمَ مَا نَزَلَتْ بِهِ سَمَاحَةُ شَرْعِ ٱللَّهِ يُنْهِيْهَا
كَانَ ٱلْإِمَامُ أَمِيْرُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ أَبَاً لَهَا عَلَى سِنَّةِ ٱلْهَادِيْ يُرَبِّيْهَا

أمير المؤمنين ومادحوه

فِيْ ذَاتِ يَوْمٍ أَتَى دَارَ ٱلْوَصِيِّ جَمَا عَةٌ تُمَلِّقُهُ وَصْفَاً وَتَشْبِيْهَا(١)

(١) فلتخرس شفاه المتملقين للحكام ، ولتتكسر بأيدي المنافقين المخادعين =

وَٱسْتَرْسَلَتْ بِٱلثَّنَا وَٱلْحَمْدِ ذَاكِرَةً آثَارَهُ وَمَضَتْ بِٱلْمَدْحِ تُطْرِيْهَا

= الأقلام ، ولينطق بالحق كلُّ ذي شفة ولسان ، وليخطّ كلمات الصدق كلُّ ذي فصاحة وبيان ، ذاك ما يأمر به المرتضى صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام ، وذاك ما جاء به الإسلام .

ظنَّ أُناس « وكلُّ الظنّ إثم لا بعضه » أنَّ أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب ، مثل غيره من ذوي المراتب ، يرضيه المدح والثناء ، ويشجيه الحمد والإطراء ، فاسترسلوا بحضرته باللغو من القول الهراء ، بغير حياء ، فجبههم بما عرف عنه من البداهة والذكاء ، مبيناً لهم كراهته للحمد والإطراء حتى ولو كان حقيقةً بغير مراء ، وما كفاه هذا حتى شفعه بنصائح ومواعظ يدرك مغازيها الألباء ، مبيناً لهم أنّه يودّ سماع الحقائق من رعاياه ، سالمةً من الخداع والرياء . ولعمري أنَّ خطابه هذا لحريٌّ بأن يكون قبلة أنظار الحاكمين ، وشرعة الملوك والسلاطين ، وفيه الديموقراطية الحقيقية التي يتغنى بها المتغنون ، وينشدها دعاتها الراشدون ، قال عليه السلام : « إنَّ مِن حقّ من عظم جلال الله سبحانه في نفسه ، وجلَّ موضعه في قلبه ، أن يصغر عنده لعظم ذلك كلُّ ما سواه ، وأنّ أحقَّ من كان كذلك لمن عظمت نعمة الله عليه ، ولطف إحسانه إليه ، فإنّه لم تعظم نعمة الله على أحدٍ ، إلاَّ إذا ازداد حقُّ الله عليه عظماً ، وأنَّ من أسخفِ حالاتِ الولاة ، عند صالح الناس ، أن يُظنَّ بهم حبُّ الفخر ، ويوضع أمرهم على الكبر ، وقد كرهتُ أن يكون جال في ظنكم أنّي أُحبُّ الإطراء ، واستماع الثناء ، ولست بحمد الله كذلك ، ولو كنتُ أحبُّ أن يقال ذلك ، لتركته انحطاطاً لله سبحانه ، عن تناول ما هو أحقُّ به ، من العظمة والكبرياء ، وربما استحلى الناس الثناء ، بعد البلاء ، فلا تثنوا عليَّ بجميل ثناء ، لإخراجي نفسي إلى الله سبحانه وإليكم ، من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها ، وفرائض لا بدَّ من إمضائها ، فلا تكلموني بما تكلّم به الجبابرة ، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة ، ولا تخالطوني بالمصانعة ، ولا تظنوا بي استثقالاً في حقٍّ قيل لي ، ولا التماس إعظام لنفسي ، فإنَّه من استثقل الحقَّ أن يقال له ، أو العدل أن يعرض عليه ، كان العمل بهما أثقل عليه ، فلا تكفوا عن مقالةٍ بحقّ ، أو مشورةٍ بعدل ، فإنّي لستُ في نفسي بفوق أن أخطىء ، ولا آمن ذلك من فعلي ، إلاَّ أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني ، فإنّما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربٍّ لا ربَّ غيره ، يملك منّا ما لا نملك من=

ظَنَّتْ وَقَدْ أَثِمَتْ فِيْ ٱلظَّنِّ أَنَّ عَلِيًّـــاً يَرْتَضِي عَنْ ثَنَا يُسْدِيْهِ مُثْنِيْهَا
فَٱغْتَاظَ مِنْهَا وَبِٱلتَّوْبِيْخِ بَادَرَهَا بِخُطْبَةٍ قَدْ تَسَامَتْ فِيْ مَعَانِيْهَا
وَقَالَ : أَحْمَدُ رَبِّيْ وَٱلصَّلاَةُ عَلَى طَهَ وَيَا صَحْبَنَا جُوْزُوْا ٱلتَّرَارِيْهَا
مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ ٱللَّهُ ٱلْعَظِيْمُ بِعَيْـــنَيْهِ وَأَكْبَرَهُ قَدْرَاً وَتَوْجِيْهَا
وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ وَدَرَى بِأَنَّ قُوَّاتِهِ مَا مَنْ يُقَاوِيْهَا
أَنْ يَصْغَرَنَّ سِوَاهُ مِنْ خَلاَئِقِهِ لَدَيْهِ سِيَّانِ أَنْسِيْهَا وَجِنِّيْهَا
يُمْسِيْ كَذٰلِكَ مَنْ نَعْمَاءُ خَالِقِهِ عَلَيْهِ قَدْ عَظُمَتْ حَمْدَاً لِمُسْدِيْهَا
وَٱللَّهِ مَا عَظُمَتْ نُعْمَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا وَأَعْظَمُ مِنْهَا حَقُّ مُعْطِيْهَا
وَإِنَّ أَسْخَفَ حَالاَتِ ٱلْوِلاَةِ وَقَدْ سَادَتْ رَعِيَّتَهَا كَيْمَا تُرَاعِيْهَا
أَنْ تَحْسِبَ ٱلنَّاسُ حُبَّ ٱلْفَخْرِ نَزْعَتَهَا وَٱلْكِبْرَ شِيْمَتَهَا وَٱلْمَدْحَ يُرْضِيْهَا
كَرِهْتُ مِنْكُمُ أَنْ جَالَتْ ظُنُوْنُكُمْ بِيْ جَوْلَةً مَا أَنَا تَٱللَّهِ رَاضِيْهَا
ظَنَنْتُمُوْنِيَ مُغْرَى بِٱلثَّنَاءِ وَبِٱلْإِ م طْرَاءِ زَهْوَاً وَشَرُّ ٱلنَّاسِ زَاهِيْهَا
كَلَّا فَلَسْتُ بِحَمْدِ ٱللَّهِ مَوْضِعَ هَا تِيْكَ ٱلظُّنُوْنِ وَأَعْجِبْ مِنْ تَظَنِّيْهَا
حَتَّى وَلَوْ كُنْتُ أَهْوَى أَنْ تُقَالَ لِيَ ٱلْـــمَدَائِحُ ٱلزُّهْرُ فِيْ سَامِيْ مَعَانِيْهَا
لَكُنْتُ تَارِكَهَا لِلَّهِ وَهْوَ بِهَا أَوْلَى مِنَ ٱلنَّاسِ مَا تَسْمُوْ مَعَالِيْهَا
وَٱلْكِبْرِيَاءُ لَهُ سُبْحَانَهُ وَلَهُ عَلَى ٱلْبَرِيَّةِ آيُ ٱلْحَمْدِ تُسْدِيْهَا
وَرُبَّمَا ٱسْتَحْلَتِ ٱلنَّاسُ ٱلثَّنَاءَ عَلَى أَثْرِ ٱلْبَلاَءِ نَعَمْ هٰذَا يُعَزِّيْهَا
لاَ تَحْمَدُوْنِي وَلاَ تُثْنُوْا لِإِخْـــرَاجِيْ إِلَيْكُمْ نَفْسِيْ طَوْعَ بَارِيْهَا

= أنفسنا ، وأخرجنا مما كنّا فيه ، إلى ما صلحنا عليه ، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى وأعطانا البصيرة بعد العمى » اهـ .

مِنْ بَـاقِيَاتِ حُقُـوْقٍ بِتُّ أَبْـذُلُهَـا مَـعَ ٱلْفُرُوْضِ ٱلَّتِيْ مَا زِلْتُ أَقْضِيْهَا
كَـلَّا وَلَا تُسْمِعُـوْنِيْ مَـا جَبَابِـرَةُ ٱلـــدُّنْيَـا بِـهِ تَتَـرَضَّى عَنْ مُفَاهِيْهَـا
كَـلَّا وَلَا تَـتَّقُـوْنِـيْ كَـاتِّقَـائِكُـمُ أَهْـلَ ٱلْبَـوَادِرِ خَـوْفَاً مِنْ تَعَـدِّيْهَا
وَلَا مُصَـانَعَـةٌ أَبْغِيْ آخْتِـلَاطَكُـمُ بِـيْ لَيْسَ يُـنْصِفُـنِيْ تَـاللَّهِ آتِـيْهَـا
لَا تَحْسَبُـوْا أَنَنِي أَبْغِيْ لِنَفْسِيَ إِعْـــظَامَاً وَمَا ٱلْكِبْـرُ أَرْضَى أَنْ يُدَانِيْهَا
وَلَا تَـظُنُّـوْا بِيَ آسْتِثْقَـالَ قَـوْلَـةِ حَــــقٍّ يَبْتَغِيْ ٱلنُّصْـحَ وَٱلْإِرْشَادَ مُبْـدِيْهَا
وَمَـنْ تَثَـاقَـلَ مِنْ حَقٍّ يُقَـالُ لَـهُ أَوِ ٱلْعَـدَالَـةِ مِنْ رَاجٍ يُـرَجِّـيْهَـا
لَا شَـكَّ يَسْتَثْقِلُ ٱلْأَعْمَـالَ يُنْفِـذُهَـا بِٱلْحَقِّ وَٱلْعَدْلِ كَيْ يُرْضِيْ مُرِيْدِيْهَا
فَـلَا تَكُفُّوْا صِحَـابِيْ عَنْ مَقَـالَـةِ حَــــقٍّ أَوْ مَشُـوْرَةِ عَـدْلٍ تُسْمِعُـوْنِيْهَـا
فَمَـا أَنَا فَـوْقَ أَنْ أُخْطِيْ وَلَسْتُ أَمِيْـــنَاً مِنْ فِعَالِيْ ٱلَّتِيْ فِيْ ٱلْحُكْمِ أُجْرِيْهَا
إِلَّا إِذَا عَصَمَ ٱلْخَـلَّاقُ نَفْسِيَ مِـنْ ذَلَّاتِـهَـا وَنَهَـاهَـا عَـنْ تَشَـهِّيْـهَـا
وَإِنَّـمَـا أَنْـتُـمْ مِـثْلِيْ عَـبِـيْـدُ إِلَـــهٍ وَاحِدٍ مَـالِـكِ ٱلـدُّنْيَـا بِمَـا فِيْهَـا
وَإِنَّـهُ مَـالِـكٌ مَـا لَيْسَ نَمْلُكُ مِنْ نُفُـوْسِنَـا مِثْلَمَـا يَبْغِيْ يُمَشِّيْـهَـا
سُبْحَانَهُ مِنْ لَيَـالِيْ ٱلشِّرْكِ أَخْـرَجَهَا إِلَى ٱلْهُـدَى وَبِـهِ أَجْلَى دَيَـاجِيْهَـا

إغارة معاوية على بلاد الخلافة

بَيْنَـا ٱلْخَلِيْفَةُ مُشْقَى بِـٱلْخَـوَارِجِ لَا تَنْفَـكُّ تُبْـدِيْ لَـهُ ظُلْمَـاً تَعَصِّيْهَـا[1]
وَٱلنَّـاسُ حَوْلَيْـهِ شَتَّى لَيْسَ يَجْمَعُهَا رَأْيٌ عَلَى نَصْـرَةٍ لِـلدِّيْنِ تَـأْتِـيْهَـا

---

(١) إتمـاماً للغـرض المقصود من حـواشي هذه العلويـة المباركـة نأتي هنـا على خلاصة ما فعله معاوية بعد التحكيم للتسطي على أملاك الخلافة الإسـلامية مصـراً بعد مصر وبلداً بعد بلد فنقول :

=

= « حديـــث مصـــر »

إنَّ أول ما عمل معاوية في سبيل اغتصاب أمصار الخلافة هو الـديار المصـرية إذ قد علمنا أنَّ عمراً بن العاص ما رضي أن ينصر معاوية إلَّا بعد أن وعده بولاية مصـر وما وسعه إلَّا أن يبادر للبرّ بوعده لأنّه وجد نفسه في كل يوم محتاجاً إلى عمرو طالما سيدنـا أميـر المؤمنين عليه السلام في الكوفـة قابضـاً على زمام الخـلافة راغباً بالقضـاء على عصيان معاوية وأصحابه .

وكانت مصر في أواخر أيام عثمان في يد عبد الله بن سعد بن أبي سـرح أحد بني عامر بن لؤي . وكان زعيم المتآمرين على عثمان في مصر هو محمد بن أبي حذيفـة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فلما خـرج المصريـون بثورتهم إلى المـدينة هجم ابن أبي حذيفة على عامل عثمان وخلعه من ولايته وطرده من مصـر فنزل على تخـومها ممـا يلي فلسطين منتظراً ما يكون من أمر عثمان فلمّا بلغه مقتله فرَّ إلى معاويـة معتصماً بـه لعلمه بنقمـة المسلمين على العمّال الأمـويين وولّى سيدنـا علي على مصـر قيس بن سعـد بن عبادة فسار إلى مصر بنفر من أهلــه ودخلها من غيـر أن يعارضـه معارض وبـايع معـظم الناس علياً بواسطته وكان ذلك في أواخر صفر سنة ٣٦ للهجـرة . واعتزل البيعـة قليلون من شيعة عثمان .

وبعد أن انتهت وقعة الجمل وتفرّغ سيدنا علي لمحـاربة معـاوية في الشـام خاف هذا أن يأتيه سيدنا علي من العراق وقيس بن سعد من مصر فأخذ يكاتب قيساً بالإنضمام إليه في المطالبة بدم عثمان ويغريـه أن يملّكه العـراقين ويملك أهل بيتـه الحجاز فـأبى قيس ممالئته على ما يحبُّ على أنّه لم يكـاشفه العـداوة جهرةً بـل ظلَّ معـه بين مباعـد ومقارب فما كان من معاوية إلَّا أن أذاع بين أهل الشام أنَّ قيساً بن سعد عامل علي على مصر قد صالح معاوية وطارت الأنباء بذلك إلى الكوفة فاتصلت بسيدنا علي فأوجس منه شـرّاً وشكّاً بـإخلاصـه ثمَّ ازداد شكاً بـه بما كـان يراه في كتب قيس من الإلحـاح بتـرك المعتـزلين في مصر وشـأنهم من غير أن يتعـرّض إلى إكراههم على بيعتـه وأشـار عليـه بعض أصحابه لدى هذه الشكوك أن يعزل قيسـاً ويولي في مـوضعه محمـداً بن أبي بكر لأنَّ هذا كان طامعاً في مصر منذ قتل عثمان ولأنّ المشيـر بتوليتـه كان عبـد الله بن جعفر وهو أخو محمد بن أبي بكر لأمّه فرضي سيدنا علي بتوليته وأرسله إلى مصر فما عـارضه =

فَلَمْ يَفُتْهُ دَقِيْقٌ مِنْ تَضَعْضُعِهَا   وَلَمْ يَفُتْهُ أَلِيْمٌ مِنْ دَوَاهِيْهَا

= قيس لأنّه كان زوج عمّته بنت أبي قحافة المسماة « قريبة » وسلمه حكم الديار المصرية وسار إلى المدينة ناقماً على سيدنا علي . ولكنه ما عتم أن عذر سيدنا علي وسار مع سهل بن حنيف إلى الكوفة طائعين راضيين وشهدا معه موقعة صفين .

وأول عمل أتاه محمد بن أبي بكر في مصر أنّه كتب إلى المعتزلين منهم وهم الذين ما كانوا طوع علي ولا معاوية أن بايعوا أو اخرجوا من مصر فكتبوا له يرجونه أن يمهلهم ريثما تنتهي المشكلة فأصرَّ عليهم فامتنعوا فتركهم وهو يحذّرهم وهم يحذرونه فلما انجلت موقعة صفين عن التحكيم وقفل إلى الشام وعلي إلى الكوفة اجترأوا على محمد بن أبي بكر وأظهروا له العداء فأرسل عليهم قوةً من جنوده أولاً وثانياً فقهروها واشتدَّ بذلك ساعدهم ومالت الناس إليهم مطالبةً بدم عثمان وكان على رأسهم رجل يدعى معاوية بن خديج بن الكاسك فجعل يدعو إلى المطالبة بدم عثمان فانضم إليه كثيرون من المصريين وهكذا فسدت مصر على محمد بن أبي بكر وأرسل يستنجد بسيدنا علي فقال عليه السلام ما لمصر إلاّ أحد اثنين صاحبنا الذي عزلناه في الأمس قيس بن سعد بن عبادة أو مالك بن الحارث بن الأشتر وكان سعد وقتئذٍ قائداً لشرطة سيدنا علي في الكوفة والأشتر عاملاً له على الجزيرة ثمَّ رجح إرسال الأشتر فاستدعاه وولاّه مصراً وأرسله إليها فأتبعه معاوية بأحد أتباعه وقتله على بحر القلزم « البحر الأحمر » كما تقدم القول في ترجمة الأشتر . وظلَّ محمد بن أبي بكر عاملاً لسيدنا علي على مصر وهي على ما عرفنا من استفحال أمر معاوية بن حديج فيها .

على أنَّ عمراً بن العاص عندما عاد بعد التحكيم إلى الشام جعل يلحف على معاوية بالمسير على مصر وفتحها وزاد إلحافاً بعد موت الأشتر وما بلغه من استفحال أمر معاوية بن حديج فرضي معاوية بإرسال حملةً على مصر بقيادة عمرو بن العاص يعاونه فيها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الخزرجي الذي عرفناه عامل عثمان على حمص وصحب عمرو معه كثيرين من أبطال الشام والعرب إلاّ أنَّ معاوية قبل إرسال الحملة كتب إلى معاوية بن حديج الكندي ومسلم بن مخلد الأنصاري وكانا شيعةً له يأمرهما بالثبات بدعوتهما للمطالبة بدم عثمان ويمنيهما بإرسال حملةٍ على مصر فجاوباه بأنَّ أمرهما قد استفحل وتعجلاه بإرسال الحملة فأرسل حينئذٍ عمراً بن العاص بستة آلاف مقاتل على مصر . ولما انتهى عمرو بن العاص إلى حدود مصر طاوياً سيناء انضمَّ إليه =

= من كان على شيعة عثمان وتريث هناك وكتب إلى محمد بن أبي بكر كتاباً يقول فيه : « أمّا بعد ، فتنحَّ عنّي بدمك ، يا ابن أبي بكر فإنّي لا أحبُّ أن يصيبك منّي ظفر ، وأنّ الناس في هذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ، ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك ، وهم مسلموك ، لو قد التقت حلقتا البطان ، فاخرج منها ، فإنّي لك من الناصحين ، والسلام » وكان عمرو قد صحب معه كتاباً من معاوية إلى محمد بن أبي بكر فصحبه مع كتابه هذا وهاك نصّ كتاب معاوية : « أمّا بعد ، فإنَّ غبَّ الظلم والبغي عظيم الوبال ، وأنَّ سفك الدم الحرام ، لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا ، والتبعة الموبقة في الآخرة ، وما نعلم أحداً كان أعظم على عثمان بغياً ، ولا أسوأ عيباً ، ولا أشدَّ عليه خلافاً ، منك ، سعيت عليه مع الساعين ، وساعدت عليه مع المساعدين ، وسفكت دمه مع السفاكين ، ثمَّ تظنُّ أنّي نائم عنك ، فتأتي بلدةً فتأمن فيها ، وجلُّ أهلها أنصاري ، يرون رأيي ، ويرفضون قولك ، ويستصرخونَ عليك ، وقد بعثتُ لك قوماً حناقا عليك ، يسفكون دمك ، ويتقربون إلى الله عزَّ وجلَّ بجهادك ، وقد أعطوا الله عهداً ليقتلونك ، ولو لم يكن منهم إليك ما قالوا ، يقتلك الله بأيديهم ، أو بأيدي غيرهم من أوليائه ، وأنا أحذرك وأنذرك ، فإنَّ الله مقيد منك ، ومقتصٌّ لوليه وخليفته ، بظلمك له ، وبغيك عليه ، ووقيعتك فيه ، وعدوانك يوم الدار عليه ، تطعن بمشاقصك فيما بين أحشائه وأوداجه ، ومع هذا فإنّي أكره قتلك ، ولا أحبُّ أن أتولى ذلك منك ، ولن يسلمك الله من النقمة أين كنت أبداً ، فتنحَّ وانجُ بنفسك والسلام » اهـ .

لا جرم أنّ معاوية وعمراً بن العاص ما كتبا هذين الكتابين إلى محمد بن أبي بكر إلّا وهما يريدان أن يرهباه ويحملاه على التنحي عن مصر بغير حرب لأنّهما كانا يحسبان حساباً كبيراً لمقاومته وإمداد سيدنا علي عليه السلام رغماً عمّا كانا يعلمانه من افتراق كلمة أصحاب الخلافة وتشتت أميالهم . أمّا محمد بن أبي بكر فقد عرف من هذين الكتابين ومما سمعه عن وصول حملة عمرو بن العاص إلى حدود مصر ومما شهده من استفحال أمر شيعة عثمان القائم بها معاوية بن حديج أنَّ موقفه قد تحرَّج وأنَّ لا قبل له على المقاومة طويلاً إلّا أنّه لم يسعه أن يتنحى عن مصر ويتركها لقمةً سائغةً لعمرو بن العاص على ما كان عليه من الإخلاص لأمير المؤمنين فبادر إلى أصحابه يستنصرهم من جهة وأوفد مع ساعٍ خصيص كتابي معاوية وعمرو بن العاص إلى سيدنا علي مع كتاب منه ينبئه به عن حقيقة موقفه وما يتهدده ومصر من الأخطار من الجهة الثانية . =

بِهَا غَدَتْ صَحْبُ مَوْلَانَا أَبِيْ حَسَنٍ فَصَائِلاً وَتَمَادَتْ فِيْ تَعَادِيْهَا

= أمّا عمرو بن العاص فما أمهل أن قصد مصر فأخرج محمد بن أبي بكر إلى لقائه كنانة بن بشر في ألفي مقاتل قصدوا جيش ابن العاص في ضواحي الفسطاط وجرت هنالك مواقع عظيمة بين الجيشين كان النصر في أولها لجيش كنانة وكاد يفشل عمرو بن العاص لو لم ينجده في آخر الوقت معاوية بن حديج بمن معه من مقاتلة المصريين المنضوين إلى رايته حينئذٍ تغلبوا على جيش كنانة وقتل هذا شهيداً وتقدم عمرو بن العاص نحو الفسطاط فدخلها دخول الظافر . أمّا أصحاب محمد بن أبي بكر فلمّا بلغهم مقتل كنانة وهلاك جيشه خارت عزائمهم وارفضوا من حوله وإذ وجد هذا نفسه وحيداً هرب في الحال من وجه ابن العاص وأوى إلى خربة فاختفى فيها . وعندما تمَّ الظفر لابن العاص رأى من الحكمة أن لا يدع محمداً بن أبي بكر مختفياً متغللاً في بلاد مصر مخافة أن يهبَّ المصريون لنجدته فيضطرَّ أن يشتبك معهم بحربٍ ثانيةٍ فأرسل معاوية بن حديج بطلبه .

خرج معاوية بن حديج بطلب محمد بن أبي بكر فجعل يتنسم أخباره من الناس في ضواحي الفسطاط فأخبره أحد العلوج بأنّه رأى رجلاً في خربة بالقرب من المحل الذي كانوا فيه فقصد الخربة بمن معه من أصحابه فوجدوا محمداً بن أبي بكر فيها ويكاد العطش يهلكه فقبضوا عليه وأرسل معاوية بن حديج أحد أعوانه ينبىء عمراً بوقوع محمد بن أبي بكر في قبضته وأنّه عزم على قتله فلمّا وصل رسول معاوية بن حديج إلى عمرو بن العاص كان في حضرته عبد الرحمن بن أبي بكر إذ كان هذا في جيشه فأكبر قتل أخيه وقال لعمرو بن العاص : لا والله لا يقتل أخي صبراً فابعث إلى معاوية بن حديج فانهه فأرسل عمرو رسولاً إلى معاوية بن حديج يقول : إئتني بمحمد حيّاً . فلمّا وصل رسول ابن العاص إلى معاوية بن حديج قال هذا والغضب آخذ منه مأخذه : أقتلتم كنانة بن بشر بن عمي وأخلي عن محمد ؟ هيهات . أكفّاركم خير من أوليائكم ؟ أم لكن براءَة في الزبر ؟ قال هذا وهو عازم على قتله فسأل محمد بن أبي بكر شربة ماء فقال له معاوية بن حديج لا سقاني الله إن سقيتك قطرةً أبداً إنّكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائماً محرماً فسقاه الله من الرحيق المختوم . والله لأقتلنك يا ابن أبي بكر وأنت ظمآن ويسقيك الله من الحميم والغسلين . فقال محمد بن أبي بكر : يا ابن اليهودية النساجة ، ليس ذلك اليوم إليك ، ولا إلى عثمان ، إنّما ذلك إلى الله ، يسقي أولياءَه ، ويظمىء أعداءَه ، وهم أنت وقرناؤك ، ومن تولاّك ومن توليته ، =

وَلَمْ تَعُدْ طَوْعَهُ إنْ رَامَ يَفْجَأُهُ   بِغَارَةٍ كَانَ لَا يَنْفَكُّ يَنْوِيهَا

=والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم منّي ما بلغتم ، فقال معاوية بن حديج وهو يتبسم تبسم الحاقد : أتدري ما سأصنع بك ؟ أدخلك جوف هذا الحمار الميّت ، ثمَّ أحرقه عليك بالنار ، قال محمد : إن فعلتم ذلك بي ، فطالما فعلتم مثله بأولياء الله ، وأيم الله إنّي لأرجو أن يجعل الله هذه النار التي تخوّفني بها ، برداً وسلاماً ، كما جعلها الله على إبراهيم خليله ، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك ، كما جعلها على نمرود وأوليائه ، وإنّي لأرجو أن يحرقك الله وإمامك معاوية وصاحبك عمرو بن العاص ، بنار تلظى ، كلما خبت زادها الله سعيراً ، فقال معاوية بن حديج : إنّي لا أقتلك ظلماً ، إنّما أقتلك بعثمان . قال محمد : وما أنت وعثمان ، رجل عمل بالجور ، وبدل حكم الله والقرآن ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ فنقمنا عليه أشياء عملها ، فأردناه أن يخلع نفسه من الخلافة فلم يفعل ، فقتله من قتله من الناس . فغضب معاوية بن حديج وأمر بمحمد فضرب أحد أعوانه عنقه ثمَّ أمر فألقي في جوف حمار ميت كان في هاتيك الخربة وأحرق بالنار . وهكذا بلغ عمرو بن العاص أمنيته وعاد إلى حكم مصر .

أمّا سيدنا علي عليه السلام فعندما انتهى إليه كتاب محمد بن أبي بكر مع كتاب معاوية وعمرو بن العاص الذين أرسلاهما إلى محمد أسرع في الحال إلى المسجد ودعا الناس وأخذ يحرضهم على الذهاب إلى مصر وردّ الأعداء عنها فما لبّوه إلاّ بعد جهد جهيدٍ وتسويف طويل . لبّاه منهم نحو الألفين فسار بهم مالك بن كعب مدداً لمحمد بن أبي بكر على أنّهم ما كادوا يبعدون عن الكوفة بضع مراحل حتى ورد على سيدنا علي نعي محمد بن أبي بكر وسقوط مصر في يد عمرو بن العاص فحزن حزناً شديداً وخرج إلى المسجد والناس مجتمعون وقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وقال : ألا وأنَّ مصر قد افتتحها الفجرة ، أولياء الجور والظلم ، الذين صدّوا عن سبيل الله ، وبغوا الإسلام عوجاً ، ألا وأنَّ محمداً بن أبي بكر قد استشهد ، رحمة الله عليه ، وعند الله نحتسبه ، أمّا والله لقد كان ما علمت ، ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحبُّ سحت المؤمن ، إنّي والله لا ألوم نفسي على تقصير ولا عجز ، وإنّي بمقاساة الحرب لجدُّ بصير ، إنّي لأقدم على الحرب ، وأعرف وجه الحزم ، وأقوم بالرأي المصيب ، فأستصرخكم معلناً ، وأناديكم مستغيثاً ، فلا تسمعون لي قولاً ، ولا تطيعون لي أمراً ، حتى تصير الأمور إلى عواقب المساءة ، وأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر ، ولا =

=تنقضي بكم الأوتار ، دعوتكم إلى غيـاث إخوانكم منـذ بضع وخمسين ليلة ، فخـرجتم على جرجرة الجمل الأشر ، وتثـاقلتم إلى الأرض تثاقـل من لا نية لـه في الجهاد ، ولا رأي له في الاكتساب للأجر ، ثمَّ أخرج إليَّ منكم جند متذائب ضعيف ، نائماً يساقـون إلى المـوت وهم ينظرون ، فـأفٍّ لكم » اهـ قال هـذا سيدنـا علي وهـو غـاضب حـزين ونـزل . ثمَّ إنَّ سيدنـا علي عليه السلام اجتهـد كثيـراً لتـأليف جيش يبعثـه لفتـح مصـر ثـانيـة واستدعى لهذا الغرض عبد الله بن عباس وكان عامله على البصرة في الكـوفة فمـا توفق لأنَّ الناس كان قد أوهى عزائمهم تفرّق كلمتهم بتأثيـر الخوارج الـذين كان سيـدنا علي تعباً جداً في محاربتهم وهكذا كـانت الخوارج من كـل جهة تعمـل على إقلاق خـلافته وتشنيع بهجة حكمه .

« ترجمـــة محمد بن أبي بكـر »

لا ضرورة لذكر نسب محمد بن أبي بكر من أبيه بعـد أن سبق لنا ذكـر أبيه وإنّمـا نذكر هنا أمّه فهي أسماء بنت عميس بن النعمان بن كعب بن مـالك بن قحـافة بن ختعم كانت تحت جعفر بن أبي طالب وهاجرت معه إلى الحبشة فولـدت له هنـاك عبد الله بن جعفر الجواد ثمَّ قتل جعفر يوم مؤتة فتزوج أبو بكر زوجه أسمـاء بنت عميس فولـدت له محمداً هذا ولما مات أبو بكر تزوج أسماء هذه سيدنـا علي عليه السلام وحضن ولدهـا محمد وهو غلام يترعرع فشبَّ في حجر سيدنا علي وتربى على يديه وكان يجريه مجرى أولاده فيقول محمد ابني وإن يكن من صلب أبي بكـر . وكان محمـد بن أبي بكر يحبّ عليـاً حباً جمّاً ويتشيع له ولا يعرف له أباً غيره ولا يعتقد لأحد فضيلة تقـارب فضيلته وكـان له في الثـورة التي قتل فيهـا عثمان يـدان على ما تقـدمت الإشارة في الحـواشي السـابقـة وصحب سيدنا علي في يـوم الجمل وحـارب معه وهـو الذي تـولى أمر عـائشة بعـد أن تلاشت أصحاب الجمل وعاد بها إلى مكة المكرمة مكرَّمةً حسب أمر عليٍّ عليه السلام ثمَّ عاد إلى صحبة سيدنا علي وهو في الكوفة فولّاه مصر كمـا تقدم القـول وكانت خـاتمته كمـا رأينا القتل شهيداً بيد معاوية بن حديج والحرق بجوف حمار في تلك الخربـة التي أوى إليها وكان عمره وقتئذٍ نحو أربعين عاماً .

« هجوم أصحاب معاوية على البصرة »

كـان استيلاء عمـرو بن العاص على مصـر ومقتل محمـد بن أبي بكـر واليهـا في =

وَطَــالَمَـا قَــامَ فِيْهَــا يَسْتَثِيْــرُ بِهَــا   مِنْ رُوْحِـهِ نَخْوَةً لِلْحَـرْبِ تَصْـرِيْهَـا

= سنة ٣٨ للهجرة ولما تمَّ لمعاوية هذا الفوز المبين طمع بسيدنا علي وخلافته وعـزم على مواصلة الحرب لفتح أمصار الخلافة وقال في نفسه أنَّ عمّار بن ياسر ومالك الأشتر كـانا يدا الخلافة فقطعتا وأصبحت بعدهما جزَّاء فمـا عدت أخـافها . قـال هذا وأجـال بصره بأمصار الخلافة فما وجد أولى بالهجوم غيـر البصرة فقـال إنّ البصريين مـا أطاعـوا علياً برضائهم بل بايعوه مقهورين وفي نفوسهم من كرهـه بعد أن قتـل منهم الخلق الكثير في يوم الجمل ما فيها وأنّهم يرون رأينا في عثمان وقد قتلوا حول الجمل في الـطلب بدمـه فهم بذلك حنقـون يودون أن يـأتيهم من يجمع كلمتهم وينهض بهم في الـطلب بثأرهم ودم إمـامهم . ولم يفت معاويـة أيضاً أنّـه لو تملك البصـرة أصبح على عنق الخـلافـة المستقرَّة في الكوفة فيسهل عليه استهواء الكـوفيين بأمـواله ثمَّ الحملة على سيـدنا علي وقهره واستخلاص الخـلافة من سلطانـه . وعلى هذه الـوساوس التي خـطرت لمعاويـة استـدعى عبد الله بن الحضـرمي وأمره أن يسيـر بسريـة من الجيش إلى البصرة مبيناً له أهـواء قبائلهـا ليوالي التي من حـزب عثمان ويحـذر التي من حزب سيـدنـا علي فسـار عبد الله بن الحضرمي بهذه المهمة ضارباً في البرية حتى إذا مـا دنا من البصـرة نزل في بني تميم وأتاه الناس يستطلعون طلع مقدمه فأخذ يرغبهم بعصيان سيدنا علي ويحضهم على القيام مع معاوية للمـطالبة بـدم عثمان فـاعترضـه الضحاك بن قيس الهـلالي وكان على شرطة البصرة وقال : قبّح الله ما جئتنا به وما تدعونا إليه أتيتنا والله بمثل ما أتانا بـه طلحة والزبير أتيانا وقد بايعنا عليـاً واستقامت أمـورنا فحمـلانا على الفـرقة حتى ضـرب بعضنا بعضاً ونحن الآن مجتمعون على بيعته وقد أقال العترة وعفا عن المسيء أفتـأمرنـا أن ننتضي أسيافنا ويضرب بعضنا بعضاً ليكون معاوية أميراً ؟ والله ليومٌ من أيام علي خيرٌ من معـاوية وآل معـاوية . ومـا كاد الضحـاك يتمّ كلامـه حتى انتهـره عبـد الله بن خـازم السلمي قـائلاً اسكت فلست بـأهـل أن تتكلم ثمَّ أقبـل على ابن الحضـرمي وقـال نحن أنصارك ويدك والقول قولك فاقـرأ كتابـك فأخـرج الحضرمي كتـاب معاويـة وأخذ يقـرأه عليهم وكانت خلاصته أنّه يذكر لأهل البصرة موت عثمان وأنّـه قتل مـظلوماً ويستنهضهم إلى الانتصار له ويتعهد لهم أنّه إذا تمت له البيعة يعمـل فيهم بالسنّـة ويعطيهم عـطائين في السنة (وهذا بيت القصيد والشفيع المقبول) فلمّا فرغ الحضرمي من كتـاب معاويـة قام الأحنف وقال : لا نـاقتي في هذا ولا جملي ونفض رداءَه وانصـرف . وقام عمـر بن مرحوم العبدي فقال : أيّها الناس ، الـزموا طـاعتكم وجماعتكم ، ولا تنكثـوا بيعتكم ء=

فَكَانَ تَصْوِيْتُهُ فِيْهَا كَصَرْخَةِ طَوَّ   افِ ٱلْجِبَالِ وَقَدْ ضَاعَتْ بِوَادِيْهَا

=فتقع بكم الواقعة . فاعترضه عباس بن حجار العبدي وقال لننصرنَّ معاوية بأيدينا وألسنتنا فانتهره المثنى بن مخربة العبدي وقال : والله لئن لم ترجع إلى مكانك الذي جئتنا منه لنجاهدنك بأسيافنا ورماحنا ولا يغرنَّك هذا الذي يتكلم وتبع ذلك سجس بين القوم ظهر معه للحضرمي أنَّ شيعة سيدنا علي هي الفائزة فخاف على نفسه وعلى السرية التي يقودها ومال إلى صبرة بن شيمان وهو من وجوه تميم وقال له إنّك ناب من أنياب العرب فانصرني فقال له لو نزلت في داري لنصرتك فسار إلى داره وأصبح نزيله .

وكان عامل سيدنا علي على البصرة وقتئذٍ عبد الله بن عباس إلاَّ أنَّه كان تركها متوجهاً إلى الكوفة بعد سقوط مصر كما تقدم القول عائداً إلى سيدنا علي في الكوفة مستخلفاً عليها زياد بن أبيه فلما وصل عبد الله الحضرمي بجنود معاوية ليفتن الناس ويسطو على البلد خاف زياد من مجيئه وانضمام الناس إليه واستدعى إليه حصين بن المنذر ومالك بن مسمع وقال لهما : أنتم يا معشر بكر بن وائل أنصار أمير المؤمنين وثقاته وقد كان من ابن الحضرمي ما ترون وأتاه من أتاه فامنعوني وبيت المال حتى يأتيني أمر أمير المؤمنين فقال حصين لبيك وقال مالك ـ ولم يكن مخلصاً لعلي ـ هذا أمر لا أبتُّ فيه رأياً لأنَّ لي فيه شركاء أستشيرهم ثمَّ ننظر ولما رأى زياد تثاقل مالك عن إجارته خاف أن تختلف عليه ربيعة فأرسل إلى صبرة بن شيمان الحداني الأزدي يطلب منه أن يجيره مع بيت مال المسلمين فقال إن حملته إلى داري وجئتني أجيركما فأسرع بما لديه من أموال المسلمين إلى دار ابن شيمان ونقل إليها المنبر أيضاً وكان يصلّي الجمعة بمسجد الحدان .

وكان زياد في حال وصول ابن الحضرمي إلى البصرة بادر فأنبأ سيدنا علي بمقدمه فبادر عليه‌السلام فأرسل جارية بن قدامة السعدي وهو من سعد بن تميم وبعث معه خمسمائة مقاتلاً (وقول بعض الرواة أنّ سرية جارية كانت خمسين مقاتلاً خطأ ينفيه العقل لأنّ من المستحيل أن يسير جارية لقتال الحضرمي ومن معه من جيش معاوية ومن يحتمل أن ينضمَّ إليه من قبائل البصرة بأقلّ من خمسمائة مقاتل) ولما بلغ جارية وأصحابه البصرة نزل على الأزد وجمع البصريين وقرأ عليهم كتاب سيدنا علي الذي كان يحمله وفيه يحرضهم على الثبات على بيعته ويتهددهم لو نكثوا البيعة بيومٍ أفظع من يوم الجمل=

دَرَى مُـعَـاوِيَـةُ ذَا كُـلَّهُ فَـنَـوَى   تَقْـوِيْضَ أُمْـرَتِـهِ مَـا عَـادَ خَـاشِيْهَـا

= فصاحوا جميعاً إننا مـوالون أميـر المؤمنين صادقـون في طاعتـه وساروا مـع جاريـة للقاء عبد الله الحضرمي فحاربوه مع من انضمَّ إليه من قبائل البصرة وما هي غيـر ساعـة حتى انجلت الموقعة عن قهر أصحاب الحضرمي وفرَّ هذا مع عبد الله بن خازم السلمي وكان أركان حربه وتبعهما سبعون من مقاتلتهما وهـم الذين سلموا من جيش الشام وكـان يربـو على الخمسمائة وأووا إلى قصر سنبيل وهو من قصور فارس القديمة وكان حـوله خنـدق فهـو بمقام حصن فتحصنـوا فيه فتبعهم جـاريـة وأحـرق ذلـك القصـر بمن فيـه فهلكـوا جميعـاً . وهكذا انتهت حملة معـاوية بـالفشل وعلم منهـا هذا حقيقـة مـا أراد الشـاعـر بقوله :

كـلُّ مـا تـرتجيـه سهـل ولكن   عثـرات الآمـال ليست بسهـلة

« استيلاء بسر بن أرطأة على الحجاز واليمن »

كلما ازداد أصحاب سيـدنا علي عليه السلام ضعفـاً بانقسـامهم على أنفسهم كلما كـان أصحاب معاوية يزدادون قوةً بانضمامهم إلى بعضهم البعض تحت راية معـاوية والسبب في ذلك بسيط جداً لا يحتاج إلى بحث وتنقيب وأعمال رويـة . فإنَّ النـاس عند سيـدنا علي كانوا يعلمون يقيناً بأنّهم يجاهدون لله والإسلام وليس لهم من خيـرات الخلافـة إلّا ثواب الآخرة . أمّا أصحاب معاوية فهم مـوقنون أنَّ الخيـرات التي تصيب صاحبهم هم شـركاؤهم فيهـا كلٌّ على قـدر وجاهتـه ونفوذه وقـلَّ في الناس الـذين يكفرون بـأنفسهم ويتجرَّدون عن أهوائهم وينصرفون إلى آخـرتهم والأكثرون يهتمـون بعاجلتهم ويـطمعون بملاذ دنياهم على ما نشاهد بأعيننا ونعلم باختبارنا من طبيعـة هذا الإنسـان ومبلغ طمعه بهذا الوجود فكأنّي بهم يحسبون أنفسهم خالدين وما الخلود إلّا لله ربِّ العالمين .

فإنَّ معاوية وأصحابه ما ضعضع عزيمتهم فشلهم في البصـرة بأزاء مـا تأكـدوه من تخاذل أصحاب سيدنا علي عن الـذهاب إلى مصـر واستخلاصهـا من عمرو بن العـاص فرأى أن يقصد الحجاز واليمن حتى إذا ما تمكن من تـدويخهما وفصلهمـا عن الخلافـة العلوية هاجم العراق بخيله ورجاله بعد أن تنكسر نفوس أهليها بامتداد سلطانه إلى سائر أمصار المسلمين وفيها المدينة المنورة مهبط الرسالة ومكة المكرمة مقرُّ الكعبـة المشرفـة أمّا أصحاب معاوية فكان رأيهم غير رأيه كانوا يرون أن يهاجم معاويتهم سيـدنا علي في العـراق حتى إذا ما ملكهـا ونال أربـه من سيدنـا علي عليه السلام دانت له الأمصـار بغير قتـال =

وَٱخْتَارَ فُرْصَـةَ ذَاكَ ٱلْإِنْقِسَامِ وَبِـٱلْـــغُـزَاةِ أَمْـلَاكُهَـا أَمْسَى مُفَـاجِيْهَـا

= فخالفهم وظلَّ على رأيه إذ كان يتخوَّف من نتيجة مهاجمة سيدنا علي في عقر داره ولا سيما بعد أن انخذلت حملته في البصرة .

وبعد أن أعمل معاوية رويته طويلاً أقرَّ على تنفيذ خطته واختار لهذه المهمة رجلاً من أصحابه يدعى بسر بن أرطأة العامري من بني عامر بن لؤي بن غالب وكان هذا الرجل فظاً غليظ القلب سفاكاً للدماء لا رأفة عنده ولا رحمة فاستدعاه إليه وأمره أن يأخذ طريق المدينة فمكة حتى ينتهي إلى اليمن وقال له : لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلاَّ بسطت عليهم لسانك حتى يروا أنّهم لا نجاء لهم منك وأنّك محيط بهم ثمَّ أكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي فمن أبى فاقتله واقتل شيعة علي حيث كانوا فخرج بسر بأمر معاوية ومعه ثلاثة آلاف مقاتل وسار في طريق المدينة فدخلها وكان عامل سيدنا علي عليها أبو أيوب الأنصاري صاحب منزل رسول الله ﷺ فخرج هذا عند وصول بسر برجاله هارباً لعلمه أنّه يعجز عن قتاله فاستولى بسر على المدينة وخطب في الناس فشتمهم وتهددهم وتوعدهم وقال شاهت الوجوه إنّ الله تعالى ضرب مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها وقد أوقع الله تعالى ذلك المثل بكم وجعلكم أهله . كان بلدكم مهاجر النبيّ ومنزله وفيه قبره ومنازل الخلفاء من بعده فلم تشكروا نعمة ربّكم ولم ترعوا حقَّ نبيّكم . وقتل خليفة الله بين أظهركم فكنتم بين قاتل وخاذل ومتربص وشامت إن كانت للؤمنين قلت ألم نكم معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قلتم ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ ثمَّ شتم الأنصار فقال : يا معشر اليهود أبناء العبيد بني زريق وبني النجار وبني سالم وبني عبد الأشهل أمّا والله لأوقعنَّ بكم وقعةً تشفي غليل صدور المؤمنين وبني أمية وأصحابهم المطالبين بدم عثمان . أمّا والله لأدعنّكم أحاديث كالأمم السالفة وهكذا أطال في تهديدهم حتى خافوا أن يوقع بهم ففزعوا إلى حويطب بن عبد العزّى فسار إليه وناشده فقال عترتك وأنصار رسول الله وليسوا بقتلة عثمان ولم يزل به حتى تظاهر بالرضى والعفو ودعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوا وما اكتفى بهذا بل أراد أن يبقي بينهم آثار بطشه فأحرق دوراً كثيرةً في المدينة المنوَّرة منها دار زرارة بن حرون أحد بني عمرو بن عوف ودار فاعمة بن رافع الزرقي ودار أبي أيوب الأنصاري . وأقام بعد ذلك أياماً ثمَّ همَّ بالخروج إلى مكة وقبل سفره جمع رؤساءَهم وقال لهم : إنّي قد عفوت عنكم وإن لم تكونوا لذلك بأهل . ما قوم =

=قتل إمامهم بين ظهرانيهم بأهل أن يُكفّ عنهم العذاب . ولئن نالكم العفو مني في الدنيا إنّي لأرجو أن لا تنالكم رحمة الله في الآخرة . وقد استخلفت عليكم أبا هريرة فإيّاكم وخلافه . فأطاع القوم وأكدوا توبتهم وهكذا تركهم وسار قاصداً مكة كرّمها الله .

وعندما بلغ بسر مكة هرب منها عامل سيدنا علي عليها وكان قثمْ بن العباس فدخلها وشتم أهل مكة وأنبهم وتهددهم وتوعدهم كما فعل في المدينة فجاءُوه طائعين مبايعين لمعاوية فعفا عنهم واستخلف عليهم شيبة بن عثمان . وكان قد هرب من مكة قبل دخول بسر أمَّ القرى سليمان وداود ابنا العباس وأمّهما حورية ابنة خالد بن فارطة الكنانية وهما غلامان فعثر بهما بسر وذبحهما . ثمَّ سار بسر إلى الطائف فسلمت له . ثمَّ خرج منها فأتى نجران فتهددها فسلمت له . ثمَّ أتى موضع اسمه « أرحب » فقتل فيه أبا كرب وهو سيد من كان في البادية وكان من شيعة سيدنا علي عليه السلام . وأتى بعد ذلك اليمن فقابله اليمانيون مقاتلين فقاتلهم وغلبهم وقتل منهم خلقاً كثيراً ودخل صنعاء فقتل فيها مئة شيخ من أبناء فارس لأنَّ ابني عبيد الله بن العباس الذي كان عامل سيدنا علي على اليمن وفرَّ قبيل قدوم بسر كانا مختبئين في بيت امرأة من أبنائهم تعرف بابنة بزرج واستولى على اليمن .

كل هذا فعله بسر بن أرطأة في زمن يسير وبمجرّد الوعيد والتهديد ومنه يتضح لنا أنّ خروج بسر إلى الحجاز واليمن بأمر معاوية لم يكن مفاجأة غير منتظرة من الحجازيين واليمانيين بل لا بدّ أن يكون معاوية قد سبق واستوثق من ولاّه كثيرين من وجهاء هذين المصرين وأهل النفوذ فيهما كما أنّ عمّال سيدنا علي ما كانوا يهربون من وجه بسر كلٌ بدوره عن جبن أو خيانة ولكن لثقتهما بأنَّ الناس ليسوا معهم بل أكثرهم قد كانوا من شيعة معاوية وعلى ارتباط معه وإذا كان قد أغفل المؤرخون ذكر هذه الملاحظة فإنّ وقائع الحال تثبتها وإلاّ فما معنى أن تدين المدينة المنورة ومكة المكرمة والطائف وعموم الحجاز إلى بسر وهو قادم عليهم بثلاثة آلاف مقاتل فقط ؟ وما معنى هرب عمّال سيدنا علي عليه السلام من وجه بسر وما منهم من يُشكُّ بإخلاصه أو من كان يطمع بخير من معاوية وقد عرفناهم فيما بعد قد ثبتوا على ولاء سيدنا عليّ إلى النهاية ؟ لا جرم أنّ معاوية اشتغل بدهائه كثيراً حتى استمال الناس إليه كما أنَّ ما ذاع وشاع عن تخاذل أصحاب سيدنا علي قد كسر قلوب الناس وهيأها إلى الخضوع لحكم معاوية . =

وَقَـدْ تَسَـطَّى عَلَيْهَـا عِنْـوَةً وَقَضَى إِذْ ذَاكَ مُحْتَـرِقَـاً بِـآلنَّـارِ وَالِيْهَـا

= وكـانت أعمـال بسـر تصـل إلى المسـامع الحيـدرية الشـريفـة في أوقـاتها فيتألم عليه السلام منها وكان يبذل كـل ما يمكن أن يبـذله راعٍ حكيم لـرعيته من الحضّ على قتـال هؤلاء الذين آلـوا على أنفسهم أن يعيثوا فسـاداً في بلاد الخـلافة فـلا يجـد ملبياً وطالما قرع الأسماع بخطبه فما أثرت على تلك الأفئدة التي تأكلها انقسامها على أنفسها وأبى سيدنا أميـر المؤمنين أن يبطش بهـا بطشـة الحاكم المـطلق الذي يضـرب العاصي بالمطيع ويسُوقها بيد حـديديـة إلى نصر خـلافته . وما زال هذا حـال أمير المؤمنين مـع أصحابه في الكوفة حتى دخلها عبيد الله بن عباس عامله على اليمن وقد رأيناه قـد هرب من وجه بسر ومعـه سعيد بن نمـران صاحب الخـراج فلامهمـا عليه السلام على تركهمـا اليمن لعدوهما وسار يتثاقل متضجراً إلى المسجد الكوفيّ فدعا النـاس إلى الصلاة وصلّى بهم ثمَّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال : « ما هي إلاَّ الكوفة أقبضها وأبسطها ، إن لم تكوني إلاَّ أنت تهبُّ أعاصيرك ، فقبحك الله (وتمثل بَقول الشاعر) :

لعمـر أبيـك الخيـر يـا عمـرو أنَّني علـى وضـرٍ من ذا الإنـاء قـليـل

ثمَّ قـال : « أنبئتُ بسـراً قـد اطلع اليمن ، وإنّي والله لأظنُّ أنَّ هؤلاء القـوم ، سيدالون منكم ، باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقّكم ، وبمعصيتكم إمـامكم في الحقّ ، وطاعتهم إمامهم في البـاطل ، وبـأدائهم الأمانـة إلى صاحبهم وخيـانتكم ، وبصلاحهم في بلادهم وفسـادكم ، فلو ائتمنت أحدكم على قُعب ، خشيتُ أن يـذهب بعـلاقته ، اللهمَّ ، إنّي قـد مللتهم وملّوني ، وسئمتهم وسئموني ، فـأبـدلني بهم خيـراً منهم ، وأبـدلهم بي شرّاً مني ، اللهم ، مث القلوب كمـا يماث الملح من في المـاء ، أمّا والله ، لوددتُ أنَّ لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم :

هنـالـك لـو دعـوتَ أتـاك منهم فـوارس مـثـل أرميـة الـحـميـم

ثمَّ نزل عليه السلام عن المنبر والغضب ظـاهر على وجهـه الكريم فتنحى بعض النـاس بكلماته فألف منهم حملةً بقيادة جارية بن قدامة السعـدي فسيرهـا وراءَ بسر وكـانت في ألفي مقاتل فشخصت إلى البصرة ومنها سارت إلى الحجاز فاليمن وعلم هناك « جارية » أنَّ بسـراً أصبح في بـلاد بني تميم فاستعـاد اليمن إلى حكم سيدنـا علي وهربت شيعـة عثمان إلى الجبال وأخذ جارية بعد ذلـك يتعقب بسراً حتى أخـرجه من اليمن والحجـاز فعـاد إلى صاحبـه معاويـة وهو يفتخـر بمن قتل من المسلمين بسيـوف رجالـه وبلغ عدد =

وَمِنْ تَمَلُّكِ مِصْرٍ ظَنَّ إبْنُ أَبِيْ سَفْيَانَ أَنَّ ٱلْمُنَى سَهْلٌ تَوَلِّيْهَا
وَأَنَّ كُلَّ ٱلَّذِيْ يَرْجُوْهُ يَبْلُغُهُ مِنَ ٱلْخِلَافَةِ فِيْ أَقْصَى أَرَاضِيْهَا
وَقَالَ: مَوْتَةُ عَمَّارٍ وَأَشْتَرَ قَدْ جَزَّتْ يَدَيْهَا وَفَلَّتْ عَزْمَ حَامِيْهَا
وَقَهْرُ أُصْحَابِهَا فِيْ مِصْرَ خَلَّفَهَا رَهْنَ ٱلْقَضَا فَهْيَ تَدْنُوْ مِنْ تَدَاعِيْهَا
وَقَالَ: غَزْوَةُ مِصْرٍ طَالَمَا نَجَحَتْ فَفِيْ رِبَى ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَّا أُثَنِّيْهَا
فَإِنَّمَا أَهْلُهَا مَا عَنْ رِضَىً خَضَعَتْ لِلْمُرْتَضَى مَا لَهُ تَصْفُوْ مَطَاوِيْهَا
مِنْ بَعْدِ مَا هَلَكَتْ أَبْطَالُهَا وَعَلِيٌّ كَانَ فِيْ ٱلْجَمَلِ ٱلْمَشْهُوْرِ مُرْدِيْهَا
وَبَادَرَ ٱلْبَصْرَةَ ٱلْغَنَّا بِحَمْلَتِهِ يَقُوْدُهَا ٱلْحَضْرَمِيُّ ٱلْفَدْمُ يُخْطِيْهَا

=القتلى ما يقرب من ثلاثين ألفاً وكان رجوعه في أوائل سنة ٤٠ للهجرة .

ومن تأمّل نجاح حملة « جارية » وهي لا تتجاوز الألفي مقاتل وأنّه بهذه الحملة القليلة استطاع أن يعيد الحجاز واليمن إلى حكم أمير المؤمنين ظهر له أنَّ تراخي أصحاب سيدنا علي في الكوفة وانقسامهم على أنفسهم هو الذي قوّى معاوية وهيأه للخلافة وأنّهم لو كانوا على غير ما عرفناهم متضامنين مع أمير المؤمنين على نصرة الخلافة يطيعونه في السير إلى معاوية ومحاربته منذ ظهور خديعة عمرو بن العاص لأبي موسى الأشعري كما كان يلحُّ س عليهم لكان بلا جدال قد انتهى ذلك الشرّ وزال وخيم الأمان على ربوع الإسلام ولكن قُدِّر فكان ولا مردّ لقضاء الله .

وكان سيدنا علي عليه السلام متألماً ممّا فعله بسر بالمسلمين فكان يقول « اللهمَّ ، انَّ بسراً باع دينه بالدنيا ، وانتهك محارمك ، وكانت طاعة مخلوق فاجر آثر عنده مما عندك ، اللهمَّ ، فلا تمته حتى تسلبه عقله ، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار ، اللهمَّ العن بسراً ، وليحلَّ عليه غضبك ، ولتنزل به نقمتك ، وليصبه بأسك وزجرك الذي لا ترده عن القوم المجرمين » ولقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء سيدنا علي عليه السلام فإنَّ بسراً في نحو سنة ٤٥ للهجرة ذهب عقله فجُنَّ فكان يهذي بالسيف ويقول اعطوني سيفاً أقتل به لا يزال يردّد ذلك حتى اتّخذوا له سيفاً من خشب وكانوا يدنون منه المرفقة فلا يزال يضربها حتى يغشى عليه فلبث كذلك إلى أن مات .

فَمَا لَهُ خضعَتْ آهَالُهَا وَأَبَتْ حَرْبَ ٱلْخَلِيْفَةِ قَالَتْ: لاَ تُوَخِّيْهَا
وَلاَ نَرُوْمُ بَدِيْلاً عَنْ أَبِيْ حَسَنٍ وَلاَ خِلاَفَتُهُ ٱلْغَرَّا نُعَادِيْهَا
وَلَمْ تَزَلْ مَعَهُ مَكْرَاً تُطَاوِلُهُ وَلَمْ يَزَلْ معَهَا مَكْرَاً يُدَارِيْهَا
حَتَّى إِلَيْهَا ٱنْتَهَتْ مِنْ عِنْدِ حَيْدَرَةٍ جُنُوْدُهُ تَبْتَغِيْ نِيْضَالَ مُغْوِيْهَا
فَأَوْقَعَتْ بِغُزَاةِ ٱلشَّامِ مُفْنِيَةً جُمُوْعَهَا كَانَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ مُفْنِيْهَا
وَٱلْحَضْرَمِيُّ لَقَدْ لاَقَى ٱلرَّدَى مَعَهَا وَهٰكَذَا تَأْكُلُ ٱلنِّيْرَانُ مُلْظِيْهَا
وَخَابَ فِيْمَا ٱبْتَغَى جَهْلاً مُعَاوِيَةٌ مِنْ فَتْحِ بَصْرَتِنَا أَوْ مِنْ تَعَصِّيْهَا
وَكَيْفَ يَبْلُغُ مِنْهَا سُؤْلَهُ وَرجَا لُ ٱلْمُرْتَضَى بِٱسْمِهِ سَالَتْ مَذَاكِيْهَا
لٰكِنْ مُعَاوِيَةٌ مَا ٱنْفَكَّ يَخْبُطُ فِيْ غَلْوَائِهِ يَتَأَبَّى أَنْ يُخَلِّيْهَا
فَعَادَ ثَالِثَةً لِلشَّرِّ يَطْلُبُ إِقْـ ـلاَقَ ٱلْخِلاَفَةِ يَبْغِيْ قَهْرَ حَامِيْهَا
أَوْفَى لِذَلِكَ بِسْرَاً غَيْرَ مُعْتَبِرٍ إِلَى ٱلْمَدِيْنَةِ يَغْزُوْهَا وَيُؤْذِيْهَا
هُنَاكَ قَدْ رَذَلَ ٱلْأَنْصَارَ حَقَّرَهَا وَلَمْ يَكُنْ ذَاكِرَاً زَاهِيْ مَآتِيْهَا
وَجَازَهَا قَاصِدَاً أُمَّ ٱلْقِرَى فَأَتَى بِهَا ٱلْفِعَالَ ٱلَّتِيْ آذَتْ قُرَيْشِيْهَا
وَحَلَّ فِيْ ٱلطَّائِفِ ٱلْخَضْرَا وَأَخْضَعَ كرْ هَاً لِاَبْنِ حَرْبٍ بِلاَ حَرْبٍ أَهَالِيْهَا
وَوَاصَلَ ٱلسَّيْرَ بِسْرٌ طَالِبَاً يَمَنَاً فَكَانَ فَاتِحَ دَانِيْهَا وَقَاصِيْهَا
كَذَاكَ شَذَّبَ أَغْصَانَ ٱلْخِلاَفَةِ بِسْـ ـرٌ بَيْنَ مُزْهِرِهَا ٱلزَّاهِيْ وَذَاوِيْهَا
وَمَا ٱسْتَطَاعَتْ دِفَاعَاً فِيْ مَوَاقِفِهَا وُلاَةُ حَيْدَرَةٍ عَمَّا بِأَيْدِيْهَا
وَلاَ ٱسْتَطَاعَ عَلِيٌّ أَنْ يَرُدَّ عَنِ ٱلْأَ مْلاَكِ إِذْ شَامَهَا تُغْزَى مُغِيْرِيْهَا
إِذْ لَمْ تَكُنْ صَحْبُهُ تَرْضَى لِنُصْرَةِ رَا يَةِ ٱلْخِلاَفَةِ أَنْ تُنْضِيْ مَوَاضِيْهَا
وَمَا عَلَى دَفْعِ ذِيْ ٱلْأَرْزَاءِ قَدْ وَجَدَتْ رَأْيَاً وَمَا رَأْيُهُ ٱلْعَالِيْ بِمُرْضِيْهَا

أَغْـرَاضُهَا جَـزَّأَتْ مَجْمُوْعَهَا فِـرَقَـاً وَقَـدْ أَضَـاعَتْ قِـوَاهَـا فِيْ تَجَـزِّيْهَـا

وَأَطْمَعَتْ بِـأَمِيْـرِ ٱلْمُؤْمِـنِيـنَ وَبِـاَلْـ ـمُلْكِ ٱلَّـذِي كَـانَ يَحْمِيـهِ أَعَـادِيْهَـا

فَمَـا هِيَ ٱجْتَمَعَتْ مِنْ حَوْلِ سُدَّتِهِ لَمَّـا مُعَـاوِيَـةٌ أَمْسَى مُـنَـاوِيْهَـا

وَلَا مَمَـالِكُـهُ مِنْ نَفْسِهَـا ٱمْتَنَعَتْ لَـمَّـا رَأَتْ إِبْنَ أَرْطَـأَةٍ مُـوَافِـيْهَـا

وَطَـالَمَـا طَلَبَتْ عُمَّـالُـهُ مَـدَدَاً مِنْـهُ وَمَـا ٱسْـطَاعَ يَـوْمَـاً أَنْ يُلَبِّيْهَا

وَإِذْ دَرَى كُـلَّ مَـا بِسْرٌ أَتَـاهُ مِنَ ٱلأَ م سْـوَاءِ فِـيْ يَمَـنٍ مِنْ فَـمِّ وَالِيْـهَـا

عَـلَا عَـلَيْـهِ صَـلَاةُ ٱللَّهِ مَـنْـبَـرَهُ مُحَـدِّقَـاً بِـرَعَـايَـاهُ يُفَـاهِيْهَـا

فَقَـالَ : مَـا هِيَ إِلَّا كُـوْفَتِيْ وَأَنَـا دَوْمَـاً لأَبْسُـطُهَـا بَسْـطَاً وَأَطْـوِيْهَا

إِنْ لَـمْ تَكُـنْ لِيَ إِلَّا أَنْ تَـهُبَّ أَعَـا صِيْرٌ بِـأَرْضِـكِ عَـالِيْهَـا وَوَاطِيْهَا

إِلَّاكِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُلْكٌ فَقَبَّحَـكِ ٱلْـ ـخَـلَّاقُ مِنْ بَلْدَةٍ أَصْبَحْتُ ثَـاوِيْهَـا

يَـا نَاسُ أُنْبِئْتُ بِسْـرَاً قَـدْ غَـزَا يَمَنَـاً وَقَـدْ طَغَى وَبَغَى مَـا بَيْنَ أَهْلِيْهَـا

إِخَـالُ وَٱللَّهِ أَنَّ ٱلْقَـوْمَ ظَـافِـرَةٌ بِـكُمْ وَبَـالِـغَـةٌ مِنْـكُمْ أَمَـانِـيْهَـا

لِـسُـوْءِ فُـرْقَتِـكُمْ عَـنْ حَقِّـكُمْ وَلأَ نَّ حَـوْلَ بَاطِلِهَـا ٱلْمُخْزِيْ تَجَمِّيْهَا

لِشَـرِّ عِصْيَـانِكُمْ حَقَّـاً لِصَـاحِبِكُمْ وَحُسْنِ طَـاعَتِهَـا بُـطْلَاً لِـرَاعِيْهَـا

لِأَنَّكُمْ خُنْتُمُـوْنِيْ مَـعْ أَمَـانَـتِهَـا إِلَـى مُعَـاوِيَـةٍ صِـدْقَـاً تُـؤَدِّيْهَـا

وَلِلْفَسَـادِ ٱلَّـذِي أُلْفِيْـهِ عِنْـدَكُمُ مَـعَ ٱلصَّلَاحِ ٱلَّـذِيْ يَمْلَا مَثَاوِيْهَا

لَا هُمَّ قَـدْ سَئِمُـوْنِيْ إِذْ سَئِمْتُهُـمْ مَـلَالَـةً كُـلُّنَـا أَمْسَـى يُعَـانِـيْهَـا

أَبْـدِلْهُمْ بِـيَ شَـرَّاً مِنْ خَـلِيْفَـتِهِـمْ يَسُـوْقُهُمْ بِعَصَـاهُ وَهْـوَ مُهْـوِيْهَـا

كَـذَا بِهِمْ كَـرَمَـاً أَبْـدِلْ بِـأَخْيَـرَ مِنْـ ـهُمْ نَفْسَ صَـاحِبِهِمْ يَكْفِيْ تَعَنِّيْهَـا

وَمِثْ وَقَدْ قَسِيَتْ هٰذِيْ ٱلْقُلُوْبُ كَمَا يُمَاثُ فِيْ ٱلْمَـاءِ مِلْحٌ كَيْ تُـطَرِّيْهَـا

هُنَاكَ لَوْ رُحْتُ أَدْعُوْهَا لَمَا مَهلَتْ أَنْ بَادَرَتْنِي كَسَيْلِ ٱلسُّحْبِ هَامِيْهَا
وَمَا ٱنْتَهى ٱلْمُرْتَضى مِنْ سَرْدِ خُطْبَتِهِ عَلى رَعَايَاهُ حَتَّى ٱنْصَاعَ غَاوِيْهَا
وَأَسْرَعَتْ نَحْوَهُ فِيْ ٱلْحَالِ طَائِفَةٌ مِنْهَا لِنَصْرَتِهِ تُبْدِيْ تَنَخِّيْهَا
وَكَانَ «جَارِيَةُ» ٱلسَّعْدِيُّ قَائِدَهَا إِلَى مُنَاضَلَةِ ٱلْأَعْدَا وَمُمْضِيْهَا
وَافَى بِهَا يَمَناً وَٱلنَّاسُ قَدْ لَقِيَتْ مِنْ بِسْرَ مَا قَدْ عَلَا مِنْهُ تَشَكِّيْهَا
فَكَانَ قَاهِرَهُ فِيْهَا وَنَاصِرَهَا عَلى ٱلظَّلُوْمِ ٱلَّذِيْ أَجْرَى ٱلدِّمَا فِيْهَا
وَرَايَةُ ٱلْمُرْتَضَى قَدْ رَاحَ نَاشِرَهَا مِنْ بَعْدِ أَنْ بَاتَ ظُلْمَاً بِسْرُ طَاوِيْهَا
وَوَطَّدَ ٱلْبَيْعَةَ ٱلْغَرَّا لِحَيْدَرَةٍ وَكَانَ بَيْعَةُ رَبِّ ٱلشَّامِ مُلْغِيْهَا
وَهٰكَذَا حَمْلَةٌ صُغْرَى لَقَدْ بَلَغَتْ بِٱسْمِ ٱلْإِمَامِ مِنْ ٱلْأَعْدَا أَمَانِيْهَا
فَكَيْفَ لَوْ كَانَتِ ٱلْأَمْيَالُ صَادِقَةً مِنْ حَوْلِ حَيْدَرَةٍ مَا ٱلْحِقْدُ فَاشِيْهَا
تَٱللَّهِ مَا كَانَ فِيْ كُلِّ ٱلْخِلَافَةِ مَنْ يَجْرَا عَلَيْهَا وَيَنْوِيْ أَنْ يُنَاوِيْهَا
وَكَمْ رَأَيْنَا عَلِيَّاً بَيْنَ أُمَّتِهِ يُرِيْدُ تَوْحِيْدَهَا عَطْفَاً يُدَالِيْهَا
فَكَانَ يَخْطُبُ فِيْهَا وَهْوَ نَاصِحُهَا مُبَيِّنَاً شَرَّ مَا يَجْنِيْ تَرَاخِيْهَا
لٰكِنْ رَأَى عَزَمَاتِ ٱلْقَوْمِ خَائِرَةً مِنْ حَوْلِهِ قَدْ تَنَاهَتْ فِيْ تَبَاطِيْهَا
وَإِنَّ أَقْوَالَهُ مَا أَثْمَرَتْ ثَمَرَاً يَا لِلْأَسَى بَيْنَ قَوْمٍ خَابَ دَاعِيْهَا
فَسَاءَهُ مَا رَأَى فِيْهَا وَمَا سَمِعَتْ أُذْنَاهُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ عَنْ أَعَادِيْهَا
وَمَا يُسِيْءُ أَمِيْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مُسِيْءُ لِلشَّرِيْعَةِ مَا يُؤْذِيْهِ يُؤْذِيْهَا

هجوم أبو غامد على الأنبار

وَبَعْدَ أَنْ عَادَ بِسْرٌ عَنْ رِبَى يَمَنٍ وَنَفْسُهُ لَمْ تَنَلْ مِنْهَا تَمَنِّيْهَا(١)

---

(١) بعد أن عاد بسر من الحجاز واليمن مقهوراً غير منيلٍ مولاه معاوية مأربه من =

رَأَى مُـعَـاوِيَـةٌ أَنْ يُـزْعِجَـنَّ عَلِيَّـــاً فِيْ آلـدِّيَارِ آلَّتِيْ قَـدْ كَانَ يَثْوِيْهَـا
بِحَمْلَةٍ مِنْ كُمَـاةِ آلشَّـامِ أَرْسَلَهَـا إِلَى آلْعِـرَاقِ فَجَـدَّتْ فِيْ مَغَـازِيْهَـا

= تأييد بيعته على ذينك القطرين عاد معاوية إلى رأي الذين أشاروا عليه من أصحابه بأن يقصد سيدنا أمير المؤمنين في العراق لينهي معه المشكلة رأساً إمَّا عليه وإمَّا له على أنه أراد باديء بدءٍ أن يعجم عود أمير المؤمنين فأوفد إلى العراق سريةً بقيادة أبي غامد وهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي نسبة إلى غامد وهي قبيلة من اليمن تنتمي إلى الأزد وكان زعيمها يلقب بغامد واسمه عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نضر بن الأزد وسمي غامداً لأنّه عالج شراً قد انتشر بين قومه فأصلحه وتغمدهم بذلك فسموه غامداً . وقد روى سفيان بن عوف الغامدي عن هذه الغزوة التي غزا بها الأنبار فكانت آخر قتال بين سيدنا أمير المؤمنين عليه‌السلام وبين معاوية بن أبي سفيان قال : دعاني معاوية فقال إنّي باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة فالزم لي جانب الفرات حتى تمرَّ ببلدة « هيت » فتقطعها فإن وجدت بها جنداً لعلي فأغر عليهم وإلاّ فامضِ حتى تغير على الأنبار وأهل المدائن فكأنّك أغرت على الكوفة . واعلم يا سفيان أنّ هذه الغارة على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كلَّ من له فينا هوىً منهم وتدعو إلينا كلَّ من خاف أن تدور الدوائر عليه . فعليك أن تقتل كل من لقيته ممن لا يكون من حزبنا . واخرب كل ما تمرُّ عليه من القرى . واحرب الأموال فإنَّ حرب الأموال شبيه بالقتل بل هي أوجع للقلب . قال سفيان : فخرجت من عنده فعسكرت وقام معاوية في أهل الشام فخطب فقال : أيّها الناس ، انتدبوا مع سفيان بن عوف فإنّه وجه عظيم فيه أجر ، سريعة أوبتكم إن شاء الله اهـ . ثمَّ نزل . فأسرع إليَّ نيف وستة آلاف مقاتل فسرت بهم طالباً الفرات حتى إذا ما وصلته لزمت شاطئه واغذوت السير حتى أمرَّ ببلدة « هيت » فبلغ أهلها أنّي غشيتهم فقطعوا الفرات فمررت بها وليس فيها عريب كأنّها لم تكن قطُّ فوطئتها حتى أمرَّ ببلدة « صدوداء » وكان أهل هيت قصدوها ففرُّوا من وجهي فلم ألقَ بها أحداً فمضيت أقصد الأنبار وكان أهلها قد بلغهم نبأي فخرج صاحب المسلحة إليَّ فوقف لي فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية فقلت لهم أخبروني كم في الأنبار من أصحاب علي قالوا كانوا نفراً مسلحين لا يتجاوزون الخمسمائة ولكنهم قد تبدّدوا ورجع أكثرهم إلى الكوفة ولا ندري كم بقي منهم فلعلّهم لا يتجاوزون المئتين . قال سفيان : فاستبشرتُ وقسمتُ رجالي إلى كتائب وأخذت أبعثهم كتيبةً بأثر أخرى فيقاتلهم صاحب المسلحة والله ويصبر لهم =

وَأَوْقَعَتْ بِبَنِي ٱلْأَنْبَارِ جَائِرَةً فِي حَرْبِهَا وَٱسْتَطَالَتْ فِي تَعَدِّيْهَا

= ويطاردهم ويطاردونه في الأزقة فلما رأيت ذلك أنزلت إليهم نحواً من مئتين مقاتلاً وأتبعتهم الخيل فلمّا حملت على رجال عليّ الخيل وأمامها الرجال تمشي ما أمهلوا أن تفرّقوا وقتلِ صاحبهم حسان في نحو ثلاثين رجلاً وحملنا ما كان في الأنبار من الأموال ثمَّ انصرفتُ . قال سفيان : فوالله ما غزوتُ غزاةً كانت أسلم ولا أقرَّ للعيون ولا أسرَّ للنفوس منها وبلغني أنّها أرعبت الناس اهـ .

ومن هذه الرواية تعلم هول هذه الموقعة التي أزعجت سيدنا علي عندما بلغه ما كان فيها من اعتداء ابن غامد على أهل الأنبار حتى على النساء الذين جردهنَّ من حليهنَّ واعتدى على عفافهنَّ وحرمتهنَّ سيان في ذلك المسلمة والمعاهدة . قالوا وقد قدم علج من أهل الأنبار على سيدنا علي عليه السلام فأخبره الخبر فنادى بالناس وسار بهم إلى النخيلة خارج الكوفة ووقف فيهم خطيباً فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ، أمّا بعد ، فإنَّ الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجُنته الوثيقة ، فمن تركه رغبةَ عقه ، ألبسه الله ثوب الذلّ ، وشمله البلاء ، ودِيِّث بالصغار والقماءة ، وضرب على قلبه بالاسهاب ، وأزيل الحق منه بتضييع الجهاد ، وسيم الخسف ، ومنع القصف ، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزي قوم قطُّ في عقر دارهم إلاَّ ذلّوا ، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنَّت عليكم الغارات ، وملكت عليكم الأوطان ، وهذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكري ، وأزال خيلكم ، ولقد بلغني أنَّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة ، فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ووعثها ، ما تمتنع منه إلاَّ بالاسترجاع والاسترحام ، ثمَّ انصرفوا وافرين ، ما نال رجلاً منهم كلمة ، ولا أريق له دم ، فلو أنَّ امرءاً مسلماً ، مات من بعد هذا أسفاً ، ما كان به ملوماً ، بل كان به عندي جديراً ، فيا عجباً والله ، يميتُ القلب ، ويجلب الهمَّ ، اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرّقكم عن حقّكم ، فقبحاً لكم وترحاً ، حتى صرتم غرضاً يرمى ، يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزون ولا تَغزون ، ويعصى الله وترضون ، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحرّ ، قلتم حمّاره القيظ أمهلنا يتجه عنا الحرّ ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء ، قلتم هذه صبَّارة القرّ أمهلنا ينسلخ عنّا البرد ، كلُّ هذا فراراً =

فَـاغْتَاظَ حَيْـدَرَةٌ مِنْ خَزْلِ صُحْبَتِـهِ ... دَعْـوَى الْجِهَادِ الَّتِي أَمْسَى مُـوَخِّيْهَا
وَسَـارَ وَالنَّـاسُ مِنْ حَـوْلَيْـهِ مُـطَّلِبَـاً ... أَرْضَ النُّخَيْلَةِ غَارِيْ النَّفْسِ رَاغِيْهَا
وَقَـدْ عَـلَا رَبْـوَةً عُلْيَا وَأَرْسَـلَ مِنْ ... أَلْحَـاظِـهِ شَـرَرَاً بَـادٍ تَـلَظِّيْـهَـا
وَصَاحَ صَوْتَاً جَهِيْرَاً عِنْـدَهُ اضْطَرَبَتْ ... تِلْكَ النُّفُوْسُ الَّتِي التَّفْرِيْقُ مُـوْهِيْهَا
وَقَالَ: حَمْدَاً لِرَبٍّ مَا سِوَاهُ عَلَى الْـ ... ـمَكْرُوْهِ يُحْمَدُ أَيُّ الْحَمْـدِ أُسْدِيْهَـا
ثُمَّ الصَّـلَاةُ عَلَى الْهَـادِيْ أُرَدِّدُهَـا ... بِحُـرْقَـةِ النَّفْسِ أَبْغِيْ أَنْ تُـطَفِّيْهَـا
وَبَعْـدُ قَـدْ جَعَـلَ اللَّهُ الْجِهَـادَ لَكُمْ ... بَـابَـاً لِـجَنَّـتِـهِ يَـأْتِيْـهِ رَاجِيْهَـا
وَاللَّهُ سُبْحَـانَـهُ قَـدْ كَـانَ فَـاتِحَـهُ ... لِـلْأَوْلِيَـاءِ الَّتِي تَسْمُـوْ مَـآتِيْهَـا
وَإِنَّـهُ لَـلِبَـاسُ لِلتَّـقِـيِّ قَـدِ ارْ ... تَـدَاهُ مَنْ يُنْشِـدُ الْأُخْـرَى وَيَبْغِيْهَـا
وَإِنَّـهُ دِرْعُ رَبِّـيْ بَـلْ وَجُـنَّـتُـهُ ... لِمَنْ يُـلَاقِيْ مِنَ الـدُّنْيَـا فَـوَاجِيْهَـا
فَمَنْ غَـدَا زَاهِـدَاً فِيْـهِ وَتَـارِكَـهُ ... لِيَـطْلُبَ الْعَيْشَ تَنْعِيْمَـاً وَتَـرْفِيْهَـا

=من الحرّ والقرّ ، فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفرون ، فأنتم والله من السيف أفرّ ، يـا أشباه الـرجال ولا رجـال ، حلوم الأطفال ، وعقـول ربّات الحجـال ، لوددتُ أنّي لم أركم ، ولم أعرفكم ، معرفة والله جرَّت ندماً ، وأعقبت سدماً ، قـاتلكم الله ، لقد مـلأتم قلبي قيحاً ، وشحنتم صدري غيظاً ، وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً ، وأفسـدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان ، حتى لقد قالت قريش أنَّ ابن أبي طـالب رجل شجـاع ، ولكن لا علم له بالحرب ، لله أبوهم ، وهـل أحد منهم أشـدُّ لها مـراساً ، وأقـدم منها مقـداماً ، منّي ؟ لقد نهضت بها ومـا بلغت العشرين ، وهـا أنا قـد ذرَّفت على الستين ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع » اهـ .

ولما انتهى سيدنا علي عليه السلام من خطابه تحمس الناس وقد رأوا أنَّ عدوَّهم قـد دنا منهم وتقدموا منـه طائعين ملبين فـأمرهم أن يستعـدوا للمسير معـه إلى الشام لنهـو هذه المشكلة على شفـار السيوف ولكن لسـوء الحظ ونكد الـطالع أبت الأقـدار أن تتمَّ هـذه الحملة إذ فجع العالم الإسلامي بالمصاب الأكبر بمقتله عليه السلام على ما سترى . . .

فَـآللَّهُ مُكْسِيْـهِ أَثْـوَابَ آلْمَـذَلَّـةِ وَآلْـــ ـهَـوَانِ يُعْثِرُهُ بِـآلسَّيْـرِ ضَـافِيْهَـا
وَهْـوَ آلْمُدَيَّثُ فِعْـلاً بِآلصَّغَـارِ وَبِآلْـــ ـقَمَـاءَةِ آلنَّـائِـلُ آلتَّعْيِيْـرِ رَاضِيْهَـا
وَقَـدْ غَـدَا وَهْـوَ مَمْنُـوٌّ بِضَـرْبَـةِ إِسْـــ ـهَابٍ وَأَمْسَى سَفِيْهَ آلْقَـوْمِ هَاذِيْهَـا
وَقَـدْ أُدِيْلَتْ بِتَضْيِيْـعِ آلْجِهَـادِ حُقُـوْ قُـهُ فَمَـا هُـوَ بِـآلتَّهْـذَارِ مُلْفِيْهَـا
وَسِيْمَ خَسْفَـاً وَمَـا أَلْفَى لَـهُ نَصَفَـاً مِنْ قَـوْمِـهِ وَآنْثَنَى لَـوْكَـاً لِـلاَكِيْهَـا
أَلاَ وَإِنِّـي قَـدْ نَـادَيْـتُـكُـمْ لِـقِـتَـا لِ آلشَّامِ مِنْ بَعْدِ أَنْ سَاءَتْ مَآتِيْهَـا
وَكُنْتُ أَدْعُــوْكُمُ لَيْــلاً لِــذَا وَنَـهَـا رَاً دَعْـوَةً بُـحَّ بَحَّـاً صَـوْتُ دَاعِيْهَـا
وَكُنْتُ أُعْـلِنُهَـا طَـوْرَاً عَـلٰى مَـلأٍ مِنْكُمْ وَطَـوْرَاً عَنِ آلْغَـوْغَـاءِ أُخْفِيْهَـا
وَقُلْتُ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تَغْـزُوْكُمُ عَتَـلاً هُبُّـوْا إِلَيْهَـا آطْلُبُـوْهَـا فِيْ مَثَـاوِيْهَـا
وَآللَّهِ مَـا أُمَّـةٌ فِيْ دَارِهَـا غُـزِيَتْ إِلاَّ وَذُلَّـتْ عَلٰى أَيْـدِيْ مُـذِلِّـيْهَـا
وَذَا أَخُـوْ غَامِـدٍ يَا نَـاسُ قَـدْ وَرَدَتْ أَنْبَـارَنَـا رَكْبُـهُ وَآلشَّـرُّ حَـادِيْهَـا
أَزَالَتِ آلْخَيْـلَ ظُلْمَاً عَنْ مَسَالِحِهَا وَأَهْلَكَتْ صَـاحِبِي حَسَّـانَ وَالِيْهَـا
وَقَدْ تَعَدَّتْ عَلٰى آلأَعْـرَاضِ تَهْتِكُهَا مِنْ أَهْـلِ مُسْلِمِهَـا هَتْكَـاً وَذُمِّيْهَـا
وَمَـا نَجَتْ مَرْأَةٌ مِنْ هَتْـكِ حُرْمَتِهَـا إِلاَّ بِـمَـا بَـذَلَـتْـهُ مِـنْ لآلِـيْـهَـا
وَلَمْ يَنَـلْ وَاحِـدَاً مِنْهَـا بِفَعْـلَتِهَـا شَـرٌّ وَقَـدْ أَمِنَتْ إِيْـذَاءَ مُـؤْذِيْهَـا
فَلَوْ قَضَى مُسْلِمٌ مِنْ بَعْـدِ ذَا أَسَفَـاً مَـا كَـانَ فِيْ قَـوْمِـهِ مِنْ مُسْتَلِيْمِيْهَـا
بَـلْ كَانَ عِنْـدِيْ جَدِيْـرَاً بِـآلْمَنِيَّـةِ إِذْ تُخْفِيْ مَــذَلَّتَــهُ عَنْ عَيْـنِ رَائِيْـهَـا
إِنِّـيْ لأَعْجَـبُ أَيْـمُ آللَّهِ مِـنْ فِئَـةٍ عَلٰى ضَـلاَلَتِهَـا شِمْنَـا تَجَمِّيْـهَـا
ثُمَّ لأَعْجَـبُ مِنْ بَـادِيْ تَـفَـرِّقِكُـمْ عَنْ حَقِّكُمْ فِرْقَةً ذُوْ آلْحَـزْمِ يُزْرِيْهَـا
قُبْحَاً لَكُمْ حِيْنَ صِرْتُمْ لِلْعِدَى غَرَضاً يُـرْمَى إِذَا مَـا رَمَى آلأَنْبَـالَ رَامِيْهَـا

فَـلاَ تَغِيْـرُوْنَ لٰكِنْ تَمْكُثُـوْنَ هَـوَا　　نَـاً صَابِـرِيْنَ عَلَى عُـدْوَى مُغِيْـرِيْهَـا

تُغْـزَوْنَ غَـزْواً وَلاَ تَغْـزُوْنَهَـا جُبُنَـاً　　بِـأَنْفُسٍ قَـدْ تَـوَلَّتْ مُسْتَهِيْـنِيْـهَـا

وَٱللَّهُ يُعْصَى وَأَنْتُمْ تُـشْهَـدُوْنَ وَتَـرْ　　ضَوْنَ ٱلْمُعَاصَاةَ فِيْ إِهْمَالِ عَاصِيْهَا

فَـإِنْ أَمَـرْتُكُمُ هُـبُّـوْا لِصَـائِفَـةٍ　　قُلْتُمْ حَمَـارَةُ قَيْظِ ٱلصَّيْفِ نَتَّقِيْـهَـا

وَإِنْ أَمَـرْتُ شِتَاءً بِـٱلْمَسِيْـرِ أَجَبْـــتُمْ صَبَـارَتُـهُ نَـأْبَى تَـلَقِّيْـهَـا

فَمِنْ شِتَـاءٍ إِلَى صَيْفٍ وَعَكْسِهِمَـا　　تُمَـاطِلُوْنِيْ بِحَـرْبٍ رُمْتُ أَلْـظِيْهَا

فَـإِنْ فَـرَرْتُمُ مِنْ بَـرْدِ ٱلشِّتَـاءِ وَحَـــرِّ ٱلصَّيْفِ كُنْتُمُ إِنْ ثَارَتْ مُفِـرِّيْهَـا

فَيَـا شِبَاهَ ٱلـرِّجَالِ ٱلْخَائِرِيْنَ قِـوَىً　　وَلاَ رِجَـالُ تُقَـاوِيْ مَنْ يُقَـاوِيْهَـا

لَكُمْ حُلُوْمُ بَنِيْكُمْ مَعْ عُقُـوْلِ نِسَـا　　كُمْ حَبَّـذَا لَـوْ خَبِئْتُمْ فِيْ مَخَـابِيْهَا

وَدَدْتُ لَـوْ أَنَّنِيْ مَـا كُنْتُ أَعْـرُفُكُمْ　　وَلاَ رَأَيْـتُ بِكُـمْ بَـلْوَى أُعَـانِيْـهَـا

فَـرُبَّ مَعْـرِفَـةٍ قَـدْ أَوْرَثَتْ نَـدَمَـاً　　وَأَعْقَبَتْ سَـدَمَـاً مِمَّـا يُتَـالِيْـهَـا

لَقَـدْ مَـلأْتُمْ قَلْبِيْ ٱللّٰهُ قَـاتَلَكُـمْ　　شَحْمَـاً وَنَفْسِيَ غَيْظَاً فَهْـوَ مُـوْهِيْهَـا

جَـرَّعْتُمُـوْنِيَ تَهْمَـامِيْ عَلَى نُغَبٍ　　أُسْقِيْتُهَـا وَأَنَـا أَلْـحُـوْ مُسَقِّيْـهَـا

وَبِـٱلْمُعَـاصَـاةِ وَٱلْخِـذْلاَنِ رَأْيِيَ قَـدْ　　أَفْسَـدْتُمُ زُدْتُمُ خَـزْيَـاً وَتَسْفِيْـهَـا

حَتَّى رَمَتْنِيْ قُـرَيْشُ بِـٱلْجَهَالَـةِ فِيْ　　صِنَاعَةِ ٱلْحَـرْبِ قَالَتْ لَسْتُ أَدْرِيْهَـا

وَيْـلُ آمِّهَا هَـلْ فَتَىً مِنْهَا أَشَـدُّ مَـرَا　　سَاً فِيْ ٱلْحُرُوْبِ إِذَا تَلْظُوْ لَـوَاظِيْهَا

وَهَـلْ فَتَىً قَدْ قَضَى أَعْـوَامَـهُ بِـظِلاَ　　لِ ٱلْمَشْـرَفِيَّـةِ يَهْنَـا فِيْ تَـظَلِّيْهَـا

مِثْلِيْ أَنَا فَارِسُ ٱلْهَيْجَا إِذَا ٱشْتَبَكَتْ　　فِيْهَا ٱلصُّفُوْفُ وَهَـلْ غَيْرِيْ مُجَلِّيْهَـا

بِهَـا نَهَضَتْ وَمَـا ٱلْعِشْـرُوْنَ بَـالِغُهَـا　　مِنَ ٱلْحُؤُوْلِ ٱلَّتِيْ قَدْ كُنْتُ طَاوِيْهَـا

وَهَـا أَنَا ٱلْيَـوْمَ فِيْ ٱلسِّتِّيْنَ أَبْسَلُ مَنْ　　خَـاضَ ٱلْمَعَامِعَ أَوْ لاَقَى مَذَاكِيْهَـا

لٰكِنَّ مَنْ لَمْ تُـطِعْهُ ٱلنَّـاسُ لَيْسَ لَـهُ رَأْيٌ بِــهِ لِٱعْتِــزَازِ ٱلْحَقِ يُمْشِيْـهَـا
وَكَــانَ يَهْـدِرُ بَيْنَ ٱلنَّــاسِ حَيْـدَرَةُ بِمِثْـلِ ذَا يَقْـرَعُ ٱلْأَسْمَــاعَ يُؤْذِيْهَـا
بِخُطْبَةٍ مَـا ٱلدَّرَارِيْ ٱلـزُّهْرُ سَـاطِعَةٌ تُـرَصِّـعُ ٱلْأُفْقَ تَـدْنُـوْ مِنْ دَرَارِيْهَـا
يَجُــوْلُ فِيْهَـا لِسَــانٌ قَـدْ تَعَــوَّدَ أَنْ يَجْتَـاسَ أَنْفُسَ مُصْغِيْهَـا وَوَاعِيْهَـا
«فَكَهْرَبَ» ٱلنَّاسَ فِيْ سَامِيْ خِطَابَتِهِ فَـأَصْبَحَتْ كِتْلَةً فِيْ « كَهْـرَبَـائِيْهَـا »
وَصَــاحَ صَـائِحُهَــا هَيَّ بِنَــا لِنُــلَا قِيْ مَـعْ خَلِيْفَتِنَـا ٱلْأَعْـدَا وَنُـرْدِيْهَـا
وَهَمَّ يَــذْهَبُ بِـٱلْأَبْـطَالِ حَيْـدَرَةُ إِلَى ٱلشَّـآمِ سَـرِيْعـاً كَيْ يُـرَبِّيْهَـا
فَعَـاجَلَتْـهُ ٱلْمَنَـايَا وَٱلْقَضَــاءُ قَضَى عَلَيْـهِ أَنْ يَتْـرُكَ ٱلـدُّنْيَـا لِأَهْلِيْهَـا

إجمـال الحـال

مِنْ بَعْـدِ خَيْبَةِ آمَـالِ ٱلْجَمَاعَـةِ بِٱلــ ـتَّحْكِيْمِ بَاتَتْ وَنَارُ ٱلشَّرِّ تَكْوِيْهَـا[1]
وَمَـرَّتِ ٱلْحُجَـجُ ٱلسُّـوْءَى ثَـلَاثَتُهَـا عَلَى ٱلْخِـلَافَـةِ فِيْ أَقْسَى دَوَاهِيْهَـا

---

(١) أجملنا هنا خلاصة الحـالة التي وصلت إليهـا الخلافـة في السنوات الثـلاث التي تلت التحكيم وذكرنا من أسبابها ما فيه الكفـاية في الحـواشي السابقـة وأهمّها إبـاء المـرتضى عليه السلام أن يرشـو الناس بـأموال المسلمين ويميّـز بعضهم على بعض فخـرجت عليـه الخوارج بحجـة قبولـه التحكيم وقد علمنـا أنّ المـرتضى لم يكن لـه في التحكيم رضى وأنّ هؤلاء الخـوارج هم الذين أصـرُّوا على التحكيم وأبوا إلّا تـوقيف القتـال مـع معاوية بينما كان يرى الأشتر النصر داني القطوف لـو أمهلوه ساعـةً واحدةً وهـاجم جيش معاوية الـذي كانت قـد خارت عـزائمه في مـوقعة صفين . أمّـا الذين لم يخـرجوا على سيدنا عليّ وظلّوا على ولائه فكانوا متراخين عن نصرته متهاونين في تلبية أوامره يسوفونه ويماطلونه لأنّه كان يـدعوهم إلى الجهـاد معه بغيـة نصرة الحقّ وثـواب الآخرة وهم من أهل الدنيا يريدون خيراتها ويطمعـون بها وكـانوا يسمعـون عن الشام مـا ينال أصحـاب معاوية من خيرات دنياهم فطمعوا بمثلها وهيهات لابن أبي طالب عليه السلام أن يمالئهم على رغباتهم ويعمل على مرضاتهم فيغضب الله ويتعـدّى حدود الشـريعة السمحـاء . وهكذا=

فَلِلْخَوَارِجِ فِيْ أَرْضِ آلْعِرَاقِ حُـرُوْ بٌ لاَ آنْقِضَـاءَ لَهَـا إِبْلِيْسُ مُلْظِيْهَـا
وَفِيْ آلشَّـآمِ أَعَـادٍ غَـيْـرُ غَـافِلَةٍ عَنِ آلْخِـلاَفَـةِ بِـآلْأَرْزَاءِ تَـرْمِيْهَـا
وَلِلْمَـطَامِـعِ تَـأْثِيْـرٌ وَكَـانَ أَمِيْـــرُ آلْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى آلْأَطْمَـاعِ آبِيْهَا
سَوَّى آلْخَلِيْفَةُ بَيْنَ آلنَّـاسِ أَجْمَعِهَا أَعْيَـانُهَـا لَمْ يُمَـيِّـزْ عَنْ أَدَانِـيْهَـا
كَانَتْ جَمِيْعَاً لَدَى آلشَّرْعِ آلشَّرِيْفِ سَـــوَاءٌ بِـآلْحُقُوْقِ فَلَمْ تَقْبَـلْ تَسَاوِيْهَا
وَآلْمُرْتَضَى كَانَ يَأْبَى أَنْ يَجُوْزَ حُدُوْ دَ آلشَّـرْعِ كَيْمَـا رَعَـايَـاهُ يُـرَاضِيْهَـا
فَكَـانَ يُنْفِـذُ فِيْ هٰـذَا شَـرِيْعَـةَ طَـــهَ مِثْلَمَـا أُنْـزِلَتْ وَحْيَـاً فَحَـاوِيْهَـا
وَكَـانَ فِيْ كُـلِّ إِسْبُـوْعٍ يُفَـرِّغُ بَيْـــتَ آلْمَالِ بِآلْأُعْطِيَاتِ آلْكُثْرِ يُوْلِيْهَا
ثُمَّتْ يُقْيِـلُ بِـذَاكَ آلْبَيْتِ مُبْتَهِجَـاً بِخَلْوَةٍ مِنْ حِـطَامِ آلْأَرْضِ مُخْلِيْهَا
يَقُوْلُ فَلْتَخْدَعِ آلصَّفْـرَاءُ غَيْرِيَ وَآلْـــبَيْضَـا سِوَايَ فَـإِنِّي لَسْتُ شَـاهِيْهَـا
لٰكِنَّهُ كَانَ يُعْطِيْ آلنَّاسَ أَجْمَعَهَـا آلْأَمْـوَالَ سِيَّـانِ عُلْوِيْهَـا وَسُفْـلِيْهَـا
وَلاَ يُحَـاوِلُ إِرْشَـاءَ آلْـوُجُـوْهِ بِهَـا حَـاشَاهُ لَمْ يَـكُ بِآلْأَمْـوَالِ يَـرْشِيْهَـا

= كـانت سني سيدنـا عليّ في العراق سني جهـاد واستشهاد الله يعلم مـا دخل على نفسـه الشـريفة فيهـا من الأوصاب والأوجـاع ونقدر أن نلمَّ ببعض الآلام التي كـان يعانيهـا من خطبه الكثيرة التي كان يـدعو بهـا الناس إلى نصـرته وهم متهـاونون متقـاعسون ورجـال معاوية يعوثون في أمصار الخلافـة فساداً حتى ملكـوا مصر وأفحشـوا في الحجاز واليمن ولم يدعوا مصـراً من أمصار الخـلافة لم ينـالوه بـأذى فاستحكمت الفـوضى وعمَّ البلاء وأصبحت الناس ولا تعرف لها فرجاً من هذا المصاب العميم الشامل . وسرعان ما أعاد التـاريخ نفسـه فكان سيـدنا علي وأصحـابه وأهـل الشام يحـاربـون خـلافتـه كمـا كـان المصطفى وأصحابه مع كفّار قريش يحاربون نبوّته وكان معاوية للمرتضى كمـا كان أبـوه أبو سفيان لمحمد . والله سبحانه نصر النبـوَّة على أعدائهـا وسمح بـالخلافـة أن تتداعى وتتحول إلى ملك عضوض في أيدي معاوية وبني أميّة لأمر يريده الله وقد سبق فـأنبأ عن ذلك المصطفى ﷺ . =

حَتَّى قُـرَيْشُ أَبَى إِبْلاَغَ سَـادَتِهَـا   مِنْ جَـاهِ دَوْلَتِـهِ ٱلْعُلْيَـا أَمَـانِيْهَـا

وَإِنَّ عُشَّـاقَ صَفْـرَاءِ ٱلنُّضَـارِ وَبَيْـــضَـاءِ ٱللُّجَيْنِ أَبَتْ إِلاَّ تَـصَبِّـيْهَـا

كَـانَتْ تُـرِيْـدُ عَلِيَّـاً لاَ لِحِكْمَتِـهِ   وَعَـدْلِـهِ بَـلْ لِكَيْ بِـٱلْمَـالِ يُغْنِيْهَـا

وَكَـانَ كُـلُّ زَعِيْمٍ يَـرْتَجِيْ غُنُمَـاً   مِنَ ٱلْخِـلاَفَـةِ أَوْ يُمْسِي مُنَـاوِيْهَـا

وَٱلنَّاسُ إِنْ طَمِعَتْ بِٱلْحَاكِمِيْنَ رَجَتْـــهُمْ أَنْ يَكُوْنُوْا كَمَا شَاءَتْ مُمِيْـزِيْهَا

وَإِنْ أَبَتْ دَوْلَـةٌ تَمْيِيزَ مَنْ طَمِعُـوْا   بِهَـا تَـوَلَّـوْا وَأَمْسَـوْا مُسْتَمِيْـزِيْهَـا

وَذَاكَ شَــأْنُ عَلِيٍّ مَـعْ خَـوَارِجِـهِ   وَذَاكَ سِـرُّ ٱلَّـذِي قَـدْ كَـانَ يُنْمِيْهَـا

كَـانَتْ تَحُجُّ عَلِيَّـاً بِـٱلْحُكُـوْمَـةِ وَهْـــيَ دُوْنَـهُ طَلَبَتْهَـا وَهْـوَ جَـافِيْهَـا

وَكَانَ عِصْيَانُ أَهْـلِ ٱلشَّامِ يُـطْمِعُهَا   وَأَصْبَحَتْ وَهْـوَ بِـٱلشَّنَـآنِ يُغْـرِيْهَـا

وَٱلْمُـرْتَضَى كُلَّمَـا دَاوَى بِـأُمْـرَتِـهِ   جِـرَاحَـةً نَغَـرَتْ أُخْرَى تُضَـاهِيْهَا

وَكَانَ صَاحِبُنَا فِيْ ٱلشَّامِ يُـزْعِجُ أَمْـــصَـارَ ٱلْخِلاَفَـةِ غَـرْبِيْهَـا وَشَـرْقِيْهَـا

فَمِصْرُ قَدْ سَـادَهَا عَمْـرٌو وَكَانَ كَمَـا   بَغَى عَلَى رَغْمِ أَنْفِ ٱلـدَّهْرِ وَالِيْهَـا

وَبِسْـرُ لَمْ يَتْـرِكْ مِنْ شَـرِّهِ يَـمَنَـاً   وَلاَ ٱلْحِجَـازَ فَأَمْسَى ٱلْبُؤْسُ فَـاشِيْهَا

وَعَمَّتِ ٱلْحَرْبُ أَطْرَافَ ٱلْخِلاَفَةِ طُـــرَّاً وَٱلْمَصَـائِبُ نَالَتْ كُـلَّ مَنْ فِيْهَـا

لَـوْلاَ عِنَـايَـةُ رَبِّي بِـٱلْحَنِيْفَـةِ لَمْ   تَسْلَمْ خِـلاَفَتُهَـا مِنْ سَطْوِ عَـادِيْهَـا

وَقَـدْ تَحَكَّمَتِ ٱلْفَـوْضَى بِـأَرْبُعِهَـا   وَٱلـظُّلْمُ حَـلَّ بِقَـارِيْهَـا وَبَـادِيْهَـا

وَسَـاءَتِ ٱلْحَالُ سُـوْءاً لاَ صَلاَحَ لَـهُ   وَلاَ مَسَـالِـكُ إِصْـلاَحٍ يُنَـاحِيْهَـا

وَمَلَّتِ ٱلنَّاسِ هَاتِيْكَ ٱلْحُرُوبَ وَمَـا   كَـانَتْ تَجِـرُّ عَلَيْهَـا مِنْ دَوَاهِيْهَـا

وَمَا دَرَتْ مُوْجِبَاً يَدْعُـوْ لِسَفْكِ دِمَـا   ءِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ ٱلَّتِيْ فَـاضَتْ مَجَارِيْهَـا

وَمِثْلَمَـا كَـانَ طَـهَ مَـعْ أُمَيَّـةَ أَمْـــسَى ٱلْمُـرْتَضَى مَعَهَا يَقْلُوْهُ قَـالِيْهَا

وَمَـا مُعَـاوِيَــةُ فِيْ حَـرْبِ حَيْـدَرَةٍ وَقَـدْ تَمَادَى بِهَـا مَا آنْفَـكَّ يُـوْرِيْهَـا
إِلَّا مِثَـالُ أَبِـيْ سَـفْيَـانَ وَالِـدِهِ مَـعَ آلنُّبُـوَّةِ فِيْ مَـاضِيْ مَغَـازِيْهَـا
أَعْيَتْ أُمَيَّـةُ عَنْ مَحْوِ آلْهِـدَايَـةِ وَآلــ ـرَّحْمٰنُ مُثْبِـتُهَـا مُعْيٍ مُـمَحِّيْهَـا
لٰكِنْ خِـلَافَتُهَـا قَـدْ حَـوَّلَتْهَـا إِلَى مُلْكٍ عَضُـوْضٍ وَنَـالَتْـهُ بِـأَيْـدِيْهَـا
نُبُـوَّةُ آلْمُصْـطَفَى تَمَّتْ بِـذَاكَ كَمَـا قَـدْ كَـانَ صَلَّى عَلَيْـهِ آللّٰهُ مُنْبِيْهَـا

المؤامرة على أمراء المسلمين

عَمَّتْ نُفُـوْسَ جَمِيْعِ آلْمُسْلِمِيْن تَبَـا رِيْحُ آلْحُرُوْبِ آلَّتِيْ عَمَّتْ عَـوَادِيْهَا
فَـأَصْبَحَتْ ضَجِـرَاتٍ غَيْـرَ مُبْشِـرَةٍ بِمَـا مِنَ آلْغِيَـرِ آلشَّتَّـى يُنَـجِّيْـهَـا
وَسَـاوَرَتْهَـا كُـرُوْبٌ غَيْـرُ نَـازِحَـةٍ عَنْهَـا وَكَـانَ عَلَيْهَـا أَنْ تُعَـانِيْهَـا
فَجُنَّ مِنْ أُمَّـةِ آلْهَـادِيْ ثَـلَاثَـةُ أَشْــ ـخَـاصٍ لِنَشْلَتِهَـا مِمَّـا يُؤَذِّيْـهَـا(١)
ثَلَاثَةٌ مِنْ بَنِيْ آلْإِسْـلَامِ قَدْ هَـوِسَتْ عُقُــوْلُهُمْ وَتَنَـاءَتْ عَـنْ تَـرَوِّيْهَـا
هُمُ آبْنُ مُلْجَمَ مَعْ عَمْرِو آبْنِ بَكْرَ وَعَبْــ ـدِ آللّٰهِ كَـانُوْا لِـذِيْ آلْبَلْوَى أَثَافِيْهَـا
رَأَوْا آلشُّـرُوْرَ آلَّتِيْ شَاعَتْ مَصَـائِبُهَا فِيْ آلنَّاسِ لَا شَيْءَ غَيْرُ آلْقَتْلِ يُنْهِيْهَا
وَقَـدْ قَضَـوْا أَنَّ عَمْـراً مَـعْ مُعَـاوِيَـةٍ مَـعَ آلْوَصِيِّ لَقَـدْ كَـانُـوْا مُـذِيْعِيْهَـا
وَإِنَّ قَتْلَتَـهُمْ تُـفْضِـيْ لِـرَاحَـةِ خَلْــ ـقِ آللّٰهِ وَآللّٰهُ يَـرْضَى عَنْ مُؤَدِّيْهَـا
تَـآمَرُوْا بِحِمَى آلْبَيْتِ آلْعَتِيْقِ عَلَى جِنَـايَـةٍ كَـانَ بَعْلَزْبُـوْلُ مُـوْحِيْهَـا
كَـانُوْا بِمَكَّـةَ تَحْوِيْهِمْ مَعَـاهِدُهَـا آلْــ ـقُـدْسِيَّةُ آلْكَاسِبُ آلرُّضْـوَانَ آتِيْهَـا

(١) ثلاثة من الخوارج الذين خرجوا على سيدنا علي عليه السلام ظلماً وعدواناً لأنّه وافقهم على التحكيم الذي أكرهوه عليه هالهم بطش أمير المؤمنين بذويهم وأمثالهم من الخوارج في أطراف العراق ولا سيما في موقعة النهروان وهالهم ما سمعوه من هجوم =

وَكُلُّهُمْ كَانَ مَجْذُوْبَاً أَخَا هَوَسٍ يُرِيْدُ زُلْفَى مِنَ ٱلْخَلَّاقِ يَقْنِيْهَا

=جيوش الشام على أمصار الخلافة والعوث فيها فساداً فأقرُّوا على إتيان عمل كبير ينقذون به الممالك الإسلامية من الفوضى التي استحكمت فيها بدسائس معاوية على ما زعموا ولا يزال صنيع هؤلاء المجرمين الثلاثة سرّاً من أسرار التاريخ الإسلامي ما استطاع مؤرّخ مدقق من المؤرّخين يكشف عنه الغطاء .

إنّ أسماء هؤلاء الثلاثة الذين تآمروا على قتل سيدنا علي ومعاوية وعمرو بن العاص غيلةً في صبيحة يومٍ واحدٍ معروفة فهم عبد الرحمن بن ملجم صاحب سيدنا علي والبرك بن عبد الله التميمي صاحب معاوية وعمرو بن بكر التميمي صاحب ابن العاص . نعم عرفنا هؤلاء المجرمين الفوضويين وعرفنا أيضاً أنّهم من الخوارج وقد اجتمعوا في الكعبة في موسم الحجّ حجاجاً في حجة ٣٩ للهجرة وتعاهدوا على قتل أولئك الأمراء . ولكن هل كانت مؤامرتهم من عند أنفسهم أم كانوا مدفوعين إليها من جمعية فوضوية سرية ؟ هذا ما لم يبتّ به حكماً أحد المؤرخين . وهل كان اجتماع هؤلاء الأشقياء صدفةً في موسم الحج في مكة المكرمة فخطر لهم هناك خاطر البطش بالأمراء أم قصدوا الحجّ على هذه الفكرة السوداء ؟ هذا أيضاً لم أجد من ذكره وفي الأخير من نتيجة هذه المؤامرة بعد تنفيذها قد يتسرَّب لنفس الباحث المدقق شكٌّ بما أراد المؤرخون أن يثبتوه من قَصر الجريمة على المتآمرين أنفسهم دون سواهم إذ رأينا ابن ملجم عليه لعنة الله والناس أجمعين إلى يوم الدين قد فتك بسيدنا علي عليه السلام ولكن رأينا البرك صاحب معاوية يضربه بسيفه على أليته وهي أبعد المواضع من الخطر على الحياة في جسم الإنسان ورأينا عمراً بن العاص يمرض أو يتمارض في ذلك اليوم فيرسل من ينوب عنه في الصلاة فيقتل . أفلا يجوز بعد ظهور هذه النتيجة أن يخطر إلى أبله مثلي أنّ عمر بن العاص داهية العرب كان صاحب تلك المؤامرة أو على الأقل كان واقفاً على سرّها ؟ وأنّه أحكم الحيلة فأرسل ثلاثة في وقت واحد للتظاهر بالفتك بثلاثتهم مخافة أن يرسل واحداً لسيدنا علي عليه السلام وحده فيقتله وتظهر يد الأمويين في مقتله ولو على سبيل الشبهة فيقوم الناس لمطالبة معاوية والأمويين بدم سيدنا علي كما قاموا لمطالبة سيدنا علي وأصحابه بدم عثمان . وأنّ عمراً بن العاص أوصى صاحب معاوية أن لا يفتك به على أنّه لم يخبر معاوية قائلاً في نفسه إذا هلك هذا أيضاً فأنا للخلافة . وما يدعوني إلى الإشتباه بعمرو بن العاص في هذه الجريمة هو أنّ صاحبه الذي تولى قتله لم يتوانَ عن قتل من ناب عنه بالصلاة إذ لا يعقل أنّ الرجل الذي أخذ =

بِٱلْقَتْلِ مَا كَانَ قَتْلُ ٱلنَّاسِ لَوْ رَشَدُوْا   يُثَـابُ آتِيْـهِ بِـٱلْجَنَّـاتِ يَثْـوِيْهَـا

= على عاتقه أن يقتل عمر أو يريح أمّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من شرّه على ما كان يزعم قد أقام في « الفسطاط » من محرم إلى رمضان ولم يعرف شخص الرجل الذي كان يـريد قتله حتى يقتـل شخصاً آخـر في اليوم المضـروب لمجرَّد أنّـه أقبل على المسجـد يريـد أن يصلّي بالناس عوضاً عنـه . إنَّ المؤرخين يصورون لنـا هؤلاء المجرمين ذوي هوس في الدين وأنَّ هوسهم هو الـذي حملهم على إتيان جـريمتهم والمهووس في دينـه يأبى ولا شـكَّ وهو يريد أن يرتكب جريمته لمحض إرضاء ربّه والتزلف إليه عزَّ وجلَّ أن يقدم على قتل شخص يعتقـد أنَّ في قتله مثوبـة من غير أن يتحقق من شخصيتـه . كما أننـا نعرف من التاريخ أنَّ عمراً بن العاص كان يصلّي بالناس في الفسطاط في كلّ يوم جمعة فلا يعقل أنَّ المجـرم الذي قـدم الفسطاط لا لعمـل سوى قتله أن يقيم بضـع شهـور في هـاتيـك المدينة ولم يشهـد الصلاة في « جـامع عمـرو » ويصلّي مع الجمـاعة فيتعـرَّف شخصية عدوّه المريد دمه كمـا لا يعقل أيضـاً أنّه في كـل هاتيـك المدّة لم يـرَ عُمراً بن العـاص متجولاً في شوارع الفسطاط للإشـراف على البلد . إنّ والحق يقال لم أقف فيمـا أمامي من كتب التـاريخ على رأيٍ كهـذا ولم أجد المؤرخين يتهمـون بهذه المؤامـرة عمراً بن العاص أو عمراً ومعاوية معـاً ولكن نتيجة المؤامـرة أدَّت بي إلى هذا الخـاطر فقـد أكون فيه مخطئاً وأسأل من يقرأ علويتي المباركة وهو على علم بشيء من أسرار هذه المؤامـرة أن يوافيني بما يعلم خدمةً للتاريخ .

أمّا حادثة المؤامرة هذه فكلُّ ما اتّصل بي منها أنّها جـرت كما يـأتي : اجتمع في مكة كرمها الله ثلاثة من الخوارج في مـوسم الحج سنـة ٣٩ للهجرة فتـذاكروا في حـالة المسلمين التعسة والفوضى السائدة على ديارهم فذكروا هجوم جيش معاوية على مصـر فالبصرة فالحجاز فاليمن وأسفوا لما جرى من القتـل والنهب في هذه الأمصـار ثمَّ ذكروا علياً ومعاوية وعمراً بن العاص فعابوهم وعابوا أعمالهم ومطامعهم بغير استثناء فما ذكروا فضيلة سيدنا علي عليه السلام ولا خدماته الكبرى للإسلام ولا تفانيه في سبيل نصرة القرآن ولا أحقيته بالخلافة بل ضمّوه مع صاحبيـه وجمعوهم جميعـاً في صعيدٍ واحـدٍ وذكروا أهـل النهروان وهم الخوارج الذين بطش سيدنا علي بهم فترحموا عليهم وقـالوا بعـد ذلك : لو أنّا بذلنا أنفسنا لله عزَّ وجـلَّ فأتينـا أئمة الضـلال (كذا) وطلبنـا غرَّتهم لأرحنـا العباد والبلاد وثأرنا بإخواننا الشهداء بالنهـروان . وهكذا تعـاقدوا عنـد انقضاء الحـجّ سنة ٣٩ للهجـرة على تنفيـذ جـريمتهم فتعهـد عبـد الـرحمن بن ملجم لعنـه الله بقتـل سيـدنـا =

عَابُوْا ٱلثَّلَاثَةَ مَا ٱسْتَثْنُوْا ٱلْفَضِيْلَ وَلَا هُمْ مَيَّـزُوْا مُحْسِنِيْهَـا مِنْ مُسِيْئِيْهَـا
كَـلَّا وَلَا ذَكَـرُوْا فِيْ مَكَّـةٍ قِصَصَـاً مَا كَانَ مِنْ أَحَدٍ فِيْ ٱلنَّاسِ نَـاسِيْهَا
نَسَـوْا حَدِيْثَ أَبِيْ سُفْيَـانَ وَهْـوَ عَـدُ وٌّ لِـلنُّبُـوَّةِ يَـسْعَـى فِيْ تَـلَاشِـيْهَـا
يَسْتَنْفِرُ ٱلنَّاسَ مِنْ أَقْصَى ٱلْقِفَارِ لِمَلْـــقَى ٱلْمُسْلِمِيْنَ جُمُوْعَاً كَانَ مُحْصِيْهَا
كَمَا نَسَوْا ٱلْمُرْتَضَى إِذْ كَانَ أَبْسَلَ مَنْ لَاقَى قُـرَيْشَاً حَـدِيْدَ ٱلنَّفْسِ قَـاهِيْهَا
إِنَّ ٱلْحَنِيْفَـةَ لَـوْلَا ذُوْ ٱلْفِقَـارِ وَعَـوْ نُ ٱللَّهِ مَـا قَهَـرَتْ يَـوْمَـاً مُلِدِّيْهَـا
وَإِنَّ أَعْمَـالَ رَبِّ ٱلْفَضْـلِ حَيْـدَرَةٍ فِيْهَـا لَكَٱلشَّمْسِ فِيْ زَاهِيْ تَـلَالِيْهَا
قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعُمْيُ نُوْرَ ٱلشَّمْسِ جَاهِلَةً لَهَـا ٱلضِّيَـاءَ ٱلَّـذِيْ يُلْفِيْـهِ رَائِيْهَـا
وَٱلـرُّمْـدُ قَـدْ تَتَـأَذَّى مِنْ أَشِعَّتِهَـا ٱلـــزَّهْـرَا فَتَشْكُـوْ وَلٰكِنْ مِنْ تَـأَذِّيْهَـا

= علي عليه السلام والبرك بن عبد الله التميمي بقتل معاوية وعمرو بن بكر التميمي بقتل عمرو بن العاص وضربوا لجرائمهم موعداً واحداً هو صبيحة يوم ١٧ رمضان من السنة التالية ٤٠ للهجرة وأقسموا على الكعبة بأن ينفّذوا جرائمهم بالدقة والأحكام وأنّهم قد سموا سيوفهم حتى تكون ضرباتهم قاضيةً على أولئك الأمراء لا محالة وتفرَّقوا بعد ذلك فقصد الملعون ابن ملجم الكوفة والبرك دمشق الشام وعمرو بن بكر مصر ليعدوا عدتهم للقتل في اليوم الموعود . ومما يستلفت النظر أيضاً أنّهم أطالوا موعد تنفيذ جرائمهم وهذا أيضاً مما يدعو إلى الشك بهذه الرواية لأنَّ المجرم الناوي الإجرام إذا طال عليه موعد تنفيذ جريمته قد يعرض له ما يحوله عن عزمه إذ يطيل التفكر بعقبى عمله فيعود إلى رشده فيضنُّ بحياته وهو يعلم أنّه متعرِّضٌ للموت أو أن يعرض له أمر يحوّله عن شرّه فكيف ظلَّ هؤلاء الثلاثة كل المدَّة بين محرّم ورمضان ولم يحدث ولو لأحدهم ما يحوله عن تصميمه على القتل من غير أن يكون وراءَهم دافع يدفعهم إلى الجرائم التي كانوا يبوونها هذا أيضاً مما يدعو إلى التفكر ولا يحسن معه السكوت مهما قالوا إنَّ هؤلاء الخوارج كانوا متهوسين يحسبون أنّهم يتزلفون إلى الله بقتل عمرو ومعاوية وأمير المؤمنين وأنّهم حلفوا على تنفيذ جرائمهم لخير الإسلام والمسلمين إلى آخر ما قرأنا من روايات المؤرخين .

وَآلشُّمْسُ تَبْقَى كَمَا كَانَتْ مُلأْلِئَةً بِهَا آلْبَرَايَا إِلٰهُ آلْعَرْشِ يُحْيِيْهَا
كَذَا آلْإِمَامُ وَإِنْ عُمْهُ آلْبَصَائِرِ أَوْ مَرْضَى آلْقُلُوْبِ دَعَتْهُ آلْيَوْمَ مُؤْذِيْهَا
فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِيْ أَوْجِ سُؤْدُدِهِ بَعْدَ آلرَّسُوْلِ أَجَلَّ آلنَّاسِ تَوْجِيْهَا
لٰكِنَّ مِنْ أَيْنَ يَدْرِيْ ذَا عَتَاهِيَةُ آلْإِ م سْلَامِ فِيْمَا رَوَيْنَا عَنْ تَنَادِيْهَا
أَحْصَتْ مَعَ آلْمُجْرِمِيْنَ آلْمُرْتَضَى سَفَهَاً ثُمَّ عَلَيْهِ قَضَتْ بِآلْمَوْتِ تَعْمِيْهَا
صَاحَ آبْنُ مُلْجِمَ شَرُّ آلنَّاسِ أَجْمَعِهَا: إِنِّيْ لِحَيْدَرَةٍ أُرْدِيْهِ تَجْرِيْهَا
وَصَاحَ فِيْ آلْحَالِ عَبْدُ آللّٰهِ صَيْحَتَهُ فَقَالَ: أَكْفِيْ آلْبَرَايَا مِنْ مُعَاوِيْهَا
وَصَاحَ عَمْرُ آبْنُ بَكْرٍ قَائِلاً: وَأَنَا عَلَيَّ قَتْلَةُ عَمْرٍو لَا أُؤَنِّيْهَا
وَقَدْ أَقَرَّتْ عَلٰى يَوْمٍ تُنَفِّذُ فِيْـ ـهِ تِيْ آلْجَرَائِمَ تَنْفِيْذاً وَتُمْضِيْهَا
لِسَبْعِ عَشْرَةٍ مِنْ شَهْرِ آلصِّيَامِ لِعَا مِ آلْأَرْبَعِيْنَ وَقَالَتْ: فِيْهِ نَجْنِيْهَا
ثُمَّ عَلٰى آلْكَعْبَةِ آلْعُلْيَا لَقَدْ حَلَفَتْ أَنْ لَا تَهَابَ آلْمَنَايَا فِيْ مَسَاوِيْهَا
وَفَرَّقَتْهَا آللَّيَالِيْ فِيْ مَنَاهِجِهَا وَآلْإِثْمُ سَابِقُهَا وَآلشَّرُّ تَالِيْهَا
سَارَتْ تُيَمِّمُ مِصْراً وَآلشَّآمَ مَعَ آلْـ ـعِرَاقِ تَطْلُبُ عَنْ بَغْيٍ أَضَاحِيْهَا

موتورة النهروان

مَلِيْحَةٌ مِنْ بَنِيْ تَيْمِ آلرَّبَابِ لَهَا مِنَ آلْمَحَاسِنِ زَاهِيْهَا وَرَاضِيْهَا[1]
إِذَا نَضَتْ عَنْ مُحَيَّاهَا بَرَاقِعَهَا شَعَّ آلسَّنَاءُ فَغَشَّى عَيْنَ رَائِيْهَا

(١) إنَّ مشكلة الخوارج من أعضل المشاكل التي عرضت لسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام في خلافته وقد تعاصى حلّها واستفحل أمرها فكانت من أظهر دواعي غلبة معاوية على الخلافة الإسلامية وتحويلها إلى ملك عضوض لبني أمية . وحكاية هؤلاء الخوارج لقد تكرر لنا الإشارة إليها غير مرة في الحواشي السابقة وخلاصتها أنَّ معاوية عندما أمر أصحابه أن يرفعوا المصاحف بوجوه أصحاب سيدنا علي وأمرهم أن =

فَوَجْهُهَا ٱلْبَـدْرُ لٰكِنْ لَيْسَ تُنْقِصُ مِنْ   لألاءِ طَلْعَتِهَـا ٱلـزَّهْـرَا لَيَـالِيْهَـا

= يدعوا الناس إلى تحكيم كتاب الله بينهم حسب إشارة عمرو بن العاص قُدّر على أهل العراق أن يحسنوا الظن بأهل الشام ويحسبوا دعوتهم صادقةً وأبوا إلّا موافقتهم على تحكيم القرآن في ذلك الشجار وأصمُّوا مسامعهم عن نصيحة سيدنا علي الذي عرف أنّ دعوة معاوية للقرآن حيلة يريد بها أن يتّقي الإنكسار وقد لاحت له بوادره وقد رأينا هؤلاء الناس يتهددون سيدنا علي بأن يقتلوه كما قتلوا عثمان إن لم يجب أهل الشام في التحكيم ورأينا أيضاً الأشتر يقول للناس أمهلوني ساعةً لأكسب لكم الحرب فيها فأبوا إلّا التحكيم حتى إذا ما كتب صكّ التحكيم أمضاه سيدنا علي ومعاوية مضى به الأشعث يقرأه على الناس فقبله أهل الشام لأنّه في مصلحتهم وأقلُّ ما فيه من الفائدة لهم أنّه يقيهم ذلَّ الإنكسار وعار الخزلان أمّا أهل العراق فانتبهوا إلى غلطهم وأخذوا ينادون أنَّ الحكم لله ولا نقبل بالتحكيم ورجعوا إلى سيدنا علي يطلبون منه أن ينكث عهده ويرجع بوعده ويؤاتيهم على العودة للقتال فرفض عليه السلام طلبهم الثاني لأنّه مخالف للشرع ومعارض لنصّ القرآن ومتى كان سيدنا علي يرضى أن لا يفي بالعهود التي يبرمها ولو فعل هذا لانتفت ثقة الناس بالعهود وهل يتصوَّر ذو عقل أنَّ سيد قريش وصنو المصطفى يأتي بمثل هذه الذلّة فتكون عليه سبة الأبد حاشا لله ذلك .

وجاهد سيدنا علي طويلاً ليقنع أولئك الخارجين عليه بالحجة مبيناً لهم أنّهم هم الذين أكرهوه إكراهاً على قبول التحكيم وحملوه رغم إرادته على إمضاء العهد بينه وبين معاوية وأنَّ النكث به بعد إمضائه يخالف نصّ القرآن الصحيح فما اقتنعوا وطفقوا يتهددونه بالإنقلاب عليه إن لم يرجع بالعهد وينكث به كما تهددوه من قبل إن لم يقبل التحكيم . وفي هذا منتهى الغرابة فقتل الإنسان ما أكفره .

ابتدأ أمر الخوارج في صفين على أثر إمضاء العهد بين سيدنا علي ومعاوية وعاد أهل العراق إلى ديارهم وهم مفترقون بعضهم من شيعة سيدنا علي يعتقدون أنّه أكره على قبول التحكيم وأنَّ أصحابه هم الذين أكرهوه عليه وبعضهم أعداءٌ له ينادون بحربه وعصيان خلافته لقبوله التحكيم . وانصرف سيدنا علي عليه السلام إلى ملاطفة الخوارج وإقناعهم بالحجة أنّه لم يكن مخطئاً بقبول التحكيم وأنّه مثلهم يعتقد أنَّ التحكيم غلطة يتعذّر تلافيها وأنّه غير معيد للمسلمين السلام الذي يتوخونه من ورائه ولكن لا بدَّ من الصبر إلى ظهور النتيجة من دومة الجندل فما كان في الخوارج من يصغي إلى نصيحته =

وَقَدْ تَدَلَّتْ حَوَالَيْهِ ضَفَائِرُهَا ٱلْــــسَّوْدَا وَلَوْ نُشِرَتْ أَدْجَتْ دَيَاجِيْهَا

=ويعود عن الحقد عليه وينزل على رأيه .

وعندما ظهرت نتيجة التحكيم على ما علمنا من فشل أبي موسى الذي جاء به هؤلاء الخوارج أنفسهم مع ما علموا من انحرافه عن ولاء الحضرة السنية الحيدرية تعاظم شرُّ هؤلاء الخوارج فطفقوا يتعرضون لشيعة سيدنا علي ويعتدون على أصحابه ويقطعون الطرق على السابلة ويعوثون في أرض العراق فساداً فاضطرَّ سيدنا علي عليه السلام اضطراراً إلى محاربة هؤلاء الخوارج وتأديبهم فكان له معهم مواقع شتّى نصره الله بها عليهم نصراً مبيناً حتى ضعف شأنهم وتلاشت سطوتهم وعاد الأمن أو كاد يعود إلى أطراف العراق إلّا أنَّ هذه الحروب الداخلية أورثت الخلافة العلوية ضعفاً بيناً لسببين أولهما أنَّ أصحاب سيدنا علي قد سئموا الحرب إذ كانوا في كل وقت مضطرين إلى حمل السلاح لقتال الخوارج فتثاقلوا عن دعوته عليه السلام لحرب الشام وثانيهما أنَّ حرب الخوارج هذه قد قللت أنصار سيدنا علي وأصحابه لأنّ الخوارج أنفسهم كانوا من أنصاره وانفصلوا عنه وأصبحوا أعداءَه فهلك منهم خلق كثير وهلك من أصحاب سيدنا علي خلق كثير أيضاً .

وأعظم مواقع سيدنا علي عليه السلام في « النهروان » وهو نهر يقال لأعلاه « تامر » ولأسفله « النهروان » بين « الخافيق » و« طرفاء » فقد هلكت هنالك الخوارج فلم يسلم منهم أكثر من عشرة ولم يقتل من أصحابه أكثر من عشرة وكان عليه السلام قد أنبأ أصحابه بهذا قبل الموقعة فصدقت نبوّته وكان الخوارج هناك بنو « تيم الرباب » فهلكت مقاتلتهم جميعاً ومن بينهم الأخضر وابنه وهما من وجهاء هاتيك القبيلة قتلا مع مَن قتل في تلك الموقعة الشعواء .

وكان للأخضر هذا ابنة تدعى قطام فعزَّ عليها مصرع أبيها وأخيها بين أبطال قومها وآلت على نفسها أن تنتقم لهما من سيدنا علي عليه السلام وكانت هذه من الجمال على أعظم جانب حتى قالوا إنّها كانت أجمل نساء زمانها فرأت أن تستخدم جمالها في سبيل انتقامها فتركت النهروان وقدمت إلى الكوفة فأقامت في دار أحد مواطنيها من بني تيم الرباب وجعلت تخدع الرجال وتستميلهم إلى هواها بغية أن تجد مجنوناً منهم يقع بحبائل حبّها فتغريه على قتل سيدنا علي وأنت تعلم أنّ النساء إذا حقدن وطلبن الانتقام لا يقف في سبيلهنَّ عائق . وهكذا أصبحت قطام في الكوفة ولا همَّ لها إلّا أن تبادل =

نَجلاءُ عُشّاقُهَا يَا طَالَمَا سُحِرَتْ بِلَحْظِهَا مَا رُقَى ٱلْكُهَّانِ تَرْقِيْهَا

لَمْيَاءُ تَبْسُمُ عَنْ حُلْوِ ٱلرِّضَابِ وَكَمْ قَدِ ٱشْتَهَتْ رَشْفَهُ ٱلْعُشَّاقُ مِنْ فِيْهَا

وَعُنْقُهَا صِيْغَ مِنْ مَحْضِ ٱللُّجَيْنِ فَمَا يَحْتَاجُ لِلْحُلْيِ لٰكِنْ كَانَ حَالِيْهَا

مَيَّاسَةُ ٱلْقَدِّ لَا تَخْتَالُ مَائِسَةً إِلَّا لِتَخْتَلَ بِٱلْإِدْلَالِ رَانِيْهَا

قَدْ أَفْتَنَتْ بِهَوَاهَا كُلَّ مَنْ عَرَفَتْ مِنْ قَوْمِهَا فَغَدَوْا صَرْعَى تَصَبِّيْهَا

تَحَكَّمَتْ بِمُحِبِّيْهَا فَتَحْسِبُهَا مَلِيْكَةً وَهُمُ طُرّاً حَوَاشِيْهَا

أَوِ ٱلْإِلٰهَةَ وَٱلْعُشَّاقُ عَابِدَةٌ جَمَالَهَا عِنْدَهُ ضَحَّتْ أَضَاحِيْهَا

وَطَالَمَا عَبِثَتْ بِٱلْعَاشِقِيْنَ فَمَا فَازُوْا بِغَيْرِ هَوَانٍ مِنْ تَجَنِّيْهَا

هٰذِيْ قَطَامِ ٱلَّتِيْ ٱلرَّحْمٰنُ سَلَّطَهَا عَلَى ٱلْأُلَى عَشِقُوْا زَاهِيْ مَعَانِيْهَا

مَا وَاصَلَتْ مِنْهُمُ صَبّاً وَلَا رَضِيَتْ بَعْلاً وَلٰكِنْ تَجَافَتْ عَنْ مُحِبِّيْهَا

كَانَتْ تُحَاوِلُ أَخْذَ ٱلثَّأْرِ إِذْ فَقِدَتْ أَبَاً لَهَا وَأَخَاً وَٱلْحُزْنُ مُشْجِيْهَا

رَاحَا ضَحِيَّةَ عِصْيَانِ ٱلْخَلِيْفَةِ فِيْ حَرْبِ ٱلْخَوَارِجِ إِذْ فَحَّتْ أَفَاعِيْهَا

كَانَتْ قَبِيْلَتُهَا بِٱلشَّرِّ خَارِجَةً عَلَى ٱلْوَصِيِّ وَجَدَّتْ فِيْ تَعَصِّيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى بِحُسَامِ ٱللّٰهِ أَدَّبَهَا إِذْ رَاحَ يَفْرِيْ بِهِ فَرْيَاً هَوَادِيْهَا

وَحَرْبُهَا دُعِيَتْ بِٱلنَّهْرَوَانِ وَكَمْ لَاقَى ٱلْفَنَا مِنْ عِدَاهُ نَهْرَوَانِيْهَا

فَأَقْبَلَتْ هَاتِهِ ٱلْخَوْدُ ٱلْوِقَاحُ عَلَى مَرَابِعِ ٱلْكُوْفَةِ ٱلزَّهْرَاءِ تَشْوِيْهَا

وَٱسْتَخْدَمَتْ لِأَمَانِيْهَا مَحَاسِنَهَا بِهَا تُرِيْدُ ٱنْتِقَامَاً مِنْ مُعَادِيْهَا

=الشبّان نظرات الغرام وتتصباهم إلى هواها توصلاً إلى مجنونٍ ذي هوسٍ منهم يعينها على بلوغ ما تصبو إليه من الانتقام وما كان يردعها عن هذا الشرّ الذي تسعى إليه دين ولا إسلام .

كَـانَتْ بِهَـا تَتَصبَّى آلنَّـاسَ طَـالِبَـةً مِنْهُمْ جَـرِيْئاً عَلى آلْعُـدْوَى يُؤَاتِيْهَـا
وَلِـلْنِسَــا سُــلْطَةٌ تَـآلـلَّهِ نَـافِـذَةٌ عَلى آلـرِّجَالِ كَمَـا تَهْـوَى تُمَشِّيْهَـا
وَإِنْ حقَـدْنَ وَرُمْنَ آلْإِنْـتِقَـامَ فَـلاَ يَـهُمُّـهُـنَّ عِـبَـادُ آلـلَّهِ تُـشْـقِـيْـهَـا
وَمَا قَطَامِ سِـوَى إِحْدَى كَـرَائِمِ حَـــوَّاءِ وَهَيْهَـاتَ أَنْ تَعْـدُوْ مَبَـادِيْهَـا
وَفِيْ مَصَيْبَتِهَـا لِـلْحَقِّ مَـا نَـظَرَتْ وَلاَ لَـهُ آنْتَبَهَتْ وَآلْحُـزْنُ مُعْمِيْهَـا
كَـانَتْ عَـوَاطِفُهَـا لِلشَّـرِّ تَـدْفَعُهَـا بِقُـوَّةٍ مَـا آسْتَـطَاعَتْ أَنْ تُقَـاوِيْهَـا
رَأَتْ أَخَـاهَا مُسَجَّى قُـرْبَ وَالِـدِهَـا عَلى آلثَّرَى بَيْنَ قَتْلى خَابَ مُحْصِيْهَا
فِيْ مَشْهَدٍ مُفْجِعٍ يُدْمِيْ آلْقُلُوْبَ وَيُوْ رِيْ سَعْرَةَ آلْحِقْدِ فِيْ خَافِيْ مَطَاوِيْهَا
فَـأَرْسَلَتْ دَمْعَهَا حُـزْنَاً بِعَـاطِفَـةِ آلْإِ م شْفَـاقِ وَآلْخَطْبُ مُؤْذِيْهَـا وَمُشْجِيْهَـا
وَفِيْـهِ مَـا ذَكَـرَتْ أَنَّ آلْمَصَـائِبَ قَـدْ حَلَّتْ بِـأَصْحَابِهَـا مِنْ كَسْبِ أَيْدِيْهَـا
وَأَنَّهَــا خَـرَجَتْ بَغْيَـاً بِغَيْـرِ هُــدَى عَلى آلْإِمَـامِ فَلاَقَى آلْهُلْكَ بَـاغِيْهَـا
نَعَمْ نَسَتْ كُـلَّ هٰـذَا وَهِيَ طَــالِبَـةٌ لِنَفْسِهَــا آلثَّـأْرَ عَنْ هَلْكَى تُــرَثِّيْهَــا
وَآلنَّارُ فِيْ صَدْرِهَا مَا كَـانَ غَيْرُ هَـلاَ كِ آلْمُــرْتَضَى عَلَنَـاً شَيْءٌ يُـطَفِّيْهَـا
مَـا هَمَّهَـا إِنْ أَتَتْ ظُلْمَـاً جَـرِيْمَتهَـا أَنْ تَظْلُمَ آلشِّرْعَـةَ آلسَّمْحَا وَأَهْلِيْهَـا
وَأَنْ تُضِيْـعَ حُقُـوْقَ آلْمُسْلِمِيْنَ وَقَـدْ صِيْنَتْ بِهِمَّتِــهِ إِذْ كَــانَ حَـامِيْهَـا

غرام ابن ملجم لعنه الله

أَتَى إِلَى آلْكُـوْفَةِ آلـزَّهْـرَاءِ يَسْكُنُهَـا ذَاكَ آلَّذِيْ كَانَ يَنْوِيْ قَتْلَ عَـالِيْهَا(١)
وَكَــانَ ذَا حَــذَرٍ يُخْفِيْ جَــرِيْمَتَــهُ بِصَـدْرِهِ لَيْسَ لِـلْأَصْحَــابِ يُفْشِيْهَـا

---

(١) أتى عبد الرحمن بن ملجم الكوفة بعد قفوله من مكة وهو عاقد العزيمـة على تنفيذ الجناية التي أخذ على عـاتقه أمـر تنفيذهـا وكان وصـوله إليهـا في محرَّم سنـة ٤٠ =

وَكَــانَ فِيْ سَئَمٍ مِـنْ شَــرِّ نِيَّـتِــهِ   يَـعُــدُّ أَيَّــامَــهُ يَــطْوِيْ لَيَــالِـيْهَــا

=للهجـرة وكان مضـطراً حسب العقد الـذي عقده مـع صاحبيـه أن ينتظر يـوم ١٧ رمضان للتنفيـذ وسبق لنـا أن أظهـرنـا العجب من ضـرب أولئـك المجـرمـون يـوم ١٧ رمضـان لجنـايتهم مع أنّهم كـانوا يـوم تعاهـدوا على هـذا الشرّ في ذي الحجـة والمسافـة بين المـوعدين طـويلة كمـا لا يخفى يتعـذّر فيهـا على الجـاني أن يثبت على عهـده ويـظلّ مصمماً عليه لأنَّ علماء الاجتماع قد قرّروا أنَّ جريمة القتل يأتيها المجرم في أثنـاء ثورة جنـون ومهما طـالت هذه الثـورة لا يعقل أن تـظلَّ في رأس صاحبهـا بضع شهـور على التوالي ولا يعرض له ما يرجعه إلى هداه مهما كان الباعث له على جنايته قويـاً حتى ولو كان بدافع وهمي اقتنع أنّه من موجبات الدين مما يرضى عنه ربُّ العالمين .

وصل عبد الـرحمن بن ملجم إلى الكوفـة حافـظاً سرَّه في صـدره لا يبوح بـه إلى أحد ويظهر لي أنّه كان في سنّ الشباب وذا سعة ويسار بـدليل عشقـه قطام بن الأخضـر التي سبقت الإشارة إليها وبذله في سبيل خطبتها ما طلبته وهو ثـلاثة آلاف درهم وغـلام وجارية وهو بذل لا يأتيه ذوو الخصاصة .

تعـرَّف عبـد الـرحمن بن ملجم بقـطام لأنّــه من الخـوارج ولأنّهــا هي أيضـاً من الخوارج فتعارفهما ليس فيه شيء من الغرابة لأنَّ أهل الحزب الواحد سرعان مـا يتعرَّف بعضهم ببعض إذا كانوا في بلد واحد .

وأخـذت قطام تتصبى عبـد الرحمن وتشـاغله بحسنها ودلالهـا ويظهـر أنَّه لم يكن الوحيد في الـرجال الـذين أوقعتهم بشرك هـواها حتى إذا مـا وثقت من حبّه لهـا أخذت تتجنى عليه وتتبغدد بين الجفاء والرضاء حتى فتنته وذهبت بلبّه فجاءَها خاطباً وهذا يدلنا على أنَّ قطام لم تكن فاجرةً زانيةً وإلّا لم يطلبها حليلةً بل طلبها خليلةً كمـا يدلنـا أيضاً على أنّه كان شاباً في مقتبل العمر كما سبق القول ولـو كان كهـلاً لما تمكنت مثـل قطام أن تلعب بقلبه ليس فقط حتى عشقها بل وتقدم من خطبتها يريد أن يتزوجها .

وفي رأيي أنَّ عبد الرحمن بن ملجم عنـدما اشتغـل قلبه بهـوى قطام أخـذ يتناسى عهـده بقتل سيـدنا علي عليه السلام حتى إذا مـا دلهه الحب أعـرض عن إتيان تلك الجـريمـة الشنعاء بتاتاً بدليل تقدمه من التزوّج بقـطام ولو كـان مصرًّاً على نيـة القتل لمـا خطر لـه الزواج ببال إذ لا بدَّ أنّه مـا وصل بقـطام إلى تلك الدرجـة من الحبّ إلّا بعد أن أمضى بضع شهور في الكوفة ولم يبق له على موعد تنفيذ الجريمة غيـر وقت قصير يلقى بعـده=

= حينه لأنَّه كان يدرك حقَّ الإدراك أنَّ لا سلامة له من القتل سواءٌ أفلح بالجريمة الشنعاء التي كان مقدماً عليها أو لم يفلح .

وبعد هذا نورد النصّ التاريخي الذي أورده المؤرخون عن هذه الحادثة قالوا : وزار عبد الرحمن بن ملجم عندما قدم الكوفة بعد المؤامرة رجلاً من أصحابه ذات يوم من بني تيم الرباب فصادف عنده قطام بنت الأخضر من بني تيم الرباب وكان علي قتل أخاها وأباها بالنهروان وكانت من أجمل نساء أهل زمانها فلمّا رآها شغف بها واشتدَّ إعجابه بحسنها فخطبها فقالت له ما تسمي من الصداق فقال احتكمي ما بدا لك فقالت أحتكم عليك ثلاثة آلاف درهم ووصيفاً وخادماً وأن تقتل علي بن أبي طالب فقال لها لك جميع ما سألت وأمّا قتل علي فأنّى لي بذلك ؟ وكيف ترضين أن أتعرَّض لهذا الخطر بعد أن شغلت بهواكِ وغدوت أطمع بالحياة لأجلك ؟ فأخذت تلحُّ بتنفيذ مأربها وهي تتبغدد عليه وتقبله وما زالت به حتى أغرته على القتل فقال وكيف أستطيع الفوز بقتل علي ؟ قالت تلتمس غرته فإن أنت قتلته شفيت نفسي وهناك العيش معي (على أرغد ما تحبُّ) وإن قُتلتَ فما عند الله خير لك من الدنيا فقال لها أمّا والله ما أقدمني هذا المصر وقد كنت هارباً منه لأئمن أهله إلاّ ما سألتني من قتل علي . قالت له فأنا طالبة لك بعض من يساعدك على هذا ويقويك ثمَّ بعثت إلى وردان بن مجالد أحد بني تيم الرباب فخبرته الخبر وسألته معاونة ابن ملجم فتحمل لها ذلك (ولا نعرف ان كان هذا منه لأنّه هو أيضاً كان من عشّاقها أو لأنّه كان من الحاقدين على سيدنا علي لهلاك قبيلته في النهروان) وخرج ابن ملجم فأتى رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بحيرة وقال له : يا شبيب هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ قال وما ذاك ؟ قال تساعدني على قتل علي وكان شبيب على رأي الخوارج فقال له هبلتك الهبول لقد طلبت شيئاً إدّا وكيف تقدر ويحك على قتل ابن أبي طالب ؟ قال ابن ملجم نكمن له في المسجد الأعظم (في الكوفة) فإذا خرج لصلاة الفجر فتكنا به وقتلناه وشفينا أنفسنا منه وأدركنا ثأرنا فلم يزل به حتى أجابه فأقبل به حتى دخلا على قطام فأخبرها ابن ملجم بانضمام شبيب إليه أيضاً لقتل سيدنا علي فرحبت بشبيب وشجعته على الجريمة ووعدتهما أن تكون يوم الجناية في المسجد الكوفي اهـ ومما يستفاد من رواية المؤرخين هذه أنّ إغراء قطام ابن ملجم وانضمام وردان وشبيب إلى ذلك الملعون تحت إشرافها وسيطرتها لم يكن في وقت بعيدٍ عن يوم ١٧ رمضان وهو اليوم الأسود الذي ضربه أولئك الأشقياء الملاعين للفتك بأمراء المسلمين .

وَإِذْ تعَرَّفَ بِـآلْحَسْنَـا قَـطَامِ لَهَـا بِحُسْنِهَـا وَغَـدَا صَفْـوَاً يُـلاَهِيْهَـا
فَلَمْ تَـزَلْ تَـتَـصَبَّـاهُ وَتَـدْعَـبُـهُ حَتَّى تَـدَلَّـهَ فِيْ ذَا آلْحُبِّ تَـدْلِيْهَـا
وَقَـدْ تَنَـاسَى بِمَـرْآهَـا مُهِمَّتَـهُ آلـــسُّوْءَى آلَّتِيْ كَانَ قَبْلَ آلْحُبِّ نَاوِيْهَا
وَجَـاءَهَـا خَـاطِبَاً يَبْغِيْ تَـزَوُّجَهَـا وَذَلَّـةُ آلْحُبِّ وَآلتَّـوْلِيْـهِ يُبْـدِيْهَـا
فَكَشَّـرَتْ عَنْ نُيُـوْبِ آلشَّـرِّ بَـاسِمَـةً وَقَـابَلَتْ بِـآلـرِّضَى وَآلْبِشْـرِ دَاعِيْهَـا
وَبَيْنَ بَسْمَتِهَـا رَاحَتْ تَفُـحُّ سُمُـوْ مَهَـا وَتُـظْهِـرُ مَعْ هٰـذَا تَـدَلِّيْهَـا
قَـالَتْ: وَمَاذَا تُسَمِّيْ لِلصِّـدَاقِ حَبِيْــــبِيْ وَآلَّذِيْ يَخْطُبُ آلْحَسْنَاءَ يُرْضِيْهَا
فَقَـالَ: مَـالِكَتِيْ إِنِّيْ عُبَيْـدُكِ فَـآحْــكُـمِيْ عَـلَيَّ بِـأَمْـوَالٍ أُؤَدِّيْـهَـا
قَالَتْ: وَهَلْ أَنْتَ تُعْطِيْنِيْ مَآرِبَ نَفْـــسِيْ قَالَ: لَوْ تَطْلُبِيْنَ آلنَّفْسَ أُعْطِيْهَا
قَـالَـتْ: ثَـلاَثَـةُ آلاَفٍ مُـؤَلَّـفَـةٍ مِنَ آلـدَّرَاهِمِ قَـدْ لاَلاَ لُجَيْنِيْـهَـا
ثُـمَّ وَصِيْـفُ يُـدَارِيْنِيْ وَجَـارِيَـةٌ لِخِـدْمَتِيْ أَنْتَ تَشْـرِيْـهِ وَتَشْـرِيْهَـا
وَبَـعْـدَ ذَا قَـبَّـلَتْـهُ وَهْـيَ قَـائِـلَةٌ وَآلْغُنْجُ قَـدْ زَادَ فِيْ زَاهِيْ مَعَـانِيْهَـا
وَتَقْتُـلُ آلْمُـرْتَضَى جَهْـرَاً وَقَتْلَتُـهُ يَـدْوِيْ لِنَبْأَتِهَـا فِيْ آلأَرْضِ دَاوِيْهَا
وَعِنْـدَمَا سَمِـعَ آبْنُ آلْمُلْجَمِ آلْمُتَهَوِّ سُ آلإِتَـاوَةَ ثُمَّ آلْقَـتْـلُ تَـالِيْـهَـا
وَكَـانَ حُبُّ قَـطَامٍ قَـدْ أَعَـادَ لَـهُ حُبَّ آلْحَيَـاةِ فَـأَمْسَى غَيْـرَ سَـالِيْهَـا
نَادَى: فَدَيْتُكِ هَلْ تَبْغِيْنَ هَلْكَـةَ نَفْــــسٍ كَانَ حُبُّكِ بَعْدَ آلْمَوْتِ مُحْيِيْهَا
لَـوْلاَ هَـوَاكِ لَمَـا رُمْتُ آلْحَيَـاةَ وَلا أَمْسَيْتُ لَقْيَةَ هَوْلِ آلْمَـوْتِ خَاشِيْهَا
فَـإِنْ قَتَلْتُ أَمِيْـرَ آلْمُـؤْمِنِيْنَ فَـلاَ سَـلاَمَـةٌ أَتَـرَجَّى أَنْ أُلاَقِيْـهَـا
وَلاَ أَفُـوْزُ بِقُـرْبَى بِـتُّ أَنْشُـدُهَـا مِمَّنْ أُحِبُّ وَمَـا تَبْغِيْـنَ يُقْـصِيْهَـا
فَـأَرْسَلَتْ شَـرَرَاً تِلْكَ آلْقَبِيْحَـةُ مِنْ أَلْحَـاظِهَـا وَبِـهِ لاَقَتْ مُنَـاجِيْهَـا

وَأَظْهَـرَتْ عَـزَمَـاتٍ لاَ تُحَـوِّلُهَـا عَنْهَـا ٱلْحَـوَائِـلُ تَبْغِي أَنْ تُجَـرِّبْهَـا
وَبِٱبْنِ مُلْجَمٍ صَاحَتْ: إِنْ جَبُنْتَ وَمَا شَفِيْتَ غُلَّةَ نَـفْسِـيْ مِنْ مُـظَمِّـيْهَـا
وَمَا أَخَذْتَ بِثَأْرِ ٱلْأَخْضَرِ ٱلْبَطَلِ ٱلْـــمَقْتُـوْلِ فَـٱبْنَتُـهُ لاَ تَـطْمَعَنْ فِيْهَـا
وَهَـا أَخِيْ صَارِخٌ: أُخْتَـاهُ لاَ تَدَعِيْ لِقَـاتِلِيْ عِيْشَـةً بِـٱلرِّفْـهِ يَقْضِيْهَـا
وَإِنَّـنِيْ لَـمْ أَزَلْ أَبْكِـيْ أَبِـيْ وَأَخِيْ بِلَوْعَـةٍ مَـا كُـرُوْرُ ٱلـدَّهْـرِ يُـطْفِيْهَـا
فَـٱشْفُقْ عَلَى أَمَةٍ مَفْجُـوْعَةٍ عَـظُمَتْ أَرْزَاؤُهَـا لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُعَـزِّيْهَـا
مَـوْتُوْرَةٍ لاَ تَـرَى حِـلَّ ٱلتَّمَتُّـعِ بِـٱلـــزَّوَاجِ إِنْ هِـيَ لَمْ تَـبْلُغْ تَـشَفِّـيْهَـا
حَبِيْبَ قَلْبِـيَ إِثْـأَرْ لِيْ وَفُـزْ بِـغَـرَا مِيْ وَٱغْنَمَنَّ حَـيَـاةً أَنْتَ بَـاغِـيْهَـا
أَحْيَـا لِأَجْلِكَ أُصْفِيْكَ ٱلْـوَلاَءَ أُقَضِّـــيْ ٱلْعُمْـرَ مَعْكَ كَمَـا تَخْتَارُ تَـرْفِيْهَا
فَقَـالَ وَٱلْيَـأْسُ قَـدْ أَوْهَى جَـلاَدَتَـهُ وَٱلْحُبُّ مِنْ قَبْـلِ وَٱلْإِذْلاَلُ مُـوْهِيْهَـا
قَـطَامِ رِفْقَـاً بِصَبٍّ تَبْـتَغِيْنَ بِـأَنْ يَسِيْـرَ نَحْـوَ ٱلْمَنَـايَـا لاَ يُمَـادِيْهَـا
قَـالَتْ: حَبِيْبِيَ إِنْ تَسْلَمْ فَـإِنَّـكَ لِيْ أَوْ إِنْ تَمُتْ فَلَكَ ٱلْجَنَّـاتُ تَثْوِيْهَـا
وَثِقْ بِـأَنِّيَ لاَ أَنْسَى هَـوَاكَ كَـمَـا قَـطَامِ مَا كُنْتَ يَـا ٱبْنَ ٱلْوِدِّ نَـاسِيْهَا
فَبِٱسْمِهِ سِرْ إِلَى مَلْقَى ٱلْوَصِيِّ وَجَنْـــدِلْـهُ قَتِيْـلاً وَهٰـذَا ٱلْقَتْـلُ يُهْنِيْهَـا
فَعَـادَ لِلْهَـوَسِ ٱلْمَلْعُـوْنُ مُـطَّلِبَـاً حَيَـاةَ خَيْـرِ ٱلْـوَرَى بِـرَّاً وَتَفْقِيْهَـا
وَصَـاحَ: مَـا جِئْتُ إِلاَّ لِلْفُتُـوْكِ بِـهِ تَـٱللَّهِ كُـوْفَـةَ بَـلْ مَـا كُنْتُ آوِيْهَا
وَقَـدْ هَـرَبْتُ نُفُـوْرَاً مِنْ حُكُـوْمَتِـهِ أُسَـائِـلُ ٱللَّهَ بِـٱلْأَهْـوَالِ يَمْنِيْهَـا

وداع ابن ملجم لحبيبته

فِيْ لَيْلَةِ ٱلْجُمْعَةِ ٱلْمَضْرُوْبُ مَوْعِدُهَا   لِقَتْلَةِ ٱلْأُمَـرَا مِنْ مُسْتَبِيْحِيْهَـا[1]

وَافَى آبنُ مُلْجَمَ مُشْتَاقَـاً حَبِيْبَتَـهُ   شَـوْقَ ٱلَّذِيْ لَمْ يَعُـدْ يَرْجُـو تَلَاقِيْهَـا

فَقَـابَلَتْـهُ بِمَكْـرِ ٱلْمَـاكِـرَاتِ وَأَبْـدَتْ غَيْرَ مَا كَانَ يَخْفَى فِيْ مَطَاوِيْهَا

---

(١) أشرنا في هذا الفصل إلى الحجج التي كان يحتجُّ بها الخوارج على سيدنا علي عليه السلام وكلّها تنحصر بقولهم أنّ الحكم لله وأنّ التحكيم خروج على القرآن ومروق من الدين وأنّ سيدنا علي قد أخطأ بقبول التحكيم وأنّه كان من الواجب عليه أن ينكث عهده مع معاوية بعد كتابته وإذ لم يفعل فلم تعد له بيعة في أعناقهم وأصبحوا أعداءً لخلافته يحاربونها . هذه كل حججهم على سيدنا علي التي لأجلها أعلنوا عليه الحرب وطفقوا يتصدون لشيعته ويقاتلونها ويعوثون في العراق فساداً لأجلها وما كانوا يصيخون السمع لسيدنا علي عليه السلام إذ كان يدعو زعماءَهم إليه ويقنعهم بالحجة بأنَّ حججهم باطلة ما هي من الدين ولا في مصلحة المسلمين وكان يذكرهم بأنّهم هم الذين أكرهوه على قبول التحكيم وتهددوه بالقتل إذا رفضها وأنّه بعد أن نزل على حكمهم بقبولها ورضي بها وكتبت الصحيفة فأمضاها أصبح مقيداً بها طوعاً للقرآن العظيم الآمر بالوفاء بالعهود أمراً جلياً لا يقبل التأويل . وأغرب ما كان يطلبه الخوارج من سيدنا علي عليه السلام هو أن يعلن توبته ووالله هم أنفسهم ما كانوا يدركون كنه طلبهم هذا وكيفية القيام به فإذا كانت التوبة عن خطيئةٍ فإنَّ سيدنا علي لم يخطىء بقبول التحكيم ليتوب فهو من بدء الخديعة عرفها وأنبأ بها فجهلوها وأصرُّوا عليه بقبول الحكومة فكان عليهم هم أن يتوبوا ويتوبوا إليه ويجرّدوا سيوفهم لحرب معاوية بعد أن ظهرت الخديعة بأتمّ معانيها في دومة الجندل حيث خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري وسخر به وقال غير ما كان الاتفاق عليه بينهما على أنّهم لم يفعلوا وما اكتفوا بعصيانهم خليفتهم والابتعاد عن نصرته بل أخذوا يحاربونه بالاعتداء على أصحابه وشيعته فكان عليه شرعاً ومصلحةً أن يجرّد سيفه لتأديبهم ففعل فكانوا هم الجانين على أنفسهم وعلى الخلافة معاً إذ هلك معظمهم وضعفت قوة الخلافة في حربهم وفتور عزائم أصحابه بسببهم على أنّهم ما ارعووا بكل هذا حتى أقدم متهوس منهم على أبشع الجرائم وأشنعها وأشرها عاقبةً بقتل سيد الخلائق بعد المصطفى سيدنا علي عليهما الصلاة والسلام .

وَأَظْهَـرَتْ صَبْـوَةً تَـاَللَّهِ مَـا شَعَـرَتْ بِهَـا لَـهُ وَهَـوًى فِيْـهِ وَتَـدْلِيْهَـا

وَشَجَّعَتْهُ عَلَى ٱلْجُرْمِ ٱلْفَظِيْعِ بِبَسْـ ـمَةِ ٱلرِّضَى وَٱلْهَوَى وَٱلذِّلِّ مِنْ فِيْهَا

وَوَدَّعَتْـهُ وَدَاعَـاً لَـيْسَ يَعْـقُبُـهُ لُقَىً بِـدَمْعٍ هَتُـوْنٍ مِنْ مَـآقِيْهَـا

رَاحَتْ تُسَعِّـرُ نِيْـرَانَ ٱلْكَـرَاهَـةِ وَٱلْـ ـبَغْضَـاءِ فِيْ نَفْسِهِ ظُلْمَـاً وَتُـوْرِيْهَـا

تَقُـوْلُ: حَيْدَرَةٌ خَـانَ ٱلشَّرِيْعَـةَ بِـٱلْـ ـتَّحْكِيْمِ وَٱلْحُكْمُ لِلْخَـلَّاقِ مُوْحِيْهَـا

فَعَـارَضَتْـهُ أُنَـاسٌ وَهْيَ طَـالِبَـةٌ إِرْجَـاعَـهُ لِلْهُـدَى طَـوْعَـاً لِبَـارِيْهَـا

فَمَا ٱرْتَضَى رَجْعَةً عَنْ عِهْـدَةٍ ذَهَبَتْ بِحُكْمِـهِ مِثْـلَمَـا كُنَّـا نُـوَخِّـيْهَـا

وَمَـا ٱكْتَفَى عِنْـدَمَا لَاحَتْ نَتِيْجَتُهَـا بِـأَنَّـهُ مُخْـطِىءٌ مُـذْ رَاحَ مُمْضِيْهَـا

فَيُعْلِنُ ٱلتَّـوْبَـةَ ٱلْكُبْـرَى عَـلَانِيَـةً حَتَّى نُصَـالِحَـهُ وَٱلنَّـارُ نُـطْفِيْهَـا

لٰكِنْ أَصَـرَّ عَـلَيْنَـا أَنْ نَـعُـودَ إِلَى مَنْشُـوْدِ طَـاعَتِـهِ قَهْـرَاً فَنُسْـدِيْهَـا

وَإِذْ أَبَيْنَـا ٱنْصِيَـاعَـاً سَـاقَ حَمْلَتَـهُ عَلَى قَبَـائِلِنَـا ٱلْكَثْـرَى لِتُـفْنِـيْهَـا

وَٱللَّهِ مَـا رَحِمَتْ فُتْيَـانَنَـا وَشُيُـوْ خَنَـا فَبَاتَتْ وَهَـوْلُ ٱلْمَوْتِ غَـاشِيْهَا

وَيْـلَاهُ أَشْـلَاؤُهَـا كَـانَتْ مُغَـطِّيَـةً دِيَـارَنَـا وَٱلـدِّمَـا تَجْـرِيْ فَتُسْقِيْهَـا

وَكَـانَ مِنْ بَيْنِ قَتْـلَانَـا أَبِيْ وَأَخِيْ إِنِّـيْ لَأَبْكِـيْهُـمَـا دَوْمَـاً وَأَبْكِـيْهَـا

وَلَمْ يَجُـرَّ ٱلـرَّزَايَـا غَيْـرُ حَيْـدَرَةٍ عَلَى ٱلْعِبَـادِ فَـأَخْلِقْ أَنْ يُـلَاقِيْهَـا

فَسِـرْ حَبِيْبِي بِـلَا خَـوْفٍ لِمَسْجِـدِهِ وَٱبْلِغْ فَتَـاتَـكَ إِذْ يُـرْدَى تَشَفِّيْهَـا

فَـإِنْ أَعِشْ بَعْـدَهُ يَـوْمَـاً فَقَـدْ بَلَغَتْ نَفْسِيْ فَبُشْـرَى لَهَـا أَقْصَـى تَمَنِّيْهَـا

وَإِنَّنِيْ مَعْـكَ يَـا خُلِّيْ لَـذَاهِبَـةٌ لِكَيْ أَرَى ٱلْقَتْلَةَ ٱلْمَغْـبُوْطَ جَانِيْهَـا

أَرَى بِـعَيْـنَـيَّ ذَاكَ ٱلْإِنْـتِـقَـامَ وَمَـا يَتْلُوْهُ مِنْ لَـذَّةٍ ذُوْ ٱلْحِقْـدِ يَـدْرِيْهَـا

وَقَبَّلَتْ بَعْـدَ ذَا ٱلْمَلْعُـوْنَ صَـاحِبَهَـا وَأَرْسَلَتْ دَمْعَهَـا كِـذْبَـاً وَتَمْـوِيْهَـا

وَأظْهَـرَتْ جَـزَعَـاً مِنْ شَـرِّ وَقْفَتِـهِ عِنْـدَ ٱلصَّبَـاحِ لِأَهْـوَالٍ يُـلاَقِيْهَـا
وَٱللَّهِ مَـا جَـزِعَتْ حَقّـاً وَلاَ نَـطَقَتْ صِـدْقَاً وَمَـا هُلْكُهُ ٱلْمَحْتُـوْمُ مُبْكِيْهَـا
وَإِنَّـمَـا خَــدَعَتْـهُ فِـيْ تَـلَهُّـفِـهَـا عَلَيْـهِ كِـذْبَـاً وَفِيْ مُشْجِيْ تَبَـاكِيْهَـا
وَمَثَّلَتْ « دَوْرَهَـا » مَعْـهُ كَعَـاشِقَـةٍ تَـرَى فِـرَاقَ ٱلَّـذِيْ تَهْـوَاهُ يُشْقِيْهَـا
وَأَرْسَلَتْـهُ يُضَحِّيْ ٱلنَّفْسَ يُهْلِكُـهَـا وَلِلْحَنِيْفَـةِ بِـالْـبَلْوَى يُـفَـاجِيْـهَـا
بِقَتْـلِ مُسْلِمِهَا ٱلْأَنْقَى وَعَـاهِلِهَا ٱلْأَ م عْلَى وَعَـالِمِهَـا ٱلْأَسْمَى وَقَـاضِيْهَا
فَرَاحَ يَخْطُوْ إِلَى ٱلْإِثْمِ ٱلْفَظِيْعِ خُطَىً آثَـارُهَـا كَـانَ بَعْلُزُبُـوْلُ قَـافِيْهَـا

المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام

مَنْ لِيْ بِعِلْمِ عَلِيٍّ مَـعْ بَـلاَغَتِـهِ كَـيْمَـا أُبَيِّنُ ٱلآمَـاً يُـعَـانِيْـهَـا[1]
يُـرِحيدُ إِحْيَـاءَ سِنَّاتِ ٱلـرَّسُوْلِ فَيَلْـــقَى حَـوْلَـهُ مُمْـرِضِيْهَا أَوْ مُمِيْتِيْهَـا
وَتَلْتَقِيْـهِ خُـرُوْقٌ فِيْ ٱلْخِـلاَفَـةِ لاَ تَـرْفَـا فَـأَعْيَـا عَيَـاءً وَهْـوَ يَـرْفِيْهَـا

---

(١) يستحيل على أبلغ الكتاب وأفصح الخطباء تفصيل الحالة النفسية التي كان عليها سيدنا علي عليه السلام في سنيّ خلافته الأربعة لما عاناه من الرزايا والخطوب فيها فقد كانت كلّها حروباً وثورات داخلية ومسارح شقاق ونفاق واضطراب حتى أصبح كلما داوى جرحاً في جثمان الخلافة سالت جروح وحتى أصبح وهو لا يتمنى على الله إلاّ أن يلقى وجهه الكريم عالماً أنّ لا راحة له إلاّ في جنان النعيم . وكانت عادته عليه السلام أن يحيي لياليه في تلاوة الذكر الحكيم وذكر الله عزَّ وجلَّ ولا سيما ليالي رمضان المبارك وكذلك قضى ليلة ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة ساجداً مصلياً ذاكراً متعبداً حتى إذا ما انبثق الفجر باشر وضوءه وإذ كان موعد الصلاة لم يحن بعد تمدّد على وسادته الخشناء وطفق يجول بنفسه في ماضيه ذاكراً ما مرَّ عليه من المتاعب والإحن في جهاده المتواصل في سبيل الإسلام وكيف كانت النهاية السوداء بتكاثر أعدائه وتناقص أصحابه لكثرة ما في هذه الدنيا من محبيها وقلّة من يهتمون منهم بآخرتهم فيعملون لها وبينما هو لكذلك غفت عيناه فسنح له رسول الله عليهما الصلاة والسلام وكان بينهما ما رواه ابنه =

مَا أَعْوَزَتْهُ أَسَالِيْبُ ٱلدَّهَاءِ وَلَا سِوَاهُ أَدْرَى بِبَادِيْهَا وَخَافِيْهَا
لٰكِنْ هُنَالِكَ أُخْرَى كَانَ يَرْهَبُهَا وَلَا يَرَى هَاتِهِ ٱلدُّنْيَا تُوَازِيْهَا
لِذَاكَ قَدْ سَئِمَ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِيْ يَتَفَا نَى ٱلنَّاسُ مِنْ دُوْنِهِ وَٱللَّهُ مُفْنِيْهَا
وَلَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيْ ٱلصَّوْمِ مُظْلِمَةٍ كَانَ ٱلْوَصِيُّ بِذِكْرِ ٱللَّهِ يُحْيِيْهَا
وَيَسْأَلُ ٱللَّهَ فِيْهَا أَنْ يُرَيِّحَهُ مِنَ ٱلرَّزَايَا ٱلَّتِيْ يَدْهَاهُ دَاهِيْهَا
وَإِذْ بِهِ سَحَرَاً بَعْدَ ٱلْوُضُوءِ وَمِنْ قَبْلِ ٱلصَّلَاةِ ٱلَّتِيْ مَا كَانَ يُرْكِيْهَا
عَلَى وُسَادَتِهِ ٱلْخَشْنَا تَمَدَّدَ هُوْ نَاً فَاكِرَاً فِيْ صُرُوفِ ٱلدَّهْرِ قَارِيْهَا
وَإِذْ بِهِ مَلَكَتْهُ عَيْنُهُ فَغَفَا وَخَالَطَتْ نَفْسَهُ ٱلْعُلْيَا هُيُوْلِيْهَا
فِيْ ٱلْحَالِ قَدْ سَنَحَ ٱلْهَادِيْ ٱلْأَمِيْنُ لَهُ يَحْبُوْهُ عَطْفَتَهُ ٱلزَّهْرَا وَيُسْدِيْهَا
قَالَ ٱلْعَلِيُّ: رَسُوْلَ ٱللَّهِ يَا سَنَدِيْ فَدَتْكَ نَفْسِيْ وَمَا بِٱلْغَيْرِ أُفْدِيْهَا
أَشْكُوْ إِلَيْكَ ٱلَّذِيْ أَلْقَاهُ مِنْ أَوَدٍ وَمِنْ خِصَامٍ وَمِنْ بَلْوَى أُقَاسِيْهَا
فَقَالَ: مِنْ أُمَّتِي تَشْكُو أَلَا ٱدْعُ عَلَيْـ ـهَا دَعْوَةً فِيْ ٱلسَّمَا رَبِّي يُلَبِّيْهَا
فَقَالَ: أَبْدَلَنِيْ رَبِّيْ بِأَخْيَرَ مِنْـ ـهَا وَهْيَ بِٱلشَّرِّ مِنِّيْ ذَاكَ يَكْفِيْهَا
ثُمَّ صَحَا ٱلْمُرْتَضَى وَٱلْفَجْرُ مُنْبَثِقٌ فَقَالَ: مَوْتَتِيَ ٱلْغَرَّا أُدَانِيْهَا

= سيدنا الحسن عليه السلام عنه قال : « في صبيحة اليوم الذي استشهد فيه أمير المؤمنين دعاني إليه وحدثني قائلاً : ملكتني عيني وأنا جالس ، فسنح لي رسول الله ، صلّى الله عليه وآله وسلم ، فقلت : يا رسول الله ألا أخبرك ماذا لقيت من أمّتك من الأدد واللدد ؟ فقال : أدع عليهم ، فقلت : أبدلني الله بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بي شرّاً لهم مني ، فانتبهت ، وعلمت من رؤياي هذه أنّ موعد منيتي قد دنا ، وقد دعوتك لأخبرك بذلك ، فأوصيك بأمّة محمد خيراً . قال سيدنا الحسن : فامتقع لوني ، ووجف قلبي ، ووقفَ الشعرُ في رأسي وجسمي ، وأيقنت بانقضاء أجل أمير المؤمنين ، ثمَّ سار إلى المسجد فكان مقتله عليه السلام » اهـ .

فَأَحْمَدُ ٱللَّهَ قَدْ قَارَبْتُ مُنْصَرَفِي   إِلَى أَحِبَّةِ قَلْبِيْ فِيْ أَعَالِيْهَا
وَقَدْ دَعَا حَسَناً فِيْ ٱلْحَالِ أَنْبَأَهُ   رُؤْيَاهُ قَالَ: فَثِقْ مَوْتِيْ مُتَالِيْهَا
وَسَارَ يَبْغِيْ صَلاَةَ ٱلْفَجْرِ يَنْشِدُهَا   فِيْ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ ٱلْكُوْفِيِّ يَقْضِيْهَا

جرح أمير المؤمنين

فِيْ ٱلصَّوْمِ كَانَتْ تُقَضِّيْ فِيْ ٱلْمَسَاجِدِ عَنْ   تَقْوَى ٱلتُّقَاةُ بِإِخْبَاتٍ لَيَالِيْهَا[1]
وَٱلْمَسْجِدُ ٱلْأَعْظَمُ ٱلْكُوْفِيُّ كَانَ بِتِلْـ   ـكَ ٱللَّيْلَةِ ٱلنَّاسُ فِيْهِ وَهْوَ آوِيْهَا
وَكَانَ مِنْ بَيْنِهَا فِيْ قُرْبِ مِنْبَرِهِ   رَهْطٌ تُصَلِّيْ وَلاَ يَعْيَا مُصَلِّيْهَا

---

(١) كانت ليلة ١٧ رمضان ليلة الجمعة وكان الناس يرجون أن تكون ليلة القدر ولعلّ هذا الرجاء هو الذي حمل أولئك المتهوسين على تخصيص صباح اليوم المذكور لجريمتهم المثلثة إذا سلمنا مع المؤرخين بأنَّ الجريمة لم توجد في أدمغة أولئك الفاجرين الفسقة بدسيسة أحد بل لمجرَّد التقرّب إلى الله سبحانه بارتكاب هذا الإثم الفظيع . وكان من عادة المسلمين في رمضان أن يقضوا قسماً من لياليهم في المساجد ولا تزال هذه عادتهم حتى يوم الناس هذا يأوون إليها للصلاة والأذكار والعبادة وكان بعض الزهّاد المتعبدين يحيون ليالي رمضان بطولها في المساجد ولا سيما ليالي الجمع على اعتقاد أن تكون إحداها ليلة القدر التي العبادة فيها أفضل من عبادة ألف شهر .

وقد نقل الرواة الثقاة عن عبد الله بن محمد الأزدي وكان شاهد عيان في مصرع سيدنا علي عليه السلام قال : « إنّي لأصلي في تلك الليلة (ليلة الجمعة ١٧ رمضان) في المسجد الأعظم (في الكوفة) مع رجال من أهل المصر كانوا يصلّون في ذلك الشهر من أول الليل إلى آخره إذ نظرت إلى رجال يصلّون قريباً من السدة قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً ما يسأمون إذ خرج عليهم علي بن أبي طالب الفجر فأقبل ينادي : الصلاة الصلاة . فرأيت بريق السيف وسمعت قائلاً يقول : الحكم لله يا علي لا لك . ثمَّ رأيت بريق سيف آخر وسمعت صوت علي عليه السلام يقول : لا يفوتكم الرجل » وذيل أبو الفرج الرواية وهو ناقلها قائلاً أمّا بريق السيف الأول فإنّه كان سيف شبيب بن بحيرة ضربه فأخطأه ووقعت ضربته في الطاق . وأمّا بريق السيف الثاني فإنّه سيف الملعون عبد الرحمن بن ملجم ضربه فأثبت الضربة في وسط رأسه وشدَّ الناس عليهما فأفلت=

تَتْلُوْ قِيَـامَـاً قُعُـوْدَاً غَيْـرَ وَانِيَـةٍ آيَ آلْكِتَـابِ فَتُشْجِيْهَـا مَثَـانِيْهَـا

بِـذَا قَضَتْ لَيْلَهَـا سَهْـرَى مُهَجَّـدَةً فَمَـا غَفَا أَوْ شَكَـا آلْأَوْصَابَ جَـاثِيْهَا

وَعِنْـدَمَا لَاحَ نُـوْرُ آلْفَجْرِ أَقْبَلَ مَـوْ لَانَـا آلْوَصِيُّ وَسِيْمَـا آلْمَجْدِ يُبْـدِيْهَا

وَصَاحَ فِيْ آلنَّاسِ هُبُّوْا لِلصَّلَاةِ عِبَـا دَ آللَّهِ أَفْضَـلُكُمْ سَعْيَـاً مُـؤَدِّيْهَـا

وَمَـا أَتَـمَّ عَـلِيٌّ هَـيْـعَـلِيَّـتَـهُ إِلَّا بَـرِيْقُ سُيُـوْفٍ كَـانَ تَـالِيْهَـا

وَصَـائِحٌ قَـائِلٌ: مَـا آلْحُكْمُ حَيْـدَرَةٌ إِلَّا لِـرَبِّـكَ رَبِّ آلْـخَلْقِ ذَارِيْـهَـا

وَآلْمُرْتَضَى بِجُمُوْعِ آلنَّاسِ صَاحَ: فَلَا يَفُـوْتُكُمْ قَـاتِلِيْ وَآلـذُّعْـرُ فَـاشِيْهَا

= شبيب وتمكن من الهرب فأسرع إلى منزله فدخل عليه ابن عمّ له فرآه يحلُّ الحرير عن صدره فقال له ما هذا ؟ ألعلّك قتلت أمير المؤمنين وانتضى سيفه وقتله . وأمّا الملعون عبد الرحمن بن ملجم فأحدق به الناس وطفقوا ينهشون لحمه بأسنانهم كأنّهم السباع ويقولون يا عدوّ الله ماذا صنعت ؟ أهلكت أمّة محمد وقتلت خير الناس كل هذا وهو لعنه الله صامت لا ينطق ببنت شفة وكاد الناس يقتلونه لولا أن يدوي في الجامع صوت أمير المؤمنين عليه السلام والدم يتدفق من رأسه الشريف فقال : أيّها الناس ، وصيّتي لكم أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا تضيعوا سنته ، أقيموا هذين العامودين ، وأوقدوا هذين المصباحين ، وخلاكم ذم ، أنا بالأمس صاحبكم ، واليوم عبرة لكم ، وغداً مفارقكم ، ان أبق ، فأنا وليُّ دمي ، وان أفنى فالفناء ميعادي ، وان أعف فالعفو لي قربة ، وهو لكم حسنة ، فاعفوا ألا تحبّون أن يغفر الله لكم ؟ ، والله ما فجأني من الموت وارد كرهته ، ولا طالع تكرهته ، وما كنت إلّا كقارب ورد ، وطالب وجد ، وما عند الله خير للأبرار » اهـ .

وعندما انتهى سيدنا علي عليه السلام من خطابه هدأ روع الناس مستمعين حكمته راضين لرضائه ونقلوه وهم جزعون إلى منزله الشريف واستاقوا الملعون ابن ملجم إلى السجن ، رهين ما تجري به الأقدار على أمير المؤمنين وإمّا أن يشفى ويحكم بأمره وقد يعفو عنه كما قال في خطابه فإمّا أن يقضي فلا يكون له غير الموت جزاء فعلته الشنعاء على ما يقضي به القرآن الشريف ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أُولي الألباب** ﴾ .

أَمَّا تَفَاصِيْلُ مَأْسَاةِ ٱلإِمَامِ فَقَدْ جَرَتْ كَمَا نَقَلَ ٱلرَّائِي لِرَاوِيْهَا
فَقَالَ: أَنَّ شَبِيْبَاً كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَهْوَى بِضَرْبَةِ سَيْفٍ رَاحَ نَابِيْهَا
ثُمَّ ٱبْنُ مُلْجَمَ أَهْوَى ضَرْبَةً ثَبَتَتْ فِيْ رَأْسِ حَيْدَرَةٍ لَا كَانَ مُهْوِيْهَا
وَفَرَّ بَعْدُ شَبِيْبٌ نَحْوَ مَنْزِلِهِ يَبْغِي ٱلسَّلَامَةَ لَكِنْ لَيْسَ لَاقِيْهَا
إِذْ جَدَّ فِيْ أَثْرِهِ مِنْ آلِهِ بَطَلٌ شَهْمٌ إِسَاءَتُهُ مَا كَانَ غَاضِيْهَا
وَقَالَ: وَيْلُكَ أَهْلَكْتَ ٱلْخَلِيْفَةَ لُؤْ مَاً مَا ٱلْخِلَافَةُ تَبْقَى بَعْدَ حَامِيْهَا
خُذْهَا عَدِمْتُكَ مِنِّي غَيْرَ خَائِبَةٍ وَرُحْ بِهَا لِجَحِيْمِ ٱلنَّارِ تَصْلِيْهَا
وَرَاحَ ضَارِبَهُ بِٱلسَّيْفِ قَاتِلَهُ فَخَرَّ مُخْتَبِطَ ٱلْأَحْشَاءِ دَامِيْهَا
وَٱلنَّاسُ قَدْ لَزِمَتْ شَرَّ ٱلْخَلِيْقَةِ طُـــرَّاً لَزْمَةً أَوْشَكَتْ تُودِيْ بِهِ فِيْهَا
كَانَتْ تُعَضِّضُهُ عَضَّاً وَتَضْرُبُهُ ضَرْباً وَمَا بَلَغَتْ مِنْهُ تَشَفِّيْهَا
كَانَتْ تَقُوْلُ: عَدُوَّ ٱللَّهِ وَيْلُكَ فَجَّـــعْتَ ٱلْحَنِيْفَةَ فِيْ أَسْمَى مُذِيعِيْهَا
وَأُمَّةُ ٱلْمُصْطَفَى أَهْلَكْتَهَا بِشَبَا ٱلـــسَّيْفِ ٱلَّذِيْ فِيْهِ قَدْ أَهْلَكْتَ رَاعِيْهَا
وَذٰلِكَ ٱلْمُجْرِمُ ٱبْنُ ٱلْمُلْجَمِ ٱلْمُتَهَوِّ سُ ٱللَّعِيْنُ صَمُوْتٌ لَا يُفَاهِيْهَا
لَوْلَا خِطَابُ شَهِيْدِ ٱلْمُسْلِمِيْنَ لَمَا نَجَا مِنَ ٱلْمَوْتِ تَمْزِيْقاً بِأَيْدِيْهَا
فَقَالَ صَلَّىٰ عَلَيْهِ ٱللَّهُ وَٱلدَّمُ يَكْـــسُوْهُ مِنَ ٱلْحُلَلِ ٱلْحَمْرَاءِ قَانِيْهَا
وَصِيَّتِيْ لَكُمُ يَا نَاسُ فَٱسْتَمِعُوْ هَا وَٱطْلُبُو ٱلْعَفْوَ وَٱلْحُسْنَى لِمُوْصِيْهَا
أَنْ تَعْبُدُوْا رَبَّكُمْ لَا تُشْرِكُوْا أَحَدَاً مَعْهُ عِبَادَةَ بِرٍّ فَازَ آتِيْهَا
وَسُنَّةُ ٱلْمُصْطَفَى ٱلْغَرَّا ٱحْفَظُوْا وَلَقَدْ خَابَتْ مَسَاعِيْ ٱلْأُلَى بَاتُوْا مُضِيْعِيْهَا
ذَانِ ٱلْعَمُوْدَانِ يَا صَحْبِيَ مُقِيْمُهُمَا تَٱللَّهِ يُلْفِيْ مِنَ ٱلآمَالِ سَامِيْهَا
ذَانِ ٱلسِّرَاجَانِ يَا صَحْبِيْ مُضِيْئُهُمَا لِيَأْمَنُ ٱلْغِيَرَ ٱلسُّوْءَى وَيَتَّقِيْهَا

نَصِيْحَتِيْ فَاْسمَعُوْا سَمْعَاً خَلاَكُمُ ذَ مٌّ حَاذِرُوْا أَنْ تَكُونُوْا مُسْتَهِيْنِيْهَا

قَدْ كُنْتُ يا قَوْمِ فِيْ أَمْسِيْ مُصَاحِبَكَمْ صَحَابَةً لَمْ أَكُنْ تَاْللَّهِ رَاضِيْهَا

وَهَا أَنَا بِدِمَائِيْ عُبْرَةٌ لَكُمُ ذَا اَلْيَوْمَ يُنْذِرُنِيْ بِاْلْمَوْتِ هَامِيْهَا

وَفِيْ غَدٍ يَا بَنِيْ أُمِّيْ مُفَارِقُكُمْ بِغُرْبَةٍ لَمْ أَكُنْ يَوْمَاً مُبَالِيْهَا

أَنَا وَلِيُّ دَمِيْ إِنْ أَبْقَ بَيْنَكُمُ أَعْدَاؤُهُ مِثْلَمَا أَهْوَى أُقَاضِيْهَا

وَإِنْ فَنِيْتُ فَمِيْعَادِيْ اَلْفَنَاءُ وَقَدْ بَلَغْتُهُ وَحَيَاتِيْ اَللَّهُ مُفْنِيْهَا

وَإِنْ عَفَوْتُ فَزُلْفَى لِلْمُهَيْمِنِ عَفْـ ـوِيْ بَلْ مَبَرَّتُهُ عَنْكُمْ أُؤَدِّيْهَا

فَاْعْفُوْا فَفِيْ اَلْعَفْوِ خَيْرٌ ثُمَّ مَثْوَبَةٌ إِنَّ اَلْكِرَامَ لَتَعْفُوْ عَنْ مُسِيْئِيْهَا

أَلاَ تَوَدُّوْنَ أَنَّ اَللَّهَ يَغْفِرُ غُفْـ ـرَانَاً خَطِيْئَاتِكُمْ وَاْلْكُلُّ مُخْطِيْهَا

وَاْللَّهِ مَا فَجْأَةُ اَلْمَوْتِ اَلزُّؤَامِ كَرِهْـ ـتُهَا وَلاَ رُمْتُ عَنِّي أَنْ أُفَجِّيْهَا

وَلاَ لَهُ طَالِعٌ أَنْكَرْتُ طَلْعَتَهُ وَإِنْ تُكَرِّهَ أَهْلَ اَلْأَرْضِ تَكْرِيْهَا

وَلَمْ أَكُنْ غَيْرَ ظَامٍ شَامَ مَوْرِدَهُ وَطَالِبٍ بُغْيَةً أَضْحَى مُلاَقِيْهَا

وَمَا لَدَى اَللَّهِ خَيْرٌ لِلْأُلَى زَهِدُوْا فِيْ ذِيْ اَلْحَيَاةِ وَقَدْ جَافُوْا مَلاَهِيْهَا

نَعَمْ لَقَدْ أَثَّرَتْ أَقْوَالُ حَيْدَرَةٍ كَمَا أَرَادَ شَهِيْدُ اَلدِّيْنِ مُلْقِيْهَا

وَسَارَتِ اَلنَّاسُ بِاْلْمَوْلَى اَلْجَرِيْحِ إِلَى دِيَارِهِ وَاْلْبُكَا يَمْلاَ مَآقِيْهَا

وَسِيْرَ بِاْلْمُجْرِمِ اَلْمَلْعُوْنِ إِذْ حَبَسُوْ هُ حَبْسَةً لَمْ يَكُنْ تَاْللَّهِ نَاجِيْهَا

جرح معاوية وسلامته

فِيْ ذٰلِكَ اَلْيَوْمِ يَوْمِ اَلشُّؤْمِ قَدْ حَدَثَتْ جَرِيْمَةُ اَلشَّامِ فَاْهْتَزَّتْ نَوَاحِيْهَا

بَيْنَا مُعَاوِيَةٌ فِيْ اَلْجَامِعِ اَلْأَمَوِ يِّ لِلصَّلاَةِ وَقَدْ وَافَى يُوَفِّيْهَا

(١) خرج معاوية في فجر يوم الجمعة ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة إلى الصلاة =

إذَا بِضَــرْبَــةِ سَيْفٍ فِيْ عَجِيْــزَتِــهِ   قَدْ أَصْبَحَ ٱلْبُـرَكُ ٱلْمَفْتُوْنُ مُمْضِيْهَــا

= في الجامع الأموي وما كاد يحيعل على الصلاة حتى فاجأه البرك بن عبد الله التميمي بضربة سيف أصابت أليته فهجم الناس عليه واستاقوه مقيداً إلى السجن وحُمل معاوية إلى داره وأرسل فاستدعى إليه البرك وسأله عن سرّ جريمته فأبى أن يبوح بشيء غير قوله إنّ عندي خبراً أسرُّك به فإن أخبرتك هل تعفو عنّي قال معاوية قل لنرى قال البرك أنّ أخاً لي قد قتل علياً في صباح هذا اليوم . قال معاوية : فلعلّه لم يقدر على ذلك . قال البرك بل يقدر فإنّ علياً ليس معه أحد يحرسه ومع هذا فاتركني حياً حتى إذا ما فشل أخي بقتل عليّ ذهبت أنا وقتلته فتبسم معاوية وقال كلا لا يكون هذا أبداً وأمر به فقتل في الحال . . وبعث معاوية إلى الساعدي وكان من أشهر أطبّاء الشام وقتئذٍ فلمّا نظر إليه قال إختر اما أن أحمي حديدةً فأضعها موضع السيف وأمّا أن أسقيك شربة تقطع منك الولد وتبرك منها فإنّ ضربتك مسمومة فقال معاوية أمّا النار فلا صبر لي عليها وأمّا الولد فإنّ في يزيد وعبد الله ما تقرُّ به عيني فسقاه شربةً فبرىء ولم يولد له ولد بعدها . وأمر معاوية بعد ذلك أن تقام له مقصورة في الجامع الأموي يصلّي فيها وأرصد حراساً لشخصه يحرسونه ليلاً ونهاراً وهو أول من عمل هذا في الإسلام .

نقول ولقد سألنا كثيرين من أصدقائنا الأطباء عمّا إذا كان يوجد دواء يطهر الإنسان من سمّ دخل في جسمه بواسطة جرح ويقطع الولد فأجابوا أنّهم لا يعرفون دواءً يفعل هذا الفعل لا في الطبّ القديم ولا في الطب الحديث .

« ترجمــة معاويــة »

وهنا يخلق بنا أن نأتي على ترجمة معاوية بن أبي سفيان إذ لا رجعة لنا إلى ذكره في علويتنا المباركة فنقول :

هو أبو يزيد ويدعى أبو عبد الله معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . وأمّه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . وهي أمّ أخيه عتبة بن أبي سفيان . وأمّا يزيد بن أبي سفيان ومحمد بن أبي سفيان وعيبة بن أبي سفيان وحنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فهم من أمّهات شتى . وأبو سفيان هو الذي ساق قريشاً في حروبها إلى النبي ﷺ وهو رئيس بني عبد شمس بعد قتل عتبة بن ربيعة في غزوة بدر الكبرى ولذلك دعي أبو سفيان صاحب العير وعتبة صاحب النفير ومنها جرى على ألسن الناس =

وَمَـا عَلَيْـهِ قَضَتْ لٰكِنَّهَـا شَـفِيَـتْ   مِنْ بَعْـدِ مَا أَحْكَمَ ٱلآسِيْ تَـدَاوِيْهَـا

= المثل المأثور « لا في العير ولا في النفير » يقال ذلك للرجل الخامل ، ودعي أبو سفيان صاحب العير إشارة إلى العير التي كان قادماً بها من الشام وهي تحمل العطر والبرّ فلما سمع بخروج المسلمين للقائه أرسل إلى مكة يستنصر أهلها وضرب بوجوه عيره إلى البحر فساحل بها حتى أنقذها من الخطر الذي كان محدقاً بها وكان غزوة بدر الكبرى التي مرَّ معنا تلخيص حوادثها لا جلّها . وسمي عتبة صاحب النفير لأنّه نفر إلى نصرة أبي سفيان برجالة قريش واشتبك مع المسلمين في موقعة بدر وقتل فيها فدعي صاحب النفير وهو جدّ معاوية لأمّه . وكانت هند أم معاوية تذكر في مكة بفجور وعهر حتى كان الناس يشكون في نسب أولادها فيعزون معاوية إلى أربعة وهم مسافر بن أبي عمرو وعمارة بن الوليد بن المغيرة والعباس بن عبد المطلب ومغنٍ لأبي سفيان يقال له الصباح . قالوا وقد كان أبو سفيان دميماً قصيراً وكان الصباح خادماً لأبي سفيان ونديماً وهو شاب وسيم الوجه حسن الطلعة فدعته هند إلى نفسها فغشيها . وقالوا أنَّ عتبة بن أبي سفيان من الصباح أيضاً وقالوا أنّها كرهت أن تضعه في منزلها فخرجت إلى أجياد فوضعته هناك . ومن الناس من يبرئون هنداً من العهر ويدافعون عن طهارتها وحصانتها والله أعلم . وطالما كان الناس يعيبون معاوية بأمّه في الجاهلية والإسلام وهو يقول ما هند بشرّ نسائكم .

وولد معاوية في مكة المكرمة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وكان عمره يوم فتح مكة ٢٣ سنة وأسلم في ذلك اليوم مع أبيه ومن أسلم من قريش وهم الذين يطلق عليهم إسم « الطلقاء » وأصبح بعد الفتح من كتبة الوحي بين يدي رسول الله ﷺ في جملة الكتاب . وفي خلافة أبي بكر تولّى قيادة جيشٍ أرسله أبو بكر مدداً للجيش الذي كان يقوده أخوه يزيد بن أبي سفيان في فتح الشام فاشترك مع يزيد في فتح صيداء وعرقة وجبيل وبيروت من سواحل سوريا . وفي عهد عمر تولّى ولاية الأردن ولما توفي يزيد أخوه في طاعون عمواس وكان والياً لدمشق ولّاه عمر بن الخطاب دمشق ثمَّ سوريا بجملتها . وكان معاوية أدهى دهاة العرب فما كان يستلم ولاية سوريا حتى طمحت نفسه إلى الاستئثار بها فطفق يجمع المال ويدخره علماً منه أنّه « قاضي الحاجات » وبالرغم عمّا اشتهر عن شدّة عمر بن الخطاب على عمّاله وعزله كل من استغنى منهم أو مال إلى الترف بالرغم من كل هذا أبقى على معاوية في ولاية سوريا وما استطاع حمله على التخلي عن الأموال التي كان يخزنها وعن الترف الذي صار إليه حتى أنّه كان =

وَأَنْبَأَ ٱلْبُرَكُ ٱلْمَخْذُوْلُ صَاحِبَهُ   عَنْ فَجْعَةِ ٱلْكُوْفَةِ ٱلسَّوْدَاءِ تَجْرِيْهَا

= يتشبه بملوك الروم في ملبسه ومأكله وفخامة رياش بيته وعظمة مواكبه قالوا وقد لامه عمر يوماً على ترفته فقال له إنّ القوم في الشام قد اعتادوا على رؤية ملوكهم في العظمة والترف فلا يهابونه إن لم يروه مثلهم قالوا فرضي عمر بن الخطاب بهذا الجواب واقتنع به أمّا نحن فعلى قلة علمنا نقول أنّ عمر بن الخطاب لم يقتنع بجواب معاوية ولا كان راضياً عن حاله ولكنه كان رشيداً ذكياً فما جهل أنّ أمره قد استفحل وأنّه يعجز عن عزله فأبقى عليه وسكت عنه والله سبحانه أدرى بالحقيقة وأعلم .

وعندما قتل عمر بن الخطاب وتولى عثمان الخلافة حسب الشورى التي أوصى بها الخليفة المقتول ذهب لنا شك في أنّ لمعاوية هذا يداً في تولية عثمان مع عدم أرجحيته على الستة ولا سيما سيدنا علي كما ذهب لنا الشك في ما هو أبعد من ذلك في أنّ عمر بن الخطاب ما ترك الأمر شورى للستة إلاّ وهو يعلم أنّه لو أوصى بها لواحد يثق به غير عثمان لما رضيه معاوية وقامت الفتنة والله سبحانه أعلم بهذا أيضاً .

وفي عهد عثمان كانت الخلافة رهن إرادة وتدبير وتحكم مروان بن الحكم في المدينة المنورة ومعاوية بن أبي سفيان في الشام وكل ما نقمه المسلمون على عثمان كان بجريرتهما والله يعلم والتاريخ يشهد أنّ عثمان لم يكن راضياً عن كلما كان ولكنه كان ضعيفاً بأزاء صاحبيه وبني أمية من ورائهما فاستسلم لإرادتهما فساقاه إلى تلك النتيجة السوداء .

وبعد مقتل عثمان اتّهم معاوية سيدنا علي بقتله وهو يعلم قبل غيره أنّ الذي قتله في الحقيقة ليس علي ولا سواه بل هو نفسه ومروان بن الحكم ومعاشر الأمويين الذين تعجلوا بالسيطرة على الخلافة وجرّ منافعها لأنفسهم وما كان يتهم معاوية سيدنا علي بقتل عثمان زوراً إلاّ لحمل الناس على كرهه وعصيان أمره حتى كان ما قد ورد لنا بيانه فيما تقدم ومع أنّ اتّهام سيدنا علي بمقتل عثمان كان في مصلحة معاوية والأمويين لرغبتهم باستخلاص الخلافة لأنفسهم فيسودون العرب في الإسلام كما كانوا يسودونهم في الجاهلية مع ذلك كان معاوية شخصياً يكره سيدنا علي ويبغضه ويحقد عليه وينقم لأنّه قتل يوم بدر أخاه حنظلة وخاله الوليد بن عتبة واشترك في قتل جدّه عتبة نفسه وقتل عليه السلام عدا هؤلاء عدداً كبيراً من بني عمّه عبد شمس وترات معاوية هذه على سيدنا علي مردى الكفار والمشركين هيهات أن ينساها له ويخضع لأمره وينزل على حكمه . =

وَقَـالَ: لاَ تَقْتُلُوْنِي قَبْلَ أَنْ تَقِفُـوا عَلى حَقِيْقَتِهَـا مِـنْ عِنْـدِ أَهْـلِيْهَـا
فَـإِنْ قَضَى ٱلْمُرْتَضَى أَنْتُمْ وَشَـأْنُكُمُ مَعِي وَبُغْيَتُكَمْ لِيْ كُـنْتُ بَـاغِـيْهَـا
وَإِنْ نَجَـا فَٱتْـرِكُـوْنِي كَيْ أَسِيْـرَ إِلَيْــهِ إِنَّ قَـتْلَتَـهُ مَـا زِلْـتُ نَـاوِيْـهَـا
فَمَـا إِلَى قَـوْلِـهِ أَصْغَى مُعَـاوِيَـةُ وَلاَ إِمَـاتَتُـهُ قَـدْ كَـانَ مُـرْجِيْهَـا
قَضَى عَلَيْـهِ سَـرِيْعَاً بِـٱلإِمَـاتَـةِ تَمْــثِيْلاً فَـرَاحَ إِلَى ٱلنِّيْـرَانِ يَـأْوِيْهَـا

= وظلَّ معاوية وهو والي سوريا إلى قبل حرب صفين حيث بايعه الناس على أن يدع الأمر شورى يختارون لأنفسهم الخليفة الذي يرضونه ولكنـه بعد التحكيم ادَّعى أنّ حيلة عمرو بيعة صحيحة له فنادى بنفسه خليفـةً للمسلمين فبايعـه أهل الشّـام ثمَّ أخذ يـرسل جيوشه لغزو بلاد الخلافة وإكراه الناس على بيعته فبايعه أهل مصر بحزم ودهاء عمرو بن العاص وبايعه أهل الحجاز واليمن كرهاً على عهد بسر ثمَّ رفضوا بيعتـه بعد أن جاءَهم جـارية من قبـل سيدنـا أمير المؤمنين عليه السلام ولـذلك لم يعتبْـر الفقهاء والمؤرخـون بيعتـه صحيحةً معتبرةً . وقول حضرة الشيخ الخضري في محاضراته في الجامعة المصريـة أنَّ أهل الشام انتخبوا معاوية خليفةً لهم تضليـل للحقيقة والتـاريخ فـإنَّ معاويـة كان متغلبـاً على أهل الشام يكرههم على ما يريد إكراهاً فبايعوه مكـرهين غير مختـارين ولا منتخبين وان أهـل الشام لا يملكـون حق انتخاب الخـلافة ولا جـزءاً من ذلـك الحق بـل الـذين يملكونه بقايا المهاجرين والأنصار وأولاد الذين مـاتوا منهم ومعـظم هؤلاء انتخبوا سيـدنا علي للخلافة وبايعوه بها بيعة علنيةً في المسجد النبوي في المدينة المنورة . وبعـد قتل سيدنا علي عليه السلام تولّى الخلافة سيدنا الحسن عليه السلام ببيعة أهـل العراق غيـر أنّه عليه السلام رأى بعد ستة أشهر أن يتخلّى عن الخلافـة لمعاويـة ففعل لأسبـاب سنأتي عليهـا عند ذكـرنا ترجمة سيدنا الحسن في حاشية تجيء إن شاء الله .

وظلَّ معاوية على عرش الخلافة إلى سنة ٦٠ للهجرة ففي جمادى الثانية من تلك السنة مرض مرض الموت ومات لهلال رجب من السنة المذكـورة « ٧ افريـل سنة ٦٨٠ مسيحية » وكانت وفاته في دمشق ودفن فيها ومما لا جدال فيه أنّ معاوية كان من الدهـاء ومضاء العزيمة على أعظم جانب وكان طماحاً إلى العـلاء يستسهل كـل شيء في سبيله على ما رأينا من أعماله فيما تقدم من حواشي هذه العلوية المباركة .

نجاة عمرو بن العاص

هَل ٱلْقَضَا أَمْ وُفُورُ ٱلْحَظْ أَنْقَذَ عَمْــراً مِنْ مَنِيَّتِــهِ إِذْ رَاحَ مُـنْسِيْهَــا[1]

أَمْ يَخْبُطُ ٱلْمَوْتُ كَٱلْعَشْوَا بِغَيْرِ هُدَى فَمَــا يُصِيْبُ مِنَ ٱلْأَرْوَاحِ يُـرْدِيْهَــا

أَمْ أَنَّ عَمْـراً لَهُ فِي تِيْ ٱلْفِعَـالِ يَـدٌ سَـوْدَاءُ أَمْ أَنَّـهُ قَـدْ كَـانَ يَـدْرِيْهَا

فِيْ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ عَمْرٌو عُلَّ وَٱطَّلَبَ ٱلْـــطَبِيْبَ لِـلْعِلَّةِ ٱلْـفُجْئَى يُـدَاوِيْهَـا

أَوْ قَـدْ تَمَـارَضَ كَيْ يَبْقَى بِمَنْــزِلِـهِ مُحَـاشِيَـاً ضَـرْبَـةً صَعْبٌ تَـوَقِّيْهَا

وَنَــابَ عَنْهُ بِــأَمْرٍ مِنْــهُ خَـارِجَــةٌ لِكَيْ يُقِيْمَ صَـلَاةَ ٱلصُّبْحِ يَقْضِيْهَا

فَـأَمَّ جَـامِـعَ عَمْـرٍو غَيْــرَ مُكْتَـرِثٍ إِلَى ٱللَّيَـالِيْ وَمَـا تَفْجَـا فَـوَاجِيْهَــا

وَإِذْ بِعَمْــرِو ٱبْنِ بَكْـرٍ رَاحَ بَــاغِتَــهُ بِضَــرْبَــةٍ لَمْ يَكُنْ فِـيْـهِ مُثَنِّيْهَــا

وَضَجَّتِ ٱلنَّاسُ فِيْ ٱلْفُسْطَاطِ ضَجَّتَهَا لِفَعْـلَةٍ جَهِـلَتْ جَهْــلاً خَــوَافِيْهَــا

وَمَـاتَ خَـارِجَـةٌ مِنْ جِرْحِــهِ غَـدَهُ ضَحِيَّــةً مَـا أُرِيْــدَتْ مِنْ مُضَحِّيْهَا

وَيْلُ آمِّهِ كَيْفَ لَمْ يَعْـرِفْ حَقِيْقَةَ مَنْ قَــدْ رَامَ قَتْلَتَـهُ مَــا ٱنْفَـكَّ يَنْــوِيْهَا

أَمَا رَأَى عَمْرَو يَوْمَاً فِيْ ٱلصَّـلَاةِ وَلَا فِيْ ٱلسُّوْقِ أَوْ سُبُلِ ٱلْفُسْطَاطِ يَمْشِيْهَا

---

(١) في فجر ذلك اليوم الأسود أيضاً أي يوم الجمعة ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة مـرض عمرو بن العـاص أو تمارض « الله أعلم بـالحقيقة » قـالـوا اشتكى بـطنـه فـأمر خـارجة بن أبي حبيبـة وكان صـاحب شرطتـه وهو من بني عـامر بن لؤي فخـرج ليصلّي بالناس فشدَّ عليه عمرو بن بكر بسيفه فضربه فقتله وهجم الناس على قاتله واستاقوه إلى عمرو بن العاص فأمر بقتله في الحال فقال أمهلني وعندي خبر يسرُّك قال وما هو ؟ قـال إنّ أخـاً لي قتل السـاعة عليـاً بن أبي طالب في الكـوفة . قـال لعلّه عجـز عن قتله قـال أنسيء قتلي إذن فـإذا عجز عن قتله أمضي أنـا وأقتله قال بـل أقتلك الساعـة وأمـر بقتله فقتل . ثمَّ أنَّ عمراً بن العاص زار خارجة وهو يحتضر فطيب خاطره وهـو ضحيته وقـال أرادني القاتل والله لم يرد . فقال خارجة ولكني كنت بديلك والأمر لله .

أَمَـا تَـبَيَّـنَ مَـنْ يَـبْـغِـي إِمَـاتَـتَـهُ   قَبْـلًا لِيَأْمَنَ فِيْ إِجْـرَامِـهِ ٱلتِّيْهَـا

إِنِّيْ أُشَكِّكُ فِيْ هٰذِيْ ٱلْحَـوَادِثِ مَا   أَظُنُّ عَمْـرًا بَعِيْـدًا عَنْ مَنَـاحِيْهَـا

لٰكِنَّ عَمْـرًا لَقَـدْ أَرْدَى لِسَـاعَتِـهِ ٱلْـ   ـمَـعْـتُـوْهَ أَرْسَـلَهُ لِلنَّـارِ يَـصْلِيْـهَـا

لَـوْلَا ٱلدُّهَـا مَا نَجَـا عَمْرٌو بِمُهْجَتِـهِ   مِنَ ٱلْمَنِيَّـةِ يَـا سُبْحَـانَ مُنْجِيْهَـا

وصية أمير المؤمنين للحسنين

سَـلَامَةُ ٱلْمُـرْتَضَى هَمَّتْ صَحَـابَتَـهُ   فِيْهَـا ٱلسَّلَامَـةُ مِنْ دَهْـرٍ يُنَـاوِيْهَـا[1]

كَـذَاكَ هَمَّتْ جُمُوْعَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ وَفِيْـ   ـهَـا لِلْخِـلَافَـةِ صَـوْنٌ مِنْ أَعَـادِيْهَـا

وَعَمْـرَكَ ٱللّٰهَ قَـدْ كَـانَتْ جِـرَاحَتُـهُ   فِيْ قَلْبِ كُـلِّ تَقِيٍّ مِنْ أَهَـالِيْهَـا

ضَاقَتْ لَهَا ٱلْكُوْفَةُ ٱلـرَّحْبَا بِسَـاكِنِهَا   وَٱلْحُـزْنُ خَيَّمَ فِيْ صَـافِيْ مَغَـانِيْهَـا

وَبَـاتَتِ ٱلنَّاسُ فِيْ هَمٍّ وَفِيْ جَـزَعٍ   عَلَى ٱلْخَلِيْفَـةِ مَـا أَمْنٌ تَحَـزِّيْهَـا

وَأَصْبَحَتْ بِجَـوَاهَـا تَسْتَـبِيْـنُ نَبَـا   عَمِيْدِهَا ٱلْمُفْتَـدَى وَٱلْخَوْفُ فَـاشِيْهَا

---

(١) عندما نقل سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام إلى داره وهو جريح دعوا لعيادته أطباء الكوفة فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من أثير بن عمرو بن هانيء الكوفي وكان متطبباً صاحب كرسي يعالج الجراحات وكان من الأربعين غلاماً الذين كان ابن الوليد أصابهم في عين التمر فسباهم . فلما نظر أثير إلى جرح أمير المؤمنين دعا برئة شاة حارَّة فاستخرج منها عرقاً أدخله في الجرح ثمَّ نفخه ثمَّ استخرجه وإذا عليه بياض الدماغ فقال يا أمير المؤمنين أعهد عهدك فإنَّ عدوّ الله قد وصلت ضربته إلى أمّ رأسك . فتبسم عليه السلام تبسّم من يهزأ بالموت وقال الحمد لله فإنّي ذاهب إلى أحباب قلبي وهكذا لم يخف من المنية من أخافها وتقدم منه جندب بن عبد الله فقال : إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال عليه السلام ذلك حق المسلمين فلا آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر .

ثمَّ أجال سيدنا علي عليه السلام عينيه بمن حوليه وفيهم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وخاصة أصحابه ونظر إليهم نظرة وداعٍ وقال مخاطباً الحسنين بكلام متقطع : « أوصيكما بتقوى الله ، وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء زُوِيَ =

وَتَسْأَلُ ٱللَّهَ أَنْ يُبْرِيْ ٱلْوَصِيَّ مِنَ ٱلْـــجِرَاحَـةِ ٱلْمُشْتَكِيْ مِنْهَـا وَيُبْـرِيْهَـا
وَعَـادَتِ ٱلنُّطُسُ ٱلْحُـذَّاقُ خَيْرَ شَهِيْـــدٍ تَـرْتَجِيْ بُـرْءَهُ وَٱلـطُّبُّ مُعْيِيْهَـا
وَكَـانَ يَحْذُقُ تَـطْبِيْبَ ٱلْجُـرُوْحِ أُثَيْـــرٌ فِيْ مَـرَاهِمِـهِ ٱلشَّتَّى يُـدَاوِيْهَـا
وَإِذْ تَكَشَّفَ جُـرْحَ ٱلْمُـرْتَضَى وَرَأَى قَدْ سُمَّ نَادَى: فَـلَا رَجْوَى لِـرَاجِيْهَا
وَقَـالَ: فَاعْهَـدْ أَمِيْـرَ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ بِـلَا وَنَى ٱلْعُهُوْدَ ٱلَّتِيْ تُرْضِيْـكَ تُجْرِيْهَـا
فَـإِنَّ سَـيْفَ عَــدُوِّ ٱلـلَّهِ وَاصَــلَ أُمَّ ٱلـرَّأْسِ قَدْ كَـانَ يَـا لِلَّهِ مُـدْمِيْهَـا
فَلَمْ يَخَفْ مَنْ أَخَافَ ٱلْمَوْتَ مَـوْتَتَهُ لٰكِنْ بِهَـا نَفْسُـــهُ أَمْسَـى يُمَـنِّيْـهَـا
وَقَــالَ فِيْ يَـوْمِـهِ مَـا كَــانَ قَــائِلَهُ فِيْ ٱلْأَمْسِ قَـالَ: أُحَيْبَابِيْ أُوَافِيْهَـا

=عنكما ، وقولا الحقَّ ، واعمـلا للأجـر ، وكـونـا للظالم خصمـاً ، وللمـظلوم عـونـاً ، أوصيكمـا وجميع ولـدي وأهلي ، ومن بلغه قـولي هذا ، بتقـوى الله ، ونظم أمـركم ، وصلاح ذات بينكم ، فإنّي سمعت جدَّكما ﷺ يقـول : إصلاح ذات البين أفضـل من عـامَّـة الصـلاة والصيـام ، الله الله في الأيتـام ، فـلا تغبـوا أفـواههم ، ولا يضيعــوا بحضـرتكم ، الله الله في جيرانكم ، فـإنَّهم وصيـة نبيّكم ، مـا زال يـوصي بهم ، حتى ظننـا أنَّه سيـورثهم ، الله الله في القرآن ، لا يسبقكم بـالعمـل بـه غيـركم ، الله الله في الصلاة ، فإنّها عمود دينكم ، الله الله في بيت ربكم ، لا تخلوه ما بقيتم ، فإنّـه ان ترك لم تناظروا ، الله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم ، في سبيل الله ، وعليكم بالتواصل والتباذل ، وإيّاكم والتدابر والتقاطع ، لا تتركـوا الأمر بـالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فيولّى عليكم أشراركم ، ثمَّ تدعون فلا يستجاب لكم » اهـ . قال هـذا سيدنـا أمير المؤمنين وسكت قليلاً مغمضاً عينيه تعباً ثمَّ فتحهما وقال : « يا بني عبد المطلب ، لألفينكم تخـوضون دمـاء المسلمين خوضـاً ، تقولـون قتـل أميـر المؤمنين ، قتـل أميـر المؤمنين ، ألا لا يقتلن بي إلاَّ قاتلي ، انظروا إذا أنـا متُّ من ضربتـه هذه ، فـاضربـوه ضربةً بضربةٍ ، لا تمثلوا بالرجل فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إيّـاكم والمثلة ولو بالكلب العقور) » اهـ ثم أغمض سيدنا على عينيه وخارت قواه وأخذ لسانـه يتلجلج بالأذكار والحمد ونفسه منشغلة بمناجاة ربّها ورسوله والملائكة حولها ترحّب بملقاها .

فَقَالَ جِنْدِبُ: آمِرْنَا نُطِعْكَ وَنَرْ   جُوْ أَنْ تَعِيْشَ لِقَوْمٍ أَنْتَ هَادِيْهَا

فَهَلْ لِأَمْرِكَ إِنْ حُمَّ الْقَضَا حَسَنٌ   وَهَلْ لَهُ الْبَيْعَةُ الْكُبْرَى نُؤَدِّيْهَا

فَقَالَ: ذٰلِكَ حَقُّ الْمُسْلِمِيْنَ فَإِنْ   رَأَوْهُ أَهْلاً لَهَا رَاحُوْا مُبَيْعِيْهَا

ثُمَّ أَجَالَ بِمَنْ حَوْلَيْهِ نَظْرَةَ تَوْ   دِيْعٍ بِعَيْنٍ أَلِيْمُ الْجُرْحِ مُطْفِيْهَا

وَشَافَهَ الْحَسَنَيْنِ الطَّاهِرَيْنِ بِمَا   فِيْ نَفْسِهِ مِنْ وَصَايَا رَاحَ تَالِيْهَا

فَقَالَ: أُوْصِيْكُمَا يَا صَاحِبَيَّ بِتَقْـ   ـوَى اللّٰهِ هِيَّ اسْمَعَاهَا مِنْ مُوَصِّيْهَا

وَإِنَّ دُنْيَاكُمَا لَا تَبْغِيَا وَلَئِنْ   بَغَتْكُمَا فَهْيَ لَا تَصْفُوْ لِبَاغِيْهَا

وَمَا زَوَتْ عَنْكُمَا مِنْ زَهْوِ زُخْرُفِهَا   عَلَيْهِ لَا تَأْسَفَا بَلْ وَازْهَدَا فِيْهَا

وَالْحَقُّ قُوْلَاهُ جَهْراً فَهْوَ حِلْفُكُمَا   عَلَى الْأَعَادِيْ الَّتِيْ تَبْغِي التَّرَارِيْهَا

أَلَا اعْمَلَا لِنَوَالِ الْأَجْرِ جُهْدَكُمَا   أَعْمَالَ بِرٍّ إِلٰهُ الْعَرْشِ يُجْزِيْهَا

وَنَاصِرَا كُلَّ مَظْلُوْمٍ شَكَا وَعَلَى الـ   ـظُّلَّامِ كُوْنَا وَكُوْنَا عَوْنَ شَاكِيْهَا

أُوْصِيْكُمَا وَجَمِيْعَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ الْأَنْجَابِ وَالْعِتْرَةِ الْمَسْعُوْدُ نَاشِيْهَا

وَمَنْ إِلَيْهِ انْتَهَى هٰذَا الْمَقَالُ بِتَقْـ   ـوَى اللّٰهِ إِنِّيْ بِمَا أُوْصِيْ أُثَنِّيْهَا

أُمُوْرُكُمْ نَظِّمُوْهَا فَالنِّظَامُ عَلَى   مَا تَشْتَهُوْنَ مِنَ الْآمَالِ يُمْشِيْهَا

وَأَصْلِحُوْا بِصَفَاءٍ ذَاتِ بَيْنِكُمُ   لَا شَيْءَ لِلنَّاسِ أَجْدَى مِنْ تَصَافِيْهَا

فَقَدْ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللّٰهِ جَدَّكُمَا   يَقُوْلُ قَوْلَةَ حَقٍّ لَسْتُ أَزْوِيْهَا

إِنَّ الصَّلَاحَ لِذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ   صَوْمٍ وَخَيْرِ صَلَاةٍ مِنْ مُصَلِّيْهَا

اللّٰهَ اللّٰهَ فِيْ الْأَيْتَامِ لَا تَدْعُوْ   هَا تَشْتَكِيْ وَارْهَبُوْا الْبَارِيْ مُشَكِّيْهَا

أَفْوَاهُهَا لَا تَغُبُّوْا فِيْ الطَّعَامِ وَلَا   تَضِيْعُ مَعْكُمْ فَمَا أَشْقَى مُضِيْعِيْهَا

اللّٰهَ اللّٰهَ فِيْ جِيْرَانِكُمْ فَلَهَا   حَقُّ الْوَلَا وَالصَّفَا كُوْنُوْا مُوَدِّيْهَا

مَا زَالَ يُوْصِي بِهَا ٱلْهَادِيْ نَبِيُّكُمُ ... حَتَّى ظَنَنَّاهُ حَقَّ ٱلْإِرْثِ يُوْلِيْهَا

ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِيْ ٱلْقُرْآنِ فَٱحْتَفِظُوْا ... بِآيِهِ وَٱفْقَهُوْا عَالِيْ فَحَاوِيْهَا

لَا تَتْرِكُوْا غَيْرَكُمْ يَا قَوْمِ يَسْبُقُكُمْ ... إِلَى ٱلتَّعَامُلِ فِيْ سَامِيْ مَبَادِيْهَا

ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِيْ خَيْرِ ٱلصَّلَاةِ فُرُوْ ... ضٌ مِنْذُ أَوَّلِهَا صَلُّوْا لِخَامِيْهَا

فَهِيَ ٱلْعَمُوْدُ ٱلَّذِيْ شِيْدَتْ حَنِيْفَتِكُمْ ... عَلَيْهِ حَتَّى سَكَنْتُمْ فِيْ مَبَانِيْهَا

ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِيْ بَيْتِ ٱلْإِلٰهِ فَأُمُّـ ... ـوْهُ حَجِيْجاً يَنَالُ ٱلْغَفْرَ سَاعِيْهَا

وَلَا تُخَلُّوْهُ مَا عِشْتُمْ فَتَرْكَتُهُ ... تُشَوِّهُ ٱلسُّمْعَةَ ٱلْوَضَّاءَ تَشْوِيْهَا

ٱللَّهَ ٱللَّهَ فِيْ حُسْنِ ٱلْجِهَادِ لِسُبْـ ... ـلِ ٱللَّهِ حَتَّى تُتَّقَى مِنْ خَوَاشِيْهَا

فَجَاهِدُوْا فِيْ سَبِيْلِ ٱللَّهِ خَيْرَ جِهَا ... دٍ بِٱلنُّفُوْسِ فَمَا أَسْمَى تَفَادِيْهَا

كَذَا بِأَلْسِنِكُمْ يَسْمُوْ ٱلْجِهَادُ وَبِٱلْأَ ... مْوَالِ يُنْفِقُهَا فِيْ ٱلْخَيْرِ قَانِيْهَا

وَوَاصِلُوْا بَعْضَكُمْ بَعْضاً مُوَاصَلَةً ... حَسْنَا ٱلْقُلُوْبُ بِهَا يَسْمُوْ تَصَافِيْهَا

وَأَكْثِرُوْا مِنْ هَدَايَاكُمْ فَإِنَّ ذَوِيْ ٱلْأَ ... رْحَامِ يُشْغِفُهَا وُدّاً مُهَادِيْهَا

وَحَاذِرُوْا جُهْدَكُمْ شَرَّ ٱلتَّدَابُرِ وَٱلْـ ... ـتَّقَاطُعِ ٱلْمُوْرِثُ ٱلْعُلْيَا تَدَاعِيْهَا

لَا تَتْرُكُوْا ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوْفِ فَهْوَ لَكُمْ ... شَرٌّ وَأَسْوَاؤُهُ تُخْشَى غَوَاشِيْهَا

بِـذَيْـنِ لَا يَتَـوَلَّاكُـمْ شِـرَارُكُـمُ ... وَنَكْبَةُ ٱلنَّاسِ تُدْهَى مِنْ تَوَلِّيْهَا

وَإِنْ تَهَاوَنْتُمْ عَنْهَا فَدَعْوَتُكُمْ ... لَا يُسْتَجَابُ وَلَا يُصْغَى لِدَاعِيْهَا

لَأُلْفِيَنَّكُمُ يَا آلَ مُطَّلَبٍ ... بَعْدِيْ وَقَدْ بَلَغَتْ رُوْحِيْ تَرَاقِيْهَا

سَتَسْفِكُوْنَ دِمَاءَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ لِأَخْـ ... ـذِ ٱلثَّأْرِ لِيْ سَفْكَةً مَا كُنْتُ رَاضِيْهَا

سَتَمْلَأُوْنَ ٱلْفَضَا ٱلْأَعْلَى بِصَيْحَتِكُمْ ... لِقَتْلَتِيْ صَيْحَةً قَدْ بُتَّ خَاشِيْهَا

فَلَيْسَ يُقْتَلُ إِلَّا قَاتِلِيْ نَصَفاً ... وَٱلنَّفْسُ بِٱلنَّفْسِ فِيْ أَحْكَامِ بَارِيْهَا

فَــإِنْ أَنَــا مُتُّ مِنْ تَــأْثِيْـرِ ضَــرْبَتِـهِ   خُصُّـوْا بِهِ ضَـرْبَـةً نَجْـلاَ تُحَـاكِيْهَـا

وَلاَ يُمَثَّـلُ قَـطْعَـاً بِـآبْنِ مُلْجَمَ إِ   نَّ آلْمِثْلَةَ آلْمُصْطَفَى قَدْ كَانَ نَاهِيْهَـا

وَكَـانَ صَلَّى عَلَيْـهِ آللَّهُ يَنْشُـرُ هَـا   تِيْـكَ آلْـوَصِيَّـةَ بِـآلآلاَمِ يُلْقِيْهَـا

وَلَمْ يَكَـدْ يَنْتَهِي مِنْهَـا وَزَفْـرَتُـهُ   يَـدْوِي بِـآذَانِ مَنْ حَـوْلَيْـهِ دَاوِيْهَـا

حَتَّى تَـلاَشَتْ قِـوَاهُ فَـوْقَ مَفْـرَشِـهِ   فَمَـا أَمَـرَّ عَلَى آلـدُّنْيَا تَـلاَشِيْهَـا

وَنَفْسُـهُ آنْصَـرَفَتْ لِـلَّهِ خَـالِقِـهَـا   وَآلْحَمْـدُ وَآلشُّكْرُ وَآلإِذْكَـارُ فِيْ فِيْهَا

كَـانَتْ تُنَـاجِيْ رَسُـوْلَ آللَّهِ شَيِّقَـةً   إِلَيْـهِ إِذْ كَـانَ عَنْ شَـوْقٍ يُنَـاجِيْهَـا

وَحَـوْلُهَـا مَعْشَـرُ آلأَمْـلاَكِ قَـائِمَـةً   مُـرَحِّبَـاتٌ بِهَـا تَهْـوَى تَـلاَقِيْهَـا

وفاة أمير المؤمنين ورثاؤه

فِيْ لَيْلَةِ آلأَحَـدِ آلْمَشْؤُوْمُ طَـالِعُهَـا   فِيْ سَـاعَةٍ لَيْتَ لَمْ تُخْلَقْ ثَـوَانِيْهَا[١]

حُمَّ آلْقَضَا وَنَعَى آلنَّاعِيْ آلْهُدَى وَمَضَى   لِلْجَنَّـةِ آلْمُـرْتَضَى بُشْـرَى لأَهْلِيْهَـا

وَسَـاوَرَ آلنَّاسَ حُـزْنٌ مَا بِـهِ شَعَرَتْ   إِلاَّ لِفَجْعَتِهَـا فِيْ مَـوْتِ هَـادِيْهَـا

(١) جرح سيدنـا علي عليه السلام في صباح يـوم الجمعة وظلَّ جريحـاً يعاني غصـات الموت إلى ليلة الأحد حيث راحت نفسه إلى خالقها راضيةً مرضيةً فانضمت إلى محبيها في جنان النعيم حيث الأبرار والصـالحون ولقيهـا المصطفى وفـاطمة بعـد طول الفـراق وأصبحت حول العرش الأسنى عرش الله تسبّح ذاته القدسية مع المسبحين وكانت فرحة في السماء لا يعادلهـا الجزع الـذي غمّ المسلمين عندمـا نعى النعاة لهم خيـر الخلائق أجمعين بعد سيد المرسلين عليهما الصلاة والسلام .

« ترجمـة سيدنا علي »

لقد مرَّت معنا ترجمة سيدنا علي عليه السلام في هذه العلوية المباركة إسهاباً فنذكـر هنا منها ما لم نرَ موضعاً لذكره من قبل فنقول :

إنّ نسبه الشريف هو نفس نسب المصطفى عليهما الصلاة والسلام وكلاهما فرعـا =

=دوحة واحدة في أعاليها ومولده ونشأته وأعماله الباهرة ذكرناها كلّها . وأمّا أزواجه فإنّه عليه السلام لم يتزوج على سيدتنا فاطمة الزهراء في حياتها ومرَّ معنا أنّها ولدت له سيدنا الحسن وسيدنا الحسين وسيدنا محسن وهذا لم يعش وولدت له أيضاً زينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى . وبعد وفاتها تزوج عليه السلام أمّ البنين بنت حرام الكلابية فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان وعاشوا وشبوا وقتلوا مع سيد الشهداء سيدنا الحسين عليه السلام في الطفّ بكربلاء ولم ينسلوا نسلاً إلاّ العباس فقد تزوج ليلى بنت مسعود بن خالد النهشلية التميمية فولدت له عبيد الله وأبا بكر قتلا مع سيدنا الحسين أيضاً وقيل ان عبيد الله بن العباس بن علي قتله المختار بالمذار وقيل لا بقية لهما . وتزوَّج عليه السلام أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له محمداً الأصغر ويحيى ولا عقب لهما وقيل أنَّ محمداً لأمّ ولد وقتل مع سيدنا الحسين . وتزوج عليه السلام الصهباء بنت ربيعة التغلبية وهي من السبي الذين أغار عليهم خالد بن الوليد بعين التمر وولدت له عمر بن علي ورقية بنت علي وعمَّر عمر هذا حتى بلغ خمساً وثمانين سنة فحاز نصف ميراث علي ومات بينبع . وتزوج عليه السلام أمامة بنت أبي العاص بن الربيع بن عبد العزَّى بن عبد شمس وأمّها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فولدت له محمداً الأوسط . وتزوج عليه السلام خولة بنت جعفر بن حنيفة فولدت له محمد الأكبر وهو المعروف بابن الحنفية وكان يحبّه كثيراً ويوم مصرعه أوصى به خصيصاً الحسنين عليهما السلام وأوصاه بطاعتهما قال الراوي « فنظر عليٌّ إلى محمد بن الحنفية (بعد أن أوصى الحسنين وصيته التي سبق لنا ذكرها) وقال : هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ قال : نعم قال : فإنّي أوصيك بمثله وأوصيك بتوقير أخويك العظيم حقّهما عليك وتزيين أمرهما ولا تقطع أمراً دونهما . ثمَّ أرسل نظره إلى الحسنين وقال : أوصيكما به فإنّه أخوكما وابن أبيكما وقد علمتما أنَّ أباكما كان يحبّه » اهـ . وتزوّج عليه السلام أمّ سعد ابنة عروة بن مسعود الثقفية فولدت أمَّ الحسن ورملة الكبرى وأمّ كلثوم . وكان له عليه السلام بنات من أمهات شتّى لم يذكرن لنا منهنَّ أمّ هانىء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأمّ كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأمّ الكرام وأمّ سلمة وأمّ جمانة ونفيسة كلهنَّ من أمهات أولاد . فجميع ولده أربعة عشر ذكراً وسبع عشر امرأةً وكان النسل منهم للحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس بن الكلابية وعمر بن التغلبية .
=

وَأَوْرَثَ ٱلْحُزْنَ أَبْنَاءَ ٱلزَّمَانِ مَدَى ٱلْأَجْيَـ ـالِ مَا أَنْ يُلَاشَى أَوْ يُلَاشِيْهَا
لِمِثْلِهِ خُلِقَ ٱلدَّمْعُ ٱلسَّجِيْنُ بِأَعْـ ـيُنِ ٱلْوَرَى فَهْوَ هَامٍ مِنْ مَآقِيْهَا
تَبْكِيْ عَلَى أُمَّةٍ قَدْ ضَاعَ مُرْشِدُهَا وَدَوْلَةٍ عَنْ حِمَاهَا غَابَ حَامِيْهَا
وَمِلَّةٍ فَقِدَتْ فَقْدَاً مُهَذِّبَهَا وَعِتْرَةٍ خَسِرَتْ خُسْرَاً مُوَاسِيْهَا
مَنْ لِلْحَنِيْفَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْوَصِيِّ يَفِيْـ ـهَا حَقَّهَا حَسْبَمَا قَدْ شَاءَ مُوْحِيْهَا
مَنْ لِلشَّرِيْعَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْفَقِيْهِ إِذَا ٱسْـ ـتَفْتَتْهُ أُمَّتُهَا بِٱلْهُدْيِ يُفْتِيْهَا
مَنْ لِلْخِلَافَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْخَلِيْفَةِ يَرْ عَى عَهْدَ مُسْلِمِهَا عَدْلاً وَذُمِّيْهَا

= أمّا صورته عليه‌السلام كما وصفه الذين أسعدهم الحظ فتشرفوا برؤيته ومعاشرته فهي أنّه كان ربعة القوام ، أدعج العينين ، كأنَّ وجهه القمر ليلة البدر حسناً ، ضخم البطن ، عريض المسربة ، شثن الكفين ، ضخم الكسور ، كأنَّ عنقه إبريق فضة ، أصلع الرأس من خلفه شعر خفيف ، لمنكبه مشاش كمشاش الأسد ، إذا مشى تكفأ وماد به جسده ، ولظهره سنام كسنام الثور لا يبين عضده من ساعده قد أدمجتا إدماجاً ، لم يمسك بذراع رجل قط إلّا أمسك بنفسه فلم يستطع أن يتنفس ، ولونه أبيض يميل إلى شيء من السمرة ، وهو أقنى الأنف ، إذا مشى للحرب هرول ، وكانت عيناه السوداوان تتدفقان ذكاءً فإذا سدَّدهما بالناس أدخلتا على قلوبهم الرهبة ، وكان آيةً من آيات الذكاء إذا حدَّث تدفق كالبحر الذاخر ، وفصيح اللسان إذا خطب خلب الألباب ، وجاءَ بفصل الخطاب ، وكان عظيم اللحية ، كثير شعر الصدر ، وكان شعره أسود ذا لمعان ، ثمَّ أزانه المشيب ، وكان مجلس عليٍّ مهيباً على بساطته ، فتراه عليه‌السلام يتربع على وسادته الخشنة ، في أطماره المرقعة ، فإذا الهيبة والجلال يغشيانه ، وزهده بزخارف الدنيا يزيده رفعةً وجلالاً . هذا ما نجمله من صورته السنية وسنأتي على صفاته وعلومه وفضائله بإسهاب فيما يجيء إن شاء الله تعالى .

أمّا مدّة خلافته عليه‌السلام فقد رأينا أنّه بويع بالخلافة يوم مقتل عثمان في المدينة المنوَّرة وكان مقتله عليه‌السلام في الكوفة يوم ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة وله من العمر ٦٤ سنة .

مَنْ لِلْعَدَالَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْأَمِيْنِ يُسَا وِيْ ٱلنَّاسَ فِيْ ٱلشَّرْعِ سُفْلِيْهَا وَعُلْوِيْهَا

مَنْ لِلْمَعَامِعِ مِنْ بَعْدِ ٱلْكَمِيِّ إِذَا مَا دَوْلَةُ ٱلدِّيْنِ فَاجَتْهَا أَعَادِيْهَا

مَنْ لِلْحَوَادِثِ مِنْ بَعْدِ ٱلْخَبِيْرِ بِهَا وَإِنَّهَا بِضَمِيْرِ ٱلدَّهْرِ يَحْكِيْهَا

مَنْ لِلْخِطَابَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْخَطِيْبِ إِذَا رَامَ ٱلتُّقَاةُ ٱهْتِدَاءً مِنْ مُفَاهِيْهَا

مَنْ لِلْبَلَاغَةِ مِنْ بَعْدِ ٱلْبَلِيْغِ وَآ يَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ قَدْ وَلَّى مُوَشِّيْهَا

مَنْ لِلْمَوَاهِبِ مِنْ بَعْدِ ٱلْجَوَادِ إِذَا وَافَتْ عَوَافِيْهِ لِلْإِحْسَانِ يُغْنِيْهَا

فِيْ ذِمَّةِ ٱللَّهِ صِهْرَ ٱلْمُصْطَفَى وَأَخَا هُ إِنَّهُ نَازِلُ ٱلْجَنَّاتِ آوِيْهَا

وَٱلْمُصْطَفَى يَتَلَقَّاهُ بِفَرْحَةِ مُشْـ ـتَاقٍ لِطَلْعَتِهِ ٱلزَّهْرَا يُحَيِّيْهَا

بِهِ يَسِيْرُ لِتَسْبِيْحِ ٱلْمُهَيْمِنِ وَٱلْأَ مْلَاكُ حَوْلَهُمَا تَشْدُوْ أَغَانِيْهَا

وَفِيْ ٱلسَّمَاءِ نُفُوْسُ ٱلصَّالِحِيْنَ تُلَا قِيْ ٱلْمُرْتَضَى وَبِهِ عَمَّتْ تَهَانِيْهَا

بَيْنَا ٱلْبَرِيَّةُ تَبْكِيْهِ وَقَدْ فَقَدَتْ بَعْدَ ٱلرَّسُوْلِ بِهِ أَسْمَى ذَرَارِيْهَا

إِذَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلْأَبْرَارُ مُبْشِرَةٌ وَقَدْ أَتَاهَا وَأَثْوَى فِيْ عَلَالِيْهَا

فِدَى ٱلْأَمِيْرِ نُفُوْسُ ٱلنَّاسِ أَجْمَعُهَا وَنَفْسُهُ مَا نُفُوْسُ ٱلنَّاسِ تَجْزِيْهَا

نَفْسٌ مُطَهَّرَةٌ قَدْ نُوِّرَتْ بِسَنَا ٱلْـ ـقُرْآنِ وَٱللَّهُ بِٱلْإِلْهَامِ مُسْنِيْهَا

تَرَفَّعَتْ عَنْ دَنَايَا ٱلْأَرْضِ جُمْلَتِهَا وَلِلْمَلَائِكِ حَاكَتْ فِيْ تَعَالِيْهَا

لِذَاكَ قَدْ أَكْثَرَ ٱلنَّاسُ ٱلْعَدَاءَ لَهَا إِذْ لَمْ تَكُنْ بِسَجَايَاهَا تُحَاكِيْهَا

وَأَتْعَبَتْهَا ٱللَّيَالِيْ وَهْيَ ظَالِمَةٌ وَلَحم تَزَلْ بِمَسَاوِيْهَا تُنَاجِيْهَا

فَلَمْ تَجِدْ دُوْنَهَا إِلَّا مُقَارِعَهَا وَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهَا إِلَّا دَوَاهِيْهَا

وَافَجْعَةَ ٱلدِّيْنِ مِنْ بَعْدِ ٱلْوَصِيِّ وَأَهْـ ـلُوْهُ تُثَوِّهُ طُوْلَ ٱلدَّهْرِ تَأْوِيْهَا

وَإِنَّهُمْ مَعَهُ وَٱللَّهِ قَدْ فَقَدُوْا رُوْحَ ٱلشَّرِيْعَةِ فَٱعْتَاصَتْ مَعَانِيْهَا

وبَعْدَهُ ذَكَرُوْا شَجْواً مَقَالَتَهُ وَكَانَ بَعْضُهُمُ يَبْغِي تَنَاسِيْهَا

يَقُوْلُ: هَيَّ آسْأَلُوْنِي فِيْ شَرِيْعَتِكُمْ مِنْ قَبْلُ أَنْ تَفْقِدُوْنِيْ يَا أَهَالِيْهَا

بَلى فَقَدْ مَاتَ مُفْتِيْ آلشَّرْعِ وَآنْطَفَأَ آلـ ـنُّوْرُ آلَّذِيْ يَكْشِفُ آلْإِضْلَالَ وَآلتِّيْهَا

وَمَاتَ مَنْ عُمَرُ فِيْهِ شَهَادَتُهُ قَدْ أَصْبَحَتْ مَثَلاً يَتْلُوْهُ رَاوِيْهَا

لَوْلَا آلْعَلِيُّ لَلَاقَى هُلْكَهُ عُمَرُ وَبَاتَ فِيْ آلنَّارِ تَشْوِيْهِ لَوَاظِيْهَا

وَكَانَ يَسْعَى إِلَى دَارِ آلْوَصِيِّ لِيَسْـ ـتَفْتِيْ آلْفَتَاوَى وَمَا إِلَّاهُ فَاتِيْهَا

أَجَلْ وَقَدْ فَقِدَ آلْإِسْلَامُ مُنْفَجِعاً إِسَّ آلْخِلَافَةِ فَآنْهَارَتْ مَبَانِيْهَا

وَأَصْبَحَتْ بَعْدَهُ تَاَللَّهِ دَوْلَتُهُ مُلْكاً عَضُوْضاً يُجَافَى مِنْ مُحِبِّيْهَا

وَمَا حُرُوْبُ عَلِيٍّ مَعْ مَتَاعِبِهِ إِلَّا لِتَبْقَى عَلَى تَنْسِيْقِ مُنْشِيْهَا

إِنَّ آلْخِلَافَةَ تَبْكِيْ يَا عِبَادُ بِهِ مُصِيْنَهَا بِتُقَاهُ مِنْ مُهَدِّيْهَا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْوِ طَهَ فِيْ قِدَاسَتِهِ خَلَا آلنُّبُوَّةِ تَبْكِيْهِ وَتَبْكِيْهَا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْوِ طَهَ فِيْ نَبَاهَتِهِ خَلَا آلنُّبُوَّةِ تَنْعِيْهِ وَتَنْعِيْهَا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْوِ طَهَ فِيْ وَجَاهَتِهِ خَلَا آلنُّبُوَّةِ بَزَّ آلنَّاسَ تَوْجِيْهَا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْوِ طَهَ فِيْ فَقَاهَتِهِ خَلَا آلنُّبُوَّةِ فَاقَ آلنَّاسَ تَفْقِيْهَا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْوِ طَهَ فِيْ زَكَانَتِهِ خَلَا آلنُّبُوَّةِ مَا خَابَتْ مَرَامِيْهَا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْوِ طَهَ فِيْ نَجَادَتِهِ خَلَا آلنُّبُوَّةِ تَرْثِيْهِ وَتَرْثِيْهَا

تَبْكِيْ عَلَى صِنْوِ طَهَ فِيْ سَخَاوَتِهِ خَلَا آلنُّبُوَّةِ مَا أَهْمَى هَوَامِيْهَا

تَبْكِيْ وَسَوْفَ تَظَلُّ آلدَّهْرَ بَاكِيَةً حَتَّى تَعُوْدَ بِآتِيْهَا لِمَاضِيْهَا

هِيَ آلْخِلَافَةُ حَقُّ آلْعُرْبِ دُوْنَ سِوَا هَا لَا يَقُوْمُ بِهَا إِلَّا قُرَيْشِيْهَا

مِنْ آلِ أَحْمَدَ مِنْ بَيْتِ آلنُّبُوَّةِ مِنْ صُلْبِ آلْعَلِيِّ بِهِ تُلْفِيْ تَمَنِّيْهَا

وَٱلْمُرْتَضَى عَاشَ مَشْقِيَّاً لِعِزَّتِهَا   وَكَانَ يَا لِلأَسَى أَغْلَى أَضَاحِيْهَا

إِيْهِ ٱبْنَ مُلْجَمَ يَا شَرَّ ٱلْخَلِيْقَةِ قَدْ   وُجِدْتَ فِي هَاتِهِ ٱلدُّنْيَا لِتُؤْذِيْهَا

يَا لَيْتَ أُمَّكَ لَا كَانَتْ وَلَا وَلَدَتْ   أَفْعَى تَفُحُّ سُمُوْمَاً فِيْ تَحَوِّيْهَا

عَلَيْكَ لَعْنَةُ رَبِّيْ مَعْ مَلَائِكِهِ   مَعَ ٱلْبَرِيَّةِ فَانِيْهَا وَنَاشِيْهَا

فَجَعْتَ أُمَّةَ طَهَ بِٱلْوَصِيِّ فَلَا   تَنْفَكُّ لِلْحَشْرِ حَيْرَى فِيْ تَعَازِيْهَا

فَنَلْ جَزَاءَكَ نَارَاً لَا ٱنْطِفَاءَ لَهَا   وَسَبَّةَ ٱلْأَبَدِ ٱلْمَلْعُوْنُ قَانِيْهَا

غسل أمير المؤمنين ودفنه

مَا ٱسْتَأْثَرَتْ رَحْمَةُ ٱلْبَارِيْ بِحَيْدَرَةٍ   وَغُبْطَةُ ٱلْخُلْدِ قَدْ أَمْسَى مُوَافِيْهَا[1]

حَتَّى ٱنْبَرَى حَسَنٌ حَالاً لِغَسْلَتِهِ   بِنَفْسِهِ وَأَلِيْمُ ٱلْخَطْبِ مُشْجِيْهَا

وَكَانَ مَعْهُ حُسَيْنٌ وَٱلْمُحَمَّدُ وَٱلْـ   ـشَّهْمُ ٱبْنُ عَبَّاسَ كَانُوْا عَوْنَهُ فِيْهَا

---

(١) توفي سيدنا علي عليه السلام ليلة الأحد ١٩ رمضان سنة ٤٠ للهجرة وقام بالغسل سيدنا الحسن وسيدنا الحسين ومحمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وكفنوه في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ثمَّ خرجوا به ليلاً من منزله حتى مروا به على منزل الأشعث بن قيس ثمَّ خرجوا به إلى الظهر بجنب الغري حيث واروه الثرى وهو القبر الذي أصبح بعد البيت العتيق في مكة المكرمة والروضة النبوية في المدينة المنوَّرة مقصد الناس يزورونه ويتبركون به فينالهم ثواب الآخرة وسعادة الدنيا .

« تاريـخ الكوفـة »

الكوفة بالضم هو المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق ويسميها قوم خدّ العذراء وسميت الكوفة لاستدارتها أخذاً من قول العرب الرميلة المستديرة كوفاناً بضم الكاف وفتحها . وقيل غير ذلك وقيل سميت الكوفة لاجتماع الناس بها من قولهم قد تكوَّف الرمل إذا اجتمع بعضه لبعض . وهذا البلد يقع في طول درجة ٦٩ ونصف وعرض ٣١ وثلثين . وكان تمصر الكوفة مع البصرة سنة ١٧ للهجرة على عهد عمر وذلك أنَّ سعداً بن أبي وقاص لما فرغ من وقعة رستم بالقادسية وضمَّن أرباب القرى ما =

وَكَفَّنُوْهُ بِأَكْفَانٍ مُثَلَّثَةٍ وَبِالدُّمُوْعِ الَّتِي تَهْمِي هَوَامِيْهَا

= عليهم ونظم شؤون فتحه توجّه نحو مدائن كسرى إلى يزدجر فقدم لحربه هناك خالد بن عرفطة حليف بني زهرة من كلاب فلم يقدر عليه حتى فتح خالد بن الوليد ساباط ثمَّ توجه إلى المدائن فلم يجد معابر فدلّوه على مخاضة عند قرية الصياد من أسفل المدائن فعبر منها بخيله وهرب يزدجر إلى اصطخر فأخذ خالد كربلاء عنوةً وسبى أهلها فقسمها سعد بين أصحابه ونزل كل قوم في الناحيةِ التي خرج سهمهم فيها فسكنوها . وكتب سعد بما كان إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر أن حوّل الناس فحوَّلهم إلى سوق حَكَمَة ويقال إلى كويفة ابن عمرون وما في ذاك الجوار فتقمقموا فكتب إليه أنّ العرب لا يصلحها من البلدان إلاَّ ما أصلح الشاة والبعير فلا تجعل بيني وبينهم بحراً وعليك بالريف فلما بلغ سعد كتاب عمر سأل من حوله عن الريف فقال له ابن بقيلة اني لأدلك على أرض انحدرت عن الفلاة وفيها خصب كثير هي سورستان فسار إليها سعد وحسنت في عينه فضرب فيها خيام جنده وهي الكوفة المعروفة إلى اليوم وباشر بناء دار له فيها فكانت أول دورها وعرفت بدار سعد وكتب بذلك إلى عمر فأجابه أن اختط فيها مسجداً يسع مقاتلتكم فاختط مسجدها وكان يسع أربعين ألف رجل بجوار داره التي أتينا على ذكرها . وكان في ظاهر الكوفة منازل النعمان بن المنذر والحيرة والنجف والخورنق والسدير والقرَّبان وما هنالك من المنتزهات والديرة الكبيرة .

وأصبحت الكوفة على عهد سيدنا علي عليه السلام حاضرة الخلافة الإسلامية استقرَّ فيها بعد تغلبه على أصحاب الجمل في البصرة فازداد بذلك عمرانها ونموها وكان في ظاهرها عينان يقال لإحداهما الربض وللأخرى النجف تسقيان عشرين ألف نخلة وكان هنالك مسنَّاة تمنع سيل الماء أن يعلو الكوفة ومقابرها وكانت هنالك الحدائق والبساتين وصفها إبراهيم الموصلي في قصيدة له قال :

ما أن أرى الناس في سهلٍ ولا جبلٍ أصفى هواءً ولا أغدى من النجفِ
كأنَّ تربته مسك يفوح به أو عنبر دافه العطار في صدفِ
حُفت ببرّ وبحرٍ من جوانبها فالبرُّ في طرفٍ والبحر في طرفِ
وبين ذاك بساتين يسبح بها نهر يحيش مجاري سيله القصفِ
وما يزال نسيم من أيامنه يأتيك منه بريًّى روضةٍ ألفِ
تلقاك منه قبيل الصبح رائحة تشفي السقيم إذا أشفى على التلفِ =

وَفِيْ دُجَى ٱللَّيْـلِ قَدْ سَـارُوْا بِجُثَّتِهِ   وَنُــوْرُ خَـالِقِهَـا ٱلأَسْنَى مُغَشِّيْهَـا

= لـو حلَّه مـدنف يـرجـو الشفـاء بـه   إذاً شفـاه من الأسقـام والـدنفِ

« الروضـــة العلويـــة »

لم يشـأ سيـدنـا الحسن وأخـواه سيـدنـا الحسين ومحمـد بن الحنفيـة وابن عمّـه عبد الله بن العباس أن يدفنوا سيـدنا علي عليه السلام في مقـابر الكـوفة وأقـرُّوا على أن يكون دفنه في موضع لا يهتدي إليـه إلاّ خاصـة أولاده وأحبابـه مخافـة أن ينال رفـاته الشـريفة شيء من أذى أعدائه الكثيـرين سواءً بني أميـة الذين كـان أمرهم قـد استفحل بمقتله أو الخوارج في العراق فدفنوه في ظلمة الليل في الظهر بجانب الغري وعـادوا إلى الكوفـة وقـد انبثق نور الفجـر . قالـوا وزيادة في الاحتيـاط حفروا حفـائر عـديـدة إحـداهـا في المسجد الكوفيّ وأخرى برحبة قصر الأمارة وثالثـة في حجرة من دور آل جعـدة بن هبيرة المخزومي ورابعة في أصل دار عبد الله بن يزيد القسري بحذاء بـاب الوراقين ممـا يلي قبلة المسجد وخامسة في الكناسة والسادسة في الثويَّة . فأصبح الناس صباح الأحد ١٩ رمضان ووجدوا هذه الحفر قد سوِّيت ثانيةً وما وقفوا على حقيقـة موضـع القبر الشـريف واختلفت رواياتهم في ذلك اختلافاً شديداً ومـا فيهم من يعرف الحقيقـة إلاّ الذين تـولوا دفنـه حتى ادَّعى قوم أنَّ جمـاعـةً من طيء وقعـوا على جمـل في تلك الليلة وقـد أضلّه أصحابه ببلادهم وعليه صندوق فظنوا فيه مالاً فلما رأوا ما فيه (كـذا ولعلهم أرادوا أنّهم رأوا في ذلك الصندوق الجسد الشريف) خافوا أن يـطلبوا بـه فدفنـوا الصندوق بمـا فيه ونحروا البعير وأكلوه وشاعت هذه الخرافة في بني أميـة وشيعتهم واعتقدوه حقّـاً وصدقـاً فقال الوليد بن عقبة من أبيات يذكره عليه السلام فيها :

فـإن يـكُ قــد ضـلَّ البعيــر بحمله   فمـا كـان مهـديـاً ولا كـان هـاديـا

ونقول نحن أنّ أبناء النـاس أعرف بقبـور موتـاهم لأنّهم هم الذين وسـدوهم فيها فبالأولى أن يكون أولاد سيـدنا علي أدرى النـاس بقبر أبيهم العـظيم وأعرف وهـذا القبر الذي بالغري هو الذي كان بنو سيدنا علي عليه السلام يزورونه قديماً وحديثاً ويقولون هذا قبـر أبينـا لا يشـكُّ أحـد في ذلـك لا من الشيعـة ولا من غيـرهم . وقــد روى أبـو الفــرج عبـد الرحمن بن علي بن الجـوزي في تـاريخـه المعـروف بـالمنـتظم وفـاة أبي الغنـائم محمـد بن علي بن ميمون الـرسي المقرّي قـال : توفي أبـو الغنائم هـذا في سنة عشـر=

=وخمسماية وكان محدّثاً من أهل الكوفة ثقةً حافظاً وكان من قوَّام الليل من أهل السنة وأصحاب الحديث وغيره . وكان يقول : مات بالكوفة ثلثماية صحابي ليس قبر أحد منهم معروفاً إلَّا قبر أمير المؤمنين سيدنا علي وهو هذا القبر الذي يزوره الناس الآن جاءَ جعفر بن محمد عليه السلام وأبوه محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام فزاراه ولم يكن إذ ذاك قبراً معروفاً ظاهراً وإنّما كان به معالم وآثار حتى جاءَ محمد بن زيد الداعي صاحب الديلم فأظهر القبة .

وقد ذكر الخطيب أبو بكر في تاريخه أنَّ قوماً يقولون أنَّ هذا القبر الذي يزوره المسلمون إلى جانب الغري هو قبر المغيرة بن شعبة وقد غلطوا غلطاً بيناً في قولهم هذا فإنَّ قبر المغيرة وقبر زياد ابنه بالثويَّة من أرض الكوفة ونحن نعرفهما وننقل ذلك عن آبائنا وأجدادنا ويثبته قول أبي تمام :

صلى الإلّه على قبرٍ وطهره — عند الثويَّة يُسقى فوقه المورُ
زفت إليه قريش نعش سيدها — فالحلم والجود فيه اليوم مقبورُ
أبا المغيْرة والدنيا مفجعة — وانَّ من غرَّت الدنيا لمغرورُ
قد كان عندك للمعروف معرفة — وكان عندك للمنكور تنكيرُ
وكنتَ تغني وتعطي المال من سعةٍ — فاليوم قبرك أضحى وهو مهجورُ
والناس بعدك قد خفّت حلومهم — كأنما نفخت فيها الأعاصيرُ

وقال قطب الدين نقيب الطالبيين أبو عبد الله الحسين بن الأقسامي نحن نعرف مقابر ثقيف إلى الثويّة وهي إلى اليوم معروفة وقبر المغيرة فيها إلَّا أنّها لا تعرف قد ابتلعها السبخ وزبد الأرض وفورانها فطمست واختلط بعضها ببعض . وجاء في كتاب الأغاني في ترجمة المغيرة « أنّه مدفون في مقابر ثقيف » وأمثال هذا كثير وكلّه مثبت بأنَّ سيدنا علي عليه السلام قد دفن في الغري في الموضع الذي فيه روضته الشريفة اليوم . وقد ظلَّ هذا القبر الشريف مخفياً عن الناس لا يعرف به غير آل البيت العلوي الطاهرين كل مدَّة حكم بني أميّة وأوائل حكم العباسيين حيث كانت المنافسة بين العباسيين والطالبيين على الخلافة شديدة مخافة أن يسيءَ مسيء فاجر إلى تلك التربة المقدسة حتى سنحت الفرصة لشيعته عليه السلام فأقبلت بجملتها على تلك الروضة الشريفة فأقامت لها القبب وبنت بجوارها المسجد ثمَّ ابتنت حواليها دور الأتقياء الراغبين بجيرته وطلبة العلم الذين =

فِيْ مَوْضِعِ ٱلنَّجَفِ ٱلْمُبْنَى لِمَنْعِ سُيُوْ   لِ ٱلْمَاءِ عَنْ كُوْفَةٍ مَا فَاضَ جَارِيْهَا

هُنَاكَ كَبَّرَ خَمْسَاً خَاشِعَاً حَسَنٌ   عَلَى ٱلْهُدَى وَهْيَ تَدْنُوْ مِنْ تَوَارِيْهَا

وَبَعْدَ ذَا وُلْدُهُ ٱلنُّجْبُ ٱلْكِرَامُ عَلَى ٱلْـ   ـرُّفَاتِ سَوَّتْ وَمَا أَشْجَى تَسَوِّيْهَا

نَفْسِيْ فِدَى تُرْبَةٍ قَدْ غَيَّبَتْ وَطَوَتْ   خَيْرَ ٱلْوَرَى وَلَهُ أَبْدَتْ تَحَنِّيْهَا

وَأَدْمُعُ ٱلْأَعْيُنِ ٱلشَّكْرَى تَفِيْضُ سِحَا   بَاتٍ عَلَيْهَا فَتَسْقِيْهَا وَتَرْوِيْهَا

تُرَى فَهَلْ عَرَفَتْ تِلْكَ ٱلْحَفِيْرَةُ أَ   نَّ ٱلشَّمْسَ فِيْهَا ٱسْتَقَرَّتْ وَهْيَ تُخْفِيْهَا

وَإِنَّهَا أَصْبَحَتْ أَرْضَاً مُقَدَّسَةً   بِٱلْمُرْتَضَى كُلُّ ذِيْ تَقْوَى لَيَأْتِيْهَا

وَإِنَّهَا سَتَظَلُّ ٱلدَّهْرَ مَظْهَرَ دِيْـ   ـنِ ٱللَّهِ إِذْ يَتَلَالَا مِنْ مَغَانِيْهَا

كَذَا ٱلْبِلَادُ كَأَهْلِيْهَا فَتُسْعِدُهَا ٱلْأَقْدَارُ عَفْوَاً بِلَا سَعْيٍ وَتُشْقِيْهَا

= يتوسمون أن يفتح الله على عقولهم بمدد روحانيته وبركات جواره وهكذا أصبحت النجف بهؤلاء بلداً كبيراً تحوَّل إليها الناس من الكوفة وغيرها من أمصار العراق وإيران وأصبحت اليوم تلك البقعة الشريفة وفيها من طلبة العلم وحدهم نيف وثلاثون ألفاً عدا المجاورين الذين تركوا ديارهم وأقبلوا على العتبة الحيدرية المقدسة رغبة المجاورة عن حبّ صادق وعدا الزوّار الكثيرين الذين يأتون هذه العتبات المباركة زرافاتٍ ووحداناً من جهات العراق وإيران والهند وغيرها من أمصار المسلمين .

أمّا وصف العتبات الشريفة والمسجد الحيدري الذي بجانبها ومآذنها وقببها المكسوَّة بالذهب الوهاج حتى إذا ما أشرقت عليها الشمس انعكست أشعتها فرآها الناس من مسافة ساعتين وثلاثة وما في المسجد والروضة من التحف الثمينة والثريات الغالية الثمن والجواهر النادرة والسجاجيد الوفيرة القيمة فمما يعجز القلم عن وصفه ومما يشير إلى المكانة القدسية العلية التي له عليه السلام في قلوب المسلمين بل وكل العالمين أفاض الله علينا بركاته وكراماته مع صنوه سيد المرسلين .

الاقتصاص من الملعون ابن ملجم

وَعَـادَتِ ٱلْوُلْـدُ مِنْ دَفْنِ ٱلْإِمَامِ إِلَى رِحَابِ مَسْجِدِهَا وَٱلْحُزْنُ غَاشِيْهَا[1]
هُنَـاكَ صَلَّتْ صَلَاةَ ٱلْفَجْـرِ خَاشِعَـةً يَؤُمُّهَـا ٱلْحَسَنُ ٱلْمَبْـرُوْرُ حَـامِيْهَـا

---

(١) بعد أن عاد أولاد سيدنا علي وخاصته من دفنه عليه السلام وقد انبثق الفجر صلّى سيدنا الحسن بالناس ثم طلب الملعون ابن ملجم فجيء به وهو يرسف بقيوده وأغلاله ولعنة الله مغشية وجهه القبيح ففاجأه سيدنا الحسن عليه السلام بقوله قتلت الإمام قتلك الله فأجابه بكل قحة وفجور لقد بلغت نفسي مناها ولكن أخبرك بأحسن أنّي اتفقت وصاحبين لي على قتل معاوية وعمرو بن العاص مع أبيك بجوار الكعبة وأقسمنا على ذلك وأخاف أن يفشل صاحبيَّ بمهمتهما فأمهلني ريثما تتبين نبأهما وما كان من أمرهما فإذا فشلا أسير بنفسي فأقتل معاوية فعمرو بن العاص ثمَّ أعود إليك لتجري عليَّ القصاص فقال الحسن : لا والله لا تزينَّ الماء حتى تثوي في جهنم وبئس المصير قال هذا وشهر سيفه وضربه به ضربةً واحدةً جندله بها قتيلاً وأرسلت أم هيثم فاستوهبت جثته وأحرقتها فذرّتها الريح وهكذا انتهت حياة هذا الشقي الملعون .

أمّا قطام فلم يذكر لنا المؤرخون شيئاً عمّا كان من أمرها بعد قتل الإمام عليه السلام والظاهر أنّ سيدنا الحسن لم يهتمّ بأمرها لأنّه عليه السلام كان يعلم أنَّ أهل النهروان بعد أن نكّل بهم أمير المؤمنين كانوا كلهم موتورين فلا عجب إذا شمتوا بقتله أو عملوا له إذ كانوا ولا يزالون ظالمين .

ويخلق بنا هنا أن نذكر شيئاً عن آل البيت الطاهر عليهم وعلى المصطفى الصلاة والسلام تتميماً لتأريخ حوادث صدر الإسلام التي كان تأثيرها على مستقبل البلاد الإسلامية عظيماً فنقول :

« كلمة في الحسنين »

هما فرعا الدوحة النبوية المثمران ونجما سماء الرسالة المحمدية المضيئان وخير من أنجبت الآباء والأمهات في بني الإنسان هما سبطا رسول الله عليه وعليهما وعلى أبويهما الصلاة والسلام .

ولد سيدنا الحسن في العام الثالث للهجرة وولد سيدنا الحسين في العام الرابع =

ثُمَّ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْكُوْفِيّ ِ جِيءَ بِشَـــرِّ ٱلنَّاسِ أَرْذَلِهَا طُرَّاً وَطَاغِيْهَا

= للهجرة وأمّهما سيدتنا فاطمة الزهراء وأبوهما علي بن أبي طالب وجدّهما محمد الهادي الأمين رسول الله ونزلت في هذه العترة المقدسة آية ﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس آل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ وعندما نزلت هذه الآية على النبي الأمّي ضمّ إليه علياً وفاطمة والحسن والحسين وطرح عليهم كساءً وقال : « اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي فأذهب الرجس عنهم » وما بعد هذا القول شكٌّ بانتماء الحسنين وأنسالهما إلى رسول الله انتماءً صحيحاً صريحاً لا ينكره إلّا المنافقون .

وقد أزاد الحسنين التصاقاً برسول الله وفاة ولديه القاسم وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام حينئذٍ لم يبق لحفظ النسب الشريف إلّا هذان النيران المضيئان فهما وأنسالهما بركة للعالمين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو الحسنين ولديه وكانِ يحبهما كثيراً وطالما احتملهما على عاتقه الشريف وهما غلامان وما في الصحابة من لم يشهد عنايته بهما ولم يسمع تسميته لهما « زهرة شباب أهل الجنة » وكان يربأ المرتضى عليه السلام أن يزجهما في معامع الحرب حرصاً على حياتهما الثمينة التي إذا أصيبت بمكروه انقطع نسل رسول الله ومرَّةً في موقعة صفين رأى سيدنا أمير المؤمنين ابنه الحسن يتسرع في القتال فصاح بمن حوليه : « أملكوا عني هذا الغلام لا يهدُّني ، فإنني أنفس بهذين (ويريد الحسن والحسين) على الموت ، لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله ، صلّى الله عليه وآله » اهـ . وقيل يوماً لمحمد بن الحنفية لما يغرّر بك أبوك في الحروب ولم يغرّر بالحسنين ؟ فقال : لأنّهما عيناه وأنا يمينه فهو يذبُّ عن عينيه بيمينه . وهو تشبيه لا أبدع منه ولا أعجب حسبنا صدوره عن ابن أبي الحسن عليه السلام وحاول أعداء سيدنا علي وأولاده في جملة ما حاولوه من الحطّ من أقدارهم العالية في نفوس الناس فأنكروا أنّهم عترة رسول الله وأنّ الحسنين ولداه لقوله تعالى : ﴿ **ما كان محمداً أبا أحدٍ من رجالكم** ﴾ واستشهاد هؤلاء الأعداء بهذه الآية الشريفة من قبيل المغالطة والتضليل لأنّها نزلت في زيد وكان هذا عبداً لرسول الله وجرت عادة العرب أن ينسبوا العبيد لمواليهم فيقولون فلان ابن فلان ويريدون عبده فلما حدثت حادثة امرأة زيد وتزوج رسول الله بها بعد طلاقها بأمر من السماء طفق المنافقون يلغطون بأنَّ رسول الله تزوج مطلقة ابنه فنزلت هاتيك الآية الشريفة مبينةً أنّ رسول الله بصفته النبوية الخاصة ليس أباً لأحد من =

=المسلمين حتىٰ ولا عبيده بل هـو رسول الله إليهم جميعـاً . ولكن من أفن الرأي وفسـاد البصيرة أن تتخذ هذه الآية لنفي الأبوّة الطبيعية عن المصطفى فـلا يقال أنّـه أبو القـاسم وأنّه أبو إبراهيم فإنّه ﷺ أبوهما الطبيعي وكذلك يقال أيضاً أبو الحسن وأبو الحسين .

أمّا قول هؤلاء الأعداء بأنّ أولاد البنات لا ينتسبون إلى آباء أمهاتهم فهـذا صحيح في الاصطلاح وغير صحيح في الطبيعة البشرية فمن الوجهـة الطبيعيـة نعرف أنّ الجنين يتكون من نطفة أبيه ودم أمه بالاشتراك بإذن الله تعالى وخلقه فـأبواه همـا اللذان أعطيـاه من دمهما ولحمهما وعظامهما دمه ولحمه وعظامه بقدرة الخالق العظيم وما كـان لإنسان أن يـوجد من امـرأة وحدهـا أو من رجل وحـدَه ذلك تقـدير العـزيـز العليم . ومن جهـة العـطف والحنان نجـد الجدّ يعـطف على ابن ابنته مثـلَ عطفـه على ابن ابنه فـلا يفرّق بينهما بل هما في عواطفه الأبوية بمنزلة واحدة وأمّا في الاصطلاح فقـد اصطلح النـاس على نسبة الابن لأبيه دون أمّه فيحملُ اسم عائلة أبيه وهـذا لم يكن في الحسنين لأنّهما يحملا اسم العترة النبوية الهاشمية لأنّ أباهما وجـدّهما من نسب واحـد . وفي الميراث لقد جعلت الشريعـة السمحاء تفـاوتاً في الإرث بين الـذكور والإنـاث وأنسالهم لحكمـةٍ يقتضيها الاجتماع البشري لا لإنكار النسب والرحم والقرابة وفي هذا كفاية للمنصفين .

وقد دخلت سيدتنا فاطمة الزهـراء على أبيها المصـطفى ذات يوم ومعهـا الحسنان غلامان يترعرعان عليهم الصلاة والسلام وقالت : يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئـاً فقـال أمّا الحسن فـإنّ له هيبتي وسؤددي وأمّـا الحسين فإنّ لـه جرأتي وجـودي . صدق رسول الله فكان الحسن والحسين كما ذكر .

تـربى الحسنان بين أيـدي جدّهمـا المصطفى وأبيهمـا المرتضى وأمّهمـا فـاطمـة الزهراء بالدلال الخليق بهما وشبّا على أعلى الأخلاق الموروثة والمكتسبة ولم يأتيا أمـراً يستلفت النظر في عهد أبي بكر وعمر وعثمان إلّا يوم مقتل عثمان حيث أرسلهما سيدنـا علي ليمنعـا عنه النـاس فسارا إلى بيت عثمـان وحالا دون الثـائرين والـدار فاحتـرمهمـا الثائرون ولـم يؤذوهما وصعد نفر منهم إلى سطح بيت عثمان من بيت بجواره وقتلوه كمـا تقدم ومن هذا الحادث تعلم مبلغ الاحترام الذي كان لـولدي رسـول الله هـذين حتى في نفوس الثائرين منهم وفي أشدّ أوقات ثورة خواطرهم .

وصحب الحسنان سيدنا علي إلى البصرة يوم الجمل وصحباه إلى صفين ولكنهما =

فَأَرْسَلَتْ أَعْيُنُ ٱلنَّاسِ ٱلشِّرَارَ لَهُ وَكَادَ يَحْرُقُهُ تَٱللَّهِ حَامِيْهَا

=لم يحاربا معه لأنَّه كان يمنعهما عن خوض غمرات الحرب خوفاً عليهما كما تقدمت الإشارة .

وعندما جرح سيدنا علي عليه السلام ويأس أصحابه من حياته سئل إن كان يريد أن يوصي بالخلافة إلى سيدنا الحسن فقال : ذلك حقّ المسلمين لا أئمر به ولا أنهي عنه وسبق لنا ذكر هذه الرواية في غير هذا المكان ونحن شاكون في صحتها فإنَّ الحقّ الصريح الذي كان يطالب به سيدنا علي في الخلافة هو نفس الحقّ الذي لابنه الحسن عليه السلام لا جدال في هذا ولا نكران . وعلى فرض صحة هذه الرواية وأنها لم تدسّ من الأمويين لا تفيد إلّا معنىً واحداً وهو أنَّ سيدنا علي كان يعلم من حال المسلمين وتفرق كلمتهم واضطراب حبلهم واستفحال أمر الأمويين بينهم ما جعله أن يزهد بالخلافة والحياة أيضاً كما مرَّ معنا فلا يدع إذا كان قد أشفق على ولده وفلذة كبده أن يقاسي في الخلافة ما قاساه من الأرزاء والأهوال والمصاعب والمتاعب فما أمره بالولاية ولا نهاه عنها . أمّا حقّ المسلمين في تولية الخلافة فمما لا ينكره منكر فإنّ الشورى الإسلامية لا تترك الولاية العامة إرثاً بغير رضاء المسلمين الذين هم أهلها ولكن المختلف عليه هو في هل حقّ المسلمين في الخلافة يطلق أيديهم في بيعة مَن يشاؤون حتى لو كان تركياً أو يقيد المسلمين في دائرة محدودة لا يصحُّ لهم أن يتجاوزوها ؟ ومجال الخلاف واسع حول الخلافة فمن الناس من يرون أنّها من حقّ الطالبيين لأنّها إرث عن جدّهم المصطفى وأبيهم المرتضى ومنهم من قال بجواز استخلاف الهاشميين على التعميم ومنهم من قال إنّ الخلافة من حقّ قريش وذكروا لذلك حديثاً نسبوه إلى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم . ولكن ليس من المسلمينَ من قال بجواز الخلافة في غير قريش على ما أعلم . حتى آخر الزمان إذ جاءَنا ابن خلدون المؤرخ المشهور فقال في مقدمته عند ذكره الخلافة وتجويز بيعة السلاطين العثمانيين بها أنّها تصحُّ لفقدان القوة والعصبية من قريش ووجودهما في العثمانيين على أنّ مقالته هذه هي قول ذي غرض أو سقطة من يتوخى رضاء العثمانيين لمصلحةٍ والحقيقة أنّ الإسلام أبطل عصبية الجاهلية والرجوع إليها ليس من الإسلام في شيء وفوق هذا لو أجمع العرب على الطالبيين لما فقدوا عصبيتهم .

ولقد بايع الناس سيدنا الحسن على أثر مقتل أمير المؤمنين عليهما الصلاة=

حَتَّى إِذَا مَا ٱسْتَوَى فِيْ شَرِّ وَقْفَتِهِ   مُسْتَقْبِلَ ٱلْمَوْتَةِ ٱلشَّنْعَا مُنَاجِيْهَا

= والسلام في المسجد الأعظم في الكوفة وكان أول من بايعه هو قيس بن سعد الأنصاري فقال له : أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنّة نبيّه وقتال المحلين (وهم الذين أحلّوا بيعة أبيه سيدنا علي عليه السلام وهم الخوارج وأصحاب معاوية) فقال الحسن : « بل على كتاب الله وسنّة رسوله فإنّهما يأتيان على كل شرط » فبايعه وتبعه الناس فبايعوه وكان سيدنا الحسن يشترط على مبايعيه أن يكونوا معه فيسالمون من سالمه ويحاربون من حاربه .

ومرَّ معنا فيما تقدم أنَّ الناس تجهزوا قبيل مقتل سيدنا علي عليه السلام للمسير إلى حرب الشام فحال مقتله الفاجع وأسفاه دون مسير هذه الحملة قالوا وكان عدد رجالها أربعين ألفاً . وما كاد يتربع سيدنا الحسن على دست الخلافة حتى بلغه أنَّ معاوية قد سار إلى محاربته وأنّه قد بلغ « مسكنه » وهي قرية على الفرات قريبة من حلب ولا تبعد كثيراً عن موضع صفين فخفَّ سيدنا الحسن إلى لقائه بالجيش الذي كان أعدَّه أبوه وجعل قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري على مقدمته في إثني عشر ألف مقاتل واتّجه سيدنا الحسن إلى الشام ومعه عبد الله بن عباس مستشار له ورئيس أركان حربه ولما نزل الحسن في المدائن ظهر الخلل في جنده وأكثروا من التقمقم عليه والتراخي في صحبته وما كفاهم هذا حتى سادت عليهم الفوضى فنفروا كالأنعام الجفلى لدى صائحٍ صاح بهم أنَّ قيس بن سعد قد قتل ونهبوا في نفارهم هذا كلَّ ما كان مع الحملة من زاد ومتاع حتى نازعوا سيدنا الحسن بساطاً كان تحته فيئس عليه السلام من الانتصار على معاوية بعد أن خذله أصحابه ورجع إلى الكوفة منكسر القلب .

أنا أعتقد اجتهاداً ما لا أظنه تعدَّى الذي حصل فإنَّ معاوية ما كاد يبلغه نبأ قتل سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام حتى أرسل جواسيسه بأحمال الأموال إلى العراق فتن بها الأصدقاء وجمع بها كلمة الخوارج الأعداء ونهض بعد ذلك بنفسه لغزوة سيدنا الحسن فأقام في « مسكنه » ينتظر نتيجة دسائسه في الأقطار العربية . ولا أحسب ما جرى في مدائن كسرى في جيش سيدنا الحسن إلاّ دسيسة مدبَّرة من أولئك الجواسيس فصاح الصائح كذباً ينعي للناس قيس بن سعد الذي كان على المقدمة وظلَّ عليه السلام في معسكره وحيداً بعد أن نازعوه سجادته لا نصير له ولا معين .

هذا هو مبلغ رأيي في هذه الحادثة بنيته على ما أمامي من التواريخ الغامضة التي =

نَـادَى بِـهِ حَسَنٌ : مَـاتَ ٱلْإِمَـامُ قَتِيْـــــلاً قَتلَةً أَنْتَ يَـا مَلْعُـوْنُ جَـانِيْهَـا

= تـذكر الحـوادث غثها وثمينهـا كما اتصلت بكـاتبيهـا من غيـر أن تبـدي رأيـاً فيهـا يجلو غوامضها . وقالوا إنّ سيدنا الحسن عليه السلام عندما بقي في مدائن كسرى وقد تركـه الجيش طمـع بالاستفـادة من حالتـه تلك شاب غـرّ يـدعى المختـار بن أبي عبيـد فقصـد عمّـه سعيد بن مسعود الثقفي وكان حاكم المـدائن من قبل سيـدنا علي وقـال له هـل لك في الشـرف والغنى قال سعـد وما ذاك ؟ قـال المختار نستـوثق من الحسن ونستأمن بـه إلى معـاويـة فقـال سعـد : عليـك لعنـة الله أأثب على ابن بنت رسـول الله وأوثقـه وأسلّمـه لعدوّه ؟ لبئس الرجل أنت . ومن هذه الرواية يتضح لنا أنَّ فكـرة الاثراء بخـدمة معـاوية وكسب الشرف « ويراد به نيل الوظائف » تحت رايته كانا شائعين يملآن عقول الناس فلا يبالون في سبيلهما أيَّ السبل سلكوا .

وزعموا أنّ سيدنا الحسن عليه السلام عندما رجع من المـدائن وقد خـذله أصحـابه يئس وكتب لمعـاوية يعـرض عليه التسليم لـه والنزول على حكمـه وأنَّ معاويـة كتب له قبـل وصول كتابه يعرض عليه التسليم له بالشروط التي يريدهـا وهذه الـرواية مـا رضيتها ولا اقتنعت بصحتهـا لأنَّ أنفة سيـدنا الحسن لتحمله على المـوت دون هذا التسليم المشين لـدى أول صدمـة اصطدم بهـا في حياتـه السياسيـة . وعندي أنَّ معـاويـة « وكـان معـه عمرو بن العاص » في « مسكنه » كان يدبر المكيدة بدهاء وذكاء فما بلغه فرار الناس من حول سيدنـا الحسن ورجوعـه عليه السلام إلى الكوفـة وهو منكسـر القلب حتى أسرع يعـرض عليـه الصلح فأرسـل إليه عبـد الله بن عامـر وعبد الـرحمن بن سمـرة بن حبيب بن عبـد شمس ومعهما صحيفة بيضاء ختمها فجـاءَا سيدنـا الحسن وعرضـا الصحيفة المختـومة بختم معاوية عليه ومعها كتاب منه يقول فيه « أن اشتـرط في هذه الصحيفـة التي ختمت أسفلهـا ما شئت فهـو لـك » فلمـا انتهت إليـه الصحيفـة صحت عـزيمتـه على التسليم مشترطاً أن يعطي ما في بيت مال الكوفة وكان يبلغ نحواً من خمس ملايين درهم وخراج دارا بجرد من فارس وأن يمتنع عن سبّ سيدنـا علي . قالـوا فرجـع رسولا معـاوية إليـه بهذه الشروط فرضي بها إلاّ الإمتناع عن سبّ سيدنـا علي فرجـع الرسـولان إلى سيدنـا الحسن بـذلك فـرضي عليه السلام على أن لا يُسبُّ سيدنـا علي بحضـرتـه وهـذه الـروايـة لا أصدقها أيضاً لأنَّ الذي يرسل صحيفةً بيضاء مختومةً ويقول اشترط ما تشاء لا يمتنع عن قبول شرط بسيط كـالذي اشتـرطه سيـدنا الحسن وعنـدي أنّها ملفقـة من رواة لا يزنـون القول بميزان العقل بل ينقلون كلَّ ما يعـرض عليهم على علاتـه وعدا عن بسـاطة هـذا =

قَـالَ آبْنُ مُلْجَمَ: حَسْبِي إِنَّ قَتْلَتَـهُ   قَـدْ أَبْلَغَتْ مُهْجَتِيْ أَقْصَى تَشَهِّيْهَـا

=الشرط الذي قالوا امتنع معاوية عن قبوله فإننا موقنون أنَّ سيدنا الحسن عليه السلام كان أهـون عليـه أن يلقى معـاويـة وجيشـه بصـدره وحيـداً ويمـوت تحت ظـلال الأسنـة ولا يسلم بالخلافة لمعاوية إن لم يتعهد بالامتناع عن سبّ أبيـه عليهما صلوات الله والصحيح أنَّ معاوية تعهد بالامتناع عن السبّ فيما تعهد به للحسن ولكنه نكث عهده فيما بعد وهـذا شأنه .

وعنـدما جـاء رسولا معـاوية إلى سيـدنـا الحسن بـالصحيفـة البيضـاء المختـومـة رأى عليه السلام أن يستشير الأمّة في الأمر فدعا الناس إلى المسجد الأعظم في الكوفة وصلّى بهم صلاةً جامعةً ثمَّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أيّها الناس ، إنَّا والله ما يثنينا عن أهل الشام شكٌّ ولا ندم ، وإنَّا كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبـر ، فشيبت السـلامـة بـالعـداوة ، والصبـر بـالجـزع ، وكنتم في مسيـركم إلى صفين ودينكم أمـام دنيـاكم ، وأصبحتم اليوم ودنيـاكم أمام دينكم ، ألا وأصبحتم اليـوم بين قتيلين ، قتيـل بصفين تبكون له ، وقتيل بالنهـروان تطلبـون بثأره ، وأمّـا الباقي فخـاذل ، وأمّا البـاكي فثائر ، ألا وأنَّ معاوية دعـانا لأمرٍ ليس فيه عـزٌّ ولا نصفة ، فـإن أردتم الموت ، رددنـاه عليه ، وحاكمنـاه إلى الله عزَّ وجـلَّ بظبى السيـوف ، وإن أردتم الحياة ، قبلنـاه وأخذنـا لكم الرضى » وما انتهى سيدنا الحسن إلى هـذا القول حتى دوت في الجـامع أصـوات الناس وهم يقولـون : البقية البقيـة وامضِ الصلح . فنزل عليه السلام عن المنبـر وهو يحـوقل ويسترجع وقد زال من صدره الشريف كلُّ أملٍ بانتصـار الناس لـه وطفق يخابـر رسولي معاوية بالشروط التي يرضاها حتى إذا ما تمَّ التفـاهم بينهما بـواسطة الـرسولين وهـو في الكـوفة ومعـاوية في « مسكنـه » أحبَّ أيضاً أن لا يتحمـل مسؤوليـة هـذا الصلح وحـده فجمع الناس في المسجد ووقف فيهم خطيباً فقال : « أيّهـا الناس ، إنّمـا نحن أمراؤكم وضيفـانكم ، ونحن أهـل بيت نبيكم ، الـذين أذهب الله عنهم الـرجس ، وطهّـرهم تطهيراً » وكرَّر ذلك حتى ضجَّ الناس بـالبكاء فبكـا سيدنـا الحسن معهم وبينما شهقـات البكاء كانت تملأ جوانب المسجد وقف قيس في الناس وهو الذي عرفناه قائداً لمقـدمته فقال : « أيّها الناس : اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة ، أو القتال مـع غير إمـام » فقال بعضهم نصالح وقال البعض بل نحارب فقال سيدنا الحسن عليه السلام : « بل نصالح ، فقـد رأيتكم لا يثق بكم أحـد إلاّ غلب ، ليس أحـد منكم يـوافق الآخـر على رأي ولا هوى ، مختلفين لا نية لكم في خير ولا شرّ ، لقـد لقي أبي منكم أموراً عـظاماً ، فليت =

وَمَا لِنَفْسِيَ بَعْدَ ٱلْيَوْمِ مِنْ طَلَبٍ   بِهِ وَحَقِّ ٱنْتِقَامِيْ كَيْ أُمَنِّيْهَا

=شعري من تصلحون بعدي ؟ » ونزل فأمضى شروط الصلح وأرسلها مع الرسولين إلى معاوية فأقبل هذا بجيشه ومعه عمرو بن العاص إلى الكوفة ودخلها دخول الظافر وقصد الجامع الأعظم فخطب بالناس وطلب بيعتهم فبايعوه ثمَّ تقدم عمرو بن العاص وأسرَّ في أذن معاوية أن يأمر سيدنا الحسن بالخطابة ليقول كلمةً تزيد في نفوذ معاوية على أهل العراق وتسقط من قدر آل البيت فأمره بذلك فقال سيدنا الحسن بأنفةٍ هاشمية ونعرةٍ نبوية طالبية : أيّها الناس ، إنَّ الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءَكم بآخرنا ، وأنَّ لهذا الأمر مدةً ، والدنيا دول ، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال لنبيّه ﴿ **وان أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين** ﴾ فغضب معاوية وأمر سيدنا الحسن بالمكوث والجلوس ونظر إلى عمرو غاضباً وقال « هذا من رأيك » .

ثمَّ إنَّ سيدنا الحسن عليه السلام سار إلى المدينة المنوَّرة مع إخوانه وغلمانهم وحشمهم وما وفى له معاوية بالشروط التي اشترطها فلا أعطاه خراج دارا ولا امتنع عن سبِّ سيدنا علي عليه السلام وما صعب على معاوية أن ينكث بعهوده وقد اعتاد هذا من قبل .

وقد لام كثيرون سيدنا الحسن عليه السلام على تسليمه لمعاوية فكانت أجوبته لهم منحصرة في معنى ما أجاب به المسيب بن نجية فقال « يا مسيب ، لو أردت بما فعلت الدنيا ، لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ولا أثبت عند الحرب منّي ، ولكنّي أردت صلاحكم ، وكفّ بعضكم عن بعض ، فارضوا بقدر الله وقضائه ، حتى يستريح برٌّ ، ،ويستراح من فاجر » اهـ .

وكانت مدّة خلافة سيدنا الحسن عليه السلام ستة أشهر فقط إذ تمَّ صلحه مع معاوية في ربيع الآخر سنة ٤١ للهجرة .

أمّا قيس بن سعد وهو أكبر قوّاد سيدنا الحسن فإنّه إذ رأى نيّة سيدنا الحسن بالتسليم لمعاوية أكبره وأباه وحدث وقتئذٍ أنَّ عبيد الله بن عباس وكان أمير جنود سيدنا الحسن قد راسل معاوية بعد أن شعر برغبة الحسن بالتسليم يسأله الأمان لنفسه بما أصاب من مال وماشية فأجابه إلى ذلك فترك الجيش الذي كان يقوده وسار إلى جيش معاوية الذي كان يدنو من الكوفة بقيادة عبد الله بن عامر فما كان من قيس بن سعد إلاّ أن تقدم من جيش عبيد الله بن عباس وعرض نفسه لقيادته واستلم زمامه وتعهد أن لا يسلم لمعاوية إلاّ بعد أن يستوثق منه لشيعة سيدنا علي عليه السلام ولمن كان معه على دمائهم =

سِوَى ٱلْمَسِيْرِ إِلَى أَرْضِ ٱلشَّآمِ فَأَقْـــتُلُ ٱبْنَ حَرْبٍ وَمِنْهُ ٱلنَّاسُ أَنْجِيْهَـا

= وأموالهم فلم يقاتله معاوية بل عاهده على ذلك وهكذا دخل قيس ومن معه في طاعة معاوية ولكن في دخولهم لم يسلم معاوية في تسوّده على العراق بغير حب كما كان يريد فثار عليه الخوارج واضطرَّ إلى محاربتهم فحاربهم بشدةٍ عرفوا من ورائها فضل سيدنا علي عليه السلام الذي ما كان يرضيهم عدله وحلمه وشفقته وهكذا استقرَّ الأمر لمعاوية في العراق وبالتالي في عموم البلاد الإسلامية .

وكان سيدنا الحسن عليه السلام شفوقاً صالحاً زاهداً عابداً ومات في المدينة المنوَّرة في سنة تسع وأربعين عن سبع وأربعين سنةً وسبب وفاته أنَّ معاوية دسَّ إليه سماً على يد جعدة بنت الأشعث بن قيس زوجة الحسن قيل أنَّ معاوية أرسل إليها جاسوساً فرشاها بمئة ألف درهم ووعدها أن يزوجها من ابنه يزيد لو هي قتلت سيدنا الحسن بالسمّ ففعلت فوفّى لها بالمال ولكنه لم يزوجها من ابنه قائلاً قد لا تمتنع عن خيانة ابني التي ما امتنعت عن خيانة الحسن. وقد أجمع المؤرخون على أنَّ سيدنا الحسن عليه السلام قد توفي مسموماً وأنَّ زوجته جعدة هي التي دسّت له السمّ وأكثرهم اتّهموا معاوية بجريمة قتله ولكني لما أجد فيما أمامي من التواريخ من ذكر سبب إقدام معاوية على قتله مسموماً ويظهر لي أنَّ معاوية أراد بقتله تمهيد الطريق أمامه لبيعة ابنه يزيد إذ كان لا يجهل أنَّ وجوده عليه السلام في الحياة يحول دون هذه الرغبة التي ما كان يهتمُّ معاوية بغيرها بعد أن دانت له الخلافة الإسلامية وقبض على عنقها بيده الحديدية .

أمّا سيدنا الحسين عليه السلام فإنّه كان في حياة المرتضى عائشاً في ظله وكان منصرفاً إلى العلم والفقه متبحراً في الشريعة حتى أجمع الرواة على أنّه كان أحسن مثال لسيدنا أمير المؤمنين علماً وفضلاً .

وعندما عقد سيدنا الحسن الصلح مع معاوية لم يقاومه سيدنا الحسين ولم يعارضه في ذلك لأمرين أحدهما احتراماً لسنّه لأنَّه الأكبر منه وثانيهما لأنّه هو أيضاً كان يرى أنَّ البقاء على عداء معاوية وبلاد المسلمين على ما نعهد من الفوضى وأنصار العلويين على ما نعلم من الإنقسام لا نتيجة له سوى زيادة القلاقل والفتن وسفك الدماء وسافر مع سيدنا الحسن وآل البيت العلوي الطاهر إلى المدينة وأقاموا فيها كلَّ مدة حكم معاوية وكان معه على خير لا هو راضٍ عنه ولا هو غاضب عليه وكان معروف المكانة في مدينة جدّه عليه السلام يأتيه الناس للإفتاء والتبرك .

=

إِنْ لَـمْ يَفُـزْ بُــرَكُ قَبْلِيْ بِقَتْلَتِـهِ   وَكَـانَ قَـدْ أَمَّهَـا يَبْغِيْ مُعَـاوِيْهَـا

= « فاجعة العالمين في مقتل الحسين »

وفي سنة ٥٦ للهجرة خطر لمعاوية وقد وثق من الخلافة وأمن المعارضين والمقاومين والخوارج واستقر حكمه فيها وغدا الناس في قبضته على ما يحبّ أن يبايع ابنه يزيد فلم يكن في وجوه قريش من واجهه برفض هذه البيعة غير ثلاثة وهم سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وكان من أمرهم مع معاوية في ذلك ما ذكرناه في حاشية سابقة .

ومات معاوية سنة ٦٠ للهجرة فخلفه ابنه يزيد بعد أن أعدَّ له أبوه البيعة بدهائه كما تقدم القول ولم يكن له همٌّ بعد أن بايعه الناس إلاّ أن يأخذ بيعة النفر الذين رفضوا بيعته من قبل وأنكروها على معاوية وهم سيدنا الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير لأنّه كان يعلم مكانة هؤلاء الثلاثة في الإسلام وأنَّ رضاء الناس كلهم ببيعته لا يوازي رضاءَهم فكتب إلى ابن عمّه الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان وكان عامل أبيه على المدينة المنوَّرة ينعي إليه معاوية ويطلب منه أن يأخذ أولئك الوجوه أخذاً لا رخصة فيه حتى يبايعوا فاستدعى الوليد مروان بن الحكم وأخبره بوفاة معاوية وخلافة يزيد وأمره القاطع بخصوص أولئك النفر فقال مروان وكان غير راضٍ عن معاوية لأنّه عزله عن حكم المدينة إنّ الرأي عندي أن تدعوهم في الحال إليك فأمَّا أن يبايعوا يزيد أو تضرب أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية فإنّهم إذا علموا بموته وثب كلٌّ منهم إلى ناحية في الحال ودعا الناس إلى نفسه واشتعلت نيران الفتنة في البلاد . أمّا الوليد بن عتبة فتهيب تنفيذ هذا الرأي ولم يجهل ما يتلوه من الفتن ولكنه تظاهر لمروان بقبوله وقال اجلس لأبعث بطلبهم وأرسل في الحال عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو غلام حدث إلى سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير يدعوهما إليه فسار إليهما فوجدهما في المسجد النبوي فأبلغهما أمر الوليد فقالا في مثل هذه الساعة لا يجلس الوليد للناس ومع ذلك فاذهب أنت ونحن نوافيه فتركهما وانصرف فقال عبد الله بن الزبير ما تظنُّ في دعوة الوليد هذه ؟ فقال الحسين أظنُّ أنّ طاغيتهم قد هلك فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو خبره في الناس فقال الزبير وأنا على هذا الظنّ فما تريد أن نصنع ؟ فقال الحسين : أجمع فتياني الساعة ثمَّ أسير إليه وأجلسهم على الباب وأدخل عليه فقال ابن الزبير إنّي لأخاف عليك منه فقال الحسين لا آتيه إلاّ وأنا قادر على الامتناع وبالفعل نهض سيدنا الحسين فسار =

ثُمَّ أَعُـوْدُ إِلَيْكُمْ لِلْقَصَـاصِ كَمَـا   تَقْضِيْ آلشَّرِيْعَةُ إِنِّيْ لَسْتُ خَاشِيْهَا

= فجمع أصحابه ومواليه وأقبل بهم على باب الوليد حتى إذا ما انتهى إليـه قال لهم البثـوا هنا فإذا دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فـادخلوا عليَّ بأجمعكم وإلاّ فـلا تبرحـوا هذا المكان حتى أخرج وتركهم ودخل على الوليد فـإذا مروان عنـده فعجب سيدنـا الحسين من اجتمـاعهما ويعـرفهما متنـافرين وقـال : الصلة خير من القـطيعة والصـلاح خير من الفساد وقد آن لكما أن تجتمعا أصلح الله ذات بينكما . وكان في كلمات سيدنا الحسين هذه إشارتان أداهما إلى ما كان بين الـوليد ومـروان من الحقد بخصـوص ولاية المـدينة كما سبقت الإشارة والثاني إلى أنّه قـد شعر بـوفاة معـاوية وأنّهـا هي التي جمعتهما ولم تخف هاتان الإشارتان على الـوليد فصـارحه القـول ونعى إليه معـاوية وطلب منـه البيعة ليزيد فاسترجع الحسين وطلب لمعاوية الرحمة وقال وأمّا البيعة ليزيد فإنَّ مثلي لا يبايع سـراً فإذا خـرجت إلى الناس ودعـوتهم للبيعة ودعـوتنا معهم كـان الأمر واحـداً فقال لـه الوليد حسناً فانصرف الآن فقال مروان هامساً لئن فارقك الساعة ولم يبايع لا قدرت منـه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه فـأحبسه في الحـال فإن بـايع وإلاَّ ضـربت عنقه فوقعت هذه الكلمات في أذن سيدنا الحسين فغضب غضبةً هاشميـةً وقال لمـروان يا ابن الزرقاء أأنت تقتلني أم هو؟ كذبت والله ولؤمت ثمَّ تركهما وخرج غير خائف وعيداً ولا تهديداً حتى أتى منزله أما مروان فلام الوليد لتركه الحسين قال أمّا والله وقد عصيْتني فـوالله لا يمكنك من نفسـه ثانيـةً أبداً فقـال الوليـد والله ما أحبُّ أنَّ لي مـا طلعت عليه الشمس وغربت عنه وإنّي قتلتُ حسيناً إن قال لا أبـايع والله إنّي لأظنُّ أنَّ امرءاً يحاسب بدم الحسين لخفيف الميزان عند الحساب يوم القيامة فهزَّ مروان كتفيه وقال عسى أن لا تندم . أمّا عبد الله بن الزبير فسار من المسجد إلى بيته واعتصم فيه وجمع إليه أصحابـه فاحتمى بهم وأخذ يلحُّ الوليد عليه بالحضور وهو يمتنع حتى إذا ما تكاثرت رسل الوليـد أرسل إليه أخاه جعفر بن الزبير فقال له : لقـد أكثرت بـطلب عبد الله حتى أفـزعته فمـر رسلك أن ينصرفوا عنه وهو غداً يوافيك إن شاء الله فرضي بذلك وأمر رسله بـالإنصراف عن عبد الله بن الزبير وما خيم الغسق حتى فرّ عبد الله بن الـزبير وأخـوه جعفر إلى مكـة وليس معهما ثالث وفي ثاني يوم علم الوليد بهربهما فـأرسل رجـاله بـطلبهما فمـا عثروا عليهما وفي الليلة التالية هرب الحسين إلى مكة مصطحباً بنيه وإخوته وبني أخيه الحسن وجلّ أهل بيته إلاّ محمد بن الحنفية فقد قـال له يـا أخي أنت أحبُّ الناس إليَّ وأعـزُّهم عليَّ ولست أدخر النصيحة لأحـد من الخلق أحقُّ بها منـك تنحَّ ببيعتـك عن يزيـد وعن =

= الأمصـار ما استـطعت وابعث رسلك إلى النـاس وادعهم إلى نفسـك فـإن بـايعـوا لـك حمدت الله على ذلك وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص بذلك دينك ولا عقلك ولا تـذهب به مروءتك ولا فضلك إنّي أخـاف أن تأتي مصـراً وجماعـة من الناس فيختلفـوا عليك فمنهم طائفة معك وأخرى عليك فيقتتلون فتكون لأول الأسنة فإذا خير هـذه الأمة كلّها نفساً وأبـاً وأمّاً وجداً أضيعها دمـاً وأذلّها أهـلاً فقال الحسين فـأين أذهب يا أخي ؟ قال أنزل مكة فإن اطمأنت بك الدار فبسبيل ذلـك وإن تأت بـك لحقت بالـرمال وشعف الجبال وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنـظر إلى ما يصيـر أمر النـاس ويفرق لـك الرأي أصوب ما يكون رأياً وأحـزمه عمـلاً حين تستقبل الأمـور استقبالاً ولا تكـون الأمور أبـداً أشكل منها حين تستدبرها فأصغى الحسين إلى نصح أخيه ووعده باتباع رأيه وقصد مكة كرمها الله . أمّا عبد الله بن عمر بن الخطاب فأرسل إليه الوليـد يطلب بيعتـه فقال أبـايع إذا بايع الناس فتركه لأنّ الأمويين ما كانوا يتخوفونه .

وعندما بلغ سيدنا الحسين وأهله مكة هرع النـاس للسلام عليـه وأخذوا يختلفـون إليه وكان عبد الله بن الزبير عندما بلغ مكة أعلن أنّه عائذ بالكعبـة وصار لا يفـارقها ليـلاً ونهاراً إلاّ أنّه كان يختلف إلى سيدنا الحسين ويتظاهر بصحبته ولكنه كان يستثقـل وجوده هناك لعلمه أنّ الناس لا يبايعونه ما دام الحسين بقربه .

أمّا أهل الكوفة فعندما اتصل بهم منعى معاوية وامتناع الحسين وعبد الله بن الزبير عن البيعـة أرجفوا بيـزيد واجتمعت شيعـة سيدنـا علي عليه السلام في منزل سليمـان بن صرد الخزاعي وأقرّوا على بيعة الحسين والانتصار له وكتب زعماؤهم له الكتاب التالي « بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام عليك ، فإننا نحمـد إليك الله ، الـذي لا إلّه إلاّ هـو ، أمّا بعـد ، فالحمـد لله الذي قصم عـدوّك الجبار العنيـد ، الذي انتـزى على هـذه الأمـة ، فابتزها أمرها ، وغصبها فيأها ، وتأمّر عليها بغير رضى منها ، ثمّ قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وأنّه ليس علينا إمام ، فأقبل لعلّ الله أن يجمعنا بك على الحقّ ، والنعمان بن بشيـر في قصر الأمـارة لسنا نجتمـع معه في جمعـة ولا عيد ، ولـو بلغنـا إقبـالـك إلينـا أخـرجنـاه ، حتى نلحقـه بـالشـام ، إن شـاء الله تعـالى ، والسـلام عليـك ورحمـة الله وبركاته » اهـ وقد أمضى هذا الكتاب سليمان بن صرد الخـزاعي ، والمسيب بن نجية ، ورفـاعة بن شـدّاد ، وحبيب بن مظاهـر ، وغيرهم من رؤسـاء أهل الكـوفة وأرسلوه مـع عبـد الله بن سبع الهمـداني وعبد الله بن وال ومـا اكتفوا بهـذا الكتاب حتى شفعـوه بثانٍ =

=مثله وجهوه إليه بعد يومين وكتب الناس إليه كتباً خاصة بهذا المعنى بلغ عددها نحو مئة وخمسين كتاباً أرسلوها مع حامل الكتاب الثاني ثمَّ بعد يومين آخرين سيروا له كتاباً ثالثاً بالمعنى يشددون عليه بالقدوم إلى الكوفة ويعدونه بالنصرة ثمَّ كتب إليه شيث بن ربعي وحجار بن أبجر ويزيد بن الحارث ويزيد بن رويم وعروة بن قيس وعمرو بن الحجاج الزبيدي ومحمد بن عمير التميمي بذلك .

فلما انتهت رسل أهل الكوفة بعضها تلو البعض بهذه الكتب إلى سيدنا الحسين عليه السلام رأى أن يستوثق إلى نفسه من أمر أهل الكوفة بعد أن عرف حالهم مع أبيه عليهما صلوات الله فأرسل إليهم مسلم بن عقيل بن أبي طالب لينظر إن كانوا كما كتبوا له عن إجماعهم على نصرته وصحبه بكتاب كتبه إليهم وهاك نصه « أمّا بعد ، فقد فهمت كل الذي اقتصصتم ، وقد بعثت إليكم بأخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب إليَّ أنّه قد اجتمع رأي ملئكم ، وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم ، أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله ، فلعمري ما الإمام ، إلاَّ العامل بالكتاب ، والقائم بالقسط ، والدائن بدين الحق ، والسلام » اهـ ولبث سيدنا الحسين عليه السلام في مكة ينتظر ما يكشف الله عليه بواسطة ابن عمّه مسلم بن عقيل .

سار مسلم بن عقيل إلى الكوفة مستخفياً ونزل في دار المختار وأقبلت عليه شيعة سيدنا علي عليه السلام وكان كلما اجتمع بطائفة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين فيبكون ويعدونه من أنفسهم القتال والنصرة . غير أنَّ أمر مسلم بن عقيل لم يظلَّ مكتوماً فعلم به النعمان بن بشير أمير الكوفة من قبل الأمويين وكان هذا حليماً ناسكاً يحبّ العافية فعلا المنبر والصلاة جامعة وقال « أمّا بعد فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإنَّ فيهما تهلك الرجال ، وتسفك الدماء ، وتغصب الأموال ، ألا وإنّي لا أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أثب على من لا يثب عليَّ ، ولا أنبه نائمكم ، ولا أتحرَّش بكم ، ولا آخذ بالقرف ، ولا المظنة ، ولا التهمة ، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم ، ونكثتم بيعتكم ، وخالفتم إمامكم (ويريد يزيد بن معاوية) ، فوالله الذي لا إله غيره ، لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، وإن لم يكن لي منكم ناصر ولا معين ، أمّا وإنّي أرجو أن يكون من يعرف الحقَّ منكم ، أكثر ممن يرديه الباطل » وعندما انتهى النعمان بن بشير أمير الكوفة من خطابه قام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي وكان من شيعة بني أمية وقال=

= « لا يصلح ما ترى إلاّ الغشم ، إنّ هذا الذي أنت عليه رأي المستضعفين » فقال النعمان « لئن أكون من المستضعفين في طاعة الله أحبُّ إليَّ من أن أكون من الأعزين في معصيته » ونزل عن المنبر . وإذ رأى عبد الله بن مسلم أنّ النعمان لم ينتصح بنصحه أسرع فكتب إلى يزيد بن معاوية يخبره بقدوم مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليجمع كلمة أهلها على بيعة الحسين وختم كتابه بقوله « إذا كان لك في الكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك في عدوّك فإنّ النعمان رجل ضعيف أو هو يتظاهر بالضعف » ولم يكن عبد الله بن مسلم هذا هو الوحيد الذي تزلف إلى يزيد بهذه الفتنة بل تبعه في مثل ذلك كلٌّ من عمارة بن الوليد بن عقبة وعمرو بن سعد بن أبي وقاص وغيرهما ممن يطلبون المنافع لأنفسهم .

وعندما رأى مسلم بن عقيل إقبال الناس على بيعة سيدنا الحسين والتفافهم حوله وتراخي النعمان وضعفه كتب إلى سيدنا الحسين بواقعة الحال وقال له أنّ لديه ثمانية عشر ألفاً بايعوه على القتال ويستحثه على التعجيل بالمسير إلى الكوفة فلما انتهى إلى سيدنا الحسين كتاب عقيل أخذ يتحفز للمسير فجاءَه عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنصحه أن لا يسير إلى العراق طالما عمّالها أمويون ومعهم مفاتيح بيت المال مذكراً له بأنّ الناس عبيد الأموال فلا عجب إذا اشتراهم الأمويون بها فانقلبوا عليه وجاء ابن عباس فنصحه أن لا يسير إلى العراق إلاّ إذا كان العراقيون قد ثاروا على عمّالهم الأمويين وأجلوهم عن بلادهم وجاءَه بعد هذا عبد الله بن الزبير وسبق لنا القول أنّه كان يستثقل إقامته في مكة لعلمه أنّ الحجازيين لا يبايعونه والحسين فيما بينهم فسأله أولاً عن مسيره ثمّ قال له والله لو أنّ لي شيعة كشيعتك في العراق لسرت إليها ثمّ خاف أن يستغشه فقال ولو أردت أن تظهر الدعوة ههنا لبايعناك ونصحنا لك فقال الحسين « إنّ أبي عليه السلام حدثني أنّ للكعبة كبشاً به تستحلُّ حرمتها فما أحبُّ أن أكون أنا ذلك الكبش » فقال عبد الله بن الزبير أقم هنا وولّيني أنا ويكون الأمر الأعلى لك في خلافتي فقال الحسين ولا أريد هذا أيضاً ثمّ قال والله لئن أقتل خارجاً عن الكعبة بشبر أحبُّ إليَّ من أن أقتل فيها والله ليعتدنَّ عليَّ كما اعتدت اليهود في السبت فتركه الزبير وانصرف وما فات الحسين رغبة صاحبه بأن يخرج من الحجاز ليخلو بها له الجو . ثمَّ عاد إليه عبد الله بن عباس فألحَّ عليه بالإقامة بالحجاز وحاول كثيراً إقناعه بالعدول عن المسير إلى العراق فما رضي فعرض عليه أن يسير إلى اليمن فما قبل فقال له =

=عبد الله بن عباس إذن سافر بنفسك فلا تـأخذ معـك صبيتك ونسـاءَك مخافـة أن يقتلوك وهم ينظرون إليك فما سمع منـه وأصرَّ على المسيـر فقال لقـد أقررت عين ابن الزبيـر بخروجك من الحجاز وخرج من عنده غاضباً فمرَّ على عبد الله بن الزبير صدفةً فقال لـه وهو يتبسم :

يـا لــك مـن قـبّـرةٍ بـمـعـمـر   خـلا لـك الجـوُّ فبيضي واصفـري
ونقّري ما شئت أن تنقّري

فتبسم ابن الزبير وقـال لا تتمُّ الشطرة الأخيـرة فقال ابن العبـاس ومن يدري أنّهـا ستتم والشطرة الأخيرة هي :

« لا بدَّ من صيدك يوماً فاصبري »

ولندع سيدنا الحسين عليه السلام يتحفز للمسير إلى العراق ولنرجع إلى دمشق فقـد كان فيها يزيد كما سبق القول شديد الاضطراب والقلق من أمـر الحسين وعبد الله بن الـزبير وامتناعهما عن بيعته وهربهما إلى مكة المكرمة واعتصـامهما بـالكعبة المشـرَّفة والتفـاف الناس حولهما وبينما هو في مقعدٍ مقيم من أمـرهما وصلت إليـه كتب النفر الثـلاثة التي ذكرناها وعرف منها أنَّ الحسين يدعو إلى نفسه وأنَّ رسوله وابن عمّه مسلم بن عقيل في الكوفة يدعو الناس إلى بيعته وقد بايعوه فرأى أنّ خوفه من الفتنة في محلّه واستشار أحد موالي أبيه معاوية ويدعى سرجون وكان معاوية كثير الثقة بـرأيه فيمن يـولي على الكوفـة ويكون شديداً صلب العود فأشار عليه بعبيد الله بن زياد فرضيه مع أنّه كان حـاقداً عليـه طوعاً لرأي سرجون وولّاه الكوفة والبصرة فتـوجّه إلى البصـرة أولاً وكان سيـدنا الحسين كتب إلى أشـرافها يـدعوهم إلى كتـاب الله وسنّة رسـوله قـائلاً : إنَّ السنـة قد مـاتت ، والبدعة قد أحييت . فكتم البصريـون جوابـه إلّا المنذر بن الجـارود فقد حسب جـواب الحسين دسيسةً من ابن زياد الذي كان قد بلغ البصرة في طـريقه إلى الكـوفة فسـار إليه بالكتاب وحامله فأمر ابن زياد بقتل حامـل كتاب الحسين وخـطب في الناس فقـال « أمّا بعد ، فوالله ما بي تقرن الصحبة ، وما يقعقع لي بالشنـآن ، وإنني لنكل لمن عـاداني ، وسلم لمن سـالمني ، وانصف الغارة من رامـاها ، يـا أهل البصـرة ، إنّ أميـر المؤمنين (ويريد يزيد بن معاوية) قد ولّاني البصرة والكوفة معاً ، وأنا غادٍ إلى الكوفـة بالغـداة ، وقـد استخلفت عليكم أخي عثمان بن زيـاد ، فإيّـاكم الخلاف والإرجـاف ، فـوالله لئن بلغني عن رجل فيكم مخالف ولا مشاق ، وإنّي أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطىء =

= الحصى ، فلم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم » اهـ فكان لخطابه هـذا تأثير على نفوس البصريين أخافهم فلم ينزعوا إلى نصر سيدنا الحسين وسار بعد ذلك ابن زياد إلى الكوفة .

ومن أغرب ما يروى أنَّ عبيد الله بن زياد عندما بلغ الكوفة حسبه الناس سيدنا الحسين عليه السلام فأقبلوا عليه عند دخوله وهم يقولون مرحباً بك يا ابن رسول الله ونحن أعوانك وبين يديك يا سيد شباب الجنة فساءَه ما رأى من تعلق الناس بسيدنا الحسين . وسمع النعمان بن بشير أمير الأمويين في الكوفة لغط الناس بوصول الحسين واحتفاء الناس به فأقفل باب الأمارة فرقاً واعتصم فيها فلما أقبل عبيد الله بن زياد على دار الأمارة جعل يطرق الباب فأطلَّ عليه النعمان وهو يحسب أنّه الحسين وقال « أنشدك الله ألاَّ تنحيت عنّي ، فوالله ما أنا بمسلم إليك أمانتي ، وما لي في قتالك من حاجة » فغضب عبيد الله بن زياد وقال له إفتح ويلك لا فتحت فما أنا بالحسين فسمع الناس قوله وقال بعضهم لبعض ويلكم ما هذا بالحسين وانصرفوا وفتح النعمان لعبيد الله فدخل دار الأمارة واختليا فيها وهناك أبلغه نبأ عزله .

وفي صباح اليوم التالي خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد الكوفي فصلّى بالناس ثمَّ علا المنبر خطيباً فقال « أمّا بعد فإنَّ أمير المؤمنين (ويريد يزيد) ولاّني مصركم وثغركم وفيئكم ، وأمرني بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مريبكم وعاصيكم ، وأنا متبع فيكم أمره ، ومنفّذ فيكم عهده ، فأنا لمحسنكم كالوالد ، ولمطيعكم كالأخ الشفيق ، وسوطي وسيفي على من ترك أمري ، وخالف عهدي ،فليبق كل امرىءٍ على نفسه» ونزل وقد ترك الناس في وجل من تهديده ووعيده .

وأخذ عبيد الله الناس على التهمة وجعل يشدّد على من يظنُّ بهم الميل إلى الحسين عليه السلام وينكل بهم تنكيلاً أما مسلم بن عقيل الذي كان مختفياً في الكوفة فصار يرى أنّ الناس يتضايقون من إقامته بينهم فخرج من دار المختار التي كان فيها وقصد هانىء بن عروة المرادي فدخل داره فكره هذا ضيافته وقال له لقد كلفتني شططاً ولولا دخولك داري لأحببت أن تنصرف عني غير أنّه يأخذني من ذلك ذمام فأقم عندي وهكذا أقام مسلم بن عقيل في دار هانىء مختفياً والشيعة تختلف إليه سرّاً ويتآمرون على ابن =

لِـذَا بِـهِ حَسَنٌ نَـادَى فَـلَا تَـرِدَ   نَّ ٱلْمَـاءَ حَتَّى تُلَاقِيْ ٱلنَّـارَ تَصْلِيْهَـا

=زياد الذي كان دائم السهر على ما يجري حوله في طي الخفاء وما زال يتجسس أخبار مسلم بن عقيل حتى عرف أنّه يقيم في دار هانىء فاستدعاه إليه واتهمه بالميل إلى العلويين وشدَّد عليه بتسليم مسلم بن عقيل نزيله فأبى فضربه عبيد الله بن زياد بيده فهشم وجهه وقامت الفتنة في الكوفة وكادت شيعة سيدنا الحسين تتغلب على ابن زياد لو لم يكن هذا مستوثقاً من أشراف البلد بما أدرَّه عليهم من الأموال فخرج هؤلاء إلى الناس وفرقوهم بحيث لم يبق مع مسلم بن عقيل غير ثلاثين نفراً بعد أن كانت البلد بجملتها معه حينئذٍ هرب إلى بيت عجوز فأوى إليه ولكن ابنها في اليوم التالي أوصل خبره إلى ابن زياد فأرسل هذا سبعين رجلاً من مقاتلته إلى بيت العجوز فحاربهم مسلم بنفسه ونكل بكثيرين منهم ولكن كثرتهم تغلبت عليه فأوصلته إلى ابن زياد مهشماً فأمر بقتله فقتل . على أنَّ مسلم بن عقيل في أثناء هذه الشدَّة وبعد أن رأى أنّ الناس خذلته استطاع أن يرسل رسولاً إلى سيدنا الحسين يخبره بأن يعدل عن القدوم إلى الكوفة لتمكن ابن زياد من استمالة أشرافها إليه بالأموال وذلك أنَّ مسلم بن عقيل عندما تغلب عليه رجال ابن زياد واحتملوه على بغلةٍ دمعت عيناه فقال له محمد بن الأشعث وكان على رأس رجال ابن زياد ما الذي يبكيك والقوم (ويريد بنو أمية) بنو عمك وليس بقاتليك ؟؟ فقال ولكن تسليمي أول غدركم بي ثمَّ بكى فقال عبيد الله بن عباس السلمي وكان مع رجال ابن زياد من يطلب مثل طلبك لا يبكي إذا نزل به ما نزل بك فقال ما أبكي لنفسي ولكن أبكي لأهلي المنقلبين إليكم أبكي للحسين وآل الحسين ثمَّ مال إلى محمد بن الأشعث وكان قد أمنه حتى استسلم إليه إنّي أراك لتعجز عن أماني وحقن دمي فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يخبر الحسين بحالي ويقول له عنّي ليرجع بأهل بيته ولا يغرّه أهل الكوفة فإنّهم أصحاب أبيه الذين كان يتمنى فراقهم بالموت أو بالقتل ؟ فقال له ابن الأشعث والله لأفعلنَّ وقد برَّ هذا الرجل وكتب إلى الحسين بما أوصاه به مسلم وأرسل كتابه إليه مع رسول خاص رغماً عن الشدة التي كان يبديها الملعون ابن زياد ضد أنصار الحسين .

وقتل ابن زياد بعد مسلم بن عقيل هاني الذي كان مسلم نزيله وأرسل برأسيهما إلى يزيد فكتب له هذا يشكره ويوصيه بالسهر على البلاد ومحاربة الحسين إذا قصدها بكل شدَّةٍ وبلا رحمةٍ .

أمّا سيدنا الحسين عليه السلام فقد خرج من مكة يوم التروية (يوم الجمعة ٨ ذو الحجة=

ثُـمَّ نَضَـى سَيْفَـهُ حَـالاً وَأَوْقَعَـهُ   مَـا فَوْقَ هَـامَتِهِ إِذْ آضَ فَـارِيْهَـا

=قيل له ذلك لأنّهم كانوا يرتوون فيه) سنة ٦٠ للهجرة فاعترضه جماعة عمر بن سعيد بن العاص أمير الحجاز من قبل الأمويين وكان على رأسهم أخوه يحيى بن سعيد بن العاص فقاتلهم الحسين وفتح لنفسه طريقه ومضى حتى إذا ما بلغ التنعيم رأى هناك عيراً مرسلة من اليمن إلى يزيد بن معاوية وعليها الورس والحلل فأخذها وخير أصحاب الإبل أن يسيروا معه إلى العراق بأجرتهم أو أن يعودوا أدراجهم بما يستحقون من الأجرة ففارقه بعضهم وماشاه البعض . ولما انتهى الحسين إلى الصفاح لقيه الفرزدق الشاعر فدعا له بالنصر وأخبره بأن قلوب أهل العراق معه وسيوفهم مع بني أمية . ولما بلغ الحسين الحاجر كتب إلى أهل الكوفة مع قيس بن مسهر الصيداوي يعرّفهم بقدومه ويأمرهم بالجد في أمرهم ولما بلغ رسوله القادسية قبض عليه الحصين بن نمير التميمي وكان صاحب شرطة ابن زياد في الكوفة وقد أوفاه هذا إليها لترصّد الحسين بعد أن بلغه نبأ خروجه من مكة قاصداً الكوفة فأرسله مع الكتاب إلى ابن زياد فمزّق هذا كتاب الحسين وقتل حامله .

ثمَّ إنَّ سيدنا الحسين عليه السلام أقبل نحو الكوفة فانتهى إلى ماء من مياه العرب فإذا عليه عبد الله بن مطيع فرحب هذا به وقال بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله ما أقدمك ؟ وحاول كثيراً أن يثنيه عن عزمه فما أفلح . وعندما بلغ سيدنا الحسين الثعلبية أتاه رسول محمد بن الأشعث ونقل إليه كلام مسلم بن عقيل وما جرى له فما ثنى هذا عزيمته وواصل السير فكان كلما مرّ على عين ماء اتبعه من عليها فلما وصل إلى الزيالة بلغه أنَّ ابن زياد قد تمكن من رقاب الناس ولا يرجى أن ينصروه فأعلم الناس بذلك وقال لهم قد خذلتنا شيعتنا فمن شاء فليبق معنا ومن شاء فلينصرف فانصرف عنه كل الذين مشوا معه في طريقه وهم يظنون أنّه سائر إلى بلد قد استقام له أهله ولم يبق معه غير الذين خرجوا معه من مكة فاستأنف بهم السير حتى وصل بطن العقبة فلقيه رجل من العرب فأخبره أنّه قادم على الأسنة والسيوف وطلب منه أن يعود فما سمع له وواصل السير حتى إذا ما اجتاز شراف وقد انتصف النهار كبر رجل من أصحابه فقال له مما كبرت ؟ قال رأيت النخل فقال رجلان من بني أسد ما بهذه الأرض نخلة قط فقال الحسين فما هو ؟ فقالا لا نراه إلاّ هوادي الخيل فقال وأنا أيضاً أراه كذلك أما لنا ملجأ نلجأ إليه ونجعله في ظهورنا ونستقبل القوم من وجهٍ واحدٍ ؟ فقالا بلى هذا ذو جشم إلى جنبك تميل إليه عن يسارك فإن سبقت القوم إليه فهو كما تريد فمال إليه فما كان بأسرع من أن طلعت=

فَخَـرَّ حَـالاً صَـرِيْعَـاً لاَ حَيَـاةَ بِـهِ   مُضَـرَّجَـاً بِـدِمَـاهُ غَـائِصَـاً فِيْهَـا

= الخيل وعدلوا إليهم فسبقهم الحسين إلى الجبل فنـزل فيه وجـاء القوم وهم ألف فـارس بقيـادة الحرّ بن يـزيد التميمي فـوقفوا مقـابل الحسين وأصحـابه في نحـو الظهيـرة فأمـر الحسين أن تسقى الخيل فسقيت ثمَّ نظم أصحابه صفوفاً وإذا بصلاة الظهر قد حضـرت فأذّن المؤذن ووقف الحسين بالناس خطيبـاً فحمد الله وأثنى عليـه وقال : أيّهـا النـاس ، إنّها معذرة إلى الله وإليكم ، إنّي لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم : أن أقـدم إلينا ، فليس لنـا إمام ، لعـلَّ الله أن يجعلنا بـك على الهدى ، فقـد جئتكم ، فإن تعـطوني ما أطمئنُّ إليـه من عهودكم ، أقـدمْ مصـركم ، وان لم تفعلوا أو كنتم بمقـدمي كـارهين ، انصرفت عنكم ، إلى المكان الذي أقبلت منه » قـال هذا سيـدنا الحسين وهـو ينظر في وجـوه الناس فمـا كان فيهم مجيب وبعـد سكوت قصيـر قالـوا للمؤذن أقم فأقـام الآذان وصلّى سـيدنا الحسين بالناس فصلّى معهم الحر ورجاله وبعد الصلاة خلا بكثيـرين من وجوه الناس يذاكرهم بالأمر ثمَّ أقام صلاة العصـر كلّ هـذا والحرّ بن زيـاد وجماعتـه مع الحسين لا يبادئونه العداء وهو عليه السلام يحسب أنّهم من أهل الكوفة وقد جاءوا لنصرتـه غير أنَّ الحرّ بن يزيد سأل الحسين عن الكتب التي ذكر غير مرَّةٍ أنّها وصلته من أهل الكـوفة فأخرج لـه خرجين ممتلئين كتبـاً فنظر الحـرّ في تلك الكتب قليلاً وقـال : نحن لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليـك نحن رجال ابن زيـاد وقد أمـرنا إذا نحن لقينـاك أن لا نفارقـك حتى نقدمك الكوفة فقال الحسين الموت أدنى إليك من ذلك ومال إلى أصحابه فأمرهم أن يركبوا الخيل ليقفل بهم راجعـاً إلى الحجاز فمنعهم الحـرّ من الرجـوع وتجادلا مليـاً في الكلام ثمَّ اتفقا على أن يأخذ الحسين طـريقاً لا تؤدي إلى الكـوفة أو الحجـاز ريثما يكتب إلى ابن زيـاد ويرى رأيـه على أن يـظلَّ بـأصحـابه حـارثـاً لـه . فـأخـذ سيـدنـا الحسين عليه السلام طريق العذيب والقادسية حتّى انتهى إلى عذيب الهجانات فإذا بأربعة نفـر قد أقبلوا من الكوفة على هجنهم فأخبره أحدهم وهو مجمع بن عبيد العامري فقال : أمّا أشراف الناس فقد أعظمت رشـوتهم وملئت غرائـزهم فهم ألب واحد عليـك وأمّا سـائر الناس بعدهم فإنَّ قلوبهم تهوي إليك وسيوفهم غداً مشهرة عليك . وقال له الطرمـاح بن عدي وهو ثانيهم والله ما أرى معك كثير احد ولو لم يقاتلك إلاّ هؤلاء الذين يـلازمونـك لكفى وقد رأيت في الكوفة قبل خـروجي جموعـاً كثيفة تتهيـأ لقتالـك والرأي عنـدي أن تسير معنا إلى أجا فنمنعك فيه ونستدعي طي لنصرك فتلبيك وأنا ضمين أن يأتيـك منهم عشـرون ألف مقاتـل فأبى الحسين دعـوته وشكـره . وانصـرف النفـر الأربعـة عنـه وهـم =

فَاسْتَقْبَلَتْ رُوْحَهُ أَهْلُ الْجَحِيْمِ وَأَلْـــقَتْهَا لِنِيْرَانِـهِ الْحَمْرَا لِتَشْـوِيْهَا

= وجلون عليه .

ثمَّ سار الحسين حتى بلغ قصر بني مقاتل فرأى هناك عبيد الله بن الحرّ الجعفي فطلب نصرته فرفض قائلاً ما تركت الكوفة إلاَّ مخافة أن تدخلها وأنا فيها ثمَّ استأنف الحسين السير وكان قد هجم الليل فما هي إلاَّ ساعة حتى غفا غفوةً وهو على ظهر جواده ثمَّ انتبه لنفسه فحمدل واسترجع فسمعه ابنه علي بن الحسين فدنا منه بجواده وقال : فدتك نفسي ما الذي جرى ؟ قال الحسين : لقد غفوت فعنَّ لي فارس على فرس فقال « القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم » فعلمت أنَّ أنفسنا قد نعيت إلينا فقال علي بن الحسين : يا أبت لا أراك الله سوءاً ألسنا على الحقّ ؟ قال بلى والذي يرجع إليه العباد قال إذن لا نبالي أن نموت محقين فقال الحسين : جزاك الله من ولدٍ خيراً ما جزى ولداً عن والده .

وظلَّ سيدنا الحسين سائراً طول ليله إلى الصباح حيث نزل بمن معه فصلّى بهم الفجر ثمَّ عجل الركوب فأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفرّقهم فتصدَّى له الحرّ يريد أن يمنعه عن رغبته وما زالا يتشادان والناس سائرون حتى بلغوا نينوى فنزلوا هناك وبعد قليل أقبل فارس من الكوفة وأعطى الحرَّ كتاباً من ابن زياد فإذا فيه « أمّا بعد ، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ، ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله إلاَّ بالعراء ، في غَير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بإنفاذك أمري والسلام » اهـ . حينئذٍ انقلب الحرّ من مسلمٍ يحترم ابن رسول الله إلى وحش ضارٍ وأمر سيدنا الحسين عليه السلام أن يتبعه إلى العراء فجعل يلحّ عليه أن يبقى في نينوى أو يسير إلى الغاضرية أو شقية وإذ لم يرقَ الحرّ لملتمس الحسين أشار عليه أحد أصحابه وهو زهير بن القين بأن يقاتل الحرّ قائلاً أنَّ قتاله مع من معه أهون من قتال الذين وراءهم فأبى الحسين قائلاً لا أبدأهم بالقتال قال إذن سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها فإنّها حصينة وهي على شاطىء الفرات فقال الحسين وما هو اسمها قال العقر قال اللهمَّ إنّي أعوذ بك من العقر وأبى المسير إليها . وكان وذلك يوم الثلاثاء السابع من محرَّم سنة ٦١ للهجرة .

أمّا ابن زياد فعندما أرسل رسوله بكتابه إلى الحرّ أسرع فأرسل عمر بن سعد بن أبي وقاص بالمسير لمقاتلة الحسين بأربعة آلاف مقاتل فلما انتهوا حيث ابن رسول الله =

بِهَا شَيَاطِيْنُهُ قَدْ رَحَّبَتْ وَغَدَتْ   لِهَا وَمِنْهَا وَمَعْهَا فِيْ مَخَازِيْهَا

= نازل أرسل إليه عمر رسولاً يسأله عن مقدمه فأجابه قائلاً كتب إليَّ أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فإذا كانوا قد كرهوا مقدمي فانصرف عنهم فأرسل عمر بجواب الحسين إلى ابن زياد فكتب إليه هذا يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فإذا قبل ينظر في أمره وأن يمنع عنه الماء فلما انتهى كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد أرسل عمراً بن الحجاج على خمسماية فارس فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين والماء حتى إذا ما عطش الحسين وأهله وأصحابه أمر الحسين أخاه العباس بن علي فسار في عشرين راجلاً يحملون القرب وثلاثين فارساً فدنوا من الماء وقاتلوا عليه وملأوا قربهم وعادوا وفي اليوم الثاني بعث الحسين ابن قرظة بن كعب الأنصاري إلى عمر بن سعد يطلب مقابلته في الليل بين المعسكرين وبالفعل تقابلا وكان ذلك في الليلة الثانية التي منع عن الحسين وأصحابه الماء فيها وتحادثا طويلاً ليجدا للمشكلة حلاً فإذا عمر لا يرضى إلاّ أن يبايع الحسين يزيد والحسين يرى الموت أهون من بيع دينه ببيعة يزيد على أنّه كان يطلب أن يدعوه فيعود إلى الحجاز ثمَّ تكررت هذه المقابلات وقال الناس إنّ الحسين طلب أن يسير إلى يزيد في دمشق ويتفق معه على رأي أو أن يسير إلى أي ثغر من ثغور المسلمين ويكون واحداً من أهله إلاَّ أنَّ أهل الثقة من المؤرخين ينفون هذا . والظاهر أنّ عمر بن سعد كان يميل إلى مساعدة الحسين والسماح له بالرجوع إلى الحجاز وكتب بذلك غير مرة إلى ابن زياد في الأيام الثلاثة التي منع الماء فيها عن الحسين . فلما وقف ابن زياد على ما دار بين عمر والحسين نادى شمر بن ذي الجوشن وقال له أخرج بهذا الكتاب إلى عمر فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي فإن فعلوا فليبعث إليَّ بهم سلماً وإن أبوا فليقاتلهم فإن فعل (ويريد عمر بن سعد) فاسمع له وأطع وإن أبى فأنت الأمير عليه وعلى الناس واضرب عنقه (عنق عمر) وابعث إليَّ برأسه وكان في كتاب ابن زياد إلى عمر ما يأتي « أمّا بعد ، فلم أبعثك إلى الحسين ، لتكفَّ عنه ، ولا لتمنيه ، ولا لتطاوله ، ولا لتقعد له عندي شفيعاً ، أنظر فإن نزل وأصحابه على حكمي ، واستسلموا لي ، فابعث بهم إليَّ سلماً ، وان أبوا فازحف إليهم ، حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنّهم لذلك مستحقون ، فإن قتل الحسين ، فاوطىء الخيل صدره وظهره ، فإنّه عاقٌ شاقٌ ، قاطع ظلوم ، فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاءَ السامع المطيع ، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا ، وخلِّ بين شمر وبين العسكر ، والسلام » .

سار شمر بكتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد وسار معه عبد الله بن أبي المحل بن =

= خزام فأخذ هذا من ابن زياد أماناً للعباس وعبد الله وجعفر وعثمان أولاد سيدنا علي عليه السلام من عمته أم البنين بنت خزام بصفته خالهم . ولما انتهى شمر وعبد الله بن خزام إلى عمر بن سعد أسرع عبد الله فأرسل كتاب الأمان إلى من ذكرنا من أولاد سيدنا علي عليه السلام مع رسول فرفضوه قائلين أمان الله خير من أمان ابن سمية (أي معاوية) أمّا شمر فسلم كتاب بن زياد إلى شمر فقرأه هذا وارتجفت فرائصه وقال له : ما لك ويلك ؟ قبّح الله ما جئت به ، والله إنّي لأظنك أنت ثنيته أن يقبل ما كنت كتبت إليه به ، فقد أفسدت علينا أمراً كنا رجونا أن يصلح ، والله لا يستسلم الحسين أبداً والله إنّ نفس أبيه لبين جنبيه . فقال له شمر أحسب ما شئت وقل لي ما أنت صانع الآن ؟ فاستعاذ عمر بن سعد في سرّه من شرٍّ ما هو مقدم عليه وحبّ الدنيا غالب على نفسه وقال أتولى ذلك . وعندما سمع عبد الله بن خزام أنّ حرب الحسين واقعة لا محالة أسرع إلى معسكر سيدنا الحسين عليه السلام ودعا العباس ابن سيدنا علي وإخوته إليه فجاءوه فقال أنتم يا بني عمتي آمنون فدعوا الحسين وسيروا معي فقالوا بصوت واحد : لعنك الله ولعن أمانك لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له ؟؟ فرجع عبد الله مخذولاً إلى صاحبه شمر .

وفي عصر الخميس تاسع محرَّم ركب عمر بن سعد وشمر والناس معهما قاصدين معسكر سيدنا الحسين عليه السلام وقد كان الحسين وقتئذٍ جالساً أمام خيمته محتبياً بسيفه فغفت عيناه وسقط رأسه على ركبته بينما كان الأعداء يقصدونه فسمعت زينبَ بنت علي ضجيج الهاجمين فأسرعت لأخيها الحسين فألفته غافياً ورأسه على ركبته كما تقدم فأيقظته فقال لها : رأيت جدي رسول الله في الحلم فقال إنّك تروح إلينا . فلطمت زينب وجهها وقالت يا ويلتاه . قال ليس لك الويل يا أخية اسكتي رحمك الله . وبينما كان الحسين يخاطب أخته وإذا بأخيه العباس أقبل عليه وقال : انظر قد أتاك الناس . فنهض عليه السلام وقال يا أخي لأركب بنفسي ·فقال العباس بل أروح أنا . فقال الحسين إركب أنت حتى تلقاهم فاسألهم ما بدا لهم وعمّا جاءَ بهم فأتاهم في نحو عشرين فارساً فيهم زهير بن القين فسألهم عن مقدمهم فقال عمر بن سعد إنّ ابن زياد أمرنا أن ينزل الحسين ومن معه على حكمه فيسيرون إليه سلماً أو نكرهه على التسليم على شفار السيوف فقال أمهلوني ريثما أرجع إليه بالخبر وأرى رأيه فيه فقبلوا وعاد إلى الحسين مبقياً أصحابه بين أعداء الله ورسوله يذكرونهم الله وكتابه وعاقبة ما هم قادمون عليه . =

وَٱلْجُثَّـةُ ٱسْتَـوْهَبَتْهَـا أُمُّ هَـيْثَـمَ ثُـــمَّ أَحْـرَقَتْهَـا وَكَـانَ ٱلـرِّيْـحُ ذَارِيْهَـا

= أمّـا العبـاس فـأسـرع على جـواده إلى أخيـه الحسين فـأطلعـه خبـر القـوم فقـال لـه عليه السلام : ارجع إليهم فـإن استطعت تؤخـرهـم إلى غدوة لعلنـا نصلي لربنـا هذه الليلة ونـدعوه ونستغفـره فهـو يعلم إنّي كنت أحبُّ الصـلاة لـه وتـلاوة كتـابـه وكثـرة الـدعـاء والإستغفار فرجع العباس بأمر أخيـه حتى إذا ما بلغ مـوقف القوم دنـا من عمر بن سعـد وقال له ارجع برجالك عنا العشية حتى ننظر في هذا الأمر فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله فإمَّا رضينا به وإمَّا رددناه . فمال عمر بن سعد إلى شمر وقال له ما ترى في هـذا ؟ فقال شمـر أنت الأمير والـرأي لك . فـأقبل عمـر بن سعد على النـاس وهـو يتمنى أن ينتهي الخـلاف بغير أن يتعـرَّض لأعظم إثم في محـاربة سيـدنا الحسين وقتله وقـال لهم : إنَّ الحسين يستمهلنا إلى الصباح فما ترون ؟ فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدي : سبحـان الله ، والله لـو كـان من الـديلم ثمَّ سـألكم أن تمهلوه إلى غـــده ، لكـان ينبَغي لكم أن تجيبوه . وقال قيس بن الأشعث بن قيس : أجبه إلى ما طلب ، لعمري ليصبحنك غدوةً بالقتال . فرجع عمر بالناس إلى معسكرهم ينتظر الغد .

أمّا سيدنـا الحسين عليه السلام فجمع أصحـابه حـوليه ووقف فيهم خـطيباً فقـال : أثني على الله أحسن الثنـاء ، وأحمـده على السـرَّاء والضـرَّاء ، اللهمَّ إنّي أحمــدك على أن أكـرمتنا بـالنبوَّة ، وجعلت لنـا أسماعـاً وأبصاراً وأفئـدةً ، وعلمتنا القـرآن ، وفقهتنـا في الدين ، فاجعلنا لك من الشاكرين ، أمَّا بعد ، فإنّي لا أعلم أصحابـاً أوفى ولا أخير من أصحـابي ، ولا أهل بيت أبـرَّ ولا أوصل من أهـل بيتي ، فجـزاكم الله عنّي خيـراً ، ألا وإنّي لأظن يـومنا من هؤلاء الأعـداء غداً ، وإنّي قـد أذنت لكم جميعاً ، فـانطلقـوا في حلٍّ ليس عليكم مني ذمام ، هذا الليل قد غشيكم فاتخـذوه جملاً ، وليـأخذ كـلُّ رجل منكم بيـد رجل من أهـل بيتي ، فجزاكم الله جميعـاً خيـراً ، ثمَّ تفـرقـوا في البـلاد في سـوادكم ومدائنكم ، حتى يفـرّج الله ، فإنَّ القـوم يطلبـوني ، ولـو أصـابـوني لهـوا عن غيري »اهـ . وبعد أن انتهى من خطابه نظر إليهم ليرى رأيهم . فقـال له إخوتـه وأبنـاؤه وأبنـاءُ إخـوته وأبناء عبـد الله بن جعفر : لا نفعـل هذا لنبقى بعـدك ، لا أرانا الله ذلـك أبداً . فقال الحسين يا بني عمّي عقيل بن أبي طـالب ، حسبكم قتل مسلم بن عقيـل ، اذهبوا فقد أذنتُ لكم . قالوا فما نقول للنـاس ؟ أنقول تـركنا شيخنـا ، وسيدنـا ، وبني عمومتنا خيـر الأعمام ، ولم نـرمِ معهم بسهم ، ولم نطعن معهم بـرمح ، ولم نضـرب=

=بسيف ، ولا ندري ما صنعوا ؟؟؟؟ لا والله لا نفعل ، ولكنا نفديك بأنفسنا ، وأموالنا وأهلينا ، ونقاتل معك ، حتى نرد موردك ، فقبّح الله العيش بعدك . وتقدَّم منه مسلم بن عوسجة الأسدي فقال : أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله في أداء حقّك ؟ أمّا والله لا أفارقك ، حتى أكسر في صدورهم رمحي ، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، والله لو لم يكن معي سلاحي ،لقذفتهم بالحجارة دونك ، حتى أموت معك . وتكلم بقية أصحابه بنحو هذا فشكرهم الحسين وصرفهم وهو مستسلم لقضاء الله وقدره وعاد إلى خبائه يحيي ليله بالصلاة والدعاء .

لم ينم سيدنا الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء وكيف ينام وهو يعرف أنّه بعد ساعات سائر بإخوته وبنيه وأقربائه الأدنين إلى المنية لكثرة الأعداء وخيبة الأمل بالأصدقاء فصلّى إلى الله طويلاً ودعا كثيراً وطلب الرحمة والغفر والشهادة والأجر وما زال كذلك إلى منتصف الليل فاستند إلى وسادته وأنشد :

يا دهر أفٍّ لك من خليلِ ۝ كم لك بالإشراق والأصيلِ
من صاحبٍ أو طالبٍ قتيلِ ۝ والدهر لا يقنع بالبديلِ
وإنّما الأمر إلى الجليلِ ۝ وكل حيٍّ سالك السبيلِ

ثمَّ بكى قليلاً لا عن جزع ولكن على هذا الإنسان الذي أبى إلاَّ أن يظلم أخاه الإنسان وعاد فكرر هذه الأبيات ثانياً وثالثاً وسمعت أخته السيدة زينب بكاءَه ونشيده فلم تملك نفسها فدخلت عليه وهي تقول : واثكلاه ، ليت الموت أعدمني الحياة ، اليوم ماتت فاطمة أمي ، وعلي أبي ، ومحمد جدّي ، والحسن أخي ، آه يا خليفة الماضي ، وثمال الباقي ، إلى ماذا أنت صائر ؟ فنظر إليها سيدنا الحسين بقلب يقطر دماً وقال : صبراً يا أخيَّة لا يُذهبنَّ حلمك الشيطان . قالت استقتلت بأبي أنت وأمي ، نفسي لنفسك فداء ، فردّد سيدنا الحسين عليه السلام غصته وترقرقت عيناه بالدموع وقال : لو ترك القطا لنام فلطمت السيدة زينب وجهها وقالت : واويلتاه ، أفتغصبك نفسك اغتصاباً ؟ فذلك أفزع لقلبي ، وأشدُّ على نفسي . قالت هذا ولطمت وجهها ، وشقت جيبها ، وخرَّت على الأرض مغشياً عليها . فحوقل سيدنا الحسين واسترجع ونهض إليها وصبَّ على وجهها الماء وما زال يعالجها حتى أفاقت فقال : اتقي الله ، وتعزّي بعزاء الله ، واعلمي أنَّ أهل الأرض يموتون ، وأهل السماء لا يبقون ، وأنَّ كلَّ شيءٍ =

= هالك إلاّ وجه الله ، جدّي خير مني ، وأبي خير مني ، وأمّي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولهم ولكلّ مسلم برسول الله أسوة . ومازال عليه السلام يلطف مصابها بمثل هذه الأقوال العذبة حتى أنس منها التجمل فقال لها : يا أخيّة ، فإنّي أقسم عليكِ ، أن لا تشقّي عليَّ جيباً ، ولا تخمشي عليَّ وجهاً ، ولا تدعي عليَّ بالويل والثبور ، إن أنا هلكت . وبعد هذا أرجعها إلى خباء النساء وهي في أشدّ الجزع وجلس لنفسه فبكى قليلاً على حال النساء اللواتي معه ذاكراً نصيحة عبد الله بن عباس أن لا يصحبهنَّ وقال : إنّه القضاء ولا رادٌّ لما قضى به الله . ثمَّ عاد إلى الصلاة فأحيا بقية ليله مصلياً ساجداً داعياً مسلماً أمره وأمر أهله إلى الله . وهكذا أحيا بقية أصحاب الحسين ليلتهم بالدعاء والاستغفار والصلاة إلى الصباح وهم لا يجهلون ما خبأه لهم القضاء .

وعندما انبثق نور فجر اليوم الأسود يوم عاشوراء من سنة ٦١ للهجرة وهو اليوم الذي له كل محبّ لرسول الله وآل البيت الطاهر ينفجع قلبه وتنكسر نفسه خرج عليه السلام إلى أصحابه فأمرهم أن يدنوا خيامهم بعضها من بعض ويحيطوا بالخيام وهي وراءَهم ويستقبلوا الأعداء بوجوههم فعملوا بأمره واستعدوا للقتال فجعل زهير بن القين في ميمنة أصحابه وحبيب بن مطهر في ميسرتهم وأعطى رايته إلى أخيه العباس وكان كل من معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً فقط بينما كان يربو عدد جيش ابن الزياد الذي يقوده عمر بن سعد على الأربعة آلاف . وأمر سيدنا الحسين أصحابه أن يجمعوا حطباً وقصباً في مكان منخفض كان وراء مخيمهم ففعلوا فأمر بشعله لحماية قفوتهم .

أمّا عمر بن سعد فإنّه عند الصباح صلّى بالناس ثمَّ خرج بهم للقتال فجعل على ربع أهل المدينة عبد الله بن زهير الأزدي . وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث بن قيس . وعلى ربع مذحج وأسد عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي . وعلى ربع تميم وهمدان الحرّ بن يزيد الرياحي وهو الذي تصدى للحسين ومنعه من الرجوع . وكان عمرو بن الحجاج الزبيدي على ميمنة عمر بن سعد . وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن الذي انتدبه الملعون ابن زياد لمراقبة تنفيذ هذه الجريمة الفظيعة . وعلى الخيل عروة بن قيس الأحمسي . وعلى الرجال شيث بن ربعي اليربوعي التميمي . وأعطيت راية الإثم والشرّ والكفر إلى دريد . وكان عدد المقاتلين الأشرار يربو على =

= الأربعة آلاف مقاتل . وهنا لا يسع المؤرخ المنصف إلاّ أن يبدي الدهش والاستغراب من تجمع هذه الجموع الكثيفة بهذا الاستعداد الحربي العظيم لمقاتلة فئة قليلة لا يربو عدها على الإثني والسبعين رجلاً فقط كانوا نازلين تحت الخيام في أرض جرداء فهل سمع الأولون والآخرون بجريمة كهذه وهل كان يخطر على قلب بشر أنَّ قوماً من المسلمين يهاجمون البقية الباقية من آل رسول الله ووصيه عليهما الصلاة والسلام فيوقعوا بهم بمثل هذه الوحشية . لا والله لا يستطيع العقل البشري أن يحدّ مبلغ بشاعة هذه الجريمة وفظاعتها بل ان يدي لترتجف وهي تلخص حوادثها ودموعي لتنهلُّ على القرطاس فتمحو الحروف التي أكتبها وفؤادي يتقطر حزناً وألماً وأنا أدون وقائعها الفظيعة ولا أعرف كيف أعبر عن فظاعة هذه الموقعة التي أقلُّ ما يقال فيها انها غدر وكفر . وليت شعري ما كان يضرّ هؤلاء القوم وابن زياد في الكوفة على رأسهم ويزيد في دمشق ولي أمرهم لو تركوا سيدنا الحسين يرجع بأهله وأولاده وإخوانه وأصحابه من حيث أتوا كما كان يطلب منهم عليه‌السلام وقد يقال أنّهم كانوا يخافون أن يثير على يزيد المتغلب على الخلافة فتنةً جديدةً في موضع آخر وهذا كل حجتهم ولكن التجربة علمتهم أنَّ السيادة لمن معه المال وأنّهم طالما هم قابضون على بيت مال المسلمين ينفقونه جزافاً على الذين يبيعون آخرتهم بدنياهم وكثيرٌ هم فلا خوف عليهم من محارب ولا هم يحزنون حتى لو كان ابن رسول الله بل لو كان رسول الله نفسه عليهما الصلاة والسلام . وبعد هذه التجربة التي جربها معاوية غير مرة ونجحت أما كان خليق بهم أن يظهروا شيئاً من التدين والورع والاحترام لشخص رسول الله بالإبقاء على ذريته الطاهرة وفتح الطريق لها لترجع أدراجها من حيث أتت ؟ انهم لو فعلوا هذا لما كان من المستحيل عليهم الاحتفاظ بدنياهم واستجلاب رضاء سيدنا الحسين وآل البيت الطاهر بالأمر الواقع ولا سيما بعد أن علم بالإختبار بأن أصحابه لا يركن إليهم طالما يسهل على يزيد وعمّاله أن يشتروا ذممهم بالأموال كما جرى في الكوفة . ومن ثمَّ ما كان يجهل يزيد بن معاوية وعمّاله قاتلهم الله أنَّ سيدنا الحسين عليه‌السلام ليس وحده المطالب بالخلافة بل هنالك آخرون يرونه مغتصباً للخلافة ويطمعون بها وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير ونعم إنّ هؤلاء ليس لهم من الشأن والنفوذ في الإسلام ما لآل البيت الطاهر ولكنهم على كل حال أصحاب كلمة عليا في الإسلام ما كان يجهلها الأمويون وجرت بالفعل إذ قام عبد الله بن الزبير بالدعوة للخلافة وحارب الأمويين السنوات الطويلة كما رأينا في=

فَكَــانَ أَهْــوَنَهَــا أَنَّ ٱلْخِـلَافَــةَ بَــا تَتْ لِإبْنِ حَرْبٍ فَأَمْسَى وَهْـوَ رَاعِيْهَا
عَنْهَــا تَخَلَّى لَــهُ فِيْ رَغْمِــهِ حَسَنٌ مِنْ بَعْـدِ سِتِّ شُهُـوْرٍ مِـنْ تَـوَلِّيْهَـا

= ترجمته . ولكنَّ لله أحكاماً نجهل حكمتها فقد سمع الله سبحانه بهذه الجريمة الفظيعة بقضاء وقدر ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم .

رأى سيدنا الحسين عليه السلام أعداء الله ورسوله متحفزين لمهاجمته فاغتسل وتعطر استعداداً للموت وخرج فركب جواده ودعا بالقرآن فوضعه أمامه ودعا النفر الذي حوليه إلى الاستشهاد فلبّوا مشهري سيوفهم فرفع يديه إلى السماء وقال : اللهمَّ ، أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدَّةٍ ، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقةً وعدَّةً ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد ، وتقلُّ فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت به العدو ، أنزلته بك ، وشكوته إليك ، رغبةً فيك ، عمّا سواك ، ففرجته ، وكشفته ، وكفيتنيه ، فأنت ولي كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل رغبة ، سبحانك أرحم الراحمين ، ثمَّ أمر سيدنا الحسين بالاستعداد للقاء الأعداء على أن لا يبدأهم القتال بينما كان لسان النار يندلع من وراء خيامه كما سبقت الإشارة .

أمّا أصحاب عمر بن سعد فإذ رأوا النار تلتهب وراء خيام الحسين أظهروا الدهشة وهجموا على معسكره حتى إذا ما دنوا من الحسين وأصحابه قال شمر مخاطباً سيدنا الحسين « تعجلت النار في الدنيا قبل القيامة » فعرفه وقال : « أنت أولى بها صلياً » ثمَّ تقدَّم من أعدائه بقلبٍ قُدَّ من الحديد وصاح بهم بصوته الجهير بحيث يسمعونه كلهم فقال : « أيّها الناس ، اسمعوا قولي ، ولا تعجلوني حتى أعظكم بما يجب لكم عليَّ ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم ، فإن قبلتم عذري ، وصدقتم قولي ، وأنصفتموني كنت بذلك أسعد ، ولم يكن لكم عليَّ سبيل ، وان لم تقبلوا مني العذر ، فاجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثمَّ لا يكن أمري عليكم غمة ، ثمَّ اقضوا عليَّ ولا تنظرون ، انَّ وليي الله ، الذي نزَّل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين » ولما انتهى إلى هذا المقام من قوله ارتفعت أصوات النواح والعويل والولاويل من خيام الحسين من أخواته ونسائه وبناته فدوت بآذان الجميع فنادى سيدنا الحسين أخاه العباس وابنه علياً وأمرهما أن يذهبا إليهنَّ ويسكتاهنَّ وقال لعمري ليكثر بكاؤهنَّ بعد اليوم فلما ذهبا قال : صدق عبد الله بن عباس فقد نصحني أن لا أذهب بهنَّ ولكن هذا أيضاً بقضاء الله ومن كان يعلم ان الناس يطلبوني ويتعهدون بنصرتي ثمَّ ينقلبون عليَّ ؟؟ . =

لَمَّا رَأَى نَفْسَهُ فَرْداً وَقَدْ هَرَبَتْ   مِنْهُ أَخِلاَّؤُهُ طَوْعاً لِرَاشِيْهَا

= وصبر سيدنا الحسين عليه السلام قليلاً ريثما سكتت النساء في الخيام فعاد إلى مخاطبة الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمد وعلى الملائكة والأنبياء وقال ما لا يحصى كثرةً فما سمع أبلغ منه ثمَّ قال : أمّا بعد ، فانسبوني ، فانظروا من أنا ؟؟ ، ثمَّ راجعوا أنفسكم فعاقبوها ، وانظروا هل يصلح لكم قتلي ، وانتهاك حرمتي ؟ ألست ابن بنت نبيّكم ؟؟ وابن وصيه ؟؟ وابن عمّه ؟؟ وأولى المؤمنين بالله ؟ ، والمصدق لرسوله ؟ ، أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّ أبي ؟ ، أو ليس جعفر الشهيد الطيار في الجنة عمّي ؟ ، أوَلم يبلغكم قول مستفيض : أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي ولأخي أنتما شباب أهل الجنّة وقرّة عين أهل السنة ؟ ، فإن صدقتموني فيما قلت ، وهو الحقُّ والله ما تعمدت كذباً ، مذ علمت أنّ الله يمقت عليه ، وان كذبتموني ، فإنَّ فيكم من ان سألتموه عن ذلك أخبركم ، سلوا جابر بن عبد الله ، أو أبا سعيد ، أو سهلاً بن سعد ، أو زيداً بن أرقم ، أو أنساً ، يخبروكم أنّهم سمعوه من رسول الله ، أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي ؟ » فاعترض شمر لعنه الله سيدنا الحسين قائلاً إنّي لأعبد الله على حرف إن كنت أدري ما تقول . فقال له حبيب بن مطهر ويلك يا شمر والله إنّي أراك تعبد الله على سبعين حرفاً وان الله قد طبع على قلبك فلا تدري ما تقول . فما عبىء سيدنا الحسين بما جال بين الإثنين واستتلى خطابه فقال : « أيّها الناس ، إن كنتم في شكّ مما أقول ، أو تشكّون في أنّي ابن بنت نبيّكم ، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري ، لا منكم ولا من غيركم ، أخبروني هل تطلبوني بقتيل منكم قتلته ؟ أو مال لكم استهلكته ، أو بقصاص من جراحة ؟ » وسكت قليلاً علّه يسمع جواباً فما أجابه أحد فوجّه خطابه إلى شيث بن ربعي وحجّار بن أبجر وقيس بن الأشعث وزيد بن الحارث وسمّاهم بأسمائهم وقال لهم : « ألم تكتبوا إليَّ أن أقدم عليكم ؟ » فقال هؤلاء بكل قحة كلا لم نفعل . فقال عليه السلام بلى فعلتم وكتبكم عندي . ثمَّ قال : « أيّها الناس ، أما وقد كرهتموني ، فدعوني أنصرف إلى مأمني من الأرض » فقال له قيس بن الأشعث حينئذٍ وكأنّه قد خجل عندما ذكره الحسين بكتابه يستدعيه إلى الكوفة ثم خرج مع الظالمين الذين خرجوا لقتاله : ألا تنزل على حكم ابن عمّك ؟ (ويريد يزيد بن معاوية على اعتبار العمومة الموجودة بين الهواشم والأمويين) فإنّك لن ترى إلّا ما تحبُّ . فقال الحسين : « أنت أخو أخيك » أتريد أن يطلبك بنو هاشم ، بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ ، لا والله ، ولا أعطيهم بيدي عطاء الذليل ، ولا أفرُّ فرار =

= العبد ، عباد الله ، إنّي عذت بربّي وربّكم أن ترحموني ، أعوذ بربّي وربّكم من متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » وأدار وجه فرسه . فتقدم من الناس زهير بن القين على فرسه وهو مدجَّج بالسلاح وقال : « يا أهل الكوفة ، بدارِ لكم من عذاب الله بدارِ ، إنَّ حقّاً على المسلم ، نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة على دين واحد ، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فإذا وقع السيف ، انقطعت العصمة وكنّا نحن أمّة وأنتم أمّة ، انَّ الله قد ابتلانا وإيّاكم بذريَّة نبيّه محمد ﷺ ، لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنّا ندعوكم إلى نصر الله ورسوله بنصر ابن رسوله ، وخذلان الطاغية ابن الطاغية ، يزيد بن معاوية ، وعامله عبيد الله بن زياد ، فإنّكم لا تدركون منهما إلاّ سوءاً ، يسملان أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ، ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جزوع النخل ، ويقتلان أمثالكم وقراءكم ، أمثال حجر بن عدي وأصحابه ، وهاني بن عروة وأشباهه ، فاغتاظ الناس مما سمعوه وسبوا زهير وأثنوا على يزيد وابن زياد وقالوا والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ، أو نبعث بهم سلماً إلى الأمير عبيد الله بن زياد . فقال زهير : يا عباد الله ، إنَّ ولد فاطمة أحقُّ بالودّ والنصر من ابن سمية (ويريد يزيد بن معاوية وهو ابن سمية لأنَّ سمية أمّ معاوية وجدة يزيد) فإن كنتم لا تنصرونهم ، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم ، خلوا بين الرجل وبين ابن عمّه يزيد بن معاوية ، فلعمري أنَّ يزيد يرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين » وما كاد ينتهي زهير عند قوله هذا حتى خاف الملعون شمر أن يؤثّر به على الناس فبادره بسهم رماه به وقال : اسكت أسكت الله نامّتك ، أبرمتنا بكثرة كلامك . فسبّه زهير وقال : والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين وابشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم . فضحك شمر وقال إنَّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة . فقال زهير أفبالموت تخوفني ؟ والله للموت مع الحسين أحبُّ إليَّ من الخلد معكم . ثمَّ رفع صوته وقال : عباد الله ، لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي ، فوالله لا تنال شفاعة محمد قوماً أهرقوا دماءَ ذريته ، وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم ، وذبَّ عن حريمهم . وإذ رأى سيدنا الحسين عليه السلام أنّ مثل هذا الكلام لا يؤثّر على قوم ختم الله على أبصارهم وآذانهم فأمره أن يسكت ويرجع فامتثل .

وعندما عزم عمر بن سعد على تنفيذ تلك الجريمة الشنعاء التي ترتجف لذكرها فرائص المسلمين تقدم منه الحر بن يزيد فقال له : أصلحك الله يا عمر أمقاتل أنت هذا =

= الرجل ؟ قال عمر : أي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي . قال : أفما لكم في هذه الخصال التي عرضها عليكم رضى ؟ فقال عمر والله لو كان الأمر إليَّ لفعلت ولكن أميرك (ويريد عبيد الله بن زياد) قد أبى ذلك . فتركه بغير جواب ورجع وهو نادم على ما فعلَ من حجزه الحسين أولاً وقد عرض عليه العودة إلى الحجاز وأخذ يتردَّد في أمره بين الإقدام على نصرة الحسين وهو لا يرى وراءَها إلّا الموت الزؤام مع كسب الجنة وبين حرب الحسين ويرى وراءَها الحياة مع خوض نار الجحيم وبينما هو في تردده اعترضه رجل يدعى المهاجر بن أوس قائلاً : والله يا حرّ إنَّ أمرك نمريب ، والله ما رأيت منك في موقف قطُّ مثل ما أراه الآن ، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ؟ لما عدوتك . فقال الحرُّ . إنّي والله أخير نفسي بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئاً ولو تقطعت إرباً وحرقت جثتي . قال هذا وهمز في خاصرة جواده فطار به نحو معسكر سيدنا الحسين فقصده وقال : جعلني الله فداك يا ابن رسول الله ، أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع ، وسايرتك في الطريق ، وجعجعت بك في هذا المكان ، ووالله ما ظننت أنّ القوم يردُّون عليك ما عرضت عليهم أبداً ، ولا يبلغون منك هذه المنزلة أبداً ، فقلت في نفسي لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم ، ولا يرون أنّي خرجت من طاعتهم ، وأمّا هم فيقبلون بعض ما تدعوهم إليه ، ووالله لو ظننت أنّهم لا يقبلونها منك ، ما ركبتها منك ، وإنّي قد جئتك تائباً مما كان مني إلى ربّي ، مواسياً لك بنفسي ، حتى أموت بين يديك ، أفترى ذلك توبةً ؟؟ قال الحسين نعم يتوب الله عليك ويغفر لك . وحينئذٍ استبشر الحرّ بتوبته وكرَّ على أعداء الحسين وصاح بهم فقال : أيّها القوم ، ألا تقبلون من الحسين خصلةً من هذه الخصال التي عرض عليكم ، فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟؟ فأجابه عمر بن سعد قائلاً : لقد حرصت لو وجدت إلى ذلك سبيلاً . فقال الحرُّ : يا أهل الكوفة ، لامكم الهبل والثكل ، أدعوتم الحسين ، حتى إذا أتاكم ، استلمتموه ، وزعمتم أنّكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثمَّ عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتم بنفسه ، وأحطتم به ، ومنعتموه من التوجيه في بلاد الله العريضة ، حتى يأمن ويأمن أهله ، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا يدفع عنها ضرّاً ، ومنعتموه ومن معه عن ماء الفرات الجاري ، يشربه اليهودي والنصراني والمجوسي . ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وها هو وأهله قد صرعهم العطش ؟ بئسما خلفتم محمداً في ذرّيته ، لا سقاكم الله يوم الظمأ ، ان لم تتوبوا وتنزعوا عمّا =

جَرِيْمَةٌ دُوْنَهَـا كُـلُّ آلْجَـرَائِمِ لاَ   يَنْفَكُّ ذُوْ آلدِّيْنِ يَشْكُـوْ مِنْ تَمَاسِيْهَـا

=أنتم عليه . فلما سمع الناس من الحرّ هذا التوبيخ بادروه بنبالهم فكرَّ راجعاً إلى الحسين عليه السلام . وعلى الأثر رمى عمر بن سعد معسكر الحسين بسهم وقال لأصحابه اشهدوا لي إنّي أول رامٍ فتبعه الناس برمي نبالهم غير خائفين الله ولا محترمين رسوله في ذريته عليهم لعنات الله إلى يوم الدين .

وبينما أصحاب يزيد يرمون أصحاب الحسين بنبالهم برز منهم يسار مولى زياد وسالم مولى عبيد الله وطلبا البراز فخرج عبد الله بن عمير الكلبي وكان قد أتى مع زوجه لنصرة الحسين من الكوفة فقالا له من أنت ؟ لا نعرفك . فانتسب لهما فقالا لا نعرفك فليخرج إلينا زهير بن القين أو حبيب بن مطهر أو برير بن خضير فقال الكلبي ليسار : يا ابن الزانية ترغب عن مبارزة أحد من الناس ولا يخرج إليك أحد إلاّ وهو خير منك وحمل عليه فضربه بسيفه وثنى وثلث فحمل سالم على الكلبي وضربه فاتّقى ضربته بيده اليسرى فطارت أصابعها فما كان من الكلبي إلاّ أن مال على سالم بسيفه فأهلكه ورأت امرأته وتسمى أم وهب ما كان من أمره مع خصميه فأسرعت إليه بعمود في يدها وهي تقول : فداك أبي وأمّي ، قاتل دون الطيبين ، ذرية محمد . فردَّها الكلبي نحو النساء فامتنعت وقالت : لن أدعك دون أن أموت معك فناداها الحسين عليه السلام قائلاً : جزيتم عن أهل البيت خيراً ارجعي رحمك الله ليس الجهاد إلى النساء فرجعت .

وبينما هذا البراز يجري زحف عمرو بن الحجاج وكان على ميمنة عمر بن سعد بفرسانه نحو معسكر الحسين فجثا أنصار الحسين على ركبهم واشرعوا رماحهم ليتلقوا هؤلاء الهاجمين الطغام فخافت الخيل من الدنوّ منهم ورجعت بهم فرماهم رجال الحسين بنبلهم فقتلوا منهم رجالاً وجرحوا آخرين وتقدم رجل منهم يقال له ابن حوزة وقال أفيكم الحسين ؟ قالوا نعم فما حاجتك قال لعنه الله أبشر يا حسين بالنار فأجابه عليه السلام كذبت بل أقدم على ربّ رحيم وشفيع مطاع فمن أنت ؟ قال ابن حوزة . فرفع الحسين يديه فقال اللهمَّ ، حزَّه إلى النار . فغضب واقحم فرسه في نهر بينهما فتعلقت قدمه بالركاب وجالت به الفرس فسقط منها فانقطعت فخذه وساقه وقدمه وبقي جنبه الآخر متعلقاً بالركاب يضرب به كل حجر وشجر حتى مات وذهبت روحه إلى النار . وكان مسروق بن وائل الحضرمي قد خرج معه رجال ابن زياد وهو يعلل نفسه أن يقتل الحسين ويصيب بذلك منزلةً عند ابن زياد فلما رأى ما حلَّ بابن حوزة بدعاء=

=الحسين ارعوى وتاب ورجع أدراجه وهو يقول . لقد رأيت من أهل البيت شيئاً مخيفاً فلا أقاتلهم أبداً .

واشتبك القتال بعد هذا وكثرت المبارزة بين رجال الحسين ورجال ابن زياد وكان الله في عون رجال الحسين القلائل فقتلوا خلقاً كثيراً من الجموع الكثيفة الهاجمة عليهم وكان قتالاً تشيب له الأطفال وبالحقيقة أنّ رجال الحسين وهم ٣٢ فارساً و٤٠ من المشاة قد أبلوا أعظم بلاء برجال يزيد وذلك بكرامة المصطفى وآل بيته عليهم الصلاة والسلام وما انتصف النهار حتى كان قد استعر القتال وكثر عدد الهلكى واستبسل الألوف الذين كللتهم لعنة الله وأنبيائه والناس أجمعين إلى يوم الدين فعقروا خيولهم وأصبحوا مشاةً وهاجموا معسكر سيدنا الحسين وخيامه وما زالوا يأتونه بفظائعهم التي ترتجف الفرائص عند ذكرها حتى انتهى شمر إلى فسطاط الحسين فنادى عليَّ بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله فصاحت أخوات الحسين وبناته وخرجن وصاح به الحسين أنت نحرق بيتي على أهلي أحرقك الله بالنار واعترض حميد بن مسلم وشيث بن ربعي شمر وكفاه عن حرق بيت الحسين وإهلاك نسائه وأطفاله وذهب لينصرف فحمل عليه زهير بن القين في عشرة رجال فكشفهم عن البيوت بعد أن هلك من رجال ابن زياد خلق كثير أهلكهم رجال الحسين ولكن لقلّة هؤلاء كان إذا قتل منهم واحد أو اثنان يظهر فيهم خلافاً لأولئك الذين لكثرتهم لم يؤثر عليهم هلاك من هلك منهم .

ثمَّ كانت قد حانت الظهيرة فتقدم أبو ثمامة الصائدي من سيدنا الحسين وقال له نفسي لنفسك فداء فإنّي أرى هؤلاء قد اقتربوا منك والله لا تقتل حتى أقتل دونك وأحبُّ أن ألقى ربّي وقد صلّيت الظهر معك فقال الحسين أذكرتني بالصلاة جعلك الله من المصلّين الذاكرين نعم هذا أول وقتها ثمَّ نادى بمن حوله سلوهم أن يكفوا عنّا حتى نصلّي ففعلوا فلم يجبهم أصحاب ابن زياد بل واصلوا القتال فكثر القتل والجرح نحو الساعة فقتل الحرّ بن يزيد في جملة من قتل من أصحاب الحسين وفي هذه الأثناء صلّى الحسين بالبقية الباقية من أصحابه صلاة الخوف ثمَّ استأنفوا القتال فكان على أشدّه فقتل خلق كثير من أصحاب ابن زياد وأصحاب الحسين القلاقل وفيهم زهير بن القين وعند العصر رأى أصحاب الحسين وباتوا لا يتجاوزون عدد الأصابع أنّهم يعجزون عن حمايته فأخذوا يتنافسون على السبق للقتل بين يديه متفانين دونه حتى قتلوا=

جَـرِيْمَـةُ كُـلُّ عَـاشُـوْرَاءَ تُـذْكِـرُنَـا   بِهَـا وَلَيْسَ كُـرُوْرُ آلـدَّهْرِ يُنْسِيْهَـا

=جميعاً فبارك الله في هذا الإخلاص الذي أبدوه وباتوا معه في الجنة شهداء .

ومما يذكر أنّ سيف بن الحارث بن سريع ومالك بن عبد بن سريع جاءَا الحسين وهما يبكيان فقال عليه السلام وما يبكيكما ؟ إنّي لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري عين . فقالا والله ما على أنفسنا نبكي ولكن نبكي عليك نراك قد أحيط بك ولا نقدر أن نمنعك . فقال جزاكما الله جزاء المتقين . وتقدما بعد ذلك من الناس فما زالا يراميانهم بالنبال ويضاربانهم بالسيوف حتى قتلا . وجاء حنظلة بن سعد الشامي فوقف بين يدي الحسين وجعل ينادي : يا قوم ، إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح ، وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد ، يا قوم ، إنّي أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فليس له من هاد. يا قوم ، لا تقتلوا الحسين ، فيستحكم الله بعذاب ، وقد خاب من افترى . فاعترضه الحسين عليه السلام قائلاً رحمك الله ، قد استوجبوا العذاب ، حين ردُّوا ما دعوتهم إليه من الحقّ ، ونهضوا ليستبيحوك وأصحابك ، فكيف بهم الآن ، وقد قتلوا أخواتك الصالحين ؟ فما كان من حنظلة إلاّ أن سلم على الحسين وصلّى على جدّه المصطفى وأبيه المرتضى وآلهما الأخيار وقاتل حتى قتل . وهكذا كان يفعل أصحابه القلاقل الباقون فيقتلون وكان آخر شهيد منهم سويد بن أبي المطاع الخثعمي .

وكان أول من قتل من بني أبي طالب في ذلك اليوم المشؤوم الأسود هو علي الأكبر بن الحسين وأمّه ليلى بنت أبي مرَّة بن عروة بن مسعود الثقفية فإن هذا البطل لعلوي الحسيني حمل على أعداء الله ورسوله لعنهم الله وهو يقول :

أنـا علي بن الحسين ابن علي   نحن وربِّ البيت أولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

فحمل عليه مرّة بن منقذ لعنه فطعنه فصرع فهجم عليه أولئك الوحوش وأعملوا في جسده الشريف سيوفهم فلما رأى سيدنا الحسين ما حلّ بابنه وفلذة كبده عليهما السلام قال : قتل الله قوماً قتلوك يا بنيّ ، قاتلهم الله ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة رسوله ، على الدنيا من بعدك العفا . وأقبل عليه ومعه فتيانه فقال لهم : احملوا أخاكم . فحملوه حتى وضعوه بجانب الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه . وقتل بعد=

=ذلك نفر فيهم أولاد عقيل بن أبي طالب . وتقدم القاسم بن علي وبيده السيف فحمل عليه عمرو بن سعد بن نفيل الأزدي لعنه الله فضرب رأسه بالسيف فسقط القاسم إلى الأرض وهو يصيح يا عمّاه فانقضّ الحسين إليه كالصقر ثمَّ شدَّ شدَّة ليث أغضب فضرب عمراً بالسيف فاتّقاه بيده فقطع يده من المرفق فصاح وحملت خيل الكوفة ليستنقذوا عمراً فاستقبلته بصدورها وجالت عليه فوطئته حتى مات وانجلى الغبار والحسين واقف على رأس القاسم بن الحسن وهو يفحص برجليه والحسين يقول بعداً لقوم قتلوك ، وخصمهم فيك يوم القيامة جداك المصطفى والمرتضى . ثمَّ قال : « عزَّ والله على عمّك ، أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك ثمَّ لا ينفعك صوته ، والله هذا يوم كثر واتره ، وقلَّ ناصره » ثمَّ إنَّ سيدنا الحسين عليه السلام حمل القاسم على صدره وسار به فألقاه بجانب ابنه علي ومن قتل معه من الطالبيين بجوار الفسطاط .

وكان الملعون عبد الله بن عقبة الغنوي قد قتل أبا بكر بن الحسين بن علي بسهم فهجم إخوته العباس وعبد الله وجعفر وعثمان أولاد الحسين على الناس فقتلوا خلقاً كثيراً منهم عن آخرهم كما قتل أيضاً محمد بن علي بن أبي طالب قتله رجل من بني أبان لعنه الله .

ومما يحسن ذكره هو أنّ سيدنا الحسين عليه السلام كان متعرضاً طول مدّة القتال إلى أعدائه الأشرار وهم يكرهون قتله فلا يقدمون عليه ولو راموا أن يقتلوه من بدء الموقعة لما تعذَّر ذلك عليهم وما زال متعرضاً لنبالهم وسيوفهم إلى عصر ذلك النهار المشؤوم والقتل دائر والأرواح تباع فيه بيع السماح وحينئذٍ تقدم من الحسين خبيث زنديق كافر من كندة يقال له مالك بن النسيز فضربه لعنه الله على رأسه الشريف بالسيف فقطع البرنس وأدمى رأسه وامتلأ البرنس دماً . فقال له الحسين : لا أكلت بيمناك ولا شربت وحشرك الله مع الظالمين وألقى عليه السلام البرنس ولبس القلنسوة وأخذ الكندي البرنس .

ثمَّ إنَّ سيدنا الحسين على ما ذكرنا من جرحه في رأسه الشريف دعا بابنه عبد الله وهو طفل صغير كان على شفير الهلاك من الظمأ يصيح الماء الماء وأجلسه في حجره وقال أيّها الظالمون ألا تسقوا هذا الطفل البار نهلةً من الماء ؟ فرماه زنديق من بني أسد لعنه الله بنبلة قضت عليه فأخذ الحسين دم طفله فصبّه في الأرض وقال : ربِّ إن تكن حبست عنّا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير ، وانتقم من هؤلاء الظالمين . =

= ثمَّ إنَّ سيدنا الحسين عليه السلام اشتدَّ عليه العطش فجرَّر نفسه إلى الفرات وهو قريب من مجثمه ليشرب وكان الدم المتدفق من جرح رأسه قد صبغ شيبته الطاهرة حلةً أرجوانية فرماه الملعون حصين بن نمير بسهم فوقع في فمه الطاهر عليه السلام فجعل يتلقى الدم بيمناه ويرمي به إلى السماء وهو ناظر إليها بخشوع وعيناه مغرورقتان بالدموع . ثمَّ حمد الله وأثنى عليه وقال : اللهمَّ ، إنّي أشكو إليك ، ما يصنع هؤلاء ، بابن بنت نبيّك ، اللهمَّ ، أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً . قال هذا وحمل نفسه فجرَّرها يريد الرجوع إلى فسطاطه فاعترضه الملعون الأكبر شمر بن ذي الجوشن ومعه عشرة رجال فحالوا بينه وبين الفسطاط فقال لهم الحسين عليه السلام : ويلكم ، إن لم يكن لكم دين ، وإن كنتم لا تخافون يوم المعاد ، فكونوا أحراراً ذوي أحساب ، امنعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهالكم . فقال شمر الملعون : ذلك لك يا ابن فاطمة . قال شمر هذا وهجم على الحسين بأصحابه الفجّار الملاعين وهم عبد الرحمن الجعفي ، والقشعم بن نذير الجعفي ، وصالح بن وهب البزني ، وسنان بن أنس النخعي ، وخولي بن يزيد الأصبحي ، وبحر بن كعب بن تيم الله ، وأربعة آخرين وطفق شمر الملعون يحرّضهم على الإقدام على قتل الحسين وهو يحمل عليهم فينكشفون رهبةً لمقامه النبوي العظيم . ثمَّ إنّهم لعنهم الله أحاطوا بالحسين . وفي هذه الأثناء تقدم أحد عبيد الحسين فاخترق أولئك الأشرار ووقف إلى جانب سيدنا وسيده يريد الموت دونه . فتقدم الملعون بحر بن كعب والسيف مشهر بيده يريد الفتك بسيد شباب الجنة فاعترضه العبد قائلاً : يا ابن الخبيثة أتقتل عمّي ؟؟ (وكان العبيد يسمون مواليهم أعماماً من يوم نزلت آية﴿ **ما كان محمد أبا أحد** ﴾ في قصة زيد وكانوا قبلها يسمونهم آباءً وما زال هذا حال الموالي مع أسيادهم في العراق إلى يوم الناس هذا فإنّهم يسمونهم أعماماً اهـ) فما كان من الملعون بحر إلاّ أنّه ضرب الغلام فاتّقى العبد السيف بيمناه فأطنت إلى الجلدة . فنادى العبد يا أمتاه فاعتنقه الحسين وقال له : يا ابن أخي اصبر على ما نزل بك فإنّ الله يلحقك بآبائك الطاهرين الصالحين (ويريد أسياده) برسول الله وعلي وحمزة وجعفر والحسن . ثمَّ رفع سيدنا الحسين عينيه إلى السماء وقال : اللهمَّ أمسك عنهم قطر السماء ، وامنعهم بركات الأرض ، اللهمَّ ، فإن منعتهم إلى حين ، ففرقهم فرقاً ، واجعلهم طرائق قدداً ، ولا ترضي عنهم الولاة أبداً ، فإنّهم=

وَهْيَ ٱلَّتِيْ أَوْجَدَتْ هٰذَا ٱلتَّجَـزُؤَ فِيْ ٱلْأَعْرَابِ وَٱلشَّـرُّ مِنْ مُشْجِيْ تَجَزِّيْهَـا

=دعـونا لينصـرونا ، فعـدوا علينا فقتلونـا . ثمَّ إنَّ سيدنـا الحسين عليه السلام هجم على أولئك الأشرار هجمةً علويةً طالبيةً متّخذاً من الضعف قوَّةً وحالـه معهم ما عـرفنا فكشفهم عنـه ثمَّ عادوا إليه وقد أتاهم غيرهم مدداً لهم فأحاطوا به عن يمينه ويساره فحمل على الذين عن يمينه ففرقهم وكرَّ على الذين عن يساره ففرقهم ولم يـروِ التاريـخ عن شجاع مقهـور كالحسين قتل أبناؤه وإخوانه وأصحابه ولم يبق بقربـه غير النسـاء ينحن ويولـولن ويعولن وهـو رابط الجأش ثـابت الجنان أجـرأ ما يكـون في موقف الـطعان بينمـا يـرى أعـداءَه يتكاثرون عليه وليس له من معين ونصير وأولئك الأعـداء ينكشفون من حـوليه انكشـاف المعزى عن الذئب معاذ الله بل قل عن الأسد الغاصب ولعمري من كان جدّه المصطفى وأبوه المرتضى لخليق به أن يكون واحداً بمقام ألف .

وبينما كان سيدنا الحسين عليه السلام في موقفه المحزن أمام أولئك الوحوش المفترسـة خرجت أخته زينب وهي محلولة الشعر دامعة العين وكانت تقول : ليت السماء انـطبقت على الأرض . ومـا كـادت عليها السلام تـدنـو من الحسين حتى كـان عمـر بن سعـد قـد دنـا منه عليه السلام مدداً لشمر وأصحابه الذين عجزوا عن قتل سيد الشهداء فقالت له : يا عمر . أيقتل أبو عبد الله ، وأنت تنظر ؟ فبكى حتى سـالت دموعـه على خديـه ولحيته وصـرف وجهـه عنها وكـان الحسين في ذلك الـوقت يجول بين أعـداء الله ورسولـه جولـة الأسد الغـاضب ويقول : أعلى قتلي تجتمعـون ؟ أمّا والله لا تقتلون بعـدي عبداً من عبـاد الله أسخط عليكم لقتله منّي ، وأيم الله إنّي لأرجـو أن يكرمني الله بهـوانكم ، ثمَّ ينتقم لي منكم ، بسفـك دمائكم ، ثمَّ لا يـرضى بذلـك منكم حتى يضاعف لكم العـذاب الأليم يوم القيامة .

وظـلَّ الحسين مدَّة غيـر قصيرة على هـذه الحال بين أعـدائه ولو شاءُوا قتله لقتلوه فإنّهم جماعة وهو فرد مهما كانت قوته عظيمة وشجاعته نادرة ولكن كـان أولئك الأشـرار يتهيبـون قتل البضعـة النبويّـة الطاهـرة فيتقي بعضهم ببعض ويحبُّ كـلٌّ منهم أن يكـون القاتل سواه فلمّا طال المطال عليهم ناداهم اللعين شمر قائلاً : ويحكم مـاذا تنتظرون ؟ اقتلوه ثكلتكم أمّهاتكم . فحملوا عليه لعنهم الله من كل جانب حملة لئام أشرار كفرة لا يهابون الله ولا يحترمون رسوله . فضرب الملعون زرعـة بن شريـك التميمي بسيفه كف الحسين وثنى الضربة على عاتقه فجعل عليه السلام يقوم ويَكبو فحمل عليه الملعون سنـان بن=

= أنس النخعي فطعنه برمحه ونادى بالملعون خولي بن يزيد الأصبحي قائلاً احتزَّ رأسه بالحال فحاول هذا الشرّير أن يفعل فضعف وأرعد فصاح به الملعون سنان قائلاً : فتَّ الله عضدك ونزل إليه عليه السلام فذبحه واحتزَّ رأسه الشريف فدفعه إلى الملعون الخولي .

فيا سماء اغضبي ويا أرض انشقّي ويا شمس أظلمي ويا قلوب تقطري لوعةً وأسى فإنَّ ابن رسول الله وسيد شباب الجنة قد ذُبح ذَبح الخروف بأيدي فسقة كفّار أشرار يدعون الإسلام كذباً ونفاقاً فيا ويلاه ويا نكبتاه ولا حول ولا قوة إلاّ بالله والأمر لله .

وبعد أن تمَّ القضاء وقتل سيدنا الحسين قتل الشهداء بفظاعةٍ وحشيةٍ ترتجف لها القلوب وتتفتت لهولها الضلوع هجم أولئك الفساق الفجرة فأخذوا أسلابه فكانت سراويله من حظّ الملعون بحر بن كعب وقطيفته من حظ الملعون قيس بن الأشعث فصار يسمّى بعدها قيس قطيفة ونعلاه من حظّ الملعون الأسود الأودي وسيفه من حظّ ملعونٍ من رجال دارم ومال أولئك الأشرار بعد ذلك على الفرش والحلل والإبل فنهبوها ونهبوا ثقله ومتاعه وما على نسائه وأخواته حتى كانت هاتيك السيدات الشريفات العلويات الهاشميات عرضةً لأولئك الفسّاق ينتزعون عنهنَّ بتوحشٍ أثوابهنَّ ويتركونهنَّ عرايا فهل سمع الأولون والآخرون بشرّ مثل هذا الشرّ وفظاعة مثل هاته الفظاعة وهل يخطر على قلب بشر أنَّ قوماً يدعون الإسلام ويأتون مثل هذا الإثم والفظائع مع أشرف أشراف المسلمين بالإجماع وينتهكون بهنَّ حرمة المصطفى والمرتضى عليهما الصلاة والسلام .

وما اكتفى هؤلاء الفسّاق الكفّار بهذه الشرور حتى أرادوا أن يستأصلوا النسل الطاهر فطلبوا سيدنا علي زين العابدين بن الحسين وكان صبياً محموماً بين النساء يريدون قتله أراد ذلك الملعون شمر فاعترضه حميد بن مسلم قائلاً سبحان الله أتقتل الصبيان المرضى فدعه بين النساء وبينما كان حميد يعترض شمر وصل عمر بن سعد فدخل فسطاط الحسين وأخرج أولئك الفساق منه ومنع شمر عن إتمام جرائمه الفظيعة بقتل سيدنا علي زين العابدين وأمر الناس أن يردّوا ما نهبوا من النساء فما ردَّ أحدهم شيئاً مما أخذ .

ثم خرج عمر بن سعد لعنه الله خارج الفسطاط وصاح بالناس من ينتدب إلى=

وَمَا سِوَى خَزْعَلٍ فِي ظِلِّ بَيْتِ رَسُوْ ل ِ آللَّهِ يَجْمَعُهَا يُحْيِي أَمَانِيْهَا

=الحسين فيوطئه فرسه فانتدب عشرة منهم الملعون إسحاق بن حياة الحضرمي فأتوا فداسوا الجسد الحسيني الشريف بخيولهم حتى رضّوا ظهره وصدره ووجد بعد ذلك في جسده الطاهر ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية . ثمَّ دفن سيدنا الحسين وأولاده وإخوته وأصحابه في ذلك الموضع المسمّى كربلاء أهل الفاخرية من بني أسد في اليوم التالي لمقتلهم الفاجع .

ثمَّ إنَّ عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن أرسلا رأس سيدنا الحسين ورؤوس أصحابه إلى الملعون عبيد الله بن زياد مع خولي يزيد وحميد بن مسلم الأزدي لعنهم الله فلما قدما الكوفة قصدا الملعون بن زياد بالرؤوس الشريفة فجلس لعنه مجلساً عاماً وأذن للناس فدخلوا عليه وأمر بالرؤوس فأحضرت بين يديه فمدَّ قضيباً بيمناه وجعل ينكث به ثنيتي سيدنا الحسين عليه السلام فعل ذلك طويلاً فناداه زيد بن الأرقم قائلاً : أعلُ هذا القضيب عن هاتين الشفتين ، فوالذي لا إلَه غيره ، لقد ربت شفتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، على هاتين الشفتين يقبلهما . قال هذا زيد بن الأرقم وبكى فصاح به الملعون ابن زياد قائلاً : أبكى الله عينك ، فوالله لولا أنّك شيخ خرفت ، وذهب عقلك لضربت عنقك . فغضب زيد وخرج وهو يقول : أنتم معشر العرب ، لعبيد بعد اليوم ، قتلتم ابن فاطمة، وأمّرتم بن مرجانة (ويريد عبيد الله بن زياد) فهو يقتل خياركم ، ويستعبد شراركم ، بالذلّ ، فبعداً لمن يرضى بالذلّ .

أمّا عمر بن سعد فإنّه أقام يومين بعد هذه الفاجعة الفظيعة التي أورثت المسلمين الحزن والشجن إلى يوم الدين في تلك الأرض المقدسة التي استشهد بها خير الشهداء ثمَّ قدم الكوفة ومعه بنات الحسين وأخواته ومن كان معه من الصبيان وعلي زين العابدين بن الحسين وهو محموم مريض فاجتاز بهم على مدافن الشهداء فصاحت النساء ولطمن خدودهنَّ وصاحت السيدة زينب بنت علي : يا محمداه ، صلّى عليك ملائكة السماء ، هذا الحسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطع الأعضاء ، وبناتك سبايا ، وذرّيتك مقتلة تسفي عليها الصبا . وكان قولها هذا مبكياً أولئك الأعداء الفسّاق الأشرار .

ولما انتهى عمر بن سعد بهاتيك السبايا إلى الكوفة سار بهم إلى بيت الملعون عبيد الله بن زياد فوضعن في غرفة ثمَّ دخل عليهنَّ ابن زياد لعنه الله وقال : الحمد لله=

=الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم فقالت زينب بنت علي بشممها المحمدي : الحمد لله ، الذي أكرمنا بمحمد ، وطهرنا تطهيراً ، لا كما تقول يا كافر ، وإنّما يفتضح الفاسق ، ويكذِّب الفاجر . فقال لعنه الله : فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟ قالت : لقد كتب عليهم القتل ، فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم ، فتختصمون عنده . فغضب الملعون ابن زياد وقال : قد شفى الله غيظي من طاغيتك ، والعصاة المردة من أهل بيتك . فبكت السيدة زينب وقالت : لعمري لقد قتلت كهلي ، وأبرزت أهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي ، فإن يشفك هذا الداء ؟ فقد اشتفيت . فقال الملعون : هذه شجاعة ولعمري لقد كان أبوك شجاعاً . فقالت السيدة زينب : ما للمرأة والشجاعة ؟ فخزاه الله وسكت .

ثمَّ التفت الملعون ابن زياد إلى سيدنا علي زين العابدين فقال له ما اسمك ؟ قال علي بن الحسين . فقال لعنه الله : أو لم يقتل الله علي بن الحسين ؟ فسكت ذلك السيد الصبي ولم يتكلم . فقال الملعون ابن زياد . ما لك لا تتكلم ؟ فقال : كان لي أخ يقال له أيضاً علي فقتله الناس . فقال ابن زياد لعنه الله : إنَّ الله قتله فقال ذلك السيد الصبي : إنَّ الله سبحانه يتوفى الأنفس عند موتها وما كان لنفس أن تموت إلاَّ بإذن الله . فهزَّ الملعون ابن زياد رأسه وقال والله إنّ هذا الصبي لمن تلك الدوحة . ثمَّ أمال رأسه إلى أحد أتباعه وقال : أنظر هذا الصبي هل أدرك ؟ إنّي لأحسبه رجلاً فكشف عنه ذلك الرجل وكان يدّعي مري بن معاذ الأحمري وقال نعم قد أدرك فقال الملعون ابن زياد أقتله ويحك . فاعترضه سيدنا علي زين العابدين بجرأةٍ هاشميةٍ قائلاً : ويلك إن أنا قتلت فمن توكل بهذه النسوة ؟ وما كاد يتمّ عليه السلام كلماته حتى أسرعت السيدة زينب واعتنقت ابن أخيها وقالت : يا ابن زياد حسبك منّا ، أما رويت من دمائنا ؟ وهل أبقيت منّا أحداً غير هذا الغلام ؟ فأسألك بالله إن كنت مؤمناً أن تقتلني معه ما دمت مصرّاً على قتله . وما انتهت من قولها حتى قال سيدنا علي زين العابدين : إن كان بينك وبين هاته النساء قرابة فابعث معهنَّ رجلاً يصحبهنَّ بصحبة الإسلام وبعد ذلك فاقتلني . فصمت ابن زياد مدةً يفكر ثمَّ قال : دعوا الغلام ينطلق مع نسائه وخرج .

وبعد أن خرج الملعون ابن زياد من غرفة النساء قصد المسجد الأعظم ونادى=

=الصلاة الجامعة فاجتمع الناس فصلّى بهم ثمَّ علا المنبر خطيباً فقال : الحمد لله ، الذي أظهر الحقَّ وأهله ، ونصر أمير المؤمنين وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته . قال هذا ذلك الملعون ابن الملعون ولم يخف الله ولم يحترم رسوله ولا راعى ضميره وذمته وما خلا المسلمون وقتئذٍ من ذي حمية ودين وهو عبد الله بن عتيق الأزدي وكان شيخاً ضريراً من بقايا السلف الصالح قد فقد إحدى عينيه يوم الجمل والأخرى يوم صفين في أثناء جهاده تحته راية سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فلما سمع هذا الصالح أنَّ الملعون ابن زياد يتهجم على سيدنا الحسين وأبيه بالهجر واللغو والسفاهة وثب عليه وقال : يا ابن مرجانة ، إنَّ الكذاب ابن الكذاب ، هم أنت وأبوك ، والذي ولاّك وأبوه ، يا ابن مرجانة ، أتقتلون أبناء النبيين ، وتتكلمون بكلام الصديقين ؟ فغضب الملعون ابن زياد من ذلك الصالح المجاهد في سبيل الله الملازم المسجد للصلاة من الصباح إلى المساء عبد الله بن عتيق الأزدي وأمر بأخذه فأمسك به زبانيته الملاعين ثمَّ نادى بشعار الأزد « يا مبرور » فوثب إليه فتية من الأزد فانتزعوه من بين الناس وقتلوه شرَّ قتلةٍ . وما اكتفى الملعون ابن زياد بهذا حتى زاد عليه أن أمر بصلبه فصلب على ملأ من الناس ليكسر قلوبهم .

ثمَّ إنَّ الملعون ابن زياد أمر أن يطاف برأس الحسين في الكوفة فطاف أصحابه لعنه ولعنهم الله بالرأس الشريف وأراد بذلك أن يدخل الرهبة على أهل الكوفة الذين كان يعلم تشيعهم لسيدنا علي وأولاده عليهم وعلى المصطفى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام .

ثمَّ إنَّ الملعون ابن زياد كتب إلى الملعون يزيد بن معاوية ينبئه بهذه الفاجعة فقال : « أبشر يا أمير المؤمنين ، بفتح الله وبنصره ، وبعد ، فقد ورد علينا الحسين بن علي ، في ثمانية عشر من أهل بيته وأربعة وخمسين من شيعته ، فسرنا إليهم فسألناهم أن ينزلوا على حكم أمير المؤمنين (ويريد يزيد) أو القتال ، فاختاروا القتال ، فعدا عليهم جيش عمر بن سعد مع شروق الشمس ، فأحاطوا بهم من كلّ ناحية ، حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم ، جعلوا يهربون إلى غير وزر ، ويلوذون بالآكام والحفر ، كما لاذت الحمائم من صقر ، فوالله ما هو إلاَّ جزر جزور ، أو نومة قائل ، حتى أتينا على آخرهم ، فأصبحت أجسادهم مجرَّدة ، وثيابهم مرملة ، وخدودهم =

= معفرة ، تصهرهم الشمس ، وتسقي عليهم الريح ، زوّارهم العقبان والرخم ، في بقاع سبسب » اهـ فلما انتهى الكتاب إلى يزيد بن معاوية فرح به واستبشر وأرسل إلى ابن زياد يحمد له صنيعه ويبشره برضائه إلّا أنّه تخوَّف من غضب الناس عليه إن هم سمعوا ما فعله عامله لعنهما الله بآل البيت الطاهر ما لا يفعله الكفّار المؤمنين فجعل يقول بين أصحابه إنَّه ما كان يريد قتل الحسين وإخوته وأبنائهم وإنّه مستاء من هذه الجريمة الشنعاء وطفق هؤلاء يشيعون ذلك عنه مع أنَّ قلبه كان يتهلل فرحاً بما كان بل أنّ ما كان لم يكن إلاّ بأمره وما كان ابن زياد ليقدم على فعلته الشنعاء لولا أن يستأنس برضائه .

على أنَّ يزيد أرسل إلى ابن زياد مع شكره له يأمره أن يرسل الرؤوس الشريفة والسبايا الكريمة إلى دمشق فأرسلها له ابن زياد مع شمر بن ذي الجوشن ومحفر بن ثعلبة فلما وصلا بركبهما إلى دمشق الشام طفقا يناديان بالأسواق قائلين جئنا برأس أحمق الناس فكان الناس يلتفون حولهما ويردّدون مقالتهما حتى إذا ما انتهيا إلى دار الأمارة دخلا على يزيد وكان مجلسه عامراً بعلية الناس فوضعا الرأس الشريف بين يديه وحدثاه بشرّ ما صنعت جنوده مما أغضب الله ورسوله وملائكته وأنبياءه والصالحين وأفرح الكفّار والمشركين والفسقة الفاجرين وكان يزيد وأصحابه يصغون إلى ذلك الحديث وهم منذهلون وكان أكثرهم انذهالاً يزيد لإكباره الجريمة وهو الآمر بها وأتمها على عنقه قبل غيره لا خوفاً من الله ورسوله بل لحذره من سوء وقعها في نفوس المسلمين وبينما هو لكذلك وإذا بهند بنت عبد الله بن عامر بن كريز وكانت زوج يزيد قد سمعت من وراء الحجاب قصة تلك الفاجعة المخيفة فتقنعت بثوبها وخرجت فقالت يا أمير المؤمنين أهذا رأس الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ؟ قال يزيد نعم فاعولي عليه وحدّي فأخذت تعول وتبكي . وبينما هند تبكي وتندب صريحة قريش وسيد شباب الجنة عليه السلام جعل الملعون يزيد ينكث ثغر الحسين بقضيب في يده فاعترضه أبو برزة الأسلمي قائلاً : أتنكت بقضيبك في ثغر الحسين ؟ أما لقد أخذ قضيبك في ثغره مأخذاً طالما رأيت رسول الله ﷺ يرشفه ، أما أنّك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ، ويجيء هذا ومحمد شفيعه . قال هذا وولّى هارباً واكمدَّ وجه الملعون يزيد ولم يحر جواباً .

ثمَّ إنَّ يزيد صرف الناس وطلب نساء الحسين والرأس الشريف بين يديه فجعلت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين تتطاولان لتنظرا إلى الرأس وجعل يزيد لعنه الله يتطاول =

= ليستره عنهما فلما رأتا الرأس صاحتا فصاحت بقية نساء الحسين وصاحت نساء يزيد من داخل الدار وولولت بنات معاوية . ثمَّ إنَّ فاطمة بنت الحسين تقدمت بجرأةٍ من يزيد وقالت له : أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟ فقال يزيد وهو في أشدّ الهمّ والقلق إنّي لهذا كنت أكره . قالت والله ما تُرك لنا خرص . فقال يزيد لعنه الله : ما يؤتى إليكنَّ أعظم مما أخذ منكنَّ . وكان أحد أهل الشام حاضراً بقرب يزيد فقال له هب لي هذه (ويريد فاطمة) فأخذت فاطمة بثياب أختها زينب مستجيرةً فقالت زينب كذبت ولؤمت ما ذلك لك ولا ليزيد . فغضب يزيد لعنه الله وقال كذبت أنتِ والله إنَّ ذلك لي ولو شئت أن أفعله لفعلته . قالت : كلاَّ والله ما جعل الله لك ذلك إلاَّ أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا . فازداد يزيد لعنه الله غضباً واستطار حقداً وقال إياي تستقبلين بهذا ؟ إنّما خرج من الدين أبوك وأخوك . فقهقهت زينب ساخرةً به وقالت إنّما بدين الله ودين أبي وأخي وجدّي اهتديت أنت وأبوك وجدّك . قال لعنه الله كذبتِ يا عدوّة الله . قالت أنت أمير تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك . فاستحى يزيد من نفسه وسكت عن سفاهته ورقاعته وأمر بالسيدات آل البيت الطاهر عليهنَّ السلام أن يدخلن داره فدخلنها واجتمعت عليهنَّ نساء يزيد وأقمن معهنَّ المآتم . فكنَّ بذلك أحسن تديناً من رجالهن .

ثمَّ إنَّ الملعون يزيد بن معاوية أمر بسيدنا علي زين العابدين عليه السلام أن يؤتى به إليه فادخلوه عليه وهو مصفد بالأغلال فلما وقعت عينا ذلك الصبي النبيل على الملعون يزيد قال : والله لو رآنا جدُّنا رسول الله مغلولين لفكَّ عنا . قال يزيد صدقت وأمر بفك أغلاله ففكت . فقال سيدنا علي زين العابدين : والله لو رآنا جدُّنا بعداء لأحبَّ أن يقرّبنا فأمر به فقرّبه منه وقال له معتذراً : إيهِ يا علي بن الحسين إن أباك هو الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما رأيت فتبسم سيدنا علي زين العابدين وقال : ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاَّ في كتابٍ من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحبّ كلَّ مختالٍ فخور . فقال يزيد لعنه الله : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم .

وأقام سيدنا علي زين العابدين وسيداتنا الطالبيات عند يزيد مدّةً ثمَّ سيرهنَّ معه بالإكرام والهدايا إلى المدينة المنورة فأقاموا فيها موضع إجلال المسلمين بجوار جدهم المصطفى . =

= ولقد أكبر المسلمون فاجعة سيد الشهداء سيدنا الحسين وكرهوا يزيد لأجلها وأخذوا يلعنونه سرّاً وجهراً وما زالوا يلعنونه وسيظلون يلعنونه إلى يوم الدين وما فيهم إلاّ من يردّد قول الشاعر :

أيّها القاتلون جهلاً حسيناً ... أبشروا بالعذاب والتنكيلِ
كلُّ من في السماء يدعو عليكم ... من نبيّ وملأك وقبيلِ
قد لعنتم على لسان ابن داو ... دٍ وموسى وصاحب الإنجيلِ

وعند هذه الفاجعة الكبرى نقول ردّاً على الذين يحسبون أنَّ جهاد العلي والحسين عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام في سبيل الخلافة هو من قبيل التزاحم على الملك ورغبةً في التسوُّد إنَّ هذا لم يخطر لهما على بال بل كانا أزهد العالمين بالدنيا وزخارفها وإنّما كانا يريان أنّ مصلحة الإسلام والمسلمين تدعو إلى جهادهما ليقيما حدود الله وينفذا أحكامه ويقسطا بين الناس ويجريا فيهم سنّة نبيّهم وأنّ هذا واجب على كلّ مسلم على التعميم فكيف لا يجب عليهما واحدهما وصيّ رسول الله والثاني حفيده ؟؟ لا جرم أنَّ جهاد العلي والحسين عليهما وعلى المصطفى الصلاة والسلام كان لمجرد إعزاز الدين وإرضاء ربّ العالمين والتفاني في سبيل مجد الإسلام وخير المسلمين شأن الصالحين المتقين . على أنَّ الأمويين والذين تشيعوا لهم في عهد بني أميّة أرادوا أن يجعلوا جهاد سيدنا علي أولاً وجهاد سيدنا الحسين ثانياً سياسياً أو شبه سياسي مسبب عن طمع دنيوي ليصيغوا عذراً أو شبه عذر لمعاوية ويزيد فيما فعلا وتابعهم كثيرون من المسلمين بعد ذلك بقوة استمرار هذه الفكرة التي بثّها دهاة الأمويين من عهد سلطانهم حتى رأينا ابن خلدون ينسى أو يتناسى الفكرة الدينية في هذه المسألة ويقول إنّ قوة عصبية الأمويين تغلبت على ضعف عصبية الهاشميين ورأينا في آخر الزمان الشيخ محمد الخضري في محاضراته في الجامعة المصرية يدافع عن معاوية ويزيد ويبرئهما من معظم الإثم الذي اجترماه في محاربة آل البيت طمعاً بالخلافة والبحث بهذا مستفيض ربما رجعنا إليه بكتابٍ إذا فسح الله بالأجل .

« كربلاء »

ويقال للأرض التي قتل فيها سيدنا الحسين وإخوته وأبناؤه عليهم السلام « كربلاء » وكان اسمها هكذا منذ القدم قالوا إنّها سميت كذلك لرخاوتها أخذاً من قولهم « جاء زيدٌ=

=مكربلاً » أيّ مرتخي الأقدام . وموضع كربلاء هو الموضع الذي قالوا عنه العقر فتشائم سيدنا الحسين من النزول فيه . وقالوا إنّه عليه السلام في الموضع الذي عوّهه فيه الحرّ بن يزيد ما اسم هذه الأرض ؟؟ قالوا كربلاء فقال أرض كربٍ وبلاءٍ وموضع قبره الشريف عليه السلام في كربلاء لا جدال فيه ولا خلاف ومن عهد قتله عليه السلام قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل زوج الحسين في رثائه :

واحسيناً فلا نسيت حسيناً ... سأطيل على الحسين البكاء

غادروه بكربلاءَ صريعاً ... لا سقى الغيث بعده كربلاءَ

ويقال لأرض كربلاء أيضاً الطفُّ كما قال أبو دعبل يرثي سيدنا الحسين وأصحابه :

مررتُ على أبيات آل محمدٍ ... فلم أرها أمثالها يوم حلَّتِ

فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمي تخلَّتِ

ألا أنَّ قتلى الطفَّ من آل هاشم ... أذلَّت رقاب المسلمين فذلَّتِ

وكانوا غياثاً ثمَّ أضحوا رزيَّةً ... ألا عظمت تلك الرزايا وجلَّتِ

وقال أيضاً :

نبيت سكارى من أميَّة نوَّماً ... وبالطفِّ قتلى ما ينام حميمها

وما أفسد الإسلام إلاَّ عصابةٌ ... تأمَّر نوكاها فدام نعيمها

فصارت فناة الدين في كفِّ ظالمٍ ... إذا اعوجَّ منها جانب لا يقيمها

« ترجمة يزيد »

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وأمّه ميسون بنت بحدل ولد في دمشق الشام سنة ٢٦ للهجرة في أثناء وجود أبيه أميراً للشام على عهد عثمان بن عفان ولما شبَّ أخذ أبوه معاوية يرشحه للخلافة فولاه أمارة الحج مرتين بعد أن استتبَّ له أمر الخلافة وولّاه الصائفة وأرسله في الجيش الذي سار لغزو القسطنطينية وكان يزيد هذا مغرم بالصيد ومولع بالخمرة ميالاً للهو ومداعبة النساء منصرفاً عن العلم والشريعة فأصبح بذلك موضع نقد الناقدين إلّا أنّ هذا لم يثنِ معاوية عن استخلافه فأخذ له البيعة قهراً من رؤساء الأمصار لا كما قال الشيخ الخضري بأنَّ معاوية استشار أهل الأمصار في بيعته =

=والله يعلم والناس لا ينكرون أنَّ أهل الأمصار في ذلك الزمان لو كان لهم حرية الاختيار لما اختاروا يزيد ولياً لعهد الخلافة بل لما ارتضوا بخلافة معاوية نفسه . وبعد موت معاوية نادى يزيد بنفسه خليفةً للمسلمين فأطاعه الناس وبايعوه مكرهين إلّا سيدنا الحسين وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب فخسب لتخلفهم ألف حساب وحساب ولولا علمه بأنَّ الناس يكرهون خلافته وهم على استعداد إلى الانقلاب عليه لدى أول فرصة تسنح لهم لما كان تخوُّفه من أولئك النفر الثلاثة بمحله فعلى مَ الشيخ الخضري استخفَّ بأولئك الثلاثة في محاضراته وقد رأى هو نفسه كيف تعبت الخلافة بمجرَّد امتناعهم عن بيعته السنوات الطوال .

وامتاز عهد يزيد بفاجعة سيدنا الحسين وإخوته وأولاده عليهم وعلى جدّهم الصلاة والسلام وهي الفاجعة التي جعلت يزيد قرين اللعنة إلى يوم يحشرون . ومن أغرب ما قرأته في محاضرات الشيخ الخضري قوله أنَّ الناس الذين كتبوا لسيدنا الحسين يستدعونه إليه كانوا من محبي الشرّ ودعاة الفتنة مع أنّهم في الحقيقة كانوا لا يعرفون صاحب حقّ بالخلافة غير أبناء رسول الله ولكن للمال والسلطة الجائرة تأثيرهما على النفوس وهما اللذان جعلا أهل العراق كما قال للحسين أحد أصحابه المخلصين « إن قلوبهم معه وسيوفهم عليه » وكان بعد ذلك ما مرَّ بنا واأسفاه .

ولم يقف شرّ يزيد عند فاجعة سيد الشهداء سيدنا الحسين وأخواته وأولاده على فظاعتها ووحشيتها بل جرى له ما يعادل فظاعتها وذلك بانتهاكه حرمة مدينة الرسول ﷺ وذلك أنَّ يزيد ولّى على المدينة المنوَّرة ابن عمه عثمان بن محمد بن أبي سفيان فوجد الناس يتحفزون للإنقلاب على يزيد على أثر تمثيله بصفوة آل البيت ذلك التمثيل المفجع وما سمعوه بعد ذلك من انصرافه إلى اللهو والخمر فرأى عثمان هذا أن يوجه نفراً من وجهاء أهل المدينة إلى يزيد فيستميلهم إليه بهباته ويتلافى الفتنة بذلك وبالفعل وجّه عبد الله بن حنظلة الأنصاري وعبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي والمنذر بن الأيبر ونحوهم من كبار المهاجرين والأنصار إلى دمشق فاستقبلهم يزيد بالإكرام وأغدق عليهم الهبات غير أنّهم رأوا عياناً ما كرهوه منه على السماع من انصرافه وهو خليفة المسلمين إلى ما حرَّم الله من الموبقات والمخازي فرجعوا إلى المدينة وهم أشدُّ نقمة على يزيد فأطلقوا ألسنتهم بعيبه وسبّوه أشنع السبّ وأعلنوا أنّهم خلعوا بيعته فتابعهم الناس وكانوا كما سبق القول يكرهون خلافته وحصروا=

=مَن في المدينة من الأمويين بدار مروان بن الحكم فوجّه عليهم يزيد جيشاً من اثني عشر ألف مقاتل بقيادة مسلم بن عقبة المرّي فلما وصل مسلم إلى المدينة دعا أهلها للخضوع فأبوا فحاربهم وحاربوه فكانت الغلبة لأهل الشام بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير وما اكتفى مسلم بهذا الشرّ بل أباح مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أيام فأعمل رجاله فيها أيدي النهب والسبي والقتل غير محترمين جيرة رسول الله وأنّها والله لجرأة لم يقدم عليها ذو سلطان في الإسلام وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على أنّهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم فمن امتنع عن ذلك قتله وكانت هذه الواقعة لليلتين بقيتا من ذي الحجّة سنة ٦٣ للهجرة . وقد نال الشيخ الخضري من أهل المدينة المنوَّرة وهم جيران المصطفى باللوم والتقريع وألزمهم بجزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة المنورة غير أنّه هداه الله رأى من باب « الذوق » أن يقول إنّه كان من اللازم على يزيد وأمير جيوشه مسلم أن لا يسرفا بمعاملتهم هذا الإسراف فتأمل . على أنّ الذي يسهل عليه قتل أولاد رسول الله لا يصعب عليه انتهاك حرمة مدينته والوقيعة بجيرانه .

وتلا هذان الحادثان الفظيعان حادث ثالث لا يقلُّ عنهما فظاعةً في عهد يزيد ومشيريه وهم مَن علمنا من تحليل كلّ محرَّم وذلك الحادث هو حصار مكة المكرمة وانتهاك حرمة كعبتها المشرَّفة . وذلك أنَّ عبد الله بن الزبير بعد أن بلغه مقتل سيدنا الحسين عليه السلام دعا أهل مكة وهو فيها إلى بيعته فتألَّب عليه الناس لما علمنا من كرههم لخلافة يزيد فلما وجّه هذا مسلماً لحرب المدينة المنوَّرة أمره أن يسير بعد أن يبطش بأهلها إلى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير فصدع مسلم بالأمر وسار من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة وهلك في الطريق في موضع يدعى المشلل فخلفه في قيادة جيش يزيد الحصين بن نمير بذلك سبق وأمر يزيد فسار بالجند إلى مكة فوصلها لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ للهجرة وقدم عليه ابن عامر الحنفي الخارجي نجدةً له فخرج إليهم عبد الله بن الزبير وحاربهم فتغلبوا على جيشه فارتد إلى مكة فأقاموا عليه يحاربونه بقية المحرَّم وصفر كله غير مكترثين بحرمة القتال في محرَّم وفي اليوم الثالث من ربيع الأول رموا مكة كرّمها الله بالمنجنيق وحصروها وما زالوا يحاصرونها حتى بلغهم أنَّ صاحبهم يزيد لعنه الله قد هلك فارتدوا راجعين .

ولعمر الحقّ أنَّ هذه الحوادث الفظيعة التي حدثت على عهد يزيد وبأمره لتدهش=

فضائل أمير المؤمنين

فَضَائِلُ ٱلْمُرْتَضَى كَٱلشُّهْبِ نَيِّرَةٌ وَكُلُّ ذِي بَصَرٍ فِيْ ٱلنَّاسِ رَائِيْهَا(١)

=عقول الناس فتستقلُّ معها كلَّ فظاعة يأتيها ظلمة الملوك فلا عجب إذا بات يزيد موضع لعنة المسلمين إلى يوم الدين . على أنّ صاحبنا الشيخ الخضري لا يرضى أن يتحمل صاحبه يزيد كل تبعة هذه الجرائم وهو أبوها وأمّها بل يجعل نصيبه منها الجزء الصغير هذا حكم الشيخ الخضري فما رأي المسلمين ؟؟ .

وهلك يزيد لأربع عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ للهجرة « ١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣ مسيحية » وكانت وفاته بحوران من أرض الشام وله من العمر ٣٩ سنة وكانت مدة خلافته المتمثلة من الكوارث والفظائع ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً والحمد لله أنّها لم تطل أكثر من ذلك سبحانه لطيف بالعباد .

قلنا إنَّ يزيد كان مسرفاً بالمحرمات ومن جملتها إدمان الخمرة فحدث أنّه في حجته الأولى في عهد أبيه نزل في مدينة الرسول وعوضاً عن زيارة الروضة الشريفة جلس على الشراب وجاءَه سيدنا الحسين للزيارة فأذن بإدخاله عليه فلما دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب فقال مستهزءاً: لله درُّ طيبك ما أطيبه قال هو طيب يصنع في الشام ثمَّ دعا بقدح فشربه ثم دعا بآخر وقال للساقي اسقِ أبا عبد الله فقال له الحسين عليه السلام عليك بشرابك يا صاح لا عين عليك مني فقال يزيد وكان شاعراً حسن الشعر :

ألا يا صاح للعجبِ دعوتك ذا ولم تجبِ
إلى الفتيات والشهوا ت والصهباء والطربِ
وباطيةٍ مكلَّلةٍ عليها سادة العربِ
وفيهنَّ التي تبلت فؤادك ثمَّ لم تتبِ

فنهض سيدنا الحسين عليه السلام وقال بل فؤادك يا ابن معاوية تبلت . ومن هذه القصة تعلم حال يزيد ولا تتعجب بعدها من استحلاله المحرمات وإقدامه على شرّ الفظائع والمنكرات .

(١) لا بدَّ للمؤرخ المنصف أن يرسل نظرة نقَّادٍ حازمٍ إلى الظروف التي تبعت عهد أمير المؤمنين عندما يبحث في فضائله السامية العظيمة التي جعلته على رأس=

مَا أَنْ تُعَدَّ لِيُحْصِيْهَـا ٱلْحَسِيْبُ وَهَلْ   تُحْصَى ٱلنُّجُـوْمُ وَتُسْتَقْصَى دَرَارِيْهَـا

=الخلائق بعد المصطفى لا جرم أنّه لو فعل ذلك لعـرف أن ما بقي أمـامنا منهـا هو جـزء يسير مما غاب عنّا فجهلناه وهذا ما نريد أن نوضحه في هذه الحاشية .

إنّ معاوية استلم الخلافة الإسلامية اغتصاباً وهذا لا خلاف فيه لأننا رأينـاه حارب الخليفة الشرعي الذي تولّى الخلافة كما تولَّاها الذين سبقوه ببيعة الذين لهم حقّ بالبيعة وهم الصحابةُ المهاجرون والأنصار في المدينة المنوَّرة وهذا الخليفة الشـرعي فضلاً عن صحة بيعته وشرعيتها له من نسبه وحسبه وسابق جهاده في سبيل الإسلام وقديم صحبتـه للمصـطفى ما ليس لمعـاوية شيءُ منـه على الإطلاق وعـدا ذلك فـرغبة المصـطفى فيه ظـاهرة بكـلّ جلاء في الأحـاديث الثابتـة المرويّـة عنه عليهمـا الصـلاة والسـلام وهـذه الأحـاديث الشريفـة النبويّـة الثابتـة لها من التـأثير الـديني على نفـوس المسلمين مـا لا تستطيع القـوَّة القاهـرة التغلب عليه كمـا لا يخفى فمن الضرورة قـد أصبح معـاوية ومن تبعـه من خلفاء بني أميـة في اضطراب دائم من تـأثير هـاتيك الأحـاديث الشـريفـة على خـلافتهم بحيث يجعلها دائمـاً أبداً قلقـةً بهم وأصبح يهمهم جـداً أن يضعفوا تـأثيـرهـا بأمرين أولهما أن يمنعوا تداولها بين الناس وثانياً أن يوجـدوا أحاديث تشـابهها والله يعلم مقدار صحتها وثبوتها يدعون أنّ المصطفى قالها لغير سيدنا علي من الصحابة ولا سيمـا الذين تولّوا الخلافة منهم وللوصول إلى هذا الغرض استعمـل معاويـة المال فكـان يهب الألوف لمن حوله من الذين صحبوا المصطفى من المهـاجرين والأنصـار ليكفّوا ألسنتهم عن ذكر الأحاديث الشريفة التي قيلت في سيدنا أمير المؤمنين وعن ذكر بواهر أعماله في الغزوات النبويَّـة وليقوّلهم من الأحـاديث ما لم يقله المصـطفى عليه السلام أو ليزيـدوا على ما قال ما فيه مصلحته وهذا نطق بـه علماء الحـديث تارةً صـراحةً وطـوراً ضمناً بعـد زوال الملك من بني أميّـة ، على أنَّ معاويـة لم يستعمل القـوَّة ضدّ الـذين كـان يعـرف أنّهم أنصـار الحقّ لا يخفونـه على ما أعلم خـلافاً للذين تـولّوا الخـلافة بعـده فـإنّهم أخـذوا يضطهدون كـلَّ من جهر بفضـائل سيـدنا علي أو روى الأحـاديث النبويـة التي قيلت فيه سواءً بالزجّ في الحبوس أو بالقتل أحيـاناً . وأنت تعلم أنَّ الخـلافة الإسـلامية ظلّت في أيدي الأمويين نحـو المئة عـام « من سنة ٤١ للهجـرة إلى سنة ١٢٢ للهجـرة » ففي كلّ هذه المدة الـطويلة كان النـاس يتزلفـون إلى الأمويين بـذمّ سيدنـا علي وسبّه ويتعـرض المتشيعون له إلى أنواع المظالم والمغارم فلا عجب بعد هذا إذا قلنا أننا فقدنا كثيراً من معرفة فضائل سيدنا علي وبواهر أخباره . =

وَلَيسَ يُنْكِـرُهـا إلاَّ ٱلْمُكَـابِـرُ وَٱلْـــحَسُوْدُ وَٱلشَّانِيُّ ٱلْبَـاغِي تَـوَارِيْهَـا
وَهَبْهُمْ نَكَـرُوْا شَمْسَ ٱلضُّحَى أَفَيَعْـــمَى ٱلنَّاسُ تَٱللَّهِ عَنْ زَاهِي تَـلاَلِيْهَا
وَهَـلْ أَكُفُّهُمْ بِـٱلشَّمْسِ ظَـافِـرَةٌ وَقَـدْ أَفَـاضَتْ سَنَاهَـا كَيْ تُخَفِّيْهَـا
لَوْلاَ ٱلْمَطَامِعُ تَسْتَغْوِيْ ٱلنُّفُـوْسَ لَمَا شُمْنَا جُحُوْدَاً لَهَا فِيْ ٱلنَّاسِ شَانِيْهَا
وَلاَ سَمِعْنَـا رُوَاةَ ٱلْكِذْبِ تَـطْلُبُ دُنْـــيَاهَا بِمَـا قَـدْ رَوَتْـهُ مِنْ تَمَنِّيْهَا
وَٱلـدَّهْـرُ نَقَّى أَبَاطِيْـلَ ٱلـرُّوَاةِ وَلاَ شَـاهَا وَضَعْضَـعَ شَـارِيْهَـا وَمُنْشِيْهَـا
وَأَظْهَــرَ ٱلْحَقَّ وَضَّـاحَـاً لِأَعْيُنِ أَهْـــلِ ٱلْأَرْضِ كَٱلشَّمْسِ فِيْ أَسْنَى تَجَلِّيْهَا
وَلاَحَ حَيْـدَرَةٌ أَسْمَى ٱلْخَـلاَئِقِ إِفْـــضَـالاً وَأَرْفَعَهَـا قَـدْرَاً وَتَـوْجِيْهَـا

عناية الله بأمير المؤمنين

قَالَ ٱلرَّسُوْلُ ٱلْمُفَدَّى فِيْ أَبِيْ حَسَنٍ مُنَوِّهَاً بِٱسْمِهِ فِيْ ٱلنَّـاسِ تَنْوِيْهَـا[١]
فَقَالَ: رَبُّ ٱلْبَرَايَـا فِيْ ٱلْعَلِيِّ أَخِيْ قَـدْ قَالَ لِيْ قَـوْلَـةً عَصْمَـاءَ أَرْوِيْهَـا

= وإذا عرفنا أنّ الناس في ذلك الزمان ما كان لديهم من أسباب التدوين والنشر ما لدينا الآن فما كان كتابهم كثيرين ولا كان عندهم مطابع ولا ما يشبهها وكان جلّ أعتمادهم على الحفظ لا تعجب بعد هذا إذا قلنا أنّ المسلمين أصبحوا في أواخر المئة الأولى من الهجرة وهم لا يعلمون عن فضائل سيدنا علي وأعماله الباهرة إلاّ ما عجز الأمويون عن إخفائه وهو بالطبع قليل من كثير على أنَّ هذا القليل يكفي لنعرف كنه ذلك الرجل العظيم الكامل الذي لا يفضله إنسان في خلائق الله عزَّ وجلَّ إلاَّ المصطفى عليهما الصلاة والسلام .

(١) إذا لم يكن في سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام غير هذا الحديث الشريف الذي لم يطعن بصحته طاعن ولم يشكّ في صدقه شاكٌ لكفى الناس اعتقاداً ببرارته وعناية الله عزَّ وجلَّ به وعالي منزلته عند ربّه سبحانه وتعالى فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنَّ الله قد عهد إليَّ في علي عهداً ، فقلت : يا ربّي بينه لي ، قال : اسمع ، إنَّ علياً راية الهدى ، وإمام أوليائي ، ونور من أطاعني ، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين ، من أحبّه =

فَقَـالَ سُبْحَـانَـهُ: أَنَّ ٱلْعَلِيَّ غَـدَا   فِيْ ٱلنَّاسِ رَايَةَ هَدْيٍ رُحْتُ مُرْبِيْهَا
وَأَوْلِيَـائِيَ مَـنْ كَـانَ ٱلْإِمَـامَ لَهَـا   وَكَـانَ وَاعِـظَهَـا ٱلْهَـادِيْ وَحَـامِيْهَـا
وَإِنَّـهُ نُـوْرُ مَنْ فِيْ طَـاعَتِيْ نَشَـأَتْ   تَجْلُوْ بِـهِ فِيْ مَخَـاطِيْهَـا دَيَاجِيْهَـا
وَإِنَّـهُ غَـايَـةُ ٱلْقَـوْمِ ٱلتُّقَـاةِ وَقَـدْ   أَضْحَى لَهَـا قِـدْوَةً أَمْنٌ تَقَـدِّيْهَـا
أَحَبَّنِي مَنْ لَـهُ بَـاتَ ٱلْمُحِبَّ وَقَـدْ   أَطَـاعَنِيْ مَنْ لَـهُ قَـدْ طَاعَ تَجْـرِيْهَا
بَشِّـرْهُ فِيْ ذَا فَنَـادَيْتُ ٱلْإِلَـهَ: بَلَى   بَشَّـرْتُهُ وَهْيَ بُشْـرَى ٱلْحَمْدُ تَـالِيْهَا
فَقَـالَ: إِنِّيَ عَبْـدُ ٱللَّهِ نَفْسِـيَ فِيْ   يَـدِ ٱلْمُهَيْمِنِ مُفْنِيْـهَـا وَمُحْـيِيْـهَـا
فَـإِنْ قَضَى بِعَـذَابِيْ لَيْسَ يَـظْلِمُنِي   بَلْ فِيْ ذُنُوْبِيْ ٱلَّتِيْ قَدْ كُنْتُ جَانِيْهَـا
وَإِنْ يُتِمَّ ٱلَّـذِيْ قَـدْ كَـانَ وَاعِـدَنِيْ   فَـرَحْمَـةٌ مِنْ رَحِيْمٍ كَـانَ مُسْـدِيْهَـا
وَقُلْتُ: رَبَّـاهُ إِنِّيْ قَـدْ دَعَـوْتُ لَـهُ   وَدَعْـوَتِيْ بِـٱلـرِّضَى أَنْتَ ٱلْمُلَبِّيْهَا
لاَ هُمَّ طَهِّـرْ خَفَـايَا قَلْبِـهِ وَبِـكَ ٱلْإِ   يْمَـانُ دَعْـهُ كَمَـا يُـرْضِيْـكَ يَـثْوِيْهَـا
فَقَـالَ سُبْحَـانَـهُ: أَبْشِـرْ فَعَلْتُ وَلَـــكِنْ دُوْنَـهُ نُـوَبٌ لاَ شَـكَّ لاَقِيْهَـا
خَصَصْتُهَـا بِـعَلِيٍّ لَـمْ أَخُصَّ بِهَـا   مِنْ أَوْلِيَـائِيْ فَتًى فَهْـوَ ٱلْمُعَـانِيْهَـا
فَـقُلْتُ: لاَهُـمَّ رَبِّيْ رَحْـمَـةً لِعَلِـــيٍّ صَـاحِبِيْ وَأَخِيْ إِنِّيْ ٱلْمُرَجِّيْهَـا

= فقد أحبّني ، ومن أطاعه فقد أطاعني ، فبشّره بذلك ، قال رسول الله : قلت قد بشّرته يا ربّ ، فقال لي : أنا عبد الله وفي قبضته ، فإن يعذّبني فبذنوبي لم يظلم شيئاً ، وإن يتمّ لي ما وعدني فهو أولى . قال رسول الله : وقد دعوتُ له فقلت : اللهمَّ ، أجلُ قلبه ، واجعل ربيعه الإيمان بك . قال سبحانه : قد فعلت ذلك ، غير أنّي مختصه بشيء من البلاء ، لم اختصَّ به أحداً من أوليائي . قال المصطفى : فقلت ربي ، هو أخي وصاحبي قال سبحانه : إنّه سبق في علمي أنه لمبتلى ومبتلى » اهـ لا جرم أنَّ عناية الله سبحانه بسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام لتكفي للدلالة على وجاهته العليا عنده جلَّ جلاله .

فَقَالَ: سُبْحَانَهُ: قَدْ كَانَ مُبْتَلِيَاً وَمُبْتَلَى تِلْكَ بَلْوَى لَسْتُ مُرْجِيْهَا
وَذَا بِسَابِقِ عِلْمِي كَانَ وَآكْتُتِبَتْ حُرُوْفُهُ وَقَضَائِي كَانَ مُمْلِيْهَا
هٰذِيْ رِوَايَةُ طَهَ فِي أَبِيْ حَسَنٍ لَقَدْ جَرَتْ مِثْلَهَا قَدْ كَانَ رَاوِيْهَا
وَإِنَّهَا وَحْدَهَا تَكْفِيْ آلْعَلِيَّ فَخَاراً إِذْ تُوَجِّهُهُ فِيْ آلنَّاسِ تَوْجِيْهَا

عبادة أمير المؤمنين

عِبَادَةُ اللَّهِ مِنْ أَسْمَى آلْفُرُوْضِ عَلَى أَهْلِ آلتُّقَى فَازَ بِآلنُّعْمَى مُؤَدِّيْهَا(١)
بِهَا آلتَّقِيُّ يُوَفِّيْ حَقَّ خَالِقِهِ حَمْداً عَلَى نِعَمٍ مَا آنْفَكَّ يُسْدِيْهَا
وَآلْمُرْتَضَى أَعْبَدُ آلْعُبَّادِ أَجْمَعِهَا لِرَبِّهِ بِعِبَادَاتٍ يُتَلِّيْهَا
وَأَكْثَرُ آلنَّاسِ صَوْمَاً عَنْ تُقَى وَصَلاةً كَانَ عَنْ وَرَعٍ دَوْمَاً يُصَلِّيْهَا

(١) ليس مَن يخالفنا إذا قلنا أنَّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام قد كان أكثر المسلمين إخلاصاً لله سبحانه وتعالى بل وأطهرهم نيةً في عبادته ربّه وأعظمهم ورعاً في سجوده وقيامه ولا عجب في هذا بعد أن عرفنا أنّه نشأ في حجر المصطفى عليهما الصلاة والسلام وتربى على يديه وحضره وجبريل يغدو إليه ويروح بالوحي الإلٓهي ومَن نشأ نشئه القدسيَّ لا جرم أن يظلَّ الدهر صائماً مصلياً متفانياً في مرضاة ربّه منصرفاً إلى الآخرة بكليته .

وأجمع المؤرخون على أنَّ الناس تعلموا منه عليه السلام صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة . وما يبلغ الظن برجل من محافظته على ورده أن يبسط له نطعٍ في صفين ليلة الهرير وهي أشدّ ليالي تلك الحرب الشعواء قتالاً فيصلي عليه ورده والسهام تقع بين يديه وتمرُّ على صماخيه يميناً وشمالاً فلا يرتاع لذلك ولا يقوم حتى يفرغ من صلاته ؟ وما الظنُّ برجلٍ كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده ؟ ومن تأمل دعوات المرتضى وما طوى طيَّ مناجاته لربّه ووقف على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله وما يتضمنه من الخضوع لهيبته والخشوع لعزّته والاستخذاء له عرف ما انطوت عليه نفسه الشريفة من الإخلاص لله عزَّ وجلَّ وفهم من أي قلبٍ خرجت تلك الأدعية الصادقة الصالحة وعلى أي لسانٍ طهورٍ جرت .

مِنْهُ تَعَلَّمَتِ ٱلنَّاسُ ٱلْهُجُوْدَ فَتُحْـــيِيْ بِـٱلصَّلَاةِ لِبَارِيْهَا لَيَالِيْهَا
وَعَنْهُ قَدْ تَخِذَتْ مَبْدَا مُلَازَمَةِ ٱلْأَ ۔ وْرَادِ يَكْتَسِبُ ٱلْغُفْرَانَ تَالِيْهَا
كَذَا نَوَافِلُهَا عَنْهُ قَدِ ٱقْتَبَسَتْـــهَا فِيْ ٱلْعِبَادَةِ وَٱنْصَاعَتْ تُؤَدِّيْهَا
وَمَا يُظَنُّ بِمَنْ يَتْلُوْ ٱلْوُرُوْدَ بِلَيْـــلَةِ ٱلْهَرِيْرِ ٱلَّتِيْ عَمَّتْ كَوَادِيْهَا
جَثَا عَلَى ٱلنِّطْعِ وَٱلْأَنْبَالُ مُرْسَلَةٌ حَوْلَيْهِ تَتْرَى وَلَمْ يَرْهَبْ رَوَامِيْهَا
وَمَا يُظَنُّ بِمَنْ تَـٱللَّهِ جَبْهَتُهُ قَدْ شُوِّهَتْ بِلِمَاسِ ٱلْأَرْضِ تَشْوِيْهَا
مِنَ ٱلسُّجُوْدِ فَحَاكَتْ ثَفْنَةَ ٱلْجَمَلِ ٱلْـــبَرَّاكِ أَوْ فِيْ جَفَاهَا مَا يُحَاكِيْهَا
وَمَنْ وَعَى دَعَوَاتِ ٱلْمُرْتَضَى وَمُنَا جَاةٍ بِهَا ٱلْعِزَّةُ ٱلْعُلْيَا يُنَاجِيْهَا
وَمَا حَوَتْهُ مِنَ ٱلتَّعْظِيْمِ أَسْطُرُهَا لِلَّهِ فِيْ كُلِّ حَرْفٍ مِنْ مَبَانِيْهَا
مَعَ ٱلْخُشُوْعِ وَإِظْهَارِ ٱلْخُضُوْعِ لَهُ سُبْحَانَهُ حَسْبَمَا تَرْمِيْ فَحَاوِيْهَا
دَرَى حَقِيْقَةَ مَا فِيْ نَفْسِ حَيْدَرَةٍ وَمَا أَسَرَّتْ مِنَ ٱلتَّقْوَى لِبَارِيْهَا
وَإِنَّهَا بَعْضُ مَا فِيْ نَفْسِهِ بَدَرَتْ مِنْ فِيْهِ وَٱلْقَلْبُ بِٱلْإِخْلَاصِ مُمْلِيْهَا
وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ لِلْخَلَّاقِ مُنْجَذِبَاً بِرُوْحِهِ كَانَ بِٱلتَّقْوَى تَحَجِّيْهَا
وَقَدْ تَجَلَّتْ لَهَا ذَاتُ ٱلْمُهَيْمِنِ فِيْ أَنْوَارِهَا فَتَمَلَّتْ مِنْ تَجَلِّيْهَا
وَطَالَمَا شَارَكَتْ جَمْعَ ٱلْمَلَائِكِ فِيْ ٱلْـــتَسْبِيْحِ مُنْشِدَةً فِيْهِ أَغَانِيْهَا
عِبَادَةً مَا لَهَا إِلَّا أَبُوْ حَسَنٍ وَمَا سِوَاهُ حُقُوْقُ ٱللَّهِ يَقْضِيْهَا

أمير المؤمنين وتفسير القرآن

لَا يُدْرِكُ ٱلْآيَ إِلَّا ٱلرَّاسِخُوْنَ بِعِلْـــمِ ٱلدِّيْنِ مَنْ فَقِهُوْا سَامِيْ مَعَانِيْهَا(١)

---

(١) إنَّ تفسير القرآن الشريف الذي لا يدرك آياته إلَّا الله والراسخون في العلم=

وَهُمْ لَقَـدْ فَسَّرُوْهَـا بَعْـدَ أَنْ دَرَسُـوْا مِيْقَـاتِ تَنْزِيْلِهَـا مَعْ قَصْـدِ مُـوْحِيْهَـا
عَلَى الْأُلَى صَحِبُـوْا طَهَ وَقَـدْ شَهِدُوْ هَـا نَـازِلَاتٍ عَلَيْـهِ فِيْ مَثَـانِيْهَـا

= هو من أجلّ العلوم التي تتوقف عليها الهداية إلى حقائق أوامر الله ونـواهيه . وبـالبداهـة أنَّ أقـدر النـاس على تفهم الآيـات وإدراك فحـاويهـا هم الـذين تلقـوهـا من فم المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم ولا يتمُّ هذا إلاّ للذين تشـرفوا بصحبته وشهدوا الـظروف التي نزلت فيها وتلقوا من فم الحضرة النبوية تفسيرها وليس في أصحاب رسول الله من المهاجـرين والأنصار من لازمه ملازمة سيـدنا علي وقـد عرفنـا أنّه لـزمه وهـو فتىً وتربى على يـديه وتأدب بأدبه وساعده ذكاؤه الفـطري العجيب على وعي هاتيـك الحقائق الإلّهيـة وإدراك سامي معانيها فما عجيبٌ والحالّة هذه إذا ما كان عليه السلام أفضل من تفهم المثـاني وفسّرهـا للناس وقال غير مرةٍ « اسألوني قبل أن تفقدوني » بـل وهل غيـره يستطيـع أن يقول هـذا القول فيجمع الناس على أنّه مـا ادعى دعوى لم يـدعمها بـرهان ولا قـال قولـةً يكذبهـا الامتحان .

ومن المعلوم أنَّ علماء التفسير من صدر الإسلام حتى يومنا هذا يستندون إلى مـا روتـه الصحابـة في تفسير الآيـات وميقات نـزولها والضـرورة التي نزلت لأجلهـا وتفسير المصـطفى صلى الله عليه وآله وسلم لها وأكثـر ما يستشهـدون به وهـو مرويـات سيدنـا علي أميـر المؤمنين وعبد الله بن عباس وأقوالهما . أمَّا سيدنا علي فحاله من صحة الرأي وصدق التفسيـر ما لا مجال إلى الشكّ فيـه . وأمّا عبـد الله بن عباس وهـو ابن عمّ رسول الله العبـاس فقد تربى وتثقف على يدي سيدنا أمير المؤمنين وصحبه طوال حياتـه منذ شبَّ إلى يـوم فرَّق بينهما الموت ما فارقه لحظةً فيكون كل مـا نقل عن عبـد الله بن عباس كـأنّه منقـول عن معلمه ومربيه وهكذا يرجع فن تفسير القرآن إلى سيدنا أمير المؤمنين بغير جدال .

وبعـد وفاة أميـر المؤمنين عليه السلام أصبح المـرجع الأكبـر لتفسير القـرآن عبـد الله بن عباس فكان موضع ثقة المسلمين وقولـه حجة عنـدهم وما زالت منزلته العلميـة تعلو في نـظر المسلمين حتى حسبوه مـدانياً لمـرتبـة علي بن أبي طـالب وجـاءَه منهم من سـألـه قائلاً : أين علمك من علم ابن عمك علي ؟ فتبسم عبد الله وقال : إنَّ نسبـة علمي إلى علم أميـر المؤمنين كنسبة القـطرة إلى البحر المحيط . وعبـد الله بن عبـاس كـان يعـرف مبلغ علم سيدنا علي أكثر من جميع الناس وشهادته فيه لها نصيبها من الاعتبار .

وَلَمْ يُلاَزِمْ كَمِثْلِ ٱلْمُرْتَضى اَحَدٌ مُحَمَّداً صُحْبَةً ثَبْتٌ أَوَاخِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَصْحَابِ ٱلرَّسُوْلِ ذَكِـيٌّ مِثْلُهُ بَيْنَ طِيْبِيْهَا وَمَكِّيْهَا
يَعِيْ وَيُدْرِكُ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ وَأَقْـوَالِ ٱلرَّسُوْلِ وَيَسْتَجْلِيْ خَوَافِيْهَا
فَمَا عَجِيْبٌ إِذَا مَا كَانَ أَفْضَلَ مَنْ قَدْ فَسَّرَ ٱلآيَ وَٱسْتَقْصَى فَحَاوِيْهَا
وَقَالَ: هَيَّ ٱسْأَلُوْنِيْ فِيْ شَرِيْعَتِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَفْقِدُوْنِيْ عَنْ مَرَامِيْهَا
وَبَاتَ كُلُّ عَلِيْمٍ قَدْ تَعَرَّضَ لِلـتَّفْسِيْرِ آثَارُهُ ٱلْغَرَّاءُ قَارِيْهَا
إِلَيْهِ يَرْجِعُ فِيْمَا قَدْ رَوَى وَقَضَى وَقَوْلَةُ ٱلْمُرْتَضَى كُلُّ ٱلْهُدَى فِيْهَا
أَوْ لاِبْنِ عَبَّاسَ تِلْمِيْذِ ٱلْوَصِيِّ وَقَدْ رَوَى ٱلأَحَادِيْثَ عَنْهُ فَهْوَ رَاوِيْهَا
وَقِيْلَ يَوْماً لِعَبْدِ ٱللَّهِ: أَيْنَكَ مِنْ عَلِيِّ مَنْ مِنْكُمَا قَدْ فَاقَ تَفْقِيْهَا
فَقَالَ: نِسْبَةُ عِلْمِيْ لِلْعَلِيِّ كَنِسْـبَةِ ٱلْقُطَيْرَةِ لِلأَبْحَارِ ضَافِيْهَا

أمير المؤمنين وقراءة القران

مَا كَانَ يَحْفَظُ إِلاَّ ٱلْمُرْتَضى بِحَيَاةِ ٱلْمُصْطَفى ٱلآيَ فِيْ سَامِيْ تَتَالِيْهَا[(١)]
وَلَمْ يَكُنْ غَيْرَهُ مِنْ صَحْبِ أَحْمَدَ أَوْ أَنْصَارِهِ ٱلْمَعِيُّ ٱلنَّفْسِ وَاعِيْهَا

---

(١) أجمع الرواة على أنّ المرتضى عليه السلام كان أكبر ثقة في حفظ القرآن على حياة المصطفى عليهما الصلاة والسلام كما أنَّ آيات الوحي كان يكتبها على ألواح الجمال ويحفظها عنده ويتقن عن رسول الله قراءتها كما كان يرويها عندما توحى إليه . وعندما توفي المصطفى انصرف أمير المؤمنين إلي جمع الآيات وتنسيقها صيانةً لها من التحريف والتصحيف وكان يُقرئها الناس أيضاً لكي لا يخطئوا في قراءتها وسبق لنا القول انّ نسبة القرآن إلى عثمان بن عفان ليس لأنّه هو الذي جمعها كما تبادر إلى أذهان بعض الناس ولكن لحادث آخر وهو أنَّ حروف الكتابة في ذلك الزمان كانت خالية من النقط والحركات كما نرى من بقايا نسخ القرآن الشريف المحفوظ بعض نسخها في المكتبة السلطانية بمصر فعندما نقل المسلمون القرآن كما جمعه سيدنا علي وتداولوه=

فَكَانَ جَامِعَهَا بَعْدَ ٱلشَّتَاتِ بِقُرْ آنٍ كَمَا نَزَلَتْ هَدْيَاً لِأَهْلِيْهَا
وَضَابِطَاً بَعْدَ تَدْقِيْقٍ قِرَاءَتَهَا كَيْ يَأْمَنَ ٱلْخَطَأَ ٱلْمَجْحُوْدَ قَارِيْهَا
أَرَادَ فِيْ ذَاكَ صَوْنَ ٱلآيِ مِنْ خَطَرِ ٱلـ ـتَّحْرِيْفِ إِنْ تُرِكَتْ فَوْضَى لِتَالِيْهَا
وَأَنْ يُسَهِّلَ لِلنَّاسِ ٱلْوُقُوْفَ عَلَى وَحْيٍ بِهِ ٱلْمُصْطَفَى قَدْ جَاءَ يَهْدِيْهَا
فَمِنْهُ تَعْلَمُ أَحْكَامَ ٱلشَّرِيْعَةِ وَٱلـ ـدِّيْنِ ٱلْحَنِيْفِ كَمَا قَدْ نَصَّ مُوْحِيْهَا
وَتَمَّمَ ٱلْبُغْيَةَ ٱلْعُظْمَى بِهِمَّتِهِ ٱلـ ـشَّمَّا ٱلَّتِيْ تَحْمَدُ ٱلدُّنْيَا مَسَاعِيْهَا
وَأَجْمَعَ ٱلْمُسْلِمُوْنَ ٱلْمُتَّقُوْنَ عَلَى ٱلإِ قْرَارِ بِٱلنُّعْمَةِ ٱلْكُبْرَى لِمُسْدِيْهَا
كَذَاكَ كُتْبُ ٱلْقُرَاآتِ ٱلَّتِيْ نُشِرَتْ تَجْلُوْ حَقِيْقَةَ مَا قُلْنَا وَتُبْدِيْهَا
أَمَا أَئِمَّةُ قُرَّاءِ ٱلْكِتَابِ إِلَى ٱلـ ـسِّلْمِيِّ تَرْجِعُ فَٱعْلَمْ أَنَّ سُلْمِيْهَا
قَدْ كَانَ تِلْمِيْذَهُ عَنْهُ قَدِ ٱتَّخَذَ ٱلْـ ـقُرْآنَ مَجْمُوْعَةً صَحَّتْ أَمَالِيْهَا
كَذَا ٱنْتَهَى عَلَنَاً فَنُّ ٱلْقِرَاءَةِ لِلْإِمَامِ مِثْلُ فُنُوْنِ ٱلدِّيْنِ بَاقِيْهَا

=فيما بينهم تطرأ إليه شيءٌ من الخطأ في القراءة وأخذوا يختلفون في أيّ النسخ هي الصحيحة وصاروا يقولون قرآن فلان يقول كذا وقرآن فلان يقول كذا وكان ذلك على عهد عثمان فجمع هذا نسخ القرآن وأقرَّ بمعاونة سيدنا علي وأكابر الصحابة التقاة على الصحيح منها وكتب منه سبع نسخ فكانت هي موضع اعتبار المسلمين وبذلك نسب القرآن إلى عثمان مع أنّ جامعه ومنسقه هو سيدنا علي اشتغل في ذلك على أثر وفاة المصطفى عليهما الصلاة والسلام . أمّا كتب القرآت فمرجعها كلها إلى قراءة أبي عمرو بن العلاء وعاصم بن أبي النجود وأمثالهما من الأئمة وهؤلاء كلهم تلاميذ أبي عبد الرحمن السلمي القاري فثقفوا على يديه واتخذوا قراءة القرآن عنه وأبو عبد الرحمن السلمي القاري هو تلميذ سيدنا علي ومن فمه الشريف تعلم قراءة القرآن ورواها وهكذا يكون جمع القرآن وصيانته من التحريف واتقان قراءته بفضل سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

علم أمير المؤمنين

بَحْـرُ ٱلْعُلُوْمِ أَمِيْـرُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ بِـلاَ رَيْبٍ وَفِيْ صَـدْرِهِ مَثْـوَى لآلِيْهَـا[1]

هَيْهَـاتِ مَـا فِيْ عِبَـادِ ٱللَّهِ ذُوْ بَصَـرٍ إِلَّا وَعَـنْـهُ تَـلَقَّـاهَـا وَيَـرْوِيْـهَـا

مَـا فَـاتَـهُ أَبَـدَاً إِدْرَاكُ ظَـاهِـرِهَـا أَوِ ٱلْـوُصُـوْلُ إِلَى أَخْفَى خَـوَافِيْهَا

وَٱلْمُصْـطَفَى شَـاهِـدٌ حَقٌّ شَهَـادَتُـهُ فِيْـهِ وَإِنَّ عِـبَـادَ ٱلـلَّهِ تَـدْرِيْـهَـا

فَقَـالَ: إِنِّيَ لِلْعِلْمِ ٱلْمَـدِيْنَـةُ وَٱلْـــبَـابُ ٱلْعَلِيُّ وَمِـنْـهُ فَـازَ آتِيْـهَـا

وَقَـالَ: خَـازِنَ عِلْمِيْ كَـانَ حَيْـدَرَةٌ وَكَـانَ عَـيْبَـتَـهُ فَتْـوَىً وَتَـفْقِيْـهَـا

أمير المؤمنين والعلم الإلّهي

أَسْمَى ٱلْعُلُوْمِ وَأَعْـلاَهَا وَحَقِّكُمْ ٱلْـــعِلْمُ ٱلَّذِيْ كَانَ مُخْتَصَّاً بِبَارِيْهَـا[2]

عِلْمٌ بِـهِ يَعْـرِفُ ٱلْمَخْلُوْقُ خَـالِقَـهُ حَتَّى يَـهِيْـمَ بِـهِ حُبَّـاً وَتَـدْلِـيْـهَـا

---

(١) لا جدال ولا إشكال أنَّ سيدنا علي عليه السلام قد كان أعلم العلمـاء وأفقه الفقهـاء وأسمى من جمع في صدره علوم الدنيا والآخرة وهذا مسلم بـه من كل عـالمٍ وفقيهٍ من الأولين والآخرين وقد شهد له المصـطفى عليه السلام بذلـك فقال : « أنـا مدينـة العلم وعليٌّ بابها فمن أراد الحكمـة فليأت البـاب » وقال فيـه أيضاً « خـازن علمي » وقال فيـه أيضاً « عيبة علمي » والعيبة حقيبة من آدم يجعل فيها الثياب .

(٢) لا جدال أنَّ أشرف العلوم هـو العلم الإلّهي لأنَّ شرف العلم بشـرف المعلوم وهذا العلم مصدره الوحي الإلّهي والذكـر الحكيم والأحاديث النبـوية وكـان أول وأفضل من نـظر في القـرآن والسنـة وأفتى بهمـا وأظهـر جـلائـل مـراميهمـا هـو سيـدنـا علي عليه السلام بإجماع المهاجرين والأنصار وحسبنا أنَّ أبا بكر وعمر وعثمان كـانوا يـرجعون إليه ليفتيهم بما أشكل عليهم فضلاً عمّا في خطبته الغرّاء وأقـواله المـأثورة من درر هـذا العلم الإلّهي حتى أصبح هذا العلم بغير مراء مقتبساً من كلامه ونقل عنه ومنه ابتدأ وإليه انتهى . وهؤلاء هم المعتـزلة المعـروفون بـالتوحيـد والعدل حتى أصبحـوا بهما أسـاتذة الناس هم تلاميـذه وقد اغتـرفوا من بحـر علمه الـزاخر لأنَّ كبيـرهم واصل بن عـطاء هو =

وَٱلْمُرْتَضَى كَانَ بِـآلْإِحْكَامِ وَاضِعَـهُ هِـدَايَـةً لِلْوَرَى مَـا ضَـلَّ هَـادِيْهَـا
وَعَنْـهُ قَدْ أَخَـذَ ٱلنَّاسُ ٱلْهِـدَايَـةَ لِلْـــعِلْمِ ٱلْإِلٰهِيّ فِيْ أَسْنَى مَجَـالِيْهَـا
وَإِنَّ مُـعْتَـزِلِـيْهَـا هُـمْ تَـلَامِـذَةٌ لَـهُ بِغَيْـرِ مِـرَا مَـعْ أَشْعَـرِيّيْهَـا
كَـذَا ٱلْإِمَـامِيَّـةُ ٱلْمَحْمُـوْدُ مَنْشَئُهَـا مَـعَ آلـزَّيُـوْدِ فَمَـا إِلَّاهُ مُنْشِيْهَـا
طَـرَائِقٌ خَـطَّهَـا رُشْـدَاً أَبُـوْ حَسَنٍ لِسَـالِكِيْهَـا فَمَـا ضَلُّوْا مَمَـاشِيْهَـا
فِيْهَـا ٱلْعَدَالَـةُ وَٱلتَّوْحِيْـدُ وَٱلنَّظَرُ آلـــسَّعِيْـدُ لِلْحَقِّ يَهْدِيْ خَـطْوَ مَاشِيْهَـا

أمير المؤمنين وعلم الفقه

وَٱلْمُرْتَضَى جَعَلَ ٱلْفِقْهَ ٱلْمُشَرَّفَ عِلْـــمَـاً ذَا أُصُوْلٍ لَـهُ تُنْمَى أَمَالِيْهَـا[1]
وَعَنْـهُ قَـدْ أَخَـذَ ٱلنَّـاسُ ٱلتَّفَقُّـهَ فِيْ شَـرِيْعَـةِ ٱللَّهِ سِنِّيْهَـا وَشِيْـعِيْـهَـا

= تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وأبو هاشم هذا أخذ علمه عن أبيه محمد بن الحنفية ومحمد هذا تثقف على يدي أبيه سيدنا علي عليه السلام . وكذلك نقول عن الأشعرية الذين هم تلاميذ المعتزلة فإنّهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري وهذا تلميذ علي الجبائي وعلى يديه تثقف في التوحيد والعدل وأبو علي الجبائي هو أحد مشايخ المعتزلة الذي بينا أنّهم تلاميذ المرتضى عليه السلام . وأمّا الإمامية والزيدية فانتسابهما إلى سيدنا أمير المؤمنين معروف مشهور وزعيماهما ولداه وعلمهما مقتبس من علمه وفضلهما منبثق من فضله .

(١) إنّ علم الفقه عليه مدار الأحكام الشرعية وبه يصل العالم إلى درجة الإفتاء السامية ولا خلاف أنّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام هو أصله وأساسه وكل فقهاء المسلمين قديمهم وحديثهم عيالٌ عليه قد اغترفوا من بحر علمه الزاخر يدلك على ذلك استناد هؤلاء على ما يروى من أقواله الذرية أو ما رواه الذين اقتبسوا الفقه منه .

وقد اشتهر عبد الله بن عباس بعلم الفقه حتى كان أفقه الصحابة بالإجماع وأقواله حجة عند الفقهاء لا يشكون بصحتها وقد سبقت لنا الإشارة بأنَّ عبد الله بن عباس قد تعلم وتثقف على يدي سيدنا علي وكان من أنجب تلاميذه . =

وَإِنَّمَا فُقَهَاءُ ٱلْمُسْلِمِيْنَ عَلَيْهِ عَيْلَةٌ خَاجُهَا مَا ٱنْفَكَّ كَافِيْهَا
عَلَيْهِ قَدْ قَرَأَتْ فِقْهَ ٱلشَّرِيْعَةِ أَصْحَابُ ٱلرَّسُوْلِ وَأَبْدَتْ فَضْلَ مُقْرِيْهَا

= وهذا عمر بن الخطاب فقد كان يرجع إلى أمير المؤمنين في كل ما يشكل عليه من الأحكام والروايات في ذلك كثيرة لا منكر لها ولا جاحد وكان يقول « لولا علي لهلك عمر » ويريد لولا علم عليٍّ . كما كان يقول : « لا بقيت لمعضلةٍ ليس لها أبو الحسن » وكان يقول أيضاً جهرةً « لا يفتينَّ أحد في المسجد وعليٌّ حاضر » وأقوال عمر بن الخطاب هذه لهي الشهادة العليا بأنّه كان متفقهاً على يديه مهتدياً بعلمه معترفاً له بالتفوق في التفسير والتشريع .

وأنت تعلم أنَّ المسلمين ينقسمون إلى مذاهب أخصّها السنة والشيعة ورجوع علماء الشيعة إلى علم أمير المؤمنين واستنادهم إلى فقهه لا يحتاج إلى بحث طويل فهم تلاميذه بالتسلسل ورأيه هو الأعلى عندهم فهم إذن يفتون بعلمه ويحكمون بفقهه . وأهل السنة يرجعون بفقههم إلى مجتهديهم الأربعة المشهورين وهم أبو حنيفة والشافعي ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل فأبو حنيفة كما نقرأ في ترجمته قد قرأ على جعفر بن محمد بن الحنفية وهذا أخذ العلم عن أبيه فيكون أبو حنيفة تلميذ سيدنا علي ويرجع بفقهه إليه . وأمّا الشافعي فقد قرأ على محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة فيكون مرجعه بفقهه إلى أبي حنيفة الذي رأيناه تلميذ أمير المؤمنين . وأمّا أحمد بن حنبل فقد قرأ على الشافعي فهو تلميذ الشافعي الذي هو تلميذ أبي حنيفة الذي هو تلميذ أمير المؤمنين وأمّا مالك بن أنس فقد قرأ على ربيعة الرأي وقرأ ربيعة على عكرمة وقرأ عكرمة على عبد الله بن عباس وقد علمنا مما تقدم أنَّ عبد الله بن عباس قد اقتبس علمه من أمير المؤمنين فيكون مرجع مالك إلى سيدنا أمير المؤمنين . وبالأحرى يكون فقه أهل السنة مقتبس من شمس علم سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام ومثل هذا يقال عن زعماء بقية المذاهب الإسلامية الأخرى فإنَّ علماءها الأولين الذين تنتمي إليهم لو دققت في تراجمهم وجدتهم ينتهون إلى بابه العالي وأنّهم تلاميذه ولولا التطويل وما هنا محله لأتينا على ذكر هذه المذاهب والمشترعين فيها وكيف كان زعماؤها تلاميذاً له وعيالاً عليه . وخير ما نقوله هنا هو شهادة سيدنا محمد لأمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام فقد قال بحديث ثابت لا جدال في صحته « أقضاكم علي » وما أقضى القضاة إلّا أفضلهم في علم الفقه .

فَذَا ٱبْنُ عَبَّاسَ عَبْدُ ٱللَّهِ صَاحِبُهُ   مِنْهُ فَقَاهَتُهُ ٱلْغَرَّاءُ جَانِيْهَا
وَهُوَذَا عُمَرُ أَحْكَامُ إِمْرَتِهِ   قَدْ كَانَ حَسْبَ فَتَاوِيْهِ يُجَرِّيْهَا
وَكُلُّ مُجْتَهِدٍ فِي أَهْلِ شِيْعَتِهِ   مِنْهُ ٱلْفَتَاوَى تَلَقَّاهَا وَيَرْوِيْهَا
وَمَا تَجَاوَزَ آرَاءً مُسَدَّدَةً   لَهُ بِأَحْكَامِهِ مَا هَمَّ يُمْضِيْهَا
وَمَا أَئِمَّةُ أَهْلِ ٱلسُّنَّةِ ٱلْفُقَهَا   ءِ ٱلْمُسْتَجَازَةُ فِي ٱلدُّنْيَا فَتَاوِيْهَا
إِلَّا تَلَامِيْذُهُ عَنْهُ لَقَدْ أَخَذَتْ   عُلُوْمَهَا وَعَهِدْنَاهُ مُرَبِّيْهَا
كَذَا إِلَى ٱلْمُرْتَضَى بِٱلْفِقْهِ تَرْجِعُ أَرْ   بَابُ ٱلْمَذَاهِبِ فِيْ ٱلْإِسْلَامِ بَاقِيْهَا
فَإِنْ تَدَبَّرْتَ تَدْقِيْقاً تَسَلْسُلَهَا   وَجَدْتَ فِيْ بَابِهِ ٱلْعَالِيْ أَوَالِيْهَا
وَٱلْمُصْطَفَى قَالَ: أَقْضَاكُمْ أَبُوْ حَسَنٍ   وَٱلنَّاسُ قَدْ شَهِدَتْ رُشْداً بِقَاضِيْهَا

أمير المؤمنين وعلم التصوف

إِنَّ ٱلتَّصَوُّفَ فِيْ شَتَّى طَرَائِقِهِ   لِتَابِعِيْهِ ٱلْأُلَى بِٱلزُّهْدِ تَمْشِيْهَا[1]
جَمِيْعُهَا ٱلْمُرْتَضَى قَدْ كَانَ مَصْدَرَهَا   وَعَنْهُ قَدْ أَخَذَتْ سَامِيْ مَبَادِيْهَا
بِذَاكَ صَرَّحَ أَقْطَابُ ٱلطَّرَائِقِ تَصْـ   ـرِيْحاً وَنَادُوْا بِهِ فِيْ ٱلنَّاسِ تَجْرِيْهَا
وَإِنَّ خِرْقَتَهُ كَانَتْ شِعَارَهُمُ   وَلَمْ يَزَالُوْا بِتَقْوَاهُمْ مُصِيْبِيْهَا

(١) من بحث في الطرائق المختلفة الإسلامية وما فيها من التصوف وعلم الحقيقة رأى زعماءها وواضعيها تنتهي علومهم إلى علم سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وأنهم تلاميذه وعيال عليه وقد صرَّح بذلك الشبلي والجنيد وسرّي وأبو يزيد البسطامي وأبو محفوظ معروف الكرخي وغيرهم من ثقاة المحققين وحسبنا دلالة على ذلك الخرقة التي هي شعارهم إلى يوم الناس هذا فإنّهم يسندونها باسناد متصل إلى سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وما احتفاظهم بها إلّا اعترافاً منهم بأنَّ طرائقهم مقتبسة من نور علمه راجعة إلى فقهه واجتهاده .

بَلى ٱلطَّرَائِقُ فِيْ ٱلإِسْلَامِ أَجْمَعُهَا إِلَيْـهِ تُنْمَى بِـلَا رَيْبٍ مَسَـارِيْـهَـا
وَهْـوَ ٱلَّذِي كَـانَ هَادِيْهَـا وَمُرْشِـدَهَا إِلَى ٱلْعِبَـادَةِ بِـٱلإِخْـلَاصِ تَقْضِيْهَـا
وَهْوَ ٱلَّذِيْ كَانَ فِيْ ٱلإِخْلَاصِ قُدْوَتَهَا مَا أَخْلَصَتْ فِيْ تَرَجِّيْ عَفْـوَ بَارِيْهَا
بَـلْ أَنَّـهُ قُـدْوَةُ ٱلصُّـلَّاحِ أَجْمَعِهَـا إِلَى ٱلْفَرَادِيْسِ قَدْ كَـانَ ٱلْمُخَطِّيْهَـا

أمير المؤمنين وعلم النحو

مَا كَانَتِ ٱلْعُرْبُ تَدْرِيْ لِلْكَـلَامِ قَوَا عِدَاً وَمَا لَاحِنٌ فِيْ ٱلْقَوْلِ لَاغِيْهَا[1]
إِنْ حَدَّثَت أَوْ عُقُوْدُ ٱلشِّعْرِ قَدْ نَظَمَتْ عَفْـوَاً فَـلَا غَلَطٌ يَغْشَى أَمَـالِيْـهَـا

---

(١) كـل ما نسميـه اليوم نحـواً وصرفـاً ومعاني وبـديعاً وعـروضاً لم يكن معـروفاً لأسلافنا أقطاب هذه اللغـة وفحولهـا قبل الإسـلام فإنّهم مـا عرفـوا هذه الأسمـاء لفنونٍ تدرس وتحفظ كقوانين تصون لغتهم من الخطأ والخلل وتحسن آدابهـا من نثر ونـظم بل كانوا على السليقة والفطرة يتكلمون ويخطبون ويقرضون الشعر فإذا كل ما قالـوه صواب لا لحن فيه من جهة الإعـراب ولا ركاكـة في ما نثـروا من كتاب وخـطاب ولا خلل فيما نظموا على البديهة من الشعر الخلّاب . وقـد اتّخذ العلمـاء بعد الإسـلام كلام العـرب المنظوم والمنثور وتمعنوا بأساليبه وتركيبه وفصلوه تفصيلاً كقواعد قيدونا بها فلا تتخطاهـا وذلك بعد أن خـالط العرب غيـرهم من الأعاجم الغـرباء عن العـرب باللسـان فأفسـدوا عليهم لغتهم الفصحى برطانتهم الأعجمية . ثمَّ إنَّ العرب أنفسهم لم يكـونوا يتكلمـون لغةً واحدةً بل كانت لهم لغى مختلفة وإنّما نزول القرآن في لغة قريش جعـل هذه اللغـة هي اللغة العربية الفصحى وأمات كلَّ ما عداها من لغات العرب أيضاً .

وأوّل من تنبه إلى وضع قانون للغة العرب القرشيـة ليصـونها عن اللحن والخـطأ هو سيدنا علي أمير المؤمنين السباق إلى كلّ مكرمة عليه السلام قالوا فبينما كان ذات يوم سائراً في شوارع الكوفة يتعهد الناس شأن الأب الرحيم والحاكم العادل سمع أحدهم يتلو من كتاب الله قولـه عزَّ وجـلَّ ﴿ **وما أرسلنـا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ إلّا إذا تمنى ألقى الشيطانُ في أمنيته فينسخُ الله ما يلقي الشيطان** ﴾ فقرأ ذاك الرجل اسم الجـلالة منصـوباً « الله » فتحوَّل بذلك معنى الآية الشريفة إلى كفر صريح إذ جعل فاعل النسـخ ما يلقيـه=

حَتَّى إِذَا ٱخْتَلَطَتْ مَعْ غَيْرِهَا لَحَنَتْ ... فَـلاَ يُـبَلِّغُ مَـقْصُـوْدَاً مُـفَـاهِيْـهَـا

وَرَاحَ يَلْحَنُ بِـٱلآيَـاتِ مُنْشِـدُهَـا ... وَصَـارَ يَغْلَطُ بِـٱلتَّجْـوِيْـدِ قَـارِيْهَـا

وَلَمْ تَكُنْ حَـرَكَـاتٌ فِيْ كِتَـابَتِهَـا ... تَصُوْنُ عَنْ لَحْنِ قَارِيْهَا فَحَاوِيْهَا

فَهَالَ ذَا ٱلْمُرْتَضَى هَـوْلاً وَلَحْنَةُ لَحَّـ ... ـانٍ عَلَى سَمْعِـهِ مَرَّتْ مَسَـاوِيْهَا

فِيْ آيَـةٍ ضَلَّ قَـارِيْهَا ٱلْهُـدَى وَغَوَى ... بِفَتْحَـةٍ كَـانَ كُفْـرُ ٱلْقَوْلِ تَـالِيْهَا

فَقَالَ : إِنْ لَـمْ نَضَعْ شَتَّى ٱلْقَوَاعِدِ لِلْـ ... ـكَـلاَمِ شَـوَّهَـهُ ٱلْعُـرْبَـانُ تَشْـوِيْهَـا

وَضَـاعَ مَعْـهُ كِتَـابُ ٱللَّهِ وَٱخْتَلَطَتْ ... آيَـاتُـهُ وَٱخْتَفَتْ زَهْـرَا مَعَـانِيْهَـا

وَبَـادَرَ ٱلْعَمَـلَ ٱلْمَحْمُـوْدَ تُسْعِفُـهُ ... فِيْـهِ زَكَـانَتُـهُ وَٱلـلَّهُ مُـذْكِيْـهَـا

وَجَاءَ بِٱلْمُعْجِزَاتِ ٱلْمُحْكَمَاتِ مِنَ ٱلْـ ... ـقَـوَاعِدِ ٱلـزُّهْرِ فَهْـوَ ٱلْحَقَّ مُنْشِيْهَـا

بِذَاكَ قَدْ أَوْجَدَ ٱلنَّحْوَ ٱلَّـذِيْ لُغَةُ ٱلأَ ... عْـرَابِ لَـوْلاَهُ مَـا صِيْنَتْ مَبَـانِيْهَـا

=الشيطان والمنسوخ هو الذات الأزلية الواجبة الوجود الدائمة وتعالى الله عن ذلـك . فلما سمع سيدنا العلي هذا الكفر الذي ادَّى إليه إبدال ضمةٍ بفتحة هاله ذلك وقال في نفسـه إن لم تتدارك هذه اللغة بتدوين قـواعدٍ لهـا يرجـع إليها القـراء لتشوَّهت وفسـدت وفسد معها كتاب الله ووحيه وفي الحال انصرف عليه السلام إلى وضع قواعد النحو فكان أول ما قال إنَّ الكلام كله ثلاثة أشياء إسم وفعْل وحرف وإنَّ الإسم منـه معرفـة زمنه نكـرة ثمَّ تناول التوابع فبينها وقسم الإعراب إلى رفع ونصب وجرّ وتسكين وبعد أن تمَّ له مجمـوعته في ذلك استدعى إليه أبا الأسود الدؤلي وكان من نبهاء أصحابه القـرَّاء وأذكاهم فـألقى عليه ما جمع وقـال له امـحِ هذا النحـو أي اقصد هـذا القصد فسمي حينئـذٍ فنّ قواعـد اللغة العربية نحواً أي قصداً وذلك لأنّ أبا الأسود الدؤلي كـان كلما أملى مـا تلقاه عن الإمـام وما اهتدى إليه من اكتشاف قواعد اللغة الأخرى على أحـد تلاميـذه يكرّر على مسـامعه قوله عليه السلام « انحُ هذا النحو » لا جرم أنّ اهتـداء سيدنـا أمير المؤمنين إلى وضـع قواعـدٍ للغة العرب يصونها من اللحن والخطأ هو من كراماته المشهورة ونـوادر أعمالـه العظيمـة وبوادر آثار ذكائه النادر وبواهر خدماته التي تعترف الأمّة ويعترف الإسلام له بها .

فَقَالَ: أَلْفَاظُهَا مَهْمَا تَنَوَّعَتِ آسْـ ـمٌ ثُمَّ فِعْلٌ وَحَرْفٌ فِيْ تَجَزِّيْهَا
وَهْوَ ٱلَّذِي قَالَ فِيْ ٱلْأَسْمَاءِ مَعْرِفَةٌ وَشَامِلٌ نَكِرَاتِ ٱلشَّيْءِ يَعْنِيْهَا
وَهْوَ ٱلتَّوَابِعُ بِٱلتَّحْقِيْقِ فَصَّلَهَا مُبَيِّنَاً كَيْفَ تَجْرِيْ فِيْ مَجَارِيْهَا
وَهْوَ ٱلَّذِيْ قِسْمَةُ ٱلْإِعْرَابِ بَيَّنَهَا رَفْعَاً وَنَصْبَاً وَخَفْضَاً فِيْ تَتَالِيْهَا
وَهْوَ ٱلَّذِيْ جَاءَ فِيْ شَتَّى قَوَاعِدِهِ إِلَى أَبِيْ ٱلْأَسْوَدِ ٱلْمَعْرُوْفِ يَرْوِيْهَا
وَقَالَ: يَا صَاحِ هٰذَا ٱلنَّحْوَ أَنْحُ بِلَا بُطْءٍ وَتَمِّمْ مَهَامَاً كُنْتُ بَادِيْهَا
لِذَاكَ قَدْ دُعِيَتْ تِلْكَ ٱلْقَوَاعِدُ نَحْـ ـوَاً حَسْبَ أَمْرِ عَلِيٍّ وَهْوَ مُوْحِيْهَا
لَوْلَا ٱلْإِمَامُ أَمِيْرُ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ لَبِتْـ ـنَا نَشْتَكِيْ فِيْ لُغَى قُرْآنِنَا ٱلتِّيْهَا
وَفَضْلُهُ أَنَّهُ أَنْشَا قَوَاعِدَهَا ٱلْـ ـغَرَّاءَ وَهْوَ بِهَا لَا شَكَّ مُحْيِيْهَا
فَمَا رَطَانَةُ أَعْجَامٍ بِنَا ٱخْتَلَطَتْ تُضِيْعُهَا أَوْ كُرُوْرُ ٱلدَّهْرِ مَاحِيْهَا

شجاعة أمير المؤمنين

لَمْ يَخْلُقِ ٱللَّهُ لِلْغَارَاتِ مِنْ رَجُلٍ كَٱلْمُرْتَضَى يُكْبِتُ ٱلْأَعْدَاءَ يُنْكِيْهَا[1]
تَخْشَى ٱلْأُلُوْفُ لُقَاهُ وَهْوَ مُنْفَرِدٌ لَهَا وَمَا كَانَ إِذْ تَلْقَاهُ خَاشِيْهَا

(١) إنّ الكلام على شجاعة سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام من قبيل القول الشمس طالعة ونورها يبهر الأبصار في رائعة النهار وتالله لو تجسمت الشجاعة وتمثلت في شخص لكان ذلك الشخص سيدنا أمير المؤمنين بل لو عرف قدماء اليونانيين ثاني سادات قريش لاتخذوه إلٰهاً للشجاعة في جملة آلهتهم التي افترضوا وجودها وعبدوها . لا جرم أنّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام قد أنسى ذكر من تقدمه في الشجاعة ولم يبق ذكراً لمن يأتي بعده . ومقاماته عليه السلام في الحروب مشهورة وتضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة . وهو الشجاع الذي ما فرَّ قط ولا ارتاع من كتيبة بل ولم يعرف في حياته الشريفة بطولها معنى الفزع . وهو الذي ما بارز أحداً إلّا وقتله . ولا ضرب ضربةً وثناها بل كانت الأولى هي القاضية على عدوّه وفي الحديث الشريف « كانت ضرباته وتراً » . =

لَـهُ ٱلشَّجَاعَـةُ تُنْمَى فَهْوَ سَيِّـدُهَا ٱلْأَ م عْلَى وَقَـدْ رَضِيَتْ مِنْـهُ تَـأَبِّيْهَـا

= وإننا لنرجع بالقارىء الكريم إلى ما تقدم في هذه القصيدة المباركة وحواشيها من مواقف سيدنا أمير المؤمنين في الغزوات النبوية وحروبه الكثيرة في العراق : ونذكر على الخصوص نومته على فراش المصطفى عليهما الصلاة والسلام يوم طلب كفّار قريش ومشركوهم رسول الله يريدون قتله ففرَّ من وجوههم الشريرة وهاجر إلى المدينة المنوَّرة على ما ترى تفصيل ذلك في موضعه .

وكانت شجاعة المرتضى عليه السلام تخيف أعداءه الأشرار وترهب قلوبهم وترجف فرائصهم . وقد رأينا في موقعة صفين كيف هجم أمير المؤمنين بنفسه وحيداً على جيش معاوية فبدّده ثمَّ طلب معاوية لمبارزته فاختفى هذا من وجهه هارباً إلى مؤخرة جيشه ومن المضحكات أنَّ عمراً بن العاص قال وقتئذٍ لمعاوية وهو هارب من أمام سيدنا علي هرب العصفور من الشاهين ان بارزه وانهِ هذه الحرب وكيف أجاب معاوية عمراً بقوله : ما غششتني منذ نصحتني إلاَّ اليوم أتأمرني بمبارزة أبي الحسن وأنت تعلم أنّه الشجاع المطرق وأراك طمعت بأمارة الشام بعدي . ولعمر الحقّ أنَّ هذه الشهادة من معاوية وهو شرُّ أعداء أمير المؤمنين لتكفي وحدها للدلالة على إجماع الناس أنّه أشجع شجعانهم بغير نزاع .

ثمَّ إنَّ العرب لأنفتهم وعزّة نفوسهم كانوا يستحون إذا قتل واحداً منهم جبان أو من كان غير مشتهر بالشجاعة كما أنّهم يفخرون بقتلاهم إذا قتلهم الأكفاء الشجعان وقد أثبت التاريخ أنَّ أهالي القتلى الذين شرَّفهم سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام بقتلهم بيده الشريفة أو الذين فازوا بشرف الوقوف أمام ذاته المنيفة في موقف قتال وأسعدهم الحظ أن نجوا من القتل رحمةً منه أو قضاءً وقدراً يتبجحون بهذا الشرف العظيم ويذكرونه في أشعارهم ومجالسهم كما أنَّ بعضهم كانوا يدعون شرف هذه الوقفة للإفتخار كذباً وبهتاناً إثباتاً لادعائهم الشجاعة والبطولة .

من ذلك أنَّ عبد الله بن الزبير ولم يكن جباناً وإن كانت لا تذكر شجاعته بشيء بجانب شجاعة سيدنا أمير المؤمنين دخل يوماً على معاوية بعد فراره من موقعة الجمل إلى الشام فوجده نائماً فجلس عند قدميه بقرب سريره حتى إذا ما انتبه قال له عبد الله مداعباً لقد هممت أن أفتك بكَ يا أبا يزيد فتبسم معاوية وقال هادئاً : لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر فاغتاظ عبد الله بن الزبير وقال : وما الذي تنكره من شجاعتي وقد وقفت=

أَنْسَى بِهَا آلنَّاسَ شُجْعَاناً لَهَا سَلَفَتْ قِـدْمَـاً وَلَمْ يُبْقِ مِنْ فَخْـرٍ لِآتِيْهَـا
وَذِيْ مَـوَاقِفُهُ فِيْ آلْحَـرْبِ ذَائِعَـةٌ يَـرْوِيْ حَـوَادِثَهَـا بِـآلْعُجْبِ رَاوِيْهَـا
بِهَا آلْوَرَى تَضْرِبُ آلْأَمْثَالَ تَـذْكُرُهَـا إِلَى آلْقِيَـامَـةِ عَفْـوَاً فِيْ نَـوَادِيْهَـا
وَمَـا نَسَتْ نَـوْمَـةً قَـدْ نَـامَهَـا بِفِـرَا شِ آلْمُصْطَفَى وَهْوَ هَادِيْ آلنَّفْسِ هَانِيْهَا
وَآلنَّـاسُ تَطْلُبُ خَيْـرَ آلْخَلْقِ رَاغِبَـةً لَـهُ آلْهَـلَاكَ وَدَاعِيْ آلشَّـرِّ دَاعِيْهَـا
وَإِنَّهَـا نَـوْمَـةٌ تُـوْهِيْ آلْعَـزَائِمَ مَـا غَيْـرُ آلْمَنِيَّـةِ إِنْ فَكَّـرْتَ تَـالِيْهَـا
وَكَمْ تَصَـدَّى وَحِيْـدَاً لِلْعِـدَى فَكَفَى آلْإِسْـلَامَ وَآلـدِّيْنَ وَآلـدُّنْيَـا تَعَـدِّيْهَـا
مَا فَرَّ يَوْمَاً إِذَا نَـارُ آلْوَغَى آسْتَعَـرَتْ بَـلْ كَانَ وَآللَّهِ قَبْـلَ آلنَّاسِ صَـالِيْهَا
وَلَمْ يَهَبْ أَنْ يُلَاقِيْ فِيْ آلْحُرُوْبِ كَتَا ئِبَ آلْعِـدَى مَا تَمَـادَتْ فِيْ تَجَمِّيْهَـا
وَطَـالَمَـا رَهِبَتْـهُ مَـا تُجَـرِّدُ ذَا آلْـ ـفِقَـارِ يُمْنَـاهُ إِذْ يَفْـرِيْ هَـوَادِيْهَـا
وَحَسْبُنَا آلْمُصْطَفَى قَـدْ قَالَ ضَـرْبَتُهُ وِتْـرٌ فَلَمْ يَـكُ فِيْ آلْأَعْـدَا يُثَنِّيْهَـا

= في الصف بأزاء علي بن أبي طالب فازداد معاوية ضحكاً وقـال لا جرم أنّـه قتلك وأبـاك بيسـرى يـديـه وبقيت اليمنى فـارغـة يـطلب من يقتله بهـا . وفي الحقيقـة لـو تصـدّى عبد الله بن الزبير لسيدنا علي عليه السلام يوم الجمـل لألحقه بـأبيه بـطرف ذي الفقار المشهـر بيمينه بغير مراء .

ومن ذلـك ما قـالته أخت عبـد ودّ الذي قتله سيـدنـا علي في غـزوة الخنـدق ولم تعرف العرب أشجـع منه فـإنّها قـد قالت تـرثيه وتفتخـر بأنَّ قاتـله سيـد شجعان العـرب وبذلك قد تعزَّت عن مقتله قالت :

لـو كان قـاتل عمـروٍ غيـر قـاتله بكيتـه أبـداً مـا دمت في الأبـدِ
لكنَّ قـاتـله من لا يُـعـابُ بــه وكـان يُـدعى أبـوه بيضـة البلدِ
من هاشمٍ في ذراها وهيَ صاعدة إلى السماء تميت الناس بالحسدِ
قـومٌ أبى الله إلاّ أن تكـون لهم مكـارم الدين والـدنيـا إلى أمـدِ
يـا أمَّ كلثوم فـأبكيـه ولا تـدعي بكـاءَ معـولـةٍ ثكلى على ولـدِ

بَلْ حَسْبُنَا غَزَوَاتُ ٱلْمُصْطَفَى لِحَيَا ةِ ٱلدِّيْنِ وَٱلْمُرْتَضَى ٱلْأَسْمَى مُجَلِّيْهَا

وَكَانَ يَشْهَدُهَا لِلَّهِ مُضْطَلِبًا رِضْوَانَهُ بِمَسَاعٍ فَازَ سَاعِيْهَا

وَذَا مُعَاوِيَةٌ قَدْ هَابَ بَرْزَتَهُ فِيْ حَرْبِ صِفِّيْنَ نَادَى: لَسْتُ رَاضِيْهَا

وَقَدْ دَعَاهُ إِلَيْهَا ٱلْقِرَمُ حَيْدَرَةٌ وَقَالَ عَمْرٌو إِذَا لَبَّيْتَ تُنْهِيْهَا

فَقَالَ: وَيْلَكَ هَلْ يَلْقَى ٱلْعَلِيَّ فَتًى يَهْوَى ٱلْحَيَاةَ وَيَبْغِيْ أَنْ يُبَقِّيْهَا

وَهَلْ أَبُوْ حَسَنٍ مِمَّنْ يُبَارَزُ وَهْـوَ ٱلْأَرْوَعُ ٱلرَّائِعُ ٱلدُّنْيَا وَمَنْ فِيْهَا

وَمَا إِخَالُكَ إِلَّا قَدْ طَمِعْتَ بِأَرْ ضِ ٱلشَّامِ تَطْلُبُ مِنْ بَعْدِيْ تَوَلِّيْهَا

وَطَالَمَا ٱفْتَخَرَ ٱلْعُرْبُ ٱلْكِرَامُ بِمَلْـقَاهُ وَإِنْ كَانَ بِٱلْأَهْوَالِ لَاقِيْهَا

لِعِلْمِهَا أَنَّهَا تَلْقَى بِهِ بَطَلًا فَذًّا لَهَا ٱلْعُذْرُ إِمَّا رَاحَ يُرْدِيْهَا

مِنْ ذَاكَ قَوْلَةُ عَبْدِ ٱللَّهِ مُفْتَخِرٌ فِيْ ٱلشَّامِ لَمَا هَزَا مِنْهُ مُعَاوِيْهَا

شَجَاعَتِيْ هَلْ أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ تُنْكِرُهَا وَقَدْ لَقِيْتُ عَلِيًّا قَالَ: صَهْ إِيْهَا

إِذَنْ بِيُسْرَاهُ تَفْنَى مَعْ أَبِيْكَ وَيُمْـنَاهُ يَرُوْمُ بِهَا قَوْمًا لِيُفْنِيْهَا

وَكَانَ أَرْهَاطُ قَتْلَاهُ تُفَاخِرُ فِيْ أَنَّ ٱلْوَصِيَّ وَمَا إِلَّاهُ مُصْمِيْهَا

وَهُوَذَا عَبْدُ وُدٍّ وَهْوَ قَاتِلُهُ وَكَانَ إِنْ تُذْكَرَ ٱلشُّجْعَانُ سَامِيْهَا

وَأُخْتُهُ كَفْكَفَتْ هَامِيْ مَدَامِعِهَا تَقُوْلُ: قَتْلَتُهُ مِنَ كَفِّ كَافِيْهَا

قوة أمير المؤمنين

لَمْ تَعْهَدِ ٱلنَّاسُ أَقْوَى مِنْ أَبِيْ حَسَنٍ إِنْ تَذْكُرَ ٱلْأَقْوِيَا يَوْمًا وَتُحْصِيْهَا[1]

وَقَدْ تَفَرَّدَ فِيْ مَفْتُوْلِ سَاعِدِهِ بِقُوَّةٍ لَيْسَ مِنْ مَرْءٍ يُقَاوِيْهَا

---

(١) وكانت قوّة أمير المؤمنين لا تعادلها قوّة وما عجزت قطّ إلّا عن حمل النبوّة كما رأينا في فتح مكة المكرمة وما هرقل إلّه القوة عند اليونانيين القدماء الأمثال لسيدنا =

حَتَّى بِقُوَّتِهِ ٱلْأَمْثَالُ تُضْرَبُ بَيْـ ـنَ ٱلنَّاسِ رَاوِيَةً شَتَّى مَآتِيْهَا

فَلَمْ يُصَارِعْ فَتىً إِلَّا وَخَرَّ صَرِيْـ ـعاً لِلثَّرَى خَائِرَ ٱلْأَعْصَابِ وَاهِيْهَا

وَبَابُ خَيْبَرَ فِي إِبَّانِ غَزْوَتِهَا   قَدْ رَاحَ رَافِعَهُ مِنْ دُوْنِ أَهْلِيْهَا

بِهِ تَتَرَّسَ لَمَّا ٱلتِّرْسُ مِنْ يَدِهِ   قَدْ طَيَّرَتْهُ ٱلْأَعَادِيْ وَهْوَ لَاقِيْهَا

وَحَمْلُهُ أَعْجَزَ ٱلْأَعْوَانَ إِذْ طَلَبَتْ   تَجْرِيْبَهُ وَوَهَتْ عَنْ ذَاكَ أَيْدِيْهَا

وَمَا تَعَاصَتْ عَلَيْهِ فَوْقَ كَعْبَتِنَا   تَاللَّهِ دُمْيَتُهَا إِذْ رَاحَ رَامِيْهَا

وَقَدْ تَنَاوَلَهَا مِنْ فَوْقِ كَتْفِ رَسُوْ   لِ ٱللَّهِ يَهْزَأُ هَزْءً مِنْ مُقِيْمِيْهَا

وَهْوَ ٱلَّذِيْ ٱلصَّخْرَةُ ٱلْكُبْرَى مُزَحْزِحُهَا لِيُخْرِجَ ٱلْمَاءَ لِلْأَجْنَادِ يُسْقِيْهَا

مِنْ بَعْدِ أَنْ عَجِزَتْ عَنْهَا صَحَابَتُهُ   وَأَعْلَنَتْهُ بِأَنَّ ٱلْأَمْرَ مُعْيِيْهَا

وَقُوَّةُ ٱلْمُرْتَضَى بِٱللَّهِ قَدْ تَرَكَتْ   أَعْدَاءَهُ وَهْيَ تَخْشَى أَنْ تُلَاقِيْهَا

وَلَمْ يَزَلْ ذِكْرُهَا يَدْعُوْ إِلَى دَهَشِ ٱلْأَ   بْطَالِ مَا ذَكَرَتْهَا فِيْ نَوَادِيْهَا

= أمير المؤمنين وأجمع رواة التاريخ على أنّه عليه السلام ما صارع إنساناً قط إلّا صرعه .

وقد رأينا في غزوة خيبر التي مرّت معنا مثالاً لقوته إذ عندما طار الترس من يده احتمل بيساره باب القلعة وقد عجز جمهور من الناس عن حمله فتترس به وحارب أعداءَه فهو إذاً جبار من الجبابرة بل سيد الجبابرة أهلِ القوة بغير جدال وناهيك يوم فتح مكة بصنيعه بهبل وهو أعظم أصنام العرب وكان مثبتاً بالأوتاد على سطح الكعبة شرّفها الله على عظمه وكبره فتناوله بيمناه وهو على كتفي رسول الله وانتزعه انتزاعاً وألقى به إلى الأرض فحطمه تحطيماً . ومثل هذا صنيعه بالصخرة التي انتزعها وأخرج من تحتها الماء في طريقه إلى صفين وهو سائر إلى قتال معاوية كما مرَّ بنا فقد عجز رجاله عن نزعها فتقدم منها وانتزعها وهي مثبتة في الأرض وفي ذلك ما فيه من القوّة الخارقة لطبيعة البشر التي أرهبت أعداءَه فجعلوا يتقونه ويتحاشون مبارزته . وأمثال هذا كثير رواه عنه عليه السلام المؤرخون ونكتفي بالإشارة إليه لشهرته .

جهاد أمير المؤمنين

قَـدْ أَنْـزَلَ ٱللَّهُ آيَـاتِ ٱلْجِهَـادِ عَلَى مُحَمَّـدٍ وَأَخُـوْ ٱلْإِيْمَـانِ وَاعِيْهَـا[١]
وَنَصْـرَةُ ٱلـدِّيْنِ وَٱلـدُّنْيَـا بِـهِ وَبِـأَصْـحَـابٍ لَقَدْ أَظْهَـرَتْ مَعْـهُ تَفَـانِيْهَـا
وَمَنْ يُجَـاهِـدْ لِـوَجْـهِ ٱللَّهِ كَـانَ لَـهُ مِنْ رَبِّـهِ ٱلنِّعَمُ ٱلشَّتَّـى يُـلَاقِيْـهَـا
وَفِيْ ٱلْجِهَادِ جَلَالٌ لِلْمُجَاهِدِ فِيْ ٱلـدُّنْيَـا وَمَثُوبَـةٌ تُـرْضِي مُـوَخِّيْهَـا
وَإِنْ يَعُـدَّ ٱلْوَرَى أَهْـلَ ٱلْجِهَادِ فَمَـوْ لَانَـا أَبُـوْ ٱلْحَسَنَيْنِ ٱلْبَـرُّ سَـامِيْهَـا
قَدْ كَانَ سَيْفَـاً بِكَفِّ ٱلْمُصْطَفَى وَبِـهِ عِـدَى ٱلنُّبُـوَّةِ نَـالَتْهَـا مَخَـازِيْهَـا
وَكَـانَ سَيِّـدَ أَرْبَـابِ ٱلْجِهَـادِ جَمِيْـعَـاً بَيْنَ سَـابِقِهَـا ٱلْمَـاضِيْ وَآتِيْهَـا
وَمَـا ٱلْجِهَـادُ لِغَـازٍ غَيْـرِهِ أَبَـدَاً مِنْ أُمَّـةِ ٱلْعُـرْبِ بَـادِيْهَـا وَقَـارِيْهَـا
وَقَـدْ أَقَـرَّتْ أَعَـادِيْـهِ بِـذَا عَلَنَـاً وَكَـانَ إِخْفَـاؤُهُ وَٱللَّهِ مُعْيِيْـهَـا
وَهْيَ ٱلْحَقِيْقَـةُ لَا بُـطْلٌ يُقَـارِبُهَـا كَـلَّا وَلَا سَفَـهُ ٱلْأَعْـدَاءِ يُخْفِيْهَـا

---

(١) الجهـاد فـرض على المسلم يقـوم بـه لنصـرة الـدين ومحـاربـة المشـركين والكافرين وقد سبق لنا أن ذكرنا فيما مضى شيئاً عنه فلا نعـود إليه . وتفـوّق سيدنـا أمير المؤمنين عليه السلام بجهاده في سبيل نشر الإسلام لا يختلف فيه اثنان بـل نقدر أن نقـول إنّه نشأ وشبَّ وكهل وشاخ إلى أن توفـاه الله شهيداً وهـو يجاهـد في سبيل الله بيـده ولسانـه وقلبه . وأعماله الباهرة في جهاده ساطعة كالشمس في رائعة النهار يعترف بها كل مسلم أو قارىء تاريخ صدر الإسلام وقد سبق لنـا أن فصلناهـا تفصيلاً فـلا نعود إليهـا الآن . ونستطيع أن نقول إنّه بعد المصطفى عليهما الصلاة والسلام كان السبب الأكبـر في نشر الإسـلام في جزيـرة العرب وإنّـه كـان السيف المشهـر بيـد رسـول الله على المشـركين والكفّار وما زال يحارب في جانب الحقّ فيزهق الباطل أمامه إلى أن راح شهيداً لصحبـة الأبرار الأخيار في جنان النعيم نقول هذا ونحن نعترف أنّ الله سبحانه هـو العامـل الأكبر لنشر دينه ولكن اعتقادنا هذا لا يحظر علينـا الاعتقاد بـأنّ الله سبحانـه وتعالى هـو الذي سخّر سيدنا أمير المؤمنين وسيدنا محمد سيد المرسلين لنشر دينه القيم في العالمين .

وَقَـدْ رَأَيْنَا مَغَـازِيْ ٱلْمُصْـطَفَى وَأَمِيْـــرُ ٱلْمُؤْمِنِيْـنَ بِـلاَ رِيْبٍ مُـجَلِّيْـهَـا
وَقَـدْ رَأَيْنَـاهُ فِيْهَـا وَهْـوَ يَنْثِـرُ نَثْـــراً هَـامَ أَعْـدَاءِ دِيْنِ ٱللَّهِ يَفْـرِيْهَـا
وَكَـانَ فَـرْداً يُـلاَقِيْ غَيْـرَ مُكْتَـرِثٍ بِـٱلْمَوْتِ أَعْـدَاءَ هَدْيِ ٱللَّهِ يُـرْدِيْهَا
مُـكَبِّـراً مُـخْلِصَـاً لِلَّهِ مُعْتَـمِـدَاً عَلَى ٱلْعِنَـايَـةِ بَـرَّ ٱلنَّفْسِ تَـاقِيْهَـا
وَمَـا مُجَاهَـدَةُ ٱلْمِغْـوَارِ حَيْـدَرَةٍ لِلدِّيْنِ خَـافِيَـةٌ وَٱلـدِّيْنُ مُبْـدِيْهَـا
كَـلاَّ وَلَيْسَ لَهَـا مِنْ مُنْكِـرٍ لِنَحُجَّـــهُ بِـبَـيِّـنَـةٍ غَـرًّا نُـؤَدِّيْـهَـا
لٰكِنْ بِهَا ٱعْتَرَفَ ٱلْإِسْـلاَمُ وَٱنْتَشَرَتْ رَايَـاتُـهُ فَهْـوَ بِسْمِ ٱللَّهِ مُـرْبِيْهَـا
تَـٱللَّهِ لَـوْلاَهُ لَمْ تُعْلَنْ هِـدَايَـةُ طَـــهَ فِيْ ٱلْجَـزِيْـرَةِ قَـاصِيْهَـا وَدَانِيْهَـا
وَلاَ تَـلاَشَتْ جُمُوْعُ ٱلْمُشْـرِكِيْنَ وَقَدْ شِمْنَـا عَلَى أَحْمَدَ ٱلْهَـادِيْ تَجَمِّيْهَـا
وَتِلْكَ آيْ وَٱلْهُـدَى غَـرًّا مَـوَاقِعِـهِ تُحْنَى رُؤُوْسُ ٱلْـوَرَى شُكْـراً لآتِيْهَـا
وَأَصْبَحَتْ مِثْلَ هٰذِيْ ٱلشَّمْسِ سَاطِعَةً وَكُـلُّ ذِيْ بَصَـرٍ فِيْ ٱلنَّـاسِ رَائِيْهَـا

حلم أمير المؤمنين وعفوه

أَلْحِلْمُ فَضْـلٌ إِذَا مَـا ٱلْأَقْـوِيَـاءُ بِـهِ لاَقَتْ وَقَـدْ قَدِرَتْ عَفْـوَاً أَعَادِيْهَـا[(١)]
وَإِنَّـهُ ٱلْعَجْـزُ إِنْ جَـاءَ ٱلضَّعِيْفُ بِـهِ يَـزِيْدُهُ عِنْـدَ أَهْـلِ ٱلـرَّأْيِ تَسْفِيْهَـا

(١) الحلم من الفضائل المحمودة والكمالات التي تشرّف صاحبها ولا سيما إذا كانت عن قدرة إذ لا يكون الحلم حلماً إلاّ إذا كان صاحبه قد قدر فعفا ماذا وإلاّ فهو العجز والضعف والصغار . ومتتبعو سيرةِ سيدنا علي عليه السلام يجدون الحلم في أسمى معانيه وأشرفها في هذا الرجل الكامل صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام .

كان سيدنا علي عليه السلام مؤمناً مسلماً بكلّ معنى الإيمان والإسلام ولذلك كان قلبه لا يعرف الحقد والضغينة على مسلمٍ إلاّ إذا كان قد أساءَ إلى الشريعة السمحاء وعمل على الإضرار بها حينئذٍ يغضب غضبته الهاشمية ولا يعود فيرضى أبداً أو تسلم شريعة=

=الله التي أوحيت إلى ابن عمّه المصطفى عليهما الصلاة والسلام من الأذى .

وحوادث سيدنا أمير المؤمنين في الحلم كثيرة لا تتسع لها حاشية كهذه وعلى سبيل الاستشهاد نذكر بعضها . فقد رأيناه يعفو عن مروان بن الحكم بعد أن ظفر به في البصرة على أثر الفشل الذي أحاق بأصحاب الجمل ومروان في الأصل لم يكن مسيئاً شخصياً إلى سيدنا أمير المؤمنين بقدر إساءته إلى الخلافة المحمدية والإسلام والمسلمين باستبداده بأمرة ابن عمّه عثمان بن عفان وهو في الحقيقة مسيء إلى عثمان بن عفان أيضاً أكثر مما هو مسيء إلى سيدنا علي نفسه في حوادث الخلاف التي شجرت بينهما على عهد عثمان بن عفان في المدينة المنوَّرة ومع ذلك عندما ظفر سيدنا علي بمروان وأصبح هذا في قبضته أبى أن يفتك به بل أطلق سبيله ليذهب حيث يشاء وهو عليه السلام كان يعرف أنّه ذاهب إلى الشام إلى ابن عمّه معاوية للعمل على إقلاق راحة الخلافة وإحداث الاضطرابات فيها والقلاقل ومما يذكر أنّه عرض على سيدنا علي وهو في البصرة بعد الجمل أن يبايعه خوفاً من بطشه بواسطة محمد بن أبي بكر فرفض عليه السلام قبول بيعته قائلاً : لم يصدق في الأولى « لأنّه بايعه في المدينة » ليصدق في الثانية وفي هذا من الحلم وسعة الصدر ما هو خليقٌ بسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام .

ومثل هذا حلمه عليه السلام مع الزبير الذي هرب من المدينة على أثر بيعة سيدنا علي وبعد أن بايعه فقصد مكة وحمل عائشة على المسير إلى البصرة للاعتصام بأهلها على نقض بيعته ونقدر أن نقول أنّه كان أحد زعماء أعدائه الذين جعلوا أيام خلافته كلها قلاقل وفتن ومع ذلك كان عليه السلام لفرط حلمه إذا ذكر أمامه الزبير يقول : « ما زال الزبير منّا نحن أهل البيت حتى كبر ابنه عبد الله » فكأنّه بهذا كان يريد أن يبرّأه من جريمة عصيانه على خلافته . ومما يشير إلى حلمه العظيم عليه السلام أنّه جبه قاتل الزبير عندما قصده يبشره بقتله وبشره بالنار وقال وقتئذٍ في الزبير كلَّ كلمة طيبة على ما مرَّ بنا .

ومثل هذا حلمه عليه السلام على عبد الله بن الزبير . فإنّ سيدنا علي كان يعتقد أنَّ الزبير بن العوام ما زال صادقاً في حبّ آل البيت مخلصاً لهم حتى كبر ابنه عبد الله فحمله على عدائهم . ومن علم أنَّ هذا العداء الذي أحدثه عبد الله بن الزبير في صدر أبيه قد أضرَّ الإسلام ذلك الضرر العظيم بفتح باب الشرّ على سيدنا علي منذ فجر خلافته تجسم في نظره إثم هذا الرجل وعظمت لديه إساءَته الكبرى للإسلام عموماً=

مِنْ بَعْدِ مَا بَـاتَتِ ٱلْأَعْدَاءُ فِيْ يَـدِهَا   فَـإِنْ أَحَبَّتْ فَـرَتْ فَـرْيَـاً هَــوَادِيْهَـا

=ولسيدنا علي خصوصاً ومع ذلك أبى سيدنا علي عليه السلام أن ينتقم منه بعد أن فشلت مساعي أصحاب الجمل وتلاشت جموعهم وفرَّ عبد الله بن الزبير إلى البصرة واختفى في أحد دورها فعفا عنه أحلم الحلماء عليه السلام وأطلق سراحه فسار إلى معاوية .

ومثل هذا أيضاً ما بذله سيدنا علي من الإكرام لعائشة بنت أبي بكر بعد وقعة الجمل مع أنّها أساءَت إليه أكبر إساءَة بجهرها بغير سبب ولا ذنب بعدائه وقد رأيناه عليه السلام كيف اعتنى بأمرها واجتهد بتوفير أسباب الراحة لها في مدة إقامتها القصيرة في البصرة وفي تسريحها إلى مكة فالمدينة .

ومثل هذا أيضاً عفوه عليه السلام عمّن سلم من أصحاب الجمل إذ أعلن أصحابه بعد أن نصرهم الله أن لا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا فاراً ولا يعتدوا على بيت من بيوت البصرة .

ومثل هذا أيضاً بل وأعظم منه ما رأيناه يعمله في صفين إذ رأينا أصحاب معاوية يملكون الشريعة ويمنعون الماء عن أصحاب سيدنا علي فلما امتلك هؤلاء الماء بالقوة جاؤوا إلى سيدنا علي وعرضوا عليه أن يمنعوا الماء عن أصحاب معاوية فأبى حلماً ومكرمةً وفضلاً وقال بل نسقيهم مع أنّه ما كان يجهل أنّه لو منع الماء عن أصحاب معاوية في صفين وقتئذٍ لسلموا إليه ظمئاً ولكن ما كان يرضى مثل هذا لقوم من المسلمين غرَّر بهم معاوية وساقهم إلى قتاله .

ومن حوادث حلمه ما شهدنا منه عليه السلام من سعة الصدر في ملاطفة الخوارج الذين أرغموه على قبول التحكيم ثمَّ نقموا عليه ونادوا بعدائه لأنّه لم يمالئهم على نكث العهد الذي قطعه على نفسه في ذلك التحكيم ومن يراجع تاريخ أولئك الخوارج يجد أنَّ سيدنا علي عليه السلام حلم كثيراً عليهم وجاهد طويلاً ليردهم بالحسنى إلى هداهم وحاول جهده أن يقنعهم بفساد مزاعمهم من قبل أن يبطش بهم بطشته المشهورة وما كان حلمه إلّا ليزيدهم شططاً .

ولسيدنا أمير المؤمنين عليه السلام وقفات في الحلم كثيرة هذا القليل منها يغني عن تفصيل كثيرها وآخرها إعلانه رغبته الشريفة بالعفو عن الملعون الأثيم ابن ملجم إن شفيت جراحه على ما رأينا في خطابه عندما جرح وذا والله فوق حوادث الحلم التي=

وَمَا عَرَفْنَا حَلِيْماً كَآلْوَصِيّ إِذَا دَانَتْ عِدَاهُ لَهُ قَهْراً يُدَارِيْهَا
فَكَانَ أَحْلَمَ خَلْقِ آللَّهِ أَجْمَعِهَا عَلَى آقْتِدَارٍ صَفُوْحاً عَنْ مُسِيْئِيْهَا
وَحِلْمُهُ لَمْ يَكُنْ عَجْزاً وَلاَ هُوَ عَنْ ضُعْفٍ وَقُوَّتُهُ مَا مَنْ يُقَاوِيْهَا
وَإِنَّمَا كَانَ مِنْهُ بَعْدَ قِدْرَتِهِ عَلَى عِدَاهُ وَقَدْ خَالَتْهُ مُفْنِيْهَا
فَكَانَ أَوْسَعَ صَدْراً أَنْ يُعَامِلَهَا بِمَا جَنَتْهُ فَيَلْقَى آلْحَيْنَ بَاغِيْهَا
وَقَدْ رَأَيْنَاهُ يَعْفُوْ عَنْ إِسَاءَةِ مِرْ وَانٍ وَقَدْ بَلَغَتْ أَسْوَا مَرَامِيْهَا
وَبَاتَ فِي يَدِهِ مِنْ بَعْدِ نَصْرَتِهِ فِيْ وَقْعَةِ آلْجَمَلِ آلْمَلْعُوْنُ مُلْظِيْهَا
وَلَوْ أَرَادَ لأَمْسَى وَهْوَ قَاتِلُهُ وَإِنَّ قَتْلَتَهُ مَا جَارَ آتِيْهَا
لَكِنَّمَا آلْمُرْتَضَى مَا كَانَ مُنْتَقِماً مِنْهُ فَأَرْسَلَهُ فِيْ آلأَرْضِ يَطْوِيْهَا
وَقَالَ: بَيْعَتُهُ هَيْهَاتِ أَقْبَلُهَا مَا دَامَ يَبْذِلُهَا حِيْناً وَيُلْغِيْهَا
فَرَاحَ لِلشَّامِ يَرْوِيْ حِلْمَ حَيْدَرَةٍ إِلَى كَبِيْرِ أَعَادِيْهِ مُعَاوِيْهَا
وَذَا آلزُّبَيْرُ وَمَا كَانَ آلزُّبَيْرُ يُخَبِّـ ـي بُغْضَةَ آلْمُرْتَضَى مَعْ مَنْ يُخَبِّيْهَا
بَلْ كَانَ يَجْهَرُ جَهْراً بِآلْعَدَاوَةِ لِلْـ ـوَصِيّ يَدْعُوْ إِلَيْهَا آلنَّاسَ تَجْرِيْهَا
وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ عَاصَى آلإِمَامَةَ جَهْـ ـرَةً وَيَا طَالَمَا آسْتَغْوَى مُطِيْعِيْهَا
مَعْ كُلِّ ذَا كَانَ مَوْلاَنَا آلْعَلِيُّ يَغُـ ـضُّ آلْعَيْنَ عَنْهُ بِمَحْضِ آلْحِلْمِ يُغْضِيْهَا
يَقُوْلُ: مَا زَالَ مِنَّا نَحْنُ آلُ رَسُوْ لِ آللَّهِ صُحْبَتُهُ آلزَّهْرَا نُرَاعِيْهَا

=نعرفها بل هذا رحمة من رحيم عليت نفسه عن نفوس العالمين .

وقصارى القول أنَّ سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام كان من الحلم على أعظم جانب بل ما كان في الناس أحلم منه وسوف لا يكون ولا عجب في ذلك فإنّه تربى على يدي سيد الحلماء سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام .

حَـتَّى إِذَا شَـبَّ عَبْـدُ آلـلَّهِ أَبْعَـدَهُ عَنَّـا بِـأَطْمَـاعِ نَفْسٍ كَـانَ يَنْـوِيْهَـا
وَقَـدْ رَأَيْنَـا عَلِيًّـاً وَهْـوَ يَجْبَـهُ مُـرْ دِيْـهِ يُـبَشِّـرُهُ بِـآلـنَّـارِ يَصْـلِيْـهَـا
لَـمَّـا أَتَـاهُ يُـرَجِّيْ أَجْـرَ قَـتْلَتِـهِ مِنْـهُ وَيَحْسِبُـهُ قَـدْ كَـانَ بَـاغِيْهَـا
فَقَـالَ: مَـا كَـانَ وَآللَّهِ آلـزُّبَيْـرُ جَبَـا نـاً فِيْ مُصَـاوَلَـةِ آلْأَقْـدَارِ خَـاشِيْهَـا
لٰكِنْ مَصَارِعُ عَادِيْ ٱلدَّهْرِ قَدْ صَرَعَتْـ ـهُ آلْيَـوْمَ وَٱسْتَمْكَنَتْ مِنْـهُ عَـوَادِيْهَـا
وَأَظْهَـرَ آلْحِلْمَ فِيْ ذِكْـرَى فَضَـائِلِهِ فِيْ خِدْمَةِ آلْمُصْطَفَى إِذْ رَاحَ يُبْدِيْهَـا
كَـذَا لَقَـدْ أَظْفَـرَ آللَّهُ آلْعَلِيَّ بِعَبْـ ـدِ آللَّهِ فِيْ آلْبَصْـرَةِ آلْغَنَّـاءِ يَثْـوِيْهَـا
مِنْ بَعْدِ نَصْرَتِهِ فِيْ وَقْعَةِ آلْجَمَلِ آلْـ ـمَعْهُوْدِ إِذْ خَذَلَ آلْبَارِيْ مُثِيْـرِيْهَـا
هُنَـاكَ قَـالَ لَـهُ: سِرْ غَيْـرَ مُكْتَـرِثٍ بِشَـرِّ آثَـامِـهِ يَبْـغِيْ تَـنَـاسِيْـهَـا
وَلَـوْ أَرَادَ لَـهُ هُـلْكَـاً لأَرْسَـلَهُ إِلَـى مَـنِيَّـتِـهِ أَلْـقَـاهُ فِـيْ فِـيْـهَـا
وَهْوَ آلَّذِيْ شِنْءُ أَهْلِ آلْبَيْتِ أَوْرَثَهُ آلْـ ـزُّبَيْـرَ فَـآنْصَـاعَ يَثْنَـاهَـا وَعَـالِيْهَـا
وَهْوَ آلَّذِيْ عَاثَ فِيْ أَرْضِ آلْخِلَافَةِ إِفْـ ـسَـادَاً وَنَـاوَا عَلِيًّـاً وَهْـوَ وَالِيْهَـا
وَطَـالَمَـا سَبَّـهُ سَبَّـاً وَقَـالَ: هُـوَ آلْـ ـوَغْبُ آللَّئِيْمُ فِعَـالُ آلسُّـوْءِ يَـاتِيْهَـا
كَـذَاكَ عَـائِشَـةٌ قَـدْ رَدَّهَـا كَـرَمَـاً إِلَى آلْمَـدِيْنَةِ كَيْ بِـآلـرَّغْـدِ تَـأْوِيْهَـا
أَحَـاطَهَـا بِنِسَـا قَيْسٍ مُـعَـمَّـمَـةٍ مِثْلَ آلـرِّجَـالِ سَرَتْ مَعْهَـا تُمَاشِيْهَـا
كَـانَتْ لَهَا خَفَـرَاً فِيْ طُوْلِ رَحْلَتِهَـا وَعَنْ مَصَـائِبِهَـا آلشَّتَّـى تُسَـلِّيْهَـا
وَهْيَ آلَّتِيْ نَـاوَأَتْ ظُلْمَـاً خِـلَافَتَهُ وَلَيْسَ فِيْ آلنَّاسِ أَشْقَى مِنْ مُنَاوِيْهَا
وَهْـوَ آلَّذِيْ قَـدْ عَفَا عَنْ صُحْبَـةِ آلْجَمَلِ آلْأَغْـرَارِ نَـادَى ذَوِيْـهِ أَنْ تَؤَاسِيْهَـا
بِـآلْحِلْمِ أَمَّنَهَـا مِنْ بَعْـدِ أَنْ غُلِبَتْ وَأَسْـرَعَتْ هَـرَبَـاً تَـأْوِيْ مَخَـابِيْهَـا
وَعِنْدَمَا كَانَ يَسْعَى آلْمُرْتَضَى بِحُمَـا ةِ آلـدِّيْنِ لِلشَّامِ إِذْ أَبْـدَتْ تَعَصِّيْهَـا

أَلْفَى ٱلْعُصَاةَ عَلَى شَطِّ ٱلْفُرَاتِ أَبَتْ ... لُؤْماً عَلَى قَوْمِهِ ٱلْأَمْوَاهَ تُسْقِيْهَا

فَكَانَ بِٱلسَّيْفِ عَنْ تِلْكَ ٱلْمِيَاهِ بِحَوْ ... لِ ٱللَّهِ قَاهِرَهَا قَهْراً وَمُجْلِيْهَا

لٰكِنْ أَبَى عَنْ وُرُوْدِ ٱلْمَاءِ يَمْنَعُهَا ... وَكَانَ مُهْلِكَهَا لَوْ رَامَ يُظْمِيْهَا

وَكَمْ لِحَيْدَرَةٍ مِنْ وَقْفَةٍ يَتَجَلَّـ ... ـى ٱلْحِلْمُ فِيْهَا لِسَانُ ٱلشُّكْرِ يَحْكِيْهَا

وَإِنَّهَا وَقَفَاتٌ لِلْمَلَا بَهَرَتْ ... وَمَا سِوَى ٱلْمُرْتَضَى تَٱللَّهِ يَأْتِيْهَا

وَكَانَ آخِرَهَا إِعْلَانُ رَغْبَتِهِ ... بِٱلْعَفْوِ أَعْلَنَهَا فِيْ ٱلنَّاسِ تَجْرِيْهَا

عَنْ قَتْلِ قَاتِلِهِ ٱلْمَلْعُوْنِ إِنْ بُرِءَتْ ... جُرُوْحُهُ وَدِمَاهُ سَالَ قَانِيْهَا

وَإِنَّ ذَا فَوْقَ مَا نَدْرِيْ وَنَعْرِفُ مِنْ ... حَوَادِثِ ٱلْحِلْمِ مَا وَٱللَّهِ يَحْكِيْهَا

ذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَحِيْمٍ نَفْسُهُ عَلِيَتْ ... عَنِ ٱلْخَلَائِقِ أُنْسِيْهَا وَجِنِّيْهَا

رأي أمير المؤمنين وتدبيره

كَانَ ٱلْعَلِيُّ لَدَى ٱلْأَخْطَارِ مَا دَهَمَتْ ... أَدْهَى ٱلصَّحَابَةِ فِيْ تَلْطِيْفِ دَاهِيْهَا(١)

وَفِيْ ٱلْمَصَاعِبِ أَدْرَى مَنْ يُبَدِّدُهَا ... بِحِكْمَةٍ مَا تَنَاهَتْ فِيْ تَعَصِّيْهَا

---

(١) كان أمير المؤمنين عليه السلام أسدَّ الناس رأياً وأصحهم تدبيراً وأبعدهم نظراً في الأمور يعرف في يومه ما يجيء به الغد شأن الذكي الحازم العارف مما كان ما سيكون فما أخطأت فريسته ولا طاش في إصابة غرضه سهمه . وهو الذي أشار على عمر بن الخطاب بغزو الفرس والروم في العراق والشام بعد أن كان متردّداً بين الإقدام والإحجام فقويت بسديد رأي المرتضى عزيمته فجرَّد جيوشه وفتح الأمصار تلك الفتوحات الإسلامية العظيمة وأيده فيها أحسن تأييد . ولا جدال أنَّ عثمان بن عفان لو أصغى إلى النصائح الرشيدة العلوية والآراء الصائبة الحيدرية لما قامت تلك الفتنة على عهده فكان أوَّل ضحاياها ولما مني المسلمون بعدها بما منوا به من الشدائد التي لا يزال تأثيرها على العالم الإسلامي عظيماً إلى هذا اليوم . ولقد شنع أعداؤه عليه السلام به فقالوا إنّه كان قائل الرأي لنظرهم نظراً سطحياً إلى ما قام في وجهه من المصاعب في سنوات خلافته القليلة ولكن فات هؤلاء النظر إلى الظروف التي أحاطت به في خلافته وإلى حقيقة=

يَرَى بِصَائِبِ رَأْيٍ مَا تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَ يَّامُ مِنْ قَبْلِمَا تَدْهَى دَوَاهِيْهَا
وَكَانَ يَلْقَى صُرُوْفَ ٱلدَّهْرِ يَدْفَعُهَا بِحُسْنِ تَدْبِيْرِهِ عَنْهُ وَيَتَّقِيْهَا
وَكَانَ رَبَّ سَدَادٍ فِيْ ٱلْأُمُوْرِ إِذَا مَا أَعْمَلَ ٱلرَّأْيَ فِيْهَا لَيْسَ يَخْطِيْهَا
بِرَأْيِهِ عُمَرُ أَمْضَى عَزِيْمَتَهُ لِلْفَتْحِ وَٱلْغَزْوِ فَهْوَ ٱلْحَقَّ مُمْضِيْهَا
فَدَوَّخَ ٱلشَّامَ مَعْ أَرْضِ ٱلْعِرَاقِ وَطَا عَتْهُ ٱلْأَهَالِيْ عُرَاقِيْهَا وَشَامِيْهَا
وَلَوْ أَصَاخَ إِلَى سَامِيْ نَصِيْحَتِهِ عُثْمَانُ إِذْ رَاحَ بِٱلْإِخْلَاصِ يُسْدِيْهَا
لَمَا تَفَاقَمَتِ ٱلْفَوْضَى وَلَا فُتِنَتْ فِيْهَا ٱلْعِبَادُ فَأَمْسَى مِنْ أَضَاحِيْهَا
نَعَمْ وَلَوْلَا نُصُوْصُ ٱلشَّرْعِ يَحْفَظُهَا وَلَا يَهُوْنُ عَلَيْهِ أَنْ يُخَطِّيْهَا
لَكَانَ أَدْهَى رَجَالَاتِ ٱلرِّئَاسَةِ فِيْ ٱلْإِسْلَامِ إِنْ تَنْشُدَ ٱلدُّنْيَا سِيَاسِيْهَا
لٰكِنْ شَرِيْعَةُ طَهَ حَسْبَمَا نَزَلَتْ قَدْ قَيَّدَتْهُ بِأَحْكَامٍ يُجَرِّيْهَا
فَعَابَهُ ٱلْقَوْمُ فِيْ تِلْكَ ٱلْقُيُوْدِ وَقَا لُوْا أَخْطَأَ ٱلرَّأْيَ وَٱلتَّدْبِيْرَ تَمْوِيْهَا

= شخصه الأقدس ولو أمعنوا النظر وتنزهوا عن الغرض لوجدوا أنَّ المصاعب التي اعترضته وجعلت أيام خلافته ملأى بالقلاقل والفتن لم تكن من سوء تدبيره وقصر نظره في عواقب الأمور بل لتمسكه بأهداب الشرع وإبائه بيع آخرته بدنياه في وقت كثر فيه طلّاب الدنيا وعُدِم طلّاب الآخرة وقد قال عليه السلام لأمثالهم من جاهلي مبلغ سداد رأيه ودهائه « لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب » وهو القول الحقّ الذي لا يدانيه الباطل . ولعمري أنَّ من كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه ويلائمه سواءً طابق الشرع الشريف أو خالفه لا بدَّ أن تكون أحواله الدنيوية أقرب إلى الانتظام ممن لا يخطو خطوةً في سياسته وأحكامه إلَّا إذا كان للشرع فيها رضى بينما نرى الناس يطلبون منافعهم ويسعون وراء مطامعهم ويعملون لدنياهم وهم غافلون عن آخرتهم . وعلى هذا فتكون المصاعب التي اعترضت سيدنا أمير المؤمنين في خلافته ناجمةً عن تدينه وورعه واستمساكه بأهداب الشريعة السمحاء لا من فساد رأيه وسوء تدبيره كما يشنع أعداؤه الأغرار الجهلاء .

أَجَابَ: لَوْلَا ٱلتُّقَى وَٱلدِّيْنُ كُنْتُ بِلَا شَكٍّ أُفُوْقُ دُهَاةَ ٱلْعُرْبِ أُعْيِيْهَا

أَجَلْ جَوَابُ عَلِيٍّ قَدْ أَصَابَ بِهِ كَبْدَ ٱلْحَقِيْقَةِ فِيْ أَقْصَى مَخَابِيْهَا

فَإِذْ أَبَتْ أَنْ تُوَآتِيْهِ صَحَابَتُهُ عَلَى هِدَايَتِهِ أَمْسَى مُجَافِيْهَا

وَعَمْرَكَ ٱللَّهَ هَلْ يُرْضِيْ ٱلشَّرِيْعَةَ مَنْ يَبْغِيْ رِضَا ٱلنَّاسِ يَرْجُوْ أَنْ يُرَاضِيْهَا

وَهَلْ مَطَامِعُ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ يُنْفِذُهَا مَنْ يَتَّقِيْ بِحُدُوْدِ ٱلشَّرْعِ بَارِيْهَا

وَهَلْ تَسَاوَى ٱلَّذِي يُمْضِيْ ٱلْأُمُوْرَ عَلَى نَصِّ ٱلشَّرِيْعَةِ مَعْ مَنْ لَيْسَ يُمْضِيْهَا

وَٱلنَّاسُ تَطْلُبُ دَوْمَاً مَنْ يُسَايِرُهَا عَلَى هَوَاهَا جِهَارَاً أَوْ يُمَارِيْهَا

كَلَّا وَحَاشَا فَلَا يَبْغِي أَبُوْ حَسَنٍ إِلَّا إِرَادَةَ بَارِيْهِ فَيُمْضِيْهَا

وَلَا يَبِيْعُ بِدُنْيَاهُ وَزُخْرُفِهَا مَسَارِحَ ٱلْخُلْدِ مَعْ هَانِيْ مَغَانِيْهَا

شدة أمير المؤمنين في سياسته

فِيْ ٱللَّهِ مَا كَانَ مَوْلَانَا ٱلْأَمِيْرُ يُرَا عِيْ ذَا طَمَاعِيَةٍ قَدْ رَاحَ بَاغِيْهَا[1]

وَكَانَ فِيْهِ شَدِيْدَاً مَا لِشِدَّتِهِ هَوْنٌ لِعِزَّةِ دِيْنِ ٱللَّهِ يُبْدِيْهَا

فَكَانَ يَشْجُبُ مَنْ جَازَ ٱلشَّرِيْعَةَ مِنْ عُمَّالِهِ رَاقِيَاً شَتَّى مَآتِيْهَا

---

(١) كان أمير المؤمنين عليه السلام شديداً في سياسته خشناً في تنفيذ أحكام الله لم يراقب في ذلك غير الحقّ سبحانه وتعالى فإنّه لم يراقب في ذلك ابن عمّه في عمل ولّاه إيّاه ولا أخاه في مطامعه التي ردَّه بها . وتلك حروبه في الجمل وصفين والنهروان كلّها كان في طوقه تلافيها من أهون الطرق لو راشى الناس وصانعها وواتاها على مطامعها وأغضب الله في مرضاتها ولكنه كان أعظم تديناً وأسمى تقىً وتورعاً أن يعمل ما يغضب الله ليرضي عباده وأشقى الناس من أغضب المولى وأرضى العبيد . وشدَّته هذه هي التي صرفت الناس عنه وحملتهم على التألّب على عدائه فهم لم يطعنوا عليه بظلم ولا اتهموه بجريرةٍ ولكنهم طلبوا منافعهم وملذاتهم وإذ لم يجدوها عنده انصرف بعضهم إلى عدائه وتراخى البعض عن نصرته ولله الأمر من قبل ومن بعد .

سِيَّانِ مَنْ كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ عِتْرَتِهِ أَوْ كَانَ فِي ٱلْعُرْبِ مِنْ أَسْمَى قُرَيْشِيْهَا
حَتَّى أَخُوْهُ عَقِيْلٌ كَانَ جَابِهَهُ لَمَّا أَتَاهُ بِأَطْمَاعٍ يُوَخِّيْهَا
وَغَايَةُ ٱلْقَوْلِ مَا كَانَ ٱلْإِمَامُ يُرَا شِيْ ٱلنَّاسَ كَيْ يَتَّقِيْ قَاسِيْ تَعَادِيْهَا
لَوْ كَانَ مَا تَرْتَجِيْهِ مِنْ مَطَامِعِهَا مِنَ ٱلْخِلَافَةِ وَٱلْإِسْلَامِ يُعْطِيْهَا
لَمَا تَكَلَّفَ فِيْ أَيَّامِ أُمْرَتِهِ حَرْبَ ٱلرَّعَايَا وَلَا تَأْدِيْبَ عَاصِيْهَا
وَلَا ٱلزُّبَيْرُ عَصَا يَوْمَاً خِلَافَتَهُ كَلَّا وَلَا طَلْحَةٌ قَدْ رَاحَ آبِيْهَا
كَلَّا وَلَا أُمُّ عَبْدِ ٱللَّهِ عَائِشَةٌ لَاقَتْ عَلَى ٱلْحَرْبِ أَعْوَانَاً تُؤَاتِيْهَا
كَلَّا وَلَا ٱلشَّامُ عَاصَتْهُ بِمَطْمَعِهَا وَقَدْ أَطَاعَتْ مُعَاوِيْهِ مُعَاوِيْهَا
كَلَّا وَلَا عَمْرُوٌ آبْنُ ٱلْعَاصِ جَاهَرَ بِٱلْـ ـعِصْيَانِ يَرْجُوْ بِهِ مِصْرَاً وَيَبْغِيْهَا
كَلَّا وَلَا خَرَجَتْ يَوْمَاً خَوَارِجُ أَرْ ضِ ٱلنَّهْرَوَانِ عَلَيْهِ فِيْ تَعَصِّيْهَا
وَمَا حُرُوْبُ عَلِيٍّ فِيْ خِلَافَتِهِ قَدْ يَسْتَحِيْلُ وَلَا يُرْجَى تَلَافِيْهَا
لَوْ أَنْ تَسَامَحَ فِيْ أَحْكَامِ خَالِقِهِ مَعَ ٱلرَّعَايَا وَأَوْلَاهَا أَمَانِيْهَا
وَإِنَّ حَيْدَرَةً أَتْقَى وَأَقْدَسُ مِنْ أَنْ يَسْتَمِيْلَ ٱلرَّعَايَا أَوْ يُجَارِيْهَا
بِمَا يُعَارِضُ أَحْكَامَ ٱلشَّرِيْعَةِ جَهْـ ـرَاً فِيْ أَوَامِرِهَا أَوْ فِيْ نَوَاهِيْهَا

الراعي والرعية في نظر أمير المؤمنين

هٰذِيْ مَبَادِيْ عَلِيٍّ فِيْ حُكُوْمَتِهِ إِنْ تُغْضِبَ ٱلنَّاسَ كَانَ ٱللَّهُ رَاضِيْهَا[1]
وَسَنَّ سُنَّتَهُ فِيْهَا لِتَتْبَعَهَا مِنْ بَعْدِهِ ٱلنَّاسُ عُجْمِيْهَا وَعُرْبِيْهَا

---

(١) لقد أشرنا في الفصلين السابقين حيث نوهنا بدهاء سيدنا علي عليه السلام وشدته في سياسته إلى تلك الروح الطيبة الطاهرة التي ما كانت تعرف إلّا العدل بأوسع معانيه حسبما يقضي الشرع الشريف ولقد وضع عليه السلام أساساً وطيداً لحقوق الرعاة والرعية=

فَقَــالَ صَلَّى عَلَيْـهِ آللَّهُ قَــوْلَــةَ حَـــــقٍّ وَآلسَّعِيْدُ آلَّذِيْ قَدْ بَاتَ صَـاغِيْهَا
لِلَّهِ سُبْحَــانَـهُ كُـلُّ آلْحُقُـوْقِ عَلٰى عِبَـادِهِ وَاجِبٌ فَـرْضٌ تَقَـاضِيْهَـا

=قال عليه السلام : « ثمَّ جعل سبحانه من حقوقه ، حقوقاً افترضها لبعض النـاس على بعض ، فجعلها تتكافأ في وجوهها ، ويوجب بعضهـا بعضاً ، ولا يستـوجب بعضها إلاَّ ببعض ، وأعظم ما افتـرض سبحانـه من تلك الحقوق ، حقّ الـوالي على الرعيـة ، وحقّ الرعيـة على الوالي ، فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كلّ ، فجعلها نظاماً لألفتهم ، وعـزّاً لـدينهم ، فليست تصـلح الرعيـة إلاّ بصلاح الـولاة ، ولا تصلح الولاة إلاّ بـاستقـامـة الرعية ، فإذا أدّت الرعية إلى الوالي حقّه ، وأدّى الوالي إليها حقّها ، عـزَّ الحقُّ بينهم ، وقـامت مناهـج الدين ، واعتـدلت معالم العـدل ، وجرت على إذلالهـا السنن ، فصلح بذلك الـزمان ، وطمـع في بقاء الـدولة ، ويئست مـطامع الأعـداء ، وإذا غلبت الرعيـة واليها ، وأجحف الوالي برعيته ، اختلفت هناك الكلمة ، وظهـرت معالم الجـور ، وكثر الإدغال في الدين ، وتركت محاجُّ السنن ، فعمل بالهوى ، وعطلت الأحكـام ، وكثرت عللُ النفوس ، فلا يستوحش لعظيم حقّ عطل ، ولا لعظيم بـاطل فعـل ، فهنالـك يذلُّ الأبرار ، ويعزُّ الأشرار ، وتعظم تبعات الله سبحانـه عند العبـاد ، فعليكم بالتنـاصح في ذلك ، وحسن التعاون عليه ، فليس أحد وإن اشتدَّ على رضاء الله حـرصه ، وطـال في العمـل اجتهاده ، ببـالغ حقيقـة ما الله سبحـانه أهله من الـطاعـة لـه ، ولكن من واجب حقـوق الله سبحانـه على عباده النصيحـة بمبلغ جهـدهم ، والتعـاون على إقـامـة الحقّ بينهم ، وليس امرءٌ وإن عظمت في الحق منـزلته ، وتقـدمت في الدين فضيلتـه ، بفوق أن يعان على ما حمله الله من حقّه ، ولا امرءٌ وإن صغرته النفوس ، واقتحمته العيون ، بدون أن يعين على ذلك ، أو يعان عليه » اهـ .

أقـول ولو طلب اليـوم من أبلغ بلغاء أوروبـا وأخطب خـطبائهم أن يجعـل نفوس العمـران والاجتمـاع والشـورى وارتبـاط النـاس بعضهم ببعض وحكـامهم بمحكـوميهم لعجـزوا عن الإتيان بمثـل خطبـة أميـر المؤمنين هـذه وبـأرقى من مبـاديهـا وبـأوفى من أغراضها بصـرف النظر عن بـلاغة التعبيـر التي هي من مميزاتـه عليه السلام حتى قيل بحقّ إنّ كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق . ولعمـري إنّ هذه الشـورى التي تمشت عليها أوروبا في هذا الزمن فبلغت بهـا سؤددها المشهـور ما هي إلاّ من بعض منشئـات أمير المؤمنين وموضوعات القرآن المبين الذي أنزله الله سبحانه على سيد المرسلين .

وَخَصَّ بِٱلْبَعْضِ مِنْهَا بَعْضَهَا وَبِبَعْـــضٍ بَعْضَهَا حَيْثُمَا أَمْسَى مُجَـزِّيْهَا
قَضَى بِأَنْ تَتَكَافَا فِيْ ٱلْوُجُوْهِ عَلَى جَمِيْعِنَا وَدَعَانَا أَنْ نُرَاعِيْهَا
وَلَيْسَ لِلْبَعْضِ مِنْهَا أَنْ يَكُوْنَ عَلَى ٱلْـــعِبَادِ مُفْتَرَضاً مِنْ دُوْنِ بَاقِيْهَا
وَإِنَّ أَعْظَمَ هَاتِيْكَ ٱلْحُقُوْقِ بِلَا رَيْبٍ وَأَفْضَلَهَا فِيْ عَيْنِ وَاعِيْهَا
حَقُّ ٱلرَّعَايَا عَلَى ٱلْوَالِيْ يُقَدِّسُهُ بِلَا تَرَاخِيْ بِهِ كَيْمَا يُرَضِّيْهَا
وَحَقُّهُ وَهْوَ مَفْرُوْضٌ وَمُحْتَرَمٌ عَلَى رَعِيَّتِهِ مَا دَامَ رَاعِيْهَا
فَرِيْضَةٌ قَدْ تَعَالَى ٱللَّهُ فَارِضُهَا عَلَى ٱلْجَمَاعَةِ قُلْ إِفْلَاحُهَا فِيْهَا
وَٱللَّهُ جَاعِلُهَا خَيْرَ ٱلنِّظَامِ لِأُلْـــفَةِ ٱلْجَمَاعَةِ مَعْ زَاهِيْ تَآخِيْهَا
وَإِنَّهَا سَبَبٌ أَسْمَى لِعِزَّةِ دِيْـــنِهَا وَعِزَّتُهُ كُلٌّ يُوَخِّيْهَا
وَفِيْ صَلَاحِ وُلَاةِ ٱلْأَمْرِ تَصْلُحُ أَشْـــتَاتُ ٱلرَّعِيَّةِ عَافِيْهَا وَمُثْرِيْهَا
وَفِيْ ٱسْتِقَامَةِ أَخْلَاقِ ٱلرَّعِيَّةِ تَصْـــلُحُ ٱلْوُلَاةُ ٱلْأُلَى لِلْعَدْلِ تَبْغِيْهَا
فَإِنْ تُؤَدِّيْ إِلَى ٱلْوَالِيْ ٱلرَّعِيَّةُ حَقَّـــهُ وَأَدَّى إِلَيْهَا ٱلْحَقَّ وَالِيْهَا
قُلْ بَيْنَهَا ٱلْحَقُّ قَدْ عَزَّتْ جَوَانِبُهُ فَمَا ٱلْأَبَاطِيْلُ تَدْهَاهَا وَتُوْهِيْهَا
وَقُلْ مَنَاهِجُ دِيْنِ ٱللَّهِ قَائِمَةٌ عَلَى ٱلْهُدَى تُؤْمِنُ ٱلتَّضْلِيْلَ وَٱلتِّيْهَا
وَقُلْ قَدِ ٱعْتَدَلَتْ لِلنَّاسِ أَجْمَعِهَا مَعَالِمُ ٱلْعَدْلِ فِيْ عَالِيْ مَبَانِيْهَا
وَقُلْ جَرَتْ مِثْلَمَا يَرْجُوْ ٱلْحَكِيْمُ عَلَى إِذْلَالِهَا ٱلسُّنَنُ ٱلْمَحْمُوْدُ مُجْرِيْهَا
بِذَاكَ يَصْلُحُ تَٱللَّهِ ٱلزَّمَانُ وَتَلْـــقَى ٱلنَّاسُ فِيْهِ كَمَا تَرْجُوْ أَمَانِيْهَا
نَعَمْ وَنَطْمَعُ فِيْ طُوْلِ ٱلْبَقَاءِ لِدَوْ لَةٍ عَلَى مِثْلِ ذَا سَارَتْ أَهَالِيْهَا
وَمِنْ تَضَعْضُعِهَا أَوْ مِنْ تَبَدُّدِهَا أَوْ مِنْ تَدَهْوُرِهَا خَابَتْ أَعَادِيْهَا
أَمَّا إِذَا غَلَبَ ٱلرَّاعِيْ رَعِيَّتُهُ وَبَاتَ لُعْبَةَ هِزْءٍ بَيْنَ أَيْدِيْهَا

أَوْ جَارَ وَالٍ فَلَمْ يُنْصِفْ رَعِيَّتَهُ ... وَكَانَ مُرْهِقَهَا عِسْفاً وَمُؤْذِيْهَا

فَقُلْ هُنَالِكَ آرَاءٌ مُبَعْثَرَةٌ ... وَيَسْتَحِيْلُ عَلى هَذْيٍ تَجَمِّيْهَا

وَٱلْجَوْرُ قَدْ ظَهَرَتْ شَتَّى مَعَالِمُهُ ... فِيْ ٱلنَّاسِ كَيْمَا تُعَانِيْهِ وَيُشْقِيْهَا

وَٱلدِّيْنُ قَدْ كَثُرَ ٱلْإِدْغَالُ سَيِّئُهُ ... فِيْهِ فَأَوْلَاهُ بَعْدَ ٱلْحُسْنِ تَشْوِيْهَا

كَذَاكَ فَٱلسُّنَنُ ٱلْغَرَّا مَذَاهِبُهَا ... لَا شَكَّ مُهْمَلَةٌ مَا مَنْ يُخَطِّيْهَا

وَبِٱلْهَوَى تُعْمَلُ ٱلْأَعْمَالُ أَجْمَعُهَا ... حَتَّى تَسُوْءَ وَلَمْ تَصْلُحْ لِأَهْلِيْهَا

وَقَدْ تَعَطَّلَتِ ٱلْأَحْكَامُ وَٱنْدَرَسَتْ ... فَلَسْتَ تُلْفِيْ حَصِيْفَ ٱلرَّأْيِ يُجْرِيْهَا

وَفِيْ ٱلنُّفُوْسِ تَفَشَّتْ جَهْرَةً عُلَلٌ ... قَتَّالَةٌ ذُوْ ٱلْحِجَى يَخْشَى تَفَشِّيْهَا

فَإِنْ تَعَطَّلَ حَقٌّ أَوْ تَأَيَّدَ بُطْـ ... ـلٌ لَيْسَ يُوْحِشُهَا هَذَا وَيُشْجِيْهَا

وَٱلذُّلُّ وَٱلْقَهْرُ لِلْأَبْرَارِ يَصْحَبُهَا ... وَٱلْعِزُّ وَٱلْمَجْدُ لِلْأَشْرَارِ يُمْهِيْهَا

وَبَعْدَ ذَا تَبَعَاتُ ٱللَّهِ تَعْظُمُ عِنْـ ... ـدَ ٱلنَّاسِ وَهْيَ ٱلَّتِيْ بِٱلشَّرِّ تَجْنِيْهَا

تَنَاصَحُوْا يَا عِبَادَ ٱللَّهِ أَجْمَعَكُمْ ... فِيْ ذَاكَ دَعْوَى يُرِيْدُ ٱلْخَيْرَ دَاعِيْهَا

وَإِنَّنِيْ أَبْتَغِيْ مِنْكُمْ مُعَاوَنَةً ... حَسْنَا عَلى ٱلْحَقِّ يَلْقَى ٱلْأَجْرَ آتِيْهَا

وَمَا ٱجْتَهَدْتُمْ بِأَعْمَالِ ٱلْبَرَارَةِ وَٱلـ ... ـتَّقْوَى بِخَيْرِ فِعَالٍ لَا خَطَا فِيْهَا

وَمَا حَرِصْتُمْ عَلى رِضْوَانِ رَبِّكُمْ ... بِأَنْفُسٍ تَتَّقِيْ إِغْضَابَ بَارِيْهَا

فَلَيْسَ يَبْلُغُ مِنْكُمْ حَقَّ طَاعَةِ رَ ... بِّ ٱلْعَرْشِ حَتَّى بِتَقْوَاهُ يُؤَدِّيْهَا

لٰكِنْ عَلى ٱلنَّاسِ مِنْ حَقِّ ٱلْمُهَيْمِنِ أَنْ ... تُبْدِيْ ٱلنَّصِيْحَةَ عَفْوَاً لَا تُخَبِّيْهَا

وَأَنْ تُقِيْمَ حُقُوْقَ ٱللَّهِ أَجْمَعَهَا ... عَلى ٱلتَّعَاوُنِ فِيْ أَسْمَى مَبَادِيْهَا

وَلَا ٱمْرِءٌ مَا عَلَتْ فِيْ ٱلدِّيْنِ رِتْبَتُهُ ... وَفِيْ ٱلْفَضِيْلَةِ تُسْمِيْهِ وَيُسْمِيْهَا

بِفَوْقِ أَنْ يَتَلَقَّى مِنْ صَحَابَتِهِ ... مَعُوْنَةً وَهْيَ بِٱلْإِخْلَاصِ تُسْدِيْهَا

كَيْمَا يَقُومُ بِمَا ٱلرَّحْمٰنُ حَمَّلَهُ مِنْ حَقِّهِ فِيْ ٱلرَّعَايَا وَهْوَ حَامِيْهَا

وَلَا ٱمْرِءٌ مَا دَنَتْ فِيْ ٱلْجَاهِ رِتْبَتُهُ وَكَانَ فِيْ ٱلنَّاسِ مِنْ أَدْنَى أَدَانِيْهَا

بِدُوْنِ أَنْ يَبْذُلَ ٱلْعَوْنَ ٱلْجَمِيْلَ وَأَنْ يُعَانَ تِلْكَ حُقُوْقُ ٱللَّهِ يَقْضِيْهَا

ذَا رَأْيُ حَيْدَرَةٍ بَلْ ذَا عَدَالَةُ شَرْ عِ ٱللَّهِ حَيْدَرَةٌ قَدْ رَاحَ يُبْدِيْهَا

أَيَّامَ كَانَتْ مُلُوْكُ ٱلْأَرْضِ آلِهَةً وَنَاسُهَا مَا تَعَالَتْ عَنْ مَوَاشِيْهَا

وَلَمْ تَكُنْ مِنْ حُقُوْقٍ لِلرَّعِيَّةِ تَرْ عَاهَا ٱلْمُلُوْكُ وَتَرْضَاهَا وَتَدْرِيْهَا

فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَعْطَى ٱلشُّعُوْبَ حُقُوْ قَهَا وَقَيَّدَ تَقْيِيْدَاً مَوَالِيْهَا

وَمَا أُرَبَّةُ فِيْ ذَا ٱلْعَهْدِ نَازِلَةٌ إِلَّا عَلَى حُكْمِهِ وَهْوَ ٱلْمُقَوِّيْهَا

فَإِنْ نُؤَرِّخْ شُوْرَاهَا نَقُوْلُ عَلِيُّ ٱلْمُرْتَضَى دُوْنَ شَكٍّ كَانَ مُنْشِيْهَا

سخاء أمير المؤمنين

أَبْهَى وَأَزْهَى سَجَايَا ٱلْعُرْبِ أَجْمَعِهَا سَخَاؤُهَا وَٱلسَّخَا أَسْمَى مَبَادِيْهَا[1]

فَإِنْ تَجِدْ عَرَبِيَّاً لَيْسَ ذَا كَرَمٍ فَقُلْ دَخِيْلٌ عَلَيْهَا مِنْ مَوَالِيْهَا

---

(١) إنَّ السخاء سجية خلقية في العرب والكرم شيمة طبيعية في نفوسهم والسماحة من مميزاتهم التي لا يدانيهم بها غيرهم من الناس فإذا وجدت عربياً بخيلاً شحيحاً فاحكم على البداهة أنّه ليس من العرب بل دخيل عليهم . وعلى هذا فالسخاء الذي يقول الحكماء أنّه يخفي العيوب ويستعبد القلوب ليس بالأمر الغريب أن يتصف به سيدنا أمير المؤمنين وهو والمصطفى صفوة قريش وأعرق الناس شرفاً وسؤدداً بين الناطقين بالضاد عليهما الصلاة والسلام . وأجمع رواة التاريخ أنَّ المرتضى عليه السلام كان أسخى أسخياء العرب وأسمحهم نفساً وأوفرهم جوداً حتى ليجود على عفاته بنفسه لو وجد إليها سبيلاً . فلا غرو والحالة هذه إذا قالوا أنَّ نفسه الشريفة لم تغرَّ بالمال قطُّ ولا صبت إليه ولا عرفت له قيمة وأنّه لقد صدق يوم قال : « إنّ دنياكم عندي كعفطة عنز » .

وما اشتهر سيدنا أمير المؤمنين بالسخاء عندما تدفقت خيرات الله على المسلمين=

= بعد أن نصر الله سبحانه دينه وتمَّ لعباده ذلك الفتح العظيم فكان له مثل غيره من وجوه المسلمين النصيب الوافي من الفيء ولا بعد أن أصبح خليفة المسلمين وباتت مفاتيح خزائن بيت المال في قبضته الكريمة بل قبل ذلك يوم كان متربا فقيراً على خصاصة يومئذٍ كان يصوم ويطوي ويؤثر بزاده المساكين فأرضى بإحسانه ربَّ العالمين فأنزل فيه قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبّه ، مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنّما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منك جزاءً ولا شكوراً** ﴾ ولعمري أنَّ من شهد الله سبحانه له بالسخاء بهذه الآية الكريمة لهو السخيُّ المحسان .

وكان سيدنا علي في صدر الهجرة يشتغل بعرق جبينه لينفق على نفسه وزوجه فاطمة الزهراء عليهما وعلى المصطفى وآل البيت الطاهر الصلاة والسلام فتوفر له يوماً من ربحه الحلال أربعة دراهم فتصدَّق بأحدها نهاراً والثاني ليلاً وبالثالث سرّاً وبالرابع جهرةً فرضي الله عن هذا الإحسان الكثير إحسان الرجل بكل ما جنى بعرق جبهته وأنزل فيه آية : ﴿ **الذين ينفقون بالليل والنهار سرّاً وعلانيةً** ﴾ ولعمر الحقّ أنَّ هذا الإحسان لا يعادله إحسان .

وكان سيدنا علي عليه السلام يسقي نخيل رجل من اليهود في المدينة المنوَّرة حتى مجلت يده وكان يتصدَّق بما يكسب ويشدّ على بطنه حجراً من الجوع وهذا فوق الكرم والسخاء .

وروى الثقاة أنّ سيدنا أمير المؤمنين ذكر يوماً في مجلس الشعبي فقال هذا فيه : « كان على الخلق الذي يحبه الله السخاء والجود ما قال لسائل (لا) قط وهذا معروف مشهور يعرفه ويعترف به كلُّ من وقفوا على سيرة أبي الحسنين سواءٌ كانوا من محبيه أو مبغضيه » .

وهذا معاوية وهو عدوّ المرتضى اللدود كان معجباً بسخاء أمير المؤمنين عليه السلام فقد حدَّث المحدّثون أنَّ محفن ابن أبي محفن الضبي جاءَ يوماً متملقاً وهو أمير الشام فسأله من أين أنت قادم يا محفن ؟ قال ويريد أن يتملقه : من الكوفة من عند أبخل الناس . فجبهه معاوية قائلاً : ويحك كيف تقول عن علي أبخل الناس وهو الذي لو ملك بيتاً من تبر وبيتاً من تبن لأنفد تبره قبل تبنه فخجل محفن وصمت واجماً . ولعمري أنَّ شهادة معاوية لسيدنا علي بالسخاء هي الحجة الكبرى لما تعلم ما كان يضمره في نفسه=

لَـوْ أَنَّ فِي يَـدِهِ آلسَّخْيَـا حَشَـاشَتُــهُ ... لَــرَاحَ لِلنَّــاسِ أَيْمُ آللَّهِ يُعْــطِيْهَــا

كَمْ بَاتَ جُوْعَانَ مَطْوِيَّ آلْحَشَـا تَعِبَاً ... وَقَـدْ أَتَتْهُ جِيَـاعُ آلنَّاسِ يَقْــرِيْهَـا

فَلِلأَيَــامَى وَلِــلأَيْتَــامِ كَــانَ غِــذَا ... هُ وَآلأَسَــارَى بِحُبِّ آللَّهِ يَغْــذِيْهَــا

﴿ وَيُطْعِمُوْنَ ﴾ بِحَقٍّ فِيهِ قَدْ نَـزَلَتْ ... تُثْنِي عَلَيْـهِ فَيَا سُبْحَــانَ مُـوْحِيْهَــا

وَكَــانَ يَـوْمَــاً لَـدَى عُلْيَــاهُ أَرْبَعَــةٌ ... مِنَ آلـدَّرَاهِمِ بِـآلأَوْصَـابِ جَـانِيْهَـا

بِــوَاحِدٍ جَــادَ لَيْـلاً ثُمَّ جَــادَ بِثَــا ... نٍ فِيْ آلنِهَارِ سَمُوْحَ آلنَّفْسِ سَاخِيْهَا

وَقَــدْ تَصَـدَّقَ عَنْ تَقْــوَى بِثَـالِثِهَــا ... سِــرَّاً وَرَابِعُهَــا أَعْــطَاهُ تَجْــرِيْهَــا

فِيْ ذَاكَ قَـدْ نَزَلَتْ بِـآلْحَقِّ آيَةٌ ﴿ يُنْــــفِقُوْنَ ﴾ وَهِيَ آلَّتِيْ جِبْرِيْـلُ مُلْقِيْهَا

= له من العداء والفضل ما شهدت به الأعداء .

ولقد ذكرنا فيما مرَّ معنا في هذه العلوية المباركة وحواشيها أنَّ سيدنا علي عليه السلام كان في كل يوم جمعة بعد الصلاة يوزع على المساكين ما في بيت مال المسلمين من ذهب ولجين ثم يكنس البيت ويصلّي فيه لربّه ويقول : يا صفراء ويا بيضاء غرِّي غيري .

وقد تربع سيدنا أمير المؤمنين على دست الخلافة وأصبح خراجها يأتيه من كل صوب وحدب ومع ذلك كان ينفق على نفسه وعياله الكفاف ولم يرض أن يختصَّ بشيء من المال يتركه لأولاده من بعده بل كان جميع حقّه الشرعي من الفيء ينفقه على المعوزين والمساكين لوجه الله الكريم .

على أنّه عليه السلام كان يحسن بهذا الكرم العجيب في حالتي يسره وعسره ولكن لوجه الله تعالى لا يريد من وراء إحسانه جزاءً ولا شكوراً ولا يرمي به إلى مصلحة دنيوية خلافاً لغيره من الذين كان إحسانهم تجارةً يرمون بها إلى تكثير أعوانهم وتوفير دواعي القوة بهم للتغلب على الخلافة مما رأينا نتائجه فيما تقدم من هذه العلوية المباركة وهي الإكثار من أعداء سيدنا علي من طلاب الدنيا وتراخي أصحابه عن نصرة الله ورسوله وشريعته تحت رايته العليا .

بِمُهْجَتِيْ ٱلْمُرْتَضى أُفْدِيْ وَقَدْ مَجلَتْ يَـدَاهُ مِنْ أَرَضِيْنَ ٱلنَّـاس يَسْقِيْهَـا
وَكَـانَ يُؤْثِـرُ أَرْبَـاحَـاً يُحَصِّلُهَـا بِكَـدِّهِ وَهْـوَ جُـوْعَـانٌ بِبَـاغِيْهَـا
وَإِنَّمَا ٱلْجُوْدُ أَنْ يَشْقَى ٱلْفَتَى وَبِمَا لَـدَيْهِ يَلْقَى مِنَ ٱلْأَتْـرَابِ عَـافِيْهَـا
لَا ٱلْجُوْدُ أَنْ يَبْذِلَ ٱلْإِنْسَانُ فَضْلَةَ أَمْـــوَالٍ لَـدَيْهِ بِـلَا نَفْـعٍ مُخَبِّيْهَـا
كَـذَاكَ كَانَ سَخَـاءُ ٱلْمُرْتَضَى وَعَـطَا يَـاهُ ٱلْقَلِيْلَةُ بِـٱلْأَوْصَـابِ يَجْنِيْهَـا
أَيَّامَ كَانَتْ جَمَاعَاتُ ٱلـرَّسُوْلِ عَلى خَصَاصَةٍ بِرِضَى ٱلْبَارِيْ تُعَانِيْهَا
وَٱلْمُـرْتَضَى لَمْ يَقُـلْ يَـوْمَـاً لِسَـائِلِهِ لَا إِنَّ لَفْـظَةَ لَا مَـا كَـانَ يَـدْرِيْهَـا
وَلَمْ يُخَيِّبْ رِغَـابَـاً لَا تُخَـالِفُ شَرْ عَ ٱللَّهِ أَوْ سِنَّـةَ ٱلْهَـادِيْ لِـرَاجِيْهَا
وَذَا مُعَـاوِيَـةٌ وَهْـوَ ٱلْـعَـدُوُّ أَتَـا هُ مَحْقَنٌ لَهْجَـةُ ٱلتَّمْلِيْقِ يُبْـدِيْـهَـا
فَقَالَ: يَا صَاحِبِيْ مِنْ عِنْدِ أَبْخَلِ أَهْـــلِ ٱلْأَرْضِ جِئْتُكَ بِٱلآمَالِ أُزْجِيْهَا
فَقَـالَ: مِنْ أَيْنَ قَـدْ وَافَيْت مُـرْتَبَعِي أَجَابَ: مِنْ كُوْفَـةٍ مِنْ عِنْدِ عَـالِيْهَا
فَقَالَ: وَيْحَكَ تَرْمِيْ ٱلْمُرْتَضَى بِصِفَا تِ ٱلشُّحِّ حَاشَاهُ حَاشَـا أَنْ يُدَانِيْهَـا
لَـوْ كَـانَ يَمْلِكُ بَيْتَـاً مِـلْؤُهُ ذَهَبٌ وَمَتْبَنَـاً وَٱنْجَلى فِيْ ٱلنَّاسِ يُجْـدِيْهَا
لَأَنْفَـذَ ٱلتِّبْـرَ قَبْـلَ ٱلتِّبْنِ تَبْـذِلُـهُ يُمْنَـاهُ بِـرَّاً وَإِحْسَـانَـاً لِجَـادِيْهَـا
وَهْيَ ٱلشَّهَـادَةُ مِنْ مَـرْءٍ عَـدَاوَتُـهُ لِلْمُـرْتَضَى لَمْ يَكُنْ يَـوْمَـاً يُـدَارِيْهَـا
فَمَـا نَقُـوْلُ وَنَحْنُ ٱلْأَصْـدِقَـاءُ بِـهِ وَبِـٱلْأَيَادِيْ ٱلَّتِيْ قَـدْ كَـانَ يُسْـدِيْهَـا
وَهْـوَ ٱلْمُكَنِّسُ بَيْتَ ٱلْمَالِ مُفْرِغُـهُ عَلى ٱلْعُفَـاةِ ٱلْأُلَى ٱلْأَقْـدَارُ تُشْقِيْهَـا
يَقُوْلُ: مَا غَـرَّتِ ٱلْبَيْضَاءُ مِثْلِيَ وَٱلْـــصَّفْـرَاءُ كَـلَّا وَلَا أَرْضَى تَصَبِّيْهَـا
وَحَسْبُــهُ لَمْ يُخَلِّفْ مِنْ خِـلَافَـتِـهِ لِأَهْـلِهِ مِـنْ مَـوَارِيْـثٍ تُـرَجِّـيْهَـا
نَعَمْ أَبُـوْ حَسَنٍ مَـا كَـانَ يَبْـذِلُ أَمْـــوَالَ ٱلْخِلَافَـةِ لِلْأَعْـوَانِ يَـرْشِيْهَـا

وَلَمْ يُنِلْ رُؤَسَاءَ آلنَّاسِ رَغْبَتَهَا ... فَيَظْلُمُ آلْفُقَرَا ظُلْماً وَيُغْنِيْهَا
لٰكِنَّهُ كَانَ يَلْقَى بِآلْمَوَاهِبِ أَرْ ... بَابَ آلْخَصَاصَةِ يَبْغِيْ وَجْهَ بَارِيْهَا
وَهُوَ آلَّذِيْ مَلَكَ آلدُّنْيَا بِرَاحَتِهِ ... وَلَمْ يُغَرَّ فَأَبْقَاهَا لِأَهْلِيْهَا
وَآلْمَالُ عَارِيَةٌ فِيْ جَيْبِ خَازِنِهِ ... لِكَيْ يُوَرِّثَهُ آلْأَعْقَابَ يُهْنِيْهَا
فَإِنْ وَفَى مِنْهُ حَقَّ آللّٰهِ سَارَ إِلَى آلْـ ... ـخُلُوْدِ بِآلصَّفَحَاتِ آلْبِيْضِ يُسْنِيْهَا
وَإِنَّ صَفْحَةَ مَوْلَانَا أَبِيْ حَسَنٍ ... بَيْضَاءُ أَزْهَى مَجَالِيْ بِرِّهِ فِيْهَا

فصاحة أمير المؤمنين وبلاغته

إِنَّ آلْفَصَاحَةَ مَا دَانَتْ لِذِيْ لَسَنٍ ... مِنَ آلْبَرِيَّةِ عُرْبِيْهَا وَعُجْمِيْهَا[1]
كَمَا آنْثَنَتْ بِبَهَاهَا وَهْيَ خَاضِعَةٌ ... لِلْمُرْتَضَى آللَّسِنِ آلْقَوَّالِ رَاعِيْهَا

(١) لا جدال أنَّ سيدنا علي أمير المؤمنين عليه السلام هو إمام الفصحاء وأستاذ البلغاء وأعظم من خطب وكتب في عرف أهل هذه الصناعة الألبَّاء وهذا كلامه عليه السلام قد قيل فيه بحقّ أنّه فوق كلام الخلق وتحت كلام الخالق قال هذا كل من عرف فنون الكتابة واشتغل في صناعة التحبير والتحرير بل هو أستاذ الكتاب العرب ومعلمهم بلا مراء فما من أديب لبيب حاول اتقان صناعة التحرير إلاَّ وبين يديه القرآن ونهج البلاغة ذاك كلام الخالق وهذا كلام أشرف المخلوقين وعليهما يعوّل في التحرير والتحبير إذا أراد أن يكون في معاشر الكتبة المجيدين . ولعلَّ أفضل من خدم لغة قريش الشريف الرضي الذي جمع خطب وأقوال وحكم ورسائل سيدنا أمير المؤمنين من أفواه الناس وأماليهم وأصاب كلَّ الإصابة بإطلاقه عليه اسم « نهج البلاغة » وما هذا الكتاب إلاّ صراطها المستقيم لمن يحاول الوصول إليها من معاشر المتأدبين ولعلَّ أحسن وصف قرأته لنهج البلاغة قول الأستاذ الكبير الفيلسوف الشيخ محمد عبده المصري رحمه الله فقد وصف ما كان يشعر به وهو بين يدي تلك الدور الحسان المزربة بعقود الجمان قال : « كان يخيل لي في كل مقام ، أنَّ حروباً شبّت ، وغاراتٍ شُنَّت ، وأنَّ البلاغة دولة ، وللفصاحة صولة ، وأنَّ للأوهام عرامة ، وللريب دعارة ، وأنَّ جحافل الخطابة ، وكتائب الذرابة ، في عقود النظام ، وصفوف الانتظام ، تنافح بالصفيح الأبلج ، والقويم=

=الأملج ، وتثلج المهج ، برواضع الحجج ، فتقلُّ دعارة الوساوس ، وتصيب مقاتل الخوانس ، فما أنا إلاّ والحقُّ منتصر ، والباطل منكسر ، ومرج الشكّ في خمود ، وهرج الريب في ركود ، وأنَّ مدبّر تلك الدولة ، وباسل تلك الصولة ، هو حامل لوائها الغالب ، أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، بل كنت كلما انتقلت من موضعٍ إلى موضع ، أحسُّ بتغيّر الشاهد ، وتحوّل المعاهد ، فتارةً كنت أجدني في عالم تعمره من المعاني أرواحٌ عالية ، في حلل من العبارات زاهية ، تطوف على النفوس الزاكية ، وتدنو من القلوب الصافية ، توحي إليها رشادها ، وتقدّم منها مرادها ، وتنفر بها عن مداحض المزال ، إلى جواد الفضل والكمال ، وطوراً كانت تنكشف لي الجمل ، عن وجوهٍ باسرة ، وأنيابٍ كاشرة ، وأرواحٍ في أشباح النمور ، ومخالب النسور ، قد تحفزت للوثاب ، ثمَّ انقضّت للاختلاب ، فخلبت القلوب على هواها ، وأخذت الخواطر دون مرماها ، واغتالت فاسد الأهواء ، وباطل الآراء ، وأحياناً كنت أشهد ، أنَّ عقلاً نورانياً ، لا يشبه خلقاً جسدانياً ، فصل عن الموكب الإلّهي ، واتّصل بالروح الإنساني ، فخلعه على غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى ، ونما به إلى مشهد النور الأجلى ، وسكن به إلى عمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس ، وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ، باعلياء الكلمة ، وأولياء أمر الأمّة ، يعرّفهم مواقع الصواب ، ويبصرهم مواضع الارتياب ، ويحذرهم مزالق الاضطراب ، ويرشدهم إلى دقائق السياسة ، ويهديهم طرق الكياسة ، ويرتفع بهم إلى منصات الرئاسة ، ويصعدهم شرف التدبير ، ويشرف بهم على حسن المصير » اهـ هذا ما رآه الأستاذ الإمام رحمه الله وما شعر به وهو مجدٌّ في درس نهج البلاغة سائر إليها فلا عجب إذا فاز منها بالنصيب الأعلى فكان أفصح من كتب في المتأخرين وقد قال لي رحمه الله مرةً إذا رمت أن تكون كاتباً فخذ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أستاذاً واتّخذ أقواله الدرية في ظلمات ليلك نبراساً وذكر مرَّةً لي المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجي أكتب كتاب العرب وإمام أساتذة اللغة فيهم في العهد الأخير بالإجماع قال : « ما اتقنت الكتابة إلاّ بدرس القرآن العظيم ونهج البلاغة القويم فهما كنز العربية الذي لا ينفد وذخيرتها للمتأدب وهيهات أن يظفر أديب بحاجته من هذه اللغة الشريفة إن لم يحيي لياليه سهراً في مطالعتهما والتبحر في عالي أساليبهما » وهذا ما نقوله هنا لمن يريد أن يكون كاتباً بلغة الأعراب أو متفوقاً في مواقف الجدل والخطاب .

=

قَدْ بَذَّ كُلَّ فَصِيحٍ قَبْلَهُ عُرِفَتْ آثَارُ آدَابِهِ وَٱلنَّاسُ تَرْوِيْهَا
وَلَمْ يَدَعْ بَعْدَهُ سُبْلاً لِمُطَّلِبٍ سَبْقَاً بِمُضْمَارِهَا إِنْ رَامَ يَمْشِيْهَا
لَمْ يُبْقِ ذِكْرَاً لِقِسٍّ وَهْوَ أَفْصَحُ مِلْـسَانٍ وَلاَ خُطَبٍ قَدْ كَانَ يُلْقِيْهَا
نَعَمْ فَصَاحَتُهُ مَا مَنْ يُقَارِبُهُ فِيْهَا وَحَسْبِي عَلِيٌّ كَانَ يُنْشِيْهَا
وَإِنَّهُ دُوْنَ رَيْبٍ سَيِّدُ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلثَّائِرِيْنَ مِنَ ٱلْأَقْوَالِ دُرِّيْهَا
وَإِنَّهَا فَوْقَ أَقْوَالِ ٱلْبَرِيَّةِ طُرَّاً إِنَّمَا دُوْنَ مَا قَدْ قَالَ بَارِيْهَا
وَهْيَ ٱلَّتِيْ تَسْحَرُ ٱلْأَلْبَابَ مَا تُلِيَتْ سُحْرَاً حَلاَلاً يُغَشِّيْ نَفْسَ تَالِيْهَا
هِيَ ٱلشَّمُوْلُ بِأَلْبَابِ ٱلْوَرَى لَعِبَتْ لِعْبَ ٱلشَّمُوْلِ بِلاَ إِثْمٍ لِسَاقِيْهَا
عُقُوْدُ دُرٍّ لِجِيْدِ ٱلشَّرْعِ قَدْ نُظِمَتْ فَهَاكَهُ قَدْ تَحَلَّى مِنْ لآلِيْهَا
فِيْ حُسْنِهَا جُلِيَتْ مِثْلَ ٱلْعَرَائِسِ فِيْ حِلِيِّهَا تَبْهَرُ ٱلدُّنْيَا مَجَالِيْهَا
آضَتْ تِلاَوَتُهَا وَٱللَّهِ مُطْرِبَةَ ٱلْأَسْمَاعِ مَا نَغَمَاتُ ٱلطَّيْرِ تَحْكِيْهَا

= ومع هذا فإننا نشير هنا إلى شهادة معاوية بن أبي سفيان عدو سيدنا أمير المؤمنين وإقراره الصريح بتفوقه عليه السلام في هذه الصناعة والفضل ما شهدت به الأعداء فإنّه قال لمحفن الذي وافاه متملقاً فقال جئتك من عند أعيى الناس كما سبق وقال له جئتك من عند أبخل الناس فجبهه معاوية قائلاً ويحك كيف يكون عليٌّ أعيى الناس فوالله ما سنَّ الفصاحة لقريش غيره وهذا حسب .

وفي هذه المناسبة يخلق بنا أن نشير إلى ما يتداوله الناس من القصائد الحكمية المنسوبة إلى سيدنا علي عليه السلام وأجمع المؤرخون على أنّها ليست للإمام بل نسبها إليه ناظموها ربما عن تقى وربما عن اقتباس . ولهؤلاء حجج كثيرة منها أنَّ ما يتداوله الناس من الأشعار المنسوبة للإمام ما هي من البلاغة بمنزلة المعهود من أقواله الشريفة ومنها أنَّ الشريف الرضي لم يذكر في نهج البلاغة شيئاً من شعره ولا ذكر مع حرصه على كل ما ينسب لأمير المؤمنين أنَّ له شيئاً من الشعر ونحن على هذا الرأي والله أعلم .

فَمَنْ تَلاَهَا تَلاَهَى عَنْ فَرَائِضِهِ   إِنْساً بِهَا نَاسِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا

ضَمَّتْ مَوَاعِظَهُ الْغَرَّا وَحُكْمَتَهُ الْـ   ـكُبْرَى وَأَخْلاَقَهُ الزَّهْرَا فَحَاوِيْهَا

وَجَاءَ فِيْهَا بِأَحْكَامٍ تُوَضِّحُ آ   يَاتِ الْكِتَابِ عَلَى مَا شَاءَ مُوْحِيْهَا

وَكَانَ يَكْسُوْ مَعَانِيْهِ السَّنِيَّةَ أَلْـ   ـفَاظاً تَلِيْقُ بِهَا أَعْظِمْ بِكَاسِيْهَا

وَكَانَ يُرْسِلُهَا عَفْوَا بِلاَ تَعَبٍ   عَلَى الْمَنَابِرِ بَيْنَ النَّاسِ يُشْجِيْهَا

كَذَا رَسَائِلُهُ الْغَرَّاءُ كَانَ بِلاَ   تَكَلُّفٍ بِدَرَارِيْهِ يُوَشِّيْهَا

ظَلَّتْ وَحَقِّكَ كَنْزاً لاَ نَفَادَ لَهُ   مِنَ الْفَصَاحَةِ لِلْأَعْرَابِ يُغْنِيْهَا

مِنْهَا تَعَلَّمَتِ النَّاسُ الْفَصَاحَةَ لَـ   ـكِنْ أَعْجَزَتْ كُلَّ مَنْ يَبْغِيْ تَحَدِّيْهَا

بِذَلِكَ اعْتَرَفَتْ أَهْلُ الصِّنَاعَةِ بِالْإِ   جْمَاعِ مُصْدِرَةً فِيْهِ فَتَاوِيْهَا

وَعَمْرَكَ اللَّهَ هَلْ أَجْلَى وَأَفْصَحُ مِنْ   أَقْوَالِ حَيْدَرَةٍ أَوْ مِنْ مَعَانِيْهَا

فِيْ كُلِّ مَا نَظَمَتْ أَوْ كُلِّ مَا نَثَرَتْ   أَهْلُ الزَّكَانَةِ فِيْ شَتَّى أَمَالِيْهَا

لَوْلاَ التُّقَى قُلْتُ آيَاتٌ مُنَسَّقَةٌ   فِيْهَا الْهِدَايَةُ أَوْ تَجْرِيْ مَجَارِيْهَا

وَذِيْ كِتَابَتُهُ « نَهْجُ الْبَلاَغَةِ » فِيْ   سُطُوْرِهَا وَبِهِ هَدْيٌ لِقَارِيْهَا

وَحَسْبُنَا مَا رَأَيْنَا لِلصَّحَابَةِ آ   ثَاراً تُحَاكِيْ الَّذِيْ أَبْقَاهُ عَالِيْهَا

وَهُمْ لَقَدْ وَرَدُوْا مَعْهُ مَنَاهِلَ دِيْـ   ـنِ اللَّهِ وَالْمُصْطَفَى قَدْ كَانَ مُجْرِيْهَا

فَإِنْ تَقُلْ غَيْرَ هَيَّابٍ فَصَاحَتُهُ   لِلنَّاسِ مُعْجِزَةٌ لَمْ تَلْقَ تَسْفِيْهَا

وَذَاتُ يَوْمٍ أَتَى مَثْوَى مُعَاوِيَةٍ   لِجِدْيَةٍ مَحْفَنٌ قَدْ كَانَ يَبْغِيْهَا

فَقَالَ: مِنْ عِنْدِ أَعْيَى النَّاسِ جِئْتُكَ يَا   رَبَّ الْفَصَاحَةِ أَنْشِدْنِيْ مَثَانِيْهَا

فَقَالَ: وَيْحَكَ تَرْمِيْ بِالْفَهَاهَةِ وَالْإِ   عْيَاءِ حَيْدَرَةً كِذْباً وَتَمْوِيْهَا

وَلَمْ يَسُنَّ قَوَانِيْنَ الْفَصَاحَةِ إِلَّا   هُ لِأُمَّتِنَا حَتَّى قُرَيْشِيْهَا

وَتِلْكَ قَوْلَةُ حَقٍّ مِنْهُ قَدْ بَدَرَتْ عَفْواً بِمَجْلِسِهِ مَا آسْطَاعَ يَزْوِيْهَا

وَآلْفَضْلُ لِلْمَرْءِ مَا أَعْدَاؤُهُ شَهِدَتْ لَهُ بِهِ وَرَوَتْهُ فِي نَوَادِيْهَا

زهد أمير المؤمنين

يَا نَفْسُ آثَارَهُ فِيْ آلزُّهْدِ وَآقْرِيْهَا[1] قِفِيْ لَدَى سَيِّدِ آلزُّهَّادِ وَآعْتَبِرِيْ

فَمَنْ تَكُوْنِيْنَ فِيْ جَنْبِ آلْإِمَامِ وَقَدْ شُمْنَاهُ مُتَّرِكَ آلدُّنْيَا لِأَهْلِيْهَا

فَإِنَّهُ مَا آمْتَلَا مِنْ مَطْعَمٍ أَبَدَاً وَطَالَمَا بَاتَ طَاوِيْ آلنَّفْسِ خَاوِيْهَا

وَكَانَ مَأْكَلُهُ خَشْنَاً وَمَلْبَسُهُ مَا بَيْنَ صَحْبٍ قَضُوْا آلْأَعْمَارَ تَرْفِيْهَا

وَقَدْ تَدَثَّرَ ثَوْبَاً كُلُّهُ رِقَعٌ جُلُوْدُهَا خِيِّطَتْ فِيْ جَنْبِ لِيْفِيْهَا

وَإِنْ رَأَى كُمَّهُ طَالَتْ عَلَى يَدِهِ يَقُصُّهَا كَارِهَاً مِنْهَا تَدَلِّيْهَا

وَيَغْتَذِيْ بِبُقُوْلِ آلْأَرْضِ مُتَّرِكَاً مِنَ آلْمَآكِلِ لِلنُّهَّامِ شَاهِيْهَا

(١) إنّ من أحلى صفات أمير المؤمنين عليه السلام زهده ويعجز القلم وتضيق الصحف عن استيعاب أنباء زهده التي طالما أشرنا إليها في هذه القصيدة المباركة فلا غرو إذا قلنا أنّه سيد الزهّاد وبدل الأبدال وإليه تشدُّ الرحال وعنده تنقضّ الأحلاس فإنّه ما شبع من طعام قطّ وكان أخشن الناس مأكلاً وملبساً . قال عبد الله بن أبي رافع دخلت على عليّ يوم عيد فقدم له جراب مختوم فوجدنا فيه خبز شعير يابساً مرضوضاً فأكل منه الكفاف وختمه وأعاده فقلت يا أمير المؤمنين لماذا تختمه قال أخاف من هذين الولدين أن يلتاه بسمن أو زيت اهـ أقول وقد كان ثوبه مرقوعاً بجلد تارةً وبليف أخرى وكان نعلاه من ليف وكان يلبس الكرباس الغليظ فإذا وجد كمه طويلةً قطعها بسكين ولم يخطها فكانت لا تزال متساقطةً على ذراعه حتى تبقى سدىً لا لحمة له . وكان يأتدم إذا ائتدم بخل أو بملح فإن زاد على ذلك فببعض نبات الأرض وإذا أسرف فبقليل من لبن الإبل وما كان يأكل اللحم إلاّ قليلاً ويقول : « لا تجعلوا قلوبكم مقابر الحيوان » وكان مع ذلك أشدّ الناس قوةً وأعظمهم يداً فلا أنقص الجوع قوّته ولا خوَّر الإقلال عزمه وهو الذي طلق الدنيا فلم يعبأ بخيراتها مع أنَّ الأموال كانت تجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلاّ من الشام التي كان مغتصبها معاوية .

وَقَلَّمَا أَكَلَ ٱللَّحْمَ ٱلشَّهِيَّ وَأَلْـ ـبَانَ ٱلنِّيَاقِ إِذَا مَا فَاضَ رَاغِيْهَا
يَقُوْلُ: لَا تَجْعَلُوْا هٰذِي ٱلْبُطُوْنَ قُبُوْ رًا لِلْمَوَاشِي تُوَارِيْهَا مَخَابِيْهَا
فَٱنْظُرْ لِمَلْكٍ بِلَادُ ٱللَّهِ فِيْ يَدِهِ وَكَانَ يَرْضَى بِنَبْتٍ مِنْ بَرَارِيْهَا
وَإِنَّ خَيْرَاتِهَا تُجْبَى إِلَيْهِ وَلَا تَنَالُهَا غَيْرُ أَيْدِي مُسْتَحِقِّيْهَا
ٱللَّهُ أَكْبَرُ فِيْ ٱلْمِفْضَالِ حَيْدَرَةٍ وَفِيْ فَضَائِلِهِ وَٱلزُّهْدُ يُحَلِّيْهَا
يَعْرَى وَيَطْوَى وَيُكْفِي فِيْ مَكَارِمِهِ أَهْلَ ٱلْخَصَاصَةِ طَاوِيْهَا وَعَارِيْهَا
وَمَنْ تَزَهَّدَ وَٱلْأَمْوَالُ فَائِضَةٌ عَلَيْهِ مِثْلَ مِيَاهِ ٱلسَّيْلِ جَارِيْهَا
أَسْمَى وَأَفْضَلُ مِنْ زُهْدِ ٱلْمُقِلِّ عَلَى خَصَاصَةٍ وَهْوَ يَعْيَا عَنْ تَحَصِّيْهَا
هٰذَا هُوَ ٱلزُّهْدُ زُهْدُ ٱلْقَانِتِ ٱلْوَرِعِ ٱلْـ ـتَّاقِيْ ٱلَّذِيْ يَقْصِدُ ٱلْجَنَّاتِ يَبْغِيْهَا
هٰذَا وَصِيُّ رَسُوْلِ ٱللَّهِ وَارِثُ آ لَاءِ ٱلنُّبُوَّةِ فِيْ أَسْنَى تَلَالِيْهَا
عَلَيْهِمَا صَلَوَاتُ ٱللَّهِ خَالِدَةٌ تُتْلَى مَدَى ٱلدَّهْرِ وَٱلرَّحْمٰنُ رَاضِيْهَا

وصف أمير المؤمنين لزهده

وَذَاتِ يَوْمٍ دَعَا فِيْ بَصْرَةٍ رَجُلٌ إِلَى وَلِيْمَتِهِ بِٱلصَّفْوِ وَالِيْهَا[1]
فَمَا تَأَخَّرَ عَنْهَا وَهْوَ مُطَّلِبٌ أَشْهَى وَأَطْيَبَ مَا يَطْهُوْهُ طَاهِيْهَا

---

(١) خليق بنا هنا أن ننظم إحدى رسائل أمير المؤمنين عليه السلام وقد وصف فيها زهده أحسن وصف وهذه الرسالة العصماء أرسلها إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة وقد بلغه أنّه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها قال :

« أمّا بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أنَّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها ، تستطاب لك الألوان ، وتنقل إليك الجفان ، وما ظننت أنّك تجيب إلى طعام قوم ، عائلهم مجفوّ ، وغنيهم مدعو ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم ، فما اشتبه عليك علمه فالفظه ، وما أيقنت بطيب وجهه فنل منه ، ألا وإنَّ لكلّ مأموم=

= إماماً يقتدى به ، ويستضيء بنور علمه ، ألا وإنَّ إمَـامكم قد اكتفى من دنيـاه بطمـرية ، ومن طعامه بقرصيه ، ألا وأنّكم لا تقدرون على ذلك ، ولكن أعينوني بورع واجتهـاد ، وعفـة وسداد ، فـوالله ما كثـرت من دنياكم تبـراً ، ولا ادخرت من غنـائمهـا وفـراً ، ولا أعددت ليالي ثوبي طمراً ، ولا حزت من أرضها شبراً ، ولا أخذت منها إلّا كقوت أتـان دبرة ، ولهيَ في عيني أوهى من عفصة مرَّة » اهـ .

ويخلق بنا عند ذكر هذه الرسالة الكريمة التي سطرها أمير المؤمنين عـظةً للحكام والناس أجمعين أن تنبه إلى أمور ترى في التنبيه إليها دفاعاً عن حقّ أضاعه أكثر شارحي كتاب « نهج البلاغة » إذ ذهبوا في هذه الـرسالـة إلى أنّه عليه السلام أراد بهـا ذمّ أهل البصـرة بقوله : « عائلهم مجفو وغنيهم مدعو » والذي أراه أنّ الأمير لم يرد بهذا الذمّ عموم أهل البصـرة ولكن زمرة معينـة من أهلها كـان صاحب الـوليمة واحـداً منها وحـاشى لـه على عدالته التي لا يختلف فيها اثنان أن يرمي البصريين كلهم بمساوىء طائفةٍ منهم لا يخلو من مثلها بلد من بلاد الدنيا كما أنَّ هذه الـوليمة قـد أولمت قبل حـرب الجمل فمـا من داعٍ لذمّ البصريين أو بعضهم فيها وبهذا كفاية . وارجع إلى الرسالة التي نحن بصددها فقد كتبها أمير المؤمنين عليه السلام وهو في المدينة المنورة قبل أن يخرج منها لموقعة الجمـل ودليل على هذا هو أنّ عثمان بن حنيف الأنصاري الذي كتبت له هذه الرسالة هو الـذي كان عامل الإمام على البصـرة ولّاه عليها عنـد خلافتـه ومنها استخلصهـا طلحة والـزبير عندما قدما البصرة بعائشة وجملها وكان استخلاصهمـا المدينـة من يده قـوةً وقهراً وعلى هذا لم يكن لأمير المؤمنين ما يبعثه على ذمّ أهل البصرة كما تقدم .

ومما يجدر بي قوله إنَّ مـا هو منشور ومشهور من أقـوال أمير المؤمنين عليه السلام في ذمّ أهل البصرة في مختلف خطبه لم يكن مـوجهاً لعمـوم أهاليهـا كما يستفـاد من أقوال أكثر شراح نهج البلاغة وإنّي مع كـل عارف بـالنفس العلوية العـالية من العـدل والفضل أنزهه عن تعميم الذمّ في كل البصريين وإنّما كان الذمّ مقتصراً على الطائفة التي عصت خلافته وانضمت إلى أعدائها وهي خـلافة شـرعية لا عفـو ولا غفران لمن عصى عليهـا وأنكرها والثابت أنّ كثيرين من البصريين كانـوا موالين لخـلافته وكثيـرين منهم نصروهـا بسيـوفهم فكانت مـوقعة بينهم وبين أصحـاب الجمل عنـدما قـدموا بلدهم على مـا هـو صريح في التاريخ وكثيرون منهم اعتزلوا القتال وبعضهـم جاهدوا جهاداً كبيراً في تسـوية =

فَبَادَرَ ٱلْعَامِلَ ٱلْمُدْعُوَّ يَرْدَعُهُ   عَنْ مِثْلِهَا رَاغِبَاً أَنْ لَا يُثَنِّيْهَا
وَقَدْ أَرَادَ بِأَنْ تُمْسِيْ رِسَالَتُهُ   أُمْثُوْلَةً يَسْتَفِيْدُ ٱلرُّشْدَ قَارِيْهَا
فَقَالَ: يَا ٱبْنَ حَنِيْفٍ قَدْ عَرَفْتُ وَلِيْـ   ـمَةً دُعِيْتَ إِلَيْهَا أُضْتُ دَارِيْهَا
أَقَامَهَا ذُوْ ثَرَاءٍ مِنْ أَكَارِمِ بَصْـ   ـرَةٍ فَكُنْتَ بِلَا بُطْءٍ مُوَافِيْهَا
إِلَيْكَ قَدْ نُقِلَتْ فِيْهَا ٱلْجِفَانُ وَإِنَّـ   ـكَ ٱسْتَطَبْتَ مِنَ ٱلْأَلْوَانِ شَاهِيْهَا
إِخَالُهَا بُسِطَتْ وَٱلنَّاسُ دَائِرَةٌ   حِيَالَهَا بَيْنَ جَاثِيْهَا وَمُقْعِيْهَا
خَرَّتْ لِأَذْقَانِهَا تَبْغِيْ مُسَابَقَةً   فِيْ حَلْبَةٍ أَنْتَ فِيْ ظَنِّيْ مُجَلِّيْهَا

=الخلاف ومنع القتال وحمل العصاة على الطاعة فكلُّ هؤلاء لا يتناولهم الذمّ الموجه من أمير المؤمنين بحقّ إلى الذين مالئوا أعداء خلافته ونصروهم من البصريين .

وأرى في الرسالة التي نحن بصددها أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد فيها مطلق النصيحة فلم يحسب مؤاكلة عامله للناس جريمةً ولكن الذي أراده هو تنبيهه خاصةً وتنبيه كلّ عامل على التعميم بل أهل العدل أجمعين أن يلفظوا ما اشتبه عليهم علمه وأن ينالوا مما أيقنوا بطيب وجهه وأن لا يواكلوا قوماً لا يقرون الجياع ويدعون إلى موائدهم الأغنياء وفوق هذا إنّي ارجح أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أراد أيضاً أن يحظر على العمال قبول دعوات فتية الناس أي كرامهم مخافة أن تؤثر مثل هذه الولائم عليهم فلا يقيمون العدل في أحكامهم بين الناس والله أعلم .

أمّا ترجمة عثمان بن حنيف بضمّ الحاء وفتح النون فهو ابن وهب بن الحكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاري ثمَّ الأوسي أخو سهل بن حنيف ويكنّى أبا عمرو وقيل أبا عبد الله صحب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في مغازيه وولّاه عمر بن الخطاب في خلافته مساحة الأرض وجبايتها في العراق وضرب الخراج والجزية على أهلها ثمَّ عزل في خلافة عثمان وما زال معزولاً حتى ولي أمير المؤمنين عليه السلام الخلافة فولّاه على البصرة وعندما وصلها طلحة والزبير بأصحاب الجمل أخرجاه منها قهراً والظاهر أنّه مالأ أصحاب الجمل لأنّ أمير المؤمنين بعد انتصاره عليهم وفي مدى خلافته لم يولّه عملاً وبعد وفاته عليه السلام قدم عثمان بن حنيف الكوفة وسكنها إلّا أنّه لم يعش طويلاً بعد ذلك فمات في أوائل خلافة معاوية .

وَمَا عَفَفْتَ وَمَا أَهْلُ ٱلْعَفَافِ يَرُوْ   دُوْنَ ٱلْوَلاَئِمِ حُبّاً فِيْ أَشَاهِيْهَا
وَلَمْ تَخَفْ تَخْمَةً تُوْدِيْ بِصَاحِبِهَا   حَذَارِ أَنْ تَكُ يَوْمَاً مِنْ أَضَاحِيْهَا
وَأَكْلَةٌ تُحْرِمُ ٱلْإِنْسَانَ لَذَّتَهُ   إِلَى زَمَانٍ خَلِيْقٌ أَنْ تُجَافِيْهَا
وَمَا ظَنَنْتُ تُلَبِّيْ دَعْوَةً بَدَرَتْ   مِنْ زُمْرَةٍ قَدْ تَمَادَتْ فِيْ مَلاَهِيْهَا
تَدْعُوْ إِلَى زَادِهَا أَهْلَ ٱلْيَسَارِ وَتَجْـ   ـفُوْ ٱلْمُتْرِبِيْنَ وَلَا تَفْرِيْ عَوَافِيْهَا
فَٱنْظُرْ إِلَى مِقْضَمٍ أَمْسَيْتَ قَاضِمَهُ   بِنَهْمَةٍ قَدْ يَكُوْنُ ٱلْإِثْمُ تَالِيْهَا
فَمَا ٱشْتَبَهْتَ بِهِ فَٱلْفِظْهُ صَاحِ وَنَلْ   مَا كُنْتَ تُوْقِنُ فِيْهِ ٱلْحُلَّ تَجْرِيْهَا
وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلْفَتَى ٱلْمَأْمُوْمَ قِدْوَتُهُ   إِمَامُهُ فِيْ خُطَى قَدْ رَاحَ خَاطِيْهَا
وَيَسْتَضِيءُ بِأَنْوَارٍ مُلاَلِئَةٍ   مِنْ عِلْمِهِ عَنْ هُدَى مَا ٱنْفَكَّ يُسْنِيْهَا
وَهَا إِمَامُكُمْ قَدْ رَاحَ مُكْتَفِيَاً   مِنَ ٱلثِّيَابِ ٱلَّتِيْ رَثَّتْ بِبَالِيْهَا
وَبَاتَ مُقْتَنِعَاً بِٱلْخُبْزِ يَأْكُلُ أَقْـ   ـرَاصَاً لَقَدْ يَبِسَتْ يَأْبَى يُطَرِّيْهَا
أَلاَ وَإِنَّكُمُ لَا تَقْدِرُوْنَ عَلَى   هٰذَا وَفِيْهِ مِنَ ٱلْأَوْصَابِ قَاسِيْهَا
لٰكِنْ أَعِيْنُوْا بِتَقْوَاكُمْ إِمَامَكُمْ   مَعُوْنَةً لَمْ أَزَلْ مِنْكُمْ أُرَجِّيْهَا
وَبِٱلْعَفَافِ وَبِٱلرَّأْيِ ٱلسَّدِيْدِ وَبِٱلْـ   ـجُهْدِ ٱلَّذِيْ يُبْلِغُ ٱلْخَيْرَاتِ بَاغِيْهَا
وَإِنَّنِيْ وَٱسْمِ رَبِّيْ مَا كَنَزْتُ مِنَ ٱلـ   ـدُّنْيَا ٱلْكُنُوْزَ وَإِنِّيْ زَاهِدٌ فِيْهَا
وَلاَ ٱدَّخَرْتُ لِنَفْسِيْ مِنْ غَنَائِمِهَا   وَفْرَاً وَلاَ حُزْتُ شِبْرَاً مِنْ أَرَاضِيْهَا
وَلاَ طَلَبْتُ لِثَوْبِيْ فِيْ رَثَاثَتِهِ   طِمْرَاً وَحَسْبِيْ ثِيَابُ ٱلطُّهْرِ كَاسِيْهَا
وَمَا أَخَذْتُ مِنَ ٱلْأَقْوَاتِ أَكْثَرَ مِنْ   قُوْتِ ٱلْأَتَانِ ٱلَّتِيْ ٱلْأَسْقَامُ تُوْهِيْهَا
وَإِنَّ دُنْيَاكُمُ أَوْهَى وَأَهْوَنُ فِيْ   عَيْنَيَّ مِنْ عَفْصَةٍ مُرٌّ تَعَاطِيْهَا
هٰذِيْ نَصِيْحَةُ مَوْلاَنَا أَبِيْ حَسَنٍ   إِلَى ٱلتُّقَاةِ جَمِيْعَاً كَانَ مُوْفِيْهَا

فَـلاَ يُـقِـيْـمُ أَخُـوْ جَـاهٍ وَلاَئِـمَـهُ لِـلْأَغْنِيَـاءِ وَأَهْـلُ ٱلْفَقْرِ يُقْصِيْهَـا
وَكُـلُّ مَـنْ وَصَلَتْـهُ دَعْـوَةٌ لِـوَلِيْـمَـةٍ تَـرَوَّى بِـهَـا ثُـمَّ يُـلَبِّـيْـهَـا
مَـا كُـلُّ دَعْـوَةِ دَاعٍ تُسْتَجَـابُ وَلاَ كُـلُّ ٱلْمَآكِـلِ تُغْـذِيْ مُسْتَطِيْبِيْهَـا

محاسن أخلاق أمير المؤمنين

كَـانَ ٱلْأَمِيْـرُ عَلَى سَـامِيْ مَكَـانَتِـهِ مُجَمَّلاً بِٱلْخِـلاَلِ ٱلزُّهْـرِ حَالِيْهَـا(١)
فَمَا سِوَى ٱلْمُصْطَفَى تَٱللَّهِ مِنْ بَشَـرٍ لَـهُ شَمَـائِلُهُ أَوْ مَـا يُضَـاهِيْـهَـا
كَـانَتْ بَشَـاشَتُـهُ فِيْ ٱلنَّـاسِ دَائِمَـةً بِهَـا يُقَـابِـلُ عَـافِيْهَـا وَمُثْـرِيْهَـا
وَكَانَ أَطْيَبَ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ أَجْمَعِهَا سَـرِيْرَةً مَـا طَـوَتْ ضِغْنَـاً مَـطَاوِيْهَـا
وَكَـانَ فِيْ أُمَّـةِ ٱلْهَـادِيْ كَـوَاحِـدِهَـا إِنْ أَمَّهَـا فِيْ نَـوَادِيْهَـا يُنَـادِيْـهَـا
فَمَـا تَعَـالَى وَلَيْسَ ٱلـزَّهْـوُ شِيْمَتُـهُ عَلَى ٱلـرَّعِيَّـةِ سُفْلِيْهَـا وَعُلْوِيْهَـا
وَلاَ تَـرَفَّـعَ عَنْ قَـوْمٍ يُجَـالِسُهَـا وَإِنْ تَكُنْ فِيْ ٱلـرَّعَـايَـا مِنْ أَدَانِيْهَـا

---

(١) كان أمير المؤمنين عليه السلام طلق المحيا رحب الصدر باشّ الثغر سمح النفس لين العريكة طاهر السريرة كثير التواضع وديعاً يجالس الناس على اختلاف مراتبهم ويعتني بصغيرهم قبل كبيرهم ويخدمهم بنفسه إذا كانوا في بيته وكان يجلس للناس في الأسواق فينصف مظلومهم من ظالمهم وبالإجمال إنّه كان المثال الأجلى للاشتراكية المحمودة التي بثها الإسلام بل خير مثال للملوك الديموقراطيين وقد رويت عن محاسن أخلاقه الروايات وضربت فيها الأمثال ما لو أردنا إحصاءه لاحتجنا إلى القول الكثير وحسبنا ما قاله فيه صعصعة بن صوحان قال : « كان عليّ فينا كأحدنا لين جانب وشدة تواضع وسهولة قياد وكنّا نهابه مهابة الأسير المربوط للسياف الواقف على رأسه » وقال معاوية لقيس بن سعد يوماً رحم الله أبا الحسن فقد كان هشاً بشاً ذا فكاهة فأجابه قيس نعم كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمزح ويبسم إلى أصحابه وأراك تسرُّ حسواً في ارتغاء وتريد أن تعيبه أمّا والله لقد كان مع فكاهته وطلاقته أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى تلك هيبة التقوى ليس كما يهابك طغام أهل الشام يا معاوية فاخزوى هذا وسكت .

وَكَـانَ مَعْ صَحْبِـهِ صَفْـوَاً يُمَـازِحُهَـا وَفِيْ خَـلاَئِقِـهِ ٱلسَّمْحَـا يُصَـافِيْهَـا

وَكَـانَ يَخْـدِمُهَـا فِيْ بَيْتِـهِ كَـرَمَـاً بِنَفْسِـهِ وَكُؤُوسُ ٱلصَّفْـوِ يُسْقِيْهَـا

وَكَـانَ يَلْقَى رُفُـوْدَ ٱلنَّـاسِ مُبْتَسِمَـاً لَـهَـا وَيُبْـلِغُهَـا أَسْـمَى أَمَـانِيْهَـا

وَكَانَ يَجْلِسُ فِيْ ٱلْأَسْوَاقِ يَحْكُمُ بَيْـــنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْأَحْكَامُ يُجْرِيْهَا

وَكَـانَ بِٱلْعَـطْفِ يُجْرِيْ ٱلْإِشْتِـرَاكِيَـةَ ٱلْعُلْيَـا ٱلَّتِيْ سَنَّهَـا ٱلْإِسْـلَامُ تَجْـرِيْهَـا

فَكَـانَ فِيْهَـا مِثَـالاً صَـادِقَـاً لِمُلُوْ كِ ٱلْأَرْضِ مَا تَبِعُوْا سَـامِيْ مَبَادِيْهَـا

وَغَـايَةُ ٱلْقَـوْلِ أَخْـلَاقُ ٱلْأَمِيْـرِ تَسَـا مَى فِيْ ٱلْمَحَـاسِنِ بَادِيْهَـا وَخَـافِيْهَـا

مَـعْ ذَاكَ هَيْبَتُـهُ كَـانَتْ بِـأَنْفُسِ أَهْـــلِ ٱلْأَرْضِ أَجْمَعِهَا وَٱلْكُلُّ خَاشِيْهَا

وَإِنَّهَا هَيْبَةُ ٱلْعِلْمِ ٱلَّـذِيْ صَحِبَ ٱلْـــتَّقْوَى مَعَ ٱلْبِرِّ فِيْ أَسْمَى مَجَالِيْهَـا

وَذَاتِ يَـوْمٍ تَـلاَقَى مَـعْ مُعَـاوِيَـةٍ قَيْسٌ بِنَـدْوَةِ صَفْـوٍ كَـانَ نَـادِيْهَـا

وَٱلصَّفْـوُ جَـرَّهُمَـا لِلْمُـرْتَضَى وَحَـوَا دِثِ ٱلْخِـلاَفَـةِ جَـارِيْهَـا وَمَـاضِيْهَـا

فَقَـالَ فِيْ ٱلْمُرْتَضَى هُـزْءً مُعَـاوِيَـةٌ: قَـدْ كَـانَ مَجْلِسُـهُ يَمْـلاَهُ تَفْكِيْهَـا

أَرَادَ فِيْ ذَاكَ أَنْ يَـرْمِيْ ٱلْأَمِيْـرَ بِـإِتْـــيَانِ ٱلدَّعَـابَـةِ فِيْ أَسْـوَا مَسَـاوِيْهَـا

فَقَـالَ قَيْسٌ كَذَا كَـانَ ٱلرَّسُـوْلُ بِمَـزْ حِ ٱلْقَـوْلِ يَلْقَى ذَوِيْهِ فِيْ مَثَـاوِيْهَـا

أَرَى تُسِـرُّ لَهُ حَسْـوَاً بِقَوْلِـكَ فِيْ آرْ تِغَـاءٍ آظْهِـرْ رِغَـابَـاً أَنْتَ تُخْفِيْهَـا

تُعِيْبُ مَـزْحَـاً لَـطِيْفَـاً فِيْ مَجَـالِسِـهِ يَلْقَى بِـهِ صَحْبَهُ عَـطْفَـاً فَيُهْنِيْهَـا

فَمَـعْ فُكَـاهَتِـهِ مَـعْ أُنْسِ طَلْعَتِـهِ مَـا بَيْنَ أَصْحَـابِـهِ صَفْـوَاً يُفَـاهِيْهَـا

قَدْ كَانَ أَهْيَبَ مِنْ ذِيْ لُبْـدَتَيْنِ عَلى طَـوَى وَفِيْ زُمْـرَةِ ٱلآسَـادِ ضَـارِيْهَـا

وَإِنَّهَـا هَيْبَـةُ ٱلتَّقْـوَى وَلَيْسَ كَمَـا تَهَـابُـكَ ٱلشَّـامُ قَسْـرَاً يَـا مُعَـاوِيْهَـا

منزلة أمير المؤمنين عند الناس

لِلْمُـرْتَضَى رِتْبَةٌ بَعْـدَ آلرَّسُـوْلِ لَدَى أَهْـلِ آلْيَقِيْنِ تَنَاهَتْ فِيْ تَعَـالِيْهَـا[1]
ذُوْ آلْعِلْمِ يَعْرِفُهَا ذُوْ آلْعَدْلِ يَنْصِفُهَا ذُوْ آلْجَهْلِ يَسْرِفُهَا ذُوْ آلْكُفْرِ يَكْمِيْهَا
وَإِنَّ فِيْ ذَاكَ إِجْمَـاعَـاً بِغَيْـرِ خِـلَا فٍ فِيْ آلْمَذَاهِبِ مَعْ شَتَّى مَنَـاحِيْهَا
وَإِنْ أَقَـرَّ بِهَـا آلْإِسْـلَامُ لَا عَجَبَ فَـإِنَّـهُ مِنْـذُ بَـدْءِ آلْـوَحْيِ دَارِيْهَـا
وَإِنْ تُنَـادِيْ جُمُـوْعُ آلْمُسْلِمِيْنَ بِهَـا فَقَدْ وَعَتْ قَدْرَهَا مِنْ هَدْيِ هَـادِيْهَا
لٰكِنَّ مَـا قَصُـرَتْ قَصْـراً تَجَلِّيْهَـا عَلٰى بَنِيْ آلـدِّيْنِ مَعْ زَاهِيْ تَجَلِّيْهَـا

---

(١) إنَّ الكـلام في منزلـة أمير المؤمنين بعـد أن نوّه بهـا رسول الله عليهمـا وعلى آلهما الصلاة والسلام من باب تحصيـل الحاصـل أو اللغو فـإنّ المسلمين على اختلاف مذاهبهم مجمعون على أنّه أفضل فاضل في الإسلام بعد المصطفى لا بل هو صنوه في كـل شيء إلّا النبوّة على أنَّ منـزلـة المـرتضى العـاليـة هـذه لم تقتصـر على المسلمين فعرفوها بل تعدتهم إلى غير المسلمين فهـوذا أهل الـذمة وهم لا يقـرُّون بالنبـوَّة ولكنهم يحبونه ويحترمونه وهوذا الفلاسفة تعظمه وتبجل مقامه وتعجب بحكمته وأكثرها معطلة أو جاحدة وفـوق هذا فـإنَّ ملوك الترك والـديلم قد صـوروا على سيوفهم صـورته الشـريفة تعويذةً لهم وطلباً للنصر باسمه الشريف وبركاته فقد كانت الصورة العلوية المباركة على سيف ركن الدولة وعلى سيف ابنـه عضد الـدولة وعلى سيف ألب أرسـلان وعلى سيف ابنـه ملكشـاه وعلى سيـوف غيـرهم من الأبـطال الأتـراك الكثيـرين وقصـارى القـول أنّ المرتضى عليه السلام له من الإجـلال في النفوس ما حبب إلى كل أحـد أن يتكثر بـه وودَّ كلّ أحد أن يتجمل ويتحسن بالانتساب إليه سواءٌ كان مسلماً أو غير مسلم موحداً أو مشركـاً أو كافراً . حتى الفتوَّة وأحسن ما قيل في حدها « أن لا تستحسن من نفسك ما تستقبحه من غيرك » فإنّ أصحابها نسبوا أنفسهم إليه وصنفـوا في ذلك كتبـاً وجعلوا لذلـك اسناداً أنهوه إليه ونصروه عليه وعضدوا مذهبهم بالبيت المشهور الذي سمع من السماء في يوم أُحد وعليٌّ يقاتل كفّار قريش وينكل بهم « لا سيـف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي » وهم يدعونه عليه السلام « سيد الفتيان » .

بَلْ جَاوَزَتْهُمْ إِلَى ٱلْأَغْيَارِ فَٱنْصَرَفَتْ نُفُوْسُهُمْ نَحْوَهَا بِٱلْحَمْدِ تُطْرِيْهَا

وَذِيْ فَلاَسِفَةُ ٱلْجُحَّادِ مُعْجَبَةٌ بِهَا وَقَدْ أَكْبَرَتْ عُجْباً تَسَامِيْهَا

وَرَدَّدَتْ بَيْنَ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ مِدْحَتَهَا فِيْهِ وَقَدْ صَدَقَتْ وَصْفاً وَتَشْبِيْهَا

كَذَا ٱلنَّصَارَى بِحُبِّ ٱلْمُرْتَضَى شَغَفَتْ أَلْبَابُهَا وَشَدَتْ فِيْهِ أَغَانِيْهَا

فَلَسْتَ تَسْمَعُ مِنْهَا غَيْرَ مِدْحَتِهِ ٱلْـ ـغَرَّاءَ مَا ذَكَرَتْهُ فِيْ نَوَادِيْهَا

فَٱرْجِعْ لِقُسَّانِهَا بَيْنَ ٱلْكَنَائِسِ مَعْ رُهْبَانِهَا وَهْيَ فِيْ ٱلْأَدْيَارِ تَأْوِيْهَا

تَجِدْ مَحَبَّتَهُ بِٱلْإِحْتِرَامِ أَوَتْ نُفُوْسَهَا وَلَهُ أَبْدَتْ تَصَبِّيْهَا

وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلدَّيْلَمِ ٱلشُّجْعَانِ خَائِضَةِ ٱلْـ ـحُرُوْبِ وَٱلتُّرْكِ فِيْ شَتَّى مَغَازِيْهَا

تُلْفِ ٱسْتِعَاذَتَهَا بِٱلْمُرْتَضَى وَلَقَدْ زَانَتْ بِصُوْرَتِهِ ٱلْحَسْنَا مَوَاضِيْهَا

وَآمَنَتْ أَنَّ تَرْصِيْعَ ٱلسُّيُوْفِ بِصُوْ رَةِ ٱلْوَصِيِّ يُنِيْلُ ٱلنَّصْرَ مُنْضِيْهَا

وَمَا أَقُوْلُ بِمَنْ تُنْمَى ٱلْأَنَامُ لَهُ تَرَى بِذَلِكَ تَمْجِيْداً وَتَجْوِيْهَا

وَتَنْتَمِيْ لِعُلاَهُ تَسْتَعِزُّ بِهِ وَتَسْأَلُ ٱللَّهَ فِيْهِ أَنْ يُنَمِّيْهَا

حَتَّى ٱلْفُتُوَّةُ تُنْمَى لِلْعَلِيِّ أَمِيْـ ـرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى سَامِيْ مَرَامِيْهَا

تَقُوْلُ: إِنَّ ٱلْفَتَى مَنْ لاَ يَرَى حَسَناً مِنْ نَفْسِهِ وَهْوَ يَبْغِيْ أَنْ يُرَبِّيْهَا

مَا كَانَ مُسْتَقْبَحاً مِنْ نَفْسِ صَاحِبِهِ مِنَ ٱلْخِلاَلِ ٱلَّتِيْ سَاءَتْ مَسَاوِيْهَا

وَقَدْ رَأَتْ مِنْ دَوَاعِيْ ٱلْفَخْرِ نِسْبَتَهَا إِلَى عُلَى ٱلْمُرْتَضَى مَا بَيْنَ أَهْلِيْهَا

فَأَلَّفَتْ كُتُباً فِيْهَا مُعَزَّزَةَ ٱلْإِ سْنَادِ قَدْ عَنْعَنَتْهُ فِيْ حَوَاشِيْهَا

وَٱسْتَشْهَدَتْ بِٱلَّذِيْ قَدْ قِيْلَ فِيْ أُحُدٍ مِنَ ٱلسَّمَا وَعَلِيُّ ٱلْفِرْمُ غَازِيْهَا

لاَ سَيْفَ إِلَّا ٱلَّذِيْ يُنْضِيْ ٱلْعَلِيُّ وَلاَ فَتَى سِوَاهُ لَدَى ٱلْأَعْدَاءِ يُنْكِيْهَا

وَقَدْ دَعَتْ سَيِّدَ ٱلْفِتْيَانِ حَيْدَرَةً وَإِنَّهُ سَيِّدُ ٱلدُّنْيَا وَمَنْ فِيْهَا

محبو أمير المؤمنين ومبغضوه

رَوَتْ رُوَاةُ أَحَادِيْثِ آلرَّسُوْلِ بِتَحْـ ـقِيْقٍ حَدِيْثاً صَحِيْحاً فِيْ أَمَالِيْهَا[1]

قَالَتْ: لَقَدْ قَالَ طَهَ فِيْ آلْوَصِيِّ مَقَا لَةً صَدَاهَا دَوَى فِي أُذْنِ وَاعِيْهَا

يُحِبُّكَ آلْمُؤْمِنُ آلتَّاقِيْ وَيُبْغِضُكَ آلْـ ـمُنَافِقُ آلْمُظْهِرُ آلْإِيْمَانَ تَمْوِيْهَا

وَقَدْ رَوَتْ بَعْدَ هٰذَا عَنْ صَحَابَتِهِ مَقَالَةً سَمِعَتْهَا مِنْ مُفَاهِيْهَا

قَالَتْ: وَكُنَّا عَلَى عَهْدِ آلرَّسُوْلِ وَأَهْـ ـلُ آلشِّرْكِ تَنْطِقُ بِـآلْإِيْمَانِ مِنّْ فِيْهَا

بِبُغْضَةِ آلْمُرْتَضَى صِهْرِ آلرِّسَالَةِ نَعْـ ـرِفُ آلْمُنَافِقَ مَهْمَا رَاحَ يُخْفِيْهَا

وَقَالَ حَيْدَرَةٌ وَآلنَّاسُ مَا سَلِمَتْ مِنَ آلنِّفَاقِ وَلَمْ يَجْهَلْ خَوَافِيْهَا

لَوْ أَنَّ وَجْهَ أَخِيْ آلْإِيْمَانِ أَضْرِبُهُ بِآلسَّيْفِ مَا بُغْضَتِيْ قَدْ كَانَ رَاضِيْهَا

وَلَوْ صَبَبْتُ عَلَى هَامِ آلْمُنَافِقِ دُنْـ ـيَاهُ لِحُبِّيْ أَبَاهُ وَهُوَ بَاغِيْهَا

هٰذِيْ مَوَاثِيْقُ رَبِّيْ كَانَ آخِذَهَا مِنَ آلخَلَائِقِ لِيْ فَضْلاً وَمُعْطِيْهَا

شهادة سيد المرسلين لأمير المؤمنين

وَطَالَمَا نَوَّهَ آلْهَادِيْ آلْأَمِيْنُ بِفَضْـ ـلِ آلْمُرْتَضَى بَيْنَ أَهْلِ آلدِّيْنِ تَنْوِيْهَا[2]

كُنَّا بِهَذَا أَحَادِيْثُ مُعَنْعَنَةٌ غَرَّاءُ ثَابِتَةٌ تَسْمُوْ مَعَانِيْهَا

---

(١) قد اتفقت الأخبار الصحيحة التي لا ريب فيها عند المحدثين على أنَّ النبي قال لأمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام : « لا يبغضك إلاّ منافق ولا يحبّك إلاّ مؤمن » وقد روى كثير من أرباب الحديث عن جماعة من الصحابة قالوا : « ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله إلاّ ببغض علي بن أبي طالب » وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « إنَّ الله عزَّ وجلَّ أخذ ميثاق كل مؤمن على حبّي وميثاق كل منافق على بغضي فلو ضربت وجه المؤمن بالسيف ما أبغضني ولو صببت الدنيا على المنافق ما أحبّني » .

(٢) قال رسول الله مخاطباً أمير المؤمنين عليهما الصلاة والسلام « يا علي ، إن =

مِنْهَا حَدِيْثٌ عَظِيْمُ ٱلشَّأْنِ مُعْتَبَرٌ رَوَتْهُ أَصْحَابُ طَهَ فِيْ أَمَالِيْهَا
قَالُوْا لَقَدْ لَقِيَ ٱلْهَادِيْ ٱلْإِمَامَ بِيَوْ مٍ فِيْ تَبَارِيْحِ أَكْدَارٍ يُعَانِيْهَا
فَقَالَ: أَبْشِرْ عَلِيٌّ أَنَّ رَبَّكَ قَدْ أَعْطَاكَ أَفْضَلَ مَا ٱلْعُبْدَانُ مُعْطِيْهَا
أَزَانَ شَخْصَكَ أَسْنَى مَا أَزَانَ بِهِ ٱلْـ ـعِبَادَ زِيْنَةَ بِرٍّ بِتَّ قَانِيْهَا
فَلَسْتَ تَرْزَا مِنَ ٱلدُّنْيَا وَلَا هِيَ تَرْ زَا مِنْكَ سَوَّاكَ رُشْدَاً زَاهِدَاً فِيْهَا
حَبَاكَ نِعْمَةَ حُبِّ ٱلْمُعْوِزِيْنَ فَهُمْ رَعِيَّةٌ لَكَ قَدْ خَارَتْكَ رَاعِيْهَا
طُوْبَى لِمَنْ رَاحَ مَشْغُوْفَ ٱلْفُؤَادِ بِآ لَاءٍ حِسَانٍ لَقَدْ زَانَتْكَ يَرْوِيْهَا
وَيْلٌ لِمُبْغِضِكَ ٱلرَّاوِيْ عَلَيْكَ أَكَا ذِيْبَ ٱلْمَسَاوِيْ وَبَيْنَ ٱلنَّاسِ يُفْشِيْهَا

عجوز تصف أمير المؤمنين

حَجَّ ٱبْنُ حَرْبٍ لِيُبْدِيْ جَاهَ إِمْرَتِهِ مِنْ بَعْدِ مَا فَازَ فِيْ تَدْوِيْخِ أَهْلِيْهَا[1]
وَبَيْنَمَا هُوَ فِيْ أُمِّ ٱلْقُرَى ذَكَرُوْا لَهُ كَنَانِيَّةً شَمْطَاءَ تَشْوِيْهَا

= الله قد زيّنك بزينةٍ لم يزين العباد بزينة أحبّ إليه منها ، هي زينة الأبرار عند الله تعالى ، الزهد في الدنيا ، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً ، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً ، ووهب لك حبّ المساكين ، فجعلك ترضى بهم أتباعاً ، ويرضون بك إماماً ، فطوبى لمن أحبّك وصدق فيك وويل لمن أبغضك وكذب فيك » اهـ .

(١) بعد ان استتبّ أمر الخلافة لمعاوية ببضع سنين طلب الحج حتى إذا ما بلغ مكة كرمها الله بلغه أنّ امرأة فيها من بني كنانة تسبّه وقد اشتهرت بالبغض له فأرسل بطلبها وعندما مثلت بين يديه قال لها علامَ واليت علياً وعاديتني ؟ قالت لقد أحببت علياً على عدله في الرعية وقسمته الأموال بالسوية وعنايته بالمساكين وإعظامه لأمر الدين وعاديتك على قتالك من هو أولى بالولاية منك وطلبك ما ليس لك بحقّ وسفكك الدماء=

قَـالُـوْا لَـهُ: إِنَّهَـا تَقْلُوْكَ مُعْلِنَـةً	هُـوَى ٱلْوَصِيّ بِـهِ تُبْـدِيْ تَحَجِّيْهَـا
فَقَـالَ: هِيَّ ٱطْلِبُـوْهَـا إِنَّنِي كَلِفُ	بِـمُثْلِهَـا أَتَمَنَّـى أَنْ أُحَـاجِيْـهَـا
وَعِنْـدَمَـا مُثُلَتْ كِـرْهَـاً بِحَضْـرَتِـهِ	مَـا هَابَتِ ٱلـنَّـظَرَاتِ ٱلشَّذْرِ يُلْقِيْهَـا
نَادَى بِصَوْتٍ حَلِيْمٍ بِٱلْعَجُوْزِ: عَـلَا	مَ تَشْهِـرِيْنَ عَلَيَّ ٱلْحَـرْبَ تَجْرِيْهَـا
عَـلَامَ بِـٱللَّهِ وَٱلَيْتِ ٱلْعَلِيَّ مُـوَا	لَاةً سَمِعْتُ صِحَابِي عَنْكِ تَـرْوِيْهَـا
قَـالَتْ بِـلَا وَجَـلٍ : أَحْبَبْتُ حَيْـدَرَةً	لِمَـأْثُـرَاتٍ حِسَـانٍ كَـانَ آتِيْهَـا
فَكَـانَ يَعْدِلُ فِيْ ٱلْأَحْكَـامِ يُنْفِذُهَـا	عَلَى رَعَـايَـاهُ عُلْوِيْهَـا وَسُفْلِيْهَـا
وَكَـانَ يَقْسِمُ مَـالَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ عَلَى	جُمُـوْعِهِمْ وَبِـهِ قِسْـطَاً يُسَاوِيْهَـا
وَكَـانَ يَعْنَى بِأَهْـلِ ٱلْفَقْـرِ يَـرْحَمُهُمْ	وَبِـٱلْأَيَـامَى وَبِـٱلْأَيْتَـامِ يَكْفِيْهَـا
وَكَـانَ يُعْـظِمُ أَمْـرَ ٱلـدِّيْنِ مُتَّقِيَـاً	وَرَايَـةُ ٱلشَّرْعِ بِـٱلْإِجْلَالِ يُـرْبِيْهَـا

=وجورك في الغرباء فقال وهل رأيت علياً وسمعت كلامه ؟ قالت لقد كنت رأيته فإذا الملك الذي فتنك لم يفتنه والنعمة التي شغلتك لم تشغله وكان كلامه يجلو الهموم عن القلوب فوالله ما علا المنبر إلاّ وكان ينثر على الناس درر المواعظ والآداب فقال معاوية وهو يكظم غيظه وهل لك من حاجة ؟ قالت نعم أريد مئة ناقة فيها فحلها وراعيها لأغذي الصغار وأستحيي الكبار بألبانها قال وهل أحلُّ عندك محل علي إن أعطيتك ذلك ؟ قالت ماء ولا كصدّاء « هذا مثل عربي يراد به إثبات الجودة للواحد مع انحطاطه عن رتبة الآخر » فتجلد معاوية مخفياً غضبه وأمر لها بما طلبت كفاً لها عن سبّه وإن أعلنت أنّها تأبى حبّه والحفاوة به وأنشد :

إذا لم أكن يـومـاً حليمـاً عليكـمُ	فمن ذا الـذي بعـدي يؤمـل للحلم
خـذيها هنيئـاً واذكري فعـل مـاجـدِ	جـزاك على حرب العـداوة بـالسلم

وأردف قائلاً أمّا والله لو كان علي لما أعطاك منها شيئاً فقالت وهي ضاحكة لا والله ولا وبرة من مال المسلمين وانصرفت وفي قلب معاوية ما فيه .

وَقدْ قلَوْتُك إذْ قـاتَلْتَ مَنْ هُـوَ أَوْ لَى بِـاَلْإِمَـامَةِ مِنْ شَتَّى مُـرِيْـدِيْهَا
وَقـدْ سَفَكْتَ دِمَـاءَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ بِـلاَ حَقٍّ بِمَجْـزَرَةٍ عَمَّتْ مَسَـاوِيْـهَـا
وَجُرْتَ فِي ٱلْحُكْمِ لَمْ تُنْصِفْ بِهِ أَحَداً مِنَ الـرَّعِيَّـةِ عُجْمِيْهَـا وَعُـرْبِيْهَـا
فقَالَ: هَلْ أَنْتِ شَاهَدْتِ ٱلْعَلِيَّ عِيَا نَاً هَلْ شَهِدْتِ لَهُ ٱلْأَحْكَامَ يُجْرِيْهَا
وَهَـلْ سَمِعْتِ عَلِيَّـاً فِيْ مَجَـالِسِـهِ مَـا بَيْنَ أَصْحَـابِـهِ يَـوْمَـاً يُنَـادِيْهَـا
قَـالَتْ: رَأَيْتُ عَلِيَّـاً وَٱلْخِـلاَفَـةُ لَمْ تُفْتِنْهُ عَنْ دِيْنِـهِ مُـذْ بَـاتَ حَـامِيْهَا
كَـلَّا وَلَا أَبْـطَرَتْـهُ نِعْمَـةٌ وُجِـدَتْ لَـهُ وَلَمْ تُلْهِـهِ لَـهْـواً مَـلاَهِيْـهَـا
كَـذَا خِطَابَتُـهُ كَـانَتْ وَحَقِّـكَ تَجْـ ـلُوْ عَنْ صُدُوْرِ ٱلْأُلَى أَصْغَوْا دَوَاعِيْهَا
فَكَـانَ يَنْثِرُ مِنْ فَـوْقِ ٱلْمَنَـابِـرِ مِنْ دُرِّ ٱلْـمَـوَاعِظِ وَٱلآدَابِ غَـالِيْـهَـا
وَعَى ٱبْنُ حَرْبٍ بَيَانَاتِ ٱلْعَجُوْزِ وَلَمْ يَغْضَبْ وَكَـانَ وَحَقِّ ٱللّهِ يَـدْرِيْهَـا
وَقَـالَ: هَلْ لَـكِ عِنْدِيْ حَـاجَةٌ فَـأَنَا ذَا ٱلْيَوْمَ حِلْمَاً وَفَضْلاً صِرْتُ أَقْضِيْهَا
قَـالَتْ: مُعَـاوِيَ إِنِّي أَبْتَـغِيْ مِئَـةً مِنَ ٱلنِّيَـاقِ لَهَـا فَحْـلٌ وَرَاعِيْـهَـا
أُغْذِيْ بِأَلْبَـانِهَا وُلْـدِيْ ٱلصِّغَارَ وَأَسْـ ـتَحْيِي ٱلْكِبَـارَ وَأُغْنَى مِنْ ذَرَارِيْهَـا
فَقَالَ: عِنْدَكِ هَـلْ لِيْ أَنْ أَحُلَّ مَحَـ ـلَّ ٱلْمُرْتَضَى يَا تُرَى إِنْ رُحْتُ أُعْطِيْهَا
قَـالَتْ بِجُرْئَتِهَـا: مَاءٌ وَلَيْسَ كَصَـدَّا اءٍ وَمَـا رَهِبَتْ فِـيْ ذَا مُفَـاهِـيْهَـا
فَقَالَ فِيْ ٱلْحَالِ: أُعْطِيْكِ ٱلنِّيَاقَ وَلَمْ يُـزِدْ وَغَيْـظَتُـهُ قَـدْ آضَ يُخْفِيْهَـا
وَقَالَ: هَيْهَاتِ أَنْ تَلْقَى ٱلْأَعَارِبُ حِلْـ ـمَـاً مِثْلَ حِلْمِيَ مِنْ مَلْكٍ يُـرَاضِيْهَا
خُـذِيْ ٱلنِّيَاقَ وَلَا تَنْسِيْ صَنِيْـعَ فَتَىً بِٱلسِّلْمِ ذَاتُ ٱلْعَدَا وَٱلْبُغْضِ يُصْفِيْهَا
أَمَـا وَحَقِّـكِ لَـوْ كَـانَ ٱلْعَلِيُّ لَمَـا أَلْفَيْتِـهِ مَـا أَطَلْتِ ٱلْقَـوْلَ مُعْـطِيْهَـا
فَـقَهْـقَهَـتْ وَأَجَـابَتْـهُ: وَلاَ وَبَـرَا تُ مِنْ نِيَـاقِ عِبَـادِ ٱللّهِ يُـوْلِيْهَـا

وَهَــرْوَلَتْ بِعَـطَاهُ وَهْيَ ضَــاحِكَــةٌ مِنْــهُ وَفِي نَفْسِـهِ مِنْ ذَاكَ مَــا فِيْهَـا

نصائح أمير المؤمنين لابنه الحسن

نَصَـائِحِيْ لِبُنَيَّ ٱلنَّاشِيءِ ٱلْحَسَنِ ٱلــــزَّاكِيْ بِرَحْمَةِ رَبِّي رُحْتُ أُسْدِيْهَا[١]

فَمِنْ أَبٍ زَاهِدِ ٱلـدُّنْيَا وَزُخْـرُفِهَــا إِلَى ٱلْفَتَى ٱلْعَاشِقِ ٱلدُّنْيَا مُوَافِيْهَـا

وَمِنْ مُسَــاكِنِ مَـوْتَى فِيْ دِيَـارَتِهَا حِيْنَـاً وَلَا بُــدَّ يَــوْمَــاً أَنْ يُخَلِّيْهَــا

إِلَى غَـرِيْمِ ٱلْمَنَايَا وَهْـوَ وَارِثُ مَـوْ تَـاهَا حَلِيْفِ هُمُـوْمٍ غَيْـرِ نَـاجِيْهَا

وَبَعْــدُ يَــا ٱبْنِيَ دُنْيَـايَ لَمُـدْبِـرَةٌ عَـنِّيْ وَإِنِّـيَ لَا أَرْجُــوْ تَبَـقِّيْـهَــا[٢]

وَإِنَّ آخِـرَتِـيْ حَـتْـمَـاً لَـمُـقْـبِـلَةٌ عَـلَيَّ إِنِّي بِـلَا رَيْـبٍ مُــوَافِيْـهَــا

---

(١) هذه نصائح سيدنا أمير المؤمنين كتبها لسيدنا الحسن على ما قال الشريف الرضي وهو في موقعة صفين وفي رأيي أنّه كتبها له يوم ولادته أو بعد ذلك بقليل فإنّه جعل مطلعها إلى فتى غرّ لا يزال في مقتبل العمر مع أنّ سيدنا الحسن كان في موقعة صفين في الثالثة والثلاثين من عمره وهاك هي :

من الوالد الفاني ، المقرّ للزمان ، المدبر العمر ، المستسلم للدهر ، الذامّ للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، الظاعن عنها غداً ، إلى المولود المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من قد هلك ، غرض الأسقام ، ورهينة الأيام ، ورمية المصائب ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وغريم المنايا ، وأسير الموت ، وحليف الهموم ، وقرين الأحزان ، ونصب الآفات ، وصريع الشهوات ، وخليفة الأموات .

(٢) أمّا بعد ، فإنّ فيما تبينت من إدبار الدنيا عني ، وجموح الدهر عليّ ، وإقبال الآخرة إليّ ، ما يزعني عن ذكر مَن سوايَ ، والاهتمام بما ورائي ، غير أنّي ، حيث تفرّد بي دون هموم الناس ، همُّ نفسي ، فصدّقني رأيي ، وصرّفني عن هواي ، وصرّح لي محض أمري ، فأفضى بي إلى جدٍّ لا يكون فيه لعب ، وصدقٍ لا يشوبه كذب ، وجدتك بعضي ، بل وجدتك كلي ، حتى كأنّ شيئاً لو أصابك أصابني ، وكأنّ الموت لو أتاك أتاني ، فعناني من أمرك ، ما يعنيني من أمر نفسي ، فكتبت إليك كتابي مستظهراً به ، إن أنا بقيت لك أو فنيت .

وَإِنَّ لِيْ شَاغِلاً عَمَّنْ سِوَايَ بِنَفْـــسِيْ إِنَّنِيْ لِلِقَـا رَبِّـي أُهَـيِّيْـهَـا
لٰكِنْ رَأَيْتُـكَ بَعْضِي مَـا يَضُـرُّكَ يُـوْ   لِيْنِيْ ٱلْمَضَـرَّةَ أَبْعِـدْ أَنْ أُحَـاشِيْهَـا
لِـذَا عَنَانِيَ مِنْ إِصْلَاحِ نَفْسِـكَ مَـا   مِنْ أَمْـرِ نَفْسِيَ يُعْنِيْنِـي لِأُهْنِيْهَـا
فَجِئْتُ أُسْدِيْكَ نُصْحـاً تَسْتَضِيْءُ بِهِ   إِذَا لَيَالِيْـكَ قَـدْ أَدْجَتْ دَيَاجِيْهَـا
سِيَّانِ إِنْ ظِلْتُ حَيّـاً فِي جِـوَارِكَ أَوْ   رَحَلْتُ عَنْـكَ إِلَى ٱلْجَنَّـاتِ أُثْـوِيْهَا
أُوْصِيْـكَ يَـا حَسَنِيْ أَنْ تَتَّقِيْ أَبَـدَاً   بَـارِيْكَ تُقْيَـةَ بَـرِّ ٱلنَّفْسِ نَـاقِيْهَـا[١]
وَأَنْ تُـلَازِمَ مَـا تَحْيَـا أَوَامِـرَهُ ٱلْـــغَـرَّا وَتَحْـذَرَ أَفْعَـالاً تُنَـافِيْـهَـا
وَأَنْ تُعَمِّــرَ تَعْمِيْرَاً بِـذِكْـرِكَـهُ ٱلـــنَّفْسَ ٱلَّتِيْ هُـوَ مُحْيِيْهَـا وَمُفْنِيْهَـا
وَأَنْ تُمَـوِّتَهَـا بِـٱلـزُّهْـدِ تَـأْلَفُـهُ   وَبِـٱلْمَـوَاعِظِ وَٱلْإِرْشَـادِ تُحْيِيْـهَـا
وَحَذِّرِ ٱلنَّفْسَ مِنْ غَدْرِ ٱلـزَّمَانِ وَمِنْ   صُـرُوْفِـهِ عَلَّهَـا بِـٱلْحَـزْمِ تَتْقِيْهَـا
وَعُـدَّهَـا لِلْمَنَـايَا فَهْيَ مُسْـرِعَـةٌ   بِـأَثْـرِ مَنْ سَبَقَتْهَـا كَيْ تُـلَاقِيْهَـا
وَلَا تَبِـعْ يَا فَـدَتْـكَ ٱلنَّفْسُ آخِـرَةً   تَبْقَى بِـزَائِلَةِ ٱلـدُّنْيَـا فَتُشْـرِيْهَـا

---

(١) فـإنّي أوصيك بتقوى الله ، أي بنيَّ ، ولزوم أمـره ، وعمارة قلبـك بذكـره ، والاعتصـام بحبله ، وأيُّ سببٍ أوثق من سببٍ بينك وبين الله إن أنتَ أخـذت به ؟ أحي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهادة ، وقوّه باليقين ، ونوّره بالحكمة ، وذلله بذكـر الموت ، وقـرّره بالفنـاء ، وبصّره فجـائع الـدنيا ، وحـذّره صولـة الدهـر ، وفحش تقلب الليـالي والأيام ، وأعرض عليه أخبار الماضين ، وذكّره بمـا أصاب من كـان قبلك من الأولين ، وسر في ديارهم وآثارهم ، فانـظر فيما فعلوا ، وعمَّ انتقلوا ، وأين حلوا ونـزلوا ، فـإنّك تجدهم انتقلوا عن الأحبَّة ، وحلوا دار الغربة ، وكأنّك عن قليل قد صـرت كأحـدهم ، فأصلح مثواك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف ، والخـطاب فيما لم تكلّف ، وأمسك عن طريقٍ إذا خفتَ ضلالته ، فإنّ الكفَّ عن حيرة الضـلال ، خير من ركوب الأهوال .

دَعِ ٱلْخِطَابَةَ إِلَّا إِنْ دُعِيْتَ لَهَا ... وَلَا تَقُلْ قَوْلَةً إِلَّا وَتَدْرِيْهَا
وَلَا تَسِرْ فِيْ طَرِيْقٍ أَنْتَ تَجْهَلُهَا ... لِتَأْمَنَ ٱلتِّيْهَ فِيْ خَافِيْ مَمَاشِيْهَا
وَكُنْ لِقَوْمِكَ بِٱلْمَعْرُوْفِ آمِرَهَا وَعَنْ خَطَا ٱلْمُنْكَرِ ٱلْمَكْرُوْهِ نَاهِيْهَا[1]
فِيْ ٱللَّهِ جَاهِد وَلَا تَأْخُذْكَ لَوْمَةُ لَوَّ ... امٍ بِقَوْلَةِ حَقٍّ أَنْتَ حَاكِيْهَا
وَٱخْلِصْ لِرَبِّكَ فِيْ شَتَّى صَنَائِعِكَ ٱلْـ ... ـحُسْنَا وَكُنْ فِيْ سَبِيْلِ ٱلْخَيْرِ مُجْرِيْهَا
لِلْحَقِّ خُضْ غَمَرَاتِ ٱلْحَرْبِ مُعْتَمِداً ... عَلَى رِضَى ٱللَّهِ لَا تَرْهَبْ دَوَاهِيْهَا
وَعَوِّدِ ٱلنَّفْسَ صَبْرَاً يَا بُنَيَّ عَلَى ٱلْـ ... ـمَكْرُوْهِ مِنْ نُوَبٍ صَعْبٌ تَحَاشِيْهَا
وَٱخْلِصْ لِرَبِّكَ فِيْ مَا أَنْتَ سَائِلُهُ ... مِنْهُ ٱلْعَطَايَا وَمَا إِلَّاهُ يُعْطِيْهَا
وَٱفْهَمْ وَصَايَايَ لَا تُهْمِلْ فَوَائِدَهَا ... وَلَا تَجُزْ إِنْ تُرِدْ خَيْرَاً مَرَامِيْهَا
بُنَيَّ جِئْتُكَ عَنْ خُبْرٍ وَتَجْرُبَةٍ ... بِصَفْوَةِ ٱلنُّصْحِ أُلْقِيْهَا وَأُمْلِيْهَا[2]

---

(١) وائمر بالمعروف تكن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وباين مَن فعله بجهدك ، وجاهد في الله حقَّ جهاده ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وخض الغمرات للحق حيث كان ، وتفقه في الدين ، وعوّد نفسك التصبر على المكروه ، ونعم الخلق التصبر في الحقّ ، وألجىء نفسك في أمورك كلها إلى إلٓهك ، فإنّك تلجئها إلى حرزٍ حريز ، ومانعٍ عزيز ، وأخلص في المسألة لربّك ، فإنّ بيده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة ، وتفهم وصيتي ، ولا تذهبنَّ عنك صفحاً ، فإنَّ خير القول ما نفع ، واعلم أنّه لا خير في علم لا ينفع ، ولا ينتفع بعلم لا يحقُّ تعلمه .

(٢) أي بنيَّ ، إنّي لما رأيتني قد بلغت سناً ، ورأيتني أزداد وهناً ، بادرت بوصيتي إليك ، وأوردت خصالاً منها ، قبل أن يعجل بي أجلي ، دون أن أفضي إليك بما في نفسي ، أو أن أنقص في رأيي ، كما نقصت في جسمي ، أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى ، وفتن الدنيا ، فتكون كالصعب النفور ، وإنّما قلب الحدث ، كالأرض الخالية ، ما أُلقي فيها من شيء قبلته ، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ، ويشتغل لبّك ، لتستقبل بجدّ رأيك من الأمر ، ما قد كفاك أهل التجارب بغيته=

وَأَنْتَ بَعْدُ فَتىً لَمْ تَقْسُ نَفْسُكَ عَنْ قُبُولِ قَوْلَةِ ذِيْ نُصْحٍ يُؤَدِّيْهَا

وَإِنَّمَا أَنْفُسُ ٱلْأَطْفَالِ صَالِحَةٌ لِكُلِّ مَا تَتَلَقَّى مِنْ مُفَاهِيْهَا

فَٱقْبَلْ عَلَى قَوْلَتِيْ إِقْبَالَ مُعْتَبِرٍ بِمَا ٱسْتَفَدْتُ مِنَ ٱلْأَيَّامِ قَاسِيْهَا

فَتَسْتَبِيْنُ أُمُوْراً كُنْتُ أَجْهَلُهَا وَمَا أَمِنْتُ عِثَاراً مِنْ تَوَلِّيْهَا

بُنَيَّ إِنْ لَمْ أُعَمِّرْ عُمْرَ مَنْ سَلَفَتْ مِنَ ٱلْخَلَائِقِ لَمْ أَجْهَلْ مَآتِيْهَا(١)

فَقَدْ نَظَرْتُ إِلَى شَتَّى فَعَائِلِهَا وَإِنَّ آثَارَهَا قَدْ كُنْتُ قَارِيْهَا

حَتَّى غَدَوْتُ كَأَنِّيْ بَيْنَهَا بِمَدَى تِلْكَ ٱلدُّهُوْرِ ٱلَّتِيْ عَاشَتْ أُمَاشِيْهَا

وَقَدْ عَرَفْتُ ٱلَّذِيْ قَدْ سَاءَهَا وَأَسَرَّ هَا وَمَا كَانَ يُهْنِيْهَا وَيُشْقِيْهَا

وَهٰذَا لَكَ أَسْتَصْفِيْ خُلَاصَةَ مَا يُفِيْدُ مِنْ عِبَرٍ كَانَتْ تُلَاقِيْهَا

وَكُنْتُ أَرْغَبُ أَنْ أَتْلُوْ عَلَيْكَ دُرُوْ سَاً فِيْ ٱلشَّرِيْعَةِ مَعْ تَأْوِيْلِ خَافِيْهَا

= وتجربته ، فتكون قد كفيت مؤونة الطلبة وعوفيتَ من علاج التجربة ، فأتاك من ذلك ما قد كنّا نأتيه ، واستبان لك ما ربما أظلم علينا منه .

(١) أي بنيَّ ، إنّي وإن لم أكن عمرتُ عمر من كان قبلي ، فقد نظرت في أعمالهم ، وفكرت في أخبارهم ، وسرت في آثارهم ، حتى غدوت كأحدهم ، بل كأنّي بما انتهى إليَّ من أمورهم ، قد عمرت من أولهم إلى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصتك من كلّ أمر جليله ، وتوخيت لك جميله ، وصرفت عنك مجهوله ، ورأيت حيث عناني من أمرك ، ما يعني الوالد الشفيق ، وأجمعت عليه من أدبك ، أن يكون ذلك وأنت مقبل العمر ، ومقتبل الدهر ، ذو نيةٍ سليمة ، ونفس صادقة ، وان ابتدئك بتعليم كتاب الله عزَّ وجلَّ وتأويله ، وشرائع الإسلام وأحكامه ، وحلاله وحرامه ، لا أجاوز ذلك بك إلى غيره ، ثمَّ أشفقت أن يلتبس عليك ، ما اختلف الناس فيه ، من أهوائهم وآرائهم ، مثل الذي التبس عليهم ، فكان أحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك له ، أحبَّ إليَّ من إسلامك إلى أمر ، لا آمن عليك به الهلكة ، ورجوت أن يوفقك الله فيه لرشدك ، وأن يهديك لقصدك ، فعهدت إليك وصيتي هذه .

لٰكِنْ خَشِيْتُ ٱلْتِبَـاسَـاً فِيْ تَفَهُّمِهَـا يَسْطُوْ عَلَى نَفْسِكَ ٱلسَّمْحَـا فَيُؤْذِيْهَا
وَكَمْ لِـذٰلِكَ مِنْ هَلْكَى بِمَـا ٱلْتَبَسَتْ مِنَ ٱلْمَعَـانِيْ عَلَيْهَـا فِـيْ تَلَقِّيْهَـا
لِـذَا ٱكْتَفَيْتُ بِمَا فِيْهِ ٱلنَّصِيْحَـةُ فِي وَصِيَّتِيْ فَـأَصِخْ سَمْعَـاً لِمُـوْصِيْهَـا
وَٱعْلَمْ بُنَيَّ أَحَبُّ ٱلصَّـالِحَـاتِ إِلَـــيَّ وَٱلَّتِي أَنْتَ مِنْ نُصْحِيْ لَجَانِيْهَا[(١)]
أَنْ تَتَّقِيْ ٱللّٰهَ فِيْ كُـلِّ ٱلْأُمُـوْرِ وَلَا تَجْتَـازَ فِيْهَا فُـرُوْضَـاً كَـانَ مُمْضِيْهَـا
وَٱتْبَعْ خُطَى ٱلصُّلَحَا مِنْ آلِ بَيْتِكَ فِيْ أَحْكَـامِ رَبِّكَ لَا تَجْتَـزْ مَنَـاحِيْهَـا
فَـإِنَّهَـا فَقِهَتْ آيَ ٱلْـكِتَـابِ وَلَـمْ تَفُتْ رِغَـابَاً إِلٰـهُ ٱلْعَـرْشِ مُـوْحِيْهَـا
وَٱعْلَمْ بِـأَنَّ ٱلْبَـرَايَـا ٱللّٰهُ خَـالِقُهَـا سُبْحَـانَهُ وَهْـوَ بِـٱلتَّحْقِيْقِ مُفْنِيْهَـا[(٢)]

---

(١) واعلم يـا بنيَّ ، أنَّ أحبَّ مـا أنت آخـذ بـه إليَّ من وصيتي ، تقـوى الله ، والاقتصـار على ما فـرضه الله عليـك ، والأخذ بمـا مضى عليـه الأولـون من آبـائـك ، والصالحون من أهل بيتك ، فإنّهم لم يدعوا إن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظـر ، وفكروا كما أنت مفكر ، ثمَّ ردَّهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمساك عمّا لم يكلفـوا ، فـإن أبت نفسك أن تقبـل ذلـك دون أن تعلم كمـا علمـوا ، فليكن طلبـك ذلـك بتفهم وتعلم ، لا بتـورُّط الشبهـات ، وعُلَق الخصـومـات ، وابـدأ قبـل نـظرك في ذلـك ، بالاستعانة بإلٰهك ، والرغبة إليه في تـوفيقك ، وتـرك كلّ شـائبةٍ أولجتـك في شبهة ، أو أسلمتك إلى ضلالة ، فإن أيقنت أن قد صفا قلبك فخشع ، وتمَّ رأيك فاجتمـع ، وكان همك في ذلك همَّاً واحداً ، فانظر فيما فسرتُ لـك ، وإن أنت لم يجتمع لـك ما تحبُّ من نفسـك ، وفراغ نـظرك وفكرك ، فـاعلم أنَّك تخبط العشـواء ، وتتورَّط الـظلمـاء ، وليس طالب الدين من خبط أو خلط ، والإمساك عن ذلك أمثل .

(٢) فتفهم يا بنيَّ وصيتي ، واعلم أنَّ مالك الموت هو مالك الحياة ، وأنَّ الخالق هـو المميت ، وأنَّ المفني هو المعيـد ، وأنَّ المبتلي هو المعـافي ، وأنَّ الدنيـا لم تكن لتستقرَّ ، إلاّ على ما جعلها عليه من النعماء ، والابتلاء والجزاء في المعاد ، أو مـا شاء ممَّا لا تعلم ، فإن أشكل عليك شيءٌ من ذلك ، فاحمله على جهالتك ، فـإنَّك أول مـا خلقتَ به جاهلاً ، ثمَّ عُلمتَ ، وما أكثر ما تجهل من الأمر ، ويتحير فيه رأيك ، ويضلُّ=

وَهْوَ ٱلَّذِي يَبْتَلِيْهَا بِٱلْكَوَارِثِ حَتْـمَاً وَهْوَ عَنْ رَحْمَةٍ عُلْيَا يُعَافِيْهَا

وَأَنَّ دُنْيَاكَ ذِي لَمْ تَسْتَقِرَّ عَلَى حَالَاتِهَا مِثْلَمَا ذُوْ ٱلرَّأْيِ يُلْفِيْهَا

إِلَّا بِقُدْرَتِهِ ٱلْعُظْمَى وَرَغْبَتِهِ ٱلْـعُلْيَا ٱلَّتِي لَيْسَ مَنْ يَدْرِي خَوَافِيْهَا

فَإِنْ رَأَيْتَ بِهَا مَا أَنْتَ جَاهِلُهُ مِنَ ٱلشُّؤُوْنِ ٱلَّتِي ٱلْإِشْكَالُ غَاشِيْهَا

فَذَا لِجَهْلِكَ فِيْهَا وَٱلْجَهَالَةُ تَصْـحَبُ ٱلْفَتَى وَهْوَ مَا يَحْيَا مُدَانِيْهَا

وَكَمْ جَهِلْتَ أُمُوْرَاً لَا عِدَادَ لَهَا ثُمَّ رَأَيْتَكَ يَا ٱبْنَ ٱلْوُدِّ تَدْرِيْهَا

وَكُنْ بِرَبِّكَ يَا ٱبْنِي خَيْرَ مُعْتَصِمٍ فَهْوَ ٱلْمُسَوِّيْكَ وَٱلدُّنْيَا ٱلْمُسَوِّيْهَا[1]

وَمَا وَحَقِّكَ عَنْهُ مِثْلُ جَدِّكَ قَدْ أَنْبَا ٱلْبَرِيَّةَ هَادٍ فَهْوَ هَادِيْهَا

فَخُذْهُ رَائِدَكَ ٱلْأَسْمَى وَقَائِدَكَ ٱلْأَعْلَى إِلَى ٱلْجَنَّةِ ٱلْخَضْرَا لِتَأْوِيْهَا

وَٱعْلَمْ فَدَيْتُكَ أَنَّ ٱللَّهَ مُنْفَرِدٌ فَمَا لَهُ شُرَكَاءُ كَيْ تُرَاعِيْهَا[2]

وَأَنَّهُ أَزَلِيٌّ لَا ٱبْتِدَاءَ لَهُ وَلَا ٱنْتِهَا وَهْوَ مُبْدِيْ ٱلْخَلْقِ مُنْهِيْهَا

= فيه بصرك ، ثمّ تبصره بعد ذلك .

(١) فاعتصم بالذي خلقك ، ورزقك وسوَّاك ، فليكن لهُ تعبدك ، وإليه رغبتك ، ومنه شفقتك ، واعلم يا بنيَّ ، أنَّ أحداً لم ينبىء عن الله سبحانه ، كما أنبأ عنه جدُّك المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، فارض به رائداً ، وإلى النجاة قائداً ، فإنّي لم آلك نصحاً ، وأنك لم تبلغ في النظر لنفسك وإن اجتهدت مبلغ نظري لك .

(٢) واعلم يا بنيَّ ، أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله ، ولرأيتَ آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفتَ أفعاله وصفاته ، ولكنه إلّه واحد كما وصف نفسه ، لا يضادُّه في ملكه أحد ، ولا يزول أبداً ولم يزل ، أوَّل قبل الأشياء بلا أولية ، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية ، عظم أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلبٍ أو بصر ، فإذا عرفت ذلك ، فافعل كما ينبغي لمثلك أن يفعله في صغر خطره ، وقلة مقدرته ، وكثرة عجزه ، وعظيم حاجته إلى ربّه ، في طلب طاعته ، والخشية من عقوبته ، والشفقة من سخطه ، فإنّه لم يأمرك إلَّا بحسن ، ولم ينهك إلَّا عن قبيح .

وَذَاتُهُ مَا عُقُوْلُ ٱلنَّاسِ تُدْرِكُهَا ... وَلَا قُلُوْبُهُمُ تَدْرِي مَعَانِيْهَا

وَإِنْ عَرَفْتَ كَذَاكَ ٱللَّهَ جِئْتَ إِلَى ... عُلْيَاهُ بِٱلطَّاعَةِ ٱلْمَأْجُوْرُ مُسْدِيْهَا

وَأَنْتَ لَوْلَاهُ فِي ضَعْفٍ وَفِي خَوَرٍ ... عَنْ كُلِّ رَغْبَةِ نَفْسٍ رُمْتَ تَقْضِيْهَا

وَهِبْتَ يَوْمَ ٱلتَّنَادِيْ مِنْ تَسَخُّطِهِ ... وَمِنْ عُقُوْبَتِهِ ٱلْكُبْرَى تُلَاقِيْهَا

فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا إِلَى حَسَنٍ ... يَدْعُوْ ٱلْعِبَادَ وَعَمَّا سَاءَ يُنْهِيْهَا

بُنَيَّ أَنْبَأْتُكَ ٱلدُّنْيَا وَحَالَتَهَا ... وَكَمْ سَرِيْعٌ لِثَاوِيْهَا تَلَاشِيْهَا[1]

وَقَدْ تَطَرَّأْتُ لِلْأُخْرَى وَنَبْأَتِهَا ... وَمَا أُعِدَّ مِنَ ٱلْبَارِيْ لِأَهْلِيْهَا

وَفِيْهِمَا جِئْتُ بِٱلْأَمْثَالِ أَطْلِبُ فِيْـ ... ـهَا ٱلْعِبْرَةَ ٱلْآمِنُ ٱلْإِعْثَارَ جَانِيْهَا

وَإِنَّ مَنْ خَبَرَ ٱلدُّنْيَا لَيَعْرِفُ أَنَّـ ... ـهُ إِلَى مَنْزِلٍ أَهْنَى مُخَلِّيْهَا

يَجْتَازُهَا وَهْوَ مَسْرُوْرٌ وَمُبْتَهِجٌ ... إِلَى دِيَارَةِ أَفْرَاحٍ يُوَافِيْهَا

وَمَنْ بِهَا ٱغْتَرَّ يَخْشَى أَنْ يُفَارِقَهَا ... إِلَى دِيَارِ ٱلشَّقَا بِٱلْكُرْهِ يَثْوِيْهَا

أَحْبِبْ لِغَيْرِكَ يَا ٱبْنِيْ مَا تُحِبُّ لِنَفْـ ... ـسِكَ ٱلطَّمُوْعَةِ وَٱحْذَرْ مِنْ تَشَهِّيْهَا[2]

---

(١) يا بنيَّ ، قد أنبأتك عن الدنيا وحالها ، وزوالها وانتقالها ، وأنبأتك عن الآخرة وما أعدَّ لأهلها ، وضربت لك فيها الأمثال ، لتعتبر بها ، وتحذو عليها ، إنّما مثلَ من خبر الدنيا ، كمثل قوم سفرٍ ، نبا بهم منزل جديب ، فأموا منزلاً خصيباً ، وجناباً مريعاً ، فاحتملوا وعثاء الطريق ، وفراق الصديق ، وخشونة السفر ، وجشوبة المطعم ، ليأتوا سعة دارهم ، ومنزل قرارهم ، فليس يجدون لشيءٍ من ذلك ألماً ، ولا يرون نفقةً فيه مغرما ، ولا شيءَ أحبُّ إليهم ممَّا قرَّبهم من منزلهم ، وأدناهم إلى محلتهم ، ومثلَ من اغترَّ بها ، كمثل قومٍ كانوا بمنزلٍ خصيبٍ ، فنبا بهم إلى منزلٍ جديبٍ ، فليس شيء أكره إليهم ، ولا أفظع عندهم ، من مفارقة ما كانوا فيه ، إلى ما يهجمون عليه ، ويصيرون إليه .

(٢) يا بنيَّ ، اجعل نفسك ميزاناً ، فيما بينك وبين غيرك ، فأحب لغيرك ما تحبُّ لنفسك ، واكره له ما تكره لها . ولا تظلم كما لا تحبُّ أن تظلم ، وأحسن كما تحبُّ=

وَلَا تقُلْ غَيْرَ مَا قَدْ كُنْتَ عَارِفَهُ كَيْ لَا يُسَفِّهَكَ ٱلسُّمَّاعُ تَسْفِيْهَا
وَلَا تَكُنْ مُعْجِباً وَٱلْعُجْبُ مَنْقَصَةٌ بِٱلنَّفْسِ دَعْ عَنْكَ يَا ٱبْنِي ٱلْكِبْرَ وَٱلتِّيْهَا
إِخْشَعْ لِرَبِّكَ إِنْ تُهْدَى لِقَصْدِكَ وَٱعْـلَمْ أَنَّ نُعْمَاكَ كَانَ ٱللَّهُ مُعْطِيْهَا
وَٱعْلَمْ طَرِيْقَكَ طُوْلَى وَٱلْمَشَقَّةُ فِيْـهَا لَا تَهُوْنُ عَلَى مَنْ رَامَ يَمْشِيْهَا[1]
وَٱحْسِنْ لَهَا ٱلْإِرْتِيَادَ ٱلْمُبْلِغَ ٱلْأَرَبَ ٱلْأَسْمَى وَعُدَّ مِنَ ٱلْأَزْوَادِ كَافِيْهَا
وَخَفِّفِ ٱلْحُمْلَ يَا ٱبْنِي عَنْكَ جُهْدَكَ حَتَّـى لَا تَخُوْرُ ٱلْقِوَى عَنْهُ فَيُوْهِيْهَا
وَإِنْ وَجَدْتَ أُنَاساً عَنْكَ تَحْمِلُهُ مِنَ ٱلْعُفَاةِ ٱلْأُلَى بِرٌّ تَوَلِّيْهَا
فَٱغْنَمْ مَعُوْنَتَهَا فَهْيَ ٱلْمُخَفِّفَةُ ٱلْأَحْمَالِ فِيْ ٱلرَّحْلَةِ ٱلْمَتْعُوْبُ بَاغِيْهَا
وَأَنْتَ مِنْ بَعْدِهَا لَا بُدَّ تَبْلُغُ جَنَّـةَ ٱلرِّضَى أَوْ إِلَى ٱلنِّيْرَانِ تَصْلِيْهَا
وَٱعْلَمْ فَدَيْتُكَ مَنْ طَوْعاً لِرَاحَتِهِ خَزَائِنُ ٱلْأَرْضِ وَٱلْجَنَّاتِ مَالِيْهَا[2]

=أن يحسن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك ، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم ، ولا تقل ما لا تحبُّ أن يقال لك ، واعلم أنَّ الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب ، فاسع في كدحك ، ولا تكن خازناً لغيرك ، وإذا أنت هديت لقصدك ، فكن أخشع ما تكون لربّك .

(١) واعلم ، أنَّ أمامك طريقاً ذا مسافةٍ بعيدةٍ ، ومشقةٍ شديدةٍ ، وأنّه لا غِناء بك فيه عن حسن الإرتياد ، وقدر بلاغك من الزاد ، مع خفة الظهر ، فلا تحملنَّ على ظهركَ فوق طاقتك ، فيكون ثقل ذلك وبالاً عليك ، وإذا وجدت من أهل الفاقة ، مَن يحمل لك زادك إلى يوم القيامة ، فيوافيك به غداً ، حيث تحتاج إليه ، فاغتنمه وحمّله إيّاه ، وأكثر من تزويده ، وأنت قادر عليه ، فلعلّك تطلبه فلا تجده ، واغتنم من استقرضك في حال غناك ، ليجعل قضاءه لك في يوم عسرتك ، واعلم أنَّ أمامك عقبة كؤوداً ، المخفُّ فيها أحسن من المثقل ، والبطيءُ عليها ، أقبح حالاً من المسرع ، وأنَّ مهبطك بها بلا محالة ، أمَّا على جنة أو على نار ، فارتد لنفسك قبل نزولك ، ووطىء المنزل قبل حلولك ، فليس بعد الموت مستعتب ، ولا إلى الدنيا منصرف .

(٢) واعلم ، أنَّ الذي بيده خزائن السموات والأرض ، قد أذن لك في الدعاء ،=

قَدْ كَانَ مُؤْذِنَكَ آلرَّاضِي بِدَعْوَتِهِ   وَقَدْ تَكَفَّلَ عَطْفَاً أَنْ يُلَبِّيْهَا
وَهْوَ آلْمُؤَامِرُ بِآلإِخْبَاتِ تَسْأَلُهُ   قَضَا حَوَائِجِكَ آلشَّتَّى لِيَقْضِيْهَا
وَأَنْ تُوَافِيْهِ تَبْغِي فَيْضَ رَحْمَتِهِ   وَهْوَ آلرَّحُوْمُ بِلَا شَكٍّ لِيُسْدِيْهَا
وَلَمْ يُقِمْ حَاجِبَاً مِنْ دُوْنِ قُدْرَتِهِ   يَزْوِيْكَ عَنْهُ وَعَنْ رَجْوَاكَ يَزْوِيْهَا
وَلَا إِلَى آلشُّفَعَا قَدْ كَانَ مُلْجِئَكَ آلـ   ـرَّحْمَنُ إِنْ رُحْتَ بِآلآمَالِ تُزْجِيْهَا
وَإِنْ أَسَأْتَ فَلَمْ يَمْنَعْكَ يَا وَلَدِيْ   مِنْ تَوْبَةٍ عَنْ خَطَايَا كُنْتَ مُخْطِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ مُعْجِلاً تَوْقِيْعَ نَقْمَتِهِ   عَلَيْكَ فَآجْهَدْ بِلَا بُطْءٍ لِتَتْقِيْهَا
وَلَمْ يَكُنْ مُظْهِراً يَوْمَاً فَضِيْحَتَكَ آلـ   ـسُّوءَى إِذَا كُنْتَ بِآلتَّعْجِيْلِ مُخْفِيْهَا
وَلَمْ يَدَعْكَ بِيَأْسٍ مِنْ مَرَاحِمِهِ   إِنْ رُحْتَ بِآلْبِرِّ وَآلتَّقْوَى تُرَجِّيْهَا

=وتكفل لك بالإجابة ، وأمرك أن تسأله ليعطيك ، وتسترحمه ليرحمك ، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه ، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه ، ولم يمنعك إن أسأت من التوبة ، ولم يعاجلك بالنقمة ، ولم يفضحك حيث تعرَّضتَ للفضيحة ، ولم يشدد عليك في قبول الإنابة ، ولم يناقشك بالجريمة ، ولم يؤنسك من الرحمة ، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة ، وحسب سيئتك واحدة ، وحسب حسنتك عشراً ، وفتح لك باب المتاب ، وباب الاستيعاب ، فإذا ناديته سمع نداءك ، وإذا ناجيته علم نجواك ، فأفضيت إليه بحاجتك ، وأبثثته ذات نفسك ، وشكوتَ إليه همومك ، واستكشفته كروبك ، واستعنته على أمورك ، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائه غيره ، من زيادة الأعمار ، وصحة الأبدان ، وسعة الأرزاق ، ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه ، بما أذن لك فيه من مسألته ، فمتى شئتَ استفتحت بالدعاء أبواب نعمته ، واستمطرتَ شآبيب رحمته ، فلا يقنطنك إبطاءُ إجابته ، فإنّ العطية على قدر النيّة ، وربما أخرت عنك الإجابة ، ليكون ذلك أعظم لأجر السائل ، وأجزل لعطاء الآمل ، وربما سألتَ الشيءَ فلا تؤتاه ، وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً ، أو صرف عنك لما هو خير لك ، فلربَّ أمرٍ قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته ، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله ، وينفي عنك وباله ، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له .

بَـلْ إِنَّهُ كَـرَمَاً قَـدْ كَـانَ تَـوْبَتُـكَ آلْـــكُبْرَى مِنَ آلْحَسَنَاتِ آلزُّهْرِ مُحْصِيْهَا

وَآلسَّيِّئَـاتُ فُـرَادَى كَـانَ حَـاسِبَهَـا   عَلَيْـكَ إِنْ تُبْتَ عَنْهَـا فَهْـوَ مَـاحِيْهَـا

وَحَـاسِبُ آلْحَسَنَاتِ آلـزُّهْـرِ وَاحِـدَةً   بِعَشْـرِ أَمْثَـالِهَـا إِنْ أَنْتَ تَـأْتِيْهَـا

إِنْ أَنْتَ نَـادَيْتَـهُ لاَ شَـكَّ يَسْمَعُ أَوْ   إِنْ كُنْتَ نَـاجَيْتَـهُ نَجْـوَاكَ يَـدْرِيْهَـا

لَـهُ هُمُـوْمُـكَ تَشْكُـوْهَـا فَيُفْـرِجُهَـا   وَآلْمُـزْعِجَاتُ آلَّتِيْ تَـدْهَى فَيُجْلِيْهَـا

تَجِيْئُـهُ طَـالِبَـاً مِنْ فَـضْلِهِ نِـعَمَـاً   مَـا آلْغَيْـرُ يَمْلِكُهَـا أَصْـلاً لِيُـوْلِيْهَـا

زِيَـادَةُ آلْعُمْـرِ مَـعْ رِزْقٍ وَعَـافِيَـةٍ   مُنَىً جَمِيْـعُ عِـبَـادِ آللَّهِ تَـبْغِـيْهَـا

تَنَـالُهَـا بِـآلـدُّعَـا فِيْ بَـابِ رَحْمَتِـهِ   وَبِـآلـصَّـلاَةِ آلَّتِيْ بِـرّاً تُـصَلِّيْهَـا

لاَ تَـيْـأَسَـنَّ إِذَا أَرْجَـا إِجَـابَـتَـهُ   عَلَيْكَ يَـوْمَـاً وَقُـلْ لِلْخَيْـرِ يُـرْجِيْهَـا

فَـرُبَّ مَسْـأَلَـةٍ فِيْهَـا آلْهَـلاَكُ وَلاَ   تَـدْرِيْ فَتَسْـأَلُهَـا جَهْـلاً وَيُلْغِيْهَـا

سَلْهُ آلـرِّغَابَ آلَّتِيْ تَبْقَى مَحَـاسِنُهَـا   لِمُبْتَغِيْهَـا وَلاَ شَـرٌّ يُـتَـالِيْـهَـا

وَلاَ تَجُـدَّ وَرَا آلأَمْـوَالِ تَجْمَعُهَـا   مَـا أَنْتَ بَـاقٍ لِتَقْنِيْهَـا وَتُـفْنِيْهَـا

وَآعْلَمْ حَيَـاتُـكَ يَـا آبْنِيْ لِلْفَنَـاءِ وَإِ   نَّ آلدَّهْرَ مَهْمَا تَطُلْ لاَ شَكَّ مُبْلِيْهَا[1]

---

(١) واعلم ، أنّك إنّما خلقت للآخرة لا للدنيا ، وللفناء لا للبقاء ، وللموت لا للحياة ، وإنّك في منزل قلعة ، ودار بلغة ، وطريق إلى الآخرة ، وأنت طريد الموت ، الذي لا ينجو منه هاربه ، ولا يفوته طالبه ، ولا بدَّ أنّه مدركه ، فكن منه على حذر أن يدركك وأنت على حالٍ سيئةٍ ، قد كنت تحدّث نفسك منها بالتوبة ، فيحول بينك وبين ذلك ، فإذاً أنت قد أهلكت نفسك ، يا بنيَّ أكثر من ذكر الموت ، وذكر ما يهجم عليه ، وتقضي بعد الموت إليه ، حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك ، وشددت له أزرك، ولا يأتيك بغتةً فيبهرك ، وإيّاك أن تغترَّ بما ترى من إخلاد أهل الدنيا إليها ، وتكالبهم عليها ، فقد نبأك الله عنها ، ونعت لك نفسها ، وتكشفت لك عن مساويها ، فإنّما أهلها كلاب عاوية ، وسباع ضارية ، يهرُّ بعضها على بعض ، ويأكل عزيزها=

وَأَنْتَ يَا آبْنِي طَرِيْدُ آلْمَوْتِ فِيْ وَجَلٍ مِنْـهُ وَهَجْمَتُـهُ تَخْشَى تَسَـطِّيْـهَـا

لٰكِنَّمَا آلْمَوْتُ لاَ تَنْجُـوْ فَرَائِسُـهُ مِنْـهُ وَلاَ بُـدَّ يَلْقَـاهَـا وَيُـرْدِيْهَـا

فَكُنْ عَلَى حَـذَرٍ مِنْ فَجْءِ هَجْمَتِـهِ وَأَنْتَ فِيْ مَعْصِيَـاتِ آللّٰهِ تَـأْتِيْهَـا

أَكْثِرْ بُنَيَّ آذْدِكَـارَ آلْمَـوْتِ وَآذْدَكِـرِ آلْأُخْـرَى وَلاَ تَـكُ نَـاسِيْـهِ وَنَـاسِيْهَـا

لاَ تَغْتَـرِرْ بِبَنِي آلـدُّنْيَـا وَخُـدْعَتِهِمْ بِهَـا وَمَـا طَلَبُـوْهُ مِنْ مَـلاَهِيْـهَـا

فَـآللّٰهُ مُنْبِيْـكَ عَنْهَـا وَهْيَ نَـاعِيَـةٌ لِذِيْ آلْحِجَى نَفْسَهَا فَآسْمَعْ مَنَاعِيْهَا

وَآنْـظُرْ إِلَيْهَا بِعَيْنِ آلْقَلْبِ هَـا هِي قَـدْ تَكَشَّفَتْ لَـكَ عَنْ مُخْـزِيْ مَسَـاوِيْهَـا

وَأَهْلُهَـا كَكِـلاَبِ آلْحَيِّ نَـابِحَـةٌ أَوْ قُلْ حَكَتْ مِنْ وُحُوشِ آلْقَفْرِ ضَارِيْهَا

يَهِـرُّ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ وَيَـأْكُـلُ أَرْ بَـابُ آلْقِـوَى ضُعَفَـاهَـا مَعْ ذَرَارِيْهَـا

كَـأَنَّهُمْ نَعَمٌ فِيْ آلْأَرْضِ سَـارِحَـةٌ تَبَـدَّدَتْ فِـرَقـاً إِذْ غَـابَ رَاعِيْهَـا

بِهِمْ لَقَـدْ سَلَكَتْ سُبُلَ آلْغَـوَايَـةِ دُنْـيَـاهُمْ فَمَا أَمِنُـوْا فِيْ سَيْرِهَـا آلتِّيْهَـا

وَيْـلٌ لَهُمْ أَلْهُـوْا آلـدُّنْيَـا وَقَـدْ لَعِبَتْ بِهِمْ وَهُمْ لَمْ يَـزَالُـوْا مُسْتَثِيْبِيْـهَـا

وَقَـدْ نَسَـوْا مَـا وَرَاهَـا لاَ أَبَـا لَهُمُ كَـأَنَّهُمْ أَمِنُـوا طُـوْلَ آلثِّوَى فِيْهَـا

وَآعْلَمْ فَـدَيْتُكَ يَـا آبْنِي مَنْ مَـطِيَّتُـهُ زَمَـانُـهُ نُـهْـرُهُ تَتْلُوْ لَيَـالِيْهَـا[1]

= ذليلها ، ويقهر كبيرها صغيرها ، نعم معلقة ، وأخرى مهملة ، قد أضلت عقولها ، وركبت مجهولها ، سروح عاهةٍ ، بوادٍ وعثٍ ، ليس لها راعٍ يقيمها ، ولا مسيمٍ يسيمها ، سلكت بهم الدنيا طريق العمى ، وأخذت بأبصارهم عن منار الهدى ، فتاهوا في حيرتها ، وغرقوا في نعمتها ، واتّخذوها رباً ، فلعبت بهم ولعبوا بها ، ونسوا ما وراءها ، رويداً يسفر الظلام ، كأن قد وردت الأظعان ، يوشك من أسرع أن يلحق .

(١) واعلم يا بنيَّ أنَّ من كانت مطيته الليل والنهار ، فإنّه يسار به وإن كان واقفاً ، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً ، واعلم يقيناً أنّك لن تبلغ أملك ، ولن تعدو أجلك ، وأنك في سبيل من كان قبلك ، فخفض في الطلب ، وأجمل في المكتسب ، =

بِـهِ يُسَـارُ وَلَا يَـدْرِيْ وَيَحْسِبُ جَهْـــلًا أَنَّ رَحْلَتَـهُ مَـا آلـدَّهْـرُ مُنْهِيْهَـا

وَآعْلَمْ يَقِيْنَـاً بِأَنَّ آلنَّـاسَ قَدْ طُـوِيَتْ   وَسَوْفَ يَطْوِيْكَ مَنْ قَدْ كَـانَ طَاوِيْهَـا

لَنْ تَعْـدُوَ آلْأَجَـلَ آلْمَحْـدُوْدَ ثَـانِيَـةً   وَلَـنْ تَفُـوْزَ بِـآمَـالٍ تُـوَخِّـيْـهَـا

فَخَفِّفِ آلـطَّلَبَ آلْمُضْنِيْ لِمُكْتَسَبٍ   يَجُـرُّ جَـرَّاً مِنَ آلْأَرْزَاءِ قَـاسِيْهَـا

مَـا كُـلُّ مَنْ طَلَبَ آلْأَرْزَاقَ نَـائِلُهَـا   مَا كُلُّ مَنْ أَجْمَلَ آلْمَسْعَى لَمُقْصِيْهَا

وَآرْبَـأْ بِنَفْسِـكَ أَنْ تَـرْضَى مَهَـانَتَهَـا   لِنَيْـلِ مَـا قَـدْ تَعَـاصَى مِنْ أَمَـانِيْهَـا

وَآللَّهُ سَـوَّاكَ حُـرَّاً لَا تَكُـنْ أَبَـدَاً   عَبْـدَاً لِغَيْـرِكَ فِيْ رُغْبَى تُـرَجِّيْهَـا

لَا تَـتْـرُكْ نِعْمَـةً لِلْغَيْـرِ فَـاصِلَةً   مَـا بَيْنَ نَفْسِـكَ وَآلـرَّحْمٰنِ بَـارِيْهَـا

وَنِعْمَـةُ آللَّهِ مَـا قَلَّتْ لَأَعْـظَمُ مِنْ   نُعْمَى خَـلَائِقِـهِ آلْكَثْـرَى تُؤَدِّيْهَـا

وَإِنْ تَكُنْ نِعَمُ آلـدُّنْيَـا بِجُمْلَتِـهَـا   مِنْ فَيْضِ إِحْسَانِهِ لِلنَّـاسِ مُعْطِيْهَا

وَلَازِمِ آلصَّمْتَ لَا تَنْـطُقْ بِغَيْـرِ تَـرَوٍّ   إِنْ تُجَـالِسَ أَصْحَابَـاً تُفَـاهِيْهَـا(١)

=فإنّه ربَّ طلبٍ قد جرَّ إلى حرب ، وليس كلُّ طالب بمرزوق ، ولا كل مجمل بمحروم ، وأكرم نفسك عن كلّ دنية ، وان ساقتك إلى الرغائب ، فإنّك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً ، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً ، وما خيرُ خيرٍ لا ينال إلّا بشرّ ، ويسرٍ لا ينال إلّا بعسر ، وإيّاك أن توجف بك مطايا الطمع ، فتوردك مناهل الهلكة ، وان استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمةٍ فافعل ، فإنّك مدركٌ قسمك ، وآخذ سهمك ، وأنَّ اليسير من الله سبحانه ، أعظم وأكرم من الكثير من خلقه ، وإن كان كلٌّ منه .

(١) وتلافيك ما فرط من صمتك ، أيسر من إدراكك ما فات من منطقك ، وحفظه في الوعاء يشدّ الوكاء ، وحفظ ما في يديك أحبُّ إليَّ من نظرك إلى ما في يدي غيرك ، ومرارة اليأس ، خير من الطلب إلى الناس ، والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور ، والمرء أحفظ لسرّه ، وربَّ ساعٍ فيما يضرّه ، من أكثر أهجر ، ومن تفكر تبصر ، قارن أهل الخير تكن منهم ، وباين أهل الشر تبن عنهم ، بئس الطعام=

فَٱلصَّمْتُ سَهْلٌ تَلَافِيْ ضَرِّهِ وَلَقَوْ لَـةٌ تَضُرُّكَ مَـا سَهْـل تَـلَافِيْهَـا
وَحِفْظُ مَـا أَنْتَ قَـانِيْـهِ لَأَهْـوَنُ مَنْ سُؤَالِـكَ ٱلنَّـاسَ عَمَّـا فِيْ أَيَـادِيْهَـا
وَٱلْيَـأْسُ مِنْ رَغَبَـاتٍ أَنْتَ رَاغِبُهَـا أَحَقُّ مِنْ أَنْ إِلَى ذِيْ ٱلشُّحِّ تُزْجِيْهَا
وَإِنَّ مَتْـرَبَـةً مَعْهَـا ٱلْعَفَـافُ لَخَيْـــرٌ مِنْ غِنَى فَجْـرَةٍ تُخْـزِي مُـوَافِيْهَـا
وَإِنَّمَا ٱلْمَرْءُ أَحْرَى أَنْ يَصُوْنَ عَنِ ٱلْإِ م خْـوَانِ أَسْـرَارَهُ مَـا رَامَ يُخْفِـيْهَـا
وَرُبَّ سَـاعٍ مُجِـدٍّ فِيْ مَضَـرَّتِـهِ فَيَسْتَحِيْـلُ عَلَيْـهِ أَنْ يُـحَـاشِيْـهَـا
وَمُكْثِرُ ٱلْقَوْلِ نَـالَ ٱلْهَجْـرُ مَنْطِقَـهُ فَـٱقْصُدْ إِذَا كُنْتَ فِيْ قَـوْمٍ تُنَـادِيْهَا
وَمَنْ يُكَثِّرْ زِيَـارَاتِ ٱلصِّحَـابِ فَـلَا بُـدْعٌ إِذَا لَقِيَـتْـهُ فِيْ تَـجَـافِيْـهَـا
وَمَـنْ تَفَـكَّـرَ فِـيْ أَعْـمَـالِـهِ لَـرَآ هَـا فِيْ حَقَـائِقِهَـا مِنْ قَبْـلُ يَـأْتِيْهَا
بَـايِنْ ذَوِيْ ٱلشَّرِّ حَـاذِرْ أَنْ تُشَاكِلَهُمْ وَقَـارِنِ ٱلصُّلَحَـا تُصْبِـحْ مُحَـاكِيْهَـا
وَبِئْسَ أَطْعِمَـةُ ٱلْإِنْسَـانِ مَـا حَـرُمَتْ وَٱلْـوَيْـلُ مُتَّبِـعٌ مَثْـوَى مُحِـلِّيْهَـا
وَٱلـظُّلْمُ فُحْشٌ وَلَكِنْ كَـانَ أَفْحَشَـهُ ظِلْمُ ٱلضِّعَافِ ٱلْأُلَى ٱلْقُرْآنُ يَحْمِيْهَا
مَا ٱلرِّفْقُ يُحْمَدُ فِيْ كُلِّ ٱلْمَوَاطِنِ بَلْ فِيْ ٱلشِّدَّةِ ٱلْحَمْدُ أَحْيَـانًا لِمُجْـرِيْهَا
وَرُبَّ دَاءٍ شَـفَـى دَاءً مُـنِيْـتَ بِـهِ وَرُبَّ أَدْوِيَـةٍ يُـؤْذِيْ تَـعَـاطِـيْـهَـا
وَرُبَّ قَـوْلَـةِ ذِيْ مَكْـرٍ نُصِحْتَ بِهَـا وَقَـوْلَةِ ٱلنُّصْـحِ كَانَ ٱلْغِشُّ غَـاشِيْهَا

=الحرام ، ظلم الضعيف أفحش الظلم ، إذا كـان الرفق خـرقاً كـان الخرق رفقـاً ، ربما كان الدواءُ داءً والداءُ دواءً ، ربما نصح غير الناصح وغشَّ المستنصـح ، إيّاك والاتكـال على المنى فإنّها بضائع النوكى ، والعقل حفظ التجارب ، وخير ما جرَّبت مـا وعظك ، بادر الفرصة قبل أن تكـون غصة ، ليس كـل طالبٍ يصيب ، مـا كلُّ غـائبٍ يثوب ، من الفساد إضاعة الزاد ، ومفسـدة المعاد ، لكـل أمر عـاقبة ، سـوف يأتيك ما قـدر لك ، التاجر مخاطر ، وربَّ يسير أنمى من كثير .

وَٱلإِتِّكَالُ عَلى ٱلآمَالِ مُتَّجَرُ ٱلْـحُمْقَى وَتَجْرَتُهَا ٱلْخُسْرَانُ تَالِيْهَا

إِنَّ ٱلتَّجَارُبَ قَدْ تُوْلِي ٱلْحَكِيْمَ مَوَا عِظَاً بِهَا يَتَّقِيْ ٱلأَخْطَارَ يُجْلِيْهَا

وَإِنْ تُضِعْ فُرْصَةً لِلْخَيْرِ سَانِحَةً تُصْبِحْ بِغُصَّةِ مَنْ رَاحُوْا مُضِيْعِيْهَا

مَا كُلُّ مُبْتَعِدٍ يَوْمَاً يَؤُوْبُ وَلَا كُلُّ ٱلْمَطَالِبِ يُلْفِيْهَا مُرَجِّيْهَا

إِضَاعَةُ ٱلزَّادِ مَعْ شَرِّ ٱلْمَعَادِ فَسَا دُ لِلْعِبَادِ وَخَيْرُ ٱلنَّاسِ تَاقِيْهَا

لِكُلِّ أَمْرٍ إِذَا فَكَّرْتَ عَاقِبَةٌ فَلَا تُعَالِجْ أُمُوْرَاً كُنْتَ خَاشِيْهَا

لَا تُحْمِلِ ٱلنَّفْسَ جُهْدَاً فَوْقَ طَاقَتِهَا فَكُلُّ مَا كَانَ مَقْدُوْرَاً لَيَأْتِيْهَا

وَلِلتِّجَارَةِ أَخْطَارٌ وَرُبَّ قَنُوْ عٍ بِٱلْيَسِيْرِ نَمَتْ أَرْبَاحُهُ فِيْهَا

لَا خَيْرَ فِيْ عَوْنِ مَرْءٍ مَعْ إِهَانَتِهِ فَٱبْعِدْ بِسُؤْلِكَ عَنْهُ كَيْ تُحَاشِيْهَا[1]

(١) لا خير في معينٍ مهين ، ولا في صديقٍ ظنين ، ساهل الدهر ما ذلّ لك قَعوده ، ولا تخاطر بشيء رجاء الأكثر منه ، إيّاك أن تجمح بك مطية اللجاج ، احمل نفسك من أخيك عند حرصه على الصلة ، وعند صدوده على اللطف والمقاربة ، وعند جموده على البذل ، وعند تباعده على الدنوّ ، وعند شدّته على اللين ، وعند جرمه على العذر ، حتى كأنّك له عبد ، وكأنّه ذو نعمة عليك ، وإيّاك أن تضع ذلك في غير موضعه ، أو أن تفعله بغير أهله ، لا تتخذنّ عدوّ صديقك صديقاً فتعادي صديقك ، وامحض أخاك النصيحة ، حسنةً كانت أو قبيحة ، وتجرَّع الغيظ ، فإنّي لم أرَ جرعةً أحلى منها عاقبةً ، ولا ألذَّ مغبةً ، ولن لمن غالظك ، فإنّه يوشك أن يلين لك ، وخذ على عدوّك بالفضل فإنّه أحد الظفرين ، وإن أردت قطيعة أخيك ، فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها ، إن بدا له ذلك يوماً ما ، ومن ظنَّ بك خيراً فصدّق ظنه ، ولا تضيعنَّ حقَّ أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه ، فإنّه ليس لك بأخ من أضعت حقّه ، ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ، ولا ترغبنَّ فيمن زهد عنك ، ولا يكوننَّ أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا يكوننّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا يكبرنَّ عليك ظالم من ظلمك ، فإنّه يسعى في مضرته ونفعك ، وليس جزءا من سرَّك أن تسوءه .

أَوْ فِي صَدَاقَةِ إِخْوَانٍ يَسُوْءُ بِمَنْ ... صَافَتْ بِلاَ رِيْبَةٍ مِنْهُ تَظَنِّيْهَا

وَسَاهِلِ ٱلدَّهْرَ مَا ذَلَّتْ شَوَامِسُهُ ... فَقَدْ تَنَالُ ٱلْأَمَانِي مِنْ تَذَلِّيْهَا

وَلاَ تُخَاطِرْ بِأَشْيَاءٍ ظَفِرْتَ بِهَا ... لِنَيْلِ أُخْرَى كَثِيْرَاتٍ تُرَجِّيْهَا

وَلاَ تَلُجَّ عِنَاداً لِلَّجَاجِ مَطَا ... يَا جَامِحَاتٌ لَقَدْ أَعْيَتْ مُهَدِّيْهَا

وَٱحْمِلْ صِحَابَكَ إِنْ صدَّتْ عَلى صِلَةٍ ... وَإِنْ تَنَاءَتْ عَلى رَاضِيْ تَدَانِيْهَا

إِنْ أَخْطَأَتْ لَكَ كُنْ بِٱلْحِلْمِ عَاذِرَهَا ... وَكُنْ إِذَا قَسِيَتْ رِفْقاً مُلاَقِيْهَا

وَكُنْ كَأَنَّكَ عَبْدٌ فِيْ ٱلْوَلَاءِ لَهَا ... قَدْ كَانَ نَائِلَ نُعْمَاهَا وَجَادِيْهَا

وَٱحْذَرْ فِعَالُكَ ذِيْ يَوْماً تُضَيِّعُهَا ... بِوَضْعِهَا عِنْدَ قَوْمٍ لاَ تُكَافِيْهَا

لاَ تَتَّخِذْ مَنْ يُعَادِيْ أَصْدِقَاءَكَ إِخْـ ... ـوَاناً فَتَخْسَرُ مَنْ كُنْتَ ٱلْمُوَالِيْهَا

وَٱمْحَضْ نَصَائِحَكَ ٱلْإِخْوَانَ إِنَّ وَفِـ ... ـيَّ ٱلْوُدِّ يُضْحِكُهَا صِدْقاً وَيُبْكِيْهَا

تَجَرَّعِ ٱلْغَيْظَ وَٱعْلَمْ أَنَّ جُرْعَتَهُ ... وَإِنْ تَمُرَّ فَعُقْبَى ٱلْخَيْرِ تُحْلِيْهَا

وَكُنْ لِمَنْ لَكَ قَدْ لاَقَى بِغُلْظَتِهِ ... بِذَاكَ مِنْ غَيْرِ مَا إِثْمٍ مُلاَشِيْهَا

بَادِرْ عِدَاتَكَ بِٱلْحُسْنَى فَتَقْهَرُهَا ... وَبِٱلْبَشَاشَةِ وَٱلْمَعْرُوْفِ تَنْكِيْهَا

وَإِنْ قَطَعْتَ أَخاً فَلْتُبْقِ نَفْسُكَ مَوْ ... ضِعاً لَهُ عَلَّهُ يَوْماً يُوَافِيْهَا

وَمَنْ بِشَخْصِكَ ظَنَّ ٱلْخَيْرَ ظِنَّتَهُ ... حَقِّقْ وَرَغْبَتُهُ إِيَّاكَ تَزْوِيْهَا

وَلاَ تُضَيِّعْ حُقُوْقَ ٱلصَّحْبِ مُتَّكِلاً ... عَلى مَوَدَّتِهَا بَلْ كُنْ مُؤَدِّيْهَا

وَكُنْ لِأَهْلِكَ مُهْنِيْهَا وَمُسْعِدَهَا ... أَوْلاَ فَتَشْقَى بِهَا جَهْلاً وَتُشْقِيْهَا

مَنْ عَنْكَ يَزْهَدُ لاَ تَرْغَبْ بِهِ أَبَداً ... خِلاًّ وَصُحْبَتُهُ فَٱقْطَعْ أَوَاخِيْهَا

وَكُنْ عَلى صِلَةِ ٱلْأَصْحَابِ أَقْدَرَ مِنْـ ... ـهَا فِيْ ٱلْقَطِيْعَةِ إِنْ هَمَّتْ لِتَأْتِيْهَا

وَكُنْ عَلى ٱلْخَيْرِ أَقْوَى مِنْ مُبَادَءَةِ ٱلْأَصْحَابِ بِٱلشَّرِّ كُنْ خَيْراً مُبَادِيْهَا

لَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ٱلظُّلْمُ فَٱلظُّلَمَا تَسْعَى لِنَفْعِكَ وَٱلْأَضْرَارُ تَجْنِيْهَا
وَلَا تَسُؤْ أَنْفُسَاً سَرَّتْكَ يَا وَلَدِيْ حَاشَاكَ أَنْ تَكُ بِٱلسُّوئَى مُجَازِيْهَا
وَٱلرِّزْقُ رِزْقَانِ رِزْقٌ أَنْتَ تَطْلُبُهُ تُنْضِيْ خُطَاكَ إِلَيْهِ وَهْوَ مُعْيِيْهَا[1]
وَآخَرُ دُوْنَ سَعْيٍ مِنْكَ تَطْلُبُهُ يَأْتِيْ دِيَارَكَ بِٱلتَّوْفِيْقِ يَثْوِيْهَا
أَقْبِحْ بِذِيْ حَاجَةٍ يُبْدِيْ تَلَطُّفَهُ لَهَا وَيَخْشُنُ إِمَّا رَاحَ قَاضِيْهَا
وَغَيْرُ مَا يُصْلِحُ ٱلْمَثْوَى وَحَقِّكَ مَا لِلْمَرْءِ مِنْ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا
وَإِنْ جَزِعْتَ عَلَى مَا قَدْ تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ قَدْ كُنْتَ تَقْطِنُهَا
فَٱجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَافِيْ ٱلْأَرْضِ مِنْ نِعَمٍ إِلَيْكَ مَا وَصَلَتْ فَٱلنَّفْسُ تَبْغِيْهَا
إِنَّ ٱلْأُمُوْرَ لَأَشْبَاهٌ فَحَاضِرُهَا قِسْهُ إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ بِمَاضِيْهَا
وَلَا تَكُنْ مِنْ أُنَاسٍ لَيْسَ يَنْفَعُهَا وَعْظٌ إِذَا لَمْ تُقَرَّعْ مِنْ مُلِيْمِيْهَا

---

(١) واعلم يا بنيَّ أنّ الرزق رزقان ، رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن أنت لم تأته أتاك ، ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى ، إنَّ لك من دنياك ما أحكمت به مثواك ، وإن جزعت على ما تفلت من يديك ، فاجزع على كلّ ما لم يصل إليك ، استدلَّ على ما لم يكن بما كان ، ولا تكونَنَّ ممن لا تنفعه العظة إلَّا إذا بالغت في إيلامه ، فإنَّ العاقل يتعظ بالآداب ، والبهائم لا تتعظ إلَّا بالضرب ، اطرع عنك واردات الهموم ، بعزائم الصبر وحسن اليقين ، من ترك القصد جار ، والصاحب مناسب ، والصديق من صدق غيبه ، والهوى شريك العثاء . ربَّ قريب أبعد من بعيد . وربَّ بعيد أقرب من قريب . والغريب من لم يكن له حبيب . من تعدَّى الحق ضاق مذهبه . ومن اقتصر على قدره كان أبقى له . وأوثق سبب أخذت به ، سبب بينك وبين الله سبحانه ، ومن لم يبالك فهو عدوُّك ، قد يكون اليأس إدراكاً ، إذا كان الطمع هلاكاً ، ليس كلُّ عورةٍ تظهر ، ولا كلُّ فرصةٍ تصاب ، وربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده ، أخِّر الشرَّ فإنّك إذا شئت تعجلته ، وقطيعة الجاهل ، تعدل صلة العاقل ، من أمن الزمان خانه ، ومن أعظمه أهانه ، ليس كلُّ من رمى أصاب ، إذا تغير السلطان تغير الزمان ، سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار .

فَذُوْ ٱلْمَدَارِكِ بِٱلآدَابِ مُتَّعِظُ   أَمَّا ٱلْبَهَائِمُ فَٱلضَّرْبُ ٱلْمُرَبِّيْهَا
سَرِّحْ هُمُوْمَكَ بِٱلصَّبْرِ ٱلْجَمِيْلِ وَبِٱلْـ   ـيَقِيْنِ بِٱللَّهِ وَٱلْأَقْدَارُ تُجْلِيْهَا
مَنْ يَتْرُكِ ٱلْقَصْدَ فِي أَعْمَالِهِ فَقُلِ ٱلأَ   قْدَارُ قَدْ تَيَّهَتْهُ فِي دَيَاجِيْهَا
وَصَاحِبُ ٱلْمَرْءِ أَحْرَى أَنْ يُنَاسِبَهُ   فَٱنْظُرْ حَقِيْقَةَ أَصْحَابٍ تُؤَاخِيْهَا
مَنْ كَانَ يَصْدُقُ فِي ٱلْعَيْبِ ٱلصَّدِيْقَ فَذَا ٱلْـ   ـصَّدِيْقُ صُحْبَتُهُ ذُوْ ٱلرَّأْيِ يَبْغِيْهَا
إِنَّ ٱلْهَوَى لَشَرِيْكٌ لِلْعَمَى وَأَخُوْ   هُ مَا هِدَايَتُهُ تَٱللَّهِ رَائِيْهَا
وَرُبَّ مُبْتَعِدٍ أَدْنَى لِنَفْسِكَ مِنْ   دَانٍ إِلَيْهَا وَلٰكِنْ لَا يُهَاوِيْهَا
وَمَا ٱلْغَرِيْبُ غَرِيْبُ ٱلدَّارِ نَازِحُهَا   لٰكِنَّ مَنْ مَالَهُ صَحْبٌ يُوَالِيْهَا
مَنْ جَاوَزَ ٱلْحَقَّ قُلْ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ   بِوَجْهِهِ لَيْسَ يَدْرِي كَيْفَ يَمْشِيْهَا
وَمَنْ عَلَى قَدْرِهِ قَدْ بَاتَ مُقْتَصِراً   فَمَا ٱلْمَصَاعِبُ تُشْقِيْهِ فَوَاجِيْهَا
وَخَيْرُ مَنْ تُرْتَجَى يَوْماً مَعُوْنَتُهُ   هُوَ ٱلْمُهَيْمِنُ كُنْ مِنْهُ مُوَخِّيْهَا
مَنْ لَمْ يُبَالِكَ إِنْ كُنْتَ ٱلْأَمِيْرَ فَذَا   مِنَ ٱلْعِدَاةِ ٱلْأُلَى فَرْضٌ تَوَقِّيْهَا
وَٱلْيَأْسُ قَدْ يَكُ إِدْرَاكاً إِذَا تَبِعَ ٱلْـ   ـهَلَاكُ أَطْمَاعَ مَطْمَاعٍ يُرَجِّيْهَا
لَيْسَتْ عُيُوْبُ ٱلْعِدَى تَبْدُوْ بِأَجْمَعِهَا   لِعَيْنِ مَنْ رَامَ يَغْزُوْهَا وَيُرْدِيْهَا
وَلَا تُصَابُ إِذَا بَادَرْتَهَا فُرَصُ ٱلْـ   ـخَيْرَاتِ طُرّاً فَلَا تَحْزَنْ لِخَالِيْهَا
وَرُبَّمَا بَلَغَ ٱلْأَعْمَى مَقَاصِدَهُ   دُوْنَ ٱلْبَصِيْرِ ٱلَّذِيْ قَدْ كَانَ رَائِيْهَا
لَا تَعْجَلَنْ بِسُرُوْرٍ أَنْتَ رَاغِبُهَا   فَقَدْ يَكُوْنُ صَوَاباً أَنْ تُؤَنِّيْهَا
قَطِيْعَةُ ٱلْجَاهِلِ ٱلْمَغْرُوْرِ تَعْدِلُ إِنْ   تَرْشُدْ مُوَاصَلَةَ ٱلذَّاكِيْ وَتَحْكِيْهَا
مَنْ يَأْمَنِ ٱلدَّهْرَ فَلْيَنْظُرْ خِيَانَتَهُ   وَمَنْ يُعَظِّمْهُ يَلْقَى ٱلْهَوْنَ تَجْرِيْهَا
مَا كُلُّ رَمْيَةِ رَامٍ قَدْ تُصِيْبُ وَكَمْ   مِنْ رَمْيَةٍ أَخْطَأَتْ دَانِيْ مَرَامِيْهَا

إِذَا تَغَيَّرَ سُلْطَانٌ تَغَيَّرَتِ آلْأَ يَّامُ فِي أَهْلِهَا مَا دَامَ حَامِيْهَا
سَلْ عَنْ رَفِيْقِكَ مِنْ قَبْلِ آلطَّرِيْقِ وَقَبْـلَ آلدَّارِ عَنْ جِيْرَةٍ تَثْوِي نَوَاحِيْهَا
لَا تَذْكُرَنَّ مِنَ آلْأَقْوَالِ مُضْحِكَهَا وَلَوْ عَنِ آلْغَيْرِ قَدْ أَمْسَيْتَ رَاوِيْهَا(١)
وَآحْذَرْ مُشَاوَرَةَ آلنِّسْوَانِ مُجْتَنِباً آرَاءَهُنَّ فَإِنَّ آلْأَفْنَ تَالِيْهَا
وَكُفَّ أَبْصَارَهُنَّ بِآلْحِجَابِ وَصِنْ دِيَارَهُنَّ عَنِ آلْأَغْيَارِ تَأْتِيْهَا
إِنَّ آلنِّسَاءَ رَيَاحِيْنٌ وَلَيْسَ بِهِـنَّ آلْقَهْرَمَانَةُ فَآلْأَخْطَارُ تَتْقِيْهَا
وَآحْذَرْ مُغَايَرَةً فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا مَا بَيْنَهُنَّ يَلِيْهَا آلشَّرُّ تُلْقِيْهَا
وَآجْعَلْ لِكُلٍّ مِن آلْخُدَّامِ عِنْدَكَ أَعْـمَالاً مُخَصَّصَةً لَا بُدَّ يُجْرِيْهَا
بِـذَاكَ تَأْمَنُ مِنْ مُؤْذِي تَوَاكُلِهَا بِمَا يُنَاطُ بِهَا أَوْ مِنْ تَوَانِيْهَا
أَكْرِمْ عَشِيْرَتَكَ آلدُّنْيَا فَإِنَّكَ لَا تَعْلُوْ وَتُكْرَمُ إِلَّا فِي تَعَالِيْهَا
فَهْيَ آلْجَنَاحُ بِهِ فِيْ أُفْقِ سُؤْدُدِكَ آلْأَ مْ سْمَى تَطِيْرُ إِلَى آلْعُلْيَا تُدَانِيْهَا
وَهْيَ آلْأُصُوْلُ آلَّتِيْ مِنْهَا نَشَأْتَ وَمَا تَعْلُوْ تَصِيْرُ إِلَيْهَا لَا تُنَاوِيْهَا

---

(١) إيّاك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً ، وإن حكيت ذلك عن غيرك ، وإيّاك ومشاورة النساء ، فإنّ رأيهنّ إلى أفن ، وعزمهنّ إلى وهن ، واكفف عليهنّ من أبصارهنّ بحجابك إياهنّ ، فإنّ شدّة الحجاب أبقى عليهنّ ، وليس خروجهنّ بأشدّ من إدخالك من لا يوثق به عليهنّ ، وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل ، ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها ، فإنّ المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، ولا تعدُ بكرامتها نفسها ، ولا تطمعها بأن تشفع بغيرها ، وإياك والتغاير في غير موضع غيرة فإن ذلك يدعو الصحيحة إلى السقم ، والبريئة إلى الريب ، واجعل لكلّ إنسان من خدمك عملاً تأخذه به ، فإنّه أحرى أن لا يتواكلوا في خدمتك ، وأكرم عشيرتك ، فإنّهم جناحك الذي به تطير ، وأصلك الذي إليه تصير ، ويدك التي بها تصول ، استودع الله دينك ودنياك ، واسأله خير القضاء لك ، في العاجلة والآجلة ، والسلام اهـ .

وَهْيَ ٱلْيَمِيْنُ ٱلَّتِيْ تَسْطُوْ بِهَا وَتَصُوْ ... لُ إِنْ دَهَاكَ مِنَ ٱلْأَرْزَاءِ دَاهِيْهَا
أَسْتَوْدِعُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَرْشِ دِيْنَكَ مَعْ ... دُنْيَاكَ ذِيْ بُغْيَتِيْ لِلَّهِ أُسْدِيْهَا

مقتبسات من حكم أمير المؤمنين[1]

وَافَىٰ إِلَي ٱلْبَصْرَةِ ٱلْغَنَا ٱلْمُعِزُّ بِيُمْنِ ٱللَّهِ فِيْ لَيْلَةٍ عَمَّتْ تَهَانِيْهَا
وَكُنْتُ مَا بَيْنَ مَنْ حَوْلَيْهِ مِنْ شُعَرَا ... ءِ ٱلْعُرْبِ بَصْرِيِّهَا ٱلذَّاكِيْ وَكُوْفِيْهَا
يَقُوْلُ : لَا تَكُ فِيْ بَذْلِ ٱلْعَطَاءِ حَيِيًّاً مَا يَقُلُّ فَخَيْرُ ٱلنَّاسِ سَاخِيْهَا

« المرء كثير بإخوانه »

إِحْفَظْ عُهُوْدَ ٱلأُلَى أَصْفُوْكَ وِدَّهُمُ ... مِنَ ٱلْأَحِبَّةِ دَانِيْهَا وَنَائِيْهَا
فَٱلْمَرْءُ يَكْثُرُ بِٱلْإِخْوَانِ إِنْ كَثُرَتْ ... بِهَا عَوَادِيْ ٱلْقَضَا ٱلسُّوءَى يُلَاقِيْهَا[2]
وَأَعْجَزُ ٱلنَّاسِ مَنْ أَعْيَتْهُ حِيْلَتُهُ ... عَنِ ٱكْتِسَابِ قُلُوْبِ ٱلنَّاسِ يَقْنِيْهَا[3]

---

(١) إنّ الحكمة لمأثورة عن سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام فهو ولا جدال سيد الحكماء وعنه تروى الحكمة في مواطن السرّاء والضرّاء وقد وردت الحكمة على لسانه الشريف في كثير من رسائله وخطبه وأقواله حتى قالوا إنّه كان ينطق بالحكمة في كلّ موطن أقام فيه ومجلس جلسه وموقف وقفه بل كانت جميع أقواله الشريفة وأعماله المنيفة حكماً مأثورة منبثقة عن توقد ذكاء وسعة تجربة واختبار ولقد جمع الشريف الرضي بعض هاتيك الحكم في آخر كتاب نهج البلاغة فكانت حلية في الآداب ملأى بما يسدّد خطى الناس إلى الرشاد والصواب وقد اقتبسنا بعضها فنظمناها حليةً لجيد علويتنا المباركة والأمل أن تعمَّ فائدتها وتحسن على القراء الأتقياء عائدتها وبالله المستعان .

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما قتل جعفر بمؤتة « المرء كثير بأخيه » .

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام : « أعجز الناس ، من عجز عن اكتساب الإخوان ، وأعجز منه ، من ضيع من ظفر به منهم » .

وَكَانَ أَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ أَضَاعَ صِحَا بَةً لَقَدْ صَدَقْتَهُ فِيْ تَآخِيْهَا

« حب الخلـود »

عَجِبْتُ لِلنَّاسِ تَغْنَى بِٱلْحَيَاةِ وَتَرْ جُوْ أَنْ تُخَلَّدَ فِيْهَا لاَ تُخَلِّيْهَا
وَهُمْ كَرَكْبٍ نِيَامٍ وَٱلزَّمَانُ بِهِمْ يَسْعَى وَسَاعَاتُهُ تَحْدُوْ ثَوَانِيْهَا [1]

« ربَّ أخ لم تلده أمك »

إِنْ لَمْ يُعِنْكَ عَلَى ٱلْأَخْطَارِ ذُو رَحِمٍ فَقَدْ يُعِنْكَ غَرِيْبٌ فِيْ تَوَقِّيْهَا
وَقِيْلَ رُبَّ أَخٍ يَحْنُوْ عَلَيْكَ وَلَمْ تَعْرِفْهُ أُمُّكَ يَوْمَاً فِيْ ذَرَارِيْهَا [2]
وَإِنْ أَضَاعَكَ فِيْ ٱلشِّدَّاتِ صَاحِبُكَ ٱلْأَ دْنَى أُتِيْحَ لَكَ ٱلْأَقْصَى لِتُقْصِيْهَا

« الصديق الخدَّاع »

قُلْ لِلَّئِيْمِ يُخْفِيْ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْـ ـبَغْضَاءَ وَٱلْحِقْدَ تَضْلِيْلاً وَتَمْوِيْهَا
لاَ بُدَّ مِنْ فَلْتَةٍ يَجْرِيْ ٱللِّسَانُ بِهَا عَفْوَاً فَتُظْهِرُ أَخْلاَقَاً تُخَفِّيْهَا [3]
وَٱلْوَجْهُ تَٱللَّهِ نَمَّامٌ بِصَاحِبِهِ عَلَى سَرِيْرَتِهِ لِلنَّاسِ يُبْدِيْهَا
وَقَلَّمَا يَخْدَعُ ٱلْإِخْوَانَ يَخْتِلُهَا إِلَّا إِلَى أَجَلٍ يُقْضَى مُمَارِيْهَا

---

(١) قال سيد الحكماء سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام : « أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام » .

(٢) قال صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام : « ربّ أخٍ لم تلده أمك » وقال عليه السلام : « من ضيعه الأقرب أتيح له الأبعد » .

(٣) قال الإمام علي عليه السلام : « ما أضمر أحد شيئاً ، إلاّ ظهر في فلتات لسانه ، وصفحات وجهه » .

« الحقُّ والباطــــــل »

خَيْرُ ٱلْعِبَادِ ٱلَّذِيْ قَدْ بَـاتَ يَنْصُرُ حَــــقَّ ٱللَّهِ فِيْ حَرْبِ مَنْ يَبْغِيْ ٱلتَّرَارِيْهَا
وَشَـرُّهُمْ مَنْ أَبَاطِيْـلُ ٱلْوَرَى نَصَـرُوا وَمَــالَئُوْا رَغْبَــةَ ٱلـدُّنْيَـا مُـوَالِيْهَـا
أَمَّـا ٱلْأُلَى خَذَلُـوْا حَقَّاً وَمَـا نَصَـرُوْا بُــطْلاً فَسَفِّهْهُمُ تَــاللَّهِ تَسْفِـيْهَـا[1]

« ان أفلت اللسان عقر »

إِنَّ ٱلـلِّسَـــانَ إِذَا أَطْلَقْتَــهُ لَحَكَـى مِنَ ٱلْوُحُوْشِ ٱلَّتِيْ تُؤْذِيْ ضَوَارِيْهَا[2]
فَيَعْقِـرُ ٱلنَّـاسَ عَفْـوَاً وَهْـوَ مُنْــطَلِقٌ فِيْ هَـذْرِهِ حَيْثُ يَبْغِيْ أَنْ يُـرَاشِيْهَـا

« اللسان يجلب الهوان »

صُنِ ٱللِّسَـــانَ وَحَـاذِرْ أَنْ تَفُــوْهَ بِـهِ لَغْــوَاً وَشَــرُّ عِبَــادِ ٱللَّهِ لَاغِيْهَــا[3]
وَمَنْ عَلَى نَفْسِـهِ يَسْـطُوْ بِــلَا حَـذَرٍ لِسَـانُـهُ فَهْــوَ فِيْ ٱلْإِهْـوَانِ مُلْقِيْهَـا

« العفو شكر القدرة »

إِنَّ ٱلْكَرِيْمَ يَصُوْنُ ٱلنَّفْسَ عَنْ نَـزَعَا تِ ٱللُّؤْمِ إِنْ قَهَـرَتْ يَوْمَـاً مُعَادِيْهَـا
تُلْفِيْـهِ يَصْفَـحُ حِلْمَـاً وَهْـوَ مُقْتَــدِرٌ عَلَى ٱلْعِدَى لَوْ يَشَا أَمْسَى مُلَاشِيْهَـا

---

(١) قال أبو الحسن عليه السلام في الذين اعتزلوا القتال معه في صفين : « خذلوا الحقّ ولم ينصروا الباطل » فذهبت كلمته مثلاً وحكمةً .

(٢) قال سيدنا أبو الحسنين عليه السلام : « اللسان سبع إن خُلي عنه عقر » .

(٣) قال سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام : « هانت عليه نفسه مَن أمَّر عليه لسانه » .

وَيَجْعَلُ ٱلْعَفْوَ شُكْرَ ٱلْإِقْتِدَارِ عَلَيْـــهَا حَامِدَاً لِمُقَوِّيْهِ وَمُوْهِيْهَا[1]

« مخالطـــة النــاس »

خَيْرُ ٱلْخَلاَئِقِ مَنْ كَانَتْ خَلاَئِقُهُ مَحْمُوْدَةً قَدْ تَنَاهَتْ فِيْ تَسَامِيْهَا
يُخَالِطُ ٱلنَّاسَ بِٱلْحُسْنَى مُخَالَطَةً يَسُرُّ ظَاهِرُهَا ٱلْبَادِيْ وَخَافِيْهَا[2]
فَإِنْ يَمُتْ تَبْكِهِ حِزْنَاً عَلَيْهِ وَإِنْ يَعِشْ يَفُزْ بِجَلِيْلٍ مِنْ تَمَنِّيْهَا

« الدنيـا وأهلـها »

يَا أَهْلَ وُدِّيْ هِيَ ٱلدُّنْيَا ٱلْغَرُوْرُ فَمَا مِنْهَا أَمَانٌ وَلاَ صَفْوٌ لِأَهْلِيْهَا
نَعَمْ فَإِنْ أَقْبَلَتْ يَوْمَاً عَلى فِئَةٍ تُعِيْرُهَا مِنْ صِفَاتِ ٱلْغَيْرِ زَاهِيْهَا[3]
أَمَّا إِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهَا فَتَسْلِبُهَا مَحَاسِنَاً عُرِفَتْ بَيْنَ ٱلْوَرَى فِيْهَا

« من رضي من نفسه كثر الساخط عليه »

بِٱلنَّفْسِ لاَ تَغْتَرِرْ يَا صَاحِ فَهْيَ مَطِيَّـــةُ ٱلْغُرُوْرِ وَحَاذِرْ أَنْ تُجَارِيْهَا
وَلاَ تَكُنْ رَاضِيَاً عَنْهَا فَيَسْخَطُ أَكْـــثَرُ ٱلْأُلَى نِلْتَ مِنْهُمْ فِيْ تَرَضِّيْهَا[4]

---

(١) قال المرتضى عليه السلام : « إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه » .

(٢) قال أبو الحسنين عليه السلام : « خالطوا الناس مخالطةً ، إن متم معها بكوا عليكم ، وإن عشتم حنوا إليكم » .

(٣) قال سيدنا علي عليه السلام : « إذا أقبلت الدنيا على قوم ، أعارتهم محاسن غيرهم ، وإذا أدبرت عنهم ، سلبت محاسن أنفسهم » .

(٤) قال سيف الله الغالب عليه السلام : « من رضي من نفسه كثر الساخط عليه » .

« المسالمة خبء العيوب »

مَنْ سَالَمَ آلنَّاسَ يَسْلَمْ مِنْ عَـداوَتِها   فَـلَمْ تَنَـلْهُ بِفِـيْهَـا فِـيْ نَـوَادِيْـهَـا
وَفِيْ آلْمُسَالَمَةِ آلْحَسْنَـاءِ خِبْءُ عِيُوْ   بِ آلْمَـرْءِ فَهْـوَ أَمِيْنٌ مِنْ تَفَشِّيْهَـا(١)

« القناعـــة مال لا ينفد »

مَـا لِلْغَنِيِّ وَأَلْفَيْـهِ عَلى طَـلَبِ آلْأَ   مْـوَالِ مُنْعَكِفَـاً يَـعْنَـى لِيَـجْنِيْـهَـا
أَظَـنَّ يَحْـيَـا خُلُوْدَاً أَمْ بِـهِ عَـمَـهُ   عَنِ آلـرَّزَايَـا آلَّتِيْ حَـوْلَيْـهِ يُلْفِيْهَـا
وَفِيْ آلْقَنَـاعَـةِ مَـالٌ لاَ نَفَـادَ لَـهُ   لَدَى آلْحَكِيْمِ إِذَا مَا بَاتَ رَاضِيْهَا(٢)

« المنى والمنـــون »

لاَ تَشْتَـغِـلْ بِـأَمَـانٍ لاَ تُنَـالُ فَـإِ   نَّ آلنَّفْسَ لاَ تَنْقَضِيْ يَـوْمَـاً أَمَـانِيْهَـا
وَمَنْ جَرَى فِيْ مَيَادِيْنِ آلْمُنَى صَدَمَتْــــهُ   فَاجِعَاتُ آلْمَنَـايَا وَهْـوَ نَاسِيْهَـا(٣)

« الزهـــد ثـروة »

إِنْ لَمْ تَفُـزْ بِكُنُوْزِ آلْأَرْضِ تَكْنِـزُهَـا   فَـآزْهَـدْ بِهَـا وَتَـرَفَّـعْ عَنْ مُحِبِّيْهَـا
وَآلزُّهْدُ لِلْمُـدْرِكِ آلْمَحْرُوْمِ أَكْبَـرُ ثَرْ   وَةٍ عَلى رَغْمِ أَنْفِ آلدَّهْرِ يَقْنِيْهَـا(٤)

---

(١) قال يعسوب الدين عليه السلام : « المسالمة خبء العيوب » .

(٢) قال صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام : « القناعة مال لا ينفد » .

(٣) قال صنو المصطفى عليهما الصلاة والسلام : « من جرى في عنان أمله ، عثر بأجله » .

(٤) قال وصي رسول الله عليهما الصلاة والسلام : « الزهد ثروة » .

« السـلامة في التسـيلم »

سَلِّمْ أُمُـورَكَ لِلْخَـلَّاقِ مُـعْتَمِـداً عَلَيْـهِ فَهْـوَ عَلى مَـا شَـاءَ يُمْشِيْهَـا

وَلِـلْمَقَـادِيْـرِ أَحْكَـامٌ مُـنْـفَّـذَةٌ عَلى ٱلْخَـلَائِقِ تَجْرِيْ فِيْ مَجَـارِيْهَا

لَهَـا تَـذِلُّ أُمُـوْرُ ٱلنَّـاسِ أَجْمَعِهَـا حَتَّى لَتَعْجَـزَ عَجْـزاً عَنْ تَـوَقِّيْهَـا(١)

«صـدر العاقل صندوق سـره»

صِنْ فِيْ سَرِيْرَتِكَ ٱلْأَسْرَارَ لَا تَكُ ثَرْ ثَـاراً تَفُـوْهُ بِهَـا لِلنَّـاسِ تَـرْوِيْهَـا

وَإِنْ أَمِنْتَ عَلَيْهَـا ٱلْغَيْـرَ عَنْ سَفَـهٍ فَـلَا تَـلُمْـهُ إِذَا مَـارَاحَ يُفْشِيْـهَـا

وَصَـدْرُ رَبِّ ٱلنُّهَى لِلسِّـرِّ يَـجْعَـلُهُ خِـزَانَـةً وَيَعِيْـهِ فِيْ مَـطَاوِيْهَـا(٢)

« الصـــبر »

أُصْبُرْ فَفِيْ ٱلصَّبْرِ مُنْجَاةٌ مِنَ ٱلْغِيَرِ ٱلْـ ـلَتِيْ دَهَتْ رَيْثَمَـا بِـٱلصَّبْـرِ تُقْصِيْهَـا

وَٱصْبُـرْ أُخَيَّ عَلى مَـا أَنْتَ تَكْـرَهُـهُ وَعَنْ أَمَانٍ مَضَتْ قَدْ كُنْتَ رَاجِيْهَا(٣)

« عيبك مستور ما أسعدك جدُّك »

إِنْ أَسْعَـدَ ٱلْجَـدُّ إِنْسَـانَـاً وَأَسْعَفَـهُ أَخْفَى مَعَـائِبَـهُ عَنْ عَيْنِ رَائِيْهَـا(٤)

---

(١) قال إمام المتقين عليه صلوات الله« تذلُّ الأمـور للمقاديـر ،حتى يكون الحتف في التدبير » .

(٢) قـال إمام المتقين عليه السلام : « تـذلُّ الأمور للمقـاديـر ، حتى يكـون الحتف في التدبير » .

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام : « صدر العاقل صندوق سرّه » .

(٤) قـال المرتضى عليه السلام :« الصبـر صبران ، صبـر على ما تكره، وصبـر عمّـا تحبُّ ».

وَبَاتَ وَٱلنَّاسُ طُـرًّا عَنْهُ رَاضِيَـةٌ تَـرْوِيْ مَحَاسِنَـهُ ٱلْغَـرَّا وَتُـطْرِيْهَـا

« قيمة كل امرءٍ ما يحسنه »

لَا تَفْتَخِرْ بِعِظَامٍ يَـا أَخِيْ نَخِرَتْ إِنْ كُنْتَ تُنْمَى إِلَى مَاضِيْ تَعَالِيْهَا[1]

فَقِيْمَـةُ ٱلْمَرْءِ مَـا قَـدْ رَاحَ يُحْسِنُـهُ فَـٱنْظُرْ لِنَفْسِكَ وَٱفْخَـرْ فِيْ مَـآتِيْهَـا

« وأمّا بنعمة ربّك فحدّث »

يَـا صَاحِبِي لَا تُضِـعْ لِلَّهِ أَنْعُمَـهُ وَكُنْ لِقَـوْمِكَ بِـٱلشُّكْرَانِ مُبْـدِيْهَا[2]

وَحَـدِّثَنَّ بِهَـا ٱلْإِخْـوَانَ مُفْتَخِـرَاً مِنْ غَيْـرِ زَهْـوٍ وَحَـاذِرْ أَنْ تُـوَارِيْهَـا

« لم يذهب من مالك ما وعظك »

مَا ضَاعَ مَـالٌ لَقَدْ أَصْبَحْتَ مُخْتَبِـرَاً بِـهِ ٱلْخَسَـائِـرَ وَٱلْأَرْبَـاحَ دَارِيْهَـا[3]

إِنَّ ٱلْخِسَـارَةَ إِنْ تَذْهَى ٱلْفَتَى وَبِهَـا قَـدْ بَـاتَ مُتَّعِـظَاً فَـٱلـرِّبْحُ تَـالِيْهَـا

« البشاشة حبالة المودَّة »

إِنَّ ٱلْمَـوَدَّةَ فَـٱعْلَمْ مَـا حِبَـالَتُهَـا إِلَّا ٱلْبَشَاشَةَ كُنْ صَاحِ ٱلْمُهَيِّيْهَا[4]

---

(١) قال أمير المؤمنين عليه السلام : « قيمة كلّ امرءٍ ما يحسنه » .

(٢) قال الله سبحانه في كتابه العزيز : ﴿ **وأمّا بنعمة ربّك فحدّث** ﴾ وقال سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام : « لا تضيّعنَّ نعمةً من نعم الله عندك ، وليُرَ عليك أثر ما أنعم الله به عليك » أقول ولا غروَ أن يتشابه القولان والمرتضى ربيب كتاب الله متأدّب بأدبه .

(٣) قال إمام الراشدين عليه السلام : « لم يذهب من مالك ما وعظك » .

(٤) قال أبو تراب عليه السلام : « البشاشة حبال المودة » .

وَصِلْ بِهَا أَنْفُسَاً تَخْشَى عَدَاوَتَهَا وَأَنْفُسَاً تَتَمَنَّى أَنْ تُصَافِيْهَا

« أيها الطبيب اشف نفسك »

إِنَّ ٱلَّذِيْ يَتَصَدَّى لِلْإِمَامَةِ كَيْ يُعَلِّمَ ٱلنَّاسَ أَوْ كَيْمَا يُرَبِّيْهَا[1][2]

فَنَفْسُهُ أَوَّلًا يَبْدَا بِهَا فَيُرَبِّيْهَا وَعَنْ كُلِّ مَا يُزْرِيْ يُنَحِّيْهَا

وَلْيَجْعَلِ ٱلْمَثَلَ ٱلْمَحْمُوْدَ سِيْرَتَهُ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَضْرِبَ ٱلْأَمْثَالَ يَرْوِيْهَا

إِنَّ ٱلَّذِيْ نَفْسَهُ رَبَّى لَأَخْلَقُ بِٱلْإِجْلَالِ مِمَّنْ يُرَبِّي ٱلنَّاسَ يَهْدِيْهَا

« خير الوصايا »

أُوْصِيْكَ يَا ٱبْنِيْ خِلَالًا لَوْ عَمِلْتَ بِهَا لَبِتَّ أَوْسَعَ خَلْقِ ٱللَّهِ تَرْفِيْهَا[2]

لَا تَرْجُوَنَّ سِوَى بَارِيْكَ مُضْطَلِبَاً مِنْهُ رَغَائِبَكَ ٱلْحَسْنَا لِتُلْفِيْهَا

وَلَا تَخَفْ غَيْرَ مَا قَدْ كُنْتَ جَانِيَهُ مِنَ ٱلذُّنُوْبِ ٱلَّتِيْ مَا فَازَ جَانِيْهَا

لَا تَسْتَحِ ٱلْقَوْلَ لَا أَدْرِيْ إِذَا سَأَلُوْكَ عَنْ أُمُوْرٍ بِحَقٍّ لَسْتَ تَدْرِيْهَا

وَسَلْ بِلَا وَجَلٍ مَا أَنْتَ جَاهِلُهُ مِنَ ٱلْأُمُوْرِ ٱلَّذِيْ تَدْرِيْهِ وَاعِيْهَا

---

(١) قال سيد الواعظين عليه السلام : « من نصب نفسه للناس إماماً ، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه ، قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته ، قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها ، أحقُّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

(٢) قال سيف الله الغالب سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام : « أوصيكم بخمس ، لو ضربتم إليها آباط الإبل ، لكانت لذلك أهلاً ، لا يرجونَّ أحد منكم إلاّ ربَّه ، ولا يخافنَّ إلاّ ذنبه ، ولا يستحينَّ أحد منكم إذ سئل عمّا لا يعلم ، أن يقول لا أعلم ، ولا يستحينَّ أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه ، وعليكم بالصبر فإنَّ الصبر من الإيمان ، كالرأس من الجسد ، ولا خير في جسد لا رأس معه ، ولا في إيمان لا صبر معه » .

وَقَـابِلَنَّ بِصَبْرِ ٱلْمُـؤْمِنِيْنَ مَصَـا ئِبَ ٱلـزَّمَـانِ إِذَا يَـدْهَـاكَ دَاهِيْهَـا
هٰـذِيْ وَصَـايَـا أَمِيْرِ ٱلْمُؤْمِنِيْنَ عَلٰى عُشَّـاقِهِ أَنْ يَعُـوْا غَـرًّا فَحَـاوِيْهَـا
وَأَنْ يَؤُمُّـوْا عُـلَاهُ مُـرْتَجِيْنَ رِضَـا هُ مَـعْ شَفَـاعَتِـهِ وَهْـوَ ٱلْمُؤَدِّيْهَـا

« الهيبة والحيـاء »

مَنِ ٱسْتَحَى مِنْ تَقَاضِيْ حَقِّهُ لَشَكَى ٱلْحِرْمَانِ شَكْوَى أَخُوْ ٱلْحِرْمَانِ يَدْرِيْهَا[1]
وَمَنْ يَهَبْ دَهْـرَهُ مَـا نَـالَ حَـاجَتَـهُ وَخَابَ فِيْ كُلِّ رَجْـوَى رَاحَ رَاجِيْهَا

« الجبـــن منقصـــة »

إِنَّ ٱلشَّجَاعَةَ يَلْقَى ٱلْفَخْـرَ صَاحِبُهَـا مِنْ قَوْمِهِ حَيْثُ يُمْسِيْ وَهْـوَ حَامِيْهَـا
وَٱلْجُبْنُ مَنْقَصَـةٌ فِيْ ٱلْمَـرْءِ تَجْعَلُهُ أَحَطَّ أَقْـرَانِـهِ أَدْنَـى أَدَانِيْـهَـا[2]

« العقل والجهل والأدب والمشورة »

خَيْرُ ٱلْغِنَى ٱلْعَقْلُ مَا نَفْعُ ٱلْغَنِيِّ إِذَا مَـا كَانَ مُخْتَلِطَ ٱلْأَفْكَـارِ سَاهِيْهَـا[3]
وَٱلْجَهْلُ فَقْرٌ وَإِنْ كَانَ ٱلْجَهُوْلُ غَنِيّـــاً جَـامِعَـاً بُـدَرَ ٱلْأَمْـوَالِ قَـانِيْهَـا
وَإِنَّمَا ٱلْأَدَبُ ٱلْمَحْمُوْدُ أَفْضَلُ مَا ٱلآ بَـاءُ قَـدْ وَرَّثَـتْ يَـوْمَـاً ذَرَارِيْهَـا

---

(١) قـال وصيّ المصطفى عليهمـا الصلاة والسـلام : « قرنت الهيبـة بـالخيبـة . والحياء بالحرمان » .

(٢) قال الإمام علي عليه السلام : « الجبن منقصة » .

(٣) قال سيدنا حيدرة عليه السلام : « لا غنى كالعقل ، ولا فقـر كالجهـل ، ولا ميراث كالأدب ، ولا ظهير كالمشاورة » .

وَإِنَّ مَشْوَرَةَ ٱلْإِخْوَانِ أَفْضَلُ عَوْ نٍ لِلْعِبَادِ إِذَا نَقَّتْ مُشِيْرِيْهَا

« الإفراط والتفريط »

لَا تَسْرِفَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ ذَا رَشَدٍ فِيْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ بِتَّ ٱلْمُعَانِيْهَا[1]
فَلَا تَرَى جَاهِلًا إِلَّا يُفَرِّطُ فِيْ أَعْمَالِهِ أَوْ تَرَاهُ مُفْرِطاً فِيْهَا

« صروف الدهر »

يُجَدِّدُ ٱلدَّهْرُ فِي ٱلنَّاسِ ٱلرِّغَابَ وَيُخْـ ـلِقُ ٱلْجُسُوْمَ فَتَدْنُوْ مِنْ تَلَاشِيْهَا[2]
وَهْوَ ٱلْمُقَرِّبُ لِلنَّفْسِ ٱلْمَنِيَّةَ إِذْ يُنْئِي بِلَا رَحْمَةٍ عَنْهَا أَمَانِيْهَا
وَإِنَّ قَوْمَاً تَوَلَّاهَا لَقَدْ شَقِيَتْ بِهِ وَإِنْ صَدَّ عَنْهَا فَهْوَ مُشْقِيْهَا

« المرء وعمله »

وَإِنَّمَا ٱلْحَسَبُ ٱلْمَوْرُوْثُ تَالِدُهُ يَزْدَادُ بِٱلطَّارِفِ ٱلْمَكْسُوْبِ تَوْجِيْهَا
وَلَيْسَ يُسْرِعُ بِٱلْإِنْسَانِ سُؤْدُدُهُ إِلَى ٱلْمَعَالِيْ ٱلَّتِيْ مَا ٱنْفَكَّ يَبْغِيْهَا[3]
إِنْ أَبْطَأَتْ وَهْوَ مِكْسَالٌ فَعَائِلُهُ عَنْهَا بِهِ بَلْ بَعِيْدٌ أَنْ يُدَانِيْهَا

« المقلُّ غريب في بلدته »

عَجِبْتُ لِلنَّاسِ تَهْوَى ٱلْمَالَ تَعْبُدُهُ كَأَنَّمَا هُوَ دُوْنَ ٱللَّهِ كَافِيْهَا

---

(١) قال سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام : « لا ترى الجاهل إلّا مفرطاً أو مفرّطاً » .

(٢) قال حيدرة عليه السلام : « الدهر يخلق الأبدان ، ويجدّد الآمال ، ويقرّب المنية ، ويباعد الأمنية ، من ظفر به نصب ، ومن فاته تعب » .

(٣) قال سيدنا أبو الحسن عليه السلام : « من أبطأ به عمله ، لم يسرع به حسبه » .

تَجْفُـوْ ٱلْفَقِيْرَ وَتَحْفَى بِـٱلسَّـرِيِّ وَلَا ... تَهُمُّهَـا غَيْـرُ أَنْ تَـدْنُـوْ لِمُثْـرِيْهَـا
فَكَمْ غَنِيٍّ يَـرَى فِيْ وَسْطِ غُـرْبَتِـهِ ... أَحِبَّـةً تَتَمَنَّـى لَـوْ يُـصَـافِيْهَـا
وَكَمْ مُقِـلٍّ غَـرِيْـبٍ وَسْطَ بَلْدَتِـهِ ... مَـا مِنْ صَدِيْقٍ لَـهُ مَا بَيْنَ أَهْلِيْهَـا[1]

« المبذرون إخوان الشياطين »

مَا بَيْنَ بُخْلِ ٱلْفَتَى بُخْـلاً يُشَانُ بِـهِ ... وَبَيْنَ تَبْـذِيْـرِهِ ٱلْأَمْـوَالَ يُفْـنِيْـهَـا
تَـٱللَّهِ مَـرْتَبَـةٌ وُسْـطَى يَنَـالُ بِهَـا ... مَفَـاخِرَاً ذُوْ ٱلْحِجَى وَٱلـدِّيْنِ يَبْغِيْهَـا
فَـلَا تَدَعْ يَـدَاكَ ٱلْمَلْأَى بِـأَصْفَـرِهَـا ... لِلْعُنْقِ مَغْلُوْلَـةً شُحّـاً بِمَـا فِيْهَـا[2]
وَلَا تَكُنْ مُسْـرِفَـاً لِلنَّـاسِ تَبْسُـطُهَـا ... فَـإِنَّ بَسْـطَتَهَـا مَـا ٱللَّهُ رَاضِيْهَـا
وَٱلْمُسْـرِفُـوْنَ لَإِخْـوَانٌ بِغَيْـرِ جِـدَا ... لٍ لِلشَّيَـاطِيْنِ فَاحْـذَرْ أَنْ تُؤَاخِيْهَا[3]
وَكُنْ سَمُـوْحَـاً وَحَـاذِرْ أَنْ تَكُـوْنَ مُبَـ ... ـذِّرَاً بِجَـدْوَاكَ إِنْ وَافَـاكَ رَاجِيْهَـا[4]
وَلَا تُـقَتِّـرْ وَقَـدِّرْ مَـا تَـجُـوْدُ بِـهِ ... عَلَى ٱلْعَـوَافِيْ فَتَهْنَـا ثُمَّ تُهْـنِيْـهَـا

---

(١) قال أستاذ البلغاء وأمير النصحاء عليه السلام : « المقلُّ غريب في بلدته » .

(٢) قال الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيـز : ﴿ **ولا تجعل يـدك مغلولةً إلى عنقـك ، ولا تبسطها كلَّ البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً** ﴾ .

(٣) قال الله سبحانه في هديه : ﴿ **إنّ المبذرين ،كانوا إخوان الشيـاطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً** ﴾ .

(٤) قـال سيـدنـا أميـر المؤمنين عليه السلام : « كن سمحـاً ، ولا تكن مبـذراً ، وكن مقدراً ، ولا تكن مقتراً » .

« إذا لم يكن ما تريد فلا تبلُ كيف تكون »

إنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ يَا آبْنِي مَا أَنْتَ رَاغِبُهُ فَلَا تُبَالِ بِحَالٍ كَيْفَ تُلْفِيْهَا[(١)]
فَإِنَّمَا يَغْلِبُ آلْأَيَّامَ يَقْهَرُهَا مَنْ رَاحَ يَرْضَى وَلَا يَجْفُو مَآتِيْهَا

« الشكوى لغير الله مذلة »

أَنْ نَالَكَ آلدَّهْرُ يَوْماً بِآلْمَصَائِبِ فَآكْتُمْهَا وَلَا تَكُ لِلْإِخْوَانِ مُبْدِيْهَا[(٢)]
فَإِنَّ مَنْ نَالَهُ ضَرٌّ وَأَظْهَرَهُ فَقُلْ مَذَلَّتُهُ قَدْ بَاتَ رَاضِيْهَا
وَكُلُّ شَكْوَى لِغَيْرِ آللَّهِ ذَاهِبَةٌ سُدًى وَمَا نَالَ غَيْرَ آلذُّلِّ شَاكِيْهَا[(٣)]

« من حذَّرك كمن بشرك »

إِنَّ آلَّذِي جَاءَ بِآلتَّحْذِيْرِ يَطْلُبُ أَنْ يُنْجِيْكَ مِنْ غِيَرِ آلْأَيَّامِ تَتَّقِيْهَا[(٤)]
كَمَنْ يَجِيْئُكَ بِآلتَّبْشِيْرِ يَطْلُبُ أَنْ تَهْنَا بِنُعْمَى وَشِيْكٌ أَنْ تُلَاقِيْهَا
بَلِ آلْمُحَذِّرُ مَا فَوْقَ آلْمُبَشِّرِ إِحْسَاناً بِقَوْلَةِ صِدْقٍ رَاحَ مُلْقِيْهَا

---

(١) قال سيد الوعّاظ والمرشدين عليه السلام : « إذا لم يكن ما تريد فلا تبلُ كيف تكون » وهذا القول العلوي الشريف لقد جهل الكثيرون مغزاه وهم يحفظون عن الحكماء قولهم : « إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون » على أن قول سيدنا علي عليه السلام أبعد مرمى وأبلغ نصحاً ومعناه إذا لم يكن لك يا صاح ما تريده فلا تبلُ أي لا تكترث بالحال التي تكون فيها مهما صعبت ولا تحمل لذلك هماً .

(٢) قال سيدنا علي عليه السلام : « رضي بالذل من كشف ضرَّه » .

(٣) قال سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام : « الشكوى لغير الله مذلة » .

(٤) قال سيدنا المرتضى عليه السلام : « من حذَّرك كمن بشرك » .

بِهَــا ٱلْفَتَى يَتَـلاَفَى دَاهِمَــاتِ أَذىً   لَــوْلاَ مُحَــذِّرُهُ صَعْـبٌ تَـلاَفِيْـهَــا

« ذوو المروات »

ذَوُوْ ٱلْمَـرُوْآتِ أَهْـلٌ لِاٰحْتِـرَامِ عِبَـا   دِ ٱللَّهِ يُكْــرِمُهُمْ تَــاٰلـلَّهِ تَــاقِيْـهَــا
فَــإِنْ هُمُ عَثِـرُوْا لاَ شَــكَّ عَثْـرَتُهُمْ   تُقَــالُ وَٱللَّهُ رَاضٍ عَنْ مُقِيْلِيْهَــا[1]
وَإِنَّ عَــاثِــرَهُمْ بَــارِيْــكَ يُنْهِضُــهُ   مِنْ هَـوْلِ عَثْـرَتِـهِ حَتَّى يُخَطِّيْهَــا

« البخــل عــار »

جُـدْ بِٱلنِّضَـارِ فَـإِنَّ ٱلْجُـوْدَ مَحْمَـدَةٌ   وَأَفْضَـلُ ٱلنَّاسِ عِنْـدَ ٱللَّهِ سَاخِيْهَـا
وَٱلْبُخْلُ عَارٌ وَرَبُّ ٱلْبُخْلِ عُرْضَةُ لَوْ   كِ ٱلنَّاسِ فَلْيَحْذَرِ ٱلْمِثْرِيُّ لاَكِيْهَا[2]

« الفقير أخرس »

إِذَا أَتَــاكَ أَخُــوْ عِسْــرٍ بِحَــاجَتِـهِ   فَكُنْ وَإِنْ لَمْ يَجُـلْ فِيْهَــا مُلَبِّيْـهَــا
فَٱلْفَقْرُ يُخرِسُ عَنْ حَاجَاتِهِ ٱلْفَطِنَ ٱلْــــمِلْسَانَ فَهْـوَ لَعِيٌّ فِيْ تَـرَجِّيْهَـا[3]

« دوام النعــم »

إِنْ كَــانَ رَبُّـكَ قَــدْ أَوْلاَكَ نِعْمَتَــهُ   وَلَمْ تَكُنْ طَائِعاً يَـا صَاحِ مُـوْلِيْهَا[4]

---

(١) قــال سيـف الله الغـالب علي بن أبي طـالب عليه السلام : « أقيلوا ذوي العثـرات عثراتهم ، فما يعثر منهم عاثر ، إلاّ ويده بيد الله يرفعه » .

(٢) قال أخو المصطفى عليهما الصلاة والسلام : « البخل عار » .

(٣) قال إمام الحكماء عليه السلام : « الفقير أخرس » .

(٤) قال سيد الناصحين عليه السلام : « يا ابن آدم ، إذا رأيت ربّـك سبحانـه وتعالى ، يتابع عليك نعمه ، وأنت تعصيه ، فاحذره » .

فَٱحْذَرْهُ لاَ تَتَمَادَى فِيْ ٱلْعَصَاوَةِ فَٱلـــــرَّحْمٰنُ يُحْرِمُكَ ٱلنُّعْمَى وَيُقْصِيْهَا

« التكفيــر عن الذنــوب »

غِثْ يَا أَخَا ٱلْفَضْلِ مَلْهُوْفاً وَكَرْبَتُهُ   نَفِّسْ وَحَقِّقْ مُنَى قَدْ جَاءَ يُسْدِيْهَا[1]
بِــذَا تُكَفِّرُ عَنْ شَتَّى ذُنُــوْبِكَ عِنْـــدَ ٱللَّهِ حَاضِرِهَا ٱلْمُخْزِيّ وَمَاضِيْهَا

« الصــبر شجــاعة »

أُصْبُرْ عَلَى مَضَضِ ٱلْأَيَّامِ صَبْرَ كَرِيْـــمٍ حَـازِمٍ لَمْ يَهَبْ فَاجِيْ لَيَـالِيْهَـا
فَـإِنَّمَـا أَشْجَـعُ ٱلشُّجْعَـانِ أَصْبَـرُهَـا   عَلَى ٱلْمَكَـارِهِ قَاسِيْهَـا وَدَاهِيْهَـا[2]

« انتهـاز الفـــرص »

بَادِرْ إِلَى فُرَصِ ٱلْخَيْرَاتِ مَا سَنَحَتْ   وَلاَ تَنَمْ يَــا ٱبْنَ وُدِّيْ عَنْ تَــوَلِّيْهَــا
فَـإِنَّمَـا فُـرَصُ ٱلْخَيْـرَاتِ أَسْـرَعُ مَـا   تَمُـرُّ مَـرَّ سِحَـابِ ٱلْأُفْقِ صَيْفِيْهَـا[3]

مســك الختــام

يَا أُمَّةَ ٱلْمُصْـطَفَى يَا مَنْ أَعِيْشُ لَهَـا   وَلَـسْتُ أَرْغَبُ إِلاَّ فِيْ تَـعَـالِيْـهَــا
إِلَيْـكِ مَلْحَمَتِيْ بِـٱسْمِ ٱلْمُعِـزِّ أَمِيْــــرِ ٱلْعُـرْبِ قَدْ جُلِيَتْ غَـرًّا قَـوَافِيْهَـا

---

(١) قال الإمام علي عليه السلام : « من كفّارات الذنوب العظام ، إغاثة الملهوف ، والتنفيس عن المكروب » .

(٢) قال سيدنا ومولانا سيف الله الغالب عليه السلام : « الصبر شجاعة » .

(٣) قال سيدنـا المرتضى عليه السلام : « الفـرصة تمـرُّ مرَّ السحـاب ، فانتهـزوا فرص الخير » .

جَمعْتُ فِيْهَا حَدِيْثاً كُلُّهُ عِبَرٌ تُفِيْدُ قَارِءَهَا رُشْداً دَرارِيْهَا

مُبَيِّناً كَيْفَ قَدْ نَادَى ٱلرَّسُوْلُ إلى ٱلْـ ـهُدَى ٱلْخَلاَئِقَ عُرْبِيْهَا وَعُجْمِيْهَا

وَكَيْفَ قَدْ نَاوَءَتْ بِٱلْجَهْلِ دَعْوَتَهُ قُرَيْشُ وَهْوَ آبْنُهَا لِلْخَيْرِ دَاعِيْهَا

وَكَيْفَ قَدْ أَعْرَضَتْ عَنْ نُوْرِ شِرْعَتِهِ لَمَّا أَضَاءَ لِتَبْقَى فِيْ دَيَاجِيْهَا

وَكَيْفَ بِٱلصَّبْرِ قَدْ دَاسَ ٱلْمَصَاعِبَ حَتَّـ ـى ٱلْحَقُّ أَزْهَقَ فِيْ ٱلدُّنْيَا ٱلتَّرَارِيْهَا

وَكَيْفَ كَانَ جِهَادُ ٱلْمُخْلِصِيْنَ عَظِيْـ ـمَاً فِيْ نَتَائِجِهِ ٱلْبَادِيْ تَجَلِّيْهَا

وَكَيْفَ كَانَ عَلِيٌّ خَيْرَ صَحْبِ رَسُوْ لِ ٱللَّهِ يَلْقَى أَعَادِيْهِ وَيُفْنِيْهَا

وَإِنَّ آثَارَهُ فِيْ ٱلدِّيْنِ خَالِدَةٌ عَلَى ٱلْمَدَى خَيَّبَ ٱلْبَارِيْ مُضِيْعِيْهَا

فَمَنْ تَدَبَّرَ حِرْمَانَ ٱلْوَصِيِّ حُقُوْ قَهُ ٱلَّتِيْ ٱلشَّرْعُ رَاضِيْهَا وَمُمْضِيْهَا

وَصَبْرَهُ وَهْوَ مَظْلُوْمٌ عَلى غِيَرِ ٱلأ يَّامِ حَتَّى غَدَا تَٱللَّهِ مُعْيِيْهَا

وَظَلَّ أَصْدَقَ أَهْلِ ٱلدِّيْنِ أَجْمَعِهِمْ سَعْيَاً لِأُمَّتِهِ يَبْغِيْ تَرَقِّيْهَا

هَانَتْ عَلَيْهِ حُقُوْقٌ مِنْهُ ضَائِعَةٌ بِنَفْسِ حُرٍّ تَنَاهَتْ فِيْ تَفَانِيْهَا

نَعَمْ فَأُسْوَتُنَا بِٱلصَّبْرِ حَيْدَرَةٌ وَكُلُّ نَفْسٍ بِهِ تُلْفِيْ تَأَسِّيْهَا

كَذَاكَ قَدْ كَانَ بِٱلْإِقْدَامِ قُدْوَتَنَا عَلى ٱلصِّعَابِ فَلَمْ يَرْهَبْ تَوَلِّيْهَا

فَلْنَتَّبِعْ خَطَوَاتِ ٱلْمُرْتَضَى لِنَنَا لَ ٱلْمَجْدَ مَا نَالَهُ إِلَّا مُخَطِّيْهَا

وَيَا بَنِيْ ٱلْعَرَبِ ٱلْأَجْوَادِ زَادَكُمُ رَبِّيْ بِنَهْضَتِكُمْ مَجْداً وَتَجْوِيْهَا

أَرَدْتُ خَيْرَكُمُ فِيْ نَظْمِ مَلْحَمَتِيْ وَهَا إِخَالُكُمْ تَسْتَنْشِدُوْنِيْهَا

استدراك واعتذار ورجاء

لا يدرك الشوق إلاّ من يكابده ولا الصبابة إلاّ من يعانيها

توليت الإشراف على طبع هذه القصيدة المباركة بالشكل الكامل بنفسي وفي أثناء رجوعي إليها رجوعاً أبدل شكلها تماماً عمّا نشرته منها في العمران وضاعف فصولها وأبياتها ولذلك ما استطعت مع كل ما بذلت من الجهد إخراجها سليمةً من الأغلاط المطبعية أو الأغلاط التي ذلَّ بها القلم من غير انتباه لتراكم العمل عليَّ بين نظم وتأليف ومراجعة التواريخ العديدة وتبييض وتصحيح الأمثلة الأولى قبل الطبع وما كان يتعذَّر عليَّ الرجوع إلى هذه الأغلاط وتصحيحها بجدول على ما يفعل غيري لولا أنني وجدت العمل يستغرق وقتاً آخر لا متسع أمامي له وما هذه الأغلاط بذات شأنٍ جوهري بل أكثرها بديهية يدركها القارىء اللبيب عند مروره عليها وجلّها أغلاط في بعض الحركات حدث معظمها عن سقوطها أو كسرها وتصرّف العامل بوضع بدلها من غير مراجعتي ومنها ما فات عليَّ أنا ولا نكران للحقّ وجلَّ من لا يخطىء وأنني لأرجو أن تكون الطبعة التالية أكثر دقةً وأوفرَ صحةً سواءً في الأغلاط المطبعية أو غير المطبعية أو فيما فاتني من المواضيع التاريخية ولا سيما في التراجم .

ولا بدَّ لي من استلفات أنظار أهل الفضل إلى حقيقة يخلق الجهر بها وهي أنني كنت أنظم هذه القصيدة المباركة وأعلق حواشيها بروح إخلاص وصداقة منزَّهة عن جميع المؤثّرات الأخرى التي يتعرَّض لها الآخرون فإذا تدبر المنصفون هذا أصاغوا لي عذراً إذا ما رأوا فيما ذهبت إليه ما يخالف أهواءَهم وأغراضهم والكريم يعذر والله سبحانه من وراء النيات ولا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها .

ثمَّ إنّني أرجو كلَّ منصفٍ غيور من أهل العلم والأدب وحفظة التاريخ أن لا يبخلوا عليّ بنقد هذه القصيدة المباركة من الوجهتين الأدبية والتاريخية لاستدراك ما

فـاتني في طبعة أخـرى تكـون أتمَّ من هـذه وأدقَّ إن شـاء الله وإنّي لـو الله لأستحي من الحق إذا عرفته أن لا أرجـع إليه والحقَّ حبيب الله وإنّي على أتمّ استعـداد لنشر مـا يرد عليَّ من النقد على صفحات جـريدتي العمـران على شرط أن يكـون خاليـاً مما اعتـاده بعضهم من اللغـو فقد اعتـدت أن أمرَّ على اللغـو مرّ الكرام «وإنّي أُذكّر النـاقـدين بـأنَّ الحقيقة بنت البحث » وعندي أنّه لا يطمس معالمها شيء مثل المنحزر والهزيان .

وكـان الفـراغ من طبـع هـذه العلويـة المبـاركـة في يـوم الاثنين ١٦ رجب الفـرد سنة ١٣٣٨ للهجرة الموافق إقريل (نيسان) سنة ١٩٢٠ مسيحية في مدينة مصر القاهـرة عاصمة السلطنة المصرية .

عبد المسيح الأنطاكي

الفهرست

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة